البيان الجازم.. أن التصوف لتزكية الإنسان.. نهج لازم

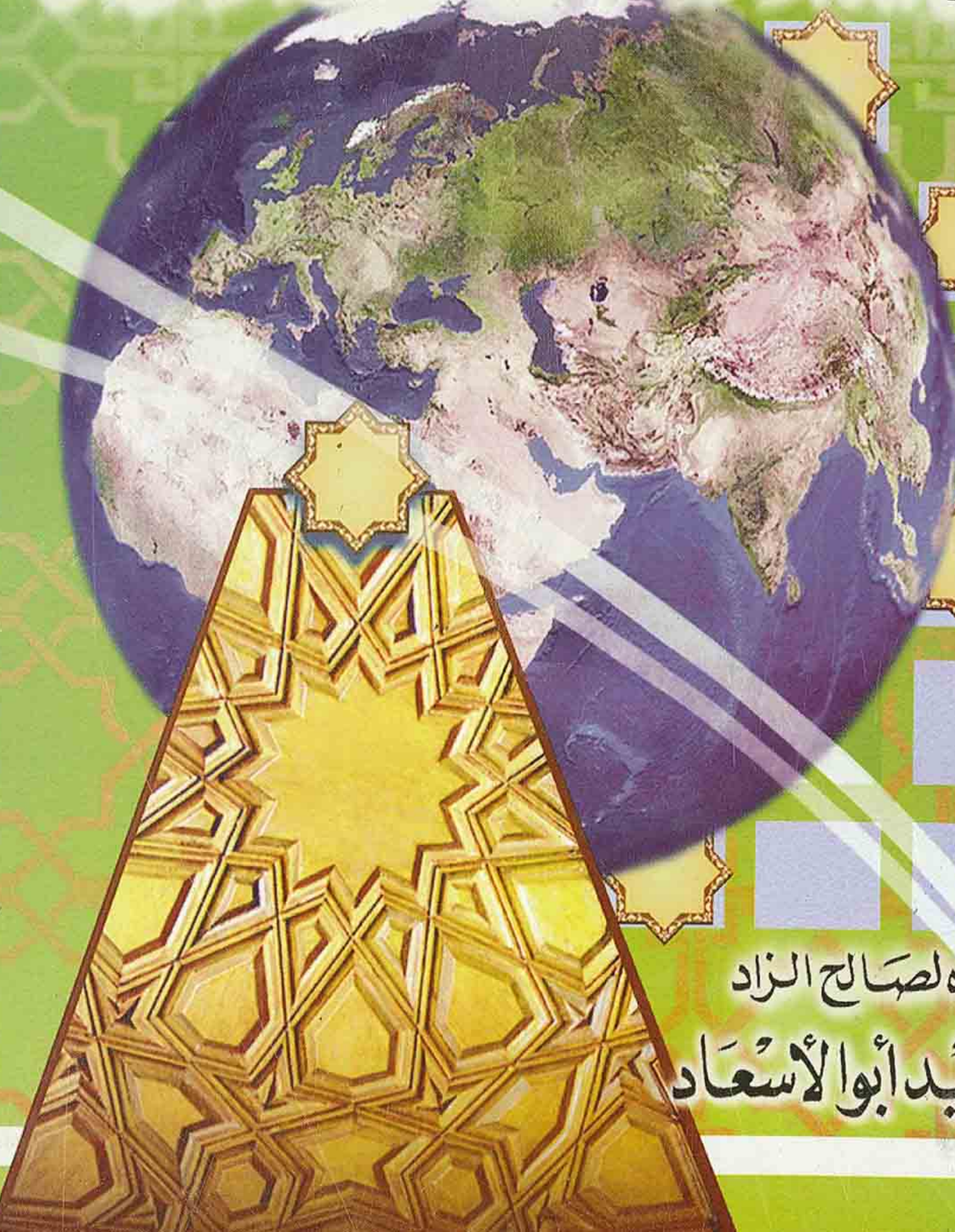

أعده لصالح الزاد

د. سعيد أبو الأسعاد

البيان الجازم .. أن التصوف
تزكية الإنسان .. نهج لازم

أعده لصالح الزّاد
د. سعيد أبو الأسعاد

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translat

[redacted]

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

٩٧٢٨
١٤/٥-٠٧

السيد / د/ سعيد أبو الإسعاد..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ــ وبعد

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : البيان الجازم أن المعشوق لتزكية الإنسان نهج الأزهر/ تأليفكم ....

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ..

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

عبد العزيز زكريا منصور

مدير عام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريرا في ٢٦ / ١ / ١٤٢٨ هـ
الموافق ١٢ / ٢ / ٢٠٠٧م

الأمين المساعد للثقافة

يعتمد
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية
إبراهيم عطا الفيومي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

استفتاح

الحَمْدُ للهِ الَّذِى اخْتَصَّ بَعْضَ أَحْبابِهِ بِمَزِيدِ عِنايَتِهِ ، فاخْتارَهُمْ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ بِحِكْمَتِهِ وجَعَلَهُم صَفْوَةَ عِبادِهِ بِقُدْرَتِهِ ، خَصَّهُمْ بِخَصائِصِ الإِحْسانِ وحَفَّهُمْ بِأَسْمَى مَراتِبِ الرِّضْوانِ ، أُولَئِكَ هُمْ رِجالُ الصُّوفِيَّة .

وَصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وخَلِيلِهِ ونَبِيِّهِ ورَسُولِهِ مُبَيِّنِ البَيانِ ، والشَّاهِدِ عَلَى كُلِّ إِنْسانٍ فِى كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، وعَلَى آلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ المُبارَكِينَ الَّذِينَ أَذْهَبَ اللهُ عَنْهُم الرِّجْسَ وطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً ، ورَضِىَ اللهُ عَنْ صَحابَتِهِ أَهْلِ المَجْدِ والثَّناءِ ، والعُلُوِّ والبَهاءِ ، والإِخْلاصِ والوَفاءِ ، وعَلَى التَّابِعينَ بِإِحْسانٍ ، وتابِعِ التَّابِعِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّين .

أَمَّا بَعْدُ ..

فَهَذا بَيانٌ كافٍ وشافٍ ووافٍ ، مُؤَيَّدٌ بِالدَّلِيلِ والبُرْهانِ ، مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ وعَمَلِ أَئِمَّةِ الهُدَى مِنَ العُلَماءِ الأَعْلامِ ، بِأَنَّ التَّصَوُّفَ الحَقَّ عَلاوَةً عَلَى أَنَّهُ جَوْهَرُ ورُوحُ الإِسْلامِ ، وأَنَّهُ آلِيَّةُ تَنْفِيذِ ما جاءَ فِى الكِتابِ والسُّنَّةِ مِنْ أَحْكام ، فَإِنَّهُ القادِرُ بِمَدَدِ اللهِ عَلَى إِصْلاحِ ما تَهَدَّمَ مِنْ صَرْحِ الأُمَّةِ مِنْ أُسُسٍ وأَرْكان وما دَفَعَنا إِلَى ذَلِكَ إِلَّا واجِبُ أُمَّتِنا الإِسْلامِيَّةِ عَلَيْنا ، ولاسِيَّما فِى هَذِهِ المَرْحَلَةِ الدَّقِيقَةِ والحاسِمَةِ مِنْ تارِيخِها ، رَجاءَ أَنْ تَنْهَضَ مِنْ كَبْوَتِها ، وتُحْكِمَ قَبْضَتَها عَلَى عُمُومِ مَمْلَكَةِ الإِنْسانِ بِيَدِ المَحَبَّةِ والطُّمَأْنِينَةِ والأَمان .

وقَدْ بَدَأْنا أَوَّلَ صَفَحاتِ الكِتابِ بِتَوْضِيحِ أَنَّ أَعْداءَ الإِسْلامِ الَّذِينَ حارَبُوهُ مُنْذُ ظُهُورِهِ إِلَى الآن ، هُمْ حَلَقاتٌ فِى سِلْسِلَةٍ واحِدَةٍ نَظَمَ عِقْدَها الشَّيْطانُ ، فالَّذِى أَشْعَلَ نارَ الفِتْنَةِ بَيْنَ (الصَّحابَةِ) عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ الرِّضْوانُ ، حَيْثُ

اسْتَغَلَّ فِتْنَةَ اسْتِشْهادِ الخَلِيفَةِ (عُثْمان) رضي الله عنه ، واتَّخَذَها ذَرِيعَةً لِلطَّعْنِ والتَّطاولِ عَلَى مَقامِ الصَّحابَةِ الأَعْيانِ ، هُوَ الَّذى أَجَّجَ فِتْنَةَ خَلْقِ القُرْآنِ ، والَّتى راحَ ضَحِيَّتَها العَشَراتُ مِنْ أَئِمَّةِ الهُدَى والعِرْفان .

وهُوَ كَذَلِكَ الَّذى يَهْجِمُ بِخَيْلِهِ ورَجِلِهِ مِنْ مُسْتَشْرِقِينَ وأَعْوان ، لِيُثْبِتَ زَيْفاً أَنَّ هُنالِكَ تَعارُضاً بَيْنَ آيِ القُرْآن ، وهُوَ نَفْسُهُ الَّذى يُطْلِقُ فى كُلِّ الأَحْيانِ الحَمَلاتِ المُنَظَّمَةَ لِلانْتِقاصِ مِنْ حُجِيَّةِ السُّنَّةِ بَلِ النُّكْران ، مُلَبِّساً بِأَساليبِ الخِداعِ المَنْطِقِيَّةِ عَلَى العَوامِّ أَنَّهُ يَكْفِينا الاحْتِكامُ إِلَى القُرْآن .

وهُوَ أَيْضاً الَّذى يُعْلِنُ عَلَى لِسانِ مُرَوِّجِيهِ أَنَّ تَعْظِيمَ الكَعْبَةِ بِالطَّوافِ ، وإِجْلالَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ بِالتَّقْبِيلِ والاسْتِلامِ مَعَ أَعْمالِ الوَثَنِيَّةِ مُتلازِمان .

ثُمَّ ما يَلْبَثُ بِأَسالِيبِهِ الماكِرَةِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ قَدْرِ النَّبِيِّ العَدْنان ﷺ ، سَواءٌ بِجُنُودٍ مِنْ بَنِي جِلْدَتِهِ بِالتَّصْرِيحِ والإِعْلانِ ، أَوْ بِاسْتِخْدامِ خُدَّامِهِ ومُوالِيهِ مِنْ ضِعافِ النُّفُوسِ وسِقامِ القُلُوبِ مِنَ العُلَماءِ (المُتَعالِمِينَ) المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلامِ ، بِدَعْوَى التَّحْذِيرِ مِنَ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَن .

ومِنْ غَيْرِ حَياءٍ ولا ارْعِواءٍ يَتَطاوَلُ لِيَنالَ مِنْ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الحَقِّ ، فَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى أَقانِيمَ تَوْحِيدِيَّةٍ أَشْبَهَ ما تَكُونُ بِعَقائِدِ أَهْلِ الضَّلالِ وعَبَدَةِ الأَوْثان وهُوَ هُوَ الَّذى صَنَعَ أَدْعِياءَ وأَشْباهاً لِلصُّوفِيَّةِ بِإِحْكامٍ وإِتْقان (وهُوَالمُتَخَصِّصُ فى صِناعَةِ النُّجُومِ وتَقْلِيدِهِمْ زِمامَ الأُمُورِ في كُلِّ مَكان) .

ودَأْبُهُ ودَيْدَنُهُ فى ذَلِكَ هُوَ الافْتِراءُ والاجْتِراءُ عَلَى الصُّوفِيَّةِ الحَقَّةِ بِالكَذِبِ والزُّورِ والبُهْتان ، وهَدَفُهُ وغايَتُهُ طَمْسُ هَوِيَّةِ المُسْلِمِينَ وجَرُّهُم إِلَى مَهاوِي الشَّيْطان .

وها نَحْنُ أُولاءُ بِمَدَدٍ مِنَ اللهِ القَوِيِّ المَتِينِ ، ورَسُولِهِ النُّورِ المُبِينِ ﷺ قَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ الحَقِّ بِالأَدِلَّةِ القاطِعَةِ والبَراهِينِ السَّاطِعَةِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ ،

وأَحاديثِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

وبَيَّنَّا كَذَلِكَ أَنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ صِدْقُ الحالِ والمَقالِ ، وهُوَ إِصْلاحُ الظَّاهِرِ والباطِنِ ، وهُوَ عِلْمٌ تُعْرَفُ بِهِ أَحْوالُ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ ، وتَصْفِيَةِ الأَخْلاقِ ، وتَعْمِيرِ الظَّاهِرِ لِنَيْلِ السَّعادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّة .

فَأَخْلِقْ بِهَذا العِلْمِ أَنْ يَكُونَ مَسْلَكَ كُلِّ مُؤْمِنٍ تَقِيّ ، ولِهَذا قالَ الحافِظُ السِّيُوطِيّ :

(وأَمَّا عِلْمُ القَلْبِ ومَعْرِفَةُ أَمْراضِهِ مِنَ الْحَسَدِ والعُجْبِ والرِّياءِ ونَحْوِها ، فَقالَ الغَزالى : إِنَّها فَرْضُ عَيْن)[1] ، ولِذا كانَ لِزاماً عَلَى كُلِّ إِنْسانٍ مُسْلِمٍ حَرِيصٍ عَلَى رِضْوانِ رَبِّهِ ، أَنْ يُطَهِّرَ نَفْسَهُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الأَمْراضِ ، لِيَفُوزَ بِمَغْفِرَةِ اللهِ وعَفْوِه .

ويُؤَكِّدُ هَذا المَعْنَى حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ :

(لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ فى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْر)[2] .

ومِنْ هُنا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ التَّصَوُّفِ وفائِدَتُهُ ، ويَتَجَلَّى لَنا بِوضُوحٍ أَنَّهُ رُوحُ الإِسْلامِ وقَلْبُهُ النَّابِضُ ، إِذْ لَيْسَ هَذا الدِّينُ أَعْمالاً ظاهِرِيَّةً وأُمُوراً شَكْلِيَّةً فَحَسْب لا رُوحَ فِيها ولا حَياة .

وما وَصَلَ المُسْلِمُونَ إِلَى هَذا الدَّرْكِ مِنَ الانْحِطاطِ والضَّعْفِ إِلَّا حِينَ فَقَدُوا رُوحَ الإِسْلامِ وجَوْهَرَهُ ، ولَمْ يَبْقَ فِيهِمْ إِلَّا شَبَحُهُ ومَظاهِرُه .

ومِنْ هُنا أَيْضاً كانَ حَتْماً عَلَى كُلِّ إِنْسانٍ مُسْلِمٍ يَنْشُدُ العُلا أَنْ يَكُونَ صُوفِيّاً ، إِذِ التَّصَوُّفُ والإِسْلامُ مُتَلازِمانِ لا يَنْفَكَّانِ ، كَتَلازُمِ الشَّمْسِ والضِّياءِ ، والرُّوحِ والجَسَدِ ، واللَّفْظِ والمَعْنَى .

---

(١) الأَشْباهُ والنَّظائِرُ . للمُحَدِّث (جَلال الدِّين السّيوطى) ص ٥٠٤ .

(٢) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فى صَحِيحِه .

وإذا كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، كانَ طَلَبُ التَّصَوُّفِ فَرضاً شَرْعِيَّاً ، وعَقْلِيَّاً وإِنْسانِيَّاً ، واجْتِماعِيَّاً ، حَتَّى يُوجَدَ الإِنْسانُ السَّوِيُّ الَّذِى بِهِ تَتَسامَى الحَياةُ ، وتَتَحَقَّقُ خِلافَةُ اللهِ عَلَى أَرْضِهِ ، ويَنْتَشِرُ الحُبُّ والسَّماحَةُ بَيْنَ النَّاسِ ، وتَأْخُذُ الحَضارَةُ والتَّقَدُّمِيَّةُ رُوحَهُما الإِيمانِيَّ المُحَقِّقَ لِمُرادِ اللهِ ، وهَذا غايَةُ وُجُودِ الإِنْسانِ ، ولَقَدْ وَفَّقَ اللهُ مَنْ قالَ :

(لَمَّا رَأَيْتُ نَفْسِي فى انْقِطاعٍ وإِهْمالٍ وتَأَخُّرٍ عَنْ أَحْوالِ الرِّجالِ ، وضَياعِ العُمْرِ فى القِيلِ والقالِ ، سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُوَفِّقَنِي لِأَصْدَقِ طَرِيقٍ ويُلْحِقَنِى بِأَهْلِ التَّحْقِيقِ فَنَظَمَنِي فى سِلْكِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ ، وأَلْزَمَنِي مَحَبَّةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وسائِرِ إِخْوانِهِ مِنْ صَحابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وهذا هُوَ لُبُّ الطَّرِيقِ) .

يا رَبِّ خُذْ بِيَدِى إِلَيْكَ فَإِنَّنِي * عَنِّى اتَّخَذْتُكَ فى الأُمُورِ وَكِيلاً
فارْزُقْنِيَ التَّوْفِيقَ وامْنَحْنِي الرِّضَى * واهْدِ السَّبِيلَ وكُنْ إِلَيْهِ دَلِيلاً

اللهُمَّ ما قَدَّرْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ ، فَشَرَعْتُ فِيهِ بِتَوْفِيقِكَ وتَيْسِيرِكَ فَأَتْمِمْهُ لِي ، بِأَحْسَنِ الوُجُوهِ وأَصْلَحِها وأَجْمَلِها وأَصْوَبِها عِنْدَكَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير وأَسْأَلُكَ يا رَبِّ التَّوْفِيقَ لِما نَوَيْناهُ مِنَ العَمَلِ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ ، وأَنْ تَجْعَلَ هَذا التَّوْفِيقَ حارِساً لَنا ولِذُرِّيَّاتِنا وسائِرِ المُسْلِمِينَ ، وأَنْ تَجْعَلَ هَذِهِ الأَعْمالَ ونَظائِرَها لَنا ولَهُمْ مِنْ خَيْرِ الذَّخائِرِ والزَّاد ، ساعَةَ نَلْقاكَ فى يَوْمِ المِيعاد .

د . سعيد أبو الأسعاد

مصر المحروسة

٢٧ ذو الحجة ١٤٢٧ هـ - ١٦ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٧ م

تَعَدَّدَتِ السِّهامُ ومَصْدَرُها وهَدَفُها واحِدٌ

(١) فِتْنَةُ اسْتِشْهادِ سَيِّدِنا (عُثْمانَ) رضي الله عنه ، وكَشْفُ خَباياها ومَرامِيها :

(٢) فِتْنَةُ خَلْقِ القُرْآنِ ، وبَيانُ أَنَّ ما أَطْلَقُوا فيهِ لأَلْسِنَتِهِم العَنانَ ، إِنَّما هُوَ ناتِجٌ عَنْ فَسادِ الجَنان :

(٣) القُرْآنُ لا يُعارِضُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، بَلْ يُعَضِّدُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، ويُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضاً :

(٤) بَيانُ خَطَأِ مَنْ قالَ مِنَ المَلاحِدَةِ :

أَنَّ تَعْظِيمَ الكَعْبَةِ والحَجَرِ الأَسْوَدِ مِنَ الوَثَنِيَّةِ ، وجَهْلِ مَنْ قالَ : بِعَدَمِ التَّلازُمِ بَيْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّهِ وتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وعَدَمِ كِفايَةِ الأَوَّلِ فى النَّجاة :

(٥) بَيانُ أَنَّهُ كَما لا تَصِحُّ النِّسْبَةُ إِلَى الإِسْلامِ إِلاَّ بِقَوْلِ (لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله) ، فَإِنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دائِرَةِ الإِيمانِ مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِأَنَّ (حُجِّيَّةَ كِتابِ اللهِ وحُجِّيَّةَ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ) مُتَلازِمَتان :

(٦) حَمَلاتُ التَّدْمِير بِدَعْوَى التَّنْوِير :

(٧) الزَّنادِقَةُ المُسْتَشْرِقُونَ وعُمَلاؤُهُم المَخْدُوعُون :

نَعَم .. هَدَفُها هُوَ النَّيْلُ مِنَ الإسْلامِ ، ويَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه ، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] أَجَل ، إنَّها فِتْنَةٌ ظَهَرَتْ بَوادِرُها مَعَ الإسْلامِ فى عُصُورِهِ الأُولَى ، ورُبَّما يَسْتَطِيلُ شَرَرُها إلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومَنْ عَلَيْها . فالصِّراعُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ سُنَّةٌ كَونِيَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ المُطَّرِدَةِ ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[2] ، بَيْدَ أَنَّهُ قَدْ آنَ الأَوانُ لإماطَةِ اللِّثام ، وكَشْفِ زَيْفِ الأَوْهامِ الَّتى خامَرَتِ الأَفْهامَ ، فَصَدَّتْ عَنِ الحَقِّ ، وأَوْقَعَتْ فى شِراكِ شِباكِها كَثْرةً مِنْ عُلَماءِ الفِتْنَةِ (فاتِنِينَ و مَفْتُونِينَ) فَضْلاً عَنِ العَوامِّ .

و لْنَتَذاكَرْ سَوِيّاً مُتَدَبِّرِينَ ، ولْنَنْظُرْ بِعَيْنِ العَقْلِ وهُدَى القَلْبِ واعِينَ مُتَفَكِّرِينَ ولْنَسْتَعْرِضْ تِلْكَ الفِتَنَ والمِحَنَ الَّتى وُجِّهَتْ وَصُوِّبَتْ شَطْرَ المُسْلِمِينَ ، طَوالَ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْناً مُنْصَرِماً مِنَ السِّنِينَ ، لِنُدْرِكَ مَعاً أَنَّ الكَيْدَ فى حَقِيقَتِهِ واحِدٌ ، وإِنْ بَدا مُتَنَكِّراً بِأَقْنِعَةٍ عَدِيدَةٍ ، وأَنَّ أَداةَ الفِتْنَةِ مادَّتُها واحِدَةٌ ، وإنِ اتَّخَذَتْ أَشْكالاً مُبْتَدَعَةً وأَسالِيبَ جَدِيدَةً ، ولْنَسْتَرْجِعْ سَوِيّاً أَبْرَزَهَذِهِ المَظاهِرِ فِيما خَلا مِنْ قُرونِ الإسْلامِ السَّالِفَةِ المَدِيدَةِ . وما مُنِينا بِهِ فى أَيَّامِنا الحاضِرَةِ العَتِيدة :

(١) فِتْنَةُ اسْتِشْهادِ سَيِّدِنا (عُثْمانَ) رضي الله عنه ، وكَشْفُ خَباياها ومَرامِيها :

كُلُّنا يَعْلَمُ أَنَّ ابْتِداءَ الفِتْنَةِ[3] كانَ بِظُهُورِ (عَبْدِاللهِ بن سَبَأ) ، فى البَصْرَةِ، هُناكَ ، حَيْثُ بَلَغَ (ابْنَ عامِرٍ)والِيَ البَصْرَة :

---

(١) سُورَةُ التَّوْبة من الآية ٣٢ .   (٢) سُورَةُ الأَنْعَام آية ١٢٣ .

(٣) أَوْرَدْنا هُنا قِصَّةَ الفِتْنَةِ عَلَى وجْهِ الإجْمال . ومَنْ أَرادَ التَّوسُّعَ فَلْيَرْجِعْ إلى مَصادرنا : تاريخ الطَّبَرى (الجُزْء الثَّانى) والكَامِلَ لـ(ابن الأثير) الجُزء الثَّالث ، وتاريخ الخُلَفاء لـ(الإمامَ السُّيُوطى) ج١

أَنَّ رَجُلاً نَزَلَ عَلَى (حَكِيمِ بنِ جَبْلَةَ العَبْدِي) ولَهُ آراءٌ غيرُمقبُولةٍ ، فطَلَبَهُ (ابْنُ عامِرٍ) فَسَأَلَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، رَغِبْتُ فى الإِسْلامِ وفى جِوارِكَ ، فَقالَ ما يَبْلُغُنِى ذَلِكَ ، اخْرُجْ عَنِّى .

فَأُخْرِجَ مِنْها ، فَأَتَى الحِجازَ والشَّامَ ، فَأُخْرِجَ مِنْهُما ، فَأَتَى مِصْرَ ، فَعَشَّشَ فِيها ثُمَّ باضَ وفَرَّخَ وكانَ دَيْدَنُهُ إِثارَةَ الفِتْنَةِ .

ذَلِكُم هُوَ (عَبْدُاللهِ بنُ سَبَأ) أَو (ابْنُ السَّوْداء) وهِىَ أُمُّهُ ؟؟؟ كانَ يَهُودِيّاً ذا نَشْأَةٍ مَشْبُوهَةٍ ، ثُمَّ أَظْهَرَ إِسْلامَهُ وأَبْطَنَ ضَمِيراً خَبِيثاً ، فَكانَتْ لَهُ مَذاهِبُ باطِلَةٌ وآراءٌ فاسِدَةٌ ، مِنْها (عَلَى سَبِيلِ المِثال) أَنَّهُ كانَ يقُولُ :

إِنَّ عُثْمانَ قَدِ اغْتَصَبَ الخِلافَةَ مِنْ عَلِيٍّ ، فالواجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَقُومُوا لإِعادَةِ الحَقِّ إِلَى أَهْلِهِ .

وتَبِعَ مَذْهَبَهُ هَذا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الأَهْواءِ الَّذينَ لَهُم قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ، فَقالَ لَهُم : انْهَضُوا فى هَذا الأَمْرِ ، فَإِنَّ (عُثْمانَ) أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ .

وصادَفَتْ هَذِهِ القالَةُ أُذُناً غَيْرَ واعِيَةٍ ، وتَبَنَّاها أُناسٌ مُنْكِرونَ ، وما زالُوا يُذِيعُونَها فى كُلِّ مَلأٍ حَتَّى فَشا الطَّعْنُ عَلَى سَيِّدِنا (عُثْمانَ) ﷺ ووُلاتِه .

وبَلَغَتْ هَذِهِ الأَخْبارُ أَهْلَ المَدِينَةِ ، فَسَأَلُوا سَيِّدَنا (عُثْمانَ) ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقالَ : ما جاءَنِي عَنْ وُلاتِي إِلَّا السَّلامَةُ ، وأَنْتُمْ شُرَكائِي وشُهودُ المُؤْمِنِينَ ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ ، فَأَشاروا عَلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ رِجالاً إِلى الأَمْصارِ لِلتَّحَقُّقِ مِنْ هَذهِ الأَخْبارِ ، فَأَرْسَلَ ﷺ ساداتِنا : (مُحَمَّداً بنَ مَسْلَمَةَ) ﷺ إِلَى الكُوفَةِ ، و(أُسامَةَ بنَ زَيْدٍ) ﷺ إِلَى البَصْرَةِ ، و (عَبْدَالله بنَ عُمَرَ) ﷺ إِلَى الشَّامِ ، و (عَمَّارَ بنَ ياسِرٍ) ﷺ إِلَى مِصْرَ .

فَرَجَعَ القَوْمُ كُلُّهُمْ سِوَى (عَمَّارٍ) ، وقالُوا : ما عَلِمْنا عَنْ أُمَرائِكَ إِلَّا خَيْراً

واسْتَبْطَأُوا سَيِّدَنا (عَمَّارَ بنَ ياسِر) ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّهُ اسْتَمالَتْهُ جماعَةٌ مِنَ السَّبَئِيَّةِ (أَتْباعِ عَبْدِاللهِ بنِ سَبَأ) بَعْدَ أَنْ مَلأُوهُ كَلاماً فى حَقِّ أُمَراءِ سَيِّدِنا (عُثْمانَ) رضي الله عنه ومَنَعُوهُ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى المَدِينَةِ ، فَكَتَبَ (عَبْدُ اللهِ بنُ سَعْدٍ بنِ أَبِي السَّرْح) والِي مِصْرَ إِلَى سَيِّدِنا (عُثْمانَ) رضي الله عنه بِالخَبَر .

فَأَرْسَلَ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) رضي الله عنه إِلَى سائِرِ الأَمْصار :

إِنِّى آخِذٌ عُمَّالي بِمُوافاتِي كُلَّ مَوْسِم ، وقَدْ رَفَعَ إِلَيَّ أَهْلُ المَدِينَةِ أَنَّ أَقْواماً يُشْتَمُونَ ويُضْرَبُونَ ، فَمَنِ ادَّعَى شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَلْيُوافِ المَوْسِمَ ، يَأْخُذُ حَقَّهُ حَيْثُ كانَ مِنِّى أَوْ مِنْ عُمَّالي أَوْ تَصَدَّقُوا ، فَإِنَّ اللهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِين .

وبَعَثَ رضي الله عنه إِلَى عُمَّالِهِ أَنْ يُوافُوا المَوْسِمَ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ وهُمْ :

(عَبْدُاللهِ بنُ عامِرٍ) أَمِيرُ البَصْرَة ، و(عَبْدُ اللهِ بنُ سَعْد) أَمِيرُ مِصْرَ ، و(مُعاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيانَ) أَمِيرُ الشَّام ، فَجَمَعَهُم وأَدْخَلَ مَعَهُم (عَمْرُو بنَ العاصِ السَّهْمِى وسَعِيدَ بنَ العاصِ الأُمَوِي) ، وقالَ لَهُم : (وَيْحَكُمْ ، ما هَذِهِ الشِّكايَةُ والإِذاعَةُ ؟ ، إِنِّي واللهِ لَخائِفٌ أَنْ تَكُونوا مَصْدُوقاً عَلَيْكُمْ ، وما يُعْصَبُ هَذا إِلَّا بِي) .

فَقالُوا لَهُ : أَلَمْ تَبْعَثْ ؟ ، أَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ الخَبَرُ عَنِ العَوامّ ؟ ، أَلَمْ يَرْجِعْ رُسُلُكَ ؟ ، أَلَمْ يُشافِهْهُم أَحَدٌ بِشَيْءٍ ؟ واللهِ ما صَدَقُوا ولا بَرُّوا ، ولا نَعْلَمُ لِهَذا الأَمْرِ أَصْلاً ، ولا يَحِلُّ الأَخْذُ بِهَذِهِ الإِشاعَة .

فاسْتَشارَهُمْ رضي الله عنه فى تَسْكِينِ هَذِهِ الفِتْنَة .

فَقالَ (عَبْدُاللهِ بنُ عامِر) : أَرَى أَنْ تَشْغَلَهُمْ بِالجِهادِ ، وقالَ (ابْنُ سَعْدٍ) : اسْتَصْلِحْهُم بِالمالِ ، وقالَ (مُعاوِيَة) : اجْعَلْ كِفايَتَهُمْ إِلَى أُمَرائِهِمْ ، وأَنا أَكْفِيكَ الشَّام .

وقال (عمْرو بنُ العاص) : أرَى أنَّكَ قَدْ لِنْتَ لَهُم ، ورَضِيتَ عَلَيْهِم ، وزِدْتَهُمْ عَلَى ما كانَ يَصْنَعُ أَمِيرُ المُؤْمِنينَ (عُمَرُ) رضي الله عنه ، فَأرَى أَنْ تَلْزَمَ طَرِيقَ صاحِبِكَ ، فَتَشِدَّ مَوْضِعَ الشِّدَّةِ ، وتَلِينَ مَوْضِعَ اللِّين .

وقالَ (سَعيدُ) : مَتى تُهْلِكْ قادَتَهُمْ يَتَفَرَّقُوا .

فَقالَ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) رضي الله عنه : قَدْ سَمِعْتُ كُلَّ مَا أَشَرْتُمْ بِهِ ، ولِكُلِّ أَمْرٍ بابٌ يُؤْتَى مِنْهُ ، إنَّ هَذا الأَمْرَ الَّذى يُخافُ عَلَى هَذهِ الأُمَّةِ كائِنٌ ، و إِنَّ بابَهُ الَّذي يُغْلَقُ إِلَيْهِ لَيُفْتَحَنَّ ، فَنُكَفْكِفَهُ بِاللِّينِ والمُواتاةِ إِلَّا فى حُدودِ اللهِ ، فَإِنْ فُتِحَ فَلا يَكُونَنَّ لأَحَدٍ عَلَىَّ حُجَّةٌ ، وقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنِّي لَمْ آلُ النَّاسَ خَيْراً ، وإِنَّ رَحَى الفِتْنَةِ لَدائِرَةٌ ، فَطُوبَى لِعُثْمانَ إِنْ ماتَ ولَمْ يُحَرِّكْها ، سَكِّنُوا النَّاسَ ، وهَبُوا لَهُمْ حُقُوقَهُم ، واغْتَفِرُوا لَهُم ، فَإِذا تُعُوطِيَتْ حُقُوقُ اللهِ فَلا تُدْهِنُوا .

ثُمَّ نَفَرَ رضي الله عنه ونَفَرَ الأُمَراءُ إِلَى بِلادِهِمْ ، وصَحِبَهُ (مُعاوِيَةُ) لأَنَّ طَرِيقَهُ عَلَى المَدينَةِ ، وعَرَضَ عَلَى سَيِّدِنا (عُثْمانَ) الخُروجَ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ ، فَلَمْ يَقْبَلْ رضي الله عنه ذَلِكَ محَبَّةً لِجوارِ (رَسُولِ اللهِ) صلى الله عليه وسلم .

أَمَّا أَهْلُ الأَمْصارِ المُنحَرِفُونَ عَنْ سَيِّدِنا (عُثْمانَ) رضي الله عنه ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدعُوا عَنْ غَيِّهِمْ ، وجاءَتْهُمْ كُتُبٌ مِنَ المُنْحَرِفِينَ بالمَدينَةِ يَقُولُونَ لَهُمْ : اقْدِمُوا عَلَيْنا فَإِنَّ الجِهادَ عِنْدَنا ، فاتَّعَدَ جمِيعُهُمْ شَهْرَ (شَوَّال) يَخْرُجُونَ فيهِ مُظْهِرِينَ الحَجَّ .

فَخَرَجَ المِصْرِيُّونَ فى خَمْسِمائَةٍ عَلَيْهِم الغافِقِيُّ بنُ حَرْبٍ وخَرَجَ أَهْلُ الكُوفَةِ فى عَدَدِ أَهْلِ مِصْرَ ، وكَذَلِكَ أَهْلُ البَصْرَةِ .

ولَمَّا كانُوا عَلَى ثَلاثِ لَيالٍ مِنَ المَدينَةِ ، نَزَلَ أَهْلُ البَصْرَةِ ذا خُشُب (مَوْضِعٌ هُناكَ) وَنَزَلَ أَهْلُ الكُوفَةِ (الأَعْوَص) ، ونَزَلَ مَعَهُم جماعَةٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ، ونَزَلَ عامَّتُهُم بـ (ذى المَرْو) .

كانَتْ أَهْواؤُهُم مُخْتَلِفةً فِيمَنْ يَلِي الخِلافَةَ بَعْدَ سَيِّدِنا (عُثْمانَ) رضي الله عنه ، فالكُوفِيُّونَ يُرِيدونَ سَيِّدَنا (طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ الله) ، والبَصْرِيُّونَ يُرِيدونَ سَيِّدَنا (الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّام) ، والمِصْرِيُّونَ يُرِيدون سَيِّدَنا (علِيَّ بنَ أَبِى طالِب) رَضِىَ اللهُ عَنِ الثَّلاثَة .

فاجْتَمَعَ وَفْدٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ، وذَهَبُوا إِلَى مَنْ هَواهُمْ فيهِ ، فَأَتَى أَهْلُ مِصْرَ سَيِّدَنا (علِيًّا) رضي الله عنه ، وعَرَضُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُمْ فَصاحَ بِهِمْ وطَرَدَهُمْ ، وقالَ : (لَقَدْ عَلِمَ الصَّالِحُونَ أَنَّكُم مَلْعُونُونَ عَلَى لِسانِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فارْجِعُوا لا صَحِبَكُمُ اللهُ) ، وكَذَلِكَ قالَ سَيِّدُنا (طَلْحَةُ) و(الزُّبَيْرُ) لِمَنْ جاءَهُمْ ، فانْصَرَفَ الجَمِيعُ مُظْهِرِينَ الرُّجُوعَ إِلَى بِلادِهِم .

ثُمَّ ما لَبِثَ هَؤُلاءِ الأَشْرارُ والَّذينَ عُرِفُوا بِالثُّوَّارِ أَنْ مَنَعُوا النَّاسَ مِنْ مخُالَطَةِ سَيِّدِنا (عُثْمانَ) ومُكالَمَتِه ، ولَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا القَلِيلُ مِنْ أَصْحابِ (رَسُولِ اللهِ) صلى الله عليه وسلم .

دَخَلَ عَلَيْهِ سَيِّدُنا (عَبْدُاللهِ بنُ عُمَرَ) ، فَقالَ لَهُ سَيِّدُنا عُثْمانُ : انْظُرْ ما يَقُولُ هَؤُلاءِ ، يَقُولُونَ : اخْلَعْ نَفْسَكَ أَوْ نَقْتُلُكَ .

قالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ : أَمُخَلَّدٌ أَنْتَ فى الدُّنْيا ؟ قالَ لا ، قالَ : هَلْ يَزِيدُونَ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : هَلْ يَمْلِكُونَ لَكَ جَنَّةً أَو ناراً ؟ قالَ : لا ، قالَ : فَلا تَخْلَعْ قَمِيصَ اللهِ عَنْكَ ، فَتَكُونَ سُنَّةً ، كُلَّما كَرِهَ قَوْمٌ خَلِيفَتَهُم خَلَعُوهُ أَو قَتَلُوه .

وكانَ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) رضي الله عنه يَكْرَهُ الفِتْنَةَ ، ويَتَّقِي في اللهِ سَفْكَ دِماءِ المُسْلِمينَ وقَدْ رَوَى (عَبْدُاللهِ بنُ عامِرِ بنِ رَبِيعَةَ) قالَ :

كُنْتُ مَعَ (عُثْمانَ) فى الدَّارِ ، فَقالَ : (أَعْزِمُ عَلَى كُلِّ مَنْ رَأَى أَنَّ لِي عَلَيْهِ سَمْعاً وطاعَةً إِلَّا كَفَّ يَدَهُ وسِلاحَهُ ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْداً فَأَنا

صابِرٌ عَلَيْهِ ، ولَمْ يَحْرِقُوا البابَ إِلَّا وَهُمْ يُرِيدُونَ أَعْظَمَ مِنْهُ) .

وجاءَهُ سَيِّدُنا (زَيْدُ بنُ ثابت) رضي الله عنه فَقالَ لَهُ :

إِنَّ هَؤُلاءِ الأَنْصارَ بِالبابِ يَقُولُونَ : إِنْ شِئْتَ كُنَّا أَنْصارَ اللهِ مَرَّتَيْن .

قالَ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) رضي الله عنه : لا حاجَةَ لِي فى ذَلِكَ ، كُفُّوا .

وقالَ لَهُ سَيِّدُنا (أَبو هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه : اليَوْمَ طابَ الضَّرْبُ مَعَكَ ، فَقالَ لَهُ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) : عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَتَخْرُجَنَّ .

وكانَ سَيِّدُنا (الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ) رضي الله عنه عِنْدَهُ فَقالَ لَهُ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) رضي الله عنه : إِنَّ أَباكَ الآنَ لَفِي أَمْرٍ عَظِيمٍ ، فَأَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا خَرَجْتَ ، فَكانَ آخِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ .

وكانَ كُلٌّ مِنْ ساداتِنا (عَبْدِاللهِ بنِ الزُّبَيْر وعَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ والحَسَنِ والحُسَيْن) قَدْ جاؤوا سَيِّدَنا (عُثْمانَ) رضي الله عنه ، فَعَزَمَ عَلَيْهِم فى وَضْعِ أَسْلِحَتِهِم وخُرُوجِهِم ولُزُومِ بُيُوتِهِم .

ثُمَّ تَسَوَّرَ بَعْضُ الثُّوَّارِ دارَ (بَنِي حَزْمٍ) المُجاوِرَةَ لِدارِ سَيِّدِنا (عُثْمانَ) ، ودَخَلُوا عَلَيْهِ وهُوَ رضي الله عنه جالِسٌ وقَدْ وَضَعَ المُصْحَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَقْرَأُ فيهِ وهُوَ صائِمٌ ، (وذَلِكَ أَنَّهُ رَأى مِنَ اللَّيْلِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ : أَفْطِرْ عِنْدَنا اللَّيْلَة) .

ولَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلاَّ امْرَأَتُهُ (نائِلَةُ بِنْتُ الفَرافِصَة) ، فَأَهْوَى عَلَيْهِ أَحَدُهُمْ بِالسَّيْف ، واتَّقاهُ بِيَدِهِ فَقَطَعَها ، فَقالَ لَهُ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) رضي الله عنه أَما واللهِ إِنَّها لأَوَّلُ كَفٍّ خَطَّتِ المُفَصَّلَ (أى القُرْآن) ، فَقَتَلُوهُ وخَرَجُوا هارِبِينَ مِنْ حَيْثُ دَخَلُوا ، وصَرَخَتْ امْرَأَتُهُ ، فَلَمْ يُسْمَعْ صُراخُها مِنَ الجَلَبَةِ (١) ، فَصَعَدَتْ إِلَى النَّاسِ فَقالَتْ : إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قُتِلَ .

---

(١) الضوضاء .

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَيِّدُنا (الحَسَنُ) وسَيِّدُنا (الحُسَيْنُ) ومَنْ كانَ مَعَهُما ، فَوَجَدُوا سَيِّدَنا (عُثْمانَ) مَذْبُوحاً ، فانْكَبُّوا عَلَيْهِ يَبْكُونَ ، ودَخَلَ النَّاسُ فَوَجَدُوا سَيِّدَنا (عُثْمانَ) ﷺ مَقْتُولاً ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ساداتِنا (عَلِيّاً وطَلْحَةَ والزُّبَيْرَ وسَعْداً) ومَنْ كانَ بِالمَدِينَةِ ، فانْتابَهُم الذُّهُولُ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى سَيِّدِنا (عُثْمانَ) فَوَجَدوهُ مَقْتُولاً فاسْتَرْجَعُوا(١) وقَالَ سَيِّدُنا (عَلِيٌّ) لابْنَيْهِ :

كَيْفَ قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ وأَنْتُما عَلَى البابِ ؟ وخَرَجَ ﷺ غَضْبانَ أَسِفاً وهُوَ يَقُولُ : رَحِمَ اللهُ عُثْمانَ ، وخَلَفَ عَلَيْنا بِالخَيْرِ ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ ، وجاءَهُ النَّاسُ كُلُّهُم لِيُبايِعُوهُ ، فَقالَ لَهُمْ : لَيْسَ هَذا إِلَيْكُمْ إِنمَّا هُوَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَمَنْ رَضِىَ بِهِ أَهْلُ بَدْرٍ فَهُوَ الخَلِيفَةُ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ إِلَّا قالَ : ما نَرَى أَحَقَّ لَها مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَى سَيِّدُنا (عَلِيٌّ) ذَلِكَ ، جاءَ المَسْجِدَ ، فَبايَعَهُ النَّاسُ .

وهَكَذا ، مَضَى سَيِّدُنا (عُثْمانُ) شَهِيداً ، والصَّحابَةُ أَجْمَعُونَ بُرآءُ مِنْ دَمِهِ ، إِذْ إِنَّهُم نَزَلُوا عَلَى إِرادَتِهِ وسَلَّمُوا لَهُ رَأْيَهُ فى تَسْلِيمِ نَفْسِه .

ومُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ ، بَدَأَ المُرْجِفُونَ والكائِدونَ بِمُجاهَرَةِ الإِسْلامِ بِالعَداءِ ، وما فَتِئُوا يُشْحِنُونَ أَتْباعَهُم حَنَقاً وبُغْضاً ، حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ ظَهرانِيهِم مَنْ رَفَعَ رايَةَ (قَمِيصِ عُثْمانَ) مُطالِباً الأَخْذَ بِدَمِهِ ، وسَعَوا مُسارِعِينَ بِبَثِّ رُوحِ الضَّغِينَةِ بيْنَ الصَّحابَةِ وتَأْلِيبِ بَعْضِهِم عَلَى بَعْضٍ ، والتَّشْكِيكِ في أَهْلِيَّتِهِم وكَفاءَتِهِم .

وما أَظُنُّ أَنَّ مُؤْمِناً عاقِلاً يَشُكُّ فى أَنَّ هَدَفَهُم لَمْ يَكُنْ سِوَى الطَّعْنِ فى الإِسْلامِ ، لِأَنَّ الصَّحابَةَ هُمْ نَقَلَةُ الدِّينِ إِلَيْنا ، فَإِذَا جُرِحَ النَّقَلَةُ الكِرامُ ، دُخِلَ فى الأَحادِيثِ والآيِ ، الأَمْرُ المَخُوفُ الَّذى بِهِ ذَهابُ الأَنامِ إِذْ لا وَحْيَ بَعْدَ

---

(١) أى قالوا : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُون .

رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقَدْ قالَ (عَزَّ وجَلَّ) فى كِتابِهِ الكَريمِ : ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[1] وعَدالَةُ المُبَلِّغِ شَرْطٌ فى صِحَّةِ التَّبْليغِ ، ولَقَدْ شَهِدَ لَهُم ﷺ بِقَوْلِهِ (عُلَماءُ حُكَماءُ فُقَهاءُ كادوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَن يَكُونُوا أَنْبياء)[2] وقَوْلِهِ ﷺ : (أَصْحابِى كالنُّجُومِ بِأَيِّهِم اقْتَدَيْتُم اهْتَدَيْتُم)[3] وما مِنْ نَجْمٍ إِلَّا ولَهُ نُورٌ وضِياءٌ ، جَعَلَنا اللهُ مِمَّنْ يُبَجِّلُهُم ويَسْتَنِيرُ بِنُورِهِم .

إِنَّ أُولَئِكَ الَّذينَ يُباعِدونَ بَيْنَ المُسْلِمينَ وَبَيْنَ أَصْحابِ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ وآلِ بَيْتِهِ وأَوْلِيائِهِ وعِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ مِنَ الهُداةِ المَهْدِيِّينَ ، لَيُرِيدُونَ قَطْعَ الصِّلَةِ بَيْنَ المُسْلِمينَ وبَيْنَ مَناراتِ الدِّينِ ومَنابِعِ الهُدَى مِنْ أَوْلياءَ وعُلَماءَ ، قاصِدينَ بِذَلِكَ تَشْويهَ الصُّوَرِ المُثْلَى والنَّماذِجِ العُلْيا مِنْ أَتْباعِ هَذا الدِّينِ الحَنيفِ والدَّاعِينَ إِلَى سَبيلِهِ ، بَلْ لا نَعْدوا الحَقَّ إِنْ قُلْنا :

إِنَّ مِثْلَ هَذا الصَّنيعِ الآثِمِ يُباعِدُ بَيْنَ المُسْلِمينَ وبَيْنَ أُسْوَتِهِم العُظْمَى سَيِّدِنا (مُحَمَّدٍ) ﷺ ، وتِلْكَ هِيَ غايَتُهُم الخَسِيسَةُ ، وَقانا اللهُ غَوائِلَ الفِتَنِ .

إِنَّنا في مَقامِنا هَذا ، نُؤَكِّدُ أَنَّ الشَّيْطانَ الَّذى يُحَرِّكُ أَصابِعَ الفِتْنَةِ لِتَنالَ مِنَ الصَّحْبِ الأَخْيارِ ، هُوَ هُوَ الشَّيْطانُ الَّذى يُريدُ قَطْعَ حَبائِلَ مَوَدَّةِ أَهْلِ البَيْتِ ، والتَّهْوينَ مِنْ شَأْنِهِم الأَعْظَمِ الَّذى قالَ اللهُ فِيه :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾[4]

و﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[5]

نَعَم .. تِلْكَ هِيَ أَسْبابُ السَّعادَةِ ، ومَنافِذُ الرَّحْمَةِ الَّتي ما فَتِئَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِم زَيْغٌ يُحاوِلُونَ طَمْسَها وسَدَّها عَنْ جُمُوعِ الأُمَّةِ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم

---

(١) سُورَةُ الأَنعام مِنْ آية ١٩.

(٢) أَخرجَهُ (أَبو نُعَيْم) فى الحلْيَة ، و (البَيْهَقى) فِى الزُّهْدِ ، و (الخَطِيبُ) فى التَّاريخ مِنْ حَديثِ (سُوَيْد بن الحارث) ﷺ.

(٣) أَخْرَجَهُ البَيهَقى .

(٤) سُورَةُ الأَحْزاب ، مِنَ آيَة ٣٣ .

(٥) سُورَةُ الشُّورَى ، مِنَ الآيَة ٢٣ .

مُحِيطٌ ﴾(١)

(٢) فِتْنَةُ خَلْقِ القُرْآنِ ، وبَيانُ أَنَّ ما أَطْلَقُوا فيهِ لِأَلْسِنَتِهِم العَنانَ ، إِنَّما هُوَ ناتِجٌ عَنْ فَسادِ الجَنان :

وقَدْ تبَنَّتْ طائِفَةُ (المُعْتَزِلَةِ) هَذهِ المَسْأَلة ، الَّتى أَحْدَثَتْ مَعارِكَ حامِيةً ودامِيَةً عَلَى الصَّعِيدَيْنِ الاجْتِماعِى والسِّياسِى بَيْنَ المُسْلِمينَ ، والأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُم جَعَلُوها مِعْياراً لِكَوْنِ مُعْتَنِقُها مُسْلِماً ، ومَنْ رَفَضَها فَقَدْ خَرَجَ مِنْ رِبْقَةِ الإِسْلامِ ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ سَيْطَرَتِهِم عَلَى أَفْرادِ الحُكْمِ وإِخْضاعِهِم لِمَذْهَبِهِم .

ومَذْهَبُ (المُعْتَزِلَة) هُوَ إِخْضاعُ النُّصُوصِ الدِّينيَّةِ لِلتَّأْوِيلِ العَقْلِي بما يُوافِقُ مَقُولَتَهُم (التَّوْحِيدِيَّة) ، أَي : الإِصْرارُ عَلَى فَهْمِ التَّوْحِيدِ فَهْماً عَقْلِيّاً يُحاكِمُ النُّصُوصَ الدِّينِيَّةَ فى ضَوْءِ العَقْل .

ومِنْ هَذا المُنْطَلَقِ الأَعْرَجِ قالوا : إِنَّ القَوْلَ بِقِدَمِ القُرْآنِ وأَزَلِيَّتِهِ لايُنافِي مَبْدَأَ التَّوْحِيدِ وحَسْب ، بَلْ يُنافِي كَذَلِكَ عَقْلانِيَّةَ التَّشْرِيعِ القُرْآنِي ، واحْتَجُّوا لِذَلِكَ بِحُجَجٍ قِوامُها الجَهْلُ والمُغالَطَةُ ، فَقالُوا مَثَلاً :

إِذا افْتَرَضْنا القُرْآنَ كَلاماً أَزَلِيّاً ، أَى صِفَةً لِلذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ الأَزَلِيَّةِ ، كانَ مَعْنَى هَذا : أَنَّ الأَوامِرَ الَّتى يَشْتَمِلُ عَلَيْها القُرْآنُ أَزَلِيَّةٌ ، أَى صادِرَةٌ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ المَأْمُورونَ بِها أَى أَنَّها كانَتْ غَيْرَ ذاتِ مَوْضُوعٍ قَبْلَ وُجُودِ البَشَرِ المُكَلَّفِينَ بِها ، فَإِنَّ البَشَرَ هُمْ مَوْضُوعُ هَذهِ الأَوامِرِ ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يُوَجِّه اللهُ أَوامِرَهُ إِلَى المَعْدومِ ؟! ، إِنَ ذَلِكَ مِنَ العَبَثِ الَّذى لا يَجُوزُ عَلَى اللهِ ، بَلْ مِنْ مُحال .

وقَالوا أَيْضاً : إِنَّ الكَلامَ لِكَي أَنْ يَتَحَقَّقَ شَرْطُ وُجُودِهِ ، يَحْتاجُ إِلَى مُكَلِّمٍ ، ومُكَلَّمٍ ، وقَبْلَ وجُودِ المُكَلَّفِينَ لَيْسَ هُناكَ سِوَى مُكَلِّمٍ مِنْ غَيْرِمُكَلَّمٍ ، وبِذَلِكَ

---

(١) سُورَةُ البرُوجِ آية ٢٠ .

يَكُونُ القَوْلُ بِأَزَلِيَّةِ القُرْآنِ نَفْياً لِعَقْلانِيَّةِ التَّشْرِيعِ ، وهُوَ باطِل .

مِنْ هُنا . كانَتْ مُجابَهَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ لِلْمُعْتَزِلَةِ فى مَسْأَلَةِ الصِّفاتِ ، ومِنْهامَسْأَلَةُ خَلْقِ القُرْآنِ ، مُجابَهَةً صارِمَةً تَمْنَعُ حَتَّى الجَدَلَ والمُناظَرَةَ فى مَسائِلِ الدِّينِ ، بَلْ تُوجِبُ الإِيمانَ بِما جاءَ فى القُرْآنِ وحَدِيثِ النَّبِىِّ ﷺ كَما جاءَ ، والوقُوفَ عِنْدَ هَذا الحَدِّ .[1]

وكانَ الإِمامُ (أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل) آنَئِذٍ المُمْتَحَنَ الأَبْرَزَ فى تِلْكَ المِحْنَةِ ، حَيْثُ كانَ يَقُولُ : إِنَّ القُرْآنَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ .

وقَدْ شَرَحَ رَأْيَهُ هَذا بِتَفْصِيلٍ فى رِسالَةٍ كَتَبَها بِعُنْوان :

(الرَّدُّ عَلَى الزَّنادِقَةِ والجَهْمِيَّةِ فِيما شَكُّوا فيهِ مِنْ مُتَشابِهِ القُرْآنِ وتَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِه) .

وهُوَ فى هَذِهِ الرِّسالَةِ يَرُدُّ عَلَى مااسْتَنَدَ إِلَيْهِ الجَهْمِيَّةُ والمُعتَزِلَةُ مِنَ اسْتِشْهادٍ بالآيَةِ الكَرِيمَةِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[2] حَيْثُ قالُوا : إِنَّ (الجَعْلَ) هُوَ الخَلْقُ ، وهَذا نَصٌّ بِأَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ .

ويَرُدُّ الإِمامُ (أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلَ) قائِلاً : بِأَنَّ كَلِمَةَ (جَعْل) وَرَدَتَ فى القُرْآن بِمَعْنَيَيْن : بِمَعْنَى (خَلْق) ، وبِمَعْنَى (فِعْل) فَمِنْ أَمْثِلَةِ المَعْنَى الأَوَّلِ فى القُرْآن :﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[3] أَى خَلَقَ الظُّلُماتِ والنُّور .

ومِنْ أَمْثِلَةِ المَعْنَى الثَّانى ، ما جاءَ فى القُرْآنِ عَلَى صُورَةِ خِطابٍ مِنَ اللهِ إِلَى إِبْراهِيمَ الخَليل : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[4] ، وكَلِمَةُ (جاعِلُكَ) ، هُنا لا تَعْنِى (خالِقُكَ إِماماً) ، لِأَنَّ سَيِّدَنا (إِبْراهِيمَ) عليه السلام مَخْلُوقٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِماماً ، وإِنَّما (الجَعْلُ) فى هَذِهِ الآيَةِ بِمَعْنَى الفِعْل .

---

(١) أحمد أمِين (ضُحَى الإسْلام) ج ٢ ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) سُورَةُ الزُّخْرُف مِنَ الآيَة ٣ .
(٣) سُورَةُ الأَنْعام مِنَ الآية ١ .
(٤) سُورَةُ البَقَرَة من الآية ١٢٤ .

وبهذا المعنى نفسه نفسر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ . فالقرآنُ إذَنْ ، فعلٌ من أفعال اللهِ تعالَى .

ويُتابعُ (ابنُ حنبلَ) رادًّا على استدلال (الجهميَّة) بالآية :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ ﴾ (١) ، وقولِهم : إنَّ (عيسى) مخلوقٌ ، فـ(كلمتُه) إذَنْ مخلوقة .

فيقولُ : إنَّ الألفاظَ التَّى تُقالُ عنْ (عِيسَى) فى القُرْآنِ لا تُقالُ عَنِ القُرْآنِ نَفْسِهِ بالمعْنَى نَفْسِه .

فمِنَ الألْفاظِ التَّى قالَها القُرْآنُ عَنْ (عِيسَى) مَثَلاً :

(كَهْلاً) ، و (صَبِيًّا) ، و (غُلاماً) .

فهَلْ يَصِحُّ أَنْ نُطلِقَ هَذهِ الألْفاظَ ذاتَها عَلَى القُرْآنِ كَذَلِكَ ؟ (لايَحِلُّ لَنا أَنْ نَقُولَ فى القُرْآنِ ما نَقُولُ عَنْ عِيسَى) .

وإذا كانَ (عِيسَى) عليه السلام قَدْ وُجدَ بكَلِمَةِ :(كُنْ) ، فهَلْ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ عَنْ (عِيسَى) أَنَّهُ كَلِمَةُ (كُنْ) نَفْسُها ؟ فكَلِمَةُ (كُنْ) هَذهِ قَوْلٌ فقط ، وهَذا القَوْلُ غَيْرُ مَخْلُوق .

وبهَذا كانَ دِفاعُ الإمام (أَحْمَد بن حَنْبل) عَنِ القُرْآنِ عَظيماً ، وأَنَّهُ سَدَّ ثَلْمَةً عَظيمَةً كادَتْ تَحْدُثُ فى الإسْلامِ ، وشَبَّهُوا يَوْمَ المِحْنَةِ بيَوْمِ الرِّدَّةِ ، وقرَنُوا ذِكْرَ (أَحْمَد بنِ حَنْبل) بذِكْرِ سَيِّدِنا (أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيق) رضي الله عنه ، وكَفَى بِهِ عَظَمَةً .

قالَ عَلِيٌّ بنُ المَدينى (أَحَدُ أَئِمَّةِ الحَديثِ فى عَصْرِهِ) ومِنْ شُيُوخِ البُخاري (إِنَّ اللهَ أَعَزَّ هَذا الدِّينَ بِأَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَوْمَ الرِّدَّة ، وبِأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلَ

---

(١) سُورَة النِّساء مِنَ الآية ١٧١ .

يَوْمَ المِحَنْة)[1].

هَذا جانِبٌ يَسيرٌ مِنَ الرُّدُودِ الوافِرَةِ الَّتى دَحَضَ بِها (ابْنُ حَنْبَل) وغَيْرُهُ مِنَ العُلَماءِ الأَبْرارِ مَزاعِمَ أُولَئِكَ السَّائِرينَ فى مَواكِبِ الفِتَنِ ، ولَعَلَّ ما صاغَهُ الإمامُ البُوصِيرى (وهُوَ مِنْ عُلَماءِ التَّصَوُّف) شِعْراً فى هَذهِ المَسْأَلَةِ ، يُلَخِّصُ وَجْهَ الصَّوابِ فِيها ، ويُمِيطُ اللِّثامَ عَنْ وَجْهِ الحَقِّ فِيها بِلُغَةٍ عِلْمِيَّةٍ رَصِينَةٍ ، وأُسْلوبٍ بَيانِىٍّ مُشْرِقٍ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُ الصَّادِقِ ﷺ :

(إِنَّ مِنَ الشِّعرِ حِكْمَة)[2].

يَقُولُ الإمامُ البُوصيرى فى (بُرْدَتِهِ) الشَّهيرَة :

آياتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثَةٌ[3] * قَديمَةٌ صِفَةُ المَوْصُوفِ بِالقِدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمانٍ وَهْىَ تُخْبِرُنا * عَنِ المَعادِ وعَنْ عادٍ وعَنْ إِرَمِ
دامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ * مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْجاءَتْ ولَمْ تَدُمِ
مُحْكَماتٌ فَما تُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ * لِذى شِقاقٍ وما تَبْغِينَ مِنْ حَكَمِ
ما حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عادَ مِنْ حَرَبٍ * أَعْدَى الأَعادِي إِلَيْها مُلْقِىَ السَّلَمِ
رَدَّتْ بَلاغَتُها دَعْوَى مُعارِضِها * رَدَّ الغَيُورِ يَدَ الجانِي عَنِ الحُرَمِ
لَها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ فى مَدَدٍ * وفَوْقَ جَوْهَرِهِ فى الحُسْنِ والقِيَمِ
فَماتُعَدُّ ولا تُحْصَى عَجائِبُها * ولا تُسامُ عَلَى الإِكْثارِ بِالسَّأَمِ
قَرَّتْ بِها عَيْنُ قارِيها فَقُلْتُ لَهُ * لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللهِ فاعْتَصِمِ

ومِنَ المُناسِبِ هُنا تَتِمَّةً لِلْفائِدَةِ أَنْ نَذْكُرَ ما قالَهُ العالِمُ الأَزْهَرى الشَّيْخُ (صالِحُ الجَعْفَرِي) حَيْثُ يَقُولُ رضي الله عنه :

---

(١) تَرْجَمَةُ الإمامِ (أَحْمَدَ بن حَنْبَل) مِنْ تاريخ الإسْلامِ للحافِظِ الذَّهَبِي .
(٢) أَخْرَجَهُ (البُخارىُّ) فى صَحِيحِهِ ، (والتِّرْمِذِى) فى سُنَنِهِ ، و(أبُو داود) فى سُنَنِهِ بزيادَةِ : إِنَّ مِنَ البَيانِ سِحْراً ، وإِنَّ مِنَ الشِّعْر حِكْمَةً .
(٣) حَدِيثَةُ النُّزُولِ عَلى سَيِّدِنا (مُحَمَّدٍ) ﷺ .

القُرْآنُ كَلامُ اللهِ تَعالَى لَيْسَ مَخْلُوقاً ، جِيءَ بِهِ فى هَذهِ الكَلِماتِ ، لِيُؤَدِّىَ الأَمْرَ والنَّهْيَ ، فَكَما أَنَّ الرُّوحَ حَقِيقَتُها غَيْرُ مَعْلُومَةٍ لأَحَدٍ سِوَى اللهِ ، كَذَلِكَ كَلامُ اللهِ لَيْسَ مَخْلُوقاً ، فَصَّلَهُ اللهُ وبَيَّنَهُ ، وجَعَلَهُ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين .

وكَما أَنَّ الرُّوحَ إذا كانَتْ فى الجَسَدِ عَقَلْنا آثارَها ، وإذاخَرَجَتْ عَنِ الجَسَدِ فَقامَتْ بِنَفْسِها لا نَعْلَمُ عَنْها شَيْئاً ، كَذَلِكَ القُرْآنُ العَظِيمُ إذا كانَ فى المُصْحَفِ أَو تَلَوْناهُ أَو سَمِعْناهُ عَلِمْنا مِنْهُ المُرادَ ، و إذا كانَ قائِماً بِذاتِ اللهِ تَعالَى لا نَسْمَعُ مِنْهُ شَيْئاً ، وكانَ مُنَزَّهاً عَنِ الحَرْفِ والصَّوْتِ .

ولَمَّا أَسْمَعَهُ (سُبْحانَهُ) جِبْرِيلَ كانَ كَذَلِكَ سَمْعُهُ سَماعاً يَلِيقُ بِجَلالِ الله .

قالَ الشَّيْخُ (الدَّرْدِير) رضي الله عنه :

ثُمَّ الكَلامُ لَيْسَ بِالحُروفِ * ولَيْسَ بِالتَّرْتِيبِ كالمَأْلُوفِ

وقالَ (اللَّقَّاني) رضي الله عنه :

ونَزِّهِ القُرْآنَ أَي كَلامَهُ .. عَنِ الحُدوثِ واحْذَرِ انْتِقامَهُ

وفى بَدْءِ الأَمالي :

وما القُرْآنُ مَخْلُوقٌ تَعالَى * كَلامُ الرَّبِّ عَنْ جِنْسِ المَقالِ

ولَمَّا قَرَأَ شَيْخُنا الشَّيْخُ (مُحَمَّد إبْراهِيم السَّمالُوطِى) رَحِمَهُ اللهُ - تَفْسِيرَ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾(١)، قالَ : مُحْدَثٌ إنْزالُهُ لا هُوَ.(٢) أ هـ .

وبَعْدُ ، فَإِنَّ مُرادَنا ها هُنا أَنْ نَقِفَ حِيالَ هَذِه المِحْنَةِ وَقْفَةَ تَحْقِيقٍ وتَدْقِيقٍ ، لَعَلَّنا نُدْرِكُ الهَدَفَ الخَفِيَّ وَراءَها ، فَنَعلَمُ المُسْتَفِيدَ مِنْ إثارَتِها وإِضْرامِ نارِها ، وما أَظُنُّ أَنَّ مُؤْمِناً غَيُوراً عَلَى دِينِهِ يَسْعدُ بِما خَلَّفَتْهُ هَذِهِ المِحْنَةُ مِنْ

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٢ .
(٢) فَتْحٌ وفَيْضٌ وفَضْلٌ مِنَ الله (صالحُ الجَعْفري) .

فُرْقَةٍ وتَناحُرٍ بَيْنَ صُفوُفِ المُسْلِمين .

قَدْ يَقُولُ البُسَطاءُ الدَّهْماءُ مِنَ العوامِّ : وماذا يُضِيرُ إنْ قُلْنا بِخَلْقِ القُرْآن ؟ أَوَ لَيْسَ اللهُ خالِقَ كُلِّ شَيْء ؟

بَلَى ، ولَكِنَّ الأَمْرَ أَخْطَرُ وأَعْمَقُ مِنْ هَذا ، ولِلْقَضِيَّةِ ذُيُولٌ وأَهْدافٌ بَعِيدَةٌ فى مُخَطَّطِ مَنْ أَثارُوها ، يَرْقُبُها المُخَطِّطُونَ الكائِدونَ بِمَكْرٍ وخُبْثٍ ، ولَوْ بَعْدَ سِنِينَ مَدِيدَة .

فَهُمْ يَحْسَبُونَ (وبِئْسَ ما يَحْسَبُونَ) أَنَّهُم لَوِ انْتَزَعُوا شَهادَةً مِنَ العُلَماءِ المُعْتَدِّ بِهِم مِنْ أَمْثالِ (أَحْمَد بنِ حَنْبَل) بِأَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، لأَتَى أَذْنابُهُم بَعْدَ مِائَةٍ أَو مائَتَيْنِ أَو ثَلاثِمائَةِ عامٍ ، لِيَقُولُوا (وَمعَهُم الحُجَّةُ) :

إِنَّ سُنَّةَ اللهِ فى الخَلْقِ قَدْ دَرَجَتْ أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ يُصِيبُهُ الضَّعْفُ والهَرَمُ ، وعَلَيْهِ فَإِنَّ القُرْآنَ لا يَصْلُحُ مِنْهاجَ حَياةٍ لِعُصُورِنا هَذِه .

تِلْكَ هِىَ القَضِيَّةُ فَهَلْ مِنْ مُعْتَبِرٍ ؟!

وذَلِكَ هُوَ كَيْدُ الشَّيْطانِ ، وكَيْدُ الشَّيْطانِ أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَنالَ المُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يَعْلَمُونَ عَدُوَّهُمْ ، فَيَأْخُذُونَ حِذْرَهُم ، ويُوَحِّدونَ ضِدَّهُ صُفُوفَهُم .

(٣) القُرْآنُ لا يُعارِضُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، بَلْ يُعَضِّدُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، ويُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضاً :

ولَقَدْ شاءَ (اللهُ) تَعالَى أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ لُغَةَ القُرْآن ، لُغَةَ دُسْتُورِ الدِّينِ الخاتَمِ لِرِسالاتِ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ، قالَ تَعالَى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[1].

فَلُغَةُ العَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغاتِ وأَبْيَنُها وأَوْسَعُها وأَكْثَرُها تَأْدِيَةً لِلْمَعانِي الَّتى تَقُومُ

---

(١) سُورَةُ يُوسُف آية ٢ .

بِالنُّفُوسِ ، وهَذا ما شَهِدَ بِهِ أَرْبابُ البَيانِ واللِّسانِ عَلَى اخْتِلافِ لُغاتِهِم[١].

ولِهَذا أَنْـزَلَ (اللهُ) تَـعالَى أَشْـرَفَ (الـكُـتُـبِ) بِأَشْـرَفِ (اللُّغاتِ) عَلَى أَشْرَفِ (الرُّسُلِ) بِسفارَةِ أَشْرَفِ (المَلائِكَةِ) فى أَشْرَفِ (بِقاعِ الأَرْضِ) وابْتَدَأَ النُّزُولُ فى أَشْرَفِ الشُّهورِ وهُوَ (رَمَضان) فَحازَ الكَمالَ بِأَطْرافِه ، ونالَ الشَّرَفَ بِحَذافِيرِه .

ولا يُماري عالِمٌ بِاللُّغَةِ بِأَنَّ العَرَبِيَّةَ غَنِيَّةٌ بِالأَساليبِ المُخْتَلِفَةِ ، ولَها بَلاغَتُها الفَرِيدَةُ ، إِذْ تُؤَدِّى بِأَلْفاظٍ مَعْدودَةٍ جُمْلَةً مِنَ المَعانِي الواسِعَةِ الغَزِيرَةِ ، وتَتَفَنَّنُ فى النَّظْمِ والتَّعْبِيرِ لِتُفيدَ مَزِيداً مِنَ الدَّلالاتِ البَدِيعَة .

ولَكِنَّ الجَهَلَةَ المُغْرِضِينَ قَدْ يَضِيقُونَ ذَرْعاً بِسِماتِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ النَّاصِعَةِ ، فَيَجْتَهِدونَ فى تَزْيِيفِها وتَحْرِيفِها ، ويُسَخِّرونَ لِذَلِكَ المالَ والإِعْلامَ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٢] وقَدْ وافَتْنا إِحْدَى القَنَواتِ الفَضائِيَّةِ المَشْبُوهَةِ بِأَحَدِ أُولئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، لِيَزْعُمَ فى جَهْلٍ عَرِيضٍ أَنَّ فى القُرْآنِ لَحْناً ، مُسْتَشْهِداً بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾[٣] قائِلاً : إِنَّ كَلِمَةَ (البِرّ) الَّتى جاءَتْ مَنْصُوبَةً هُنا لَدَلِيلٌ عَلَى خَطَإٍ لُغَوِيٍّ قُرْآنِيٍّ ، ثُمَّ يَسْتَطْرِدُ مُمْعِناً فى جَهالَتِهِ فَيَقُولُ : ولَو جِئْنا بِتِلْمِيذٍ فى المَرْحَلَةِ الإِبْتِدائِيَّةِ وسَأَلْناهُ عَنِ الاسْمِ الَّذي يَأْتِي بَعْدَ لَيْسَ . لَقالَ لَنا بِأَنَّهُ مَرْفُوعٌ ، لأَنَّ (لَيْسَ) مِنْ أَخَواتِ (كانَ) الَّتى تَرْفَعُ المُبْتَدَأَ وتَنْصُبُ الخَبرَ .

ولَكِنَّنى لا أَظُنُّ أَنَّ تِلْميذاً فى المَرْحَلَةِ الإِبْتِدائِيَّةِ ولاسِيَّما فى زَمانِنا هَذا ، قَدْ يَعْي التَّقْدِيمَ والتَّأْخِيرَ بَيْنَ اسْمِ كانَ وخَبَرِها ، فَتِلْكَ مَعْلُومَةٌ مُتَقَدِّمَةٌ قَلِيلاً وأَراهُ لَوْ سَأَلَ تِلْمِيذاً نابِهاً فى المَرْحَلَةِ الإِعْدادِيَّة لَرَدَّهُ خاسِىءَ الظَّنِّ كَسِيفَ

(١) انْظُرْ تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِير (تَفْسِير سُورَةِ يُوسُف) .
(٢) سُورَةُ الأَنْفال مِنَ الآيَة ٣٦ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ١٧٧ .

البالِ ، أَوَلا يَعْلَمُ ذَلِكَ الجاهِلُ المُتَعالِمُ أَنَّهُ يَكْثُرُ فى كَلامِ العَرَبِ تَقْدِيمُ الخَبَرِ عَلَى الاسْمِ فى بابِ (كانَ وأَخواتُها) وذَلِكَ إذا كانَ أَحَدُ مَعْمُولَي هَذا البابِ مُرَكَّباً مِنْ (أَن المَصْدَرِيَّة وفِعْلِها) ؟ أَوَلا يَعْلَمُ أَنَّ المُتَكَلِّمَ حِينَها بِالخِيارِ بَيْنَ تَقْدِيمِ الخَبَرِ وبَيْنَ تَأْخِيرِهِ ، بِحَسَبِ ما يُرِيدُ الاهْتِمامَ بِهِ وإِبْرازَ شَأْنِهِ ؟ فَكَلِمَةُ (البِرِّ) مَنْصُوبَةٌ لِكَوْنِها خَبَرَ لَيْسَ المُقَدَّم ، وهَذا عَلَى قِراءَةِ حَفْصٍ وحَمْزَة ، والباقِى مِنْ جُمْهُورِ القُرَّاءِ عَلَى الرَّفْعِ ، والقِراءَتانِ مُتَواتِرَتانِ صَحِيحَتان ، قَرَأَ بِهِما (رَسُولُ اللهِ) ﷺ، ولِكُلٍّ مِنْهُما ما يُبَرِّرُ مَعْناهُ فى أَسْبابِ النُّزُولِ لِمَنْ أَرادَ أَن يَسْتَزِيدَ ، فَسُبْحانَ مَنْ وَصَفَ كِتابَهُ قائِلاً وهُوَ أَصْدَقُ القائِلِينَ :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [1] وخَسِرَ هُنالِكَ المُبْطِلُون .

يَقُولُ الإمامُ الشَّافِعِيُّ : (ولِسانُ العَرَبِ أَوْسَعُ الأَلْسُنِ مَذْهَباً وأَكْثَرُها أَلفاظاً ، لا يُحِيطُ بِجَمِيعِ عِلْمِهِ فِيما نَعْلَمُهُ إِنْسانٌ غَيْرُ نَبِيٍّ) [2].

(٤) بَيانُ خَطَأِ مِنْ قالَ مِنَ المَلاحِدَةِ :

أَنَّ تَعْظِيمَ الكَعْبَةِ والحَجَرِ الأَسْوَدِ مِنَ الوَثَنِيَّةِ ، وجَهْلِ مَنْ قالَ : بِعَدَمِ التَّلازُمِ بَيْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وعَدَمِ كِفايَةِ الأَوَّلِ فى النَّجاة :

لا يَرْتابُ مُؤْمِنٌ صَحِيحُ الإيمانِ فى أَنَّ تَعْظِيمَ البَيْتِ بِالطَّوافِ حَوْلَهُ ، وتَعْظِيمَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ بِاسْتِلامِهِ وتَقْبِيلِهِ والسُّجُودِ عَلَيْهِ ، لَيْسَ عِبادةً شَرْعاً لِلْبَيْتِ ولا لِلْحَجَرِ ، وإِنَّما هُوَ عِبادَةٌ لِلآمِرِ بِذَلِكَ (عَزَّ وجَلَّ) الَّذى اعْتَقَدَ الطَّائِفُ رُبُوبِيَّتَهُ سُبْحانَهُ ، فَلَيْسَ كُلُّ تَعْظِيمٍ لِلشَّيْءِ عِبادَةً لَهُ شَرْعاً ، حَتَّى يَكُونَ شِرْكاً بَلْ مِنْهُ ما يَكُونُ واجِباً إِذا كانَ مَأْمُوراً بِهِ أَو مُرَغَّباً فيهِ :

---

(١) سُورَةُ فُصِّلَت مِنَ آية ٤١ ، ٤٢ .

(٢) الرِّسالة لـ(الإمام الشَّافِعي) .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]

ولا يَكُونُ التَّعْظِيمُ لِشَيْءٍ شِرْكاً حَتَّى يُقارِنَهُ اعْتِقادُ رُبُوبِيَّةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ أَو اعْتِقادُ خَصِيصَةٍ مِنْ خَصائِصِهِ لَهُ ، فَكُلُّ مَنْ عَظَّمَ شَيْئاً فَلا يُعْتَبَرُ فى الشَّرْعِ عابِداً لَهُ إِلَّا إِذا اعْتَقَدَ فيهِ ذَلِكَ الاعْتِقاد .

وقَدِ اسْتَقَرَّ فى عُقُولِ بَنِي آدَمَ ما دامُوا عَلَى سَلامَةِ الفِطْرَةِ أَنَّ مَنْ ثَبَتَتْ لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ فَهُوَ لِلْعِبادَةِ مُسْتَحِقٌّ ، ومَنِ انْتَفَتْ عَنْهُ الرُّبُوبِيَّةُ فَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْعِبادَة .

فَثُبوتُ الرُّبُوبِيَّةِ واسْتِحقاقُ العِبادَةِ مُتَلازِمانِ فِيما شَرَعَ اللهُ فى شَرائِعِهِ وفِيما وَضَعَ فى عُقُولِ النَّاسِ .

وعَلَى أَساسِ اعْتِقادِ الشِّرْكَةِ فى الرُّبُوبِيَّةِ بَنَى المُشْرِكُونَ اسْتِحْقاقَ العِبادَةِ ، لِمَنِ اعْتَقَدوهُم أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ تَعالَى سُبْحانَهُ ، ومَتَى انْهَدَمَ هَذا الأَساسُ مِنْ نُفُوسِهِم تَبِعَهُ ما بُنِيَ عَلَيْهِ مِنَ اسْتِحقاقٍ لِلْعِبادَةِ ، ولا يُسَلِّمُ المُشْرِكُ بِانْفِرادِ اللهِ تَعالَى بِاسْتِحقاقِ العِبادَةِ حَتَّى يَسْلَمَ اعْتِقادُهُ بِانْفِرادِهِ عَزَّ وجَلَّ بِالرُّبُوبِيَّةِ ومادامَ في نَفْسِهِ اعْتِقادُ الرُّبُوبِيَّةِ لِغَيْرِهِ عَزَّ وجَلَّ ، اسْتَتْبَعَ ذَلِكَ اعْتِقادُهُ فى هَذا الغَيْرِ اسْتِحْقاقَ العِبادَة .

ولِذَلِكَ كانَ مِنَ الواضِحِ عِنْدَ أُولِى الأَلْبابِ ، أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وتَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ مُتَلازِمانِ لايَنْفَكُّ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ فى الوجُودِ وفي الاعْتِقادِ ، فَمَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ لارَبَّ إِلَّا اللهُ كانَ مُعْتَرِفاً بِأَنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ غَيْرُهُ ، كانَ مُذْعِناً بِأَنَّهُ لا رَبَّ سِواهُ ، وهَذا الثَّانِي هُوَ مَعْنَى (لا إِلَهَ إِلَّا الله) فى قُلُوبِ جَمِيعِ المُسْلِمين .

ولِذَلِكَ نَرَى (القُرْآنَ) فى كَثيرٍ مِنَ المَواضِعِ يَكْتَفِي بِأَحَدِهِما عَنِ الآخَرِ

---

(١) سُورَةُ الحَجِّ آية ٣٢ .

ويُرَتِّبُ اللَّوازِمَ المُستَحِيلَةَ عَلَى انْتِفاءِ أَيِّ واحِدٍ مِنْهُما ، لِيَسْتَدِلَّ بانْتِفائِهِما عَلَى ثُبُوتِهِ ، فانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تعالَى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١) وقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(٢) حَيْثُ عَبَّرَ بِالإِلَهِ ولَمْ يُعَبِّرْ بالرَّبِّ .

وفى آيَةِ المِيثاقِ الأَوَّلِ ، اكْتَفَى سُبْحانَهُ بِذِكْرِ الرُّبُوبِيَّةِ فَقالَ : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(٣) ولَمْ يَقُلْ (بِإِلَـهِكُم) اسْتِغْناءً بِذِكْرِ الرُّبُوبِيَّةِ عَنْ ذِكْرِ الأُلُوهِيَّةِ لِتَلازُمِهِما ، وفى مَوْضِعٍ آخَرَ يُذَكِّرُ النَّاسَ بِهَذا المِيثاقِ والعَهْدِ الأَزَلِيِّ ، فَيَسْتَغْنِي بِذِكْرِ العِبادَةِ الَّتِي هِيَ مَعْنَى تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ عَنْ ذِكْرِ الرُّبُوبِيَّةِ (لِتَلازُمِهِما كَذَلِكَ) فَيَقُولُ : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ ﴾(٤) مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأَمْرَيْنِ وَجْهانِ لِحَقِيقَةٍ واحِدَةٍ هِيَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيد .

واسْتَفاضَ عَنْ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ أَنَّ المَلَكَيْنِ يَقُولانِ لِلْمَيِّتِ فى قَبْرِهِ (مَنْ رَبُّكَ) ؟(٥) ويَكْتَفِيانِ بِالسُّؤالِ عَنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، فَيَكُونُ جَوابُهُ : (رَبِّيَ اللَّهُ) كافِياً ، ولا يَقُولانِ لَهُ : إِنَّما اعْتَرَفْتَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، ولَيْسَ تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ كافِياً فى الإِيمان .

وهَذا خَلِيلُ اللهِ (إِبْراهِيمُ) عَلَيْهِ السَّلام يَقُولُ لِذَلِكَ الجَبَّار :

﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾(٦) فَيُجادِلُهُ بِأَنَّهُ كَذَلِكَ يُحْيِي ويُمِيتُ ، إِلَى أَنْ حاجَّهُ (خَلِيلُ اللهِ) بِما يُكَذِّبُ دَعْوَى رُبُوبِيَّتِهِ ، فَتَنْدَحِضُ دَعْوَى اسْتِحْقاقِهِ لِلْعِبادَة .

وفِيما حَكَى (اللهُ) عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قالَ مَرَّةً :﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(١) سُورَةُ الأَنْبِياءِ مِنَ الآيَة ٢٢ .
(٢) سورَةُ المُؤْمِنُونَ مِنَ الآيَة ٩١ .
(٣) سُورَةُ الأَعْراف مِنَ الآيَة ١٧٢ .
(٤) سُورَةُ يس الآيَة ٦٠، ٦١ .
(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فى صَحِيحِهِ ، وغَيْرُهُ مِنْ أَصْحابِ السُّنَن .
(٦) سُورَةُ البَقَرة مِنَ الآيَة ٢٥٨ .

غَيْرِى ﴾[1]، ومَرَّةً أُخْرَى : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[2].

وبالْجُمْلَةِ فَقَدْ أَوْمَأَ القُرْآنُ العَظِيمُ والسُّنَّةُ المُسْتَفِيضَةُ إِلَى أَنَّ تلازُمَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ مِمَّا قَرَّرَهُ رَبُّ العالَمِينَ ، واكْتَفَى سُبْحانَهُ مِنْ عَبْدِهِ بِأَحَدِهِما عَنْ صاحِبِهِ لِوجُودِ هَذا التَّلازُمِ ، وقَدْ فَهِمَ النَّاسُ هَذا التَّلازُمَ حَتَّى الفَراعِنَةُ الكافِرونَ ، فَما الَّذي يَفْتَرِيهِ أُولَئِكَ المُبْتَدِعَةُ الْخَرَّاصُونَ ، فَيَرْمُونَ المُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ قائِلُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ تَوْحِيدِ العِبادَةِ ، وأَنَّهُم لا يَكْفِيهِم ذَلِكَ لإِخْراجِهِم مِنَ الكُفْرِ وإِدْخالِهِمْ فى الإِسْلامِ حَتَّى تُحْقَنَ دِماؤُهُم ، بَلْ نَراهُم يَسْتَبِيحُونَ ذَبْحَ المُسْلِمِ المُسالِمِ لَهُم ، وهُوَ يَقُولُ (لا إِلَهَ إِلاَّ الله) ، ويَقُولُونَ فيهِ إِنَّهُ ما اعْتَرَفَ بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ ، وإِنَّما يَعْنِي تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وهُوَ غَيْرُ كافٍ ، فَلا يَقْبَلُونَ ما دَلَّ عَلَيْهِ صَرِيحُ كَلامِهِ ، ويَرْفُضُونَ الاكْتِفاءَ بِما اكْتَفَى بِهِ اللهُ مِنْ عَبْدِهِ يَوْمَ المِيثاقِ الأَوَّلِ ، وبِما ارْتَضَتْهُ مَلائِكَتُهُ حِينَ تَسْأَلُ العَبْدَ فى قَبْرِهِ مِنْ إِقْرارِهِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، إِذْ كانَ مُسْتَلْزِماً لِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ ، وكانَ التَّصْرِيحُ بِما يُفِيدُ أَحَدُهُما تَصْرِيحاً بِما يَدُلُّ عَلَى الآخَرِ . فالنَّاطِقُ بـ(لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) مُعْتَرِفٌ بِكِلا التَّوْحِيدَيْنِ جَمِيعاً ، وأَلْفِتُ نَظَرَكَ مَعِي أَيُّها القارِيءُ المُتَدَبِّرُ إِلَى قَوْلِهِ تعالَى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾[3]، وهِيَ فى مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالَى ، ولَمْ يَقُلْ (إِلَهُنا) ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ وَصِيَّةٍ جامِعَةٍ فَأَجابَهُ : (قُلْ : رَبِّىَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِم)[4] ، ولَمْ يَقُلْ (إِلَهِي) اكْتِفاءً بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فى النَّجاةِ والفَوْزِ لِتَلازُمِهِ الفِطْرِي مَعَ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ ، وهَذهِ شَهادَةٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ .

---

(١) سُورَةُ القَصَص مِنَ الآيَة ٣٨ . (٢) سُورَةُ النَّازِعات مِنَ الآيَة ٢٤ .

(٣) سُورَةُ فُصِّلَت من الآية ٣٠ ، وسورة الأَحْقاف من الآيَة ١٣ .

(٤) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذى) وقالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، و(ابْنُ ماجه) ، و(ابْنُ حِبّان) فى صَحِيحِهِ ، و(الحاكِمُ) وصَحَّحَهُ .

وتَذَكَّرْ مَعِي قَوْلَ اللهِ تعالَى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1]، وقَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله) .

وتَدَبَّرْ مَقُولَتَهُ ﷺ لـ(أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ) حِينَ قَتَلَ مَنْ قالَ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)[2] إِذْ أَهْوَى إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ ، ظَنَّهُ قالَها مُتَعَوِّذاً . والقَرائِنُ قَوِيَّةٌ عَلَى هَذا الظَّنِّ كَما يُعْلَمُ مِنْ تَفْصِيلِ القِصَّة : (يا أُسامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَما قالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَما قالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ؟ قالَ أُسامَةُ : فَما زالَ يُكَرِّرُها عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْم)[3] وفى رِوايَةٍ : (فَهَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِه ؟)[4]، أَي لِتَعْلَمَ حَقِيقَةَ نِيَّتِهِ وما انْطَوَتْ عَنْهُ سَرِيرَتُه .

ولَمْ يَعْتَذِر (أُسامَةُ) بِأَنَّهُ إِنَّما عَنِىَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وهُوَ غَيْرُ كافٍ في الدُّخُولِ فى الإِسْلامِ وحَقْنِ الدَّمِ بِهِ ولَمْ يَعْنِ تَوْحِيدَ العِبادَةِ .

ولَعَلَّ فى ذَلِكَ كُلِّهِ وغَيْرِهِ مِمَّا لَمْ نَذْكُرْهُ أَبْيَنَ البَيانِ ، بِأَنَّ الْقَوْلَ بِأَحَدِ التَّوْحِيدَيْنِ قَوْلٌ بِالآخَرِ لِزاماً .

ولَمْ تَقِفْ هَذِهِ الفِرْيَةُ فى دِينِ اللهِ عِنْدَ هَذا الحَدِّ ، بَلِ اتَّخَذَها المُبْتَدِعَةُ بِأَباطِيلِهِم هَذِهِ مَطِيَّةً إِلَى ضَلالَةٍ كُبْرَى فَشَرَّكُوا وفَسَّقُوا عامَّةَ المُسْلِمِينَ مِمَّنْ تَوَسَّلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وسائِرِ الصَّالِحِينَ واسْتَغاثَ بِهِم ، رَغْمَ اسْتِقْرارِ القَلْبِ ورُسُوخِ الاعْتِقادِ بِأَنَّهُم أَسْبابٌ لا اسْتِقْلالَ لَهُمْ بِنَفْعٍ ولا ضُرٍّ ، ولَيْسَ لَهُمْ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَىْءٌ ، ولَكِنَّ اللهَ جَعَلَهُمْ مَفاتِيحَ لِفَضْلِهِ ومَنابِعَ لِبِرِّهِ ، وسُحُباً يُمْطِرُ بِها عَلَى عِبادِهِ أَنْواعَ خَيْرِهِ ، فَظَنَّ أُولَـئِكَ الجاهِلُونَ أَنَّ ذَلِكَ وما إِلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ المُخْرِجِ عَنِ المِلَّة .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ١٦٣ . (٢) أَخْرَجَهُ البُخارِى ومُسْلِم .

(٣) أَخْرَجَهُ البُخارِى ومُسْلِم . وفى روايةٍ عِنْدَ (ابْنِ سَعْدٍ) فى الطَّبقات : فقالَ : ويْحَكَ يا أُسامَةُ ، فكيفَ لَكَ بلا إِلهَ إِلَّا الله ؟! قالَ أسامَةُ فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُها عَلَيَّ حَتَّى لَوَدِدْتُ أَنِّى انْسَلَخْتُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ عَمِلْتُهُ واسْتَقْبَلْتُ الإِسْلامَ يَوْمَئِذٍ جَدِيداً .

(٤) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) وغَيْرُهُ مِنْ أَصْحابِ السُّنَن .

إِنَّ مَنْ رافَقَهُ التَّوْفِيقُ وفارَقَهُ الخُذْلانُ ، ونَظَرَ في المَسْأَلَةِ نَظَرَ الباحِثِ الأَمِينِ لَيَعْلَمُ يَقيناً أَنَّ مُسَمَّى العِبادَةِ شَرْعاً لا يَدْخُلُ فيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّوَسُّلِ والاسْتِغاثَةِ وغَيْرِهِما بَلْ لا يَشْتَبِهُ بِالعِبادَةِ أَصْلاً .

فَإِنَّ كُلَّ ما يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ لا يَكُونُ مِنَ العِبادَةِ إِلَّا إِذا اقْتَرَنَ بِهِ اعْتِقادُ الرُّبُوبِيَّةِ لِذَلِكَ المُعَظَّمِ أَو اعْتِقادُ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِها الخاصَّةِ فيه .

أَلا تَرَى الجُنْدِيَّ يَقُومُ بَيْنَ يَدَي رَئِيسِهِ ساعةً وساعاتٍ احْتِراماً لَهُ وتَأَدُّباً مَعَهُ ويَقُومُ المُصَلِّى بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ فى صَلاةٍ بِضْعَ دَقائِقَ قَدْرَ ما يَقْرَأُ الفاتِحَةَ ، فَيَكُونُ هَذا القِيامُ عِبادَةً شَرْعاً ، وسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ هَذا القِيامَ وإِنْ قَلَّتْ مُدَّتُهُ مُقْتَرِنٌ بِاعْتِقادِ القائِمِ رُبُوبِيَّةَ مَنْ قامَ لَهُ ، أَمَّا الأَوَّلُ فَلا يُقارِنُ قِيامَهُ مِثْلُ هَذا الاعْتِقاد ، ويَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ عَوارَهُمْ ويَكْشِفَ انْحِرافَهُمْ ، إِذْ لَمْ يَكْتَفِ هَؤُلاءِ بِتَقْسِيمِ التَّوْحِيدِ إِلَى قِسْمَيْنِ مُبْتَدَعَيْنِ بَلْ زادُوهُما قِسْماً ثالِثاً وأَسْمَوْهُ تَوْحِيدَ الأَسْماءِ والصِّفاتِ ، وكَأَنَّ الثَّالُوثَ أَو التَّثْلِيثَ المُقَدَّسَ عِنْدَ الضَّالِّينَ ، قَدْ وَجَدَ لَهُ صُورَةً بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمينَ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ التَّشَبُّهِ بِاليَهُودِ والنَّصارَى .

ويَقْصِدُ هَؤُلاءِ بِـ(تَوْحِيدِ الأَسْماءِ والصِّفاتِ) : عَدَمَ تَأْوِيلِ الصِّفاتِ الوارِدَةِ للهِ تَعالَى فى القُرْآنِ أَو السُّنَّةِ ، مِثْلَ : الاسْتِواءِ عَلَى العَرْشِ ، والوَجْهِ ، والعَيْنِ ، والْيَدِ ، والْجَنْبِ ، والنُّزولِ ، والغَضَبِ ، والقُرْبِ ، والبُعْدِ ، وغَيْرِها مِنَ الصِّفاتِ الَّتى تُوهِمُ الجِسْمِيَّةَ ، بَلْ يَحْمِلُونَها عَلَى مَعانِيها الظَّاهِرَةِ الَّتى يَعْقِلُها البَشَرُ فى دُنْياهُم .

وبِاللهِ عَلَيْكَ فإِذا كانَ تَوْحِيدُ الأَسْماءِ والصِّفاتِ يُحَوِّلُ اسْتِواءَ الرَّحْمَنِ عَلَى العَرْشِ إِلَى الاسْتِقْرارِ عَلَى العَرْشِ والتَّمَكُّنِ مِنْهُ ، فَأَيْنَ التَّنْزِيهُ هُنا ؟ ، وأَيْنَ

﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾[1].

مَنِ الَّذِى قالَ بِهَذا التَّقْسِيمِ وما الهَدَفُ مِنْ تَقْسِيمِ التَّوْحِيد :

إنَّ الواقِعَ والحَقائِقَ تَقُولُ : إنَّ هَذا التَّقْسِيمَ أُحْدِثَ في القَرْنِ الثَّامِنِ الهِجْرِى بَعْدَ زَمَنِ النَّبِىِّ ﷺ بِسَبْعِمائَةِ عام ..

والَّذى اخْتَرَعَ هَذا التَّقْسِيمَ أَوَّلاً (عالِمُ الفِتْنَةِ الَّذى أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ) وَسْطَ مُعارَضَةِ جَمِيعِ عُلَماءِ المُسْلِمِينَ فى هَذا القَرْنِ والقُرونِ الَّتى تَلِيه .

وقَدْ تَلَقَّفَ هَذا التَّقْسِيمَ (ابْنُ أَبي العِزِّ) وهُوَ يَشْرَحُ العَقِيدَةَ الطَّحاوِيَّةَ الصَّحِيحَةَ للإمامِ أَبى جَعْفَرٍ الطَّحاوِى ، حَيْثُ زَيَّفَ كَلامَ الإمامِ الطَّحاوِي حَتَّى يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ السَّلَفِ[2].

وقَدْ قالَ عَنْهُ العَلاَّمَةُ عَلِي القارِي الحَنَفِي : إنَّهُ صاحِبُ مَذْهَبٍ باطِلٍ تابِعٍ لِطائِفَةٍ مِنَ المُبْتَدِعَة .

ثُمَّ جاءَ مَنْ جانَبَ الصَّوابَ وبَرِيءَ مِنْ عِبادَتِهِ العَزِيزُ الوَهَّابُ ، فَأَيْقَظَ هَذِهِ الفِتْنَةَ فى القَرْنَيْنِ السَّابِقَيْنِ بِأَزٍّ ومُؤازَرَةٍ مِنْ عَدُوِّ الإسْلامِ الأَكْبَرِ ، وبِدَعْمٍ وحِمايَةٍ مِنْ عُمَلائِهِم وأَوْلِيائِهِم ، فَقامَتِ الجِهاتُ المُرْتَزِقَةُ والفِرَقُ المُفْتَتِنَةُ بِتَحْرِيرِ هَذا الفِكْرِ المُبْتَدَعِ فى الكُتُبِ ، وإذاعَتِهِ فى الخُطَبِ ، بَلْ أَخَذَهُ عُلَماؤُهُم (طُلَّابُ الدُّنْيا) عَلَى أَنَّهُ مِنَ المُسَلَّماتِ الاعْتِقادِيَّةِ دُونَما تَفْكِيرٍ في فَحْواهُ ، وتَلَقَّفَتْهُ أَقْلامُ وأَفْواهُ المُتَسَمَّيْنَ بالدُّعاةِ ، وجَعَلُوهُ مِحْوَرَ أَفْكارِهِم ومَوْضُوعَ جَلَساتِهِم الَّتى يُجَعْجِعُونَ بِها لَيْلاً ونَهاراً فَذاعَ الأَمْرُ وانْتَشَر .

أَمَّا هَدَفُهُم وغَرَضُهُم مِنْ هَذا التَّقْسِيمِ العَقَدِىِّ الباطِلِ فَبَيانُهُ فى الآتِى :

١ـ إخْراجُ كافَّةِ المُسْلِمِينَ الَّذينَ لا يَسِيرونَ عَلَى نَهْجِهِمْ مِنْ دائِرَةِ التَّوْحِيد .

٢ـ إثْباتُ الجِهَةِ والحَدِّ والجِسْمِيَّةِ لِلهِ تَعالَى ، وإثْباتُ قِدَمِ العالَمِ بِالنَّوْعِ ،

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى مِنَ الآيَة ١١ .

(٢) التَّنْدِيدُ بِمَنْ عَدَّدَ التَّوْحِيد ، للشَّيْخ (حَسَن بن عَلِي السَّقَّاف) .

وإثْباتُ الحَرْفِ والصَّوْتِ لِكَلامِ اللهِ ، وإثْباتُ قِيامِ الحَوادِثِ بِذاتِ اللهِ (تَعالَى اللهُ عَمَّا يَقُولونَ عُلُوّاً كَبِيراً) .

٣ـ إطْلاقُ اسْمِ (المُعَطِّلَةِ) عَلَى جَماهِيرِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ والمُقْتَدِينَ بِمَذْهَبِ الأَشْعَرِيَّةِ ، بِما فِى ذَلِكَ الأَزْهَرُ الشَّرِيفُ وفُروعُهُ وعُلَماؤُهُ وخَرِّيجُوهُ المُنْتَشِرونَ فى أَقْطارِ العالَمِ الإسْلامِيِّ .

٤ـ إشاعَةُ أَنَّ الأُمَّةَ الإسْلامِيَّةَ اليَوْمَ أَشَدُّ شِرْكاً مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، لِيَشْغَلُوا الأُمَّةَ بِدَعْوَى تَصْحِيحِ تَوْحِيدِهِمْ ، فَيُقْعِدُوهُمْ عَنِ العَمَلِ والحَرَكَةِ الفاعِلَةِ ، حَتَّى يَتَمَكَّنَ أَعْداءُ الإسْلامِ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى المُسْلِمِينَ وإذْلالِهِم .

ومِنَ المُؤْسِفِ والمُحْزِنِ أَنَّهُمْ اسْتَقْطَبُوا عَدداً غَيْرَ قَلِيلٍ مِنَ الشَّبابِ الإسْلامِيِّ السَّاذَجِ ، أَو المُعَقَّدِ المُتَأَزِّمِ ، أَو الطَّيِّبِ القَلْبِ ، أَو السَّطْحِيِّ الفِكْرِ ، أَو المَحْدودِ المَعْرِفَةِ ، فَفَتَنُوهُم عَنِ الجادَّةِ ، وأَوْحَوا إلَيْهِمْ أَنَّهُم السَّادَةُ القادَةُ ، وأَنَّهُم الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ ، بِما قَدَّمُوا لَهُمْ مِنْ ثَقافَةِ الانْغِلاقِ والتَّحَجُّرِ ، والرَّجْعِيَّةِ والانْقِباضِ ، والتَّقْطِيبِ والعُبُوسِ والعَجْرَفَةِ ، وجَمْعِ الاهْتِمامِ في هَيْئاتِ البَدَنِ والمَلْبَسِ ، والتَّخَلُّقِ بِالْكِبْرِ والْحِقْدِ ولُؤْمِ التَّفْكِيرِ وسُوءِ الظَّنِّ بِخَلْقِ اللهِ ، والْغِلِّ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِلا تَمْيِيزٍ مَعَ الإكْراهِ و الإرْهابِ كَما اسْتَغَلُّوا حاجَةَ بَعْضِهِمْ إلَى المالِ فَقَدَّمُوهُ إلَيْهِمْ سَحّاً غَدَقاً ، وهُوَ سُحْتٌ حَرامٌ ، عَلَى مُخْتَلَفِ صُوَرِهِ وأَوْضاعِهِ ، وجَعَلُوا مِنْهُمْ خَمِيرَةَ (عَكْنَنَةٍ) لِلْمُجْتَمَعِ ، ومَثارَ قَلَقٍ لِلْحُكُوماتِ ، وسَوْطاً يُلْهِبُ ظُهُورَ جَماعَةِ المُسْلِمِينَ ، فَما تَجِدُ إرْهابِيّاً ، ولا مُتَطَرِّفاً ، ولا مُخَرِّباً ، ولا فَتَّاناً ، ولا مُفَرِّقاً بَيْنَ أَهْلِ القِبْلَةِ إلَّا وهُوَ مَنْسُوبٌ إلَى جَماعَتِهِمْ ، مُتَخَرِّجٌ في مَدارِسِها ، عَبْدٌ لِمَشِيئَتِها ، مُنْدَفِعٌ مُتَهَوِّرٌ ، سَمِجُ النَّفْسِ ، ثَقِيلُ الظِّلِّ ، يَسْتَحِلُّ دِماءَ

المُسْلِمينَ وأَعْراضَهُم ويُمَزِّقُ جُمُوعَهُم ، بِاسْمِ التَّوْحِيدِ المَظْلُومِ ، والسَّلَفِيَّةِ المَظْلُومَةِ ، والسُّنَّةِ المُفْتَرَى عَلَيْها .

حتَّى فَرَّقُوا الأُسْرَةَ الواحِدَةَ ، فاتَّهَمَ الوَلَدُ والِدَهُ بِالكُفْرِ والشِّرْكِ ، وعَصَتِ البِنْتُ أَباها بِدَعْوَى أَنَّهُ مُبْتَدِعٌ فاسِقٌ ، وتَرَكَتِ المَرْأَةُ زَوْجَها ، وتَزَوَّجَتْ مِنْ آخَرَ دُونَ أَنْ تُطَلَّقَ مِنَ الأَوَّلِ بِدَعْوَى أَنَّ زَواجَها الأَوَّلَ باطِلٌ ، لِأَنَّهُ مِنْ كافِرٍ لا يَحِلُّ لَهُ زَواجُ مُسْلِمَةٍ (تَأَمَّلْ !!) ، ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

ثُمَّ هَلْ هُناكَ فَوْقَ القَوْلِ بِأَنَّ كُلَّ أَهْلِ القِبْلَةِ (مَشْرِقاً ومَغْرِباً وشَمالاً وجَنُوباً) مُشْرِكُونَ كَفَرَةٌ بِسَبَبِ زِيارَةِ المَوْتَى ، أَوِ الدُّعاءِ بِالْوَسِيلَةِ المَشْرُوعَةِ ، بِالنَّصِّ القُرْآنِي المُحْكَمِ ، أَو بِالصَّلاةِ في المَساجِدِ ذاتِ ما يُسَمَّى بِالمَحارِيبِ (خَطَأً) ، أَوِ المَساجِدِ المُلْحَقِ بِها بَعْضُ قُبُورِ الصَّالِحِينَ ، أَو بِدُعاءِ نِصْفِ شَعْبانَ ، أَوْ بِقِراءَةِ البُرْدَةِ والدَّلائِلِ ، أَوِ الْتِزامِ حُبِّ أَهْلِ البَيْتِ النَّبَوِي ، أَو عَدَمِ تَوْفِيرِ اللِّحْيَةِ ، أَوِ التَّعَبُّدِ بِتَرْدِيدِ اسْمِ اللهِ ، أَوِ التَّعَبُّدِ بِالأَدْعِيَةِ والأَحْزابِ والأَوْرادِ المَأْثُورَةِ عَنْ كِبارِ الصَّحابَةِ والتَّابِعِينَ والأَوْلِياءِ ، وبِخاصَّةٍ عِنْدَ العُلَماءِ الأَتْقِياءِ ، ثُمَّ بِقَضايا خِلافِيَّةٍ فُرُوعِيَّةٍ ، الأَمْرُ فِيها سَهْلٌ ومُتَّسَعٌ بِحَيْثُ تَنْقَطِعُ لَها النِّياطُ ، كَمَسْأَلَةِ السَّدْلِ والقَبْضِ ، وأَيْنَ وكَيْفَ تُوضَعُ اليَدَيْنِ عِنْدَ القَبْضِ ؟! ، وعَدَدِ دَرَجاتِ المِنْبَرِ ، وتَجْوِيفِ القِبْلَةِ ، وكالصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ الآذانِ ، أَوْ صَلاةِ الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الجُمُعَةِ ، أَوْ قِراءَةِ القُرْآنِ قَبْلَ الجُمُعَةِ أَيْضاً ، أَوْ صَلاةِ العِيدِ في المَساجِدِ ، أَوِ المُصافَحَةِ عِنْدَ الانْصِرافِ ، أَوِ الأَكْلِ عَلَى المائِدَةِ ، أَوْ تَعْلِيمِ المَرْأَةِ ، أَوِ الشَّرابِ في الكُوبِ ، أَو تَبْرِيدِ الماءِ بِالثَّلْجِ ، أَوْ لِبْسِ النَّظَّارَةِ وساعَةِ اليَدِ ، وهَلْ تَكُونُ في اليَدِ اليُمْنَى أَوِاليُسْرَى ؟ ، وهَلْ يُؤْخَذُ في الصَّلاةِ بِالتَّقْوِيمِ الفَلَكِي ؟ ، أَوْ عَدَمِ لَعْقِ الأَصابِعِ ، أَوْ تَرْكِ السِّواكِ والطِّيبِ ، أَوِ الجَهْرِ بِخِتامِ الصَّلاةِ ، أَوِ القِيامِ

لِلْقَادِمِ ، أَوِ اكْتِفَاءِ الْمَرْأَةِ بِالْحِجَابِ دُونَ النِّقَابِ ، أَوِ الْقَوْلِ بِحَرَكَةِ الأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ ، أَوِ الرِّضَا بِالتَّصْوِيرِ الفُوتُوغْرَافِي ، أَوْ قُنُوتِ الفَجْرِ ، أَوْ حَمْلِ المِسْبَحَةِ ...

إِلَى أَكْوامٍ مِنَ الخِلافِيَّاتِ وصِغارِ الفُروعِ ، مِمَّا عَمَّ وغَمَّ وطَمَّ ، خُصُوصاً سُنَنَ العَادَات .

فَذَلِكَ جَمِيعاً عِنْدَهُمْ بِدَعٌ وشِرْكٌ ورِدَّةٌ ، وخُروجٌ مِنْ دِينِ اللهِ تَسْقُطُ بِهِ العَدَالَةُ ، وتُطَلَّقُ بِهِ الزَّوْجَةُ ، ويُسْتَحَلُّ بِهِ الدَّمُ ، فَلا يَنْفَعُ مَعَهُ عِنْدَهُمْ صَلاةٌ ولا زَكاةٌ ولا حَجٌّ ولا عُمْرَةٌ ، بَيْنَما رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكَذِّبُهُم ، كما جاءَ في حَدِيثِ (عُقْبَةَ) رضي الله عنه في الصَّحِيحَيْنِ قالَ ﷺ :

(لَسْتُ أَخافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ، ولَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُم الدُّنْيا أَنْ تَنافَسُوا فِيها فَتَهْلَكُوا كَما هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ)[1] .

تِلْكَ هِيَ قَضِيَّتُهُم ، فَتَعْساً لَهُم وأَضَلَّ اللهُ أَعْمالَهُم ، وهَنِيئاً لِمَنْ جانَبَ بِدْعَتَهُم واتَّقَى ضَلالَهُم .

(٥) بَيانُ أَنَّهُ كَما لا تَصِحُّ النِّسْبَةُ إِلَى الإِسْلامِ إِلَّا بِقَوْلِ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) ، فَإِنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دائِرَةِ الإِيمانِ مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِأَنَّ (حُجِّيَّةَ كِتابِ اللهِ وحُجِّيَّةَ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ) مُتَلازِمَتان :

يَجِبُ عَلَى المُؤْمِنِ الحَرِيصِ عَلَى سَعادَتِهِ ، أَنْ يَطْلُبَها فى مَظانِّها الأَصْلِيَّةِ وأَنْ يَقْصِدَها مِنْ أَبْوابِها المَعْلُومَةِ ، ولْيَعْلَمْ :

أَنَّ السَّعادَةَ كُلَّ السَّعادَةِ فى مُتابَعَةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وتَوْقِيرِ حَمَلَتِها والشَّارِحِينَ لَها ، الَّذِينَ صَرَفُوا أَعْمارَهُمْ فى البَحْثِ والتَّنْقِيبِ بَيْنَ الآيِ

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِي في صَحِيحِهِ ، ومُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ ، وابْنُ حِبَّانَ ، وأَبُويَعْلي في مُسْنَدِهِ ، والبَيْهَقِيُّ في سُنَنِهِ الكُبْرَى ، والطَّبرانيُّ في أَكْبرِ مَعاجِمِهِ ، وغَيْرُهُم .

والأَحـاديثِ والاسْتِنْباطِ مِنْها ، لِيَسْتَنْبِطُوا إِرْشاداتِها ، ولِيُنِيروا سَبِيلَها لِلنَّاس أُولَئِكَ هُم المُحَدِّثُونَ ، وأَكابِرُ الفُقَهاءِ ، والمُجْتَهِدونَ ، وعُلَماءُ التَّفْسِيرِ الأَوَّلُون ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى لَمَّا تَكَفَّلَ بِحِفْظِ كِتابِهِ العَزِيزِ ، وَفَّرَ الدَّواعِيَ عَلَى نَقْلِ السُّنَّةِ وضَبْطِها وتَبْيِينِها ، إِذْ لا حِفْظَ لِلْكِتاب بِدُونِها .

فَلَقَدِ اشْتَمَلَ (القُرْآنُ) عَلَى نُصُوصٍ مُجْمَلَةٍ ، وأُخْرى مُشْكَلَةٍ ، ولابُدَّ (لِلْعَمَلِ بِها) مِنْ شَرْحٍ يُبَيِّنُها ويُوَضِّحُها ويُفَسِّرُها ، ولابُدَّ لِهَذا الشَّرْحِ والبَيانِ أَنْ يُشاكِلَ المَشْرُوحَ والمُبَيَّنَ فى عِصْمَتِهِ وقُدْسِيَّتِهِ ، أَى أَنَّهُ لابُدَّ وأَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَذَلِكَ ، لأَنَّهُ هُوَ الَّذى كَلَّفَ العِبادَ ، فَهُوَ العَلِيمُ بِالمُرادِ ، ولا اطِّلاعَ لِغَيْرِهِ عَلَيْه .

وما مِنْ بَيانٍ أَوْلَى بِكِتابِ اللهِ مِنْ بَيانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ المُوحَى إِلَيْهِ ، هَذا البَيانُ الَّذى حَفِظَتْهُ لَنا (السُّنَّةُ المُشَرَّفَةُ) هُوَ وَحْىٌ كَذَلِكَ ، سَواءٌ ما تَلَقَّاهُ النَّبِىُّ عَنْ رَبِّهِ مِنْ مَعْنىً ، وما أُقِرَّ عَلَيْهِ مِنَ اجْتِهادٍ ، فَمُهِمَّةُ السُّنَّةِ هِىَ البَيانُ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وعَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ لا الحَصْرِ ، نُبَيِّنُ ذَلِكَ بِبَعْضِ الأَمْثِلَة :

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (٢) .

فَهَذا يُفْهَمُ مِنْهُ مُجَرَّدُ وُجُوبِ كُلٍّ مِنَ الصَّلاةِ والزَّكاة .

ولَكِنْ : ما هِىَ ماهِيَةُ هَذِهِ الصَّلاةِ الَّتى أَوْجَبَها اللهُ ؟ وما كَيْفِيَّتُها ؟

وما وَقْتُها ؟ وما عَدَدُها ؟ وعَلَى مَنْ تَجِبُ ؟ وكَمْ مَرَّةً تَجِبُ فى العُمْرِ ؟

ثُمَّ ما هِىَ ما هِيَةُ الزَّكاةِ ؟ وعَلَى مَنْ تَجِبُ ؟ وفى أَىِّ مالٍ تَجِبُ ؟

وما مِقْدارُها ؟ وما شَرْطُ وُجُوبِها ؟

---

(١) سُورَةُ النَّحل مِنَ الآيَة ٤٤ .

(٢) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ٤٣ و ١١٠ وسُورَةُ النُّور مِنَ الآيَة ٥٦ .

وقالَ تَعالَى : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [1] فَفَهِمْنا بِهَذا وُجُوبَ إِتْمامِهِما ، ولَكِنْ ما المُرادُ بِهِما ؟ أَهُوَ ما كانَ يَفْعَلُهُ العَرَبُ فى الجاهِلِيَّةِ ؟ أَمْ شَيْءٌ آخَر ؟ فَما هُوَ ؟ وكَمْ مَرَّةً يَجِبُ فى العُمْر ؟ كُلُّ هَذهِ الأَسْئِلَةِ وما يُشاكِلُها لا يُسْعِفُنا فى الجَوابِ عَنْها سِوَى سُنَّةِ المُصْطَفَى ﷺ ، بَلْ لا يَسْتَقِيمُ دِينُنا إِلَّا بِبَيانِها ولا بَيانَ لَها إِلَّا فى سُنَّةِ الحَبِيبِ الأَعْظَم ﷺ .

وقَدْ ورَدَتْ أَحادِيثُ وافِرَةٌ تَحُضُّ عَلَى الاعْتِصامِ بالسُّنَّةِ والتَّحْذيرِ مِنْ هَجْرِها فَقَدْ أَخْرَجَ الدَّارِمِي واللَّالَكائِي (فى السُّنَّةِ) عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

(سَيَأْتِى ناسٌ يُجادِلُونَكُم بِشُبُهاتِ القُرْآنِ ، فَخُذُوهُم بِالسُّنَنِ ، فَإِنَّ أَصْحابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتابِ الله) .

وأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ (فى الطَّبَقاتِ) مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه :

(أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلِيّاً بنَ أَبى طالِبٍ رضي الله عنه أَرْسَلَهُ إِلَى الخَوارِجِ وقالَ : اذْهَبْ إِلَيْهِمْ فَخاصِمْهُمْ ، ولا تُحاجَّهُم بالقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ ذُو وُجُوهٍ ، ولَكِنْ خاصِمْهُمْ بِالسُّنَّة) وأَخْرَجَ مِنْ وَجْهٍ آخَر : (أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قالَ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنينَ ، فَأَنا أَعْلَمُ بِكِتابِ اللهِ مِنْهُم ، فى بُيُوتِنا نَزَلَ . قالَ : صَدَقْتَ ولَكِنَّ القُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ ، تَقُولُ ويَقُولُونَ ، ولَكِنْ حاجِجْهُم بِالسُّنَنِ ، فَإِنَّهُم لَنْ يَجِدوا عَنْها مَحِيصاً ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم ، فَحاجَّهُم بِالسُّنَنِ : فَلَمْ يَبْقَ بِأَيْدِيهِمْ حُجَّة) .

وقَدْ نَبَّهَ (الحَقُّ) جَلَّ فى عُلاهُ عَلَى ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً فى القُرْآنِ المَجِيدِ ، فَقالَ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [2] ، بَلْ تَوعَّدَ (الحَقُّ) مَنْ صَدَّ عَنْ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ ، وأَلْحَقَ بِهِ وَصْفَ النِّفاقِ ، فَقالَ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ١٩٦ . (٢) سُورَةُ الحَشْر مِنَ الآيَة ٧ .

﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[1].

فَلْيَتَّقِ اللَّهَ كُلُّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ الإِعْرَاضَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ والصَّدَّ عَنْ سُنَّتِهِ ، ولْتَوْجَلْ نَفْسُهُ عِنْدَ قِراءَةِ هَذِهِ الآيَةِ ، ولْيَشْتَدَّ إِشْفاقُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُخْتاراً لِلدُّخُولِ تَحْتَ هَذِهِ الصِّفَةِ المَذْمُومَةِ المُوبِقَةِ ، المُوجِبَةِ لِلنَّارِ ، والعِياذُ بِاللَّه .

ولَقَدْ أَخْبَرَ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ أَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ فَقالَ ﷺ :

(أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذا القُرْآنِ . فَما وَجَدْتُم فِيهِ مِنْ حَلالٍ فَأَحِلُّوهُ ، وما وَجَدْتُم فيهِ مِنْ حَرامٍ فَحَرِّمُوه ، وإِنَّ ما حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَما حَرَّم اللهُ .

أَلَّا يَحِلُّ لَكُم الحِمارُ الأَهْلِيُّ ولا كُلُّ ذِي نابٍ مِنَ السِّباعِ ، ولا لُقْطَةُ مُعاهَدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْها صاحِبُها ، ومَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ ، ولَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِراه)[2].

نَسْأَلُ (اللَّهَ) تَعالَى ، الحَياةَ عَلَى السُّنَّةِ السَّنِيَّةِ ، والوَفاةَ عَلَى هَذِهِ المِلَّةِ المَرْضِيَّةِ ، بِجاهِ أَفْضَلِ الخَلْقِ ، عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ أَكْمَلُ صَلاةٍ وأَزْكَى تَحِيَّة .

(٦) حَمَلاتُ التَّدْمِير بِدَعْوَى التَّنْوِير :

ومِمَّا ابْتُلِيَتْ بِهِ أُمَّتُنا فِى الآوِنَةِ الأَخِيرَةِ ، مُنَظَّماتٌ حَمَلَ أَفْرادُها راياتِ المُعاصَرَةِ والتَّطْوِيرِ ، والحَداثَة والتَّنْوِيرِ ، وما إِلَى ذَلِكَ مِنْ مُصْطَلَحاتٍ مُسْتَوْرَدَةٍ مِنَ الغَرْبِ بَعْدَ فَسادِ صَلاحِيَّتِها هُناكَ وسُبْحانَ اللهِ ، فَما مِنْ دَعْوَةٍ باطِلَةٍ إِلَّا وتَزَيَّت بِزِيِّ حَقٍّ تَسْتُرُ بِهِ سَوْءاتِها .

فَلَقَد تَبَنَّى الأَعْداءُ المُغْرِضُونَ بِأَدَواتِهِم مِنْ حُذَّاقِ المُسْتَشْرِقِينَ ، أَبْناءَ هَذِهِ

---

(١) سُورَةُ النِّساء الآيَة ٦١ .
(٢) أَخْرَجَهُ (أبو داود) و(الحاكِمُ) و(التِّرْمِذِي) عَنِ المِقْدامِ بنِ مَعْد يَكْرِب ﷺ .

الطَّائِفَةِ بِالتَّنْشِئَةِ والرِّعايَةِ فى أَحْضانِ معاهِدِهِم ، سَواءٌ فى بِلادِ المُسْلِمينَ أَو عِنْدَهُمْ فِى بِلادِهِم ، ومِنْ ثَمَّ مَنَحُوهُم أَعَلَى الدَّرَجاتِ العِلْمِيَّةِ والجَوائِزِ العالَمِيَّةِ (الَّتى لَمْ يَعُدْ خافِياً ما يَجْرِى فِيها مِنْ تَلاعُبٍ وانْحِيازٍ) وهَذهِ تُهيِّئُهُم لِيَتَبَوَّؤُا أَعلَى المَناصِبِ الوَظِيفِيَّةِ فى البِلادِ الإِسْلامِيَّة .

وعَلاوةً عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، يُذَلِّلُونَ لَهُمْ اعْتِلاءَ المَنابِرِ الإِعْلامِيَّةِ ، مِنْ إذاعاتٍ سَمْعِيَّةٍ ومَرْئِيَّةٍ وفَضائِيَّةٍ ، مُحَقِّقِينَ لَهُمْ بِذَلِكَ بَيْنَ جُموعِ النَّاسِ الاسْتِحْسانَ والشَّعْبِيَّة .

ثُمَّ ما تَلْبَثُ هَذهِ الفِئَةُ المَصْنُوعَةُ عَلَى عَيْنِ الباطِلِ أَنْ تَرْفَعَ شِعارَ الإِصْلاحِ ، وتَطْوِيرِ الخِطابِ الدِّينيِّ ، والعَقْلانِيَّةِ والإِنْسانِيَّةِ (بِدَعْوَى أَنَّ الدِّينَ يُخاطِبُ العَقْلَ) وما هُمْ إِلَّا أَبْواقٌ صَدِئَةٌ يُضَخِّمُونَ ما يُهْمَسُ فى آذانِهِم مِنْ قِبَلِ ساداتِهِم أَرْبابِ الحَياةِ المادِيَّةِ ، وصَدَقَ اللهُ الَّذى أَحْكَمَ وَصْفَهُم فَقالَ :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[1] ،

وصَدَقَ الصَّادِقُ المَصْدوقُ ﷺ الَّذي قالَ :

(مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُمارِيَ السُّفَهاءَ أَو يُكابِرَ بِهِ العُلَماءَ أَو يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ)[2] .

ومِنْ هَذا المُنْطَلَقِ ، وبِدَعْوَى الاحْتِكامِ إِلَى العَقْلِ ، فَقَدْ تَجَرَّأَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ وتَمادَتْ بِالطَّعْنِ والتَّشْكِيكِ فى كَثِيرٍ مِنَ الثَّوابِتِ الإِيمانِيَّة .

لَقَدْ كانَتْ هَذهِ الطَّائِفَةُ الَّتي انْبَهَرَتْ بِالفِكْرِ الغَرْبِيِّ وأَتْبَعَتْهُ هَواها صَيْداً سَهْلاً وَقَعَ فى شِراكِ ما أَسْمَوْهُ بِالبَحْثِ العِلْمِيِّ المُجَرَّدِ والمَوْضُوعِيَّةِ والنَّزاهَةِ والحِيادِ ، ونَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مُسَمَّياتٍ صَدَّرَها الغَرْبُ طُعْماً خَبِيثاً ابْتَلَعَهُ أَكْثَرُ المُثَقَّفِينَ المُنْبَتِّينَ ، وأَلْقَوْهُ فى ساحَتِنا فى دَأْبٍ واسْتِمْرارٍ دُونَ كَلَلٍ أَو

---

(١) سُورَةُ الرُّوم الآيَة ٧ .
(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي .

مَلَلٍ ، وتَلَقَّفَتْهُ أَجْيالٌ بالقَبُولِ تَمَشّياً مَع تَيَّارِ التَّقَدُّمِيَّةِ المَزْعُومِ ، فَأَصْبَحْنا نَسْمَعُ ونَرَى مَثَلاً مَنْ لا يُقِيمُ وَزْناً لِلْمُعْجِزاتِ الَّتى وَقَعَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَساسِ أَنَّ المُعْجِزَةَ الَّتى يَنْبَغِي الحَديثُ عَنْها فَقَط هِىَ القُرْآنُ الكَرِيمُ (مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ المُعْجِزاتِ المُحَمَّدِيَّةَ فى أَصْلِ وُقوعِها قَدْ بَلَغَتْ مَبْلَغَ التَّواتُرِ المَعْنَوِي كَما قَرَّرَ عُلَماءُ الحَديث) ، ومَعَ ذَلِكَ ، أَصْبَحَ الحَديثُ عَنْها فى نَوادِينا العِلْمِيَّةِ ضَرْباً مِنَ التَّخَلُّفِ والجَهْلِ ، وكَأَنَّما هِىَ سَوْءَةٌ يَسْتَحْيُونَ مِنْها أَمامَ الثَّقافَةِ العَصْريَّة)[1] .

ولْيَأْذَنْ لي القارِئُ الكَرِيمُ أَنْ نَتَساءَلَ مَعاً فى مَيْدانِ العَصْرِيَّةِ والمُعاصَرَةِ والمَنْهَجِ العِلْمِيِّ والبَحْثِ المُجَرَّدِ والعَقْلانِيَّةِ والمَنْطِقِيَّةِ ، وسِوَى ذَلِكَ مِنْ شِعاراتٍ بَرَّاقَة :

لِماذا لَمْ يُنْكِرْ أُولَئِكَ المُثَقَّفُونَ المُعاصِرونَ مُعجِزاتِ (سَيِّدِنا مُوسَى وسَيِّدِنا عِيسَى) عَلَيْهِما السَّلام ؟

لِماذا تَبْقَى عَصا سَيِّدِنا (مُوسَى) عَلَيْهِ السَّلامُ تُلهِبُ الوِجْدانَ الغَرْبِيَّ في الحَياةِ والفَنِّ ؟

لِماذا تَظَلُّ مائِدَةُ رُوحِ اللهِ (عِيسَى) عَلَيْهِ السَّلامُ تُحَرِّكُ رِيشَةَ الفَنَّانِ الغَرْبِيِّ لِيُبْدِعَ لَوْحَةَ العَشاءِ الأَخِير ؟

أَلَيْسَ فى هَذا ما يَتَنافَى مَعَ المَنْهَجِ العِلْمِيِّ المَزْعُومِ الَّذى يَدَّعِيهِ بَعْضُ كُتَّابِنا الكِبارِ مِمَّنِ انْطَلَتْ عَلَيْهِم هَذِه الخِدْعَةُ (العَصْرِيَّةُ والمُعاصَرَة) ، فَرَوَّجَ لَها وبَنَى كِتاباتِهِ عَلَى أَساسِها ، ظَنّاً مِنْهُ أَنَّ هَذا هُوَ الطَّرِيقُ العِلْمِيُّ المُجَرَّدُ ، وأَنَّهُ طَرِيقُ العَقْلِ الَّذى يَنْبَغِي أَنْ يَسْلُكَهُ العُلَماءُ والباحِثُون ؟ !

إِنَّ الغِيرَةَ الدِّينيَّةَ تَحْفِزُني إِلَى أَنْ أَسْأَلَ هَؤُلاءِ العَصْرِيِّينَ التَّنْوِيرِيِّينَ جَمِيعاً :

---

(١) الشَّيْخُ الطَّاهِرُ مُحَمَّدُ الطَّاهِر العامِدى فى مُقَدِّمَتِهِ لـ (حُجِّيَّةِ السُّنَّة) .

هَلْ آمَنَ الَّذينَ فُتِنْتُمْ بِهِمْ بِما جاءَ فى كِتابِكُم ، أَو في سُنَّةِ نَبِيِّكُم ، أَو فى حَضارَتِكُم وثَقافَتِكُم بَعْدَ ما قَدَّمْتُوهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ تَنازُلاتٍ ومَهاناتٍ وخِيانات ؟ .

اسْمحُوا لِى أَيُّها العَصْرِيُّونَ أَنْ أَسْتَعِيرَ نَصِيحَةَ (هارون) عليه السلام لِقَوْمِهِ الَّذينَ أَضلَّهُم السَّامِرِيُّ :

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ (١) .

لَقَدْ وقَفْتُمْ يا بَنِي دِينِي خَلْفَ حِجاب كَثيفٍ ، فَلَمْ يُشْرِقْ فِي وِجْدانِكُمْ قَوْلُ اللهِ تَعالَى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ (٢)

وَلكِنْ ، كَيْفَ لِي أَنْ أَطْمَعَ بجَرِّ هَؤُلاءِ إِلَى رِحاب كَراماتِ الأَوْلياءِ وإشْراقاتِ الأَصْفِياءِ ، وهُم لَمْ يَأْبَهُوا بِمُعجزاتِ سَيِّدِ الأَنْبياءِ ﷺ ؟ إِنَّهُم لَن يُواجِهُوني إِلَّا بِالتَّهَكُّمِ والسُّخْرِيَةِ ، ولَعَلِّى لا أَسْتَغْرِبُ ذَلِكَ مِنْهُم ، فالفِكْرُ المُعَكَّرُ الَّذى يَسِيرُ فى ركابِ الفِتْنَةِ والفَسادِ ، لا يَرُوقُهُ الفِكْرُ الصُّوفِيُّ الصَّافِى الَّذى يَسِيرُ فى رِكابِ النُّبُوَّةِ والرَّشاد .

إِنَّ أَجْواءَ الفَسادِ السَّائِدَةِ ، تُهَيِّىءُ بِلا رَيْبٍ طُغْيانَ سُلْطانِ النَّفْسِ والْهَوَى والشَّيْطانِ ، فَتُزَيِّنُ الباطِلَ وتَخْلُبُ الأَنْظارَ ، ولَكِنْ ... رَجائِي أَنْ نَتَذَكَّرَ جَمِيعاً ما حَذَّرَنا مِنْهُ النَّبِيُّ المُخْتارُ ﷺ يَوْمَ قالَ : (إِنَّ جَنَّةَ الدَّجَّالِ نار) (٣) ، وكَذا نُورُ التَّنْويرِ المَزْعومِ الزَّائِفِ نار ، فَهَلْ يَعِي ذَلِكَ أَرْبابُ الثَّقافَةِ والأَفْكار ؟!

(٧) الزَّنادِقَةُ المُسْتَشْرِقُونَ وعُمَلاؤُهُم المَخْدُوعُون :

إِنَّ الَّذينَ طَعَنُوا فى التَّصَوُّفِ الإِسْلامِي ، وتَهَجَّمُوا عَلَيْهِ ، واتَّهَمُوهُ بِأَنْواعَ

---

(١) سُورَةُ طه الآيَة ٩٠ . (٢) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ١٤٥ .

(٣) أَخْرَجَهُ الإِمامُ مُسْلِمٌ ، ولَفْظُهُ : (فَنارُهُ جَنَّةٌ وجَنَّتُهُ نار) .

شَتَّى مِنَ الأَكاذِيبِ والافْتِراءاتِ ، ورَمَوْهُ بِالانْحِرافِ والزَّيْغِ ، لاتَخْرُجُ بَواعِثُهُم عَلَى هَذا الصَّنِيعِ الآثِمِ عَنْ أَحَدِ أَمْرَيْنَ اثْنَيْن : فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ باعِثُهُم عَلَى ذَلِكَ الحِقْدَ المَوْرُوثَ والعَداوَةَ المُتَأَصِّلَةَ للإِسْلامِ ، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَبَبُ وُقُوعِهِم فى هَذا الإِثْمِ البَيِّنِ جَهْلَهُم المُطْبِقَ بِحَقِيقَةِ التَّصَوُّف .

١) أَمَّا الصِّنْفُ الأَوَّلُ : فَهُم أَعْداءُ الإِسْلامِ مِنَ الزَّنادِقَةِ المُسْتَشْرِقِينَ الَّذينَ يُمَثِّلُونَ امْتِدادَ خَطِّ الزَّنْدَقَةِ عَبْرَ التَّارِيخِ ، ويَلْحَقُهُم فى هَذا أَذْنابُهُم وعُمَلاؤُهُم مِنْ صَنائِعِ الصَّلِيبِيَّةِ الماكِرَةِ والاسْتِعْمارِ البَغِيضِ بُغْيَةَ الطَّعْنِ فى الإِسْلامِ ودَكِّ حُصُونِهِ ، أَو تَشْوِيهِ مَعالِمِهِ ، أَو لِبَثِّ سُمُومِ الفُرْقَةِ والخِصامِ بَيْنَ صُفُوفِ أَبْنائِهِ .

وقَدْ كَشَفَهُم المُفَكِّرُ الإِسْلامِيُّ الكَبِير (مُحَمَّد أَسَد)[1]، فى كِتابِهِ (الإِسْلامُ عَلَى مُفْتَرَقِ الطُّرُق) ، حَيْثُ بَيَّنَ أَنَّ هَؤُلاءِ المُغْرِضِينَ مِنَ المُسْتَشْرِقِينَ قَدْ عَكَفُوا عَلَى دِراسَةِ الإِسْلامِ دِراسَةً دَقِيقَةً و مُسْتَفِيضَةً لِكَيْ يَعْرِفُوا سِرَّ قُوَّتِهِ ، ولِيَعْلَمُوا مِنْ أَيِّ بابٍ يَلِجُونَ ، وفى أَيَّةِ طَرِيقٍ يَسِيرُونَ لِلْوُصُولِ إِلَى أَهْدافِهِم الماكِرَةِ ومَآرِبِهِم الخَبِيثَة .

فاشْتُهِرَ مِنْ بَيْنِهِم كُتَّابٌ كَثِيرونَ مِنْ أَمْثالِ : نِكْلِسُون الإِنْجِليزى ، وجُولْد زَيْهَر اليَهُودى ، وماسِينْيُون الفِرنْسى وغَيْرِهِم .

وتَراهُم تارَةً يَدُسُّونَ السُّمَّ فى الدَّسَمِ ، إِذْ يَمْدَحُونَ الإِسْلامَ في بَعْضِ كُتُبِهِم كَي يَحْظَوْا بِثِقَةِ القارِئِ ، فَإِذا ما اطْمَأَنَّ إِلَيْهِمْ ، ورَكَنَ إِلَى أَقْوالِهِمْ راحُوا يُشَكِّكُونَهُ فى دِينِهِ وعَقِيدَتِهِ ، ويَحْشُونَ قَلْبَهُ بِأَباطِيلَ أَلْصَقُوها بِالإِسْلامِ زُوراً وبُهْتاناً .

وتارَةً أُخْرَى تَراهُم يَنْتَحِلُونَ صِفَةَ الباحِثِ العِلْمِيِّ النَّزِيهِ أَو يَلْبَسُونَ ثَوْبَ

---

(١) وهُوَ نِمْساوِى الأَصْل ، وكانَ اسْمُهُ لِيُوبُولْد فايس ، فاعْتَنَقَ الإِسْلامَ وتَسَمَّى باسْمِ (مُحَمَّد أَسَد) .

الغيُورِ عَلَى الدِّينِ ، المُتَباكِي عَلَى تُراثِهِ ، فَيشنُّونَ حَمْلَةً شَعْواءَ عَلَى التَّصَوُّفِ وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رُوحُ الإسْلامِ ، وقَلْبُهُ النَّابِضُ ، فَيَدَّعُونَ أَنَّهُ مُقْتَبَسٌ مِنَ اليَهُودِيَّةِ أَو النَّصْرانِيَّةِ أَو البُوذِيَّةِ ، ويَتَّهِمُونَ رِجالَهُ بِعَقائِدَ مُكَفِّرَةٍ وأَفْكارٍ مُنْحَرِفَةٍ ضالَّةٍ ، كالقَوْلِ بِالحُلُولِ والاتِّحادِ ، ووَحْدَةِ الوجُودِ ، ووَحْدَةِ الأَدْيانِ ، وغَيْرِ ذَلِك .

ونَحْنُ فى هَذا لا نَعْتِبُ عَلَيْهِم ، لأَنَّهُم أَعْداءٌ ، إِذْ هَذا شَأْنُ العَدُوِّ الماكِرِ ، ولِهَذا لا نُعْيِي أَنْفُسَنا فى سَرْدِ تَفاصِيلِ الرَّدِّ عَلَيْهِم ، وفى تَفْنِيدِ افْتِراءَتِهِم ، إِذ هُوَ مِمَّا ثَبُتَ بُطْلانُهُ ، ولاسِيَّما بَعْدَ أَنْ عَلِمْنا أَغْراضَهُم الفاسِدَةَ ومَآرِبَهُم الخَبِيثَةَ ، ولَكِنَّنا نُوَجِّهُ العَتَبَ إِلَى أُولَئِكَ الَّذينَ يَدَّعُونَ الإسْلامَ ، ثُمَّ يَتَبَنَّوْنَ آراءَ خُصُومِهِ الأَلِدَّاءِ ، وخُصُوصاً فِيما يُصِيبُ الإسْلامَ فى مَقْتَلٍ ، أَو فِيما يَمَسُّ جَوْهَرَهُ بِسُوءٍ ، وأَعْنِي بِذَلِكَ التَّصَوُّف !!

أَلَيْسَ مِنَ العَجِيبِ بَلْ مِنَ الخِيانَةِ أَنْ يَتْبَعَ مَنْ رَضِىَ الإسْلامَ دِيناً أَقْوالَ أَعْدائِهِ والمُتَحامِلِينَ عَلَيْهِ مِنْ مُغْرِضِينَ وكافِرِينَ ، بَلْ أَنْ يَتَّخِذَها حُجَّةً لِلطَّعْنِ فى دِينِ وسُلُوكِ إِخْوَتِهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ !؟

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ (١) ولَوْ كانَ هَؤُلاءِ المُسْتَشْرِقُونَ صادِقِينَ في غِيرَتِهِم عَلَى الإسْلامِ ، أو كانُوا مُخْلِصِينَ فى زَعْمِهِمْ بِتَنْقِيَتِهِ مِنَ الشَّوائِبِ ، وحُبِّهِم لَهُ وإِعْجابِهِم بِهِ ، فَلِماذا لَمْ يَعْتَنِقُوهُ !؟ ولِمَ لَمْ يَتَّخِذُوهُ مَنْهَجاً عامّاً لَهُمْ فى شُئُونِ حَياتِهِم !؟

٢) وأَمَّا الصِّنْفُ الثَّانِى مِنْ مُعارِضِي التَّصَوُّف : فَهُم الَّذين جَهِلُوا حَقِيقَتَهُ الإسْلامِيَّةَ ، أَوَلَمْ يَأْخُذُوهُ عَنْ رِجالِهِ الصَّادِقِينَ وعُلَمائِهِ المُخْلِصِينَ ، بَلْ

(١) سُورَةُ النُّور الآيَة ١٦ .

نَظَروا إِلَيْهِ نَظْرَةً سَطْحِيَّةً بَعِيدَةً عَنِ التَّمْحِيصِ والتَّبَيُّنِ ، ومُجافِيَةً لِمَنْطِقِ العِلْمِ وواجِبِ التَّثَبُّتِ ، وهُم فى ذَلِكَ عَلَى أَقْسام :

۞ أَوَّلُهُم : قِسْمٌ بَنَوا تَصَوُّرَهُم عَنِ التَّصَوُّفِ مِنْ خِلالِ أَعْمالِ بَعْضِ الدُّخَلاءِ وسُلُوكِ بَعْضِ المُنْحَرِفِينَ مِنْ أَدْعِياءِ التَّصَوُّفِ دُونَ أَنْ يُحاوِلُوا التَّمْحِيصَ والتَّفْرِيقَ بَيْنَ التَّصَوُّفِ الحَقِيقِيِّ النَّاصِعِ ، وبَيْنَ بَعْضِ الوَقائِعِ المُشَوِّهَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ فِئَةٍ مِنَ الدُّخَلاءِ عَلَى الصُّوفِيَّةِ ، والَّتى لاتَمُتُّ إِلَى الإِسْلامِ فَضْلاً عَنِ التَّصَوُّفِ بِأَدْنَى صِلَةٍ .

۞ وثانِيهُم : قِسْمٌ خُدِعُوا بِما وَجَدُوهُ فى كُتُبِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ مِنْ أُمورٍ دَسِيسَةٍ أَو مَسائِلَ دَخِيلَةٍ ، فَأَخَذوها كَما هِىَ عَلَى أَنَّها حَقائِقُ ثابِتَةٌ دُونَ أَدْنَى تَحْقِيقٍ أَو تَثَبُّتٍ ، أَو لَعَلَّهُم أَخَذوا الكَلامَ الثَّابِتَ فى كُتُبِ الصُّوفِيَّةِ ، فَفَهِمُوهُ عَلَى غَيْرِ مُرادِهِ ، بِحَسَبِ فَهْمِهِم السَّطْحِيِّ وعِلْمِهِم المَحْدودِ ، أَو رُبَّما بِحَسَبِ أَهْوائِهِم الخاصَّةِ ، غافِلِينَ أَو مُتَغافِلِينَ عَنْ كَلامِ الصُّوفِيَّةِ الواضِحِ الَّذى لايَحِيدُ عَنْ لُبِّ الشَّرِيعَةِ ، والَّذى يُعْطِي الضَّوْءَ النَّاصِعَ والنُّورَ الكاشِفَ لِتَأْوِيلِ هَذا الكَلامِ المُتَشابِه .

ومامَثَلُهُم فى ذَلِكَ إِلَّا كَمَثَلِ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ، إِذْ يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْ آيِ القُرْآنِ الكَرِيمِ ، فَيُؤَوِّلُونَها بِما يُوافِقُ ابْتِداعَهُم وهَواهُم ، دُونَما الْتِفاتٍ إِلَى سائِرِ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ المُحْكَمَةِ الَّتي تُلقِي النُّورَ عَلَى مَعانِي تِلْكَ الآياتِ المُتَشابِهَةِ فَتُوضِّحُ مَعانِيها ، وتُبَيِّنُ أَغْراضَها ، فَيالَهُم مِنْ دُعاةِ فِتْنَةٍ وضَلالٍ مِنْ أَجْلِ هَذا لِئَلَّا يَلْتَبِسَ الأَمْرُ عَلَى جاهِلٍ أَحْمَقَ أَو مُغْرِضٍ أَخْرَقَ ، وَضَعَ عُلَماءُ الصُّوفِيَّةِ مَبادِئَهُم فى قَوالِبَ لَفْظِيَّةٍ صَرِيحَةٍ واضِحَةٍ لا تُصادِمُ دَلالاتِ القُرْآنِ والسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ ، ولا تَحِيدُ عَنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَة .

۞ وثالِثُ هَذِهِ الأَقْسام : قِسْمٌ مَغْشُوشٌ مَخْدوعٌ ، أَخَذَ عُلُومَهُ وثَقافَتَهُ عَنِ

المُسْتَشْرِقِينَ كَما بَيَّنَّا سابِقاً ، فَتَبَنَّى مَزاعِمَهُمْ وأَباطِيلَهُم ، وكَأَنَّها بَدَهِيَّاتٌ عَقْلِيَّةٌ لاتَقْبَلُ الجَدَلَ ، أَو مَسَلَّماتٌ شَرْعِيَّةٌ ثابِتَةٌ ، ولَمْ تُسْعِفْهُ الفَطانَةُ والذَّكاءُ بِإِدْراكِ حَقِيقَةِ أُولَئِكَ المُسْتَشْرِقِينَ الَّذينَ نَصَبُوا أَنْفُسَهُم ، وجَنَّدوا ثَقافَتَهُم لِهَدْمِ الإِسْلامِ ، بِتَشْوِيهِ مَعالِمِهِ ، وإِضْعافِ رُوحِهِ ، وتَدْنِيسِ جَوْهَرِه.

ولَكِنْ يَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ، فَما زالَ ولَنْ يَزالَ فى هَذِهِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ طائِفَةٌ ظاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خالَفَهُم حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللهِ وهُمْ كَذَلِكَ[(١)] ، صابِرُونَ عَلَى ما ارْتَضاهُ اللهُ ورَسُولُهُ ولَو اجْتَمَعَ عَلَى حَرْبِهِم الثَّقَلانِ قَبِيلاً ، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الهُدَى ، ويَصْبِرُونَ مِنْهُم عَلَى الأَذَى ، ويُبَصِّرونَ بِنُورِ اللهِ أَهْلَ الضَّلالِ والعَمَى ، اهْتَدَوا بِهَدْيِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ الرَّحِيمِ ﷺ فَكانَ ذَلِكَ نِبْراسَهُم الَّذِي يَسِيرونَ فى ضَوْئِهِ عَلَى مَرِّ الأَزْمانِ وتَوالِي الدُّهُور .

ولِلهِ دَرُّ الشَّيْخ (مُحَمَّد زَكى إِبْراهِيم)[(٢)] فى رَدِّهِ عَلَى هَذِهِ الفِئاتِ الضَّالَّةِ المُضِلَّةِ ، فَقالَ :

فَيا أَيُّها المُسْتَأْجَرُونَ لِهَدْمِنا * خُذوا حِذْرَكُم ، فاللهُ أَقْوَى وأَعْنَفُ
فَضائِحُ تَتْرَى لارَعَى اللهُ عُصْبَةً * تُتاجِرُ بالدِّينِ اشْتَراها مُطَوِّفُ
فَكَمْ دَسَّ أَسْلافٌ لَهُمْ فى تُراثِنا * أَكاذِيبَ هُمْ في زُورِها اليَوْمَ عُكَّفُ
ونَحْنُ بُراءٌ ، خالِفٌ إِثْرَ سالِفٍ * ولَكِنَّهُ غِلٌّ قَدِيمٌ مُكَثَّفُ
تَوالَتْ مَساوِيكُم ، فَلا يُطْغِيَنَّكُمْ * (فَرانْكٌ)و(دُولارٌ) وزِيٌّ مُزَخْرَفُ
ومَهْما تَعالَيْتُم عَلَيْنا لِتَسْتُرُوا * عَمالَتَكُمْ فالنَّاسُ بِالعارِ أَعْرَفُ

---

(١) أخرج (البُخاريُّ) فى صَحِيحِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي ظاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُم أَمْرُ اللهِ وهُم ظاهِرون) .
وفى رِوايَةِ (مُسْلِم) : (لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي ظاهِرِينَ عَلى الحَقِّ لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللهِ وهُم كَذَلِك) .

(٢) هُوَ الأُسْتاذُ الإِمامُ الفَقِيهُ المُحَدِّثُ ، رائِدُ العَشِيرَة المُحَمَّدِيَّة قَضَى عُمْرَهُ (٩٢) عاماً فى جِهادٍ ودَعْوَةٍ وعِلْمٍ وعَمَلٍ ، وتُوفِّىَ سَنَةَ ١٤١٩ هـ .

فَلا سَلَفٌ أَنْتُم ولاخَلَفٌ ، ولا * سَنَدٌ لَكُمْ ، فاسْتَذْئِبُوا أَو تَلَطَّفُوا
فَسَوْفَ تَرَوْنَ الهَوْلَ يَنْهالُ بَغْتَةً * فلا مُفْتَرٍ ناجٍ ، ولا مُتَعَجْرِفُ
لَقَدْ قُلْتُ ما قَدْ قُلْتُ دَفْعاً لِبَعْضِ ما * يَقُولُونَهُ فِينا ، وإِنِّى لآسِفُ
فَقَدْ عِشْتُ صُوفِيًّا حَنِيفاً ، ولَمْ أَزَلْ * وعِنْدِي لأَهْلِ الزَّيْغِ سَوْطٌ ومُصْحَفُ

مَزِيدُ بَيانٍ عَنِ المُسْتَشْرِقِينَ وتَشْوِيهِهِم عَنْ قَصْدٍ حَقائِقَ الدِّين :

كَتَبَ المُسْتَشْرِقُونَ بِحَسَبِ ما تَراءَى لَهُم في التَّصَوُّفِ الإسلامِيِّ ، (وهُمْ عَلَى عَقائِدِهِمْ في دِينِهِمْ) ، ولَم يَسْتَطِيعُوا أَن يُخَلِّصُوا أَنْفُسَهُم مِنَ المَيْلِ ، لِيَسْتَطِيعُوا أَنْ يُدْرِكُوا حَقِيقَةَ ما عَلَيْه الصُّوفِيَّةُ ، ولَمْ يَصْحَبُوا مَنْ يُجَلِّى لَهُم مَقاماتِ السَّيْرِ وما يَنْشَأُ عَنْها ، وإِذا كُنَّا لا نَثِقُ بِمَنْ يَأْخُذُ عِلْمَهُ عَنِ الكُتُبِ مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ مِنْ عالِمٍ بِها ، فَكَيْفَ بِمَنْ عَقِيدَتُهُ غَيْرُ عَقِيدَةِ الإِسْلامِ ، وتَفْكِيرُهُ غَيْرُ التَّفْكِيرِ الإِسْلامِيِّ ، هَذا عَلَى فَرْضِ أَنَّهُم سَلِمُوا مِنْ تَشْوِيهِ الحَقِيقَة .

وهَذا الخَلْطُ الغَرِيبُ الَّذِي خَلَطُوا فِيهِ حَتَّى لَقَدْ أَخْرَجُوا لِلإِسْلامِ فى التَّصَوُّفِ صُورَةً مَمْسُوخَةً لا يَمُتُّ لِصُوفِيَّةِ الإِسْلامِ بِسَبَبٍ ، ولا يَتَأَتَّى مِمَّنْ تَنَزَّهَ عَنِ الغَرَضِ وبَرِىءَ مِنَ الهَوَى ، فَإِنَّ الخَطَأَ الَّذى لا عَمَدَ فِيهِ لا يُمْكِنُ أَنْ يُشَوِّهَ الحَقائِقَ كُلَّ هَذا التَّشْوِيه .

وفي ظَنِّي أَنَّ هَؤُلاءِ القَوْمَ قَدْ عَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ أَساسُ مَسِيحِيَّتِهِم الَّتِي يَدِينُونَ بِها أَساساً مُتَناقِضاً لا يُمْكِنُ لِلْعَقْلِ أَنْ يَتَصَوَّرَهُ : مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِمْ بِإِلَهٍ هُوَ واحِدٌ ، وهُوَ ثَلاثَةٌ ، وهُوَ خالِقٌ ، وهُوَ مَخْلُوقٌ ، وهُوَ أَبٌ ، وهُوَ ابْنٌ ، وهُوَ عَدْلٌ ، وقادِرٌ ، فَيُرِيدُ أَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ أَكَلَ شَجَرَةً فَيَقْتُلُ بِها مَنْ لا يَسْتَحِقُّ القَتْلَ لِيَغْفِرَ لَهُ !! ثُمَّ يَغْضَبُ عَلَى مَنْ نَفَّذَ هَذا القَتْلَ ! ، ولايُمْكِنُ بِحالٍ أَنْ نَتَصَوَّرَ قِدِّيساً كَسَيِّدِنا (عِيسَى) نَبِيِّ اللهِ ورَسُولِهِ عليه السلام يَأْتِي بِمِثْلِ هَذِهِ الخَيالاتِ

الَّتي لا يُقِرُّها عقلٌ ، وهلْ كَلَّفَ اللهُ غَيْرَ العُقَلاء ؟!
وإذا كانُوا قَدْ شَوَّهُوا صُورَةَ مَنْ هُم المَثَلُ الأَعْلَى لِلْمُسْلِمِ العالِمِ العامِلِ بِعِلْمِهِ الَّذي بَلَغَ ذُرْوَةَ التَّحْقِيقِ بِما جاءَ بِهِ الإِسْلامُ عِلْماً وعَمَلاً وتَخَلُّقاً فَكَيْفَ بِتَشْوِيهِ صُورَةِ غَيْرِهِمْ ؟ وكَأَنَّهُم أَرادُوا (مِنْ طَرِيقٍ خَفِيٍّ) أَنْ يُبَرِّرُوا تَناقُضَهُم ، فَصَوَّرُوا السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ في صُورَةِ مَنْ يُشارِكُهُم هَذا التَّناقُضَ ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِمْ أَنَّهُم أنهُم قائِلُونَ بِأَنَّ الخالِقَ عَزَّ شَأْنُهُ هُوَ نَفْسُ الكَوْنِ المَخْلُوقِ ، فَهُوَ واحِدٌ وهُوَ اثْنانِ ، أَو هُوَ واحِدٌ وهُوَ عَدَدٌ كَثِيرٌ ، فَكَيْفَ لا يُسَلِّمُ المُسْلِمُونَ لَهُم في مَسِيحِيَّتِهِمْ أَنْ يَكُونَ الواحِدُ ثَلاثَةً مِنْ وَجْهٍ واحِد .
والبَوْنُ شاسِعٌ بَيْنَ ما يَقُولُهُ الصُّوفِيَّةُ وبَيْنَ ما يَزْعُمُونَ ، وإِلَيْكَ بَيانُ ذَلِكَ :

نِسْبَةُ المَخْلُوقِ إِلَى الخالِقِ :

لاخِلافَ بَيْنَ العُقَلاءِ في وجُودِ واجِبٍ هُوَ مَصْدَرُ كُلِّ ما في الكائِناتِ مِنْ نِظامٍ وتَدْبِيرٍ وعِلْمٍ وحِكْمَةٍ ، وجاءَتِ الأَدْيانُ بِوَصْفِ الواجِبِ بِالكَمالِ الأَعْلَى ، لاخِلافَ بَيْنَهُم في ذَلِكَ وإِنَّما اخْتَلَفُوا في فَهْمِ الكَمالِ ، وذَهَبَ كُلٌّ إِلَى وَجْهٍ مِنَ الفُرُوضِ في نِسْبَةِ الكائِنات إِلَى الواجِبِ سُبْحانَه .
فَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الخالِقَ أَثَّرَ في ذاتِهِ فَحَوَّلَها كُلَّها أَوْ بَعْضَها فَصَيَّرَها هَذِهِ الكائِناتِ ، فَهِيَ هُوَ ، وهُوَ هِيَ حَقِيقَةً .
ولا خِلافَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ (الصُّوفِيَّةِ مِنْهُمْ وغَيْرِ الصُّوفِيَّةِ) فِي أَنَّ هَذِهِ العَقِيدَةَ عَلَى ظاهِرِها عَقِيدَةٌ باطِلَةٌ ، وأَنَّ القائِلَ بِها كافِرٌ مُشْرِكٌ بِاللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، وأَنَّ هذا التَّصَوُّرَ يُنْسَبُ إِلَى وَثَنِيِّ الهُنُود .
أَمَّا مَنْ يَقُولُونَ بَعْدَ هَذا : إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الكائِناتِ المَرْئِيَّةِ وغَيْرِها أَو بَعْضِها مَوْجُودٌ بِذاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَنْ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى .
فهوَ باطِلٌ أَيْضاً ، يَرُدُّهُ الإِسْلامُ والمُسْلِمُونَ ، فَإِنَّ الواجِبَ لا يَكُونُ إِلَّا ذا

كَمالٍ مُطْلَقٍ ، والكَمالُ المُطْلَقُ لا يُتَصَوَّرُ إلَّا أَحَدِيّاً .

وأَمَّا القائِلُونَ بِأَنَّ الكائِناتِ بِحَذافِيرِها مُفْتَقِرَةٌ إلَى رَبِّها سُبْحانَهُ وتَعالَى ، لايَصِحُّ أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنْهُ بِحالٍ ، وهُوَ وَحْدَهُ الغَنِيُّ بِذاتِهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَهَذا هُوَ دِينُ الأَنْبِياءِ قاطِبَةً ، وهَذا عَيْنُ القَوْلِ بِوَحْدَةِ الوجُودِ الَّتِي يَعْنِيها الصُّوفِيَّةُ ، وقَدْ قالَ ﷺ : (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَها شاعِرٌ كَلِمةُ لَبِيد : أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ)[1] ، وقالَ الحَقُّ تَعالَى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[2] . قالَ الصُّوفِيَّةُ : فانٍ فيهِ ، لا قَيُّومِيَّةَ لَهُ إلَّا بِهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِهِ ، ووَحْدَةُ الوجُودِ بِهَذا المَعْنَى لا يَصِحُّ لِمُؤْمِنٍ إيمانٌ إلَّا بِالقَوْلِ بِها .

فَنِسْبَةُ المَخْلُوقِ إلَى خالِقِهِ نِسْبَةُ الافْتِقارِ الذَّاتِي إلَى الغِنَي المُطْلَقِ الذَّاتِي . وإذا صَحَّ أَنَّ مَخْلُوقاً تَظْهَرُ صُورَتُهُ في مَرايا كَثِيرَةٍ ، ولا قَيُّومِيَّةَ لِلصُّوَرِ إلَّا بِهِ ، فَهُوَ واحِدٌ وقَدْ قامَتْ بِهِ تِلْكَ الصُّوَرُ جَمِيعُها ، ومَعَ ذَلِكَ فَهِيَ صُوَرٌ لَمْ تَجْعَلْهُ مُتَعَدِّداً ، ولَمْ تَتَحَوَّلْ ذاتُهُ وتَتَفَرَّقْ فَتكُونُ تِلْكَ الصُّوَرَ ، وكُلُّها راجِعٌ إِلَيْهِ ، ولا تَزالُ مَعَ هَذا صُوَراً .

وهَذا مَثَلٌ في الخَلْقِ ، تَنَزَّهَ رَبُّنا سُبْحانَهُ عَنْهُ وعَنِ الأَمْثالِ ، فَلَيْسَ بِجِسْمٍ حَتَّى تَحِلَّهُ الصُّوَرُ ، وهُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ الكَيْفِ وما يَلْزَمُ مِنْهُ الحَدُّ . وقَدْ يُساقُ تَقْرِيباً لِما يُمْكِنُ أَنْ يَتَجَلَّى بِهِ سُبْحانَهُ في الكَوْنِ ، مِنْ كَمالاتِهِ المُقَدَّسَةِ مِنْ عِلْمٍ وقُدْرَةٍ وحَياةٍ وسَمْعٍ وبَصَرٍ .

وأَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ القَوْلِ بِالتَّجَسُّدِ والاتِّحادِ هُم الصُّوفِيَّةُ ، وإنَّما هُوَ اخْتِلافٌ في التَّعْبِيرِ ، فَإذا قالُوا (لا مَوْجُودَ إلَّا اللهُ) ، أَي لا مَوْجُودَ الوجُودَ الحَقَّ إلَّا اللهُ ، فَلَيْسَ لِسِواهُ الغِنَى الذَّاتِي .

والمُفْتَقِرُ في وُجُودِهِ لَيْسَ وُجُودُهُ بِوجُودِهِ ، وإنَّما هُوَ مِلْكٌ لِمُعْطِيهِ ، فالأَزَلِيُّ

---

(١) وعجُزُ البيت : وكُلُّ نَعِيمٍ لا محالَةَ زائِلُ . والحديث أخرجه البُخارِي ومسلم

(٢) سُورَةُ القَصَص مِنَ الآيَة ٨٨ .

القَديمُ في عَقِيدَةِ المُسْلِمِينَ واحِدٌ وكُلُّ ما سِواهُ حادِثٌ ، بِهِ وُجُودُهُ وبِهِ قَيُّومِيَّتُهُ فالأَحَدِيَّةُ ثابِتَةٌ ولَها وَجْهُها ، وتَعَدُّدُ الكائِناتِ ثابِتٌ ولَهُ وَجْهٌ ، فَلا تَناقُضَ ولا تَضادَّ ، إِذِ الوِجْهَةُ مُنْفَكَّة .

فَأَيْنَ مِنْ هَذا أَنَّ الأَبَ ذاتٌ ، والابْنَ ذاتٌ ، ورُوحَ القُدُسِ حمامَةٌ تَطِيرُ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، وكُلٌّ أَزَلِيٌّ قَدِيمٌ ، والثَّلاثَةُ شَيْءٌ واحِدٌ حَقِيقَةً ؟ أَلَيْسَ في النَّاسِ عُقُولٌ ؟ أَلَيْسَ هُناكَ مِعْيارٌ لِلنَّقْدِ ؟ وما أَجْمَلَ الإِنْصافَ ! ولَكِنْ ما أَقَلَّ المُنْصِفِين !! .

وادَّعَوا أَيْضاً أَنَّ الصُّوفِيَّةَ قائِلُونَ بِأَزَلِيَّةِ النُّورِ المُحَمَّدِيِّ ، وأَنَّهُم يَتَّفِقُونَ مَعَ المَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ قالوا بِأَزَلِيَّةِ المَسِيحِ عليه السلام ، وهَذا أَمْرٌ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ ولا غَيْرُهُم ، وإِنَّما أَرادَ القائِلُونَ بِذَلِكَ تَبْرِيرَ القَوْلِ بِأَزَلِيَّةِ عَبْدِ اللهِ ورَسُولِهِ سَيِّدِنا عِيسَى عليه السلام .

والقائِلُ بِأَنَّ النُّورَ المُحَمَّدِيَّ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ ، حَسْبُكَ مِنْهُ في أَنَّهُ لَيْسَ بِأَزَلِيٍّ ، التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ ، فَلا تَجْتَمِعُ الأَزَلِيَّةُ وسَبْقُ العَدَم .

وإِنْ لَمْ يَكُنِ النُّورُ المُحَمَّدِيُّ أَوَّلَ مَخْلُوقٍ ، فَلْيَكُنِ القَلَمُ أَوَّلَ مَخْلُوقٍ ، أَو العَرْشُ ، أَو الماءُ أَو الهَواءُ ، فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ثَمَّ مَخْلُوقٌ هُوَ الأَوَّلُ عَلَى كُلِّ حال .

والمَخْلُوقُ الأَوَّلُ لا يُعْتَبَرُ في الإِسْلامِ إِلَهاً ، أَو ابْنَ اللهِ ، أَو يَسْتَحِقُّ أَيَّ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ الأُلُوهِيَّةِ ، فَأَيْنَ مِنْ هَذا أَنْ جَعَلُوا المَسِيحَ أَزَلِيّاً ، وابْناً للهِ ، و إِلَهاً مِنْ إِلَه ؟ !! .

وقَدْ نَقَلَ أَبو إِسْحاقَ المَروزيُّ الحَنْبَلِيُّ وغَيْرُهُ : الإِجْماعَ عَلَى أَنَّ الأَرْواحَ كُلَّها (مُؤْمِنَها وكافِرَها) ، كانَتْ مَخْلُوقَةً قَبْلَ الأَجْسادِ ، وظاهِرُ القُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ

قالَ تَعالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾[1] ، وعلَى ذَلِكَ الأَحادِيثُ الصَّحِيحَةُ أَيْضاً وهِيَ البَيانُ لِلْكِتابِ ، ولا ضَرُورَةَ لِصَرْفِها إلَى مَعانٍ لَمْ تَرِدْ في بَيانِ الرَّسُولِ ﷺ ويَجُرُّ ذَلِكَ إلَى تَحْطِيمِ البُنُوَّةِ المَزْعُومَةِ لِسَيِّدِنا عِيسَى عليه السلام المُتَرَتِّبَةِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أُمٍّ بِلاَ أَبٍ ، فَإِنَّ جَمِيعَ الأَرْواحِ سَتَشْتَرِكُ مَعَ سَيِّدِنا عِيسَى عليه السلام في وُجُودِها قَبْلَ جَسَدِ آدَمَ عليه السلام ولَمَّا كانَ الجَسَدُ كالثَّوْبِ أَو البَيْتِ لِلرُّوحِ ، والرُّوحُ هِيَ الإِنْسانُ العالِمُ المُرِيدُ السَّمِيعُ وكانَ الَّذي مِنَ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ لَيْس بِرُوحِ سَيِّدِنا عِيسَى عليه السلام وإِنَّما هُوَ جَسَدُهُ (ثَوْبُهُ .. بَيْتُهُ) وكَذَلِكَ كُلُّ البَشَرِ ، وسَواءٌ اشْتَرَكَ في بِناءِ البَيْتِ الَّذي تَسْكُنُهُ امْرَأَةٌ أَوِ امْرَأَةٌ ورَجُلٌ ، فَذَلِكَ لادَخْلَ لَهُ في تَكْوِينِ الرُّوحِ ، فَإِنَّها مَوْجُودَةٌ قَبْلَ ذَلِكَ جَمِيعُها ، ومِنْها رُوحُ سَيِّدِنا عِيسَى عليه السلام ، ولَيْسَتْ رُوحي ولارُوحُكَ ولارُوحُ أَحَدٍ مِنْ جَسَدِ أَبِينا ولا أُمِّنا ، وإِنَّما التُّرابُ مِنَ التُّراب .

وَقَوْلُهُ تَعالَى في سَيِّدِنا عِيسَى رُوحٌ مِنْهُ ، وفي الحَدِيثِ رُوحُ اللهِ ، الإِضافَةُ هُنا لِلْمُلْكِ كَبَيْتِ اللهِ ، وناقَةِ اللهِ ، وهِيَ لِلتَّشْرِيفِ ، وقالَ تَعالَى :

﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ۝١٣ ﴾[2] ، وكُلُّ النِّياقِ مُلْكٌ لِلهِ وإِنَّما خَصَّصَها لِلتَّشْرِيفِ ، وقَدْ قالَ تَعالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ ﴾[3] ، رُوحَنا : أي جِبْرِيل ، أي رُوحٌ مِنَ الأَرْواحِ الَّتي نَمْلِكُها ، فالإِضافَةُ لِلتَّشْرِيفِ ، وهَذا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ .

والقائِلُ بِأَنَّ أَوَّلَ مَخْلُوقٍ هُوَ النُّورُ أَو الماءُ أَوالعَرْشُ أَو القَلَمُ ، إِنْ كانَ مُصِيباً فَحَسَنٌ ، وإِنْ كانَ مُخْطِئاً فَلا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ تَنْقِيصٌ لِلذَّاتِ ، ولا وَصْفٌ لِلخالِقِ بِصِفَةِ المَخْلُوقِ ، فالأَوَّلِيَّةُ ثابِتَةٌ لِمَخْلُوقٍ ما .

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف مِنَ الآيَة ١١ . (٢) سُورَةُ الشمس مِنَ الآيَة ١٣ . (٣) سُورَةُ مَرْيَم مِنَ الآيَة ١٧ .

والأُمُورُ الكَوْنِيَّةُ شَيْءٌ والأُمُورُ الَّتي يَتَرَتَّبُ عَلَيْها تَكْذِيبٌ لِما جاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ شَيْءٌ آخر ، ولا يَضُرُّ ذَلِكَ بِاعْتِقادِ تَوْحِيدِ اللهِ شَيْئاً ما كانَتِ العَقِيدَةُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مَرْبُوبٌ للهِ ، لايَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ولا لِغَيْرِهِ نَفْعاً ولاضَرّاً ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً ، ولا رُبُوبِيَّةَ فِيهِ ولا أُلُوهِيَّة ، ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، ولَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمينَ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ إِنْساناً ووكَّلَ إِلَيْهِ خَلْقَ الكَوْنِ ، واعْتِقادُهُم أَنَّ الخالِقَ وَحْدَهُ هُوَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، وما سِواهُ مَخْلُوقٌ ، وأَنَّ المُدَبِّرَ وَحْدَهُ هُوَ اللهُ وما سِواهُ عَبْدٌ مَأْمُورٌ ؛ أَمَّا اعْتِقادُ المَسِيحِيِّينَ - مُسْتَشْرِقِينَ وغَيْرِ مُسْتَشْرِقِينَ - عَلَى ما في كُتُبِهِم : أَنَّ الكَلِمَةَ الأَزَلِيَّةَ هِيَ الخالِقُ لِلْعالَمِ والمُدَبِّرُ لَهُ والمُحاسِبُ لَهُ في الآخِرَةِ ، فَأَيْنَ هَذا مِنْ عَقائِدِ المُسْلِمينَ ؟! .

وقَدْ صَرَّحَ الشَّيْخُ (مُحْيي الدِّين بنُ عَرَبي) بِحُدوثِ العالَمِ في البابِ التَّاسِعِ والسِّتِّينَ مِنَ الفُتُوحاتِ المَكِيَّةِ حَيْثُ قالَ :

(العالَمُ كُلُّهُ مَوجُودٌ عَنْ عَدَمٍ ، ووُجُودُهُ مُسْتَفادٌ مِنْ وُجُودِ مَنْ أَوْجَدَهُ وهُوَ اللهُ تَعالَى ، فَمُحالٌ أَنْ يَكُونَ العالَمُ أَزَلِيَّ الوجُودِ ، لأَنَّ حَقِيقَةَ المُوجِدِ أَنْ يُوجِدَ ما لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفاً عِنْدَ نَفْسِهِ بِالوجُودِ وهُوَ المَعْدومُ ، لاَ أَنَّهُ يُوجِدُ ما كانَ مَوْجُوداً أَزَلاً ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُحالٌ ، فَإِنَّ العالَمَ كُلَّهُ قائِمٌ بِغَيْرِهِ لا بِنَفْسِهِ ، والسَّلام) أ . هـ .

ومِثْلُ القَوْلِ بِالأَزَلِيَّةِ في البُعْدِ عَنْ حَقِيقَةِ ما عَلَيْهِ القَوْمُ ، القَوْلُ بِأَنَّهُ ﷺ يَحِلُّ في مَنْ يَأْتي بَعْدَهُ مِنَ الأَوْلِياءِ ، ولا يُعْتَبَرُ القائِلُ بِهَذا مُسْلِماً ، فَكَيْفَ يَكُونُ صُوفِيّاً ، والإِسْلامُ هُوَ الحُجَّةُ عَلَى مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ ، ومَنْ خالَفَ فَقَدِ افْتَضَحَ .

والَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ المُسْتَشْرِقِينَ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَى الوِراثَةِ الَّتي جاءَتْ في الحَدِيثِ

(١) سُورَةُ الأَنْبِياء مِنَ الآيَة ٢٦ ، ٢٧ .

(إنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأَنْبياء) ، فالوارثُ الكاملُ مَنْ وَرِثَ النَّبِيَّ في ظاهِرِهِ وباطِنِهِ ، أي مايَتعَلَّقُ بالجَوارِحِ الظَّاهِرَةِ ، وما يَتعَلَّقُ بالأَخْلاقِ الباطِنَةِ الَّتي تَرْجِعُ إلَى مُعامَلَةِ القَلْبِ ، وما يَنْكَشِفُ لِلرُّوحِ مِنْ مَشاهِدِها الصَّادِقَةِ ، لا أَنَّ باطِنَ الدِّينِ يُنافي ظاهِرَهُ فَإنَّ ذَلِكَ ضَلالٌ مُبين .

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : (إنَّ في السَّماءِ مَلَكَيْنِ : أَحَدُهُما يَأْمُرُ بالشِّدَّةِ ، والآخَرُ يَأْمُرُ بِاللِّينِ ، وكُلٌّ مُصِيبٌ ، جِبْرِيلُ ومِيكائِيل .

ونَبِيَّيْنِ : أَحَدُهُما يَأْمُرُ بِالشِّدَّةِ والآخَرُ يَأْمُرُ بِاللِّينِ ، وكُلٌّ مُصِيبٌ ، وذَكَرَ إبْراهِيمَ ونُوحاً .

ولِي صاحِبان : أَحَدُهُما يَأْمُرُ بِالشِّدَّةِ ، والآخَرُ يَأْمُرُ بِاللِّين ، وكُلٌّ مُصِيبٌ ، وذَكَرَ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ)(١) .

فَهَذِهِ هِيَ الْوِراثَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ الَّتي يَقُولُ بِها الْمُسْلِمُونَ ، وَرِثُوهُ في التَّخَلُّقِ بِأَخْلاقِهِ الحَمِيدَةِ وسِيرَتِهِ الرَّشِيدَةِ ﷺ ، وهُوَ مَعْنَى الاقْتِداءِ ، لا حُلُولَ ولا تَناسُخ .

وحَدِيثُهُ ﷺ في (أَبي ذَرٍّ) أَنَّهُ أَشْبَهَ (عِيسَى) عليه السلام في وَرَعِهِ ، والَّذي أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، وعَنْ أَبي الدَّرْداء : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إلَى المَسِيحِ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ إلَى بِرِّهِ وصِدْقِهِ وجِدِّهِ فَلْيَنْظُرْ إلَى أَبي ذَرٍّ)(٢) .

۞ الشَّفاعَة :

ولَمْ يُحْسِنُوا فَهْمَ شَفاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، الَّتي يَعْتَقِدُها الْمُسْلِمُونَ ، والَّتي قَرَّرَها الرَّسُولُ ﷺ بالأَسانِيدِ الصَّحِيحَةِ ، بَياناً لِنَصِّ كِتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَإنَّ المُجْمَعَ عَلَيْهِ أَنَّ اللهَ تَعالَى يَأْذَنُ لِنَبِيِّهِ ﷺ في الشَّفاعَةِ لِمَنْ يُرِيدُ اللهُ عَزَّ

---

(١) أخرجه (الطَّبرانيُّ) ، وقالَ الحافِظُ الهَيْثَمي : رجالُهُ ثِقاتٌ .
(٢) أخرجهُ الطَّبراني .

وجَلَّ العَفْوَ عَنْهُ ، فَهِيَ مِنَ اللهِ لا تَأْثِيرَ لِلشَّفِيعِ في إرادَةِ الحَقِّ سُبْحانَهُ ، وإنَّما يُرِيدُ عَزَّ شَأْنُهُ إظْهارَ كَرامَةِ الرَّسُولِ عِنْدَهُ ، وهَذِهِ هِيَ الشَّفاعَةُ عِنْدَ المُوَحِّدِينَ لا شَفاعَةُ المُشْرِكِينَ ، والشَّفاعَةُ في حَقِيقَتِها مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِمَنْ شاءَ إلَّا المُشْرِكِين .

غايَةُ الصُّوفي : قالَ تَبارَكَ وتَعالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1]

قالَ أَبو العَبَّاس المُرْسِي : (الأَكْوانُ عَبِيدٌ مُسَخَّرَةٌ وأَنْتَ عَبْدُ الحَضْرَةِ ، فالسَّمَواتُ وما فِيها مِنَ الكَواكِبِ والشَّمْسِ والقَمَرِ لِأَجْلِ الإنْسانِ ، والأَرْضُ وما عَلَيْها مِنَ الجِبالِ والأَشْجارِ والأَنْهارِ والحَيَوانِ لِأَجْلِ الإنْسانِ ، والإنْسانُ هُوَ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإلَهِيَّةِ خاصَّةً)[2].

وهَذا هُوَ غايَةُ الإنْسانِ الصُّوفي أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِله .

قالَ تَعالَى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[3]، وفَرْقٌ بَيْنَ مَقامِ المُحِبِّ ومَقامِ المَحْبُوب ، قالَ تَعالَى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[4].

وقَدِ انْقَضَتِ النُّبُوَّةُ فَلا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ في مَرْتَبَتِها ، كَما أَنَّ فَضْلَ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لايُدْرَكُ ، والصَّحابِيُّ مَنِ اجْتَمَعَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُسْلِماً وماتَ عَلَى إسْلامِهِ .

ومُنْتَهَى ما يَصِلُ إلَيْهِ الأَوْلِياءُ الاجْتِماعُ بِالنَّبِيِّ ﷺ في اليَقَظَةِ ، كَما ذَكَرَهُ مُحَقِّقُو أَهْلِ الشُّهُودِ ، وارْجِعْ إلَى ما ذَكَرَهُ الحافِظُ (ابْنُ أَبي جَمْرَةَ) في شَرْحِهِ عَلَى مُخْتَصَرِ صَحِيحِ البُخارِي ، وغَيْرُهُ مِنَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّة .

وهَذا الاجْتِماعُ هُوَ بِدايَةُ أَمْرِ الصَّحابِيِّ ، فَنِهايَةُ الأَوْلِياءِ بِدايَةُ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم

---

(١) سُورَةُ لُقْمان مِنَ الآيَة ٢٠ .
(٢) الإنْسانُ والإسْلام . لـ (محمد الطاهر الحامدي) .
(٣) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ٣١ .
(٤) سُورَةُ المائِدَة مِنَ الآيَة ٥٤ .

وحُكْمُ رُؤْيا النَّوْمِ ، حُكْمُ رُؤْيَةِ اليَقَظَةِ ؛ لابُدَّ مِنْ عَرْضِها عَلَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ فَما قَبِلَهُ قَبِلْناهُ ، وما رَدَّهُ فَلا نَأْخُذُ بِهِ .

فَمُنْتَهَى ما تَصْبُو إِلَيْهِ آمالُ العارِفِينَ أَنْ يَتحَقَّقُوا بِأَكْمَلَ ما يُمْكِنُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ في مَرْتَبَتِهِمْ ، مِنْ مَعْرِفَةٍ وعَمَلٍ وحالٍ ، لا دُنْيا ولاكَوْنَ ، فَلا يَكُونُ شَيْءٌ مِنْها غايَةً .

قالَ العارِفُ ابْنُ عَطاءِ اللهِ : مَقْصُودُكَ أَمامَكَ ، فَدَعْ كُلَّ شَيْءٍ خَلْفَ ظَهْرِكَ .

أَخْرَجَ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ :

(إِنَّ اللَّهَ تَعالَى قالَ : مَنْ عادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ ، وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِها ، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بِها ، وإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ) .

وفي الحَدِيثِ ثَلاثُ مَراتِب :

١. مَنْ قامَ بِالفَرائِضِ عِلْماً وعَمَلاً ، ظاهِراً وباطِناً .

٢. مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِالنَّوافِلِ بَعْدَ قِيامِهِ بِالفَرائِضِ ، ولَمَّا يَبْلُغْ بِهِ ذَلِكَ إِلَى مَقامِ المَحْبُوبِيَّةِ .

٣. مَنْ بَلَغَ بِهِ التَّقَرُّبُ بِالنَّوافِلِ إِلَى مَقامِ المَحْبُوبِيَّةِ عِنْدَ الحَقِّ تَبارَكَ وتَعالَى.

وهَذِهِ هِيَ أَعْلَى المَراتِبِ وأَشْرَفُ المَنازِلِ : كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، ولَمْ يَقُلْ سُبْحانَهُ كُنْتُ عَيْنَيهِ ولا أُذُنَيْهِ لِأَنَّ الأَمْرَ لا يَدْخُلُ في نِطاقِ المَحْسُوسات .

وسَواءٌ فَهِمْنا في ذَلِكَ ، أَنَّ الحَقَّ عَزَّ وجَلَّ تَولَّى شَأْنَهُ فَأَسْمَعَهُ ما لا يَسْتَطِيعُ أَنْ

يَسْمَعَ بِأُذُنِهِ ، وأَنْ يُرِيَهُ ما لايَسْتَطِيعُ أَن يَبْلُغَهُ بَصَرُهُ .. إلخ ، أَو أَنَّ الحَقَّ عَزَّ وجَلَّ حَفِظَ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ ، فَأَحاطَهُ بِرِعايَتِهِ الخاصَّةِ ، أَو أَنَّهُ سُبْحانَهُ أَنْسَى العَبْدَ نَفْسَهُ ، وأَشْغَلَهُ بِذاتِهِ العَلِيَّةِ ، فَأَصْبَحَ لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُحِسُّ إِلَّا بِرَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ .

أَمَّا حُلولُ الحَقِّ في عَبْدِهِ فَهُوَ أَمْرٌ بَعِيدٌ عَنِ التَّفْكِيرِ الإِسْلامِيِّ ، ولَيْسَ ثَمَّةَ رَيْبٌ فِي أَنَّ مُعْتَقِدَهُ لَيْسَ مِنَ المُسْلِمِينَ ، وهُوَ مُخالِفٌ لِما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَنْزِيهِ الحَقِّ عَزَّ شَأْنُهُ . مُخالِفٌ لِلْعَقْلِ ، فَلَيْسَ في قضايا العُقُولِ الصَّحِيحَةِ أَنْ يَحِلَّ غَيْرُ المَحْدودِ في المَحْدود . وإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وما تَرَدَّدْتُ في شَيْءٍ أَنا فاعِلُهُ (لَو جازَ عَلَىَّ التَّرَدُّدُ في صُنْعِ أَمْرٍ) ، وهَذا تَنَزُّلٌ في تَصْويرِ مَبْلَغِ عِنايَةِ اللهِ بِمُسارَعَتِه في إِرْضاءِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالمَحْبُوبِيَّة .

قالَ ﷺ : (إِنَّ مِنْ عِبادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ) ، رَبَطَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ حَتَّى فَنِيَتْ إِرادَتُهُمْ في إِرادَتِهِ تَبارَكَ وتَعالَى ، وغَمَرَهُمْ بِالنُّورِ حَتَّى اسْتَشَفُّوا الحَقِيقَةَ مِنْ وَراءِ أَسْتارِها ، فَلا تَتَوَجَّهُ قُلُوبُهُم إِلَّا إِلَى ما مَضَتْ بِهِ الإِرادَةُ الأَزَلِيَّة .

شارَكُوا النَّاسَ في عُلُومِهِم ، واخْتَصَّهُمُ اللهُ بِالعِلْمِ الخاص .

قالَ سَيِّدُنا الخَلِيلُ عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [1] ، فالإِيمانُ بِالغَيْبِ ، إِيمانٌ حَيْثُ يَقْطَعُ عُروقَ الشَّكِّ ، ولَكِنْ هُناكَ ما هُوَ أَسْمَى مِنْ ذَلِكَ ، أَنْ يُضَمَّ إِلَيْهِ الشُّهُودُ فَيَجْتَمِعُ لِصاحِبِهِ الإِيمانُ بِالغَيْبِ والإِيمانُ بِالشَّهادَةِ ، فَمَنْ آمَنَ بِالمَلائِكَةِ ولَمْ يَرَها فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، ومَنَ آمَنَ بِالمَلائِكَةِ ورَآها فَقَدْ جَمَعَ الإِيمانَيْن .

وإِذا كانَ اللهُ تَعالَى قَدْ قالَ : (كُنْتُ سَمْعَهُ ، كُنْتُ بَصَرَهُ ...) فَأَيُّ سِتارٍ وأَيُّ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ٢٦٠ .

حِجابٍ دُونَهُ ؟ ولَئِنْ بَلَغَ قَوْمٌ اليَقِينَ مِنْ طَرِيقِ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ أَو سَمْعِيٍّ ، فَأَهْلُ المَحْبُوبِيَّةِ الخاصَّةِ قَدِ اجْتَباهُم رَبُّ الدَّلِيلِ حَتَّى أَحَلَّهُمْ في عَيْنِ اليَقِينِ ، وهُوَ اليَقِينُ العِلْمِيُّ عَقْلاً وسَمْعاً ، واليَقِينُ الشُّهُودِيُّ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]، وقَدْ كانَ مِنَ المُوقِنِينَ عِلْمَ يَقِينٍ ، فَسَما إِلَى يَقِينِ عِلْمِ اليَقِينِ وعَيْنِ اليَقِينِ .

والعُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ في كُلِّ ما لَمْ يَكُنْ مِنْ خَصائِصِ النُّبُوَّةِ .

أَرَأَيْتَ مَنْ غَشِيَهُ نُورُ الشَّمْسِ حَتَّى عَجَزَ بَصَرُهُ عَنْ تَحَمُّلِ أَنْوارِها السَّاطِعَةِ ، ولَفَحَ وَجْهَهُ وَهْجُ حَرارَتِها المُتَأَجِّجَةِ ، أَتَظُنُّهُ يَلْتَمِسُ عَلَى الشَّمْسِ دَلِيلاً ؟ أَرَأَيْتَ مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ قَرْعُ المَدافِعِ ، فَكادَ يُصِمُّ أُذُنَهُ ، أَيَسْأَلُ النَّاسَ عَنْها ؟ بَلْ مَنْ أُلْقِيَ بِجَسَدِهِ في النَّارِ ، أَتَراهُ يَدورُ بِخَلَدِهِ ما يُشْبِهُ الرَّيْبَ في وُجُودِ النَّارِ ؟ ذَلِكَ حالُ أَهْلِ اليَقِينِ الشُّهودِيِّ مازَجَ اليَقِينُ حَقائِقَهُم حَتَّى صاروا هُمُ اليَقِين .. ولَيْسَ الخَبَرُ كالمُعايَنَة .

ذَلِكَ هُوَ الوصُولُ إِلَى الحَقِّ ، أَزالَ اللهُ مِنَ العَبْدِ صِفاتِهِ الذَّمِيمَةَ ، وطَهَّرَهُ مِنْها ، ثُمَّ أَنْعَمَ عَلَيْهِ ، وجَمَّلَهُ بِصفاتِ الكَمالِ بِما يُناسِبُ مَرْتَبَةَ الخَلْقِ ، وأَشْغَلَهُ بِهِ عَنْ كُلِّ ما سِواهُ فَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ في حُبِّهِ بِاللهِ سُبْحانَهُ لا بِهِ .

هَؤُلاءِ هُم السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ بِالصُّوفِيِّ ، وكَمِ انْتَسَبَ إِلَى القَوْمِ مَنْ لَيْسَ مِنْهُم .

ولَيْسَ عَلَى مَنْ تَحقَّقَ بِمَقامِ المَحْبُوبِيَّةِ جُناحٌ أَنْ يَكُونَ أَمِيراً أَو فَقِيراً ، ولَيْسَ في الصُّوفِيَّةِ كَنَّازٌ ، وقَدْ يَكُونُ فِيهِم مَنْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ سِماتُ الثَّراءِ ، فَهُوَ يَأْخُذُ ما يَأْخُذُ عَنِ اللهِ ، ويُنْفِقُهُ بِاللهِ لِلهِ ، فَإِنْ كانَ فَقِيراً فَهُوَ الفَقِيرُ الصَّابِرُ ، وإِنْ

(١) سُورَةُ الأَنْعام الآيَة ٧٥ .

كانَ غَنِيّاً فَهُوَ الغَنِيُّ الشَّاكِر .

(أَجَلْ غَايَتُهُم القُصْوَى هِيَ هَذِهِ ، وهِيَ مَرْتَبَتُهُم في الإيمانِ والمَعْرِفَةِ) ، وهَلْ وَقَفُوا دُونَ مَرْتَبَةٍ يَصِحُّ أَنْ يُدْرِكُوها مِنْ مَراتِبِ العِلْمِ ؟ ، وعَلَى هَذا الأَساسِ عَمَلُهُم ، حُفُّوا بالرِّعايَةِ فَعَمِلُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِم ، فَمَنَّ عَلَيْهِم ، فَرَزَقَهُم مُنْتَهَى الإِخْلاصِ في العَمَلِ ، وتَصَوَّرْ : أَيَّ حالٍ يَنْتُجُ عَنْ هَذا العِلْمِ وهذا العَمَلِ ، وإذاً فَقَدْ جَمَعَ اللهُ لَهُم صَفاءَ العِلْمِ ، وصَفاءَ العَمَلِ ، وصَفاءَ الحال .

إِنَّ قَولَهُ تَعالَى : كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِها ، ولَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ .

هُوَ شَأْنُ المَحْبُوبِيَّةِ ، ولِذا مُنِحُوا النِّعْمةَ العُظْمَى (رِضْوانَ اللهِ الأَكْبَرَ) ، ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[1].

وَسِيلَةُ الصُّوفي :

أَمَّا وَسِيلَتُهُم رضي الله عنهم ، فَهِيَ التَّحَقُّقُ الكامِلُ في أَعْلَى مَنْزِلَةٍ (ظاهِراً وباطِناً) بِكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، والتَّخَلِّي عَنْ كُلِّ مايَقْطَعُ عَنِ الوصُولِ إِلَى الحَقِّ عَزَّ شَأْنُهُ ، أَوْيُبْطِىءُ بِالسَّالِكِ فى السَّيْرِ ، ثُمَّ الانْتِقالُ إِلَى التَّحْلِيَةِ ، وهِيَ التَّخَلُّقُ بِماخْتارَهُ اللهُ لأَصْفِيائِهِ مِنَ المَحاسِنِ المَحْبُوبَةِ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، وقَدْ قالَ سُبْحانَهُ وتَعالَى :﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[2] السَّبِيلُ : الطَّرِيقُ ، فَيَفْتَحُ لَهُ ما شاءَ مِنْ سُبُلِهِ المُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ عَزَّ شَأْنُه .

رَوَى الخَطِيبُ في تارِيخِهِ عَنْ جابِرٍ رضي الله عنه : قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةٍ ، فَقالَ ﷺ (قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَم ، وقَدِمْتُمْ مِنَ الجِهادِالأَصْغَرِ إِلَى الجِهادِ الأَكْبَر) ، قالوا : وما الجِهادُ الأَكْبَرُ يا رَسُولَ الله ؟ قال : (مُجاهَدَةُ العَبْدِ هَواه)[3].

---

(١) سُورَةُ البَيِّنَة مِنَ الآيَة ٨ . (٢) سُورَةُ العَنْكَبُوت مِنَ الآيَة ٦٩ .

(٣) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ البَغْدادِيُّ في تارِيخِهِ وانْظُر (فَيْضَ القَدِير) لِلعَلَّامة المَناوِي : ٤ / ٥١١ .

التَّصَوُّفُ بَرِيءٌ مِنْ هَؤُلاءِ الأَدْعِياءِ

الَّذِينَ دَسَّهُم الأَعْداءُ فى صُفُوفِ الأَصْفِياء

(أَوَّلاً) الَّذِينَ ادَّعَوا سُقُوطَ التَّكْلِيفِ عَنْهُم بِدَعْوَى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[1] ، وفَسَّروا اليَقِينَ هُنا بِمَقامِ الحَقِيقَةِ ، فَهَؤُلاءِ مارِقُونَ مِنْ رِبْقَةِ الإِسْلامِ ، إِذِ (اليَقِينُ) هُنا المَوْتُ ، كَما قالَ جُمْهُورُ المُفَسِّرِينَ ، فَمَنِ اعْتَقَدَ بِذَلِكَ ولَمْ يُؤَدِّ جُمْلَةَ التَّكالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ فِي حَياتهِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْها ، فَهُوَ خارِجٌ عَنِ الإِسْلامِ ، مَهْما زَيَّنَ لَهُ قُرَناءُ الشَّيْطانِ عَمَلَهُ ، أَو غَرُّوهُ بِسمُوِّ مَكانَتِه .

لَقَدْ تَرَكَ قَوْمٌ العَمَلَ وقالوا : نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ ، وكَذَبُوا كَما يَقُولُ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ : (لَوْ أَحْسَنُوا الظَنَّ لأَحْسَنُوا العَمَلَ) .

لابُدَّ مِنْ أَداءِ الفَرائِضِ ، وإِلَّا لَما كانَ لِمُهْمِلِها إِلَى القُرْبِ مِنَ (اللهِ تَعالَى) مِنْ سَبِيل .

ومَعَ أَداءِ الفَرائِضِ ، الإِكْثارُ مِنَ النَّوافِل ، فَتِلْكَ سِمَةُ أَهْلِ التَّصَوُّفِ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ ومِنَ الأَوائِل .

يَقُولُ الشَّيْخُ (مُحَمَّد خَلِيلُ الخَطِيب ، ت ١٩٨٦ م) في كتابِهِ (بِدايةُ التَّعَرُّف في شَرْح نُقايَةِ التَّصَوُّف) : وغايَةُ العِلْمِ العَمَلُ بِهِ فَلا يَنْفَعُ عِلْمٌ بِلاعَمَلٍ بَل يَضُرُّ ، قالَ ﷺ : (كُلُّ عِلْمٍ وَبالٌ عَلَى صاحِبِهِ يَوْمَ القِيامَةِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِهِ)[2] .

وغايَةُ العِلْمِ بِهِ أَنْ تَعْمَلا * ياخُسْرَ مَنْ لِعِلْمِهِ قَدْ أَهْمَلا

يَقُولُ أَبو يَزِيد (طَيْفُورُ بنُ عِيسَى وهُوَ مِنْ رُوَّادِ الصُّوفِيَّة ، ت ٢٦١ هـ) : لَوْ نَظَرْتُم إِلَى رَجُلٍ أُعْطِيَ مِنَ الكَراماتِ حَتَّى يَرْتَقِيَ فى الهَواءِ فَلا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَنْظُروا كَيْفَ تَجِدُونَهُ عِنْدَ الأَمْرِ والنَّهْيِ وحِفْظِ الحُدودِ وأَداءِ الشَّرِيعَة[3] .

---

(١) سُورَةُ الحجر الآيَة ٩٩ . (٢) أخْرَجَهُ الطبرَاني . (٣) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .

وهُوَ أَيْضاً (أَبُو يَزِيد) وقَدْ وُصِفَ لَهُ شَيْخٌ وسَمِعَ مِنْ أَحْوالِهِ ما أَعْجَبَهُ ، فَذَهَبَ لِزِيارَتِهِ ، فَلَمَّا رَآه يَبْصُقُ فى اتِّجاهِ القِبْلَةِ ، قالَ : هَذا غَيْرُ مُؤْتَمَنٍ عَلَى أَدَبٍ مِنْ آدابِ النُّبُوَّةِ ، فَكَيْفَ يُؤْتَمَنُ عَلَى الدِّين ؟ وعادَ ولَمْ يُقابِلْهُ .

إِنَّهُ بَرْهَنَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الصَّادِقِينَ ومَشايِخَ التَّصَوُّفِ الحَقِيقِيِّينَ هُمْ أَغْيَرُ النَّاسِ عَلَى أَدَقِّ سُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَما بالُكَ بِالفَرائِض ؟ ..

وكَم .. وكَم .. تَمْتَلِىءُ صَفَحاتُ التَّارِيخِ بِأَمْثالِ هَذِهِ المَشاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ أَهْلِها وعُلُوِّ قَدْرِهِم عِنْدَ رَبِّهِم ، أُولَئِكَ هُمْ أَهْلُ التَّصَوُّفِ ومَشايِخُهُ بِحَقٍّ

ومِنْ عَجَبٍ أَنَّ أَعْداءَ الإِسْلامِ قَد نَجَحُوا إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ فى تَزْيِينِ الباطِلِ وحَجْبِ الحَقِّ فى أَذْهانِ الكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ ، فَإِذا ذُكِرَ التَّصَوُّفُ عَلَى سَمْعِ أَحَدِهِم ، انْزَلَقَ خَيالُهُ إِلَى الأَفَّاقِينَ واللُّصُوصِ أَو مِمَّنْ يَنْسِبُونَ أَنْفُسَهُم إِلَيْهِ زُوراً وعِدْواناً ، فالَّذى يَفْعَلُ ذَلِكَ (تَماماً) مِثْلَ الَّذى إِذا ذُكِرَ الإِسْلامُ عِنْدَهُ ذَهَبَ خيالُهُ إِلَى (عَبْدِ الله بن أُبَيِّ بنِ سَلُول) زَعِيمِ المُنافِقِينَ بِالمَدِينَةِ وفِرْقَتِهِ ، وتَرَك (أَبا بَكْرٍ وعُمَرَوعُثْمانَ وعَلِيّاً وسائِرَ الأَصْحاب) رضي الله عنهم ، بِرَبِّكَ ماذا تَقُولُ فِيمَنْ هَذا فِعْلُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الدَّاءُ عِنْدَهُ فى قَلْبِهِ !! ..

لَقَدْ كانَ الشُّغلُ الشَّاغِلُ لِكَثِيرٍ مِنْ مَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ هُوَ تَنْقِيَةُ بُسْتانِ التَّصَوُّفِ البَدِيعِ ، المُزْهِرِ ، المُثْمِرِ ، الوارِفِ الظِّلالِ ، مِمَّا يَنْمُو فى جَوانِبِهِ ، مِنْ نَباتاتٍ طُفَيْلِيَّةٍ وحَشائِشَ ضارَّةٍ . ومَزِيدُ بيانِ ذَلِكَ فى السُّطُورِ القادِمَة :

فَهَذا رَجُلٌ جاءَ مُسْتَفْسِراً مِنَ الإِمامِ الجُنَيْد (وهُوَ مِنْ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ ، ت : ٢٩٧ هـ) قائِلاً لَهُ : إِنَّ جَماعَةً تَرَكُوا أَداءَ الصَّلاةِ بِدَعْوَى أَنَّهُم قَدْ وَصَلُوا ، فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ بُرْهَةً ثُمَّ قالَ : نَعَم .. وَصَلُوا إِلَى سَقَر ، ثُمَّ انْبَرَى قائِلاً : (إِنَّ هَذا قَولُ قَوْمٍ تَكَلَّمُوا بِإِسْقاطِ الأَعْمالِ ، وهُوَ عِنْدى عَظِيمٌ ، والَّذى يَسْرِقُ ويَزْنِي أَحْسَنُ حالاً مِنَ الَّذي يَقُولُ هَذا ، فَإِنَّ العارِفِينَ بِاللهِ تَعالَى

أَخَذوا الأَعْمَالَ عَنِ اللهِ ، وإِلَيْهِ رَجَعُوا فِيها ، ولَوْ بَقِيتُ أَلْفَ عامٍ لَمْ أَنْقُصْ مِنْ أَعْمالِ البِرِّ ذَرَّةً إِلَّا أَنْ يُحالَ بِي دُونَها) .

وقالَ الإِمامُ النَّوَوِيُّ (الفَقِيهُ المُحَدِّثُ الصُّوفِيُّ العَلَمُ ت : ٦٧٦ هـ) :

(مَنْ رَأَيْتَهُ يَدَّعِي مَعَ اللهِ حالاً تُخرِجُهُ عَنْ حَدِّ العِلْمِ الشَّرْعِي فَلا تَقْرَبَنَّ مِنْهُ) .

ويَقُولُ أَبو طالِبِ المَكِّيُّ (الإِمامُ الصُّوفيُّ الشَّهِيرُ ، ت : ٣٨٦ هـ) :

(ومَقامُ اليَقِينِ لا يُسْقِطُ فَرائِضَ الإِيمانِ ، ومُشاهَدَةُ التَّوْحِيدِ لاتُبْطِلُ شَرائِحَ الرُّسُومِ ، ولا تُسْقِطُ اتِّباعَهُ ، فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَقَدِ افْتَرَى عَلَى اللهِ ورَسُولِهِ وكَذَبَ عَلَى المُوقِنِينَ والمُحِبِّين) .

وقالَ العَلَّامَةُ الكَبِيرُ الأُسْتاذُ (أَبُو الأَعْلَى المَوْدُودِى) فى كِتابِهِ (مَبادِىءِ الإِسْلامِ) تَحْتَ عُنْوان التَّصَوُّف :

(إِنَّما التَّصَوُّفُ عِبارَةٌ فى حَقِيقَةِ الأَمْرِ عَنْ حُبِّ اللهِ ورَسُولِهِ الصَّادِق بَلِ الوُلُوعُ بِهِما والتَّفانِي فى سَبِيلِهِما ، والَّذى يَقْتَضِيهِ هَذا الوُلُوعُ والتَّفاني أَلَّا يَنْحَرِفَ المُسْلِمُ قَيْدَ شَعْرَةٍ عَنِ اتِّباعِ أَحْكامِ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ ، فَلَيْسَ التَّصَوُّفُ الإِسْلامِيُّ الخالِصُ بِشَيْءٍ مُسْتَقِلٌّ عَنِ الشَّرِيعَةِ ، وإِنَّما هُوَ القِيامُ بِأَحْكامِها بِغايَةٍ مِنَ الإِخْلاصِ ، وصَفاءِ النِّيَّةِ وطَهارَةِ القَلْبِ)(١)

(ثانِياً) الَّذينَ يَأْتُونَ بِمُخالَفاتٍ مِنْ أَقْوالٍ وأَفْعالٍ بِدَعْوَى أَنَّها إِلْهام : يُفَنِّدُ هَذِهِ المَزاعِمَ والتُّرَّهاتِ ، فَضِيلَةُ الشَّيْخ (مُحَمَّد الطَّاهِر الحامِدِي ، وهُوَ مِنْ عُلَماءِ الصُّوفِيَّةِ المُعاصِرينَ ، ت : ١٣٩٧ هـ) فَيَقُولُ : والخُلاصَةُ أَنَّ الإِلْهامَ والفَتْحَ الَّذى يَمُنُّ اللهُ تَعالَى بِهِ عَلَى أَوْلِيائِهِ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُوافِقاً لِلْكِتابِ والسُّنَّةِ ، لِأَنَّ النُّبُوَّةَ قَدْ خُتِمَتْ بِالمُصْطَفَى الخاتَمِ ﷺ ، فاللهُ تَعالَى

---

(١) مبادىءُ الإِسْلام (أَبو الأَعْلَى المَوْدُودى) ص ١١٤ . ١١٧ .

يَقُولُ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[1] ، فَلَيْسَ لأَحدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ بَعْدَ ذَلِكَ . فَلا مَصْدَرَ لِلأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَّا الوَحْيُ النَّازِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حالَ حَياتِهِ الظَّاهِرَةِ ، وقَدِ انْقَطَعَ بانْتِقالِهِ ﷺ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى ، ويَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَنْ يَدَّعِى أَنَّهُ يُلْهَمُ بِشَيْءٍ يُخالِفُ القُرْآنَ والسُّنَّةَ ، أَو يُعَطِّلُ الأَحْكامَ ، فَباطِلٌ مَدْعاهُ ، ومَنْ زَعَمَ أَنَّهُ صُوفِيٌّ وفيهِ هَذِه الدَّعْوَى فَهُوَ كَذَّاب .

وتَحَدَّثَ الإِمامُ الأَكْبَرُ شَيْخُ الأَزْهَر (عَبْدُ الحَلِيم مَحْمُود)[2] عَنْهُم فَقَالَ : (ومِنَ الغَرِيبِ أَنَّهُم يَدَّعُونَ انْتِسابَهُم إِلَى التَّصَوُّفِ ويَزْعُمُونَ أَنَّهُم مِنْ كِبارِ الصُّوفِيَّةِ ومِنْ أَساطِينِ العارِفِينَ ومِنْ عَباقِرَةِ المُلْهَمِينَ . بَلْ وبَيْنَ السَّادةِ الصُّوفِيَّةِ الفارِقُ الَّذي يُعْرَفُ بِهِ المُدَّعِي مِنَ الصُّوفِي ، حَتَّى لا يَخْتَلِطَ الأَمْرُ ويَذْهَبَ التُّرابُ بِالتِّبْرِ ، فَيَقُولُ حُجَّةُ الإِسْلامِ الغَزالي :

(اعْلَمْ أَنَّ سالِكَ سَبيلِ اللهِ تَعالَى قَليلٌ ، والمُدَّعِي فيهِ كَثِيرٌ ونَحنُ نُعَرِّفُكَ عَلامَةً لَهُ ، وذَلِكَ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ أَفْعالِهِ الاخْتِيارِيَّةِ مَوْزُونَةً بِميزانِ الشَّرْعِ ، مَوْقُوفَةً عَلَى تَوْقِيفاتِهِ إيراداً وإِصْراراً وإِقْداماً وإِحْجَاماً . إِذْ لا يُمْكِنُ سُلُوكُ هَذا السَّبِيلِ إِلاَّ بَعْدَ الالْتِزامِ بِمَكارِمِ الشَّرِيعَةِ كُلِّها ، ولا يَصِلُ إِلَّا مَنْ واظَبَ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ النَّوافِلِ فَكَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهِ مَنْ أَهْمَلَ الفَرائِض .

ولَقَدْ أَصَّلَ عُلَماءُ التَّصَوُّفِ الأَئِمَّةُ الرُّوَّادُ ، السِّماتِ الواجِبَةَ للمُتَصَدِّرِينَ للإِرْشادِ ، وهاكَ قَوْلُهُم :

ولِلشَّيْخِ آياتٌ إِذا لَمْ تَكُنْ لَهُ * فَما هُوَ إِلاَّ فى لَيالِي الهَوَى يَسْرِي
إِذا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظاهِرٍ * ولا باطِنٍ فاضْرِبْ بِهِ لُجَّةَ البَحْرِ

---

(١) سُورَةُ المائِدَة مِنَ الآيَة ٣ .
(٢) قَضِيَّةُ التَّصَوُّف المُنْقِذ مِنَ الضَّلال . لِشَيْخ الأَزْهَر (عَبْدِ الحَليم مَحْمود) ص ١٢٨ .

وإنْ كـانَ إلاَّ أنَّـهُ غَـيْـرُ جـامِـعٍ ❊ لِوَصْفَيْهِما جَمْعاً عَلَى أكْمَلِ الأَمْرِ
فَـأَقْرَبُ أَحْوالِ العَليلِ إلَى الرَّدَى ❊ إذا لَمْ يَكُنْ مِنْها الطَّبيبُ عَلَى خُبْرِ
وآيَـتُـهُ أَنْ لاَ يَـمِـيـلَ إلَـى هَــوَىً ❊ فَدُنْياهُ في طَيٍّ وأُخْراهُ في نَشْرِ [١]

(ثالثاً) الكُسالَى المُتَثاقِلُونَ الَّذينَ يَدْعُونَ إلَى السَّلْبِيَّةِ والتَّواكُل :

إنَّ رِجالَ التَّصَوُّفِ أَهْلُ إعْمارٍ وأَذْكارٍ ، فَقَدْ كانَ (عَبْدُ اللهِ بنُ المُبارَك) يَحِجُّ عاماً ويُجاهِدُ عاماً ، وقَدْ كانَ (شَقِيقُ البَلْخِى) فارِساً مِغْواراً يَطْلُبُ المَوْتَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وكَذَلِكَ كانَ (حاتِمُ الأَصَمُّ) مُقاتِلاً بارِعاً ، لَهُ فى الجِهادِ مَواقِفُ وكَرامات .

وكانَ (أبو الحَسَنِ الشَّاذُلِي) صاحِبَ مَزارِعَ وتِجاراتٍ ، وكَذا (شَمْسُ الدِّينِ الدِّمْياطى) الَّذى بَنَى بُرْجَ دِمْياطَ مِنْ مالهِ الخاصِّ ومِنْ رَيْعِ تِجاراتِه .

ولَو تَتَبَّعْنا آدابَ المُرَبِّينَ فى أَجْواءِ الصُّوفِيَّةِ ، لَوَجَدْناهُم يَدْفَعُونَ مُرِيدِيهِم وتلامِيذَهُم إلَى العَمَلِ والإنْتاجِ ، ويَحُثُّونَهُم عَلَى ذَلِكَ حَثَّاً ، لأَنَّهُم يَعْلَمُونَ ويُعَلِّمُونَ كُلَّ ما وَرَدَ في هَذا البابِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ عَنْ أَشْياخِهِم في اللهِ الَّذِينَ يُوقِنُونَ ويُؤَكِّدُونَ عَلَى الدَّوامِ أَنَّ إقامَةَ خِلافَةِ اللهِ تَعالَى عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ لا يَكُونُ بِالسَّلْبِيَّةِ والتَّواكُلِ والاسْتِسْلام .

نَزَلَ أَحَدُ المُرِيدينَ عَلَى زاوِيَةِ الشَّيْخِ ضَيْفاً ، فَأَقْرَاهُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : يا وَلَدِي ، قَدِ انْتَهَتْ مُدَّةُ الضِّيافَة ، فَقالَ المُرِيدُ : إنَّما جِئْتُ لأَتَصَوَّفَ ، قالَ الشَّيْخُ : لَيْسَ التَّصَوُّفُ عِنْدَنا أَنْ تَصُفَّ قَدَمَيْكَ وغَيْرُكَ يَمُونُ عَلَيْكَ ، ولَكِنِ ابْدَأْ بِرَغِيفَيْكَ فَأَحْرِزْهُما ، ثُمَّ تَصَوَّفْ ، ثُمَّ اجْعَلْ مِنْشَارَكَ مِسْبَحَتَكَ ، واذْكُرْ عَلَى دَقَّاتِ الفَأْسِ والمَكُّوك .

وللهِ دَرُّ الشَّيْخ (صالِح الجَعْفَرِي) حِينَ قالَ :

---

(١) كِتابُ مَنْهَلِ الوُرَّاد (جابر أَحْمَد مُعَمَّر) ص ٣٤٦ .

والسَّعْيُ مَطْلُوبٌ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ * والتَّرْكُ مَطْلُوبٌ لَدَى الفَحْشاءِ
والجِدُّ مَطْلُوبٌ لِكُلِّ مَعِيشَةٍ * وكَذا السِّلاحُ لِرَوْعَةِ الأَعْداءِ
والعِلْمُ مَطْلُوبٌ لأَجْلِ تَعَبُّدٍ * وكَذاكَ في الدُّنْيا مَعَ العُلَماءِ
فازْرَعْ وتاجِرْ واجْتَهِدْ في صَنْعَةٍ * لِتَعِيشَ في الدُّنْيا بِخَيْرِ ثَراءِ[1]

وكانَ (عَبْدُاللهِ بنُ المُبارَكِ) يَقُولُ : لا خَيْرَ فِيمَنْ لايَذُوقُ لَذَّةَ المَكاسِب .

وسُئِلَ (الجُنَيْدُ) عَنِ الكَسْبِ فَقالَ : إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ فارِغاً مِنْ عَمَلِ الدِّينِ أَوعَمَلِ الدُّنْيا .

وكانَ (أَبُو سَعِيد الخَرَّازُ) يَقُولُ : مَكاسِبُكَ لا تَمْنَعُكَ مِنَ التَّفْوِيضِ والتَّوَكُّل .

وقالَ (إِبْراهِيمُ الخَوَّاصُ) : إِذا تَرَكَ المُرِيدُ الأَسْبابَ فَقَد تَرَكَ الطَّرِيقَ .

ولِلّهِ دَرُّ الشَّيْخ (مُحَمَّد الطَّاهِر الحامِدى) فى نَظْمِهِ[2] :

والخُلْفُ بَيْنَ القَوْمِ فى التَّسَبُّبِ * وضِدُّهُ مُشْتَهِرٌ فى الكُتُبِ
وأَقْرَبُ القَوْلَيْنِ لِلصَّوابِ * أَنْ يَأْخُذَ الإِنسانُ فى الأَسْبابِ
مَعْ كَوْنِهِ مُفَوِّضاً لِرَبِّهِ * مُعْتَمِداً مُسَلِّماً بِقَلْبِهِ
فادْأَبْ لِتَحْصِيلِ المَعاشِ لاتَكُنْ * لِلنَّاسِ فى دُنْياكَ مُحْتاجاً تَهُنْ
ولا تُقَلِّدْ في إِطْراحِ الكَسْبِ * مَنْ كانَ مَغْلُوباً بِحُكْمِ الجَذْبِ
وأْتِ البُيُوتَ دائِماً مِنْ بابِها * والْتَمِسِ الأَشْياءَ فى أَسْبابِها

ولا أَدَلَّ عَلَى فاعِلِيَّةِ التَّصَوُّفِ وإِيجابِيَّتِهِ فى الحَياةِ العَمَلِيَّةِ ، مِنْ تِلْكَ الأَلْقاب الَّتِى اشْتُهِرَ بِها أَبْرَزُ أَعْلامِ التَّصَوُّفِ ، والَّتِى تُنْبِىءُ عَمَّا كانوا يُمارِسُونَ مِنْ حِرَفٍ ومِهَنٍ ، مُتَرَسِّمِينَ بِذلِكَ خُطَى الأَنْبِياءِ ، فَمِنْهُم : النَّسَّاجُ[3] ، والزَّجَّاجِي[4]

---

(١) دِيوانُ الجَعْفَرِي ج ٧ . (٢) مُرْشِدُ الأَنام لِما يَلْزَمُهُم مَعْرِفَتُهُ مِنَ الأَحْكام .
(٣) هُوَ(أَبُو الحَسَنَ بنُ اسْماعِيل) المُسَمَّى بِخَيْر النَّسَّاج . لأَنَّهُ أَقامَ فى نَسْجِ الخَزِّ سِنِينَ .
(٤) هُوَ (أبو عَمْرو مُحَمد بنُ إبراهيم) والزَّجاجى : نِسْبَةٌ إِلى صناعَة الزُجاج .

والصِّيرَفِيُّ[١] ، والقَصَّارُ[٢] ، والجَلَّاءُ[٣] ، والوَرَّاقُ[٤] ، والخَرَّازُ[٥] ، والخَوَّاصُ[٦] ، والحَمَّالُ[٧] ، والفَرَّانُ[٨] ، وغَيْرُهُم كَثِيرٌ .

وهَذا (إِبْراهِيمُ بنُ أَدْهَم) يَقُولُ لِمُرِيدِيه : عَلَيْكُم بِعَمَلِ الأَبْطال ، الكَسْبُ مِنَ الحَلالِ والنَّفَقَةُ عَلَى العِيال .

و(الدُّسُوقِيُّ) ﷺ يَقُولُ لأَتْباعِه : مَنْ لَمْ يَكْسِبْ قُوتَهُ مِنْ عَمَلِه فَلَيْسَ مِنَّا ولَوْ كانَ غَنِيّاً .

و(الرِّفاعِيُّ) ﷺ يَقُولُ لِمُرِيدِيه : تَمَيَّزُوا عَلَى النَّاسِ بِحِلْيَةِ التَّصَوُّفِ ، وحِلْيَةُ التَّصَوُّفِ أَنْ تُغْنِيَ نَفْسَكَ وأَهْلَكَ قَبْلَ وِرْدِكَ وذِكْرِكَ .

وهَكَذا ، نَعْرِفُ أَنَّهُم كانُوا بِحَقٍّ مُثُلاً لِلمُسْلِمِ الكامِلِ إِيماناً ، وعَمَلاً ، وسَعْياً ، وجِدّاً وجِهاداً واجْتِهاداً ، وقَبْلَ هَذا كُلِّهِ ومَعَهُ وبَعْدَهُ ، صِلَةً كُبْرَى بِاللهِ تَعالَى .

(رابِعاً) الَّذِين دَأَبُوا عَلَى إِثارَةِ الفِتَنِ ، وتَوْسِيعِ دائِرَةِ الخِلافاتِ بَيْنَ المَذاهِبِ الإِسْلامِيَّةِ ، ورَفْضِ سِياسَةِ التَّقارُب ، وتَبَنِّى سِياسَةِ التَّباعُد :

يُؤْمِنُ أَهْلُ التَّصَوُّفِ بِأَنَّ أَهْلَ القِبْلَةِ جَمِيعاً إِخْوَة .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾[٩] ، فَلا خُصُومَةَ بَيْنَهُم أَبَداً ، ولا شِقاقَ ولا نِزاعَ ، فالكُلُّ عَلَى اخْتِلافِ مَذاهِبِهِم فى نِسْبَتِهِم إِلَى زُمْرَةِ (أَهْلِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) سَواءٌ ، سَواءٌ أَكانُوا أَحْنافاً أَمْ مالِكِيَّةً ، أَمْ شافِعِيَّةً ، أَمْ حنابِلَةً ، أَمْ زَيْدِيَّةً ، أَمْ إِمامِيَّةً ، أَمْ ظاهِرِيَّةً أَمْ

---

(١) هُوَ (أبو الحَسَن عَلِيُّ بنُ بِنْدار بنِ الحُسَيْنْ) والصِّيرَفِي نِسْبَةٌ إلى صِرافَةِ الدَّراهِم .
(٢) هُوَ (أبو صالِح حَمْدون بنَ أَحْمَد) والقَصَّارُ نِسبَةٌ إلى قَصْر الثِّيابِ وصِباغَتِها .
(٣) هُوَ(أبو عِبدالله بن يحيى) والجَلاَّء نسبة إلى جِلاءِ السُّيُوف .
(٤) هُوَ (أبو بِكر مُحَمَّد بن عُمر الحكيم) والوَرَّاقِ نِسبَةٌ إلى صِناعَةِ الوَرَق وهِىَ مِهْنَةُ أَصْحابِ المَكْتَبات في عَصْرِنا
(٥) هُوَ (أبو سعيد أحْمَد بنُ عِيسَى) والخَرَّازُ نِسبةٌ إلى خِرازَةِ الجِلدِ وهِيَ كالخِياطَةِ مِنَ الثَّوبِ .
(٦) لَقَبٌ لأكْثَرَ مِنْ واحِد ، ومِنْهُم الشَّيْخُ (عَلِى الخَوَّاص) أُسْتاذُ سَيِّدى عبدالوَهَّاب الشَّعرانى، والخَوَّاصُ نِسْبَةٌ إلى صِناعَةِ الخُوص .
(٧) هُوَ(أبو الحَسَن بَنانُ بنُ مُحَمَّد بن حَمْدان) . كانَ يَحْمِلُ للنَّاسِ أَمْتِعَتَهُم ويَرْتَزِقُ مِنْ ذَلِك .
(٨) هُوَ(عَلِيُّ الفَرَّان) والفَرَّانُ نُسبَةٌ إلى مِهْنَةِ الخِبازَة .
(٩) سُورَةُ الأنْبياء الآية ٩٢ .

غَيْرَهُم ، فَإِنَّ الاخْتِلافَ فى الفُروعِ ضَرورةٌ طَبيعِيَّةٌ يَفْرِضُها اخْتِلافُ طَبائعِ النَّاسِ وعُقُولِهِم ، إِذْ يَسْتَحِيلُ جَمْعُ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبٍ واحِدٍ ، أَو رَأْيٍ واحِدٍ ، فى مَسائِلَ ظَنِّيَّةٍ هِيَ فى حَقِيقَتِها مَوْضِعُ نَظَرٍ واجْتِهادٍ .

وما دامَ مَرْجِعُ الجَميعِ كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ ، والخِلافُ عَلَى الفَرْعِيَّاتِ إِنَّما هُوَ فى الفَهْمِ والتَّوْجِيهِ والتَّرْجِيحِ وطَلَبِ الحَقِّ ، فَلا خُصُومَةَ قَطُّ .

ولَعَلَّ قَناعَتَنا بِضَرُورَةِ الاخْتِلافِ الإِيجابِيِّ وأَنَّهُ لا يُفْسِدُ لِلوُدِّ قَضِيَّةً ، إِذا ما عَلِمْنا أَنَّ ذَلِكَ كانَ قائِماً حَتَّى فى عَصْرِ النُّبُوَّةِ ، فَقَدِ اخْتَلَفَ الصَّحابَةُ والنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُم فى مِثْلِ صَلاةِ العَصْرِ فى بَنِي قُرَيْظَة ، ومَصِيرِ أَسْرَى بَدْرٍ ، واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِهِ فى مِثْلِ مَسائِلَ : (العُول ، والكَلالَةِ ، وعِدَّةِ الحامِلِ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها ، وسُكْنَى المَبْتُوتَةِ ، والطَّلاقِ الثَّلاثِ بِلَفْظٍ واحِدٍ ، وقِراءَةِ المُؤْتَمِّ ، ورَفْعِ اليَدِ قَبْلَ وبَعْدَ الرُّكُوعِ ، والجَهْرِ بِالبَسْمَلَةِ بَلِ اخْتَلفُوا فى صُورَةِ حَرَكَةِ الأُصْبعِ فى التَّشَهُّدِ .... إلخ) .

وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذِه الخِلافاتِ الَّتي امْتَدَّتْ إِلَى المَذاهِبِ المُخْتَلِفَةِ مِن بَعْدُ فَإِنَّ احْتِرامَ الآراءِ والتَّقْدِيرِ والوِدادِ كانَ دَيْدَنَ أَئِمَّةِ المَذاهِبِ الكِبارِ فى عَلاقاتِهِم فِيما بَيْنَهُم ، بَلْ قَلَّدَ بَعْضُهُم بَعْضاً أَحْياءً ومَوْتَى ، فَصَلَّى الإِمامُ (الشَّافِعِيُّ) عِنْدَ قَبْرِ الإِمامِ (أَبِى حَنيفَةَ) بِمَذْهَبِ أَبِي حَنيفَةَ ، أَدَباً مَعَ رُوحِهِ الشَّرِيفِ ، وقَلَّدَ (أَبُو يُوسُفَ) الإِمامَ (مالِكاً) فى الوضُوءِ ، وقَرَّظَ (الشَّافِعِيُّ) اللَّيْثَ بنَ سَعْدٍ ، وقَرَّظَ (أَبو حَنيفَةَ) سُفْيانَ الثَّوْرِيَّ و الأَزاعِيَّ وهَكَذا لا يُعْرَفُ عَنْ كِبارِ الأَئِمَّةِ مَنْ طَعَنَ أَخاهُ وانْتَقَصَهُ .

وإِذا كانَ الاخْتِلافُ والعُدولُ عَنِ الرَّأْيِ أَمْراً مُبَرَّراً وطَبيعِيَّاً عَلَى مُسْتَوَى شَخْصٍ واحِدٍ ، فَأَوْلى بِهِ أَنْ يَكُونَ مبُرَّراً ومَشْروعاً بَيْنَ أُمَّةٍ بِأَكْمَلِها ، فَهَذا إِمامُنا (الشَّافِعِيُّ) قَدْ وَضَعَ مَذْهَبَه القَديمَ بِالعِراقِ ، فى ظُروفٍ وأَحْوالٍ

خاصَّةٍ ، فَلَمَّا جاءَ إِلَى مِصْرَ ، وواجَهَ ظُروفاً وأَحْوالاً أُخْرَى ، وَضَعَ مَذْهَبَهُ الجَدِيدَ ، كِلاهُما مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وكِلاهُما صَوابٌ فى مَوضِعِهِ ، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1].

وهَذا هُوَ الإِمامُ (مالِكٌ) لَمْ يَقْبَلْ مِنَ الخَليفَةِ العَبَّاسِيِّ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَى (المُوطَّأ) ، وبَيَّنَ لَهُ أَنَّ بَعْضَ الصَّحابَةِ سَمِعَ ما لَمْ يَسْمَعِ الآخَرُ ، أَو عَلِمْ ما لَمْ يَعْلَمْ غَيْرُهُ فَنَشَرَ ما عَلِمَ ، وكُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى حَقٍّ ، ومِنْ ثَمَّ اخْتَلَفَتْ الوُجُوهُ فى المَسْأَلَةِ الواحِدَة .

ونَحْنُ مَعَ إمامِنا (جَعْفَرَ الصَّادِقِ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى قاعِدَتِه العَمَلِيَّة :

(حَسْبُنا مِنَ المُسْلِمِ ما يَكُونُ بهِ مُسْلِماً) .

فالخِلافُ عَلَى الفُروعِ طَبِيعَةٌ وشَرِيعَةٌ كانَتْ وسَتَبْقَى ، مادامَ هُناكَ اخْتِلافٌ فى العُقُولِ والتَّحْصِيلِ والفُهُومِ والبِيئاتِ والوارِثاتِ وغَيْرِها ، ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[2].

والإِنْسانُ مُكَلَّفٌ شَرْعاً بِالعَمَلِ بِما وَصَلَ إِلَيْهِ اجْتِهادُهُ ، واسْتَقَرَّ عِنْدَهُ نَظَرُهُ ، وحَسْبُهُ الدَّليلُ الظَّنِّيُّ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ ، ويَكُونُ هَذا هُوَ حُكْمُ اللهِ فى حَقِّهِ وحَقِّ مَنْ قَلَّدَهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ خَطَأُ ما ذَهَبَ إِلَيْه .

وعَلَى هَذا الأَساسِ نَنْظُرُ إِلَى مَذاهِبِ المُسْلِمِينَ ، فَنَجْهَدُ في التَّقْرِيبِ فِيما بَيْنَها ، ورَبْطِها جَمِيعاً بِرِباطٍ لا فِتْنَةَ فيهِ ، ولا تَفْرِقَةَ ولا ضَلالَ إِنْ شاءَ اللهُ (فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، ولَنْ يُشادَّ أَحَدٌ الدِّينَ إِلاَّ غَلَبَهُ)[3].

جَنَّبَ اللهُ أُمَّتَنا وَبالَ وخَبالَ المُتَشَدِّدِينَ والمُتَعَنِّتِينَ والمُتَعَصِّبِينَ لأَهْوائِهِم والمُسْتَخْدَمِينَ لِبَثِّ بُذورِ الفِتْنَةِ بَيْنَ المُسْلِمِين .

---

(١) سُورَةُ الحَجِّ مِنَ الآيَة ٧٨ .
(٢) سُورَةُ هُود مِنَ الآيَة ١١٨ ، ١١٩ .
(٣) أَخْرَجَهُ البُخارِي .

(خامِساً) المُتَعَصِّبُونَ الجامِحُونَ المُغالُون :

وهُم الَّذينَ يُهَيْمِنُ عَلَيْهِم الغُلُوُّ ، فَيَرْفَعُونَ مَشَايخَهُم زُوراً إِلَى رُتْبَةِ الصِّدِّيقِينَ وينْزِلُونَ بِالآخَرِينَ إِلَى أَسْفَلِ المَراتِب .

إِنَّ هَذا الخُلُقَ لَهُوَ عَصَبِيَّةٌ وَضِيعَةٌ ، طَهَّرَ الإِسْلامُ مِنْ دَنَسِها نُفُوسَ أَتْباعِهِ ، وحَذَّرَهُم عَلَى لِسانِ رَسُولِهِ ﷺ :

(لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعا إِلَى عَصَبِيَّةٍ ، ولَيْسَ مِنَّا مَنْ قاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ ، ولَيْسَ مِنَّا مَنْ ماتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ)[1]

ويَوْمَ قالَ الصَّحابِيُّ (عُقْبَةُ مَوْلَى جَبْرِ بنِ عَتِيكٍ الأَنْصارِى) ، وهُوَ يَدْفَعُ قَناتَهُ (حَرْبَتَهُ) فى عُنُقِ أَحَدِ المُشْرِكِينَ :

(خُذْها وأَنا الغُلامُ الفارِسِىُّ) ، غَضِبَ الرَّسُولُ ﷺ حَتَّى رُؤِيَ فى وَجْهِهِ ، وقالَ ﷺ : (هَلاَّ قُلْتَ : خُذْها وأَنا الغُلامُ المُسْلِمُ أَو الأَنْصارِىُّ)[2].

إِنَّ أَهْلَ التَّصَوُّفِ إِذْ يَسْتَنِيرونَ بِهَدْيِ النُّبُوَّة فَإِنَّهُم يَدْعُونَ إِلَى التَّقارُبِ والتَّعاطُفِ والتَّعاونِ ، ونَبْذِ التَّعالِي والتَّغالِي ، ويَبْرَءُونَ (كَما تبَرَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ قَبْلُ) مِنْ كُلِّ مَنْ يَسْتَحْدِثُ فى الأُمَّةِ شِقاقاً وتَمْزِيقاً بِتَعَصُّبِهِ الأَعْمَى لِشَيْخٍ ضِدَّ آخَر ، أَو لِطَرِيقٍ ضِدَّ أُخْرَى .

بَلْ إِنَّ مُجَرَّدَ التَّفْكِيرِ في البُغْضِ أَو التَّحْقِيرِ أَو الاسْتِصْغارِ أَو الإِهْمالِ أَو حَتَّى مُجَرَّدِ الإِغْضاءِ أَو مُجَرَّدِ التَّجَنُّبِ فَرْعٌ مِنَ الْخَطِيئَةِ الَّتِى قَدْ لا تُغْتَفَرُ ، ونَوْعٌ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الحَمْقاءِ أَو التَحَزُّبِ التِّجارِي أَو الإِقْطاعِيَّةِ البَشَرِيَّةِ الَّتى لا يَعْرِفُها دِينُ اللهِ ، ولا تَصَوُّفُ المُسْلِمِينَ ، مَهْما دَسُّوا ذَلِكَ عَلَيْهِ ، أَو أَلْصَقُوهُ بِهِ بِأُسْلُوبٍ زائِفٍ لا يَقْبَلُهُ تَشْرِيعٌ ولا تَحْقِيقٌ .

---

(١) أَخْرَجَهُ (أبو داود) فى سُنَنِه .

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فى (الاسْتِيعاب فى مَعْرِفَةِ الأَصْحاب) ج ٣ / ١٠٧٢ .

إنَّ التَّصوُّفَ صَفاءٌ ، فَمَنْ زادَ عَلَيْكَ بِالصَّفاءِ زادَ عَلَيْكَ بِالتَّصَوُّفِ ، ولِهَذا لايُمْكِنُ أَنْ يَتَّفِقَ الصَّفاءُ مَعَ الجَفاءِ ، فَضْلاً عَنِ احْتِقارِ النَّاسِ أَو انْتِقاصِ أَقْدارِهِم ، أَو بَخْسِهِم حُقُوقَهُم ، أَو حَطِّ مَنْزِلَتِهِم الَّتي لا يَمْلِكُ الحُكْمَ عَلَيْها إلَّا اللهُ ، وما عِنْدَ النَّاسِ مِنْ هذا إلا الظَّنُّ والظَّاهِرُ ، ولِهَذا كانَ الحُكْمُ عَلَى النَّاسِ بِما لايَقِينَ لِلإنْسانِ بِهِ مِنْ غَيْبِ اللهِ كَذِبٌ وجُزاف .

إنَّ وَلاءَكَ وبِرَّكَ بِأَبِيكَ لايَعْنِى أَنْ تُجافِىَ عَمَّكَ أَو تَزْدَرِيه ، ولْتَعْلَمْ : أَنَّهُ بِمِقْدارِ ما يَكُونُ بِرُّكَ بِأَبِيكَ فَرْضاً تُؤجَرُ عَلَيْهِ وتُثابُ ، كَذَلِكَ يَكُونُ جَفاؤُكَ لِعَمِّكَ خَطِيئَةً تَأْثَمُ بِها وتُعابُ .

وثَمَّةَ أَمْرٌ آخَرُ ، لا بُدَّ مِنْ مُحاذَرَتِهِ ، وهُوَ أَنَّ إضْفاءَ هالَةِ القَداسَةِ والتَّبجِيلِ عَلَى أَدْعِياءِ المَشايِخِ ، مِمَّنْ يَبْنُونَ مَجْدَهُم وشُهْرَتَهُم بِأَلْسِنَةٍ مَأْجُورَةٍ ، أَوْ واهِمَةٍ أَو ساذَجَةٍ ، كَقَوْلِ : إنَّ الشَّيْخَ الفُلانى كَذا ... وكَذا... وهُوَ .. وهُوَ وهُوَ... ! ، لَهُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّلْبِيسِ عَلَى العَوامِّ ، والتَّغْرِيرِ بِهِم ، واسْتِغْلال عَواطِفِهِم ، بَلْ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الكَذِبِ والافْتِراءِ عَلَى الله .

(سادِساً) أَهْلُ الغُلُوِ في الطَّاعاتِ ، بِدَعْوَى أَنَّ بُغْيَتَهُم نِهايَةُ المَقامات :

إنَّ الطَّرِيقَ واضِحٌ ، والدَّلِيلَ لائِحٌ ، والدَّاعِىَ أَسْمَعَ ، فَأَقْنَعَ وأَمْتَعَ ، وما التَّحَيُّرُ بَعْدَ ذَلِكَ إلَّا مِنْ غَفْلَةِ النَّفْسِ ، وغَلَبَةِ الهَوَى ، واعْتِقادِ الفَضْلِ عَلَى السِّوَى ، فَإنَّهُ لارَهْبانِيَّةَ في الدِّين .

لَقَدْ كانَ التَّصَوُّفُ ثَوْرَةً عَلَى التَّرَفِ والاسْتِعْجامِ والانْحِلالِ واللاَّمُبالاة .

فَإذا دَخَلَ بَيْنَ صُفُوفِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ أَدْعِياءٌ تَزَيَّوا بِزِىِّ المُغالاةِ ، فَتِلْكَ طَبِيعَةُ الأَشْياءِ ، وهَذِهِ قِصَّةُ الصَّحابَةِ الَّذِينَ أَرادوا أَنْ يَصُومُوا بِلا فِطْرٍ ، وأَنْ يَعِيشُوا عَلَى الطَّعامِ الرَّمْزِى ، وأَنْ يَتْرُكُوا النِّساءَ والأَوْلادَ ، وأَن يَصِلُوا اللَّيْلَ والنَّهارَ : تَعَبُّداً وانْقِطاعاً عَنِ الحَياةِ فَنَهاهُم الرَّسُولُ ﷺ وأَرْشَدَهُمْ إلَى

الوَسَطِيَّةِ والاعْتِدالِ(١)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾(٢)

كانَ ذَلِكَ والوَحْيُ يَنْزِلُ ، والرَّسُولُ ﷺ بَيْنَهُمْ فَإِذا داخَلَ التَّصَوُّفَ الغُلاةُ والمُتَنَطِّعُونَ ، واسْتَبْدَلُوا حُكْمَ إِحْياءِ النَّفْسِ بِقَتْلِ النَّفْسِ ، أَوِ اخْتاروا الخَبِيثَ عَلَى الطَّيِّبِ ، فَلَيْسَ هَذا عَيْباً فى التَّصَوُّفِ نَفْسِهِ . ولايُمْكِنُ أَنْ يُحَمَّلَ الإِسْلامُ وِزْرَ المُسْلِمِ الَّذي يَنْحِرِفُ ، وهَلْ يَتْرُكُ المُسْلِمُ التَّقِيُّ إِسْلامَهُ لأَنَّ فى المُسْلِمِينَ قَوْماً ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ ! .

(سابِعاً) الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ أَسْماءَ اللهِ الحُسْنَى في حَلَقاتِ الذِّكْرِ :

فَإِجْماعُ أَئِمَّةِ التَّصَوُّفِ عَلَى أَنَّهُ حَرامٌ مُوبِقٌ ، وحَسْبُنا قَوْلُهُ تعالَى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾(٣) ؛ فَهُنا أَمْرٌ بِالذِّكْرِ ، مَعَ نَهْيٍ شَدِيدٍ عَنْ تَحْرِيفِهِ ، والتَّحْذِيرُ مِنَ الصِّلَةِ بِمَنْ يُحَرِّفُونَهُ (أَي يُلْحِدُونَ فيه) ، وإِعْلانٌ أَنَّهُمْ سَيُجْزَوْنَ بِسُوءِ عَمَلِهِمْ ، فَيَكُونُ هَذا الإِعْلانُ بِمَثابَةِ إِنْذارٍ ونَهْيٍ شَدِيدٍ مُكَرَّر ، وفي هَذا يَقُولُ الشَّيْخُ الأَخْضَري في أُرْجُوزَتِهِ الصُّوفِيَّةِ :

أَبْقَوا مِنِ اسْمِ اللهِ حَرْفَ الهاءِ * فَأَلْحَدُوا في أَعْظَمِ الأَسْماءِ

لَقَدْ أَتَوا واللهِ شَيْئاً إِدَّا * تَخِرُّ مِنْهُ الشَّامِخاتُ هَدَّا

وخُلاصَةُ القَوْلِ : لا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ عاطِفِيّاً تَغُرُّهُ المَظاهِرُ ؛ فَيَقَعُ في صُحْبَةِ أَدْعِياءِ التَّصَوُّفِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِيزانٌ شَرْعِيٌّ صَحِيحٌ وتَفْكِيرٌ عَقْلِيٌّ سَلِيمٌ ، إِذْ لِيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى التَّصَوُّفَ صارَ صُوفِيّاً ومُرَبِّياً ، ولَوْ تَزَيَّا بِزِيِّ المُرْشِدِينَ ، كَما أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ الأَطِبَّاءِ في المُسْتَشْفَى صارَ طَبِيباً ، لأَنَّ هَذِهِ الثِّيابَ يَلْبَسُها المُمَرِّضُونَ وغَيْرُهُم .

(١) قالَ ﷺ: (مَن رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِنِّى) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

(٢) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ١٤٣ (٣) سُورَةُ الأَعْراف . الآيَة ١٨٠ .

التصوف.. في عقول العلماء

﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾

التَّصَوُّفُ.. فِي عُقُولِ العُلَمَاءِ

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾(١)

إذا رَجَعْنا فى رِحْلَةٍ عَبْرَ التَّاريخِ مِنَ القُرونِ المُفَضَّلَةِ المَشْهُودِ لَها بِالخَيْرِيَّةِ وحَتَّى يَوْمِنا هَذا ، وطالَعَنا سِيَرَ عُلَماءِ الإِسْلامِ الَّذينَ مَلأُوا الدُّنْيا عُلُوماً ومَعْرِفَةً ، وكانُوا ولا يَزالُونَ القُدْوَةَ الحَسَنَةَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ غَيُورٍ عَلَى دِينِهِ ، صادِقٍ في إِيمانِهِ ، لَوَجَدْنا التَّصَوُّفَ رُوحاً وسُلُوكاً ظاهِراً جَلِيّاً في حَياتِهِم ، بَلْ كانُوا فى ذَلِكَ الطَّريقِ أئِمَّةً رُوَّاداً ، يَقْتَفِي أَثَرَهُمْ العُلَماءُ بِاللهِ ومَنِ الْتَفَّ حَوْلَهُمْ مِمَّنْ يُمَثِّلُونَ الخَيْرِيَّةَ فى الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ ،وها نَحْنُ أُولاءُ نَعرِضُ لِبَعْضِ آثارِهِم السَّنِيَّةِ فى هَذا المَيْدانِ ، عَساها تَنْفَعُ المُخلِصِينَ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ ، والعُقَلاءَ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ :

(١) يَقُولُ الشَّيْخُ (مُحَمَّد بنُ عَلاءِ الدِّينِ الحَصَفْكِي ، ١٠٨٨ هـ) مُفْتِي الحَنَفِيَّةِ بِدِمَشْقَ الشَّامِ ، وهُوَ العَلاَّمَةُ المَعْروفُ صاحِبُ كِتاب (إفاضَةُ الأَنْوار عَلَى أُصُولِ المَنار ، والدُّرُّ المُنْتَقَى ، وشَرْحُ قَطْرِ النَّدَى) ، يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ فى كِتابِهِ الشَّهِيرِ الدُّرِّ المُخْتار : (إِنَّ أَبا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى قالَ : أَنا أَخَذْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مِنْ أَبِى القاسِمِ النَّصْرا باذِي ، وقالَ أَبُو القاسِم : أَنا أَخَذْتُها مِنَ الشِّبْلِي وهُوَ مِنَ السَّرِيِّ السَّقْطِي ، وهُوَ مِنْ مَعْروفٍ الكَرْخِي ، وهُوَ مِنْ داوُدَ الطَّائِي ، وهُوَ أَخَذَ العِلْمَ والطَّرِيقَةَ مِنْ أَبِى حَنيفَة رضي الله عنه ، ت ١٥٠ هـ)(٢)

(٢) وإذا انْتَقَلْنا إِلَى الإمامِ (مالِكِ بن أَنَس ، ت ١٧٩ هـ) رضي الله عنه إمام دارِ الهِجْرَةِ لَرَأَيْناهُ يَتَحدَّثُ عَنِ التَّصَوُّفِ حَدِيثَ مَنْ عَرَفَ التَّصَوُّفَ ، حَيْثُ يَقُولُ حاثَّاً المُسْلِمَ عَلَى الابْتِداءِ بِعِلْمِ الجَوارِحِ ، ثُمَّ الانْتِقالِ إِلَى عِلْمِ مُعالَجَةِ

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت مِن الآية ٤٣ .

(٢) الدُّرُّ المُخْتارُ لـ(الحَصَفْكِي) .

القُلُوبِ ، ومُحَذِّراً مِنَ الاتِّجاهِ إِلَى التَّصَوُّفِ بِدُونِ ذَخِيرَةٍ مِنَ الفِقْهِ ، وحاضّاً عَلَى الجَمْعِ بَيْنَهُما قائِلاً :

(مَنْ تَفَقَّهَ ولَمْ يَتَصَوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّقْ ، ومَنْ تَصَوَّفَ ولَمْ يَتَفَقَّهْ فَقَدْ تَزَنْدَقْ ، ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُما فَقَدْ تَحَقَّق) [1] ولَعَمْرُ الحَقِّ ، إِنَّها لَحِكْمَةٌ جَلِيلَةٌ مِنْ عالِمٍ حَكِيمٍ ، وكَأَنَّهُ يَرَى مِنْ مَسْجِدِ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ مُنْذُ أَلْفٍ ومائَتَيْنِ وخَمْسِينَ عاماً ، ما سَيَفْعَلُهُ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ التَّصَوُّفَ يَعْنِي الجَهْلَ والتَّنْبَلَةَ ، فَأَعْرَضُوا عَنْهُ ، وأَشْبَعُوا البُطُونَ وأَجاعُوا العُقُولَ ، وتَسابَقُوا عَلَى الدُّنْيا وتَراخَوا عَنِ الآخِرَةِ ، وانْبَثُّوا فى جَماعاتِ المُسْلِمِينَ يُظْهِرونَ طَرِيقَ القَوْمِ ويُبْطِنُونَ البَطالَةَ والنَّوْم ، ولَوْ أَنَّهُم أَرادُوا الصِّدْقَ والإِخْلاصَ ، لأَخَذوا بِنَصِيحَةِ هَذا الإِمامِ ، ولَطَلَبُوا العِلْمَ وعَمِلُوا بِهِ ، فَلَعَلَّهُم يَرْتَقُونَ مِنَ الإِسْلامِ إِلَى الإِيمانِ ، ومِنَ الإِيمانِ إِلَى الإِحْسانِ ، وحِينَها ، سَيُوقِنُونَ لا مَحالَةَ أَنَّهُ لا تَصَوُّفَ بِدُونِ عِلْمٍ ، كَما أَنَّهُ لا عِلْمَ بِدُونِ تَصَوُّفٍ ، إِذْ لا فائِدَةَ فى عِلْمٍ لا يَنْتَفِعُ بِهِ صاحِبُهُ ، وخَيْرُ العِلْمِ ما كانَتِ الخَشْيَةُ مَعَهُ .

ويَقُولُ (مُحَمَّد بنُ عِيسَى ، ت : ٩٣٣ هـ) شارِحاً هَذِهِ الحَقِيقَةَ :

طَرِيقَتُنا إِتْباعُ العِلْمِ بِالعَمَلِ ، والاسْتِغْفارُ مِمَّا قَبْلَهُ (أَى مَعْرِفَةٌ وعِلْمٌ ثُمَّ اجْتِهادٌ وعَمَلٌ ، ثُمَّ اسْتِغْفارٌ مِنَ التَّقْصِيرِ والجَهْل) ، فَكُلَّما تَرَقَّى الصُّوفِيُّ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى الَّتِي أَكْمَلُ ، ورَأَى ما كانَ فيهِ مِنَ التَّضْيِيعِ والتَّقْصِيرِ ، بادَرَ إِلَى الاسْتِغْفارِ والتَّوْبَةِ ، وهَكَذا ، هُوَ فى رُقِيٌّ لا يَنْتَهِي ، إِذْ لا نِهايَةَ ولا حَدَّ

---

(١) هَذِهِ العِبارَةُ رَواها كِبارُ عُلَماءِ المَذْهَبِ المالِكى عَنِ الإمامِ (مالِك) خَلَفاً عَنْ سَلَف ، وهِىَ مَوْجُودَةٌ فى :
أ) حاشِيَةِ العَلَّامَةِ العَدَوى عَلَى شَرْحِ الإِمامِ الزُّرْقَانى عَلَى مَتْنِ العزية فى الفِقْهِ المالِكى ج ٣ ص ١٩٥ .
ب) شَرْحُ عَيْنِ العِلْمِ وزَيْنِ الحِلْم . للإمام (مُلاَّ عَلى القارى) ج ١ ص ٣٣ .
ج) ذَكَرَها المؤَرِّخُ الكَبِيرُ (ابْنُ خَلْدون) عَنِ الإمامِ مالِكٍ فى كِتابِهِ (شِفاء السَّائِل لتَهْذيب المَسائِل) .
د) قَواعِدُ التَّصَوُّف للشَّيْخ (أَحْمَد زَرُّوق) ص ١٣ قاعِدَة ٤ .
هـ) شَرْحُ التَّتائى عَلَى ابْن رُشْد ص ٥ .
و) شَرْحُ الشَّيْخ مَيَّارَة عَلى ابْنِ عاشِر .
وهَذا عَلَى مُسْتَوى أُمَّهاتِ المَراجِعِ فَقَط ، أما غيْرُها ، فالعَدَدُ يَخْرُجُ عَنِ الحَصْر .

لِعبادَةِ اللهِ سُبْحانَهُ ، (سُبْحانَكَ ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ ، سُبْحانَكَ ما شَكَرْناكَ حَقَّ شُكْرِكَ) .

(٣) ويُحَدِّثُنا إمامُ أَهْلِ الحَديثِ الجَلالُ السِّيوطي فى كِتابِهِ (تَأْييد الحَقيقَةِ العَلِيَّة) أنَّ الإمامَ (الشافِعِيَّ ، ت.: ٢٠٤ هـ) رضي الله عنه صَحِبَ الصُّوفِيَّةَ بَلْ واسْتَفادَ مِنْهُم عُلوماً وقالَ :

(صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْهُمْ سِوَى حَرْفَيْنِ ، وفى رِوايَةٍ ثَلاث كَلِماتٍ (وهُنَّ فَواتِحُ كُلِّ خَيْرٍ) ، قَوْلُهُم : الوَقْتُ سَيْفٌ إِنْ لَمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ ، وقَوْلُهُم نَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْها بِالحَقِّ شَغَلَتْكَ بِالباطِلِ ، وقَوْلُهُم : العَدَمُ عِصْمَة)[١] .

فانْظُرْ - رَحِمَكَ اللهُ - إِلَى عَظَمَةِ هَذا الإمامِ ، وإِلَى جَميلِ اعْتِرافِهِ وبالِغِ إِنْصافِهِ وشَديدِ إِخْلاصِهِ ، فَهُوَ رضي الله عنه يَصْحَبُ الصُّوفِيَّةَ ، ويَعْرِفُ فَضْلَهُم وقَدْرَهُم ، ويَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ ، بَلْ ويَقْتَدِي بِطَرِيقَتِهِم ، فَها هُوَ يَقُولُ ، كَما يَنْقُلُ ذَلِكَ عَنْهُ الإمامُ (العَجْلُونى) حُجَّةُ عِلْمِ الحَديثِ فى كِتابِهِ (كَشْفُ الخفاء ومُزيلُ الإلْباس) :

(حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْياكُم ثَلاث : تَرْكُ التَّكَلُّفِ ، وعِشْرَةُ النَّاسِ بِالتَّلَطُّفِ ، والاقْتِداءُ بِطَرِيقِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ)[٢] .

(٤) وكانَ الإمامُ (أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل ، ت : ٢٤١ هـ) رضي الله عنه مُصاحِبا لـ(أَبى حَمْزَةَ) الصُّوفِيِّ ، ومُقِرّاً لأَحْوالِ القَوْمِ ، بَلْ يُوصِي وَلَدَهُ عَبْدَ اللهِ قائِلاً :

(يا وَلَدِي عَلَيْكَ بِمُجالَسَةِ هَؤُلاءِ القَوْمِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ ، فَإِنَّهُم زادوا عَلَيْنا بِكَثْرَةِ العِلْمِ والمُراقَبَةِ والخَشْيَةِ والزُّهْدِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ)[٣] ويَقُولُ رضي الله عنه مُتَحَدِّثاً عَنِ الصُّوفِيَّةِ مُبَيِّناً رِفْعَةَ مَنْزِلَتِهِم : (لا أَعْلَمُ أَقْواماً أَفْضَلَ مِنْهُم ، قِيلَ : إِنَّهُم

(١) تَأْييدُ الحَقيقَةِ العَلِيَّة (السُّيوطى) ص ١٥ .
(٢) كَشْفُ الخفاءِ ومُزيلُ الإلباس عَمَّا اشْتُهِرَ مِنَ الأَحاديثِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ (العَجْلونى) ج ١ ص ٢٤١ .
(٣) تَنْويرُ القُلوب (مُحَمَّد أَمين الكُرْدي) ص ٢٤١ .

يَسْتَمِعُونَ ويَتَواجَدُونَ ، قالَ : دَعُوهُم يَفْرَحُوا مَعَ اللهِ ساعَة)[1].

وما أَظُنُّ أَنَّ إِنْسـانـاً مُسْلِماً صادِقاً يُمارِي فى صَلاحِ هَؤُلاءِ الأَئِمَّةِ ، فَهُمْ أَهْلُ الصَّـلاحِ ودُعاةُ الإِصْـلاحِ عَلَى الحَقِيقَةِ والتَّحْقِيقِ ، ولَيْسَ أَدْعِياءُ الإِصْلاحِ الَّذينَ هُمْ أَنْفُسُهُم بِحاجَةٍ إِلَى الإِصْلاحِ .

نَعَم .. أُولَئِكَ هُمُ المُصْلِحُونَ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِم ، فَما مِنْ مُسْلِمٍ فى طُولِ العالَمِ وعَرْضِهِ ، وفى قارَّاتِهِ السِّتِّ ، إِلَّا ويَعْرِفُ قَدْرَهُمْ وفَضْلَهُم ، ولِهَذا ، لا أَحْسَبُنِي مُغالِياً إِنْ قُلْتُ : إِنَّ الغالِبِيَّةَ العُظْمَى مِنَ المُسْلِمِينَ تَقْتَدِي بِمَذاهِبِ أُولَئِكَ الأَئِمَّةِ فى دِينِها وعِباداتِها وصُنُوفِ مُعامَلاتِها ، وإِذا ماعَلِمْنا أَنَّ هَؤُلاءِ الأَئِمَّةَ ، كانُوا مِنْ كِبارِ الصُّوفِيَّةِ وعُظَمائِها ، صَحَّ قَوْلُنا بِأَنَّ التَّصَوُّفَ مَنْهَجٌ لازِمٌ صَحِيحٌ فى السُّلُوكِ والأَخْلاقِ ومَعْرِفَةِ الحَقِيقَةِ كَصِحَّةِ المَذاهِبِ الفِقْهِيَّةِ فى عُلُومِ الشَّرِيعَةِ ، وقَدْ ذَكَرَتْ كُتُبُ الصُّوفِيَّةِ هَؤُلاءِ الأَئِمَّةَ وسِواهُم مِنْ أَئِمَّةِ المَذاهِبِ الفِقْهِيَّةِ عَلَى أَنَّهُم مِنْ مَشاهِيرِ الصُّوفِيَّةِ ، فَعَدَّدَتْ مَناقِبَهُم وذَكَرَتْ فى هَذا المَيْدانِ أَحْوالَهُم ، وقَدْ ذَكَرَ الحافِظُ (أَبُو نُعَيْم ، ٤٣٠ هـ) - عَلَى سَبِيلِ المِثالِ - الكَثِيرَ عَنْهُم فى كِتابِهِ (حِلْيَة الأَوْلِياء) وقَدَّمَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ بِما هُوَ أَهْلُه .

(٥) ويَقُولُ الإِمامُ (أَبُو عَبْدِ اللهِ الحارِثُ المُحاسِبي ، ت : ٢٤٣ هـ) ، مُتَحَدِّثاً عَنْ جِهادِهِ المَرِيرِ فى الوُصُولِ إِلَى الحَقِّ حَتَّى اهْتَدَى إِلَى التَّصَوُّفِ ورِجالِهِ ، ولا أُبالِغُ إِنْ قُلتُ بِأَنَّ ما أَبْدَعَهُ بَيانُ المُحاسِبِيِّ فى وَصْفِ الحياةِ الصُّوفِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ والإِيمانِيَّةِ يُعَدُّ بِحَقٍّ مِنْ أَرْوعِ ما كُتِبَ فى هَذا المَجال ، وتَأَمَّلْ مَعِي مَثَلاً كَلامَهُ الآتِي :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدِ انْتَهَى البَيانُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تَفْتَرِقُ عَلَى بِضْعٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً

---

(١) غِذاءُ الأَلْباب (السَّفارِيني الحَنْبَلي) ج ١ ص ١٢٠ .

مِنْها فِرْقَةٌ ناجِيَةٌ واللهُ أَعْلَمُ بِسائِرِها ؛ فَلَمْ أَزَلْ بُرْهَةً مِنْ عُمْرِي ، أَنْظُرُ اخْتِلافَ الأُمَّةِ ، وأَلْتَمِسُ المِنْهاجَ الواضِحَ والسَّبِيلَ القاصِدَ ، وأَطْلُبُ مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ ، وأَسْتَدِلُّ عَلَى طَرِيقِ الآخِرَةِ بِإِرْشادِ العُلَماءِ ، وعَقَلْتُ كَثِيراً مِنْ كَلامِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِتَأْوِيلِ الفُقَهاءِ ، وتَدَبَّرْتُ أَحْوالَ الأُمَّةِ ، ونَظَرْتُ فى مَذاهِبِها وأَقاوِيلِها ، فَعَقَلْتُ مِنْ ذَلِكَ ما قُدِّرَ لِى ، ورَأَيْتُ اخْتِلافَهُم بَحْراً عَمِيقاً ، غَرِقَ فيهِ ناسٌ كَثِيرٌ وسَلِمَ مِنْهُ خَلْقٌ قَلِيلٌ ، ورَأَيْتُ كُلَّ صَنْفٍ مِنْهُم ، يَزْعُمُ أَنَّ النَّجاةَ لِمَنْ تَبِعَهُم ، وأَنَّ المَهالِكَ لِمَنْ خالَفَهُم ، ثُمَّ رَأَيْتُ النَّاسَ أَصْنافاً : فَمِنْهُم العالِمُ بِأَمْرِ الآخِرَةِ ، لِقاؤُهُ عَسِيرٌ ، ووُجُودُهُ عَزِيزٌ ، ومِنْهُم الجاهِلُ ، فالبُعْدُ عَنْهُ غَنِيمَةٌ ، ومِنْهُم المُتَشَبِّهُ بِالعُلَماءِ ، مَشْغُوفٌ بِدُنْياهُ ، مُؤْثِرٌ لَها ، ومِنْهُم حامِلُ عِلْمٍ ، مَنْسُوبٌ إِلَى الدِّينِ ، مُلْتَمِسٌ بِعِلْمِهِ التَّعْظِيمَ والعُلُوَّ ، يَنالُ بِالدِّينِ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيا ، ومِنْهُم حامِلُ عِلْمٍ ، لايَعْلَمُ تَأْوِيلَ ما حَمَلَ ، ومِنْهُم مُتَشَبِّهٌ بِالنُّسَّاكِ ، مُتَحَرٍّ لِلْخَيْرِ ، لا غَناءَ عِنْدَهُ ، ولا نَفاذَ لِعِلْمِهِ إِلَى قُلُوبِ السَّامِعِينَ ، ولا مُعْتَمَدَ عَلَى رَأْيِهِ ومِنْهُم مَنْسُوبٌ إِلَى العَقْلِ والدَّهاءِ ، مَفْقُودُ الوَرَعِ والتُّقَى ، ومِنْهُم مُتَوادُّونَ ، عَلَى الهَوَى وافِقُونَ ، ولِلدُّنْيا يَذِلُّونَ ، ورِياسَتِها يَطْلُبُونَ ، ومِنْهُم شَياطِينُ الإِنْسِ ، عَنِ الآخِرَةِ يَصُدُّونَ ، وعَلَى الدُّنيا يَتَكالَبُونَ ، وإِلَى جَمْعِها يُهْرَعُونَ ، وفى الاسْتِكْثارِ مِنْها يَرْغَبُونَ ، فَهُم فى الدُّنيا أَحْياءٌ ، وفى العُرْفِ مَوْتَى ، بَلِ العُرْفُ عِنْدَهُم مُنْكَرٌ والاسْتِواءُ بَيْنَ الحَيِّ والمَيِّتِ مَعْرُوفٌ .

فَتَفَقَّدْتُ فى الأَصْنافِ نَفْسِي ، وضِقْتُ بِذَلِكَ ذَرْعاً ، فَقَصَدْتُ إِلَى هُدَى المُهْتَدِينَ ، بِطَلَبِ السَّدادِ والهُدَى ، واسْتَرْشَدْتُ العِلْمَ ، وأَعْمَلْتُ الفِكْرَ ، وأَطَلْتُ النَّظَرَ ، فَتَبَيَّنَ لِي مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالَى وسُنَّةِ نَبِيِّهِ وإِجْماعِ الأُمَّةِ ، أَنَّ اتِّباعَ الهَوَى يُعْمِي عَنِ الرُّشْدِ ، ويُضِلُّ عَنِ الحَقِّ ، ويُطِيلُ المُكْثَ فى العَمَى ،

فَبَدَأْتُ بِإِسْقاطِ الهَوَى عَنْ قَلْبِي ، ووَقَفْتُ عِنْدَ اخْتِلافِ الأُمَّةِ مُرْتاداً لِطَلَبِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ ، حَذِراً مِنَ الأَهْواءِ المُرْدِيَةِ والفِرْقَةِ الهالِكَةِ ، مُتَحَرِّزاً مِنَ الاقْتِحامِ قَبْلَ البَيانِ ، وأَلْتَمِسُ سَبِيلَ النَّجاةِ لِمُهْجَةِ نَفْسِي ، ثُمَّ وَجَدْتُ بِاجْتِماعِ الأُمَّةِ فى كِتابِ اللهِ المُنَزَّلِ أَنَّ سَبِيلَ النَّجاةِ فى التَّمَسُّكِ بِتَقْوَى اللهِ وأَداءِ فَرائِضِهِ ، والوَرَعِ فى حَلالِهِ وحَرامِهِ وجَمِيعِ حُدُودِهِ ، والإِخْلاصِ للهِ تَعالَى بِطاعَتِهِ ، والتَّأَسِّى بِرَسُولِهِ ﷺ .

فَطَلَبْتُ مَعْرِفَةَ الفَرائِضِ والسُّنَنِ عِنْدَ العُلَماءِ فى الآثارِ ، فَرَأَيْتُ اجْتِماعاً واخْتِلافاً ، ووَجَدْتُ جَمِيعَهُم مُجْتَمِعِينَ عَلَى أَنَّ عِلْمَ الفَرائِضِ والسُّنَنِ عِنْدَ العُلَماءِ بِاللهِ وأَمْرِهِ ، الفُقَهاءِ عَنِ اللهِ العامِلِينَ بِرِضْوانِهِ الوَرِعِينَ عَنْ مَحارِمِهِ المُتَأَسِّينَ بِرَسُولِهِ ﷺ والمُؤْثِرِينَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيا ، أُولَئِكَ المُتَمَسِّكُونَ بِأَمْرِ اللهِ وسُنَنِ المُرْسَلِين .

فالْتَمَسْتُ مِنْ بَيْنِ الأُمَّةِ هَذا الصِّنْفَ المُجْمَعَ عَلَيْهِم والمَوْصُوفِينَ بِآثارِهِم ، واقْتَبَسْتُ مِنْ عِلْمِهِم ، فَرَأَيْتُهُم أَقَلَّ مِنَ القَلِيلِ ، ورَأَيْتُ عِلْمَهُم مُنْدَرِساً كَما قالَ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ :

(بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً ، وسَيَعُودُ غَرِيباً كَما بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَباءِ)(١) وهُم المُتَفَرِّدُونَ بِدِينِهِم ، فَعَظُمَتْ مُصِيبَتِي لِفَقْدِ الأَوْلِياءِ الأَتْقِياءِ ، وخَشِيتُ بَغْتَةَ المَوْتِ أَنْ يُفاجِئَنِي عَلَى اضْطِرابٍ مِنْ عُمْرِي لاخْتِلافِ الأُمَّةِ ، فانْكَمَشْتُ فى طَلَبِ عالِمٍ لَمْ أَجِدْ لِي مِنْ مَعْرِفَتِهِ بُدّاً ، ولَمْ أُقَصِّرْ فى الاحْتِياطِ ولا فى النُّصْحِ ، فَقَيَّضَ لِيَ الرَّءُوفُ بِعِبادِهِ قَوْماً وَجَدْتُ فِيهِم دَلائِلَ التَّقْوَى وأَعْلامَ الْوَرَعِ وإِيثارَ الآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيا ، ووَجَدْتُ إِرْشادَهُم ووَصاياهُم مُوافِقَةً لأَفاعِيلِ أَئِمَّةِ الهُدَى ، ووَجَدْتُهُم مُجْتَمِعِينَ عَلَى نُصْحِ الأُمَّةِ ، لا يَجْتَمِعُونَ أَبداً

---

(١) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فى صَحِيحِه ، عَنْ (أَبِى هُرَيْرَةَ) ﷺ .

عَلَى مَعْصِيَتِهِ ، ولا يَقْنَطُونَ أَبَداً مِنْ رَحْمَتِهِ ، يَرْضَوْنَ أَبَداً بِالصَّبرِ عَلَى البَأْساءِ والضَّرَّاءِ ، والرِّضا بِالقَضاءِ والشُّكْرِ عَلَى النَّعْماءِ ، يُحَبِّبُونَ اللهَ تَعالَى إِلَى العِبادِ بِتَذْكِيرِهِم أَيادِيَهُ وإِحْسانَهُ ، ويَحُثُّونَ العِبادَ عَلَى الإِنابَةِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، عُلَماءُ بِعَظَمَةِ اللهِ تَعالَى ، عُلماءُ بِعَظِيمِ قُدْرَتِهِ ، وعُلَماءُ بِكِتابِهِ وسُنَّتِهِ ، فُقَهاءُ فى دِينِهِ ، عُلَماءُ بِما يُحِبُّ ويَكْرَهُ ، وَرِعِينَ عَنِ البِدَعِ والأَهْواءِ تارِكِينَ التَّعَمُّقَ والإِغْلاءَ ، مُبْغِضِينَ لِلْجِدالِ والمِراءِ ، مُتَوَرِّعِينَ عَنِ الاغْتِيابِ والظُّلْمِ ، مُخالِفِينَ لِأَهْوائِهِم ، مُحاسِبِينَ لِأَنْفُسِهِم ، مالِكِينَ لِجَوارِحِهِم ، وَرِعِينَ فى مَطاعِمِهِم ومَلابِسِهِم وجَمِيعِ أَحْوالِهِم ، مُجانِبِينَ لِلشُّبُهاتِ ، تارِكِينَ لِلشَّهَواتِ ، مُجْتَزِئِينَ بِالبُلْغَةِ مِنَ الأَقْواتِ ، مُتَقَلِّلِينَ مِنَ المُباحِ ، زاهِدِينَ فى الحَلالِ ، مُشْفِقِينَ مِنَ الحِسابِ ، وَجِلِينَ مِنَ المَعادِ ، مَشْغُولِينَ بَيْنَهُم ، مُزْرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم مِنْ دُونِ غَيْرِهِم ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم شَأْنٌ يُغْنِيه ، عُلَماءُ بِأَمْرِ الآخِرَةِ وأَقاوِيلِ القِيامَةِ وجَزِيلِ الثَّوابِ وأَلِيمِ العِقابِ .

ذَلِكَ أَوْرَثَهُم الحُزْنَ الدَّائِمَ والهَمَّ المُقِيمَ ، فَشُغِلُوا عَنْ سُرورِ الدُّنْيا ونَعِيمِها ، ولَقَد وَصَفُوا مِنْ آدابِ الدِّينِ صِفاتٍ ، وحَدُّوا لِلْوَرَعِ حُدوداً ضاقَ لَها صَدْرِى ، وعَلِمْتُ أَنَّ آدابَ الدِّينِ وصِدْقَ الوَرَعِ بَحْرٌ لا يَنْجُو مِنَ الغَرَقِ فيهِ شَبَهِي ، ولا يَقُومُ بِحُدودِهِ مِثْلِي ، فَتَبَيَّنَ لِي فَضْلُهُم ، واتَّضَحَ لِي نُصْحُهُم ، وأَيْقَنْتُ أَنَّهُم العامِلُونَ بِطَرِيقِ الآخِرَةِ والمُتَأَسُّونَ بِالمُرْسَلِينَ ، والمَصابِيحُ لِمَنِ اسْتَضاءَ بِهِم ، والهادونَ لِمَنِ اسْتَرْشَدَ .

فَأَصْبَحْتُ راغِباً فى مَذْهَبِهِم مُقْتَبِساً مِنْ فَوائِدِهِم قابِلاً لِآدابِهِم مُحِبَّاً لِطاعَتِهِم ، لا أَعْدِلُ بِهِم شَيْئاً، ولا أُوثِرُ عَلَيْهِم أَحَداً ، فَفَتَحَ اللهُ لِي عِلْماً اتَّضَحَ لِي بُرْهانُهُ ، وأَنارَ لِي فَضْلُهُ ، ورَجَوْتُ النَّجاةَ لِمَنْ أَقَرَّ بِهِ أَوِ انْتَحَلَهُ ، وأَيْقَنْتُ بِالغَوْثِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ ، ورَأَيْتُ الاعْوِجاجَ فِيمَنْ خالَفَهُ ، ورَأَيْتُ الرَّيْنَ

مُتَراكِماً عَلَى قَلْبِ مَنْ جَهِلَهُ وجَحَدَهُ ، ورَأَيْتُ الحُجَّةَ العُظْمَى لِمَنْ فَهِمَهُ ، ورَأَيْتُ انْتِحالَهُ والعَمَلَ بِحُدودِهِ واجِباً عَلَيَّ ، فاعْتَقَدْتُهُ فى سَرِيرَتِي ، وانْطَوَيْتُ عَلَيْهِ بِضَمِيرِى ، وجَعَلْتُهُ أَساسَ دِينِي ، وبَنَيْتُ عَلَيْهِ أَعْمالِي ، وتَقَلَّبْتُ فيهِ بِأَحْوالِي ، وسَأَلْتُ (اللهَ) عَزَّ وجَلَّ أَن يُوزِعَنِي شُكْرَ ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ ، وأَنْ يُقَوِّيَنِي عَلَى القِيامِ بِحُدودِ ما عَرَّفَنِي بِهِ ، مَعَ مَعْرِفَتِي بِتَقْصِيرِى فى ذَلِكَ ، وأَنِّى لا أُدْرِكُ شُكْرَهُ أَبداً)[١].

(٦) وقَدْ قالَ الإِمامُ (عَبْدُ القاهِرِ البَغْدادى ، ٤٢٩ هـ) فى كِتابِهِ (الفَرْقُ بَيْنَ الفِرَق) عَنِ الصُّوفِيَّةِ ؛ بَعْدَ أَنْ قَسَّمَ أَهْلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ إِلَى ثَمانِيَةِ أَصْنَافٍ وتَحَدَّثَ عَنْ كُلِّ صَنْفٍ مِنْهُم بِما يُناسِبُهُ :

(مِنْهُم الزُّهَّادُ الصُّوفِيَّةُ الَّذينَ أَبْصَرُوا فَأَقْصَرُوا ، واخْتَبَرُوا فاعْتَبَرُوا ، ورَضُوا بِالمَقْدُورِ ، وقَنَعُوا بِالمَيْسُورِ ، وعَلِمُوا أَنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ مَسْئُولٌ عَنِ الخَيْرِ والشَّرِّ ، ومُحاسَبٌ عَلَى مَثاقِيلِ الذَّرِّ ، فَأَعَدُّوا خَيْرَ الإِعْدادِ لِيَوْمِ المِيعادِ ، وجَرَى كَلامُهُم فى طَرِيقِ العِبارَةِ والإِشارَةِ عَلَى سَمْتِ أَهْلِ الحَدِيثِ ، دُونَ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الحَدِيثِ ، لايَعْمَلُونَ الخَيْرَ رِياءً ولا يَتْرُكُونَهُ حَياءً ، دِينُهُم التَّوْحِيدُ ونَفْىُ التَّشْبِيهِ ، ومَذْهَبُهُم التَّفْوِيضُ إِلَى اللهِ تَعالَى ، والتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ، والتَّسْلِيمُ لأَمْرِهِ ، والقَناعَةُ بِما رُزِقُوا ، والإِعْراضُ عَنِ الإِعْتِراضِ عَلَيْهِ ، ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ)[٢] .

وحَسْبُكَ بِقَوْلِ هَذا الإِمامِ بُرْهاناً ومُؤَيِّداً ، إِذْ هُوَ الإِمامُ المُجْمَعُ عَلَى عِلْمِهِ وإِحاطَتِهِ بِعُلُومِ ومَقالاتِ وأَفْكارِ كُلِّ الفِرَقِ الإِسْلامِيَّةِ الَّتى وُجِدَتْ حَتَّى عَصْرِهِ (مِنْ سُنَّةٍ وشِيعَةٍ وخَوارِجَ ومُعْتَزِلَةٍ وقَدَرِيَّةٍ ومُرْجِئَةٍ وجَهْمِيَّةٍ وغَيْرِها) ، فَقَوْلُهُ لَهُ وَجاهَتُهُ وَحُجِّيَّتُهُ مِنْ غَيْرِ رَيْبٍ .

---

(١) كِتابُ الوَصايا (المُحاسِبي) ص ٢٧ - ٣٢ .
(٢) الفَرْقُ بَيْنَ الفِرَق (عَبْدُ القاهِرِ البَغْدادى) ص ١٨٩ .

(٧) ويَقُولُ الإمامُ (أَبُو القاسِم القُشَيْرى ، ٤٩٢ هـ) فى رِسالَتِهِ عَنِ الصُّوفِيَّة : (جَعَلَ اللهُ هَذهِ الطَّائِفَةَ صَفْوَةَ أَوْلِيائِه ، وفَضَّلَهُم عَلَى الكافَّةِ مِنْ عِبادِهِ بَعْدَ رُسلِهِ وأَنْبيائِه صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهم)[١].

(٨) ويَقُولُ حُجَّةُ الإِسْلامِ (الإمامُ الغَزالِى ، ٥٠٥ هـ) :

(ولَقَدْ عَلِمْتُ يَقيناً أَنَّ الصُّوفِيَّةَ هُم السَّالِكُونَ لِطَرِيقِ اللهِ تَعالَى خاصَّةً ، وأَنَّ سِيرَتَهُم أَحْسَنُ السِّيَرِ ، وطَرِيقَهُم أَصْوَبُ الطُّرُقِ ، وأَخْلاقَهُم أَزْكى الأَخْلاق)[٢]

(٩) ويَقُولُ العَلاَّمَةُ الإمامُ (فَخْرُ الدِّينِ الرَّازى ، ٦٠٦ هـ) صاحِبُ التَّفْسِير ، فى كِتابِهِ (اعْتِقاداتُ فِرَقِ المُسْلِمينَ والمُشْرِكين) :

(والمُتَصَوِّفَةُ قَوْمٌ يَشْتَغِلُونَ بِالفِكْرِ وتَجَرُّدِ النَّفْسِ عَنِ العَلائِقِ الجِسْمانِيَّةِ ، ويَجْتَهِدونَ أَلَّا يَخْلُوَ سِرُّهُم وبالُهُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالَى فى سائِرِ تَصَرُّفاتِهم وأَعْمالِهِم ، مُنْطَبِعُونَ عَلَى كَمالِ الأَدَبِ مَعَ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وهَؤُلاءِ هُمْ خَيْرُ فِرَقِ الآدَمِيِّين)[٣].

(١٠) ويَقُولُ سُلْطانُ العُلَماءِ الإمامُ (العِزُّ بنُ عَبْدِ السَّلامِ ، ٦٦٠ هـ) :

(قَعَدَ القَوْمُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ عَلَى قَواعِدِ الشَّرِيعَةِ الَّتى لا تَنْهَدِمُ دُنْيا وأُخْرَى ، وقَعَدَ غَيْرُهُم عَلَى الرُّسُوم)[٤].

(١١) ويَقُولُ العَلاَّمَةُ (تاجُ الدِّين السُّبْكِى ، ٨٠٨ هـ) فى كِتابِهِ (مُعِيدُ النِّعَمِ ومُبِيدُ النِّقَمِ) تَحْتَ عُنْوانِ الصُّوفِيَّةِ ، بَعْدَ ما ذَكَرَ عَنْهُم الكَثِيرَ :

والحاصِلُ أَنَّهُم أَهْلُ اللهِ وخاصَّتُهُ ، الَّذينَ تُرْتَجَى الرَّحْمَةُ بِذِكْرِهِم ، ويُسْتَنْزَلُ الغَيْثُ بِدُعائِهِم ، فَرَضِىَ اللهُ عَنْهُم وعَنَّابِهِم)[٥].

(١٢) ويَقُولُ العَلاَّمَةُ (ابْنُ خَلْدُون ٨٠٨ هـ) فى مُقَدِّمَتِهِ عَنِ التَّصَوُّفِ

---

(١) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة ص ٢ . (٢) المُنْقِذُ مِنَ الضلالِ ص ١٣١ .
(٣) اعْتِقاداتُ فِرَقِ المُسْلِمينَ والمُشْرِكين ص ٧٢ . (٤) نُورُ التَّحْقيق (حامِد صقر) ص ٩٦ .
(٥) مُعِيدُ النِّعَمِ ومُبِيدُ النِّقَمِ (تاجُ الدِّينِ عَبْدُ الوَهَّاب السُّبْكى) ص ١١٩ .

وأَهْلِهِ : (إِنَّ طَرِيقَةَ هَـؤُلاءِ الـقَـوْمِ لَمْ تَزَلْ عِنْـدَ سَلَفِ الأُمَّةِ وكِبارِها مِنَ الصَّحابَةِ والتَّابِعِينَ ومَنْ بَعْدَهُم طَرِيقَةَ الحَقِّ والهِدايَةِ ، وأَصْلُها العُكُوفُ عَلَى العِبادَةِ والانْقِطاعُ إِلَى اللهِ تَعالَى ، والإِعْراضُ عَنْ زُخْرُفِ الدُّنْيا وزِينَتِها ، والزُّهْدُ فِيما يُقْبِلُ عَلَيْهِ الجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ ومالٍ وجاهٍ ، والانْفِرادُ عَنِ الخَلْقِ فِي الخَلْوَةِ لِلْعِبادَةِ ، وكانَ ذَلِكَ عامَّاً فى الصَّحابَةِ والسَّلَفِ ، فَلَمَّا فَشا الإِقْبالُ عَلَى الدُّنْيا فى القَرْنِ الثَّاني وما بَعْدَهُ ، وجَنَحَ النَّاسُ إِلَى مُخالَطَةِ الدُّنْيا ، اخْتَصَّ المُقْبِلُونَ عَلَى العِبادَةِ بِاسْمِ الصُّوفِيَّةِ)[1].

(١٣) ويَقُولُ الإمامُ المُحَدِّثُ (جَلالُ الدِّينِ السِّيُوطى ٩١١ هـ) فى كِتابِهِ تَأْيِيدِ الحَقِيقَةِ العَلِيَّةِ : (إِنَّ التَصَوُّفَ فى نَفْسِهِ عِلْمٌ شَرِيفٌ مَدارُهُ عَلَى اتِّباعِ السُّنَّةِ وتَرْكِ البِدَعِ ، والتَّبَرِّى مِنَ النَّفْسِ وعَوائِدِها وحُظُوظِها وأَغْراضِها ومُراداتِها واخْتِياراتِها ، والتَّسْلِيمِ للهِ والرِّضا بِهِ وبِقَضائِهِ وطَلَبِ مَحَبَّتِهِ واحْتِقارِ ما سِواه)[2].

(١٤) وتَحَدَّثَ خاتِمَةُ المُحَقِّقِينَ العَلاَّمَةُ الكَبِيرُ والفَقِيهُ الشَّهِيرُ مُحَمَّد أَمِين المَشْهُورُ بـ (ابْن عابْدِين ١٢٥٢ هـ) فى كِتابِهِ المُسَمَّى (مَجْمُوعَةُ رَسائِل ابْن عابْدِين - الرِّسالة السَّابِعَة) حَيْثُ كَشَفَ وفَضَحَ دُخَلاءَ وأَدْعِياءَ التَّصَوُّفِ الَّذِينَ تَزَيَّوْا بِزِىِّ العِلْمِ ، وانْتَحَلُوا اسْمَ الصُّوفِيَّةِ ، ثُمَّ اسْتَدْرَكَ الكَلامَ عَنِ الصُّوفِيَّةِ الصَّادِقِينَ فَقالَ : (ولا كَلامَ لَنا مَعَ الصُّدَّقِ مِنْ ساداتِنا الصُّوفِيَّةِ المُبَرَّئِينَ عَنْ كُلِّ خِصْلَةٍ رَدِيَّةٍ ، فَقَدْ سُئِلَ إِمامُ الطَّائِفَتَيْنِ سَيِّدُنا الجُنَيْد : إِنَّ أَقْواماً يَتَواجَدُونَ ويَتَمايَلُونَ ؟ فَقالَ : دَعُوهُم مَعَ اللهِ تَعالَى يَفْرَحُونَ ، فَإِنَّهُم قَوْمٌ قَطَّعَتِ الطَّرِيقُ أَكْبادَهُم ، ومَزَّقَ النَّصَبُ فُؤادَهُم

---

(١) مُقَدِّمَةُ (ابْن خَلْدون) ص ٣٩٩ ، : وهُوَ عَبْدَ الرَّحْمن بنُ الشَّيْخ أَبى بَكْر مُحَمَّد بنِ خَلْدُون الحَضْرَمي المالِكى وُلِدَ بتُونس ، وتُوفِّىَ بالقاهِرَةِ وفِيها دُفِنَ .

(٢) تأييدُ الحقيقة العليَّة (جَلالُ الدِّينِ السّيُوطى) ص ٥٧ .

وضاقُوا ذَرعاً فَلا حَرجَ عَلَيهِمْ إذا تَنَفَّسُوا مُداوةً لِحالِهِم ، ولَوْ ذُقْتَ مَذاقَهُم عَذَرْتَهُم فى صِياحِهِم . . وبِمِثْلِ ما ذَكرَهُ الإمامُ الجُنَيْدُ ، أَجابَ العَلاَّمَةُ النِّحْرِيرُ ابْنُ كَمال باشا لَمَّا اسْتُفْتِيَ عَنْ ذَلِكَ حَيْثُ قالَ :

ما فى التَّواجُدِ إنْ حَقَّقْتَ مِنْ حَرَجٍ * ولا التَّمايُلِ إنْ أَخْلَصْتَ مِنْ باسِ

فَقُمْتَ تَسْعَى عَلَى رِجْلٍ وحُقَّ لِمَنْ * دَعاهُ مَوْلاهُ أَنْ يَسْعَى عَلَى الرَّاسِ

وإنَّما أُجِيزَتِ الرُّخْصَةُ فِيما ذُكِرَ مِنَ الأَوْضاعِ عِنْدَ الذِّكْرِ والسَّماعِ للعارِفِينَ الصَّارِفِينَ أَوْقاتَهُم إلَى أَحْسَنِ الأَعْمالِ ، السَّالِكِينَ المالِكِينَ لِضَبْطِ أَنْفُسِهِمْ عَنْ قَبائِحِ الأَحْوالِ ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ إلَّا مِنَ الإلَهِ ، ولا يَشْتاقُونَ إلَّا لَهُ ، إنْ ذَكَرُوهُ ناحُوا وإنْ شَكَرُوهُ باحُوا ، وإنْ وَجَدُوه صاحُوا ، وإنْ شَهَدوهُ اسْتَراحُوا ، وإنْ سَرَحُوا فى حَضَراتِ قُرْبِهِ ساحُوا ، إذْ غَلَبَ عَلَيْهِم الوَجْدُ بِغَلَباتِهِ ، وشَرِبُوا مِنْ مَوارِدِ إراداتِهِ ، فَمِنْهُم مَنْ طَرَقَتْهُ طَوارِقُ الهَيْبَةِ فَخَرَّ وذابَ ، ومِنْهُم مَنْ بَرقَتْ لَهُ بَوارِقُ اللُّطْفِ فَتَحَرَّكَ وطابَ ، ومِنْهُم مَنْ طَلَعَ عَلَيْهِم الحِبُّ مِنْ مَطْلَعِ القُرْبِ فَسَكِرَ وغابَ .

وأَيْضاً فإنَّ سَماعَهُم يُنْتِجُ المَعارِفَ الإلَهِيَّةَ ، والحَقائِقَ الرَّبَّانِيَّةَ ، ولا يَكُونُ إلَّا بِوَصْفِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ والمَواعِظِ الحِكَمِيَّةِ ، والمَدايِحِ النَّبَوِيَّة) .

(١٥) ويَقُولُ الأَمِيرُ (شَكِيبُ أَرْسَلان) فى كِتابِ حاضِرِ العالَمِ الإسْلامِيِّ تَحْتَ عُنْوان (نَهْضَةُ الإسْلامِ فى أفريقيا وأَسْبابُها) :

(وفى القَرْنِ الثَّامِنِ عَشَر والتَّاسِعِ عَشَر حَصَلَتْ نَهْضَةٌ جَدِيدَةٌ عِنْدَ أَتْباعِ الطَّرِيقَتَيْنِ : القادِرِيَّةِ والشَّاذِلِيَّةِ ، وَوُجِدَتْ طَرِيقَتان ، هُما : التِّيجانِيَّة والسَّنُوسِيَّة) .

فالقادِرِيَّةُ هُم أَحْمَسُ مُبَشِّرِي الدِّينِ الإسْلامِي فى غَرْبِيِّ أَفْرِيقْيا مِنَ السِّنْغال إلَى بِنِينَ الَّتى بِقُرْبِ مَصَبِّ النَّيْجَر ، وهُم يَنْشُرونَ الإسْلامَ بِطَرِيقَةٍ سِلْمِيَّةٍ

بِالتِّجارَةِ والتَّعْلِيمِ . والتُّجارُ الَّذينَ مِنَ السُّونِينْكَةِ والمانْدَجُولَةِ المُنْتَشِرونَ عَلَى مُدُنِ النَّيْجَرِ وفى بِلادِ كارْتا وماسِينَة ، كُلُّهُم مِن مُرِيدِي الطَّرِيقَةِ القادِرِيَّة ، ومِنْ مُرِيدِيهِم مَنْ يَخْدِمُونَ فى مِهْنَةِ الكِتابَةِ والتَّعليم ، ويَفْتَحُونَ كَتاتِيبَ لَيْسَ فى زَوايا الطَّرِيقَةِ فَقَط ، بَلْ فى كُلِّ القُرَى ، فَيُلَقِّنُونَ صِغارَ الزِّنْجِ الدِّينَ الإِسْلامِىَّ أَثْناءَ التَّعْليمِ ، ويُرْسِلُونَ النُّجَباءَ مِنْ تلامِيذِهِم عَلَى نَفَقَةِ الزَّوايا إِلَى مَدارِسِ طَرابُلُس والقَيْرَوان وجامِعِ القَرَوِيِّينَ بِفاس والجامِعِ الأَزْهَرِ بِمِصْرَ . فَيُخَرَّجُونَ مِنْ هُناكَ طَلَبَةً مُجازِينَ ، أَى أَساتِذَةً ، ويَعُودُونَ إِلَى تِلْكَ البِلادِ لأَجْلِ مُقاوَمَةِ التَّبْشِيرِ المَسِيحِي فى السُّودان) .

وتَحَدَّثَ عَنْ شَيْخِ الطَّرِيقَةِ القادِرِيَّةِ فقالَ : (وكانَ عَبْدُ القادِرِ الجِيْلانىُّ المَوْجُودَ فى جَيْلانَ مِنْ فارِس مُتَصَوِّفاً عَظِيماً زَكِىَّ النَّشْأَةِ ، ولَهُ أَتْباعٌ لا يُحْصَى عَدَدُهُم ، ووَصَلَتْ طَرِيقَتُهُ إِلَى أَسْبانْيا ، فَلَمَّا زَالَتْ دَوْلَةُ العَرَبِ مِنْ غِرْناطَة ، انْتَقَلَ مَرْكَزُ الطَّرِيقَةِ القادِرِيَّةِ إِلَى فاس ، وبِواسِطَةِ أَنْوارِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ زَالَتْ البِدَعُ مِنْ بَيْنِ البَرْبَر ، وتَمَسَّكُوا بِالسُّنَّةِ والجَماعَةِ كَما أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ هِىَ الَّتى فى القَرْنِ الخامِسِ عَشَر ، اهْتَدَى عَلَى يَدِها زُنُوجُ غَرْبِيِّ أَفْرِيقيا .

وتَحَدَّثَ عَنِ السَّنُوسِيَّةِ فَقالَ : فالسَّنُوسِيَّةُ نَشَروا طَرِيقَتَهُم فى وادي والْبافِيرْمِي وبُورْكُو ، وتَبِعُوا نَهْرَ بَيْنَوِي إِلَى أَنْ بَلَغُوا النَّيْجَرَ الأَدْنَى حَيْثُ نَجِدُهُم يَهْدُونَ تِلْكَ القَبائِلَ إِلَى الإِسْلامِ ، وبِواسِطَةِ السَّنُوسِيَّةِ صارَتْ نَواحِي بُحَيْرَةِ تِشاد هِىَ مَرْكَزُ الإِسْلامِ العامِ فى أَواسِطِ أَفْرِيقْيا ، ويُقَوَّمُ عَدَدُ مُرِيدِى السَّنُوسِيَّةِ بِأَرْبَعَةِ ملايينَ .

ويَرْحَلُ كُلَّ سَنَةٍ مِئاتٌ مِنْ مُبَشِّرِي السَّنُوسِيَّةِ لِبَثِّ دِعايةِ الإِسْلامِ فى جَمِيعِ أَفْرِيقْيا الدَّاخِلِيَّةِ ، مِنْ سَواحِلِ الصُّومالِ شَرْقاً ، إِلَى سَواحِلِ السِّينِغامِيَّةِ

غرباً، ولقد حذا سيدى محمد المهدي وأخوه سيدى محمد الشريف حذو والدهما فى السعي إلى الغرض الذى توخاه، ألا وهو تخليص بلاد الإسلام من النفوذ الأجنبي، وإعادة الإمامة العامة كما كانت فى عصر الخلفاء، وبالإجمال: فإن مريدى هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الإسلام، ووفقوا إليه فى أفريقيا).

وتحدث عن السنوسية أيضاً بقوله: (وأى دليل أقطع من المبشرين السنوسيين الحمس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء، وهم يعدون بالألوف المؤلفة، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية مبشرين بالوحدانية داعين إلى الإسلام، وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون فى غربى أفريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر فقد قال أحد الانكليز فى هذا الصدد منذ عشرين سنة: إن الإسلام ليفوز فى أواسط أفريقيا فوزاً عظيماً، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح، وحيث الدعوة النصرانية كأنها خرافة من الخرافات..)

وتحدث عن الطريقة الشاذلية فقال:

(وأما الشاذلية فنسبتها إلى أبى الحسن الشاذلي، أخذ عن عبد السلام بن مشيش، الذى أخذ عن أبى مدين، وكانت ولادة أبى مدين فى إشبلية سنة ١١٢٧ ميلادية، وقرأ فى فاس، وحج البيت الحرام، ثم استقر يعلم التصوف فى (بجاية) وتبعه خلق كثير. وهى أوليات الطرق التى أدخلت التصوف فى المغرب، ومركزها بوبريت فى مراكش، وكان من أشياخها سيدى العربى الدرقاوي المتوفى سنة ١٨٢٣م الذى أوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة امتدت إلى المغرب الأوسط، وكان للدرقاوية دور فعال

فى مُقاوَمَةِ الفَتْحِ الفَرَنْسِى) .
وخَتَمَ الأَمِيرُ شَكِيبُ أَرْسَلان مَوْضُوعَهُ عَنْ نهْضَةِ الإِسْلامِ فى أَفْرِيقْيا فَقالَ : وأَكْثَرُ أَسْبابِ هَذِهِ النَّهْضَةِ الأَخِيرَةِ راجِعَةٌ إِلَى التَّصَوُّفِ والاعْتِقادِ بِالأَوْلياء).
(١٦) قالَ الأُسْتاذُ والمُؤَرِّخُ (مُحَمَّد راغِبُ الطَّبَّاخ ١٣٧٠ هـ) فى كِتابِهِ الثَّقافَةِ الإِسلامِيَّة : (فَإِذا كانَ التَّصَوُّفُ عِبارَةً عَنْ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وتَصْفِيَةِ الأَخْلاقِ ، فَنِعْمَ المَقْصِدُ ونِعْمَ المَذْهَبُ ، وذَلِكَ هُوَ الغايَةُ مِنْ بِعْثَةِ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَفِى الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ :
(إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ)[١].
وقَدْ تأَمَّلْنا سِيرَةَ الصُّوفِيَّةِ فى القُرونِ الأُولَى مِنَ الإِسْلامِ ، فَوَجَدْناها سِيرَةً حَسَنَةً جَمِيلَةً مَبْنِيَّةً عَلَى مَكارِمِ الأَخْلاقِ والزُّهْدِ والوَرَعِ والعِبادَةِ ، مُنْطَبِقَةً عَلَى الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ سَيِّدُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ (أَبو القاسِمْ الجُنَيْد) كَما فى تَرْجَمَتِهِ فى تارِيخِ ابْنِ خَلِّكانْ حَيْثُ قالَ :
مَذْهَبُنا هَذا مُقَيَّدٌ بِأُصُولِ الكِتابِ والسُّنَّة .
وفى شَرْحِ الإِحْياءِ لِلعَلاَّمَة (الزَّبِيدى) ج ١ص ١٧٤ ، وقالَ الجُنَيْدُ : الطُّرُقُ كُلُّها مَسْدُودَةٌ عَلَى الخَلْقِ ، إِلاَّ مَنِ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ ، وهِيَ فى تَرْجَمَتِهِ فى الرِّسالَةِ القُشَيْرِيَّةِ ص ١٩ ، وفيها قالَ الجُنَيْدُ : مَذْهَبُنا هَذا مُقَيَّدٌ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ، ثُمَّ قالَ بَعْدَ السَّنَدِ عَنِ الجُنَيْد : مَذْهَبُنا هَذا مُقَيَّدٌ بِأُصُولِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وقالَ الجُنَيْدُ : عِلْمُنا هَذا مُشَيَّدٌ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وقالَ سَرِىٌّ السَّقْطِي : (التَّصَوُّفُ اسْمٌ لِثَلاثَةِ مَعانٍ : وهُوَ الَّذى لا يُطْفِىءُ نُورُ مَعْرِفَتِهِ نُورَ وَرَعِهِ ، ولا يَتَكَلَّمُ بِباطِنِ عِلْمٍ يَنْقُضُهُ عَلَيْهِ ظاهِرُ الكِتابِ ، ولا تَحْمِلُهُ الكَراماتُ عَلَى هَتْكِ مَحارِمِ اللهِ تَعالَى) .

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخارى) عَنْ (أَبى هُرَيْرَةَ) ﷺ .

وفى شَذَراتِ الذَّهَبِ ج ٥ ص ٢٧٩ فى تَرْجَمَةِ (أَبِى الحَسَنِ الشَّاذِلى) ، ومِنْ كَلامهِ : (كُلُّ عِلْمٍ تَسْبِقُ إِلَيْكَ فيهِ الخَواطِرُ ، وتَمِيلُ النَّفْسُ وتَلْتَذُّ بِهِ ، فارْمِ بهِ ، وخُذْ بِالكِتابِ والسُّنَّة) .

ولغَيْرِهِم فى هَذا البابِ عِباراتٌ كَثِيرَةٌ ، تَجِدُها مَنْثُورَةً فى كِتابِ (التَعَرُّف لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّف) للإمامِ الكَلاباذي ، وفى (الرِّسالَةِ القُشَيْرِيَّةِ) وغَيْرِهِما .

وهَؤُلاءِ فَوْقَ ما اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ تَهْذِيبِ النَّفْسِ والوَرَعِ والزُّهْدِ والعِبادَةِ ، قَدْ قامُوا فى عُصُورِهِم بِالواجِبِ عَلَيْهِم : مِنْ إِرْشادِ الخَلْقِ إِلَى الحَقِّ ، والدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ، وصَدِّهِم النَّاسَ عَنِ التَّكالُبِ عَلَى الدُّنْيا وجَمْعِ حُطامِها مِنْ أَىِّ وَجْهٍ كانَ ، والاسْتِرْسالِ فى الشَّهَواتِ والمَلَذَّاتِ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى الانْهِماكِ في المُحَرَّماتِ والغَفْلَةِ عَنِ الواجِباتِ وما خُلِقَ الإِنْسانُ لَهُ ، وتَكُونُ نَتِيجَةُ ذَلِكَ انْتِشارَ الفَوْضَى ، وظُهورَ الفَسادِ ، وكَثْرَةَ البَغْي والهَرَج .

فَكانَ هَؤُلاءِ بِوَعْظِهِم وإِرْشادِهِم ، والحِكَمِ والحَقائِقِ الَّتى تَفَجَّرَتْ مِنْ يَنابِيعِ قُلُوبِهِم ، هُمْ حُرَّاسُ الأَخْلاقِ ، والآخِذِينَ بِيَدِ الأُمَّةِ إِلَى مَناهِجِ الحَقِّ وسُبُلِ الرَّشادِ ، والدُّعاةُ إِلَى السَّعادَةِ الحَقِيقِيَّةِ ، وهِىَ قِيامُ الإِنْسانِ بِجَمِيعِ ما أُمِرَ بِهِ مَعَ عَدَمِ نِسْيانِهِ نَصِيبَهُ مِنَ الدُّنْيا ، فَكانُوا فى جُمْلَةِ السَّامِعِينَ فى هَذهِ الأُمَّةِ والمُجِيبِينَ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) فَسَلَفُ الصُّوفِيَّةِ هُمْ أَعْلامُ المِلَّةِ وسادَةُ الأُمَّةِ وسِراجُها الوَهَّاجُ ونُورُها الوَضَّاحُ ، وبِهِم وبِأَمْثالِهِم مِنَ المُحَدِّثِينَ والفُقَهاءِ اهْتَدَتِ الأُمَّةُ إِلَى الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ ، وسَلَكَتِ المِنْهاجَ القَوِيمَ ، وانْتَظَمَتْ أَحْوالُ مَعاشِهِم ، وصَلُحَتْ

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران الآية ١٠٤ .

أُمُورُ مَعادِهِم ، وفازوا فَوْزاً عَظِيماً .
وإذا تَتَبَّعْنا آثارَ الصُّوفِيَّةِ وتَراجِمَهُم ، نَجِدُ أَنَّ الكَثِيرَ مِنْهُم قَدْ كانَ لِلْواحِدِ مِنْهُم أَتْباعٌ يُعَدُّونَ بالأُلُوفِ ، كُلَّما انْتَسَبَ إِلَيْهِ شَخْصٌ آخَى بَيْنَهُ وبَيْنَ سابِقِيهِ فَتَمَكَّنَتْ بَيْنَ أَتْباعِهِ والمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ أواصِرُ الأُلْفَةِ ورَوابِطُ المَحَبَّةِ ، وتَواسَوا فِيما بَيْنَهُم ، وتَواصَوا بِالحَقِّ ، وعَطَفَ غَنِيُّهُم عَلَى فَقِيرِهِم ، ورَحِمَ كَبِيرُهُم صَغِيرَهُم ، فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَةِ اللهِ إِخْواناً ، وصاروا كالجَسَدِ الواحِدِ ، وكانُوا فى مُنْتَهى الطَّاعَةِ والانْقِيادِ لِشَيْخِهِم ، يَقُومُونَ لِقِيامِهِ ، ويَقْعُدُونَ لِقُعُودِهِ ، ويَمْتَثِلُونَ أَوامِرَهُ ، ويَتَبادَرُونَ لأَدْنَى إِشاراتِه .
ومِنْ جَلِيلِ أَعْمالِ الصُّوفِيَّةِ وآثارِهِم الحَسَنَةِ فى الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ أَنَّ المُلُوكَ والأُمَراءَ مَتَى قَصَدوا الجِهادَ ، كانَ الكَثِيرُ مِنْ هَؤُلاءِ بِإِيعازٍ وبِغَيْرِ إِيعازٍ يُحَرِّضُونَ أَتْباعَهُم عَلَى الخُروجِ إِلَى الجِهادِ ، ولِعَظِيمِ اعْتِقادِهِم فِيهِم ، وانْقِيادِهِم لَهُم كانُوا يَبْتَدِرونَ إِلَى الانْتِظامِ فى سِلْكِ المُجاهِدِينَ ، فَيَجْتَمِعُ بِذَلِكَ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنْ أَطْرافِ مَمالِكِهِم ، وكَثِيراً ما كانَ أُولَئِكَ يُرافِقُونَ الجُيُوشَ بِأَنْفُسِهِم ، ويُدافِعُونَ ويُحَرِّضُونَ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَباً لِلظَّفَرِ والنَّصْرِ .
وإذا تَتَبَّعْتَ بُطُونَ التَّارِيخِ وَجَدْتَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً كَثِيراً ، عَلَى أَنَّنا لا نَنْسَى أَنَّ مِثْلَ هَذا العَمَلِ قَدْ كانَ فى كَثِيرٍ مِنَ المُحَدِّثِينَ والعُلَماءِ العامِلِين .
ومِنْ آثارِ الصُّوفِيَّةِ أَنَّهُ إِذا حَصَلَ اخْتِلافٌ بَيْنَ النَّاسِ فى أُمُورِ دُنْياهُم وخُصُوصاً بَيْنَ إِخْوانِهِم المَنْسُوبِينَ إِلَيْهِم ، فَإِنَّهُم يَرْجِعُونَ إِلَى شَيْخِهِم ، فَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ ، ويَعُودُونَ وهُمْ راضُونَ ، ويَسْتَغْنُونَ عَنِ التَّرافُعِ إِلَى الحُكَّامِ لِفَصْلِ ما بَيْنَهُم مِنَ الخُصُومات .
وهَذا مِمَّا شاهَدْناهُ بِأَعْيُنِنا ، وسَمِعْناهُ بِآذانِنا فى أَوائِلِ هَذا القَرْنِ مِنْ بَعْضِ بَقاياهُم ، بَلْ كانَ بَعْضُ النَّاسِ يُنْذِرُ أَخاهُ بِالشَّكْوَى إِلَى الشَّيْخِ إِنْ لَمْ يُنْصِفْهُ

فَيَعُودُ هَذا إلَى حَظِيرَةِ الحَقِّ خَشْيَةَ أَنْ يُبَلِّغَ الشَّيْخَ عَنْهُ شَيْئاً ، وهُوَ يَحْرِصُ أَنْ تَبْقَى سُمْعَتُهُ لَدَيْهِ طَيِّبَةً وسِيرَتُهُ حَسَنَةً .

(١٧) قالَ الأُسْتاذُ (صَبْرى عابْدين) فى حَديثِهِ فى نَدْوَةِ لِواءِ الإسْلامِ فى مَوْضُوعِ الصُّوفِيَّةِ وعَلاقَتِها بِالدِّين :

شَهِدْتُ بِنَفْسِي كَيْفَ حالُ الصُّوفِيَّةِ فى السُّودانِ وأَريتْريا والحَبَشَةِ والصُّومالِ ، إنَّ السُّلْطَةَ الصُّوفِيَّةَ لِلسَّيِّد الميرْغَنِي لَها اعْتِبارُها ، وبِصُورَةٍ خاصَّةٍ ولايَةِ القاضِى فى أَريتْريا لا تُوَلِّيها الحُكُومَةُ ، إنمَّا هُوَ يُوَلِّى القاضِىَ والخَطِيبَ والمُؤَذِّنَ ، ولَهُ حَقُّ الوِلايَةِ الدِّينِيَّةِ بِصِفَتِهِ رَئِيسِ الطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ.

والواقِعُ أَنَّ الصُّوفِيَّةَ يَنْشُرونَ الإسْلامَ فى العالَمِ ، وأَذْكُرُ لَكُم أَنَّهُ مُنْذُ خَمْسِينَ عاماً ، كَتَبَ الشَّيْخُ البَكْرِي كِتاباً ذَكَرَ فيهِ نَقْلاً عَنِ المُبَشِّرِينَ يَقُولُ : إنَّ هَؤُلاءِ يَقُولُونَ : ما ذَهَبْنا إلَى أَقاصِي المَناطِقِ البَعِيدَةِ عَنِ الحَضارَةِ والمَدَنِيَّةِ فِى أَفْرِيقْيا وأَقاصِى آسْيا إلاَّ وَجَدْنا الصُّوفِيَّ يَسْبِقُنا إلَيْها ، ويَنْتَصِرُ عَلَيْنا .

لَيْتَ المُسْلِمِينَ يَفْهَمُونَ ما فى الصُّوفِيَّةِ مِنْ قُوَّةٍ رُوحِيَّةٍ ومادِيَّةٍ ، فَجُنُودُهُم مُجَنَّدُون لِلإسْلامِ .

رَأَيْتُ عَلَى حُدودِ الحَبَشَةِ والسُّودانِ وأَريتْريا بَعْثَةً سِويدِيَّةً لِلتَّبْشِير ، ووَجَدْتُ إلَى جانِبِهِم أَكْواخاً أَقامَها الصُّوفِيُّونَ ، وأَفْسَدوا عَلَى المُبَشِّرِينَ السِّويدِيِّينَ إقامَتَهُم أَرْبَعِينَ سَنَةً .

ولِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ نَتَعاوَنَ لإخْمادِ هَذِهِ الحَرَكاتِ الَّتى تُؤْذِينا ، دِينِيّاً وسِياسِيّاً ، وإنَّ الَّذينَ يَحْمِلُونَ عَلَى الصُّوفِيَّةِ لَيْسُوا فَوْقَ مُسْتَوى الشُّبُهاتِ ، بَلْ هُمْ غارِقُونَ فى الشُّبُهات ...

إِلَى أَنْ قَالَ : أَكْبَرُ الْمَصَائِبِ الَّتِي أَصابَتِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُم لَمْ يَأْخُذوا بِالإِسْلام كُلِّهِ ، أَمَّا الصُّوفِيَّةُ فَقَدْ أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُم أَنْ يَأْخُذوا بِالإِسْلامِ كُلِّهِ ، بَلْ زادوا عَلَيْه .

إِنَّهُم أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُم أَلاَّ يَأْخُذوا بِالرُّخَصِ بَلْ بِالعَزائِمِ ، مَعَ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَما تُؤْتَى عَزائِمُهُ ، لِماذا ؟ لأَنَّ مَذْهَبَهُم يَقُومُ عَلَى الزُّهْدِ بِالمَعْنَى الَّذى يَفْهَمُهُ العِلْمُ ، وأَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ أَساسَ الزُّهْدِ جاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَدْ كانَ الرَّسُولُ ﷺ زاهِداً فى الحَياةِ ولَذائِذِها ، فَرَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المَثَلُ الأَعْلَى لِلْخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ ولِمَنْ تَبِعَهُ ولِلْمُسْلِمينَ كافَّةً ، والصُّوفِيَّةُ قَدْ أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُم ، كَما نَصُّوا عَلَى ذَلِكَ فى كُتُبِهِم ، عَلَى : أَنْ لا يَكُونَ بَيْنَهُم صُوفِيّاً إِلاَّ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ، ووَضَعُوا لِذلِكَ أُصُولاً فى كُتُبِهِم : (الرِّسالَةِ القُشَيْرِيَّةِ) لأَبِى القاسِمِ القُشَيْرى ، و(إِحْياءِ عُلُومِ الدِّينِ) لِلْغَزالي ، وكِتابِ (حِلْيَةِ الأَوْلياءِ) لأَبِى نُعَيْم الأَصْفَهاني ، وكِتاب (قَواعِدِ التَّصَوُّفِ) لأَحْمَد زَرُّوق .

وإِنَّا نَقُولُ : إِنَّ الَّذين يَبْحَثُونَ فى بَعْضِ العُلُومِ ويَنْتَقِدُونَها ، ويُنْكِرونَها وهُمْ لَمْ يَطَّلِعُوا عَلَيْها ، مَثَلُهُم مَثَلُ رَجُلٍ لا يَفْهَمُ فى الطِّبِّ شَيْئاً فَيُنْكِرُ الطِّبَّ ، وكالإِسْكافِي الَّذى يُنْكِرُ الهَنْدَسَةَ .

وفى مِصْرَ هُنا ، فى الوَقْتِ الَّذى جاءَتْ جُيُوشُ الصَّلِيبِيَّةِ إِلَى دِمْياط ، كانَ لِلصُّوفِيَّةِ أَمْثال (أَبِى الحَسَنِ الشَّاذِلى ، وعِزِّ الدِّين بنِ عَبْدِ السَّلامِ ، وأَبِى الفَتْحِ ابْنِ دَقِيقِ العِيدِ ، وآخَرِينَ مِنَ العُلَماءِ) خِدْمَةٌ جَلِيلَةٌ فى مُقاوَمَةِ الصَّلِيبِيِّين(١) .

(١٨) يَقُولُ السَّيِّدُ (مُحَمَّد ماضِي أَبُو العَزائِم ، ت : ١٣٥٦ هـ) واصِفاً

---

(١) مجلة لواء الإسلام (العدد العاشر ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦) ص ٦٤٥ - ٦٤٧ .

أَهْلَ التَّصَوُّفِ (أَهْلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ : الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ) قائِلاً :
(القُرْآنُ المَجِيدُ مَوْرِدُهُم الرَّوِيُّ ، ورَوْضُهُمْ الجَنِيُّ ، وحَوْضُهُمْ المَوْرودُ ، وكَوْثَرُهُمْ المَشْهُودُ ، ومِيزانُ أَحْوالِهِمْ ، ومَرْجِعُ مَقاماتِهِم .
يَسْأَلُونَهُ قَبْلَ العَمَلِ فَإِنْ أَذِنَ سارَعُوا ، وإِنْ مَنَعَ تَرَكُوا واسْتَغْفَروا ، فَهُوَ الإِمامُ النَّاطِقُ وإِنْ صَمَتَ ، لأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَهُوَ النَّاطِقُ لَهُمْ ﷺ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ بِهِ ، فَتَسْمَعُهُ آذانُ قُلُوبِهِمْ حُضُوراً مِنْ حَضْرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وإِنْ كانَ التَّالِي لَهُ إِنْساناً آخَر)[١] .

(١٩) يقُولُ الأُسْتاذُ (أَبُوالحَسَن عَلِى الحَسَني النَّدوِى) فى بَحْثِ الصُّوفِيَّةِ فى الهِنْدِ وتَأْثِيرِهِم فى المُجْتَمَعِ ، مِنْ كِتابِهِ (المُسْلِمُونَ فى الهِنْد) :
(إِنَّ هَؤُلاءِ الصُّوفِيَّةَ كانُوا يُبايِعُونَ النَّاسَ عَلَى التَّوْحِيدِ والإِخْلاصِ واتِّباعِ السُّنَّةِ ، والتَّوْبَةِ عَنِ المَعاصِي وطاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ ، ويُحَذِّرُونَ مِنَ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والأَخْلاقِ السَّيِّئَةِ والظُّلْمِ والقَسْوَةِ ويُرَغِّبُونَهُم فى التَّحَلِّي بِالأَخْلاقِ الحَسَنَةِ ، والتَّخَلِّى عَنِ الرَّذائِلِ مِثْلَ الكِبْرِ والحَسَدِ والبَغْضاءِ والظُّلْمِ وحُبِّ الجاهِ ، وتَزْكِيَةِ النَّفْسِ وإِصْلاحِها ، ويُعَلِّمُونَهُم ذِكْرَ اللهِ والنُّصْحَ لِعِبادِهِ والقَناعَةَ والإِيثارَ ، وعَلاوَةً عَلَى هَذِهِ البَيْعَةِ الَّتى كانَتْ رَمْزَ الصِّلَةِ العَمِيقَةِ الخاصَّةِ بَيْنَ الشَّيْخِ ومُرِيدِيهِ ، فَإِنَّهُم كانُوا يَعِظُونَ النَّاسَ دائِماً ، ويُحاوِلُونَ أَنْ يُلْهِبُوا فِيهِم عاطِفَةَ الحُبِّ لِلَّهِ سُبْحانَهُ ، والحَنِينَ إِلَى رِضاهُ ، والرَّغْبَةَ الشَّدِيدَةَ لإِصْلاحِ النَّفْسِ وتَغْيِيرِ الحال) .
ثُمَّ تَحَدَّثَ عَنْ مَدَى تَأْثِيرِ أَخْلاقِهِم وإِخْلاصِهِم وتَعْلِيمِهِمْ وتَرْبِيَتِهِم ، ومَجالِسِهِم فى المُجْتَمَعِ والحَياةِ ، وضَرَبَ بَعْضَ الأَمْثِلَةِ الَّتِى تُلْقِي الضَّوْءَ عَلَى هَذا الواقِعِ التَّارِيخِيِّ ، فَتَحَدَّثَ عَنِ الشَّيْخِ (أَحْمَدَ الشَّهِيدِ) رَحِمَهُ اللهُ

---
(١) الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ لـ (مُحَمَّد ماضي أبي العزائم) .

تَعالَى فَقالَ : (إنَّ النَّاسَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ إقْبالاً مُنْقَطِعَ النَّظِيرِ ، وإنَّهُ لَمْ يَمُرَّ بِبَلْدَةٍ إلاَّ وتابَ عَلَيْهِ وبايَعَهُ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وإنَّهُ أَقامَ فى كَلْكُتَّا شَهْرَيْنِ وَيُقَدَّرُ أَنَّ الَّذينَ كانُوا يَدْخُلونَ فى البَيْعَةِ لا يَقِلُّ عَدَدُهُم عَنْ أَلْفِ نَسَمَةٍ يَوْمِيّاً)

وتَحدَّثَ عَنْ شَيْخِ الإسْلامِ (عَلاءِ الدِّين) رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى ، فقالَ :

(إنَّ السَّنواتِ الأَخِيرَةَ مِنْ عَهْدِهِ ، تَمْتازُ بِأَنْ كَسَدَتْ فِيها سُوقُ المُنْكَراتِ مِنَ الخَمْرِ والغَرامِ ، والفِسْقِ والفُجُور ، والمَيْسِرِ والفَحْشاءِ بِجَميعِ أَنْواعِها ، ولَمْ تَنْطِقِ الأَلْسُنُ بِهَذِهِ الكَلِماتِ إلاَّ قَليلاً ، وأَصْبَحَتِ الكبائِرُ تُشْبِهُ الكُفْرَ فى أَعْيُنِ النَّاسِ ، وظَلَّ النَّاسُ يَسْتَحْيُونَ مِنَ التَّعامُلِ بِالرِّبا والادِّخارِ والاكْتِنازِ عَلَناً ونَدُرَتْ فى السُّوقِ حَوادِثُ الكَذِبِ والتَّطْفِيفِ والغِشِّ ... ثُمَّ قالَ : إنَّ تَرْبِيَةَ هؤُلاءِ الصُّوفِيَّةِ والمَشايخِ ومَجالِسِهِم كانَتْ تُنْشِئُ فى الإنْسانِ رَغْبَةً فى إفادَةِ النَّاسِ وحِرْصاً عَلَى خِدْمَتِهِم ومُساعَدَتِهِم) : ثُمَّ بَيَّنَ الأُسْتاذُ النَدَوِيُّ أَنَّ تَأْثِيرَ هَذهِ المَواعِظِ ، ودُخُولَ النَّاسِ فى الدِّينِ ، وانْقِيادِهِمْ لِلشَّرْعِ أَدَّى إلَى أَنْ تَعطَّلَتْ تِجارَةُ الخَمْرِ فى كَلْكُتَّا وهِيَ كُبْرَى مُدِنِ الهِنْدِ ومَرْكَزِ الإنْجِلِيز ، وكَسَدَتْ سُوقُها ، وأَقْفَرَتِ الحاناتُ ، واعْتَذَرَ الخَمَّارُونَ عَنْ دَفْعِ الضَّرائِبِ لِلْحُكُومَةِ ، مُتَعَلِّلِينَ بِكَسادِ السُّوقِ ، وتَعَطُّلِ تِجارَةِ الخَمْرِ ، ثُمَّ قالَ : إنَّ هَذهِ الحَالَةَ كانَتْ نَتِيجَةَ أَخْلاقِ هَؤُلاءِ المُصْلِحِينَ والدُّعاةِ الصُّوفِيَّةِ المَشَايخِ ورُوحانِيَّتِهِم ، أَنِ اهْتَدَى بِهِم فى هَذهِ البِلادِ الواسِعَةِ عَدَدٌ هائِلٌ مِنَ النَّاسِ ، وتابُوا عَنِ المَعاصِي والمُنْكَراتِ واتِّباعِ الهَوَى ، ولَمْ يَكُنْ بِوسْعِ حُكُومَةٍ أَومُؤَسَّسَةٍ أَوقانُونٍ أَنْ يُؤَثِّرَ فى هَذهِ المَجْموعَةِ البَشَرِيَّةِ الضَّخْمَةِ ويُحِيطَها بِسِياجٍ مِنَ الأَخْلاقِ والمَبادِئِ الشَّرِيفَةِ لِزَمَنٍ طَوِيل .

وفى خِتامِ البَحْثِ قالَ : لَقَدْ كانَتْ هُناكَ بِجُهُودِ هَؤلاءِ الصُّوفِيَّةِ أَشْجارٌ كَثِيرَةٌ وارِفَةَ الظِّلالِ فى مِئاتٍ مِنْ بِلادِ الهِنْدِ ، اسْتَراحَتْ فى ظِلِّها القَوافِلُ التَّائِهَةُ

والمُسافِرُونَ المُتْعَبُونَ ، ورَجِعُوا بِنَشاطٍ جَديدٍ وحَياةٍ جَديدَة) .

وتَحدَّثَ أَيْضاً الأُسْتاذُ أَبُوالحَسَن النَدَوِيُّ فى كِتابِهِ (رِجالُ الفِكْرِ والدَّعْوَةِ فى الإِسْلامِ) عَنِ الصُّوفِيَّةِ وأَثَرِها فى نَشْرِ الإِسْلامِ بِصَدَدِ حَديثِهِ عَنِ الصُّوفِيِّ الشَّهيرِ والمُرْشِدِ الكَبيرِ سَيِّدِى (عَبْدِ القادِرِ الجَيْلانى) فَقالَ : (وكانَ يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ نَحْوَ مِنْ سبْعِينَ أَلْفاً ، وأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَةِ آلافٍ مِنَ اليَهُودِ والنَّصارَى ، وتابَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ العَيَّارِينَ والمَسالِحةِ (١) أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ ، وفَتَحَ بابَ البَيْعَةِ والتَّوْبَةِ عَلَى مِصْراعَيْهِ ، فَدَخَلَ فيهِ خَلْقٌ لايُحْصِيهم إلاَّ اللهُ ، وصَلُحَتْ أَحْوالُهُم ، وحَسُنَ إِسْلامُهُم ، وظَلَّ الشَّيْخُ يُرَبِّيهِم ويُحاسِبُهُم ، ويُشْرِفُ عَلَيهِم وعَلَى تَقَدُّمِهِم ، وأَصْبَحَ هَؤُلاءِ التَّلامِيذُ الرُّوحانِيُّونَ يَشْعُرونَ بِالمَسْئُولِيَّةِ بَعْدَ البَيْعةِ والتَّوْبَةِ وتَجْديدِ الإِيمانِ ، ثُمَّ يُجيزُ الشَّيْخُ كَثِيراً مِنْهُم مِمَّنْ يَرَى فِيهِ النُّبُوغَ والاسْتِقامَةَ والمَقْدِرَةَ عَلَى التَّرْبِيَةِ ، فَيَنْتَشِرونَ فى الآفاقِ يَدْعُونَ الخَلْقَ إِلَى اللهِ ، ويُرَبُّونَ النُّفوسَ ، ويُحارِبُونَ الشِّرْكَ والبِدَعَ والجاهِلِيَّةَ والنِّفاقَ ، فَتَنْتَشِرُ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ وتَقُومُ ثَكَناتُ الإِيمانِ ومَدارِسُ الإِحْسانِ . ومَرابِطُ الجِهادِ ومَجامِعُ الإِخُوَّةِ فى أَنْحاءِ العالَمِ الإِسْلامى .

وقَدْ كانَ لِخُلَفائِهِ وتَلامِيذِهِ ، ولِمَنْ سارَ سِيرَتَهُم فى الدَّعْوَةِ وتَهْذيبِ النُّفُوسِ مِنْ أَعْلامِ الدَّعْوَةِ وأَئِمَّةِ التَّرْبِيَةِ فى القُرُونِ الَّتى تَلَتْهُ فَضْلٌ فى المُحافَظَةِ عَلَى رُوحِ الإِسْلامِ وشُعْلَةِ الإِيمانِ ، وحَماسَةِ الدَّعْوَةِ والجِهادِ وقُوَّةِ التَّمَرُّدِ عَلَى الشَّهَواتِ والسُّلُطاتِ ، ولَوْلاهُم لابْتَلَعَتِ المَادِيَّةُ الَّتى كانَتْ تَسيرُ فى رِحابِ الحُكُوماتِ المدَنِيَّاتِ هَذهِ الأُمَّةَ ، وانْطَفَأَتْ شَرارَةُ الحَياةِ والحُبِّ فى صُدُورِ أَفْرادِها ، وقَدْ كانَ لِهَؤُلاءِ فَضْلٌ كَبيرٌ لِنَشْرِ الإِسْلامِ فى الأَمْصارِ البَعِيدَةِ الَّتى

(١) المَسالِحُ : الجَماعَةُ أو القَوْم ذَووا السِّلاح .

لَم تَغْزُهاجُيُوشُ المُسْلِمِينَ ، أو لَمْ تَسْتَطِعْ إِخْضاعَها لِلْحُكْمِ الإِسْلامِيِّ ، وانْتَشَرَ بِهِم الإِسْلامُ في أَفْرِيقْيا السَّوداءِ وفى أَنْدونِسْيا وجُزُرِ المُحِيطِ الهِنْدِي وفى الصِّينِ وفى الهِنْد) وتَحَدَّثَ الأُسْتاذُ أَبو الحَسَنِ النَّدَوي فى كِتابِهِ (رَوائِعُ إِقْبال) عَنْ زِيارَتِهِ لِلشَّاعِرِ ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ إِقْبالٌ التَّصَوُّفَ ورِجالَهُ والتَّجْدِيدَ الإِسْلامِيَّ فى الهِنْدِ بواسِطَتِهِم ، وبَعْدَ أَنْ أَثْنَى عَلَى الشَّيْخِ أَحْمَد السَّرهِنْدِى والشَّيْخِ وَلِيِّ اللهِ الدَّهْلَوِي والسُّلْطانِ مُحْيِي الدِّينِ أُورَنْك زيب رَحِمَهُم اللهُ تَعالَى ، قالَ إِنَّنِي أَقُولُ دائِماً : (لَوْلا وُجُودُهُم وجِهادُهُم لابْتَلَعَتِ الهِنْدُ وحَضارَتُها وفَلْسَفَتُها الإِسْلامَ)[١].

(٢٠) قالَ العَلَّامَةُ الكَبِيرُ الأُسْتاذُ (أَبُو الأَعْلَى المَوْدُودي) فى كِتابِهِ مَبادِىء الإِسْلامِ تَحْتَ عُنْوان التَّصَوُّف : (إِنَّ عَلاقَةَ الفِقْهِ إِنَّما هِيَ بِظاهِرِ عَمَلِ الإِنْسانِ فَقَط ، ولا يَنْظُرُ إِلاَّ هَلْ قُمْتَ بِما أُمِرتَ بِهِ عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ ، أَمْ لا ؟ فَإِنْ قُمْتَ فَلا تَهُمُّهُ حالُ قَلْبِكَ وكَيْفِيَّتِه ، أَمَّا الشَيْءُ الَّذى يَتَعَلَّقُ بِالقَلْبِ ويَبْحَثُ عَنْ كَيْفِيَّتِهِ فَهُوَ التَّصَوُّفُ ، إِنَّ الفِقْهَ لا يَنْظُرُ في صَلاتِكَ مَثَلاً إِلاَّ هَلْ قَدْ أَتْمَمْتَ وُضُوءَكَ عَلَى الوَجْهِ الصَّحِيحِ أَمْ لا ؟ وهَلْ صَلَّيْتَ مُوَلِّياً وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ أَمْ لا ؟ وهَلْ أَدَّيْتَ أَرْكانَ الصَّلاةِ كُلَّها ، أَمْ لا ؟ فَإِنْ قُمْتَ بِكُلِّ ذَلِكَ فَقَد صَحَّتْ صَلاتُكَ بِحُكْمِ الفِقْه) .

إِلاَّ أَنَّ الَّذى يَهُمُّ التَّصَوُّفَ بِالإِضافَةِ إِلَى ذَلِكَ هُوَ ما يَكُونُ عَلَيْهِ قَلْبُكَ حِينَ أَدائِكَ هَذِهِ الصَّلاةَ مِنَ الحالَة ؛ هَلْ أَنَبْتَ فِيها إِلَى رَبِّكَ أَمْ لا ؟ وهَلْ تَجَرَّدَ قَلْبُكَ فِيها عَنْ هُمُومِ الدُّنْيا وشُؤُونِها أَمْ لا ؟ وهَلْ أَنْشَأَتْ فِيكَ هَذه الصَّلاةُ خَشْيَةَ اللهِ واليَقِينَ بِكَوْنِهِ خَبِيراً بَصِيراً ، وعاطِفَةَ ابْتِغاءِ وَجْهِهِ الأَعْلَى وَحْدَهُ أَمْ لا ؟وإِلَى أَيِّ حَدٍّ أَصْلَحَتْ أَخْلاقَهُ ؟ وإِلَى أَيِّ حَدٍّ جَعَلَتْهُ مُؤْمِناً صادِقاً

---

(١) روائع إقبال (أبو الحسن الندوى) ص ٧ .

عامِلاً بِمُقْتَضَياتِ إيمانه ؟ .

فَعَلَى قَدْرِ ما تَحْصُلُ هَذهِ الأُمُورُ ، وهِىَ مِنْ غاياتِ الصَّلاةِ وأَغْراضِها الحَقِيقِيَّةِ فى صَلاتهِ تَكُونُ صَلاتُهُ كامِلةً فى نَظَرِ التَّصَوُّفِ ، وعَلَى قَدْرِ ما يَنْقُصُها الكَمالُ مِنْ هَذهِ الوِجْهَةِ ، تَكُونُ ناقِصَةً فى نَظَرِ التَّصَوُّف .

فَهَكَذا لا يَهُمُّ الفِقْهُ فى سائِرِ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ إلاَّ هَلْ أَدَّى المَرْءُ الأَعْمالَ عَلَى الوَجْهِ الَّذى أَمَرَهُ بهِ لأَدائِها أَمْ لا ؟ أَمَّا التَّصَوُّفُ فَيَبْحَثُ عَمَّا كانَ فى قَلْبِهِ مِنَ الإِخْلاصِ وصَفاءِ النِّيَّةِ وصِدْقِ الطَّاعَةِ عِنْدَ قِيامِهِ بِهَذِهِ الأَعْمال .

ويُمْكِنُكَ أَنْ تُدْرِكَ هَذا الفَرْقَ بَيْنَ الفِقْهِ والتَّصَوُّفِ بِمَثَلٍ أَضْرِبُهُ لَكَ : إنَّكَ إِذا أَتاكَ رَجُلٌ ، نَظَرْتَ فيهِ مِنْ وِجْهَتَيْن : إِحْداهُما ، هَلْ هُوَ صَحِيحُ البَدَنِ كامِلُ الأَعْضاءِ ؟ أَمْ فى بَدَنهِ شَىْءٌ مِنَ العَرَجِ أَوالعَمَى ؟ وهَلْ هُوَ جَمِيلُ الوَجْهِ أَو دَمِيمُهُ ؟ وهَلْ هُوَ لابِسٌ زِيًّاً فاخِراً أَو ثِياباً بالِيَةً ؟ .

والوِجْهَةُ الأُخْرَى : إِنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ أَخلاقَهُ وعاداتِهِ وخِصالَهُ ومَبْلَغَهُ مِنَ العِلْمِ والعَقْلِ والصَّلاحِ .

فالوِجْهَةُ الأُولَى وِجْهَةُ الفِقْهِ ، والوِجْهَةُ الثَّانِيَةُ وِجْهَةُ التَّصَوُّف .

وكَذَلِكَ إِذا أَرَدْتَ أَنْ تَتَّخِذَ أَحَداً صَدِيقاً لَكَ ، فَإِنَّكَ تَتَأَمَّلُ فى شَخْصِهِ مِنْ كِلا الوِجْهَتَيْنِ ، وتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ جَمِيلَ المَنْظَرِ وجَمِيلَ الباطِنِ مَعاً .

كَذَلِكَ لا تَجْمُلُ في عَيْنِ الإِسْلامِ إِلاَّ الحَياةُ الَّتى فِيها اتِّباعٌ كامِلٌ صَحِيحٌ لأَحْكامِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الوِجْهَتَيْنِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة .

ومَثَلُ الَّذي طاعَتُهُ صَحِيحَةٌ فى الظَّاهِرِ ، ولَكِنْ يعُوزُهُ رُوحُ الطَّاعَةِ الحَقِيقِيَّةِ فى الباطِنِ ، كَمَثَلِ جَسَدٍ جَمِيلٍ قَدْ فارَقَهُ رُوحُه .

ومَثَلُ الَّذي في عَمَلِهِ الكَمالاتُ الباطِنَةُ كُلُّها ، ولَيْسَتْ طاعَتُهُ صَحِيحَةً عَلَى

حَسَبِ الوَجْهِ المُرادِ فى الظَّاهِرِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ صالِحٍ دَمِيمِ الوَجْهِ مطْمُوسِ العَيْنَيْنِ أَعْرَجِ القَدَمَيْن .

وسَهُلَ عَلَيْكَ بِهَذا المِثالِ أَنْ تَعْرِفَ العَلاقَةَ بَيْنَ الفِقْهِ والتَّصَوُّف .

(٢١) ويَقُولُ الإمامُ الحافِظُ السَّيِّدُ (مُحَمَّد صَدِّيقُ الغُمارِي) عِنْدَما سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ مَنْ أَسَّسَ التَّصَوُّفَ ؟ وهَلْ هُوَ بِوَحْيٍ سَماوِيٍّ فَأَجابَ : (أَمَّا أَوَّلُ مَنْ أَسَّسَ الطَّرِيقَةَ ، فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيقَةَ أَسَّسَها الوَحْيُ السَّماوِيُّ في جُمْلَةِ ماأَسَّسَ مِنَ الدِّينِ المُحَمَّدِي ، إِذْ هِيَ بِلاَ شَكٍّ مَقامُ الإِحْسانِ الَّذي هُوَ أَحَدُ أَرْكانِ الدِّينِ الثَّلاثَةِ الَّتي جَعَلَها النَّبِيُّ بَعْدَ ما بَيَّنَها واحِداً واحِداً دِيناً بِقَوْلِه : هَذا جِبْرِيلُ عليه السلام أَتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ[١] ، وهُوَ الإِسْلاَمُ والإِيمانُ والإِحْسانُ .

فَالإِسْلامُ طاعَةٌ وعِبادَةٌ ، والإِيمانُ نُورٌ وعَقِيدَةٌ ، والإِحْسانُ مَقامُ مُراقَبَةٍ ومُشاهَدَةٍ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ ...

ثُمَّ قالَ السَّيِّدُ (مُحَمَّد صَدِّيقُ الغُمارِي) في رِسالَتِهِ تِلْكَ :

(فَإِنَّهُ كَما في الحَدِيثِ (الدِّينُ) عِبارَةٌ عَنِ الأَرْكانِ الثَّلاثَةِ ، فَمَنْ أَخَلَّ بِهَذا المَقامِ (الإِحْسانِ) الَّذِي هُوَ الطَّرِيقَةُ ، فَدِينُهُ ناقِصٌ بِلاشَكٍّ لِتَرْكِهِ رُكْناً مِنْ أَرْكانِهِ ، فَغايَةُ ما تَدْعُو إِلَيْهِ الطَّرِيقَةُ وتُشِيرُ إِلَيْهِ هُوَ مَقامُ الإِحْسانِ ؛ بَعْدَ تَصْحِيحِ الإِسْلامِ والإِيمانِ)[٢] .

(٢٢) ويَتَحَدَّثُ الشَّيْخُ (أَحْمَدُ الشَّرَباصِى ١٤٠٠ هـ) فى كِتابِهِ المَوْسُوعي (يَسْأَلُونَكَ فى الدِّينِ والحَياةِ) عَنِ التَّصَوُّفِ قائِلاً :

(التَّصَوُّفُ الإِسْلامِيُّ القَوِيمُ هُوَ أَنْ يَبْلُغَ المُؤْمِنُ دَرَجَةَ الإِحْسانِ الَّتى هِىَ أَعْلَى الدَّرَجاتِ فى التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، والَّتي يُشِيرُ إِلَيْها القُرْآنُ

---

(١) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ الإمامُ (مُسْلِمٌ) فى صَحِيحِهِ عَنْ سَيِّدِنا (عُمَرَ بنِ الخَطَّاب) رضي الله عنه .
(٢) الانْتِصارُ لِطَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ لِلْمُحَدِّث (مُحَمَّد صَدِّيق الغُماري) .

الكَرِيمُ فى قَوْلِهِ تعالَى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١) .

ثُمَّ يَسْتَرْسِلُ مُوَضِّحاً وشارِحاً مَعْنَى التَّصَوُّفِ إِلَى أَنْ يَقُولَ :

(والإسْلامُ يَتَمَثَّلُ فى النُّطْقِ بِالشَّهادَتَيْنِ والعَمَلِ الظَّاهِرِ ، والإيمانُ يَتَمَثَّلُ فى اعْتِقادِ القَلْبِ واطْمِئْنانِ الفُؤادِ ، والإحْسانُ يَتَمَثَّلُ فى اليَقِينِ والإخْلاصِ ، وهَذا الإخْلاصُ هُوَ لُبُّ التَّصَوُّفِ وعِمادُ أَمْرِه) .

وقالَ الأُسْتاذُ أَحْمَدُ الشَّرَباصِي أَيْضاً فى تَقْدِمَتِهِ لِكِتابِ نُورِ التَّحْقيق :

(هَذا هُوَ التَّصَوُّفُ الجَلِيلُ النَّبِيلُ ، أَضاعَهُ أَهْلُهُ ، وحافَ عَلَيْهِ أَعْداؤُهُ الصُّرَحاءُ ، وشَوَّهَ جَمالَهُ أَدْعِياؤُهُ الخُبَثاءُ ، وتَطاوَلَ عَلَيْهِ الزَّمَنُ ، وهُوَ مَجْهُولٌ مَنْكُورٌ ، أَو مَذْمُومٌ مَحْذُورٌ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَمالِهِ وعَظِيمِ رِجالِهِ الماضِينَ وأَبْطالِهِ ، واتِّساعِ اخْتِصاصِهِ ومَجالِهِ ، وخُطُورَةِ أَقْوالِهِ وأَعْمالِهِ ، فَغَدا كالدُّرَّةِ الثَّمِينَةِ حَجَبَتْها اللَّفائِفُ السُّودُ ؛ فَظَنَّها الجاهِلُونَ سَوْداءَ بِسَوادِ لَفائِفِها ، وهُمْ لَوْ وَصَلُوا إِلَيْها ، وجَلَوْا عَنْها ما حاقَ بِها أَو حاطَها مِنْ أَسْتارٍ لانْبَهَرتْ أَعْيُنُهُم مِنْ ساطِعِ الضِّياءِ وفَرِيدِ البَهاءِ .

لَهْفِي عَلَى التَّصَوُّفِ الحَقِّ النَّاطِقِ بِنَقائِهِ وصَفائِهِ ، أَيْنَ الَّذِينَ يُطْلِعُونَ الحَيارَى مِنْ أَبْناءِ الكَوْنِ عَلَى ما فيهِ مِنْ أَخْبارٍ وأَسْرار ؟! أَيْنَ الَّذِينَ يَصْرُخُونَ بَيْنَ القُطْعانِ الضَّالَّةِ مِنَ البَشَرِ ، لِيَقُولوا لَها : (إِنَّ التَّصَوُّفَ جُزْءٌ مِنَ الإسْلامِ وجانِبٌ مِنْ هَدْيِ الرَّسُولِ ﷺ وإِنَّ التَّصَوُّفَ مَظْلُومٌ ، فَقَدْ أُضِيفَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ أَوسُوءِ قَصْدٍ ، وقَدْ كَتَمَ أَدْعِياؤُهُ كَثِيراً مِنْ أُمُورِهِ ، وقَد تَطاوَلَ عَلَيْهِ بِالتَّحْرِيفِ قَوْمٌ نَكِلُ حِسابَهُم إِلَى اللَّهِ ، وقَدْ تَسَرَّعَ بِالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَطْرُقُوا بابَهُ ، ولَمْ يَذُوقُوا شَرابَهُ ، ولَمْ يُطالِعُوا

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت آية ٦٩ .

كِتابَهُ ...

ولَمْ يَجِد التَّصَوُّفُ الكَرِيمُ الَّذي أَضاعَهُ النَّاسُ مَعَ هَذهِ العَوامِلِ الهَدَّامَةِ مَنْ يَأْخُذُ بِناصِرِهِ ، أَو يَجْلُو الغَياهِبَ عَنْ مآثِرِهِ ، أَو يَعْرِضُ عَلَى الشَّانِئِينَ أَو الخاطِئِينَ سَلاسِلَ مَفاخِرِهِ . وقَدْ عَلَّمَتْنا الدِّراساتُ والتَّجارِبُ أَنَّ الحَقَّ إِذا لَمْ يَجِدْ أَهْلاً ، ولَمْ يَفُزْ بِمُؤَيِّدٍ أَو مُسْتَجِيبٍ انْطَوَى وتَوارَى ، حَتَّى يُهَيِّىءَ اللهُ لَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ أَوطَويلٍ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ أَو يَدْعُو إِلَيْهِ ، أَو يَحْمِلُ النَّاسَ إِلَيْهِ رَغْبَةً أَو رَهْبَةً عَلَيْهِ ، فإِذا هُوَ بَعْدَ انْطِوائِهِ السَّيِّدُ المُطاع .

أَرَأَيْتَ إِلَى كَنْزٍ وَسِيعٍ عَجِيبٍ ، فيهِ المالُ الغَزِيرُ الَّذى لا يُحْصَى ، وفيهِ أَدْوِيَةُ الجِسْمِ الشَّافِيَةِ الَّتي لاتَخُونُ ، وفيهِ علاجُ النَّفْسِ الَّذى يَهْدِي ، وفيهِ نُورُ القَلْبِ الَّذى لا يَخْبُو ..

ماذا يَكُونُ مِنْ شَأْنِكَ لَوْ أَنَّ إِنْساناً أَخْبَرَكَ بِوجُودِ هذَا الكَنْزِ فى مَكانٍ ما ، ورَسَمَ لَك الطَّرِيقَ إِلَيْهِ ، وذَكَرَ لَكَ ما تَحْتاجُهُ الرِّحْلَةُ نَحْوَهُ مِنْ مَجْهُودٍ وتَكالِيفٍ ؟ ...

أَلا تُحاوِلُ أَنْ تَبْذُلَ جُهْدَكَ وتَسْتَنْفِذَ طاقَتَكَ ، وتَعْمَلَ وِسْعَكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى هَذا الكَنْزِ الَّذى سَتَجِدُ عِنْدَهُ جاهَ الدُّنْيا وعِزَّ الآخِرَة ؟ كَذَلِكَ شَأْنُ التَّصَوُّفِ يا صاح ، إِنَّهُ الدَّواءُ المَخْفِيُّ والكَنْزُ المَطْوِيُّ والسِّرُّ العِلْمِيُّ ، إِنَّهُ الدَّواءُ الَّذى يَحْتاجُ إِلَيْهِ جِسْمُكَ وفَهْمُكَ وخُلُقُكَ ، ولَكِنَّكَ لَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ ولَنْ تَنْتَفِعَ بِهِ حَتَّى تَتَّجِهَ بِمَشاعِرِكَ نَحْوَهُ ، وحَتَّى تُقْبِلَ بِبَصَرِكَ وبَصِيرَتِكَ عَلَيْهِ ، وحَتَّى تَبْذُلَ مِنْ ذاتِ يَدِكَ ، وذاتِ نَفْسِكَ ومِنْ وَقْتِكَ وبَحْثِكَ ما يُهَيِّىءُ لَكَ البُلُوغَ إِلَيْهِ والوقُوفَ عَلَيْهِ ، فَهَلْ فَعَلْتَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً وقَدْ عَرَفْتَ الطَّرِيقَ إِلَى النَّعِيم ؟ .

إِنَّهُ لا يَعْنِينِي أَبَداً أَنْ تَكُونَ صُوفِيّاً أَو لا تَكُونَ ، ولا يَهُمُّنِى كَثِيراً أَنْ تَكُونَ مِنْ

أَعْداءِ الصُّوفِيَّةِ أَوْ مِنْ أَوْلِيائِهِم ، ولَكِنْ يَهُمُّنِى أَوَّلاً وقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ تَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِكَ ، وأَنْ لا تَجْهَلَ شَيْئاً جَلِيلاً يُطالِبُكَ دِينُكَ وعَقْلُكَ أَنْ تَعْرِفَهُ ومِنْ هُنا يَتَحَتَّمُ عَلَيْكَ أَنْ تَدْرُسَ التَّصَوُّفَ لِتَتَصَوَّرَهُ وتَفْهَمَهُ وتَفْقَهَهُ ، وبَعْدَ ذَلِكَ تَحْكُمُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ . وأَزِيدُكَ بَياناً فأَقُولُ لَكَ : إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ فى التَّصَوُّفِ ، وتارِيخِهِ وسِيَرِ رِجالِهِ ما أُضِيفَ إِلَيْهِ أَوِ افْتَراهُ المُفْتَرُونَ عَلَيْهِ ، ومِنْ هُنا يَسْتَتِرُ حَقٌّ وراءَ باطِلٍ ، ومِنْ هُنا أَيْضاً يُطالِبُكَ دِينُكَ بِأَنْ تَقُومَ لِتَهْتِكَ حِجابَ الباطِلِ ، وتَسْتَضِيءَ بِنُورِ الحَقِّ ..

فَهَلاَّ يَكْفِي ذَلِكَ لِتَحْرِيضِكَ عَلَى دِراسَةِ التَّصَوُّفِ ؟ وكَمْ أَوَدُّ فى النِّهايَةِ أَنْ تَقُومَ حَرَكَةٌ عِلْمِيَّةٌ واسِعَةٌ بَيْنَنا ، تَدورُ حَوْلَ دِراسَةِ التَّصَوُّفِ ونَشْرِ أَسْفارِهِ ، وتَمْحِيصِ أُمُورِهِ ومَوْضُوعاتِهِ ، بَلْ وبَسْطِ ما يَلْحَقُ بِهِ مِنْ شَطَحاتٍ نابِيَةٍ وخُرافاتٍ مُنْكَرَةٍ ودَسائِسَ خَبِيثَةٍ ، حَتَّى نَعْرِفَ الباطِلَ ونَتَبَيَّنَ جُذورَهُ ، ثُمَّ نَكُرَّ عَلَيْهِ بِالحُجَّةِ الدَّامِغَةِ ، فَإِذا الباطِلُ زاهِقٌ ، وإِذا الحَقُّ سَيِّدٌ مُطاع .

يا أَبْناءَ الإِسْلام ! إِنَّ التَّصَوُّفَ يَحْتَلُّ مِنْ أَخلاقِكُم وتارِيخِكُم جانِباً كَبِيراً ، وقَدْ ضَيَّعْتُمُوهُ أَزْماناً طُوالاً ، فَحَسْبُكُم ما كانَ ، وأَقْبِلُوا عَلَى التَّصَوُّفِ فَفِيهِ غِذاءٌ ودَواءٌ ، واللهُ الهادِي إِلَى سَبِيلِ السَّواءِ)[1].

(٢٣) وقالَ الشَّيْخُ المُحَدِّثُ (عَبْدُاللهِ الصِّدِّيقُ الغُمارِي)[2] :

(إِنَّ التَّصَوُّفَ كَبِيرٌ قَدْرُهُ ، جَلِيلٌ خَطَرُهُ ، عَظِيمٌ وَقْعُهُ ، عَمِيمٌ نَفْعُهُ ، أَنْوارُهُ لامِعَةٌ ، وأَثْمارُهُ يانِعَةٌ ، وادِيهِ خَصِيبٌ ، ونادِيهِ يَنْدو لِقاصِدِيهِ مِنَ كُلِّ خَيْرٍ بِنَصِيبٍ ، يُزَكِّي النَّفْسَ مِنَ الدَّنَسِ ، ويُطَهِّرُ الأَنْفاسَ مِنَ الأَرْجاسِ ، ويُرَقِّي الأَرْواحَ إِلَى مَراقِي الفَلاحِ ، يُوَصِّلُ الإِنْسانَ إِلَى مَرْضاةِ الرَّحْمَنِ ، وهُوَ إِلَى جانِبِ هَذا رُكْنٌ مِنْ أَرْكانِ الدِّينِ ، وجُزْءٌ مُتَمِّمٌ لِمَقاماتِ اليَقِينِ ، خُلاصَتُهُ

---

(١) تَصْدِيرُ كِتابِ (نُورِ التَّحْقِيقِ) لِلشَّيْخِ إِبْراهِيم مُحَمَّد صَقْر ص ١ - ٢ .
(٢) حُسْنُ التَّلَطُّفِ فِي بَيانِ وُجُوبِ سُلُوكِ التَّصَوُّفِ .

تَسْلِيمُ الأُمُورِ كُلِّها للهِ ، والالْتِجاءُ في كُلِّ الشُّئُونِ إِلَيْهِ ، مَعَ الرِّضَى بِالمَقْدُورِ ، مِنْ غَيْرِ إِهْمالٍ في واجِبٍ ولامُقارَبَةٍ لِمَحْظُورٍ ، كَثُرَتْ أَقْوالُ العُلَماءِ في تَعْرِيفِهِ واخْتَلَفَتْ أَنْظارُهُمْ في تَحْدِيدِه ، وذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى شَرَفِ اسْمِهِ ومُسَمَّاهُ ، يُنْبِىءُ عن سُمُوِّ غايَتِهِ ومَرْماه) .

(٢٤) ويَقُولُ شَيْخُ الأَزْهَرِ العَلاَّمَةُ الجَلِيلُ (عَبْدُ الحَلِيم مَحْمُود ، ١٣٩٨هـ) (التَّصَوُّفُ قُوَّةٌ ، ذَلِكَ أَنَّ نُفُوسَ الصُّوفِيَّةِ هَيِّنَةٌ عِنْدَهُم فى سَبِيلِ اللهِ ، يَبْذُلُونَها عَنْ رِضاً لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، فَهُم الَّذينَ جَشَّمُوا أَنْفُسَهُم المَشَاقَّ لِنَشْرِ الإِسْلامِ بَيْنَ رُبُوعِ أَفْرِيقْيا وأَقْطارِها الَّتي لَمْ تَفْتَحْها الجُيُوشُ الإِسْلامِيَّةُ ، وقَدْ كانَ لَهُم الفَضْلُ الأَكْبَرُ فى نَشْرِ الإِسْلامِ فى أَنْدونِيسْيا وغَيْرِها مِنَ الأَقْطار النَّائِيَةِ ، يَنْشُرونَهُ بِالقُدْوَةِ الطَّيِّبَةِ والخُلُقِ الكَرِيمِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْشُرونَهُ بِالدِّعايَةِ الَّتي قَدْ لا تُجْدِي) .

ويُجَلِّي الشَّيْخُ ﷺ بَعْضاً مِنْ صِفاتِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ ، فَيَقُولُ :

(إِنَّهُ التَّصَوُّفُ نِظامُ الصَّفْوَةِ المُخْتارَةِ ، إِنَّهُ نِظامُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ وَهَبَهُم اللهُ حِسَّاً مُرْهَفاً ، وذَكاءً حادَّاً ، وفِطْرَةً رُوحانِيَّةً ، وصَفاءً يَكادُ يَقْرُبُ مِنْ صَفاءِ المَلائِكَةِ ، وطَبِيعَةً تَكادُ تَكُونُ مَخْلُوقَةً مِنْ نُورٍ)[١].

(٢٥) وقالَ مُفْتِي الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ الأَسْبَقُ الشَّيْخُ (حَسَنِين مُحَمَّد مَخْلُوف ت ١٤١١ هـ) : (أَهْلُ التَّصَوُّفِ هُم المُنْتَهِجُونَ طَرِيقَ التَّقْوَى ، المُتَنَقِّلُونَ فِعْلاً وحالاً في مَعانِيها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ المُوَصِّلَةِ إِلَى صَفْوِ اليَقِين ، فَيُلازِمُونَهُ فَيَصِيرُونَ مِنْ أَهْلِهِ الَّذينَ قامُوا بِحُقُوقِ مَوْلاهُمْ عُبُودِيَّةً لَهُ وطَلَباً لِمَرْضاتِه)[٢].

---

(١) قَضِيَّةُ التَّصَوُّفِ المُنْقِذِ مِنَ الضَّلال (د. عبد الحليم محمود) .

(٢) شِفاءُ الصُّدورِ الحَرِجَةِ بِشَرْحِ القَصِيدَةِ (المُنْفَرِجَة) .

(٢٦) ويَقُولُ الدُّكْتورُ أَبو العُلا عَفِيفى :

(التَّصَوُّفُ هُوَ المَظْهَرُ الدِّينِىُّ الحَقِيقىُّ عِنْدَ المُسْلِمينَ ، لأَنَّهُ المِرْآةُ الَّتى تَنْعَكِسُ عَلَى صَفْحَتِها الحَياةُ الرُّوحِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ فى أَخَصِّ مَظاهِرِها .

فَإِذا أَرَدْنا أَنْ نَبْحَثَ عَنِ العاطِفَةِ الدِّينِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ فى صَفائِها ونَقائِها وحَرارَتِها وَجَدْناها عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ ، وإِذا أَرَدْنا أَنْ نَعْرِفَ شَيْئاً عَنِ الصِّلَةِ الرُّوحِيَّةِ بَيْنَ المُسْلِمِ وربِّهِ ، كَيْفَ يُصَوِّرُ هَذهِ الصِّلَةَ وكَيْفَ يُجاهِدُ طُولَ حَياتهِ فى تَوْكِيدِها وتَدْعِيمِها ، وكَيْفَ يُضَحِّي بِكُلِّ عَزِيزٍ لَدَيْهِ (بِما فى ذَلِكَ نَفْسِهِ) مُحافَظَةً وغَيْرَةً عَلَيْها ، وَجَبَ أَنْ نَقْرَأَ سِيَرَ الصُّوفِيَّةِ المُسْلِمينَ ونَتَدَبَّرَ أَقْوالَهُم)[1].

(٢٧) ويَقُولُ الأُسْتاذ (خالِد مُحَمَّد خالِد ، ت ١٤١٦ هـ)[2] :

والتَّصَوُّفُ كَذَلِكَ أَعْلَى مَراحِلِ التَّدَيُّنِ ، لأَنَّهُ بِصَفائِهِ يَهَبُ صاحِبَهُ البَصِيرَةَ ، والبَصِيرَةُ كَما عَرَّفَها القَوْمُ :

(ما خَلَّصَكَ مِنَ الحَيْرَةِ ، إِمَّا بِإِيمانٍ وإِمَّا بِعَيانٍ) .

وهَكَذا نَرَى العارِفِينَ بِاللهِ غادِينَ رائِحِينَ ، بَيْنَ الإِيمانِ والعَيان ، ومِنْ ثَمَّ فالحَيْرَةُ وضَبابِيَّةُ الرُّؤْيَةِ أَبْعَدُ ما يَكُونانِ عَنْ عُقُولِهِم وأَفْئِدَتِهِم .

ثُمَّ إِنَّ البَصِيرَةَ (وهِيَ خَيْرُ عَوْنٍ عَلَى رُؤْيَةِ الحَقِّ واتِّباعِهِ) تَهَبُ الفِراسَة .

والفِراسَةُ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فى القَلْبِ ، وفِيها يَقُولُ سَيِّدُنا رَسُولُ الله ﷺ :

(اتَّقُوا فِراسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله) .

والتَّصَوُّفُ أَيْضاً أَعْلَى مَراحِلِ التَّدَيُّنِ ، لأَنَّهُ يَعْنِي اجْتِيازَ كُلِّ العَقَباتِ الَّتي تَعْتاقُ السَّفَرَ إِلَى اللهِ ، ويَقْتَحِمُ العَقَبَةَ الكُبْرَى المُتَمَثِّلَةَ في شَهَواتِ النَّفْسِ

---

(١) التَّصَوُّفُ الثَّوْرَةُ الرُّوحِيَّةُ فى الإِسْلام (د. أبو العلا عَفِيفى) .

(٢) قِصَّتي مَعَ التَّصَوُّف ص ١١٧ .

وإيعازها بكافَّةِ النَّقائِضِ والرَّذائِلِ مِنْ : غُرورٍ ، وكِبْرٍ ، وبَغْيٍ ، وكَذِبٍ ، وحِقْدٍ وقُعودٍ مَعَ المُخالِفين .

إِذَن فالتَّصَوُّفُ : فَنُّ الرُّوحِ ، وجَوْهَرُ الضَّمِيرِ ، ونُورُ العَقْل .

(٢٨) وقالَ الشَّيْخُ (مُحَمَّد الغَزالى السَّقَّا ، ت ١٤١٦ هـ) بَعْدَ أَنْ كَشَفَ عَوارَ أَدْعِياءِ التَّصَوُّف : (هُناكَ تَصَوُّفٌ نَبَتَ في أَكْنافِ الإيمانِ والإِسْلامِ والإِحْسانِ ، ونَما عَلَى أَغْذِيَةٍ جَيِّدَةٍ مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ ، واسْتَطاعَ أَنْ يُكَوِّنَ المَشاعِرَ الإِنْسانِيَّةَ بِصِدقِ العُبُودِيَّةِ ودَفْعَها إِلَى التَّفانِي في مَرْضاةِ اللهِ والحِسِّ الدَّقِيقِ بِوجُودِهِ وشُهُودِهِ ، وجَعَلَ أَصْحابَهُ يَسْعَدونَ بِمَشاعِرِهِم الباطِنَةِ وإِنْ كانَتْ أَحْوالُهُم نَكِدَةً . فِيما يَرَى النَّاسُ حَتَّى يَقُولَ قائِلُهُم : حَبْسِي خَلْوَةٌ ونَفْيِي سِياحَةٌ ، وقَتْلِي شَهادَةٌ !! .

هَذا التَّصَوُّفُ يُحَوِّلُ المَعْرِفَةَ النَّظَرِيَّةَ المُجَرَّدَةَ إِلَى عاطِفَةٍ قَلْبِيَّةٍ مَشْبُوبةٍ ، فالتَّكالِيفُ تُؤَدَّى بِرِضاً واسْتِحْلاءً لابِتَعَبٍ ومُعاناةٍ ، والمَعاصِي تُتْرَكُ باسْتِغْناءٍ كَما قالَ سَيِّدُنا (يُوسُفُ) عليه السلام عِنْدَما تَعَرَّضَ لإِغْراءِ المَلِكَةِ وصُوَيْحِباتِها وفَرَشْنَ لَهُ طَرِيقَ الغَوايَةِ بِالأَزْهارِ: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١]

(٢٩) وهَذا العالِمُ المَوْسُوعِي الشَّيْخُ مُحَمَّد زَكي إِبْراهِيم (مِنْ أَعْلامِ الأَزْهَرِ ، ومُؤَسِّس مَجَلَّةِ المُسْلِم . ت : ١٤١٩ هـ) وهُوَ الَّذِي عاشَ حَياتَهُ يُكافِحُ أَدْعِياءَ التَّصَوُّفِ ، وسَمَّاهُم بـ(المُتَمَصْوِفَة) ، كَذَلِكَ أَدْعِياءَ التَّسَلُّفِ وسَمَّاهُم بـ(المُتَمَسْلِفَة) ، يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ :

(التَّصَوُّفُ الشَّرْعِيُّ هُوَ التَّسَلُّفُ الإِسْلامِيُّ ، والتَّسَلُّفُ الإِسْلامِيُّ هُوَ التَّصَوُّفُ الشَّرْعِيُّ ، لا فَرْقَ في الأَصْلِ بَيْنَهُما أَبَداً ، فَكِلاهُما دَعْوَةٌ أَساسُها القُرْآنُ ،

---

(١) سُورَةُ يُوسُف مِنَ الآيَة ٣٣ .

وما صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

والَّذِي يُراجِعُ أَسْنادَ رِجالِ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ لا يُوشِكُ أَنْ يَجِدَ فِيهِمْ واحِداً إِلَّا وهُوَ مَوْصُولُ السَّنَدِ بِالسَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ . والمُحَدِّثُونَ أَرْكانُ السَّلَفِيَّة .

والخِلافُ المَصْنُوعُ الَّذي حَدَثَ بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ و السَّلَفِيَّةِ إِنَّما كانَ أَصْلُهُ قَدِيماً العَبَثَ السِّياسِيَّ ، وإِقْحامَ الدِّينِ في خِدْمَةِ المُلْكِ والحُكْمِ ، ثُمَّ أَخَذَ هَذا العَبَثُ لَوْنَهُ الدِّينِيَّ المُزَيَّفَ . مَعَ التَّطَوُّرِ الزَّمَنِيِّ ، وكانَ بَعْضُ الانْحِرافِ قَد دَبَّ فِيما هُوَ مَحْسُوبٌ عَلَى المَجالِ الصُّوفِي (بِبَثِّ أَدْعِياءِ التَّصَوُّفِ فيهِ) ، فَأَمْكَنَ مِنْهُ المُتَمَسْلِفَةُ ، ونَحْنُ حِينَ نُنَقِّي التَّصَوُّفَ مِنْ مُسْتَغْلَقِهِ ومَدْسُوسِهِ ، ونُنَقِّي التَّسَلُّفَ مِمَّا أَلْصَقَهُ بِهِ أَدْعِياؤُهُ مِنَ انْحِرافٍ وتَطَرُّفٍ ، إِذا نَقَيْناهُما فَلَنْ تَجِدَ بَيْنَهُما خِلافاً أَبَداً .

غَيْرُ أَنَّنا نُفَرِّقُ بَيْنَ التَّسَلُّفِ والتَّمَسْلُفِ ، وقَدْ قَرَّرْنا أَنَّهُ لا فَرْقَ في الأَصْلِ بَيْنَ التَّسَلُّفِ والتَّصَوُّفِ ، فَكُلُّ صُوفِيٍّ سَلَفِيٌّ أَصْلاً .

أَمَّا التَّمَسْلُفُ فَهُوَ التَّهَوُّرُ والتَّوَقُّحُ الَّذي يَنْقُلُ أَحْكامَ الحَرامِ والحَلالِ إِلَى الإِيمانِ والشِّرْكِ . ويَحْكُمُ عَلَى كافَّةِ أَهْلِ القِبْلَةِ بِالخُروجِ عَلَى الإِسْلامِ ولا يُبْقِي أَدِيماً سَلِيماً لِمُسْلِمٍ ، سابِقٍ أَوْ لاحِقٍ ، سَواءٌ مِنَ العُلَماءِ أَوِ الحُكَّامِ أَوِ الأَوْلِياءِ أَوْ غَيْرِهِمْ ، ولا يَأْخُذُ الأُمُورَ إِلَّا مِنْ وَجْهِها المُظْلِمِ ، فَيُمَزِّقُ الأُمَّةَ شَرَّ مُمَزَّقٍ ، وهُوَ يُمَهِّدُ (بِعِلْمٍ أَو بِجَهْلٍ) لِلتَّبْشِيرِ والاسْتِعْمارِ ، بِتَجْرِيدِهِ التَّأْرِيخَ الإِسْلامِيَّ مِنَ الأَمْجادِ والفَضائِلِ ، وإِشْغالِهِ الأُمَّةَ بِتَوافِهِ الأُمُورِ المُخْتَلَفِ عَلَيْها ، عَنْ كِفاحِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ أَخْطارِ الإِلْحادِ والانْحِلالِ والفَسادِ ، ثُمَّ بِتَخْرِيبِهِ كُلَّ بِناءٍ مَهْما عَظُمَ ، مادامَ لَمْ يَنْشَأْ عَلَى يَدِ مُتَمَسْلِفٍ.

ثُمَّ إِنَّ التَّمَسْلُفَ في الواقِعِ يَخْدُمُ دَعْوَةً سِياسِيَّةً مُعَيَّنَةً ، ويَدْعُو إِلَى أَهْدافٍ عَمِيقَةٍ ماكِرَةٍ ، فَلِهَذا ولِغَيْرِهِ نَحْنُ نُكافِحُ التَّمَسْلُفَ كَما نُكافِحُ التَّمَصْوُفَ ،

وكُلُّ ذَلِكَ خِدْمَةً لِدَعْوَتِنا ودِينِنا وقَوْمِيَّتِنا وأَهْدافِنا العالِيَة).[1]

(٣٠) وَيقُولُ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ (مُحَمَّد متولِّى الشَّعْراوى ، ١٤١٩هـ) مُتَحَدِّثاً عَنِ التَّصَوُّفِ : (التَّصَوُّفُ رِياضَةٌ ، ومَعْنَى أَنَّهُ رِياضَةٌ أَنَّهُ يُلْزِمُ الإنْسانُ نَفْسَهُ بِمَنْهَجٍ تَعَبُّدِيٍّ لِلّهِ فَوْقَ ما فَرَضَهُ عَلَيْهِ ، ولَكِنْ مِنْ جِنْسِ ما فَرَضَهُ ، وهُنا حِينَ يَعْبُدُ الإنْسانُ رَبَّهُ بِفَوْقِ ما افْتَرَضَهُ عَلَيْهِ يَكُونُ قَدْ أَخَذَ خُطْوةً ناحِيَةَ الْوُدِّ للّهِ ، واللّهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى يَقُولُ فى الحَديثِ القُدْسِيِّ :

(مَنْ أَتانى يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة) ، ولَمْ يَقُلْ سُبْحانَهُ : جِئْتُهُ أَمْشِي ، ولَوْ قالَها لَكانَ المَشْىُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ شَيْئاً كَبيراً ، ولَكِنَّهُ يَقُولُ : أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ، فَما بالُكَ بِهَرْوَلَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِلّهِ ومِنْ هُنا يَدْخُلُ الإنْسانُ فى مَقامِ الْوُدِّ مَعَ اللّهِ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[1]

ومَعْنَى أَنَّ يَوَدَّهُ اللّهُ أَنْ يُصافِيَهُ ، وإِذا صافاهُ فَهَلْ مِنَ المَعْقُولِ أَنَّ إِنْساناً يَكْتَفِي بِما فَرَضَهُ اللّهُ عَلَيْهِ يَتَساوَى في عَطاءاتِ اللّهِ بِمَنْ عَبَدَ اللّهَ فَوْقَ ما افْتَرَضَهُ عَلَيْهِ ؟ ، لَيْسَ مِنَ المَعْقُول) وَيَستَمِرُّ في شَرْحِهِ المُلْهَمِ فَيَقُولُ :

(والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذا طَرِيقُ الحَقِّ ، أَنَّ الَّذي يَتَأَخَّرُ فِيهِ عَنْ صاحِبِهِ يتَمَسَّكُ بالمُتَقَدِّمِ لا يَغِيرُ مِنْهُ ، بَلْ يُحِبُّهُ ويَتَمَنَّى لَهُ المَزِيدَ مِنَ التَّقَدُّمِ ، ولَكِنْ في أُمُورِ الدُّنْيا رُبَّما يَضِيقُ الإنْسانُ بِالأَفْضَلِ مِنْهُ ، لَكِنْ في هَذِهِ الأُمُورِ لِكُلِّ إِنْسانٍ مَقامٍ مَعْلُومٍ ، والصُّوفِىُّ الحَقِيقىُّ يُسْعِدُهُ أَنْ يُصاحِبَ مَنْ هُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ لِدَرَجَةِ أَنْ يُصْبِحَ أَحْياناً كَما يَقُولُونَ تَحْتَ رِجْلَيْهِ ، لِماذا ؟ لأَنَّهُ فَهِمَ بِمقْياسِهِ إِلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ أَخَذَ قَبَساً بَسِيطاً مِنَ الْوُدِّ ، لأَنَّ رِياضَتَهُ مَحْدُودَةً بِمِقْدارٍ كَذا ، فإذا حَدَثَ أَنَّ الآخَرَ مَقامُهُ أَعْلَى ، فَمَعْنَى هَذا أَنَّنِي عِنْدَما يَزِيدُ جُهْدِي فى العِبادَةِ يَزِيدُ عَطاءُ اللّهِ لي).[2]

---

(١) السَّلَفِيَّةُ المُعاصِرَةُ إِلَى أَيْنَ ؟ ومَنْ هُمْ أَهْلُ السُّنَّة ؟ د.(مُحَمَّد زكى إبْراهيم) .

(٢) سُورَةُ مَرْيم الآيَة ٩٦ .

(٣) مِشْوارُ حَياتى آراءٌ وأَفْكار (مُحَمَّد متولى الشَّعراوى) ص ٤٠ – ٤٢ .

(٣١) وقالَ المُحَدِّثُ الدُّكْتُورُ السَّيِّدُ (مُحَمَّد عَلَوِي المالِكي ، ١٤٢٥ هـ) في تَقْرِيرِه وتَقْرِيظِهِ لِما ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ التَّصَوُّفِ سُلُوكاً ونَهْجاً وعَقِيدَةً ، مُسْتَدِلّاً بِقَوْلِ الإمامِ الصُّوفي (البُوصِيري) في قَصِيدَتِه البُرْدَة ، فَقالَ :

(فَهَذا البُوصِيري قائِدُ رابِطَةِ المادِحِينَ وأُسْتاذُ الشُّعَراءِ المُتَخَصِّصِينَ في مَدْحِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ يُبَيِّنُ في بُرْدَتِهِ العَظِيمَةِ المَشْهُورَةِ عَقِيدَتَهُ الصَّحِيحَةَ في النَّبِيِّ ﷺ وبِذَلِكَ يَدْفَعُ في صَدْرِ كُلِّ فَتَّانٍ سَيِّءِ الظَّنِّ ، ويُكَذِّبُ كُلَّ مُفْتَرٍ عَلَى اللهِ ورَسُولِهِ وأَوْلِيائِهِ ، يَقُولُ البُوصِيرى :

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِمِ * واحْكُمْ بِما شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ واحْتَكِمِ

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ * حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ ناطِقٌ بِفَمِ

إِنَّهُ يَقُولُ امْدَحْ وبالِغْ مَهْما شِئْتَ فِيهِ ، لَكِن احْذَرْ أَنْ يَصِلَ بِكَ الحالُ في سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى ما وَصَلَ الحالُ بِالنَّصارَى في سَيِّدِنا عِيسَى عليه السلام حِينَما قالُوا : إِنَّهُ ابْنُ اللهِ أَو ثالِثُ ثَلاثَة ، ويَقُولُ البُوصِيري أَيْضاً مُكَمِّلاً اعْتِقادَهُ في المُصْطَفَى ﷺ :

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ * وأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّنا مَهْما مَدَحْناهُ وقُلْنا في حَقِّهِ ما قُلْنا فَإِنَّ غايَةَ ذَلِكَ ونِهايَتَهُ لا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ ﷺ بَشَراً مِثْلَنا لَيْسَ بِمالِكٍ ولا إِلَهٍ ، وأَنَّ الخَصائِصَ والمَزايا الَّتي يَتَّصِفُ بِها ﷺ الَّتي يَتَمَيَّزُ بِها عَنْ سائِرِ النَّاسِ لِتَأْكِيدِ فَضِيلَتِهِ وتَحْقِيقِ نُبُوَّتِهِ لا تُخْرِجُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ البَشَرِيَّةِ الَّتي لا يَخْتَلِفُ في إِثْباتِها أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمِين).(١)

(٣٢)ويَقُولُ الدكتور/الحُسَيْني عَبْد المَجِيد هاشِم(وَكِيلُ الأَزْهَرِ الأَسْبَق ، ١٤٠٧ هـ)(٢)

(الصُّوفِيُّ : مَنْ صَفَّى قَلْبَهُ مِنَ الشَّوائِبِ ، وكَبَحَ نَفْسَهُ مِنْ جُمُوحِ الغَرائِزِ ، يَفِرُّ مِنْ

---

(١) سِلْسِلَةُ إِيضاحِ مَفاهِيمِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ . (٢) مُقَدِّمَةُ كِتاب (التَّصَوُّفُ والحَياةُ العَصْرِيَّة) .

شُرورِ الخَلْقِ ، إلَى سُرورِ الحَقِّ ، تَفَتَّحَتْ بَصيرَتُهُ ، وتكَشَّفَتِ الغِشاوَةُ عَنْ عَيْنَيهِ ، تَشُدُّهُ التَّقْوَى إلَى الحَضْرَةِ الإلهِيَّةِ ، لا يَغيبُ عَنْها ولا يَتَحَوَّلُ ، تَغْفو عَيْنُهُ ، وقَلْبُهُ لا يَغْفَلُ ، و شِيمَتُهُ التَّقْوَى الَّتِي تَصِلُ القُلُوبَ باللهِ ، وتُوقِظُها مِنَ الغَفْلَةِ عَنْ هُداه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾(١).

(٣٣) ويَقُولُ د. عَلِي جُمْعَة (أُسْتاذُ أُصُولِ الفِقْهِ مُفْتي الدِّيارِ المِصْرِيَّة) :

(الصُّوفِيَّةُ تُنْسَبُ إلَى التَّصَوُّفِ الَّذي هُوَ مَنْهَجٌ وسُلُوكٌ ، فالمَنْهَجُ أَساسُهُ القُرْآنُ الكَريمُ والسُّنَّةُ النَبَوِيَّةُ المُطَهَّرَةُ ، والسُّلُوكُ هُوَ أَنْ تَلْتَزِمَ بِهَذا المَنْهَجِ فَفِى القَرْنِ الثَّاني الهِجْرِي اتَّضَحَتْ مَعالِمُ العُلُومِ الإسْلامِيَّةِ كالفِقْهِ والتَّفْسِيرِ والحَديثِ وغَيْرِها ، ظَهَرَ مِنْ بَيْنِها عِلْمُ التَّصَوُّفِ وسُمِّي أَتْباعُهُ بِالصُّوفِيَّة .

وهَذا العِلْمُ هُوَ الَّذي يَتَناوَلُ بِالدِّراسَةِ أَحْوالَ العِبادِ ومَقاماتِ العُبُودِيَّةِ والإقْبالِ عَلَى اللهِ والزُّهْدِ في الدُّنْيا ، وقَدْ ذَكَرَ العُلَماءُ أَنَّ التَّصَوُّفَ أَيًا كانَ السَّبَبُ في تَسْمِيَتِهِ بِهَذا الاسْمِ ، يَسْتَنِدُ إلَى أَصْلٍ ثابِتٍ مِنَ السُّنَّةِ النَبَوِيَّةِ المُطَهَّرَةِ ، وهُوَ الحَديثُ الشَّريفُ الَّذي أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) في صَحِيحِهِ عَنْ (عُمَرَ بنِ الخَطَّاب) رضي الله عنه ، عِنْدَما جاءَ إلَى الرَّسُولِ سَيِّدُنا جِبْرِيلُ عليه السلام وسَأَلَهُ عَنِ الإسْلامِ والإيمانِ والإحْسانِ ، فَقالَ ﷺ : (الإحْسانُ هُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ) .

والتَّصَوُّفُ في جَوْهَرِهِ يَعْتَمِدُ عَلَى مَقامِ الإحْسانِ والَّذي يُسَمِّيهِ عُلَماءُ التَّصَوُّفِ بِمَقامِ المُراقَبَةِ لأَنَّ العَبْدَ يَجِبُ أَنْ يُراقِبَ رَبَّهُ مُراقَبَةَ الرُّؤْيَةِ للهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، فَإِنْ لَمْ يَصِلْ إلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ اللهَ يَراهُ في كُلِّ أَحْوالِهِ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .

ومَعَ مُرورِ العُصُورِ ضَعُفَتْ في نُفُوسِ المُسْلِمِينَ جَذْوَةُ الإيمانِ ، وقَلَّ إقْبالُهُمْ عَلَى العِبادَةِ وزادَ انْشِغالُهُمْ بالدُّنْيا والحِرْصِ عَلَى جَمْعِ مَتاعِها الزَّائِلِ ، ظَهَرَ مِنْ رِجالِ التَّصَوُّفِ مَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى العَوْدَةِ إِلَى النَّبْعِ الصَّافِي لِلإِسْلامِ ، والتَّمَسُّكِ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ؛ فَنَشَأَتِ الطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ كَمَدارِسَ لِتَعْلِيمِ وتَطْبِيقِ مَنْهَجِ التَّصَوُّفِ الأَصِيلِ القائِمِ عَلَى الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وهِيَ في حَقِيقَتِها وإنْ تَعَدَّدَتْ مَذاهِبُها في ظاهِرِها إلاَّ أَنَّها تَجْتَمِعُ عَلَى مَنْهَجٍ واحِدٍ ، وقَدْ قالَ كِبارُ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ مُوَضِّحاً ذَلِكَ : طَرِيقَتُنا مُقَيَّدَةٌ بِالكِتابِ والسُّنَّة) .

وهَكَذا ، سَرَدْنا لَكَ غَيْضاً مِنْ فَيْضِ أَقْوالِ العُلَماءِ والأَئِمَّةِ عَنِ التَّصَوُّفِ وأَهْلِهِ ولَوْ أَرَدْنا أَنْ نَضَعَ بَيْنَ يَدَيْكَ كُلَّ ما قالَهُ عُلَماءُ الإِسْلامِ النَّاصِحُونَ لِلأُمَّةِ ، والَّذِينَ قادوا مَسِيرَتَها الإِسْلامِيَّةَ طَوالَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْناً ، فى رِحابِ التَّصَوُّفِ وضَرورَتِه والحاجَةِ إِلَيْهِ لاسْتَغْرَقَ ذَلِكَ مِنَّا دَهْراً طَوِيلاً ومُجَلَّداتٍ عَظِيمَةً ، ولَكِنْ ... حَسْبُنا ما نَقَلْنا عَنْ بَعضِهِم ، وفى ذَلِكَ ما يُنبِئُكَ عَنْ وَحْدَةِ آرائِهِم وتَشابُهِ مَواقِفِهِم ومَسالِكِهِم ، وإِجْماعِهِم عَلَى فَضْلِ التَّصَوُّفِ وأَهَمِّيَّتِهِ ، وعُلُوِّ شَأْنِ أَهْلِهِ ، وحاشا لِهَؤُلاءِ الهُداةِ الأَعْلامِ أَنْ يَلْتَقُوا فى غَيْرِ مَيْدانِ الهُدَى ، أَو أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى غَيْرِ كَلِمَةِ الحَقِّ ، وقَدْ بَشَّرَنا بِهَذا النَّبِيُّ ﷺ وهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ حَيْثُ قالَ :

(لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى خَطَأ) وفى رِوايَةٍ (لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلالَة)[١].

(١) أَخْرجَهُ الإمامُ (أَحْمَد) ، و(التِّرْمِذي) ، و(ابْنُ ماجَه) ، وسِواهُم .

كتب التصوف ودوائرها الست التي ملأت قارات الدنيا الست

- الدَّائِرَةُ الأُولَى : دائِرَةُ العِلْم الكَسْبِيِّ
- الدَّائِرَةُ الثَّانِية : الكُتُبُ والمُصَنَّفاتُ الصُّوفِيَّة
- الدَّائِرَةُ الثَّالِثَةُ : المُتَفرِّقاتُ المأْثُورَةُ عَنْ كِبارِ الصُّوفِيَّة
- الدَّائِرَةُ الرَّابِعَةُ : دَواوِينُ الشِّعْرِ الصُّوفِي
- الدَّائِرَةُ الخامِسَةُ :كُتُبُ التَّراجِمِ والطَّبَقاتِ الصُّوفِيَّة
- الدَّائِرَةُ السَّادِسَةُ : كُتُبُ عِلْمِ الأَسانِيدِ وتَحْقِيقِها وضَبْطِها

ومَدارُها الكِتابُ والسُّنَّةُ . وبهَذا عَمِلَ أَهْلُ التَّصوُّفِ ، وبِهَذا تَكَلَّمُوا .

قالَ (مُحَمَّد بنُ عِيسَى) رضي الله عنه : (طَرِيقَتُنا نُتْبِعُ العِلْمَ بِالعَمَلِ وإِجْراءِ حُكْمِ الشَّرِيعَةِ ، والسُّنَّةُ تَجْمَعُنا ، والبِدْعَةُ تُفَرِّقُنا) .

وقالَ الشَّيْخُ (عَبْدُالواحِد يَحْيَى)(١) رَحِمَهُ اللهُ : (قَدْ يَكُونُ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ نَرَى أَحَدَ مُمَثِّلِي الشَّرِيعَةِ يَجْهَلُ التَّصوُّفَ وإِنْ كانَ جَهْلُهُ لايُبَرِّرُ إِنْكارَهُ ، ولَكِنْ لَيْسَ مِنَ المُحْتَمَلِ ولَيْسَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَجْهَلَ رَجُلُ التَّصوُّفِ مَيْدانَ الشَّرِيعَة) .

إِنَّ التَّصوُّفَ سُلُوكٌ عَمَلِيٌّ ، وتَجْرِبَةٌ ذَوْقِيَّةٌ ، وما يُدوِّنُهُ الصُّوفِيَّةُ في مُؤَلَّفاتِهِم هُوَ نَتِيجَةُ ما وَجَدُوهُ مِنْ أَحْوالٍ ومَقاماتٍ ومُشاهَداتٍ وفُتُوحاتٍ ، فَهُم لايَكْتُبُونَ كَما يَكْتُبُ غَيْرُهُم عَنْ فِكْرٍ ونَظَرٍ عَقْلِيٍّ بَحْتٍ فَحَسْب ، بَلْ هُمْ مُتَمَرِّسُونَ بمَعْرِفَةِ الخَواطِرِ الَّتِي تَأْتِي إِلَى قُلُوبِهِم ، والخَواطِرُ أَرْبَعَةٌ : نَفْسانِي ، وشَيْطانِي (والصُّوفِيَّةُ بِمَعْزِلٍ مِنْ هَذَيْنِ الخاطِرَيْنِ) ، ومَلَكِي ، وإِلَهِي ، وهُما الخاطِرانِ اللَّذانِ يُعَوِّلُ عَلَيْهِما الصُّوفِيَّةُ في مُؤَلَّفاتِهِم .

أَمَّا الَّذِينَ يَكْتُبُونَ فى التَّصوُّفِ دُونَ سُلُوكٍ ، ويَدْخُلُونَ مَجالَهُ بِعُقُولِهِم فَقَط ، تَراهُمْ يَخْبُطُونَ خَبْطاً عَشْوائِيّاً ، في لَيْلَةٍ ظَلْماءَ فَيَخْلِطُونَ التَّصوُّفَ بِالفَلْسَفَةِ والمِلَلِ والمَذاهِبِ المَشْرُوعَةِ والمَمْنُوعَةِ ، وبِالتَّارِيخِ والأَدَب ، وشَتَّى فُنُونِ المَعْرِفَةِ ، ورَغْمَ جُهُودِ بَعْضِهِمْ في تَحْقِيقِ كُتُبِ التُّراثِ الصُّوفِي ، إِلا أَنَّ مُقَدِّماتِهِم وشُرُوحَهُم وتَعْلِيقاتِهِم ، لاتَمُتُّ إِلَى التَّصوُّفِ بِأَدْنَى صِلَةٍ بَلْ قَدْ

---

(١) الشَّيْخُ (عَبْدُالواحِد يَحْيَى) صُوفِيٌّ فَرَنْسِيٌّ ، كانَ اسْمُهُ رِينيه جِينُو ، هَزَّ إِسْلامُهُ مَعاقِلَ الكاثُولُوكِيَّةِ فى سويسرا وفَرَنْسا لِمَكانَتِهِ العِلْمِيَّةِ الكَبِيرَةِ ، وكانَ سَبَباً فى إِسْلامِ الكَثِيرِ مِنَ النَّصارَى والمُشْرِكِينَ فى أُورُوبَّا ، ولَهُ مُؤَلَّفاتٌ تُرْجِمَتْ إِلَى مُعْظَمِ لُغاتِ العالَم .

تُشَوِّهُ مَفْهُومَهُ لَدَى القارِىءِ ، فالصُّوفِيَّةُ أَصْحابُ تَجارِبَ وأَذْواق ، لا أَصْحابُ مَحابِرَ وأَوْراق .

وحَرِيٌّ بِنا في هذا المَقامِ أَنْ نُؤَكِّدَ التَّنْبِيهَ إِلَى أَنَّ (التَّصَوُّفَ الفَلْسَفِيَّ والفَلْسَفَةَ الصُّوفِيَّةَ) اصْطِلاحانِ أَقْرَبُ إِلَى المَجازِ مِنْهُما إِلَى الحَقِيقَةِ ، والفَيْلَسُوفُ رَغْمَ بَراعَتِهِ الفِكْرِيَّةِ ، وذَكائِهِ ، وقُدْرَةِ عَقْلِهِ الهائِلَةِ إِذا دَخَلَ مَجالَ التَّصَوُّفِ دُونَ انْتِماءٍ حَقِيقِيٍّ لَهُ ، وَقَعَ في الخَطَأِ وزَلَّتْ قَدَمُهُ في أَوَّلِ خُطْوَةٍ لَهُ ، وهاهُوَ (د. عَبْدالرَّحْمَن بَدَوِي) أَشْهَرُ فَلاسِفَةِ العَرَبِ المُعاصِرِينَ يَصِفُ الفَيْلَسُوفَ الرُّوسِيَّ (نَيْقُولاي بَرْدَ يائِيف ، ت ١٩٤٨ م) بِأَنَّهُ أَحَدُ العارِفِينَ بِاللهِ ؛ لِأَنَّهُ تَحَدَّثَ عَنِ العُزْلَةِ والمَعْرِفَةِ المِيتافِيزِيقِيَّةِ وما شابَهَ ذَلِكَ ، وشَتَّانَ بَيْنَ عارِفٍ بِاللهِ وعارِفٍ بِما وَراءَ الطَّبِيعَةِ ، ونَسْتَبْعِدُ أَنْ يَعْرِفَ أَمْثالُ هَؤُلاءِ الفَلاسِفَةِ ما وَراءَ الطَّبِيعَةِ مَعْرِفَةً يَقِينِيَّةً ؛ فالطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ تَعالَى هُوَ العَمَلُ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ، و(نَيْقُولاي بَرْدَيائِيف) لايَعْتَرِفُ بِالكِتابِ ولا بِالسُّنَّةِ ، فَمِنْ أَيْنَ جاءَتْهُ المَعْرِفَةُ بِاللهِ ؟!!.

فانْظُرْ ، كَيْفَ أَخْطأَ (د. عَبْدالرَّحمن بَدَوِي) ، رَغْمَ تَمَكُّنِهِ في عُلُومِ الفَلْسَفَةِ وهُنا يَجِبُ عَلَى القارِىءِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ما يُقالُ لا إِلَى مَنْ قالَ ، وصَدَقَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الإِمامُ (عَلِيٌّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يَوْمَ قالَ : (يُعْرَفُ الرِّجالُ بِالحَقِّ ، ولايُعْرَفُ الحَقُّ بِالرِّجال)[1].

والفَيْلَسُوفُ وَسِيلَتُهُ إِلَى المَعْرِفَةِ عَقْلُهُ ، والعَقْلُ قاصِرٌ ومَحْدُودٌ وقَيْدٌ وأَغْلالٌ فَهُوَ يَحْصِرُ الأُمُورَ ويَعْقِلُها (مِنْ عَقَلْتُ الدَّابَّةَ أَي رَبَطْتُها) ، فَلَيْسَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ العُلُومِ الَّتي تَتَعلَّقُ بِالقَلْبِ والرُّوحِ وعالَمِ الغَيْبِ .

وما أَطْلَقَ عَلَيْهِ الفَلاسِفَةُ اسْمَ المَعْرِفَةِ الذَّوْقِيَّةِ ، والحِكْمَةِ الإِشْراقِيَّةِ ، أَو

(١) نهج البلاغة .

فَلْسَفَةِ الإشْراقِ (حَيْثُ تُشْرِقُ العُلُومُ عَلَى القَلْبِ نَتِيجَةَ الرِّياضِيَّاتِ الرُّوحِيَّةِ هِيَ عُلُومٌ كَونِيَّةٌ عُنْصُرِيَّةٌ ، وما وَرَدَ في كِتاباتِ الفَلاسَفِةِ الحُكَماءِ الَّذينَ ساروا عَلَى هَذا الدَّرْبِ مِثْلَ : (زارْدَشْت) و(كُونْفَشْيُوس) و(بُوزا) و(ماني) وأَمْثالِهِم لا يَصِلُ إلَى مُسْتَوى المَعْرِفَةِ الحَقِيقِيَّةِ الَّتي تُقَرِّبُ الإنْسانَ مِنَ اللهِ تَعالَى ، والَّتي يُحَصِّلُها العارِفُونَ بِاللهِ .

ومِنَ الأَدِلَّةِ الَّتي تُؤَكِّدُ عَدَمَ اعْتِناقِ الصُّوفِيَّةِ لِمَذاهِبِ الفَلاسِفَةِ ، ما كَتَبَهُ الإمامُ (أَبُوحامِد الغَزالي) في كِتابِهِ (تَهافُتُ الفَلاسِفَة) ، وكِتابِهِ (المُنْقِذُ مِنَ الضَّلال) ، عَنْ عَدَمِ جَدْوَى الفَلْسَفَةِ وقُصُورِها ، في الوُصُولِ إِلَى المَعْرِفَةِ اليَقِينِيَّة ، الَّتي لارَيْبَ ولاشَكَّ ولاظَنَّ فِيها .

ولايَعْنِي هَذا البَيانُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَشْتَغِلُ بِالفَلْسَفَةِ يَكُونُ مَحْجُوباً عَنْ طَرِيقِ التَّصَوُّفِ ، فالدُّكْتُورُ (عَبْدُالحَلِيم مَحْمُود) خَيْرُ مِثالٍ عَلَى أَهْلِ اللهِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الفَلْسَفَةِ الحَقَّةِ وسُلُوكِ الطَّرِيقِ الصُّوفِي .

وها نَحْنُ أُولاءُ نَعْرِضُ لَكَ الدَّوائِرَ العِلْمِيَّةَ وأَصْنافَ الكُتُبِ الَّتي تُظَلِّلُها رُوحُ التَّصَوُّف :

❁ الدَّائِرَةُ الأُولَى : دائِرَةُ العِلْمِ الكَسْبِيِّ ، وهُوَ القَنْطَرَةُ الَّتي يَعْبُرُ مِنْها السَّالِكُ إِلَى مَرْفَأِ الأَمانِ إِذْ لايَتَنَوَّرُ الباطِنُ ولا يَعْمُرُ الظَّاهِرُ إلاَّ بِتَعَلُّمِ العَقائِدِ والعِباداتِ والمُعامَلاتِ وغَيْرِها ، ولَئِنِ اشْتُهِرَ عَنِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ مَنْهَجُهُم فى تَلَقِّى العِلْمِ الوَهْبِيِّ اليَقِينِيِّ ، فَإِنَّهُم مَعَ هَذا قَدْ أَعْطَوا العِلْمَ الكَسْبِيَّ أَهَمِّيَّةً كُبْرَى ، إذ إِنَّ عَلاقَةَ العِلْمَيْنِ بِبَعْضِهِما عَلاقَةُ تَكامُلٍ تامٌّ ، إِنْ شِئْتَ قُل : إِنَّ العِلْمَ الوَهْبِيَّ هُوَ شِدَّةُ الفَهْمِ وجَوْدَةُ المَعْرِفَةِ وحُسْنُ الدِّرايَةِ ، أى أَنَّهُ تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ فَذٌّ لِلْعِلْمِ الكَسْبِيِّ ، ولِهَذا فَإِنَّ (كُتُبَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ) فى عُمُومِ العُلُومِ الإِسْلامِيَّةِ هِىَ مَوْجُودَةٌ بِكَثْرَةٍ ووَفْرَةٍ بَيْنَ أَيْدِي المُسْلِمِينَ ، مِنْ

(تَفْسِيرٍ وحَدِيثٍ وسُنَنٍ ولُغَةٍ وفِقْهٍ وأُصُولٍ وجَرْحٍ وتَعْديلٍ ومَغازٍ وسِيَرٍ) وما شابَهَهَا مِمَّا هُوَ مَعْروفٌ ومُتَداوَلٌ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ .

ولانَعْنِي أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ التَّصَوُّفِ اليَوْمَ يَتداوَلُون هَذهِ الكُتُبَ ويَتدارَسُونَها ، ولَكِنَّنا نَقْصِدُ أَنَّهُ لاتَخْلُو مِنْها طُرُقُهُم ومَجالِسُهُم ، كُلٌّ بِحَسَبِ دَرَجَةِ عِلْمِهِ وحِفْظِهِ واهْتِمامِهِ ، ولَيْسَ الأَمْرُ عَلَى كُلِّ حالٍ بِكَثْرَةِ العِلْمِ ، بَلْ بِالعَمَلِ والتَّقْوَى ، قالَ تَعالَى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] ؛ فالتَّقْوَى هِيَ المائِزُ الَّذي امْتازَ بِهِ الصُّوفِيَّةُ ، وحاصِلُ التَّقْوَى اجْتِنابٌ وامْتِثالٌ ، فالصُّوفِيَّةُ امْتَثَلُوا لِشَرائِعِ الإِسْلامِ وأَوامِرِهِ ، فَلَمْ يَتْرُكُوا شَيْئاً يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ إِلَّا عَمِلُوا بِهِ ، وقَبْلَ هَذا ، اجْتَنَبُوا وكَفُّوا عَنْ جَمِيعِ ما نُهُوا عَنْهُ ، كُلُّ ذَلِكَ الْتِزاماً بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : (فَإِذا نَهَيْتُكُم عَنْ شَيْءٍ فاجْتَنِبُوهُ وإِذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُم)[2] .

۞ الدَّائِرَةُ الثَّانِيَة : وهِيَ مَجْمُوعَةُ الكُتُبِ والمُصَنَّفاتِ الَّتِى يَخْتَصُّ بِها الصُّوفِيَّةُ وهَذا فى الواقِعِ شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ ، فَلِكُلِّ فَنٍّ كُتُبٌ يَخْتَصُّ بِها أَهْلُهُ ، فَها نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ المِثالِ نَجِدُ لِأَرْبابِ التَّارِيخِ كُتُبَهُم الخاصَّةَ بِهِم والحاوِيَةَ لِعُلُومِهِم ، الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنِ العُصُورِ السَّابِقَةِ وحَضاراتِ الأُمَمِ وتارِيخِ البَشَرِ ، ونَجِدُ أَيْضاً لِأَهْلِ الطِّبِّ كُتُبَهُم المُتَحَدِّثَةَ عَنِ الأَمْراضِ وتَشْخِيصِها وعِلاجِها ووَظائِفِ الأَعْضاءِ والتَّشْرِيحِ ، وكَذَلِكَ لِأَصْحابِ اللُّغَةِ كُتُبَهُم الشَّارِحَةَ لِطَلاسِمِ اللُّغَةِ والمُوَضِّحَةَ لِما اسْتُغْلِقَ مِنْها والمَلِيئَةَ بِالشَّواهِدِ وأَقْوالِ كِبارِ النُّحاة .

وهَذا فِي المَنْهَجِ العِلْمِيِّ شَيْءٌ مَعْرُوفٌ ومَأْلُوفٌ ولا يَحْتاجُ إِلَى كَبِيرِ إِيضاح ، ولِذَلِكَ كانَتْ لِلصُّوفِيَّةِ (كُتُبُهُم) الَّتى يَبْسِطُونَ فِيها أُصُولَ فَنِّهِم ، ويَشْرَحُونَ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة مِنْ الآيَة ٢٨٢ .
(٢) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و(مُسْلِمٌ) و(التِّرْمِذِيُّ) و(أَحْمَدُ) و(ابْنُ حِبَّانَ) و(ابْنُ ماجه) .

مِنْ خِلالِها عُلومَهُم النَّاطِقَةَ بِكَلامِهِم وآرائِهِم ، وهِيَ عَدِيدَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ ، نَذْكُرُ لَكَ ما اشْتُهِرَ مِنْها عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيل :

كِتابَ (الرِّعايَة) لِلْحارِثِ المُحاسِبِي ٢٤٣ هـ ، و(الرِّسالَة القُشَيْرِيَّة) لِلْقُشَيْرِي ٣٧٦ هـ ، و(اللُّمَع) لِلسِّراجِ الطُّوسِي ٣٧٨ هـ ، و(التَّعَرُّف لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّف) لِلمُحَدِّثِ الحافِظِ الكَلاباذِي ٣٨٠ هـ ، و(الحِلْيَة) لِلْحافِظِ أَبِى نُعَيْم الأَصْبَهانِى ٤٣٠ هـ ، و(قُوت القُلُوب) لِأَبِى طالِبِ المَكِّيِّ ٣٨٦ هـ ، (وكانَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن الشَّاذُلى ﷺ يَقُول : كِتابُ الإِحْياءِ يُورِثُكَ العِلْمَ ، وكِتابُ القُوتِ يُورِثُكَ النُّورَ) ، و(المَواقِف والمُخاطَبات) لِمُحَمَّدٍ النِّفَّرِي ٣٤٥ هـ ، وكُتُبَ الإِمامِ الغَزالى ٥٠٥ هـ ، مِثْلَ (الإِحْياءِ ومِنْهاجِ العابِدِينَ وكِيمْياءِ السَّعادَةِ ومِشْكاةِ الأَنْوار) ، وكِتابَ (مَنازِل السَّائِرِينَ) لِشَيْخِ الإِسْلامِ (عَبْدِاللهِ بن مُحَمَّد بنِ إِسْماعِيلَ الأَنْصارِي الهَرَوِي الحَنْبَلِي الصُّوفِي المُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨١ هـ ، وشَرَحَهُ (أَبُوبَكْر بنُ قَيِّم الجَوْزِيَّة الدِّمَشْقِي الحَنْبَلِي المُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٥١ هـ ، وسَمَّاهُ (مدارِج السَّالِكِين) وكِتابَ (عَوارِف المَعارِف) لِلسَّهْرَوَرْدِي ٦٣٢ هـ ؛ وكُتُبَ الشَّيْخ عَبْدِالقادِر الجَيْلاني ٥٦١ هـ (الغُنْيَة والفَتْح الرَّبَّاني وفُتوح الغَيْب والفُيوضات الرَّبَّانِيَّة) وكُتُبَ الحَكِيمِ التِّرْمِذى ٤٣٣ هـ ، وكُتُبَ ابْنِ عِطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي ٧٠٩ هـ كـ : (مَتْنِ الحِكَمِ وتاجِ العَرُوسِ ولَطائِفِ المِنَنِ والتَّنْوِير) ، وكُتُبَ أَحْمَد زَرُّوق ٨٩٩ هـ كـ (النَّصِيحَةِ الكافِيَةِ وقَواعِدِ التَّصَوُّفِ وعُدَّةِ المُرِيدِ الصَّادِقِ وشَرْحِ الحِكَمِ العَطائِيَّة) وكِتابَ السَّرْقَسْطِي (المَباحِث الأَصْلِيَّة) ، وكِتابَ (رَوْض الرَّياحِينَ) لِأَبِى السَّعاداتِ اليافِعِي ٧٦٨ هـ ، وغَيْرَها كَثِيرٌ كَثِير .

وهَذِهِ الكُتُبُ وإِنْ كانَتْ تَخْتَصُّ بِدِراسَةِ أَحْوالِ ومَعارِفِ القَوْمِ إِلَّا أَنَّهُ يَنْدُرُ أَنْ تَجِدَ باحِثاً مُشْتَغِلاً بِالعُلُومِ الإِسْلامِيَّةِ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى بَعْضِها أَوْ جُلِّها ، ولَمْ يُفِدْ

مِنْ مَناهِجِها وأَفْكارِها .

الدَّائِرَةُ الثَّالِثَةُ : وهِىَ المُتَفرِّقاتُ المَأْثُورَةُ عَنْ كِبار العُلَماءِ والأَساتِذَةِ مِنَ التَّابِعينَ ومَنْ يَلِيهِم كـ(سُفْيان الثَّوْرى ١٦١ هـ) ، و(الفُضَيْلِ بن عِياض ١٨٧ هـ) ، و(مَعْروفٍ الكَرْخِىِّ ٢٠٠ هـ) ، و(أَبي سُلَيْمانَ الدَّارانِىِّ ٢١٥ هـ) ، و(بِشْرٍ الحافِي ٢٢٧ هـ) ، و(ذى النُّونِ المِصْري ٢٤٥ هـ) ، و(سَرِيٍّ السَّقْطِىِّ ٢٥٣ هـ) ، و(أَبِى يَزِيدٍ البَسْطامِي ٢٦١ هـ) ، و(الجُنَيْد ٢٩٧ هـ) ، و(الشَّاذِلىِّ ٦٥٦ هـ) ، و(أَبِى العَبَّاسِ المُرْسِىِّ ٦٨٦ هـ) ، و(الجَزُولي ٨٧٠ هـ)و(أَبِى مَدْيَنَ شُعَيْبِ التِّلْمِسانِى ٥٩٤ هـ) وغَيْرِهِم ، وما أَظُنُّكَ تَعْثُرُ عَلَى مَأْثُوراتِ هؤُلاءِ العُلَماءِ مَجْمُوعَةً فى مُصَنَّفٍ واحِدٍ ، وإِنَّما تَجِدُها مُتَفرِّقَةً فى بُطُونِ الكُتُبِ الإِسْلامِيَّةِ عَلَى تَنَوُّعِ عُلُومِها ، وما يُوجَدُ مِنْ هَذِهِ المَأْثُوراتِ الآنَ مَجْمُوعاً فى مُصَنَّفٍ مُسْتَقِلٍّ ، فَهُوَ مِمَّا لَمْ يُجْمَع فى عُصُورِ أَصْحابِهِ ، وإِنَّما جُمِعَ فِيما بَعْدَهُم مِنْ عُصُورٍ ، فَهُناكَ فى(الرِّباطِ) مَثَلاً جُزْءٌ يَشْتَمِلُ عَلَى مَجْمُوعٍ مِنْ كلامِ الجُنَيْد ، وهُناكَ مَجامِيعُ عَدِيدَةٌ لِبَعْضِ كِبارِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّة .

بَلْ إِنَّ لِبَعْضِهِم مُؤَلَّفاتٍ أَشارَ إِلَى بَعْضِها ابْنُ النَّدِيمِ فى (الفِهْرِسْت) ، ولَكِنَّها لَمْ تَصِلْ إِلَيْنا ، إِذْ قَدْ فُقِدَتْ فِيما فُقِدَ مِنْ مُؤَلَّفاتٍ ، نَتِيجةَ النَّكَباتِ المُخْتَلِفَةِ الَّتى حَلَّتْ بِأُمَّةِ الإِسْلامِ عَلَى امْتِدادِ تارِيخِها ولاسِيَّما غَزْوِ التَّتارِ لِبَغْداد ، ونَرْجُو اللهَ أَلاَّ نَكُونَ فَقَدْنا الأَمَلَ فى العُثُورِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْها .

الدَّائِرَةُ الرَّابِعَةُ : وهِىَ دَواوِينُ الشِّعْرِ الصُّوفِى ، كَدِيوان (الحاتِمى) ، ودِيوانِ (ابْنِ الفارِضِ) ، ودِيوان (الرَّوَّاسِ) ، ودِيوان (عَبْدِالرَّحِيمِ البُرَعِي) ، ودِيوان (عَبْدِالغَنِي النَّابُلْسِي) ، وقَصائِدِ (البُوصِيرى) ، ودِيوان (اليافِعي) ، ودِيوان (صالِحِ الجَعْفَري) ، وغَيْرِها ، مِمَّا تَرَكَهُ

السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ مِنْ مَقْطُوعاتٍ شِعْرِيَّةٍ ومَنْظُومات .

ويَجْدُرُ بِنا ونَحْنُ نَذْكُرُ الشِّعْرَ الصُّوفِيَّ وشُعَراءَهُ أَنْ نُشِيرَ إِلَى ذَلِكَ الصِّنْفِ مِنَ الشِّعْرِ الَّذى كانَ لـ (الصُّوفِيَّةِ) النُّهُوضُ والاخْتِصاصُ بِهِ ومُتابَعَتُهُ بَعْدَ جِيلِ (الصَّحابَةِ) ﷺ ، ونَعْنِي بِهِ فَنَّ المَدائِحِ النَّبَوِيَّة .

والمَدائِحُ النَّبَوِيَّةُ :

شِعْرٌ يَنْبَعُ بِلا رَيْبٍ عَنْ إِيمانٍ صادِقٍ ومَحَبَّةٍ عَمِيقَةٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ .

نَعَم . إِنَّ ثَمَرَةَ مَحَبَّتِهِ ﷺ تَتَمَثَّلُ فى اتِّباعِ سُنَّتِهِ ، ولَكِنْ أَرَأَيْتَ مَنْ أَحَبَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فاتَّبَعَ سُنَّتَهُ ومَلَكَتْ هَذِهِ المَحَبَّةُ عَلَيْهِ شِغافَ قَلْبِهِ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ لِسانَهُ عَنْ أَنْ يَنْطِقَ بِها ؟ لا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ ، (فَأَمْرُ المَحَبَّةِ أَمْرٌ غَرِيبٌ وعَجِيبٌ ، لايَخْضَعُ لِمَنْطِقٍ أَو قِياسٍ) ، ولِلْحُبِّ سِرٌّ غَرِيبٌ أَوْدَعَهُ اللهُ قُلُوبَ خَلْقِهِ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُها فَلَوْلاهُ ما سَهِرَتْ أُمٌّ عَلَى طِفْلٍ لَها مَرِيضٌ ، ولاسَقَطَتْ دَمْعَةٌ لِغِيابِ رَفِيقٍ ، ولا انْفَطَرَ الفُؤادُ أَسَىً لِفَقْدِ عَزِيزٍ .

وقَدْ كانَ لِلسَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحابَةِ اليَدُ الطُّولَى فى مَحَبَّتِهِ ﷺ ومَدْحِهِ خَلْقاً وخُلُقاً بِما يَلِيقُ بِجَنابِهِ الأَعْظَمِ ﷺ .

فَها هُوَ أَحَدُهُم يَصِفُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وقَدْ رآهُ فى حُلَّةٍ حَمْراءَ فَيَقُولُ :

(ما رَأَيْتُ شَيْئاً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ)[(١)] ، ويَصِفُهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ (عَلِيُّ بنُ أَبى طالِبٍ) ﷺ وَصْفاً جامِعاً يخْتِمُهُ بِقَوْلِهِ :

(يَقُولُ ناعِتُهُ : لَمْ أَرَ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ)[(٢)] ، ويَصِفُهُ هِنْدُ بنُ أَبى هالَةَ فَيَقُولُ : (كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخْماً مُفَخَّماً يَتَلأْلأُ وَجْهُهُ تَلأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ)[(٣)] .

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و(مُسْلِمٌ) و(أبوداود) و(النَّسائي) و(ابْنُ ماجَه) و(التِّرْمِذي) .
(٢) أَخْرَجَهُ (التِّرمِذى) .
(٣) أَخْرَجَهُ (التِّرمِذى) و(الطَّبراني) و(البَيْهقِي) .

وتَغْمُرُ مَشاعِرُ الحُبِّ الصَّادِقِ لِلرَّسُولِ الكَرِيمِ ﷺ قَلْبَ الصَّحابِيِّ جابِرِ بنِ سَمُرَةَ فَيَقُولُ : (رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فى لَيْلَةٍ أَضْحَيان - مُقْمِرَةٍ - وعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْراءُ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وإِلَى القَمَرِ ، فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ)[١] ، وحَدَثَ ذاتَ مَرَّةٍ أَنْ أَوْعَدَ الرَّسُولُ ﷺ كَعْبَ بنَ زُهَيْرٍ ، فَيأْتِيهِ كَعْبٌ مُتَلَثِّماً حَتَّى يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ فَيَقُولُ لَهُ : رَجُلٌ يُبايِعُكَ ، فَيَمُدُّ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ ، فَيَمُدُّ كَعْبٌ يَدَهُ فُيبايِعُهُ ، ثُمَّ يُسْفِرُ عَنْ وَجْهِهِ ، ويُنْشِدُهُ قَصِيدَتَهُ الشَّهِيرَةَ (بانَتْ سُعاد) مادِحاً بِها الرَّسُولَ ﷺ حَتَّى يَبْلُغَ قَوْلَهُ :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ * مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي * والعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

فَيُشِيرُ الرَّسُولُ ﷺ لِمَنْ مَعَهُ أَنِ اسْمَعُوا ، ويَكْسُوهُ ﷺ بُرْدَةً لَهُ ، ويَحْتَفِظُ بِها كَعْبٌ ، ثُمَّ يَشْتَرِيها مُعاوِيَةُ بنُ أَبى سُفْيانَ مِنْ أَبْنائِهِ بَعْدَ مَوْتِه[٢].

وهُناكَ فى حَضْرَمَوْت تَصْنَعُ امْرَأَةٌ تُدْعَى (تَهْناةُ بِنْتُ كُلَيْبٍ) كِسْوَةً ، وتَدْعُو ابْنَها واسْمُهُ الآخَرُ كُلَيْبٌ ، وتَقُولُ لَهُ : انْطَلِقْ بِهَذِهِ الكِسْوَةِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَأْتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيَدْعُو لَهُ الرَّسُولُ ﷺ ، فَيَقُولُ كُلَيْبٌ مادِحاً هَذا النَّبِيَّ الكَرِيمَ بِما رَآهُ مِنْ أَخْلاقِ النُّبُوَّةِ :

أَنْتَ النَّبِيُّ الَّذى كُنَّا نُخَبَّرُهُ * وبَشَّرَتْنا بِهِ الأَحْبارُ والرُّسُلُ

مِنْ خَيْرِ دِينٍ يَهْوِي فى عَذافِرِهِ * إِلَيْكَ يا خَيْرَ مَنْ يَحْفِي ويَنْتَعِلُ[٣]

ويَمْدَحُ أَنَسُ بنُ أُسَيْد بنِ أَبي أُناسٍ بنِ زَنِيم الكِناني رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيَنْطِقُ بِأَصْدَقِ بَيْتِ شِعْرٍ قالَتْهُ العَرَبُ :

فَما حَمَلَتْ مِنْ ناقَةٍ فَوْقَ رَحْلِها * أَبَرَّ وأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ[٤]

---

(١) أخرجه (الترمذى) . (٢) الإصابَةُ فى تَمْيِيزِ الصَّحابَةِ لابْنِ حَجَر العَسْقَلاني ج ١ص ٢٧٩ .
(٣) المَصْدَرُ السَّابِقُ ج ١ ص ٢٨٨ ، وابْنُ سَعْدٍ في الطَّبَقات : ١/ ٣٥٠ .
(٤) الإصابَة : ج ١ / ٢٥٥ ، والسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لـ(ابْنِ هِشام) ج ٥ ص ٣٠٠ .

ويَمُرُّ الصَّحابِيُّ جَنابُ الكِلابِيُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، ويَسْمَعُهُ يَقُولُ لِحَسَّانَ بن ثابِت : إنَّ جِبْرِيلَ عَلَى يَمِينِي ومِيكائِيلَ عَلَى يَسارِي والمَلائِكَةَ قَدْ أَظَلَّتْ عَسْكَرِي ، فَيَنْبَرِي سَيِّدُنا حَسَّانُ قائِلاً :

يا رُكْنَ مُعْتَمِدٍ وعِصْمَةَ لائِذٍ * ومَلاذَ مُنْتَجِعٍ وجارَ مُجاوِرِ

يا مَنْ تَخَيَّرَهُ الإِلَهُ لِخَلْقِهِ * فَحَباهُ بِالخُلُقِ الزَّكِيِّ الطَّاهِرِ

أَنْتَ النَّبِيُّ وخَيْرُ عُصْبَةِ آدَمَ * يا مَنْ يَجُودُ كَفَيْضِ بَحْرٍ زاخِرِ

مِيكالُ مَعَكَ وجِبْرائِيلُ كِلاهُما * مَدَدٌ لِنَصْرِكَ مِنْ عَزِيزٍ قاهِرِ

فَيَدْعُو الرَّسُولُ ﷺ لِحَسَّانَ ويَقُولُ خَيْراً .(١)

وتَصِفُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ (رَسُولَ اللهِ) ﷺ فَتَقُولُ :

كانَ واللهِ كَما قالَ فِيهِ شاعِرُهُ حَسَّانُ بنُ ثابِت :

مَتَى يَبْدُو فى الدَّاجِي البَهِيمِ جَبِينُهُ * يَلُحْ مِثْلَ مِصْباحِ الدُّجَى المُتَوَقِّدِ

فَمَنْ كانَ أَو مَنْ يَكُونُ كَأَحْمَدَ * نِظامٌ لِحَقٍّ أَو نَكالٌ لِمُلْحِدِ (٢)

وعَلَى هَذا النَّهْجِ الَّذى اخْتَطَّهُ الصَّحابَةُ الكِرامُ رضي الله عنهم ، وأَقَرَّهُمْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، بَلْ سُرَّ بِهِ ورَضِيَهُ . عَلَى هَذا النَّهْجِ يَسِيرُ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ الصَّحابَةِ ، فَتَغْرَقُ قُلُوبُهُم فى بَحْرِ مَحَبَّتِهِ ﷺ ، لأَنَّهُم يُدْرِكُونَ ويُقَدِّرونَ ما اخْتَصَّ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُم مِنْ جَزِيلِ فَضْلِهِ ، وعَظِيمِ مِنَّتِهِ ، فَيَقُولُ شاعِرُهُم :

واللهِ ما حَمَلَتْ أُنْثَى ولا وَضَعَتْ * كَمِثْلِ أَحْمَدَ مِنْ قاصِي ولادانِي

مُهَذَّبٌ شَرَّفَ اللهُ الوجُودَ بِهِ * وخَصَّهُ بِدَلالاتٍ وبُرْهانِ

بَلْ إِنَّ بَعْضَ شُعَرائِهِم لَيَسْتَهجِنُ إِبْطاءَ المُشْرِكِينَ عَنِ الإِيمانِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وإِعْراضَهُم عَنْ رِسالَتِهِ ، وهُوَ الَّذى آمَنَتْ بِهِ كُلُّ الكائِناتِ حَتَّى الحَيواناتُ

---

(١) الاستيعابُ لابنِ عَبْدِ البَرِّ : ج ١ ص ٢٧٦ . (٢) الاستيعاب لابن عبد البر : ج ١ ص ٣٤١ .

العَجْماءُ وأنْواعُ الجماداتِ ، فَيَقُولُ :

وَيْحَ قَوْمٍ جَفَوا نَبيًّا بِأَرْضٍ * أَلِفَتْهُ ضِبابُها والظِّباءُ
وسَلَوْهُ وحَنَّ جِذْعٌ إِلَيْهِ * وقَلَوْهُ ووَدَّهُ الغُرَباءُ

ويَقُولُ آخَرُ :

مُحَمَّدٌ خَيْرُ مَنْزُولٍ بِساحَتِهِ * كَهْفُ الأَرامِلِ والأَيْتامِ والغُرَبا
أَغَرُّ أَرْسَلَهُ الرَّحْمَنُ مَرْحَمَةً * لِلْخَلْقِ بالحَقِّ يَهْدِي العُجْمَ والعَرَبا
نُورُ الوجُودِ تَمامُ الوجُودِ إِنْ نَزَلَتْ * بِهِ الوفُودُ بِسُوحٍ ضَيِّقٍ رَحِبا

وحَسْبُنا هَذا القَدْرُ مِنَ الشَّواهِدِ الجَمَّةِ ، خَشْيَةَ الخُروجِ عَنْ أَصْلِ مَوْضُوعِنا ، ولَعَلَّ فِيما سُقْناهُ مِنْ أَمْثِلَةٍ ما يَكْفي لإِعْطاءِ فِكْرَةٍ عَنْ أُصُولِ فَنِّ المَدِيحِ النَّبَوِيِّ ، وعَنْ دَوْرِ الصُّوفِيَّةِ الكَبِيرِ فى المُحافَظَةِ عَلَيْهِ ، والاهْتِمامِ بِهذا الخَطِّ الإِسْلامِيِّ الأَصِيل .

❁ الدَّائِرَةُ الخامِسَةُ : مِنْ كُتُبِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ ، وهِيَ كُتُبٌ أَكْثَرُ خُصُوصِيَّةً مِنَ السَّابِقَةِ ، وهِيَ كُتُبُ التَّراجِمِ والطَّبَقاتِ الَّتي اخْتَصَّتْ بِذِكْرِ مَشاهِيرِ الصُّوفِيَّةِ وأَعْلامِهِم ، والتَّعْرِيفِ بِهِم وجَمْعِ أَقْوالِهِم ، كـ (الطَّبَقاتِ الكُبْرَى) لِلشَّعْرانِي و(طَبقاتِ الصُّوفِيَّةِ) لِلسُّلَمِي ، و(لَطائِفِ المِنَنِ) لابْنِ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي، وتَدْخُلُ فى هَذِهِ الدَّائِرَةِ كُتُبُ المَناقِب كـ(جامِعِ كَراماتِ الأَوْلِياء) لِلشَّيْخِ يُوسُف النَّبَهانِي وما شابَهَهُ ، وهِيَ وافِرَةٌ ومَعْروفَةٌ لَدَى المُتَخَصِّصِينَ حَتَّى مِنْ غَيْرِ الصُّوفِيَّةِ السَّالِكِينَ ، كَعُلَماءِ التَّارِيخِ والسِّيَرِ والأَدَب .

❁ الدَّائِرَةُ السَّادِسَةُ : وهِيَ كُتُبٌ اهْتَمَّ بِها المُتَأَخِّرونَ مِنْ عُلَماءِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ بَلْ تَكادُ تَكُونُ قاصِرَةً عَلَيْهِم ، وهِيَ كُتُبُ عِلْمِ الأَسانِيدِ وتَحْقِيقِها

وضَبْطِها .
ولَعَلَّ سَبَبَ ضِيقِ المُهْتَمِّينَ بِهَذا الصِّنْفِ مِنَ المُؤَلَّفاتِ ، واقْتِصارِها عَلَى الخاصَّةِ مِنْ عُلَماءِ التَّصَوُّفِ المُتَأَخِّرِينَ ، أَنَّهُ قَلَّما تَجِدُ عِنْدَ غَيْرِهِم دافِعاً - أَيّاً كانَ - لِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ في انْقِطاعِ السَّنَدِ (بَيْنَ عبدالرَّحْمنِ المَدَني وأَبى بَكْرٍ الشِّبْلي عَنْ طَريقِ عَبْدِاللهِ التَّازى) مَثَلاً ، وهَلْ ما نَظَمَهُ الأَمِيرُ فى هَذا المَوْضُوعِ يُؤْخَذُ بِهِ أَمْ يُرَدُّ ؟ ، ونَحْوَ ذَلِكَ مِنَ المَسائِلِ .
ولَعَلَّ سَبَبَ الاهْتِمامِ بِهَذا الفَنِّ الدَّقِيقِ أَنَّهُ قَدِ انْدَسَّ فِيما بَيْنَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ مُدَّعُونَ يَنْتَسِبُونَ لِلطَّرِيقِ لَفْظاً ويَنْقَطِعُونَ عَنْهُ مَعْنَىً ، فَما فَقِهُوا مِنَ التَّصَوُّفِ إِلَّاسْمَهُ ، ولاحَمَلُوا مِنْهُ إِلَّا رَسْمَهُ ، لاهِمَّةَ لَهُم فى تَخَلٍّ ، ولارَغْبَةَ لَهُم فى حَقٍّ ولا حَقِيقَةٍ ، بَلْ لا يَهْتَدونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً ولا يَطْلُبُونَ عَلَيْهِ دَلِيلاً وحَسْبُهُم تَقْلِيدُ اللاَّحِقِ مِنْهُم لِلسَّابِقِ فِيما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَمِيمِ الحالِ والطَّرائِقِ ، فكانَ نَتِيجَةَ هَذا أَن نَسَبُوا ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حالٍ قَبِيحٍ إِلَى أَهْلِ الطَّرِيقِ وأَرْبابِ التَّحْقِيقِ ، فَواجَهَهُم مَشايِخُ الطَّرِيقِ بِانْقِطاعِ أَسانِيدِهِم ، وجَبَهُوهُم بِحَقائِقِ الأَدِلَّةِ ، وأَثْبَتُوا أَنَّ ما هُمْ عَلَيْهِ لا يَتَّصِلُ بِمَصْدَرٍ مَوْثُوقٍ ولا يَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ مُحَقَّقٍ ، ولا يُوجَدُ عَلَيْهِ فى طَرِيقِ القَوْمِ بَيِّنَةٌ ، إِذْ إِنَّ لِكُلِّ غايَةٍ وَسِيلَةً ، ولِكُلِّ مَقْصُودٍ طَرِيقاً ، ولا وَسِيلَةَ ولا طَرِيقَ إِلَّا وَسِيلَةُ المَعْرِفَةِ وطَرِيقُ العَمَلِ ، وبِالطَّبْعِ لا يَتَأَتَّى مِثْلُ هَذا الدَّلِيلِ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَ عِلْمَ الطَّرِيقِ دِرايَةً ورِوايَةً .
ولَعَلَّكَ تُدْرِكُ أَهَمِّيَّةَ هَذا النَّوْعِ مِنَ العُلُومِ إِذا عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ شَرْطٍ فى التَّصَوُّفِ أَنْ يُؤْخَذَ عَنْ شَيْخٍ عارِفٍ تَرَبَّى عَلَى يَدِ غَيْرِهِ ، ولا يَخْفَى أَنَّ الفُنُونَ كُلَّها لابُدَّ فِيها مِنْ واسِطَةٍ ، فَمَنْ رُزِقَ الواسِطَةَ رُزِقَ الفَنَّ .
وفِى عُرْفِ أَهْلِ الطَّرِيقِ ، أَنَّهُ مَنْ لاشَيْخَ لَهُ لا يُعْبَأُ بِهِ ولا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ ، ولَوْ

حَفِظَ العُلومَ ونَبَغَ فى المَعْقُولِ والمَنْقُولِ ، إذِ التَّصوُّفُ لايُؤْخَذُ إلَّا مِنْ صُدورِ الرِّجال ، فإذا كانَتِ الحالُ هكَذا ، فَإنَّ لاتِّصالِ السَّنَدِ أَهَمِّيَّتَهُ البالِغَةَ وشأْنَهُ الخَطِير .

قالَ (الطِّيبي) صاحِبُ حاشِيَةِ الكشَّاف :

(لا يَنْبَغِي لِلْعالِمِ ولَوْ تَبَحَّرَ فى العِلْمِ حَتَّى صارَ أَوْحَدَ أَهْلِ زَمانِهِ أَنْ يَقْنَعَ بِما عَلِمَهُ ، وإنَّما الواجِبُ عَلَيْهِ الاجْتِماعُ بِأَهْلِ الطَّريقِ لِيَدُلُّوهُ عَلَى الطَّريقِ المُسْتَقِيمِ ، حَتَّى يَكُونَ مِمَّنْ يُحَدِّثُهُم الحَقُّ فى سَرائِرِهِم مِنْ شِدَّةِ صَفاءِ باطِنِهم ، ويُخَلِّصُهُم مِنَ الأَدْناسِ ، وعَلَيْهِ كَذَلِكَ أَنْ يَجْتَنِبَ ما شابَ عِلْمَهُ مِنْ كُدوراتِ الهَوَى وحُظُوظِ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ ، حَتَّى يَسْتَعِدَّ لِفَيَضانِ العُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ عَلَى قَلْبِهِ ، والاقْتِباسِ مِنْ مِشْكاةِ أَنْوارِ النُّبُوَّةِ ، ولا يَتَيَسَّرُ ذَلِكَ عادَةً إلَّا عَلَى يَدِ شَيْخٍ كامِلٍ بِعِلاجِ أَمْراضِ النُّفُوسِ الإنْسانِيَّةِ وتَطْهِيرِها مِنَ النَّجاساتِ المَعْنَوِيَّةِ ، وعالِمٍ بِحِكْمَةِ مُعامَلاتِها عِلْماً وذَوْقاً ، لِيُخْرِجَهُ مِنْ رُعُوناتِ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ ودَسائِسِها الخَفِيَّةِ ، فَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الطَّريقِ عَلَى وجُوبِ اتِّخاذِ الإنْسانِ شَيْخاً لَهُ)[١]

تَنْويه وتَنْبيه :

بِأَنَّهُ ما كانَ عِلْمُ الكُتُبِ هُوَ غايَتَهُم الأَخِيرَةَ ، وإنَّما مَعَ عِلْمِ الكُتُبِ كانَ طُمُوحُهُم إلَى العِلْمِ الوَهْبِي : العِلْمِ الَّذى يَمْنَحَهُ اللهُ لِبَعْضِ عِبادِهِ ، العِلْمِ الَّذى سافَرَ (مُوسَى) عليه السلام سَفْرَةً شاقَّةً مُجْهِدةً لِيَلْتَقِيَ في نِهايَتِها مَعَ عَبْدٍ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالَى ، عَلَّمَهُ اللهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْماً ، يَقُولُ سُبْحانَهُ عَنْ مُوسَى وفَتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[٢]، وهُوَ عِلْمٌ يَمْنَحُهُ اللهُ لِمَنْ حَقَّقَ لَهُ العُبُودِيَّة .

(١) تَنْوِيرُ القُلوب (مُحَمَّد أمِين الكُرْدِي) .

(٢) سُورَةُ الكَهف الآية ٦٥ .

ولِأَنَّ هَـذا العِلْمَ (وهُوَ مَطْمَحُهُم الأَخِيرُ) لا يَتَأَتَّى إِلَّا بِإِخْلاصِ العُبُودِيَّةِ للهِ ولِأَنَّ إِخْلاصَ العُبُودِيَّةِ للهِ لايَتَأَتَّى إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الاسْتِغْراقُ فى العَمَلِ : صَلاةً وذِكْراً وصِياماً ... مِنَ الأُسُسِ الجَوْهَرِيَّةِ في حَياةِ الإِنْسانِ ، فَإِنَّهُم اتَّجَهُوا فى صُورَةٍ مُوَفَّقَةٍ إِلَى العَمَلِ .

ولِهَذا كانَ السَّرِيُّ السَّقَطِي يَقُولُ لِلْجُنَيْدِ :

(جَعَلَكَ اللهُ صاحِبَ حَدِيثٍ صُوفِيّاً ولا جَعَلكَ صُوفِيّاً صاحِبَ حَدِيثٍ) ، إِشارَةً إِلَى أَنَّ مَنْ تَصَوَّفَ بَعْدَ العِلْمِ بِاللهِ تَعالَى وبِالأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ العَمَلِيَّةِ فَقَدْ أَفْلَحَ وأَتَى البُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها ؛ ومَنْ تَصَوَّفَ قَبْلَ تَحْصِيلِ العِلْمِ فَقَدْ خاطَرَ بِنَفْسِهِ ، وتَنَكَّبَ طَرِيقَ السَّدادِ والفَلاحِ ، وفي حَدِيثِ سَيِّدِنا (مُعاذٍ) ﷺ الدَّالِّ عَلَى شَرَفِ العِلْمِ وطَلَبِ تَعَلُّمِهِ ، قالَ ﷺ : (والعِلْمُ إِمامُ العَمَلِ والعَمَلُ تابِعُهُ) .

ومِنْ تَراجِمِ البُخاري في صَحِيحِه : العِلْمُ قَبْلَ العَمَلِ لِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾(١) ، فَبَدَأَ بالعِلْمِ قَبْلَ العَمَل . لَقَدْ أَخَذوا الكِتابَ بِقُوَّةٍ ، وكانُوا أَتْقِياءَ ، فَأَفاضَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِلْهاماتِهِ ، واتَّسَمَ ما دَوَّنُوهُ بِطابَعِ الرُّوحانِيَّةِ ، واتَّسَمَ بِالنَّضْرَةِ ، وكانَ طابَعُهُ أَنَّهُ يَزْكُو عَلَى مَرِّ الزَّمَن .

---

(١) سُورَةُ مُحَمَّد مِنَ الآيَة ١٩ .

الدس على كتب الإسلام

خُصُوصاً (التَّصَوُّف) لأَنَّهُ جَوْهَرُ الإسْلام

ونَعْنِي بِالدَّسِّ : إضافَةَ أَلْفاظٍ أَو جُمَلٍ إلَى أُصُولِ النَّصِّ ، أَو تَغْيِيرَ الكِتابِ جُمْلَةً عَدا اسْمِهِ واسْمِ مُؤَلِّفِهِ ، أَو اخْتِلاقَ كِتابٍ بِاسْمٍ ما ، أَو نِسْبَتَهُ لِمُؤَلِّفٍ آخَر ، وما إلَى ذَلِكَ مِنْ كُلِّ ما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُزَيِّفَ حَقِيقَةً في عالَمِ المُؤَلَّفاتِ والكُتُب .

وبِالطَّبْعِ . لَمْ تَكُنْ الأُمُورُ في السَّابِقِ مِثْلَ ما هِيَ عَلَيْهِ الآنَ ، إذْ لَمْ تَكُنْ هُنالِكَ مَطابِعُ أَو رَقابَةٌ عَلَى المَطْبُوعاتِ أَو تَوْثِيقٌ لَها ، بَلْ بِحَسْبِ الكاتِبِ أَنْ يُؤَلِّفَ الكِتابَ ، ثُمَّ يَقُومَ بِأَحَدِ أُمُورٍ ثَلاثَة :

١) إمَّا أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِ لِمُطالَعَتِهِ الخاصَّة .

٢) وإمَّا أَنْ يَنْسَخَ عَنِ النُّسْخَةِ الأَصْلِيَّةِ صَدِيقٌ أَو قَرِيبٌ لِلْكاتِبِ لِنَفْسِهِ ، أَو يُعْطِيَها لِغَيْرِهِ فَيَنْسَخ مِنْها ومِنْ ثَمَّ تَنْتَشِرَ .

٣) أَو أَنْ يَحْمِلَ الكاتِبُ كِتابَهُ إلَى المَطْبَعَةِ في ذَلِكَ الوَقْتِ ، وهِيَ آنَئِذٍ عِبارَةٌ عَنْ مَكانٍ مَعْرُوفٍ في الأَسْواقِ ، يَجْتَمِعُ فِيهِ الوَرَّاقُونَ والنَّسَّاخُونَ فَيَنْسَخُونَ مِنَ الكِتابِ عِدَّةَ نُسَخٍ لِتُباعَ ، وهَكَذا .

ونُلاحِظُ أَنَّهُ في كُلِّ هَذِهِ المَراحِلِ يَجْرِي نَسْخُ الكِتابِ بِاليَدِ ، ولَوْ أَخَذْنا عَلَى سَبِيلِ المِثالِ كِتاباً ضَخْماً كالفُتُوحاتِ المَكِّيَّةِ ، مُؤَلَّفاً مِنْ مِئاتِ الصَّفَحاتِ ، ثُمَّ جَعَلْنا نِسْبَةَ التَّصْحِيفِ والإقْلابِ والتَّحْرِيفِ فِيهِ واحِداً في المِائَةِ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ ، لأَمْكَنَنا أَنْ نَتَصَوَّرَ كَيْفَ يَكُونُ حالُ الكِتابِ بَعْدَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مَثَلاً ، ونَحْنُ ها هُنا نَتَحَدَّثُ عَنِ الأَخْطاءِ غَيْرِ المَقْصُودَةِ ، وإلَّا فَلا رَقِيبَ عَلَى النَّاسِ إلَّا اللهُ ، خاصَّةً إذا ما عَلِمْنا أَنَّ مِنَ الحالِ الطَّبِيعِيِّ المَأْلُوفِ في تِلْكَ

الأَزْمِنَةِ أَنْ يُؤَلَّفَ الكِتابُ في الأَنْدَلُسِ مَثَلاً ، ويُنْسَخَ بَعْدَ ثَلاثِمِائَةِ سَنَةٍ في مِصْرَ ناهِيكَ عَمَّا كانَ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الحُذَّاقِ مِنْ غَيْرِ المُخْلِصِينَ ، كَأَنْ يَكْتُبَ أَحَدُهُم كِتاباً ويُرِيدَ أَنْ يَضْمَنَ رَواجَهُ ، فَتَراهُ بَدَلاً مِنْ أَنْ يَنْسِبَهُ لِنَفْسِهِ ، يَضَعَ عَلَيْهِ اسْمَ مُؤَلِّفٍ مَعْروفٍ لِيَكْثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَب .

ولا يَخْفَى في هَذا المَقامِ ما كانَ يَدُسُّهُ بَعْضُ جُهَّالِ الخُصُومِ والحاسِدِينَ في كُتُبِ خُصُومِهِم لِتَشْوِيهِ صُورَتِهِم والنَّيْلِ مِنْهُم ، وهَذِهِ أَخْبَثُ صُوَرِ الدَّسِّ ، لأَنَّها نَوْعٌ مِنَ الكَذِبِ والافْتِراء .

ومِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ بَعْضَ مَظاهِرِ الدَّسِّ تِلْكَ مازالَتْ باقِيَةً في عَصْرِنا الحاضِرِ فَلازِلْتُ أَذْكُرُ مَثَلاً أَنَّهُ وَقَعَ في يَدِي كِتابٌ يَتَحَدَّثُ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِخْراجِ الكُنُوزِ وتَسْخِيرِ الجِنِّ بِمَواثِيقِ سُلَيْمانَ وعُهُودِهِ مَنْسُوبٌ لِلْحافِظِ السِّيُوطِي ، وما رَآهُ السِّيُوطِيُّ ولا سَمِعَ بِهِ . ولَكِنَّهُ الدَّسُّ والتَّزْوِيرُ بِحُسْنِ نِيَّةٍ أَحْياناً وبِسُوءِ نِيَّةٍ غالِباً .

وقَد دُسَّتْ عَلَى كُتُبِ الإِسْلامِ طَوالَ الفَتْرَةِ الفائِتَةِ مِنْ تارِيخِهِ أَشْياءُ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، إِنْ هِيَ إِلَّا بُهْتانٌ وضَلالٌ مُبِينٌ . ولَوْلاَ أَنْ تَفَطَّنَ لَها العُلَماءُ المُخْلِصُونَ لاعْتَقَدَ العَوامُّ صِحَّتَها وصَدَّقُوا فِرْيَتَها .

وها نَحْنُ ذا نَسُوقُ لَكَ أَمْثِلَةً لِتِلْكَ الدَّسائِسِ الَّتِي مُنِيَتْ بِها كُتُبُ الإِسْلام :

١) أَمْثِلَةٌ لِلدَّسِّ في التَّفْسِير :

مِنْها أَنَّهُم نَسَبُوا لِسَيِّدِنا (إِبْراهِيمَ الخَلِيلِ) عليه السلام الكَذِبَ ، بَلْ ذَكَروا أَنَّهُ أَمَرَ زَوْجَتَهُ السَّيِّدَةَ (سارَّةَ) بِالكَذِبِ[1] ، وحاشاهُم مِنْ ذَلِكَ ، وكَذَلِكَ حَفِيدُهُ (يَعْقُوبُ) عليه السلام يَذْبَحُ شاةً ويَمُرُّ بِهِ فَقِيرٌ صائِمٌ فَيَسْتَطْعِمَهُ فَيَأْبَى ، فَيَبْتَلِيهِ اللهُ بِأَمْرِ (يُوسُفَ) عليه السلام ، وكَذَلِكَ أَيْضاً سَيِّدُنا (يُوسُفُ)[2] عليه السلام لَمْ يَنْجُ

(٢،١) ذُكِرَ هَذا في العَدِيد مِنَ المَصادِرِ والتَّفاسِيرِ ، انْظُرْ إِلَيْهِ في قَصَصِ الأَنْبِياء (أَبُو إِسْحاقَ الثَّعالِبِي) ص ٦٧ ، ١٠٠ ، ١١٢ .

مِنْ هَذهِ الأباطِيلِ ، إِذْ زَعَمَ مَنْ زَعمَ أَنَّهُ هَمَّ بِامْرَأَةِ العَزِيزِ هَمَّ فُحْشٍ وسُوءٍ[(١)]؛ أَمَّا نَبِيُّ اللهِ (داوُدُ) عليه السلام الَّذي جَعلَهُ اللهُ خَلِيفةً مُؤْتَمناً ، لا يُؤْتَمنُ عَلَى زَوْجَةِ بَعْضِ جُنُودِهِ فَيُرْسِلُهُ إِلَى جَبْهَةِ القِتالِ ، ويَكِيدُ لَهُ لِيُقْتَلَ ، لِيَتَزَوَّجَ امْرأَتَهُ الَّتي سَبَقَ أَنْ رَآها تَغْتَسِلُ عَلَى سَطْحٍ ويُنْجِبُ مِنْها سَيِّدَنا (سُلَيْمانَ) عليه السلام !!!

وقَدْ لُفِّقَتْ في ذَلِكَ قِصَصٌ لا تَلِيقُ بِمَقامِ الفُضَلاءِ مِنْ عَوامِّ المُسْلِمِينَ ، فَما بالُكَ بِالأَنْبِياءِ الأَطْهارِ خاصَّةِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ ذَوِي الأَخْلاقِ الكَرِيمَةِ والشَّمائِلِ الحَمِيدَةِ !! سُبْحانَكَ هَذا بُهْتانٌ عَظِيم !

٢) في الحَدِيثِ الشَّرِيف :

وهُناكَ المِئاتُ مِنَ الأَحادِيثِ الَّتي افْتَراها الدَّسَّاسُونَ عَلَى لِسانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمآرِبَ شَيْطانِيَّة ، أَو رَغْبَةً في الجاهِ والدُّنْيا ، أَو تَزَلُّفاً إِلَى الحُكَّامِ ، وما إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَغْراضٍ مَشْبُوهَة .

وقَدْ تَفَطَّنَ العُلَماءُ الأَبْرارُ مُنْذُ صَدْرِ الإِسْلامِ الأَوَّلِ إِلَى تِلْكَ الأَكاذِيبِ ؛ فَصَنَّفُوا كُتُبَ الصِّحاحِ ، والجَرْحِ والتَّعْدِيلِ ، فَما غادَرُوا صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إِلَّا تَكَلَّمُوا عَنْها ، فَظَهَرَ بِذَلِكَ الصَّحِيحُ مِنَ المَوْضُوعِ ، والحَسَنُ مِنَ المَقْطُوعِ ، بَلْ ظَهَرَ عِلْمُ مُصْطَلَحِ الحَدِيثِ رِوايَةً ودِرايَةً ، فَغَدا مِيزاناً صارِماً لِلْفَصْلِ بَيْنَ الثَّابِتِ والمُفْتَرَى ، وكُلُّ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وبِبَرَكَةِ رَسُولِهِ ﷺ ،والأَبْرارِ مِنْ عُلَماءِ أُمَّتِهِ ﷺ .

٣) في التارِيخِ الإِسْلامِي :

وإِذا ذَكَرْتَ التَّارِيخَ فَحَدِّثْ عَنِ الدَّسِّ ولا حَرَج ، فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عُلَماءَ الإِسْلامِ قَدْ بَذَلُوا جُهْدَهُم وأَفْرَغُوا وسْعَهُم في سَبِيلِ تَنْقِيَةِ التَّارِيخِ الإِسْلامِيِّ

---

(١) ذُكِرَ هَذا في العَديد مِنَ المَصادِرِ والتَّفاسِيرِ ، انْظُرْ إِلَيْهِ في قَصَصِ الأَنْبِياء (أَبُو إِسْحاقَ الثَّعالِبِي) ص ٦٧ ، ١٠٠ ، ١١٣ .

مِمَّا دُسَّ بَيْنَ سُطُورِهِ مِنْ شَوائِبَ لِتَحِلَّ مَحلَّها الصَّحِيحَ في صَفائِحِ النِّفاياتِ ، فَإِنَّهُ مازالَ هُنالِكَ الكَثِيرُ لِيُنْجَزَ في هَذا المَجالِ ، والأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لازالَ هُنالِكَ خَلَلٌ في فَهْمِنا واسْتِفاداتِنا مِنْ دُرُوسِ وعِبَرِ التَّارِيخِ ، بِسَبَبِ ما دُسَّ فيهِ مِنْ أَكاذِيبَ تُظْهِرُنا في لِباسٍ غَيْرِ لِباسِنا وجِلْدَةٍ غَيْرِ جِلْدَتِنا .

فالمُسْلِمُونَ هُمْ أَهْلُ أَكْبَرِ حَضارَةٍ عَرَفَتْها الإِنْسانِيَّةُ قاطِبَةً ، بِما في ذَلِكَ الحِقْبَةُ الَّتي يَراها البَعْضُ فَتْرَةَ رُكُودٍ وخُمُولٍ وتَخَلُّفٍ ، لأَنَّها في الواقِعِ هَيِّنَةٌ إِذا ما قِيسَتْ بِعُمْرِ الشُّعُوبِ ، وهاهُم الآنَ يُسابِقُونَ الرِّيحَ لِيأْخُذُوا مَحَلَّهُم في المُقَدِّمَةِ الَّتي هِيَ مَكانُهُم الطَّبِيعِيُّ الَّذي لا يُزاحِمُهُم عَلَيْهِ أَحَدٌ ، لأَنَّهُم خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس .

وهَذا هُوَ الفَهْمُ الَّذي يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَهُ ونَعْمَلَ لأَجْلِهِ ونُلَقِّنَهُ لِمَنْ حَوْلَنا .

٤) في التَّصَوُّف :

وكانَ لِكُتُبِ التَّصَوُّفِ النَّصِيبُ الأَوْفَرُ مِنَ الدَّسِّ والتَّزْوِيرِ ، وإِنْ كانَ قَدْ بَلَغَ ذُرْوَتَهُ عَلَى الإِمام (الشَّعْراني) إِذْ قَد دُسَّ عَلَيْهِ حَيّاً ومَيِّتاً الشَّيْءُ الكَثِيرُ ، خُصُوصاً في (الطَّبَقاتِ الكُبْرَى) ، ناهِيكَ عَمَّا دُسَّ في كُتُبِ (الحاتِمِي) ، و(ابْنِ سَبْعِينَ) وغَيْرِهِما ، وما افْتُرِيَ عَلَى (الحَلَّاجِ) و(الشُّشْتُرى) ، و(الصَّدْرِ القُونَوِي) ، و(التِّلِمْسانِي) مِنْ تُرَّهاتٍ وأَباطِيلَ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، ومِنْ ذَلِكَ الكِذْبَةُ الكُبْرَى الَّتي نُسِبَتْ لِبَعْضِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ ، وهُمْ مَنْ هُمْ عِلْماً وعَمَلاً ، حَيْثُ اتُّهِمُوا زُوراً وبُهْتاناً بِالقَوْلِ بِالحُلُولِ أَوِ الاتِّحادِ ، ويالَيْتَ الأَمْرَ قَد تَوَقَّفَ عِنْدَ ذَلِكَ ، بَلْ قَد تَجاوَزَ جُهَّالُ خُصُومِهِم وذَوُو المَآرِبِ المَشْبُوهَةِ الحَدَّ عِنْدَما نَسَبُوا المُنْكَراتِ مِنَ الأَفْعالِ والمُخالَفاتِ إِلَيْهِم ، وهُمْ مِنْها بَراء .

ثُمَّ جاءَتِ الطَّامَّةُ الَّتي ما بَعْدَها طامَّةٌ مِنْ قِبَلِ أُولَئِكَ المُتَعالِمينَ مِنْ

مُبَشِّرِينَ ومُسْتَشْرِقِينَ وغَيْرِهِم مِمَّنْ أَرادُوا سَلْخَ رُوحِ الإسْلامِ عَنْ جَسَدِهِ ، مِنْ أَمْثالِ : (فِلْهَوْزَن) و(جُولْد زَيْهَر) الأَلْمانِيَّيْنِ ، و(نِيكِلْسُون) الإنْجِلِيزى ، و(ماسِينْيُون) الفَرَنْسِي ، و(آسِين بِلاثْيُوس) وغَيْرِهِم .

وقَدْ كانَ أَوائِلُ أَئِمَّةِ هَؤُلاءِ المُسْتَشْرِقِينَ مِنْ جَمْعِيَّةِ أَصْحابِ النُّورِ ، وجَمْعِيَّةِ وَرْدَةِ الصَّلِيبِ المُتَفَرِّعَةِ مِنْ جَمْعِيَّةِ البَنَّائِينَ الأَحْرارِ ، وهُمْ فُرُوعُ الماسُونِيَّةِ الَّتِي تُحاوِلُ جُهْدَها أَنْ تُفْسِدَ القِيَمَ الإسْلامِيَّةَ مُنْذُ الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ وحَتَّى الآنَ .

وإنَّ مِمَّا يُثِيرُ العَجَبَ حَقّاً أَنْ تَجِدَ صُوفِيّاً عَظِيماً كالإمامِ الحَلَّاجِ يُثِيرُ اهْتِمامَ مُسْتَشْرِقٍ فَرَنْسِيٍّ كـ(ماسِينْيُون) ، فيُؤَلِّفُ عَنْهُ كِتاباً يَغْدو المَرْجِعَ المَوْثُوقَ في هَذا الشَّأْنِ ، والغَرِيبُ مِنْ أُولِي العِلْمِ أَنْ يُصَدِّقُوا كُلَّ ما يُقالُ مِنْ قِبَلِ هَؤُلاءِ المُسْتَشْرِقِينَ المُغْرِضِينَ ، ويَنْخَدِعُوا بِآرائِهِم وأَفْكارِهِم :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾(٢)

ولْيَقُلْ لي أُولَئِكَ المُنْخَدِعُونَ السَّاذَجُونَ : إذا كانَ أُولَئِكَ المُسْتَشْرِقُونَ وأَمْثالُهُم حَرِيصِينَ عَلَى الإسْلامِ وتُراثِهِ ، فَلِماذا لَمْ يُسْلِمُوا ؟! أَمَّا إنْ كانُوا غَيْرَ حَرِيصِينَ فَلِماذا يُصَدِّقُهُم المُنْخَدِعُونَ ويَهْتَمُّونَ بِأَفْكارِهِم ويَفْتَتِنُونَ بِها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾(٢)

ولابُدَّ لَنا أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ هَؤُلاءِ المُسْتَشْرِقِينَ لَمْ يَأْتِهِمْ وَحْيٌ مِنَ السَّماءِ ، وإنَّما يَسْتَقُونَ مَعْلُوماتِهِم مِنْ مَصادِرِنا العَرَبِيَّةِ الأُمَّهاتِ ، وهِيَ بَيْنَ أَيْدِينا وبِلُغَتِنا

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران الآية ١٨٦ . (٢) سُورَةُ آل عِمْران الآية ١٤٩ .

الَّتي نَتَكَلَّمُ بِها ، فَلِماذا نَتْرُكُ مَصادِرَنا لِمَصادِرِهِمْ وآراءَ عُلَمائِنا لآرائِهِمْ ؟.
واللهِ لَنْ نَحْصُدَ مِنَ الشَّوْكِ إلَّا الحِصْرَم ، ولَنْ نَجِدَ عِنْدَ نافِخِ الكِيرِ إلَّا الأَذَى
نَعَم .. نَحْنُ نَقْرَأُ مُؤَلَّفاتِهِم وبُحُوثَهُم ولَكِنْ قِراءَةَ النَّاقِدِ الحاذِقِ الحَذِرِ الَّذي يُمَيِّزُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ والدَّواءَ مِنَ الدَّاء .

ونَعُودُ إلَى قَضِيَّةِ الدَّسِّ عَلَى الصُّوفِيَّةِ، يَقُولُ الشَّيْخُ (عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعَراني) مُتَحَدِّثاً عمَّا دَسَّهُ عَلَيْهِ خُصُومُهُ في كُتُبِهِ :

(ومِمَّا مَنَّ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى بِهِ عَلَيَّ صَبْري عَلَى الحَسَدَةِ والأَعْداءِ ، لَمَّا دَسُّوا في كُتُبِي كَلاماً يُخالِفُ الشَّرِيعَةَ ، وصاروا يَسْتَفْتُونَ عَلَيَّ زُوراً وبُهْتاناً ، ومُكاتَبَتُهُم فِيَّ لِبابِ السُّلْطانِ ونَحْوِ ذَلِك)(١) .

فالدَّسُّ كانَ مُنْذُ زَمَنٍ ، وقَدِامْتَهَنَهُ بَعْضُ مَنْ لا يَخافُ اللهَ تَعالَى ، وصَدَّقَهُ البَعْضُ بِسُوءِ نِيَّةٍ أَو بِسَذاجَةٍ قَدِيماً وحَدِيثاً .

ويُوَضِّحُ (الشَّعَرانِيُّ) بَعْضاً مِنْ مُعاناتِهِ الشَّخْصِيَّةِ مِنَ الدَّسِّ فَيَقُولُ : (ثُمَّ إنِّي لَمَّا صَنَّفْتُ كِتابَ البَحْرِ المَوْرُودِ في المَواثِيقِ والعُهُودِ ، وكَتَبَ عَلَيْهِ عُلَماءُ المَذاهِبِ الأَرْبَعَةِ بِمِصْرَ ، تَسارَعَ النَّاسُ لِكِتابَتِهِ فَكَتَبوا مِنْهُ نَحْوَ أَرْبَعِينَ نُسْخَةً غارَ مِنْ ذَلِكَ الحَسَدَةُ فاحْتالُوا عَلَى بَعْضِ المُغَفَّلِينَ مِنْ أَصْحابِي واسْتَعاروا مِنْهُ نُسْخَتَهُ ، وكَتَبُوا لَهُم مِنْها بَعْضَ كَرارِيسَ ودَسُّوا فِيها عَقائِدَ زائِغَةً ، ومَسائِلَ خارِقَةً لإِجْماعِ المُسْلِمِينَ ، وحِكاياتٍ وسُخْرِياتٍ عَنْ جُحا وابْنِ الرَّاوِنْدِي ، وسَبَكُوا في غُضُونِ الكِتابِ في مَواضِعَ كَثِيرَةٍ حَتَّى كَأَنَّهُم المُؤَلِّفُ ، ثُمَّ أَخَذوا تِلْكَ الكَرارِيسَ وأَرْسَلُوها إلَى سُوقِ الكُتُبِيِّينَ في يَوْمِ السُّوقِ ، وهُوَ مَجْمَعُ طَلَبَةِ العِلْمِ فَنَظَروا في تِلْكَ الكَرارِيسِ ، ورَأَوا اسْمِيَ عَلَيْها ، فاشْتَراها مَنْ لا يَخْشَى اللهَ تَعالَى ، ثُمَّ دارَ بِها عَلَى عُلَماءِ الأَزْهَرِ مِمَّنْ كانَ كَتَبَ عَلَى

---

(١) لَطائِفُ المِنَن (عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعَراني) ج٢ ص٤٢ .

الكِتابِ ومَنْ لَمْ يَكْتُبْ ، فَأَوْقَعَ ذَلِكَ فِتْنَةً كَبِيرَةً)[١].

وفي مِثالٍ آخَر ، نَجِدُ هَؤُلاءِ الدَّسَّاسِينَ يُغَيِّرُونَ ويُبَدِّلُونَ في كُتُبِ الإمامِ (الغَزالِي) ، ومِنْها كِتابُ (مِشْكاةِ الأَنْوارِ) ، حَيْثُ عَرَضُوهُ عَلَى السُّلْطانِ (سِنْجَر) بِقَصْدِ القَضاءِ عَلَى الغَزالي ، ولَكِنَّ اللهَ نَجَّاهُ مِنْهُ[٢] ، وقَدْ بَلَغَ الدَّسُّ مُنْتَهاهُ عَلَى الشَّيْخِ الأَكْبَر (مُحْيِي الدِّينِ بنِ عَرَبي) والشَّيْخ (عَبْدِ الكَرِيمِ الجِيلي) بِنِسَبَةِ القَوْلِ بِالحُلُولِ والاتِّحادِ إِلَيْهِما .

والغَرِيبُ أَنْ نَجِدَ بَعْضاً مِمَّنْ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ يَتْرُكُونَ الأَقْوالَ الصَّحِيحَةَ قَطْعِيَّةَ الصُّدورِ الثَّابِتَةَ عَنْ أَصْحابِها الأُصَلاءِ ، ويُهْرَعُونَ إِلَى الْتِقاطِ الدَّسائِسِ والأَكاذِيبِ مِنْ غَيْرِ الأَبْرارِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى فَسادٍ في نِيَّتِهِم ودَخَلٍ في طَوِيَّتِهِم .

فَمِمَّا ثَبَتَ عَنِ الشَّيْخِ (عَبْدِ الكَرِيم الجِيلى)قَوْلُهُ :

(واعْلَمْ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ لا يُؤَيِّدُهُ الكِتابُ والسُّنَّةُ فَهُوَ ضَلالَةٌ)[٣].

ولَكِنَّ البَعْضَ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَبْحَثَ عَمَّا دَسَّهُ الدَّسَّاسُونَ وافْتَراهُ المُفْتَرونَ فَيَجْعَلَهُ حَقَّاً ، ويَعْمَدَ إِلَى الحَقِّ فَيَطْمَسَهُ ، وفي هَذا ما يُثِيرُ الرَّيْبَ في مَنْهَجِهِ ودَعْوَتِه .

ويَقُولُ الشَّيْخُ الأَكْبَرُ (مُحْيِي الدِّين بنُ عَربي) :

(واعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعالَى واحِدٌ بِالإِجْماعِ ، ومَقامَ الواحِدِ يَتعالَى أَنْ يَحِلَّ فيهِ شَيْءٌ ، أَو يَحِلَّ هُوَ في شَيْءٍ ، أَو يَتَّحِدَ في شَيْءٍ)[٤].

ويَقُولُ : (لا يَجُوزُ لِعارِفٍ أَنْ يَقُولَ : أَنا اللهُ ولَوْ بَلَغَ أَقْصَى دَرَجاتِ القُرْبِ ،

---

(١) لَطائِفُ المِنَن (عَبْدُ الوَهَّاب الشَّعْراني) ج١ ص١٢٧ .

(٢) رَسائِلُ حُجَّةِ الإسْلامِ الغَزالي (د. نور الدِّين آل عَلي) ص٣١ .

(٣) الإنْسانُ الكامِل (عَبْدُ الكَريمِ الجِيلي) ج١ ص١٢٧ .

(٤) اليَواقِيتُ والجَواهِرُ (عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعْراني) ج١ ص٨٠ .

وحاشا لِعارِفٍ مِنْ هَذا القَوْلِ حاشاهُ ، إِنَّما أَنا العَبْدُ الذَّلِيلُ في المَسِيرِ والمَقِيلِ) [١].

ويَقُولُ : (القَدِيمُ لا يَكُونُ قَطُّ مَحَلاًّ لِلْحَوادِثِ ولا يَكُونُ حالاًّ في المُحْدَث) [٢]

ويَقُولُ : (مَنْ قالَ بِالحُلُولِ فَهُوَ مَعْلُولٌ ، فَإِنَّ القَوْلَ بِالحُلُولِ مَرَضٌ لا يَزُولُ ، وما قالَ بِالاتِّحادِ إِلَّا أَهْلُ الفَسادِ ، كَما أَنَّ القائِلَ بِالحُلُولِ مِنْ أَهْلِ الجَهْلِ والفُضُولِ) [٣].

إِنَّ أَمْثالَ هَذِهِ النُّصُوصِ الواضِحَةِ القاطِعَةِ الثَّابِتَةِ هِيَ المُحْكَماتُ في فَهْمِ عُلُومِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ وأَفْكارِهِم ، وماسِواها مِمَّا يُخالِفُها ، إِمَّا كَذِبٌ لا يُؤْبَهُ لَهُ ، وإِمَّا غامِضٌ أَو مُتَشابِهٌ يَنْبَغِي تَفْسِيرُهُ وتَأْوِيلُهُ بِما يَتَناسَبُ والنُّصُوصَ المُحْكَمَةَ البَيِّنَة .

ولَعَمْرِي كَيْفَ يَتَصَوَّرُ عاقِلٌ أَنْ يَحِلَّ الواجِبُ القَدِيمُ في الجائِزِ المُحْدَثِ ، فَإِنَّ هَذا يَسْتَلْزِمُ حُدوثَ القَدِيمِ أَو جَوازَ الواجِبِ !! .

بَلِ الغَرِيبُ أَنْ يَتَصَوَّرَ إِنْسانٌ حُلُولَهُ (تَقَدَّس وتَنَزَّهَ) في مَخْلُوقٍ حَيَواناً كانَ أَمْ جَماداً ، ويَغْفَلَ عَنْ أَنَّ هَذا يُؤَدِّي إِلَى احْتِمالِ حُلولِهِ (سُبْحانَهُ) في امْرَأَةٍ تُنْكَحُ وتَحْبَلُ وتَلِدُ !!

إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ مُبِينٌ ، غُفْرانَكَ رَبَّنا وعَفْوَكَ ، تَنَزَّهْتَ وتَعالَيْتَ عَنْ أَنْ تَحِلَّ في الحَوادِثِ الفانِيَةِ أَو تَحِلَّ بِكَ ، ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

(١ ، ٢ ، ٣) اليَواقِيتُ والجَواهِرُ (عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعْرانِي) ج ١ ص٨٠ .

تحققهم بمظهر وجوهر
الجهاد الأكبر والأصغر

تحققهم بمظهر وجوهر
الجهاد الأكبر والأصغر

ولَقَدْ كانَ الظَّنُّ بِهَؤُلاءِ (الصُّوفِيَّةِ) الَّذينَ لاذُوا بِشِعابِ الجِبالِ فِراراً بِأَنْفُسِهِم مِنَ الفِتَنِ أَنْ يَحْصُروا مَطْلَبَ الجِهادِ في جِهادِ النَّفْسِ ، إذْ ما كانَ يَشْغَلُهُم في حَياتِهِم مِثْلُ أَنْفُسِهِم الَّتي لَم يَكُونُوا لِيَرْضَوا لَها دُونَ الكَمالِ مَقاماً ، وهُم في هَذا يُقِيمُونَ الجِهادَ الَّذي سَمَّاهُ الرَّسُولُ الأَعْظَم ﷺ الجِهادَ الأَكْبَر .

ولَكِنَّ (أَهْلَ اللهِ) مِنْ رِجالِ التَّصَوُّفِ الحَقِّ وقَدْ تَحَقَّقَ لَهُم (التَّكامُلُ الدِّينِيُّ) عَلَى أَفْضَلِ نَسَقٍ ، ما كانَ يَفُوتُهُم للهِ واجِبٌ ، ذَلِكَ أَنَّهُم نَماذِجُ كامِلَةٌ في كُلِّ مَيْدانٍ مِنْ مَيادِينِ الإِسْلامِ (رُوحانِيَّةً وشَرِيعَةً) ، ولِهَذا فَقَدْ رَأَيْناهُم أَيْضاً في ساحاتِ الوَغَى فَوْقَ أَراضي الجِهادِ والقِتالِ في كُلِّ المَعارِكِ الفاصِلَةِ الَّتي كانَتْ تَدُورُ بَيْنَ الإِسْلامِ وخُصُومِهِ ، بَلْ إِنَّنا لَنَراهُم أَكْثَرَ المُقاتِلينَ غِبْطَةً بِالمَوْتِ واسْتِبْسالاً في سَبِيلِ اللهِ ، ورَأَيْنا كَذَلِكَ أَفْكارَهُم وكَلِماتِهِم في هَذا السِّياقِ أَفْكارَ غَيارَى وكَلِماتِ أَبْرارٍ بَلَغُوا الذُّرْوَةَ في حُسْنِ الفَهْمِ عَنِ اللهِ ، والفَهْمِ لِدِينِهِ الحَنِيف .

فَهَذا (يَحْيَى بنُ أَبي كَثِيرٍ ، ت : ١٢٩ هـ) يَقُولُ :

(سِتُّ خِصالٍ مَنْ كُنَّ فيهِ ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإيمانَ : قِتالُ أَعْداءِ اللهِ بالسَّيْفِ ، والصِّيامُ في الصَّيْفِ ، وإِسْباغُ الوضُوءِ في اليَوْمِ الشَّاتي ، والتَّبْكِيرُ إِلَى الصَّلاةِ في اليَوْمِ المَطِيرِ ، وتَرْكُ الجِدالِ والمِراءِ والحَقُّ مَعَكَ ، والصَّبْرُ عَلَى المُصِيبَةِ)(١)

فَهُوَ يَجِيءُ بِأُمُورٍ تَتَّصِلُ بِالعِبادَةِ أَساساً ، ولَكِنَّها مَعَ كَوْنِها عِبادَةً فَهِيَ وسِيلَةٌ

---

(١) حِلْيَةُ الأَوْلِياء (أَبُو نُعَيْم الأَصْبَهاني) ٣/ ٢٨ .

لِتَرْبِيَةِ النَّفْسِ وتَفَوُّقِها عَلَى ضَعْفِها في كُلِّ مَجالاتِ الحَياة .

فَهُوَ لا يَتَحَدَّثُ عَنْ مُجَرَّدِ الصَّوْمِ . بَلْ عَنِ الصَّوْمِ في الصَّيْفِ وهُوَ مِنْ مَكارِهِ النَّفْسِ ، لِما فيهِ مِنْ إرْهاقٍ ومَشَقَّةٍ . ولا يَتَحَدَّثُ عَنْ مُجَرَّدِ الوضُوءِ أَو الصَّلاةِ ، بَلْ عَنْ إسْباغِ الوضُوءِ بِمَعْنَى إتْقانهِ في اليَوْمِ الزَّمْهَرِيرِ ، وعَنِ التَّبْكِيرِ إلَى الصَّلاةِ في اليَوْمِ المَطِيرِ ، وهُما أَيْضاً مِنْ مَكارِهِ النَّفْسِ دائِماً أَو غالِباً .

وهَكَذا ، نَرَى في وَضْعِهِ (قِتالَ الأَعْداءِ بِالسَّيْفِ) عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الخِصالِ السِّتِّ تِبْياناً لِجُزْءٍ مِنْ عَقِيدَةِ الصُّوفِيَّةِ في هَذا الشَّأْنِ . فالجِهادُ عِنْدَهُم لَيْسَ ذَلِكَ الفَرْضَ الدِّينِيَّ العَظِيمَ فَحَسْب ، ولَيْسَ تِلْكَ القُرْبَةَ الحافِلَةَ للهِ ولِرَسُولِهِ ولِدينِهِ فَقَط ، وإِنَّما هُوَ أَيْضاً مَظْهَرُ انْتِصارِ النَّفْسِ عَلَى مَكارِهِ الطَّاعاتِ ، وهُوَ الأَمْرُ الَّذى يَسْعَى (أَهْلُ اللهِ) أَوَّلَ ما يَسْعَوْنَ لِتَحْقِيقِهِ وإِحْرازِهِ ، إِذْ هُوَ الجِهادُ الأَكْبَرُ كَما سَمَّاهُ الحَبِيبُ الأَعْظَمُ ﷺ .

ومَعَ ذَلِكَ لاتَراهُم يَتَجاهَلُونَ الجِهادَ والقِتالَ في سَبِيلِ اللهِ ، بَلْ إِنَّهُم يُذَكِّرونَ النَّاسَ عَلَى الدَّوامِ ، ويُؤَكِّدونَ أَنَّ الجِهادَ في سَبِيلِ اللهِ وسِيلَتُهُم لِلنَّجاةِ مِنْ عَذابِهِ وتَبَوُّءِ جَنَّتِهِ في الآخِرَةِ ، وطَرِيقُهُم لإِقامَةِ دِينِهِ وشَرِيعَتِهِ في الدُّنْيا .

يَقُولُ الفَقِيهُ الثِّقَةُ (مَكْحُولُ الدِّمَشْقِي) رَحِمَهُ اللهُ :

(عَيْنانِ لايَمَسُّهُما العَذابُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وعَيْنٌ سَهِرَتْ مِنْ وَراءِ المُسْلِمينَ)(١) . يَعْني عُيونَ المُقاتِلينَ الَّتي تَسْهَرُ لِتَحْمِيَ التُّخُومَ ، وتُوَفِّرَ الطُّمَأْنِينَةَ ، وتُحَقِّقَ النَّصْرَ .

ويَقُولُ (يَحْيَى بنُ أَبِي كَثِير) :

(مَوْطِنانِ تَزَّخْرَفُ فِيهِما الجَنَّةُ ، وتَزَّيَّنُ الحُورُ العِين : عِنْدَ الصَّلاةِ ، وعِنْدَ

(١) حِلْيَةُ الأَوْلِياء (أبونُعَيْم الأصْبَهاني) ٥ / ١٨٠ .

القِتال)[١].

ويَلِحُّ أُولَئِكَ الأَبْرارُ عَلَى تَمْجِيدِ القِتالِ في سَبِيلِ اللهِ إِلْحاحاً يُثِيرُ الدَّهْشَ حَقّاً فالعَهْدُ بِهِم رِجالُ صَوامِعَ ونُسُكٍ ، ولَكِنْ ، مَنْ ذا الذَّي يَفْهَمُ دِينَ اللهِ مِثْلَ فَهْمِهِمْ ؟ ومَنِ الَّذي يَعِي كَوَعْيِهِم مَتَى يَمْلَأُونَ صَوامِعَهُم بِالدُّمُوعِ المُنْثالَةِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، ومَتَى يَمْلَأُونَ أَرضَ المَعارِكِ بِدِمائِهِم المُهْراقَةِ في سَبِيلِ اللهِ .

مِنْ أَجْلِ هَذا ، لَيْسَ مِنْ صائِبِ الفِكْرِ الظَّنُّ بِأَنَّ الجِهادَ غَرِيبٌ عَنِ الصُّوفِيَّةِ ، كَيْفَ وهُم العارِفُونَ بِأَنَّ ما قَدَّرَهُ اللهُ لاشَكَّ كائِنٌ ، وما لَم يُقَدِّرْهُ لَم يَكُنْ ؟! ، وهُم المُوقِنُونَ كَذَلِكَ بِأَنَّ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى ؟! لِأَيِّ شَيْءٍ يَدَّخِرُ الصُّوفِيَّةُ مُهَجَهُم وأَرْواحَهُمْ إِنْ لَمْ يَبْذُلُوها عَنْ رِضًى وسُرورٍ في طاعَةِ اللهِ وفي سَبِيلِه .

وبِطَبِيعَةِ الحالِ ، فَإِنَّ المَقامَ لا يَسَعُنا لِكَيْ نَسْرِدَ كُلَّ مَظاهِرِ الجِهادِ الصُّوفِيِّ عَبْرَ التّارِيخِ ، بِما فِيهِ مِنْ مِئاتِ الأَبْطالِ والمُجاهِدِينَ ، سَواءٌ في حِمايَةِ الثُّغُورِ أَو في صَدِّ الغُزاةِ . مِنْ أَجْلِ هَذا نَكْتَفِي بِاسْتِعْراضِ بَعْضِ النَّماذِجِ المُشَرِّفَةِ مِنْ سِيَرِهِمْ وأَحْوالِهِمْ :

جِهادُ (عَمْرو بنِ عُتْبَة)

يَخْرُجُ لِلْجِهادِ ضِدَّ الرُّومِ وعَلَيْهِ حُلَّةٌ جَدِيدَةٌ بَيْضاءُ ، يَتَمَلَّاها ويَتَأَمَّلُها طَوِيلاً ثُمَّ يَقُولُ : (ما أَحْسَنَ الدَّمَ يَتَحَدَّرُ عَلَى هَذهِ !! ، وإِنِّي سَأَلْتُ اللهَ ثَلاثاً ، فَأَعْطانِي اثْنَيْنِ ، وأَنا أَنْتَظِرُ الثّالِثَةَ : سَأَلْتُهُ أَنْ يُزَهِّدَنِي في الدُّنْيا ، فَما أُبالِي ما أَقْبَلَ مِنْها وما أَدْبَرَ ، وسَأَلْتُهُ أَنْ يُقَوِّيَنِي عَلَى الصَّلاةِ - أَي عَلَى الإِكْثارِ مِنْها - فَرَزَقَنِيها ، وسَأَلْتُهُ الشَّهادَةَ في سَبِيلِهِ فَأَنا أَنْتَظِرُها وأَرْجُوها) .

ثُمَّ اقْتَحَمَ المَعْرَكَةَ كالإِعْصارِ ، حَتَّى إِذا أَصابَهُ أَوَّلُ جِراحِها ، نَظَرَ إِلَيْهِ فَقالَ إِنَّكَ جُرْحٌ صَغِيرٌ ، وقَدْ يُبارِكُ اللهُ في الصَّغِيرِ !!

---

(١) حِلْيَةُ الأَوْلِياء (أَبُونُعَيم الأَصْبَهاني) ٣ / ٧٠ .

يَعْنِي : أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَبَباً كافِياً للاسْتِشْهاد) .

ونالَ في ذَلِكَ اليَوْمِ ما تَمَنَّى ، ولَقِيَ اللهَ في عُرْسِ المُتَّقِين !!

وكانَ قَدِ اشْتَرَى قَبْلَ خُروجِهِ لِلْقِتالِ فَرَساً بِثَمَنٍ مُرْتَفِعٍ (أَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَمٍ) فَلامَهُ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكانَ جَوابُهُ :

(إِنَّ خَطْوَةً واحِدَةً يَخْطُوها في سَبِيلِ اللهِ ، ويُقَرِّبُنِي بِها مِنْ أَعْدائِهِ ، لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَم)[1].

أَجَلْ ، إِنَّهُم لا يُقاتِلُونَ وحَسْب ، بَلْ يُمارِسُونَ القِتالَ في نَشْوَةِ المُحِبِّ العاشِقِ الوَدُود !!

إِنَّ أَمْثالَ تِلْكَ المَواقِفِ في ساحاتِ الجِهادِ لَتَكْشِفُ بِجَلاءٍ وبُرْهانٍ عَنْ تَكامُلِ شَخْصِيَّةِ الإِنْسانِ المُسْلِمِ المُؤْمِنِ الصُّوفِيِّ الوَلِيِّ عَلَى نَمَطٍ فَرِيدٍ ، إِذ إِنَّ الهُيامَ والانْجِذابَ والوَجْدَ الَّذي يَغْشاهُمْ ويَمْلَأُ قُلُوبَهُم بِالفَرَحِ والشَّوْقِ حِينَما يَذْكُرونَ اللهَ ويَعْبُدونَهُ ، هُوَ نَفْسُهُ ذَلِكَ الهُيامُ الَّذي يُعانِقُونَ بِهِ سُيُوفَهُم فَوْقَ أَرْضِ القِتالِ في سَبِيلِ اللهِ !! ولِذَلِكَ يُرَدِّدُ أَحَدُهُم في أَرْضِ القِتالِ ، (وهذا حالُ جَمِيعِهِم) :

وَلَسْتُ أُبالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً * عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كانَ في اللهِ مَصْرَعِي

وذَلِكَ في ذاتِ الإِلَهِ وإِنْ يَشَأْ * يُبارِكْ عَلَى أَوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

لَقَدْ أَرادَ (عَمْرو بنُ عُتْبَةَ) أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ أَنَّ الصُّوفِيَّ دَأْبُهُ الإِتْقانُ في أَداءِ فُروضِ اللهِ ، ولِذَلِكَ لَمْ يَكْتَفِ بِمُجَرَّدِ فَرَسٍ صالِحٍ لأَنْ يُقاتِلَ فَوْقَ ظَهْرِهِ ، بَلْ كانَ لابُدَّ لَهُ أَنْ يَتَفَنَّنَ في شِرائِهِ وأَنْ يُمْهِرَهُ أَغْلَى المُهُورِ والأَثْمان .

ثُمَّ هاهُوَ ذا يَتَمَلَّى ثَوْبَهُ النَّاصِعَ الَّذى ارْتَداهُ لِلْمَعْرَكَةِ خاصَّةً ، ويَرَى كَمْ هُوَ جَمِيلٌ ، ولَكِنَّ المَشْهَدَ لَنْ يَكُونَ فائِتاً حَقَّاً فى نَظَرِهِ إِلَّا إِذا ضَمَّخَ دَمُهُ القانِي

(١) انْظُر: (الجِهاد) لِعَبْدِ اللهِ بنِ المُبارَك - ت ١١٨هـ - ج ١ / ١١١ . (حِلْيَة الأَوْلِياء) ج ٤ / ١٥٩ .

هَذا الثَّوْبَ الجَديد .

ثُمَّ يَخْرُجُ ، فَيُداعِبُ جُرْحَهُ قائِلاً :

(إِنَّكَ جُرْحٌ صَغِيرٌ ، وقَدْ يُبارِكُ اللهُ في الصَّغِير) .

نَعَم .. إِنَّهُ عاشِقٌ يُغَنِّى لِمَوْعِدِهِ المَرْقُوبِ !! ، ومُتَيَّمٌ بِلِقاءِ اللهِ ، يُغَرِّدُ لِمَصِيرِهِ !! وكُلُّهُم ذَلِكَ الرَّجُل ، بَلْ أُولَئِكَ الرِّجال .

جِهادُ السَّيِّد (أَحْمَد البَدَوِي)

وهُوَ القُطْبُ الشَّهِيرُ ، وأَحَدُ أَرْكانِ الوِلايَةِ الَّذِينَ اجْتَمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَى اعْتِقادِ وِلايَتِهِمْ ومَحَبَّتِهِمْ ، وشَأْنُهُ في ساحاتِ الجِهادِ شَأْنٌ لا يُنْكَر ، فَدَوْرُهُ المُشَرِّفُ والشُّجاعُ مَعْرُوفٌ في الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ ، وما اسْتَحْدَثَهُ في ذَلِكَ الوَقْتِ مِنْ نِظامٍ عَسْكَرِيٍّ ، قَسَّمَ بِمُوجِبِهِ أَتْباعَهُ إِلَى فِرَقٍ وكَتائِبَ ، جَعَلَ عَلَيْها المُقَدِّمِينَ النُّقَباءَ ، وكَأَنَّهُ تَعَلَّمَ في أَرْقَى الكُلِّيّاتِ العَسْكَرِيَّةِ ، وبِمُرِيدِيهِ وأَتْباعِهِ يُكَوِّنُ الإِمامُ (البَدَوِيُّ) جَيْشاً لَجِباً فاعِلاً في تِلْكَ المعارِكِ الرَّهِيبَةِ آنَئِذٍ .

وإِذا كانَ النَّاسُ مِنْ أَهالي (دِمَشْقَ) الشَّام ، لا يَزالُونَ إِلَى يَوْمِنا هَذا يُرَدِّدُونَ أَنْشُودَةً قَدِيمَةً تَرْجِعُ إِلَى القَرْنِ السَّادِسِ الهِجْري ، عِنْدَما كانَ الشَّيْخُ (أَرْسَلان) الدِّمَشْقِيَ ، بَطَلُ الأَبْطالِ وفَخْرُ الرِّجالِ ، يُقِيمُ في رِباطِهِ الَّذي بَناهُ خارِجَ أَسْوارِ دِمَشْقَ لِيَكُونَ مَعَ مُرِيدِيهِ في حِراسَةِ المَدِينَةِ مِنْ خارِج وحَتَّى يَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يَلْقَى العَدُوَّ الصَّلِيبِيَّ المُباغِتَ ، فَحَمَلَ لَهُ أَهْلُ دِمَشْقَ هَذا الصَّنِيعَ ، وخَلَّدوا بُطُولَتَهُ لِتُصْبِحَ عَلَى مَرِّ الزَّمانِ قُدْوَةً لِكُلِّ شُجاعٍ ، ومَنْ أَوْلَى بِالتَّغَنِّي بِذِكْراهُ مِنَ الأَبْطال :

شِيخ رَسْلان * يا شِيخ رَسْلان

يا حامِي البَرِّ * والشَّام (1)

---

(1) البُطُولَةُ والفِداءُ عِنْدَ الصُّوفِيَّة لـ(أَسْعَد الخَطِيب) .

فإذا كانَ هَذا نَمُوذَجاً طَيِّباً لِتَخْلِيدِ البُطُولَةِ في بِلادِ الشَّامِ ، فَإِنَّ مِصْرَ المَحْروسَةَ تُفاخِرُ كَذَلِكَ بِمُجاهِدِيها وأَبْطالِها ، ولاسِيَّما مَنْ كانُوا مَناراتِ هُدَىً في دِينِ اللهِ ، فَلا تَزالُ أَناشِيدُ العِزِّ والفَخارِ تَتَرَدَّدُ وتُذَكِّرُ الخَلائِقَ كافَّةً بِجِهادِ السَّيِّد (أَحْمَد البَدَوِي) وأَتْباعِهِ ، وما كانَ مِنَ اسْتِبْسالِهِ وفِكاكِهِ لِلأَسْرَى :

اللهِ ... اللهِ .. يا بَدَوِي * جابَ الأَسْرَى

اللهِ ... اللهِ .. يا بَدَوِي * جابَ اليُسْرَى

ولَقَدِ اشْتُهِرَ عَنِ السَّيِّد (أَحْمَدَ البَدَوِيِّ) أَنَّهُ كانَ كَجَدِّه الإمامِ (عَلِيٍّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، يُقاتِلُ بِسَيْفَيْنِ مَعاً ، ويُسَجِّلُ شِعْرُهُ بَعْضاً مِن ذَلِكَ إِذ يَقُولُ :

أَنا الأَسَدُ القَتَّالُ في حَوْمَةِ الوَغَى

إِذا جُلْتُ في الأَعداءِ يَنْهَزِمُ الكُلُّ

أَنا صاحِبُ الرُّمْحَيْنِ في أَرْضِ مَكَّةَ

لِيَ البَأْسُ في الهَيْجا إِذا رَكَضَ الخَيْلُ

ولا يَغِيبُ عَنْ أَذْهانِنا ما كانَ يَسْتَلْزِمُ إِعْدادَ ذَلِكَ الجَيْشِ المُؤْمِنِ مِنْ ذَخِيرَةٍ وأَسْلِحَةٍ وخَيْلٍ ومُؤَنٍ وعُدَّةٍ وعَتادٍ وما إِلَى ذَلِكَ ، وإِنَّ ذَلِكَ لَيُذَكِّرُنا حَقّاً بِالأَسْلافِ الطَّاهِرِينَ وهُمْ يَنْطَلِقُونَ مِنْ صَحَراءِ الجَزِيرَةِ لِيُحارِبُوا أَعْتَى الجُيُوشِ وأَقْواها في ذَلِكَ الحِينِ ، فَيَنْتَصِرُونَ عَلَى الرُّومِ في (أَجْنادِينَ) و(اليَرْمُوكِ) ، ويُجْبِرُونَ (هِرَقْلَ) مَلِكَ الرُّومِ عَلَى الانْسِحابِ إِلَى ما وَراءِ جِبالِ طُورُوسَ عامَ (١٥ هـ - ٦٣٦ م) ، ويَنْتَصِرُونَ في (القادِسِيَّةِ) عَلَى جُيُوشِ (يَزْدَجِرْدَ الثَّالِث) ، بَلْ يُخْضِعُونَ (المَدائِنَ) عاصِمَةَ إِمْبراطُورِيَّةِ (الفُرْسِ) للسَّيْطَرَةِ الإِسْلامِيَّةِ عامَ (١٧ هـ - ٦٣٨ م) .

إنَّ الفُتُوَّةَ في دِينِ اللهِ ماضِيَةٌ ما بَقِيَ الدِّينُ ، ولا يَحْتَمِلُها إلَّا أَهْلُ اللهِ مِنْ ذَوِي الهِمَمِ الأَكابِرِ ، فَهُمْ يَتَوارَثُونَها كابِراً عَنْ كابِرٍ ، وهَذا الشِّبْلُ مِنْ ذاكَ الأَسَد .

جِهادُ الشَّيْخ (أَبِى الحَسَنِ الشَّاذِلي)

أَمَّا عَنْ دَوْرِ الصُّوفِيِّ الجَلِيلِ (أَبِى الحَسَنِ الشَّاذِلي) فَتَراهُ جَلِيًّاً في مَدِينَةِ المَنْصُورَةِ عامَ (٦٤٢هـ) ، وقَدْ تَجاوَزَ السِّتِّينَ مِنْ عُمْرِهِ وكُفَّ بَصَرُهُ ، نَراهُ يُساهِمُ في المَعْرَكَةِ قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِ ، حَتَّى كانَتِ المَعْرَكَةُ شُغْلَهُ بِالنَّهارِ واللَّيْلِ فَبِالنَّهارِ يَمُرُّ بِسَمْتِهِ الوَقُورِ وهَيْبَتِهِ الإيمانِيَّةِ ، والنُّورُ يُشْرِقُ مِنْ ثَنايا وَجْهِهِ الكَرِيمِ المُبارَكِ بَيْنَ الجُنُودِ مُبَشِّراً بِالنَّصْرِ أَو الاسْتِشْهادِ ، وفِي اللَّيْلِ يَدْعُو اللهَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ ، وفي لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيالي رَأَى الشَّيْخُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فى الرُّؤْيا يُبَشِّرُهُ بِنَصْرِ المُسْلِمِينَ ، فَبَشَّرَ الشَّيْخُ بِدَوْرِهِ المُسْلِمِينَ فاسْتَبْشَروا وكانَ ما قالَهُ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ ﷺ .

إنَّ مَوْقِفاً كَهَذا مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ حارَبُوا الصَّلِيبِيِّينَ بِالأَمْسِ ، وقَهَروهُم ، وأَسَروا مُلُوكَهُم وكُبَراءَهُم ، وطَهَّروا البِلادَ مِنْ أَدْناسِهِم لَيُجَلِّى لَنا كَيْفَ أَنَّهُم كانُوا يُحِبُّونَ أَولِياءَ اللهِ ويُوالُونَهُم ، ويَتَأَدَّبُونَ بِهِم ، ويَلْتَفُّونَ حَوْلَهُم ، ويَتَناقَلُونَ أَخْبارَهُم ، ويَتَغَنَّوْنَ بِمآثِرِهِمْ وجَمِيلِ صِفاتِهِمْ لِتَكُونَ مَنْهَجَ عِبادَةٍ وحَياة .

أَمَّا الَّذِينَ انْهَزَمُوا اليَوْمَ أَمامَ الصَّلِيبِيِّينَ ، بَلْ أَعْجَبَتْهُم طَرائِقُهُم وعاداتُهُم ، فَقَد تَجَرَّعُوا سُمُومَهُم ومَضارَّهُم ، وهُمْ يَحْسَبُونَها ماءً زُلالاً ، وشَراباً قُراحاً فَإذا بِها تَمْحَقُ قُواهُم وتُضْعِفُ بَأْسَهُم ، فَتَراهُم أَذِلَّةً خانِعِينَ جُبَناءَ ، وإنَّ مِمَّا يُثِيرُ العَجَبَ حَقَّاً أَنْ يَتَطاوَلَ هَؤُلاءِ الأَقْزامُ المُنْهَزِمُونَ لِيُنْكِروا عَلَى الأَبْطالِ بُطُولاتِهِم وعَلَى الأَوْلِياءِ كَراماتِهِم الَّتى مَنَحَها اللهُ إيَّاهُم ثَواباً عَلَى جِهادِهِم واجْتِهادِهِم ، ودَلِيلاً عَلَى صِدْقِهِم وطَهارَتِهِم ، وتَفانِيهِم في

مَحَبَّةِ اللهِ ومُوالاةِ أَوْلِيائِهِ وحَرْبِ أَعْدائِه !!

جِهادُ (العِزِّ بنِ عَبْدِ السَّلام)

لَقَدْ كانَ (العِزُّ بنُ عَبْد السَّلامِ) شَيْخَ الإِسْلامِ بِحَقٍّ ، وسُلْطانَ العُلَماءِ بِجَدارَةٍ ، فَقَدْ بَرَعَ في الفِقْهِ والأُصُولِ وبَلَغَ رُتْبَةَ الاجْتِهادِ ، وكَمَّلَ ذَلِكَ بِأَنْ أَخَذَ الطَّرِيقَ الصُّوفِيَّ مِنَ الشِّهابِ (السَّهْرَوَرْدِي) ، وكانَ كَذَلِكَ يَحْضُرُ عِنْدَ الشَّيْخِ (أَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلي) ، ويَسْمَعُ كَلامَهُ في الحَقِيقَةِ ويُعَظِّمُهُ .

أَمَّا مآثِرُهُ في مَيادِينِ الجِهادِ فَكَثِيرَةٌ شَهِيرَةٌ ، وهاكَ نَمُوذَجَيْنِ مِنْها :

❁ أَوَّلاً : جِهادُهُ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ : وذَلِكَ عِنْدَما جاءَتْ حَمْلَتُهُم إِلَى دِمْياط بِجُمُوعٍ كَثِيرَةٍ ، وكانَتِ النُّصْرَةُ أَوَّلاً لِلفِرِنْجَة ، وكانَ الشَّيْخُ (عِزُّ الدِّينِ بن عَبْدِ السَّلام) في عَسْكَرِ المُسْلِمِينَ ، فَقالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُشِيراً بِيَدِهِ إِلَى الرِّيحِ : (يا رِيحُ خُذِيهِم) عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، فَعادَتِ الرِّيحُ عَلَى مَراكِبِ الفِرِنْجَةِ فَكَسَّرَتْها وكانَ الفَتْحُ ، وغَرِقَ أَكْثَرُ الفِرِنْجَةِ ، وصَرَخَ مِنْ بَيْنِ يَدَي المُسْلِمِينَ صارِخٌ : الحَمْدُ للهِ الَّذي أَرانا في أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَجُلاً سَخَّرَ اللهُ لَهُ الرِّيحَ) .

وأُسِرَ الفَرَنْسِيسُ مَلِكُ الإِفْرِنْج (لِوِيسُ التَّاسِع) وحُبِسَ مُقَيَّداً بِدار (ابْنِ لُقْمانَ) بِالمَنْصُورَةِ ، وكانَ ذَلِكَ يَوْمَ الأَرْبعاءِ ثالِثَ المُحَرَّم (٦٤٨ هـ) [١] .

❁ ثانِياً : جِهادُهُ ضِدَّ التَّتار : وذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا جاءَتِ الأَخْبارُ بِوُصُولِ التَّتارِ إِلَى الشَّامِ ، وكانَ ذَلِكَ في شَهْرِ رَمَضانَ ، أَعَدَّ السُّلْطانُ (سَيْفُ الدِّينِ قُطُز) أُمُورَهُ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِم بِالعَساكِرِ المِصْرِيَّةِ بَعْدَ العِيد ، فَطَلَعَ الشَّيْخُ (العِزُّ بنُ عَبْدِ السَّلامِ) إِلَيْهِ وقالَ لَهُ : (اخْرُجُوا وأَنا أَضْمَنُ لَكُم عَلَى اللهِ النَّصْرَ) فَقالَ لَهُ السُّلْطانُ : إِنَّ المالَ فى خَزانَتِي قَلِيلٌ ، وأَنا أُرِيدُ أَنْ أَقْتَرِضَ مِنْ أَمْوالِ التُّجَّار .

---

(١) انْظُر (حُسْنُ المُحاضَرَة) للجَلالِ السُّيُوطي .

فَقالَ لَهُ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين : (إِذا أَحْضَرْتَ ما عِنْدَكَ وعِنْدَ حَرِيمِكَ ، وأَحْضَرَ الأُمَراءُ ما عِنْدَهُم مِنَ الحُلِّي الحَرام ، وضَرَبْتَهُ سَكّاً ونَقْداً ، وفَرَّقْتَهُ في الجَيْشِ ولَمْ يَقُمْ بِكِفايَتِهِم ، في ذَلِكَ الوَقْتِ اطْلُبِ القَرْضَ ، وأَمَّا قَبْلُ فَلا) فَأَحْضَرَ السُّلْطانُ والأُمَراءُ كُلُّهُم ما عِنْدَهُم مِنْ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَي الشَّيْخِ ، وكانَ الشَّيْخُ لَهُ عَظَمَةٌ عِنْدَهُم وهَيْبَةٌ ، بِحَيْثُ لا يَسْتَطِيعُونَ مُخالَفَتَهُ ، فامْتَثَلُوا أَمْرَهُ فانْتَصَروا ، وقَهَروا (المَغُولَ) في مَوْقِعَةِ (عَيْن جالُوت) في رَمَضانَ سَنَةَ(٦٥٨ هـ) .

جِهادُ الأَمِير (عَبْدِ القادِرِ الجَزائِري)

ولا يُذْكَرُ تارِيخُ الجِهادِ في الجَزائِر إِلَّا ويُذْكَرُ الصُّوفِيُّ الشَّهِيرُ صاحِبُ المَواقِفِ ، أَوْحَدُ وَقْتِهِ الأَمِيرُ (عَبْدُ القادِرِ الجَزائِري) .

فَلَقَد كانَ ﷺ أُمَّةً في رَجُلٍ ، فَهُوَ مُحَدِّثٌ صُوفِيٌّ مُجاهِدٌ ، فَقِيهٌ ، مُتَواضِعٌ في عَظَمَتِهِ ، كَريمٌ حَتَّى في مِحْنَتِهِ .

ولَوْلا عَجائِبُ صُنْعِ اللهِ ما ثَبَتَتْ ❋ تِلْكَ الفَضائِلُ في لَحْمٍ ولا عَصَبِ

ولَوْ رُحْنا نَذْكُرُ جِهادَ هَذا الصُّوفِيِّ الكَبِيرِ بِالتَّفْصِيلِ ، ونَتَتَبَّعُهُ في غَدَواتِهِ ورَوْحاتِهِ ضِدَّ الفَرَنْسِيِّينَ المُحْتَلِّينَ ، ونُرافِقُهُ في كَرِّهِ وفَرِّهِ بِرِفْقَةِ إِخْوانِهِ مِنَ المُجاهِدِينَ رَحِمَهُم اللهُ جَمِيعاً ، لَكُنَّا بِحاجَةٍ إِلَى كِتابٍ مُسْتَقِلٍّ ، ولَكِنَّنا سَنَخْتَصِرُ قَدْرَ الإِمْكانِ ، ونَكْتَفِي بِإِحْصائِيَّةٍ ذَكَرَها الكُونْت (سِفْري) في مُؤَلَّفِهِ عَنِ الأَمِيرِ (عَبْدِ القادِرِ) ، حَيْثُ يَقُولُ : (إِنَّ الأَمِيرَ عَبْدَ القادِرِ) قَهَرَ مِائَةً وخَمْسِينَ قائِداً كَبِيراً ، وعَشْرَةَ مُشيرِينَ (مارْشال) وخَمْسَةَ أُمَراءَ مِنَ العائِلَةِ المالِكَةِ وسِتَّةَ عَشَرَ مِمَّنْ تَوَلَّوا وِزارَةَ الحَرْبِيَّةِ ، وجُيُوشاً لا يَقِلُّ عَدَدُها عَنْ مِائَتَي أَلْفِ مُقاتِلٍ ، وهُدِرَ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ مَلايينُ ومِلْياراتٌ مِنَ

الفَرَنْكاتِ زَعْزَعَتْ الاقْتِصادَ الفَرَنسِيَّ ، وعَجَزَتْ الدَّوْلَةُ بَعْدَهُ عَنِ التَّوازُنِ المالِيِّ لأَمَدٍ طَوِيل)[1] .

بَخٍ بَخٍ أَيُّها الأَمِيرُ ، هاهُم أَعْداؤُكَ يَعْتَرِفُونَ بِصِدْقِ جِهادِكَ وقُوَّةِ كِفاحِكَ (والفَضْلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأَعْداءُ) ، فَبِمِثْلِكَ فَلْيَفْتَخِرِ المُفْتَخِرونَ ولْيَتَحَدَّثِ المُتَحَدِّثُون .

وما هَذا في الحَقِيقَةِ إِلَّا غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ تِلْكَ المَسِيرَةِ الجِهادِيَّةِ الظَّافِرَةِ المُبارَكَةِ الَّتي اسْتَمَرَّتْ قُرابَةَ سَبْعَةَ عَشَرَ عاماً .

جِهادُ الشَّيْخ (المُقْراني) والشَّيْخ (الحَدَّاد)

يَقُولُ الدُّكْتُور رَأْفَت الشَّيْخ في كِتابِهِ (تاريخُ العَرَبِ الحَدِيث) :

(إِنَّ زُعَماءَ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ قَدْ ظَلُّوا غَيْرَ مُعْتَرِفِينَ بِالاحْتلالِ الفَرَنْسي ، ومِنْ ثَمَّ دارَتْ مَعارِكُ عَنيفَةٌ بَيْنَ القُوَّاتِ الفَرَنْسِيَّةِ والمُحارِبينَ الجَزائِرِيِّين في بِلادِ القَبائِلِ ، انْتَهَتْ بِإِخْضاعِ البِلادِ عامَ ١٨٥٧ م) .

ويَسْتَفِيضُ الحَدِيثُ عَنْ شَيْخِ الطَّرِيقَةِ الرَّحْمانِيَّةِ (مُحَمَّد المُقْراني) ومُساعِدِهِ الشَّيخ (حَدَّاد) وكَيْفَ قادا ثَوْرَةَ عام ١٨٧١ م في شَرْقِ الجَزائِر)

ويُتابِعُ قائِلاً : (إِنَّ الثَّوْرَةَ في تُونُسَ ضِدَّ الاحْتِلالِ الفَرَنْسِيِّ تَزَعَّمَها رِجالُ الدِّينِ وأَصْحابُ الطُّرقِ الصُّوفِيَّةِ ، الَّذينَ اعْتَبَرَوا الثَّوْرَةَ ضِدَّ الفَرَنْسِيِّينَ جِهاداً إِسْلامِيَّاً ، واتَّخَذَتِ الثَّوْرَةُ مِنْ مَدِينَةِ القَيْرَوانِ ذاتِ التَّارِيخِ الإِسْلامِيِّ العَتِيدِ مَرْكَزاً لَها)[2] .

ولَوْ تَرَكْنا (الجَزائِرَ) وأَبْطالَها ، و(تُونُسَ) وفُرْسانَها وفي طَلِيعَتِهِم أَكابِرُ

---

(١) الأَمِيرُ عَبْدُ القادِر مَلِكُ الأَقْطاعِ المَغْرِبِيَّةِ ، وسُلْطانُ الأَرْباضِ الجَزائِرِيَّةِ (تأليف الكُونْت سِفْرِي) ص ٣٣ ، وكِتاب (تُحْفَةُ الزَّائِرِ في تاريخِ الجَزائِر والأَمِير عَبْد القادِر) ص ١٤ .

(٢) كِتابُ تاريخ العَرَب الحَدِيث (د. رَأْفَت الشَّيْخ) ص ٤٠٦ ، ٤٠٩ .

الصُّوفِيَّةِ ، وانْتَقَلْنا إِلَى شَقِيقَتْها (لِيبْيا) لَوَجَدْنا العَجَبَ العُجاب :

وماذا عَسَى بِالوَصْفِ يَبْلُغُ مَقُولي ❋ ولَوْ مُدَّتِ الأَقْلامُ مِنْ مَدَدِ البَحْرِ

جِهادُ تاجِ المُجاهِدين (أَحْمَد الشَّرِيف السَّنُوسي)

وحَرِيٌّ بِنا أَنْ نَبْتَدِىءَ تَعَرُّفَناعَلَى هَذا المُجاهِدِ العَظِيمِ مِنْ خِلالِ تَعَرُّفِنا عَلَى جَدِّهِ السَّنُوسِي الكَبِير الشَّيْخ (مُحَمَّد بن السَّنُوسِي) عَمِيدِ السَّادَةِ السَّنُوسِيَّةِ ومُؤَسِّسِ طَرِيقَتِهِم ، والَّذي كانَ يُرَبِّى المُرِيدينَ عَلَى العِبادَةِ ومُجاهَدَةِ النَّفْسِ حَتَّى تَصْفُوَ مِنَ الأَهْواءِ ، فَلا يَبْقَى لَها تَعلُّقٌ إِلَّا بِاللهِ ، وكانَ يَقُولُ رضي الله عنه إِنَّ الطُّرُقَ إِلَى اللهِ كَثِيرةٌ بِعَدَدِ أَنْفاسِ الخَلائِقِ ، ولَكِنَّها في الحَقِيقَةِ واحِدَة .

وُلِدَ الشَّيْخُ بِبَلْدَة (مسْتَغانِم) بِالجَزائِر ، ورَحَلَ شَرْقاً بَحْثاً عَنِ المَعْرِفَةِ الصُّوفِيَّةِ ، حَتَّى الْتَقَى بِشَيْخِهِ السَّيِّد (أَحْمَدبنِ إِدْرِيس) رضي الله عنه بِمَكَّةَ ، وبَدَأَ في تَرْبِيَةِ المُرِيدينَ ، ومِنْها انْتَقَلَ إِلَى (بَرْقَة) بِلِيبْيا ، واتَّخَذَ واحَةَ (جَغْبُوب) مَرْكَزاً لِدَعْوَتِهِ ، حَيْثُ قامَ بِنَشْرِ طَرِيقَتِهِ وبِناءِ الزَّوايا في أَنْحاءِ البِلاد .

والزَّاوِيَةُ تُمَثِّلُ نَواةَ مُجْتَمَعٍ مُتَكامِلٍ وَصَفَها (ابْنُ السَّنُوسِي) بِقَوْلِهِ :

(والزَّاوِيَةُ إِذا حَلَّتْ بِمَحَلٍّ نَزَلَتْ فيهِ الرَّحْمَةُ ، وتَعْمُرُ بِها البِلادُ ، ويَحْصُلُ بِها النَّفْعُ لأَهْلِ الحاضِرَةِ والباد ، لأَنَّها ماأُسِّسَتْ إِلَّا لِقِراءَةِ القُرْآنِ ولِنَشْرِ شَرِيعَةِ أَفْضَلِ وَلَدِ عَدْنان صلى الله عليه وسلم) .

تُوفِّيَ الشَّيْخُ (مُحَمَّدُ بنُ عَلِي السَّنُوسِي) سَنَةَ ١٢٧٦ هـ - ١٨٥٩ م ، فَخَلَفَهُ ابْنُهُ (مُحَمَّد المَهْدِي) الَّذي زادَتِ الزَّوايا في خِلافَتِهِ زِيادَةً كَبِيرَةً ، وقَدِ اسْتَشْعَرَ تَحَرُّكَ القُوَى الأُورُوبِيَّةِ ضِدَّهُ ، فانْتَقَلَ مِنْ زاوِيَة (الجَغْبُوب) الَّتي كانَتْ مَرْكَزاً لِلطَّرِيقَةِ إِلَى واحَةِ (الكَفْرَة) ، ثُمَّ إِلَى (قَرْو) في الصَّحْراءِ الإِفْرِيقِيَّةِ ، وراحَ يُعِدُّ أَتْباعَهُ لِجِهادِ الأَعْداءِ فَكانَ يَحُثُّ المُرِيدينَ عَلَى تَعَلُّمِ

رُكُوبِ الخَيْلِ وفُنُونِ القِتالِ والرِّمايَةِ ، ويُعَظِّمُ فَرِيضَةَ الجِهاد .
ولَمَّا كانَتِ الطَّرِيقَةُ السَّنُوسِيَّةُ تَقُومُ عَلَى مَزْجِ العِبادَةِ بِالعَمَلِ ، فَقَدْ خُصِّصَ يَوْمُ الخَمِيسِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ لِلْعَمَلِ اليَدَوِي ، يَشْتَغِلُونَ فِيهِ بِشَتَّى الحِرَفِ ، وكانَ (المَهْدِيُّ) نَفْسُهُ يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ ويَقُولُ لِلْمُرِيدِينَ : (يَكْفِيكُم مِنَ الدِّينِ حُسْنُ النِّيَّةِ ، والقِيامُ بِالفَرائِضِ الشَّرْعِيَّة) .
ولَمَّا شَعُرَ السَّيِّدُ (مُحَمَّد المَهْدِي) بِدُنُوِّ أَجَلِهِ ، كانَ وَلَدُهُ السَّيِّد (إِدْرِيس) لا يَزالُ صَغِيراً ، فَعَهِدَ بِأَمْرِ الخِلافَةِ السَّنُوسِيَّةِ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ السَّيِّد (أَحْمَد الشَّرِيف السَّنُوسِي) لِما يَعْرِفُ فيهِ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي تُؤَهِّلُهُ لِحَمْلِ الأَمانَةِ الثَّقِيلَة .
وقَدْ لاقَى هَذا الاخْتِيارُ قَبُولاً عامّاً مِنْ جَمِيعِ الإِخْوانِ ومَشايِخِ الزَّوايا ، وذَلِكَ في الاجْتِماعِ الَّذي عُقِدَ بِالكَفْرَةِ يَوْمَ (١٢ رَبِيع أَوَّل مِنْ عام ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٠ م) ، وبِهَذا بَدَأَتْ صَفْحَةٌ جَدِيدَةٌ ومَجِيدَةٌ مِنْ تارِيخِ الحَرَكَةِ السَّنُوسِيَّةِ تُضافُ إِلَى تارِيخِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ العَرِيقِ ، ونِضالِها المُتَواصِلِ ضِدَّ جَحافِلِ الشِّرْكِ والهَمَجِيَّة .
واصَلَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ) الجِهادَ ضِدَّ الفَرَنْسِيِّينَ والعَمَلَ (في الوَقْتِ نَفْسِهِ) عَلَى نَشْرِ الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ بِكُلِّ حِكْمَةٍ في أَفْرِيقْيا ، واتَّخَذَ مِنَ الكَفْرَةِ عاصِمَةً لِلْحَرَكَةِ السَّنُوسِيَّةِ ، وراحَ يُكَوِّنُ جَبْهَةً قَوِيَّةً في مُواجَهَةِ الزَّحْفِ الفَرَنْسِي القادِمِ مِنَ الجَنُوبِ ، واسْتَطاعَ كَذَلِكَ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى دَعْمِ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ في هَذا السَّبِيلِ ، وكانَ يُشْرِفُ بِنَفْسِهِ عَلَى الحَرْبِ ضِدَّ الفَرَنْسِيِّينَ ، ويَبْذُلُ مالَهُ وجُهْدَهُ في إِمْدادِ المُجاهِدِينَ بِالسِّلاحِ ، ويُشَجِّعُ التُّجَّارَ عَلَى جَلْبِ الأَسْلِحَةِ لِلْمُجاهِدِينَ ، حَتَّى اشْتُهِر عَنْهُ قَوْلُهُ :
(لَيْسَ عِنْدِي صَدِيقٌ أَعَزُّ مِمَّنْ يُساعِدُني بِالسِّلاح) .

قامَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ) رَحِمَهُ اللهُ بِتَأْلِيفِ كِتابٍ عَنِ الجِهادِ بِعُنْوان (بُغْيَةُ المُساعد بِأَحْكامِ المُجاهِد) يَبُثُّ بِهِ في أَتْباعِهِ رُوحَ الجِهادِ الحَقِّ ، ويَسْتَحِثُّهُم عَلَى النُّهُوضِ إِلَى جِهادِ أَعْداءِ اللهِ في أَيِّ وَقْتٍ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ ، فَإِذا ما ظَهَرَتْ بَوادِرُ الغَدْرِ مِنَ الأَعْداءِ ، فَإِنَّ الزَّعِيمَ الفَطِنَ مَنْ يَسْتَعِدُّ لِلشَّيْءِ قَبْلَ وُقُوعِه ، ويَتَّخِذُ لِمُفاجآتِ الأَيَّامِ عُدَّتَها .

وأَفْضَلُ هَذهِ العُدَّةِ ، كَما ذَكَر السَّيِّدُ (أَحْمَدُ) في بَعْضِ مُؤَلَّفاتِه :

(مُتابَعَةُ السُّنَّةِ في الأَقْوالِ والأَفْعالِ والأَحْوالِ ، ثُمَّ أَخْذُ الأَوْرادِ اللاَّزِمَةِ ، وبَعْدَها عَلَى المُرِيدِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِالصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَى أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى قَلْبِهِ ، ويُخامِرُ سِرَّهُ تَعْظِيمُهُ ، بِحَيْثُ يَهْتَزُّ عِنْدَ سَماعِ ذِكْرِهِ ، فَيُسْبِغُ اللهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ ظاهِراً وباطِناً) .

ونَعُودُ إِلَى التَّارِيخِ لِيُخْبِرَنا كَيْفَ كانَ الطِّلْيانُ في ذَلِكَ الوَقْتِ وَراءَ مِياهِ البَحْرِ الشَّمالِ يَعُدُّونَ عُدَّتَهُم ، ويَشْحَذُونَ خَناجِرَهُم المَسْمُومَةَ ، ويَتَلَمَّظُونَ لِلانْقِضاضِ عَلَى طَرابُلُس ، وكَيْفَ كانَ جُنُودُهُم يَتَدَرَّبُونَ عَلَى نَشِيدِ المَعْرَكَةِ القادِمَةِ الَّذي يَقْطُرُ سُمّاً ودَماً وصَدِيداً ، والَّذى تَقُولُ كَلِماتُهُ :

(أَنا ذاهِبٌ إِلَى طَرابُلُس فَرِحاً مَسْرُوراً ، لأَبْذُلَ دَمِي في سَحْقِ الأُمَّةِ المَلْعُونَةِ ولأُحارِبَ الدِّيانَةَ الإِسْلامِيَّةَ ، سَأُقاتِلُ بِكُلِّ قُوَّتي لِمَحْوِ القُرْآنِ ، لَيْسَ بِأَهْلٍ لِلْمَجْدِ مَنْ لَمْ يَمُتْ إِيطالِيّاً حَقّاً) .

وكانَ السَّنُوسِيُّونَ في ذَلِكَ الحِينِ مُنْشَغِلِينَ بِرَدِّ الاعْتِداءاتِ الفَرَنْسِيَّةِ المُتَوالِيَةِ مِنَ الجَنُوبِ ، فَجاءَتْهُم الأَخْبارُ أَنَّ العَدُوَّ الطِّلْياني قَدْ نَزَلَ بِبَرْقَة .

كانَ ذَلِكَ في سَنَةِ ١٩١١ م ، وقَبْلَ ذَلِكَ بِعامَيْنِ كانَ مَنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُم بِالأَتْراكِ قَدْ قامُوا بِخَلْعِ السُّلْطانِ عَبْدِالحَمِيدِ (بَقِيَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وأَعْظَمِ رِجالاتِ العالَمِ في وَقْتِهِ) وأَمْسَكُوا بِزِمامِ الأُمُورِ في دَوْلَةِ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ ،

مِمَّا سَبَّبَ كارِثَةً مُحَقَّقَةً انْتَهَتْ بِمُؤامَرَةِ كَمالِ أَتاتُورْك مَعَ الغَرْبِ الصَّلِيبِيِّ ، والَّتي أَدَّت إِلَى إِلْغاءِ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ سَنَةَ ١٩٢٤ م .

كانَتْ سِياساتُ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ بَعْدَ هَذا الانْقِلابِ تَتَّسِمُ بِالتَّخَبُّطِ والرُّعُونَةِ ، فَكانَتِ النَّتِيجَةُ أَنْ تَخَلَّتْ عَنْ (طَرابُلُس) في أَشَدِّ أَوْقاتِ مِحْنَتِها ، لَوْلا أَنْ قَيَّضَ اللهُ لِهَذِهِ البِلادِ رَجُلاً بِحَقٍّ ، قامَ لِلأَمْرِ كَما يُحِبُّ اللهُ ورَسُولُهُ ﷺ ، وهُوَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ الشَّرِيفُ السَّنُوسِيُّ) ، الَّذي قامَ بِلَمْلَمَةِ شَمْلِ البِلادِ والعِبادِ ، واسْتَطاعَ أَنْ يُنَظِّمَ مُقاوِمَةً بُطُولِيَّةً كانَتْ وما تَزالُ مَفْخَرَةً لأُمَّةِ الإِسْلامِ عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ ، اسْتَمَرَّتْ عِشْرِينَ عاماً كامِلَةً بَيْنَ قُوَّتَيْنِ ، لاوَجْهَ - أَصْلاً - لِلْمُقارَنَةِ بَيْنَهُما مِنْ ناحِيَةِ العَدَدِ والعَتاد .

وقَدْ وَصَفَ أَمِيرُ البَيانِ (شَكِيب أَرْسلان ، ت ١٩٤٦ م) السَّيِّدَ (أَحْمَدَ الشَّرِيفَ السَّنُوسِيَّ) بِقَوْلِهِ : (.. لَوْ عاشَ في زَمَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ في أَيَّامِ الغَزَواتِ العَرَبِيَّةِ والفُتُوحاتِ العُمَرِيَّةِ لَما كانَ مَكانُهُ في ذَلِكَ الوَقْتِ لِيَقْصُرَ عَنْ مَكانِ أَحَدٍ مِنْ أُولَئِكَ الأَبْطالِ الَّذينَ نَشَروا الإِسْلامَ في الخافِقَيْنِ ورَفَعُوا لِواءَهُ مِنْ نَهْرِ الرُّونِ إِلَى جِدارِ الصِّينِ ، فَما ظَنُّكَ وهُوَ قَدْ جاهَدَ هَذا الجِهادَ كُلَّهُ ، ووَقَفَ مُدَّةَ عِشْرِينَ سَنَةً في وَجْهِ دَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ العِظامِ في عَصْرٍ دُثِرَتْ فيهِ مَعالِمُ الجِهادِ ، وانْطَفَأَتْ جَذْوَةُ الإِسْلامِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا الرَّمادُ ، واسْتَوْلَى اليَأْسُ عَلَى قُلُوبِ المُسْلِمِينَ ، حَتَّى حَسِبُوا كُلَّ مُقاوَمَةٍ لِدَوْلَةٍ أُورُوبِيَّةٍ ضَرْباً مِنْ ضُرُوبِ الحَماقَةِ ، وعَمَّ ذَلِكَ جُمُوعَهُم الحاضِرَ مِنْهُم والباد ، وانْتَشَر في الرُّبَى والوِهاد ، ومَعَ هَذا فإِنَّ السَّيِّدَ (أَحْمَدَ الشَّرِيفَ السَّنُوسِيَّ) قَدْ أَتَى بِبُرْهانٍ ساطِعٍ ودَلِيلٍ قاطِعٍ عَلَى أَنَّ فِئَةً مِنَ المُسْلِمِينَ في قُطْرٍ لا يَتَجاوَزُ عَدَدُ أَهْلِهِ مِئاتٍ مِنَ الأُلُوفِ ، يُمْكِنُهُم بِقُوَّةِ الإِرادَةِ وثَباتِ العَزْمِ ، ومَضاءِ العَزِيمَةِ وإِباءِ الضَّيْمِ ، وتَرْجِيحِ المَعْنَى عَلَى المادَّةِ ، وإِيثارِ

الشَّرَفِ عَلَى التَّرَفِ ، وامْتِلاءِ القُلُوبِ بالإيمانِ ، ووَقْفِ النُّفُوسِ عَلَى اعْتِزامِ عَزائِمِ الإِسْلامِ أَنْ تَثْبُتَ مُدَّة (٢٤٠ شَهْراً) بِإزاءِ دَوْلَةٍ عَدَدُ أَهْلِها اثْنانِ وأَرْبَعُونَ مِلْيُوناً ، مُجَهَّزَةٍ بِجَمِيعِ ما هِيَ مُجَهَّزَةٌ بِهِ عَظِيماتُ دُوَلِ العالَمِ المُتَمَدِّنِ ، مالا تَملِكُ أَعْظَمَ مِنْهُ دَوْلَةٌ مِنَ الدُّوَلِ القاعِدَةِ في الصَّفِّ الأَوَّلِ مِنْ مَمالِكِ الأَرْضِ)[١].

جَمَعَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ الشَّرِيفُ السَّنُوسِيُّ) الشُّيُوخَ والعُلَماءَ والقادَةَ ، وشاوَرَهُمْ في الأَمْرِ ، وكانَتْ كَلِمَتُهُ الَّتي قالَها حاسِمَةً : (واللهِ ، نُحارِبُهُم ولَوْ وَحْدِي بِعَصاتي هَذِهِ) ، فَبَثَّ مَوْقِفُهُ هَذا فِيهِم رُوحاً لا تَخْضَعُ ولا تَلِينُ ، وبَعَثَ إِلَى شُيُوخِ الزَّوايا ورُؤَساءِ القَبائِلِ والأَعْيانِ يَأْمُرُهُم بِجِهادِ عَدُوِّ اللهِ ، والاسْتِماتَةِ في لِقائِهِ ، وأَعْلَنَ عَلَى المَلأِ آنَذاكَ أَنَّهُ سَيَنْزِلُ بِنَفْسِهِ إِلَى مَيْدانِ الجِهاد .

كانَ أَعْظَمُ سِلاحِ السَّنُوسِيِّينَ الخَيْلَ والبَنادِقَ والحِرابَ والسُّيُوفَ ، بَيْنَما عَدُوُّهُم يَمْلِكُ الأَساطِيلَ والطَّائِراتِ والمَدافِعَ والدَّبَّاباتِ والأَسْلِحَةَ الفَتَّاكَةَ ، ويَمْلِكُ خُطُوطَ اتِّصالٍ وتَمْوِينٍ وإِمْدادٍ مَفْتُوحَةٍ وسَهْلَةٍ ، بَيْنَما كانَ السَّنُوسِيُّونَ مُعْظَمَ الوَقْتِ واقِعِينَ تَحْتَ حِصارٍ خانِقٍ ، وظُرُوفٍ شَدِيدَةٍ صَعْبَةٍ لَكِنَّ الرِّجالَ إِذا صَدَقُوا ، وأَرُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِهِم ما يُحِبُّ ، ثَبَّتَهُم اللهُ وأَيَّدَهُمْ ورَفَعَ دَرجاتِهِم فَوْقَ ما كانُوا يَظُنُّونَ أَو يَطْمَحُون .

يَقُولُ الأَمِيرُ شَكِيبُ أَرْسَلان :

(لَوْلاَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ الشَّرِيفُ السَّنُوسِيُّ) لَكانَتْ إِيطالْيا اسْتَصْفَتْ قُطْرَي طَرابْلُس وبَرْقَةَ مِنَ الشَّهْرِ الأَوَّلِ مِنْ غارَتِها الغادِرَةِ عَلَيْهِما ، وإِنَّنا لا نَزالُ نَتَذَكَّرُ كَلامَ القُوَّادِ ورِجالِ السِّياسَةِ الأُرُوبِيَّةِ عَنِ الحَمْلَةِ الإِيطالِيَّةِ يَوْمَ جَرَّدَتْها

---

(١) حاضِرَة العالَمِ الإِسْلامي ٤/ ٣٩٨ .

عَلَى ذَيْنِكَ القُطْرَيْنِ إذْ قالَ بَعْضُهم : إنَّ إيطالْيا سَتَقْبِضُ عَلَى ناصِيَةِ الأَمْرِ وتَسْتَكْمِلُ هَذا الفَتْحَ فِي مُدَّةِ ١٥ يَوْماً ، وقالَ أَشَدُّهُم تَشاؤُماً وأَقَلُّهُم تَخَيُّلاً وأَبْصَرُهُم بِأُمُورِ الشَّرْقِ وهُوَ اللُّورْد (كِتْشِنَر) المَشْهُورُ ، إنَّ هَذا الفَتْحَ الَّذي يَسْتَسهِلُهُ النَّاسُ عَلَى إيطالْيا أَمامَهُ مِنَ الصُّعُوباتِ أَكْثَرُ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وقَدْ يَسْتَغْرِقُ ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ بِالأَقَلِّ .

فَلْيَتَأَمَّلْ أُولُو الأَلْبابِ كَيْفَ أَنَّ هَذِهِ الثَّلاثَةَ أَشْهُرٍ امْتَدَّتْ عِشْرِينَ عاماً ، ورُزِئَتْ الدَّوْلَةُ الإيطالِيَّةُ بِمِائَةٍ وخَمْسِينَ أَلْفَ عَسْكَرِي قَتْلَى عَدا الجَرْحَى ، وبِثَلاثِمائَةِ مِلْيُون جُنَيْهٍ مِنَ الذَّهَبِ الوَضَّاحِ ، هَذا كانَ مَجْمُوعَ خَسائِرِ إيطالْيا مُنْذُ سَنَتَيْنِ حَسَبَ الإحْصاءاتِ الرَّسْمِيَّةِ ، وهَذا كانَ ثَمَرَةَ جِهادِ السَّيِّدِ السَّنَد نَعَم .. لَمْ تَأْكُلْ إيطالْيا في اعْتِدائِها الفَظِيعِ هَذا مَرِيئاً ولَمْ تَشْرَبْ هَنِيئاً ، وعَلَقَ في حَلْقِها مِنْ سَمَكِ الإسْلامِ حَسَكُ لا يَزُولُ في الأَحْقابِ ولا في القُرون) أَجَلْ ، لَقَدْ نَشبَتْ مَعارِكُ ضارِيَةٌ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ غَيْرِ المُتَكافِئَيْنِ ، وكانَ النَّصْرُ في مُعْظَمِها لِلسَّنُوسِيِّينَ الَّذينَ كَبَّدُوا العَدُوَّ خَسائِرَ فادِحَةً ، واشْتَعَلَتْ مَعارِكُ الجِهادِ في أَنْحاءِ البِلادِ ، وتَتابَعَتِ البُطُولاتُ الَّتى رَفَعَتْ شَأْنَ البُطُولَةِ والأَبْطالِ في تارِيخِ الإنْسانِيَّةِ بِأَسْرِهِ ، ورَأَتْ إيطالْيا رَأْىَ العَيْنِ عَجْزَها عَنْ إتْمامِ احْتِلالِ بَقِيَّةِ لِيبْيا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَجَماتِها البَرْبَرِيَّةِ وأَعْمالِها الوَحْشِيَّةِ أَيْنَما حَلَّتْ قُوَّتُها ، فَراحَتْ تُجَرِّبُ طَرِيقَ المُخادَعَةِ وأَلاعِيبَ السِّياسَةِ كَما هِيَ عادَةُ الغَرْبِ دائِماً .

وكانَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ) راسِخاً في مَوْقِفِهِ مِنْ مُحاوَلَةِ عَمَلِ صُلْحٍ يَعْلَمُ مُسْبَقاً أَنَّ العَدُوَّ فيهِ مُخادِعٌ ولا شَرَفَ عِنْدَهُ ، ولا عَهْدَ لَهُ ولا مِيثاقَ ، وإنَّ هَذا مَوْروثُهُ مُنْذُ الحُروبِ الصَّلِيبِيَّةِ الأُولَى الَّتي كَشَفَتْ عَنْ طَبائِعِ الصَّلِيبِيِّينَ وعَقائِدِهِم في عَدَمِ التَّمَسُّكِ بِأَيِّ عَهْدٍ أَو مِيثاقٍ مَعَ مُسْلِم .

لَكِنَّ الدَّوْلَةَ العُثْمانِيَّةَ الَّتي أَصْبَحَتْ في طَوْرِ الاحْتِضارِ بَعْدَ إِقْصاءِ السُّلْطانِ (عَبْدِ الحَمِيد) قَبِلَتْ بِإِبْرامِ صُلْحٍ مَعَ إِيطالْيا ، وقامَتْ بِناءً عَلَيْهِ بِسَحْبِ حامِيَتِها مِنْ لِيبْيا .

ومَعَ هَذا ، وَقَفَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ الشَّرِيفُ) راسِخاً كالطَّوْدِ ، عازِماً عَلَى مُواصَلَةِ الجِهادِ ، فَكَتَبَ مَنْشُوراً إِلَى مَشايِخِ الزَّوايا والقَبائِلِ يُعْلِنُ فيهِ مُواصَلَةَ الجِهادِ ، وطَلَبَ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ في سِنِّ الرَّابِعَةِ عَشَرَ حَتَّى الخامِسَةِ والسِّتِّينَ أَنْ يَلْحَقَ بِالمُجاهِدِينَ آخِذاً مَعَهُ سِلاحَهُ ومُؤُونَتَهُ ، وراحَ (السَّيِّدُ) يَجُوبُ البِلادَ طُولاً وعَرْضاً ، زائِراً لِلزَّوايا ولِلْقَبائِلِ في أَماكِنِها ومُتَفَقِّداً لأَماكِنِ المُجاهِدينَ وأَثْناءَ ذَلِكَ يُشارِكُ فِيما يَدورُ مِنْ مَعارِكَ ، ويَبُثُّ في الجَمِيعِ عَزِيمَةً قَوِيَّةً وطاقَةً هائِلَةً عَلَى الصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ والقِيامِ بِأَعْباءِ الجِهاد.

وحاوَلَتْ إِيطالْيا أَنْ تُبْرِمَ اتِّفاقاً مَعَهُ عَلَى أَنْ تَتْرُكَ إِمارَةَ البِلاد الدَّاخِلِيَّةِ وتَحْتَفِظَ هِيَ بِالمَوانِي والثُّغُورِ السَّاحِلِيَّةِ ، فَما انْخَدَعَ وما غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ طَلَباً لِلرَّاحَة .

وفي كُلِّ هَذا ، ظَلَّ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ) عَلَى وَلائِهِ لِدَوْلَةِ الخِلافَةِ ، بَعْدَ إِقْصاءِ السُّلْطانِ (عَبْدِ الحَمِيد) ، لأَنَّ الأُمُورَ لَمْ تَكُنْ قَدْ تَكَشَّفَتْ بَعْدُ عَنْ حَقِيقَتِها. وكانَ العالَمُ الإِسْلامِيُّ يَمُوجُ بِالفِتَنِ وتَحْتَوِشُهُ مُؤَامَراتُ الأَعْداءِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ وكانَتْ بريطانْيا تَحِيكُ مُؤَامَراتِها الخَبِيثَةَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ فَتَتآمَرُ مَعَ عُمَلائِها عَلَى حَرْبِ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ والثَّوْرَةِ عَلَيْها .

فَلَمَّا نَشَبَتِ الثَّوْرَةُ العَرَبِيَّةُ سَنَةَ ١٩١٦ م ، طَلَبَتِ الدَّوْلَةُ العُثْمانِيَّةُ مِنَ السَّيِّد (أَحْمَد الشَّرِيف) ، أَنْ يَتَوَسَّطَ بَيْنَها وبَيْنَ شَرِيفِ مَكَّةَ لإِقْناعِهِ بِعَدَمِ الانْفِصالِ عَنِ الدَّوْلَةِ العَلِيَّةِ والإِقْلاعِ عَنْ أَعْمالِ الثَّوْرَةِ ، فَرَحَّبَ بِهَذِهِ الوَساطَةِ ورَأَى فِي ذَلِكَ فُرْصَةً مُواتِيَةً لإِقْناعِ الدَّوْلَةِ العَلِيَّةِ بِمَدِّ يَدِ العَوْنِ لِلْمُجاهِدِينَ في

لِيبْيا مِنْ جَدِيد .

وفِعْلاً عَهِدَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ) بِقِيادَةِ الطَّرِيقَةِ إِلَى السَّيِّد (إِدْرِيسَ السَّنُوسِيِّ) ثُمَّ غـادَرَ لِيبْيا عَلَى مَتْنِ غَوَّاصَةٍ أَلْمـانِيَّةٍ إِلَى اسْتانْبُول ، وكانَتِ الدَّوْلَةُ العَلِيَّةُ قَدْ حالَفَتْ أَلْمانْيا في الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأُولَى الَّتي نَشَبَتْ سَنَةَ ١٩١٤ م .

وفي اسْتَنْبُول رَأَى (السَّيِّدُ) مَعالِمَ الانْهِيارِ السَّرِيعِ ، وهُوَ واقِعٌ بَيْنَ نارَيْنِ ، يَحْمِلُ في قَلْبِهِ هَمّاً عَلَى وَطَنِهِ المُحْتَلِّ ، وتَأْتِيهِ أَخْبارُ المِحَنِ المُحِيطَةِ بِهِ ، والشَّدائِدِ الَّتي تَتَراكَمُ عَلَيْهِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ ، ومِنْ ناحِيَةٍ أُخْرَى يُؤَرِّقُهُ ما يَراهُ في الدَّوْلَةِ العَلِيَّةِ مِنْ أَحْوالٍ ، وما يَصِلُ إِلَيْهِ مِن أَخْبارِ العالَمِ الإِسْلامِيِّ الَّذى تَكالَبَتْ عَلَيْهِ دُوَلُ الغَرْبِ ، ثُمَّ كانَتِ الفاجِعَةُ الكُبْرَى بِتَمَكُّنِ (كَمال أَتاتُورْك) مِنْ مَقالِيدِ الحُكْمِ في دَوْلَةِ الخِلافَةِ ، وطُرِدَ (السَّيِّدُ) مِنْ تُرْكِيا طَرْداً قَبِيحاً بَعْدَ ما أَسْداهُ لِأَتاتُورْك مِنْ خَدَماتٍ جَلِيلَةٍ قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ الأَخِيرُ عَنْ وَجْهِهِ القَبِيحِ وحَقِيقَتِهِ المُخْزِيَة !! .

لَكَ اللهُ ياسَيِّدي ... لَقَد تَحَمَّلْتَ ما تَنُوءُ عَنْ حَمْلِهِ الجِبالُ ، وظَلَلْتَ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ في حَياتِكَ الطَّيِّبَةِ المُبارَكَةِ غَيْرَ مُقَصِّرٍ في واجِبٍ مِنَ الواجِباتِ ، ولا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ أَنْ تَرْكَنَ أَو تَثَّاقَلَ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وقَدْ تَقَدَّمَتْ بِكَ السِّنُ ، إِلَى طَلَبِ الرَّاحَةِ لِجَسَدِكَ المُضْنِي ، وقَلْبِكَ المُثْقَلِ بِالهُمُوم .

بَعْدَ أَنْ طُرِدَ (السَّيِّدُ) مِنَ اسْتَنبُول تَوَجَّهَ إِلَى الشَّامِ ، لَكِنَّ الفَرَنْسِيِّينَ الَّذينَ احْتَلُّوا الشَّامَ لَمْ يَنْسَوا لَهُ مَواقِفَهُ في التَّصَدِّي لِتَسَلُّلِهم في أَواسِطِ أَفْرِيقْيا وجَنُوبِ لِيبْيا ، فاضْطَرُّوهُ إِلَى الرَّحِيلِ ، وما دَرَوا أَنَّهُم بِذَلِكَ مُسَخَّرُونَ مِنْ جِهَةِ العَلِيِّ الأَعْلَى سُبْحانَهُ وتَعالَى لِدَفْعِ الحَبِيبِ إِلَى لِقاءِ حَبِيبِهِ .

وفي المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ أَسْلَمَ (السَّيِّدُ) الرُّوحَ بَعْدَ مَرَضٍ عُضالٍ لَمْ يُمْهِلْهُ ، ودُفِنَ بِالبَقِيعِ ، لا يَفْصِلُهُ عَنْ مَحْبُوبِهِ وقُدْوَتِهِ ونُورِ عَيْنِهِ وفَرْحَةِ قَلْبِهِ ﷺ إِلَّا

مَسافَةٌ قَصِيرَةٌ ، ولَئِنْ كانَتْ رُوحُهُ قَدِ امْتَزَجَتْ بِرُوحِ النَّبِيِّ ﷺ مُدَّةَ حَياتِهِ ، إِلَّا أَنَّ تَقارُبَ الأَجْسادِ فيهِ ما يَزِيدُ مِنْ فَرْحَةِ قَلْبِ المُحِبِّ المُشْتاقِ .

إِنَّ أَخْبارَ السَّيِّدِ (أَحْمَدَ الشَّرِيفِ السَّنُوسِيِّ) لَمْ تَنْتَهِ عِنْدَ هَذا الحَدِّ ، بَلْ لا يُمْكِنُ لَها أَنْ تَنْتَهِيَ ، لِأَنَّ الصَّادِقِينَ لا تَنْتَهِي حَياتُهُم بِالمَوْتِ ، بَلْ تَظَلُّ أَرْواحُهُم تَشِعُّ في الكَوْنِ وَمَضاتٍ تَنْفَعُ النَّاسَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَتَبُثُّ فِيهِم مَعانِيَ الشَّرَفِ والبُطُولَةِ والصِّدْقِ .

فَها هُوَ واحِدٌ مِنْ رِجالِهِ وحَسَنَةٌ مِنْ حَسَناتِهِ ، يَرْفَعُ مِنْ بَعْدِهِ رايَةَ الجِهادِ مُرَفْرِفَةً خَفَّاقَةً : إِنَّهُ الأَسَدُ المِغْوارُ عُمَرُ المُخْتار .

شَيْخُ المُجاهِدِينَ (عُمَرُ المُخْتار)

كان (عُمَرُ المُخْتار ، ت : ١٩٣١م) نَمُوذَجاً صُوفِيّاً لِأَهْلِ الصِّدْقِ الَّذينَ تَرَبَّوا في مَعاهِدِ الصِّدْقِ ، وعَلَى أَيْدِي رِجالِ الصِّدْقِ واليَقِينِ .

وُلِدَ (الأَسَدُ) بِإِحْدَى قَبائِلِ بَرْقَةَ ، وحَفِظَ القُرْآنَ بِزاوِيَةِ الجَغْبُوب ، وبِها تَلَقَّى عُلُومَهُ الدِّينِيَّةَ ، وتَرَبَّى التَّرْبِيَةَ الصُّوفِيَّةَ .

وشَبَّ عَلَى الطُّهْرِ والعَفافِ ، وأَخْلاقِ الإِسْلامِ الحَمِيدَةِ ، ورَأَى فيهِ مَشايِخُهُ عَلاماتِ الصَّلاحِ ، فَأَقامَهُ الإِمامُ (المَهْدِيُّ السَّنُوسِيُّ) شَيْخاً عَلَى إِحْدَى الزَّوايا السَّنُوسِيَّةِ (زاوِيَةِ القُصُور) بِالجَبَلِ الأَخْضَرِ ، ثُمَّ أَخَذَهُ مَعَهُ إِلَى السُّودانِ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِ سَنَواتٍ ثُمَّ عادَ إِلَى بَرْقَةَ ، لِيَتَوَلَّى مَشْيَخَةَ زاوِيَةِ القُصُورِ مَرَّةً أُخْرَى ، وظَلَّ بِها حَتَّى دَهَمَ الطِّلْيانُ مَدِينَةَ بَنْغازِي (سَنَةَ ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م) ، فَكانَ مِنْ أَوائِلِ مَنْ هَبَّ لِتَلْبِيَةِ نِداءِ الجِهادِ . نَعَم .. كانَ هَذا الصُّوفِيُّ الجَلِيلُ في طَلِيعَةِ النَّاهِضِينَ لِلْجِهادِ ، كَيْفَ لا وهُوَ الصُّوفِيُّ الصَّادِقُ الواثِقُ ، أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَغَدْوَةٌ في سَبِيلِ اللهِ أَوْرَوْحَةٌ خَيْرٌ

مِنَ الدُّنْيا وما فيها)[١]. أَلَمْ يَشْهَدْ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِهَذا الشَّيْخِ الجَلِيلِ ولِأَمْثالِهِ بِالأَفْضَلِيَّةِ : عِنْدَما سُئِلَ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ فَقالَ ﷺ :

(مُؤْمِنٌ يُجاهِدُ بِنَفْسِهِ ومالِهِ في سَبِيلِ اللهِ)[٢].

ومَنْ أَوْلَى بِالجِهادِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ ، أَلَيْسُوا هُم العُلَماءُ العامِلُونَ ، وهَذا الشَّيْخُ الجَلِيلُ في مُقَدِّمَتِهِم ؟ ، ولِهَذا لَمْ يَأْتِ عامُ (١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م) ، إِلَّا وهُوَ القائِدُ العامُ والرَّئِيسُ الأَعْلَى لِلْمُجاهِدِينَ في لِيبْيا .

قادَ البَطَلُ المُخْتارُ مَعارِكَ الجِهادِ في بَرْقَةَ مُدَّةَ عِشْرِينَ عاماً وكانَ أَثْناءَها مُتَحَصِّناً بِالجَبَلِ الأَخْضَرِ ، يُهاجِمُ الطَّلْيانَ في أَنْحاءَ مُتَعَدِّدَةٍ ، ويَغْزُوهُم في كُلِّ مَكانٍ ، فَيُنْزِلُ بِهِم الهَزائِمَ تِلْوَ الهَزائِمِ ، ويَغْنَمُ مِنْهُم الأَسْلِحَةَ والمُؤَنَ ، ولازالَتْ ذاكِرَةُ التَّارِيخِ تَعِي أَسْماءَ المَعارِكِ الَّتي زَيَّنَتْ إِلَى آخِرِ الزَّمانِ جَبِينَ الدَّهْرِ بِمَعاني البُطُولَةِ والشَّرَف .

ها هِيَ ذِي أَيَّامُ الجِهادِ قَدْ طالَتْ ، وطَوَتْ سَنَواتُهُ الطَّوِيلَةُ أَيَّامَ الرَّاحَةِ والاسْتِقْرارِ ، كَما طَوَتْ مَعَها أَعْمارَ الآلافِ مِنَ المُجاهِدِينَ وأَضْعافَ أَعْدادِهِم مِنَ النِّساءِ والشُّيُوخِ والأَطْفالِ مِنَ الأَهْلِ والأَحْبابِ والجِيران .

صَحِيحٌ أَنَّ قَتْلَى الطَّلْيانِ وجَرْحاهُم كانُوا يُعَدُّونَ بِعَشَراتِ الأُلُوفِ إِلَّا أَنَّهُم كانُوا كُلَّما هَلَكَ مِنْهُم جُنْدِيٌّ أَتَوا مَكانَهُ بِواحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ ، وكُلَّما فَقَدُوا سِلاحاً عَوَّضُوهُ بِخَيْرٍ مِنْهُ .

(يا أَيَّامَ الشِّدَّةِ .. كَمْ لَكِ عَلَى أُمَّةِ الحَبِيبِ مِنْ أَيادٍ !!) .

يَقُولُ القائِدُ العامُ الإِيطالِيُّ الجِنْرال (رُود وُلْفُو غَراسْياني) في بَيانٍ لَهُ عَنِ المَعارِكِ الَّتي نَشَبَتْ بَيْنَ جُنُودِهِ والسَّيِّدِ عُمَرَ المُخْتار : (إِنَّها كانَتْ مِائَتَيْنِ وثَلاثاً وسِتِّينَ مَعْرَكَةً خِلالَ ثَلاثَةٍ وعِشْرِينَ شَهْراً) ، هَذا ما عَدا ما خاضَهُ

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

(٢) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و(مُسْلِمٌ) .

السَّيِّدُ (عُمَرُ المُخْتارُ) مِنَ المَعارِكِ خِلالَ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَها ضِدَّ الإيطالِيِّينَ ، ويَقُولُ :

(إنَّ عُمَرَ المُخْتارَ يَخْتَلِفُ عَنِ الآخَرِينَ ، فَهُوَ شَيْخٌ مُتَدَيِّنٌ بِدُونِ شَكٍّ ، قاسٍ وشَدِيدٌ ومُتَعَصِّبٌ لِلدِّينِ ورَحِيمٌ عِنْدَ المَقْدِرَةِ ، ذَنْبُهُ الوَحِيدُ أَنَّهُ يَكْرَهُنا كَثِيراً وفي بَعْضِ الأَوْقاتِ يُسَلِّطُ عَلَيْنا لِسانَهُ ويُعامِلُنا بِغِلْظَةٍ مِثْلَ الجِبِلِّيِّينَ ، كانَ دائِماً مُضادّاً لَنا ولِسِياسَتِنا ، في كُلِّ الأَحْوالِ ، لا يَلِينُ أَبَداً ولا يُهادِنُ إلَّا إذا كانَ المَوْضُوعُ في صالِحِ الوَطَنِ العَرَبي اللِّيبي ، ولَمْ يَخُنْ مَبادِئَهُ فَهُوَ دائِماً مَوْضِعُ الاحْتِرامِ في التَّصَرُّفاتِ الَّتي تَحْدُثُ مِنْهُ في غَيْرِ صالِحِنا).[1]

ثُمَّ يَصِفُهُ بِوَصْفٍ أَدَقَّ ، فَيَقُولُ :

(عُمَرُ المُخْتارُ يَتَمَتَّعُ بِذكاءٍ حاضِرٍ وحادٍّ ، وكانَ مُثَقَّفاً ثقافَةً عِلْمِيَّةً ودِينِيَّةً ، لَهُ طَبْعٌ حادٌّ ومُنْدَفِعٌ ، ويَتَمَتَّعُ بِنَزاهَةٍ خارِقَةٍ ، لَمْ يَحْسِبْ لِلْمادَّةِ أَيَّ حِسابٍ ، مُتَصَلِّبٌ ومُتَعَصِّبٌ لِدِينِهِ ، وأَخِيراً كانَ فَقِيراً لا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنْ حُطامِ الدُّنْيا)[2]

وما كانَ الصُّوفِيَّةُ يَوْماً مِنْ أُولَئِكَ الَّذينَ تَغُرُّهُم الدُّنْيا وبَهْرَجُها ، فَهُم الَّذينَ إنْ وَجَدوا آثَروا ،وإنْ فَقَدوا شَكَروا ، إنَّهُم بحَقٍّ بَقِيَّةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِمَّنْ قالَ اللهُ فِيهم : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ ﴾.[3]

وعِنْدَما أُسِرَ السَّيِّدُ (عُمَرُ المُخْتارُ) ، وأُتِيَ بِهِ إلَى (غَراسْياني) في مَقَرِّ حُكُومَتِهِ وَصَفَهُ قائِلاً : (وعِنْدَما حَضَرَ أَمامَ مَدْخَلِ مَكْتَبِي تَهَيَّأَ لِي أَنْ أَرَى فيهِ شَخْصِيَّةَ آلافِ المُرابِطينَ الَّذينَ الْتَقَيْتُ بِهِم أَثْناءَ قِيامِي بِالحُروبِ الصَّحَراوِيَّةِ ، يَداه مُكَبَّلَتانِ بِالسَّلاسِلِ رَغْمَ الكُسُورِ والجُرُوحِ الَّتي أُصِيبَ بِها أَثْناءَ المَعْرَكَةِ ، وكانَ وَجْهُهُ مَضْغُوطاً لِأَنَّهُ كانَ مُغَطِّياً رَأْسَهُ بالجُرْدِ[4] ، يَجُرُّ

(١) كِتابُ بَرْقَة الهادِئَة (الجِنْرال رُود وُلْفُو غَراسْياني) ص ٣٧٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٧٢ .
(٣) سُورَةُ الأَحْزاب آيَة ٢٣ .
(٤) الجُرْدُ : لِباسٌ مُعْتادٌ مِنَ الصُّوف .

نَفْسَهُ بِصُعُوبَةٍ نَظَراً لِتَعَبِهِ أَثْنَاءَ السَّفَرِ بِالبَحْرِ ، وبِالإِجْمالِ يُخَيَّلُ لِي أَنَّ الَّذي يَقِفُ أَمامِي رَجُلٌ لَيْسَ كالرِّجالِ ، لَهُ مَنْظَرُهُ وهَيْبَتُهُ رَغْمَ مَرارَةِ الأَسْرِ).(١)

وكانَ المُجاهِدونَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ البَقاءَ في المَواقِعِ الخَلْفِيَّةِ ويَدَعُهم يَخُوضُونَ المَعارِكَ شَفَقَةً عَلَيْهِ ، فكانَ يَرُدُّ بِقُوَّةٍ : (أَتُرِيدُونَنِي أَنْ أُحْرَمَ الشَّهادَة) ، وبِالفِعْلِ حَقَّقَ اللهُ تعالَى مُرادَهُ في ١٦ / ٩ / ١٩٣١ م عِنْدَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَباحاً ، بَعْدَ أَنِ اصْطَفَّ عَدَدٌ هائِلٌ مِنَ السُّجَناءِ والمُعْتَقَلِينَ ، وأُحِيطَ بِهِم مِنْ كُلِّ جانِبٍ في قَرْيَةِ (سلوق) وأُتِيَ بِالسَّيِّد (عُمَرَ المُخْتار) إِلَى السَّاحَةِ لِيُنَفَّذَ فيهِ حُكْمُ الإِعْدامِ شَنْقاً ، فَيَتَقَدَّمُ بِسِنِيِّهِ الَّتي جاوَزَتْ السَّبْعِينَ وشَيْبَتِهِ الجَلِيلَةِ إِلَى حَبْلِ المَشْنَقَةِ ، فَتَنْتَقِلُ هَذِهِ الرُّوحُ الطَّاهِرةُ الزَّكِيَّةُ إِلَى بارِئِها وتَحْظَى بِقُرْبِهِ ، وفي هَذا يَقُولُ شَوْقي في رِثائِهِ الشَّهِيرِ لِلشَّهِيدِ عُمَرَ المُخْتار :

رَكَزُوا رُفاتَكَ في الرِّمالِ لِواءَ * يَسْتَنْهِضُ الوادِي صَباحَ مَساءَ
وأَتَى الأَسِيرُ يَجُرُّ ثِقْلَ حَدِيدِهِ * أَسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رَقْطاءَ
عَضَّتْ بِساقَيْهِ القُيُودُ فَلَمْ يَنُؤْ * ومَشَتْ بِهَيْكَلِهِ السُّنُونُ فَناءَ
سَبْعُونَ لَوْ رَكِبَتْ مَناكِبَ شاهِقٍ * لَتَرَجَّلَتْ هَضَباتُهُ إِعْياءَ
خُيِّرْتَ فاخْتَرْتَ المَبِيتَ عَلَى الطَّوى * لَمْ تَبْنِ جاهاً أَو تَلُمَّ ثَراءَ
إِنَّ البُطُولَةَ أَنْ تَمُوتَ مِنَ الظَّما * لَيْسَ البُطُولَةُ أَنْ تَعُبَّ الماءَ

جِهادُ (أَبي بَكْرٍ السَّعِيدى)

صُوفِيٌّ آخَرُ حارَبَ المُسْتَعْمِرَ الإِيطالِيَّ وشارَكَ بِسَيْفِهِ وقَلَمِهِ في العَدِيدِ مِنَ المَعارِكِ ، بَلْ كانَ مُدَرِّباً لِلْقُوَّاتِ العَرَبِيَّةِ المُسَلَّحَةِ الَّتي كانَتْ تُقاوِمُ المُسْتَعْمِرَ الإِيطالِيَّ وتُكَبِّدُهُ الخَسائِرَ ، وتَمْنَعُ تَقَدُّمَهُ مِنَ المَناطِقِ السَّاحِلِيَّةِ

---
(١) كِتابُ (بَرْقَةُ الهادِئَة) ص ٢٧٩ .

الضَّيِّقَةِ الَّتي احْتَلَّها إِلَى داخِلِ البِلادِ ، وكانَ قَدْ شارَكَ في الجَيْشِ اللِّيبِي بِقِيادَةِ (أَنْوَر باشا) والَّذي يَقُولُ عَنْهُ في مُذَكِّراتِهِ : (وقامَ بِتَدْرِيبِ المُتَطَوِّعِينَ بَعْضُ المُتَخَصِّصِينَ أَمْثالُ أَبي بَكْرٍ السَّعِيدي مِنْ عيت بُوسَعِيدَةَ القَطْعان)[1] . ويُوجَدُ عَلاوَةً عَلَى ما ذَكَرْناهُ الكَثِيرُ مِنْ أَمْثالِ : نُورِ الدِّين زَنْكِي وصَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِي بَطَلَي الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ ، والمَهْدِي في السُّودانِ ، والإمامِ (أَسَد بنِ الفُراتِ) فاتِحِ صِقِلِّيَّةَ ، والسُّلْطانِ (عَبْدِ الحَمِيدِ) الشَّاذِلِي ومَوْقِفِهِ المُشَرِّفِ أَمامَ تَهْوِيدِ فِلَسْطِين ، والأَمِير (عَبْدِ الكَرِيمِ الخَطَّابي) الشَّاذِلِي ومَواقِفِهِ الكُبْرَى بِجُيُوشِهِ أَمامَ فَرَنْسا بِالمَغْرِبِ ، والإمامِ (المُبَشِّرِ الطِّرازي) مُفْتي آسْيا النَّقْشَبَنْدِي وجِهادِهِ ضِدَّ الشُّيُوعِيَّةِ ، و(أَحْمَد عُرابي) الشَّاذِلي وثَوْرَتِهِ في مِصْرَ ضِدَّ الإِنْجِلِيز ، و(مُحَمَّد عَلِي جَناح) مُؤَسِّس باكِسْتان وهُوَ صُوفِيٌّ قادِري) وفي فِلَسْطِينَ كانَ الشَّيْخُ الصُّوفِيُّ (عِزُّالدِّينِ القَسَّام) هُوَ الَّذي قادَ حَرَكَةَ الجِهادِ والمُقاوَمَةِ في بِلادِ الشَّامِ ضِدَّ الاسْتِعْمارِ الفَرَنْسِي وضِدَّ الصَّهايِنَةِ في فِلَسْطِينَ ، ومازالَتْ إِحْدَى حَرَكاتِ المُقاوَمَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ تَحْمِلُ اسْمَ (كَتائِبِ الشَّهِيدِ عِزِّالدِّينِ القَسَّام) .

وفي تُرْكِيا نَلْتَقِي بِالإمامِ الصُّوفي بَدِيعِ الزَّمانِ النُّورسِي الَّذي قادَ المُقاوَمَةَ في اسْتَنْبُول ، وتَصَدَّى لِحِزْبِ الاتِّحادِيِّينَ الَّذى كانَ يَسْعَى لِمَحْوِ الإِسْلامِ واللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ تُرْكِيا .

ونَوَدُّ أَنْ نُشِيرَ إِلَى أَنَّ الصُّوفِيَّةَ لَمْ تَكُنْ وَقْفاً عَلَى عامَّةِ النَّاسِ ومِنْ هَؤُلاءِ مُحَرِّرُ بَيْتِ المَقْدِسِ (صَلاحُ الدِّينِ الأَيُّوبي) إِذْ لَمْ يَكُنْ دَوْرُهُ التَّارِيخِيُّ مُنْحَصِراً في اسْتِرْدادِ بَيْتِ المَقْدِسِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ فَحَسْب (وإِنْ كانَ هَذا يَكْفِيهِ فَخْراً) بَلْ إِنَّهُ عَمِلَ أَيْضاً عَلَى تَوْحِيدِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ، وكانَ يُقَرِّبُ

(١) مُذَكِّراتُ أَنْوَر باشا ص ٧٨ .

أَهْلَ العِلْمِ وأَهْلَ الطَّرِيقِ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ حَتَّى كانَ مِنْهُم أَكْثَرُ جُنُودِهِ في مَعْرَكَةِ (حِطِّينَ) المَجِيدَة .

وها هُوَ ذا نَمُوذَجٌ آخَرُ لِلصُّوفِيَّةِ رمُوزِ التَّضْحِيَةِ والفِداءِ ، وهُوَ (صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ العَدَوِي) ، يَخْرُجُ في غَزْوَةٍ ومَعَهُ وَلَدُهُ ، وعِنْدَ المَعْرَكَةِ يَتَمَلَّى وَجْهَهُ المُضِيءَ وشَبابَهُ الباهِرَ ، ثُمَّ يَضُمُّهُ إِلَى صَدْرِهِ ، ويَدْفَعُهُ صَوْبَ الصُّفُوفِ المُلْتَحِمَةِ وهُوَ يَقُولُ : (أَى بُنَىَّ ، تَقَدَّمْ فَقاتِلْ حَتَّى أَحْتَسِبَكَ) !!

ويَنْدَفِعُ الفَتَى فَيُقاتِلُ حَتَّى يُسْتَشْهَدَ ، وأَبُوهُ في نَشْوَتِهِ العارِمَةِ ، يَكادُ مِنَ البَهْجَةِ يَذُوبُ .

ثُمَّ ماذا ؟ صَبْراً ، فالإِعْجازُ لَمْ يَبْلُغْ بَعْدُ تمامَهُ ، ولَسَوْفَ يَبْلُغُهُ عِنْدَما تَذْهَبُ النِّسْوَةُ بَعْدَ المَعْرَكَةِ ، إِلَى زَوْجَةِ (صِلَةَ بنِ أَشْيَم) وهِيَ أُمُّ الفَتَى الشَّهِيدِ ، واسْمُها (مُعاذَةُ العَدَوِيَّة) ذَهَبْنَ إِلَيْها مُعَزِّيَاتٍ ، فَإِذا بِها تَهْتِفُ في وُجُوهِهِنَّ (إِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِتُهَنِّئْنَنِي ، فَمَرْحَباً بِكُنَّ ، وإِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِغَيْرِ ذَلِكَ فارْجِعْنَ !!) .

ويُحَدِّثُنا (مالِكُ بنُ دِينارٍ) عَنْ أَخٍ لَهُ في اللهِ ، هُوَ (عَبْدُاللهِ بنُ غالِبٍ) وقَدْ رآهُ بِنَفْسِهِ في إِحْدَى مَعارِكِ القِتالِ ، يَقُولُ مالِكٌ :

(.. سَمِعْتُهُ يَقُولُ وقَد تَلاحَمَتِ الصُّفوفُ : إِنِّي لأَرَى أَمْراً مالِي عَلَيْهِ صَبْرٌ ، رُوحُوا بِنا إِلَى الجَنَّةِ ، ثُمَّ كَسَرَ جِفْنَ سَيْفِهِ ، وتَقَدَّمَ فَقاتَلَ حَتَى قُتِلَ ، فَكانَ يُوجَدُ مِنْ قَبْرِهِ رِيحُ المِسْكِ ، حَتَّى إِنَّ النَّاسَ كانُوا يَحْتَثُّونَ مِنْ تُرابِ قَبْرِهِ ويُعَفِّرونَ ثِيابَهُم لِتَفُوحَ طِيباً) .

وبَعْدَ هَذا كُلِّهِ ، قُولُوا لِي بِاللهِ عَلَيْكُم يا أَيُّها العُقَلاءُ :

أَفَهَؤُلاءِ الصُّوفِيَّةُ العِظامُ هُمْ مَنْ يُقالُ عَنْهُم إِنَّهُم يَعِيشُونَ في عُزْلَةٍ ؟ !!

أَفَهَؤُلاءِ هُمْ مَنْ يُقالُ عَنْهُم ، إِنَّهُم نَفَّضُوا أَيْدِيَهُم مِنْ مُشْكِلاتِ النَّاسِ والحَياةِ وعَكَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم وَحْدَها ، لا يَعْنِيهِم سِواها ؟! ، أَفَهَؤُلاءِ ، وقَدْ رَأَيْنا نِضالَهُم الباهِرَ في غُرُفاتِ العَرْشِ عِنْدَ الخُلَفاءِ والمُلُوكِ تارَةً ، وفَوْقَ أَرْضِ القِتالِ مَعَ أَعْداءِ الدِّينِ والبِلادِ تارَةً أُخْرَى ، أَفَهَؤُلاءِ كانُوا (كَما يُفْتَرى) يَحْيَوْنَ في عُزْلَةٍ ويَعيشُونَ في السَّحابِ ؟! لا أَظُنُّ أَنَّ عاقِلاً يَحْمِلُ ذَرَّةً مِنْ عَقْلٍ يَقُولُ بِهَذا أَو يَدْعُو إِلَيْه .

وقَبْلَ أَنْ نَتْرُكَ مَوْضُوعَ جِهادِ الصُّوفِيَّةِ نُشِيرُ إِلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الجِهادِ ، كانَ في السَّابِقِ لَهُ أَكْبَرُ الأَثَرِ في حِفْظِ حُدودِ بِلادِ المُسْلِمينَ مِنَ الغازِي والمُعْتَدِي وهُوَ الرِّباط :

الرِّباط (وجَمْعُهُ رُبُط)

اعْلَمْ أَنَّ تأْسِيسَ هَذهِ (الرُّبُطِ) مِنْ زِينَةِ هَذهِ المِلَّةِ الهادِيَةِ المَهْدِيَّةِ ، ولِسُكَّانِ الرُّبُطِ أَحْوالٌ تَمَيَّزوا بِها عَنْ غَيْرِهِم مِنَ الطَّوائِفِ ، وهُمْ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِم ، وما يُرَى مِنَ التَّقْصِيرِ في حَقِّ البَعْضِ مِنْ أَهْلِ زَمانِنا والتَّخَلُّفِ عَنْ طَرِيقِ سَلَفِهِم لا يَقْدَحُ في أَصْلِ أَمْرِهِم وصِحَّةِ طَرِيقِهِم . وهَذا القَدْرُ الباقِي مِنَ الأَثَرِ باجْتِماع الصُّوفِيَّةِ فى الرُّبُطِ ، ما هُوَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ بَرَكَةِ جَمْعِيَّةِ بَواطِنِ المَشايخِ الماضِينَ ، وأَثَرٌ مِنْ آثارِ مِنَحِ الحَقِّ في حَقِّهِم ، فالمُرابِطُونَ في الرُّبُطِ كَجَسَدٍ واحِدٍ بِقُلُوبٍ مُتَّفِقَةٍ وعَزائِمَ مُتَّحِدَةٍ ، وقَد تَحَقَّقُوا بِوَصْفِ الحَقِّ سُبْحانَهُ وتَعالَى لِلْمُؤْمِنِينَ : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1].

وبِعَكْسِ ذَلِكَ وَصَفَ الأَعْداءَ فَقالَ : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[2].

فالصُّوفِيَّةُ وظَيفَتُهُم اللاَّزِمَةُ هِيَ حِفْظُ نَقاءِ السَّرائِرِ ، وابْتِغاءُ كَمالِ الظَّواهِرِ لِأَنَّهُم بِنِسْبَةِ الأَرْواحِ اجْتَمَعُوا ، وبِرابِطَةِ التَّأْلِيفِ الإِلَهِي اتَّفَقُوا ، وبِمُشاهَدَةِ

(١) سُورَةُ الصَّف مِنَ الآية ٤ . (٢) سُورَةُ الحَشْر مِنَ الآية ١٤ .

القُلُوبِ تَواطَؤُوا ، ولِتَهْذِيبِ النُّفُوسِ وتَصْفِيَةِ القُلُوبِ فِي الرِّباطِ رابَطُوا .

وتَعْرِيفُ الرِّباطِ هُوَ : الوَقْفَةُ الَّتِي يَقِفُها أَبْناءُ الأُمَّةِ عَلَى الحُدودِ يُخِيفُونَ مُعَسْكَراتِ الشِّرْكِ ويَحْمُونَ حُدودَ البِلادِ ، والرِّباطُ : مِنْ أَصْعَبِ وأَشَقِّ المُهِمَّاتِ الَّتِي يَقُومُ بِها المُجاهِدونَ عَلَى حُدودِ العَدُوِّ ، وعادَةُ أَهْلِ الرِّباطِ أَنَّهُم فِئَةٌ تُقِيمُ في هَذا الرِّباطِ بَعِيداً عَنِ المُدُنِ واللَّهْوِ والضَّجِيجِ ، ويَعِيشُونَ حَياةَ الزُّهْدِ والوَرَعِ ، وهَذا لا شَكَّ يَحْتاجُ إِلَى جُهْدٍ وصَبْرٍ وجَلَدٍ وقُوَّةٍ ، ولِهَذا كانَ جُلُّ المُرابِطِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ صارَتْ لَفْظَةُ (مُرابِط) عَلَماً عَلَى الصُّوفِيَّةِ وأَوْلِياءِ اللهِ عامَّةً ، سَواءٌ في المَشْرِقِ أَو المَغْرِبِ العَرَبي ، يَقُولُ المُؤَرِّخُ (عَلِي مُصْطَفَى المَصْراتي) مُتَحَدِّثاً عَنِ الصُّوفِيَّةِ وإِقامَتِهِم في الرِّباطات : (يُؤَكِّدُ الرِّباطُ نَوْعاً مِنَ المُواجَهَةِ والمُصارَعَةِ ولَوْناً مِنْ أَلْوانِ الفُرُوسِيَّةِ والجِهادِ المُقَدَّسِ ، يُصَوِّرُ ويُؤَكِّدُ هَذا كَثْرَةُ المَزاراتِ والأَضْرِحَةِ لِلأَوْلِياءِ والمُتَصَوِّفَةِ عَلَى شَطِّ البَحْرِ عَلَى السَّاحِلِ ، وهِيَ في الواقِعِ أَماكِنُ لِلرِّباطاتِ وثَكَناتِ المُجاهِدِين .

والرِّباطُ مَوْطِنُ الجِهادِ ، وكانَتْ عُيُونُ هَؤُلاءِ الزُّهَّادِ المُتَعَبِّدِينَ عُيُوناً فاحِصَةً ، وأَيْدِيهِم عَلَى الزِّنادِ تُجابِهُ الغُزاةَ والقَراصِنَةَ ولُصُوصَ البَحْرِ مِنْ أُورُوبَّا ، وما وُجُودُ مِثْلِ هَذِهِ المَزاراتِ عَلَى شَطِّ طَرابُلُسَ مِثْلَ : الشِّعابِ ، وعَبْدِالجَلِيلِ ، والهَدَّار ، والمَصْري ، والأَنْدَلُسِي ، وأَيْضاً أَبُو شَعِيفَة بِقَصْرِ أَحْمَدَ بِمَصْراتَة ، وفي ناحِيَةِ زَواغَة ، وعِنْدَ زَوارَة مِنَ المَنْطِقَةِ الغَرْبِيَّةِ وغَيْرِها ما هِيَ إِلا رِباطاتٌ إِسْلامِيَّةٌ لِلدِّفاعِ عَنِ البِلادِ ، وحِمايَةِ الثُّغُورِ الإِسْلامِيَّةِ مِنَ اعْتِداءِ القَراصِنَةِ والوافِدِينَ مِنْ أُورُوبَّا)(١) .

والحالُ في (مِصْرَ المَحْرُوسَة) لا يَخْتَلِفُ أَلْبَتَّةَ ، عَنْ حالِ تِلْكَ البِلادِ ،

---

(١) كِتابُ (مُؤَرِّخُونَ مِنْ لِيبيا) لِلأُسْتاذ عَلِي مُصْطَفَى المَصْراتي ص ٨٨ - ٩٢ .

فَمَدِينَةُ الإسْكَنْدَرِيَّة عَلَى سَبِيلِ المِثال - وهِيَ مِنَ الثُّغُورِ الإسْلامِيَّةِ المُتَمَيِّزَة شاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ - فَعَلَى طُولِ شَطِّ الإسْكَنْدَرِيَّةِ (وهُوَ الطَّرِيقُ الرَّئِيسُ بِالمَدِينَةِ) ، نَجِدُ أَضْرِحَةَ ومَقاماتِ الصُّوفِيَّةِ الأَوْلياءِ ، وقَدْ أُلْحِق بِها مَساجِدُ بِأَسْمائِهِم ، وعَلاوَةً عَلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ سُمِّيَتْ غالِبيَّةُ مَناطِقِ وأَحْياءِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ بِأَسْماءِ أُولَئِكَ الصُّوفِيَّةِ الأَوْلياءِ ، ومَنْهُم مَثَلاً :

أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِي ، الشَّاطِبِي ، سِيدى جابِر ، سِيدى بِشْر ، القَبَّاري ، العَجَمِي ، سِيدى كِرير ، سِيدى عَبْدِالرَّحْمَن) .

وبَعْدُ ، فَقَدْ تَجَلَّى (تَجَلِّى الشَّمْسِ في رابِعَةِ الضُّحَى) دَوْرُ الصُّوفِيَّةِ الأَماجِدِ في الدِّفاعِ عَنْ بَيْضَةِ الإسْلامِ والمُسْلِمِينَ ومُقاوَمَةِ جُيُوشِ الاسْتِعْمارِ المُعْتَدِينَ فلاحُجَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ البَيانِ لِمَنْ تَذَرَّعَ بِالجَهْلِ وعَدَمِ المَعْرِفَةِ ، فَإِنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمْعَ وهُوَ شَهِيد .

تَتِمَّةٌ لِلْفائِدَةِ وهِيَ بِكُلِّ خَيْرٍ عائِدَة

دَوْرُ الزَّاوِيَةِ في النَّهْضَةِ العِلْمِيَّةِ الإِسْلامِيَّة

أُنْشِىءَ أَوَّلُ رِباطٍ صُوفِيٍّ (زاوِيَةٍ) في المَشْرِقِ في (عَبادان) أَنْشَأَهُ عَبْدُالواحِدِ بنُ زَيْدٍ حَوالَي سَنَةَ (١٥٠ هـ) ، أَمَّا في المَغْرِبِ وفي الشِّمالِ الإفْرِيقي عُمُوماً فَكانَ أَوَّلُ رِباطٍ عامَ (١٨٠ هـ) تَقْرِيباً بِـ(المَنَسْتِير) وتَلاهُ رِباطُ (سُوسَةَ) بِتُونُس عامَ (٢٠٦ هـ) ، ثُمَّ انْتَشَرَتْ الرُّبُطُ خِلالَ القُرونِ الثَّاني والثَّالِثِ والرَّابِعِ والخامِسِ الهِجْرِيَّةِ ، ونَظَراً لِأَنَّ الرِّباطَ قُصِدَ بِهِ في المَقامِ الأَوَّلِ الدِّفاعُ عَنِ الثُّغُورِ ضِدَّ هُجُومِ المُعْتَدِينَ مِنَ البَحْرِ ، فَقَدْ كانَ عِبارَةً عَنْ قَلْعَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ ومَلْجَأً لِلسُّكانِ المُسْلِمِينَ المُجاوِرِينَ في حالَةِ هُجُومِ الأَعْداءِ ، وقَدِ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الرُّبُطُ عَلى طُولِ السَّاحِلِ الأَفْرِيقِي ، وكانَتْ

وَسائِلُ الإِنْذارِ فِيما بَيْنَ هَذِهِ الحامِياتِ هِيَ إِشْعالُ النَّارِ لِتَعْلَمَ بَقِيَّةُ الرُّبُطِ فَتُقَدِّمَ النَّجْدَةَ والعَوْنَ ، ولِهَذا ، نُلاحِظُ وجُودَها عَلَى أَعْلَى مُرْتَفَعٍ في المَنْطِقَةِ عادَةً وأَقْرَبِهِ إِلَى البَحْرِ .

ومَعَ بداياتِ القَرْنِ الخامِسِ الهِجْري ابْتَدَأَ الرِّباطُ يَتَطَوَّرُ ويُضافُ إِلَى مَهامِّهِ مَهامٌّ أُخْرَى لا تَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عَنِ السَّابِقَةِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ مَعْهَداً لِتَعْلِيمِ المُسْلِمِينَ ، وخِلالَ سَبْعَةِ قُرونٍ مِنَ التَّطَوُّرِ أَصْبَحَتِ الزَّوايا جامِعاتٍ عِلْمِيَّةً أَكادِيمِيَّةً تَنْشُرُ العِلْمَ الإِسْلامِيَّ وتُخَرِّجُ كِبارَ العُلماءِ ، وتُقَدِّمُ المَأْوَى والقِرَى لِطُلَّابِ العِلْمِ وعابِرِي السَّبِيلِ ، وتَنْشُرُ الأَمانَ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ ، والأَهَمُّ مِنْ هَذا كُلِّهِ نَشْرُ الدِّينِ الإِسْلامِيِّ ومُحارَبَةُ المُرْتَدِّينَ ، ولَعَلَّنا نُلاحِظُ كَيْفَ أَنَّ جَمِيعَ مُشْركِي ووَثَنِيِّ شَمالِ أَفْرِيقْيا - باسْتِثْناءِ أَقَلِّيَّةٍ ضَئِيلَةٍ مِنَ اليَهُودِ - قَدْ دَخَلُوا الإِسْلامَ وهَذا لا شَكَّ لِكَثْرَةِ الزَّوايا في تِلْكَ المَناطِقِ ، إِذْ لَمْ تُوجَدْ هَذِهِ النِّسْبَةُ المُرْتَفِعَةُ مِنَ الانْتِشارِ حَتَّى في الشَّامِ والعِراقِ رَغْمَ وجُودِ الخِلافَةِ فِيها .

ومُقارَنَةً بالمُسْتَوى الثَّقافِي الإِسْلامِي عامَّةً ، نَجِدُ أَنَّ المَغْرِبَ العَرَبِيَّ كانَ طَوالَ القُرونِ التَّاسِعِ والعاشِرِ والحادِي عَشَرَ الهِجْرِيَّةِ أَغْزَرَ بِلادِ الإِسْلامِ عِلْماً ، ولازالَ التَّارِيخُ يَحْتَفِظُ بِصُورَةٍ مُشْرِقَةٍ لِلتَّنافُسِ العِلْمِيِّ الشَّدِيدِ الَّذي كانَ بَيْنَ زاوِيَةِ (الدَّلائِيِّينَ) وزاوِيَة (العَيَّاشِي) الَّذي يُذَكِّرُنا بالتَّنافُسِ الشَّدِيدِ بَيْنَ مَدْرَسَتَي (الكُوفَةِ) و(البَصْرَة) .

وقَدْ أَنْشَأَ الزَّاوِيَةَ الدَّلائِيَّةَ الشَّيْخُ (أَبُو بَكْر بنُ مُحَمَّد الدَّلائي) جَدُّ مُؤَلِّفِ كِتاب (نَتائِجُ التَّحصِيل) في أَواخِرِ القَرْنِ العاشِرِ الهِجْرِيِّ ، وقَدْ بَلَغَتْ هَذِهِ الزَّاوِيَةُ الغايَةَ مِنَ التَّقَدُّمِ في العُلُومِ[١] ، وخَرَّجَتْ فَطاحِلَ العُلَماءِ ونَوابِغَ الفُقَهاءِ، بَلْ وكانَتْ بِمُسْتَوَى جامِعِ القَرَوِيِّينَ ، فَكانَ بِها نُزُلٌ مَجانِيٌّ لِلطَّلَبَةِ فِيها ، لَهُ

---

(١) كِتاب (البُدُورُ الضَّاوِيَةُ في أَخْبارِ الزَّاوِيَةِ الدَّلائِيَّة) لأَبي الرَّبيع سُلَيْمان بن مُحَمَّد الحَوات .

مـا يَزِيـدُ عَلَى أَلْفٍ وأَرْبَعْمِائَةِ مَسْكَنٍ حَوْلَ الـزَّاوِيَـةِ ، وقَدْ كَثُرَ المُدَرِّسُونَ بِها مِنْ مُقِيمِيـنَ وزائِرِيـنَ ، وشُبِّهَـتْ مَكْتَبَتُها بِمَكْتَبَةِ (المُسْتَنْصِرِ) الشَّهِيـرَةِ بِالأَنْدَلُس .

وهُناكَ الزَّاوِيَةُ (العَيَّاشِيَّة) الَّتي أَنْشَأَها العَيَّاشِيُّ في (١٠٤٤ هـ) المَعْرُوفَةُ الآنَ بِزاوِيَةِ (سِيدي حَمْزَة) وتَقَعُ عَلَى وادِي (زِيز) ، وكانَتْ بِمُسْتَوَى الزَّاوِيَةِ (الدَّلائِيَّة) ، بَلْ كانَتْ مُنافِساً شَدِيداً لَها .

وهُنالِكَ أَيْضاً الزَّاوِيَةُ (العِيسَوِيَّةُ) الَّتي أَنْشَأَها العارِفُ بِاللهِ الشَّيْخُ (مُحَمَّد بنُ عِيسَى) ﷺ أَوائِلَ القَرْنِ العاشِرِ الهِجْرِي بـ(مِكْناس) ، وكانَتْ تُدَرِّسُ العُلُومَ الإِسْلامِيَّةَ وتُقَدِّمُ القِرَى والمَأْوَى لِعابِرِي السَّبِيلِ ، وكانَتْ مَأْوَى الرَّعِيَّةِ مِنْ جَوْرِ الحُكَّامِ ، وكَهْفَهُم الَّذي يَلُوذُونَ بِهِ مِنَ اسْتِبْدادِ الوَزَراءِ والأُمَراءِ مِنْ دَوْلَةِ (بَنِي مَرِين) .

ومِثْلُها الزَّاوِيَةُ الَّتي أَنْشَأَها (أَبُو المَحاسِن الفاسِي) سَنَةَ (٩٨٨ هـ) ، وكَذَلِكَ الزَّاوِيَةُ (النَّاصِرِيَّةُ) في (وادِي دِرْعَة) بـ(تامَكْروت) ، أَسَّسَها عُمَرُ الأَنْصارِيُّ عامَ (٩٨٣ هـ) وكانَ شَيْخُها في فَتْرَةٍ مِنَ الفَتَراتِ (مُحَمَّد بنُ ناصِر الدِّرْعِي) العالِمُ المَشْهُورُ ، وعَلَى غِرارِها الزَّاوِيَةُ الَّتي أَسَّسَها الشَّيْخُ (عَبْدُالسَّلام الأَسْمَر) بـ(زِلِيتن) في الثُّلُثِ الثَّاني مِنَ القَرْنِ العاشِرِ الهِجْرِي ، وكانَتْ تَحْتَوِي عَلَى مَكْتَبَةٍ كَبِيرَةٍ ، وكانَتْ مَدْرَسَةً عِلْمِيَّةً شامِخَةً بِالمَنْطِقَةِ ، حافَظَتْ رَغْمَ الظُّروفِ عَلَى كَيانِها ومَنْهَجِها عَبْرَ القُرونِ ، وهِيَ أَكْبَرُ مَعْهَدٍ لِتَحْفِيظِ القُرْآنِ بِلِيبيا الآن .

وهُناكَ المِئاتُ مِنْ أَمْثالِ هَذِهِ الزَّوايا ، وغَيْرِها الَّتي كانَتْ تَجْمَعُ إِلَى جانِبِ تِلْكَ الأَنْشِطَةِ العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ مُهِمَّةَ قِراءَةِ وإِقْراءِ القُرْآنِ الكَرِيمِ ، وعَقْدَ المَجالِسِ والحَضَراتِ لِتِلاوَةِ الأَذْكارِ ، وتَرْبِيَةِ المُرِيدينَ التَّرْبِيَةَ الإِسْلامِيَّةَ

الصَّافِيَةَ الصَّحِيحَة .

إنَّ مِمَّا يُؤَكِّدُ هَذا الزَّخَمَ الوُجُودِيَّ والأَثَرَ الاجْتِماعِيَّ والدِّينِيَّ الواسِعَ والإيجابِيَّ لِنُشوءِ الزَّوايا وكَثْرَتِها ، ما قامَ بِهِ الرَّحَّالَةُ الشَّهِيرُ (ابْنُ بَطُّوطَة) بَعْدَ رِحْلَتِهِ المَدِيدَةِ الَّتي امْتَدَّتْ (٢٨ عاماً) ، وانْطَلَقَتْ مِنْ (طَنْجَة) لِتَجُوبَ أَصْقاعَ العالَمِ في آسْيا وأَفْرِيقْيا والأَنْدَلُس ، حَيْثُ وَضَعَ بَعْدَ هَذهِ الرِّحْلَةِ العِلْمِيَّةِ والبَحْثِيَّةِ كِتاباً يَذْكُرُ فِيهِ ما يَقْرُبُ مِنْ مِائَةٍ وثَلاثِينَ زاوِيَةً كانَتْ تُقَدِّمُ الطَّعامَ وتُقْرِي الضَّيْفَ ، وتُقَدِّمُ لِلْمُسافِرِ الأَمْنَ والطُّمَأْنِينَةَ ، بَلْ وتُعْطِيهِ الزَّادَ والثِّيابَ في طُولِ البِلادِ الإسْلامِيَّةِ وعَرْضِها وحَتَّى غَرْبِ آسْيا)(1)

وتُضافُ في(مِصْرَ) لِبَعْضِ الزَّوايا مُهِمَّةٌ نَبِيلَةٌ جَدِيدَةٌ أَلاَ وهِيَ : إيواءُ النِّساءِ اللاَّتي طُلِّقْنَ أَو هُجِرْنَ ولا مَأْوَى لَهُنَّ ، حَتَّى يَتَزَوَّجْنَ أَو يَرْجِعْنَ إِلَى أزواجِهِنَّ في أَقْسامٍ خاصَّةٍ صِيانَةً لَهُنَّ ، بِفَضْلِ ما كانَ فِيها مِنْ شِدَّةِ الضَّبْطِ وغايَةِ الاحْتِرازِ والمُواظَبَةِ عَلَى الطَّاعاتِ ، فَضْلاً عَنْ أَنَّ تِلْكَ الأَقْسامَ كانَتْ خاضِعَةً لإشْرافٍ مِنْ قِبَلِ نِساءٍ مُؤَهَّلاتٍ عَلَى غِرارِ المَدارِسِ الدَّاخِلِيَّةِ في عَصْرِنا هذا .(2)

---

(1) انْظُر : رِحْلَةَ ابْنِ بَطُّوطة .

(2) انْظُر : خُطَطَ المَقْريزي ج ٢ ص ٢٩٤ .

جِهادُ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ وسَلاَطِينِها العِظام

وأَنَّهُم مَوْضِعُ اعْتِزازٍ لِمَنِ انْتَمَى بِحَقٍّ إلَى الإِسْلام

يَصِفُ المُؤَرِّخُونَ (عُثْمانَ) الْجَدَّ بِأَنَّهُ كانَ مَلِكاً عادِلاً شُجاعاً عامِراً مُجاهِداً يُراعِي الأَيْتامَ والأَرامِلَ ويُحْسِنُ إِلَيْهِم ، وكانَ يُحِبُّ العُلَماءَ والصُّلَحاءَ ، وكانَ كَثِيرَ التَّرَدُّدِ إِلَى الشَّيْخِ العارِفِ باللهِ (أَدَه بالي القَرْمانِي) ، ورُبَّما يَبِيتُ في زاوِيَتِهِ ، فَرَأَى لَيْلَةً في مَنامِهِ قَمَراً أُخْرِجَ مِنْ حُضْنِ الشَّيْخِ (أَدَه بالي القَرْماني) فَدَخَلَ فى حُضْنِهِ ، وعِنْدَ ذَلِكَ نَبَتَتْ مِنْ سُرَّتِهِ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ سَدَّتْ أَغْصانُها الآفاقَ ، وتَحْتَها جِبالٌ راسِياتٌ ذاتُ أَنْهارٍ وعُيُونٍ ، والنَّاسُ يَنْتَفِعُونَ مِنْ تِلْكَ المِياهِ . فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ الأَمِيرُ (عُثْمانُ) قَصَّ رُؤْياهُ عَلَى الشَّيْخِ فَقالَ لَهُ : لَكَ البِشارَةُ بِمَنْصِبِ السَّلْطَنَةِ ، وسَيَعْلُو أَمْرُكَ ، ويَنْتَفِعُ النَّاسُ بِكَ وبِأَوْلادِكَ ، وإِنِّى زَوَّجْتُكَ ابْنَتِي ، فَقَبِلَها الأَمِيرُ عُثْمانُ وتَزَوَّجَ بِها ، فَوَلَدَتْ لَهُ أَوْلاداً مِنْهُم السُّلْطانُ أُورْخان[١].

وهَكَذا امْتَزَجَتْ دِماءُ الأَبْطالِ المُجاهِدِينَ بِصدْقٍ فى سَبِيلِ اللهِ بِدِماءِ أَهْلِ الوِلايَةِ والصَّلاحِ لِتُخْرِجَ سِلْسِلَةَ السَّلاطِينِ العُثْمانِيِّينَ العِظام .

تَصِفُ الكُتُبُ الشَّيْخَ (أَدَه بالي القَرْماني) بِأَنَّهُ كانَ عالِماً عامِلاً عابِداً زاهِداً ، مَقْبُولَ الدَّعْوَةِ ، وكانُوا يَتَبَرَّكُونَ بِأَنْفاسِهِ الشَّرِيفَةِ ، وكانَ ذا ثَرْوَةٍ عَظِيمَةٍ إِلَّا أَنَّهُ أَنْفَقَها في اللهِ ، وسَلَكَ مَسْلَكَ الصُّوفِيَّةِ ، وبَنَى فى الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ زاوِيةً[٢].

أَمَّا السُّلْطانُ عُثْمانُ (رَأْسُ العائِلَةِ) فَهاكَ بَعْضاً مِنْ صِفاتِهِ :

(كانَ السُّلْطانُ عُثْمانُ صالِحاً عابِداً زاهِداً مُتَواضِعاً مُعَظِّماً لِلدِّينِ وأَهْلِهِ

---

(١) تَهْذِيبُ تاريخ الدُّوَل الإِسْلامِيَّةِ بالجداول المَرْضِيَّة (أَحْمَد زيني دَحْلان) ص١٧٠ .

(٢) الشَّقائِقُ النُّعْمانِيَّةُ فى عُلَماءِ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة (طاشْكُبْري زادَه) ص٦ .

وشَعائرِهِ ، يُرْوَى أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَتَسَلْطَنَ كانَ مُسافِراً إِلَى مَوْضِعٍ فَنَزَلَ ضَيْفاً عَلَى إِنْسانٍ ، فَلَمَّا أَرادَ النَّوْمَ رَأَى مُصْحَفاً مُعَلَّقاً فى المَوْضِعِ الَّذى كانَ بهِ ، فَوَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهِ إِلَى الصَّباحِ تَعْظِيماً لِلْمُصْحَفِ وتَرَكَ النَّوْمَ ، ومِنْ زُهْدِهِ فى الدُّنْيا أَنَّهُ ما خَلَّفَ نَقْداً ولا مَتاعاً ، إِلَّا دِرْعاً وسَيْفاً (يُقاتِلُ بِهِما أَعْداءَ الإِسْلام) ، وشَيْئاً مِنَ الخَيْلِ وشَيْئاً مِنَ الأَغْنام ، فالغَنَمُ الَّتى تَرْعَى فى نَواحي مَدِينَةِ بَروسا بِاسْمِ السَّلاطِينِ العُثْمانِيَّةِ مِنْ نَسْلِ تِلْكَ الأَغْنام ، وخَلَّفَ مِنَ الثِّيابِ قُفْطاناً وعِمامَةً وبَعْضَ مَناطِقَ مِنْ نَسايجِ القُطْنِ ومَعْلَقَةً ومَمْلَحَةً وذَلِكَ لِزُهْدِهِ في الدُّنيا وكَثْرَةِ كَرَمِهِ وإِنْعاماتِهِ عَلَى العَساكِرِ الَّذِينَ كانَ يَسْتَجْلِبُهُم إِلَيْهِ لِجِهادِ أَعْداءِ الإِسْلامِ ، حَتَّى كانُوا يُلْقُونَ أَنْفُسَهُم في المَهالِكِ لأَجْلِ خِدْمَتِهِ ونُصْرَتِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى).[١]

ظَلَّتِ الدَّوْلَةُ العُثْمانِيَّةُ طَوالَ تارِيخِها المَجِيدِ دَوْلَةً سُنِّيَّةً مُجاهِدَةً ، مُعَظِّمَةً لِشَرائِعِ اللهِ ، داعِيَةً إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى حَوَّلَت شَرْقَ أُورُوبَّا إِلَى الإِسْلامِ ووَصَلَتْ بِفُتوحاتِها إِلَى أَبْوابِ فِيينَّا .

جَمَعُوا بَيْنَ البُطُولَةِ والحَزْمِ ، وبَيْنَ السَّماحَةِ والرِّفْقِ في تَزاوجٍ عَظِيمٍ لَمْ تَعْرِفْهُ الدُّنْيا إِلَّا فى دَوْلَةِ الإِسْلام .

كانَتْ جُيُوشُ الدَّوْلَةِ تَخوضُ الحُروبَ بِحَمِيَّةٍ دِينِيَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وكانَتْ عِبارَةُ : (إِمَّا غازي وإِمَّا شَهِيد) مِنَ الكَلِماتِ الَّتى تَتَكَرَّرُ عَلَى الأَلْسُنِ فى جَمِيعِ الأَوْساطِ عِنْدَ التَّكَلُّمِ عَنِ السَّفَرِ إِلَى مَيادِينِ الحَرْبِ والقِتال.[٢]

لَقَدْ أَخَذوا الدِّينَ بِجَمِيعِ جَوانِبِهِ ، لَمْ يَأْخُذوا جانِباً ويَدَعُوا آخَرَ كَما فَعَلَ الخَوارِجُ وغَيْرُهُم مِنَ المُبْتَدِعَةِ ، فَكانَ الأَساسُ الَّذى شُيِّدَ عَلَيْهِ بِناءُ الدِّينِ هُوَ حُبُّ اللهِ والرَّسُولِ وأَهْلِ البَيْتِ والصَّحابَةِ والصَّالِحِينَ ، وما يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ

---

(١) تهذيبُ الدَّولةِ الإسلاميَّة ص١٧١ .
(٢) شوقى شاعرُ الخلافةِ الإسلاميَّة (مُحمَّد خالد ثابت) ص٢٧ .

زُهْدٍ فى الدُّنْيا وطَلَبٍ لِلآخِرَة .

يَقُولُ د . حُسَيْنُ مُجِيبُ المِصْرِى :

(ولَـمَّا اسْتَوْثَقَ الأَمْرُ لِلأَتْرَاكِ العُثْمانِيِّينَ في الأَناضُولِ كانَتْ تِلْكَ البِلادُ مُمْتَلِئَةَ الأَرْجاءِ بِالزَّوايا والتَّكايا ، فَقَدْ مالَ القَوْمُ إِلَى التَّزَهُّدِ والتَّعَبُّدِ مُلْتَمِسِينَ بِذَلِكَ مَخْرَجاً ومَهْرَباً مِنْ دُنْياهُم الَّتى وَقَعَتْ فى قُلُوبِهِم كراهَتُها ، ورَأَوا مِنَ الخَيْرِ أَنْ يَقْطَعُوا ما بَيْنَهُم وبَيْنَها مِنْ أَسْبابٍ ، ويُعْرِضُوا عَنْ مَفاتِنَ لَها إِلَى فَناءٍ ، فَرَقَّتْ قُلُوبُهُم لِلتَّقْوَى ، وتَفَتَّحَتْ لِرُوْحانِيَّةِ التَّصَوُّفِ)[1].

ها هِىَ ذِي العَساكِرُ العُثْمانِيَّةُ قَدْ أَحاطَتْ بِأَسْوارِ القُسْطَنْطِنِيَّةِ وقَدْ عَقَدوا العَزْمَ عَلَى فَتْحِها ، فالشَّهْرُ الآنَ رَمَضانَ ، وهُمْ صائِمُونَ . يَرْجُونَ مِنَ اللهِ النَّصْرَ والفَتْحَ القَرِيب .

وكانَ السُّلْطانُ قَدْ بُشِّرَ بِالفَتْحِ ، بَشَّرَهُ بِهِ العارِفُ بِاللهِ الشَّيْخُ (آق شَمْسُ الدِّين) الَّذى حَرِصَ السُّلْطانُ عَلَى أَن يَكُونَ فى صُحْبَتِهِ في هَذِهِ الغُزاة .

وكانَ الشَّيْخُ (آق شَمْسُ الدِّين) مِنْ كِبارِ مَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ ، كانَتْ لَهُ الكَراماتُ العَلِيَّةُ والمَقاماتُ السَّنِيَّةُ ، وكانَ طَبِيباً ، ولَهُ فى الطِّبِّ تَصانِيفُ ، ويُرْوَى أَنَّ العُشْبَ تُنادِيهِ وتَقُولُ : أَنا شِفاءٌ مِنَ المَرَضِ الفُلاني (وهَذا مِنْ جُمْلَةِ كَراماتِه) .

يَرْوِى شاهِدُ عِيانٍ كَيْفَ تَمَّ فَتْحُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ ، فَيَقُولُ :

(.. ونَظَرْتُ فَإِذا هُوَ (أَى الشَّيْخُ) ساجِدٌ عَلَى التُّرابِ ، ورَأْسُهُ مَكْشُوفٌ وهُوَ يَتَضَرَّعُ ويَبْكي ، فَما رُفِعتْ رَأْسُهُ إِلَّا قامَ عَلَى رِجْلِهِ وكَبَّرَ وقالَ : الحَمْدُ للهِ مَنَحَنا اللهُ تَعالَى فَتْحَ القَلْعَة .

فَنَظَرْتُ إِلَى جانِبِ القَلْعَةِ فَإِذا العَسْكَرُ قَدْ دَخَلُوا بِأَجْمَعِهِم ، فَفَتَحَ اللهُ تَعالَى

---

(١) أَبُو أَيُّوبَ عِنْدَ العَرَبِ والتُّرْكِ (د. حُسَيْن مُجِيب المِصْرِى) ص٩.

بِبَرَكَةِ دُعائِهِ ، وكانَتْ دَعْوَتُهُ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّباق .

ولَـمَّـا دَخَلَ السُّلْطانُ (مُحَمَّد خان) القَلْعَةَ ، قِيلَ لَهُ : هَذا ما أَخْبَرَ بِهِ الشَّيْخُ فَقالَ : ما فَرِحْتُ بِهذا الفَتْحِ وإنَّما فَرَحِي مِنْ وُجُودِ مِثْلِ هَذا الرَّجُلِ في زَماني) .

وتَمْضِي الرِّوَايَةُ قائِلَةً :

(وصَلَّى السُّلْطانُ خَلْفَهُ (أَى خَلْفَ الشَّيْخِ وكانَتْ صَلاةُ الفَجْرِ - ثُمَّ قَرأَ الشَّيْخُ الأَوْرادَ والسُّلْطانُ جالِسٌ أَمامَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَسْتَمِعُ الأَوْرادَ فَلَمَّا أَتَمَّها ، الْتَمَسَ مِنْهُ أَنْ يُعَيِّنَ مَوْضِعَ قَبْرِ الصَّحابِيِّ الجَليلِ (أَبِى أَيُّوبَ الأَنْصاري) رضي الله عنه وكانَ يُرْوَى فِي كُتُبِ التَّوارِيخِ أَنَّ قَبْرَهُ بِمَوْضِعٍ قَرِيبٍ مِنْ سُورِ قُسْطَنْطِينِيَّة .

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ جاءَ وقالَ : إِنِّى أُشاهِدُ فِي هَذا المَوْضِعِ نُوراً لَعَلَ قَبْرَهُ هَهُنا) [(١)] .

ومَضَى السُّلْطانُ والشَّيْخُ إِلَى مَوْضِعِ القَبْرِ ، وطَلَبَ السُّلْطانُ مِنَ الشَّيْخِ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُ مَوْضِعَهُ حَتَّى يُقِيمَ عَلَيْهِ بِناءً .

وعِنْدَ مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ أَمَرَهُم الشَّيْخُ أَنْ يَحْفُروا مِقْدارَ ذِراعَيْنِ ، فَسَوْفَ يَجِدونَ لَوْحَةً مِنَ الرُّخامِ عَلَيْها خَطٌّ كُوفِيٌّ أَنَّ هَذا قَبْرُ المُضِيفِ (أَبى أَيُّوبَ الأَنْصارِى) رضي الله عنه، فَلَمَّا حَفَروا مِقْدارَ ذِراعَيْنِ ظَهَرَ الرُّخامُ وعَلَيْهِ الخَطُّ الَّذي أَخْبَرَ بِهِ الشَّيْخُ ، فَحَدَثَ لِلسُّلْطانِ حالٌ عَظِيمٌ حَتَّى كادَ أَنْ يُسْقِطَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ السُّلْطانُ بِبِناءِ قُبَّةٍ عَلَى القَبْرِ ، وأَمَرَ بِبِناءِ مَسْجِدٍ عَظِيمٍ .

يَقُولُ د . حُسَيْنُ مُجِيبُ المِصْرى :

(كانَ كَشْفُ القَبْرِ فى عِدادِ كَراماتِ (آق شَمْس الدِّين) الَّتي تَناقَلَتْها أَلْسِنَةُ المَدِيحِ عَلَى الأَيَّامِ ، وأَصْبَحَتْ عِنْدَ التُّرْكِ خُصُوصاً مَكْرُمَةً لَهُ باقِيَةً ، كَما اقْتَرَنَ مَجْدُ الفاتِحِ بِمَأْثَرةِ الشَّيْخِ ، وجَلالِ ذِكْرَى الصَّحابِيِّ رضي الله عنه .

---

(١) الشَّقائِقُ النُّعْمانِيَّةُ ص١٣٩ - ١٤١ .

ولَعَلَّ الفَضْلَ الأَعْظَمَ مَنْسُوبٌ إِلَى مَنْ بَشَّرَ بِالفتْحِ فَشَحَذَ العَزائِمَ ، وكَشَفَ القَبْرَ الشَّرِيفَ فَعَمَّرَ قُلُوبَ التُّرْكِ وبِلادَهُم بِهَذا النُّورِ المُنْبَعِثِ مِنْ صَفاءِ الرُّوحِ ورَوْعَةِ الإيمان)[١].

وإِنْ كانَ إِبْراهِيمُ الحَرْبِيُّ صاحِبُ الإِمامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلَ رضي الله عنه، قالَ عَنْ قَبْرِ مَعْروفٍ الكَرْخِيِّ : (قَبْرُ مَعْروفٍ التِّرْياقُ المُجَرَّب) ، فَإِنَّ قَبْرَ (أَبى أَيُّوبَ) رضي الله عنه، كانَ لِلدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، إِذْ أَمَدَّهُم بِرُوحِ الجِهادِ والتَّضْحِيَةِ ، ونَوَّرَ حَياتَهُم بِبُشْرَياتِ النَّصْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ مَقامُهُ بَيْنَهُم مَدْعاةً لِلْبَرَكَةِ فَحَسْب ، ولا أَيْضاً لِقَضاءِ الحاجاتِ فَقَط ، وإِنَّما لِبَثِّ رُوحِ الفِداءِ فِيهِم جِيلاً بَعْدَ جِيل .

أَحاطَ التُّرْكُ قَبْرَ (أَبى أَيُّوبَ) رضي الله عنه ومَسْجِدَهُ بِكافَّةِ أَنْواعِ الاهْتِمامِ ومَشاعِرِ التَّقْدِيسِ ، فَوُقِفَتْ عَلَيْهِ الأَوْقافُ وأُقِيمَتْ حَوْلَهُ البِناءاتُ مِنْ زَوايا لِلصُّوفِيَّةِ ومَبَرَّةٍ ومَدارِسَ وحَمَّاماتٍ واهْتَمَّ كَثِيرونَ أَنْ يُدْفَنُوا بِجِوارِهِ ، فَأُنْشِئَتْ مَقابِرُ وحَدائِقُ غَنَّاءُ وشَوارِعُ حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ أَجْمَلِ أَحْياءِ اسْتَنْبُول .

يَقُولُ د . حُسَيْنُ مُجِيب : (إِنَّ الأَتْراكَ دَرَجُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذوا أَطْفالَهُم إِلَى قَبْرِ أَبى أَيُّوبَ فِى أَوَّلِ عَهْدِهِمْ بِالتَّعْلِيمِ ، فَيَزُوروهُ ويَلْتَمِسُونَ عِنْدَهُ البَرَكاتِ والرَّحَماتِ ، وإِذا أَرادَ أَحَدٌ أَنْ يَقُومَ بِخِتانِ طِفْلٍ لَهُ ذَهَبَ بِهِ أَوَّلاً إِلَى أَبى أَيُّوب) .

إِنْ كانَ هُناكَ اليَوْمَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ فى الكَوْنِ قَوانِينَ غَيْرُ مَرْئِيَّةٍ أَو مَلْمُوسَةٍ ، ولَكِنَّها أَقْوَى مِنْ قَوانِينِ المادَّةِ بِكَثِيرٍ ، وأَنَّ لِلأَرْواحِ تَواصُلاً وتَرابُطاً تَعْجَزُ عَنْ مِثْلِهِ الأَبْدانُ ، إِنْ كانَ هُناكَ مَنْ يُنْكِرُ هَذا فَإِنَّ الشَّعْبَ العُثْمانِيَّ آمَنَ بِذَلِكَ ، ورَزَقَهُ هَذا الإِيمانُ قُوَّةً فَتَحَ بِها الفُتُوحَ ، ونَشَرَ بِها الدِّينَ ، وحافَظَ

(١) أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصارِيُّ عِنْدَ العَرَبِ والتُّرْكِ ص٧٤ .

عَلَى عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، ودَافَعَ عَنْها وعَنْ بِلادِها خَمْسَةَ قُرونٍ مُتَوالِيَةٍ ، وفَتَحَ قِلاعَ الشِّرْكِ وحُصُونَهُ فى أُوروبَّا حَتَّى كادَتْ أَنْ تُصْبِحَ قارَّةً مُسْلِمَةً .

يَصِفُ د . حُسَيْنُ مُجِيب : كَيْفَ كانَ سَلاطِينُ العُثْمانِيِّينَ يَتَقَلَّدُونَ سَيْفَ (عُثْمانَ) فى مَسْجِدِ (أَبِى أَيُّوبَ) فى احْتِفالٍ مَهِيبٍ ، ومِنْهُ تَطِيرُ البُشْرَى إِلَى أَنْحاءِ العالَمِ بِتَوَلِّى السُّلْطانِ الجَدِيد .

وكانَتْ بِدايَةُ هَذا التَّقْلِيدِ عِنْدَما تَسَلَّمَ (عُثْمانُ) مَقالِيدَ الحُكْمِ ، فَكانَ الَّذى وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ شِعارَ السَّلْطَنَةِ ونَطَقَهُ بِسَيْفٍ هُوَ مَوْلانا (جَلالُ الدِّينِ الرُّومِىُّ) عَظِيمُ المُتَصَوِّفَةِ فى مَدِينَةِ (قُونْيَة) وهَكَذا جَرَتِ العادَةُ بَيْنَ سَلاطِينِ آلِ عُثْمانَ إِلَى آخِرِ عَهْدِهِمْ ، أَنَّ كُلَّ مَنْ يَتَوَلَّى السَّلْطَنَةَ يَقْصِدُ إِلَى ضَرِيحِ (أَبِى أَيُّوبَ) حَيْثُ يَضَعُ فى وَسَطِهِ السَّيْفَ (سَيْف عُثْمانَ) واحِدٌ مِنْ سُلالَةِ مَوْلانا جَلالِ الدِّين .

وهَكَذا نَرَى كَيْفَ أَنَّ الدَّوْلَةَ العُثْمانِيَّةَ دَوْلَةٌ قامَتْ عَلَى العِبادَةِ والجِهادِ ، شَأْنُها فِي ذَلِكَ شَأْنُ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِنْ أَصْحابِ النَّبِىِّ ﷺ الَّذينَ وُصِفُوا بِأَنَّهُم رُهْبانٌ بِاللَّيْلِ فُرْسانٌ بِالنَّهارِ ، وهَذانِ هُما رُكْنا الدِّينِ ، يَقَعانِ مِنْهُ مَوْقِعَ الجَناحَيْنِ مِنَ الطَّائِرِ ، لا يَطِيرُ بِغَيْرِهِما .

الحب صبغتهم والقرب غايتهم

الحب صبغتهم والقرب غايتهم

مَحَبَّةُ اللهِ ورَسُولِهِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ ، إذْ هِيَ مِنْ لَوازِمِ الإيمانِ وأُسُسِهِ ، والمَحَبَّةُ السَّلِيمَةُ والصَّحِيحَةُ تَقُومُ عَلَى المَعْرِفَةِ بِالعَقْلِ والقَلْبِ مَعاً وعَلَى المُوافَقَةِ بَيْنَ المُحِبِّ والمَحْبُوبِ ، ثُمَّ إنَّ المَحَبَّةَ فى ذاتِها عَلَى مَراتِبَ ودَرجاتٍ :

(١) مِنْها (مَحَبَّةُ عامَّةِ النَّاسِ) : وهِيَ الَّتي تَتَوَلَّدُ مِنْ إحْسانِ اللهِ تَعالَى لِعِبادِهِ وعَطْفِهِ عَلَيْهِم .

(٢) وأَعْلَى مِنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ (مَحَبَّةُ الصَّادِقِينَ) : وهِيَ الَّتى تَتَوَلَّدُ مِنْ غِنَى القَلْبِ بِعَظَمَةِ اللهِ وجَلالِه .

(٣) وأَسْمَى هَذهِ الدَّرَجاتِ (مَحَبَّةُ العارِفِينَ) : وذَلِكَ حِينَ يَتَعَرَّفُ القَلْبُ بِقَدِيمِ حُبِّ اللهِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ .

وثَمَّةَ أَمْرٌ آخَرُ ، أَلا وهُوَ أَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ ومَحَبَّةَ رَسُولِهِ كُلٌّ لا يَتَجَزَّأُ ، ولَيْسَ بَيْنَهُما مَسافَةٌ تَسْمَحُ بِمُرورِ شَعْرَةٍ دَقِيقَةٍ ، فَإِذا ما ذُكِرَتْ عِبارَةُ (حُبِّ اللهِ) فَهِيَ تَعْني لِزاماً (حُبَّ رَسُولِهِ) ، وإذا ذُكِرَتْ عِبارَةُ (حُبِّ النَّبِيِّ) ﷺ فَهِيَ تَعْنِي تَضَمُّناً (حُبَّ اللهِ) ، لأَنَّ مَحَبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ مَظْهَرُ مَحَبَّةِ اللهِ ومَحَبَّةَ اللهِ أَساسُ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ .

وعَلَى هَذا ، لَيْسَ مُسْلِماً قَطُّ مَنْ قالَ : إنَّهُ يُحِبُّ اللهَ دُونَ الرَّسُولِ ، أَو العَكْسَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ مَنْ قالَ :

(لا إلَهَ إلاَّ الله) ، ولَمْ يُتْبِعْها بـ(مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله) .

ولْيَعْلَمِ النَّاسُ أَنَّ دَوامَ الحُبِّ (أَيِّ حُبٍّ) وإثْمارَهُ رَهِينٌ بِأَنْ يَكُونَ للهِ والرَّسُولِ ، فَمَحَبَّةُ اللهِ هِيَ الأَصْلُ ، ومَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ الفَرْعُ الأَعْظَمُ

الَّذى تَتفرَّعُ مِنْهُ سائِرُ المَحابّ .

ذَلِكَ أَنَّ سَيِّدَنا ونَبِيَّنا مُحَمَّداً ﷺ هُوَ الواسِطَةُ العُظْمَى بَيْنَ اللهِ وجَمِيعِ مَخْلُوقاتِهِ ، فَقَدْ جاءَ فى الحَديثِ القُدْسِيِّ قَوْلُ اللهِ تَبارَكَ وتَعالَى :

(وعِزَّتِى وجَلالِي لَوْ أَتَوْنِي مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ واسْتَفْتَحُوا مِنْ كُلِّ بابٍ ما فَتَحْتُ لَهُم حَتَّى يَدْخُلُوا مِنْ طَرِيقِكَ) .

إِذَنْ ، كُلُّ مَنْ يَدَّعِي مَحَبَّةَ اللهِ بِغَيْرِ واسِطَةِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَهُوَ كاذِبُ الدَّعْوَى ، سَواءٌ أَكانَ مِنَ المُسْلِمِينَ أَمْ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ ، وما أَصْدَقَ قَوْلَ العالِمِ الصُّوفِيِّ الكَبِيرِ السَّيِّد (مُحَمَّدٍ البَكْرِيِّ)فى هَذا المَعْنَى :

فَأَنْتَ بابُ اللهِ أَيُّ امْرِيءٍ ❋ أَتاهُ مِنْ غَيْرِكَ لا يَدْخُلُ

وإِنَّنا نَجْزِمُ بِأَنَّ المَعْرِفَةَ هِيَ أَوْسَعُ أَبْوابِ الحُبِّ ، إِذْ كَيْفَ يُحِبُّ الإِنْسانُ ما يَجْهَلُهُ ، فَبَعْضُ الفِئاتِ الغَيْرِ مُسْلِمَةٍ مَثَلاً يَدَّعُونَ أَنَّهُم يُحِبُّونَ اللهَ ، وما أَحَبُّوهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ! وكَيْفَ يُحِبُّونَ ما يَجْهَلُون ؟ ، لَقَدْ جَهِلوا أَو تَجاهَلُوا أَنَّ اللهَ الَّذى أَرْسَلَ (عِيسَى) عليه السلام هُوَ الَّذى أَرْسَلَ مُحَمَّداً ﷺ ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﷺ وكانَ ذَلِكَ جَهْلاً مِنْهُم بِرَبِّهِم ، فَتَخَبَّطُوا فِي أَمْرِهِ ، ولَعِبَ بِهِم الشَّيْطانُ كَما يَلْعَبُ الصَّبِيُّ بِالدُّمَى ، فَقالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وقالُوا إِنَّهُ ثالِثُ ثَلاثَةٍ ، وادَّعَوا لَهُ صاحِبَةً ووَلَداً ، فَعَبَدوا رَبّاً يَمُوتُ ويُصْلَبُ ويُعَذَّبُ !!

ومِمَّا يَحْزُنُ لَهُ القَلْبُ ويَعْجَبُ مِنْهُ العَقْلُ ، أَنْ تَجِدَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ فِرَقاً وجَماعاتٍ تَدَّعِي الإِسْلامَ ، وهِيَ فى حَقِيقَتِها خارِجَةٌ عَنْ صُفُوفِ الحَقِّ مُنْتَسِبَةٌ إِلَى أَهْلِ الأَهْواءِ والبِدَعِ ، يكادُ يَجْمَعُ بَيْنَها (عَلَى اخْتِلافِ مذاهِبِها وتَبايُنِها الشَّدِيدِ) أَمْرٌ واحِدٌ ، بِحَسَبِ ظَنِّى بَلْ بِحَسَبِ اعْتِقادى ، نَقْصُ مَحَبَّتِهِم لِلنَّبِيِّ ﷺ ، ولَوْ أَنَّهُم أَحَبُّوهُ لَكانَتْ مَحَبَّتُهُ عِصْمَةً لَهُم مِنَ الزَّيْغِ

والانْحِرافِ ، لأَنَّ (المَرْءَ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ) كَما قالَ المُصْطَفَى ﷺ.(١)

نَعَم .. (إِنَّ الحُبَّ جَوْهَرُ الحَياة .. إِنَّ الحُبَّ يُوَلِّدُ فى النُّفُوسِ طاقَةً لا تَعْدِلُها طاقَةٌ أُخْرَى فى الكَوْنِ ولا تُقارِبُها).(٢)

وإذا كانَ الحُبُّ شُعُوراً إنْسانِيَّاً يَسْتَقِرُّ فى القَلْبِ بَعْدَ العَقْلِ ، وإذا كانَ الصُّوفِيَّةُ أَرْبابَ العُقُولِ وأَهْلَ القُلُوبِ ، كانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ بَلْ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ يَكُونَ احْتِفاؤُهُم بمَوْضُوعِ (الحُبِّ) احْتِفاءً بالِغاً ، بَلْ إِنَّهُم تَفَنَّنُوا فى وَصْفِهِ وبَيانِهِ ، فالحُبُّ عِنْدَ هَؤُلاءِ السَّادَةِ أَعْلَى مَراتِبِ الإيمانِ ، وفى هَذا يَقُولُ شاعِرُهُم :

وأَحْسَنُ حالَةِ الإنْسانِ صِدْقٌ ❊ وأَكْمَلُ وَصْفِهِ حاءٌ وباءٌ

والحُبُّ هُوَ : الخَصِيصَةُ المُمَيِّزَةُ لِلسَّالِكِ الصُّوفِيِّ ، فَهُوَ يُحِبُّ اللهَ وبالتَّالي : يُحِبُّ خَلْقَ اللهِ ، فَهُو يُحِبُّهُم بِحُبِّ رَبِّهِم ، وهُوَ بِحُكْمِ حُبِّهِ لَهُمْ ؛ يَسْعَى في خَيْرِهِم وبِرِّهِم .

ولَكِنْ .. لَيْسَ الحُبُّ مُجَرَّدَ وَصْفٍ لا دَلِيلَ عَلَيْهِ ، فالَّذينَ ادَّعَوا مَحَبَّةَ اللهِ طُولِبُوا بِالدَّلِيل : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.(٣)

فَظَنَّ بَعْضُ المُتَعالِمينَ (مِمَّنْ لا يَرَوْنَ إِلَّا تَحْتَ أَقْدامِهِم) أَنَّ المَحَبَّةَ أَمْرٌ هَيِّنٌ ، وحَسْبُهُم فى التَّحَلِّى بِها أَنْ يَتَّبِعُوا النَّبِىَّ ﷺ فى إِطْلاقِ اللِّحْيَةِ ولِبْسِ القَصِيرِ مِنَ الثِّيابِ البِيضِ وما إِلَى ذَلِكَ مِنْ سُنَنٍ ظاهِرَةٍ ، فَظَنُّوا ذَلِكَ اتِّباعاً ، فَغابَتْ عَنْهُم حَقِيقَةُ الاتِّباعِ .

أَلا فَلْيَعْلَمْ هَؤُلاءِ وسِواهُم أَنَّ الاتِّباعَ أَعْلَى مَراتِبِ الحُبِّ ، ولَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ العَبْدُ إِلَّا إِذا امْتَلأَ قَلْبُهُ بِالحُبِّ ، وانْصَبَغَ بِصِبْغَةِ مَحْبُوبِهِ ، حِينَئِذٍ يَغْدو الاتِّباعُ خُلُقاً

---

(١) أخرجَهُ (التِّرمذيُّ) و(أبو داود) .
(٢) خالِد مُحَمَّد خالِد (قِصَّتي مَعَ التَّصَوُّف) .
(٣) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ آية ٣١ .

تِلْقائِيّاً يَجِيءُ بِلا تَكَلُّفٍ ولا مَشَقَّة .

وما أَعْدَلَ كَلامَ القُطْبِ الصُّوفِيِّ الكَبِير (أَبِى الحَسَنِ الشَّاذِلي)وما أَشَدَّ صَوابَهُ يَوْمَ قالَ :

رأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ، ما حَقِيقَةُ المُتابَعَة ؟

(فَقالَ ﷺ : رُؤْيَةُ المَتْبُوعِ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ ، ومَعَ كُلِّ شَيْءٍ ، وفى كُلِّ شَيْءٍ)

ويُؤَيِّدُ مَقَالَتَهُ هَذهِ ، قِصَّةُ الصَّحابِيِّ الجَلِيلِ الَّذى جاءَ النَّبِيَّ ﷺ (فِيما رَوَتْهُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها) فَقالَ :

يا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، وأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلي ، وأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدي ، وإِنِّى لَأَكُونُ فى البَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَما أَصْبِرُ حَتَّى آتِي فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ ، وإِذا ذَكَرْتُ مَوْتي ومَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذا دَخَلْتَ الجَنَّةَ رُفِعتَ مَعَ النَّبِيِّينَ ،وإِنِّى إِذا دَخَلْتُ الجَنَّةَ خَشِيتُ أَلَّا أَراكَ ، ... فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بِهذِهِ الآيَة :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾[1].

لَقَدْ كانَتْ إِجابَةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ : بِذِكْرِ (الطَّاعَةِ) إِجابَةً عَلَى سُؤالِ الصَّحابِيِّ رضي الله عنه فى مَسْأَلَةِ (الحُبِّ) ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ الثَّمَرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلْحُبِّ والنَّتِيجَةُ اللَّازِمَةُ عَنْهُ .

وَقَدْ بَيَّنَ هَذهِ الحَقِيقَةَ سَيِّدُنا الإِمامُ (عَبْدُاللهِ بنُ المُبارَكِ) رضي الله عنه حِينَ قالَ فِيما يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنْ شِعْرٍ :

تَعْصِي الإِلَـهَ وأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ * هَـذا لَعَمْرِي فى القِياسِ بَدِيعُ

(١) انظُر تَفسِير ابْن كَثِير (سُورَةُ النِّساء آية ٦٩) ، والحَدِيثُ أَخرجَهُ (الطَّبرانِيُّ) فى مُعْجَمَيْهِ الأَوسَطِ والصَّغير و(أَبُو نُعَيْم) فى حِلْيَةِ الأَوْلِياء .

لَوْ كانَ حُبُّكَ صادِقاً لأَطَعْتَهُ * إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

مِنْ هَذا المُنْطَلَقِ النَّبَوِيِّ الرَّاسِخِ ، شَيَّدَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ لِلْحُبِّ المَدارِسَ ، الَّتي بِأَرْوِقَتِها يَعْلُو مَنْسُوبُ الحُبِّ ، وبَعِيداً عَنْها يَقِلُّ ويَنْضَبُ ، شَيَّدوها ، ونُصْبَ أَعْيُنِهِم وفى بُؤْرَةِ ذاكِرَتِهم قَوْلُ مَحْبُوبِهِم ﷺ : (يا أَبا بَكْر ، لَيْتَ أَنِّى لَقِيتُ إِخْواني فَإِنِّي أُحِبُّهُم ، الَّذينَ لَمْ يَرَوْنِي وصَدَّقُوني وأَحَبُّوني حَتَّى أَنِّى لأَحَبُّ إِلَى أَحَدِهِم مِنْ والِدِهِ ووَلَدِه)(١) ، وقَوْلُهُ ﷺ: (يا أَبا الدَّرْداء ، أَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً ، وأَحْسِنْ جِوارَ مَنْ جاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً ، واعْمَلْ بِفَرائِضِ اللهِ تَكُنْ عابِداً ، وارْضَ بِقَسْمِ اللهِ تَكُنْ زاهِداً)(٢) .

ولَمْ تَغِبْ عَنْهُم أَبَداً مَشاهِدُ حَياةِ الآلِ الأَطْهارِ والصَّحْبِ الأَبْرارِ فاتَّخَذوها نِبْراساً لِلاهْتِداءِ ومَرْجِعاً فى الاقْتِداءِ ، وهاكَ نَماذِجَ مِنْ سِيَرِهِم الوَضِيئَةِ ، وعِباراتِهِم النَّيِّرَةِ فى عَوالِمِ الحُبِّ وآفاقِهِ :

(١) دَخَلَ أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلانِيُّ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَإِذا فَتىً بَرَّاقُ الثَّنايا ، وإِذا النَّاسُ حَوْلَهُ ، يَقُولُ : فَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَقِيلَ : هَذا مُعاذُ بنُ جَبَلَ ﷺ ، فَلَمَّا كانَ مِنَ الغَدِ ، بَكَّرْتُ إِلَى المَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي يُصَلِّى ، فَلَمَّا كانَ قَضَى صَلاتَهُ ، سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : واللهِ إِنِّى لأُحِبُّكَ ، فَقالَ : آ الله ، فَقُلْتُ : آ الله ، فَجَذَبَنِي إِلَيْهِ وقالَ لِي : أَبْشِرْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (قالَ اللهُ تَعالَى : وَجَبَتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَحابِّينَ فِيَّ ، والمُتَجالِسِينَ فِيَّ ، والمُتَزاوِرِينَ فِيَّ ، والمُتَباذِلِينَ فِيَّ)(٣) .

نَعَمْ ، تِلْكَ مِنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ والحَمْدَ ، فَللهِ الحَمْدُ أَنْ جَعَلَ مَحَبَّةَ الإِخْوانِ سَبِيلاً لِنَيْلِ مَحَبَّتِهِ ، وعَظِيمِ عِنايَتِهِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ (مُسْلِمٌ) فى

---

(١) أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمي فى (الفِرْدَوسِ بمأثُورِ الخِطابِ) برقم ٨٢٧٥ . و(كَنْز العُمَّال) برقم ٣٤٥٨٤ .
(٢) أخرَجَهُ (ابْنُ ماجَه) فى السُّنَنِ . و(القُضاعِي) فى مُسْنَدِ الشِّهاب .
(٣) أخرَجَهُ مالِكٌ فى (المُوَطَّأ) ٢ / ٩٥٣ .

صَحِيحِهِ عَنْ (أَبِى هُرَيْرَةَ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ :

(إِنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ يَوْمَ القِيامَةِ : أَيْنَ المُتَحابُّونَ بِجَلالِي ، اليَوْمَ أُظِلُّهُم فى ظِلِّى يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّى) .

لَقَدْ أَعْلَى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى قَدْرَ المَحَبَّةِ فَوْقَ كُلِّ ما سِواها ، وما أَجْمَلَ الحُبَّ فى اللهِ وعَلَى اللهِ وباللهِ ، بَلْ ما أَجْمَلَ الحُبَّ إِذْ يَكُونُ لِرَسُولِ اللهِ ، أَلَيْسَ المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، كَما قالَ سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ ؟[1]

فَلَعَمْرِى ، أَىُّ عَمَلٍ يَرْفَعُ صاحِبَهُ إِلَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ سِوى الحُبِّ ؟! .

(٢) وهَذا (عُثْمانُ بنُ مَظْعُون) وكانَ مِمَّنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ المَحَبَّةُ) ، عِنْدَما تُوفِّىَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْبَلَ إِلَيْهِ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ، وقَبَّلَ جَبِينَهُ ، ثُمَّ سَقَطَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَي الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ عَلَى وَجْهِ (عُثْمانَ) ، فَلَمَّا رَأَتْ زَوْجَتُهُ هَذا المَشْهَدَ المُبْهِرَ ، قالَت : هَنِيئاً لَكَ يا أَبا السَّائِبِ الجَنَّةَ ، فَقالَ ﷺ : (وما عِلْمُكِ بِذَلِكَ ؟ قالَت : كانَ يا رَسُولَ اللهِ يَصُومُ النَّهارَ ويَقُومُ اللَّيْلَ ، قالَ : بِحَسْبِكِ لَوْ قُلْتِ كانَ يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه)[2].

أَلا يَعْنِي هَذا أَنَّ الحُبَّ مَقامٌ يَعْلُو عَلَى سائِرِ المَقاماتِ بالِغاً ما بَلَغَت ؟ بَلَى ، إِنَّ هَذا لَهُوَ الحَقُّ .

(٣) لَقَدْ أَحَبَّ اللهُ أَهْلَ بَدْرٍ مَحَبَّةً كانَتْ سَبَباً فى أَنْ يَغْفِرَ سُبْحانَهُ لَهُم كُلَّ ما اقْتَرَفُوهُ أَو ما سَيَقْتَرِفُونَهُ ، وفى هَذا يَقُولُ النَّبِىُّ ﷺ لِسَيِّدِنا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :[3]

(وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقالَ اعْمَلُوا ما شِئْتُم فَقَدْ غُفِرَ لَكُمْ)

(٤) ولَقَدْ أَحَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُثْمانَ بنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ أَنْفَقَ مِنْ مالِهِ فى سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ حِسابٍ ، فَجَهَّزَ بِمُفْرَدِهِ جَيْشَ العُسْرَةِ ، فَكانَ النَّبِىُّ ﷺ يُقَلِّبُ

---

(١) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فى صَحِيحِهِ ، وانْظُر : فَتْحَ الباري لـ(ابْنِ حَجَر) ١٢ / ٤١١ .
(٢) أبو نُعَيْم ، فى (الحِلْيَة) ج١ / ١٦ ، وانْظُر : (فَتْحَ الباري) لابْنِ حَجَرَ العَسْقَلاني ج١٢ / ٤١١ .
(٣) أَخْرَجَهُ (البُخارِىُّ) و(مُسْلِمٌ) وسِواهُما .

الذَّهَبَ الَّذى وَضَعَهُ سَيِّدُنا عُثْمانُ فى حِجْرِهِ ويَقُولُ : (ما ضَرَّ عُثْمانَ ما فَعَلَ بَعْدَ اليَوْم)[١].

أَجَلْ ، لَقَدْ أَدْرَكَ العارِفُون مِنَ الصُّوفِيَّةِ هَذهِ الحَقِيقَةَ الباهِرَةَ ، فَعَبَّروا عَنْها بِلسانِ أَحَدِهِمْ وهُوَ (يَحْيَى بنُ مُعاذٍ الرَّازِي) حِينَ قالَ :

(إِنَّ اللهِ رَضِىَ عَنْ قَوْمٍ فَغَفَرَ لَهُم السَّيِّئاتِ ، وغَضِبَ عَلَى قَوْمٍ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُم الحَسَنات) .

وكانَ القُطْبُ الكَبِيرُ والصُّوفِيُّ الشَّهِيرُ (أَبُو الحَسَن الشَّاذُلِيُّ) يَقُولُ فى دُعائِهِ : (اللهُمَّ اجْعَلْ سَيِّئاتِنا سَيِّئاتِ مَنْ أَحْبَبْتَ ، ولا تَجْعَلْ حَسَناتِنا حَسَناتِ مَنْ أَبْغَضْتَ ، فالإِحْسانُ لا يَنْفَعُ مَعَ البُغْضِ مِنْكَ ، والإِساءَةُ لا تَضُرُّ مَعَ الحُبِّ مِنْكَ) ..

(٥) إِنَّ الَّذى يَتَتَبَّعُ آثارَ (المَحَبَّةِ) فِيما أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ لَيَرَى عَجَباً مِنْ أَمْرِها ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحِبُّ أَخاهُ فِى اللهِ ، فَيُحِبُّهُما اللهُ ، ويَرْفَعُهُما مَكاناً عَلِيًّا ، ويُجْلِسُهُما عَلَى مَنابِرَ مِنْ نُورٍ ، يَغْبِطُهُم عَلَيْها النَّبِيُّونَ والشُّهَداءُ يَوْمَ القِيامَةِ[٢].

فَيالَيْتَ شِعْرِي ، أَىُّ سِرٍّ أَطْلَقَهُ اللهُ فى الكَوْنِ فَجَعَلَ حَمَلَتَهُ مِنْ أَهْلِ الحُبِّ هُمْ أَهْلُ اللهِ وأَحْبابُهُ ، والمُجافُونَ عَنْهُ هُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ رَحَماتِه ؟ !

(والَّذى نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحابُّوا ، أَوَ لا أَدُلُّكُم عَلَى شَىْءٍ إِذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُم ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُم)[٣]، وعِنْدَها سَيَفْشُو الحُبُّ ويَعُمُّ الوِئَامُ ، (فإِذا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ)[٤]

---

(١) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِىُّ) فى سُنَنِهِ ، والإِمامُ (أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل) ، فى فَضائِل الصَّحابة .
(٢) كَما فى الحَديثِ أَخْرَجَه (التِّرمِذِىُّ وأَحْمَدُ وابْنُ حبَّانَ والطَّبَرانِىُّ) .
(٣) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فى صَحِيحِهِ ، و(التِّرْمِذِىُّ) و(أَحْمَدُ) وغَيْرُهُم .
(٤) أَخْرَجَهُ (البُخارِىُّ) و(التِّرمِذِىُّ)و(أبو داود) و(النَّسائى) وآخَرون .

وهَذا رَجُلٌ كانَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَرَّ رَجُلٌ بهِ فقالَ :
يا رَسُولَ اللهِ إنِّى لأُحِبُّ هَذا لِلهِ تَعالَى ، فقالَ لَهُ النَّبىُّ ﷺ : أَ أَعْلَمْتَهُ ؟ قالَ لا ، قالَ ﷺ : أَعْلِمْهُ ، فَلَحِقَهُ فقالَ : إنِّى أُحِبُّكَ فى اللهِ ، فقالَ : أَحَبَّكَ الَّذى أَحْبَبْتَنِي لَهُ)(١).

(٦) ولَعَلَّكَ أَخِي القارِىء تُسائِلُني عَنْ مَعْنَى الحُبِّ وأَرْقَى مَراتِبِهِ ، وهاأنَذا أُجَلِّى لَكَ مَعْنَى الحُبِّ الإلَهِيِّ الَّذِى هُوَ أَجَلُّ مَراتِبِ الحُبِّ ، مِنْ خِلالِ أَقْوالٍ بَلِيغَةٍ لِسادتِنا الصُّوفِيَّةِ ، مِنْها :

قَوْلُ الحارِثِ المُحاسِبِي : (مَيْلُكَ إلَى الشَّىْءِ بِكُلِّكَ ، ثُمَّ إيثارُكَ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ ورُوحِكَ ومالِكَ ، ثُمَّ مُوافَقَتُكَ لَهُ سِرَّاً وجَهْراً ثُمَّ عِلْمُكَ بِتَقْصِيرِكَ فى حُبِّكَ)، ومِنْها قَوْلُ الشِّبْلِي : (سُمِّيَتِ المَحَبَّةُ لأَنَّها تَمْحُو مِنَ القَلْبِ ما سِوَى المَحْبُوبِ) ، وقَوْلُ يَحْيَى بنِ مُعاذ : (المَحَبَّةُ مالا يَنْقُصُ بِالجَفاءِ ولا يَزِيدُ بِالبِرِّ) ، وقَوْلُ أَبِى عَبْدِاللهِ القُرَشِي : (حَقِيقَةُ المَحَبَّةِ أَنْ تَهَبَ كُلَّكَ لِمَنْ أَحْبَبْتَ ، فَلا يَبْقَى لَكَ مِنْهُ شَىْءٌ) .

ولَعَلَّ فى هَذهِ الحالِ كَمالَ تَحَقُّقِ المُحِبِّ بِوَصْفِ الحُبِّ الإلَهِيِّ ، وذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِما يُرْضِي مَحْبُوبَهُ ، حالُهُ فى هَذا حالُ مَنْ يَقُولُ :

(إلَهِي أَنْتَ مَقْصُودِي ورِضاكَ مَطْلُوبِي) .

وقَوْلُ أَبِى يَزِيدٍ البَسْطامِي : (لَيْسَ العَجَبُ مِنْ حُبِّى لَكَ وأَنا عَبْدٌ فَقِيرٌ ، وإنَّما العَجَبُ مِنْ حُبِّكَ لِي وأَنْتَ مَلِكٌ قَدِيرٌ) .

وقَوْلُهُ : (مَنْ أَرادَهُ وفَّقَهُ ، ومَنْ أَحَبَّهُ قَرَّبَهُ) .

وقَوْلُ أَبِى بَكْرٍ الشِّبْلِي : (فَعَلامَةُ المُحِبِّ المُوافَقَةُ لِلْمَحْبُوبِ ، والتَّجارِي مَعَ طُرُقاتِهِ فِي كُلِّ الأُمُورِ ، والتَّقَرُّبُ إلَيْهِ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، والهَرَبُ مِنْ كُلِّ مالا يُعِينُهُ

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخارِىُّ) و(النَّسائِىُّ) و(ابنُ حِبَّانَ) وغَيْرُهُم .

عَلَى مَذْهَبِهِ) .

ومِنْ أَجْمَلِ تَعْبِيراتِ المُحِبِّينَ عَنْ شُعُورِهِم ، ما يَقُولُهُ يَحْيَى بنُ مُعاذ :

(إلَهي إنِّى مُقِيمٌ بِفِنائِكَ ، مَشْغُولٌ بِثَنائِكَ ، صَغِيراً أَخَذْتَنِي إلَيْكَ ، وسَرْبَلْتَنِي بِمَعْرِفَتِكَ ، وأَمْكَنْتَنِي مِنْ لُطْفِكَ ، ونَقَّلْتَنِي في الأَحْوالِ ، وقَبِلْتَنِي فى الأَعْمالِ : سَتْراً ، وتَوْبَةً ، وزُهْداً ، وشَوْقاً ، ورِضاً ، وحُبّاً .. تَسْقِينِي مِنْ حِياضِكَ ، وتُمْهِلُنِي في رِياضِكَ ، مُلازِماً لأَمْرِكَ ، ومَشْغُوفاً بِقَوْلِكَ ، وهاطَرَ شارِبِي ، ولاحَ طائِري ، فَكَيْفَ أَنْصرِفُ اليَوْمَ عَنْكَ كَبِيراً ، وقَدِ اعْتَدْتُ هَذا مِنْكَ صَغِيراً ، فَلِي ما بَقِيتُ حَوْلَكَ دَنْدَنَةٌ ، وبِالضَّراعَةِ إلَيْكَ هَمْهَمَةٌ ، لأَنِّى مُحِبٌّ ، وكُلُّ مُحِبٌّ بِحَبِيبِهِ مَشْغُوفٌ ، وعَنْ غَيْرِ حَبِيبِهِ مَصْروفٌ) .

(٧) ومِنَ القَصائِدِ الَّتي بَلَغَتْ قِمَّةَ الذَّوْقِ فى التَّعْبيرِ عَنِ الحُبِّ الإلَهي ، ما أَنْشَدَهُ (ذوالنُّونِ المِصْرِي ، ٢٤٥ هـ) ، وقَدْ قَرُبَتْ ساعَةُ لِقاءِ المُحِبِّ بِالمَحْبُوبِ ، فَقَدْ رَوَى (فَتْحُ بنُ شَحْرَف) أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى (ذِى النُّونِ) عِنْدَ مَوْتِهِ ، فَقالَ لَهُ : كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ قالَ :

أَمُوتُ وما فَنِيَتْ فِيكَ صَبابَتِي * ولا رُوِيَتْ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطارِي
مُناىَ المُنَى كُلُّ المُنَى أَنْتَ لِى مُنًى * وأَنْتَ الغِنَى كُلُّ الغِنَى عِنْدَ إقْتارِي
وأَنْتَ مَدَى سُؤْلِي وغايَةُ رَغْبَتِي * ومَوْضِعُ آمالِي ومَكْنُونُ إضْمارِي
تَضَمَّنَ قَلْبِي مِنْكَ مالَكَ قَدْ بدا * وإنْ طالَ سِرِّى فِيكَ أَوطانَ إظْهارِي
وبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْكَ مالا أَبُثُّهُ * ولَمْ أُبْدِ بادِيهِ لأَهْلٍ ولا جارِ (١)

إلَى أَن قالَ :

فَيا مُنْتَهَى سُؤْلِ المُحِبِّينَ كُلِّهِم * أَبِحْنِي مَحَلَّ الأُنْسِ مَعَ كُلِّ زُوَّارِي
ولَسْتُ أُبالِي فائِتاً بَعْدَ فائِتٍ * إذا كُنْتَ فى الدّارَيْنِ يا أَوْحَدِي جارِي

---

(١) صَفْوَةُ الصَّفْوَة (ابنُ الجَوْزِي) ج ٤ / ٢٩ .

وكَذَلِكَ ما أَنْشَدَتْهُ (رابِعَةُ العَدَوِيَّةُ) يَوْمَ قالَتْ :

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهَوَى ﴿ وحُبّاً لأَنَّكَ أَهْلٌ لِذاكا

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهَوَى ﴿ فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّا سِواكا

وأَمَّا الَّذى أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ ﴿ فَكَشْفُكَ لِيَ الحُجُبَ حَتَّى أَراكا

فَلا الحَمْدُ فى ذا ولاذاكَ لي ﴿ ولَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فى ذا وذاكَ

قالَ الإمامُ الغَزالي : ولَعَلَّها أَرادَتْ بِحُبِّ الهَوْى حُبَّ اللهِ لإِحْسانِهِ إِلَيْها وإِنْعامِهِ عَلَيْها ، وبِحُبِّهِ لِما هُوَ لَهُ الحُبَّ لِجَمالِهِ وجَلالِهِ الَّذى انْكَشَفَ لَها.[1]

(٨) والصُّوفِيَّةُ إِذْ يَتَحَلَّوْنَ بِهَذا الحُبِّ الرَّاقِي فَإِنَّ حُبَّهُم يَمْتَدُّ لِيَعُمَّ المُجْتَمَعَ بِأَسْرِهِ ، فَهُوَ حُبٌّ إِنْسانِيٌّ عامٌّ شامِلٌ لِلنَّاسِ جَمِيعاً ، لأَنَّ البَشَرِيَّةَ مِنْ صُنْعِ حَبِيبِهِم الأَعْظَم وخالِقِهِم الأَكْرَم ، فَمَنْ أَحَبَّ الصَّانِعَ أَحَبَّ صَنْعَتَه .

ولِهَذا ، يَسْتَحِيلُ أَنْ تَجِدَ فى قَلْبِ الصُّوفِيِّ الحَقِّ بُغْضاً لِمَخْلُوقٍ بِحَقِّهِ ، وتِلْكَ هِىَ أَسْمَى عَواطِفِ الرُّوحِ ، بَلْ هَذا هُوَ الطَّرِيقُ الأَمْثَلُ لِتَنْشِئَةِ مُجْتَمَعٍ فاضِلٍ وتَرْبِيَةِ جِيلٍ كَرِيم .

وها هُم أُولاءُ الصُّوفِيَّةُ يَضْرِبُونَ لِهذا الجِيلِ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ فى الحُبِّ الَّذى يَتَوَلَّدُ مِنْ عُمْقِ الإِيمانِ ، والاتِّباعِ لِنَهْجِ وسُنَّةِ المُصْطَفَى ﷺ، وإِلَيْكَ بَعْضَ النَّماذِجِ

أَوَّلاً) مِمَّا يُؤْثَرُ عَنِ السَّيِّد (أَحْمَدَ الرِّفاعي) رضي الله عنه أَنَّهُ كانَ مُحِبّاً لِلَّهِ ، ومِنْ هَذا الحُبِّ انْبَثَقَ حُبُّهُ لِلنَّاسِ جَمِيعاً ، بَلْ حُبُّهُ لِكُلِّ حَىٍّ مِنْ إِنْسانٍ وحَيَوانٍ ونَباتٍ ، بَلْ حُبُّهُ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ ، والشَّواهِدُ عَلَى هَذا فى مُصَنَّفاتِهِ وافِرَةٌ ومِنْها ما قالَهُ رضي الله عنه في كِتابِهِ الشَّهِير (البُرْهان المُؤَيَّد) : (مَنْ أَحَبَّ اللهَ عَلَّمَ نَفْسَهُ التَّواضُعَ ، وقَطَعَ عَنْها عَلائِقَ الدُّنْيا ، وآثَرَ اللهَ تَعالَى عَلَى جَمِيعِ أَحْوالِهِ ، واشْتَغَلَ بِذِكْرِهِ ، ولَمْ يَتْرُكْ لِنَفْسِهِ رَغْبَةً فِيما سِوَى اللهِ تَعالَى ، وقامَ

[1] إحياءُ عُلومِ الدِّين (كِتابُ المَحَبَّةِ والشَّوق) .

بِعبادَتهِ ...) .

ثانِياً) وهاهُوَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ البَدَوِىُّ) رضي الله عنه يَضَعُ مَنْهَجَ الحُبِّ في عِبارَةٍ يَقُولُ فِيها : (أَحْبِبْهُ - أَى اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى - يحُبُّكَ لأَهْلِ الأَرضِ والسَّماءِ) ، بَلْ إِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ عاقِلٍ يَقِفُ عَلَى سِيرَةِ هَذا الوَلِىِّ الطَّاهِرِ لَيُدْرِكُ حَقَّ الإِدْراكِ أَنَّ رِسالَتَهُ صَفاءٌ ومَحَبَّةٌ وأَنَّ حياتَهُ طَهارَةٌ وطاعَةٌ ، وأَنَّ كُلَّ لَحْظَةٍ فى وُجُودِهِ ما كانَتْ تَمْضِي إِلاَّ فى عَمَلِ الخَيْرِ لِلنَّاسِ بِيَدِهِ ومالِهِ وجاهِهِ ، وما يُفِيضُهُ عَلَى الدُّنْيا مِنْ عِلْمٍ ونُورٍ وهُدَىً ، ولِذَلِكَ أَحَبَّ النَّاسَ جَمِيعاً ، وأَحَبَّهُ المُوَفَّقُونَ جَمِيعاً .

ثالِثاً) واسْتَمِعْ إِلَى السَّيِّدِ (إِبْراهِيمَ الدُّسُوقِىِّ) رضي الله عنه وهُوَ يَقُولُ : (لايَكْمُلُ الصُّوفِىُّ حَتَّى يَكُونَ مُحِبّاً لِجَمِيعِ النَّاسِ ، مُشْفِقاً عَلَيْهِم ، ساتِراً لِعَوْراتِهِم ، فَإِنِ ادَّعَى الكَلامَ عَلَى خِلافِ ما ذَكَرْنا فَهُو كاذِبٌ) .

وهَذاهُوَ (جَلالُ الدِّينِ الرُّومِى) فى القَرْنِ السَّابِعِ الهِجْرِي ، وقَدْ هَبَّتْ عاصِفَةٌ عَقْلِيَّةٌ جامِحَةٌ ، بَعَثَ بها عِلْمُ الكَلامِ ، الَّذى كانَ الشُّغْلَ الشَّاغِلَ لِلمُسْلِمينَ فى تِلْكَ القُرونِ ، وكانَتْ هَذهِ العاصِفَةُ عاتِيَةً شَدِيدَةً ، انْطَفَأَتْ بِها كَوانِينُ القُلُوبِ ومَجامِرُها ، وإِذا كانَتْ هُناكَ بَقِيَّةٌ مِنْ جَمَراتِ الحُبِّ والعاطِفَةِ ، فَقَدْ كانَتْ كامِنَةً فى الرَّمادِ مَغْلُوبَةً عَلَى أَمْرِها ، وقَدْ أَصْبَحَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ ما كانُوا شُعْلَةً تُضِىءُ الحَياةَ وجَذْوَةً تُنِيرُ الوجُودَ ، أَصْبَحُوا رُكاماً بَشَرِيّاً أَو فَحْماً حَجَرِيّاً ، بَعْدَ عَهْدِهِم بِالحَرارَةِ والنُّورِ .

فى هَذا الجَوِّ الهادِىءِ الخامِدِ ، هَتَفَ مَوْلانا (جَلالُ الدِّينِ الرُّومِي) بِالحُبِّ والعاطِفَةِ ، حَتَّى هَبَّ العالَمُ الإِسْلامِيُّ مِنْ نَوْمِهِ العَمِيقِ ، ودَبَّتْ فيهِ الحَياةُ مِنْ جَدِيد .

نَعَم .. لَقَدْ كانَ الشَّيْخُ رائِداً فى مَيْدانِ الحُبِّ وأَسْرارِهِ ، تَرَى ذَلِكَ فى

(مَثْنَوِيهِ) و(مِعْراجِهِ) وسائِرِ مُصَنَّفاتِهِ ، فَلَقَدْ دَعا إِلَى الحُبِّ دَعْوَةً سافِرَةً وذَكَرَ عَجائِبَهُ وتَصَرُّفاتِهِ فى بَسْطٍ بَدِيعٍ ، وتَفْصِيلٍ مُلْهَمٍ ، ودَعْنِي أَسْتَطْرِدُ لَكَ بَعْضَ الشَّىْءِ فى ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنْ أَقْوالِهِ الَّتِي تَنُمُّ عَنْ ذَوْقٍ فَرِيدٍ ، ومَعِينٍ إِلَهِيٍّ صافٍ ، فَها هُوَ يَقُولُ مَثَلاً :

(إِنَّ الحُبَّ يُحَوِّلُ المُرَّ حُلْواً ، والتُّرابَ تِبْراً ، والكَدَرَ صَفاءً ، والأَلَمَ شِفاءً ، والسِّجْنَ رَوْضَةً ، والسُّقْمَ نِعْمَةً ، والقَهْرَ رَحْمَةً ، وهُوَ الَّذى يُلَيِّنُ الحَدِيدَ ، ويُذِيبُ الحَجَرَ ، ويَبْعَثُ المَيِّتَ ، ويَنْفُخُ فِيهِ الحَياةَ ، ويُسَوِّدُ العَبْدَ) .

(إِنَّ هَذا الحُبَّ هُوَ الجَناحُ الَّذي يَطِيرُ بِهِ الإِنْسانُ المادِيُّ الثَّقِيلُ فى الأَجْواءِ ويَصِلُ مِنَ السَّمْكِ إِلَى السِّماكِ ، ومِنَ الثَّرَى إِلَى الثُّرَيَّا) .

وإِذا سَرَى هَذا الحُبُّ فى الجِبالِ الرَّاسِياتِ ، تَرَنَّحَتْ ورَقَصَتْ طَرَباً ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[1] .

ويَذْكُرُ مَوْلانا (جَلالُ الدِّين) أَنَّ الحُبَّ غَنِيٌّ أَبِيٌّ ، لا يَحْتَفِلُ بِالمَلِكِ والسُّلْطانِ ، مَنْ ذاقَهُ مَرَّةً لَمْ يَسُغْ شَراباً . إِنَّهُ مَلِكُ المُلُوكِ تَخْضَعُ لَهُ أَسِرَّةُ المُلُوكِ وتِيجانُهُم ، ويَخْدِمُهُ المُلُوكُ كالعَبِيدِ ، ويَقُولُ : (إِنَّ الحُبَّ كامِنٌ كالنَّارِ ، ولَكِنَّ الحَيْرَةَ بادِيَةٌ ، مُتَواضِعٌ ولَكِنْ نُفُوسُ المُلُوكِ الَّذينَ يَمْلِكُونَ النُّفُوسَ لَهُ خاشِعَةٌ) .

ولا يَكادُ الشَّيْخُ (جَلالُ الدِّينِ الرُّومِي) يَذْكُرُ هَذا الفارِسَ الجَسُورَ والحُبَّ الغَيُورَ ، حَتَّى تَأْخُذَهُ نَشْوَةٌ ، ويُنادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

(بارَكَ اللهُ لِعَبِيدِ المادَّةِ وعُبَّادِ الجِسْمِ فى مُلْكِهِم وأَمْوالِهِم ! لا نُنازِعُهُم فى شَيْءٍ ، أَمَّا نَحْنُ فَأُسارَى دَوْلَةِ الحُبِّ الَّتِي لا تَزُولُ ولا تَحُولُ) .

(إِنَّ جَمِيعَ المَرْضَى يَتَمَنَّوْنَ البُرْءَ مِنْ سُقْمِهِم ، إِلَّا أَنَّ مَرْضَى الحُبِّ

---

(١) سُورَةُ الأَعْرافِ مِنَ الآيَة ١٤٣ .

يَسْتَزِيدُونَ المَرَضَ ، ويُحِبُّونَ أَنْ يُضاعَفَ فى أَلَمِهِم وحَنِينِهِمْ ، لَمْ أَرَ شَراباً أَحْلَى مِنْ هَذا السُّمِّ ، ولَمْ أَرَصِحَّةً أَفْضَلَ مِنْ هَذهِ العِلَّةِ ، إِنَّها عِلَّةٌ ، ولَكِنَّها عِلَّةٌ تُخَلِّصُ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ ، فَإِذا أُصِيبَ بِها إِنْسانٌ لَمْ يُصَبْ بِمَرَضٍ قَطُّ ، إِنَّها صِحَةُ الرُّوحِ ، بَلْ رُوحُ الصِّحَّةِ ، يَتَمَنَّى أَصْحابُ النَّعِيمِ أَنْ يَشْتَرُوها بِنَعِيمِهِم ورَخائِهِم) .

ويُقارِنُ بَيْنَ الحُبِّ البَرِيءِ والعَقْلِ الشَّاطِرِ ، فَيَقُولُ :

(إِنَّ الحُبَّ تُراثُ أَبِينا آدَمَ ، أَمَّا الدَّهاءُ فَهُوَ بِضاعَةُ الشَّيْطانِ ، إِنَّ الدَّاهِيَةَ الحَكِيمَ يَعْتَمِدُ عَلَى نَفْسِهِ وعَقْلِهِ ، أَمَّا الحُبُّ فَتَفْوِيضٌ وتَسْلِيمٌ ، إِنَّ العَقْلَ سِباحَةٌ قَدْ يَصِلُ بِها الإِنْسانُ إِلَى الشَّاطِئِ وقَدْ يَغْرَقُ ، وإِنَّ الحُبَّ سَفِينَةُ نُوح لا خَوْفٌ عَلَى رُكَّابِها مِنَ الغَرَقِ هَذا ، وبَحْرُ الحَياةِ هائِجٌ لَيْسَ السِّباحَةُ فيهِ بِالخَطْبِ اليَسِيرِ ، فَخَيْرٌ للإِنْسانِ أَنْ يَأْوِيَ إِلَى سَفِينَةٍ مَأْمُونَةٍ مِنَ الغَرَقِ ، وهِيَ سَفِينَةُ الإِيمانِ والحُبِّ) ثُمَّ يَقُولُ : (لَقَدْ رَأَيْنا كَثِيراً مِمَّنْ يُحْسِنُونَ السِّباحَةَ قَدْ غَرِقُوا فى هَذا البَحْرِ اللُّجِّي ، ولَكِنَّا ما رَأَيْنا سَفِينَةَ الإِيمانِ والحُبِّ تَغْرَقُ) .

ومِنْ بَدِيعِ آرائِهِ ومَحاسِنِ أَفْكارِهِ أَنَّهُ يُفَضِّلُ حَيْرَةَ المُحِبِّينَ عَلَى حِكْمَةِ الحُكَماءِ الباحِثِينَ ، بَلْ يَحُثُّ عَلَى الحِرْصِ عَلَيْها والتَّنافُسِ فِيها ، لِأَنَّ الحِكْمَةَ ظَنٌّ وقِياسٌ ، والحَيْرَةَ مُشاهَدَةٌ وعِرْفان .

ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ هَذا : (لَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوباً ، فَإِنَّهُ يَحْتاجُ إِلَى صِفاتٍ وفَضائِلَ لا يُرْزَقُها كُلُّ إِنْسانٍ ، ولَكِنْ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ نَصِيبَهُ فى الحُبِّ ويَنْعَمَ بِهِ ، فَإِذا فاتَكَ أَخِي القارِئُ العَزِيزُ أَنْ تَكُونَ يُوسُفَ ، فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ يَعْقُوبَ ؟ وما الَّذى يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ أَنْ تَكُونَ صادِقَ الحُبِّ ، دائِمَ الحَنِين ؟!

ويَزِيدُ الشَّيْخُ عَلَى ذَلِكَ : (إنَّ لَذَّةَ الحُبِّ لا تَعْدِلُها صَوْلَةُ المَحْبُوب ، فإذا عَرَفَ المَحْبُوبُونَ ما يَنْعَمُ بِهِ العُشَّاقُ المُقِيمُونَ ، والمُحِبُّونَ المُخْلِصُونَ ، لَتَمَنَّوا مَكانَهُم ، وخَرَجُوا مِنْ صَفِّ المَحْبُوبِينَ السُّعَداءِ إلَى صَفِّ المُحِبِّينَ البُؤَساء) .

ولَكِنْ .. إلَى مَنْ يُوَجَّهُ هَذا الحُبَّ الَّذي هُوَ نُورُ الحَياةِ وقِيمَةُ الإنْسان ؟ إنَّ الحُبَّ خالِدٌ لا يَجْدُرُ إلَّا بِالخالِدِ ، إنَّهُ لا يَجْمُلُ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ الفَناءُ والأُفُولُ ، إنَّهُ حَقُّ الحَيِّ الَّذي لا يَمُوتُ ، الَّذى يُفِيضُ الحَياةَ عَلَى كُلِّ مَوْجُود .

ويَسْتَدِلُّ (الرُّومِيُّ) عَلَى ذَلِكَ بِقِصَّةِ سَيِّدِنا (إبراهِيم) عليه السلام ويَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ (لا أُحِبُّ الآفِلِين) .

ولارَيْبَ أَنَّ هَذا المَعْنَى الرَّاقِى مِنَ الحُبِّ ، لَيَتَمَلَّكُ قَلْبَ صاحِبِهِ ، فَيَجْرِي مِنْهُ مَجْرَى رُوحِهِ ودَمِهِ ، ولاسِيَّما إنْ وُضِعَ فى مَحَلِّهِ وصادَفَ أَهْلَهُ ، فَإنَّهُ شَمْسٌ لا يَنْتابُها أُفُولُ ، وزَهْرَةٌ ناضِرَةٌ لا يَعْتَرِيها ذُبُولُ ، فَعَلَيْكَ بِهَذا الحُبِّ السَّرْمَدِيِّ الَّذى يَبْقَى ، ويَفْنَى كُلُّ شَىْءٍ ، عَلَيْكَ بِهَذا الحُبِّ الَّذى يَدورُ عَلَيْكَ بِكُؤُوسِهِ الَّتى تَرْوِى ظَمَأَكَ ، فَهُوَ الحُبُّ الَّذى سادَ بِهِ الأَنْبِياءُ وحَكَمُوا .

ويالَفَضْلُ اللهِ ورِضاهُ ، عَلَى العالِمِ الصُّوفِىِّ (عُمَرَ الرَّافِعِيِّ) مُفْتِي طَرابْلُسَ الشَّام ، الَّذى بَلَغَ فى الحُبِّ مُنْتَهاهُ ، فَأَفاضَ اللهُ عَلَيْهِ فَقالَ :

هِيَ المَحَبَّةُ سِرُّ السِّرِّ فى الأَزَلِ * بِها العَوالِمُ قَدْ قامَتْ إلَى أَجَلِ
بِها دَعا اللهُ داعِينا لِحَضْرَتِهِ * بِأَوَّلِ الأَنْبِياءِ بَلْ خاتَمِ الرُّسُلِ
لَوْلاهُ لَمْ يَخْلُقِ الأَكْوانَ خالِقُنا * فَعِلَّةُ الخَلْقِ خَيْرُ الخَلْقِ فى الأَزَلِ
أَجَلْ هُوَ النِّعْمَةُ الكُبْرَى حَوَتْ نِعَمَاً * تَفْصِيلُ مُجْمَلِها يَحْتاجُ لِلْجُمَلِ
والمَدْحُ لاشَكَّ عُنْوانُ المَحَبَّةِ بَلْ * دَلِيلُ صِحَّةِ إيمانٍ بِلا جَدَلِ

فَنَظْرَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ تُلْحِقُنِي * بِالسَّابِقينَ وإنْ أَمْشِي عَلَى مَهَلِ
هُوَ الحَبِيبُ ومِنْهُ الحُبُّ قَرَّبَنِي * وهُوَ الشَّفِيعُ الَّذى أَرْجُو يَشْفَعُ لِي
يا أَكْرَمَ الخَلْقِ هَلْ مِنْ نَظْرَةٍ كَرَماً * لِقَلْبٍ مُضْنَىً شَجِيٍّ مِنْ سِواكَ خَلِي
رُحْماكَ رُحْماكَ هَذا ما يُؤَمِّلُهُ * عَبْدٌ يَلُوذُ بِكُمْ يا غايَةَ الأَمَلِ
وبِانْتِمائِي إِلَى عَلْياكَ بِابْنَتِكَ الزَّهراءِ * حَيْثُ نَمَتْنِي لِلإمامِ عَلِي
جُدْ لِي بِنَفْحَةِ قُرْبٍ مِنْكَ تَحْمِلُنِي * إِلَيْكَ فالقُرْبُ عِنْدِي غايَةُ الأَمَلِ
عَلَيْكَ والآلِ والأَصْحابِ قاطِبَةً * صَلَّى المُهَيْمِنُ في الأَبْكارِ والأُصُلِ

نَعَم .. فَمَحَبَّةُ مَنْ أَحَبَّهُ الرَّسُولُ ﷺ كآلِ بَيْتِهِ وأَصْحابِهِ رضي الله عنهم عَلامَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ تَعالَى ، وكَذَلِكَ عَداوَةُ مَنْ عاداهُمْ وبُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ وسَبَّهُمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ مَنْ يُحِبُّهُ وأَبْغَضَ مَنْ يُبْغِضُهُ ، قالَ تَعالَى :
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[١] ، وصَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الَّذي أَوْضَحَ أَهَمِّيَّةَ هَذا الحُبِّ فَقالَ :
(أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ في الله)[٢] .

أَجَلْ ، بِهَذا الحُبِّ النَّبِيلِ حَقَّقَ الصُّوفِيَّةُ التَّكافُلَ فى المُجْتَمَعِ ، فَأَخَذوا بِيَدِ الضَّعِيفِ ، وواسَوا المَحْرومَ ، وأَعْطَوُا المُحْتاجَ ، وعَلَّمُوا الجاهِلَ ، وهَدَوا الضَّالَّ ، وأَنْقَذوا النَّاسَ ، وحَمَوا العَقائِدَ مِنْ دَواعِي الكُفْروالإِلْحادِ ، ووَقَفُوا أَمامَ التَّيَّاراتِ الجارِفَةِ المُتَحَلِّلَةِ وَقْفَةً صامِدَةً راسِخَةً ، لِيَحْفَظُوا لِلإِسْلامِ قُدْسِيَّتَهُ وكَرامَتَهُ ، ولِلْهُدَى الرَّبَّانِيِّ عِزَّتَهُ ومَنَعَتَهُ مِنْ أَنْ تُدَنِّسَهُ أَرْجاسُ الحاقِدِينَ ، وشُبُهاتُ المُتَعالِمِينَ ، وآثامُ المَفْتُونِينَ .

---

(١) سُورَةُ المجادلة الآية ٢٢ .
(٢) أَخْرَجَهُ الإمامُ (أَحْمَدُ) في مُسْنَدِه .

التَّصَوُّفُ.. ذَوْقٌ وَصُحْبَةٌ

التصوف.. ذوق وصحبة

مـا مِنْ رَيْبٍ فى أَنَّ الأُلْفَةَ والصُّحْبَةَ ثَمَرَةُ حُسْنِ الخُلُقِ ، وأَنَّ التَّفرُّق ثَمَرَةُ سُوءِ الـخُلُقِ ، فَحُسْنُ الـخُلُقِ يُوجِبُ التَّحابُبَ والتَّآلُفَ والتَّوافُقَ ، وسُوءُ الخُلُقِ يُثْمِرُ التَّباغُضَ والتَّحاسُدَ والتَّدابُرَ ، ومَهْما كانَ المُثْمِرُ مَحْمُوداً كانَتِ الثَّمَرَةُ مَحْمُودَةً ، والعَكْسُ صَحِيح .

ولا يَخْفَى مالِحُسْنِ الخُلُقِ مِنْ مَكانَةٍ وشَأْنٍ فى دِينِنا الحَنيفِ ، وحَسْبُنا أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ الوَصْفَ الَّذى اخْتارَهُ الخالِقُ جَلَّ وعَلا لِمَدْحِ حَبِيبِهِ المُصْطَفى ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1].

وقالَ ﷺ فى مَعْرِضِ بَيانِ أَهَمِّ أَهْدافِ رِسالَتِهِ الغَرَّاءِ وشَرِيعَتِهِ السَّمْحاءِ يَوْمَ قالَ : (إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ)[2].

ومافَتِىءَ النَّبِىُّ ﷺ يَحُضُّ أَصْحابَهُ وأَتْباعَهُ عَلَى الْتِزامِ هَذا الوَصْفِ فى ساحاتِ التَّعايُشِ الإِنْسانِىِّ ، فَها هُوَ يَقُولُ ﷺ لأَبِى هُرَيْرَةَ :

(يا أَبا هُرَيْرَةَ عَلَيْكَ بِحُسْنِ الخُلُقِ) قالَ أَبُوهُرَيْرَةَ رضي الله عنه :

وماحُسْنُ الخُلُقِ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ ﷺ : (تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ)[3].

ويَقُولُ النَّبِىُّ ﷺ أَيْضاً : (مامِنْ شَىْءٍ أَثْقَلُ فى مِيزانِ العَبْدِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ)[4]، ويَقُولُ كَذَلِكَ : (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ القائِمَ بِاللَّيْلِ الظَّامِىءَ بِالهَواجِر)[5].

وما حِرْصُ النَّبِىِّ ﷺ عَلَى غَرْسِ هَذا الوَصْفِ بَيْنَ أَحْبابِهِ وأَصْحابِهِ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ التُّرْبَةُ الخِصْبَةُ الَّتي تَنْمُو فِيها الأُلْفَةُ والمَوَدَّةُ الَّتي تَكُونُ سَبَباً فى

---

(١) سُورةُ القَلَم الآيَة ٤ .
(٢) أَخْرَجَه (مالِكٌ) و(أَحْمَدُ) و(البَيْهَقِي) .
(٣) أَخْرَجَهُ (البَيْهَقِي) .
(٤) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِىُّ) فى سُنَنِه .
(٥) أَخْرَجَهُ (الطَّبرانىُّ) فى الأَوْسَط .

وَحْدَتِهِمْ واجْتِماعِ صَفِّهِم ، وأَعْظِمْ بِهَذِهِ الغايَةِ مِنْ ثَمَرَةٍ ومَآل ، ولاسِيَّما إذا كانَ ذَلِكَ التَّوَحُّدُ والارْتِباطُ عَلَى أَساسٍ مِنَ التَّقْوَى والإيمانِ والحُبِّ فى اللهِ ، والآياتُ والآثارُ فى هَذا المَجالِ وَفِيرَةٌ وكَثِيرَةٌ ، وهِىَ تَحْمِلُ ما تَحْمِلُ مِنْ مَعانِي التَّفَضُّلِ والتَّمَنُّنِ مِنَ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى :

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (١) وقَوْلُهُ : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (٢) أَى بِالأُلْفَة .

وإذا كانَتِ الأُلْفَةُ والوَحْدَةُ نِعْمَةً ومَأْثَرَةً ، فَإِنَّ التَّفَرُّقَ والتَّنافُرَ نِقْمَةٌ ومَذَمَّةٌ ، يَنْبَغِي الحَذَرُ مِنْها والتَّحْذِيرُ ، لِهَذا يَقُولُ عَزَّ مِنْ قائِل :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (٣) .

ويَقُولُ ﷺ : (المُؤْمِنُ آلِفٌ مَأْلُوفٌ ولا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَف) (٤) .

ويَقُولُ أَيْضاً ﷺ فى الثَّناءِ عَلَى الأُخُوَّةِ فى الدِّين :

(مَنْ أَرادَ اللهُ بِهِ خَيْراً رَزَقَهُ وَزِيراً صالِحاً إِنْ نَسِىَ ذَكَّرَهُ وإِنْ ذَكَرَ أَعانَهُ) (٥) ، ويَقُولُ ﷺ : (مَثَلُ الأَخَوينِ إذا الْتَقَيا مَثَلُ اليَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْداهُما الأُخْرَى) (٦) وما الْتَقَى مُؤْمِنانِ قَطُّ إلاَّ أَفادَ اللهُ أَحَدَهُما مِنْ صاحِبِهِ خَيْراً .

مِنْ أَجْلِ هَذا ، لَمْ يَكُنِ اخْتِيارُ الصَّاحِبِ وانْتِقاءُ الأَخِ الصَّالِحِ مُجَرَّدَ أُمْنِيَةٍ أَو رَغْبَةٍ أَو نَشْوَةٌ ، وإِنَّما هُوَ عَمَلٌ وسَعْىٌ والْتِزامٌ ، يَحْتاجُ إِلَى نِيَّةٍ صالِحَةٍ ومُداوَمَةٍ حَتَّى اللَّحْظَةِ الأَخِيرَةِ ، لِيُكْتَبَ لِلمُتَآلِفِينَ والمُتآخِينَ حُسْنُ الخِتامِ ، فَيَكُونُونَ فى عِدادِ السَّبْعَةِ المُبَشَّرِينَ :

(سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ تَعالَى .... فَمِنْهُم : ورَجُلانِ تَحابَّا فى اللهِ فَعاشا عَلَى

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال ، مِن الآيَة ٦٣ . (٢ ، ٣) سُورَةُ آل عِمْران ، مِن الآيَة ١٠٣ .

(٤) أَخْرَجَهُ (الحاكِمُ) و(البَيْهَقِيُّ) .

(٥) أَخْرَجَهُ (الطَّبرانِىُّ) فى الأَوْسَط . وَزِيراً : أَخاً يُوازِرُهُ ويُعِينُه .

(٦) أَخْرَجَهُ (الدَّيْلَمِي) فى مُسْنَدِ الفِرْدَوس .

ذَلِكَ وتَفرَّقا عَلَيْه)[1] إشارَةً إلَى أَنَّ الأُخُوَّةَ والصُّحْبَةَ مِنْ شَرْطِهِما المُداوَمَةُ وحُسْنُ الخاتِمَةِ حَتَّى يُكْتَبَ لَهُما ثَوابُ المُؤاخاةِ ، ومَتَى فَسَدَتِ المُؤاخاةُ بِتَضْيِيعِ حُقُوقِها وواجِباتِها ، فَقَدْ فَسَدَ العَمَلُ وبَطَلَ السَّعْىُ ابْتداءً أو انْتِهاءً ، وطابَ بِذَلِكَ بالُ الشَّيْطانِ والعِياذُبِاللّه ، ولِهذا قِيلَ : ما حَسَدَ الشَّيْطانُ مُتَعاوِنَيْنِ عَلَى بِرٍّ حَسَدَهُ مُتَآخِيَيْنِ فى اللهِ مُتَحابَّيْنِ فيهِ ، فَإِنَّهُ يُجْهِدُ نَفْسَهُ ويَحُثُّ قَبِيلَهُ عَلَى إِفْسادِ ما بَيْنَهُما .

ولِلسَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ فى تَوْثِيقِ عُرَى رابِطَةِ الصُّحْبَةِ آدابٌ وبَصَماتٌ ، مِنْها :

(١) الوضُوحُ والصَّراحَةُ القائِمَةُ عَلَى المَحَبَّةِ والتَّناصُحِ كَشَرْطٍ لِدَوامِ الأُلْفَةِ واسْتِمْرارِها ، وكان (الفُضَيْلُ بنُ عِياض) يَقُولُ : إذا وَقَعَتِ الغِيبَةُ ارْتَفَعَتِ الأُخُوَّةُ ، لِأَنَّ الأُخُوَّةَ في اللهِ تَعالَى صَراحَةٌ مُواجَهَةٌ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[2] ، ومَتَى أَضْمَرَ أَحَدُهُما لِلآخَرِ سُوءاً ، أَوكَرِهَ مِنْهُ شَيْئاً ، ولَمْ يُنَبِّهْهُ إِلَيْهِ حَتَّى يُزِيلَهُ ، أَو يَتَسَبَّبَ إِلَى إزالَتِهِ مِنْهُ فَما وَاجَهَهُ ، بَلِ اسْتَدْبَرَهُ ، وكانَ ذَلِكَ مَدْعاةً لِتَنْغِيصِ العَلاقَةِ بَيْنَهُما ، وما أَحْكَمَ قَوْلَ الإمامِ (الجُنَيْد) إذْ يَقُولُ :

(ما تَآخَى اثْنانِ فى اللهِ واسْتَوْحَشَ أَحَدُهُما إِلَّا لِعِلَّةٍ فى أَحَدِهِما) .

فالمُؤاخاةُ فى اللهِ أَصْفَى مِنَ الماءِ الزُّلالِ ، وما كانَ لِلّهِ فاللهُ مُطالِبٌ بالصَّفاءِ فيهِ ، وكُلُّ ما صَفا دامَ ، والأَصْلُ فى دوامِ صَفائِهِ عَدَمُ الغَدْرِ والمُخالَفَةِ ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(لا تُمارِ أَخاكَ ولا تُمازِحْهُ ولا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ)[3]

وقالَ (أَبُوسَعِيد الخَرَّاز) رَحِمَهُ اللهُ : (صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ خَمْسِينَ سَنَةً ،

---

(١) أخرَجَهُ (البُخارىُّ) و(مُسْلِمٌ) وغَيْرُهُما .
(٢) سُورَةُ الحِجْر آية ٤٧ .
(٣) أخرَجَهُ (التِّرْمِذِىُّ) فى سُنَنِه .

ماوقَعَ بَيْنِي وبَيْنَهُم خِلافٌ ، فَقِيلَ لَهُ : وكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قالَ : لأَنِّى كُنْتُ مَعَهُم عَلَى نَفْسِي) .

وقالَ الشَّيْخُ (أَبو النَّجِيب السَّهْرَوَرْدِي) قالَ : أَخْبَرَنا (عُمَرُ بنُ أَحْمَدَ الصَّفَّار) ، قالَ : أَخْبَرَنا (أَبُوبَكْر أَحْمَدُ بنُ خَلَف) ، قالَ : أَخْبَرَنا (أبو عَبْدِالرَّحْمن السُّلَمِي) ، قالَ : سَمِعْتُ (عَبْدَاللهِ الدَّارانِي) ، قالَ : سَمِعْتُ (أَبا عَمْرو الدِّمَشْقِى الرَّازى) يَقُولُ : سَمِعْتُ (أَبا عَبْدِاللهِ بنَ الجَلَّاءِ) يَقُولُ وقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ : عَلَى أَيِّ شَرْطٍ أَصْحَبُ الخَلْقَ ؟ فَقالَ : (إِنْ لَمْ تَبَرَّهُمْ فلا تُؤْذِهِمْ ، وإِنْ لَمْ تَسُرَّهُمْ فَلا تَسُؤْهُمْ) .

وبِهَذا الإِسْنادِ قالَ أَبوعَبْدِاللهِ : (لا تُضَيِّعْ حَقَّ أَخِيكَ بِما بَيْنَكَ وبَيْنَهُ مِنَ المَوَدَّةِ والصَّداقَةِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالَى فَرَضَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ حُقُوقاً ، لَمْ يُضَيِّعْها إِلَّا مَنْ لَمْ يُراعِ حُقُوقَ اللهِ عَلَيْه) .

وعَلَى فَرْضِ التَّفَرُّقِ (لاسَمَحَ اللهُ) فَإِنَّ مِنْ حُقُوقِ الصُّحْبَةِ ولَوازِمِها أَلَّا يَذْكُرَ الواحِدُ مِنْهُم أَخاهُ إِلَّا بِخَيْر .

قِيلَ : كانَ لِبَعْضِهِم زَوْجَةٌ وكانَ يَعْلَمُ مِنْها ما يَكْرَهُ ، فَكانَ يُقالُ لَهُ اسْتِخْباراً عَنْ حالِها فَيَقُولُ : لا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ في أَهْلِهِ إِلَّا خَيْراً ، فَفارَقَها وطَلَّقَها فاسْتُخْبِرَ عَنْ ذَلِكَ فَقالَ : امْرَأَةٌ بَعُدَتْ عَنِّى ولَيْسَتْ مِنِّى فى شَىْءٍ كَيْفَ أَذْكُرُها ؟ ، هَذا عَلَى صَعيدِ الزَّوْجِيَّةِ ، وقِسْ عَلَى ذلِكَ سائِرَ أَصْنافِ العَلاقاتِ الإِنْسانِيَّةِ مِنْ قَرابَةٍ وشَراكَةٍ وأُخُوَّةٍ وصُحْبَةٍ وسِواها ، فَهَذا مِنَ التَّخَلُّقِ بِأَخْلاقِ اللهِ الَّذى يُظْهِرُ الجَمِيلَ ويَسْتُرُ القَبِيحَ .

ولَكِنْ .. ما حُكْمُ البُغْضِ بَعْدَ التَّقاطُعِ إِذا كانَ هُنالِكَ ما يُوجِبُه ؟

اخْتَلَفَ القَوْلُ فى ذَلِكَ ، فَكانَ سَيِّدُنا (أَبُوذَرٌ) رضي الله عنه يَقُولُ :

(إِذا انْقَلَبَ عَمَّا كانَ عَلَيْهِ أَبْغَضَهُ مِنْ حَيْثُ أَحَبَّهُ) ، وقالَ غَيْرُهُ :

(لا يُبْغِضُ الأَخَ بَعْدَ الصُّحْبَةِ ، ولَكِنْ يُبْغِضُ عمَلَهُ ، قالَ اللّهُ تعالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1]، ولَمْ يَقُلْ إِنِّى بَرِيءٌ مِنْكُم .

ويُرْوَى أَنَّ شابّاً كانَ يُلازِمُ مَجالِسَ (أَبِى الدَّرْداءِ) رضي الله عنه ، وكانَ (أَبو الدَّرْداء) يُمَيِّزُهُ علَى غيْرِهِ ، فابْتُلِيَ الشَّابُّ بِكَبِيرَةٍ مِنَ الكبائِرِ ، وانْتَهى إِلَى عِلْمِ أَبِى الدَّرْداءِ ما كانَ مِنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ أَبْعَدْتَهُ وهَجَرْتَهُ ! ، فقالَ : (سُبْحانَ اللّهِ ! لا يُتْرَكُ الصَّاحِبُ بِشَيْءٍ كانَ مِنْهُ) .

لأَنَّ الصَّداقَةَ والصُّحْبَةَ (كَما قِيلَ): لُحمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ .

وقَدْ قِيلَ لِحَكِيمٍ مَرَّةً : أَيُّهُما أَحَبُّ إِلَيْكَ ، أَخُوكَ أَو صَدِيقُكَ ؟ فقالَ : (إِنَّما أُحِبُّ أَخِى إِذا كانَ صَديقى) .

وهَذا الخِلافُ في المُفارَقَةِ ظاهِراً أَو باطِناً ، وأَمَّا المُلازَمَةُ باطِناً إِذا وَقَعَتِ المُبايَنَةُ ظاهِراً فَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الأَشْخاصِ ، ولا يُطْلَقُ القَوْلُ فِيهِ إِطْلاقاً مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ كانَ تَغَيُّرُهُ رُجوعاً عَنِ اللّهِ وظُهورَ حُكْمِ سُوءِ السَّابِقَةِ ، فَيَجِبُ بُغْضُهُ ومُوافَقَةُ الحَقِّ فيهِ ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ كان تَغَيُّرُهُ عَثْرَةً حَدَثَتْ ، وفَتْرَةً وَقَعَتْ ، يُرْجَى عَوْدُهُ ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُبْغَضَ عَمَلُهُ فى الحالَةِ الحاضِرَةِ ، بَلْ يُلْحَظُ بِعَيْنِ الْوُدِّ مُنْتَظَراً لَهُ الفَرَجُ ، والعَوْدُ إِلَى أَوْطانِ الصُّلْحِ ، فقَدْ وَرَدَ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ ، لَمَّا شَتَمَ القَوْمُ الرَّجُلَ الّذى أَتى بِفاحِشَةٍ قالَ : (مَه) وزَجَرَهُم بِقَوْلِهِ : (لا تَكُونُوا عَوْناً لِلشَّيْطانِ عَلَى أَخِيكُم)[2].

وقالَ إِبْراهِيمُ النَّخَعِيُّ : (لاتَقْطَعْ أَخاكَ ولا تَهْجُرْهُ عِنْدَ الذَّنْبِ يُذْنِبُهُ ، فَإِنَّهُ يَرْكَبُهُ اليَوْمَ ويَتْرُكُهُ غَداً) .

---

(١) سُورَةُ الشُّعَراء الآيَة ٢١٦ .

(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِىُّ عَنْ (أَبى هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه .

وفى الحَديثِ : (اتَّقُوا زَلَّةَ العالِمِ وانْتَظِروا فَيْئَتَهُ)[1] أي أَمْهِلُوهُ ولا تَهْجُرُوهُ عَسَى أَنْ يَفِيءَ أو يَعُودَ إلَى الصَّوابِ والحَقِّ .

(٢) وثَمَّةَ شَرْطٌ آخَرُ لِدَوامِ الحُبِّ فى اللهِ واسْتِمْرارِ رابِطَةِ الأُخُوَّةِ والصُّحْبَةِ ، ألا وهُوَ : إيثارُ الأخِ بِكُلِّ ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ والدُّنْيا ، وقَدْ قالَ اللهُ تَعالَى مادِحاً الرَّعِيلَ الإيمانِيَّ الأَوَّلَ :

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2] ، فَقَوْلُهُ تعالَى :

﴿ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ ، أي لايَحْسِدُونَ إخوانَهُم عَلَى مالِهِم ، وبِهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ يَكْمُلُ صَفْوُ المَحَبَّةِ ، وأَعْنِي بِهِما :

أَوَّلاً : انْتِزاعَ الحَسَدِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ والدُّنْيا .

وثانِياً : الإيثارَ بِالمَقْدورِ ، وفى الخَبَرِ عَنْ سَيِّدِ البَشَرِ ﷺ: (المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ، ولا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَرَى لَكَ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ)[3] ، وفى الحَديثِ الشَّهِير : (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِه)[4] ، وكانَ (أبومُعاوِيَةَ الأَسْود) يَقُولُ : إخْوانِي كُلُّهُم خَيْرٌ مِنِّى ، قِيلَ : وكَيْفَ ذَلِكَ ؟ ، قالَ : كُلُّهُم يَرَى لِيَ الفَضْلَ عَلَيْهِ ، ومَنْ فَضَّلَنِي عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّى .

ولِبَعْضِهِم فى هَذا الشَّأْنِ نَظْماً :

تَذَلَّلْ لِمَنْ إنْ تَذَلَّلْتَ لَهُ * يَرَى ذاكَ لِلْفَضْلِ لا لِلْبَلَهْ
وجانِبْ صَداقَةَ مَنْ لَمْ يَزَلْ * عَلَى الأَصْدِقاءِ يَرَى الفَضْلَ لَهْ

ولَمْ يَزَلْ دَأْبُ الصُّوفِيَّةِ عَلَى امْتِدادِ أَزْمانِهِم القِيامَ بِخِدْمَةِ الإخْوانِ واحْتِمالِ

---

(١) أَخْرَجَهُ (البَيْهَقِيُّ) و (الدَّيْلَمِيُّ) . (٢) سُورَةُ الحَشْر الآية ٩ .
(٣) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِيُّ) و(أبوداود) و(البَغَوِيُّ) و(الدَّيْلَمِيُّ) .
(٤) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و(مُسْلِمٌ) وغَيْرُهُما .

الأَذَى مِنْهُم ، فَبِذَلِكَ يَظْهَرُ جَوْهَرُ الفَقِيرِ[1] وحُسْنُ مَعْدِنِهِ .

(٣) ومِنْ أَدَبِهِم (طَيَّبَ اللهُ ذِكْرَهُم) : أَنَّهُم لا يَرَوْنَ لأَنْفُسِهِم مِلْكاً يَخْتَصُّونَ بِهِ ، قالَ إِبْراهِيمُ بنُ شَيْبان : (كُنَّا لا نَصْحَبُ مَنْ يَقُولُ نَعْلِي) تَعْبِيراً عَنِ الأَثَرةِ وحُبِّ الأَنا .

وكانَ (إِبْراهِيمُ بنُ أَدْهَم) إِذا صَحِبَهُ إِنْسانٌ شارَطَهُ عَلَى ثَلاثَةِ أَشْياءَ : أَنْ تَكُونَ الخِدْمَةُ والأَذانُ لَهُ ، وأَنْ تَكُونَ يَدُهُ فِى جَمِيعِ ما يَفْتَحِ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ الدُّنْيا كَيَدِهِم ، فَقالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحابِهِ : أَنا لا أَقْدِرُ عَلَى هَذا ، فَقالَ : أَعْجَبَنِي صِدْقُكَ .

وكانَ إِبْراهِيمُ بنُ أَدْهَم يَنْظُرُ البَساتِينَ ويَعْمَلُ فى الحَصادِ ويُنْفِقُ عَلَى أَصْحابِه .

(٤) وكانَ مِنْ سَجايا الصُّوفِيَّةِ الكِرام : أَنَّ كُلَّ مَنِ احْتاجَ إِلَى شَئٍ مِنْ مالِ أَخِيهِ اسْتَعْمَلَهُ مِنْ غَيْرِ مُؤامَرَةٍ ، وذَلِكَ لِفَرْطِ إِيثارِهِم وسَعَةِ أَخْلاقِهِم .

(٥) ومِنْ أَدَبِهِم رضي الله عنهم : أَنَّهُم إِذا اسْتَثْقَلُوا صاحِباً يَتَّهِمُونَ أَنْفُسَهُم ، ويَتَسَبَّبُونَ فى إِزالَةِ ذَلِكَ مِنْ بَواطِنِهِم ، لأَنَّ انْطِواءَ الضَّمِيرِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ لِلْمُصاحِبِ وَلِيجَةٌ فِي الصُّحْبَةِ ، ومَفْسَدَةٌ لَها .

(٦) ومِنْ أَدَبِهِم أَيْضاً : تَقْدِيمُ مَنْ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ والتَّوْسِعَةُ لَهُ فِي المَجْلِسِ ، والإِيثارُ بِالمَواضِعِ ، وأُسْوَتُهُم في هَذا مارُوِىَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كانَ جالِساً في صُفَّةٍ ضَيِّقَةٍ ، فجاءَهُ قَوْمٌ مِنَ البَدْرِيِّينَ ، فَلَمْ يَجِدوا مَوْضِعاً يَجْلِسُونَ فيهِ ، فَأَقامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ فَجَلَسُوا مَكانَهُم ، فاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِم ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ

(١) وهُوَ اسْمٌ نَعْتٍ للصُّوفِيِّ (لِمُلازَمَةِ افْتِقارِه إلى اللهِ ، وأَنَّ لا عِزَّ لَهُ ولا جاهَ ولا غِنىً إلّا باتِّباعِ رسُولِ اللهِ ﷺ) .

يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[1].

وحُكِيَ أَنَّ (عَلِيَّ بن بِنْدارٍ) الصُّوفِيَّ وَرَدَ عَلَى (أَبِي عَبْدِاللهِ بنِ خَفِيفٍ) زائِراً ، فتَماشَيا ، فقالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ الله : تَقَدَّم ، فقالَ : بِأَيِّ عُذْرٍ ؟

فقالَ : بِأَنَّكَ لَقِيتَ (الجُنَيْدَ) وما لَقِيتُه .

(٧) ومِنْ شَمائِلِ الصُّوفِيَّةِ أَيْضاً : أَنَّهُم يَسْعَوْنَ لأَداءِ واجِباتِهِم ويَتَناسَوْنَ مايَجِبُ لَهُم مِنْ حُقُوقٍ ، وذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الأَوْصافِ وجَلِيلِها ، فَهُم يَبْذُلُونَ الإِنْصافَ لِلإِخْوانِ ويَتْرُكُونَ مُطالَبَةَ الإِنْصافِ ؛ قالَ أَبُو عُثْمانَ الحِيرى : (حَقُّ الصُّحْبَةِ أَنْ تُوَسِّعَ عَلَى أَخِيكَ مِنْ مالِكَ ولاتَطْمَعَ في مالِهِ ، وتُنْصِفَهُ مِنْ نَفْسِكَ ولا تَطْلُبَ مِنْهُ الإِنْصافَ ، وتَكُونَ تَبَعاً لَهُ ولا تَطْمَعَ أَنْ يَكُونَ تَبَعاً لَكَ ، وتَسْتَكْثِرَ ما يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُ وتَسْتَقِلَّ ما يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْكَ) .

فتَأَمَّلْ هَذا الرُّقِيَّ فى الصُّحْبَةِ والسُّمُوَّ في المُعاشَرَة !

(٨) ومِنْ أَدَبِهِمْ (أَعْلَى اللهُ شَأْنَهُمْ) أَيْضاً : تَرْكُ صُحْبَةِ مَنْ هَمُّهُ شَيْءٌ مِنْ فُضُولِ الدُّنْيا ، وهُمْ بِذَلِكَ يَسْتَجِيبُونَ لِلتَّوْجِيهِ الإِلَهِيِّ :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

(٩) ومِنْ أَدَبِهِمْ فِي الصُّحْبَةِ كَذَلِكَ : لِينُ الجانِبِ وتَرْكُ ظُهُورِ النَّفْسِ بِالصَّوْلَةِ ؛ وفي هَذا يَقُولُ أَبُو عَلِى الرُّوزبارِي :

(والصَّوْلَةُ عَلَى مَنْ فَوْقَكَ قِحَةٌ[3]، وعَلَى مَنْ مِثْلُكَ سُوءُ أَدَبٍ ، وعَلَى مَنْ دُونَكَ عَجْزٌ) .

(١٠) ومِنْ أَدَبِهِمْ أَيْضاً : أَن لا يَجْرِي في كَلامِهِم : لَوْ كانَ كَذا لَمْ يَكُنْ كَذا

---

(١) سُورَةُ المُجادلَة مِنْ الآيَة ١١ . وانْظُر : فَتْحَ البارِي عَلَى شَرْحِ صَحِيحِ البُخارِي (لابْنِ حَجَر العَسْقَلاني) ١١/ ٦٢

(٢) سُورَةُ النَّجْم آية ٢٩ .

(٣) قحة : أى وَقاحَة .

وليتَ كانَ كذا عسى أنْ يكونَ كذا ، فإنَّهم يرونَ هذهِ التَّقديراتِ عليهِ اعتراضاً ، وهُمْ بذلِكَ يأتمرونَ بأمرِ محبُوبهم ﷺ :

(احْرِصْ عَلَى ما يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ بِاللهِ ولا تَعْجَزْ ، وإنْ أصابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَو أنِّى فَعَلْتُ كَذا كانَ كَذاوكَذا ، ولَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللهُ وماشاءَ فَعَلَ ، فإنَّ لَو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ)(١) .

(١١) ومِنْ أدَبِهِمْ ﷺ : التَّجاوزُ عَنِ الصَّغائرِ وبَسائِطِ الأمُور :

يُرْوَى أنَّ (إبْراهِيمَ بنَ أدْهَمَ) كانَ في الحَصادِ يُطْعِمُ الأصْحابَ ، وكانُوا يَجْتَمِعُونَ بِاللَّيْلِ وهُمْ صِيامٌ ، ورُبَّما كانَ يَتأخَّرُ في بَعْضِ الأيَّامِ في العَمَلِ ؛ فَقالُوا لَيْلَةً : تَعالَوا نَأْكُلُ فُطُورَنا دُونَهُ حَتَّى يَعُودَ بَعْدَ هَذا يُسْرِعُ ، فأفْطَرُوا ونامُوا فَرَجَعَ إبْراهِيمُ فَوَجَدَهُم نِياماً ، فَقالَ : مَساكِينُ لَعَلَّهُم لَمْ يَكُنْ لَهُم طَعامٌ ، فَعَمَدَ إلَى شَيْءٍ مِنَ الدَّقِيقِ فَعَجَنَهُ ، فانْتَبَهُوا ، وهُوَ يَنْفُخُ فى النَّارِ واضِعاً مَحاسِنَهُ عَلَى التُّرابِ ، فَقالُوا لَهُ في ذَلِكَ ، فَقالَ : قُلْتُ لَعَلَّكُمْ لَمْ تَجِدوا فُطُوراً فَنِمْتُمْ ، فَقالُوا : انْظُروا بِأيِّ شَيْءٍ عامَلْناهُ وبِأيِّ شَيْءٍ يُعامِلُنا !! نَعَم.. تِلْكَ هِىَ أخْلاقُ التَّصَوُّف .

(١٢) ومِنْ أدَبِهِمْ ﷺ أيْضاً : أنْ لا يَقُولُوا عِنْدَ الدُّعاءِ إلَى أيْنَ ؟ ، وبِأيِّ سَبَبٍ ؟ ، ولِهَذا قالَ بَعْضُ العُلَماءِ الأُدَباء : (إذا قالَ الرَّجُلُ لِلصَّاحِبِ : قُمْ بِنا ، فَقالَ : إلَى أيْنَ ؟ فَلا تَصْحَبْهُ) لأنَّ فى ذَلِكَ ما يَخْدُشُ حُسْنَ النَّوايا بَيْنَ المُتآخِينَ ولَوْ مِنْ بَعِيد .

ويَقُولُ آخَرُ : (مَنْ قالَ لأخِيهِ أعْطِني مِنْ مالِكَ ، فَقالَ : كَمْ تُرِيد ؟ ما قامَ بِحَقِّ الإخاء) ، وتِلْكَ هِىَ شِيمَةُ الأكارِمِ مِنَ العَرَبِ الَّذينَ قالَ فِيهِم الشَّاعِرُ:

لا يَسْألُونَ أخاهُم حِينَ يَنْدُبُهُم * لِلنَّائِباتِ عَلَى ما قالَ بُرْهانا

---

(١) أخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فى صَحِيحِهِ .

(١٣) ومِنْ أَدَبِهِمْ فى الصُّحْبَةِ والأُخُوَّةِ أَيْضاً : أَنْ لا يَتَكَلَّفُوا لِلإِخْوانِ ، وفُتُوَّةُ المَرْءِ عِنْدَهُم : (تَرْكُ التَّكَلُّفِ وإِحْضارُ ما حَضَرَ) ، إِذْ قَدْ يَكُونُ بِالتَّكَلُّفِ رَغْبَةٌ في مُفارَقَةِ الضَّيْفِ ، ولَكِنْ بِتَرْكِ التَّكَلُّفِ يَسْتَوِى مُقامُهُ وذَهابُهُ وَيَنْتَفِي الحَرَجُ والتَّثاقُلُ مِنْ مُقامِهِ وضِيافَتِهِ ، ولا يَصْدُرُ مِثْلُ هَذا الخُلُقِ الزَّكِيِّ إِلَّا عَنْ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ ، فَقَدْ قالَ ﷺ : (أَنا وأَتْقِياءُ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ)[١].

(١٤) ومِنْ أَدَبِهِم فى الصُّحْبَةِ كَذَلِكَ : المُداراةُ وتَرْكُ المُداهَنَةِ ، والفَرْقُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ : أَنَّ (المُداراةَ) : ما أَرَدْتَّ بِهِ صَلاحَ أَخِيكَ ، فَدارَيْتَهُ رَجاءَ صَلاحِهِ واحْتَمَلْتَ مِنْهُ ما تَكْرَهُ . أَمَّا (المُداهَنَةُ) : فَما قُصِدَ بِهِ شَىْءٌ مِنَ الهَوَى ونَحْوِ ذَلِكَ ، وذَلِكَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الرِّياءِ والمُنافَقَةِ والعِياذُ بِاللهِ .

(١٥) ومِنْ أَدَبِهِمْ فى الصُّحْبَةِ أَيْضاً : رِعايَةُ الاعْتِدالِ بَيْنَ الانْقِباضِ والانْبِساط .

فَقَدْ نُقِلَ عَنِ الإِمامِ (الشَّافِعِيِّ) رضي الله عنه ، أَنَّهُ كانَ يَقُولُ : (الانْقِباضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِعَداوَتِهِم ، والانْبِساطُ إِلَيْهِم مَجْلَبَةٌ لِقُرَناءِ السُّوءِ ، فَكُنْ بَيْنَ المُنْقَبِضِ والمُنْبَسِطِ) ، ويَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَيْنِ الأَدَبَيْنِ العَظِيمَيْنِ لَدَى الصُّوفِيَّةِ أَنْ لا يُحْوِجُوا صاحِبَهُم إِلَى المُداراةِ وأَلَّا يُلْجِؤُهُ إِلَى الاعْتِذارِ ، وأَلَّا يَتَكَلَّفُوا لِلصَّاحِبِ ما يَشُقُّ عَلَيْهِ ، وأَلَّا يُكَلِّفُوهُ بِذَلِكَ ، وإِنَّما يَكُونُونَ لِلصَّاحِبِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، مُؤْثِرِينَ مُرادَهُ عَلَى مُرادِ أَنْفُسِهِم .

وفى هَذا يَقُولُ الإِمامُ (عَلِيُّ بنُ أَبِى طالِبٍ) أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ، كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : (شَرُّ الإِخْوانِ مَنْ تُكِلِّفَ لَهُ)[٢] وأَشَرُّ الإِخْوانِ مَنْ أَحْوَجَكَ إِلَى مُداراةٍ أَوْ أَلْجَأَكَ إِلَى اعْتِذارٍ أَوْ تَكَلَّفْتَ لَهُ .

ويَقُولُ سَلِيلُهُ الزَّكِيُّ الإِمامُ (جَعْفَرُ الصَّادِقُ) رضي الله عنه :

---

(١) أَخْرَجَهُ (الدَّارَقُطْنى) و(ابْنُ عَساكِر) . (٢) نَهْجُ البَلاغَة .

أَثْقَلُ إِخْواني عَلَيَّ مَنْ يَتَكَلَّفُ لِي وأَتَحفَّظُ مِنْهُ ، وأَخَفُّهُم عَلَى قَلْبِي مَنْ أَكُونُ مَعَهُ كَما أَكُونُ وَحْدِي) [1].

(١٦) ومِنْ أَدَبِهِـمْ رضي الله عنهم : سَتْرُ عَوْراتِ الإِخْوانِ وتَنْزِيهُ أَلْسِنَتِهِم وقُلُوبِهِمْ عَنْ ذِكْرِ المَساوِىءِ والمَعايِبِ ، يَقُولُ سَيِّدُنا (عِيسَى) عليه السلام لأَصْحابِهِ : (كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذا رَأَيْتُمْ أَخاكُمْ نائِماً فَكَشَفَ الرِّيحُ عَنْ ثَوْبِهِ ! قالوا : نَسْتُرُهُ ونُغَطِّيه ، قالَ : بَلْ تَكْشِفُونَ عَوْرَتَهُ ، قالُوا : سُبْحانَ اللهِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ قالَ أَحَدُكُمْ يَسْمَعُ فى أَخِيهِ كَلِمَةً فَيَزِيدُ عَلَيْها ويُشِيعُها بِأَعْظَمَ مِنْها) .

(١٧) ومِنْ أَدَبِهِمْ أَيْضاً : الاسْتِغْفارُ لِلإِخْوانِ والأَصْحابِ بِظَهْرِ الغَيْبِ ، والاهْتِمامُ لَهُمْ مَعَ اللهِ تَعالَى ، ودُعاؤُهُمْ فى دَفْعِ المَكارِهِ عَنْهُمْ ، يَقُولُ (أبو الدَّرْداء) رضي الله عنه : (إِنِّى لأَدْعُو لِثَلاثِينَ - وفي رِوايَةٍ لِسَبْعِينَ - مِنْ إِخْوانِي فى صَلاتِي ، - وفى رِوايَةٍ ، وأَنا ساجِدٌ - أُسَمِّيهِم بِأَسْمائِهِم وأَسْماءِ آبائِهِم) [2].

ويَقُولُ النَّبِىُّ ﷺ :

(دَعْوَةُ الأَخِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجابَةٌ - وفى رِوايَةٍ - لا تُرَدُّ) [3].

تِلْكَ طائِفَةٌ مِنْ آداب الأُخُوَّةِ والصُّحْبَةِ الَّتى تَرَبَّى عَلَيْها الصُّوفِيَّةُ والسَّلَفُ الصَّالِحُ رضي الله عنهم ، وحَرِصُوا عَلَى أَنْ يُرَبُّوا عَلَيْها إِخْوانَهُم وأَنْصارَهُم ومُرِيدِيهِمْ ، فَكانُوا بِحَقٍّ مَنارَةَ هُدَىً ، وأُنْمُوذَجَ خَيْرٍ لِكُلِّ دُعاةِ التَّعايُشِ والاجْتِماعِ الإِنْسانِيِّ الرَّفِيعِ فى هَذا العالَمِ ، وعَلَى امْتِدادِ مَراحِلِ التَّارِيخِ ، وحَتَّى يَوْمِنا هَذا ، بِفَضْلِ اللهِ وبِفَضْلِ رَسُولِهِ ﷺ ، وبِبَرَكَةِ المُخْلِصِينَ مِنْ أَكابِرِ الصُّوفِيَّةِ والسَّلَفِ الصَّالِحِ رضي الله عنهم ، ولا رَيْبَ في أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ التَّجَمُّعاتِ واللِّقاءاتِ الَّتي تَكْثُرُ وتَتَنامَى فى رِحابِ التَّصَوُّفِ ، هِىَ مَظْهَرُ عِزٍّ لِلْمُسْلِمِينَ ، وتَعْبِيرٌ عَنْ

(١) مُسْتَدْرَكُ الوسائل (النُّوري الطَّبْرَسِي) ص ١٥٥ .
(٢) أَخْرَجَهُ (البَيْهَقِىُّ) فى سُنَنِهِ الكُبْرَى . و(عَبْدُ الرَّزَّاق) فى مُصَنَّفِهِ .
(٣) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) و(التِّرْمِذِىُّ) و(أبوداود) و(الدَّارَقُطْنى) .

تَوادِّهِم وتَراحُمِهِم وتَعاطُفِهِم ، وداعٍ إِلَى ازْدِيادِ قُوَّتِهِم وتَعاظُمِ مَجْدِهِم ، وصَدَقَ الإمامُ (عَلِيُّ بنُ أَبِى طالبٍ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يَوْمَ قالَ :

(أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسابِ الإِخْوانِ ، وأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُم)(١).

وبَعْدُ ، فالصُّحْبَةُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ قُوامُها والباعِثُ عَلَى قُوَّةِ قِيامِها هُوَ (الذَّوْقُ) والذَّوْقُ : (هُوَ نُورٌ عِرْفانِيٌّ يَقْذِفُهُ الحَقُّ بِتَجَلِّيهِ في قُلُوبِ أَوْلِيائِهِ)؛ وقَدْ عَبَّرَ عَنْها بَعْدَ عَمِيقِ مُمارَسَةٍ لَها ، الإِمامُ الغَزالِي ، حَيْثُ قالَ : (وهَذِهِ حالَةٌ يَتَحَقَّقُها بِالذَّوْقِ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَها ، فَمَنْ لَمْ يُرْزَقِ الذَّوْقَ ، فَيَتَيَقَّنَها بِالتَّجْرِبَةِ والتَّسامُعِ ، إِنْ أَكْثَرَ مَعَهُم الصُّحْبَةَ حَتَّى يَعْرِفَ ذَلِكَ بِقَرائِنِ الأَحْوالِ يَقِيناً ، ومَنْ جالَسَهُم اسْتَفادَ مِنْهُم هَذا الإِيمانَ ، فَهُم القَوْمُ لا يَشْقَى جَلِيسُهُم ، ومَنْ لَمْ يُرْزَقْ صُحْبَتُهُم فَلْيَعْلَمْ إِمْكانَ ذَلِكَ يَقِيناً بِشَواهِدِ البُرْهانِ، عَلَى ما ذَكَرْناهُ فى كِتابِ عَجائِبِ القَلْبِ ، مِنْ كُتُبِ إِحْياءِ عُلُومِ الدِّين) .

(١) نَهْجُ البَلاغَة .

المدخل.. إلى عيون المنهل

عَلَى سُلَّمِ التَّيْسِيرِ فارْقَ إِلَى اليُسْرَى

وِمِنْ نَفَحاتِ الذِّكْرِ فاسْتَنْشِقِ العِطْرا

وِلا تَكُ عَطْشاناً وهَذِهِ مَناهِلُ

تَفِيضُ بِما يَسْتَوجِبُ الحَمْدَ والشُّكْرا

ذَلِكَ أَنَّ ما ذَكَرْناهُ سالِفاً كانَ بِمَثابَةِ التَّخْلِيَةِ ، بِمَعْنَى نَفْيِ الشَّوائِبِ والخَبَثِ الَّذى أَلْصَقَهُ (بِمَكْرٍ ودَهاءٍ وتَدْبِيرٍ بِخَفاءٍ) أَعْداءُ الإِسْلامِ بِالتَّصَوُّفِ بُغْيَةَ اسْتِئْصالِ شَأْفَةِ الإِسْلامِ وإِخْمادِ جَذْوَتِهِ .

وما نَحْنُ داخِلُونَ لِلْورُودِ عَلَيْهِ الآنَ هُوَ التَّحْلِيَةُ بَعْدَ التَّخْلِيَةِ ، والارْتِواءُ مِنْ مَناهِلَ عَذْبَةٍ دَفَّاقَةٍ بِصافِي ماءِ العَطاءِ والارْتِقاء .

ولِمَ لا ، وقَدِ اتَّضَحَ أَنَّ التَّصَوُّفَ لَيْسَ ضَعْفاً ولا خُمُولاً ولا انْعِزالاً ، إِنَّهُ الجِهادُ في أَعْلَى ذُراهُ والعِلْمُ في أَصْفَى مَوارِدِهِ ، والخُلُقُ في أَعْلَى مُثُلِهِ ، والإِيمانُ في أَسْمَى أَنْوارِهِ وإِشْراقاتِهِ ، والإِنْسانُ في أَكْمَلِ صُورَةٍ لِحَمْلِ الأَمانَةِ وأَعْبائِها .

وأَنَّ التَّصَوُّفَ رُوحُ الإِسْلامِ وجَوْهَرُهُ ، ومَدْرَسَتُهُ العُلْيا الَّتي خَرَّجَتْ سادَةً عُظَماءَ مِنَ الأَساتِذَةِ والمُرَبِّينَ والدُّعاةِ والهُداةِ رِجالاً ونِساءً ، مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ والإِخْلاصِ ، ولا يَزالُ مَعِينُ التَّصَوُّفِ دَفَّاقاً مُنْذُ بَعَثَ اللهُ سَيِّدَنا مُحَمَّداً ﷺ هادِياً ومُبَشِّراً ونَذِيراً وحَتَّى يَوْمِنا هَذا ، وإِلَى ما شاءَ اللهُ تَعالَى ولا يَزالُ النَّاسُ يَطَّلِعُونَ في كُلِّ يَوْمٍ وفي كُلِّ صَقْعٍ ، عَلَى نَماذِجَ جَدِيدَةٍ وشامِخَةٍ مِمَّنْ خَرَّجَتْهُم مَدارِسُ التَّصَوُّفِ ، لِتُثْبِتَ لِلنَّاسِ (جَمِيعِ النَّاسِ) أَنَّ هَذا الدِّينَ حَيٌّ دافِقٌ بِالعَطاءِ ، وأَنَّ اتِّباعَ المُثُلِ العُلْيا الَّتي دَعا إِلَيْها الإِسْلامُ أَمْرٌ مُمْكِنٌ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، وأَنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعالَى ، ونَيْلَ مَكانَةٍ عِنْدَهُ لَمْ يَكُنْ مَقْصُوراً عَلَى أَهْلِ العُصُورِ الأُولَى فَقَط ، لأَنَّ الجُودَ مُتَواصِلٌ ، والكَرَمَ الإِلَهِيَّ لا تَحُدُّهُ حُدود .

نَعَم .. إِنَّ أَفْرادَ هَذِهِ الأُمَّةِ مَوْصُولُونَ بِرَبِّهِم صِلَةً حَقِيقِيَّةً بِقَوْلِهِم (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله) ، فَهَذِهِ الكَلِمَةُ كَأَنَّها العَقْدُ الَّذى يُوَقِّعُهُ العَبْدُ مَعَ رَبِّهِ

سُبْحانَهُ وتعالَى ، حَتَّى يُهَيِّيءَ لَهُ الأَسْبابَ الَّتى تُمَكِّنُهُ مِنْ تَحْقِيقِ هَذهِ الصِّلَة .

وإذا جازَ لَنا أَنْ نَضْرِبَ لِذَلِكَ مَثَلاً ، فَمِثالُ ذَلِكَ (كالعَقْدِ) الَّذى يُوَقِّعُهُ الواحِدُ مِنَّا مَعَ شَرِكَةِ الكَهْرَباءِ ، فَبِمُجَرَّدِ تَوْقِيعِ العَقْدِ يُصْبِحُ مُتَّصِلاً بِجهازِ الكَهْرَباءِ الهائِلِ وشَبَكَتِهِ العِمْلاقَةِ ، وتُصْبِحُ بِهذا أَسْبابُ الاسْتِفادَةِ مِنَ الكَهْرَباءِ مُيَسَّرَةً ، فَما عَلَيْكَ إلاَّ أَنْ تَقُومَ مِنْ جانِبِكَ ، بِعَمَلِ التَّوْصِيلاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وتَرْكِيبِ الأَدَواتِ اللَّازِمَةِ ، عِنْدَئِذٍ تَبْدَأُ الاسْتِفادَةَ مِنْها ، فَإذا ضَغَطْتَ عَلَى زِرِّ الكَهْرَباءِ ، فى حائِطِ الغُرْفَةِ أَضاءَتْ المَصابِيحُ ، وتَغْشَتْ الغُرْفَةَ الأَنْوارُ .

بَيْدَ أَنَّ هَذهِ الكَهْرَباءَ الَّتى تَسَبَّبَتْ فى إضاءَةِ المَكانِ لاتَنْبُعُ مِنَ الزِّرِّ الَّذى تَحَكَّمْتَ فيهِ بِالفَتْحِ والغَلْقِ ، ولا مِنْ أَيِّ مَكانٍ بِالبَيْتِ ، بَلْ ولا مِنَ المَدِينَةِ بِأَسْرِها ، إنَّما تَنْبُعُ هَذهِ الكَهْرَباءُ مِنْ بَعِيدٍ (مِنْ مَصادِرِ التَّوْلِيد) ، ثُمَّ تَسْرِي خِلالَ الأَبْراجِ العِمْلاقَةِ الَّتى تَحْمِلُ كابْلاتِ الكَهْرَباءِ عَبْرَ الوِدْيانِ والجِبالِ والمَفاوِزِ البَعِيدَةِ لِتُوَصِّلَها إلَى مَحَطَّاتِ الكَهْرَباءِ الرَّئِيسَةِ ، والَّتي تَتَشَعَّبُ مِنْها الفُرُوعُ ، ومِنْ خِلالِها تَصِلُ الكَهْرباءُ إلَى المُدُنِ والقُرَى والنُّجُوعِ

واسْتِمْراراً مَعَ هَذا المَثَلِ نَفْسِهِ نَقُولُ : إنَّ هَذهِ الأَبْراجَ العِمْلاقَةَ تُمَثِّلُ (أَهْلَ البَيْتِ ، والصَّحابَةَ والتَّابِعينَ وأَئِمَّةَ الأُمَّةِ وعُلَماءَها العامِلِينَ وأَوْلِياءَها الصَّالِحينَ) عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ ، الَّذِينَ حُمِّلُوا فَحَمَلُوا أَمانَةَ تَوْصِيلِ نُورِ هَذا الدِّينِ إلَى كُلِّ مَنِ اتَّصَلَ بِشَبَكَةِ النُّورِ تِلْكَ .

وكُلُّهُم مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ❋ غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَو رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

وَلَوْ أَنَّ أَحَداً أَحْضَرَ مِنْ أَسْلاكِ الكَهْرَباءِ ومِنَ المَفاتِيحِ ما شاءَ ، ثُمَّ لَمْ يَتَّصِلْ بِشَبَكَةِ الكَهْرَباءِ ، لَما نَفَعَتْهُ أَدَواتُ الكَهْرَباءِ شَيْئاً ، ولَوْ بَلَغَتْ أَمْثالَ الجِبالِ فى كَثْرَتِها وتَنَوُّعِها ، ولَما اسْتَطاعَ كُلُّ هَذا أَنْ يَجْلِبَ لَهُ ولَوْ أَقَلَّ قَدْرٍ

مِنَ النُّور .

وأَصْدَقُ ما يَنْطَبِقُ عَلَيْه ذَلِكَ التَّمْثِيلُ مِنْ حالٍ (في أَيَّامِنا هَذِهِ) حالُ أُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّوا أَنْفُسَهُم خطأً وظُلْماً (سَلَفِيِّين) ، وذَلِكَ حِينَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بَعْدَ عَصْرِ الإِسْلامِ الأَوَّلِ إِلَّا (بِذَلِكَ العالِمِ الَّذي أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ومَدْرَسَتِهِ الَّتي ظَهَرَتْ في القَرْنِ الثَّامِنِ الهِجْرِي) ، ثُمَّ انْقَطَعُوا عَنْ حَياةِ الأُمَّةِ مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى انْبَعَثَ مُجَدِّداً تِلْكَ الضَّلالاتِ (مَنْ خالَفَ الصَّوابَ وأَغْضَبَ الوَهَّابَ) وقامَ بِدَعْوَتِهِ المُفْتَراةِ في القَرْنِ الثَّاني عَشَرَ الهِجْري .

فَباللهِ كَيْفَ يَصِلُ هَؤُلاءِ (المُتَنَصِّلُونَ مِنَ السَّلَفِ) إِلَى نُورِ هَذا الدِّينِ بَعْدَ أَنِ انْفَصَلُوا عَنْ شَبَكَتِهِ وانْقَطَعُوا عَنْ عُمُدِهِ وأَبْراجِهِ ؟ بَلْ أَنَّى لَهُم أَنْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الإِسْلامِ مَهْما أَجْهَدوا أَنْفُسَهُمْ ، وأَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ في جَمْعِ وتَكْدِيسِ أَدَواتِ الكَهْرَباءِ ؟ لا رَيْبَ أَنَّ ذَلِكَ مالٌ ضائِعٌ وجُهْدٌ أَبْتَرُ ، وحَرْثٌ في الهَواءِ ؟ ! ولَوْلا أَنَّها (فِتْنَةٌ) قَدَّرَها العَزِيزُ الحَكِيمُ ، لَما كُتِبَ لَها إِلَى اليَوْمِ بَقاء .

أَيُّها النَّاس ، يُجْمِعُ العُلَماءُ مِنْ سَلَفِنا الصَّالِحِ عَلَى أَنَّ (الإِسْنادَ) مِنَ الدِّينِ وأَنَّ (الإِسْنَادَ) هُوَ المِيزَةُ العُظْمَى لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى سائِرِ الأُمَمِ ، بِهِ تَمَّ حِفْظُ الدِّينِ ، وبِهِ تَمَّ إِيصالُهُ إِلَى شَتَّى بِقاعِ الأَرْضِ عَلَى تَواتُرِ الأَزْمانِ ، وإِلَى أَفْرادِ النَّاسِ وجَماعاتِهِم عَلَى تَلاحُقِ الأَجْيالِ ، فَكُلُّ جُزْئِيَّةٍ في دِينِنا الحَنِيفِ إِنَّما هِيَ عَنْ (فُلانٍ) عَنْ (فُلانٍ) عَنْ (فُلانٍ) حَتَّى تَصِلَ إِلَى (رَسُولِ اللهِ) ﷺ : إِذْ هُوَ الأَصْلُ في كُلِّ خَيْرٍ ، ومَصْدَرُ كُلِّ عِلْمٍ دِينِيٍّ ، وهُوَ خَيْرُ مَنْ بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ ، وحَمَلَ أَمانَتَهُ بِاقْتِدارٍ ، فَما ضَلَّ وما غَوَى ، وما نَطَقَ قَطُّ عَنِ الهَوَى .

فَلَوْ أَنَّ أَحَداً أَرادَ (مَثَلاً) أَنْ يَتَعَلَّمَ قِراءَةَ القُرْآنِ الكَرِيمِ قِراءَةً صَحِيحَةً ،

كَما أَمَرَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾[1] كانَ لا بُدَّ لَهُ أَنْ يَتَلَقَّاهُ عَمَّنْ تَلَقَّاهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ ، وهَكَذا حَتَّى يَصِلَ التَّسَلْسُلُ في السَّنَدِ إِلَى مَنْ تَلَقَّاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، الَّذى تَلَقَّاهُ عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام ، الَّذي تَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّ العِزَّةِ جَلَّ وعَلا .

أَمَّا مَنْ تَعَلَّمَهُ وقَرَأَهُ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مُعَلِّمٍ (ولَوْ كانَ المُتَعَلِّمُ أُسْتاذاً جامِعِيّاً في الأَدَبِ واللُّغَةِ) فَإِنَّ قِراءَتَهُ سَتَكُونُ لا شَكَّ سَقِيمَةً مَمْلُوءَةً بِالأَخْطاءِ والعُيُوبِ ، لِأَنَّ قِراءَةَ القُرْآنِ مِنَ الدِّينِ فَلا يُمْكِنُ اكْتِسابُها بِدُونِ تَلَقٍّ ، وذَلِكَ هُوَ الحالُ في سائِرِ جُزْئِيَّاتِ الدِّين .

ولِلّهِ دَرُّ إِمامِنا (الشَّافِعِيِّ) يَوْمَ عَبَّرَ عَنْ هَذهِ الحَقِيقَةِ قائِلاً :

العِلْمُ ما كانَ فيهِ قالَ حَدَّثَنا * وما سِواهُ فَوَسْواسُ الشَّياطِينِ

ولَمَّا كانَ مَقْصِدُ العِلْمِ ، بَلْ مَقْصِدُ الحَياةِ بِأَسْرِها هُوَ التَّعَرُّفُ عَلَى اللهِ والاتِّصالُ بِهِ ، وهُوَ الثَّمَرَةُ المُباشِرَةُ لِلاتِّصالِ بِشَبَكَةِ النُّورِ المَوْصُولَةِ بِمَنْبَعِ النُّورِ (سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ) ﷺ ، فَقَدْ صارَ لِزاماً عَلَى كُلِّ مَنْ يَرْجُو الاسْتِفادَةَ مِنْها ، أَنْ يَتَّصِلَ بِمَنِ اتَّصَلَ فَوَصَلَ ، وهُمْ الشُّيُوخُ المُرَبُّونَ ، والعُلَماءُ العامِلُونَ ، لا مَنْ حَمَلُوا العِلْمَ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ ، فَكانوا عِنْدَ اللهِ مِنَ المَمْقُوتِينَ ، فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِم النَّارُ يَوْمَ القِيامَةِ ، والعِياذُ باللّه .

ولَعَلَّ سائِلاً يَبْحَثُ عَنْ سَمْتٍ جامِعٍ لِذَلِكَ الشَّيْخِ الَّذي نُشِيرُ إِلَيْهِ ، وها نَحْنُ نَقُولُ : إِنَّ الشَّيْخَ في مَقْصِدِنا هُوَ مَنِ اتَّقَى اللهَ في عِلْمِهِ ، ولِذَلِكَ قالَ المَعْصُومُ ﷺ : (خُذِ الدِّينَ عَنِ الَّذينَ اسْتَقامُوا ، ولا تَأْخُذْ عَنِ الَّذينَ قالُوا)[2] ولِهَذا تَجِدُ الصَّفْوَةَ مِنْ أَبْناءِ هَذهِ الأُمَّةِ المَحْفُوظَةِ في كُلِّ زَمانٍ ، يَحْرِصُونَ عَلَى الاتِّصالِ بِأُولَئِكَ الَّذينَ اسْتَقامُوا ، يَتَلَقَّوْنَ عَلَى أَيْدِيهِمْ حَقائِقَ الدِّينِ

---

(١) سُورَةُ المُزَّمِّل ، مِنَ الآيَة ٤ . (٢) كَنْزُ العُمَّال ٥٩١٨ .

وأنْـوارَهُ لارُسُـومَـهُ وحُـروفَـهُ فَـحَسْب ، ويُحَـقِّقُـونَ بـالاتِّصـالِ بِهِـم الاتِّصـالَ بِسَلاسِلِهِم المُتَّصِلَةِ إِلَى رَسُولِ رَبِّ العالَمِينَ ﷺ .

نَعَم .. إنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ العِلْمُ المُفْضِي إِلَى عَمَلٍ ، وهُوَ مِنْ بَعْدُ العَمَلُ الَّذي يَقُومُ عَلَى عِلْمٍ ، فَمَنْ طابَقَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ ، وانْسَجَمَ واقِعُهُ وفِكْرُهُ ، فَهذا هُوَ الصُّوفِيُّ .

ولا يَغِيبَنَّ عَنِ الأَذْهـانِ أَنَّنا نَقْصِدُ بِالتَّصَوُّفِ الصُّورَةَ الحَقِيقِيَّةَ لَهُ ، لا الصُّوَرَ الزَّائِفَةَ الَّتي قَدْ نَراها هُنا أَو هُناكَ ، فَإِنَّ الإِسْلامَ (كَكُلٍّ) لَهُ حَقِيقَةٌ ، ولَهُ أَيْضاً صُوَرٌ زائِفَةٌ شائِهَةٌ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾(١) إِذْ إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً كَما أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ المَصْدوقُ ﷺ .

وهَكَـذا ، فَقَدْ تَبَيَّنَ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ ودِينٍ ما لِلتَّصَوُّفِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ بالِغَةٍ ومَنْزِلَةٍ أَساسِيَّةٍ فـي تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ المُسْلِمَةِ المُتَكامِلَةِ ، فَهُوَ التَّطْبِيقُ العَمَلِيُّ لِلإِسْلامِ مِنْ غَيْرِ رَيْبٍ ، وهُوَ السَّبِيلُ لإِصْلاحِ ظاهِرِ الإِنْسانِ وعِمارَةِ باطِنِهِ ، وتَقْوِيمِ خُلُقِهِ ، وتَصْحِيحِ عِباداتِهِ ومُعامَلاتِهِ ، ذَلِكَ أَنَّ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَنْ وَضَّحُوا لِلنَّاسِ أَحْكامَ الشَّرْعِ وآدابَهُ بِالكَلامِ النَّظَرِيِّ المُجَرَّدِ فَحَسْب ، وإِنَّما كانُوا يَشْفَعُونَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوامِ بِأَنْ يَأْخُذوا بِأَيْدِي تَلامِيذِهِم ويَسِيروا بِهِم فِي مَدارِجِ التَّرَقِّي ، ولا يَضُنُّونَ بِنَصِيحَتِهِم ومُرافَقَتِهِم فِي جَمِيعِ مَراحِلِ سَيْرِهِم إِلَى اللهِ تَعالَى ، يُحِيطُونَهُم بِالرِّعايَةِ والعِنايَةِ ، ويَشْمَلُونَهُم بِالعَطْفِ والحَنانِ ، ويُوَجِّهُونَهُم بِالحالِ والقالِ ، فَتَرَى المُرِيدَ والتِّلْمِيذَ يَنْهَضُ ويَرْقَى بِعُلُوِّ هِمَّةِ ساداتِهِ وعَظِيمِ صِدْقِهِم ، فَهُم الَّذِينَ يُذَكِّرُونَهُ إِذا نَسِيَ ، ويُقَوِّمُونَهُ إِذا انْحَرَفَ ، ويَتَفَقَّدُونَهُ إِذا غابَ ، ويُنَشِّطُونَهُ إِذا فَتَرَ .

وهَكَذا ، يُذَلِّلُونَ لَـهُ المَنْهَجَ العَمَلِيَّ الَّذي يَسُوقُهُ إِلَى التَّحَقُّقِ بِأَرْكانِ الدِّينِ

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران من الآية ٧٨ .

الثَّلاثَةِ : (الإِيمانِ والإِسْلامِ والإِحْسان) ، في أَجْواءَ تُفِيضُ بِالطُّمَأْنِينَةِ والأَمْنِ والنُّور .

ولِهَذا نَرَى العُلَماءَ العامِلينَ ، والمُرْشِدِينَ الغَيُورِينَ ، يَنْصَحُونَ النَّاسَ بِالدُّخُولِ مَعَ الصُّوفِيَّةِ والْتِزامِ صُحْبَتِهِمْ ، كَي يَجْمَعُوا بَيْنَ جِسْمِ الإِسْلامِ ورُوحِهِ، ولِيَتَذَوَّقُوا مَعانِيَ الصَّفاءِ القَلْبِي والسُّمُوِّ الخُلُقي. ولِيَتَحَقَّقُوا بِالتَّعَرُّفِ عَلَى اللهِ تَعالَى المَعْرِفَةَ اليَقِينِيَّةَ ، فَيَتَحَلَّوا بِحُبِّهِ ومُراقَبَتِهِ ودَوامِ ذِكْرِهِ .

ومِنْ هُنا ، كانَ واجِباً شَرْعِيّاً عَلَيْنا أَنْ نَتَعَرَّفَ إِلَى التَّصَوُّفِ مَعْرِفَةً دَقِيقَةً واضِحَةً ، وذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مَنْهَجٌ يَسْتَنِدُ إِلَى كِتابِ اللهِ تَعالَى ، وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ واسْتِنْباطِ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعُلَمائِهِم ، مِنْ فُقَهاءَ وأُصُولِيِّينَ ومُحَدِّثِينَ وعارِفِينَ وصالِحِينَ ، عَسانا أَنْ نَنْهَلَ مِنَ الماءِ العَذْبِ الفُراتِ ، زادَ سَعادَةٍ لَنا في حَياتِنا الدُّنْيا وبَعْدَ المَماتِ .

التَّصَوُّفُ.. عِلمٌ وسُلُوك

- بَيانُ المَبادِىءِ العَشَرَةِ لِعِلْمِ التَّصَوُّف
- بَيانُ(الشَّريعَةِ ، والطَّريقَةِ ، والحَقِيقَة)
- بَيانُ مَنْ هُم الأَوْلِياءُ ودَوامُ نَفْعِهِم مَوْتَى وأَحْياء
- ظُهُورُ الكَراماتِ عَلَى الأَوْلِياءِ جائِزٌ عَقْلاً وواقِعٌ نَقْلاً
- الحِكْمَةُ مِنْ إجْراءِ الكَراماتِ عَلَى يَدِ الأَوْلِياء
- الفَرْقُ بَيْنَ الكَرامَةِ والاسْتِدْراج
- زِيادَةُ بَيانٍ عَنْ مَوْقِفِ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الكَرامات
- بَيانُ أَنَّ أَهْلَ القُبُورِ أَحْياءٌ كَما أَخْبَرَ بِذَلِكَ سَيِّدُ الأَنْبِياءِ ﷺ

تَمْهِيدٌ مُفِيدٌ

المُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ والسَّالِكُ طَرِيقَها لا يَخْلُو عَنْ سِتَّةِ أَحْوالٍ :

إمَّا عابِدٌ ، وإمَّا عالِمٌ ، وإمَّا مُتَعَلِّمٌ ، وإمَّا والٍ ، وإمَّا مُحْتَرِفٌ (صاحِبُ حِرْفَةٍ) ، وإمَّا مُوَحِّدٌ مُسْتَغْرِقٌ بِالواحِدِ الصَّمَدِ .

(١) فالعابِدُ : هُوَ المُتَجَرِّدُ لِلْعِبادَةِ الَّذى لا شُغْلَ لَهُ غَيْرَها أَصْلاً ، لَوْ تَرَكَ العِبادَةَ لَجَلَسَ بَطَّالاً ، فالأَنْسَبُ لَهُ أَنْ يَسْتَغْرِقَ أَكْثَرَ أَوْقاتِهِ في العِبادَةِ ومَجالِسِ الذِّكْرِ .

قالَ ﷺ: (إذا مَرَرْتُمْ بِرِياضِ الجَنَّةِ فارْتَعُوا ، فَقِيلَ : يا رَسُولَ اللهِ وما رِياضُ الجَنَّةِ ؟ قالَ : حِلَقُ الذِّكْرِ)[١].

(٢) والعالِمُ : هُوَ الذَّي يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِعِلْمِهِ في فَتْوَى أَو تَدْرِيسٍ أَو تَصْنِيفٍ ، فَإِنْ أَمْكَنَهُ اسْتِغْراقَ الأَوْقاتِ في ذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ ما يَشْتَغِلُ بِهِ بَعْدَ المَكْتُوباتِ ورَواتِبِها ، إذا قَصَدَ بِالتَّعْلِيمِ الاسْتِعانَةَ بِهِ عَلَى السُّلُوكِ ، والمُرادُ بِالعِلْمِ المُقَدَّمِ عَلَى العِبادَةِ العِلْمُ الَّذي يُرَغِّبُ النَّاسَ في الآخِرَةِ ويُزَهِّدُهُم في الدُّنْيا أَو يُعِينُهُم عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الآخِرَةِ دُونَ العُلُومِ الَّتي تَزِيدُ بها الرَّغْبَةُ فى المالِ والجاهِ والحَظْوَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

(٣) والمُتَعَلِّمُ : هُوَ القاصِدُ بِالتَّعَلُّمِ وَجْهَ اللهِ تَعالَى ، فاشْتِغالُهُ بِالتَّعَلُّمِ أَفْضَلُ مِنَ اشْتِغالِهِ بِالأَذْكارِ والنَّوافِلِ المُطْلَقَةِ ، ولا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُخَلِّيَ نَفْسَهُ مِنْ وِرْدٍ مِنَ الذِّكْرِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَذَلِكَ أَعْوَنُ لَهُ عَلَى ما هُوَ بِسَبِيلِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالَى ، بَلْ لَوْ كانَ مِنَ العَوامِّ لَكانَ حُضُورُهُ مَجْلِسَ الوَعْظِ والعِلْمِ أَفْضَلَ مِنَ اشْتِغالِهِ بِالأَوْرادِ ، قالَ كَعْبُ الأَحْبارِ رضي الله عنه: (لَوْ أَنَّ ثَوابَ مَجْلِسِ العُلَماءِ بَدا لِلنَّاسِ لاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَتْرُكَ كُلُّ ذِي إمارَةٍ إمارَتَهُ وكُلُّ ذِي سُوقٍ سُوقَهُ) ،

---

(١) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِي) .

وقالَ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخطَّاب ﷺ : (إنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ وعَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ مِثْلَ جَبَلِ تِهامَةَ ، فَإِذا سَمِعَ العالِمَ وخافَ واسْتَرْجَعَ ورَجَعَ عَنْ ذُنُوبِهِ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ ولَيْسَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ شَيْءٌ ، فَلا تُفارِقُوا مَجْلِسَ العُلَماءِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ تُرْبَةً أَكْرَمَ مِنْ مَجْلِسِ العُلَماء) وقالَ عَطاءُ بنُ أَبِي رَباحٍ ﷺ : (حُضُورُ مَجْلِسِ العِلْمِ يُكَفِّرُ سَبْعِينَ مَجْلِساً مِنْ مَجالِسِ اللَّغْوِ واللَّعِبِ) .

وعَلَى الجُمْلَةِ ، فَما يَنْحَلُّ عَنِ القَلْبِ عُقْدَةٌ مِنْ عُقَدِ حُبِّ الدُّنْيا بِقَوْلِ واعِظٍ حَسَنِ الكَلامِ زَكِيِّ السِّيرَةِ ، أَشْرَفُ وأَنْفَعُ مِنْ رَكَعاتٍ كَثِيرَةٍ مَعَ اشْتِمالِ القَلْبِ عَلَى حُبِّ الدُّنْيا .

(٤) والمُحْتَرِفُ : الَّذي يَحْتاجُ لِلْكَسْبِ لِعِيالِهِ لَيْسَ أَنْ يُضَيِّعَ العِيالَ ويَسْتَغْرِقَ الأَوْقاتِ في العِبادَةِ ، بَلْ وِرْدُهُ في وَقْتِ الصِّناعَةِ حُضُورُ السُّوقِ والاشْتِغالُ بِالكَسْبِ ، ولَكِنْ يَنْبَغِي أَن لا يَنْسَى ذِكْرَ اللَّهِ في صِناعَتِهِ بِقَلْبِهِ ، بَلْ يُواظِبُ عَلَى التَّسْبِيحاتِ والأَذْكارِ وقِراءَةِ القُرْآنِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ مَعَ العَمَلِ مِنْ غَيْرِ أَن يُفَوِّتَهُ ، ومَتَى فَرَغَ مِنْ تَحْصِيلِ كِفايَتِهِ يَعُودُ إِلَى العِبادَة .

(٥) والوالِي : مَنْ مِثْل (الإِمامِ والقاضِي وكُلِّ مُتَوَلٍّ مَصالِحَ المُسْلِمِينَ) ، قِيامُهُ بِحاجاتِ المُسْلِمِينَ وأَغراضِهِم عَلَى وِفْقِ الشَّرْعِ وقَصْدِ الإِخْلاصِ أَفْضَلُ مِنَ اشْتِغالِهِ بِالأَوْرادِ ، فَحَقُّهُ أَنْ يَشْتَغِلَ بِحُقُوقِ النَّاسِ نَهاراً ، ويَقْتَصِرَ عَلَى المَكْتُوباتِ ورَواتِبِها ، ويُقِيمَ الأَوْرادَ لَيْلاً .

(٦) والمُوَحِّدُ : المُسْتَغْرِقُ بِالواحِدِ الصَّمَدِ الَّذي أَصْبَحَ وهُمُومُهُ هَمٌّ واحِدٌ ، فَلا يُحِبُّ إِلَّا اللَّهَ ولا يَخافُ إِلَّا مِنْهُ ، ولا يَتَوَقَّعُ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِهِ ، فَمَنِ ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ لَمْ يَفْتَقِرْ إِلَى تَنَوُّعِ الأَوْرادِ واخْتِلافِها ، بَلْ وِرْدُهُ بَعْدَ المَكْتُوباتِ ورَواتِبِها واحِدٌ ، وهُوَ حُضُورُ القَلْبِ مَعَ اللَّهِ تَعالَى في كُلِّ حالٍ فَلا

يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ أَمْرٌ ، ولا يَقْرَعُ سَمْعَهُ قارِعٌ ، ولا يَلُوحُ لِبَصَرِهِ لائِحٌ إِلَّا كانَ لَهُ فيهِ عِبْرَةٌ وفِكْرَةٌ ، فَهَذا جَمِيعُ أَحْوالِهِ تَصِحُّ أَنْ تَكُونَ سَبَباً لازْدِيادِهِ وارْتِقائِهِ ، وهَذا مُنْتَهى دَرَجَةِ الصِّدِّيقِينَ ، ولا وُصُولَ إِلَيْها إِلَّا بَعْدَ تَرْتِيبِ الأَوْرادِ والمُواظَبَةِ عَلَيْها ، فَلا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يَغْتَرَّ ويَدَّعِيَ هَذِهِ المَرْتَبَةَ لِنَفْسِهِ ، ويَكْسَلَ عَنْ عِبادَتِهِ ، فَإِنَّ عَلامَةَ صاحِبِ هَذِهِ المَرْتَبَةِ أَن لا يَهْجِسَ فى قَلْبِهِ وَسْواسٌ ، ولا يَخْطُرَ في قَلْبِهِ مَعْصِيَةٌ ، ولا تُزْعِجَهُ هَواجِمُ الأَهْوالِ .

واعْلَمْ أَنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ لَهُ نَفْعٌ عَظِيمٌ في إِصْلاحِ القَلْبِ وتَنْوِيرِهِ ، ولَكِنْ لا تَظْهَرُ ثَمَرَتُهُ إِلَّا بِالمُداوَمَةِ عَلَيْهِ ، ومَنْ تَعَوَّدَ عَمَلاً ثُمَّ فَتَرَ عَنْهُ دُونَ عُذْرٍ كانَ مَمْقُوتاً ، ولِذَلِكَ قالُوا : مَنْ تَعَوَّدَ للهِ عِبادَةً فَتَرَكَها مَلالَةً مَقَتَهُ اللهُ ، قالَ ﷺ (أَحَبُّ الأَعْمالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُها وإِنْ قَلَّ)[١] .

فَشُدَّ يَدَكَ يا أَخِي عَلَى المُحافَظَةِ عَلَى أَعْمالِ البِرِّ ، فَإِنَّ مَنْ حافَظَ عَلَى ذَلِكَ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ ، وباشَرَ الإِيمانُ قَلْبَهُ حَقِيقَةَ المُباشَرَةِ ، ومَتَى وَصَلَ العَبْدُ إِلَى هَذِهِ المَنْزِلَةِ زالَتْ عَنْهُ الشُّبْهَةُ والشُّكُوكُ ، وصارَ لِلْعِبادَةِ عِنْدَهُ لَذَّةٌ عَظِيمَةٌ ، بِحَيْثُ يَخْتارُ الاشْتِغالَ بِالعِبادَةِ عَلَى تَحْصِيلِ أَغْراضِ الدُّنْيا ، فَحِينَئِذٍ يَدْخُلُ الإِيمانُ في القَلْبِ ، كَما يَدْخُلُ حُبُّ الماءِ البارِدِ الشَّدِيدِ بَرْدُهُ فى اليَوْمِ الشَّدِيدِ الحَرِّ عَلَى جَوْفِ الظَّمْآنِ الشَّدِيدِ عَطَشُهُ ، فَيَرْتَفِعُ عَنْهُ تَعَبُ الطَّاعَةِ بِاسْتِلْذاذِهِ بِها ، بَلْ تَبْقَى الطَّاعَةُ غِذاءً لِقَلْبِهِ ، وسُروراً لَهُ وقُرَّةَ عَيْنٍ في حَقِّهِ ، ونَعِيماً لِرُوحِهِ يَتَلَذَّذُ بِها أَعْظَمَ مِنَ الْتِذاذِهِ بِاللَّذّاتِ الجِسْمانِيَّةِ .

واعْلَمْ أَنَّ ضَرَرَ الذُّنُوبِ في قَلْبِ الإِنْسانِ كَضَرَرِ السُّمِّ في الأَبْدانِ عَلَى اخْتِلافِ دَرَجاتِها في الضَّرَرِ ، ولَيْسَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ شَرٌّ وداءٌ إِلَّا سَبَبُهُ الذُّنُوبُ

---

(١) أَخْرَجَهُ الشَّيْخان .

والـمَعاصِي ، ولِلْمعاصِي مِنَ الآثارِ القَبِيحَةِ الـمَذْمُومَةِ الـمُضِرَّةِ بِالقَلْبِ والبَدَنِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ مالا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللّهُ تَعالَى :

(أ) فَمِنْها حِرْمانُ العِلْمِ النَّافِعِ ؛ لأَنَّ العِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللّهُ في القَلْبِ ، والـمَعْصِيَةَ تُطْفِيءُ ذَلِكَ النُّورَ إِنْ كانَ ، أَوْ تَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ القَلْبِ إِنْ لَمْ يَكُنْ .

وما أَصْدَقَ قَوْلَ الإمامِ الشَّافِعِيِّ حِكايَةً عَنْ شَيْخِهِ الإمامِ وَكِيعِ بنِ الجَرَّاحِ ، يَوْمَ قالَ :

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ✽ فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعاصِي
وأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ✽ ونُورُ اللّهِ لا يُهْدَى لِعاصِي

(ب) ومِنْها وَحْشَةٌ : يَجِدُها العاصِي بَيْنَهُ وبَيْنَ اللّهِ لا تُوازِيها ولا تُقارِبُها وَحْشَةٌ أَلْبَتَّةَ .

(ت) ومِنْها تَعَسُّرُ أَمْرِهِ : فَلا يَتَوَجَّهُ لأَمْرٍ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقاً دُونَهُ أَو مُتَعَسِّراً عَلَيْه .

(ث) ومِنْها ظُلْمَةٌ : يَجِدُها في قَلْبِهِ يُحِسُّ بِها كَما يُحِسُّ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ وكُلَّما قَوِيَتِ الظُّلْمَةُ ازْدادَتْ حَيْرَتُهُ وظَهَرَتِ الظُّلْمَةُ عَلَى وَجْهِهِ بِحَيْثُ لا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ البَصائِرِ .

(ج) ومِنْها أَنَّها تُوهِنُ القَلْبَ والبَدَنَ .

(د) ومِنْها حِرْمانُ الطَّاعَةِ ومَحْقُ بَرَكَةِ العُمْرِ .

(هـ) ومِنْها أَنَّ المَعْصِيَةَ تُورِثُ الذِّلَّةَ وتُفْسِدُ العَقْلَ ، فإِنَّ العَقْلَ نُورٌ والـمَعْصِيَةَ تُطْفِئُهُ .

(و) ومِنْها أَنَّها تُزِيلُ النِّعَمَ وتَجْلِبُ الفَقْرَ ، فَما زالَتْ عَنِ العَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ ، ولا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾[1]

۞ واعْلَمْ أَخِي القارِىء الكَريم بَعْدَ هَذا ، أَنَّ عُلَماءَ الشَّريعَةِ هُمْ أَئِمَّةُ التَّفْسيرِ والحَديثِ والفِقْهِ ، وهَؤُلاءِ هُم الَّذينَ حَمَى اللهُ تعالَى بِهِم الدِّينَ ، لاسْتِنْباطِهِم الأَحْكامَ وتَدْوينِهِم المَذاهِبَ ورَدِّهِم الحَوادِثَ المُتَجَدِّدَةَ إِلَى أَصْلٍ مِنَ النُّصوصِ .

فَأَمَّا عُلَماءُ التَّفْسيرِ رضي الله عنهم : فَإِنَّهُم عَرَفُوا مَعانِيَ كَلامِ اللهِ بِالتَّبَحُّرِ فى عِلْمِ اللُّغَةِ والنَّحْوِ والمَعانِي والبَيانِ والأُصُولِ ، فَعَرَفُوا المَعْطُوفَ والمَعْطُوفَ عَلَيْهِ فى الحُكْمِ ، وعَرَفُوا المُجْمَلَ ، والمُبَيَّنَ ، والنَّاسِخَ والمَنْسُوخَ ، والخاصَّ والعامَّ ، وغَيْرَ ذَلِكَ ، وتَبَحَّرُوا أَيْضاً فى عِلْمِ الصَّرْفِ والتَّأْوِيلِ وأُصُولِ القَصَصِ ، واخْتِلافِ وُجُوهِ القِراءاتِ ، وعَرَفُوا مَجازاتِ العَرَبِ واسْتِعاراتِها ، وما يَحْمِلُهُ اللَّفْظُ مِنَ المَعْنَى ، وما لا يَحْتَمِلُهُ ، وصَنَّفُوا في ذَلِكَ كُتُباً ، فاتَّسَعَتْ بِذَلِكَ عُلُومُ القُرْآنِ ومسائِلُهُ لَدَى جَمِيعِ الأُمَّةِ .

۞ وأَمَّا أَئِمَّةُ الحَديثِ رضي الله عنهم : فَإِنَّهُم مَيَّزوا بَيْنَ صِحاحِ الأَحادِيثِ والآثارِ ، ومَيَّزوا بَيْنَ صَحيحِها ، وحَسَنِها ، وضَعيفِها ، وعَرَفُوا طَبقاتِ الرُّواةِ ، قُوَّةً وضَعْفاً في الضَّبْطِ والحِفْظِ ، وعَرَفُوا أَسْماءَهُم ، وأَنْسابَهُم ، وحَكَمُوا بِالجَرْحِ والتَّعْديلِ ؛ كُلُّ ذَلِكَ حِفْظاً لأَدِلَّةِ الشَّرِيعَةِ عَنِ الضَّياعِ .

۞ وأَمَّا الفُقَهاءُ رضي الله عنهم : فانْتُدِبُوا لاسْتِنْباطِ الأَحْكامِ ، والتَّفْريعِ فى المَسائِلِ ومَعْرِفَةِ التَّعالِيلِ والفُروقِ ، ورَدِّ الفُروعِ إِلَى الأُصُولِ بِالعِلَلِ الجامِعَةِ حَتَّى اسْتَوْعَبُوا الحَوادِثَ بِحُكْمِ النُّصُوصِ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَفَرَّعَ مِنْ عِلْمِ الفِقْهِ والأَحْكامِ عِلْمُ أُصُولِ الفِقْهِ ، وعِلْمُ الخِلافِ ، وتَفَرَّعَ مِنْ عِلْمِ الخِلافِ عِلْمُ الجَدَلِ ، ولَمَّا لَمْ يَكْمُلْ عِلْمُ أُصُولِ الفِقْهِ (إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ ما يَجِبُ للهِ تَعالَى ، وما

---

(١) سُورَةُ الشُّورى ، الآيَة ٣٠ .

يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مِنْ صِفاتِ الحَدَثِ) صَنَّفُوا عِلْمَ أُصُولِ الدِّينِ ، فَكَمُلَ فَهْمُ الدِّينِ بِذَلِكَ أَصْلاً وفَرْعاً ، وكانَ مِنْ جُمْلَةِ عِلْمِ الفِقْهِ : عِلْمُ فَرائِضِ المَوارِيثِ المُشْتَمِلِ عَلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ قِسْمَتِها عَلَى اخْتِلافِ طَبَقاتِ الوارِثِينَ ، ولَزِمَ ذَلِكَ عِلْمُ الحِسابِ ، والجَبْرِ ، والمُقابَلَةِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُقَرَّرٌ في كُتُبِ الشَّرِيعَةِ فَتَمَهَّدَتِ الشَّرِيعَةُ بِما ذَكَرْناهُ مِنَ العُلُومِ ، واتَّضَحَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ما لا يَتِمُّ الواجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ واجِبٌ .

ومِمَّا تَمَيَّزَتْ بِهِ مَناهِجُ الصُّوفِيَّةِ عَنْ مَناهِجِ الفُقَهاءِ وسائِرِ العُلَماءِ كَثْرَةُ مُجاهَداتِهِمْ ، ورِياضَةُ نُفُوسِهِمْ بِمُخالَفَةِ حُظُوظِها حَتَّى صارَتْ تَحْتَ تَصْرِيفِهِمْ بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى (فَلا تَأْمُرُهُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ) ، وعَدَمُ مُزاحَمَتِهِمْ عَلَى الدُّنْيا ومَناصِبِها وجَمْعِها وإِنْفاقِها في الشَّهَواتِ ونَحْوِ ذَلِكَ ، ورِضاهُمْ مِنَ الدُّنْيا بِالقَلِيلِ ، وعَدَمُ رِضاهُمْ مِنَ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ إِلاَّ بِالكَثِيرِ إِعْطاءً لِلْعُبُودِيَّةِ حَقَّها ، وعَدَمُ سُوءِ الظَّنِّ بِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ، ودَوامُ الطَّهارَةِ لَيْلاً ونَهاراً ؛ فَكُلَّما أَحْدَثَ أَحَدُهُمْ تَوَضَّأَ أَو تَيَمَّمَ .

ومِمَّا تَمَيَّزُوا بِهِ أَيْضاً عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ مَزايا وكانُوا أَكْثَرَ تَحَقُّقاً بِها أَنَّهُم لا يُؤْذُونَ مَنْ آذاهُم ، ولا يَشْمَتُ أَحَدُهُم بِمُصِيبَةٍ ولا يَنْطِقُ بِغِيبَةٍ .

ومِمَّا تَمَيَّزُوا بِهِ أَيْضاً كَوْنُهُمْ يَحْتَقِرُونَ نُفُوسَهُم ؛ فَلا يَرَوْنَ لَها فَضْلاً عَلَى أَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ، ولا يَقُولُونَ نَحْنُ أَفْضَلُ مِنْ فُلانٍ ، ونَحْوَ ذَلِكَ مِنْ صِيَغِ التَّعالِي ومَشاعِرِ التَّكَبُّرِ ، فَإِنَّهُمْ في مَيْدانِ الأَخْلاقِ سَبَّاقُونَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ ، نَزَّاعُونَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ ، فاعْلَمْ ذَلِكَ ، والحَمْدُ للهِ عَلَى ذَلِكَ .

ومِمَّا تَمَيَّزُوا بِهِ كَذلِكَ قِيامُهُم بِشَعائِرِ دَوْلَةِ الظَّاهِرِ والباطِنِ ، فَيَأْمُرُونَ بِالمَعْروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ، ويَخْطُبُونَ ويَؤُمُّونَ فى المَساجِدِ ، ويُدَرِّسُونَ العِلْمَ ، ويُفْتُونَ ، ويَقْضُونَ بَيْنَ النَّاسِ ، ويُخالِفُونَ نُفُوسَهُم ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا

مَرَّ آنِفاً .

ومِمَّا تَمَيَّزُوا بِهِ عَنْ غَيْرِهِم أَيْضاً وقُوعُ الكَراماتِ ، والخَوارِقُ عَلَى أَيْدِيهِمْ تَأْيِيداً لَهُم لِكَوْنِهِم عَلَى الشَّرِيعَةِ المَحْضَةِ ، وبَياناً لِكَوْنِهِم عَلَى قَدَمِ الصِّدْقِ في الاتِّباعِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ .

وقَدْ قالوا : الكَراماتُ فَرْعٌ مِنَ المُعْجِزاتِ ، فالكَرامَةُ لِلْوَلِيِّ كالمُعْجِزَةِ لِلنَّبِيِّ فى الدَّلالَةِ عَلَى صِدْقِهِ ، وإِنْ تَفاوَتَ المَقامُ ، ومَنْ لاكَرامَةَ لَهُ لا تَمْيِيزَ لَهُ عَنِ العامَّةِ ، وإِنْ كانَ وَلِيّاً في الباطِنِ .

قالَ الشَّيْخُ (عِزُّ الدِّينِ بنُ عَبْدِ السَّلامِ) فى رِسالَتِهِ الَّتي أَلَّفَها فى مَدْحِ طَرِيقِ القَوْمِ : (مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ القَوْمَ قَعَدوا عَلَى قَواعِدِ الشَّرِيعَةِ ، وقَعَدَ غَيْرُهُم عَلَى الرُّسُومِ ، ما يَقَعُ عَلَى يَدِ أَحَدِهِم مِنَ الكَراماتِ والخَوارِقِ ، ولا يَقَعُ ذَلِكَ عَلَى يَدِ فَقِيهٍ قَطُّ ، ولَوْ بَلَغَ الغايَةَ في العِلْمِ إِلاَّ إِنْ سَلَكَ طَرِيقَهُم واعْتَقَدَ صِحَّتَها) .

وكانَ الشَّيْخُ قَبْلَ ذَلِكَ يَقُولُ : (وهَلْ ثَمَّ عِلْمٌ أَو طَرِيقٌ غَيْرُ ما بِأَيْدِينا مِنْ مَسائِلِ الشَّرِيعَةِ وأَعْمالِها ؟!) وكانَ يُنْكِرُ طَرِيقَ الصُّوفِيَّةِ لِعَدَمِ ذَوْقِهِ إِيَّاها ، واعْتِقادِهِ فِيها أَنَّها طَرِيقٌ زائِدَةٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِشَيْخٍ (عارِفٍ بِاللهِ) وأَخَذَ عَنْهُ الطَّرِيقَ ، وقَطَعَ سِلْسِلَةَ بابِ قَلْعَةِ الجَبَلِ بِالكُرَّاسِ الوَرَقِ ، ورَدَّ مَراكِبَ الفِرِنجِ لَمَّا دَخَلُوا دِمْياطَ عِنْدَما نادى بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُشِيراً إِلَى الرِّيحِ : يا رِيحُ خُذِيهِم ، فَعادَتِ الرِّيحُ عَلَى مَراكِبِ الفِرِنْجِ فَكَسَرَتْها ، عِنْدَها قالَ ما نَقَلْناهُ عَنْهُ آنِفاً .

ومِمَّا تَمَيَّزوا بِهِ أَيْضاً ، كَوْنُ النَّاسِ يَحْتاجُونَ إِلَيْهِم في الشَّدائِدِ ، ولا يَحْتاجُونَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ إِلَّا مَعَ شُهُودِ أَنَّ الخَلْقَ مُسَخَّرُونَ لَهُمْ بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى ، وذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ دَلِيلٍ عَلَى عُلُوِّ مَقامِهِم فى الدُّنْيا والآخِرَة .

وَمِمَّا تَمَيَّزوا بِهِ أَيْضاً ، أَنَّ الدُّنْيا لا تَسْتَعْبِدُهُم وإنَّما تَسْتَعْبِدُ غَيْرَهُم ، وإنَّهُمْ لا يُلْقُونَ بِقِيادِهِم إلَّا للهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى فَلاَ يُلْقُونَ بِقِيادِهِم إلَى مالٍ أَو جاهٍ ، أَو مَنْصِبٍ أَو رِياسَةٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَذِلُّ لَهُ أَهْلُ الدُّنْيا وأَهْلُ الأَهْواءِ ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ دُنْياهُم ، وأَهْواءَهُم آلِهَةً يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ .

إنَّهُم أَغْنِياءُ أَو فُقَراءُ تَحَقَّقُوا بِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[1]

ويَقُصُّ عَلَيْنا الإمامُ ابْنُ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي فى كِتابِهِ (لَطائِف المِنَن) قِصَّةَ ثَرِيٍّ صُوفِيٍّ تَحَقَّقَ بِالآيَةِ القُرْآنِيَّةِ الكَرِيمَةِ ، فَلَمْ يَمْنَعْهُ ثَراؤُهُ الضَّخْمُ العَرِيضُ أَنْ يَكُونَ صُوفِيّاً ، يَقُولُ (ابْنُ عَطاءِ اللهِ) :

(قالَ بَعْضُ المَشايخِ : كانَ رَجُلٌ بِالمَغْرِبِ مِنَ الزَّاهِدِينَ في الدُّنْيا ، ومِنْ أَهْلِ الجِدِّ والاجْتِهادِ ، وكانَ عَيْشُهُ مِمَّا يَصِيدُهُ مِنَ البَحْرِ ، وكانَ الَّذي يَصِيدُهُ يَتَصَدَّقُ بِبَعْضِهِ ، ويَتَقَوَّتُ بِبَعْضِهِ ، فَأَرادَ بَعْضُ أَصْحابِ هَذا الشَّيْخِ أَنْ يُسافِرَ إلَى بَلَدٍ مِنْ بِلادِ المَغْرِبِ ، فَقالَ لَهُ هَذا الشَّيْخُ :

إذا دَخَلْتَ إلَى بَلَدِ كَذا ، فاذْهَبْ إلَى أَخِي (فُلان) ، فَأَقْرِئْهُ مِنِّى السَّلامَ ، وتَطْلُبُ الدُّعاءَ مِنْهُ لِي ، فَإنَّهُ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِياءِ اللهِ تَعالَى ، قالَ : فَسافَرْتُ ، حَتَّى قَدِمْتُ تِلْكَ البَلْدَةَ ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، فَدُلِلْتُ عَلَى دارٍ لا تَصْلُحُ إلَّا لِلْمُلُوكِ ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ ، وطَلَبْتُهُ فَقِيلَ لِي : هُوَ عِنْدَ السُّلْطانِ ، فازْدادَ تَعَجُّبِي ، وبَعْدَ ساعَةٍ ، وإذا هُوَ آتٍ فى أَفْخَرِ مَلْبَسٍ ومَرْكَبٍ ، وكَأَنَّما هُوَ مَلِكٌ في مَوْكِبِه ، قالَ : فازْدادَ تَعَجُّبِي أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِ ، قالَ : فَهَمَمْتُ بِالرُّجُوعِ وعَدَمِ الاجْتِماعِ بِهِ ، ثُمَّ قُلْتُ لا يُمْكِنُنِي مُخالَفَةَ الشَّيْخِ . فاسْتَأْذَنْتُ ، فَأُذِنَ لِي ، فَلَمَّا دَخَلْتُ رَأَيْتُ ما هالَنِي مِنَ العَبِيدِ ، والخَدَمِ ، والشَّارَةِ الحَسَنَةِ ، فَقُلْتُ لَهُ :

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد مِنَ الآيَة ٢٣ .

أَخُوكَ فُلانٌ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ ، قالَ : جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِ ؟ ، قُلْتُ نَعَم ، قالَ : إذا رَجَعْتَ إِلَيْهِ قُلْ لَهُ : إِلَى كَمِ اشْتِغالُكَ بِالدُّنْيا ؟ وإِلَى كَمْ إِقْبالُكَ عَلَيْها ؟ وإِلَى مَتَى لا تَنْقَطِعُ رَغْبَتُكَ فِيها ؟ ، فَقُلْتُ : هَذا واللهِ أَعْجَبُ مِنَ الأَوَّلِ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الشَّيْخِ ، قالَ : اجْتَمَعْتَ بِأَخِي فُلان ؟

قُلْتُ : نَعَم ، قالَ : فَما الَّذي قالَ لَكَ ؟ قُلْتُ : لا شَيْءَ .

قالَ : لابُدَّ أَنْ تَقُولَ لِي ؟ فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ ما قالَ ، فَبَكَى طَوِيلاً وقالَ :

(صَدَق أَخِي فُلانٌ ، هُوَ غَسَلَ اللهُ قَلْبَهُ مِنَ الدُّنْيا وجَعَلَها فى يَدِهِ ، وعَلَى ظاهِرِهِ ، وأَنا أَخَذَها مِنْ يَدِي ، وعِنْدِي إِلَيْها بَقايا التَّطَلُّع) .

واعْلَمْ أَنَّ (التَّصَوُّفَ) : مِنْ أَجَلِّ العُلُومِ قَدْراً ، وأَعْظَمِها مَحَلَّاً وفَخْراً ، وأَسْناها شَمْساً وبَدْراً ، وقَدْ فَضَّلَ اللهُ أَهْلَهُ عَلَى الكافَّةِ مِنْ عِبادِهِ بَعْدَ (رُسُلِهِ وأَنْبِيائِهِ) صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِم ، وجَعَلَ قُلُوبَهُم مَعْدِنَ الأَسْرارِ ، واخْتَصَّهُم مِنْ بَيْنِ الأُمَّةِ بِطَوالِعِ الأَنْوارِ ، فَهُم الغِياثُ لِلْخَلْقِ ، والدَّائِرونَ فى عُمُومِ أَحْوالِهِم مَعَ الحَقِّ ، قالَ الإِمامُ (الطِّيبى) : (لا يَنْبَغِي لِلْعالِمِ ولَوْ تَبَحَّرَ في العِلْمِ حَتَّى صارَ واحِدَ أَهْلِ زَمانِهِ أَنْ يَقْنَعَ بِما عَلِمَهُ وإِنَّما الواجِبُ عَلَيْهِ الاجْتِماعُ بِأَهْلِ الطَّرِيقِ لِيَدُلُّوهُ عَلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ حَتَّى يَكُونَ مِمَّنْ يُحَدِّثُهُم الحَقُّ فى سَرائِرِهِم ، مِنْ شِدَّةِ صَفاءِ باطِنِهِم ، وحَتَّى يَخْلُصَ مِنَ الأَدْناسِ ، وعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ ما شابَ عِلْمَهُ مِنْ كُدُوراتِ الهَوَى ، وحُظُوظِ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، حَتَّى يَسْتَعِدَّ لِفَيَضانِ العُلُومِ اللَّدُنِيَّةِ عَلَى قَلْبِهِ ، والاقْتِباسِ مِنْ مِشْكاةِ أَنْوارِ النُّبُوَّةِ ، ولا يَتَيَسَّرُ ذَلِكَ عادَةً إِلَّا عَلَى يَدِ شَيْخٍ كامِلٍ عالِمٍ بِعِلاجِ أَمْراضِ النُّفُوسِ وتَطْهِيرِها مِنَ النَّجاساتِ المَعْنَوِيَّةِ ، وحِكْمَةِ مُعامَلاتِها عِلْماً وذَوْقاً ، لِيُخْرِجَهُ مِنْ رُعُوناتِ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ودَسائِسِها الخَفِيَّة) .

فَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الطَّرِيقِ عَلَى وُجُوبِ اتِّخاذِ الإِنْسانِ شَيْخاً لَهُ يُرْشِدُهُ إِلى زَوالِ تِلْكَ الصِّفاتِ الَّتي تَمْنَعُهُ مِنْ دُخُولِ حَضْرَةِ اللهِ بِقَلْبِهِ لِيَصِحَّ حُضُورُهُ وخُشُوعُهُ في سائِرِ العِباداتِ مِنَ بابِ (ما لايَتِمُّ الواجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ واجِبٌ) ، ولاشَكَّ أَنَّ عِلاجَ أَمْراضِ الباطِنِ واجِبٌ فَيَجِبُ عَلَى مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الأَمْراضُ أَنْ يَطْلُبَ شَيْخاً يُخْرِجُهُ مِنْ كُلِّ وَرْطَةٍ ، وإِنْ لَمْ يَجِدْ في بَلَدِهِ أَو إِقْلِيمِهِ ، وَجَبَ عَلَيْهِ السَّفَرُ إِلَيْهِ ، وكانَ الإِمامُ (أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلَ) ﷺ يَقُولُ لِوَلَدِهِ عَبْدِ الله :

(يا وَلَدِي عَلَيْكَ بِمُجالَسَةِ هَؤُلاءِ القَوْمِ ، فَإِنَّهُم زادوا عَلَيْنا بِكَثْرَةِ العِلْمِ والمُراقَبةِ والخَشْيَةِ والزُّهْدِ وعُلُوِّ الهِمَّة) .

وكانَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ وأَحْمَدُ يَتَرَدَّدانِ إِلَى مَجالِسِ الصُّوفِيَّةِ ويَحْضُرانِ مَعَهُم في مَجْلِسِ ذِكْرِهِم ، فَقِيلَ لَهُما : ما لَكُما تَتَرَدَّدانِ إِلَى مِثْلِ هَؤُلاءِ وأَنْتُما ؟! ؛ فَقالا : إِنَّ هَؤُلاءِ عِنْدَهُم رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ ؛ وهُوَ تَقْوَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ ومَحَبَّتُهُ ومَعْرِفَتُهُ .

وقَدْ قالَ بَعْضُ العارِفِينَ : (مَنْ يُؤْمِنُ بِكَلامِ أَهْلِ الطَّرِيقِ فَقُلْ لَهُ يَدْعُو لَكَ فَإِنَّهُ مُجابُ الدَّعْوَة) .

عِلْمُ التَّصَوُّف

عِلْمُ التَّصَوُّف

يَنْبَغِي لِكُلِّ شارِعٍ في فَنٍّ أَنْ يَتَصَوَّرَهُ قَبْلَ الشُّروعِ فيهِ ، لِيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ فيهِ ، ولا يَحْصُلُ التَّصَوُّرُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ المَبادِىءِ العَشَرَةِ المَذْكُورَةِ في قَوْلِ القائِلِ :

إِنَّ مَبادِىءَ كُلِّ فَنٍّ عَشَرَة * الحَدُّ والمَوْضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَة
وفَضْلُهُ ونِسْبَةٌ والواضِعْ * والاسْمُ الاسْتِمْدادُ حُكْمُ الشَّارِعْ
مَسائِلُ والبَعْضُ بِالبَعْضِ اكْتَفَى * ومَنْ دَرَى الجَمِيعَ حازَ الشَّرَفا

(١) فَحَدُّ التَّصَوُّفِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ أَحْوالُ النَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ مَحْمُودُها ومَذْمُومُها ، وكَيْفِيَّةُ تَطْهِيرِها مِنَ المَذْمُومِ مِنْها ، وتَحْلِيَتُها بِالاتِّصافِ بِمَحْمُودِها ، وكَيْفِيَّةُ السُّلُوكِ والسَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعالَى والفِرارِ إِلَيْهِ .

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ * إِلَّا أَخُو فِطْنَةٍ بِالحَقِّ مَعْرُوفُ
وكَيْفَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْهَدُهُ * وكَيْفَ يَشْهَدُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مَكْفُوفُ؟

(٢) ومَوْضُوعُهُ : أَفْعالُ القَلْبِ والحَواسِّ مِنْ حَيْثُ التَّزْكِيَةِ والتَّصْفِيَةِ .

(٣) وثَمَرَتُهُ : تَهْذِيبُ القُلُوبِ ، ومَعْرِفَةُ عَلَّامِ الغُيُوبِ ذَوْقاً ووِجْداناً ، والنَّجاةُ في الآخِرَةِ والفَوْزُ بِرِضا اللهِ تَعالَى ، ونَيْلُ السَّعادَةِ الأَبَدِيَّةِ ، وتَنْوِيرُ القَلْبِ وصَفاؤُهُ بِحَيْثُ تَنْكَشِفُ لَهُ أُمُورٌ جَلِيلَةٌ ، ويَشْهَدُ أَحْوالاً عَجِيبَةً ، ويُعايِنُ ما عَمِيَتْ عَنْهُ بَصِيرَةُ غَيْرِه .

(٤) وفَضْلُهُ : أَنَّهُ أَشْرَفُ العُلُومِ لِتَعَلُّقِهِ بِمَعْرِفَةِ اللهِ تَعالَى وحُبِّهِ وهِيَ أَفْضَلُ التَّكالِيفِ والمَقاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الإِطْلاق .

(٥) ونِسْبَتُهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ العُلُومِ : أَنَّهُ أَصْلٌ لَها وشَرْطٌ فِيها . إِذْ لا عِلْمَ ولا عَمَلَ إِلَّا بِقَصْدِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ ، فَنِسْبَتُهُ لَها كالرُّوحِ لِلْجَسَد .

(٦) وواضِعُهُ : اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى ، أَوْحاهُ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ والأَنْبِياءِ قَبْلَهُ ،

فَإِنَّهُ رُوحُ الشَّرائِعِ والأَدْيانِ الـمُنَزَّلَةِ كُلِّها .

واعْلَمْ أَنَّ هنـالِكَ ثَلاثَةَ أَلْفـاظٍ قَدْ تَشْتَبِهُ عَلَى الجاهِلِ مَعانِيها ، ويَقَعُ اللَّبْسُ فِيها ، فَها نَحْنُ نُبَيِّنُها حَتَّى لا نَقَعَ فِيما وَقَعَ فيهِ الـمُغْتَرُّونَ ، وهذِهِ الأَلْفاظُ هِيَ : (الشَّرِيعَةُ ، والطَّرِيقَةُ ، والحَقِيقَة) .

فالشَّرِيعَةُ : وهِيَ الأَحْكامُ الـمُنَزَّلَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ والَّتي فَهِمَها العُلَماءُ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ نَصّاً أَواسْتِنْباطاً ، أَعْنِي الأَحْكامَ الـمُبَيَّنَةَ في عِلْمِ التَّوْحِيدِ وعِلْمِ الفِقْهِ وعِلْمِ التَّصَوُّف .

والطَّرِيقَةُ : هِيَ العَمَلُ بِالشَّرِيعَةِ ، والأَخْذُ بِعَزائِمِها ، والبُعْدُ عَنِ التَّساهُلِ فِيما لا يَنْبَغِي التَّساهُلُ فيهِ ، وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : اجْتِنابَ الـمَنْهِيَّاتِ ظاهِراً وباطِناً ، وامْتِثالَ الأَوامِرِ الإِلَهِيَّةِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ ، أَو هِيَ اجْتِنابُ الـمُحَرَّماتِ والـمَكْرُوهاتِ وفُضُولِ الـمُباحاتِ ، وأَداءُ الفَرائِضِ وما اسْتَطاعَ مِنَ النَّوافِلِ تَحْتَ رِعايَةِ عارِفٍ مِنْ أَهْلِ النِّهايات .

أَمَّا الحَقِيقَةُ : فَهِيَ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ :

الأَوَّلُ : رِقَّةُ الحِجابِ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما آمَنَ بِهِ مِنَ ذاتِ اللهِ وصِفاتِهِ وجَلالِهِ وجَمالِهِ ، وقُرْبِهِ وأَقْرَبِيَّتِه ، وحَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وكَمالاتِ أَصْحابِها عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ولاسِيَّما سَيِّدُهُم الأَعْظَم ﷺ، وما أَخْبَرَ بِهِ ﷺ مِنْ نَعِيمِ القَبْرِ وعَذابِهِ ، والقِيامَةِ وأَهْوالِها ؛ والنَّارِ وما فِيها ، والجَنَّةِ ونَعِيمِها ، إِلَى غَيْرِذَلِكَ فَيَكُونُ كَأَنَّهُ لَهُ مُعايِنٌ مُشاهِدٌ ، ويَتْبَعُ هَذا القِسْمَ أَحْوالٌ تُعْرَضُ لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ كالزُّهْدِ في الدُّنْيا ومَناصِبِها ، وشِدَّةِ الشَّوْقِ والهُيامِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ تَفْصِيلُهُ وسَيَأْتِي إِنْ شاءَ اللهُ كَثِيرٌ مِنْهُ ، ورُبَّما حَصَلَ مَعَ ذَلِكَ كَشْفٌ عَمَّا شاءَ اللهُ مِنَ العالَمِ العُلْوِيِّ أَو السُّفْلِيِّ وحَوادِثِهِ الماضِيَةِ أَو الـمُسْتَقْبَلَة .

ومِنْ هَذا القِسْمِ حَدِيثُ (حارِثَةَ بنِ مالِكٍ الأَنْصارِيِّ) ﷺ حِينَ قالَ لَهُ

حَضْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ: (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حارِثَةُ ؟ قالَ أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً ، فَقالَ لَهُ : إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَما حَقِيقَةُ إِيمانِكَ ؟ ، وفى رِوايَةٍ قالَ لَهُ ﷺ: اعْلَمْ ما تَقُولُ أَو انْظُرْ ما تَقُولُ .

فَقالَ : عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيا - أَي أَعْرَضَتْ - فاسْتَوَى عِنْدِي حَجَرُها وذَهَبُها ، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وأَظْمَأْتُ نَهارِي وكَأَنِّى أَرَى عَرْشَ رَبِّى بارِزاً ، وكَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزاوَرونَ فِيها ، وكَأَنِّى أَسْمَعُ عِواءَ أَهْلِ النَّارِ فَقالَ لَهُ : عَرَفْتَ فالْزَم ، وفي رِوايَةٍ أَنَّهُ ﷺ قالَ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حارِثَةَ بنِ مالِك)[1].

وهَذا القِسْمُ هُوَ أَعْلَى أَقْسامِها ، وأَشْرَفُ أَنْواعِها ، فَإِنَّهُ أَصْلٌ يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ القِسْمانِ الآخَرانِ ، وأَساسٌ يَنْبَنِيانِ عَلَيْه .

الثَّانِى : تَخَلِّي النَّفْسِ عَنْ رَذائِلِ الأَخْلاقِ ، وتَحَلِّيها بِالصِّفاتِ المَرْضِيَّةِ والأَخْلاقِ السَّنِيَّةِ ، بِحَيْثُ يَكُونُ راسِخَ القَدَمِ فِيها ، وتَكُونُ مَلِكاتٍ لَهُ .

الثَّالِثُ : تَيْسِيرُ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ ، وسُهُولَةُ أَفْعالِ الخَيْرِ عَلَيْهِ ، حَتَّى لا يَجِدَ فِيها مَشَقَّةً ولا كُلْفَةً ، بَلْ لَوْ أَرادَ أَنْ يَتْرُكَها لَمْ تُطاوِعْهُ نَفْسُهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ تَمَّ لَهُ انْشِراحُ الصَّدْرِ لِلإِسْلامِ ، واطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ كُلَّ الطُّمَأْنِينَةِ لِلْبُعْدِ عَنْ مَحارِمِ اللهِ ، والقِيامِ بِأَوامِرِهِ ، وصَحَّتْ لَهُ حَقِيقَةُ الإِخْباتِ حَتَّى كَأَنَّهُ مَلَكٌ في صُورَةِ إِنْسان .

وإِذا فَهِمْنا هَذا عَرَفْنا أَنَّ كَثِيراً مِمَّا ذُكِرَ فى تَعْرِيفِ الحَقِيقَةِ إِنَّما هُوَ بَيانٌ لِقِسْمٍ مِنْ أَقْسامِها أَو لِشَيْءٍ مِنْهُ ، وأَنَّ الحَقِيقَةَ ثَمَرَةُ الطَّرِيقَةِ وأَنَّهُ لا بُدَّ لِسالِكِ طَرِيقِ الآخِرَةِ مِنَ الجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلاثَةِ وعَدَمِ التَّعْطِيلِ لِشَيْءٍ مِنها ، وذَلِكَ لأَنَّ الحَقِيقَةَ بِلا شَرِيعَةٍ باطِلَةٌ ، والشَّرِيعَةَ بِلا حَقِيقَةٍ عاطِلَةٌ .

---

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبَرانِيُّ والبَزَّارُ وغَيْرُهُما .

وقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنا قَوْلَ الإمامِ (مالِكٍ) ﷺ : (مَنْ تَشَرَّعَ ولَمْ يَتَحقَّقْ فقَدْ تَفَسَّقَ ، ومَنْ تَحقَّقَ ولَمْ يَتَشَرَّعْ فقَدْ تَزَنْدَقَ ، ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُما فقَدْ تَحقَّقَ) .

فَمَثَلُ الشَّرِيعَةِ كالسَّفِينَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّها سَبَبٌ لِلْوصُولِ إِلَى المَقْصِدِ والنَّجاةِ مِنَ الهَلاكِ ، والطَّرِيقَةُ مِثْلُ البَحْرِ الَّذى فيهِ الدُّرُّ مِنْ حَيْثُ إِنَّها مَحَلُّ المَقْصُودِ ، والحَقِيقَةُ مِثْلُ اللُّؤْلُؤِ العَظِيمِ ، فَلا يُوجَدُ اللُّؤْلُؤُ إِلَّا في البَحْرِ ولا يُوصَلُ لِذَلِكَ البَحْرِ إِلَّا بِالسَّفِينَةِ ؛ فَمَنْ نَظَرَ إِلَى حَقائِقِ الأَشْياءِ كُلِّها بِاللهِ وَجَدَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ والحَقِيقَةَ مُتَلازِمانِ تَلازُمَ الماءِ لِلْعُودِ والرُّوحِ لِلْجَسَدِ ، والشَّرِيعَةُ شَجَرَةٌ والطَّرِيقَةُ أَغْصانُها والحَقِيقَةُ أَثْمارُها ، ولِذَلِكَ قِيلَ :

الشَّرِيعَةُ بابٌ ، والطَّرِيقَةُ آدابٌ ، والحَقِيقَةُ لُبابٌ أَى ثَمْراتٌ ونَتائِجُ .

وقِيلَ أَيْضاً : (الشَّرِيعَةُ أَمْرٌ بِالتِزامِ العُبُودِيَّةِ ، والحَقِيقَةُ مُشاهَدَةُ الرُّبُوبِيَّةِ (أَي رُؤْيَتُها بِالقَلْبِ) ، ويُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ : بِأَنَّ الشَّرِيعَةَ مَعْرِفَةُ السُّلُوكِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، والحَقِيقَةُ دَوامُ النَّظَرِ إِلَيْهِ ، والطَّرِيقَةُ سُلُوكُ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ أَي العَمَلُ بِمُقْتَضاها .

وثَمَّةَ إِشْراقَةٌ وَضِيئَةٌ تَزِيدُ الأَمْرَ وُضُوحاً فِيما يَتَعَلَّقُ بـ(الشَّرِيعَةِ والطَّرِيقَةِ والحَقِيقَةِ) وهُوَ ما أَظْهَرَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ القادِرِ عِيسَى حَيْثُ يَقُولُ : لَقَدْ وَرَدَ فى حَدِيثِ سَيِّدِنا (جِبْرِيلَ) عليه السلام المَشْهُورِ الَّذي يَرْوِيهِ سَيِّدُنا (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ﷺ ، تَقْسِيمُ الدِّينِ إِلَى ثَلاثَةِ أَرْكانٍ بِدَلِيلِ قَوْلِ سَيِّدِنا (رَسُولِ اللهِ) ﷺ لِسَيِّدِنا عُمَرَ : (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتاكُم يُعَلِّمُكُم دِينَكُم) :

١ - رُكْنُ الإِسْلام : وهُوَ الجانِبُ العَمَلِيُّ مِنْ عِباداتٍ ومُعامَلاتٍ وأُمُورٍ تَعَبُّدِيَّةٍ ومَحَلُّهُ الأَعْضاءُ الظّاهِرَةُ الجِسْمانِيَّةُ ، وقَدِ اصْطَلَحَ العُلَماءُ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بِالشَّرِيعَةِ ، واخْتَصَّ بِدِراسَتِهِ السّادَةُ الفُقَهاءُ .

٢ - رُكْنُ الإِيمان : وهُوَ الجانِبُ الاعْتِقادِيُّ القَلْبِيُّ مِنْ إِيمانٍ بِاللهِ ومَلائِكَتِهِ

وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ والقَضاءِ والقَدَرِ ، وقَدِ اخْتَصَّ بِدِراسَتِهِ السَّادَةُ عُلَماءُ التَّوْحِيد .

٣ - رُكْنُ الإحْسان : وهُوَ الجانِبُ الرُّوحِيُّ القَلْبِيُّ ، وهُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ ، وما يَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَحْوالٍ وأَذْواقٍ وِجْدانِيَّةٍ ومَقاماتٍ عِرْفانِيَّةٍ وعُلُومٍ وَهْبِيَّةٍ ، وقَدِ اصْطَلَحَ العُلَماءُ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بِالحَقِيقَةِ ، واخْتَصَّ بِبَحْثِهِ السَّادَةُ الصُّوفِيَّة .

ولِتَوْضِيحِ الصِّلَةِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ نَضْرِبُ لَكَ مَثَلاً ، الصَّلاة : فالإتْيانُ بِحَرَكاتِها وأَعْمالِها الظَّاهِرَةِ والْتِزامُ أَرْكانِها وشُروطِها وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ عُلَماءُ الفِقْهِ يُمَثِّلُ جانِبَ الشَّرِيعَةِ وهُوَ جَسَدُ الصَّلاةِ ، وحُضُورُ القَلْبِ مَعَ اللهِ تَعالَى في الصَّلاةِ يُمَثِّلُ جانِبَ الحَقِيقَةِ وهُوَ رُوحُ الصَّلاةِ ، فأَعْمالُ الصَّلاةِ البَدَنِيَّةِ هِيَ جَسَدُها ، والخُشُوعُ رُوحُها ، وما فائِدَةُ الجَسَدِ بِلا رُوحٍ ؟ وكَما أَنَّ الرُّوحَ تَحْتاجُ إِلَى جَسَدٍ تَقُومُ فِيهِ فَكَذَلِكَ الجَسَدُ يَحْتاجُ إِلَى رُوحٍ يَقُومُ بِها .

ولِهَذا قالَ تَعالَى ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [١] .

ولا تَكُونُ الإقامَةُ إِلَّا بِجَسَدٍ ورُوحٍ ، ولِذا لَمْ يَقُلْ أَوْجِدوا الصَّلاةَ ، ومِنْ هُنا نُدْرِكُ التَّلازُمَ الوَثِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ كَتَلازُمِ الرُّوحِ والجَسَدِ ، والمُؤْمِنُ الكامِلُ هُوَ الَّذي يَجْمَعُ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ ، وهَذا هُوَ تَوْجِيهُ الصُّوفِيَّةِ لِلنَّاسِ ، مُقْتَفِينَ بِذَلِكَ أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ وأَصْحابِهِ الكِرامِ ، ولِلْوصُولِ إِلَى هَذا المَقامِ الرَّفِيعِ والإيمانِ الكامِلِ لابُدَّ لِلإنْسانِ مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقَةِ ، وهِيَ مُجاهَدَةُ النَّفْسِ وتَصْعِيدُ صِفاتِها النَّاقِصَةِ إِلَى كامِلَةٍ ، والتَّرَقِّي في مَقاماتِ الكَمالِ بِصُحْبَةِ المُرْشِدِينَ ، فَهِيَ الجِسْرُ المُوصِلُ مِنَ الشَّرِيعَةِ إِلَى الحَقِيقَةِ [٢] ولا أَظُنُّ أَنَّ ساداتِنا الَّذِينَ تَحَدَّثُوا تَرَكُوا مَجالاً لِلزِّيادَةِ أَوِ التَّوْضِيحِ ،

(١) سُورَةُ البَقرة آية ٤٣ .

(٢) حَقائِقُ عَنِ التَّصَوُّفِ (عَبْدُالقادِر عِيسَى) ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

فالشَّرِيعَةُ هِيَ الأَسَاسُ ، والطَّرِيقَةُ هِيَ الوَسِيلَةُ ، والحَقِيقَةُ هِيَ الثَّمَرَةُ ، وهِيَ أَشْيَاءُ مُتَكامِلَةٌ مُنْسَجِمَةٌ ، فالتَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ يُؤَدِّي إِلَى السُّلُوكِ عَلَى الثَّانِيَةِ ويَصِلُ إِلَى الثَّالِثَةِ ، وأَمَّا الاصْطِلاحاتُ فَبِالإِمْكانِ حَذْفُها أَو وَضْعُ غَيْرِها ، فالأَمْرُ لا يُغَيِّرُ شَيْئاً ولا مُشاحَةَ في الاصْطِلاح .

(٧) أَمَّا اسْمُ عِلْمِ التَّصَوُّفِ : فَدِلالَةٌ عَلَى جَوْهَرِهِ ومَرْماهُ وهُوَ الصَّفاءُ ، والصُّوفِيُّ : مَنْ صَفا قَلْبُهُ مِنَ الكَدَرِ ، وامْتَلأَ مِنَ العِبَرِ ، واسْتَوَى عِنْدَهُ الذَّهَبُ والمَدَرُ ، قالَ بَعْضُ العارِفِين :

يا واصِفِي أَنْتَ في التَّحْقِيقِ مَوْصُوفِي * وعارِفِي لاتُغالِطْ أَنْتَ مَعْرُوفِي
إِنَّ الفَتَى مَنْ بِعَهْدِهِ في الأَزَلِ يُوفِي * صافَى فَصُوفِيَ لِهَذا سُمِّيَ الصُّوفِي

وأُصُولُ التَّصَوُّفِ خَمْسَةٌ :

الأَوَّلُ : تَقْوَى اللهِ في السِّرِّ والعَلانِيَةِ ، وتَتَحَقَّقُ بِالوَرَعِ والاسْتِقامَة .

الثَّانِي : اتِّباعُ السُّنَّةِ في الأَقْوالِ والأَفْعالِ ، ويَتَحَقَّقُ بِالحِفْظِ وحُسْنِ الخُلُق .

الثَّالِثُ : الإِعْراضُ عَنِ الخَلْقِ في الإِقْبالِ والإِدْبارِ ، ويَتَحَقَّقُ بِالصَّبْرِ والتَّوَكُّل .

الرَّابِعُ : الرِّضا عَنِ اللهِ في القَلِيلِ والكَثِيرِ ، ويَتَحَقَّقُ بِالقَناعَةِ والتَّفْوِيض .

الخامِسُ : الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، ويَتَحَقَّقُ بِالشُّكْرِ في السَّراءِ والالْتِجاءِ إِلَيْهِ في الضَّرَّاء .

(٨) واسْتِمْدادُ عِلْمِ التَّصَوُّف : مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ والآثارِ الثَّابِتَةِ عَنْ خَواصِّ الأُمَّة .

(٩) وحُكْمُ الشَّارِعِ فِيهِ : هُوَ الوُجُوبُ العَيْنِيُّ : إِذْ لا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ عَيْبٍ أَو مَرَضٍ قَلْبِيٍّ ؛ إِلاَّ الأَنْبِياءُ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، قالَ بَعْضُ العارِفِينَ :
(مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذا العِلْمِ أَي عِلْمِ التَّصَوُّفِ - أَخافُ عَلَيْهِ مِنْ

سُوءِ الخاتِمَةِ ، وأَدْنَى النَّصيبِ مِنْهُ التَّصْديقُ بِهِ وتَسْليمُهُ لأَهْلِه) .

(١٠) ومَسائِلُهُ : قَضاياهُ الباحِثَةُ عَنْ صِفاتِ القُلوبِ ، ويَتْبَعُ ذَلِكَ شَرْحُ الكَلِماتِ الَّتي تُتَداوَلُ بَيْنَ القَوْمِ ، كالزُّهْدِ والوَرَعِ والمَحَبَّةِ والفَناءِ والبَقاء .

بَيانُ مَنْ هُم الأَوْلِياءُ ودَوامُ نَفْعِهِم مَوْتَى وأَحْياء

الأَوْلِياءُ هُم العارِفُونَ بِاللهِ تَعالَى حَسْبَما يُمْكِنُ ، المُواظِبُونَ عَلَى الطَّاعاتِ ، المُجْتَنِبُونَ لِلْمَعاصِي ، المُعْرِضُونَ عَنِ الانْهِماكِ في الشَّهَواتِ .

وهُمْ رضي الله عنهم أَنْواعٌ :

(١) فَمِنْهُم مَنْ لا يَحْصُرُهُ عَدَدٌ كَما يُشِيرُ إِلَيْهِ الحَديثُ الشَّريفُ : (سَبَقَ المُفَرِّدُونَ ، قالوا ومَنِ المُفَرِّدُونَ يا رَسُولَ الله ؟ قالَ : الذَّاكِرونَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِرات)[١] ، وفي رِوايَةٍ : (يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُم أَثْقالَهُم ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيامَةِ في مِثْلِ ظُلَلِ الغَمام) .

قالَ مُجاهِد : (لايَكُونُ مِنَ الذَّاكِرينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِراتِ حَتَّى يَذْكُرَ اللهَ قائِماً وقاعِداً ومُضْطَجِعاً) .

(٢) ومِنْهُم مَنْ يَحْصُرُهُ عَدَدٌ : فَعَنْ (عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ) رضي الله عنه قالَ : قالَ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ : (إِنَّ لِلهِ عَزَّ وجَلَّ في الخَلْقِ ثَلاثَمِائَةِ نَفْسٍ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ إِبْراهِيمَ عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ أَرْبَعُونَ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ مُوسَى عليه السلام ولِلهِ في الخَلْقِ خَمْسَةٌ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ جِبْرِيلَ عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ ثَلاثَةٌ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ مِيكائِيلَ عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ واحِدٌ قَلْبُهُ عَلَى قَلْبِ إِسْرافِيلَ عليه السلام ، فَإِذا ماتَ الواحِدُ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الثَّلاثَةِ ، وإِذا ماتَ مِنَ الثَّلاثَةِ ، أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الخَمْسَةِ ، وإِذا ماتَ مِنَ الخَمْسَةِ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ السَّبْعَةِ ، وإِذا ماتَ مِنَ السَّبْعَةِ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الأَرْبَعِينَ ، وإِذا ماتَ مِنَ الأَرْبَعِينَ

---

(١) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) في صَحيحِه ، عَنْ (أَبي هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه.

أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الثَّلاثِمائَةِ ، وإِذا ماتَ مِنَ الثَّلاثِمائَةِ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ العامَّةِ ، فَبِهِم يُحْيِي ويُمِيتُ ، ويُمْطِرُ ويُنْبِتُ ، ويَدْفَعُ البَلاءَ عَنِ هَذهِ الأُمَّةِ ، قِيلَ لِعَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُود : كَيْفَ بِهِم يُحْيِي ويُمِيتُ ؟ قالَ : لأَنَّهُم يَسْأَلُونَ اللهَ إِكْثارَ الأُمَمِ فيُكَثَّرُونَ ، ويَدْعُونَ عَلَى الجَبابِرَةِ فيُقْصَمُونَ ، ويَسْتَسْقُونَ فيُسْقَوْنَ ويَسْأَلُونَ فَتُنْبِتُ الأَرْضُ ، ويَدْعُونَ فَيُدْفَعُ بِهِم أَنْواعُ البَلاءِ)[١].

وأَخْرَجَ أَبُونُعَيْم : (خِيارُ أُمَّتِي في كُلِّ قَرْنٍ خَمْسُمِائَة) ، وهَؤُلاءِ لا يَنْقُصُونَ عَنِ العَدَدِ الَّذى عَلِمْناهُ إِلَى أَنْ يأْتِيَ أَمْرُ اللهِ المُشارُ إِلَيْهِ فى حَدِيث : (لَنْ تَزالَ طائِفَةٌ مِنْ هَذهِ الأُمَّةِ ظاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لا يَضُرُّهُم مَنْ خالَفَهُم حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله)[٢]، وهُوَ الرِّيحُ اللَّيِّنَةُ الَّتى يُقْبَضُ فِيها كُلُّ إِنْسانٍ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ وحِينَئِذٍ تَكُونُ السَّاعَةُ مِنَ النَّاسِ قابَ قَوْسَيْنِ أَو أَدْنَى .

وأَمَّا فَضْلُ الأَوْلِياءِ وثُبُوتُ كَراماتِهِم فَثابِتٌ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّة :

قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[٣]

وقالَ ﷺ : (إِنَّ مِنْ عِبادِ اللهِ عِباداً يَغْبِطُهُم الأَنْبِياءُ والشُّهَداءُ ، قِيلَ مَنْ هُمْ يا رَسُولَ اللهِ لَعَلَّنا نُحِبُّهُم ؟ قالَ : هُمْ قَوْمٌ تَحابُّوا بِنُورِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوالٍ وأَنْسابٍ ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ ، وهُمْ عَلَى مَنابِرَ مِنْ نُورٍ ، لا يَخافُونَ إِذا خافَ النَّاسُ ، ولا يَحْزَنُونَ إِذا حَزِنَ النَّاسُ) ثُمَّ تَلا ﷺ الآيَةَ المَذْكُورَة .[٤]

وظُهُورُ الكَراماتِ عَلَى الأَوْلِياءِ جائِزٌ عَقْلاً وواقِعٌ نَقْلاً :

أَمَّا جَوازُهُ عَقْلاً : فَلأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحِيلٍ فِي قُدْرَةِ اللهِ تَعالَى ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ المُمْكِناتِ ، كَظُهُورِ مُعْجِزاتِ الأَنْبِياءِ ، ولا يَلْزَمُ مِنْ جَوازِها ووُقُوعِها مُحالٌ ، وكُلُّ ما هَذا شَأْنُهُ فَهُو جائِزُ الوقُوعِ ، وهِيَ ثابِتَةٌ لَهُم فِي الحَياةِ وبَعْدَ المَوْتِ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبونُعَيْم وابْنُ عَساكِرَ وغَيْرُهُما مِنْ أَئِمَّةِ الحَديث .
(٢) أَخْرَجَهُ الشَّيْخان .
(٣) سُورَةُ يُونُس من الآيَة ٦٢ .
(٤) أَخْرَجَهُ (النَّسائي) وابْنُ حِبانٍ في صَحِيحِه .

كَما ذَهَبَ إِلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، ولَيْسَ فِي مَذْهَبٍ مِنَ المَذاهِبِ الأَرْبَعَةِ قَوْلٌ بِنَفْيِها بَعْدَ المَوْتِ ، بَلْ ظُهُورُها حِينَئِذٍ أَوْلَى ،لأَنَّ النَّفْسَ حِينَئِذٍ صافِيَةٌ مِنَ الأَكْدارِ ، ولِذا قِيلَ : مَنْ لَمْ تَظْهَرْ كَرامَتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ كَما كانَتْ فِي حَياتِهِ فَلَيْسَ بِصادِقٍ .

والكَرامَةُ : أَمْرٌ خارِقٌ لِلْعادَةِ ، غَيْرُ مَقْرُونٍ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ ولا هُوَ مُقَدِّمَةٌ لَها ، يَظْهَرُ عَلَى يَدِ عَبْدٍ ظاهِرِ الصَّلاحِ ، مُلْتَزِمٍ لِمُتابَعَةِ نَبِيٍّ كُلِّفَ بِشَرِيعَتِهِ ، مَصْحُوبٍ بِصَحِيحِ الاعْتِقادِ والعَمَلِ الصَّالِحِ ، عَلِمَ بِها أَو لَمْ يَعْلَم .

والوَلِيُّ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ إِذِ العِصْمَةُ لِلنَّبِيِّ لا لِلْوَلِيِّ ، بَلْ هُوَ مَحْفُوظٌ ، ومَعْنَى الحِفْظِ فى حَقِّهِ أَنَّهُ لا يَفْعَلُ مَعْصِيَةً ، وإِنْ فَعَلَها نَدِمَ فَوْراً وتابَ تَوْبَةً تامَّةً وعَرَفَ زَلَّةَ نَفْسِه .

وأَمَّا مَنْ دامَ فِعْلُهُ لِلْمَعْصِيَةِ ، أَو كانَ الأَغْلَبَ عَلَيْهِ فَلَيْسَ مِنْ هَؤُلاءِ القَوْمِ ، ولا مِنْ أَتْباعِهِم ، ولَمْ يَشُمَّ شَيْئاً مِنْ رَوائِحِ إِخْوانِهِم .

(١) وأَمَّا وُقُوعُ الكَرامَةِ نَقْلاً فَمِنْهُ أَوَّلاً : ما جاءَ فِي الكِتابِ العَزِيزِ :

مِنْ قِصَّةِ السَّيِّدَةِ (مَرْيَمَ) ووِلادَتِها سَيِّدَنا (عِيسَى) عليه السلام مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ ، وما وَقَعَ لَها فِي كَفالَةِ سَيِّدِنا (زَكَرِيَّا) عليه السلام ،قالَ تَعالَى :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (١) .

وكانَ لا يَدْخُلُ عَلَيْها غَيْرُهُ ، وإِذا خَرَجَ مِنْ عِنْدِها أَغْلَقَ عَلَيْها الأَبْوابَ ، وكانَ يَجِدُ عِنْدَها فاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتاءِ ، وفاكِهَةَ الشِّتاءِ فى الصَّيْف .

وكَذَلِكَ هَزُّ السَّيِّدَةِ (مَرْيَمَ) جِذْعَ النَّخْلَةِ اليابِس ، فاخْضَرَّ وتَساقَطَ مِنْهُ الرُّطَبُ الجَنِيُّ فى غَيْرِ أَوانِهِ ، قالَ تَعالَى :

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران الآيَة ٣٧ .

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾[١].

(٢) قِصَّةُ أَصْحابِ الكَهْفِ : وهُمْ جَماعَةٌ مِنَ المُؤْمِنينَ خافُوا عَلَى إيمانِهِم مِنْ مَلِكِهِم فَخَرَجُوا ودَخَلُوا غاراً فَلَبِثُوا بِلا طَعامٍ ولا شَرابٍ ثَلاثَمِائَةِ سَنَةٍ وتِسْعَ سِنِينَ نِياماً بِلا آفَةٍ ، قالَ تَعالَى :﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾[٢].

(٣) قِصَّةُ آصِف بنِ بَرْخِيا وَزِيرِ سَيِّدِنا (سُلَيْمانَ) عليه السلام فى عَرْشِ بَلْقِيس : وهِيَ لَمَّا رَجَعَت رُسُلُ (بَلْقِيسَ) إِلَيْها مِنْ عِنْدِ سَيِّدِنا (سُلَيْمان) قالَتْ لَهُم : قَدْ عَرَفْتُ واللهِ ماهَذا بِمَلِكٍ وما لَنا بِهِ مِنْ طاقَةٍ ، فَبَعَثَتْ إِلَى سُلَيْمانَ : أَنِّى قادِمَةٌ إِلَيْكَ بِمُلُوكِ قَوْمِي ؛ حَتَّى أَنْظُرَ ما أَمْرُكَ ، وما تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ دِينِكَ ، ثُمَّ أَمَرَتْ بِعَرْشِها ، فَجَعَلَتْهُ داخِلَ سَبْعَةِ أَبْوابٍ داخِلَ القَصْرِ ، وقَصْرُها داخِلُ سَبْعَةِ قُصُورٍ ، وأَغْلَقَتِ الأَبْوابَ ، وجَعَلَتْ عَلَيْها حُرَّاساً يَحْفَظُونَهُ ، ثُمَّ قالَتْ لِمَنْ خَلَّفَتْ عَلَى سُلْطانِها : احْتَفِظْ بِما وَكَّلْتُكَ بِسَرِيرِ مُلْكِي لا يَخْلُصْ إِلَيْهِ أَحَدٌ حَتَّى آتِيَكَ ، ثُمَّ أَمَرَتْ مُنادِياً يُنادِي في أَهْلِ مَمْلَكَتِها تُؤْذِنُهُم بِالرَّحِيلِ ، وتَجَهَّزَتْ لِلْمَسِيرِ في اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً مِنْ مُلُوكِ اليَمَنِ ، تَحْتَ كُلِّ مَلِكٍ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ ، وكانَ (سُلَيْمانُ) عليه السلام رَجُلاً مَهِيباً لا يُبْتَدَأُ بِشَيْءٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذي يَسْأَلُ عَنْهُ ، فَخَرَجَ يَوْماً فَخَرَجَ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ فَرَأَى رَهَجاً[٣] قَرِيباً مِنْهُ فَقالَ : ما هَذا ؟ فَقِيلَ لَهُ : بَلْقِيسُ وقَدْ نَزَلَتْ مِنَّا عَلَى مَسِيرَةِ فَرْسَخٍ ، فَأَقْبَلَ سَيِّدُنا (سُلَيْمانُ) حِينَئِذٍ عَلَى جُنُودِهِ وقالَ لَهُم :

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾[٤].

وذَلِكَ لِيُرِيَها قُدْرَةَ اللهِ تَعالَى بِبَعْضِ ما خَصَّهُ مِنَ العَجائِبِ الدَّالَّةِ عَلَى عِظَمِ القُدْرَةِ وصِدْقِهِ في دَعْوَى النُّبُوَّةِ بِمُعجِزَةٍ يَأْتِي بِها فى عَرْشِها :

---

(١) سُورَةُ مَرْيم الآيَة ٢٥ . (٢) سُورَةُ الكَهْف مِنْ آيَة ١٦ إِلَى ٢٥ .
(٣) الرَّهَج : الغُبار . (٤) سُورَةُ النَّمْل الآيَة ٣٨ .

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾[1] هُـوَ المـارِدُ القَـوِيُّ ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾[2] الَّذِى تَجْلِسُ فيهِ لِلْقَضاءِ ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ ﴾ ، أَي عَلَى الإِتْيانِ بهِ سالِماً ﴿ لَقَوِىٌّ ﴾ عَلَى حَمْلِهِ ﴿ أَمِينٌ ﴾ ، عَلَى ما فيهِ مِنَ الجَواهِرِ وغَيْرِها ؛ قالَ سَيِّدُنا (سُلَيْمانُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ : أُرِيدُ أَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[3] وهُوَ آصِفُ بنُ بَرْخِيا كاتِبُ (سُلَيْمانَ) وكانَ صِدِّيقاً عالِماً بِاسْمِ اللّهِ الأَعْظَمِ الَّذي إِذا دُعِىَ بهِ أَجابَ وإِذا سُئِلَ بهِ أَعْطَى ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ، أَي يَرْجِعَ بَصَرُكَ ثُمَّ قالَ لِسَيِّدِنا (سُليمانَ) مُدَّ عَيْنَيْكَ حَتَّى يَنْتَهِىَ طَرْفُكَ فَمَدَّ (سُلَيْمانُ) عَيْنَيْهِ فَنَظَرَ نَحْوَ اليَمِينِ ، ودَعا (آصِفُ) فَبَعَثَ اللّهُ تَعالَى المَلائِكَةَ فَحَمَلُوا السَّرِيرَ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ يَجِدُّونَ جِدّاً حَتَّى انْحَرَفَتِ الأَرْضُ بِالسَّرِيرِ بَيْنَ يَدْي (سُلَيْمانَ) بِقُدْرَةِ اللّهِ وكانَتِ المَسافَةُ شَهْرَيْنِ مِنَ اليَمَنِ إِلَى فَلَسْطِينَ . ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ ﴾ سُلَيْمانُ ﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ ﴾ شاكِراً لِرَبِّهِ لِما آتاهُ اللّهُ مِنْ هَـذِهِ الخَوارِقِ ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾[4] .

(ثانِياً) ما أَكَّدَتْهُ السُّنَّةُ الصَّحِيحَة :

(١) قِصَّةُ (جُرَيْجٍ) العابِدِ الَّذي كَلَّمَهُ الطِّفْلُ في المَهْدِ ، وهُوَ حَديثٌ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ (البُخارِىُّ) و (مُسْلِمٌ) فى صَحِيحَيْهِما .

(٢) قِصَّةُ الثَّلاثَةِ الَّذينَ دَخَلُوا الغارَ ، وانْفِراجُ الصَّخْرَةِ عَنْهُم بَعْدَ أَنْ سَدَّتْ عَلَيْهِم الباب ، وهُوَ حَديثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

(٣) قِصَّةُ البَقَرَةِ الَّتي كَلَّمَتْ صاحِبَها ، وهُوَ حَديثٌ صَحِيحٌ مَشْهُورٌ ، فَقَدْ رَوَى (سَعِيدُ بنُ المُسَيِّب) عَنْ (أَبِى هُرَيْرَةَ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ (النَّبِىِّ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (بَيْنَما رَجُلٌ راكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْها ، فالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ البَقَرَةُ فَقالَت :

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) سُورَةُ النَّمْلِ آية ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذا ، وإِنَّما خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ ، فَقالَ النَّاسُ : سُبْحانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَتَكَلَّمُ ! فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : آمَنْتُ بِهَذا أَنا وأَبُوبَكْرٍ وعُمَرُ)[1].

ثالِثاً : ما دَلَّتْ عَلَيْهِ آثارُ الصَّحابَةِ الكِرام :

(١) قِصَّةُ (أَبِي بَكْرٍ) رضي الله عنه مَعَ أَضْيافِهِ في تَكْثِيرِ الطَّعامِ ، حَتَّى صارَ بَعْدَ الأَكْلِ أَكْثَرَ مِمَّا كانَ ، وهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ في البُخاري .

(٢) قِصَّةُ (عُمَرَ) رضي الله عنه ، وهُوَ عَلَى مِنْبَرِ المَدينَةِ يُنادِي بِقائِدِهِ : يا سارِيَةُ الجَبَلَ الجَبَل ! وهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

(٣) قِصَّةُ (عُثْمانَ) رضي الله عنه ، مَعَ الرَّجُلِ الَّذى دَخَلَ عَلَيْهِ ، فَأَخْبَرَهُ عَمَّا أَحْدَثَ فى طَرِيقِهِ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى المَرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ ، والحَدِيثُ كَما ذَكَرَهُ التَّاجُ السُّبْكِي في الطَّبَقاتِ وغَيْرُهُ :

(أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى (عُثْمانَ) رضي الله عنه رَجُلٌ ، كانَ قَدْ لَقِيَ امْرَأَةً في الطَّرِيقِ ، فَتَأَمَّلَها ، فَقالَ لَهُ (عُثْمانُ) رضي الله عنه : يَدْخُلُ أَحَدُكُم ، وفِي عَيْنَيْهِ أَثَرُ الزِّنا ؟ فَقالَ الرَّجُلُ : أَوَحْيٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ قالَ : لا ، ولَكِنَّها فِراسَةُ المُؤْمِنِ)

(٤) سَماعُ سَيِّدِنا (عَلِيِّ بنِ أَبِى طالِبٍ) رضي الله عنه كَلامَ المَوْتَى ، كَما أَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ عَنْ (سَعِيدِ بنِ المُسَيِّب) قالَ : (دَخَلْنا مَقابِرَ المَدِينَةِ مَعَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ (عَلِيٍّ) رضي الله عنه، فَنادَى : يا أَهْلَ القُبُورِ السَّلامُ عَلَيْكُم ورَحْمَةُ اللهِ . تُخْبِرونا بِأَخْبارِكُم أَم نُخْبِرُكُم ؟ قالَ : فَسَمِعْنا صَوْتاً : وعَلَيْكُم السَّلامُ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، خَبِّرْنا عَمَّا كانَ بَعْدَنا ، فَقالَ رضي الله عنه: أَمَّا أَزْواجُكُم فَقَدْ تَزَوَّجْنَ ، وأَمَّا أَمْوالُكُم فَقَدِ اقْتُسِمَت ، والأَوْلادُ قَدْ حُشِروا في زُمْرَةِ اليَتامَى ، والبِناءُ الَّذى شَيَّدْتُم فَقَدْ سَكَنَهُ أَعْداؤُكُم ، فَهَذِهِ أَخْبارُ ما عِنْدَنا ، فَما أَخْبارُ ما عِنْدَكُم ؟ فَأَجابَهُ مَيِّتٌ : قَدْ تَخَرَّقَتِ الأَكْفانُ ، وانْتَثَرتِ

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) فى صَحِيحِهِ فى كِتابِ المُزارَعَةِ ، و(مُسْلِمٌ) في كِتابِ فَضائِلِ الصَّحابَةِ ، و(التِّرمِذِيُّ) في كِتابِ المَناقِبِ .

الشُّعُورُ ، وتَقَطَّعَتِ الجُلُودُ ، وسالَتِ الأَحْداقُ عَلَى الخُدودِ ، وسالَتِ المَناخِرُ بِالقِيحِ والصَّدِيدِ ، وما قَدَّمْناهُ وَجَدْناهُ وما خَلَّفْناهُ خَسِرْناهُ ، ونَحْنُ مُرْتَهِنُون .

(٥) قِصَّةُ (عَبَّادِ بن بِشْرٍ) و(أُسَيْد بنِ حُضَيْر) رضي الله عنهما اللَّذيْنِ أَضاءَتْ لَهُما عَصا أَحَدِهِما في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وذَلِكَ عِنْدَما خَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى إذا افْتَرَقَتْ بِهِما الطَّرِيقُ أَضاءَتْ لِلآخَرِ عَصاهُ ، فَمَشى كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما فى ضَوْءِ عَصاهُ حَتَّى بَلَغَ أَهْلَهُ ، وهُوَ حَديثٌ صَحِيح .

(٦) قِصَّةُ (خُبَيْبٍ) رضي الله عنه في قِطْفِ العِنَبِ الَّذى وُجِدَ في يَدِهِ يَأْكُلُهُ فـي غَيْرِ أَوانِهِ ، وهُوَ حَديثٌ في صَحِيح البُخاري .

(٧) قِصَّةُ (سَعْدِبنِ أَبِى وَقَّاص) و(سَعِيدِبنِ زَيْدٍ) رضي الله عنهما ، وهِيَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُما دَعا عَلَى مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ ، فاسْتُجِيبَ لَهُ ، أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ .

(٨) قِصَّةُ عُبُورِ (العَلاءِ بنِ الحَضْرَمِي) رضي الله عنه البَحْرَ عَلَى فَرَسِهِ ، ونَبْعِ الماءِ مِنْ تَحْتِ رَمْلَةٍ بِدُعائِهِ ، أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ في الطَّبَقات .

(٩) قِصَّةُ (خالِد بنِ الوَلِيدِ) رضي الله عنه في شُرْبِهِ السُّمَّ ولَمْ يَضُرَّهُ شَيْئاً ، أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ وأَبُونُعَيْم والطَّبرانِيُّ وابْنُ سَعْدٍ بِإِسْنادٍ صَحِيح .

(١٠) إضاءَةُ أَصابِعِ (حَمْزَةَ الأَسْلَمِي) رضي الله عنه فى لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ .(١)

(١١) قِصَّةُ أُمِّ أَيْمَنَ وكَيْفَ عَطَشَتْ فى طرَيقِ هِجْرَتِها ، فَنَزَلَ عَلَيْها دَلْوٌ مِنَ السَّماءِ فَشَرِبَتْ .

(١٢) سَماعُ بَعْضِ الصَّحابَةِ سُورَةَ المُلْكِ ، مِنْ قَبْرٍ بَعْدَ أَنْ ضُرِبَ خَباءٌفَوْقَهُ (٢)

(١٣) تَسْبِيحُ القَصْعَةِ الَّتي أَكَلَ مِنْها (سَلْمانُ الفارِسِيُّ وأَبو الدَّرْداءِ) رضي الله عنهما وسَماعُهُما التَّسْبِيحَ .(٣)

---

(١) أَخْرَجَهُ البخارى .
(٢) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِيُّ) فى باب فضائِل القُرْآن .
(٣) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ وأَبو نُعَيْم .

(١٤) قِصَّةُ (سَفِينَةَ) ﷺ مَوْلَى (رَسُولِ اللهِ) ﷺ مَعَ الأَسَدِ وكَيْفَ طَأْطَأَ رَأْسَهُ عِنْدَما خاطَبَهُ قائِلاً : أَنا مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ !(١)

هَذا غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ ، وقَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا ورَدَ عَنْ كَراماتِ صَحابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

ثُمَّ تَوالَى وُرُودُ الكَراماتِ الكَثِيرَةِ عَلَى يَدِ الأَوْلياءِ في عَهْدِ التَّابِعِينَ وتابِعِي التَّابِعينَ إِلَى يَوْمِنا هَذا ، مِمَّا يَصْعُبُ عَدُّهُ ، ويَضِيقُ حَصْرُهُ ؛ وقَدْ أَلَّفَ العُلَماءُ في ذَلِكَ مُجَلَّداتٍ كَثِيرَةً ، وصَنَّفَ أَكابِرُ الأَئِمَّةِ مِنْهُم مُصَنَّفاتٍ في إِثْباتِ الكَرامَةِ لِلأَوْلِياءِ مِنْهُم : فَخْرُ الدِّينِ الرَّازي ، وأَبُو بَكْرٍ الباقَلَّاني ، وإِمامُ الحَرَمَيْنِ ، وأَبُو بَكْرِ بنُ فَوْرَك ، وحُجَّةُ الإِسْلامِ الغَزالِي ، وناصِرُ الدِّينِ البَيْضاوِي ، وحافِظُ الدِّينِ النَّسَفِي ، وتاجُ الدِّينِ السُّبْكِي ، وأَبُو بَكْرٍ الأَشْعَري وأَبُو القاسِمِ القُشَيْرِي ، والنَّوَوِيُّ ، وعَبْدُاللهِ اليافِعِيُّ ، ويُوسُفُ النَّبهانِي ، وغَيْرُهُم مِنَ العُلَماءِ المُحَقِّقِينَ الَّذِينَ لا يُحْصَى عَدَدُهُم ، وصارَ ذَلِكَ عِلْماً قَوِيًّا ويَقِيناً ثابِتاً ، لاتَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الشُّكُوكُ أَو الشُّبُهاتُ ، ولا يُنْكِرُهُ إِلَّا المَحْرُومُ المَطْرُودُ عَنْ بابِ الفَضْلِ والإِحْسانِ ، قالَ الإِمامُ اللَّقَّاني :

وأَثْبِتَنْ لِلأَوْلِيا الكَرامَة ❋ ومَنْ نَفاها فانْبِذَنْ كَلامَه

أَي اطْرَحْ كَلامَ مَنْ يَنْفِيها مِنْ بَعْضِ المُعْتَزِلَةِ ، ومَنْ جَرَى عَلَى طَرِيقَتِهِم .

وقَدْ يَتَساءَلُ سائِلٌ : لِماذا كانَتْ كَراماتُ الصَّحابَةِ عَلَى كَثْرَتِها أَقَلَّ مِنْ كَراماتِ الأَوْلياءِ الَّذِينَ جاءُوا بَعْدَ عَصْرِ الصَّحابَةِ ؟ !! ويُجِيبُ عَلَى ذَلِكَ تاجُ الدِّينِ السُّبْكِيُّ في الطَّبَقاتِ بِقَوْلِهِ : (الجَوابُ : ما أَجابَ بِهِ الإِمامُ الجَلِيلُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلَ ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقالَ : أُولَئِكَ كانَ إِيمانُهُم قَوِيًّا ، فَما احْتاجُوا إِلَى زِيادَةِ شَيْءٍ يَقْوُونَ بِهِ ، وغَيْرُهُم كانَ إِيمانُهُم ضَعِيفاً لَمْ

(١) أَخْرَجَهُ (الحاكِمُ) في المُسْتَدْرَك ، و(أبو نُعَيم) في الحِلْيَة .

يَبْلُغوا إيمانَ أُولَئِكَ فَقَوُوا بِإظْهارِ الكَراماتِ لَهُم)[(١)].

الحِكْمَةُ مِنْ إجْراءِ الكَراماتِ عَلَى يَدِ الأَوْلِياء :

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعالَى أَنْ يُكْرِمَ أَحْبابَهُ وأَوْلِياءَهُ بِأَنْواعٍ مِنْ خَوارِقِ العاداتِ تَكْرِيماً لَهُم عَلَى إيمانِهِم وإِخْلاصِهِم ، وتَأْيِيداً لَهُم في جِهادِهِم ونُصْرَتِهِم لِدِينِ اللهِ ، وإِظْهاراً لِقُدْرَةِ اللهِ تَعالَى ، لِيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً ، وبَياناً لِلنَّاسِ أَنَّ القَوانِينَ الطَّبِيعِيَّةَ والنَّوامِيسَ الكَوْنِيَّةَ إِنَّما هِيَ مِنْ صُنْعِ اللهِ وتَقْدِيرِهِ ، وأَنَّ الأَسْبابَ لا تُؤَثِّرُ بِذاتِها ، بَلِ اللهُ تَعالَى يَخْلُقُ النَّتائِجَ عِنْدَ الأَسْبابِ لا بِها ، كَما هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ .

وقَدْ يَقُولُ مُعْتَرِضٌ : إِنَّ تَأْيِيدَ الحَقِّ ونَشْرَ دِينِ اللهِ لا يَكُونُ بِخَوارِقِ العاداتِ ، بَلْ يَكُونُ بِإقامَةِ الدَّليلِ المَنْطِقيِّ والبُرْهانِ العَقْلِيِّ .

فَنَقُولُ : نَعَم لابُدَّ مِنْ نَشْرِ الإِسْلامِ بِتَأْيِيدِ العَقْلِ السَّلِيمِ والمَنْطِقِ الصَّحِيحِ والحُجَّةِ الدَّامِغَةِ ، ولَكِنَّ التَّعَصُّبَ والعِنادَ يَدْعُوانِ إِلَى أَنْ تُخْرَقَ العاداتُ بِالكَراماتِ كَما اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُؤَيِّدَ أَنْبِياءَهُ ورُسُلَهُ بِالمُعْجِزاتِ إِظْهاراً لِصِدْقِهِم ، وتَأْيِيداً لَهُم في دَعْوَتِهِم ، وحَمْلاً لِلْعُقُولِ المُتَحَجِّرَةِ والقُلُوبِ المُقْفَلَةِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ جُمُودِها ، وتَتَحَرَّرَ مِنْ تَعَصُّبِها ، فَتُفَكِّرَ تَفْكِيراً سَلِيماً مُسْتَقِيماً يُوَصِّلُها إِلَى الإِيمانِ الرَّاسِخِ ، واليَقِينِ الجازِمِ .

ومِنْ هُنا يَتَّضِحُ أَنَّ الكَرامَةَ والمُعْجِزَةَ تَلْتَقِيانِ في بَعْضِ الحِكَمِ والمَقاصِدِ ، إِلاَّ أَنَّ الفارِقَ بَيْنَهُما : أَنَّ المُعْجِزَةَ لا تَكُونُ إِلاَّ لِلأَنْبِياءِ عَلَيْهِم السَّلامُ ، وأَنَّها تَظْهَرُ عَلَى يَدِ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ وأَيْضاً فَإِنَّ الرَّسُولَ يَجِبُ عَلَيْهِ إِظْهارُ المُعْجِزَةِ مِنْ أَجْلِ دَعْواهُ إِذا تَوَقَّفَ إِيمانُ قَوْمِهِ عَلَيْها ، بِخِلافِ الوَلِيِّ ، فَإِنَّهُ لا يَجِبُ إِظْهارُ الكَرامَةِ ، لأَنَّهُ مُتَّبِعٌ ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى اللهِ بِحِكايَةِ دَعْوَةِ

(١) جامِعُ كَراماتِ الأَوْلِياءِ لـ(يُوسُفَ إِسْماعِيلَ النَّبْهاني) ج ١ ص ٢٠ .

الرَّسُولِ الَّذى ثَبَتَ عِنْدَهُ رِسالَتُهُ بِلِسانِهِ لا بِلِسانٍ يُحْدِثُهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ ، ومِنْ هُنا ، فَإِنَّ كُلَّ كَرامَةٍ لِوَلِيٍّ مُعْجِزَةٌ لِنَبِيٍّ .

الفَرْقُ بَيْنَ الكَرامَةِ والاسْتِدْراج :

لابُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ إِلَى الفَرْقِ بَيْنَ الكَرامَةِ والاسْتِدْراجِ . وذَلِكَ لِأَنَّنا نُشاهِدُ بَعْضَ الفَسَقَةِ المَنْسُوبِينَ للإِسْلامِ تَجْري عَلَى يَدَيْهِم خَوارِقُ العاداتِ ؛ مَعَ أَنَّهُم مُجاهِرُونَ بِالمَعْصِيَةِ ، مُنْحَرِفُونَ عَنْ دِينِ اللهِ تَعالَى .

فالكَرامَةُ لا تَكُونُ إِلاَّ عَلَى يَدِ وَلِيٍّ ، وهُوَ صاحِبُ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ ، المُواظِبُ عَلَى الطَّاعاتِ ، المُجْتَنِبُ لِلْمَعاصِي ، المُعْرِضُ عَنِ الانْهِماكِ في اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ ، وهُوَ الَّذى قالَ اللهُ تَعالَى فِيه : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ ﴾.[1]

وأَمَّا ما يَجْرِي عَلَى يَدِ الزَّنادِقَةِ والفَسَقَةِ مِنَ الخَوارِقِ ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ (الاسْتِدْراج) .

ثُمَّ إِنَّ الوَلِيَّ لا يَسْكُنُ إِلَى الكَرامَةِ ، ولا يَتَفاخَرُ بِها عَلَى غَيْرِهِ ، قالَ العَلاَّمَةُ (فَخْرُ الدِّينِ الرَّازي) في تَفْسِيرِهِ الكَبِير : (إِنَّ صاحِبَ الكَرامَةِ لا يَسْتَأْنِسُ بِتِلْكَ الكَرامَةِ ، بَلْ عِنْدَ ظُهُورِ الكَرامَةِ يَصِيرُ خَوْفُهُ مِنَ اللهِ تَعالَى أَشَدُّ ، وحَذَرُهُ مِنْ قَهْرِ اللهِ أَقْوَى ، فَإِنَّهُ يَخافُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِن بابِ الاسْتِدْراجِ ، وأَمَّا صاحِبُ الاسْتِدْراج : فَإِنَّهُ يَسْتَأْنِسُ بِذَلِكَ الَّذي يَظْهَرُ عَلَيْهِ ، ويَظُنُّ أَنَّهُ إِنَّما وَجَدَ تِلْكَ الكَرامَةَ لِأَنَّهُ كانَ مُسْتَحِقّاً لَها ، وحِينَئِذٍ يَحْتَقِرُ غَيْرَهُ ، ويَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ ، ويَحْصُلُ لَهُ أَمْنٌ مِنْ مَكْرِ اللهِ وعِقابِهِ ، ولا يَخافُ سُوءَ العاقِبَةِ ، فَإِذا ظَهَرَ شَيْءٌ مِنْ هَذهِ الأَحْوالِ عَلَى صاحِبِ الكَرامَةِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّها كانَتْ اسْتِدْراجاً لا كَرامَةً ، فَلِهَذا قالَ المُحَقِّقُونَ : والَّذي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاسْتِئْناسَ

---

(١) سُورَةُ يُونُس آية ٦٢ ـ ٦٣ .

بِالكَرامَةِ قاطِعٌ عَنِ الطَّرِيقِ وُجُوهٌ : ثُمَّ ذَكَرَها حَتَّى عَدَّ إِحْدَى عَشَرَةَ حُجَّةً ، نَذْكُرُ مِنها واحِدَةً : (إِنَّ مَنِ اعْتَقَدَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ صارَ مُسْتَحِقّاً لِكَرامَةٍ بِسَبَبِ عَمَلِهِ ، حَصَلَ لِعَمَلِهِ وَقْعٌ عَظِيمٌ فِي قَلْبِهِ ، ومَنْ كانَ لِعَمَلِهِ وَقْعٌ عِنْدَهُ كانَ جاهِلاً ولَوْ عَرَفَ رَبَّهُ لَعَلِمَ أَنَّ كُلَّ طاعاتِ الخَلْقِ فِي جَنْبِ جَلالِ اللهِ تَقْصِيرٌ ، وكُلَّ شُكْرِهِم فِي جَنْبِ آلائِهِ ونَعْمائِهِ قُصُورٌ ، وكُلَّ مَعارِفِهِم وعُلُومِهِم فِي مُقابَلَةِ عِزَّتِهِ حَيْرَةٌ وجَهْلٌ ،رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الكُتُبِ أَنَّهُ قَرَأَ المُقْرِىءُ فِي مَجْلِسِ الأُسْتاذ (أَبِي عَلِيٍّ الدَّقَّاق) قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[1] ، قَالَ : عَلامَةُ أَنَّ الحَقَّ رَفَعَ عَمَلَكَ أَن لا يَبْقَى عِنْدَكَ (أَي عَمَلُكَ) فَإِنْ بَقِيَ عَمَلُكَ فِي نَظَرِكَ فَهُوَ مَدْفُوعٌ وإِنْ لَمْ يَبْقَ مَعَكَ فَهُوَ مَرْفُوعٌ)[2].

وعَلَى هَذا فَإِنَّنا حِينَ نَرَى أَحَداً مِنَ النَّاسِ يَأْتِي بِخَوارِقِ العاداتِ لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْكُمَ عَلَيْهِ بِالوِلايَةِ ، ولا يُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَ عَمَلَهُ هَذا كَرامَةً حَتَّى نَرَى سُلُوكَهُ وتَمَسُّكَهُ بِشَرِيعَةِ اللهِ ، قالَ أَبُو يَزِيدٍ البَسْطامِي : (لَوْ أَنَّ رَجُلاً بَسَطَ مُصَلَّاهُ عَلَى الماءِ ، وتَرَبَّعَ فِي الهَواءِ ، فَلا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا كَيْفَ تَجِدُونَهُ فِي الأَمْرِ والنَّهْيِ)[3].

❁ زِيادَةُ بَيانٍ عَنْ مَوْقِفِ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الكَرامات :

يَدَّعِي بَعْضُ المُنْحَرِفِينَ عَنْ طَرِيقِ الهُدَى أَنَّ مَقْصِدَ الصُّوفِيَّةِ مِنْ سَيْرِهِمْ هُوَ الوُصُولُ إِلَى الكَراماتِ ، وهُمْ فِي هَذا إِنَّما يُتَرْجِمُونَ عَمَّا فِي نُفُوسِهِم مِنْ أَمْراضٍ وعِلَلٍ دَفِينَةٍ ، فَإِنَّهُ لا يَخْفَى عَلَى كُلِّ إِنْسانٍ مُؤْمِنٍ صادِقٍ أَنَّ جُلَّ اهْتِمامِ الصُّوفِيَّةِ هُوَ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وتَخْلِيصُها مِنْ صِفاتِها المَذْمُومَةِ كالرِّياءِ والنِّفاقِ وتَحْلِيَتُها بِالصِّفاتِ العالِيَةِ المَحْمُودَةِ ، وأَنَّهُم يَسْتَتِرُونَ مِنَ الكَرامَةِ بُعْداً عَنْ شُبْهَةِ الرِّياء .

---

(١) سورة فاطر آية ١٠ . (٢) تَفْسِيرُ الرَّازِي ج ٥ ص ٦٩٢ .
(٣) اللُّمَعُ لـ(الطُّوسِي) ص ٤٠٠ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو عَبْدِاللهِ القُرَشِي : (مَنْ لَمْ يَكُنْ كارِهاً لِظُهُورِالآياتِ وخَوارِقِ العاداتِ مِنْهُ كَراهِيَةَ الخَلْقِ لِظُهُورِ المَعاصِي فَهُوَ في حَقِّهِ حِجابٌ ، وسَتْرُها عَلَيْهِ رَحْمَةٌ، فَإِنَّ مَنْ خَرَقَ عَوائِدَ نَفْسِهِ لا يُرِيدُ ظُهُورَ شَيْءٍ مِنَ الآياتِ وخَوارِقِ العاداتِ لَهُ ، بَلْ تَكُونُ نَفْسُهُ عِنْدَهُ أَقَلَّ وأَحْقَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِذا فَنِيَ عَنْ إرادَتِهِ جُمْلَةً فَكان لَهُ تَحَقُّقٌ في رُؤْيَةِ نَفْسِهِ بِعَيْنِ الحَقارَةِ والذِّلَّةِ ، حَصَلَتْ لَهُ أَهْلِيَّةُ وُرُودِ الأَلْطافِ ، والتَّحَقُّقِ بِمَراتِبِ الصِّدِّيقِينَ)[1].

قالَ الشَّيْخُ عَلِيُّ الخَوَّاصُ : (الكُمَّلُ يَخافُونَ مِنْ وقُوعِ الكَراماتِ عَلَى أَيْدِيهِم ، ويَزْدادُونَ بِها وَجَلاً وخَوْفاً لاحْتِمالِ أَنْ تَكُونَ اسْتِدْراجاً)[2].

ثُمَّ إِنَّ الصُّوفِيَّةَ يَمْنَعُونَ إِظْهارَ الكَرامَةِ إِلاَّ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ ، كَنُصْرَةِ شَرِيعَةِ اللهِ أَمامَ الكافِرِينَ والمُعانِدِينَ ، ومِثالُ ذَلِكَ ماحَدَثَ مَعَ الشَّيْخِ مُحْيي الدِّينِ بنِ عَرَبي في قِصَّتِهِ مَعَ الفَيْلَسُوفِ ، وهُوَ يَرْوِيها لَنا بِقَوْلِهِ : (حَضَرَ عِنْدَنا سَنَةَ سِتٍّ وثَمانِينَ وخَمْسِمائَةٍ فَيْلَسُوفٌ يُنْكِرُ النُّبُوَّةَ عَلَى الحَدِّ الَّذي يُثْبِتُها المُسْلِمُونَ ، ويُنْكِرُ ما جاءَتْ بِهِ الأَنْبِياءُ مِنْ خَرْقِ العَوائِدِ وأَنَّ الحَقائِقَ لا تَتَبَدَّلُ ، وكانَ زَمَنُ البَرْدِ والشِّتاءِ وبَيْنَ أَيْدينا مَنْقَلٌ عَظِيمٌ يَشْتَعِلُ ناراً ، فَقالَ المُنْكِرُ المُكَذِّبُ : إِنَّ العامَّةَ تَقُولُ : إِنَّ (إِبْراهِيمَ) عليه السلام أُلْقِيَ في النَّارِ فَلَمْ تَحْرِقْهُ ، والنَّارُ مُحْرِقَةٌ بِطَبْعِها الجِسُومَ القابِلَةَ لِلاحْتِراقِ ، وإِنَّما كانَتِ النَّارُ المَذْكُورَةُ في القُرْآنِ في قِصَّةِ إِبْراهِيمَ عِبارَةً عَنْ غَضَبِ نُمْرُودَ وحَنَقِهِ ، فَهِيَ نارُ الغَضَبِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَوْلِهِ قالَ لَهُ بَعْضُ الحاضِرِينَ (أَي الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ نَفْسُهُ) : فَإِنْ أَرَيْتُكَ أَنا صِدْقَ اللهِ في ظاهِرِ ما قالَهُ في النَّارِ أَنَّها لَمْ تَحْرِقْ (إِبْراهِيمَ) عليه السلام ، وأَنَّ اللهَ جَعَلَها عَلَيْهِ كَما قالَ بَرْداً وسَلاماً ، وأَنا أَقُومُ لَكَ في هَذا المَقامِ مَقامَ إِبْراهِيمَ في الذَّبِّ عَنْهُ ، فَقالَ المُنْكِرُ : هَذا لا

---

(١) نُورُ التَّحْقِيقِ لـ(حامد صَقْر) ص ١٢٧ .
(٢) اليَواقِيتُ والجَواهِرُ لـ(عَبْدِالوَهَّابِ الشَّعْراني) ج ٢ ص ١١٣ .

يَكُونُ ، فَقالَ لَهُ : أَلَيسَتْ هَذهِ النَّارُ المُحْرِقَةُ ؟ قالَ : نَعَم ، فَقالَ : تَراها فى نَفسِكَ بِإذْنِ اللهِ ، ثُمَّ أَلْقَى النَّارَ الَّتي في المَنْقَلِ في حِجْرِ المُنْكِرِ ، وبَقِيَتْ عَلَى ثِيابِهِ مُدَّةً يُقَلِّبُها المُنْكِرُ بِيَدِهِ ، فَلَمَّا رَآها لَمْ تَحْرِقْهُ تَعَجَّبَ ، ثُمَّ رَدَّها إِلَى المَنْقَلِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : قَرِّبْ يَدَكَ أَيْضاً مِنْها ، فَقَرَّبَ يَدَهُ فَأَحْرَقَتْهُ ، فَقالَ لَهُ : هَكَذا كانَ الأَمْرُ ، وهِيَ مَأْمُورَةٌ ، تَحْرِقُ بِالأَمْرِ وتَتْرُكُ الإِحْراقَ كَذَلِكَ ، واللهُ تَعالَى الفاعِلُ لِما يَشاءُ ، فَأَسْلَمَ ذَلِكَ المُنْكِرُ واعْتَرَفَ).[1]

وهُمْ كَذَلِكَ يُظْهِرونَها لإِبْطالِ سِحْرِ الكافِرينَ والضَّالِّينَ أَو الفَسَقَةِ المُشَعْوِذِينَ الَّذينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُضِلُّوا النَّاسَ عَنْ دِينِهِم ويُشَكِّكُوهُم فى عَقائِدِهِم وإِيمانِهِم ، ومِثالُ ذَلِكَ ما ذَكَرَهُ العَلَّامَةُ ابْنُ الهَيْثَمِي في الفَتاوِي الحَدِيثِيَّةِ مِنْ أَنَّ صُوفِيَّاً ناظَرَ بَرْهَمِيَّاً ، (والبَراهِمَةُ قَوْمٌ تَظْهَرُ لَهُم خَوارِقُ لِمَزِيدِ الرِّياضات) ، فَطارَ البَرْهَمِيُّ في الجَوِّ ، فارتَفَعَتْ إِلَيْهِ نَعْلُ الشَّيْخِ ولَمْ تَزَلْ تَضْرِبُ رَأْسَهُ وتَصْفَعُهُ حَتَّى وَقَعَ عَلَى الأَرْضِ مَنْكُوساً عَلَى رَأْسِهِ بَيْنَ يَدَي الشَّيْخِ والنَّاسُ يَنْظُرونَ.[2]

ثُمَّ إِنَّ الصُّوفِيَّةَ يَعْتَبِرُونَ أَنَّ أَعْظَمَ الكَراماتِ هِيَ الاسْتِقامَةُ عَلَى شَرْعِ اللهِ تَعالَى ، قالَ (أَبُو القاسِمِ القُشَيْرِي) رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في رِسالَتِهِ :

(واعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَجَلِّ الكَراماتِ الَّتى تَكُونُ لِلأَوْلِياءِ دَوامُ التَّوفِيقِ لِلطَّاعاتِ ، والحِفْظُ مِنَ المَعاصِي والمُخالَفات).[3]

وذُكِرَ عِنْدَ (سَهْلِ بنِ عَبْدِاللهِ التَّسْتَرِي) الكَراماتُ فقالَ :

(وما الآياتُ وما الكَراماتُ ؟! أَشْياءُ تَنْقَضِي لِوَقْتِها ، ولَكِنَّ أَكْبَرَ الكَراماتِ أَنْ تُبَدِّلَ خُلُقاً مَذْمُوماً مِنْ أَخْلاقِ نَفْسِكَ بِخُلُقٍ مَحْمُود).[4]

وقالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ الشَّاذُلي : (الكَرامَةُ الحَقِيقِيَّةُ إِنَّما هِيَ حُصُولُ

---

(١) الفُتُوحاتُ المَكِّيَّة ج ٢ ص ٣٧١ .
(٢) الفتاوىَ الحديثِيَّةُ لِـ(ابن حَجَر) ص ٢٢٢.
(٣) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّةُ ص ١٦٠ .
(٤) كِتابُ اللُّمَعِ لـ(الطُّوسِي) ص ٤٠٠ .

الاسْتِقامَةِ ، والوصُولُ إلَى كَمالِها ، ومَرْجِعُها أَمْران : صِحَّةُ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجَلَّ ، واتِّباعُ ما جاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ظاهِراً وباطِناً ؛ فالواجِبُ عَلَى العَبْدِ أَلاَّ يَحْرِصَ إلاَّ عَلَيْهِما ولا تَكُونَ لَهُ هِمَّةٌ إلاَّ في الوصُولِ إلَيْهِما ، وأَمَّا الكَرامَةُ بِمَعْنَى خَرْقِ العادَةِ فَلا عِبْرَةَ بِها عِنْدَ المُحَقِّقِينَ ، إذْ قَدْ يُرْزَقُ بِها مَنْ لَمْ تَكْتَمِلِ اسْتِقامَتُهُ ، وقَدْ يُرْزَقُ بِها المُسْتَدْرَجُونَ) .

وقالَ : (إنَّما هِيَ كَرامَتانِ جامِعَتانِ مُحِيطَتانِ : كَرامَةُ الإيمانِ بِمَزِيدِ الإيقانِ وشُهُودِ العَيانِ ، وكَرامَةُ العَمَلِ عَلَى الاقْتِداءِ والمُتابَعَةِ ومُجانَبَةِ الدَّعاوِي والمُخادَعَةِ ، فَمَنْ أُعْطِيَهُما ثُمَّ جَعَلَ يَشْتاقُ إلَى غَيْرِهِما فَهُوَ عَبْدٌ مُفْتَرٍ كَذَّابٌ لَيْسَ ذا حَظٍّ في العِلْمِ والعَمَلِ بِالصَّوابِ ، كَمَنْ أُكْرِمَ بِشُهُودِ المَلِكِ عَلَى نَعْتِ الرِّضا فَجَعَلَ يَشْتاقُ إلَى سِياسَةِ الدَّوابِّ وخِلَعِ الرِّضا)[١] .

وقالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ بنُ عَرَبِي : (واعْلَمْ أَنَّ الكَرامَةَ عَلَى قِسْمَيْنِ : حِسِّيَّةٌ ومَعْنَوِيَّةٌ ، ولا تَعْرِفُ العامَّةُ إلاَّ الحِسِّيَّةَ ، مِثْلَ الكَلامِ عَلَى الخاطِرِ ، والإخْبارِ بِالمُغَيَّباتِ الماضِيَةِ والكائِنَةِ والآتِيَةِ ، والأَخْذِ مِنَ الكَوْنِ ، والمَشْيِ عَلَى الماءِ ، واخْتِراقِ الهَواءِ ، وطَيِّ الأَرْضِ ، والاحْتِجابِ عَنِ الأَبْصارِ ، وإجابَةِ الدُّعاءِ في الحالِ ، ونَحْوِ ذَلِكَ ، فالعامَّةُ لا تَعْرِفُ الكَراماتِ إلاَّ مِثْلَ هَذا . وأَمَّا الكَرامَةُ المَعْنَوِيَّةُ فَلا يَعْرِفُها إلاَّ الخَواصُّ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالَى ، وهِيَ أَنْ يُحْفَظَ عَلَى العَبْدِ آدابُ الشَّرِيعَةِ وأَنَّ يُوَفَّقَ لِفِعْلِ مَكارِمِ الأَخْلاقِ واجْتِنابِ سَفاسِفِها ، والمُحافَظَةِ عَلَى أَداءِ الواجِباتِ مُطْلَقاً في أَوْقاتِها ، والمُسارَعَةِ إلَى الخَيْراتِ ، وإزالَةِ الغِلِّ والحِقْدِ مِنْ صَدْرِهِ لِلنَّاسِ والحَسَدِ وسُوءِ الظَّنِّ ، وطَهارَةِ القَلْبِ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ مَذْمُومَةٍ ، وتَحْلِيَتِهِ بِالمُراقَبَةِ مَعَ الأَنْفاسِ ، ومُراعاةِ حُقُوقِ اللهِ تَعالَى فى نَفْسِهِ وفي الأَشْياءِ ، وتَفَقُّدِ آثارِ رَبِّهِ

---

(١) نُورُ التَّحقِيق ص ١٢٨ .

فى قَلْبِهِ ، ومُراعاةِ أَنْفاسِهِ في دُخُولِها وخُروجِها ، فَيَتَلَقَّاها بِالأَدَبِ إذا وَرَدَتْ عَلَيْهِ ويُخْرِجُها وعَلَيْهِ حُلَّةُ الحُضُورِ مَعَ اللهِ تَعالَى ، فَهَذِهِ كُلُّها عِنْدَنا كَراماتُ الأَوْلِياءِ المَعْنَوِيَّةُ الَّتي لا يَدْخُلُها مَكْرٌ ولا اسْتِدْراجٌ)[١].

ثُمَّ إِنَّ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ لا يَعْتَبِرُونَ ظُهورَ الكَراماتِ عَلَى يَدِ الوَلِيِّ دَليلاً عَلَى أَفْضَلِيَّتِهِ عَلَى غَيْرِهِ ، قالَ الإمامُ اليافِعِي : (لا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَنْ لَهُ كَرامَةٌ مِنَ الأَوْلِياءِ أَفْضَلَ مِنْ كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ كَرامَةٌ مِنْهُم ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُ مَنْ لَيْسَ لَهُ كَرامَةٌ مِنْهُم أَفْضَلَ مِنْ بَعْضِ مَنْ لَهُ كَرامَةٌ ، لِأَنَّ الكَرامَةَ قَدْ تَكُونُ لِتَقْوِيَةِ يقينِ صاحِبِها ، ودَلِيلاً عَلَى صِدْقِهِ وعَلَى فَضْلِهِ لا عَلَى أَفْضَلِيَّتِهِ ، وإِنَّما الأَفْضَلِيَّةُ تَكُونُ بِقُوَّةِ اليَقِينِ ، وكَمالِ المَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعالَى)[٢].

كَما أَنَّ الصُّوفِيَّةَ لاَ يَعِدُّونَ عَدَمَ ظُهُورِ الكَرامَةِ عَلَى يَدِ الوَلِيِّ الصَّالِحِ دَليلاً عَلَى عَدَمِ وِلايَتِهِ .

قالَ الإمامُ القُشَيْرِىُّ في رِسالَتِهِ : (لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَلِيِّ كَرامَةٌ ظاهِرَةٌ عَلَيْهِ في الدُّنْيا ، لَمْ يَقْدَحْ عَدَمُها في كَوْنِهِ وَلِيّاً)[٣].

وقالَ شَيْخُ الإِسْلامِ (زَكَرِيَّا الأَنْصارِى) في شَرْحِهِ لِرِسالَةِ القُشَيْرِي عِنْدَ هَذا الكَلامِ : (بَلْ قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِمَّنْ ظَهَرَتْ لَهُ كَراماتٌ ، لِأَنَّ الأَفْضَلِيَّةَ إِنَّما هِىَ بِزِيادَةِ اليَقِينِ لا بِظُهُورِ الكَرامَة) .

۞ بَيانُ أَنَّ أَهلَ القُبُورِ أَحْياءٌ كَما أَخْبَرَ بِذَلِكَ سَيِّدُ الأَنْبِياءِ ﷺ :

نَعَم .. إِنَّ كُلَّ أَهْلِ القُبُورِ أَحْياءٌ حَياةً بَرْزَخِيَّةً يَعْلَمُونَ بِها ، ويَعْقِلُونَ ويَسْمَعُونَ ويَرَوْنَ ، ويَعْرِفُونَ مَنْ زارَهُم ومَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِم ، ويَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلامَ ، ويَتَزَاوَرونَ بَيْنَهُم ، ويَتَأَذَّونَ أَو يَسْتَبْشِرونَ بِما يَبْلُغُهُم عَنِ الأَحْياءِ ، ويَتَصَرَّفُونَ

---

(١) الفُتُوحاتُ المَكِّيَّةُ ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٢) نَشْرُ المَحاسِنِ الغالِيَةِ لـ(عَبْدِاللهِ اليافِعي) ص ١١٩ .

(٣) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .

وتَصْدُرُ مِنْهُم أُمورٌ عَظيمَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ تعالَى ، ويَتَنَعَّمُونَ أَو يُعَذَّبُونَ ، وتُعْرَضُ عَلَيْهِم أَعْمالُ الأَحْياءِ فَما رَأَوْهُ مِنْ خَيْرٍ حَمِدُوا اللهَ تَعالَى ، واسْتَبْشَروا ودَعَوا لِفاعِلِهِ بِالزِّيادَةِ والثَّباتِ ، وإِنْ رَأَوا شَرّاً دَعَوا اللهَ لَهُمْ وقالوا : اللهُمَّ راجِعْ بِهِم إِلَى الطَّاعَةِ واهْدِهِمْ كَما هَدَيْتَنا ، فَهُم إِذاً يَعْلَمُونَ مِنْ أَحْوالِهِم ، فَإِنَّ المَوْتَ نَقْلَةٌ مِنْ دارٍ إِلَى دارٍ وقَدْ ثَبَتَ كُلُّ ما ذَكَرْناهُ بِنَصِّ القُرْآنِ الكَريمِ وبِنَصِّ السُّنَّةِ وإِجْماعِ الأُمَّةِ :

فَأَمَّا إِثباتُ حَياةِ الأَمْواتِ : فَتُبَيِّنُهُ جَلِيّاً هَذهِ البَراهِينُ السَّاطِعَةُ :

١ - يَذْكُرُ القُرْآنُ الكَريمُ أَنَّ النَّبِيَّ (صالِحاً) عليه السلام قَدْ خاطبَ قَوْمَهُ بَعْدَ هَلاكِهِم بِالرَّجْفَةِ ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُم يَسْمَعُونَ ويُدْرِكُونَ مَعْنَى خِطابِهِ ، وفي هَذا يَقُولُ اللهُ تَعالَى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

٢ - وكَذَلِكَ خاطبَ (شُعَيْبٌ) عليه السلام قَوْمَهُ الهالِكِينَ في قَوْلِهِ تَعالَى :
﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[2]

ولا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هَذا خِطابَ تَحَسُّرٍ أَو تَأَسُّفٍ ؛ لأَنَّهُ عُدولٌ عَنْ ظاهِرِ المُرادِ القُرْآنِيِّ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، وفيهِ مُخالَفَةٌ لأُصُولِ التَّفْسِيرِ الَّتي أَجْمَعَ عَلَيْها المُفَسِّرون .

٣ - إِنَّ السَّلامَ مِنَ اللهِ عَلَى الأَنْبِياءِ ثابِتٌ عَلَى دَوامِ الدُّهُورِ ، ولا مَعْنَى لَهُ إِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ الأَنْبِياءُ ، ولَمْ يَعُوا مَعْناهُ ، والمُسْلِمُونَ في كُلِّ الأَصْقاعِ يَتْلُونَ عَلَى

(١) سُورَةُ الأَعْراف الآيَة ٧٨ ، ٧٩ . (٢) سُورَةُ الأَعْراف ٩١ - ٩٣ .

الدَّوامِ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ، ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾[١].

٤ - وقَدْ كَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ (القَليبِ) يَوْمَ بَدْرٍ ، كَما ذَكَرَ ابْنُ هِشامٍ وغَيْرُهُ مِنْ أَصْحابِ السِّيَرِ ، فَقالَ بَعْضُ أَصْحابِهِ : يا رَسُولَ اللهِ ، أَتُنادِي قَوْماً مَوْتى ؟ فَقالَ ﷺ : (واللهِ ما أَنْتُم بِأَسْمَعَ لِما أَقُولُ مِنْهُم) .

٥ - وجاءَ في البُخاري عَنْ (أَنَسِ بنِ مالِكٍ) رضي الله عنه أَنَّ (رَسُولَ اللهِ) ﷺ قالَ : (إِنَّ العَبْدَ إِذا وُضِعَ في قَبْرِهِ ، وتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحابُهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعالِهِم ... الحَديث) . وأَوْلَى بِمَنْ يَسْمَعُ قَرْعَ النِّعالِ أَنْ يَسْمَعَ الكَلامَ والأَصْوات .

٦ - وفي البُخاري أَيْضاً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ :

(إِذا وُضِعَتِ الجَنازَةُ واحْتَمَلَها الرِّجالُ عَلَى أَعْناقِهِم . فَإِنْ كانَتْ صالِحَةً قالَتْ : قَدِّمُوني ، وإِنْ كانَتْ غَيْرَ صالِحَةٍ قالَتْ : يا وَيْلي أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِها ، يَسْمَعُ صَوْتَها كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسانُ ، ولَوْ سَمِعَها لَصَعِقَ) .

٧ - ولَوْ لَمْ تَكُنْ الحَياةُ البَرْزَخِيَّةُ ثابِتَةً لَما كانَ لِعَذابِ القَبْرِ ونَعِيمِهِ مَعْنًى ولا مَغْزًى . ولا أَظُنُّ أَنَّ إِنْساناً مُسْلِماً يُمارِي فى وقُوعِ عَذابِ القَبْرِ ونَعِيمِهِ وأَنَّ النَّعِيمَ والعَذابَ عَلَى الرُّوحِ والجَسَدِ ، لأَنَّ فِعْلَ المَعاصِي والطَّاعاتِ بِهِما ، (وأَمَّا نَعِيمُ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ في قُبُورِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ أَحْياءٌ يُصَلُّونَ ووَرَدَ في صِحاحِ الأَحادِيثِ أَنَّهُم يَحِجُّونَ)[٢]، وقَدْ يُكْرِمُ اللهُ بِذَلِكَ بَعْضَ أَهْلِ البَرْزَخِ وإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُم بِذَلِكَ ثَوابٌ لانْقِطاعِ ثَوابِ عَمَلِهِم بِالمَوْتِ ، لَكِنْ إِنَّما يَبْقَى عَمَلُهُم عَلَيْهِم لِيَتَنَعَّمُوا بِذِكْرِ اللهِ وطاعَتِهِ كَما يَتَنَعَّمُ بِذَلِكَ

---

(١) سُورَةُ الصَّافَّات ، وترتيبُ الآيات (٧٩ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٨١) .
(٢) انظُرْ مَثَلاً :السُّنَّةَ لـ(أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلَ) ص ٥٠ ، وأُصُولَ الدِّينِ لِعبْدِ القاهِرِ البَغْدادي ، وغَيْرَها .

المَلائِكَةُ وأَهْلُ الخَيْرِ في الجَنَّةِ ، لأنَّ الذِّكْرَ والطَّاعَةَ في ذاتِهِما أَعْظَمُ عِنْدَ أَهْلِها مِنْ جَميعِ نَعيمِ أَهْلِ الدُّنْيا ولَذَّاتِها ، وحَديثُ : (إذا ماتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ .. الحَديث) ، فَقَدْ قَرَّرَ انْقِطاعَ عَمَلِ المَيِّتِ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَنْفِ اسْتِمْرارَ انْتِفاعِ المَيِّتِ بِعَمَلِ غَيْرِهِ لَهُ ، كالحَجِّ عَنْهُ والدُّعاءِ لَهُ ، والصَّدَقَةِ عَلَيْهِ ، وسَدادِ دُيُونِهِ ، وإنْفاذِ عَهْدِهِ ، وصَلاةِ الجَنازَةِ عَلَيْهِ ، مِمَّا جاءَ بِالنَّصِّ في السُّنَّةِ الصَّحيحَةِ ، وهُوَ كَثيرٌ لا خِلافَ عَلَيْه .

وأَمَّا عَذابُ القَبْرِ لِبَعْضِ المَوْتَى فَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعالَى عَنْ آلِ فِرْعَوْنَ فَقالَ : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾[1]، واتَّفَقَ جُمْلَةُ المُفَسِّرينَ عَلَى أَنَّ الزَّمَنَ المُرادَ هُوَ ما قَبْلَ القِيامَةِ ، أَى في القَبْرِ وقالَ ﷺ : (لَوْلا أَنْ لا تَدافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُم مِنْ عَذابِ القَبْرِ ما أَسْمَعُ) -أَخْرَجَهُ مُسْلِم .

وأَمَّا مَعْرِفَةُ المَوْتَى بِزِيارَةِ الأَحْياءِ والاسْتِبْشارِ بِهِم ، فَمَنْ (عائِشَةَ) رضي الله عنها قالَت : (قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (ما مِنْ عَبْدٍ يَزورُ قَبْرَ أَخيهِ ويَجْلِسُ عِنْدَهُ إلاَّ اسْتَأْنَسَ بِهِ ورَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ)[2]، وقالَ ﷺ : (إذا مَرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرٍ لا يَعْرِفُهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ)[3]، أَمَّا تَزاوُرُ المَوْتَى وتَلاقِيهِم فَقَدْ قالَ ﷺ (حَسِّنُوا أَكْفانَ مَوْتاكُم فَإِنَّهُم يَتَباهَونَ ويَتَزاوَرُونَ في قُبُورِهِم)[4].

وأَمَّا تَأَذِّي المَيِّتِ بِما يَبْلُغُهُ عَنِ الأَحْياءِ فَقَدْ قالَ ﷺ :

(إنَّ المَيِّتَ يُؤْذِيهِ في قَبْرِهِ ما يُؤْذِيهِ فى بَيْتِهِ)[5].

وأَمَّا تَصَرُّفُ المَوْتَى وصُدورُ أُمُورٍ مِنْهُم بِقُدْرَةِ اللهِ تَعالَى ، فَقَدْ رُوِىَ أَنَّهُ بَعْدَ اسْتِشْهادِ سَيِّدِنا (جَعْفَرَ بنِ أَبِى طالِبٍ) رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (عَرَفْتُ جَعْفَراً في رِفْقَةٍ مِنَ المَلائِكَةِ يُبَشِّرُونَ أَهْلَ بِيشَةَ بِالمَطَر) ،

---

(١) سُورَةُ غافِرٍ مِنَ الآيَة ٤٦ .

(٢) أَخْرَجَهُ الخَطِيبُ وابْنُ عَساكر .

(٣) أَخْرَجَهُ البَيْهقِيُّ وابْنُ أَبى الدُّنْيا .

(٤) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ .

(٥) أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمى .

وبِيشَةُ : بَلْدَةٌ عَلَى حُدودِ اليَمَن .

وأَمَّا عَرْضُ أَعْمالِ الأَحْياءِ عَلَى المَوْتَى فَقَدْ قالَ ﷺ :

(تُعْرَضُ أَعْمالُكُم عَلَى المَوْتَى ، فَإِنْ رَأَوا حَسَناً اسْتَبْشَروا وإِنْ رَأَوا سُوءاً قالوا : اللَّهُمَّ راجِعْ بِهِم)[1].

وأَمَّا عِلْمُهُم بِأَحْوالِ أَهْلِ الدُّنْيا ورُؤْيَتُهُم لَهُم فَقَد قالَ ﷺ :

(إِنَّ المَيِّتَ يَعْرِفُ مَنْ يَحْمِلُهُ ومَنْ يُغَسِّلُهُ ومَنْ يُدْلِيهِ في قَبْرِه)[2] .

وإِذا ثَبَتَ لَدَيْنا بَعْدَ ذلِكَ كُلِّهِ أَنَّ المَوْتَ لَيْسَ انْتِهاءً لِلْإِنْسانِ وإِنَّما هُوَ انْتِقالٌ وأَنَّ المَوْتَى في قُبُورِهِم أَحْياءٌ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ بَيْنَ نَبِيٍّ وشَهِيدٍ وصالِحٍ وسِوَى ذَلِكَ وإِنَّما الفَرْقُ في طَبِيعَةِ الحَياةِ وحالِها ، فَهِيَ إِمَّا حَياةُ نَعِيمٍ أَو حَياةُ جَحِيمٍ ، وإِذا سَلَّمْنا بِذَلِكَ كُلِّهِ ، عَلِمْنا أَنَّ المُتَوَسَّلَ بِهِ نَبِيّاً كانَ أَو صالِحاً يحِسُّ بِزائِرِيهِ ويَعِي وُجُودَهُم (مَعَ مُراعاةِ الفارِقِ بَيْنَ طَبِيعَةِ حِسِّ أَهْلِ الدُّنْيا وطَبِيعَةِ حِسِّ أَهْلِ البَرْزَخِ ، إِذِ العالَمانِ مُتَغايِران) ، وإِذا تَحَقَّقَ هَذا كانَ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ بِطَلَبِ الشَّفاعَةِ والوَسِيلَةِ أَمْراً جائِزاً عَقْلاً وإِيماناً ، وتَدْخُلُ القَضِيَّةُ حَيِّزَ الواقِعِ والمَشْروعِ إِذا عَلِمْنا أَنَّ كَثِيراً مِنَ السَّلَفِ قَدْ تَضَرَّعُوا وتَوَسَّلُوا بِجاهِ الصَّالِحِينَ والأَنْبِياءِ .

---

(١) أَخْرَجَهُ ابنُ المُبارَك .
(٢) أَخْرَجَهُ (أَحْمَدُ) في مُسْنَدِه .

قَوْلٌ فَصْلٌ
في أصل مُصْطَلح التصوّف ودلالته

(١) في اشْتِقاقِ اسْمِ التَّصوُّفِ ومَعْناه :

(٢) في تارِيخِ المُصْطَلَح :

(٣) في المَصْدَرِ الإسْلامِي لِلتَّصَوُّف :

❁ بَعْضُ نَماذِجَ جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الصُّوفِيَّةِ في مَعْنَى التَّصَوُّف

قَوْلٌ فَصْلٌ

في أصْلِ مُصْطَلَحِ التَّصوّفِ ودَلالَتِه

(١) في اشْتِقاقِ اسْمِ التَّصوُّفِ ومَعْناه :

لا يُمارِي عالِمٌ مُحَقِّقٌ في أَنَّ التَّسْمِيَةَ في حَدِّ ذاتِها لا تُسَبِّبُ إشْكالاً إذا كانَ مَضْمُونُها مُوافِقاً لِلْكِتابِ والسُّنَّةِ والإجْماعِ ، وهُناكَ شَواهِدُ وافِرَةٌ عَلَى ما نَقُولُ ، قَدَّمَها الإسْلامُ مُنْذُ الوَهْلَةِ الأُولَى .

ولَعَلَّ أَوَّلَ هَذِهِ الشَّواهِدِ مُصْطَلَحُ (الصُّحْبَةِ والصَّحابَةِ) ، فالصَّحابَةُ : مُصْطَلَحٌ أُطْلِقَ عَلَى كُلِّ مَنْ صَحِبَ الرَّسُولَ ﷺ مُؤْمِناً بِهِ ، وبِانْتِقالِهِ ﷺ إلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى ، لَمْ يَحُزْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ شَرَفَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، ولَكِنَّها بَقِيَتْ إلَى يَوْمِنا هَذا عَلامَةً عَلَى الرِّجالِ والنِّساءِالَّذينَ مارَسُوا فِعْلَ الصُّحْبَةِ فَحازُوا أَصْلَ التَّسْمِيَةِ .

بَلْ إنَّ الصَّحابَةَ أَنْفُسَهُم سُمُّوا بِالمُهاجِرِينَ والأَنْصارِ ، وهاتانِ تَسْمِيَتانِ أُخْرَيانِ ؛ الأُولَى : أُطْلِقَتْ عَلَى الَّذينَ هاجَروا مِنْ مَكَّةَ إلَى المَدينَةِ فِراراً بِدينِهِم .

والأُخْرَى (الأَنْصار) : وهُم الَّذينَ اسْتَقْبَلُوهُم وقاسَمُوهُم حَياتَهُم ، ونَصَروا نَبِيَّ اللهِ ﷺ ، حِينَ جابَهَتْهُ قُرَيْشٌ بِالْعَداء ، وكانَ الأَنْصارُ قَبْلَ ذَلِكَ يُعْرَفُونَ بِأَسْماءِ قَبائِلِهِم (الأَوْس والخَزْرَج) .

وكُلُّنا يَعْلَمُ ما خَصَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْضَ صَحابَتِهِ الكِرامِ مِنْ مُسَمَّياتٍ وأَلْقابٍ مِنْ أَمْثالِ بِلالٍ (الحَبَشِيِّ) ، وصُهَيْبٍ (الرُّومِيِّ) وسَلْمانَ (الفارِسِيِّ) وغَيْرِهِم .

فَضْلاً عَمَّا ذَكَرَهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ مِنْ أَصْنافِ المُؤْمِنِينَ ، حَيْثُ مَيَّزَهُمْ بِصِفاتٍ

وأَلْقابٍ شَتَّى ؛ كالخاشِعِينَ ،والقانِتِينَ ، والتَّائِبِينَ ، والمُتَصَدِّقِينَ ، والعابِدِينَ ، والحامِدِينَ ، والسَّائِحِينَ وغَيْرِهِم .

وإذا ما انْتَقَلْنا إلَى عَصْرِ التَّابِعينَ ، وَجَدْنا أَنَّ مُصْطَلَحَ (التَّابِع) قَدْ أُطْلِقَ عَلَى مَنْ عاصَرَ نَفَراً مِنَ الصَّحابَةِ واقْتَفَى آثارَ حَياتِهِم الدِّينيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ ، والعَلاقَةُ هُنا بَيْنَ الاسْمِ والمُسَمَّى لا تَحْتاجُ إلَى مَزِيدِ بَيان .

وكَذَلِكَ يُقالُ في بَقِيَّةِ المُصْطَلَحاتِ ذاتِ الطَّابَعِ السُّلُوكي أو العِلْمِي ، كَمُصْطَلَحِ (الزُّهْدِ) أو(الزُّهَّادِ) الَّذي أُطْلِقَ عَلَى جَماعَةٍ تَنْبُذُ سَيْطَرَةَ الشُّؤُونِ الدُّنْيَوِيَّةِ . وتُوقِفُ جُلَّ وَقْتِها عَلَى العِبادَةِ ابْتِغاءَ الفَوْزِ بِنَعِيمِ الآخِرَةِ ، والنَّجاةِ مِنْ عَذابِ النَّارِ ، وهُوَ مُصْطَلَحٌ ذُو طابَعٍ سُلُوكِي .

وهُناكَ مُصْطَلَحُ (الفَقِيهِ) أَو(الفُقَهاء) :وهُوَ مُصْطَلَحٌ ذُو طابَعٍ عِلْمِيٍّ غَلَبَ إطْلاقُهُ عَلَى المُشْتَغِلِينَ بِاسْتِنْباطِ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ مَصادِرِها .

وهَكَذا ؛ نَعْثُرُ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ التَّسْمِياتِ يَتِمُّ التَّواطُؤُ عَلَيْها انْطِلاقاً مِنْ طَبِيعَةِ المَعْنَى المُرادِ التَّعْبِيرُ عَنْهُ ، بَلْ إنَّ بعْضَ التَّسْمِياتِ قامَتْ عَلَى أَساسٍ مِنْ صِفَةِ اللِّباسِ ، فَقَدْ ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾[1] ، فَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ مَأْخُوذَةٌ مِنْ صِفَةِ اللِّباسِ ، إذْ كانَ أَصْحابُ سَيِّدِنا (عِيسَى) عليه السلام الَّذينَ ناصَرُوهُ يَتَمَيَّزُونَ بِلِبْسِ البَياضِ ، ولاشَكَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ نَصَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وإنْ لَمْ يَلْبَسِ البَياضَ ، يَنْدَرِجُ في زُمْرَةِ الحَوارِيِّينَ مِنْ جِهَةِ المَعْنَى ، فالتَّسْمِيَةُ بالحَوارِيِّ مُشْتَقَّةٌ مِنْ صِفَةِ اللِّباسِ أَصْلاً[2] ، عَلَى أَنَّ مَضْمُونَها يُفِيدُ التَّأْيِيدَ والمُؤازَرَةَ والنُّصْرَةَ لِلْمَسِيحِ عليه السلام ، ولا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ما تُضْفِيهِ سِمَةُ البَياضِ عَلَى هَذِهِ الصُّحْبَةِ مِنْ طَهارَةٍ ونَقاء .

والقُرْآنُ نَفْسُهُ لا يَنِي يُحَدِّثُنا عَنْ أَصْنافِ عبادِ اللهِ المُؤْمِنينَ ، مُسَمِّياً كُلَّ

---

(١) سُورةُ آل عمران آية ٥٢ .

(٢) ورَدَ في صَحيح (البُخاري) أَنَّ الحَوارِيِّينَ : سُمُّوا كَذَلِكَ لِبَياضِ ثِيابِهِم .

زُمْرَةٍ مِنْهُم بِتَسْمِيَةٍ هِيَ الغالِبَةُ عَلَى سُلُوكِ أَشْخاصِها ؛ فَمِنْهُم التَّوَّابُونَ ، والصَّابِرُونَ ، والمُحْسِنُونَ ، والسَّاجِدُونَ ، والرَّاكِعُونَ ، والذَّاكِرُونَ ، والمُتَوَكِّلُونَ ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نُعُوتٍ مُستَمَدَّةٍ مِنْ غَلَبَةِ الصِّفَةِ الَّتي تَقُومُ في العَبْدِ كَما ذَكَرْنا آنِفاً .

ومِنْ طَرِيفِ ما قِيلَ شِعْراً في ذِكْرِ هَذهِ التَّسْمِياتِ قَوْلُ السَّيِّدِ الحِمْيَرِيِّ (١) (ت ١٧٠ هـ) في مَدْحِ آلِ سَيِّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ :

أَهْلِ التُّقى وذَوِي النُّهَى وأُولِي العُلَى * والنَّاطِقِينَ عَنِ الحَدِيثِ المُسْنَدِ
الصَّائِمِينَ القَائِمِينَ القانِتِينَ * الفائِقِينَ بَنِي الحِجَى والسُّؤْدَدِ
الرَّاكِعِينَ السَّاجِدِينَ الحامِدِينَ * السَّابِقِينَ إِلَى صَلاةِ المَسْجِدِ
الفائِقِينَ الرَّاتِقِينَ السَّائِحِينَ * العابِدِينَ إِلَهَهُمْ بِتَوَدُّدِ

فَلا مُشاحَةَ إِذَنْ مِنْ إِطْلاقِ التَّسْمِياتِ عَلَى هَذا النَّحْوِ ما دامَتْ مُسْتَفادَةً مِنَ الفِعْلِ أَو الزِّيِّ ، أَو بِما اقْتَرَنَ بِهِما مِنْ مُسْتَلْزَماتٍ ، أَو لَواحِقَ أُخْرَى كاللِّباسِ والهَيْئَةِ والمَكانِ والزَّمانِ وما شابَهَ .

ولَنا في أَهْلِ الصُّفَّةِ مِثالٌ عَلَى التَّسْمِيَةِ المَكانِيَّةِ ، وهُوَ نَعْتٌ تَسمَّى بِهِ فُقَراءُ المُهاجِرِينَ الَّذينَ لَمْ يَجِدوا مأْوىً لَهُم ، فَلاذُوا (بِصُفَّةِ) مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ ونُسِبُوا إِلَيْها .

وهُنا نَجِدُ أَنَّهُم قَدْ حازُوا شَرَفَ التَّسْمِياتِ الثَّلاثِ (شَرَفَ الصُّحْبَةِ وشَرَفَ الهِجْرَةِ وشَرَفَ الصُّفَّةِ) وانْضَوَوا تَحْتَ مَعانِي المُصْطَلَحاتِ الثَّلاثَةِ .

إِذَنْ ، فَذِكْرُ إِنْسانٍ بِخَصِيصَةٍ عُرِفَ بِها عِنْدَ النَّاسِ ، سُنَّةٌ قرآنِيَّةٌ ونَبَوِيَّةٌ .

فإِذا كانَ أَمْرُ التَّسْمِياتِ لا مُشاحَةَ فِيهِ ، مادامَ مَضْمُونُهُ لا يُخالِفُ الكِتابَ ولا

---

(١) الدِّيوانُ جَمَعَهُ وحَقَّقَهُ وشَرَحَهُ : شاكِرُ هادِي شُكْر .

السُّنَّةَ ، فَلَنا فِيما تَقَدَّمَ أُسْوَةٌ في عَدِّ مُصْطَلَحِ (التَّصَوُّفِ) واحِداً مِنَ المُصْطَلَحاتِ الَّتِى شاعَ أَمْرُها أَوائِلَ القَرْنِ الثَّاني الهِجْرِى ولَنا عَوْدٌ عَلَى تَحْدِيدِ هَذِهِ الفَتْرَةِ لاحِقاً .

ولَعَلَّ السِّراجَ الطُّوسِى (ت ٣٧٨ هـ) صاحِبَ كِتابِ (اللُّمَعِ) يُعَدُّ أَوَّلَ المُؤَرِّخِينَ لِتَجْرِبَةِ التَّصَوُّفِ ، فَقَدْ أَخَذَ عَلَى عاتِقِهِ تَحْقِيقَ أَصْلِ التَّسْمِيَةِ بِالصُّوفِي ، فَعَقَدَ لَها باباً بِعُنْوان (بابُ الكَشْفِ عَنِ اسْمِ الصُّوفِيَّةِ ، ولِمَ سُمُّوا بِهَذا الاسْمِ ، ولِمَ نُسِبُوا إِلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ) ، وفِيهِ يَذْكُرُ أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ لِبْسِ الصُّوفِ اقْتِداءً بِالأَنْبِياءِ صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِم والأَوْلياءِ الصَّالِحِينَ رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِم .

وهَذا كَما هُوَ بَيِّنٌ مَأْخُوذٌ مِنْ صِفَةِ اللِّباسِ ، وهُوَ يَخُصُّ الشَّكْلَ ، بَيْدَ أَنَّهُ يُضِيفُ إِلَيْهِ تَعْلِيلاً آخَرَ يَخُصُّ المَضْمُونَ ، وهُوَ أَنَّ التَّصَوُّفَ في مَضْمُونِهِ يَرْتَكِزُ عَلَى ثُنائِيَّةٍ مِنَ (المَقاماتِ والأَحْوالِ) الَّتي هِىَ قَوامُ التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ ، والمَقاماتُ هِىَ المَراتِبُ الخُلُقِيَّةُ الَّتي يَتَدَرَّجُ فِيها الصُّوفِىُّ السَّالِكُ في صُعُودِهِ الرُّوحِيِّ ، أَمَّا الأَحْوالُ فَهِىَ الحالاتُ الشُّعُورِيَّةُ المُتَبايِنَةُ الَّتي تَنْثالُ عَلَى وِجْدانِهِ هِبَةً مِنَ اللهِ تَعالَى .

فالصُّوفِىُّ لا يَقِفُ عِنْدَ مَقامٍ واحِدٍ أَو حالٍ واحِدَةٍ ، وإِنَّما هُوَ في طَوْرِ انْتِقالٍ دائِم .

وقَدْ أَبانَ الصُّوفِيَّةُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِم : (الصُّوفِىُّ ابْنُ وَقْتِه) ، ولِذا ، فَإِنَّ لَقَبَ الزَّاهِدِ ، مَثَلاً ، لَنْ يَفِىَ بِالغَرَضِ لِلدَّلالَةِ عَلَى مَضْمُونِ التَّصَوُّفِ ؛ لأَنَّ الزَّاهِدَ يَقِفُ عِنْدَ مَقامِ الزُّهْدِ وحَسْب ، وهُوَ مِنْ بَعْضِ مَقاماتِ التَّصَوُّفِ ؛ والأَمْرُ نَفْسُهُ يَنْسَحِبُ عَلَى التَّوْبَةِ والصَّبْرِ ، والتَّوَكُّلِ ، وغَيْرِها مِنَ المَقاماتِ ، وكَذَلِكَ الأَحْوالُ ، كالقَبْضِ ، والبَسْطِ ، والأُنْسِ ، وغَيْرِها ، ولا يَصْلُحُ واحِدٌ مِنْها أَيْضاً

لِلدَّلالَةِ عَلَى مَعْنَى التَّصَوُّف

والجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الكَلاباذِي (ت : ٣٨٠ هـ) قَدْ أَشارَ إِلَى بَعْضِ التَّسْمِياتِ الَّتي أُطْلِقَتْ عَلَى الصُّوفِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى أَحْوالِهِم أَو مَقاماتِهِم ، مِنْ مِثْل :

(غُرباء) لِخُروجِهِم عَنِ الأَوْطانِ ، و(سَيَّاحُونَ) لِكَثْرَةِ أَسْفارِهِم وسِياحَتِهِم في البَرارِي ، و(شَكْفَتِيَّة) لإِيوائِهِم إِلَى الكُهُوفِ عِنْدَ الضَّرورَةِ (والشَّكْفَت : الغارُ والكَهْف) ، وأَهْلُ الشَّامِ سَمَّوْهُم (جُوعِيَّة) لأَنَّهُمْ يَنالُونَ مِنَ الطَّعامِ قَدْرَ ما يُقِيمُ الصُّلْبَ لِلضَّرورَةِ ، كما قالَ النَّبِيُّ ﷺ :

(بِحَسْبِ ابْنِ آدمَ أَكَلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ) ، و (فُقَراء) مِنْ تَخَلِّيهِم عَنِ الأَمْلاكِ[١]. عَلَى أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِياتِ لَمْ تَصْمُدْ كَثِيراً أَمامَ مُصْطَلَحِ (الصُّوفِي) لأَنَّها مِنْ أَبْعاضِهِ وكُلَّما عَبَّرَ المُصْطَلَحُ عَنِ المَعْنَى تَعْبِيراً أَدَقَّ ، أَثْبَتَهُ التَّواطُؤُ والعُرْفُ ونَفَى غَيْرَهُ .

كَتَبَ السِّراجُ الطُّوسِي : (فَلَمَّا كانَ الصُّوفِيَّةُ في الحَقِيقَةِ كَذَلِكَ ، لَمْ يَكُونوا مُسْتَحَقِّينَ اسْماً دُونَ اسْمٍ ، فَلأَجْلِ ذَلِكَ ما أَضَفْتُ إِلَيْهِم حالاً دُونَ حالٍ ، ولا أَضَفْتُهُم إِلَى عِلْمٍ دُونَ عِلْمٍ ، لأَنِّى لَوْ أَضَفْتُ إِلَيْهِم في كُلِّ وَقْتٍ حالاً هُوَ ما وَجَدْتُ الأَغْلَبَ عَلَيْهِم مِنَ الأَحْوالِ والأَخْلاقِ والعُلُومِ والأَعْمالِ ، وسَمَّيْتُهُم بِذَلِكَ ، لَكانَ يَلْزَمُ أَنْ أُسَمِّيَهُم في كُلِّ وَقْتٍ بِاسْمٍ آخَر ، وكُنْتُ أُضِيفُ إِلَيْهِم في كُلِّ وَقْتٍ حالاً دُونَ حالٍ حَسْبَ ما يَكُونُ الأَغْلَبَ عَلَيْهِم ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ ، نَسَبْتُها إِلَى ظاهِرِ اللِّبْسَةَ لأَنَّ لِبْسَةَ الصُّوفِ دَأْبُ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِم السَّلامُ ، وشِعارُ الأَوْلِياءِ والأَصْفِياءِ ، فَلَمَّا أَضَفْتُهُم إِلَى ظاهِرِ اللِّبْسَةِ كانَ ذَلِكَ اسْماً مُجْمَلاً عامّاً مُخْبِراً عَنْ جَمِيعِ العُلُومِ والأَعْمالِ والأَخْلاقِ والأَحْوالِ الشَّرِيفَةِ المَحْمُودَةِ)[٢].

---

(١) التَّعَرُّف لِمَذْهَب أَهْلِ التَّصَوُّف (ص ٢٩ ، ٣٠) .

(٢) اللُّمَع : لِلسِّراجِ الطُّوسِي .

ثُمَّ يَأْتِي الطُّوسِي عَلَى ذِكْرِ الحَوارِيِّينَ فِي القُرْآنِ ، وسَبَبِ تَسْمِيَتِهِم بِهَذا الاسْمِ فَيَقُولُ : (وكانُوا قَوْماً يَلْبَسُونَ البَياضَ ، فَنَسَبَهُم اللهُ إِلَى ذَلِكَ ولَمْ يَنْسِبْهُم إِلَى نَوْعٍ مِنَ العُلُومِ ، والأَعْمالِ ، والأَحْوالِ الَّتِي كانُوا بِها مُتَرَسِّمِينَ ، فامْتازوا عَنْ غَيْرِهِم مِنْ سائِرِ أَتْباعِ المَسِيحِ بِهَذِهِ التَّسْمِيَة) .

رَأْيٌ فِي اشْتِقاقِ كَلِمَة صُوفِي :

ويَذْكُرُ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقاتِهِ خَبَراً مُهِمَّاً جَدِيراً بِالإِثْباتِ والذِّكْرِ ، وهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَصْحابَهُ فِي بِدايَةِ وَقْعَةِ بَدْرٍ أَنَّ اللهَ أَمَدَّهُم بِالمَلائِكَةِ رَبْطاً عَلَى قُلُوبِهِم ، وأَنَّ المَلائِكَةَ نَزَلَت : (والصُّوفُ فِي نَواصِي خَيْلِهِم) ، فَأَمَرَهُم ﷺ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ المَلائِكَةَ قَدْ سُوِّمَتْ فَسَوِّمُوا) ، فَكانَ أَنْ :

(عُلِّمُوا بِالصُّوفِ فِي مَغافِرِهِم وقَلانِسِهِم) (١) .

ويَتَّصِلُ بِهَذا أَيْضاً أَنَّ الإِمامَ (عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالِبٍ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، كانَ فِي هَذا اليَوْمِ مُعَلَّماً بِصُوفَةٍ بَيْضاء .

إِذَنْ ، فَمِنْ خِلالِ النَّماذِجِ الآنِفَةِ وغَيْرِها ، نَجِدُ أَنَّ (الصُّوفَ) صارَ رَمْزاً دالاًّ (ويَنْزاحُ انْزِياحاً مَلْحُوظاً مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَدْلُولاً) : فالصُّوفَةُ المَعْقُودَةُ عَلَى رُؤُوسِ الصَّحابَةِ فِي وَقْعَةِ بَدْرٍ تَعْلَقُ دَلالَتُها بِتَقْدِيمِ الأَجْسادِ والأَرْواحِ فِي سَبِيلِ اللهِ ؛ أَي إِنَّ البَدَنَةَ هُنا هِيَ الجَسَدُ ، وإِراقَةَ الدَّمِ هُنا حَقِيقِيَّةٌ ولَيْسَتْ مَجازِيَّةً ، وفِي المُقابِلِ فَإِنَّ الغَوْثَ بنَ مُرٍّ الجاهِلِي ، كانَتْ صُوفَتُهُ المُعَلَّقَةُ بِرَأْسِهِ لا تُحِيلُ عَلَى مَعْنَى إِراقَةِ الدَّمِ ، وإِنَّما عَلَى مَعْنَى إِراقَةِ النَّفْسِ فِي العِبادَةِ وخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ ، فَإِذا صَحَّ هَذا التَّحْلِيلُ ، أَمْكَنَ الرَّبْطُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الجِهادِ بِمَعْنَى القِتالِ والحَرْبِ ، والجِهادِ بِمَعْنَى جِهادِ النَّفْسِ والهَوَى والشَّيْطانِ ، وكِلاهُما أَصْلانِ وارِدانِ فِي القُرْآنِ والسُّنَّة .

---

(١) الطَّبَقات (ابْنُ سَعْد) تَحْقِيق : د. إِحْسان عَبَّاس – رَأْيٌ فِي اشْتِقاق كَلِمَة صُوفِي .

وَلَقَد تَجَلَّى الـمَفْهُومُ الأَخِيرُ في مَضْمُونِ التَّصَوُّفِ تَجَلِّياً عامّاً ، وعَلَى نَحْوٍ خاصٍّ في مَقُولَةِ (حاتِمِ الأَصَمِّ ، ٢٣٧ هـ) في قَوْلِهِ عَنْ سُلُوكِ مَذْهَبِ التَّصَوُّف : (مَنْ دَخَلَ في مَذْهَبِنا هَذا ، فَلْيَجْعَلْ في نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصالٍ مِنَ المَوْتِ : مَوْتاً أَبْيَضاً وهُوَ الجُوعُ . ومَوْتاً أَسْوداً وهُوَ احْتِمالُ الأَذَى مِنَ الخَلْقِ ، ومَوْتاً أَحْمَراً وهُوَ العَمَلُ الخالِصُ في مُخالَفَةِ الهَوَى ، ومَوْتاً أَخْضَراً وهُوَ طَرْحُ الرِّقاعِ بَعْضِها عَلَى بَعْض)[1] ، بَلْ إِنَّ المَعْنَى يَبْلُغُ ذُرْوَتَهُ في قَوْلِ (سَهْلِ بنِ عَبْدِاللهِ التَّسْتُرِى ، ٢٨٣ هـ) عَنِ الصُّوفِي ، بِما يُذَكِّرُنا بِمَعْنَى التَّضْحِيَةِ الجَسَدِيَّةِ ، فَيَقُولُ : (مالُهُ مُباحٌ ودَمُهُ هَدْرٌ)[2] .

فَيَتَبَيَّنُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَمْزَ الصُّوفَةِ يَتَنازَعُهُ مَعْنَيان :

الأَوَّلُ : حَقِيقِيٌّ وهُوَ المَوْتُ في سَبِيلِ اللهِ ، والثَّانِي : مَجازِيٌّ وهُوَ مَوْتُ النَّفْسِ بِفَطْمِها عَنِ الأَهْواءِ وفُضُولِ الرَّغَباتِ بُغْيَةَ اسْتِخْلاصِها لِلهِ عَزَّ وجَلَّ ، ويَتَحَقَّقُ ذَلِكَ بِمُجاهَدَةِ النَّفْسِ عَبْرَ أَطْوارِها المُخْتَلِفَةِ ابْتِداءً مِنَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ،واجْتِيازِ هَذِهِ العَقَباتِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ الوُصُولُ والتَّحَقُّقُ بِمقامِ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ الرَّاضِيَةِ المَرْضِيَّة .

ويُضافُ إِلَى تِلْكَ المَعانِي ما يَنْتُجُ عَنْها ، أَلا وهُوَ السُّلُوك .

فالهَدَفُ مِنَ المُجاهَدَةِ أَو (السُّلُوكِ الصُّوفِي) بِتَعْبِيرٍ آخَر ، هُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ تَعالَى في أَسْمائِهِ وصِفاتِهِ وأَفْعالِهِ ، مِصْداقاً لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[3] ، وقَدْ فَسَّرَها مُجاهِدٌ بـ(إِلاَّ لِيَعْرِفُون)[4] ، والمَعْرِفَةُ ثَمَرَةُ المُجاهَدَةِ والسَّعْي الصُّوفي .

بَلْ إِنَّ مُصْطَلَحَ (العارِف) يُسْتَبْدَلُ أَحْياناً بِمُصْطَلَحِ (الصُّوفِي) بِاعْتِبارِهِما

---

(١) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّةُ (تَحْقِيقُ : مَعْروفُ زُرَيْقُ وعَلِي عَبْدِ الحَمَيد بلْطة جي) ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٢) المَصْدَرُ نَفْسُهُ (ص ٦٠) .
(٣) سُورَةُ الذَّاريات الآيَة ٥٦ .
(٤) أَبُو حَيَّان الأَنْدَلُسِي (البَحْرُ المُحِيطُ في التَّفْسِير) .

مُتَرادِفَيْنِ ، فَقَدْ قِيلَ : (إِنَّ الصُّوفِيَّ ابْنُ وَقْتِه)[1] ، كَما قِيلَ أَيْضاً : (إِنَّ العارِفَ ابْنُ وَقْتِه)[2] ، وقَدْ قِيلَ فِي المَعْرِفَةِ : (المَعْرِفَةُ حَياةُ القَلْبِ مَعَ الله) و(المَعْرِفَةُ تَأْتِي مِنْ عَيْنِ الجُودِ ، وبَذْلِ المَجْهُود)[3] ، وبِذا يَظْهَرُ التَّرابُطُ جَلِيّاً بَيْنَ المُجاهَدَةِ (السُّلُوكِ الصُّوفي) والمَعْرِفَةِ ، وبِهِما مَعاً يَكْتَمِلُ مَعْنَى التَّصَوُّف ، وهَذا ما يُؤَكِّدُهُ الحَقُّ جَلَّ في عُلاه فى قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[4] ، وفي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[5] .

وإِذا تابَعْنا البَحْثَ ، وعَرَّجْنا عَلَى الرَّأْيِ الَّذي يَقُولُ إِنَّ التَّصَوُّفَ مُشْتَقٌّ مِنَ الصَّفاءِ أَو مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ ، فَسَنَصِلُ إِلَى أَنَّ الأَمْرَ لا يَسْتَقِيمُ مِنْ جِهَةِ الاشْتِقاقِ اللُّغَوِى ، ولَكِنَّهُ يَسْتَقِيمُ مِنْ جانِبِ المَعْنَى ، فالصَّفاءُ مِنْ تَصْفِيَةِ النَّفْسِ مِنْ كَدُوراتِ البَشَرِيَّةِ ، وأَهْلُ الصُّفَّة بِعامَّةٍ كانُوا مُقِيمِينَ عَلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الخِصْلَةِ في نُفُوسِهِم ، وما تَجْدُرُ الإِشارَةُ إِلَيْهِ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الكَلِماتِ المُؤَهَّلَةِ لِأَنْ تَكُونَ أَصْلاً اشْتِقاقِيّاً لِلتَّصَوُّفِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِها ، تَشْتَرِكُ في حَرْفَيْنِ عَلَى الأَقَلِّ هُما الصَّادُ والفاءُ مَعَ مادَّةِ (صُوف) ، وأَمَّا المَدْلُولاتُ فَمُتَشابِهَةٌ ، وبِما أَنَّ التَّصَوُّفَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَى الصَّفاءِ ، وصِفَةِ أَهْلِ الصُّفَّةِ ، وبِهِ يَسْتَقِيمُ الاشْتِقاقُ لُغَوِيّاً مِنْ مادَّةِ (صُوف) ، وفي ضَوْءِ ما تَقَدَّمَ مِنْ بَيانٍ فَإِنَّ اشْتِقاقَ التَّصَوُّفِ مِنَ الصُّوفِ هُوَ الرَّاجِحُ ، وهُوَ الرَّأْيُ الَّذى يُطْمَأَنُّ إِلَى صِحَّتِهِ ، والآراءُ الأُخْرَى مَرْجُوحَة[6] .

---

(١) السَّهْرَوَرْدِي (عوارِفُ المَعارف ص ٨٠) .
(٢) السَّهْرَوَرْدي (عوارِفُ المَعارِف) .
(٣) الرِّسالةُ القُشَيْرِيَّة .
(٤) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ٢٨٢ .
(٥) سُورَةُ الأَنْفال الآيَة ٢٩ .
(٦) الآراءُ الاشْتِقاقِيَّةُ الأُخْرَى نَذْكُرُها هُنا للتَّنْوِيهِ فَقَط ، لِأَنَّ أَغْلَبَ الدِّراساتِ قَدِيماً وحَدِيثاً عَدَّتْها مَرْجُوحَةً :
١- نِسْبَةً إِلى الصَّفِّ الأَوَّلِ مِنَ الصَّلاة .
٢ - نِسْبَةً إِلى القَفا ، وهِيَ خَصْلَةُ الشَّعْرِ عَلَى القَفا .
٣ - نِسْبَةً إِلى الصَّفْوانَة ، وهِيَ نَوْعٌ مِنَ البَقْل .
وكَما لاحَظَ القُشَيْري : فَإِنَّ هَذِهِ الآراءَ لا يَشْهَدُ لَها اشْتِقاقٌ مِنْ جِهَةِ القِياس اللُّغَوى .
انْظُر : الرِّسالة القُشَيْرِيَّة ص ٢٧٩ .

وسَوْفَ يَأْتِي أَنَّ بَعْضَ الصُّوفِيَّةِ قَدْ عَرَّفَ التَّصَوُّفَ بِما يُحِيلُ عَلَى مَقامِ التَّوَكُّلِ أَوِ الفَقْرِ أَوِ الزُّهْدِ وغَيْرِها ، وهَذِهِ مِنْ ضِمْنِ المَقاماتِ ؛ أَي مِنْ عَناصِرِ التَّصَوُّف .

كَما أَنَّ بَعْضَهُم قَدْ أَحالَ عَلَى بَعْضِ المَفاهِيمِ المُرْتَبِطَةِ بِالأَحْوالِ فِي ذِكْرِهِ لِمَعْنَى التَّصَوُّفِ ، وكُلُّ هَذا داخِلٌ فِي المَعْنَى بِوَصْفِهِ عُنْصُراً فِي تَكْوِينِهِ ، لا أَنَّهُ هُوَ وحَسْب .

يَقُولُ السَّهْرَوَرْدِي البَغْدادِي : (وأَقْوالُ المَشايِخِ فِي ماهِيَّةِ التَّصَوُّفِ تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ قَوْلٍ ، ويَطُولُ نَقْلُها)[1] ، ويُضِيفُ قائِلاً :

(لِأَنَّهُم أَشارُوا فِيها إِلَى أَحْوالٍ فِي أَوْقاتٍ دُونَ أَوْقات ... فَقَدْ تُذْكَرُ أَشياءُ فِي مَعْنَى التَّصَوُّفِ ذُكِرَ مِثْلُها فِي مَعْنَى الفَقْرِ .. وحَيْثُ وَقَعَ الاشْتِباهُ فَلا بُدَّ مِنْ فاصِلٍ ؛ فَقَدْ تَشْتَبِهُ الإِشاراتُ فِي الفَقْرِ بِمَعْنَى الزُّهْدِ تارَةً وبِمَعانِي التَّصَوُّفِ تارَةً ، ولا يَتَبَيَّنُ لِلْمُسْتَرْشِدِينَ بَعْضُها مَعَ البَعْضِ ، فَنَقُولُ : التَّصَوُّفُ غَيْرُ الفَقْرِ ، والتَّصَوُّفُ غَيْرُ الزُّهْدِ ، فالتَّصَوُّفُ اسْمٌ جامِعٌ لِمَعانِي الفَقْرِ ، ومَعانِي الزُّهْدِ مَعَ مَزِيدِ أَوْصافٍ وإِضافاتٍ لا يَكُونُ بِدُونِها الرَّجُلُ صُوفِيّاً وإِنْ كانَ زاهِداً وفَقِيراً) .

وفِيما يَلِي بَعْضُ النَّماذِجِ الَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الصُّوفِيَّةِ فِي مَعْنَى التَّصَوُّف :

❁ أَوَّلاً : قالَ مَعْرُوفٌ الكَرْخِي : (التَّصَوُّفُ هُوَ الأَخْذُ بِالحَقائِقِ ، واليَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي الخَلائِق)[2] ، مُشِيراً فِي جُزْئِهِ الأَوَّلِ إِلَى طَبِيعَةِ الجانِبِ المَعْرِفِي لِلتَّصَوُّفِ ، وهُوَ مَعْرِفَةُ حَقائِقِ الأَشْياءِ وجَواهِرِها ، وعَدَمُ الاكْتِفاءِ بِما تُعْطِيهِ ظَواهِرُها ، أَمَّا الجُزْءُ الآخَرُ مِنَ التَّعْرِيفِ فَيُشِيرُ إِلَى مَقامِ الزُّهْدِ ، وهُوَ التَّخَلِّي عَنِ الطَّمَعِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ مِنْ أَمْلاكٍ رَغْبَةً فِي اللهِ تَعالَى ، وبِمِثْلِ

---

(١) عَوارِفُ المَعارِف . (٢) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .

ذَلِكَ يَقُولُ (ذُو النُّونِ المِصْري) عَنِ الصُّوفِي : (الصُّوفِيُّ مَنْ إذا نَطَقَ أَبانَ نُطْقُهُ عَنِ الحَقائِقِ وإنْ سَكَتَ نَطَقَتْ عَنْهُ الجَوارِحُ بِقَطْعِ العَلائِقِ) .

ثانِياً : سُئِلَ (سَمْنُون ، ٢٩٠ هـ) عَنِ التَّصَوُّفِ فَقالَ : (أَن تَمْلِكَ شَيْئاً ولا يَمْلُكَكَ شَيْءٌ)[١]. والعَلاقَةُ هُنا بَيْنَ المالِكِ والمَمْلُوكِ عَلاقَةٌ تَبادُلِيَّةٌ ، فالمالِكُ لِلشَّيْءِ يَكُونُ مَمْلُوكاً ، كالمالِ : فَهُوَ مَمْلُوكٌ وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ مالِكٌ لِقَلْبِ صاحِبِهِ ويَدِهِ ، فَأَنْ تَمْلُكَ شَيْئاً ولا يَمْلُكَكَ شَيْءٌ : هَذا يَعْنِي التَّحَقُّقَ بِمَقامِ العُبُودِيَّةِ الخالِصَةِ حَيْثُ تَحَرَّرْتَ مِنْ رِقِّ الأَكْوانِ وأَصْبَحَتْ عُبُودِيَّتُكَ خالِصَةً للهِ وَحْدَه .

ثالِثاً : قالَ (عَمْرو بنُ المَكيِّ ، ت ٢٩١ هـ) : (التَّصَوُّفُ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ في كُلِّ وَقْتٍ مَشْغُولاً بِما هُوَ أَوْلَى في الوَقْتِ)[٢]. وقالَ (أَحْمَدُ الجَرِيرِي ، ت ٣١١ هـ) : (التَّصَوُّفُ مُراقَبَةُ الأَحْوالِ ولُزومُ الأَدَب)[٣]. وقالَ (أَبُو بَكْرٍ الشِّبْلي ، ٣٣٤ هـ) : (التَّصَوُّفُ ضَبْطُ حواسِّكَ ومُراعاةُ أَنْفاسِكَ)[٤]. وقالَ الجُنَيْدُ : (التَّصَوُّفُ ذِكرٌ مَعَ اجْتِماع ، ووَجْدٌ مَعَ اسْتِماع ، وعَمَلٌ مَعَ اتِّباع) . وهَذِهِ التَّعْرِيفاتُ كُلُّها تَنْطلِقُ مِنْ حالِ المُراقَبَةِ ، وبِها يَتَمَكَّنُ العَبْدُ مِنْ أَداءِ أَعْمالِهِ عَلَى الوَجْهِ الأَكْمَلِ ، وكَما أُرِيدَ لَها أَنْ تَكُونَ ، وحالُ المُراقَبَةِ مُسْتَفادٌ مِنَ الإِحْسانِ في قَوْلِهِ ﷺ : (الإِحْسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ)[٥].

رابِعاً : سُئِلَ (الجُنَيْدُ ، ٢٩٧ هـ) عَنِ التَّصَوُّفِ فَقالَ : (هُوَ أَنْ يُمِيتَكَ الحَقُّ عَنْكَ ويُحْيِيَكَ بِهِ)[٦]. وهُوَ قَوْلٌ صادِرٌ مِنْ حالِ الفَناءِ وفِيهِ يَفْنَى العَبْدُ عَنْ رُؤْيَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ لِيَراها بِرُؤْيَةِ اللهِ لَهُ ، فَتَكُونُ رُؤْيَتُهُ بِاللهِ وللهِ ولاحَظَّ

---

(١) اللُّمَعُ ص ٤٥ . الرِّسالَةُ القُشَيرِيَّة ص ٢٨٠ .
(٢) عوارفُ المعارف ص ٨١ .
(٣) الرِّسالَةُ القُشَيرِيَّة ص٢٨٢ .
(٤) طبقاتُ الصُّوفِيَّة ص ٣٤٠ .
(٥) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ في كِتاب (الإيمان والسَّفَر) .
(٦) الرِّسالَةُ القُشَيرِيَّةُ ص ٢٨٠ .

لِلنَّفْسِ فِيها .

ويَدْخُلُ في المَعْنَى نَفْسِهِ قَوْلُ (أَبِي نَصْرٍ الطُّوسِي ، ت ٣٧٨ هـ) :

(إِسْقاطُ رُؤْيَةِ الخَلْقِ ظاهِراً وباطِناً)[١]، وهُوَ رُؤْيَةُ الكَوْنِ عَلَى حَقِيقَةِ أَنَّهُ قائِمٌ بِاللهِ لا بِنَفْسِهِ ، وأَنَّ حَقِيقَتَهُ العَدَمُ ، ولَوْلاَ قِيامُ الوجُودِ الحَقِّ بِهِ لَما ظَهَرَ ، أَي لَما وُجِدَ ، وهَذِهِ الحَقِيقَةُ لا تُدْرَكُ إِلاَّ مِنْ حالِ الفناء .

خامِساً : سُئِلَ (رُوَيْم ، ت ٣٠٣ هـ) عَنِ التَّصَوُّفِ فَقالَ :

(اسْتِرْسالُ النَّفْسِ مَعَ اللهِ تَعالَى عَلَى ما يُرِيدُ)[٢]، ناظِراً إِلَى التَّصَوُّفِ مِنْ مَقامِ الرِّضا ، الَّذي يُحْمَدُ فيهِ اللهُ عَلَى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، إِذْ لامَجالَ لِلاِعْتِراضِ أَو السَّخَطِ عَلَى إِردَةِ اللهِ ومَشِيئَتِه .

والمَعْنَى نَفْسُهُ نَقْرَأُهُ عِنْدَ (أَبِي سَهْلٍ الصُّعْلُوكِي ، ت ٣٨٧ هـ) حَيْثُ يَقُولُ :

(التَّصَوُّفُ : الإِعْراضُ عَن الاعْتِراضِ)[٣].

سادِساً : وهُوَ (لِرُوَيْمٍ) أَيْضاً : وفيهِ يَنْتَقِلُ بِتَعْرِيفِ التَّصَوُّفِ مِنْ مَقامِ الرِّضا إِلَى مَقامَي الفَقْرِ والتَّوكُّلِ ، يَقُولُ : (التَّصَوُّفُ مَبْنِيٌّ عَلَى ثَلاثِ خِصالٍ التَّمَسُّكُ بِالفَقْرِ والافْتِقارِ ، والتَّحَقُّقُ بِالبَذْلِ والإِيثارِ ، وتَرْكُ التَّصَرُّفِ والاخْتِيار)[٤]، وهُوَ هُنا قَدْ تَحقَّقَ بِالمَنْهَجِ القُرْآني ، يَقُولُ اللهُ تَعالَى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٥]،

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٦]،

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٧].

سابِعاً : سُئِلَ الشَّيْخُ (مُحَمَّد زَكي إِبْراهِيم) ، ما هُوَ المَقْصُودُ بِالتَّصَوُّفِ

---

(١) طَبقاتُ الصُّوفِيَّة ص ٥٠٣ .
(٢) اللُّمَعُ ص ٤٥ ، عَوارِفُ المَعارف ص ٨١ .
(٣) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّةُ ص ٢٨٣ .
(٤) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّةُ ص ٢٨٣ .
(٥) سُورَةُ فاطر مِنَ الآيَة ١٥ .
(٦) سُورَةُ الحَشْر مِنَ الآيَة ٩ .
(٧) سُورَةُ الإِنسانِ مِنَ الآيَة ٣٠ .

الإِسْلامِيِّ ؟ . فَأَجابَ فَضِيلَتُهُ قائِلاً :

(التَّصَوُّفُ : هُوَ التَّخَلِّي عَنْ كُلِّ دَنِيٍّ ، والتَّحَلِّى بِكُلِّ سَنِيٍّ ، سُلُوكاً إِلَى مَراتِبِ القُرْبِ والوُصُولِ ، فَهُوَ إِعادَةُ بِناءِ الإِنْسانِ ، ورَبْطِهِ بِمَوْلاهُ فِي كُلِّ فِكْرٍ وقَوْلٍ وعَمَلٍ ونِيَّةٍ ، وفِي كُلِّ مَوْقِعٍ مِنْ مَواقِعِ الإِنْسانِيَّةِ فِي الحَياةِ العامَّةِ . ويُمْكِنُ تَلْخِيصُ هَذا التَّعْرِيفِ فِي كَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، هِيَ : (التَّقْوَى) فِي أَرْقَى مُسْتَوَياتِها الحِسِيَّةِ والمَعْنَوِيَّة .

فالتَّقْوَى عَقِيدَةٌ ، وخُلُقٌ ؛ فَهِيَ مُعامَلَةُ اللهِ بِحُسْنِ العِبادَةِ ، ومُعامَلَةُ العِبادِ بِحُسْنِ الخُلُقِ ، وهَذا الاعْتِبارُ هُوَ ما نَزَلَ بِهِ الوَحْيُ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ ، وعَلَيْهِ تَدُورُ حُقُوقُ الإِنْسانِيَّةِ الرَّفِيعَةُ فِي الإِسْلام .

ورُوحُ التَّقْوى هُوَ (التَّزَكِّى) :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾[1] ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾[2]

وبِهَذا المَعْنَى نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَيْقِنَ أَنَّ التَّصَوُّفَ قَدْ مُورِسَ فِعْلاً فِي العَهْدِ النَّبَوِي ، وعَهْدِ الصَّحابَةِ والتَّابِعِينَ ومَنْ بَعْدَهُم .

وقَدِ امْتازَ التَّصَوُّفُ مَثَلاً بِالدَّعْوَةِ والجِهادِ والخُلُقِ والذِّكْرِ والفِكْرِ والزُّهْدِ فِي الفُضُولِ ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مُكَوِّناتِ التَّقْوَى (أَو التَّزَكِّي) ، وبِهَذا يَكُونُ التَّصَوُّفُ مِمَّا جاءَ بِهِ الوَحْيُ ، ومِمَّا نَزَلَ بِهِ القُرْآنُ ، ومِمَّا حَثَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ فَهُوَ مَقامُ (الإِحْسانِ) فِيها ، وهُوَ أَيْضاً مَقامُ الرَّبَّانِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ، يَقُولُ تَعالَى :

﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[3]

فالتَّصَوُّفُ إِذَن هُوَ : رَبَّانِيَّةُ الإِسْلامِ الجامِعَةُ لِلدِّينِ والدُّنْيا[4] .

وإِذا كانَ أَهْلُ التَّصَوُّفِ يَقْتَبِسُونَ أَفْكارَهُم مِنْ أَنْوارِ مِشْكاةِ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّنا نَجِدُ

---

(١) سُورَةُ الأَعْلَى الآيَة ١٤ .

(٢) سُورَةُ الشَّمْس الآيَة ٩ .

(٣) سُورَةُ آل عِمْران الآيَة ٧٩ .

(٤) أَبْجدِيَّةُ التَّصَوُّفِ الإِسْلامي (مُحَمَّد زَكي إِبراهيم)

هَذا واضِحاً جَلِيّاً في قَوْلِ الشَّيْخ (عُمَر بن مُحَمَّد السَّهْرَوَرْدِي) حَيْثُ يَقُولُ : (إنَّ الصُّوفِيَّ مَنْ يَضَعُ الأَشْياءَ في مَواضِعِها ويُدبِّرُ الأَوْقاتِ والأَحْوالَ كُلَّها بِالعِلْمِ ، يُقِيمُ الخَلْقَ مَقامَهُم ، ويُقِيمُ أَمْرَ الحَقِّ مَقامَهُ ، ويَسْتُرُ ما يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَرَ ، ويُظْهِرُ ما يَنْبَغِي أَنْ يَظْهَرَ ، ويَأْتِي بِالأُمُورِ مِنْ مَواضِعِها بِحُضُورِ عَقْلٍ وصِحَّةِ تَوْحِيدٍ ، وكَمالِ مَعْرِفَةٍ ، ورِعايَةِ صِدْقٍ وإِخْلاصٍ)[1].

هَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ التَّعْرِيفاتِ ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْها يَتَّكِيءُ في مَعْناهُ عَلَى أَحَدِ المَقاماتِ أَو الأَحْوالِ ، بَلْ إِنَّ كَثِيراً مِنْها يَنْفَتِحُ عَلَى بَعْضِهِ بَعْضاً دُونَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَها كَبِيرُ اخْتِلاف .

كَما أَنَّ المَسْئُولَ الواحِدَ عَنِ التَّصَوُّفِ أَو الصُّوفِيِّ قَدْ يُجِيبُ انْطِلاقاً مِنَ المَقامِ أَو الحالِ الَّذى يَكُونُ غالِباً عَلَيْهِ فى أَثْناءِ الإِجابَةِ ، أَو مُراعاةً لحالِ السَّائِل .

ولِذَلِكَ اخْتَلَفَتِ العِبارَةُ ، والمَعْنَى المُشارُ إِلَيْهِ واحِدٌ ، وهُوَ كَما قالَ بَعْضُهم :

عِباراتُنا شَتَّى وحُسْنُكَ واحِدٌ * وكُلٌّ إِلَى ذاكَ الجَمالِ يُشِيرُ

ولِلّهِ دَرُّ القائِل :

فَكَمْ بَيْنَ حُذَّاقِ الجِدالِ تَنازُعٌ * وما بَيْنَ عُشَّاقِ الجَمالِ تَنازُعُ

ولَئِنْ كانَ مَفْهُومُ التَّصَوُّفِ ، في أَحَدِ جَوانِبِهِ الهامَّةِ ، يَسْتَنِدُ إِلَى ثُنائِيَّةِ المَقاماتِ والأَحْوالِ ، فَإِنَّهُ مِنْ جانِبٍ آخَرَ ، يَغْتَرِفُ مِنْ مَعِينِ الأَخْلاقِ الإِسْلامِيَّة .

وقَدْ آثَرْنا ذِكْرَ هَذا الجانِبِ بِمَعْزِلٍ عَنِ التَّعْرِيفاتِ السَّابِقَةِ ، لأَنَّهُ دُعامَةٌ قائِمَةٌ بِعَيْنِها في اسْتِكْمالِ مَفْهُومِ التَّصَوُّفِ ، فَلا تَصَوُّفَ بِلا أَخْلاقٍ ، ولَعَلَّ مُسْتَنَدَ

---

(١) الخُطَطُ التَّوفِيقِيَّةُ (عَلي باشا مُبارَك) ج ١ ص ٩٠ .
(٢) صَدْرُ الدِّينِ الشِّيرازي (إِيقاظُ النَّائِمين) .

الصُّوفِيَّةِ الأَخْلاقِيِّ يَنْبُعُ مِنْ عَيْنِ الآيَةِ القُرْآنِيَّةِ الَّتي يَمْدَحُ اللهُ تَعالَى رَسُولَهُ ﷺ فِيها : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [١].

ثُمَّ ما وَرَدَ فى السُّنَّةِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: (إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاق) [٢].

ولِذَلِكَ نَجِدُ الصُّوفِيَّةَ يَعْتَدُّونَ بِهَذا الأَصْلِ أَيَّما اعْتِدادٍ ، والتَّصَوُّفُ عِنْدَهُم مَقْرونٌ بِالأَدَبِ دُونَ مُنازِعٍ ، قالَ (أَبُو حَفْصٍ النَّيْسابُورِي ، ت ٢٧٠ هـ) : (التَّصَوُّفُ كُلُّهُ أَدَبٌ ؛ لِكُلِّ وَقْتٍ أَدَبٌ ، ولِكُلِّ مَقامٍ أَدَبٌ فَمَنْ لَزِمَ آداب الأَوْقاتِ بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجالِ ، ومَنْ ضَيَّعَ الآدابَ فَهُوَ بَعِيدٌ بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ القُرْبَ ، ومَرْدُودٌ مِنْ حَيْثُ يَرْجُو القَبُولَ) [٣]، وقالَ (مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ القَصَّاب ، ٢٧٥ هـ) أُسْتاذُ الجُنَيْد : (التَّصَوُّفُ : أَخْلاقٌ كَرِيمَةٌ ظَهَرَتْ في زَمانٍ كَرِيمٍ مِنْ رَجُلٍ كَرِيمٍ مَعَ قَوْمٍ كِرامٍ) [٤].

وقالَ (أَبُو مُحَمَّدٍ الجَرِيرى ، ت ٣١١ هـ) : إِنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ الدُّخُولُ في كُلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ ، والخُروجُ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ) [٥]، ونَسَبَ الهَجْوِيرِيُّ قَوْلاً للإِمام (مُحَمَّد الباقِر) رضي الله عنه: (التَّصَوُّفُ خُلُقٌ ، فَمَنْ زادَ عَلَيْكَ في الخُلُقِ زادَ عَلَيْكَ في التَّصَوُّف) [٦].

بَلْ إِنَّ (أَبا الحُسَيْنِ النُّوري ، ت ٢٩٥ هـ) يَتَجاوَزُ البُعْدَ المَعْرِفِيَّ لِلتَّصَوُّفِ لِيُقِيمَ أُصُولَهُ عَلَى الأَخْلاقِ وحَسْب ، حَيْثُ قالَ :

(لَيْسَ التَّصَوُّفُ رُسُوماً ولا عُلُوماً ولَكِنَّها أَخْلاقٌ) [٧]، ولَعَلَّ النُّورِيَّ عَدَلَ إِلَى هَذا الرَّأْيِ لِشُيُوعِ أَدْعِياءِ التَّصَوُّفِ في عَصْرِهِ الَّذينَ يَتَمَسَّكُونَ بِالمَعْرِفَةِ الصُّوفِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ دُونَ العَمَلِ بِها ، ومِنَ المَعْروفِ أَنَّ المُعَوَّلَ عَلَيْهِ في المَعْرِفَةِ

---

(١) سُورَةُ القَلَمْ الآيَة ٤
(٢) أَخْرَجَهُ (مالِكٌ) في المُوَطَّأ ص ٤٧٢ .
(٣) طَبَقاتُ الصُّوفِيَّة .
(٤) اللُّمَعُ ، الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .
(٥) اللُّمَعُ لـ(السَّراج الطُّوسِي) .
(٦) كَشْفُ المَحْجُوب ص ٢٣٤ .
(٧) طَبَقاتُ الصُّوفِيَّةَ (أَبو عَبْد الرَّحْمن السُّلَمِي) .

عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ هُوَ تِلْكَ المَعْرِفَةُ الذَّوْقِيَّةُ الصَّادِرَةُ عَنْ حَقِيقَةِ المُجاهَدَةِ بِالشَّرِيعَة .

وهُنَاكَ أَقْوالٌ أُخْرَى غَيْرُ قَلِيلَةٍ تَعْتَمِدُ البُعْدَ الأَخْلاقِيَّ في التَّرْجَمَةِ عَنْ مَفْهُومِ التَّصَوُّفِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأَخْلاقَ السَّنِيَّةَ قاعِدَةٌ لا غِنَى عَنْها في إِحْكامِ مَبْنَى التَّصَوُّفِ ومَعناه .

ولَقَدْ ظَلَّتْ هَذهِ القاعِدَةُ ثابِتَةً ومُمْتَدَّةً وراسِخَةً في أَذْهانِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ ، ويُعَبِّرُ عَنْها (ابْنُ عَرَبي ، ت ٦٣٨ هـ) الَّذي تَبَنَّى مَقُولَةَ أَسْلافِهِ يَوْمَ قَالُوا (إِنَّ التَّصَوُّفَ خُلُقٌ ، فَمَنْ زادَ عَلَيْكَ في الخُلُقِ زادَ عَلَيْكَ في التَّصَوُّفِ)[١] .

ولَمْ يَكْتَفِ الصُّوفِيَّةُ بِحَدِّ التَّصَوُّفِ نَثْراً ، بَلْ عَمِلَ بَعْضُهُم عَلَى حَدِّ مَعْناهُ شِعْراً ، قالَ (أَبُو الفَتْحِ البَسْتِي ، ت ٤٠٠ هـ) في مَعْناهُ المَأْخُوذِ مِنَ الصَّفاء

تَنازَعَ النَّاسُ في الصُّوفِيِّ واخْتَلَفُوا * قِدَماً وظَنُّوهُ مُشْتَقَّاً مِنَ الصُّوفِ
ولَسْتُ أَنْحَلُ هَذا الاسْمَ غَيْرَ فَتَىً * صافَى فَصُوفِيَ حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفي

وفي وَصْفِ الصُّوفِيَّةِ وأَحْوالِهِم في الذِّكْرِ والمُناجاةِ والزُّهْدِ في الدُّنْيا مَحَبَّةً للهِ وشَوْقاً إِلَيْهِ ، بِما يُوافِقُ مَفْهُومَ التَّصَوُّفِ ، يَقُولُ (أَحْمَدُ بنُ الخَرَّاز ، ت ٢٧٩ هـ)[٢] :

حَنِينُ قُلُوبِ العارِفِينَ إِلَى الذِّكْرِ * وتَذْكارُهُم وَقْتَ المُناجاةِ لِلسِّرِّ
هُمُومُهُم جَوَّالَةٌ بِمُعَسْكَرٍ * بِهِ أَهْلُ وُدِّ اللهِ كالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
فَأَجْسامُهُم في الأَرْضِ قَتْلَى بِحُبِّهِ * وأَرْواحُهُم في الحُجْبِ نَحْوَ العُلَى تَسْري
فَما عَرِسُوا إِلاَّ بِقُرْبِ حَبِيبِهِم * وما عَرَجُوا عَنْ مَسِّ بُؤْسٍ ولاضُرِّ

(١) ابْنُ عَرَبي (الفُتُوحاتُ المَكِّيَّة) تحقيق وتَقْديم : عُثْمان يَحْيَى ، تَصْديرُ ومُراجَعَة : د. إبراهيم مَدْكُور ، ط ٢ ، الهَيْئَة المِصْرِيَّةُ العامَّة لِلكِتاب ، ١١ / ٣٤٤ .

(٢) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

ويَرْوِي (ذُو النُّونِ المِصْرِي) عَنِ (امْرَأَةٍ) رَآها في بَعْضِ سَواحِلِ الشَّامِ فَسَأَلَها : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ ؟ قالتْ : مِنْ عِنْدِ أَقْوامٍ تَتَجافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضاجِعِ ، فَقالَ : وأَيْنَ تُرِيدِينَ ؟ قالَتْ إِلَى رِجالٍ لا تُلْهِيهِم تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، فَقالَ : صِفِيهُمْ لِي ؛ فَأَنْشَدَتْ[1] :

قَوْمٌ هُمُومُهُم بِاللهِ قَدْ عَلِقَتْ * فَما لَهُم هِمَمٌ تَسْمُو إِلَى أَحَدِ
فَمَطْلَبُ القَوْمِ مَوْلاهُم وسَيِّدُهُم * ويا حُسْنَ مَطْلَبِهِم لِلْواحِدِ الصَّمَدِ
ما إِنْ تُنازِعُهُم دُنْيا ولا شَرَفٌ * مِنَ المَطاعِمِ واللَّذَّاتِ والوَلَدِ
ولا لِلِبْسِ ثِيابٍ فائِقٍ أَنِقٍ * ولا لِرُوحِ سُرورٍ حَلَّ في بَلَدِ
إِلَّا مُسارَعَةً في إِثْرِ مَنْزِلَةٍ * قَدْ قارَبَ الخَطْوُ فيها باعِدَ الأَبَدِ
فَهُم رَهائِنُ غُدْرانٍ وأَوْدِيَةٍ * وفي الشَّوامِخِ تَلْقاهُمْ مَعَ العَدَدِ

ولـ(أَبِي نَصْرٍ السَّراجِ الطُّوسِي ، ت ٣٧٨ هـ) أَبْياتٌ في بَيانِ مَعْنَى التَّصَوُّفِ وأَحْوالِ الصُّوفِيَّةِ تَكادُ تَكُونُ جامِعَةً ، وفِيها تَفْسِيرٌ إِشارِيٌّ طَرِيفٌ لِمَعانِي حُروفِ كَلِمَةِ (تَصَوُّف) ؛ فالتَّاءُ مِنَ التُّقَى ، والصَّادُ مِنَ الصَّفاءِ ، والواوُ مِنَ الوَفاءِوالفاءُ مِنَ الفُتُوَّةِ ، يَقُولُ :

لا تَسْأَمَنْ مَقالَتِي يا صاحِ * واقْبَلْ نَصِيحَةَ ناصِحٍ نَصَّاحِ
لَيْسَ التَّصَوُّفُ حِيلَةً وتَكَلُّفاً * وتَقَشُّفاً وتَواجُداً بِصِياحِ
لَيْسَ التَّصَوُّفُ كِذْبَةً وبَطالَةً * وجَهالَةً ودُعابَةً بِمِزاحِ
بَلْ عِفَّةٌ ومُرُوَّةٌ وفُتُوَّةٌ * ورِضَىً وصِدْقاً والوَفا بِسَماحِ
وتُقَىً وعِلْماً واقْتِداءً والصَّفا * وقَناعَةً وطَهارَةً بِصَلاحِ
مَنْ قامَ فيهِ بِحَقِّهِ وحُقُوقِهِ * وخَلا عَنِ الحَدَثانِ والأَشْباحِ

[1] عوارِفُ المعارِف (السُّهْرَوَرْدِي) .

مُتَيَقِّناً مُتَصَبِّراً مُتَشَمِّراً * مُسْتَمْطِراً مُتَقَصِّداً بِسِياحِ
مُتَعَزِّزاً مُتَحَرِّزاً مُتَواضِعاً * مُتَبَدِّلَ الأَشْباحِ والأَرْواحِ
تَتَشَعْشَعُ الأَنْوارُ مِنْ أَسْرارِهِ * كَتَشَعْشُعِ المِشْكاةِ في المِصْباحِ
تاءُ التُّقَى صادُ الصَّفا واوُ الْوَفا * فاءُ الفُتُوَّةِ فاغْتَنِمْ يا صاحِ

وإنَّ نُعُوتَ هَؤُلاءِ الرِّجالِ ، مع ما وَرَدَ في الأَبْياتِ السَّابِقَةِ ، تُحِيلُ عَلَى أَغْلَبِ المعانِي الَّتي نَقَلَتْها التَّعْرِيفاتُ المُتَنَوِّعَةُ لِلتَّصَوُّفِ ، مِنْ مِثْلِ :

تَعَلُّقِ الهِمَمِ بِاللهِ ، والمُجاهَدَةِ فيهِ ، والأُنْسِ بِذِكْرِهِ ، والسُّكْرِ بِمَحَبَّتِهِ ، وامْتِلاءِ القَلْبِ بِنُورِ مَعْرِفَتِهِ ، وطَلَبِ الْفَقْرِ والزُّهْدِ في الدُّنْيا ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعانٍ وصُوَرٍ تَرِدُ إِلَى رُكْنَي التَّصَوُّفِ الأَساسِيَّيْنِ المقاماتِ والأَحْوال .

ولَكِنَّ السُّؤالَ الَّذي يَبْقَى قائِماً هُوَ : هَلْ تَمَكَّنَ الصُّوفِيَّةُ مِنْ وَضْعِ تَعْرِيفٍ جامِعٍ مانِعٍ لِلتَّصَوُّفِ ، بِحَيْثُ يَشْتَمِلُ عَلَى الجانِبِ المَعْرِفِيِّ والجانِبِ الأَخْلاقِيِّ فَضْلاً عَنْ رُكْنَي المَقاماتِ والأَحْوال ؟

لَعَلَّ الإمامَ (الجُنَيْد) وهُوَ المَنْعُوتُ بِسَيِّدِ الطَّائِفَةِ ، يُلْقِي الضَّوْءَ عَلَى هَذا التَّساؤُلِ ، فَمِنْ أَقْوالِهِ الجامِعَةِ في تَعْرِيفِ التَّصَوُّف :

(تَصْفِيَةُ القَلْبِ عَنْ مُوافَقَةِ البَرِيَّةِ ، ومُفارَقَةُ الأَخْلاقِ الدَّنِيَّةِ ، وإِخْمادُ الصِّفاتِ البَشَرِيَّةِ ، ومُجانَبَةُ الدَّعاوَي النَّفْسانِيَّةِ ، ومُنازَلَةُ الصِّفاتِ الرُّوحانِيَّةِ والتَّعَلُّقُ بِالعُلُومِ الحَقِيقِيَّةِ ، واسْتِعْمالُ ما هُوَ أَوْلَى عَلَى الأَبَدِيَّةِ ، والنُّصْحُ لِجَمِيعِ الأُمَّةِ ، والوفاءُ لِلَّهِ عَلَى الحَقِيقَةِ ، واتِّباعُ الرَّسُولِ ﷺ في الشَّرِيعَةِ)[1] .

وهَذا التَّعْرِيفُ عَلَى طُولِهِ يُخْتَصَرُ في شِقَّيْنِ ؛ الأَوَّلُ : يَتَمَثَّلُ في مُجاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى وِفْقِ الشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، والثَّاني : فى إِدْراكِ الحَقِيقَةِ (زُبْدَةِ الشَّرِيعَةِ) ، وبِهَذَيْنِ الشِّقَّيْنِ يَكْتَمِلُ مَعْنَى التَّصَوُّف .

---

(١) التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّف .

ولَكِنْ بِما أَنَّ المُصْطَلَحَ يَجْنَحُ إِلَى الإيجازِ ، وإِفادَةِ المَعْنَى بِأَقَلِّ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ الأَلْفاظِ ، فَقَد نَجِدُ مُبْتَغانا عِنْدَ (أَبِى بَكْرٍ الكِتَّانِى) الَّذي يُعَرِّفُ : (التَّصَوُّفَ) بِأَنَّهُ : (صَفاءٌ ومُشاهَدَةٌ) .

فالصَّفاءُ : هُوَ المُعَبَّرُ عَنْهُ بِمُجاهَدَةِ النَّفْسِ ، والمُشَاهَدَةُ : هِيَ المُعَبَّرُ عَنْها بِالحَقِيقَةِ ، والحَقِيقَةُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ : شَهادَةُ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ كَما شَهِدَها اللهُ عَزَّ وجَلَّ في حَقِّ نَفْسِهِ ، والمَلائِكَةُ ، وأُولُو العِلْمِ ، وذَلِكَ في قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ (١) . وبِذَلِكَ يَكُونُ هَذا التَّعْرِيفُ مُؤَهَّلاً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ مَعْنَى التَّصَوُّفِ ، مِنْ ناحِيَةٍ فَنِّيَّةٍ ومَوْضُوعِيَّةٍ ، لِكَوْنِهِ مُخْتَصَراً ، ومُشْتَمِلاً عَلَى وَسِيلَةِ الصُّوفِيِّ في الوُصُولِ إِلَى حَقِيقَةِ التَّوْحِيد .

(٢) في تارِيخِ المُصْطَلَح :

إِتْماماً لِلْفائِدَةِ في بَيانِ المُصْطَلَحِ ، يَحْسُنُ الوقُوفُ عَلَى الفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتي بَدَأَ يَشِيعُ فِيها ، فَقَدْ دَفَعَ (الطُّوسِيُّ ، ت ٣٧٨ هـ) تُهْمَةَ الحُدوثِ عَنْ هَذا المُصْطَلَحِ ، وأَنَّهُ لَم يُعْرَفْ إِلاَّ في فَتْرَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ نِسْبِيّاً ، ظَنّاً مِنْهُ أَنَّ تُهمَةً كَهَذِهِ قَدْ تُخِلُّ بِنِسْبَةِ التَّصَوُّفِ إِلَى الإِسْلامِ ، أَو النَّظَرِ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ بِدْعَة .

ولَقَدْ مَرَّ مَعَنا أَنْ لا مُشاحَةَ في التَّسْمِيَةِ ما دامَ مَبْناها ومَعْناها لا يُخالِفانِ الكِتابَ والسُّنَّةَ ، وأَمَّا البُعْدُ الزَّمَنِيُّ أَو قُرْبُهُ مِنَ الصَّدْرِ الأَوَّلِ مِنَ الإِسْلامِ فَلا يُقَلِّلُ مِنْ قِيمَةِ المُصْطَلَحِ ، وإِنْ كانَ قُرْبُهُ يَزِيدُها صَلابَةً فِيما لَوْ كانَ مُتَداوَلاً فِيه .

وأَيّاً كانَ الأَمْرُ ، فـ(الطُّوسِيُّ) يُحاوِلُ إِرْجاعَ تارِيخِ الكَلِمَةِ إِلَى ماقَبْلَ الإِسْلامِ ، اسْتِناداً إِلَى (مُحَمَّدِ بنِ إِسْحاقَ بنِ يَسارٍ ، ت ١٥٠ هـ) في كِتابِهِ

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ١٨ .

الَّذي جَمَعَ فيهِ أَخْبارَ مَكَّةَ ، قالَ : (إِنَّهُ قَبْلَ الإِسْلامِ قَدْ خَلَتْ مَكَّةُ في وَقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ حَتَّى لا يَطُوفُ بِالبَيْتِ أَحَدٌ ، وكانَ يَجِيءُ مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ رَجُلٌ صُوفِيٌّ فَيَطُوفُ بِالبَيْتِ ويَنْصرِفُ)[1] ، عَلَى أَنَّ هَذا الخَبَرَ لا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ كَثِيراً في البَحْثِ المَوْضُوعِي ، بَلْ إِنَّ الطُّوسِيَّ نَفْسَهُ يُلَمِّحُ إِلَى الشَّكِ فيهِ ، وهُوَ إِذْ يُورِدُهُ فَإِنَّما يُورِدُهُ لِلاسْتِئْناسِ لا لِلْيَقِينِ ، يَقُولُ : (فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَبْلَ الإِسْلامِ كانَ يُعْرَفُ هَذا الاسْمُ ، وكانَ يُنْسَبُ إِلَيْهِ أَهْلُ الفَضْلِ والصَّلاح)[2] . وهُنا نَتَساءَلُ : هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذا الرَّجُلُ الصُّوفِيُّ مُنْحَدِراً مِنْ سُلالَةِ بَنِي صُوفَةَ ؟ أَو مِمَّنْ يُنْسَبُونَ إِلَيْهِم ؟ ثُمَّ يَرْوِي الطُّوسِي عنِ (الحَسَنِ البَصْري ، ت ١١٠ هـ) أَنَّهُ قالَ : (رَأَيْتُ صُوفِيّاً في الطَّوافِ فَأَعْطَيْتُهُ شَيْئاً فَلَمْ يَأْخُذْ ، وقالَ مَعِيَ أَرْبَعَةُ دَوانِيقَ فَيَكْفِينِي ما مَعِي)[3] ، ويَسْتَدِلُّ كَذَلِكَ بِقَوْلِ (سُفْيانَ الثَّوْرِيِّ ، ت ١٦١ هـ) : (لَوْلا أَبُوهاشِم الصُّوفِيُّ ما عَرَفْتُ دَقِيقَ الرِّياء)[4] . وبِناءً عَلَى هَذَيْنِ الخَبَرَيْنِ يَكُونُ مُصْطَلَحُ التَّصَوُّفِ قَدْ عُرِفَ في النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ الثَّاني الهِجْري .

ومِمَّا يُؤَكِّدُ صِحَّةَ شاهِدَي (الطُّوسِي) المَذْكُورَيْنِ آنِفاً ، قَوْلُ (مُساوِر الوَرَّاق ، ت ١٥٠ هـ) وهُوَ شاعِرٌ كُوفِيٌّ ومِنْ أَصْحابِ الحَدِيثِ ، في بَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ يَعِيبُ فِيهِما عَلَى رَجُلٍ رِياءَهُ وتَظاهُرَهُ بِالصَّلاحِ ، ويَذْكُرُ فِيها لَفْظَ التَّصَوُّفِ[5] :

تَصَوَّفَ كَي يُقالَ لَهُ أَمِينٌ * وما يَعْنِي التَّصَوُّفَ والأَمانَة
ولَمْ يُرِدِ الإِلَهَ بِهِ ولَكِنْ * أَرادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الخِيانَة

فَمِمَّا لا شَكَّ فيهِ أَنَّ اسْتِعْمالَ هَذِهِ الكَلِمَةِ كانَ قَدْ شاعَ قَبْلَ الخَمْسِينَ وبَعْدَ

---

(١) اللُّمَع . لـ(السَّراج الطُّوسِي) .
(٢) المَصْدَرُ نَفْسُهُ
(٣) اللُّمَع .
(٤) ابْنُ الجَوْزِي (صِفَةُ الصَّفْوَة) .
(٥) ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ (العِقْدُ الفَرِيد) .

المائَةِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ صُورَةَ الصُّوفِيِّ في البَيْتَيْنِ ، تَكْشِفُ عَنْ أَنَّ التَّصَوُّفَ كانَ مَعْروفاً ومُمارَساً مُنْذُ زَمَنٍ لا تُدْرَى حَدُّ بِدايَتِهِ ، ولَكِنَّهُ يَكْفي لِلْحَدْسِ بِمُدَّةٍ طَويلَةٍ نِسْبِيَّاً ، لِكَي يَصيرَ لِلتَّصَوُّفِ أَدْعِياءُ ، الأَمْرُ الَّذي يُؤَكِّدُ صِحَّةَ الرِّوايَةِ الَّتي نَقَلَها (الطُّوسِيُّ) عَنِ (الحَسَنِ البَصْريِّ) ، وبِذَلِكَ يَكُونُ مُصْطَلَحُ التَّصَوُّفِ والصُّوفِيِّ ، قَدْ عُرِفا فِيما بَيْنَ مَطْلَعِ القَرْنِ الهِجْرِيِّ الثَّاني ونِهايَةِ النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنْهُ ، وهُوَ داخِلٌ في عَصْرِ التَّابِعين .

(٣) في المَصْدَرِ الإِسْلامِيِّ لِلتَّصَوُّف :

ولَئِنْ كَثُرَ الجَدَلُ في اشْتِقاقِ التَّصَوُّفِ ، فَقَدْ كَثُرَ الخِلافُ في مَصادِرِهِ عَلَى أَنَّ البَيانَ هُنا لَنْ يَدْخُلَ في مُعْتَرَكِ الخِلافِ بِقَدْرِ ما سَيُحاوِلُ اسْتِخْراجَ أَرْكانٍ إِسْلامِيَّةٍ عامَّةٍ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ أُصُولاً لِلتَّصَوُّفِ ؛ ولَقَدْ كانَ الصُّوفِيَّةُ الأَوائِلُ ، ولاسِيَّما المَعْنِيُّونَ بِتأْرِيخِ التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ ، قَد تَصَدَّوا لِبَيانِ هَذهِ المَسْأَلَةِ ، فاسْتَخْرَجُوا مِنْ مَصْدَرَي التَّشْريعِ الإِسْلامِيِّ (الكِتابِ والسُّنَّةِ) ما يُؤَكِّدُ شَرْعِيَّةَ التَّصَوُّفِ ، وانْتِماءَهُ الأَصِيلَ لِلإِسْلامِ ، وها هُوَ ذا (الطُّوسِي) يَذْهَبُ إِلَى تَقْييدِ التَّصَوُّفِ بِأَرْبَعَةِ أُصُولٍ إِسْلامِيَّةٍ هِيَ:[1]

١ - مُتابَعَةُ كِتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ .

٢ - الاقْتِداءُ بِالرَّسُولِ ﷺ .

٣ - التَّخَلُّقُ بِأَخْلاقِ الصَّحابَةِ والتَّابِعين .

٤ - التَّأَدُّبُ بِآدابِ عِبادِ اللهِ الصَّالِحين .

وقَدْ أَيَّدَ أُصُولَ (الطُّوسِي) هَذهِ كُلُّ مَنْ كَتَبَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ عَنِ التَّصَوُّفِ بَعْدَهُ حَتَّى إِنَّ (ابْنَ خَلْدُونَ ، ت ٨٠٨ هـ) ، وهُوَ مِنْ غَيْرِ الصُّوفِيَّةِ ، يُدْرِكُ الصِّلَةَ الوَثِيقَةَ بَيْنَ التَّصَوُّفِ ومَصْدَرِهِ الإِسْلامِيِّ ، ويُقِرُّها بِما يَتَّفِقُ مَعَ مُجْمَلِ ما

---

(١) اللُّمَع ص ٢١ .

ذَكَرَهُ (الطُّوسِيُّ) فيَقُولُ : (هَذا العِلْمُ مِنَ العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الحادِثَةِ في المِلَّةِ وأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَ هَؤُلاءِ القَوْمِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الأُمَّةِ ، وكِبارِها مِنَ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ ومَنْ بَعْدَهُم ، طَرِيقَ الحَقِّ والهِدايَةِ .

وأَصْلُها العُكُوفُ عَلَى العِبادَةِ ، والانْقِطاعُ إِلَى اللهِ تَعالَى ، والإِعْراضُ عَنْ زُخْرُفِ الدُّنْيا وزينَتِها ، والزُّهْدُ فِيما يُقْبِلُ عَلَيْهِ الجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ ومالٍ وجاهٍ ، والانْفِرادُ عَنِ الخَلْقِ في الخَلْوَةِ لِلْعبادَةِ ، وكانَ ذَلِكَ عامًّا في الصَّحابَةِ والسَّلَفِ فَلَمَّا فَشا الإِقْبالُ عَلَى الدُّنْيا في القَرْنِ الثَّاني وما بَعْدَهُ ، وجَنَحَ النَّاسُ إِلَى مُخالَطَةِ الدُّنْيا ، اخْتَصَّ المُقْبِلُونَ عَلَى العِبادَةِ بِاسْمِ الصُّوفِيَّةِ والمُتَصَوِّفَة)(١)

وهَذِهِ شَهادَةٌ مِنْ ناقِدٍ تارِيخِيٍّ ذِي عَيْنٍ بَصيرَةٍ ، وهُوَ مِنْ غَيْرِ الصُّوفِيَّةِ ، يَرَى أَنَّ أَصْلَ التَّصَوُّفِ نابِعٌ مِنَ الاقْتِداءِ بِالصَّحابَةِ والتَّابِعينَ ، وهَؤُلاءِ هُم النُّخْبَةُ الَّذِينَ اقْتَدَوا بِالرَّسُولِ ﷺ .

وأَمَّا ما يَخُصُّ أُصُولَ الطُّوسِي ، فَإِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ ، مِنْ بَيْنِها يُعَدُّ المَصْدَرَ الأَوَّلَ لِثُنائِيَّةِ الأَحْوالِ والمَقاماتِ ، حَيْثُ ذَكَرَ التَّوَّابِينَ ، والصَّابِرينَ ، والفُقَراءَ ، والمُتَوَكِّلِينَ ، والشَّاكِرينَ ، والرَّاضِينَ ، والذَّاكِرينَ ، والخاشِعِينَ ، والْخائِفينَ ، والرَّاجِينَ ، والْوَجِلِينَ ، والْمُقَرَّبِينَ .

وفي ذِكْرِ المُشاهِدينَ ، قالَ تَعالَى : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾(٢) ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ ويَدْخُلُ في المَقاماتِ والأَحْوال .

ولا يَسَعُنا هُنا إِلاَّ اسْتِحْضارُ مَعْنَى التَّصَوُّفِ الَّذى اسْتَخْلَصَهُ البَيانُ آنِفاً وهُوَ : (الصَّفاءُ والمُشاهَدَة) ، وقَدْ ذَكَرْنا أَنَّ : الصَّفاءَ هُوَ (الوَسِيلَةُ = المُجاهَدَة) ، والغايَةُ هِيَ (المُشاهَدَةُ = المَعْرِفَةُ) ، ويُسْتَدَلُّ عَلَى المُجاهَدَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٣) .

---

(١) ابْنُ خَلْدُون (المُقَدِّمَة) . (٢) سُورَةُ ق آية ٣٧ . (٣) سُورَةُ العَنْكَبُوت مِنَ الآيَة ٦٩

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [1]، وقالَ ﷺ (المُجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ في اللهِ) [2].

أمَّا سُلوكُ الرَّسُولِ ﷺ، والصَّحابَةِ والتابِعينَ وعِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، فالشَّواهِدُ عَلَيْها وَفيرَةٌ في هَذا المَجالِ، ويُكْتَفَى بِإحالَةِ المُتطَلِّعِ والمُسْتَزِيدِ عَلَى كُتُبِ السِّيَرِ والحَدِيثِ والطَّبَقاتِ والتَّارِيخِ، لِيَلْمَسَ مَدَى انْشِغالِ رِجالِ الصَّدْرِ الأَوَّلِ بِمُجاهَدَةِ النَّفْسِ وتَزْكِيَتِها حَسْبَ أُصُولِ الشَّرِيعَة .

أَمَّا ثَمَرَةُ المُجاهَدَةِ، وهِيَ المَعْرِفَةُ، فَتُسْتَخْلَصُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [3]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [4]، أي فُرْقاناً بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ. وهَذا الفُرْقانُ هُوَ الَّذي يُمَثِّلُ جَوْهَرَ المَعْرِفَةِ الصُّوفِيَّةِ، حِينَما يَسْعَى صاحِبُها إِلَى البَحْثِ عَنْ وَجْهِ الحَقِّ في الأَشْياءِ بِالتَّقْوَى .

والتَّقْوَى لَيْسَتْ مُجَرَّدَ عِلْمٍ وحَسْب، وإِنَّما سُلوكٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أي مُجاهَدَة .

فَإِذا ما انْتَقَلْنا إِلَى الأَصْلِ الرَّابِعِ والأَخِيرِ مِنْ أُصُولِ الطُّوسِي، وهُوَ التَّأَدُّبُ بِآدابِ عِبادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَسَوْفَ نَجِدُ أَنَّهُ يَنْطَبِقُ عَلَى الصُّوفِيَّةِ، حَيْثُ تَجَلَّتِ المَعانِي السَّابِقَةُ في أَقْوالِهِم ذاتِ الطَّابَعِ المَعْرِفِيِّ الصَّادِرِ عَنْ تَجْرِبَةِ المُجاهَدَة .

يَقُولُ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاق : (مَنْ زَيَّنَ ظاهِرَهُ بِالمُجاهَدَةِ حَسَّنَ اللهُ سَرائِرَهُ بِالمُشاهَدَة) [5]، ويَقُولُ (أَبُو عُثْمانَ المَغْرِبِي، ٣٧٣ هـ) : (مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، أو يُكْشَفُ لَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْها مِنْ غَيْرِ لُزُومِ المُجاهَدَةِ فَهُوَ مُخْطِىء) [6]، ويَجْدُرُ التَّنْبِيهُ هُنا إِلَى أَنَّ الصُّوفِيَّةَ يَسْتَعْمِلُونَ مُصْطَلَحاتٍ

---

(١) سُورَةُ النَّازِعات الآية ٤٠ . ٤١ .

(٢) أَخْرَجَه (التِّرمِذِيُّ) في بابِ فَضائِلِ الجِهاد .

(٣) سُورَةُ البَقَرة مِنَ الآية ٢٨٢ .

(٤) سُورَةُ الأَنفال مِنَ الآية ٢٩ .

(٥) الرِّسالَةُ القشيرية .

(٦) المَصْدَرُ نَفْسُه .

مُتداوَلَةٍ بَيْنَهُم ، كالكَشْفِ والفَتْحِ ، والمُشاهَدَةِ ، في سِياقِ التَّعْبِيرِ عَنِ الجانِبِ المَعْرِفِيِّ لَدَيْهِم .

بَيانُ ما قَدْ يَتَبادَرُ إِلَى الأَذْهانِ بِالتَّساؤُلِ عَنِ السَّبَبِ في عَدَمِ انْتِشارِ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّصَوُّفِ في صَدْرِ الإِسْلامِ ، وعَدَمِ ظُهُورِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلاَّ بَعْدَ عَهْدِ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ ؟

والجَوابُ عَنْ هَذا : (إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ مِنْ حاجَةٍ إِلَيْها في العَصْرِ الأَوَّلِ ، لأَنَّ أَهْلَ هَذا العَصْرِ كانُوا أَهْلَ تَقْوَى ووَرَعٍ ، وأَرْبابَ مُجاهَدَةٍ وإِقْبالٍ عَلَى العِبادَةِ بِطَبِيعَتِهِمْ ، وبِحُكْمِ قُرْبِ اتِّصالِهِمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَكانُوا يَتَسابَقُونَ ويَتَبارَوْنَ في الاقْتِداءِ بِهِ ﷺ في ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ما يَدْعُو إِلَى تَلْقِينِهِم عِلْماً يُرْشِدُهُمْ إِلَى أَمْرٍ هُمْ قائِمُونَ بِهِ فِعْلاً ، وإِنَّما مَثَلُهُمْ في ذَلِكَ كَمَثَلِ العَرَبِيِّ القُحِّ ، يَعْرِفُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ بِالتَّوارُثِ كابِراً عَنْ كابِرٍ ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَقْرِضُ الشِّعْرَ البَلِيغَ بِالسَّلِيقَةِ والفِطْرَةِ ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ شَيْئاً مِنْ قَواعِدِ اللُّغَةِ والإِعْرابِ والنَّظْمِ والقَرِيضِ ، فَمِثْلُ هَذا لا يَلْزَمُهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ النَّحْوَ ودُرُوبَ البَلاغَةِ ، ولَكِنَّ عِلْمَ النَّحْوِ وقواعِدَ اللُّغَةِ والشِّعْرِ تُصْبِحُ لازِمَةً وضَرُورِيَّةً عِنْدَ تَفَشِّي اللَّحْنِ ، وضَعْفِ التَّعْبِيرِ ، أَوْ لِمَنْ يُرِيدُ مِنَ الأَجانِبِ أَنْ يَتَفَهَّمَها ويَتَعَرَّفَ عَلَيْها ، أَو عِنْدَما يُصْبِحُ هَذا العِلْمُ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُوراتِ الاجْتِماعِ كَبَقِيَّةِ العُلُومِ الَّتي نَشَأَتْ وتَأَلَّفَتْ عَلَى تَوالِي العُصُورِ في أَوْقاتِها المُناسِبَة .

فالصَّحابَةُ والتَّابِعُونَ (وإِنْ لَمْ يَتَسَمَّوا بِاسْمِ المُتَصَوِّفِينَ) كانُوا صُوفِيِّينَ فِعْلاً وإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ اسْماً، وماذا يُرادُ بِالتَّصَوُّفِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَعِيشَ المَرْءُ لِرَبِّهِ لا لِنَفْسِهِ ، ويَتَحَلَّى بِالزُّهْدِ ومُلازَمَةِ العُبُودِيَّةِ ، والإِقْبالِ عَلَى اللهِ بِالرُّوحِ والقَلْبِ في جَمِيعِ الأَوْقاتِ ، وسائِرِ الكَمالاتِ الَّتي وَصَلَ بِها الصَّحابَةُ والتَّابِعُونَ

مِنْ حَيْثُ الرُّقِيِّ الرُّوحِيِّ إِلَى أَسْمَى الدَّرجاتِ : فَهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بالإقْرارِ في عَقائِدِ الإيمانِ ، والقِيامِ بِفُروضِ الإسْلامِ ، بَلْ قَرَنُوا الإقْرارَ بالتَّذَوُّقِ والوِجْدانِ ، وزادُوا عَلَى الفُروضِ الإتْيانَ بِكُلِّ ما اسْتَحَبَّهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ نَوافِلِ العِباداتِ ، وابْتَعَدوا عَنِ المَكْرُوهاتِ فَضْلاً عَنِ المُحَرَّماتِ ، حَتَّى اسْتَنارَتْ بَصائِرُهُمْ ، وتَفَجَّرَتْ يَنابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وفاضَتِ الأَسْرارُ الرَّبَّانِيَّةُ عَلَى جَوانِحِهِمْ .

وكَذَلِكَ كانَ شَأْنُ التَّابِعِينَ وتابِعي التَّابِعِينَ ، وهَذِهِ العُصُورُ الثَّلاثَةُ كانَتْ أَزْهَى عُصُورِ الإسْلامِ وخَيْرَها عَلَى الإطْلاقِ ، وقَدْ جاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلُهُ (خَيْرُ القُرونِ قَرْني هَذا فالَّذِي يَلِيهِ والَّذي يَلِيه)(١).

فَلَمَّا تَقادَمَ العَهْدُ ، ودَخَلَ في حَظِيرَةِ الإسْلامِ أُمَمٌ شَتَّى ، وأَجْناسٌ عَدِيدَةٌ ، واتَّسَعَتْ دائِرَةُ العُلُومِ ، وتَقَسَّمَتْ وتَوَزَّعَتْ بَيْنَ أَرْبابِ الاخْتِصاصِ ؛ قامَ كُلُّ فَرِيقٍ بِتَدْوِينِ الفَنِّ والعِلْمِ الَّذِي يُجِيدُهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ ، فَنَشَأَ (بَعْدَ تَدْوِينِ النَّحْوِ في الصَّدْرِ الأَوَّلِ) عِلْمُ الفِقْهِ ، وعِلْمُ التَّوْحِيدِ ، وعُلُومُ الحَدِيثِ ، وأُصُولُ الدِّينِ ، والتَّفْسِيرُ ، والمَنْطِقُ ، ومُصْطَلَحُ الحَدِيثِ ، وعِلْمُ الأُصُولِ ، والفَرائِضُ (المِيراثُ) وغَيْرُها ...

وحَدَثَ بَعْدَ هَذِهِ الفَتْرَةِ أَنْ أَخَذَ التَّأْثِيرُ الرُّوحِيُّ يَتَضاءَلُ شَيْئاً فَشَيْئاً ، وأَخَذَ النَّاسُ يَتَناسَوْنَ ضَرورَةَ الإقْبالِ عَلَى اللهِ بِالعُبُودِيَّةِ ، وبِالقَلْبِ والهِمَّةِ ، مِمَّا دَعا أَرْبابُ الرِّياضَةِ والزُّهْدِ إِلَى أَنْ يَعْمَلُوا هُمْ مِنْ ناحِيَتِهِمْ أَيْضاً عَلَى تَدْوِينِ عِلْمِ التَّصَوُّفِ ، وإِثْباتِ شَرَفِهِ وجَلالِهِ وفَضْلِهِ عَلَى سائِرِ العُلُومِ ، ولَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ احْتِجاجاً عَلَى انْصِرافِ الطَّوائِفِ الأُخْرَى إِلَى تَدْوِينِ عُلُومِهِمْ (كَما يَظُنُّ ذَلِكَ خَطَأً بَعْضُ المُسْتَشْرِقِينَ) بَلْ كانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ سَدّاً

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخاري) في صَحيحِهِ في كِتابِ الشَّهاداتِ ، و(مُسْلِمٌ) في فَضائِلِ الصَّحابَةِ عَنْ (ابنِ مَسْعُودٍ) رضي الله عنه.

لِلنَّقْصِ ، واسْتِكْمالاً لِحاجاتِ الدِّينِ في جَميعِ نَواحِي النَّشاطِ ، مِمَّا لا بُدَّ مِنْهُ لِحُصُولِ التَّعاوُنِ عَلَى تَمْهيدِ أَسْبابِ البِرِّ والتَّقْوَى) [١].

والفَضْلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأَعْداءُ

ولَمْ يَسْتَطِعِ المُسْتَشْرِقُونَ أَنْفُسُهُم ، عَلَى كَثافَةِ دِراساتِهِم لِلتَّصَوُّفِ ، واخْتِلافِ أَهْدافِهِم [٢] ، إِلَّا أَنْ يُقِرُّوا بِالمَصْدَرِ الإِسْلامِيِّ لَهُ ، ولَعَلَّ تَجْرِبَةَ (نِيكِلْسُون) في هَذا المَجالِ ، تكُونُ مِثالاً جَيِّداً عَلَى ذَلِكَ حِينَما تَراجَعَ عَنْ آرائِهِ السَّابِقَةِ الَّتي أَعْلَنَها سَنَةَ ١٩٠٦ م ، والَّتي يَذْكُرُ فِيها أَنَّ التَّصَوُّفَ وَلِيدُ الأَفَلاطُونِيَّةِ المُحْدَثَةِ والمَسِيحِيَّةِ والغُنُوصِيَّة .

وقَدْ كَتَبَ سَنَةَ ١٩٢١ م مَقالاً يُثْبِتُ فيهِ تَراجُعَهُ ، ويَنْفِي أَنْ يَكُونَ التَّصَوُّفُ وَلِيدَ الثَّقافاتِ الأَجْنَبِيَّةِ ، ويُشِيرُ إِلَى أَنَّ ظاهِرَتَي الزُّهْدِ والتَّصَوُّفِ اللَّتَيْنِ نَشَأَتا في الإِسْلامِ ، كانَتا إِسْلامِيَّتَيْنِ في الصَّمِيمِ [٣] ، أَمَّا ماسِينْيُون ، فَإِنَّهُ يَرَى بَعْدَ دِراسَتِهِ لِمُصْطَلَحاتِ التَّصَوُّفِ أَنَّ مَصادِرَها أَرْبَعَةٌ:

١ - القُرْآنُ الكَرِيمُ ، وهُوَ المَصْدَرُ الرَّئِيسُ لِلْمُصْطَلَحاتِ الصُّوفِيَّة .

٢ - العُلُومُ العَرَبِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ ، كالحَدِيثِ والفِقْهِ وغَيْرِها .

٣ - مُصْطَلَحاتُ المُتَكَلِّمِينَ الأَوائِل .

٤ - اللُّغَةُ العِلْمِيَّةُ الَّتي تَكَوَّنَتْ في الشَّرْقِ فى القُرونِ السِّتَّةِ المَسِيحِيَّةِ الأُولَى مِنْ لُغاتٍ أُخْرَى ، كاليُونانِيَّةِ والفارِسِيَّةِ وغَيْرِهِما وأَصْبَحَت لُغَةَ العِلْمِ والفَلْسَفَةِ ، ثُمَّ يُشِيرُ في نِهايَةِ الأَمْرِ إِلَى أَنَّ التَّصَوُّفَ الإِسْلامِيَّ قَدْ نَشَأَ مِنْ

---

(١) مِنَ بَحْثِ (التَّصَوُّف مِنَ الوِجْهَةِ التَّارِيخِيَّة) لِلدَّكْتور أَحْمَد عَلْوَش .

(٢) يَكْشِفُ (أَرِبْري) عَنْ أَنَّ عَدَداً لا بَأْسَ بِهِ مِنَ المُسْتَشْرقِينَ ، انْطِلاقاً مِنْ مَوْقِفٍ مُنْحازٍ ، يَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ فِكْرَةٍ سَلِيمَةٍ أَو ذاتِ طابَعٍ مُتَمَيِّزٍ فِي الإِسْلامِ هِيَ مِنْ أَصْلٍ أَجْنَبِيٍّ ، ويَجِبُ أَنْ يَنْسِبُوها إِلى مَصْدَرٍ مِنَ المَصادِرِ غَيْرِ الإِسْلامِيَّةِ ، وهَذا عَلى حَدِّ قَوْلِهِ لَيْسَ بِالعِلْمِ الصَّادِقِ النَّزِيهِ ، بَلْ هُوَ مِنْ أَسْوأ أَشْكالِ التَّعَصُّبِ الطَّائِفِي .

(٣) arebrry,aj ,anintroduction to the historyof sufism , oxford . P55
في التَّصَوُّفِ الإِسْلامِي وتارِيخِهِ . تَرْجَمَة (د. أبو العلا عفيفى) .

صَمِيمِ الإِسْلامِ نَفْسِهِ ، عَلَى الأَقَلِّ فى القُرونِ الثَّلاثَةِ الأُولَى[١] ، بَلْ إِنَّ بَعْضَ المُسْتَشْرِقِينَ يَرَى أَنَّهُ (لا صُوفِيَّةَ مِنْ غَيْرِ إِسْلام)[٢] .

ومِمَّا يُسْتَحْسَنُ في خِتامِ هَذا البَيانِ ، تَسْجِيلُ بَعْضِ أَقْوالِ الصُّوفِيَّةِ أَنْفُسِهِم الَّتي تَرْبِطُ طَرِيقَهُم وعُلُومَهُم بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ والسُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ وأَخْلاقِ الإِسْلامِ الرَّفِيعَةِ :

قالَ ذُو النُّونِ المِصْري : (مِنْ عَلاماتِ المَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ مُتابَعَةُ حَبِيبِ اللهِ ﷺ في أَخْلاقِهِ وأَفْعالِهِ وأَوامِرِهِ وسُنَّتِهِ)[٣] .

وقالَ الجُنَيْدُ : (الطُّرُقُ كُلُّها مَسْدُودَةٌ عَلَى الخَلْقِ إِلاَّ مَنِ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ)[٤] .

وقالَ : (مَنْ لَمْ يَحْفَظِ القُرْآنَ ، ولَمْ يَكْتُبِ الحَدِيثَ ، لا يُقْتَدَى بِهِ فِي هَذا الأَمْرِ ، لأَنَّ عِلْمَنا هَذا مُقَيَّدٌ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ)[٥] .

وقالَ (شاه الكَرْماني ، ت ٣٠٠ هـ) :

(مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ المَحارِمِ ، وأَمْسَكَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ ، وعَمَّرَ باطِنَهُ بِدَوامِ المُراقَبَةِ ، وظاهِرَهُ بِاتِّباعِ السُّنَّةِ ، وعَوَّدَ نَفْسَهُ أَكْلَ الحَلالِ ، لَمْ تُخْطِىءْ لَهُ فِراسَةٌ)[٦] .

وقَدْ عَبَّرَ (الشِّبْلِي) عَنْ عِلْمِ التَّصَوُّفِ شِعْراً بِما يَنْسَجِمُ وقَوْلَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ (عَلِيِّ بنِ أَبِى طالبٍ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، فى وَصْفِهِ العُلَماءَ الرَّبَّانِيِّينَ بِقَوْلِهِ : (... وصَحِبُوا الدُّنْيا بِأَبْدانٍ أَرْواحُها مُعَلَّقَةٌ بِالمَحَلِّ الأَعْلَى أُولَئِكَ خُلَفاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ ...)[٧] .

---

(١) Introduction to the history of sufism

(٢) stoddart , william , the mystical doctrines and methods of Islam (newdelhi, jaj company) p19.

(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) : الرِّسالةُ القُشَيْرِيَّة .

(٧) الشَّرِيفُ الرَّضِي . نَهْجُ البَلاغَة .

يَقُولُ الشِّبْلِي :[1]

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لا نَفادَ لَهُ * عِلْمٌ سَنِيٌّ سَماوِيٌّ رُبُوبِيُّ
فيهِ الفَوائِدُ لِلْأَلْبابِ يَعْرِفُها * أَهْلُ الجَزالَةِ والصُّنْعُ الخُصُوصِيُّ

وَيَبْقَى عِلْمُ التَّصَوُّفِ أَسْمَى مِنْ أَنْ تَحِدَّهُ عِبارَةٌ ، أَوْ تَصِفَهُ كَلِماتٌ ، فالتَّصَوُّفُ هُوَ كُلُّ ماقِيلَ ، وهُوَ فَوْقَ ماقِيلَ ، وفَوْقَ ما يُقالُ كَذلِكَ .

وإذا كانَ الإِسْلامُ عَمَلَ الجَوارِحِ مُظْهِرَةً أَرْكانَ البُنْيانِ (مِنْ شَهادَةٍ وصَلاةٍ وصِيامٍ وزَكاةٍ وحَجٍّ) فالمُؤَدِّي لَها عَلَى تَمامِها ذَلِكَ هُوَ الإِنْسانُ الصُّوفِي .

وإذا كانَ الإِيمانُ تَصْدِيقاً بِالجَنانِ وأَنَّهُ كَما يَزْدادُ فَإِنَّهُ يَعْتَرِيهِ النُّقْصانُ ، فالَّذِي يَزْدادُ إِيمانُهُ ويَزْدادُ ويَزْدادُ فَذَلِكَ هُوَ الإِنْسانُ الصُّوفِي .

وإذا كانَ الإِحْسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ ، فَكُلُّ مَنْ تَحَقَّقَ بِهَذا المَقامِ فَذَلِكَ هُوَ الإِنْسانُ الصُّوفِي .

ويَبْقَى السُّلُوكُ المُحَمَّدِيُّ الصَّحِيحُ والطَّوِيَّةُ الصَّافِيَةُ المُخْلِصَةُ أَصْدَقَ في تَجْلِيَةِ مَعْنَى التَّصَوُّفِ مِنْ أَي بَلاغَةٍ لَفْظِيَّةٍ ، ولِلَّهِ دَرُّ (المَكْزُون السِّنْجاري ، ٦٣٨ هـ) يَوْمَ قالَ :

عِلْمُ التَّصَوُّفِ لَيْسَ يُدْرَكُ * بِالإِشارَةِ والعِبارَة
إِلاَّ لِقَلْبٍ مُخْلِصٍ * بِالرُّوحِ يُلْقِيها أَمارَة
فَجَلا اليَقِينُ الظَّنَّ عَنْهُ * بِحَقِّهِ وجَلا غُبارَه

(١) التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّف .

(حِكمةُ تعدُّدِ الطُّرُق)
والطُّرُقُ الصُّوفيةُ جميعاً
هُم أهلُ السُّنَّةِ والمحجَّةِ البيضاء

(إِنَّهُ مِنَ السَّذاجَةِ أَنْ نَظُنَّ أَنَّ تَعَدُّدَ الطُّرُقِ مَدْعاةٌ لِلْفُرْقَةِ ، بَلِ الصَّحِيحُ الَّذِي يَعْرِفُهُ ويُشاهِدُهُ كُلُّ ذِي عَقْلٍ ونَظَرٍ ، أَنَّها إِثْراءٌ لِلْحَرَكَةِ الفِكْرِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ، وهِيَ رَوافِدُ تُغَذِّي نَهْرَ الحَضارَةِ والعِلْمِ ، ومِنَ البَدِيهِيِّ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ النَّاسِ نُسَخاً مُكَرَّرَةً مِنْ بَعْضِهِم البَعْضِ إِذْ لابُدَّ أَنْ يَتَمايَزُوا ، هكَذا أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُم بِما رَآهُ يُناسِبُهُ مَذْهَباً أَو طَرِيقَةً أَو اجْتِهاداً).

الطُّرُقُ الصُّوفيَّةُ جَمْعَاءُ
هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ والمَحَجَّةِ البَيْضَاءِ

هَذا هُوَ نَهْجُ التَّصَوُّفِ ، وتِلْكَ هِيَ سَبِيلُ الصُّوفِيَّةِ ، يَسِيرونَ عَلَى ما سارَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وأَهْلُ بَيْتِهِ الأَطْهارُ وصَحابَتُهُ الأَخْيارُ مِنْ قَبْلُ ، يَقْتَفُونَ أَثَرَهُم ، ويَنْهَجُونَ نَهْجَهُم ، مُلْتَزِمِينَ رِحابَ المَحَجَّةِ البَيْضاءِ الَّتي تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ ، واسْتَأْمَنَهُم عَلَيْها : (تَركْتُكُم عَلَى المَحَجَّةِ البَيْضاءِ لَيْلُها كَنَهارِها لا يَزِيغُ عَنْها بَعْدِي إِلاَّ هالِكٌ)[١].

ومَهْمَا تَعَدَّدَتْ سُبُلُهُم وتَنَوَّعَتْ مَشارِبُهُم ، فالمَقْصِدُ واحِدٌ ، والمَنْهَلُ واحِدٌ :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٢].

ولِتَعدُّدِ الطُّرُقِ إِلَى اللهِ تَعالَى حِكْمَةٌ ، يُوضِّحُها ويُجَلِّيها الشَّيْخُ (مُحَمَّد متولِّى الشَّعراوى) رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى ، قائِلاً :

(وكُلُّ إِنْسانٍ وَصَلَ إِلَى اللهِ بِطَرِيقٍ مِنَ الطُّرُقِ ، أَو صِيغَةٍ مِنَ الصِّيَغِ ، يَعْتَقِدُ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذي سَلَكَهُ إِلَى اللهِ هُوَ أَقْصَرُ الطُّرُقِ ، ولِذَلِكَ اخْتَلَفَ النَّاسُ ، لأَنَّ وَسائِلَ عِبادَةِ اللهِ مُتَعَدِّدَةٌ ، فَإِذا دَخَلَ إِنْسانٌ مِنْ بابٍ وطَرِيقٍ ، وأَحَسَّ أَنَّهُ نَقلَهُ وأَوْصَلَهُ إِلَى اللهِ ، بادَرَ إِلَى نَقْلِهِ لِمَنْ يُحِبُّ .

ومِنْ هُنا ، فَإِنَّ مَعْنَى أَنَّ هُنالِكَ طُرُقاً صُوفِيَّةً ، هُوَ أَنَّ أُناساً وَصَلُوا إِلَى حالِ الصَّفاءِ مَعَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، فَجاءَتْهُمْ الإِشْراقاتُ والفُيُوضاتُ الَّتي تَدلُّ عَلَى ذَلِكَ في ذَواتِهِم ، فَعَلِمُوا أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذي سَلَكُوا فيهِ إِلَى اللهِ صَحِيحٌ ، وكُلَّما زادُوا في العِبادَةِ : زادَ اللهُ في العَطاء) .

---

(١) الحَديثُ صَحيحٌ ، رَواهُ (العِرْباضُ بنُ سارِيَةَ) ﷺ ، وأَخْرَجَهُ جَمْعٌ غَفِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ الحَديث ، مِنْهُم : (الحاكِمُ) في مُسْتَدْرَكِهِ ، و (أَحْمَدُ) في مُسْنَدِهِ ، و (ابْنُ ماجه) في سُنَنِهِ ، و (الطَّبرانىُّ) في مُعْجَمِهِ الكَبِير ، و (ابْنُ أَبي عاصِم) فى كِتاب السُّنَّةِ ، وغَيْرُهُم .

(٢) سُورَةُ العَنْكَبُوت مِنَ الآيَة ٦٩ .

ويَزِيدُ الأَمْرَ وُضُوحاً فَضيلَةُ الشَّيْخ مُحَمَّد زَكي إبْراهيمَ قائِلاً :

فالطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى تَعَدُّدِها سُبُلٌ تَعَدَّدَتْ إِلَى اللهِ ، لِتُلائِمَ حاجاتِ كُلِّ سالِكٍ إِلَيْهِ ، فَيَجِدُ فِيها كُلُّ مُرِيدٍ ما يُناسِبُ طاقَتَهُ ، ووَقْتَهُ ، وبيئَتَهُ ، قَطْعاً لأَعْذارِ القاعِدينَ عَنِ الهِجْرَةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ سَواءً في الطَّاقَةِ والمَلَكاتِ ، وإذَنْ فَتَأَمَّلْ بِإمْعانٍ قَوْلَهُ تَعالَى :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ ؛ إذَنْ فَهُناكَ سُبُلٌ شَتَّى تُوَصِّلُ إِلَيْهِ تَعالَى ، كَما قالَ تَعالَى : ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ (١) . وهَذِهِ السُّبُلُ المُتَعَدِّدَةُ القَوِيمَةُ تَمْضِي مُتَوازِيَةً مُتَحاذِيَةً في اتِّجاهٍ واحِدٍ ، فكَأَنَّها طَرِيقٌ واحِدٌ ، ولِذَلِكَ جاءَتْ في أَكْثَرَ مِنْ آيَةٍ بِلَفْظِ المُفْرَدِ ، نَحْو : (سَبِيلي ، وسَبِيلِهِ أَو سَبِيلَ رَبِّكَ) لاتِّحادِ البِدايَةِ والنِّهايَةِ ، فَهِيَ مُجْتَمِعَةٌ صِراطُ اللهِ المُسْتَقيمُ الواحِدُ المُتَّبَعُ : أَي أَقْرَبُ مَسافَةٍ بَيْنَ العَبْدِ ورَبِّهِ .

وذَلِكَ أَنَّ الطُّرُقَ الشَّرْعِيَّةَ جَميعاً تَبْدَأُ مِنَ التَّوْبَةِ ، وتَنْتَهِي بِالمَعْرِفَةِ ، فإذا فَرَضْنا (دائِرَةً ذاتَ مَرْكَز) كانَتْ كُلُّ الطُّرُقِ الشَّرْعيَّةِ خُطُوطاً داخِلِيَّةً تَصِلُ مابَيْنَ مُحِيطِ الدَّائِرَةِ ونُقْطَةِ المَرْكَزِ ، وكَيْفَما كانَ اتِّجاهُ نُقْطَةِ البِدايَةِ فَلا خِلافَ في النِّهايَةِ ولا في الأُصُولِ العامَّةِ ولَكِنْ في فُروعِ كَيْفِيَّةِ الوصُول .

وبِهَذا يَنْدَفِعُ اعْتِراضُ الباحِثِينَ عَنِ المُشْكِلاتِ ، المُفَرِّقِينَ بَيْنَ الجَماعاتِ ، والمُحْتَجِّينَ زُوراً وعُدْواناً بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، فالمَنْهِيُّ عَنْهُ سُبُلَ الشَّيْطانِ والكُفْرانِ الَّتي تَتَقاطَعُ وتَتَعارَضُ مَعَ سُبُلِ الرَّحْمَنِ ، وأَمَّا سُبُلُ الرَّحْمَنِ فاللهُ ذَكَرَها كَما بَيَّنَّا ، ووَعَدَ المُجاهِدِينَ فيهِ بِهِدايَتِهِمْ إِلَيْها ، قالَ

(١) سُورَةُ المائدة منَ الآيَة ١٦

تعالى: ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾، وسمّاها تعالى ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ ﴾ واعْتزَّ بها الأنْبياءُ فقالُوا ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾؛ فكُلُّها مُتوازِيَةٌ مُتحاذِيَةٌ وكُلُّها شَرائِحُ يَتَكَوَّنُ مِنْها (سَبِيلُهُ) تعالَى : فَهِيَ وإنْ تعدَّدَتْ فإنَّها سَبِيلٌ واحِدَةٌ لِلاتِّحادِ في البِدايَةِ والنِّهايَةِ ، والنِّيَّةِ والهَدَفِ الأَعْظَم .

إنَّ الْحَقَّ واحِدٌ لا يَتَعَدَّدُ ، ولَكِنَّ السُّبُلَ تَتعَدَّدُ في إدْراكِهِ أَوِ الوصُولِ إلَيْهِ ، فَلَوْ تَصَوَّرْنا مِصْباحاً مُعَلَّقاً ، فَقَدْ تَصَوَّرْنا أَنَّ النَّظَرَ إلَيْهِ ، وإدْراكَ وُجُودِهِ ، مُمْكِنٌ مِنَ الجِهاتِ السِّتِّ وما بيْنَها ، وهَكَذا تَعَدَّدَتْ سُبُلُ رُؤْيَةِ المِصْباحِ ، وهُوَ واحِدٌ مُسْتَقِرٌّ في مَكانِهِ غَيْرُ مُكَرَّرٍ ، وهَذا هُوَ شَأْنُ النَّاظِرِينَ إلَى الشَّمْسِ والْقَمَرِ في كافَّةِ أَقْطارِ الدُّنْيا .

يَخْتَلِفُ مَوْقِعُ الطَّالِبِ ويَتَعَدَّدُ ، ولا يَخْتَلِفُ المَطْلُوبُ المُحَدَّدُ .

وفي ذِهابِكَ إلَى الكَعْبَةِ مَثَلاً ، تَسْتَطِيعُ الوصُولَ بِالطَّائِرَةِ والباخِرَةِ أَوِ السَّيَّارَةِ ورُكُوبِ الدَّوابِّ والمَشْيِ عَلَى الأَقْدامِ وكُلُّها سُبُلٌ تُوَصِّلُ إلَى الحَقِيقَةِ الواحِدَةِ الَّتي لا تَتَعَدَّدُ .

وفي مَوْقِفِ المُسْلِمِينَ حَوْلَ الكَعْبَةِ في الصَّلاةِ تَخْتَلِفُ الاتِّجاهاتِ اخْتِلافاً تامَّاً ولَكِنَّها جَمِيعاً تَلْتَقي في نُقْطَةِ المَرْكَزِ الواحِدِ ، الَّذي تَرْمُزُ إلَيْهِ بِنايَةُ الكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ المُوَحَّدَة .

وفي صَلاةِ الْوِتْرِ مَثَلاً تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَلِّيَ رَكْعَةً واحِدَةً أَو ثَلاثاً أَو خَمْسَاً أَو أَكْثَرَ وكُلُّها سُبُلٌ مُوَصِّلَةٌ صَحِيحَةٌ ، فالصَّلاةُ واحِدَةٌ ووَسائِلُ الأَداءِ مُتَعَدِّدَةٌ إلَى الغايَةِ الواحِدَةِ المُتَوَحِّدَة .

أَمَّا ما أَشارَ إلَيْهِ حَدِيثُ : (خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطَّاً ، وخَطَّ عَنْ أَيْمانِهِ وشَمائِلِهِ خُطُوطاً ، وقالَ ﷺ هَذا سَبِيلُ اللهِ ، وهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ مِنْها

شَيْطانٌ يَدْعُو إِلَيْها ، ثُمَّ قَرَأَ الآيَةَ : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ ، فَإِنَّ فَهْمَ هَذا الحَديثِ مَحْكُومٌ بِفَهْمِ كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِمَّا قَدْ فَصَّلْناهُ وبَيَّنَّاهُ هُنا ، فَلا تَعارُضَ بَيْنَ القُرْآنِ والقُرْآنِ ، ولا بَيْنَ السُّنَّةِ والقُرْآن .

إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَّ الخَطَّ المُسْتَقِيمَ ، وخَطَّ عَنْ يَمينِهِ وشِمالِهِ خُطُوطاً (مُتَعارِضَةً أَو مُتَقاطِعَةً) مَعَهُ فَلا هِيَ مُحاذِيَةٌ لَهُ ، ولا مُتَوازِيَةٌ مَعَهُ ، بَلْ مُخالِفَةٌ عَنْهُ ، والفَرْقُ هائِلٌ جِدَّاً بَيْنَ هَذا وبَيْنَ سُبُلِ اللهِ المُتَوازِيَةِ المُتَحاذِيَةِ المُتَوَحِّدَةِ البِدايَةِ والنِّهايَةِ ، فَلا تَقاطُعَ فِيها ولا تَعارُض .

أَلا تَرَى إِلَى الشَّارِعِ الواحِد أَو الطَّرِيقِ الواحِدِ وقَدْ قُسِّمَ إِلَى (حاراتٍ أَو مَساراتٍ) تَتَعاوَنُ في الخِدْمَةِ ، ولا تَخْتَلِفُ ؟ (ولِلهِ المَثَلُ الأَعْلَى) .

أَلا تَرَى إِلَى (كابِل)الكَهْرَباءِ أَو التِّلِيفُونِ ، وقَدْ جَمَعَ عَشَراتِ الأَسْلاكِ والحِبالِ مُتَناسِقَةً جَمِيعاً في (أَنْبُوبٍ) أَو(ماسُورَةٍ) واحِدَةٍ ، كَذَلِكَ شَأْنُ سَبِيلِ اللهِ وتَعَدُّدُ الطُّرُقِ إِلَيْه .

أَمَّا ما عَسَى أَنْ يُصِيبَ بَعْضَ هَذِهِ الطُّرُقِ مِنْ أَمْراضِ المُبْتَدَعاتِ والمَناكِرِ والمُحَرَّمات : فَأَمْرٌ طارِئٌ دَخِيلٌ أَو مَدْسُوسٌ لا يُغَيِّرُ مِنْ نَقاءِ (الخامَةِ) الأَصْلِيَّةِ ، وحُكْمُها الشَّرْعِيُّ مَعْروفٌ .

تَوجِيهُ حَدِيثِ افْتِراقِ الأُمَّة

بَقِيَ الكَلامُ عَلَى الحَدِيثِ الَّذي يَلْغَطُ بِهِ الَّذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ويَسُدُّونَ مَنافِذَ الرَّحْمَةِ عَنْ جُمُوعِ الأُمَّةِ ، إِبْتِغاءَ تَطْبِيقِهِ عَلَى الجَماعاتِ الصُّوفِيَّةِ إِفْتِئاتاً عَلَى اللهِ ، أَو جَهْلاً بِالمُرادِ ، ولِلْحَدِيثِ أَلْفاظٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْها (افْتَرَقَ اليَهُودُ والنَّصارَى) إِلَى (كَذا) فِرْقَةٍ ، وسَتَفْتَرِقُ أُمَّتي إِلَى (كَذا) فِرْقَةٍ كُلُّهُمْ في النَّارِ إِلاَّ ما عَلَيْهِ أَنا وأَصْحابِي .

وقَدْ تَكَلَّمَ المُحَدِّثُونَ في سَنَدِ هَذا الحَديثِ ومَتْنِهِ ، وأَعْلَوْهُ تَماماً فَلَمْ يَصِلْ عِنْدَهُمْ إِلَى رُتْبَةِ الصِّحَّةِ الَّتي يَسُوغُ مَعَها الاحْتِجاجُ العِلْمِيُّ القاطِعُ بِهِ ، ومَعَ هَذا فلا يَزالُ أُولَئِكَ المُرْجِفُونَ يَجْتَرُّونَهُ اجْتِراراً عَدْواً بِغَيْرِ عِلْم .

ونَحْنُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ ، قَدْ بَيَّنَّا مِنْ نُصوصِ القُرْآنِ ثُمَّ مِنَ المُسَلَّماتِ البَدِيهِيَّةِ أَنَّ (تَعَدُّدَ السُّبُلِ إِلَى المَقْصُودِ الواحِدِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وشَرْعِيٌّ ، فَلا يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ حُكْمُ (تَعَدُّدِ الفِرَقِ) لِأَنَّهُ الَّذي يُطْلَقُ عَلَيْها تَجاوزاً أَو مَجازاً اسْمَ (الفِرَقِ) الآنَ في الإِسْلامِ ، كُلُّها دائِرَةٌ في فَلَكِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، فَهِيَ عَلَى ما كانَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ وأَصْحابُه .

فَهِيَ (مَذاهِبُ) أَو(مَشارِبُ) أَو(سُبُلٌ) تَبْتَدِىءُ مِنَ الشَّهادَتَيْنِ ، وتَنْتَهِي عِنْدَ حَقِّهِما وأَثَرِهِما .

فالسَّادَةُ المالِكِيَّةُ ، والأَحْنافُ ، والشَّافِعِيَّةُ ، والحَنابِلَةُ (والغالِبِيَّةُ العُظْمَى مِنْ أَفْرادِ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ يُقَلِّدونَ أَصْحابَ هَذهِ المَذاهِبِ الفِقْهِيَّةِ رضي الله عنهم) والزَّيْدِيَّةُ ، والظَّاهِرِيَّةُ ؛ والإِمامِيَّةُ ، وبَعْضُ المُعْتَزِلَةِ (المُعْتَدِلِينَ) ؛ كُلُّ هَؤُلاءِ وأَمْثالُهُم يَسِيرونَ في طَرِيقٍ واحِدٍ عَلَى (أَسالِيبَ) مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الفَهْمِ والاسْتِنْباطِ والمُقارَنَةِ والبَحْث .

هَذهِ (الأَسالِيبُ) هِيَ السُّبُلُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتي هَداهُمْ اللهُ إِلَيْها بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ والَّتي سَمَّاها تَعالَى : ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ كَما جاءَ عَلَى لِسانِ الأَنْبِياءِ في القُرْآنِ قَوْلُهُم : ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾.

ويَلْحَقُ بِهَؤُلاءِ جَميعاً سائِرُ الهَيْئاتِ والجَماعاتِ والجَمْعِيَّاتِ الإِسْلامِيَّةِ السَّلِيمَةِ المُنْتَشِرَةِ في بِقاعِ الأَرْضِ وهِيَ أُلوفٌ لا تُحْصَى .

وما كانَ تَعدُّدُ الطُّرُقِ مِمَّا يُفرِّقُ بَيْنَ المُسْلِمينَ . فَها هِيَ أُمَّةُ الإِسْلام تَتَعَبَّدُ رَبَّها (كَما بَيَّنَّا) بِمَذاهِبَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ شافِعِيٍّ إِلَى حَنَفِيٍّ إِلَى حَنْبَلِيٍّ إِلَى مالِكِيٍّ إِلَى زَيْدِيٍّ إِلَى إِمامِيٍّ مُنْذُ صَدْرِ الإِسْلامِ الأَوَّلِ وحَتَّى يَوْمِنا هَذا ، فَهَلْ كانَ هَذا في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ مَدْعاةً لِلتَّفْرِقَةِ أَو مُشَتِّتاً لِجَماعَةِ المُسْلِمينَ ؟

وقِسْ عَلَيْهِ المَذاهِبَ العِلْمِيَّةَ المُتَنَوِّعَةَ في اللُّغَةِ والتَّارِيخِ والأُصُولِ وغَيْرِها ، بَلْ والجَماعاتِ المُجْتَهِدَةَ حَتَّى داخِلِ المَذْهَبِ أَو المَدْرَسَةِ الواحِدَة .

وإِنَّما يَنْطَبِقُ الحَدِيثُ (عَلَى فَرْضِ صِحَّتِهِ) عَلَى غُلاةِ الخَوارِجِ والباطِنِيَّةِ والقَرامِطَةِ والبَهائِيَّةِ والقادْيانِيَّةِ ونَحْوِ هَؤُلاءِ مِنَ الفِرَقِ الَّتي ذَكَرَها أَصْحابُ كُتُبِ (المِلَلِ والنِّحَلِ) مِمَّنْ خالَفُوا الأُصُولَ عَمْداً ، وأَنْكَروا المَعْلُومَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرورَةِ ، ولَيْسَ في طَوائِفِ الصُّوفِيَّةِ خاصَّةً وبَقِيَّةِ الطَّوائِفِ الإِسْلامِيَّةِ عامَّةً مَنْ خالَفَ الأُصُولَ عَمْداً أَو أَنْكَرَ المَعْروفَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَة .

رُبَّما كانَ فِيهِم المُقَصِّرونَ ، أَو المُنْحَرِفُونَ ، أَو العُصاةُ ، وهَذا لا يَحْرِمُهُم مِنَ الدِّينِ ولا يَسْحَبُ عَلَيْهِمْ حُكْمَ الفِرَقِ الكافِرَةِ ، فالْمَعْصِيَةُ شَيْءٌ والرِّدَّةُ شَيْءٌ آخَر .

بَيَانُ أُصُولِ الطَّرِيقِ وَآدَابِهَا

- الشُّرُوطُ الثَّمانِيَةُ لِقَطْعِ عَقَباتِ النَّفْسِ ، والوصُولُ إِلَى تَخْلِيَةِ القَلْبِ عَنْ غَيْرِ اللهِ تَعالَى ، وتَحْلِيَتِهِ بِذِكْرِ الله .
- اقْتِضَاءُ الحاجَةِ لاتِّخاذِ الشَّيْخِ المُرْشِدِ المُرَبِّي .
- سِماتُ وعَلاماتُ الشَّيْخِ المُرْشِد .
- بَيانُ مَشْرُوعِيَّةِ أَخْذِ العَهْدِ .

بَيانُ أُصُولِ الطَّرِيقِ وآدابِها

السَّالِكُ في طَرِيقِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ ، زادُهُ في سَيْرِهِ عِلْمٌ وعَمَلٌ .

وحاصِلُ عَمَلِهِ قَطْعُ عَقَباتِ النَّفْسِ ، والتَّنَزُّهُ عَنْ أَخْلاقِها المَذْمُومَةِ ، وصِفاتِها الخَبِيثَةِ ، حَتَّى يَتَوَصَّلَ بِها إِلَى تَخْلِيَةِ القَلْبِ عَنْ غَيْرِ اللهِ تَعالَى ؛ وتَحْلِيَتِهِ بِذِكْرِ اللهِ .

ويَلْزَمُ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ مِنَ السَّالِكِ (المُرِيدِ) القِيامُ بِشُرُوطٍ ثَمانِيَةٍ قِياماً كُلِّيَّاً وإِلَيْها أَشارَ السَّيِّدُ (مُصْطَفَى البَكْرِي) رضي الله عنه بِقَوْلِه :

شُروطُ طَرِيقِنا المَرْضِيِّ عُدَّتْ * ثَمانِيَةٌ فَلازِمْ مَنْ حَواها
ولازِمْ وِرْدَها وانْهَضْ بِعَزْمٍ * لِتَرْقَى في مَراقِي مَنْ عَناها
وتُصْبِحَ واحِداً في النَّفْسِ فَرْداً * جَلِيلاً مِنْ سَنا باهِي سَناها
فَقُلْ صَمْتٌ وجُوعٌ ثُمَّ سَهَرٌ * بِلَيْلِ الوَصْلِ كَي تَجْنِي جَناها
دَوامُ طَهارَةٍ ودَوامُ ذِكْرٍ * ونَفْيُ خَواطِرٍ فارْقَ ذُراها
ورَبْطُ فُؤادِ ذِي حَزْمٍ وصِدْقٍ * بِقَلْبِ الشَّيْخِ فاحْذَرْ ما تَناهَى

وإِلَيْكَ بَيانُ هذِهِ الشُّروط :

الشَّرْطُ الأَوَّلُ (الصَّمْتُ) : فَعَلَى (المُرِيدِ) المُبْتَدِىءِ أَنْ يَصْمُتَ بِلِسانِهِ عَنْ لَغْوِ الحَدِيثِ ، وبِقَلْبِهِ عَنْ جَمِيعِ الخَواطِرِ في شَيْءٍ مِنَ الأَشْياءِ ، فَإِنَّ مَنْ صَمَتَ بِلِسانِهِ وقَلْبِهِ انْكَشَفَتْ لَهُ الأَسْرارُ ، وأُفِيضَتْ عَلَيْهِ المَعارِفُ والأَنْوارُ ، وكانَ مُتَّبِعاً لِسُنَّةِ النَّبِيِّ المُخْتارِ ﷺ ، والوارِدُ عَنْهُ قَوْلُهُ : (مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيه) [(١)] ، وقَوْلُهُ أَيْضاً : (مَنْ صَمَتَ نَجا) [(٢)] .

الشَّرْطُ الثَّانِي (الجُوعُ) : أَي تَقْلِيلُ الطَّعامِ والشَّرابِ فَفِيهِ صِحَّةٌ لِلْبَدَنِ ،

---

(١) أَخْرَجَهُ (أَحْمَدُ) و(التِّرْمِذِيُّ) و(ابْنُ ماجَه) وغَيْرُهُم .
(٢) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِيُّ) و (أَحْمَدُ) و (الدَّارِمِيُّ) وآخَرون .

وصِحَّةٌ في الدِّينِ ، لِقَوْلِهِ ﷺ : (ما مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ ، فَإِنْ كانَ لا مَحالَةَ فاعِلاً فَثُلُثٌ لِطَعامِهِ ، وثُلُثٌ لِشَرابِهِ ، وثُلُثٌ لِنَفَسِهِ)[١] .

وقَدْ وَرَدَ في الأَثَر : (أَحْيُوا قُلُوبَكُم بِقِلَّةِ الضَّحِكِ ، وقِلَّةِ الشِّبَعِ ، وطَهِّروها بِالجُوعِ تَصْفُو وتَرِقُّ) .

الشَّرْطُ الثَّالِثُ (السَّهَرُ) : وهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : سَهَرُ العَيْنِ لِتَعْميرِ الوَقْتِ بِالعِبادَةِ . لِأَنَّ بِنَوْمِ العَيْنِ يَبْطُلُ عَمَلُ القَلْبِ ، بِخِلافِ الأَنْبياءِ (عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَيْهِم أَفْضَلُ الصَّلاةِ وأَتَمُّ السَلامِ) ، فَإِنَّهُم تَنامُ أَعْيُنُهُم ولا تَنامُ قُلُوبُهُم لِكَمالِ طَهارَتِهِم وعُلُوِّ هِمَّتِهِم وقُوَّةِ أَنْوارِهِم .

واعْلَمْ أَيُها المُرِيدُ الصَّادِقُ أَنَّ شَرَفَ المُؤْمِنِ قِيامُهُ بِاللَّيْلِ ، وعِزُّهُ اسْتِغْناؤُهُ عَنْ شِرارِ النَّاسِ ، وقالَ ﷺ : (إِنَّ فى الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظاهِرُها مِنْ باطِنِها وباطِنُها مِنْ ظاهِرِها ، أَعَدَّها اللهُ لِمَنْ أَلانَ الكَلامَ وأَطْعَمَ الطَّعامَ وتابَعَ الصِّيامَ وصَلَّى بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ)[٢] .

وقالَ أَيضاً ﷺ : (عَلَيْكُمْ بِقِيامِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُم ، وقُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُم ، ومَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئاتِ ، ومَنْهاةٌ عَنِ الإِثْمِ ، ومَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الجَسَدِ)[٣] . وأَفْضَلُه ما كانَ في ثُلُثِ اللَّيْلِ الأَخِيرِ وأَقَلُّهُ رَكْعَتان .

وقَدْ وَرَدَ أَنَّ المُتَهَجِّدَ يَشْفَعُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ، وكانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ رضي الله عنهم يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الفِراشِ اللَّيِّنِ ويَقُولُ لِنَفْسِهِ : واللهِ إِنَّكَ لَيِّنٌ ولَكِنَّ فِراشَ الجَنَّةِ أَلْيَنُ ويَنْصُبُ قَدَمَيْهِ بَيْنَ يَدَي مَوْلاهُ إِلَى الصَّباحِ .

الشَّرْطُ الرَّابِعُ (العُزْلَةُ) : ومَعْناها الانْفِرادُ والانْقِطاعُ عَنِ الخَلْقِ إِيثاراً لِصُحْبَةِ المَوْلَى سُبْحانَهُ وتَعالَى ، ويَكُونُ بِالأَجْسامِ لِلْمُبْتَدِئِينَ وبِالقُلُوبِ

---

(١) أَخْرَجَه (التِّرمِذِيُّ) و(ابْنُ ماجَه) و(أَحْمَدُ) وسِواهم .
(٢) أَخْرَجَه الطَّبرانيُّ والحاكِمُ وأَحْمَدُ وابْنُ حِبَّان .
(٣) أَخْرَجَه (التِّرمِذِيُّ) و(الحاكِمُ) .

لِلعارِفِينَ ، ولا بُدَّ لِلْمُرِيدِ مِنْها في ابْتِداءِ أَمْرِهِ عَنْ أَبْناءِ جِنْسِهِ وإِلاَّ فَهَيْهاتَ أَنْ يُفْلِحَ ، وفي هَذا المَعْنَى يَقُولُ بَعْضُ الفُضَلاء :

لِـقـاءُ النَّـاسِ لَـيْـسَ شَـيْـئـاً * سِوَى الـهَـذَيانِ مِـنْ قِيـلٍ وقـالِ
فَـأَقْـلِـلْ مِـنْ لِـقـاءِ الـنَّـاسِ إِلاَّ * لأَخْـذِ الـعِـلْـمِ أَوْ إِصْـلاحِ حـالِ

وعَنْ أَبِي أُمامَةَ الباهِلي رضي الله عنه قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ : ما النَّجاةُ ؟ قالَ ﷺ : (احْفَظْ عَلَيْكَ لِسانَكَ ، ولْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ)[1].

ويَكْفِينا في فَضْلِ العُزْلَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ في بادِيءِ أَمْرِهِ قَبْلَ نُزولِ الوَحْيِ ، كانَ يَتَحَنَّثُ (يَتَعَبَّدُ) في غارِ حِراءَ اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ حَتَّى جاءَهُ الحَقُّ (الوَحْيُ) كَما في صَحِيحِ البُخاري عَنِ السَّيِّدةِ (عائِشَةَ) رضي الله عنها .

الشَّرْطُ الخامِسُ (دَوامُ الطَّهارَةِ باطِناً وظاهِراً) : لأَنَّ طَهارَةَ الظَّاهِرِ تُؤَثِّرُ في طَهارَةِ الباطِنِ ، وقَدْ جاءَ في الحَديثِ القُدْسِيِّ : (أَوْحَى اللهُ تَعالَى إِلَى سَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام : يا مُوسَى إِنْ أَصابَتْكَ مُصِيبَةٌ وأَنْتَ عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ فلا تَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَكَ)[2]، وقَدْ وَرَدَ في الأَثَر : (دُمْ عَلَى الطَّهارَةِ يُوَسَّعُ عَلَيْكَ رِزْقُكَ) .

الشَّرْطُ السَّادِسُ (مُداوَمَةُ الذِّكْر) ، وهُوَ أَعْظَمُ الأَرْكانِ نَفْعاً حَتَّ قِيلَ (إِنَّ الطَّرِيقَ هِيَ الذِّكْرُ) لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[3]، ولِقَوْلِهِ ﷺ :

(مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ والَّذي لا يَذْكُرُ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّت)[4].

ويَنْبَغِي أَن يَكُونَ وِفْقَ إِرْشادِ الشَّيْخِ وتَوْجِيهاتِهِ بِما يَتَلاءَمُ مَعَ أَحْوالِ نَفْسِ المُرِيدِ وصَلاحِها .

---

(١) أَخْرَجَهُ (التِّرمِذِيُّ) و(البَيْهَقِيُّ) وسِواهُما .
(٢) أَخْرَجَهُ (البَيْهَقِيُّ) في شُعَبِ الإيمان .
(٣) سُورَةُ العَنْكَبُوت مِنَ الآيَة ٤٥ .
(٤) أَخْرَجَهُ (البُخاري) في صَحِيحِه .

ولِأَنَّ الذِّكْرَ هُوَ مَنْشُورُ الوِلايَةِ وسَبَبُ تَنْوِيرِ القَلْبِ وتَفْرِيغِهِ مِنَ الأَغْيارِ وتَطْهِيرِهِ مِنَ الأَكْدارِ ، فَلِذا وَظَّفَ القَوْمُ لَهُ أَوْراداً .

بَيانُ اسْتِحْسانِ الحَرَكَةِ في الذِّكْرِ :

الحَرَكَةُ في الذِّكْرِ أَمْرٌ مُسْتَحْسَنٌ لأَنَّها تُنَشِّطُ الجِسْمَ لِعبادَةِ الذِّكْرِ وهِيَ جائِزَةٌ شَرْعاً بِدَليلِ ما أَخْرَجَهُ الإِمامُ (أَحْمَدُ) في مُسْنَدِهِ و(الحافِظُ المَقْدِسِي) بِرجالِ الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ (أَنَسٍ)ﷺ قالَ : (كانَتِ الحَبَشَةُ يَرْقُصُونَ بَيْنَ يَدَي (رَسُولِ اللهِ) ﷺ، ويَقُولُونَ بِكَلامٍ لَهُمْ : مُحَمَّدٌ عَبْدٌ صالِحٌ ، فَقالَ ﷺ: ماذا يَقُولُونَ ؟ فَقِيلَ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : مُحَمَّدٌ عَبْدٌ صالِحٌ ، فَلَمَّا رَآهُمْ في تِلْكَ الحالَةِ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ ، وأَقَرَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ والمَعْلُومُ أَنَّ الأَحْكامَ الشَّرْعِيَّةَ تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ وفِعْلِهِ وتَقْرِيرِهِ ، فَلَمَّا أَقَرَّهُمْ ﷺ عَلى فِعْلِهِمْ ولَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ تَبَيَّنَ أَنَّ هَذا جائِز .

وفِي الحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الجَمْعِ بَيْنَ الاهْتِزازِ المُباحِ ومَدْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَنَّ الاهْتِزازَ بِالذِّكْرِ لا يُسَمَّى رَقْصاً مُحَرَّماً ، بَلْ هُوَ جائِزٌ لأَنَّهُ يُنَشِّطُ الجِسْمَ لِلذِّكْرِ ، ويُساعِدُ عَلَى حُضُورِ القَلْبِ مَعَ اللهِ تَعالَى ، إِذا صَحَّتِ النِّيَّةُ ، فالأُمُورُ بِمَقاصِدِها ، وإِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ وإِنَّما لِكُلِّ امْرِيءٍ ما نَوَى .

وَلْنَسْتَمِعْ إِلَى الإِمامِ (عَلِيٍّ) ﷺ كَيْفَ يَصِفُ أَصْحابَ النَّبِيِّ ﷺ، قالَ أَبو أَراكة : (صَلَّيْتُ مَعَ (عَلِيٍّ) صَلاةَ الفَجْرِ ، فَلَمَّا انْتَقَلَ عَنْ يَمِينِهِ مَكَثَ كَأَنَّ عَلَيْهِ كَآبَةً ، حَتَّى إِذا كانَتِ الشَّمْسُ عَلَى حائِطِ المَسْجِدِ قَيْدَ رُمْحٍ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قَلَّبَ يَدَهُ فَقالَ : واللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَما أَرَى اليَوْمَ شَيْئاً يُشْبِهُهُم ، لَقَدْ كانُوا يُصْبِحُونَ صُفْراً شُعْثاً غُبْراً ، بَيْنَ أَيْدِيهِم كَأَمْثالِ رُكَبِ المَعْزَى ، قَدْ باتُوا للهِ سُجَّداً وقِياماً ، يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ يَتَراوَحُونَ

بَيْنَ جِباهِهِمْ وأَقْدامِهِمْ ، فَإِذا أَصْبَحُوا فَذَكَروا اللهَ مادُوا (أَي تَحرَّكُوا) كَما يَمِيدُ الشَّجَرُ في يَوْمِ الرِّيحِ ، وهَمَلَتْ أَعْيُنُهُم حَتَّى تَبْلَ - واللهِ - ثِيابُهُم)[1]

ويَهُمُّنا مِنْ عِبارَةِ الإمامِ (عَلِيٍّ) ﷺ قَوْلَهُ : (مَادُوا كَما يَمِيدُ الشَّجَرُ في يَوْمِ الرِّيحِ) ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُ صَرِيحاً في الاهْتِزازِ ، ويُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ بِدْعَةٌ مُحَرَّمَةٌ ويُثْبِتُ إِباحَةَ الحَرَكَةِ في الذِّكْرِ مُطْلَقاً .

وقَدِ اسْتَدَلَّ الشَّيْخُ (عَبْدُ الغَني النَّابُلْسِي) رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى بِهَذا الحَدِيثِ في إِحْدَى رَسائِلِهِ عَلَى نَدْبِ الاهْتِزازِ بِالذِّكْرِ ، وقالَ : هَذا صَريحٌ بِأَنَّ الصَّحابَةَ كانوا يَتَحَرَّكُونَ حَرَكَةً شَدِيدَةً في الذِّكْرِ ، عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ غَيْرُ مُؤاخَذٍ حِينَ يَتَحَرَّكُ ويَقُومُ ويَقْعُدُ عَلَى أَيِّ نَوْعٍ كانَ حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِمَعْصِيَةٍ ولَمْ يَقْصِدْها كَما ذَكَرْنا .

إِلاَّ أَنَّ هُناكَ جَماعَةً مِنَ الدُّخَلاءِ عَلَى الصُّوفِيَّةِ (نَسَبُوا أَنْفُسَهُم إِلَيْهِمْ وهُمْ مِنْهُمْ بُراء) شَوَّهُوا جَمالَ حَلَقاتِ الأَذْكارِ بِما أَدْخَلُوا عَلَيْها مِنْ بِدَعٍ ضالَّةٍ ، وأَفْعالٍ مُنْكَرَةٍ ، كالغِناءِ الفاحِشِ ومِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ بَعْضَ أَدْعِياءِ العِلْمِ قَدْ تَهَجَّمُوا عَلَى حِلَقِ الذِّكْرِ ولَمْ يُمَيِّزوا بَيْنَ هَؤُلاءِ الدُّخَلاءِ المُنْحَرِفِينَ وبَيْنَ الذَّاكِرِينَ السَّالِكِينَ المُخْلِصِينَ الَّذينَ يَزِيدُهُم ذِكْرُ اللهِ رُسُوخاً في الإِيمانِ ، واسْتِقامَةً في المُعامَلَةِ ، وسُمُوّاً في الخُلُقِ واطْمِئْناناً في القَلْبِ .

وهُناكَ عُلَماءُ مُنْصِفُونَ قَدْ مَيَّزوا بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ الصَّادِقِينَ السَّائِرِينَ عَلَى قَدَمِ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ ، وبَيْنَ الدُّخَلاءِ المارِقِينَ ، وأَوْضَحُوا حُكْمَ اللهِ في الذِّكْرِ وعَلَى رَأْسِهِمْ العَلاَّمَةُ (ابْنُ عابْدِينَ) في رِسالَتِهِ (شِفاءُ العَلِيل) ، فَقَدْ نَدَّدَ بِالدُّخَلاءِ عَلَى الصُّوفِيَّةِ ، واسْتَعْرَضَ بِدَعَهُم ومُنْكَراتِهِمْ في الذِّكْرِ وحَذَّرَ مِنْهُمْ ومِنَ الاجْتِماعِ بِهِمْ ، ثُمَّ قالَ :

---

(١) البِدايَةُ والنِّهايَةُ في التَّاريخِ لـ(ابْنِ كَثِير) المُتَوَفَّى ٧٧٤ هـ - ج ٨ / ص ٦ - . وأَخْرَجَهُ أَيْضاً (أَبو نُعَيْم) في الحِلْيَة ج ١ ص ٧٦ .

(ولا كَلامَ لَنا مَعَ الصُّدَّقِ مِنْ سادَاتِنا الصُّوفِيَّةِ الـمُبَرَّئِينَ مِنْ كُلِّ خَصْلَةٍ رَدِيَّةٍ فَقَدْ سُئِلَ إِمامُ الطَّائِفَتَيْنِ سَيِّدُنا الجُنَيْد : إِنَّ أَقْواماً يَتَواجَدُونَ ويَتَمايَلُونَ ؟ فَقالَ : دَعُوهُمْ مَعَ اللهِ تَعالَى يَفْرَحُونَ ، فَإِنَّهُم قَوْمٌ قَطَّعَتِ الطَّرِيقُ أَكْبادَهُمْ ، ومَزَّقَ النَّصَبُ فُؤادَهُم ، وضاقُوا ذَرْعاً فَلا حَرَجَ عَلَيْهِم إِذا تَنَفَّسُوا مُداواةً لِحالِهِم ، ولَوْ ذُقْتَ مَذاقَهُم عَذَرْتَهُم ثُمَّ قال : وبِمِثْلِ ما ذَكَرَهُ الإِمامُ الجُنَيْدُ أَجابَ العَلاَّمَةُ النِّحْرِيرُ (ابْنُ كمال باشا) لَمَّا اسْتُفْتِيَ عَنْ ذَلِكَ حَيْثُ قالَ :

ما فِي التَّواجُدِ إِنْ حَقَّقْتَ مِنْ حَرَجٍ * ولا التَّمايُلِ إِنْ أَخْلَصْتَ مِنْ باسِ

فَقُمْتَ عَلَى رِجْلٍ وحُقَّ لِـمَــنْ * دَعاهُ مَوْلاهُ أَنْ يَسْعَى عَلَى الرَّاسِ

الرُّخْصَةُ فِيما ذُكِرَ مِنَ الأَوْضاعِ ، عِنْدَ الذِّكْرِ والسَّماعِ لِلْعارِفِينَ الصَّارِفِينَ أَوْقاتَهُم إِلَى أَحْسَنِ الأَعْمالِ ، السَّالِكِينَ المالِكِينَ لِضَبْطِ أَنْفُسِهِم عَنْ قَبائِحِ الأَحْوالِ ، فَهُمْ لا يَسْتَمِعُونَ إِلاَّ مِنَ الإِلَهِ ، ولا يَشْتاقُونَ إِلاَّ لَهُ ، إِنْ ذَكَروهُ ناحُوا وإِنْ شَكَروهُ باحُوا ، وإِنْ وَجَدُوهُ صاحُوا ، وإِنْ شَهَدوهُ اسْتَراحُوا ، وإِنْ سَرَحُوا فِي حَضَراتِ قُرْبِهِ ساحُوا ، إِذا غَلَبَ عَلَيْهِمْ الوَجْدُ بِغَلَباتِهِ ، وشَرِبوا مِنْ مَوارِدِ إِرادَتِهِ ، فَمِنْهُم مَنْ طَرَقَتْهُ طَوارِقُ الهَيْبَةِ فَخَرَّ وذابَ ، ومِنْهُمْ مَنْ بَرَقَتْ لَهُ بَوارِقُ اللُّطْفِ فَتَحَرَّكَ وطابَ) .

ثُمَّ قالَ أَيْضاً : (ولاكَلامَ لَنا مَعَ مَنِ اقْتَدَى بِهِمْ ، وذَاقَ مِنْ مَشْرَبِهِمْ ، ووَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ الشَّوْقَ والهُيامَ فِي ذاتِ المَلِكِ العَلاَّمِ ، بَلْ كَلامُنا مَعَ هَؤُلاءِ العَوامِّ الفَسَقَةِ اللِّئام ...)[1].

مِنْ هَذا نَرَى أَنَّ (ابْنَ عابْدِين) يُبِيحُ التَّواجُدَ والحَرَكَةَ فِي الذِّكْرِ ، وأَنَّ الفَتْوَى عِنْدَهُ الجَوازُ ، وأَنَّ النُّصُوصَ المانِعَةَ الَّتِي ساقَها فِي حاشِيَتِهِ المَشْهُورَةِ فِي الجُزْءِ الثَّالِثِ تُحْمَلُ عَلَى ما إِذا كانَتْ فِي حِلَقِ الذِّكْرِ مُنْكَراتٌ :

(١) مَجْمُوعَةُ رَسائِلِ ابْنِ عابْدِين - الرِّسالَةُ السَّابِعَةُ - (شِفاءُ العَلِيلِ وبَلُّ الغَلِيل فِي حُكْمِ الوَصِيَّةِ بالخَتَماتِ والتَّهالِيلِ) لِلْفَقِيهِ الكَبِيرِ (ابْن عابْدِين) ص ١٧٢ - ١٧٣ .

مِنَ الغِناءِ الفاحِشِ والاجْتِماعِ مَعَ المُرْدِ الحِسانِ ، وإنْزالِ المَعانِي عَلَى أَوْصافِهِمْ ، والتَّغَزُّلِ بِهِمْ ، وما إلَى ذَلِكَ مِنَ المُخالَفات .

ولَمْ يَتَمَسَّكِ المانِعُونَ المُسْتَنِدُونَ إلَى كَلامِ (ابْنِ عابْدِين) بِرَأْيِهِم ؛ إلاَّ لِعَدَمِ إطِّلاعِهِمْ عَلَى كَلامِهِ في (مَجْمُوعَةِ الرَّسائِل) حَيْثُ فَرَّقَ - كَما مَرَّ - بَيْنَ الدُّخَلاءِ والصَّادِقِينَ ، وأَباحَ فِيها التَّواجُدَ لِلْعارِفينَ الواصِلِينَ ، والمُقْتَدِينَ بِهِمْ مِنَ المُقَلِّدِينَ ، فَراجِعِ المَصْدَرَ يَبِنْ لَكَ الحَقُّ .

ولاشَكَّ أَنَّ التَّواجُدَ هُوَ تَكَلُّفُ الوَجْدِ وإظْهارُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْدٌ حَقِيقَةً ولا حَرَجَ فِيهِ إذا صَحَّتِ النِّيَّةُ كَما قالَ العَلاَّمَةُ (ابْنُ عابْدِين) في حاشِيَتِهِ :

ما في التَّواجُدِ إنْ حَقَّقْتَ مِنْ حَرَجٍ * ولا التَّمايُلِ إنْ أَخْلَصْتَ مِنْ باسِ

فَإذا كانَ التَّواجُدُ جائِزاً ولا حَرَجَ فيهِ كَما نَصَّ الفُقَهاءُ ، فالْوَجْدُ مِنْ بابِ أَوْلَى ، وما وَجْدُ الصُّوفِيَّةِ وتَواجُدُهُمْ إلاَّ قَبَسٌ مِمَّا كانَ عَلَيْهِ أَصْحابُ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ .

وها هُوَ مُفْتِي السَّادَةِ الشَّافِعِيَّةِ بـ(مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ) العَلاَّمَةُ الكَبِيرُ (أَحْمَدُ زِينِي دَحْلان) رَحِمَهُ اللهُ يُورِدُ في كِتابِهِ المَشْهُورِ في السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ مَشْهَداً مِنْ إحْدَى حالاتِهِم ، ويُعَلِّقُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ : (وبَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ قَدِمَ مِنَ الحَبَشَةِ (جَعْفَرُ بنُ أَبِي طالِبٍ) رضي الله عنه ومَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ وهُمْ سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلاً ، فَتَلَقَّى (النَّبِيُّ) ﷺ جَعْفَرَ وقَبَّلَ جَبْهَتَهُ وعانَقَهُ وقامَ لَهُ - وقَدْ قامَ لِصَفْوانَ بن أُمَيَّةَ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ ، ولِعَدِيِّ بنِ حاتِمٍ رضي الله عنهما - ثُمَّ قالَ ﷺ : ما أَدْرِي بِأَيِّهِما أَفْرَحُ بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدومِ جَعْفَرَ ؟ ، وقالَ ﷺ لِجَعْفَر : أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي ، فَقامَ (جَعْفَرُ) رضي الله عنه فَحَجَلَ (١) حَوْلَ (النَّبِيِّ) ﷺ ، فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ

(١) الحَجْلُ : أَنْ يَرْفَعَ رِجْلاً ويَقْفِزَ عَلَى الأُخْرَى مِنَ الفَرَحِ ، وقالَ (ابْنُ كَثِير) في كِتابِ البِدايَةِ والنِّهاية : هُوَ رَقْصٌ بِهَيْئَةٍ مَخْصُوصَة .

رَقْصَهُ ، وجُعِلَ ذَلِكَ أَصْلاً لِرَقْصِ الصُّوفِيَّةِ عِنْدَما يَجِدُونَ مِنْ لَذَّةِ المَواجِيدِ في مَجالِسِ الذِّكْرِ والسَّماع) (١).

وقالَ العَلاَّمَةُ الألُوسِي في تَفْسِيرِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تعالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (٢) : (وعَلَيْهِ فَيُحْمَلُ ما حُكِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وعُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ وجَماعَةٍ ﷺ مِنْ أَنَّهُم خَرَجُوا يَوْمَ العِيدِ إِلَى المُصَلَّى ، فَجَعَلُوا يَذْكُرونَ اللهَ تعالَى ، فَقالَ بَعْضُهُم : أَما قالَ اللهُ تَعالَى : يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا ؟ فَقامُوا يَذْكُرونَ اللهَ تَعالَى عَلَى أَقْدامِهِمْ ، عَلَى أَنَّ مُرادَهُمْ بِذَلِكَ التَّبَرُّكُ بِنَوْعِ مُوافَقَةٍ لِلآيَةِ في ضِمْنِ فَرْدٍ مِنْ أَفْرادِ مَدْلُولِها) (٣).

وللهِ دَرُّ الشَّيْخ (أَبِي مَدْيَنَ) في قَوْلِهِ :

وقُلْ لِلَّذِي يَنْهَى عَنِ الوَجْدِ أَهْلَهُ ❋ إذا لَمْ تَذُقْ مَعْنَى شَرابِ الهَوَى دَعْنا
إذا اهْتَزَّتِ الأَرْواحُ شَوْقاً إِلَى اللِّقا ❋ نَعَمْ تَرْقُصُ الأَشْباحُ يا جاهِلَ المَعْنَى
أَما تَنْظُرُ الطَّيْرَ المُقَفَّصَ يا فَتَى ❋ إذا ذَكَرَ الأَوْطانَ حَنَّ إِلَى المَغْنَى
يُفَرِّجُ بِالتَّغْرِيدِ ما بِفُؤادِهِ ❋ فَتَضْطَرِبُ الأَعْضاءُ في الحِسِّ والمَعْنَى
كَذَلِكَ أَرْواحُ المُحِبِّينَ يا فَتَى ❋ تُهَزْهِزُها الأَشْواقُ لِلْعالَمِ الأَسْنَى
أَنُلْزِمُها بِالصَّبْرِ وهِيَ مَشُوقَةٌ ❋ وهَلْ يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ مَنْ شاهَدَ المَعْنَى
فيا حادِيَ العُشَّاقِ قُمْ واشْدُ قائِماً ❋ وزَمْزِمْ لَنا بِاسْمِ الحَبِيبِ ورَوِّحْنا

والخُلاصَةُ : أَنَّ الحَرَكَةَ في الذِّكْرِ مُباحَةٌ شَرْعاً ، هَذا بِالإِضافَةِ إِلَى أَنَّ الأَمْرَ بِالذِّكْرِ مُطْلَقٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الأَحْوالِ ؛ فَمَنْ ذَكَرَ اللهَ تَعالَى قاعِداً أَو قائِماً

---

(١) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ والآثارُ المُحَمَّدِيَّةُ لـ(زيني دَحْلان) . والحَديثُ أَخْرَجَهُ الإمامُ (البُخاري) في صَحيحِهِ في كِتابِ الصُّلْح .
(٢) سورة آل عمران من الآية ١٩١ .
(٣) رُوحُ المَعاني لـ(مَحْمُود الألُوسي) ج ٤ / ص ١٤٠ .

جالِساً أَو ماشِياً ، مُتَحَرِّكاً أَو ساكِناً ... فَقَدْ قامَ بِالمَطْلُوبِ ونَفَّذَ الأَمْرَ الإِلَهِيَّ فالَّذي يَدَّعِي تَحْرِيمَ الحَرَكَةِ في الذِّكْرأَوْ كَراهَتَها هُوَ المُطالَبُ بِالدَّلِيلِ ، لأَنَّهُ يُخَصِّصُ بَعْضَ الحالاتِ المُطْلَقَةِ دُونَ بَعْضٍ بِحُكْمٍ خاص .

وعَلَى كُلٍّ ؛ فَإِنَّ غايَةَ المُسْلِمِ في دُخُولِهِ حَلَقاتِ الأَذْكارِ قِيامُهُ بِعِبادَةِ الذِّكْرِ ، وإِنَّ الحَرَكَةَ في ذَلِكَ لَيْسَتْ شَرْطاً ، ولَكِنَّها وَسِيلَةٌ لِلنَّشاطِ في تِلْكَ العِبادَةِ وتَشَبُّهٌ بِأَهْلِ الوَجْدِ إِنْ صَحَّتِ النِّيَّة .

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُم * إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالكِرامِ فَلاحُ

الشَّرْطُ السَّابِعُ (نَفْيُ الخَواطِرِ عَنِ القَلْبِ) : لِئَلاَّ يَشْتَغِلَ بِها عَنِ اسْتِحْضارِ مَعانِي الذِّكْرِ والحُضُورِ والخُشُوعِ فيهِ ، وبِنَفْيِها يَتَخَلَّصُ القَلْبُ مِنْ شَوائِبِ الأَكْدارِ وتَظْهَرُ فيهِ لَمَحاتُ الأَنْوارِ ، فَإِنَّهُ يَرِدُ عَلَى العَبْدِ في اليَوْمِ واللَّيْلَةِ ما لا يُحْصَى مِنَ الخَواطِرِ ، وهِيَ مُنْحَصِرَةٌ في خَمْسَةِ خَواطِرَ أُمَّهاتٍ ؛ لأَنَّها تارَةً بِإِلْقاءِ الحَقِّ وتُسَمَّى (خِطاباً) ، وتارَةً بِإِلْقاءِ المَلَكِ وتُسَمَّى (إِلْهاماً) ، وتارَةً بِإِلْقاءِ القَلْبِ وتُسَمَّى (هاتِفاً) ، وتارَةً بِإِلْقاءِ الشَّيْطانِ وتُسَمَّى (وَسْواساً) ، وتارَةً بِإِلْقاءِ النَّفْسِ وتُسَمَّى (هاجِساً) .

وإِذا كانَ الخاطِرُ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعالَى كانَ تَنْبِيهاً لِلعَبْدِ وإِيقاظاً لَهُ ، قالَ ﷺ : (إِذا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً جَعَلَ لَهُ واعِظاً مِنْ نَفْسِهِ يَأْمُرُهُ ويَنْهاهُ) [1] ، وإِنَّ الخاطِرَ مِنْ قِبَلِ المَلَكِ يَكُونُ تَحْرِيضاً عَلَى العِبادَةِ لأَنَّهُ لا يَأْمُرُ إِلاَّ بِالخَيْرِ ، وإِنْ كانَ مِنْ قِبَلِ القَلْبِ وَافَقَ المَلَكَ ، وإِن كانَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطانِ يَكُونُ تَزْيِيناً لِمَعْصِيَةٍ وتارَةً يَأْمُرُهُ الشَّيْطانُ بِعِبادَةٍ ويَدْعُوهُ إِلَيْها ويُحَرِّضُهُ عَلَى ذِكْرٍ آخَرَ فَيَشْتَبِهُ بِالخاطِرِ الآتِي مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ والخاطِرِ الآتِي مِنْ قِبَلِ المَلَكِ ، وإِنَّما يُفَرِّقُ بَيْنَهُما بِأَنَّ الخاطِرَ المَلَكِيَّ يَعْقُبُهُ السُّكُونُ ويُورِثُ عِلْماً وفَهْماً ، والخاطِرَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْم في (الحِلْيَة) والدَّيْلَمِي في (مُسْنَد الفِرْدَوْس) .

الشَّيْطانِيَّ يَعْقِبُهُ الوَحْشَةُ والثِّقَلُ ، والنَّفْسُ تُلِحُّ في الطَّلَبِ وَمَثَلُها كالطِّفْلِ إذا أَخَذْتَ مِنْهُ شَيْئاً فَلا يَزالُ يَبْكِي حَتَّى تَرُدَّهُ إِلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ النَّفْسُ إذا دَعَتْ أَحَداً لِشَهْوَةٍ فَلا تَزالُ تُلِحُّ عَلَيْهِ في طَلَبِهِ حَتَّى تُوقِعَهُ في الشَّهْوَةِ ، فَإِنْ خالَفَها فَقَدْ مَلَكَها وإِنْ طاوَعَها صارَ عَبْدَها ، وقَدْ قالَ بَعْضُهُم شِعْراً في هَذا المَعْنَى

صَبَرْتُ عَنِ اللَّذَّاتِ حَتَّى تَوَلَّتِ * وأَلْزَمْتُ نَفْسي هَجْرَها فاسْتَمَرَّتِ

وكانَتْ مَدَى الأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً * فَلَمَّا رَأَتْ عَزْمِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتِ

وما النَّفْسُ إلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُها الفَتَى * فَإِنْ أُطْعِمَتْ تاقَتْ وإِلاَّ تَسَلَّتِ

وقَدْ شَبَّهَ بَعْضُ العارِفِينَ النَّفْسَ بِالدَّابَّةِ الحَرُون : لا تَنْقادُ ولا تَرْضَخُ إلاَّ بِلِجامٍ قَوِيٍّ ، وإِنَّما تَنْقادُ النَّفْسُ وتَذِلُّ بِثَلاثَةِ أَشْياء :

(الأَوَّلُ) مَنْعُها مِنْ شَهَواتِها : فَإِنَّ الدَّابَّةَ الحَرُونَ إِنَّما تَلِينُ إذا نَقَصَ عَلَفُها

(الثَّاني) تَحْمِيلُها مَشَاقَّ الطَّاعات : لأَنَّ الدَّابَّةَ الحَرُونَ إذا قَلَّ عَلَفُها وزِيدَ في حِمْلِها ذَلَّتْ وانْقادَت .

(الثَّالِثُ) يَسْتَعِينُ عَلَيْها بِاللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى : لا بِحَزْمِهِ ولا بِعَزْمِهِ ، إلاَّ بِتَوْفِيقِ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾[1]

ولَمَّا كانَ أَمْرُ النَّفْسِ ومُجاهَدَتُها وعِلاجُها صَعْباً وعَسِيراً فَإِنَّهُ لا يَكُونُ بِمَرَّةٍ واحِدَةٍ بَلْ بِالتَّكْرارِ والمُعالَجَةِ والمُجاهَدَةِ ، ويَحْتاجُ (المُرِيدُ) إِلَى (شَيْخٍ مُرْشِدٍ) عارِفٍ بِاللهِ تَعالَى ، خَبِيرٍ بِعِلَلِ النَّفْسِ عَلِيمٍ بِمُعالَجَتِها ، لِيُداوِيَ جِراحَها بِحِكْمَةِ إِرْشادِهِ ، ويَسْتَخْلِصَ المُرِيدَ مِنْ دَسائِسِها بِعالِي هِمَّتِهِ وإِمْدادِهِ .

الشَّرْطُ الثَّامِنُ (رَبْطُ المُرِيدِ بِالشَّيْخِ المُرْشِدِ) : وهُوَ أَهَمُّ شَرْطٍ عِنْدَ العارِفِينَ ، وأَعْظَمُ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مُرِيدُ السَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعالَى لِتَسْرِيَ إِلَى

---

(١) سُورَةُ يُوسُف مِنَ الآيَة ٥٣ .

رُوحِهِ تِلْكَ الصِّفاتُ الَّتي صارَتْ لِشَيْخِهِ مِنَ الإقْبالِ عَلَى دارِ الخُلُودِ والتَّجافي عَنْ دارِ الغُرورِ ، إذِ الجَلِيسُ الصَّالِحُ كَحامِلِ المِسْكِ ، إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ وإمَّا أنْ تَبْتاعَ مِنْهُ أَو تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً ، ولِهَذا كانَتْ مَنْزِلَةُ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم فَوْقَ كُلِّ مَنْزِلَةٍ لِمَنْ أَتَى بَعْدَهُم لِتَشَرُّفِهِم بِالاجْتِماعِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قالَ الإمامُ فَخْرُالدِّينِ الرَّازي في تَفْسِيرِهِ المَشْهُورِ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ سُورَةَ الفاتِحَةِ : (البابُ الثَّالِثُ في الأَسْرارِ العَقْلِيَّةِ المُسْتَنْبَطَةِ مِنْ هَذهِ السُّورَةِ - الفاتِحَة -) فيه مَسائِلُ ....

اللَّطِيفَةُ الثَّالِثَة : قالَ بَعْضُهُم : إنَّهُ لَمَّا قالَ :﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَيْهِ ، بَلْ قالَ :﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[(١)].

وهَذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُرِيدَ لا سَبِيلَ لَهُ إلَى الوصُولِ إلَى مَقاماتِ الهِدايَةِ والمُكاشَفَةِ إلاَّ إذا اقْتَدَى بِشَيْخٍ يَهْدِيهِ إلَى سَواءِ السَّبِيلِ ، ويُجَنِّبُهُ عَنْ مواقِعِ الأَغالِيطِ والأَضالِيلِ ، وذَلِكَ لِأَنَّ النَّقْصَ غالِبٌ عَلَى أَكْثَرِ الخَلْقِ ، وعُقُولُهُمْ غَيْرُ وافِيَةٍ بِإدْراكِ الحَقِّ وتَمْيِيزِ الصَّوابِ عَنِ الغَلَطِ ، فَلا بُدَّ مِنْ كامِلٍ يَقْتَدِي بِهِ النَّاقِصُ حَتَّى يتَقَوَّى عَقْلُ ذَلِكَ النَّاقِصِ بِنُورِ عَقْلِ الكامِلِ ، فَحِينَئِذٍ يَصِلُ إلَى مَدارِجِ السَّعاداتِ ومَعارِجِ الكَمالات)[(٢)].

وهَذا ما عَبَّرَ عَنْهُ الشَّيْخُ مُحَمَّد متولِّى الشَّعْراوِي مَعَ شَيْخِهِ العارِفِ بِاللهِ (مُحَمَّد بَلْقائِد) ، قائِلاً :

طَوَّفْتُ فى شَرْقِ البِلادِ وغَرْبِها ✽ وبَحَثْتُ جَهْدِى عَنْ إمامٍ رائِدِ
أَشْفِى بِهِ ظَمَأً لِغَيْبِ حَقِيقَةٍ ✽ وأَهِيمُ مِنْهُ فى جَلالِ مُشاهِدِ
فَهَدانِى الوَهَّابُ جَلَّ جَلالُهُ ✽ حَتَّى وَجَدْتُ بـ(تِلِمْسانَ) مَقاصِدِى
واليَوْمَ آخُذُ نُورَها عَنْ شَيْخِنا ✽ فى الطَّرِيقِ (مُحَمَّدٍ بَلْقائِدِ)
ذُقْنا مَواجِيدَ الحَقِيقَةِ عِنْدَهُ ✽ وبِهِ عَرَجْنا فى صَفاءِ مَصاعِدِ

---

(١) سُورَةُ الفاتِحَة ، مِنَ الآيَة ٧ .
(٢) تَفْسِيرُ مَفاتِيح الغَيْب (التَّفْسِير الكَبِير) للإمام فَخْرالدِّين الرَّازي .

الوَلِيُّ المُرْشِدُ
والحاجَةُ إِلَيْهِ في زَمَنِنا هَذا أَشَدُّ

إِنَّ صَحِيحَ الشَّرِيعَةِ وصَحِيحَ الطَّبِيعَةِ وصَحِيحَ التَّجْرِبَةِ وصَحِيحَ المُمارَسَةِ والواقِعِ يَقْتَضِي اتِّخاذَ الشَّيْخِ المُرْشِدِ المُرَبِّي .

أَمَّا الشَّرِيعَةُ ، فاللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ (١) ويَقُولُ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (٢) ، ويَقُولُ : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٣) ، ويَقُولُ : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٤) ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٥) ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ (٦) ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ (٧) ، ويَقُولُ عَزَّ مِنْ قائِلٍ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨) ونَسْتَأْنِسُ بِقَوْلِ الحَقِّ جَلَّ في عُلاه : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (٩) أَي لَوْ بَحَثْتَ عَنْ سَبَبِ ضَلالَتِهِ : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مُرْشِدٌ .

والعارِفُونَ بِاللهِ هُم الوَسائِلُ ، فالشَّيْخُ الواصِلُ وَسِيلَةُ مُرِيدِهِ إِلَى اللهِ ، وبابُهُ الَّذي يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَى اللهِ ، فَهُم أَبْوابُ الحَقِّ .

قالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاق : (الشَّجَرَةُ الَّتي تَنْبُتُ بِنَفْسِها مِنْ غَيْرِ صاحِبٍ لا تَعِيشُ ولا تُثْمِرُ ، وإِنْ عاشَتْ وأَثْمَرَتْ كانَ ثَمَرُها مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ ، وسُنَّةُ اللهِ جارِيَةٌ عَلَى أَنْواعٍ مِنَ النَّسَبِ والسَّبَبِ ، وكَما أَنَّ التَّناسُلَ والتَّوالُدَ الحَقِيقِيَّ لا يَحْصُلُ إِلاَّ بِواسِطَةِ الوالِدِ والوالِدَةِ ، فَكَذَلِكَ التَّوالُدُ والنَّسْلُ المَعْنَوِيُّ حُصُولُهُ بِغَيْرِ

---

(١) سُورَةُ الأَنْبِياء مِنَ الآيَة ٧ .
(٢) سُورَةُ الفُرْقان مِنَ الآيَة ٥٩ .
(٣) سُورَةُ الرَّعْد مِنَ الآيَة ٧ .
(٤) سُورَةُ فاطِرمِنَ الآيَة ١٤ .
(٥) سُورَةُ الأَنْعام مِنَ الآيَة ٩٠ .
(٦) سُورَةُ لُقْمان مِنَ الآيَة ١٥
(٧) سُورَةُ المُمْتَحَنَة مِنَ الآيَة ٤ .
(٨) سُورَةُ المائِدَة الآيَة ٣٥ .
(٩) سُورَةُ الكَهْف مِنَ الآيَة ١٧ .

مُرْشِدٍ مُتَعَذِّرٍ لِحِكْمَةٍ ما جَرَتْ عادَةُ اللهِ بِهِ) .

وفي الحَدِيثِ الثَّابِتِ : (هَلَّا سَأَلُوا ، فَإِنَّ دَواءَ العَيِّ السُّؤَالُ)[1] .

وإِذَنْ : فَلا بُدَّ مِنْ هادٍ قُدْوَةٍ مَسْئُولٍ ، خَبِيرٍ بِوَسائِلِ الفِرارِ إِلَى اللهِ والهِجْرَةِ إِلَيْهِ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى سَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام كَيْفَ طَلَبَ المُرْشِدَ لِيَتْبَعَهُ ، كَما فى سُورَةِ الكَهْفِ ، وكَيْفَ كانَ أَدَبُ سَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام مَعَ مُرْشِدِهِ

ولِذا كانَ لابُدَّ لِطالِبِ حِفْظِ القُرْآنِ مِنَ المُقْرِيءِ المُوَقِّفِ الخَبِيرِ بِأَحْكامِ التِّلاوَةِ ، وصِحَّةِ الأَداءِ ، ولَوْ تُرِكَ القارِىءُ العادِيُّ لِنَفْسِهِ ، لاسْتَحالَ عَلَيْهِ أَنْ يُحَصِّلَ حَقَّ التِّلاوَةِ وصِحَّةَ الأَداءِ ، وبِالتَّالِي رُبَّما اضْطَرَبَتْ مَعَهُ مَفاهِيمُ الآياتِ ، وغابَتِ الأَحْكامُ ، وقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ في كُلِّ عُلُومِ الدِّينِ واللُّغَةِ ، وكُلِّ عُلُومِ الدُّنْيا نَظَرِيَّةً كانَتْ أَمْ عَمَلِيَّةً ، حَتَّى الحِرَفِ والمِهَنِ والصِّناعاتِ ، مَهْما عَلَتْ أَو دَنَتْ ، لابُدَّ لَها مِنَ اخْتِصاصِيٍّ يُلَقِّنُها ويَكْشِفُ أَسْرارَها ، فَما لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ شَيْخٌ في العِلْمِ : ضَلَّ وافْتَرَسَهُ الشَّيْطانُ ، واسْتَهْواهُ ، وجَعَلَ إِلَيْهِ هَواهُ فَهَلَكَ .

وما لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ مُعَلِّمٌ في بَقِيَّةِ الصِّناعاتِ لَما أَصابَ ولا أَجادَ ، ورُبَّما هَلَكَ وهُوَ يَطْلُبُ الحَياةَ ، ومِنْ هُنا كانَ لابُدَّ لِلسَّالِكِ إِلَى اللهِ مِنْ إِمامٍ يُرْشِدُهُ ويُوَجِّهُهُ ويُسَدِّدُهُ ، ويَكْشِفُ لَهُ أَحابِيلَ الشَّيْطانِ ، في العِباداتِ والمُعامَلاتِ ، والخَطَراتِ النَّفْسِيَّةِ والإِراداتِ القَلْبِيَّةِ ، والوارِداتِ الَّتي قَدْ تَكُونُ أَخْطَرَ عَلَى صاحِبِها مِنَ الكُفْرِ الصَّرِيحِ .

ولِهَذا سَجَّلَ كِبارُ أَئِمَّةِ الأُمَّةِ أَخْذَهُمْ وتَلَقِّيَهُمْ عَنْ كِبارِ شُيُوخِهِمْ ، كابِراً عَنْ كابِرٍ ، بِالإِجازَةِ الشَّرِيفَةِ ، والثَّبْتِ المُحْكَمِ ، سَواءٌ في العُلُومِ ، أَو في تَلَقِّي البَيْعَةِ الصُّوفِيَّةِ ، واتِّصالِ السَّنَدِ ، ولا يَزالُ في عَصْرِنا هَذا يَسْتَعِدُّ الطالِبُ

---

(١) أَخرجَهُ الإمامُ (أَحْمَدُ) ، و(أَبُوداود) ، و(ابْنُ ماجَه) ، و(الدَّارَقُطْني) ، و(الدَّارمي) .

لِأَعْلَى دَرجاتِ الثَّقافَةِ (الدُّكْتوراهُ مَثَلاً) ولابُدَّ لَهُ مِنْ مُشْرِفٍ يُشارِكُهُ رِحْلَةَ العِلْمِ والجُهْدِ ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] ، وقَدْ تَلَقَّيْنا مِنْ قَواعِدِ أَهْلِ العِلْمِ قَوْلَهُم : (لا تَأْخُذِ العِلْمَ مِنَ صُحُفِيٍّ ولا القُرْآنَ مِنْ مُصْحَفِيٍّ) .

والصُّحُفِي : هُوَ الَّذي جَمَعَ مَحْصُولَهُ مِنَ الصُّحُفِ وَحْدَها ، دُونَ مُرْشِد .

والمُصْحَفِي : مِنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَحْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ مُوَقِّفٍ ، وهَذا مُجَرَّحٌ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ .

وفي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ (مُحَمَّد زَكي إِبْراهيم) مُجِيباً عَلَى سائِلٍ مُسْتَفْسِر :

يَقُولُ : هَلِ اتِّخاذُ الشَّيْخِ * مَحْتُومٌ عَلَى القاصِدِ ؟
فَقُلْتُ : وهَلْ تَرَبَّى قَطُّ * مَوْلُودٌ بِلا والِدِ ؟
وهَلْ يُتْمُ اليَتِيمِ كَفاهُ * فاسْتَغْنَى عَنِ الرَّافِدِ ؟
وهَلْ أَبْصَرْتَ مَكْفُوفاً * ولا يَحْتاجُ لِلْقائِدِ ؟
وهَلْ عِلْمٌ ، وهَلْ فَنٌّ * بِغَيْرِ المُرْشِدِ الرَّاشِدِ ؟
وكَيْفَ يَسِيرُ في الصَّحَرا * غَرِيبٌ ؟ أَعْزَلٌ وافِد ؟
تَأَمَّلْ ما أَتَى (مُوسَى) * وقِصَّتَهُ مَعَ العابِدِ
تَأَمَّلْ بِعْثَةَ الهادِي * فَفِيها الشَّاهِدُ الخالد
وبابُ اللهِ مَفْتُوحٌ * ولَكِنْ مَنْ هُوَ الرَّائِدُ ؟

وقَدْ وَرَدَ في الخَبَرِ عَنْ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ شِئْتُمْ لأُقْسِمَنَّ لَكُمْ ، إِنَّ أَحَبَّ عِبادِ اللهِ تَعالَى إِلَى اللهِ الَّذينَ يُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى عِبادِهِ ، ويُحَبِّبُونَ عِبادَ اللهِ إِلَى اللهِ ، ويَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ بالنَّصِيحَةِ) [2] ،

---

(١) سُورَةُ الرَّعْد مِنَ الآيَة ١٦ .
(٢) انْظُر : (جامع العُلُوم والحِكَم) لابْن رَجَب الحَنْبَلي ج ١ / ٨١ ، و(مُصَنَّف ابْن أبي شَيْبَة) ٧ / ٧٣ .

ومَنْ أَصْدَقُ في التَّعْبِيرِ عَنْ هَذهِ المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ مِنَ المَشايِخِ والدُّعاةِ إِلَى اللهِ تعالَى ؟ ، فَهُم الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى عِبادِهِ حَقِيقَةً ، ويُحَبِّبُونَ عِبادَ اللهِ إِلَى اللهِ ، ورُتْبَةُ المَشْيَخَةِ مِنْ أَعْلَى الرُّتَبِ في طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ ، لِأَنَّ فِيها مَعْنَى نِيابَةِ النُّبُوَّةِ في الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ .

فَأَمَّا وَجْهُ كَوْنِ الشَّيْخِ يُحَبِّبُ اللهَ إِلَى عِبادِهِ ؛ فَلأَنَّ الشَّيْخَ يَسْلُكُ بِالمُرِيدِ طَرِيقَ الاقْتِداءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، ومَنْ صَحَّ اقْتِداؤُهُ واتِّباعُهُ أَحَبَّهُ اللهُ تَعالَى ؛ قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(١) .

ووَجْهُ كَوْنِهِ يُحَبِّبُ عِبادَ اللهِ تَعالَى إِلَيْهِ : أَنَّهُ يَسْلُكُ بِالمُرِيدِ طَرِيقَ التَّزْكِيَةِ ، وإِذا تَزَكَّتِ النَّفْسُ انْجَلَتْ مِرْآةُ القَلْبِ ؛ وانْعَكَسَتْ فِيهِ أَنْوارُ العَظَمَةِ الإِلَهِيَّةِ ؛ ولاحَ فِيها جَمالُ التَّوْحِيدِ ؛ وانْجَذَبَتْ أَحْداقُ البَصِيرَةِ إِلَى مُطالَعَةِ أَنْوارِ جَلالِ القِدَمِ ورُؤْيَةِ الكَمالِ الأَزَلِيِّ ؛ فَأَحَبَّ العَبْدُ رَبَّهُ لا مَحالَةَ ؛ وذَلِكَ مِيراثُ التَّزْكِيَةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾(٢) .

وفَلاحُها بِالظَّفَرِ بِمَعْرِفَةِ اللهِ تَعالَى ؛ ويَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مِرْآةَ القَلْبِ إِذا انْجَلَتْ لاحَتْ فِيها الدُّنْيا بِقُبْحِها وحَقِيقَتِها وماهِيَّتِها ؛ ولاحَتِ الآخِرَةُ ونَفائِسُها بِكُنْهِها وغايَتِها ، فَتَنْكَشِفُ لِلْبَصِيرَةِ حَقِيقَةُ الدَّارَيْنِ وحاصِلُ المَنْزِلَيْنِ ؛ فَيُحِبُّ العَبْدُ الباقِيَ ويَزْهَدُ في الفانِي ، فَتَظْهَرُ فائِدَةُ التَّزْكِيَةِ وجَدْوَى المَشْيَخَةِ والتَّرْبِيَةِ ، فالشَّيْخُ مِنْ جُنُودِ اللهِ تَعالَى يُرْشِدُ بِهِ المُرِيدِينَ ويَهْدِي بِهِ الطَّالِبِين .

بَيانُ كَيْفِيَّةِ الاهْتِداءِ إِلَى الشَّيْخِ المُرْشِدِ ، وسَبِيلِ الوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ :

(١) حِينَ يَشْعُرُ الطَّالِبُ بِحاجَتِهِ إِلَيْهِ كَشُعُورِ المَرِيضِ بِحاجَتِهِ إِلَى الطَّبِيبِ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدُقَ العَزْمَ ، ويُصَحِّحَ النِّيَّةَ ، ويَتَّجِهَ إِلَى اللهِ تَعالَى بِقَلْبٍ ضارِعٍ

(١) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ٣١ .
(٢) سُورَةُ الشَّمْس الآيَة ٩ .

مُنْكَسِرٍ ، يُنادِيهِ في جَوْفِ اللَّيْلِ ، ويَدْعُوهُ في سُجوُدِهِ وأَعْقابِ صَلاتِهِ :

(اللَّهُمَّ دُلَّنِي عَلَى مَنْ يَدُلُّنِي عَلَيْكَ ، وأَوْصِلْنِي إِلَى مَنْ يُوصِّلُنِي إِلَيْكَ) .

واشْتُهِرَ عَنْ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ قَوْلُهُم : (جِدَّ صِدْقاً تَجِدْ شَيْخاً) .

(٢) عَلَيْهِ أَنْ يَبْحَثَ في بَلَدِهِ ، ويُفَتِّش ويَسْأَلَ عَنِ المُرْشِدِ بِدِقَّةٍ وانْتِباهٍ غَيْرُ مُلْتَفِتٍ لِما يُشِيعُهُ بَعْضُهُم مِنْ فَقْدِ المُرْشِدِ المُرَبِّي في هَذا الزَّمَن .

وفي هَذا يَقُولُ ابْنُ عَجِيبَة : (والنَّاسُ في إِثْباتِ الخُصُوصِيَّةِ ونَفْيِها عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ :(أ) قِسْمٌ أَثْبَتُوها لِلْمُتَقَدِّمِينَ ، ونَفَوْها عَنِ المُتَأَخِّرِين : وهُمْ أَقْبَحُ العَوام .

(ب) وقِسْمٌ أَقَرُّوها قَدِيماً وحَدِيثاً ؛ وقالُوا : إِنَّهُم أَخْفِياءٌ في زَمانِهِم فَحَرَمَهُم اللهُ بَرَكَتَهُم .

(ج) وقَوْمٌ أَقَرُّوا الخُصُوصِيَّةَ في أَهْلِ زَمانِهِم ، مَعَ إِقْرارِهِم بِخُصُوصِيَّةِ السَّلَفِ ، وعَرَفُوهُم ، وظَفِروا بِهِم ، وعَظَّمُوهُم ؛ وهُم السُّعَداءُ الَّذِينَ أَرادَ اللهُ أَنْ يُرَحِّلَهُم إِلَيْهِ ، ويُقَرِّبَهُم إِلَى حَضْرَتِهِ ، وفي الحِكَمِ :

(سُبْحانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيائهِ إِلاَّ مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ ؛ ولَمْ يُوصِّلْ إِلَيْهِمْ إِلاَّ مَنْ أَرادَ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِ) .

وبِهَذا يُرَدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ شَيْخَ التَّرْبِيَةِ انْقَطَعَ ، فَإِنَّ قُدْرَةَ اللهِ تَعالَى عامَّةٌ ، وإِنَّ مُلْكَ اللهِ قائِمٌ ؛ والأَرْضَ لا تَخْلُو مِمَّنْ يَقُومُ بِالحُجَّةِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ)(١)

فَإِذا لَمْ يَجِدْ أَحَداً في مَدِينَتِهِ فَلْيَبْحَثْ عَنْهُ في مُدُنٍ أُخْرَى ، أَلاَ تَرَى المَرِيضَ يُسافِرُ إِلَى بَلْدَةٍ ثانِيَةٍ لِلتَّداوِي إِذا لَمْ يَجِدِ الطَّبِيبَ المُخْتَصّ ، أَو حِينَ يَعْجَزُ أَطِبَّاءُ مَدِينَتِهِ عَنْ تَشْخِيصِ دائِهِ ومَعْرِفَةِ دَوائِهِ ؛ ومُداوَةُ الأَرْواحِ تَحْتاجُ إِلَى أَطِبَّاءَ أَمْهَرَ مِنْ أَطِبَّاءِ الأَجْسام .

---

(١) البَحْرُ المَدِيدُ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ المَجِيد . لـ(ابْنِ عَجِيبَة) ج ١ / ص ٧٧ .

بَيانُ أَوْصافِ الشَّيْخِ المُرْشِدِ

ولِلمُرْشِدِ شُروطٌ لابُدَّ مِنْها حَتَّى يَتأَهَّلَ لإرْشادِ النَّاسِ وهِيَ أَرْبَعَةٌ :

١ - أَنْ يَكُونَ عالِماً بِالفَرائِضِ العَيْنِيَّة .

٢ - أَنْ يَكُونَ عارِفاً بِاللهِ تَعالَى .

٣ - أَنْ يَكُونَ خَبِيراً بِطَرائِقِ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ ووَسائِلِ تَرْبِيَتِها .

٤ - أَنْ يَكُونَ مَأْذُوناً بِالإرْشادِ مِنْ شَيْخِه .

(١) أَمَّا الشَّرْطُ الأَوَّلُ : فَيَنبَغِي أَنْ يَكُونَ المُرْشِدُ عالِماً بِالفَرائِضِ العَيْنِيَّةِ كأَحْكامِ الصَّلاةِ والصَّوْمِ والزَّكاةِ والحَجِّ وأَحْكامِ المُعامَلاتِ والبُيُوعِ .... إلخ ، وأَنْ يَكُونَ عالِماً بِعَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ في التَّوْحِيدِ ، فَيَعْرِفُ ما يَجِبُ للهِ تَعالَى ، وما يَجُوزُ وما يَسْتَحِيلُ إجْمالاً وتَفْصِيلاً ، وكَذَلِكَ في حَقِّ الرُّسُلِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهَكَذا سائِرُ أَرْكانِ الإيمان .

(٢) وأَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي : فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحقَّقَ المُرْشِدُ بِعَقيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَمَلاً وذَوْقاً بَعْدَ أَنْ عَرَفَها عِلْماً ودِرايَةً ، فَيَشْهَدَ في قَلْبِهِ ورُوحِهِ صِحَّتَها ، ويَشْهَدَ أَنَّ اللهَ تَعالَى واحِدٌ لاشَريكَ لَهُ ولا نِدَّ لَهُ فى الذَّاتِ والصِّفاتِ والأَفْعالِ وعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى حَضَراتِ أَسْماءِ اللهِ تَعالَى ذَوْقاً وشُهُوداً ، ويُرْجِعَها إِلَى الحَضْرَةِ الجامِعَةِ ، ولا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ تَعَدُّدُ الحَضَراتِ ، إِذْ تَعَدُّدُ الحَضَراتِ لا يَدُلُّ عَلَى تَعَدُّدِ الذَّات .

(٣) وأَمَّا الشَّرْطُ الثَّالِثُ : فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ زَكَّى نَفْسَهُ عَلَى يَدِ مُرَبٍّ ومُرْشِدٍ ، فَخَبَرَ مَراتِبَ النَّفْسِ وأَمْراضَها ووَساوِسَها ، وعَرَفَ أَسالِيبَ الشَّيْطانِ ومَداخِلَهُ ، وآفاتِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ السَّيْرِ ، وطَرائِقَ مُعالَجَةِ كُلِّ ذَلِكَ بِما يُلائِمُ حالَةَ كُلِّ شَخْصٍ وأَوْضاعَه .

(٤) وأمَّا الشَّرْطُ الرَّابِعُ : فَلا بُدَّ لِلْمُرْشِدِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أُجِيزَ مِنْ شَيْخِهِ بِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ وهَذا السَّيْرِ ، فَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ الاخْتِصاصِيُّونَ بِعِلْمٍ يَدَّعِيهِ لا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَتَصَدَّرَ فِيهِ ؛ فَالإجازَةُ : هِيَ شَهادَةُ أَهْلِيَّةِ الإِرْشادِ وحِيازَةِ صِفاتِهِ وعَلَيْها أُسِّسَتِ الآنَ فِكْرَةُ المَدارِسِ والجامِعاتِ ، فَكَما لا يَجُوزُ لِمَنْ لا يَحْمِلُ شَهادَةَ الطِّبِّ أَنْ يَفْتَحَ عِيادَةً لِمُداواةِ المَرْضَى ، ولا يَصِحُّ لِغَيْرِ المُجازِ في الهَنْدَسَةِ أَنْ يَرْسُمَ مُخَطَّطاً لِلْبِناءِ ، وكَما لا يَجُوزُ لِمَنْ لا يَحْمِلُ شَهادَةَ أَهْلِيَّةِ التَّعْلِيمِ أَنْ يُدَرِّسَ في المَدارِسِ والجامِعاتِ ، فَكَذَلِكَ لا يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِيَ الإِرْشادَ غَيْرُ مَأْذُونٍ لَهُ بِهِ مِنْ قِبَلِ مُرْشِدِينَ مَأْذُونِينَ مُؤَهَّلِينَ ، يَتَّصِلُ سَنَدُهُم بِالتَّسَلْسُلِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ وذَلِكَ عَلَى غِرارِ عُلَماءِ الحَدِيثِ الَّذِينَ تَناقَلُوا أَحادِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّنَدِ رَجُلاً عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، واعْتَبَروا السَّنَدَ أَساساً لِحِفْظِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مِنَ الضَّياعِ والتَّحْرِيفِ ولِهَذا قالَ ابْنُ المُبارَك : (الإِسْنادُ مِنَ الدِّينِ ، ولَوْلا الإِسْنادُ لَقالَ مَنْ شاءَ ما شاءَ) .

وكَما أَنَّهُ لا يَصِحُّ مِنَ العاقِلِ أَنْ يَتَداوَى عِنْدَ جاهِلٍ بِالطِّبِّ ، كَذَلِكَ لا يَجُوزُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَرْكَنَ إِلَى غَيْرِ المُرْشِدِ المَأْذُونِ المُخْتَصِّ بِالتَّوْجِيهِ والإِرْشادِ ، وكُلُّ مَنْ دَرَسَ الوَضْعَ العِلْمِيَّ في الماضِي يَعْرِفُ قِيمَةَ الإِجازَةِ مِنَ الأَشْياخِ وأَهَمِّيَّةَ التَّلَقِّي عِنْدَهُم ، حَتَّى إِنَّهُم أَطْلَقُوا عَلَى مَنْ لَمْ يَأْخُذْ عِلْمَهُ مِنَ العُلَماءِ اسْمَ (الصُّحُفِي) ، لأَنَّهُ أَخَذَ عِلْمَهُ مِنَ الصُّحُفِ والمُطالَعةِ الخاصَّةِ ، قالَ (ابْنُ سِيرِينَ) رضي الله عنه :

(إِنَّ هَذا العِلْمَ دِينٌ فانْظُروا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُم)[١].

وقَدْ أَوْصَى (رَسُولُ اللهِ) ﷺ (ابْنَ عُمَرَ) رضي الله عنهما بِذَلِكَ فَقالَ ﷺ :

(يا ابْنَ عُمَرَ ، دِينَكَ دِينَكَ ، إِنَّما هُوَ لَحْمُكَ ودَمُكَ فانْظُرْ عَمَّنْ تَأْخُذُ ، خُذْ

(١) ذَكَرَهُ (مُسْلِمٌ) في مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ عَنْ (مُحَمَّد بن سِيرِين) ونَسَبَهُ ابْنُ عبد البَرّ في التَّمهيد لأبي هريرة رضي الله عنه.

الدِّينَ عَنِ الَّذِينَ اسْتَقامُوا ، ولا تَأْخُذْ عَنِ الَّذِينَ مالُوا)[1].

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ : (العِلْمُ رُوحٌ تُنْفَخُ لا مَسائِلُ تُنْسَخُ ، فَلْيَنْتَبِهِ المُتَعَلِّمُونَ عَمَّنْ يَأْخُذُونَ ، ولْيَنْتَبِهِ العالِمُونَ لِمَنْ يُعْطُونَ) .

لِلْمُرْشِدِ سِماتٌ وعَلاماتٌ

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مِنْ عَلاماتِ المُرْشِدِ أُموراً يُمْكِنُ مُلاحَظَتُها :

❁ مِنْها : أَنَّ مَنْ يُجالِسُهُ يَشْعُرُ بِنَفْحَةٍ إيمانِيَّةٍ ، ونَشْوَةٍ رُوحِيَّةٍ ، فَهُوَ لا يَتَكَلَّمُ إلاَّ لِلّهِ ، ولا يَنْطِقُ إلاَّ بِخَيْرٍ ، ولا يَتَحَدَّثُ إلاَّ بِمَوْعِظَةٍ أَو نَصِيحَةٍ ، يُسْتَفادُ مِنْ كَلامِهِ ، يُنْتَفَعُ مِنْ قُرْبِهِ كَما يُنْتَفَعُ مِنْ بُعْدِهِ ، يُسْتَفادُ مِنْ لَحْظِهِ كَما يُسْتَفادُ مِنْ لَفْظِهِ .

❁ ومِنْها : أَنْ يُلاحِظَ في إخْوانِهِ ومُرِيدِيهِ صُوَرَ الإيمانِ والإخْلاصِ والتَّقْوَى والتَّواضُعِ ، وأَنْ يَتَذَكَّرَ وهُوَ يُخالِطُهُم المُثُلَ العُلْيا في مَيادِينِ الحُبِّ ، والصِّدْقِ والإيثارِ والأُخُوَّةِ الخالِصَةِ ، وهَكَذا يُعْرَفُ الطَّبِيبُ الماهِرُ بِآثارِهِ ونَتائِجِ جُهُودِهِ حَيْثُ تَرَى المَرْضَى الَّذِينَ شُفُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وتَخَرَّجُوا مِنْ مَصَحَّتِهِ بِأَوْفَرِ قُوَّةٍ وأَتَمِّ عافِيَةٍ .

عِلْماً أَنَّ كَثْرَةَ المُرِيدِينَ والتَّلامِيذِ وقِلَّتَهُم لَيْسَتْ مِقْياساً وَحِيداً ، وإِنَّما العِبْرَةُ بِصَلاحِ هَؤُلاءِ المُرِيدِينَ وتَقْواهُمْ ، وتَخَلُّصِهِم مِنَ العُيُوبِ والأَمْراضِ واسْتِقامَتِهِم عَلَى شَرْعِ اللهِ تَعالَى .

والحِكْمَةُ الصُّوفِيَّةُ تَقُولُ :

(اسْلُكْ طَرِيقَ الهُدَى ولا يَضُرُّكَ قِلَّةُ السَّالِكِينَ ، واحْذَرْ طَرِيقَ الرَّدَى ولا يَغُرُّكَ كَثْرَةُ الهالِكِينَ) .

❁ ومِنْها : أَنَّكَ تَرَى تَلامِذَتَهُ يُمَثِّلُونَ مُخْتَلَفَ طَبَقاتِ الأُمَّةِ ، وهَكَذا كانَ

(١) أَخْرَجَهُ الحافِظُ ابْنُ عَدِيٍّ عَنِ (ابْنِ عُمَرَ) رضي الله عنه كذا في (كَنْزِ العُمَّالِ) ، ج ٣ / ص ١٥٢ .

أَصْحابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

فالظَّفَرُ بِهِ يَدْفَعُ الطالِبَ لِلأَخْذِ بِيَدِهِ ، والْتِزامِ مَجالِسِهِ ، والتَّأَدُّبِ مَعَهُ ، والعَمَلِ بِنُصْحِهِ وإرْشادِهِ ، فى سَبِيلِ الفَوْزِ بِسَعادَةِ الدَّارَيْن .

بَيانُ الحِكْمَةِ مِنْ وُجُوبِ الْتِزامِ المُرِيدِ بِشَيْخٍ واحِد

مَشايِخُ الطُّرُقِ لا يَمْنَعُونَ أَنْ يَتَرَدَّدَ المُرِيدُ عَلَى أَيِّ إِنْسانٍ لِلتَّزَوُّدِ بِالثَّقافَةِ والعِلْمِ ، ولَكِنَّهُم يَمْنَعُونَ أَنْ يَجْمَعَ المُرِيدُ بَيْنَ عِدَّةِ وسائِلَ لِلسُّلُوكِ ؛ فَإِنَّهُ لا يَجُوزُ لِلْمَأْمُومِ أَنْ يَأْتَمَّ إِلاَّ بِواحِدٍ فِي الفَرْضِ الواحِدِ ، ولا يَجُوزُ لِلْمَرِيضِ أَنْ يَتَناوَلَ أَدْوِيَةَ عَدَدٍ مِنَ الأَطِبَّاءِ فِي وَقْتٍ واحِدٍ ، والتَّرْبِيَةُ شَيْءٌ غَيْرُ العِلْمِ ؛ فالعِلْمُ : مَطالِبُ تَأْتَلِفُ ؛ والسُّلوكُ : مَشارِبُ تَخْتَلِفُ ؛ فَهُوَ أُبُوَّةٌ رُوحِيَّةٌ ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ للإِنْسانِ إِلاَّ أَبٌ واحِدٌ ، وحُبُّ الأَبِ لا يَمْنَعُ حُبَّ الأَعْمامِ والأَخْوالِ وتَوْقِيرَهُم .

فَإِذا تُوفِّىَ الشَّيْخُ قَبْلَ نُضُوجِ المُرِيدِ ، جازَ لِلْمُرِيدِ أَنْ يَتَّخِذَ مَنْ يُتِمُّ بِهِ رِحْلَتَهُ وإِذا ثَبَتَ أَنَّ الشَّيْخَ جاهِلٌ ، أَوْ مُنْحَرِفٌ ، تَعيَّنَ أَنْ يَبْحَثَ المُرِيدُ عَنْ سِواهُ ، وهُنا نُكَرِّرُ ونُذَكِّرُ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى المُرِيدِ أَنْ يَحْتاطَ ويَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ الشَّيْخِ أَنَّهُ هَلْ يَصْلُحُ لِلْمَشْيَخَةِ أَمْ لا ؟ فَإِنَّ أَكْثَرَ الطَّالِبِينَ هَلَكُوا فِي هَذا المَنْزِلِ ، بَلْ هَلاكُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ كانَ بِالاهْتِداءِ بِالأَئِمَّةِ المُضِلَّة .

فالشَّيْخُ : هُوَ الَّذي يَجْلُو بِقُوَّةِ نَظَرِ الباطِنِ صَدَأَ الدُّنْيا وحُبَّها مِنْ قَلْبِ المُرِيدِ حَتَّى لا يَبْقَى فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ كَدَرِ الدُّنْيا وغِلِّها وغِشِّها وفُحْشِها وعَلائِقِها .

فَإِذا تَمَّ لِلْمُرِيدِ مَقامُهُ ، جازَ أَنْ يَتَلَقَّى لِلتَّبَرُّكِ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الأَشْياخِ ، دُونَ أَنْ يَدَعَ طَرِيقَهُ الأَصِيلَ الَّذِى كانَ سَبَبَ الفَتْحِ بِحالٍ مِنَ الأَحْوالِ ؛ كَشَأْنِ كِبارِ الرِّجالِ ، سَلَفاً وَخَلَفاً ، وكَما هُوَ مُسَجَّلٌ فِي أَثْباتِهِم وإِجازاتِهِم .

بيانُ مَشْرُوعِيَّةِ أَخْذِ العَهْدِ

مِمَّا سَبَقَ ثَبَتَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمُرِيدِ الكَمالِ أَنْ يَلْتَحِقَ بِمُرْشِدٍ يَتَعَهَّدُهُ بِالتَّوْجِيهِ ويُرْشِدُهُ إِلَى الطَّرِيقِ الحَقِّ ، ويُضِيءُ لَهُ ما أَظْلَمَ مِنْ جوانِبِ نَفْسِهِ ،حَتَّىٰ يَعْبُدَ اللَّهَ تَعالَى عَلَى بَصِيرَةٍ وهُدًى ويَقِينٍ .

يُبايِعُ المُرْشِدَ ، ويُعاهِدُهُ عَلَى السَّيْرِ مَعَهُ في طَرِيقِ التَّخَلِّي عَنِ العُيُوبِ والتَّحَلِّي بِالصِّفاتِ الحَسَنَةِ ، والتَّحَقُّقِ بِرُكْنِ الإِحْسانِ ، والتَّرَقِّي في مَقاماتِه .

وأَخْذُ العَهْدِ ثابِتٌ في القُرْآنِ ، والسُّنَّةِ ، وسِيرَةِ أَهْلِ البَيْتِ الأَطْهارِ والصَّحابَةِ الكِرام .

فَمِنَ القُرْآنِ الكَرِيم :

قَوْلُ اللهِ تَعالَى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [1]، ولَمَّا كانَتِ البَيْعَةُ في الواقِعِ لِلهِ تَعالَى ، حَذَّرَ اللهُ مِنْ نَقْضِها تَحْذِيراً ، فَقالَ تَعالَى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [2] .

وقالَ أَيْضاً :﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [3] .

وفِي السُّنَّةِ المُشَرَّفَةِ : نَجِدُ أَنَّ أَخْذَ العَهْدِ والبَيْعَةِ في السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ ما كانَ يَتَّخِذُ صُورَةً واحِدَةً مِنَ التَّلْقِينِ ولا كانَ يَخْتَصُّ بِجَماعَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ، وإِنَّما كانَ أَخْذُ العَهْدِ في السُّنَّةِ جامِعاً بَيْنَ بَيْعَةِ الرِّجالِ ، وتَلْقِينِ الجَماعاتِ والأَفْرادِ ومُبايَعَةِ النِّساءِ بَلْ وحَتَّى مَنْ لَمْ يَحْتَلِمْ .

فَأَمَّا بَيْعَةُ الرِّجال : فَقَدْ أَخْرَجَ البُخارِي في صَحِيحِهِ عَنْ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ

---

(١) سُورَةُ الفَتْح الآية ١٠ .
(٢) سُورَةُ النَّحْل مِنَ الآية ٩١ .
(٣) سُورَةُ الإِسْراء مِنَ الآيَة ٣٤ .

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (بايِعُوني عَلَى أَن لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً ، ولا تَسْرِقُوا ، ولا تَزْنُوا ، ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ، ولا تَأْتُوا بِبُهْتانٍ تَفْتَرونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُم وأَرْجُلِكُم ولا تَعْصُوا في مَعْروفٍ ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، ومَنْ أَصابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ في الدُّنْيا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، ومَنْ أَصابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ ، إِنْ شاءَ عَفا عَنْهُ ؛ وإِنْ شاءَ عاقَبَهُ ، فَبايَعْناهُ عَلَى ذَلِكَ)[١].

وأَمَّا التَّلْقِينُ جَماعَةً : فَعَنْ يَعْلَى بنِ شَدَّادٍ قالَ : حَدَّثَنِي أَبِي شَدَّادُ بنُ أَوْسٍ ؛ وعُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ حاضِرٌ يُصَدِّقُهُ قالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ : (هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ ؟) يَعْني مِنْ أَهْلِ الكِتابِ - فَقُلْنا : لا يا رَسُولَ اللهِ ، فَأَمَرَ بِغَلْقِ البابِ فَقالَ : (ارْفَعُوا أَيْدِيكُم وقُولُوا : لا إِلَهَ إِلاَّ الله) ، فَرَفَعْنا أَيْدِيَنا وقُلْنا : لا إِلَهَ إِلاَّ الله ، ثُمَّ قالَ ﷺ : (الحَمْدُ للهِ ؛ اللهُمَّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الكَلِمَةِ ، وأَمَرْتَنِي بِها ، ووَعَدْتَنِي عَلَيْها الجَنَّةَ ، وإِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعاد) ، ثُمَّ قالَ ﷺ : (أَلا أَبْشِروا فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكُم)[٢].

وأَمَّا التَّلْقِينُ الإِفْرادِي :

فَإِنَّ الإِمامَ (عَلِيّاً) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ سَأَلَ حَضْرَةَ (النَّبِيِّ) ﷺ بِقَوْلِهِ : (يا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي عَلَى أَقْرَبِ الطُّرُقِ إِلَى اللهِ ، وأَسْهَلِها عَلَى عِبادِهِ وأَفْضَلِها عِنْدَهُ تَعالَى) ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (عَلَيْكَ بِمُداوَمَةِ ذِكْرِ اللهِ سِرّاً وجَهْراً) ، فَقالَ عَلِيٌّ : (كُلُّ النَّاسِ ذاكِرونَ فَخُصَّنِي بِشَيْءٍ) ؛ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَفْضَلُ ما قُلْتُهُ أَنا والنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، ولَو أَنَّ السَّمَواتِ والأَرَضِينَ في كَفَّةٍ ولا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ في كَفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِم ، ولا تَقُومُ

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ في كِتابِ الإِيمان ، وأَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) و(التِّرْمِذِيُّ) و(النَّسائِيُّ) كَما في (التَّرْغِيبِ و التَّرْهِيبِ) ج ٢ ص ٤١٥ .

(٢) أَخْرَجَهُ الإِمامُ (أَحْمَدُ) ، و(الطَّبَرانِيُّ) ، و(البَزَّارُ) ، ورِجالُهُ مَوْثُوقُونَ ، كَما في (مَجْمَعِ الزَّوائِدِ) ج ١ / ص ١٩ .

القِيامَةُ وعَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ : لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) ، ثُمَّ قالَ عَلِيٌّ : (فَكَيْفَ أَذْكُرُ ؟ قالَ النَّبِيُّ ﷺ :
غَمِّضْ عَيْنَيْكَ واسْمَعْ ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ بِرَفْعِ الصَّوْتِ)[1].

ومِنَ التَّلْقِينِ الإفْرادِي : ما أَخْرَجَ الطَّبرانِيُّ في (الأَوْسَطِ) وأَبو نُعَيْم والحاكِمُ والبَيْهَقِيُّ وابْنُ عَساكِرَ عَنْ بَشِيرِ بنِ الخَصاصِيَّةِ رضي الله عنه قالَ : (أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لأُبايِعَهُ فَقُلْتُ : عَلامَ تُبايِعُنِي يا رَسُولَ اللهِ ؟ فَمَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ ، فَقالَ : (تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ ، وتُصَلِّي الصَّلَواتِ الخَمْسَ لِوَقْتِها ، وتُؤَدِّي الزَّكاةَ المَفْرُوضَةَ ، وتَصُومَ رَمَضانَ ، وتَحُجَّ البَيْتَ ، وتُجاهِدَ في سَبِيلِ اللهِ) ، قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ! كُلاًّ نُطِيقُ إِلاَّ اثْنَيْنِ فَلا أُطِيقُهُما : الزَّكاةَ ؛ واللهِ مالِي إِلاَّ عَشْرُ ذَوْدٍ[2] هُنَّ رِسْلُ[3] أَهْلِي وحَمُولَتُهُنَّ[4] ، وأَمَّا الجِهادُ ؛ فَإِنِّي رَجُلٌ جَبانٌ ، ويَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ قَدْ وَلَّى فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وأَخافُ إِنْ حَضَرَ القِتالُ أَنْ أَخْشَعَ بِنَفْسِي فَأَفِرَّ فَأَبُوءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، فَقَبَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ ثُمَّ حَرَّكَها ثُمَّ قالَ : (يا بَشِيرُ لا صَدَقَةَ ولا جِهادَ !! فَبِمَ إِذاً تَدْخُلَ الجَنَّةَ ؟ ! قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ! ابْسُطْ يَدَيْكَ أُبايِعْكَ فَبَسَطَ يَدَهُ ، فَبايَعْتُهُ عَلَيْهِنَّ)[5].

ورُوِىَ عَنْ جَرِيرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قالَ : قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ اشْتَرِطْ عَلَيَّ فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالشَّرْطِ ، قالَ : (أُبايِعُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، ولا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وتُقِيمَ الصَّلاةَ ، وتُؤْتِي الزَّكاةَ ، وتَنْصَحَ المُسْلِمَ ، وتَبْرَأَ مِنَ الشِّرْك)[6].

وعَنْ جَرِيرٍ أَيْضاً قالَ : (بايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقامِ الصَّلاةِ ، وإِيتاءِ

---

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبرانِيُّ والبَزَّارُ بإسْنادٍ حَسَنٍ .
(٢) الذَّوْدُ مِنَ الإِبِل : مابَيْنَ الثِّنْتَيْنِ إلى التِّسْع ، وقِيلَ : ما بَيْنَ الثَّلاثِ إلى العَشْر .   (٣) لَبَن .
(٤) ما يَحْتَمِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الدَّوابِّ سَواءٌ أكانَتْ عَلَيْها الأَحْمالُ أَمْ لَمْ تَكُن .
(٥) أَخْرَجَهُ الإمامُ (أَحْمَدُ) ، وقالَ الهَيْثَمِي في (مَجْمَعِ الزَّوائِدِ) رِجالُهُ مُوَثَّقُونَ ج ١ / ص ٤٢ .
(٦) أَخْرَجَهُ الإمامُ (أَحْمَدُ) و(النَّسائِي) في بابِ البَيْعَةِ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِم .

الزَّكاةِ ، والنُّصحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[١].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ : كُنَّا إذا بايَعْنا رَسُولَ اللهِ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ يَقُولُ لَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ : (فيما اسْتَطَعْتُم)[٢].

وأمَّا بَيْعَةُ النِّساءِ : فَعَنْ سَلْمَى بِنْتِ قَيْسٍ رضي الله عنها (وكانَتْ إحْدَى خالاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وقَدْ صَلَّتْ مَعَهُ القِبْلَتَيْنِ ، وكانَتْ إحْدَى نِساءِ بني عَدِيِّ بنِ النَّجَّار) قالَت : (جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فبايَعْتُهُ في نِسْوَةٍ مِنَ الأنْصارِ ؛ فَلَمَّا شَرَطَ عَلَيْنا عَلَى أَنْ لا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئاً ، ولا نَسْرِقَ ولا نَزْنِيَ ، ولا نَقْتُلَ أَوْلادَنا ، ولا نَأْتِيَ بِبُهْتانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينا وأَرْجُلِنا ، ولا نَعْصِيهِ في مَعْرُوفٍ ، قالَ : (ولا تَغْشُشْنَ أَزْواجَكُنَّ) قالَت : فَبايَعْناهُ ثُمَّ انْصَرَفْنا ، فَقُلْتُ لامْرَأَةٍ مِنْهُنَّ : ارْجِعِي فَسَلِي رَسُولَ اللهِ ﷺ ما حُرِّمَ عَلَيْنا مِنْ مالِ أَزْواجِنا ؟ قالَتْ : فَسَأَلَتْهُ ، فَقالَ ﷺ : (تَأْخُذُ مالَهُ فَتُحابِي بِهِ غَيْرَهُ)[٣].

وعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ قالَت : (أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ في نِسْوَةٍ يُبايِعْنَهُ فَقُلْنَ : نُبايِعُكَ يا رَسُولَ اللهِ عَلَى أَن لا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئاً ، ولا نَسْرِقَ ، ولا نَزْنِيَ ، ولا نَقْتُلَ أَوْلادَنا ، ولا نَأْتِيَ بِبُهْتانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينا وأَرْجُلِنا ولا نَعْصِيَكَ في مَعْرُوفٍ ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فِيما اسْتَطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ فَقُلْنَ : اللهُ ورَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنا مِنْ أَنْفُسِنا ، هَلُمَّ نُبايِعُكَ يا رَسُولَ الله ، فَقالَ : إِنِّي لا أُصافِحُ النِّساءَ ، إِنَّما قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لامْرَأَةٍ واحِدَةٍ)[٤].

وجاءَتْ أُمَيْمَةُ بِنْتُ رُقَيْقَةَ رضي الله عنها إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تُبايِعُهُ عَلَى الإِسْلامِ ، فَقالَ (أُبايِعُكِ عَلَى أَن لا تُشْرِكِي بِاللهِ شَيْئاً ، ولا تَسْرِقِي ولا تَزْنِي ، ولا تَقْتُلِي

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ في بابِ البيعَةِ عَلَى إقامِ الصَّلاة .
(٢) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) في صَحِيحِهِ في كِتابِ الأَحْكام . و(مُسْلِمٌ) في كِتابِ الإمارَة .
(٣) أَخْرَجَهُ أحمدُ وأَبُو يَعْلَى والطَّبرانِيُّ . كَما في (مَجْمَعِ الزَّوائِدِ) ج ٦ / ص ٣٨ .
(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ في كِتابِ السِّيَر (باب بَيْعَةِ النِّساء) . وأَخْرَجَهُ النَّسائِيُّ في (باب بَيْعَةِ النِّساء) وإسْنادُهُ حَسَنٌ .

وَلَدَكِ ، ولا تَأْتِي بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ يَدَيْكِ ورِجْلَيْكِ ، ولا تَنُوحِي ولا تَبَرَّجِي تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولَى) [١].

وعَنْ عَزَّةَ بِنْتِ خايل رضي الله عنها أَنَّها أَتَت النَّبِيَّ ﷺ فبايَعَها : (أَن لا تَزنِينَ ، ولا تَسْرِقِينَ ، ولا تَئِدِينَ فَتُبْدِينَ أَو تُخْفِينَ) ، قُلْتُ : أَمَّا الوَأْدُ المُبْدِي فَقَدْ عَرَفْتُهُ أَمَّا الخَفِيُّ فَلَمْ أَسْأَلْ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، ولَمْ يُخْبِرْنِي ، وقَدْ وَقَعَ في نَفْسِي أَنَّهُ إِفْسادُ الوَلَدِ ، فَوَ اللهِ لا أُفْسِدُ لِي وَلَداً أَبَداً) [٢].

وأَمَّا بَيْعَةُ مَنْ لَمْ يَحْتَلِمْ : فَقَدْ أَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بايَعَ الحَسَنَ والحُسَيْنَ وعَبْدَاللهِ بنَ عَبَّاسٍ وعَبْدَالله بنَ جَعْفَرَ رضي الله عنهم وهُمْ صِغارٌ ولَمْ يُبْقِلُوا [٣] ولَمْ يَبْلُغُوا ، ولَمْ يُبايِعْ صَغِيراً إِلاَّ مِنَّا [٤].

وأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ أَيْضاً عَنْ عَبْدِاللهِ بنِ الزُّبَيْرِ وعَبْدِاللهِ بن جَعْفَر رضي الله عنهم أَنَّهُما بايَعا رَسُولَ اللهِ ﷺ وهُما ابْنا سَبْعِ سِنِينَ ، فَلَمَّا رَآهُما رَسُولُ اللهِ ﷺ تَبَسَّمَ وبَسَطَ يَدَهُ ، فَبايَعَهُما [٥].

والخُلاصَةُ : إِنَّ الصَّحابَةَ الكِرامَ رضي الله عنهم يُبايِعُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى حالاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ؛ مِنْها : بَيْعَتُهُم عَلَى الإِسْلامِ ، وبَيْعَتُهُم عَلَى أَعْمالِ الإِسْلامِ ، وبَيْعَتُهُم عَلَى المَوْتِ ، وبَيْعَتُهُم عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَة .

وأَمَّا بَيْعَةُ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم لِخُلَفاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ شاهِينَ في الصَّحابَةِ عَنْ إِبْراهِيمَ بنِ المُنْتَشِرِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قالَ :

(كانَتْ بَيْعَةُ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [٦]:

---

(١) أخرجَهُ النَّسائِيُّ وصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ ، كَما في (حَياةِ الصَّحابَةِ) ج ١ / ص ٢٣١ .

(٢) أخرجَهُ الطَّبرانيُّ في (الأَوْسَطِ) و(الكَبِيرِ) كَما في (مَجْمَعِ الزَّوائِدِ) ج ٦ / ص ٣٩ .

(٣) يُقالُ : أَبْقَلَ وَجْهُهُ ، إذا نَبَتَتْ لِحْيَتُهُ .

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبراني في المُعْجَم الكَبير وغَيْرُهُ وقالَ الهَيْثَمي في مَجْمَعِ الزَّوائد : (٥ / ٤٠) : ورجالُهُ ثِقات .

(٥) (أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير) ، انظر ج ٩ / ص ٢٨٥ .

(٦) سُورَةُ الفتح آية ١٠ .

الَّتي بايَعَ النَّاسَ عَلَيْها البَيْعَةَ لِلهِ والطَّاعَةَ لِلْحَقِّ ، وكانَتْ بَيْعَةُ (أَبي بَكْرٍ) ﷺ : (تُبايِعُوني ما أَطَعْتُ اللهَ) ، وكانَتْ بَيْعَةُ (عُمَرَ) ﷺ ومَنْ بَعْدَهُ كَبَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ)[1] .

ثُمَّ نَهَجَ الوُرَّاثُ مِنْ مُرْشِدِي الصُّوفِيَّةِ مَنْهَجَ الرَّسُولِ ﷺ في أَخْذِ البَيْعَةِ في كُلِّ عَصْرٍ فَقَدْ ذَكَرَ الأُسْتاذُ النَدَوِيُّ في كِتابِهِ (رِجالُ الفِكْرِ والدَّعْوَةِ في الإِسْلامِ) (أَنَّ الشَّيْخَ عَبْدَالقادِرِ الجَيْلانِيَّ فَتَحَ بابَ البَيْعَةِ والتَّوْبَةِ عَلَى مِصْراعَيْهِ ؛ يَدْخُلُ فيهِ المُسْلِمُونَ مِنَ كُلِّ ناحِيَةٍ مِنْ نَواحِي العالَمِ الإِسْلامِيِّ ، يُجَدِّدُونَ العَهْدَ والميثاقَ مَعَ اللهِ ، ويُعاهِدُونَ عَلَى أَلاَّ يُشْرِكُوا ولا يَكْفُروا ، ولا يَفْسُقُوا ، ولا يَبْتَدِعُوا ، ولا يَظْلِمُوا ، ولا يَسْتَحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ ، ولا يَتْرُكُوا ما فَرَضَ اللهُ ولا يَتَفانَوا في الدُّنْيا ، ولا يَتَناسَوا الآخِرَة .

وقَدْ دَخَلَ في هَذا البابِ (وقَدْ فَتَحَهُ اللهُ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ عَبْدِالقادِرِ الجَيْلاني) خَلْقٌ لا يُحْصِيهم إِلاَّ اللهُ ، وصَلَحَتْ أَحْوالُهُم ، وحَسُنَ إِسْلامُهُم . وظَلَّ الشَّيْخُ يُرَبِّيهم ويُحاسِبُهُم ، ويُشْرِفُ عَلَيْهِم ، وعَلَى تَقَدُّمِهِم ، فَأَصْبَحَ هَؤُلاءِ التَّلامِيذُ الرُّوحِيُّونَ يَشْعُرونَ بِالمَسْؤُولِيَّةِ بَعْدَ البَيْعَةِ والتَّوْبَةِ وتَجْدِيدِ الإيمانِ)[2] .

فَكانَ لِهَذِهِ المُعاهَداتِ والبَيْعاتِ مِنَ الأَثَرِ في التَّزْكِيَةِ والإِصْلاحِ الفَرْدِي والجَماعِي أَقْوَى شَأْنٍ وأَوْفَرُ نَصِيب .

وجَدِيرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ لا عَهْدَ عِنْدَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ إِلاَّ عَلَى العَمَلِ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ، ودائِماً يَشْتَمِلُ عَلَى قَوْلِهِم : (السُّنَّةُ تَجْمَعُنا والبِدْعَةُ تُفَرِّقُنا) .

وهَذا هُوَ الواقِعُ المُعاشُ عِنْدَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ في مَنْهَجِهِم العَمَلِيِّ .

---

(١) الإصابَة (ج ٣ / ص ٤٥٨) . (٢) رِجالُ الفِكْرِ والدَّعْوَةِ في الإِسْلام ، ص ٢٤٨ .

بَيانُ سَرَيانِ النُّورِ بالوَمْضَة
فِيما عُرِفَ بَيْنَ القَوْمِ بِالقَبْضَة

مُنْذُ عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ إلَى يَوْمِنا هَذا تَناقَلَ هَذا الإِذْنَ والتَّلْقِينَ والْعَهْدَ رِجالٌ عَنْ رِجالٍ ، فَوَصَلَ إلَيْنا مُحَقَّقاً مُسَلْسَلاً مُسَجَّلاً ، والصُّوفِيَّةُ يُسَمُّونَ البَيْعَةَ والإِذْنَ والتَّلْقِينَ بِاسْمِ (القَبْضَة) ، يَتَلَقَّاها واحِدٌ عَنْ واحِدٍ ، يَقْبِضُ كُلٌّ مِنْهُما يَدَ الآخَر ، فَكأَنَّما الْتَقَى السَّالِبُ بِالمُوجَبِ فارْتَبَطَ التَّيَّارُ واتَّصَلَ السَّنَدُ ، ونَفَذَ التَّأْثِيرُ الرُّوحِيُّ المَحْسُوسُ المُجَرَّب .

وما هَؤُلاءِ المُرْشِدُونَ المُجَدِّدُونَ عَلَى تَوالِي العُصُورِ والأَزْمانِ الَّذِينَ يَرْبِطُونَ قُلُوبَ النَّاسِ بِهِم حَتَّى يُوَصِّلُوها بِنُورِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ إلاَّ كالمَراكِزِ الكَهْرَبائِيَّةِ الَّتي تُوضَعُ في الأَماكِنِ البَعِيدَةِ عَنِ المُوَلِّدِ الكَهْرَبائِيِّ فَتَأْخُذُ النُّورَ مِنْ مَرْكَزِ التَّوْلِيدِ لِتُعْطِيَهُ لِمَنْ حَوْلَها قَوِيّاً وَهَّاجاً ؛ فَهَذِهِ المَراكِزُ لَيْسَتْ مَصْدَرَ النُّورِ ولَكِنَّها مُوَزِّعَةٌ لَهُ وناقِلَةٌ ، ولَكِنْ لِبُعْدِ المَسافَةِ يَضْعُفُ نُورُ الشَّرِيطِ المُتَّصِلِ بِالمُوَلِّدِ ، فَيَحْتاجُ الأَمْرُ إلَى هَذِهِ المَراكِزِ الَّتي تُعِيدُ لِهَذا النُّورِ قُوَّتَهُ وحَيَوِيَّتَهُ .

وهَكَذا ، فَإِنَّ المُرْشِدِينَ يُجَدِّدُونَ النَّشاطَ الإِيمانِيَّ في عَصْرِهِم ، ويُعِيدُونَ النُّورَ المُحَمَّدِيَّ إلَى ضِيائِهِ وبَرِيقِهِ بَعْدَ تَطاوُلِ الزَّمَنِ وتَعاقُبِ القُرونِ ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : (العُلَماءُ ورَثَةُ الأَنْبِياء)[١].

والتَّجْرِبَةُ العَمَلِيَّةُ هِيَ الدَّلِيلُ الأَكْبَرُ عَلَى ما يُثْمِرُهُ أَخْذُ العَهْدِ مِنْ نَتائِجَ طَيِّبَةٍ وآثارٍ حَمِيدَةٍ ، ولِهَذا اعْتَصَمَ بِهِ السَّلَفُ ، ووَرِثَهُ صالِحُو الخَلَفِ ، وسارَ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الأُمَّة .

---

(١) جُزْءٌ مِن حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِيُّ) في كِتابِ العِلْمِ عَنْ (أَبي الدَّرْداء) رضي الله عنه .

سُمُوُّ سُلُوكِ الـمُرِيدِ
مَعَ شَيْخِهِ وإِخْوانِهِ

بَعْدَ أَنْ عَرَفْنا فائِدَةَ الصُّحْبَةِ وأَهَمِّيَّتَها ، وبِصُورَةٍ خاصَّةٍ صُحْبَةَ الوارِثِ المُحَمَّدِيِّ ، وهُوَ الشَّيْخُ المُرْشِدُ المَأْذُونُ بِالتَّرْبِيَةِ الَّذي تَرَقَّى في مَقاماتِ الرِّجالِ الكُمَّلِ عَلَى يَدِ مُرشِدٍ كامِلٍ مُسَلْسَلاً إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وجَمَعَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ ، ثُمَّ تَبيَّنَ مَعَنا أَهَمِّيَّةُ بَيْعَتِهِ وأَخْذُ العَهْدِ عَنْهُ ومُلازَمَتُهُ ، نَذْكُرُ ها هُنا بَعْضاً مِنَ الآدابِ الَّتي تُطْلَبُ مِنَ المُرِيدِ الصَّادِقِ كَي يَتَحَقَّقَ لَهُ الوصُولُ إِلَى مَطْلُوبِهِ ، فَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ اللهِ قاطِبَةً عَلَى أَنَّ من لا أَدَبَ لَهُ لا سَيْرَ لَهُ ومَنْ لا سَيْرَ لَهُ لا وُصُولَ لَهُ ، وأَنَّ صاحِبَ الأَدَبِ يَبْلُغُ في قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ مَبْلَغَ الرِّجالِ ، ولَسْنا في هَذا المُدَّعَى خارِجِينَ عَنْ تَعالِيمِ دِينِنا الحَنِيفِ وسُنَّةِ نَبِيِّنا العَظِيمِ ﷺ ، إِذْ إِنَّ تَقْدِيمَ رُتْبَةِ الأَدَبِ عَلَى رُتْبَةِ العِلْمِ أَمْرٌ راسِخٌ في صَمِيمِ مَسِيرَةِ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ وصَحابَتِهِ الكِرامِ والتَّابِعِينَ لَهُم بِإِحسانٍ رضي الله عنهم ، ولا أَدَلَّ عَلَى هَذا مِنْ مَوْقِفَيْنِ جَلِيلَيْنِ قَدَّمَهُما اثْنانِ مِنْ كِبار أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ ، لِيَكُونا في ذَلِكَ قُدْوَةً لِمَنْ بَعْدَهُم ، ولِيُقِرَّا سُنَّةً نَبَوِيَّةً ماضِيَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ تَقْضِي بِإِعْلاءِ مَقامِ الأَدَبِ فَوْقَ مَقامِ العِلْمِ :

۞ أَمَّا المَوْقِفُ الأَوَّلُ : فَما صَدَرَ مِنْ سَيِّدِنا (عَلِيِّ بن أَبِي طالِبٍ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، يَوْمَ عَقْدِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ مَعَ سُهَيْلِ بنِ عَمْرو ، إِذ قَدْ أَثْبَتَ (عَلَيٌّ) في الصَّحِيفَةِ بِإِمْلاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ (هَذا ما صالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ..) فَقالَ سُهَيْلٌ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ما صَدَدْناكَ عَنِ البَيْتِ ولا قاتَلْناكَ ، ولَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّد بن عَبْدِالله ، فَقالَ : إِنِّي رَسُولُ اللهِ وإِنْ كَذَّبْتُمُونِي ، وأَمَرَ (عَلِيّاً) أَنْ يَمْحُوَ ذَلِكَ ، ويَكْتُبَ مِنْ : مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِالله ، فامْتَنَعَ (عَلِيٌّ)

كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ المَحْوِ ، فَمَحاهُ ﷺ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ وكَتَبَ عَلِيٌّ : مُحَمَّدٌ بنُ عَبْدِاللهِ[1] ، ولا أَظُنُّ عاقِلاً قَدْ يَشُمُّ مِنْ فِعْلِ (عَلِيٍّ) رائِحَةَ إِعْراضٍ وإِحْجامٍ ، ولَكِنَّهُ الأَدَبُ الَّذي كانَ يَغْمُرُ قَلْبَهُ وظاهِرَهُ ، وقَدْ أَقَرَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فِعْلِهِ

وأَمَّا المَوْقِفُ الآخَرُ : فَما حَدَثَ مِنْ سَيِّدِنا (أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق) رضي الله عنه ، يَوْمَ كانَ يَؤُمُّ النَّاسَ في الصَّلاةِ قُبَيْلَ انْتِقالِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى ، إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ ، وأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ ، فَلَمَّا رَآهُ سَيِّدُنا (أَبو بَكْرٍ) رضي الله عنه ، ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ ونَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَثْبُتَ مَكانَهُ ، وجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى يَسارِهِ واقْتَدَى أَبو بَكْرٍ بِهِ ﷺ وكانَ يُسْمِعُ النَّاسَ التَّكْبِيرَ ، وقالَ أَنَسٌ رضي الله عنه : (وهَمَّ المُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا في صَلاتِهِم فَرَحاً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ)[2] .

فانْظُرْ (رَعاكَ اللهُ) إِلَى هَذا الأَدَبِ الجَمِّ الَّذي كانَ يُهَيْمِنُ عَلَى قُلُوبِ الصَّحابَةِ وعُقُولِهِم حِيالَ قائِدِهِمْ وسَيِّدِهِمْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وتَأَمَّلْ كَيْفَ هَمَّ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه بِقَطْعِ فَرِيضَتِهِ اسْتِجابَةً لِلَوازِمِ الأَدَبِ والذَّوْقِ لا غَيْر .

ومِنْ هُنا ، يُسْفِرُ مُسْتَنَدُنا الشَّرْعِيُّ فِيما نَقُولُ ، وها نَحْنُ نَقْتَدِي بِهَؤُلاءِ السَّادَةِ الأَطْهارِ مِنْ صَحابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ونُقَرِّرُ بُناءً عَلَى ذَلِكَ بَعْضَ آدابِ المُرِيدِ مَعَ شَيْخِهِ وإِخْوانِه :

أَوَّلاً - آدابُ المُرِيدِ مَعَ شَيْخِهِ :

وهِيَ نَوْعان : آدابٌ باطِنَةٌ ، وآدابٌ ظاهِرَةٌ .

أ) فَأَمَّا الآدابُ الباطِنَةُ فَهِيَ :

١ - الاسْتِسْلامُ لِشَيْخِهِ وطاعَتِهِ في جَمِيعِ نَصائِحِهِ ، ولَيْسَ هَذا مِنْ بابِ

---

(١) صَحِيح البُخاري ومُسْلِم . والسِّيرَة النَّبَوِيَّة لابْنِ هِشام : ٤ / ٢٨٥ .
(٢) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم . والطَّبَقاتُ الكُبْرَى لابْنِ سَعْد : ٢ / ٢١٧ . وغَيْرُها .

الانْقِيادِ الأَعْمَى الَّذي يُهْمِلُ فيهِ المَرْءُ عَقْلَهُ ويَتَخَلَّى عَنْ شَخْصِيَّتِهِ ، ولَكِنَّهُ مِنْ بابِ التَّسْلِيمِ لِذي الاخْتِصاصِ والخِبْرَةِ ، بَعْدَ الإيمانِ الجازِمِ بِمُقَدِّماتٍ فِكْرِيَّةٍ أَساسِيَّةٍ ، مِنْها التَّصْدِيقُ الرَّاسِخُ بِإِذْنِهِ وأَهْلِيَّتِهِ واخْتِصاصِهِ وحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِهِ ، وأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الشَّريعَةِ والحَقِيقَةِ .... إلخ ، وهذا يُشْبِهُ تَماماً اسْتِسْلامَ المَريضِ لِطَبِيبِهِ اسْتِسْلاماً كُلِّيّاً في جَميعِ مُعالَجاتِهِ وتَوْصِياتِهِ ، ولا يُعَدُّ المَرِيضُ في هَذا الحالِ مُهْمِلاً لِعَقْلِهِ مُتَخَلِّياً عَنْ كِيانِهِ وشَخْصِيَّتِهِ ، بَلْ يُعْتَبَرُ مُنْصِفاً عاقِلاً لِأَنَّهُ سَلَّمَ لِذِي الاخْتِصاصِ ، وكانَ صادِقاً في طَلَبِ الشِّفاء

٢ - عَدَمُ الاعْتِراضِ عَلَى شَيْخِهِ في طَرِيقَةِ تَرْبِيَةِ مُرِيدِيهِ ، لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ في هَذا البابِ عَنْ عِلْمٍ واخْتِصاصٍ وخِبْرَةٍ ، كَما لا يَنْبَغِي أَنْ يَفْتَحَ المُرِيدُ عَلَى نَفْسِهِ بابَ النَّقْدِ لِكُلِّ تَصَرُّفٍ مِنْ تَصَرُّفاتِ شَيْخِهِ ؛ فَهَذا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُضْعِفَ ثِقَتَهُ بِهِ ويَحْجُبَ عَنْهُ خَيْراً كَثِيراً ، ويَقْطَعَ الصِّلَةَ القَلْبِيَّةَ والمَدَدَ الرُّوحِيَّ بَيْنَهُ وبَيْنَ شَيْخِه .

قالَ العَلَّامَةُ ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي : (ومَنْ فَتَحَ بابَ الاعْتِراضِ عَلَى المَشايِخِ والنَّظَرَ في أَحْوالِهِم وأَفْعالِهِم والبَحْثِ عَنْها فَإِنَّ ذَلِكَ عَلامَةُ حِرْمانِهِ وسُوءِ عاقِبَتِهِ ، وأَنَّهُ لا يَنْتُجُ قَطُّ ، ومِنْ ثَمَّ قالوا : مَنْ قالَ لِشَيْخِهِ لِمَ ؟ لَمْ يُفْلِحْ أَبَداً[١] أَي لِشَيْخِهِ في السُّلُوكِ والتَّرْبِيَة)[٢] .

وإِذا أَوْرَدَ الشَّيْطانُ عَلَى قَلْبِ المُرِيدِ إِشْكالاً شَرْعِيّاً حَوْلَ تَصَرُّفٍ مِنْ تَصَرُّفاتِ شَيْخِهِ بُغْيَةَ قَطْعِ الصِّلَةِ ونَزْعِ الثِّقَةِ فَما عَلَى المُرِيدِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِشَيْخِهِ ويَلْتَمِسَ لَهُ تَأْوِيلاً شَرْعِيّاً ومَخْرَجاً فِقْهِيّاً ما وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ شَيْخَهُ مُسْتَفْسِراً بِأَدَبٍ واحْتِرامٍ ،

---

(١) المَقْصُودُ بِهذا الأَدَبِ هُوَ مُرِيدُ التَّرْبِيَةِ والكَمالِ والوُصُولِ إِلى اللهِ تَعالى ، أَمَّا التِّلْمِيذُ الَّذي يَأْخُذُ عِلْمَهُ عَنِ العُلَماءِ فَيَنبَغِي لَهُ مُناقَشَتُهُم وسُؤالُهُم بِصِدْقٍ وحُسْنِ طَوِيَّةٍ حَتَّى تَتَحَقَّقَ لَهُ الفائِدَةُ العِلْمِيَّة .

(٢) الفَتاوَى الحَدِيثِيَّة ، لـ (ابْنِ حَجَرَ الهَيْتَمِي ، ت ٩٧٤ هـ) ص ٥٥ .

قالَ العَلاَّمَةُ ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي : (ومَنْ فَتَحَ بابَ التَّأْويلِ لِلْمَشايِخِ ، وغَضَّ عَنْ أَحْوالِهِم ، ووَكَّلَ أُمُورَهُم إِلَى اللهِ تَعالَى ، واعْتَنَى بِحالِ نَفْسِهِ وجاهَدَها بِحَسَبِ طاقَتِهِ ، فَإِنَّهُ يُرْجَى لَهُ الوُصُولُ إِلَى مَقاصِدِهِ ، والظَّفَرُ بِمُرادِهِ في أَسْرَعِ زَمَنٍ)[1].

٣ - أَن لا يَعْتَقِدَ في شَيْخِهِ العِصْمَةَ ، فَإِنَّ الشَّيْخَ وإِنْ كانَ عَلَى أَكْمَلِ الحالاتِ فَلَيْسَ بِمَعْصُومٍ ، إِذْ قَدْ تَصْدُرُ مِنْهُ الهَفَواتُ والزَّلاَّتُ ، ولَكِنَّهُ لا يُصِرُّ عَلَيْها ولا تَتَعَلَّقُ هِمَّتُهُ أَبَداً بِغَيْرِ اللهِ تَعالَى فَإِذا ما اعْتَقَدَ المُرِيدُ في شَيْخِهِ العِصْمَةَ ، ثُمَّ رَأَى مِنْهُ ما يُخالِفُ ذَلِكَ ، وَقَعَ في الاعْتِراضِ والاضْطِرابِ ، مِمَّا قد يُسَبِّبُ لَهُ القَطِيعَةَ والحِرْمان .

ولَعَلَّنا نُحَذِّرُ هاهُنا مِمَّا قَدْ يَتَبادَرُ إِلَى الأَذْهانِ ، إِذْ لا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ حِينَ يَعْتَقِدُ في شَيْخِهِ عَدَمَ العِصْمَةِ أَنْ يَضَعَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ دائِماً احْتِمالَ خَطَأِ شَيْخِهِ في كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أَوامِرِهِ أَو تَوْجِيهٍ مِنْ تَوْجِيهاتِهِ فَذَلِكَ بابُ فَسادٍ وسُوءٍ ، لأَنَّهُ بِذَلِكَ يَمْنَعُ عَنْ نَفْسِهِ الاسْتِفادَةَ ، كَمَثَلِ المَرِيضِ الَّذي يَدْخُلُ إِلَى طَبِيبِهِ ولَيْسَ في قَلْبِهِ إِلاَّ فِكْرَةُ احْتِمالِ خَطَأِ الطَّبِيبِ في مُعالَجَتِهِ ، فَهَذا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُضْعِفَ الثِّقَةَ ويُحْدِثَ الشَّكَّ والاضْطِرابَ في نَفْسِه .

٤ - أَنْ يَعْتَقِدَ كَمالَ شَيْخِهِ وتَمامَ أَهْلِيَّتِهِ لِلتَّرْبِيَةِ والإِرْشادِ ، وتَكْوِينُ هَذا الاعْتِقادِ يَكُونُ بَعْدَ البَحْثِ والتَّدْقِيقِ بادِىءَ الأَمْرِ ، فَإِذا ما وَجَدَ المُرِيدُ شُروطَ المُرْشِدِ المُحَمَّدِيِّ الَّتي سَبَقَ ذِكْرُها وقَدْ تَحَقَّقَتْ في شَيْخِهِ ، ووَجَدَ أَنَّ الَّذِينَ يَصْحَبُونَهُ يَتَقَدَّمُونَ في إِيمانِهِم وعِباداتِهِم وعِلْمِهِم وأَخْلاقِهِم ومعارِفِهِمْ الإِلَهِيَّةِ[2] ، فَما عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْ يُسَلِّمَ الوَلاءَ لَهُ ، ويُذْعِنَ لِتَوْجِيهاتِهِ

(١) الفَتاوىَ الحَدِيثِيَّةُ ص ٥٥ .
(٢) لا يَنْبَغِي لِلمَرْءِ أَنْ يَكُونَ عاطِفِيّاً تَغُرُّهُ المَظاهِرُ ؛ فَيَقَعُ في صُحْبَةِ أَدْعِياءِ التَّصَوُّفِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِيزانٌ شَرْعِيٌّ صَحِيحٌ وتَفْكِيرٌ عَقْلِيٌّ سَلِيمٌ ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَن ادَّعَى التَّصَوُّفَ صارَ صُوفِيّاً ومُرَبِّياً ، ولَوْ تَزَيَّا بِزِيِّ المُرْشِدِينَ ، كَما أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ الأَطِبَّاءِ في المُسْتَشْفَى صارَ طَبِيباً ، لأَنَّ هَذِهِ الثِّيابَ يَلْبَسُها المُمَرِّضُونَ وغَيْرُهُم .

وإرْشاداتِه .

٥ - اتِّصافُهُ بِالصِّدْقِ والإِخْلاصِ في صُحْبَتِهِ لِشَيْخِهِ ، فَيَكُونُ جادّاً في طَلَبِهِ ، مُنَزَّهاً عَنِ الأَغْراضِ والمَصالِح .

٦ - تَعْظِيمُهُ وحِفْظُ حُرْمَتِهِ حاضِراً وغائِباً ، قالَ إبْراهِيمُ بنُ شَيْبانَ القُرْمَيْسِينِي : (مَنْ هَتَكَ حُرْمَةَ المَشايخِ ابْتُلِيَ بِالدَّعاوِي الكاذِبَةِ وافْتَضَحَ بِها) .[١]

وقالَ مُحَمَّدُ بنُ حامِدٍ التِّرْمِذِيّ : (إذا أَوْصَلَكَ اللهُ إلَى مَقامٍ ومَنَعَكَ حُرْمَةَ أَهْلِهِ والالْتِذاذَ بِما أَوْصَلَكَ إلَيْهِ ، فاعْلَمْ أَنَّكَ مَغْرورٌ مُسْتَدْرَج) ، وقالَ أَيْضاً : (مَنْ لَمْ تُرْضِهِ أَوامِرُ المَشايخِ وتَأْدِيبُهُم فَإِنَّهُ لا يَتَأَدَّبُ بِكِتابٍ ولا سُنَّةٍ) .[٢]

وقالَ أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِيّ :

(تَتَبَّعْنا أَحْوالَ القَوْمِ فَما رَأَيْنا أَحَداً أَنْكَرَ عَلَيْهِم وماتَ بِخَيْرٍ) .[٢]

وقالَ الشَّيْخُ عَبْدُالقادِرِ الجَيْلاَنِي :

(مَنْ وَقَعَ في عِرْضِ وَلِيٍّ ابْتَلاهُ اللهُ بمَوْتِ القَلْبِ) .

٧ - أَنْ يُحِبَّ شَيْخَهُ مَحَبَّةً فائِقَةً شَريطَةَ أَن لا يُنْقِصَ مِنْ قَدْرِ بَقِيَّةِ الشُّيُوخِ ، وأَن لا يَصِلَ غُلُوُّهُ فِي المَحَبَّةِ إلَى حَدٍّ فاسِدٍ ؛ بِأَنْ يُخْرِجَ شَيْخَهُ عَنْ طَوْرِ البَشَرِيَّةِ ، وإِنَّما تَزْدادُ مَحَبَّةُ المُريدِ لِشَيْخِهِ بِمُوافَقَتِهِ لَهُ أَمْراً ونَهْياً ، ومَعْرِفَتِهِ لِلهِ تَعالَى في سَيْرِهِ وسُلُوكِهِ ، فالمُرِيدُ كُلَّما كَبُرَتْ شَخْصِيَّتُهُ بِالمُوافَقَةِ ازْدادَتْ مَعْرِفَتُهُ ، وكُلَّما ازْدادتْ مَعْرِفَتُهُ ازْدادَتْ مَحَبَّتُهُ .

٨ - عَدَمُ تَطَلُّعِهِ إلَى غَيْرِ شَيْخِهِ لِئَلَّا يَتَشَتَّتَ قَلْبُهُ بَيْنَ شَيْخَيْنِ ، ومِثالُ المُرِيدِ في ذَلِكَ كَمَثَلِ المَريضِ الَّذي يُطَبِّبُ جِسْمَهُ عِنْدَ طَبِيبَيْنِ فِي وَقْتٍ واحِدٍ

---

(١) طبقاتُ الصُّوفيَّة ، لـ(السُّلَمِي) ص ٤٠٥ .
(٢) طَبقاتُ الصُّوفيَّة ، ص ٢٨٣ .
(٢) مدارِجُ السُّلُوكِ إِلى مَلِكِ المُلوكِ ، للشَّيخ (أبي بَكْرٍ بنِ مُحَمَّد بَناني الشَّاذِلي ، ت : ١٢٨٤ هـ) .

فَيَقَعُ في الحَيْرَةِ والتَّرَدُّدِ (والمَقْصُودُ بِالشَّيْخِ ها هُنا شَيْخُ التَّرْبِيَةِ لا شَيْخُ التَّعْلِيمِ ؛ إذْ يُمْكِنُ لِطالِبِ العِلْمِ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِدَّةُ أَساتِذَةٍ ، ويُمْكِنُ لِلْمُرِيدِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَساتِذَةٌ في العِلْمِ لأَنَّ ارْتِباطَهُ بِهِم ارْتِباطٌ عِلْمِيٌّ ، بَيْنما صِلَةُ المُرِيدِ بِشَيْخِ التَّرْبِيَةِ صِلَةٌ قَلْبِيَّةٌ وتَرْبَوِيَّةٌ) .

ب) وأَمَّا الآدابُ الظَّاهِرَةُ فَهِيَ :

١ - أَنْ يُوافِقَ شَيْخَهُ أَمْراً ونَهْياً ، كَمُوافَقَةِ المَرِيضِ لِطَبِيبِهِ .

٢ - أَنْ يَلْتَزِمَ السَّكِينَةَ والوَقارَ في مَجْلِسِهِ ، فَلا يَتَّكِىءُ عَلَى شَيْءٍ يَعْتَمِدُهُ ، ولا يَتَثاءَبُ ولايَنامُ ، ولا يَضْحَكُ بِلا سَبَبٍ ، ولا يَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَيْهِ ، ولا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ ، لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ المُبالاَةِ بِالشَّيْخِ وعَدَمِ الاحْتِرامِ لَهُ ، ومَنْ صَحِبَ المَشايِخَ بِغَيْرِ أَدَبٍ واحْتِرامٍ حُرِمَ مَدَدَهُم وثَمَراتِ أَلحاظِهِم وبَركاتِهِم

٣ - المُبادَرَةُ إِلَى خِدْمَتِهِ بِقَدْرِ الإِمْكانِ ، فَمَنْ خَدَمَ خُدِمَ .

٤ - دَوامُ حُضُورِ مَجالِسِهِ ، فَإِنْ كانَ في بَلَدٍ بَعِيدٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يُكرِّرَ زِيارَتَهُ بِقَدْرِ المُسْتَطاعِ ، ولِذَلِكَ قِيلَ : (زِيارَةُ المُرَبِّي تُرَقِّي وتُرَبِّي) ، وإِنَّ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ بَنَوا سَيْرَهُمْ عَلَى ثَلاثَةِ أُصُولٍ :

(الاجْتِماعِ والاسْتِماعِ والاتِّباعِ) ، وبِذَلِكَ يَحْصُلُ الانْتِفاعُ .

٥ - الصَّبْرُ عَلَى مَواقِفِهِ التَّرْبَوِيَّةِ كَحَزْمِهِ وشِدَّتِهِ ... ، الَّتي يَقْصِدُ بِها تَخْلِيصَ المُرِيدِ مِنْ رُعُوناتِهِ النَّفْسِيَّةِ وأَمْراضِهِ القَلْبِيَّة .

قالَ ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي : (كَثِيرٌ مِنَ النُّفُوسِ الَّتي يُرادُ لَها عَدَمُ التَّوْفِيقِ إِذا رَأَتْ مِنْ أُسْتاذٍ شِدَّةً في التَّرْبِيَةِ تَنْفُرُ عَنْهُ ، وتَرْمِيهِ بِالقَبائِحِ والنَّقائِصِ مِمَّا هُوَ عَنْهُ بَرِيءٌ ، فَلْيَحْذَرِ المُوَفَّقُ مِنْ ذَلِكَ ، لأَنَّ النَّفْسَ لا تُرِيدُ إِلاَّ هَلاكَ صاحِبِها ، فَلا يُطِعْها في الإِعْراضِ عَنْ شَيْخِه)[(١)] .

---

(١) الفتاوى الحديثيّة .

٦ - أَن لا يَنْقُلَ مِنْ كَلامِ شَيْخِهِ إِلَى النَّاسِ إلاَّ بِقَدْرِ أَفْهامِهِم وعُقُولِهِم لِئَلَّا يُسِيءَ إِلَى نَفْسِهِ وشَيْخِهِ ، وقَدْ قالَ الإمامُ (عَلِيٌّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ :

(حَدِّثُوا النَّاسَ بِما يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟)(١) .

وهَذِهِ الآدابُ كُلُّها إِنَّما تُطْلَبُ مِنَ المُرِيدِ الحَقِيقِيِّ الَّذي يُرِيدُ الوصُولَ لِلْحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ ، وأَمَّا المُرِيدُ المَجازِيُّ فَهُوَ الَّذي لَيْسَ قَصْدُهُ مِنَ الدُخُولِ مَعَ الصُّوفِيَّةِ إلاَّ التَّزَيِّيَ بِزِيِّهِم ، والظُهُورَ بِمَظْهَرِهِم ، وهَذا لا يُلْزَمُ بِشُروطِ الصُّحْبَةِ ولا بِآدابِها ، ومِثْلُ هَذا لَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى طَرِيقٍ أُخْرَى ولا حَرَجَ عَلَيْهِ ، كَما أَنَّ طَرِيقَ التَّبَرُّكِ لا حَرَجَ في الانْتِقالِ مِنْها إِلَى غَيْرِها كَما هُوَ مَعْروفٌ عِنْدَ المُرَبِّينَ المُرْشِدِين .

ثانِياً - آدابُ المُرِيدِ مَعَ إِخْوانِهِ :

١ - حِفْظُ حُرْمَتِهِم غائِبِينَ أَو حاضِرِينَ ، فَلا يَغْتابُ أَحَداً مِنْهُم ، ولا يَنْتَقِصُ أَحَداً ، لأَنَّ لُحومَهُم مَسْمُومَةٌ كَلُحُومِ العُلَماءِ والصَّالِحِين .

٢ - نَصِيحَتُهُم بِتَعْلِيمِ جاهِلِهِم وإِرْشادِ ضالِّهِمْ ، وتَقْوِيَةِ ضَعِيفِهِم .

ولِلنَّصِيحَةِ شُروطٌ يَنْبَغِي الْتِزامُها ، وهِيَ ثَلاثَةٌ لِلنَّاصِحِ ، وثَلاثَةٌ لِلْمَنْصُوح .

فَشُروطُ النَّاصِح :

أ - أَنْ تَكُونَ نَصِيحَتُهُ سِرَّاً . ب - أَنْ تَكُونَ بِلُطْفٍ .

ج - أَنْ تَكُونَ بِلا اسْتِعْلاء .

وشُروطُ المَنْصُوح :

أ - أَنْ يَقْبَلَ النَّصِيحَةَ . ب - أَنْ يَشْكُرَ النَّاصِحَ .

ج - أَنْ يُطَبِّقَ النَّصِيحَةَ .

---

(١) أخرَجَهُ (البُخارِيُّ) في صَحيحِهِ في كِتابِ العِلْم .

٣ - التَّواضُعُ لَهُم والإِنْصافُ مَعَهُم وخِدْمَتُهُم بِقَدْرِ الإِمْكانِ إذ (سَيِّدُ القَوْمِ خادِمُهُم)[١].

٤ - حُسْنُ الظَّنِّ بِهِم وعَدَمُ الانْشِغالِ بِعُيُوبِهِم ووَكْلُ أُمُورِهِمْ إِلَى اللهِ تَعالَى ؛ ورَضِيَ اللهُ عَنِ الشَيْخِ أَبِي مَدْيَنَ التِّلْمِساني (٥٩٤ هـ) يَوْمَ قالَ :

فاصْحَبْهُم وتَأَدَّبْ في مَجالِسِهِمْ * وخَلِّ حَظَّكَ مَهْما قَدَّمُوكَ وَرا

ولا تَرَ العَيْبَ إِلاَّ فِيكَ مُعْتَقِداً * عَيْباً بَدا بَيِّناً لَكِنَّهُ اسْتَترا

٥ - قَبُولُ عُذْرِهِم إِذا اعْتَذَرُوا .

٦ - إِصْلاحُ ذاتِ بَيْنِهِم إِذا اخْتَلَفُوا واخْتَصَمُوا .

٧ - الدِّفاعُ عَنْهُم إِذا أُوذوا أَو انْتُهِكَتْ حُرُماتُهُم .

٨ - أَنْ لا يَطْلُبَ الرِّئَاسَةَ والتَّقَدُّمَ عَلَيْهِم لِأَنَّ طالِبَ الوِلايَةِ لا يُوَلَّى .

وَبعْدُ ، فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الآدابِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى السَّالِكِ مُراعاتُها والمُحافَظَةُ عَلَيْها ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ كُلَّها آدابٌ ، حَتَّى قالَ بَعْضُهم :

(اجْعَلْ عَمَلَكَ مِلْحاً وأَدَبَكَ دَقِيقاً) .

وقالَ أَبو حَفْص النَّيْسابُوري :

(التَّصَوُّفُ كُلُّهُ آدابٌ ، لِكُلِّ وَقْتٍ آدابٌ ، ولِكُلِّ حالٍ آدابٌ ، ولِكُلِّ مَقامٍ آدابٌ ، فَمَنْ لَزِمَ الأَدَبَ بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجالِ ، ومَنْ حُرِمَ الأَدَبُ فَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ القُرْبَ ، مَرْدودٌ مِنْ حِيْثُ يَظُنُّ القَبُولَ)[٢].

وبِالجُمْلَةِ ؛ فَأَدَبُ المُرِيدِ لا نِهايَةَ لَهُ مَعَ شَيْخِهِ ولا مَعَ إِخْوانِهِ ولا مَعَ عامَّةِ الوجُودِ ، وقَدْ أَفْرَدَهُ المُرَبُّونَ بِالتَّآلِيفِ ، وأَلَّفَ فِيهِ : ابْنُ عَرِبي الحاتِمي

---

(١) أخرجه (ابْنُ ماجَه) و(التِّرمِذِيُّ) عَن أبي قَتادَة ﷺ ، كما في الفَيْضِ القَدير ، شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٤ / ص ١٢٢ .

(٢) طبقاتُ الصُّوفيَّة لـ(السُّلَمي) ص ١١٩ .

والشَّعراني ، وأحْمَدُ زَرُّوق ، وابْنُ عَجِيبَة ، والسَّهْرَوَرْدِي ، وغَيْرُهُم مِنَ الأئِمَّةِ الأعْلامِ والسَّادةِ الأنْجابِ ، لاحَرَمَنا اللهُ مِنْ أنْوارِعُلومِهِمْ وفُيُوضِ بَرَكاتِهِم .

ونَخْتارُ مِثالاً لِهَذا الأدَبِ الرَّاقِي ما كانَ مِنَ الأمِيرِ عَبْدِالقادِرِ الجَزائِري في خِطابِهِ لِشَيْخِهِ (مُحَمَّد الفاسِي)مُعَبِّراً عَنْ ذَلِكَ في قَصِيدَتِهِ الرَّائِيَّةِ ، وعُنْوانُها(أُسْتاذِي الصُّوفِي) قائِلاً :

أَمَسْعُودُ جاءَ السَّعْدُ والخَيْرُ واليُسْرُ ❋ ووَلَّتْ جُيُوشُ النَّحْسِ لَيْسَ لَها ذِكْرُ
أُسائِلُ كُلَّ الخَلْقِ ، هَلْ مِنْ مُخْبِرٍ ؟ ❋ يُحَدِّثُنِي عَنْكُم ، فَيُنْعِشُنِي الخَبَرُ
إلَى أنْ دَعَتْنِي هِمَّةُ الشَّيْخِ مِنْ مَدَى ❋ بَعِيدٍ ، ألا فادْنُ فَعِنْدِي لَكَ الذُّخْرُ
فَشَمَّرْتُ عَنْ ذَيْلِي الأطارَ وطارَ بِي ❋ جَناحُ اشْتِياقٍ ، لَيْسَ يُخْشَى لَهُ كَسْرُ
إلَى أنْ أنَخْنا بالبِطاحِ رِكابَنا ❋ وحَطَّت بِها رَحْلِي ، وتَمَّ لَها البِشْرُ
أتانِي مُرَبِّي العارِفِينَ بِنَفْسِهِ ❋ ولا عَجَبٌ ، فالشَّأْنُ أضْحَى لَهُ أمْرُ
وقالَ : فَإنِّي مُنْذُ أعْدادِ حِجَّةٍ ❋ لَمُنْتَظِرٌ لُقْياكَ ، يا أيُّها البَدْرُ
فَأنْتَ بُنَيَّ ، مُذ (ألَسْتُ بِرَبِّكُم) ❋ وذا الوَقْتِ حَقّاً ضَمَّهُ اللَّوْحُ والسَّطْرُ
وَجَدُّكَ قَدْ أعْطاكَ مِنْ قِدَمٍ لَنا ❋ ذَخِيرَتُكُم فِينا ، ويا حَبَّذا الذُّخْرُ
فَقَبَّلْتُ مِنْ أقْدامِهِ وبِساطِهِ ❋ وقالَ لَكَ البُشْرَى ، بِذا قُضِيَ الأمْرُ
وألْقَى عَلَى صُفْرِي[(١)] بإكْسِيرِ سِرِّهِ ❋ فَقِيلَ لَهُ : هَذا هُوَ الذَّهَبُ التِّبْرُ
مَحَمَّدٌ الفاسِي ، لَهُ مِنْ مُحَمَّدٍ ❋ صَفِيِّ الإلَهِ ، الحالُ والشِّيَمُ الغُرُّ
عَلَيْهِ صَلاةُ اللهِ ما قالَ قائِلٌ ❋ أمَسْعُودُ جاءَ السَّعْدُ والخَيْرُ واليُسْرُ

---

(١) الصُّفر : النُّحاس .

بيان أحوال النفس وعلاجها

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

تَقْدِمَةٌ طَرِيفَةٌ وإِشارَةٌ لَطِيفَةٌ

قَدِ انْطَوَى في كُلِّ إِنْسانٍ العالَمُ الأَكْبَرُ : فَما في الأَرْضِ مِنْ جِبالٍ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ ما في عِظامِهِ ، وما فِيها مِنْ بِحارٍ عَذْبَةٍ وغَيْرِ عَذْبَةٍ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ ما أُودِعَ في فَمِهِ وعَيْنَيْهِ ، وما فِيها مِنْ نَباتٍ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الشَّعْرِ ، وما فِيها مِنْ سَبَخٍ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مالا يَنْبُتُ الشَّعْرُ مِنْ بَدَنِهِ ، وما فِيها مِنْ سَهْلٍ ووَعْرٍ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ ما فيهِ مِنْ الخُلُقِ الحَسَنِ يَسْتَضِيءُ بِنُورِها فَإِذا غابَتْ عَنْهُ أَظْلَمَ ، وما في الكَوْنِ مِنْ قَمَرٍ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ العَقْلِ (فالهِلالُ بِمَنْزِلَةِ عَقْلِ الطِّفْلِ ثُمَّ يَزِيدُ إِلَى أَنْ يَكْمُلَ) ، والكَواكِبُ الخَمْسَةُ السَّيَّارَةُ بِمَنْزِلَةِ الحَواسِّ الخَمْسِ وهِيَ : (الذَّوْقُ والشَّمُّ واللَّمْسُ والسَّمْعُ والبَصَرُ) ، والجَنَّةُ والنَّارُ بِمَنْزِلَةِ ما فِيهِ مِنَ الغَضَبِ والرِّضا ، واللَّيْلُ والنَّهارُ بِمَنْزِلَةِ ما فيهِ مِنَ الحُزْنِ والسُّرورِ ، والفُصُولُ الأَرْبَعَةُ الَّتي في السَّنَةِ (الصَّيْفُ والشِّتاءُ والخَرِيفُ والرَّبِيعُ) بِمَنْزِلَةِ الطَّبائِعِ ، والنَّوْمُ بِمَنْزِلَةِ المَوْتِ ، واليَقَظَةُ بِمَنْزِلَةِ البَعْثِ ، وما يَراهُ النَّائِمُ مِنَ الرُّؤْيا الحَسَنَةِ أَو السَّيِّئَةِ بِمَنْزِلَةِ النَّعِيمِ أَو العَذابِ ، وما أَلْطَفَ ما قِيلَ في هَذا المَعْنَى عَلَى لِسانِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ (عَلِيِّ بنِ أَبي طالبٍ) كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ :

دَواؤُكَ فِيكَ وما تُبْصِرُ * وداؤُكَ مِنْكَ وما تَشْعُرُ
وتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ * وفِيكَ انْطَوَى العالَمُ الأَكْبَرُ

فَظَهَرَ أَنَّ الإِنْسانَ كَما يَقُولُ الحُكَماءُ مَجْمَعُ العَجائِبِ ومَحَلُّ الغَرائِبِ : فَهُوَ مَعْدِنُ العَقْلِ والحِكْمَةِ والتَّدَبُّرِ والاعْتِبارِ ، كَما أَنَّهُ مَرْكَزُ الشَّهْوَةِ والحَمِيَّةِ والهَوَى ، فيهِ الرُّوحُ الصَّافِيَةُ المُقِرَّةُ بِالرُّبُوبِيَّةِ والتَّوْحِيدِ ، الدَّاعِيَةُ إِلَى الحَقِّ والخَيْرِ ، وفيهِ النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ ، النَّزَّاعَةُ لِلباطِلِ والشَّرِّ .

بيان أحوال النفس وعلاجها

اعْلَمْ أَخِي السَّالِكُ طَرِيقَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ عَمَّنا اللهُ وإيَّاكَ والمُحِبِّينَ بِالفُتُوحاتِ الصَّمَدانِيَّةِ ، والعُلُومِ الرَّبَّانِيَّةِ ، أَنَّ الَّذِى قالَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١)

كانَ ومازالَ مَقْصِدَ كُلِّ شَيْخٍ مُرَبٍّ ، ليَصِلَ بِمُرِيدِيهِ إِلَى جَوْهَرِ هَذا القَلْبِ النُّورانِيِّ فَيَنْصَبِغُوا بِأَنْوارِهِ وأَسْرارِهِ ، فَيَكُونَ هَذا القَلْبُ السَّلِيمُ مَرْكَبَهُمْ في سَيْرِهِمْ إِلَى اللهِ تَعالَى .

وهَذا بُغْيَةُ كُلِّ طالِبٍ لِلْكَمالِ ، وهُوَ مَحَلُّ الاخْتِبارِ ، ومُيَسَّرٌ لِكُلِّ إِنْسانٍ ، لأَنَّهُ إِنْ تَوَجَّهَ إِلَى عالَمِ الشَّهادَةِ بِحَيْثُ يَنْسَى عالَمَ القُدْسِ والتَّنْزِيهِ ، حُجِبَ عَنْهُ ما فيهِ مِنَ الخَواصِّ وصارَ حَيَواناً ، وإِنْ تَوَجَّهَ إِلَى عالَمِ الغَيْبِ بِحَيْثُ يَنْسَى عالَمَ الشَّهادَةِ والتَّشْبِيهِ ، حُجِبَ عَنْهُ أَيْضاً ما عُرِضَ لَهُ مِنَ الخَواصِّ السُّفْلِيَّةِ وصارَ مَلَكاً ، وإِنْ تَوَجَّهَ إِلَى العالَمَيْنِ ولَمْ يَذْهَلْ عَنِ الآخَرِ كانَ إِنْساناً كامِلاً ، وهَذا مَقامٌ عالٍ لا يَتَيَسَّرُ لأَحَدٍ إِلاَّ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ المُقَرَّبِينَ ، بَعْدَ مُجاهَدَةِ النَّفْسِ الجِهادَ الأَكْبَرَ ، ومَتَى كانَ القَلْبُ مُتَوَجِّهاً إِلَى الجَسَدِ بِالتَّنَعُّماتِ والمَلَذَّاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ والشَّهَواتِ النَّفْسانِيَّةِ كانَ مَحْجُوباً بِسَبْعِينَ حِجاباً ، ويُسَمَّى القَلْبُ في هَذِهِ المَرْتَبَةِ (بِالنَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ) ، لأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَّصِفُ بِالغَضَبِ المَذْمُومِ وبِالحِقْدِ والحَسَدِ والكِبْرِ والتَّعاظُمِ والعُجْبِ والغُرورِ وسُوءِ الخُلُقِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ الَّتِي تُبْعِدُهُ عَنْ حَضْرَةِ رَبِّهِ ، (ولا تَسْتَغْرِبَنَّ هَذا الأَمْرَ ، لأَنَّ اتِّباعَ الشَّهَواتِ يَجْعَلُ العَزِيزَ ذَلِيلاً) ، وذَلِكَ لأَنَّ القَلْبَ أَمِيرُ البَدَنِ ، والبَدَنُ مُطِيعٌ لأَوامِرِهِ ونَواهِيهِ ، فَإِذا غَلَبَتِ الشَّهَواتُ صارَ الأَمِيرُ مَأْمُوراً ، وانْعَكَسَتِ القَضِيَّةُ ، فَصارَ المَلِكُ أَسِيراً أَوْ مُسَخَّراً في يَدِ كَلْبٍ

---

(١) سُورَةُ ق الآيَة ٣٧ .

ثائِرٍ ، وعَدُوٌّ قاهِرٍ ، ولِهَذا ، كانَ الشَّخْصُ إِذا أَطاعَ داعِيَةَ الشَّرَهِ والشَّهَواتِ يَرَى نَفْسَهُ في النَّوْمِ ساجِداً بَيْنَ يَدَي خِنْزِيرٍ أَو حِمارٍ ، وإِذا أَطاعَ داعِيَ الغَضَبِ يَرَى نَفْسَهُ ساجِداً بَيْنَ يَدَي كَلْبٍ .

واعْلَمْ : أَنَّ القَلْبَ إِذا نَسِيَ نَفْسَهُ في هَذِهِ المَرْتَبَةِ المَلْعُونَةِ وطالَ وُقُوفُهُ فِيها كانَ ذَلِكَ سَبَباً في (إِبْطالِ خاصِّيَّتِهِ) وهِيَ القُدْرَةُ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَى عالَمِ الغَيْبِ ، و(إِبْطالُ خاصِّيَّتِهِ) هُوَ المُعَبَّرُ عَنْهُ بِسَوادِ القَلْبِ بِالطَّبْعِ وبِالرَّيْنِ ، لِأَنَّ القَلْبَ كالمِرْآةِ ، فَمَتَى كانَتْ صافِيَةً عَنِ الصَّدَأِ والكَدَرِ ، يُشاهِدُ الإِنْسانُ فِيها الأَشْياءَ ، وإِذا غَلَبَ عَلَيْها الصَّدَأُ أَو لَمْ يَكُنْ لَها ما يَصْقِلُها مِنَ المَوْعِظَةِ ومُلازَمَةِ الذِّكْرِ تَمَكَّنَ مِنْها الصَّدَأُ ، وغاصَ في جَوْاهِرِها وتَعَذَّرَ عَلَى الأُسْتاذِ إِزالَتُها ما لَمْ تُصادِفْها عِنايَةٌ مِنَ اللهِ تَعالَى .

وقَدْ أَشارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذِهِ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ القُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَما يَصْدَأُ الحَدِيدُ قِيلَ وما جِلاؤُها يا رَسُولَ الله ؟ قالَ : ذِكْرُ المَوْتِ وتِلاوَةُ القُرْآنِ) ، وفي رِوايَةٍ : الاسْتِغْفار)(١) .

فَمَنْ أَرادَ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ السَّعادَةِ والتَّرَقِّي إِلَى أَعْلَى الدَّرَجاتِ فَلْيَدْخُلْ أَوَّلاً مِنْ بابِ الأَبْوابِ وهِيَ (التَّوْبَةُ) قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾(٢) ومَعْنَى قَوْلِهِ (نَصُوحاً) : يَعْنِي خالِصَةً مِنَ الفِسْقِ ، مِنْ نَصَحْتَ العَسَلَ إِذا خَلَّصْتَهُ مِنَ الشَّمْعِ ، فَكَذَلِكَ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ تُخَلِّصُ القَلْبَ مِنَ الأَغْيارِ ، وتُصَفِّيهِ مِنَ الأَكْدارِ ، حَتَّى يَصِيرَ مُسْتَعِدّاً لِما يُنْقَشُ فيهِ مِنَ العُلُومِ والأَسْرارِ ، قابِلاً لِسُطُوعِ الأَنْوارِ ، فالتَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ ، وقَدْ قالَ ﷺ : (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ)(٣) ، واللهُ في كَرِيمِ آياتِهِ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾(٤) .

---

(١) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ في شُعَبِ الإِيمانِ ، وأَبو نُعَيْم في الحِلْيَة ، وانْظُرْ : فَيْضَ القَدير لِلْمَناوي ٢ / ٥٠١ .
(٢) سُورَةُ التَّحْرِيم مِنَ الآيَة ٨ . (٣) أَخْرَجَهُ الطَّبَراني . (٤) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ٢٢٢

واعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ نَفْسٌ واحِدَةٌ ، وتُسَمَّى بِاعْتِبارِ صِفاتِها المُتَعَدِّدَةِ بِالأَسْماءِ المُخْتَلِفَةِ ، فَتُسَمَّى : بِالأَمَّارَةِ ، واللَّوَّامَةِ ، والمُلْهَمَةِ ، والمُطْمَئِنَّةِ ، والرَّاضِيَةِ والمَرْضِيَّةِ ، والكامِلَة .

وقَدْ عَرَفْنا مِمَّا سَبَقَ أَن النَّفْسَ النَّاطِقَةَ هِيَ القَلْبُ الَّذِي قالَ اللهُ فيهِ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، ولَيْسَ المُرادُ مِنَ القَلْبِ قِطْعَةَ اللَّحْمِ الصُّنُوبَرِيَّةِ الشَّكْلِ ، وإِنَّما هِيَ اللَّطِيفَةُ الرَّبَّانِيَّةُ ، لَكِنْ لَمَّا تَدَنَّسَتْ بِالمَيْلِ إِلَى الطَّبِيعَةِ والرُّكُونِ إِلَى الشَّهَواتِ ، وصادَفَتِ النَّفْسَ الشَّهَوانِيَّةَ أَعْنِي الرُّوحَ الحَيَوانِيَّ ، انْخَرَطَتْ في سِلْكِ الحَيَواناتِ وتَبَدَّلَتْ أَوْصافُها الحَمِيدَةُ بِأَوْصافِهِم الذَّمِيمَةِ ، وصارَتْ لا تُمَيَّزُ عَنْهُم إِلاَّ بِالصُّورَةِ وصارَ الشَّيْطانُ مِنْ جُنْدِها . ومِنْ أَوْصافِها : الجَهْلُ ، والبُخْلُ ، والحِرْصُ ، والكِبْرُ ، والغَضَبُ ، والشَّهْوَةُ ، والحَسَدُ ، والغَفْلَةُ ، وسُوءُ الخُلُقِ ، والخَوْضُ فِيما لا يَعْنِي مِنَ الكَلامِ وغَيْرِهِ ، والاسْتِهْزاءُ ، والبُغْضُ ، والإِيذاءُ بِاليَدِ واللِّسانِ ، فَهِيَ نَفْسٌ خَبِيثَةٌ ، وهِيَ المُشارُ إِلَيْها بِقَوْلِهِ ﷺ : (أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ)[1]، وقالَ ﷺ (رَجَعْنا مِنَ الجِهادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهادِ الأَكْبَرِ ، قِيلَ : وما الجِهادُ الأَكْبَرُ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : جِهادُ النَّفْسِ)[2]، وذَلِكَ لِأَنَّها واقِعَةٌ في ظُلْمَةِ الطَّبِيعَةِ ، نَفَّارَةٌ مِنَ الطَّاعاتِ ، مَيَّالَةٌ إِلَى المَعاصِي والشَّهَواتِ ، فَلا فَرْقَ لَها بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، وقَدِ اخْتارَ أَهْلُ الطَّرِيقِ عِلاجاً لَها في هَذا المَقامِ وهُوَ مَقامُ الأَغْيار ، أَنْ يَذْكُرَ الشَّخْصُ بِهِمَّةٍ : بـ(لا إِلَهَ إِلاَّ الله) ، فَكُلَّما أَكْثَرَ المُرِيدُ الذِّكْرَ بِهَذا الاسْمِ الشَّرِيفِ انْجَلَى الصَّدأُ عَنْ قَلْبِهِ شَيْئاً فَشَيْئاً ، وكُلَّما أَكْثَرَ مِنَ الذِّكْرِ كُلَّما بَعُدَ عَنْهُ وَصْفٌ مِنَ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ ، وصارَ كارِهاً لِلْمَعاصِي والشَّهَواتِ تَدْرِيجِيّاً ،

---

(١) أخرجَهُ البَيْهقي في سُنَنِه .   (٢) أخرجَهُ البَيْهقي كَما في تَخْرِيجِ أَحاديثِ الإِحْياءِ للعِرَاقي .

ومَتى صَحَّتْ تَوْبَتُهُ انْجلَتْ عَنْ قَلْبِهِ ظُلُماتُ الأَغْيار .

واعْلَمْ أَنَّ مَعْرِفَةَ النَّفْسِ أَمْرٌ مُهِمٌّ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرادِ الإِنْسانِ ، لأَنَّ مَنْ عَرفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرفَ رَبَّهُ ، أَي مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالذُّلِّ والعَجْزِ والضَّعْفِ والفَناءِ عَرَفَ رَبَّهُ بِالعِزِّ والقُدْرَةِ والبَقاءِ ، ومَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ فَهُوَ بِرَبِّهِ أَجْهَلُ ؛ فَعَلَى العاقِلِ أَنْ يُشَمِّرَ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ في طَلَبِ المَعْرِفَةِ ، ولا يَتَوانَى في ذَلِكَ لِئَلَّا يُدْرِكَهُ المَوْتُ وهُوَ مُصابٌ بِعَمَى الجَهْلِ ، فَلا يَكُونُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ سَبِيلٌ إِلَى البَصِيرَةِ ، قالَ تَعالَى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢ ﴾(١) .

فالنَّفْسُ بِحَسَبِ مَراتِبِها ودَرَجاتِها تَنْقَسِمُ إِلَى سَبْعَةِ أَقْسامٍ :

الأُولَى) النَّفْسُ الأَمَّارَة : وهِيَ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ ذاتُ الحُجُبِ الظُّلْمانِيَّةِ ، والشَّهَواتِ والمَهالِكِ الشَّيْطانِيَّةِ ، وإِلَيْها الإِشارَةُ في قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾(٢) .

وسَيْرُها إِلَى اللهِ تَعالَى ، وعالَمُها الشَّهادَةُ ، ومَحَلُّها الصَّدْرُ ، وحالُها المَيْلُ ، ووارِدُها الشَّرِيعَة .

وصِفاتُها : البُخْلُ ، والحِرْصُ ، والأَمَلُ ، والكِبْرُ ، والشَّهْوَةُ ، والحَسَدُ ، والغَفْلَةُ والغَضَبُ .

عِلاجُها والخَلاصُ مِنْها : بِذِكْرِ الاسْمِ الأَوَّلِ وهُوَ (لا إِلَه إِلَّا الله) وعَدَدُهُ خَمْسُمِائَةِ مَرَّةٍ (٥٠٠ مَرَّة) في كُلِّ لَيْلَةٍ عَلَى الأَقَلِّ .

وهَذا تَوَجُّهُ اسْمِ (لا إِلَهَ إِلَّا الله) :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : إِلَهِي ، أَظْهِرْ عَلَى ظاهِرِي سُلْطانَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ،

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء الآيَة ٧٢ . (٢) سُورَةُ يُوسُفَ مِنَ الآيَة ٥٣ .

حَتَّى لا أَشْهَدَ إِلاَّ اللّهَ بِسِرِّ لا إله إلاَّ اللّهُ وحَقِّقْ باطِنِي بِتَحْقِيقِ لا إِلَهَ إِلاَّ الله .

واحْفَظْنِي واسْتَغْرِقْ فِيكَ سائِرِي بِإِحاطَةِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ، حَتَّى لا أَشْهَدَ إِلاَّ اللّهَ بِسِرِّ لا إِلَهَ إِلاَّ الله .

واحْفَظْنِي اللهُمَّ في مَراتِبِ وُجُودِي بِشُهُودِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ، حَتَّى لا أَشْهَدَ إِلاَّ اللّهَ بِسِرِّ لا إِلَهَ إِلاَّ الله .

بِوَجْهِكَ الحَقِّ الَّذي لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ يَسِّرلِي عِلْمَ لا إِلَهَ إِلاَّ الله (ثَلاثُ مَرَّات) ، وصَلَّى اللهُ تَعالَى عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّم .

الثَّانِيَةُ) النَّفْسُ اللَّوَّامَة : وهِيَ كَثِيرَةُ اللَّوْمِ عَلَى صاحِبِها بَعْدَ الوقُوعِ في المُخالَفَةِ ، وإِلَيْها الإِشارَةُ في قَوْلِهِ تَعالَى﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾(١) وسَيْرُها لِلهِ ، وعالَمُها البَرْزَخُ ، ومَحَلُّها القَلْبُ ، وحالُها المَحَبَّةُ ، ووارِدُها الطَّرِيقَةُ .

وصِفاتُها : اللَّوْمُ ، والفِكْرُ ، والعُجْبُ ، والاعْتِراضُ عَلَى الخَلْقِ ، والرِّياءُ الخَفِيُّ وحُبُّ الشُّهْرَة .

عِلاجُها : ذِكْرُ الاسْمِ الثَّانِي ؛ وهُوَ لَفْظُ الجَلالَةِ (الله) ، يَذْكُرُ فيهِ كَثِيراً وأَقَلُّهُ أَلْفانِ يَوْمِيّاً (٢٠٠٠ مَرَّة) .

وهَذا تَوَجُّهُ اسْمِ (الله) :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ : إِلَهِي ، بِعَظَمَتِكَ وجَلالِكَ وسُبُحاتِ وَجْهِكَ ، ارْزُقْنِي حُبَّكَ يا الله .. يا الله ، إِلَهِي ، بِعَظَمَتِكَ وجَلالِكَ وسُبُحاتِ وَجْهِكَ اجْعَلْ قَلْبَ عَبْدِكَ الضَّعِيفِ مَظْهَراً لِذاتِكَ ، يا اللّهُ يا وَدودُ يا نُورُ يا حَقُّ يا رَحْمَنُ (ثلاثاً) يا الله ... يالله.... يالله .

---

(١) سُورَةُ القِيامَة الآيَة ٢ .

وصَلَّى اللهُ تَعالَى عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم .

الثَّالِثَةُ) النَّفْسُ المُلْهَمَة : وهِيَ الَّتي عَرَفَتْ فُجُورَها وتَقْواها ، وصاحِبُها في مَقامِ الأَسْرارِ يَغْلُبُ عَلَيْهِ الرَّشادُ والبُعْدُ عَنِ الفَسادِ ، ولَكِنَّها صاحِبَةُ دَسائِسَ خَفِيَّةٍ رُبَّما أَوْقَعَتْهُ في مَضَرَّاتٍ قَوِيَّةٍ ، وإِلَيْها الإشارَةُ في قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ (١) .

وسَيْرُها عَلَى اللهِ تَعالَى ؛ بِمَعْنَى أَنَّ السَّالِكَ لا يَقَعُ نَظَرُهُ في هَذا المَقامِ إِلاَّ عَلَى اللهِ تَعالَى لِظُهُورِ الحَقِيقَةِ الإِيمانِيَّةِ عَلَى باطِنِهِ وفَناءِ ما سِوَى اللهِ في شُهُودِه .

عالَمُها : عالَمُ الأَرْواحِ ، ومَحَلُّها : الرُّوحُ ، وحالُها : العِشْقُ ، ووارِدُها : المَعْرِفَة .

صِفاتُها : السَّخاءُ والقَناعَةُ والعِلْمُ والتَّواضُعُ والصَّبْرُ والتَّحَلُّم ، وتَحَمُّلُ الأَذَى والْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ وحَمْلُهُم عَلَى الصَّلاحِ ، وقَبُولُ عُذْرِهِمْ ، وشُهُودُ أَنَّ اللهَ آخِذٌ بِناصِيَةِ كُلِّ دابَّةٍ ، فَلَمْ يَبْقَ اعْتِراضٌ عَلَى مَخْلُوقٍ أَصْلاً .

ومِنْ صِفاتِها أَيْضاً : الشَّوْقُ والبُكاءُ والقَلَقُ والإِعْراضُ عَنِ الخَلْقِ ، والاشْتِغالُ بِالحَقِّ تارَةً ، وعَدَمُ الخَوْفِ والرَّجاءِ تارَةً أُخْرَى ، وهُوَ ما يُعْرَفُ بـ(التَّلْوِين) والهُيامُ عِنْدَ سَماعِ الأَصْواتِ الحَسَنَةِ ، وحُبُّ الذِّكْرِ ، وبَشاشَةُ الْوَجْهِ ، والفَرَحُ بِاللهِ ، والتَّكَلُّمُ بِالحِكَمِ والمَعارِفِ ، فَهَذِهِ الصِّفاتُ وأَمْثالُها صِفَةُ النَّفْسِ المُلْهَمَةِ ، وإِنَّما سُمِّيَتْ مُلْهَمَة : لأَنَّ اللهَ تَعالَى أَلْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها .

والمُرِيدُ في هَذا المَقامِ مُحْتاجٌ أَشَدَّ الاحْتِياجِ إِلَى المَسْلَكِ لأَنَّهُ ضَعِيفُ الحالِ لا يُفَرِّقُ بَيْنَ الجَلالِ والجَمالِ ، ولا يَتَبَيَّنُ ما يُلْقِيهِ المَلَكُ أَوْ يُلْقِيهِ الشَّيْطانُ ، لأَنَّهُ لَمْ يَخْلُصْ بَعْدُ مِنْ كَدُوراتِ البَشَرِيَّة .

---

(١) سُورَةُ الشَّمْس الآيَة ٧ ، ٨ .

عِلاجُها : يُناسِبُها مِنَ الأَسْماءِ ذِكْرُ اسْمِ اللهِ تَعالَى (هُو) ، يَذْكُرُ فيهِ بِهِمَّةٍ ونَشاطٍ وإخْلاصٍ حَتَّى يَدُورَ في جَمِيعِ عَوالِمِهِ ، وأَقَلُّ الذِّكْرِ فيهِ لِلسَّالِكِ : ثَلاثَةُ آلاف (٣٠٠٠ مَرَّة) .

وهَذا تَوَجُّهُ اسْمِ (هُو) :

بسم الله الرحمن الرحيم : يا هُوَ يا مَنْ هُوَ هُوَ أَنْتَ هُوَ يا هُوَ يا لَطِيفُ يا هُوَ يا مَنْ لاإِلَهَ إلاَّ هُوَ ياهُو (ثَلاثاً) .

وصَلَّى اللهُ تَعالَى عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلهِ وسَلَّم .

الرَّابِعَةُ) النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ : ومَقامُها مَبْدَأُ الكَمالِ ، ومَتَى وَضَعَ السَّالِكُ قَدَمَهُ فيهِ صارَ مَعْدوداً مِنْ أَهْلِ الطَّرِيقِ واسْتَحَقَّ الانْتِسابَ إِلَيْهِمْ ، لانْتِقالِهِ مِنَ التَّلْوِينِ إِلَى التَّمْكِينِ ، وإِلَيْها الإشارَةُ في قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [(١)] ، وصاحِبُها شَدِيدُ التَّعَلُّقِ بِالحَقِّ تَعالَى .

ويُناسِبُهُ مِنَ الأَسْماءِ الاسْمُ الرَّابِعُ وهُوَ (حَقٌّ) :

يُوالِي ذِكْرَهُ بِهِمَّةٍ واجْتِهادٍ حَتَّى يَتَحَقَّقَ بِهِ سِرُّهُ ويَسْرِي في جَمِيعِ عَوالِمِهِ ، وأَقَلُّ الذِّكْرِ فيهِ لِلْمُرِيدِ : أَرْبَعَةُ آلافِ (٤٠٠٠) مَرَّة .

وهَذا المَقامُ لا يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهِ عادَةً لِغَيْرِ السَّالِكِينَ ، لأَنَّ غَيْرَ السَّالِكِ مُقَيَّدٌ بِقُيُودِ الشَّهَواتِ والشِّرْكِ الخَفِيِّ ، لا يَنْفَكُّ عَنْها إِلاَّ بِأَنْفاسِ المَشايِخِ العارِفِينَ المُتَمَكِّنِينَ مَعَ المُجاهَدَةِ والْتِزامِ الأَدَبِ عَلَى أَيْدِيهِم ، وغَيْرُ هَذا لا يَصِحُّ .

وهَذا تَوَجُّهُ اسْمِ (حَقّ) :

بسم الله الرحمن الرحيم : ياحَقُّ امْحَقْ آثارَ طُغْيانِ بَشَرِيَّتِي بِحَقِّكَ ، ياحَقُّ ادْفَعْ

---

(١) سُورَةُ الفَجْر الآيَة ٢٧ .

عَنِّى كَثْرَةَ الأغْيارِ ، ياحَقُّ يامَنْ لَهُ الأَمْرُ والخَلْقُ ياحَقُّ (ثَلاثاً) .

وصَلَّى اللّهُ تعالَى عَلَى سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلهِ وَسَلَّم .

الخامِسَةُ) النَّفْسُ الرَّاضِيَة : وإلَيْها الإشارَةُ في قَوْلِهِ تعالَى :

﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[1].

ومَقامُها مَقامُ الوِصالِ والفَناءِ والجَمْعِ ، وصاحِبُها مُسْتَغْرِقٌ ، لَيْسَ باقِياً بِنَفْسِهِ بَلْ بِرَبِّهِ ، يَخافُ مِنْ شاغِلٍ يَشْغَلُهُ عَنْ حالِهِ لِما هُوَ فيهِ مِنَ التَّلَذُّذِ والصَّفاءِ والأُنْسِ ، كَثِيرُ الرِّضا بِالْقَضاءِ والتَّسْلِيمِ والشُّكْرِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفاتِ المَحْمُودَة .

يُناسِبُهُ الخَلْوَةُ والعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ إلاَّ لِضَرورَةٍ كَأَخْذِ العِلْمِ أَوْ إِصْلاحِ حالٍ .

يُناسِبُهُ مِنَ الأَسْماءِ الاسْمُ الخامِسُ ، وهُوَ اسْمُهُ تَعالَى (حَيٌّ) :

يَذْكُرُ فِيهِ بِهِمَّةٍ ونَشاطٍ لِتَحْيا بِهِ نَفْسُهُ ، وأَقَلُّ الذِّكْرِ فيهِ خَمْسَةُ آلافٍ (٥٠٠٠) مَرَّة .

وهَذا تَوَجُّهُ اسْمِ (حَيّ) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ياحَيُّ لا حَيَّ إلاَّ أَنْتَ ، ياحَيُّ حَياتِي بِكَ ياحَيُّ ، ياحَيُّ يامَنْ إلَيْهِ يَرْجِعُ كُلُّ حَيٍّ أَظْهِرْ نُورَ مَحْيايَ ياحَيُّ (ثَلاثاً) .

وصَلَّى اللّهُ تَعالَى عَلَى سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلهِ وسَلَّم .

السَّادِسَةُ) النَّفْسُ المَرْضِيَّة : وإلَيْها الإشارَةُ في قَوْلِهِ تعالَى :

﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[2].

ومَقامُها مَقامُ تَجَلِّياتِ الأَفْعالِ ، وصاحِبُها لا يَرَى صُدورَ الأَفْعالِ إلاَّ مِنَ اللّهِ تَعالَى ، فَلا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَى أَحَدٍ أَبَداً .

(١ ، ٢) سُورَةُ الفَجْر الآيَة ٢٨ .

ويُناسِبُها مِنَ الأَسْماءِ الاسْمُ السَّادِسُ ، وهُوَ اسْمُهُ تَعالَى (قَيُّوم) :
يَذْكُرُ فيهِ السَّالِكُ بِهِمَّةٍ ونَشاطٍ حَتَّى تَسْطَعَ في قَلْبِهِ أَنْوارُهُ وتَتَجَلَّي لَهُ أَسْرارُهُ وأَقَلُّ الذِّكْرِ فيهِ سِتَّةُ آلافٍ (٦٠٠٠) مَرَّة .

وهَذا تَوَجُّهُ اسْمِ (قَيُّوم) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : إِلَهِي أَقِمْنِي بِكَ ، يا قائِمُ بِقَيُّومِيَّتِكَ بِكَ قِيامِي ، ياقَيُّومُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمواتِ والأَرْضِ ، ياقَيُّومُ أَطْلِعْ عَلَيَّ شَمْسَ قَيُّومِيَّتِكَ ، ياقَيُّومُ أَنْتَ القائِمُ القَيُّومُ ياقَيُّوم (ثَلاثاً) .

وصَلَّى اللَّهُ تَعالَى عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم .

السَّابِعَةُ) النَّفْسُ الكامِلَةُ : وإِلَيْها الإِشارَةُ في قَوْلِهِ تَعالَى :﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩﴾[1].

ومَقامُها مَقامُ تَجَلِّياتِ الأَسْماءِ والصِّفاتِ وعالَمُها كَثْرَةٌ في وَحْدَةٍ ووَحْدَةٌ في كَثْرَةٍ ، وصاحِبُ النَّفْسِ الكامِلَةِ في مَقامِ البَقاءِ ، ووارِدُها جَمِيعُ وارِداتِ ما مَرَّ مِنْ تَطَوُّراتِ النَّفْسِ قَبْلَ بُلُوغِها هَذا المَقامَ ، وأَوْصافُها جَمِيعُ ما ذُكِرَ مِنَ الأَوْصافِ المَحْمُودَةِ الحَسَنَةِ لِلنُّفُوسِ المُتَقَدِّمِ ذِكْرُها ، لِأَنَّ صاحِبَ هَذِهِ النَّفْسِ صارَ كامِلاً بَلْ هُوَ مِنْ كُمَّلِ الأَوْلِياءِ ، كَيْفَ لا وهُوَ وَلِيٌّ حِينَما كانَ في مَقامِ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ ، ووَلِيٌّ خاصٌّ عِنْدَما كانَ فى مَقامِ النَّفْسِ الرَّاضِيَةِ ، ومِنْ خَواصِّ الخَواصِّ وهُوَ في المَرْضِيَّةِ ، فَدَرَجَةُ صاحب هَذِهِ النَّفْسِ الكامِلَةِ هِيَ القُطْبانِيَّةُ ، والاسْمُ الَّذي يَشْتَغِلُ بِذِكْرِهِ (قَهَّار) وهُوَ أَطْهَرُ المَقاماتِ ، لِأَنَّهُ قَدْ كَمُلَتْ فيهِ تَرْبِيَةُ الباطِنِ ، وتَمَّتِ المُكابَدَةُ والمُجاهَدَةُ ، ولَيْسَ لِصاحِبِ هَذا المَقامِ مَطْلَبٌ سِوَى رِضْوانِ مَوْلاهُ ، أَنْفاسُهُ كُلُّها حَسَناتٌ وحِكْمَةٌ وعِبادَةٌ ، إِنْ رَآهُ النَّاسُ ذَكَروا اللَّهَ تَعالَى ، وإِلَى هَذا يُشِيرُ قَوْلُهُ ﷺ : (إِنَّ

---

(١) سُورَةُ الفجر الآية ٢٩ .

مِنَ النَّاسِ مَفاتِيحَ لِذِكْرِ اللهِ)[1]، يَعْنِي إِذا رَآهُم النَّاسُ ذَكَروا اللهَ بِرُؤْيَتِهِمْ لِما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ سِماتِ الصَّلاحِ ، وعَلائِمِ الأَوْلِياءِ وضِياءِ الأَصْفِياء .

وهَذا تَوَجُّهُ اسْمِ (قَهَّار) :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : يا قَهَّارَ مَنْ في السَّمَواتِ والأَرْضِ ، يا قَهَّارُ يامُظْهِرَ النُّورِ في عالَمِ السِّرِّ والجَمالِ يا قَهَّارُ ، الحُكْمُ لِلَّهِ الواحِدِ القَهَّارِ ، السُّلْطانُ لِلَّهِ الواحِدِ القَهَّارِ ، يا قَهَّارُ اقْهَرْ عَوالِمَ نَفْسِي وصِفاتِها الدَّنِيَّةِ ، ومَلِّكْنِي إِيَّاها بِقَهْرِ قَهْرِكَ يا قَهَّارُ (ثَلاثاً) .

وصَلَّى اللهُ تَعالَى عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم .

قالَ أَبُو البَرَكاتِ العَلاَّمَةُ أَحْمَدُ الدَّرْدِير : (واعْلَمْ أَنَّ الأَسْماءَ السَّبْعَةَ عَلَى عَدَدِ النُّفُوسِ السَّبْعَةِ أَي أَطْوارِ النُّفُوسِ السَّبْعَةِ ، فَكُلُّ واحِدَةٍ يُناسِبُها مِنَ الأَسْماءِ ما يَقْتَضِي فَناءَها عَنْ صِفاتِها المَذْمُومَةِ وتَمْزِيقَ حُجُبِها الحائِلَةِ بَيْنَها وبَيْنَ مُشاهَدَةِ الحَقِّ تَبارَكَ وتَعالَى)

وعَلَى العُمُومِ فَلِلسَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ في الذِّكْرِ مَشارِبُ وأَذْواقٌ شَتَّى ، وسُبْحانَ مَنْ أَلْهَمَ ، وجَلَّ جَلالُ مَنْ هَدَى وعَرَّفَ وأَرْشَدَ .

---

(١) أَخْرَجَه الطَّبَرانِي والبَيْهَقِيُّ ، وصَحَّحَه ابنُ حِبَّان .

تزكية النفوس

سبيل إلى جلاء القلوب وهو غاية المطلوب

قَلْبُ العَبْدِ مُتَوَسِطٌ بَيْنَ الرُّوحِ والنَّفْسِ ذُو وَجْهَيْن : أَحَدُ وَجْهَيْهِ إِلَى النَّفسِ ، والوَجْهُ الآخَرُ إِلَى الرُّوحِ ، يَسْتَمِدُّ مِنَ الرُّوحِ بِوَجْهِهِ الَّذي يَلِيهِ ، ويَمُدُّ النَّفْسَ بِوَجْهِهِ الَّذي يَلِيها حَتَّى تَطْمَئِنَّ النَّفْسُ ؛ فَإِذا اطْمَأَنَّتْ نَفْسُ السَّالِكِ وفَرَغَ مِنْ سِياسَتِها انْتَهَى سُلُوكُهُ وتَمَكَّنَ مِنْ سِياسَةِ النَّفْسِ ، وانْقادَتْ نَفْسُهُ وفاءَتْ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، ثُمَّ إِنَّ القَلْبَ لَيَشْرَئِبُّ إِلَى السِّياسَةِ لِما فِيهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى النَّفْسِ فَتَقُومُ نُفُوسُ المُرِيدِينَ والطَّالِبِينَ والصَّادِقِينَ عِنْدَ مَقامِ نَفْسِهِ (نَفْس الشَّيْخ) لِوجُودِ الجِنْسِيَّةِ في عَيْنِ النَّفْسِيَّةِ مِنْ وَجْهٍ ، ولِوُجُودِ التَّآلُفِ بَيْنَ الشَّيْخِ والمُرِيدِ عَنْ وَجْهِ التَّآلُفِ الإِلَهِيِّ ، قالَ تَعالَى : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] .

فَيَسُوسُ نُفُوسَ المُرِيدينَ كَما كانَ يَسُوسُ نَفْسَهُ مِنْ قَبْلُ ، ويَكُونُ في الشَّيْخِ حِينَئِذٍ مَعْنَى التَّخَلُّقِ بِأَخْلاقِ اللهِ تَعالَى مِنْ مَعْنَى قَوْلِ اللهِ تَعالَى في الحَديثِ القُدْسِيِّ : (أَلا طالَ شَوْقُ الأَبْرارِ إِلَى لِقائِي ، وإِنِّي إِلَى لِقائِهِم لأَشَدُّ شَوْقاً)[2] وبِما هَيَّأَ اللهُ تَعالَى مِنْ حُسْنِ التَّأْلِيفِ بَيْنَ الصَّاحِبِ والمَصْحُوبِ يَصِيرُ المُرِيدُ جُزْءَ الشَّيْخِ ، كَما أَنَّ الوَلَدَ جُزْءُ الوالِدِ في الوِلادَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وتَصِيرُ هَذِهِ الوِلادَةُ آنِفاً وِلادَةً طَبِيعِيَّةً ، كَما وَرَدَ عَنْ سَيِّدِنا (عِيسَى) عليه السلام :

(لَنْ يَلِجَ مَلَكُوتَ السَّماءِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَيْنِ)[3] .

فَبِالْوِلادَةِ الأُولَى يَصِيرُ لَهُ ارْتِباطٌ بِعالَمِ المُلْكِ ، وبِهَذِهِ الوِلادَةِ يَصِيرُ لَهُ ارْتِباطٌ بِالمَلَكُوتِ ، قالَ اللهُ تَعالَى :

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال مِنَ الآيَة ٦٣ .
(٢) أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمِي في مُسْنَدِهِ ، وأَبو نُعَيْم في الحِلْيَة .
(٣) انْظُر : (تَفْسِيرَ القُرْآنِ الكَرِيم) للشَّيْخِ مُحيي الدِّين بن عَرَبي ، ص ١٨٠ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[1]، وصَرْفُ اليَقينِ عَلَى الكَمالِ يَحْصُلُ في هَذهِ الوِلادَةِ ، وبِهَذهِ الوِلادَةِ يَسْتَحِقُّ ميراثَ الأَنْبياءِ ؛ ومَنْ لَمْ يَصِلْهُ مِيراثُ الأَنْبِياءِ ما وُلِدَ ، وإنْ كانَ عَلَى كَمالٍ مِنَ الفِطْنَةِ والذَّكاءِ ، لأَنَّ الفِطْنَةَ والذَّكاءَ نَتِيجَةُ العَقْلِ ، والعَقْلُ إذا كانَ يابِساً مِنْ نُورِ الشَّرْعِ لا يَدْخُلُ المَلَكُوتَ ، ولا يَزالُ مُتَرَدِّداً في المُلْكِ ، ولِهَذا وَقَفَ عَلَى بُرْهانٍ مِنَ العُلُومِ الرِّياضِيَّةِ لأَنَّهُ تَصَرَّفَ في المُلْكِ ولَمْ يَرْتَقِ إِلَى المَلَكُوتِ ، والمُلْكُ : ظاهِرُ الكَوْنِ ، والمَلَكُوتُ باطِنُ الكَوْنِ ، والعَقْلُ : لِسانُ الرُّوحِ ، والبَصِيرَةُ الَّتي مِنْها تَنْبَعِثُ أَشِعَّةُ الهِدايَةِ : قَلْبُ الرُّوحِ واللِّسانُ : تَرْجُمانُ القَلْبِ ، وكُلُّ ما يَنْطِقُ بِهِ التَّرْجُمانُ مَعْلُومٌ عِنْدَ مَنْ يُتَرْجِمُ عَنْهُ ، ولَيْسَ كُلُّ ما عِنْدَ مِنْ يُتَرْجَمُ عَنْهُ يَبْرُزُ إِلَى التَّرْجُمانِ ؛ فَلِهَذا المَعْنَى حُرِمَ الواقِفُونَ مَعَ مُجَرَّدِ العُقُولِ المُعَرَّاةِ عَنْ نُورِ الهِدايَةِ الصَّوابُ ، وأُسْبِلَ دُونَهُم الحِجابُ لِوقُوفِهِم مَعَ التَّرْجُمانِ وحِرْمانِهِم غايَةَ التِّبْيانِ ، وكَما أَنَّ في الوِلادَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ذَرَّاتُ الأَوْلادِ في صُلْبِ الأَبِ مُودَعَةً ، تُنْقَلُ إِلَى أَصْلابِ الأَوْلادِ بِعَددِ كُلِّ وَلَدٍ ذَرَّةٌ ، وهِيَ الذَّرَّاتُ الَّتي خاطَبَها اللهُ تَعالَى يَوْمَ المِيثاقِ بـ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[2]، فَمِنَ الآباءِ مَنْ تَنْفُذُ الذَّرَّاتُ في صُلْبِهِ ، ومِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُودَعْ في صُلْبِهِ شَيْءٌ فَيَنْقَطِعُ نَسْلُهُ ، وهَكَذا المَشايِخُ : فَمِنْهُمْ مَنْ تَكْثُرُ أَوْلادُهُ ويَأْخُذُونَ مِنْهُ العُلُومَ والأَحْوالَ ويُودِعُونَها غَيْرَهُم كَما وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بواسِطَةِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم ، ومِنْهُم مَنْ تَقِلُّ أَوْلادُهُ ومِنْهُم مَنْ يَنْقَطِعُ نَسْلُهُ ؛ وهَذا النَّسْلُ هُوَ الَّذي رَدَّ اللهُ بِهِ عَلَى الكُفَّارِ حَيْثُ قالُوا : مُحَمَّدٌ أَبْتَرُ لا نَسْلَ لَهُ ، فقالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾[3]، وإلَّا فَنَسْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ باقٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وبالنِّسْبَةِ المَعْنَوِيَّةِ يَصِلُ مِيراثُ العِلْمِ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ .

---

(١) سُورَةُ الأنعام آية ٧٥ . (٢) سُورَةُ الأعراف من آية ١٧٢ . (٣) سورة الكوثر آية ٣ .

ولِحِكْمَةٍ إلَهِيَّةٍ جَعَلَ اللهُ القَلْبَ مُسْتَوْدَعَ الأَسْرارِ ، وخَزِينَةَ الانْفِعالاتِ المُتَقابِلَةِ ، ومُسْتَقَرَّ عجائِبِ المَعانِي والغُيُوبِ ، فالبَصَرُ لِلْمُلْكِ ، والبَصِيرَةُ لِلْمَلَكُوت .

فَمَثَلاً :

القَلْبُ مُسْتَقَرُّ الإيمانِ : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾(١).

وهُوَ مَحَلُّ الأُلْفَةِ والحُبِّ : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾(٢).

وهُوَ مَحَلُّ الطُّمَأْنِينَةِ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(٣).

وهُوَ مَحَلُّ التَّمْحِيص : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾(٤).

وهُوَ مَحَلُّ السَّلامَةِ : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(٥).

وهُوَ مَحَلُّ الذِّكْرَى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾(٦).

وهُوَ مَحَلُّ التَّقْوَى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾(٧)

وهُوَ مَحَلُّ السَّكِينَة : ﴿ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٨).

وهُوَ مَحَلُّ الرَّأْفَةِ والرَّحْمَة : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾(٩)

وهُوَ مَحَلُّ الرَّبْطِ الإلَهِيِّ : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١٠).

وهُوَ مَحَلُّ الوَجَلِ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(١١).

وهُوَ مَحَلُّ الخُشُوعِ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾(١٢).

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٦٣ .
(٣) سورة الرّعد الآية ٢٨ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .
(٥) سورة الصافات الآية ٨٤ .
(٦) سورة ق الآية ٣٧ .
(٧) سورة الحج الآية ٣٢ .
(٨) سورة الفتح الآية ٤ .
(٩) سورة الحديد الآية ٢٧ .
(١٠) سورة الكهف الآية ١٤ .
(١١) سورة الأنفال الآية ٢ .
(١٢) سورة الحديد الآية ١٦ .

وهُوَ مَحَلُّ الفِقْهِ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[1].. إلخ

فالقَلْبُ هُنا مَشْرِقُ الأَنْوارِ ، ومَهْبِطُ الأَسْرارِ .

وفي المُقابِلِ نَجِدُ القَلْبَ :

مَحَلَّ الغِلِّ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾[2].

وهُوَ مَحَلُّ الزَّيْغ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾[3].

وهُوَ مَحَلُّ المَرَض : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾[4].

وهُوَ مَحَلُّ الغَيْظِ : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[5].

وهُوَ مَحَلُّ الرِّيبَة : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[6].

وهُوَ مَحَلُّ الرَّيْنِ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[7].

وهُوَ مَحَلُّ الامْتِحان : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[8].

وهُوَ مَحَلُّ الرُّعْبِ : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾[9].

وهُوَ مَحَلُّ العَمَى : ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[10].

وهُوَ مَحَلُّ الانْغِلاق : ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[11].

وهُوَ مَحَلُّ الفَظاظَة : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[12].

وهُوَ مَحَلُّ الخُصُومَة : ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾[13].

وهُوَ مَحَلُّ الغَفْلَة : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾[14].

وهُوَ مَحَلُّ الحَمِيَّة : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾[15].

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .
(٢) سورة الحشر الآية ١٠ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٧ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٠ .
(٥) سورة التوبة الآية ١٥ .
(٦) سورة التوبة الآية ٤٥ .
(٧) سورة المطففين الآية ١٤ .
(٨) سورة الحجرات الآية ٣ .
(٩) سورة الأنفال الآية ١٢ .
(١٠) سورة الحج الآية ٤٦ .
(١١) سورة مُحَمَّد الآية ٢٤ .
(١٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .
(١٣) سورة البقرة الآية ٢٠٤ .
(١٤) سورة الكهف الآية ٢٨ .
(١٥) سورة الفتح الآية ٢٦ .

فالقَلْبُ هُنا مَجْمَعُ المَكارِهِ ، ومُلْتَقَى سَخَطِ اللهِ .

وهَكَذا ، لَنْ نَسْتَطِيعَ تَتَبُّعَ وَظائِفِ القَلْبِ وحرَكاتِهِ ، المُرْدِي مِنْها والمُرْضِي ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ القَلْبَ هُوَ مُسْتَوْدَعُ سِرِّ اللهِ ، ومُسْتَقَرُّ غَيْبِهِ في الإِنْسانِ ، ومِنْ هُنا جاءَ المَعْنَى الدَّقِيقُ في قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[1] ، وهِدايَةُ القَلْبِ إِلْهامٌ ، وتَوْجِيهٌ ، وأَسْرارٌ ، وكُشُوفٌ ، وشُهُودٌ ، ومَعارِفُ ، وسُمُوٌّ وتَرَقٍّ في مَعارِجِ القُرْبِ لِتَحْقِيقِ مَعْنَى الهِجْرَةِ إِلَى اللهِ والفِرارِ المَطْلُوبِ مِنَّا إِلَيْهِ[2].

ولَعَلَّ مِمَّا يَكْشِفُ بَعْضَ أَسْرارِ القَلْبِ ، وكَيْفَ أَنَّهُ خَزِينَةُ النُّورِ الأَقْدَسِ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[3] ، فَما أَرْوَعَ وما أَبْدَعَ وما أَمْتَعَ (عَلَى قَلْبِكَ) لا عَلَى شَيْءٍ آخَرَ !!! .

ولَعَلَّ حُجَّةَ الإِسْلامِ الإِمامَ الغَزالِي ، وقَدْ رَأَى القَلْبَ بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ ، وتَحَقَّقَ مِنْ أَنَّهُ الكُوَّةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي تُطِلُّ مِنْها الرُّوحُ عَلَى عَوالِمِ الغَيْبِ ، ومَساتِيرِ الخَلْقِ ، فَلَمْ يَسْتَبْعِدْ أَنْ يَهَبَ اللهُ عَبْداً صالِحاً صافِياً لَحْظَةَ فَيْضٍ ومَدَدٍ ، يَأْخُذُهُ فِيها عَنْ نَفْسِهِ ، ويُشْهِدُهُ بِفَضْلِهِ حَضْرَةَ قُدْسِهِ ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾[4] ، ولِلصُّوفِيَّةِ في ذَلِكَ مَقُولاتٌ شَتَّى .

إِنَّ مَشاكِلَ السَّمْعِيَّاتِ والغَيْبِيَّاتِ ، وعَجائِبَ القَضاءِ والقَدَرِ ، ومُعَقَّداتِ حِكْمَةِ الخَلْقِ والأَمْرِ ، وخَفِيَّ أَسْرارِ العِباداتِ ، كُلُّ ذَلِكَ ، لايَحُلُّ مُعْضَلاتِهِ إِلاَّ القَلْبُ وقَدْ عَلِمَ العالَمُ أَجْمَعُ أَنَّ العَقْلَ قَدْ أَفْلَسَ في هَذا المجالِ وتَوَقَّفَ ، ولازالَ واقِفاً ، بَلْ سَيَظَلُّ كَذَلِك .

---

(١) سورة التغابن الآية ١١ .

(٢) في مِثْلِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، الآيَة : ٥٠ مِنْ سُورَةِ الذاريات .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) سورة يوسف الآية ٢١ .

الوِرْدُ اليَوْمِيّ

الوِرْدُ اليَوْمِيّ

اتَّفَقَتْ جَمِيعُ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى أَنَّ الوِرْدَ اليَوْمِيَّ الرَّاتِبَ (فِيما عَدا ما يُؤْذَنُ لِلسَّالِكِ مِنْ أَذْكارٍ أُخْرَى) ، هُوَ : اسْتِغْفارٌ لِلهِ ، ثُمَّ صَلاةٌ وسَلامٌ عَلَى سَيِّدِنا (رَسُولِ اللهِ) ﷺ ، ثُمَّ تَكْرارُ الكَلِمَةِ المُشَرَّفَةِ (لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) ، فالاسْتِغْفارُ لِلْقَلْبِ طَهُورٌ ، والصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِطْرٌ وبُخُورٌ ، والتَّهْلِيلُ عُبُورٌ إِلَى سُرادِقاتِ النُّورِ ، عَسَى أَنْ تَكُونَ جوابِرَ لِلنَّقْصِ والفُتُورِ والقُصُورِ .

وقَدِ اخْتَارَتْ كُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ صِيغَةً مُعَيَّنَةً لِمَزِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ وتَجْرِبَةٍ مُعَيَّنَةٍ وعَدَدٍ مُعَيَّنٍ ، وهُمْ يَجْعَلُونَ التَّعَبُّدَ بالاسْتِغْفارِ والصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَفاتِيحَ ومَداخِلَ لِذِكْرِ الأَسْماءِ المُقَرَّرَةِ ، فَلا بُدَّ مِنْها ولَوْ في كُلِّ يَوْمٍ مَرَّة .

إِذَنْ ، فالوِرْدُ يَضُمُّ ثَلاثَ صِيَغٍ مِنْ صِيَغِ الذِّكْرِ المَطْلُوبَةِ شَرْعاً ، والَّتِي دَعا إِلَيْها كِتابُ اللهِ تَعالَى ، وبَيَّنَتِ السُّنَّةُ الشَّرِيفَةُ فَضْلَها ومَثُوبَتَها :

١) الاسْتِغْفارُ : بِصِيغَةِ (أَسْتَغْفِرُاللهَ) مِائَةَ مَرَّةٍ ، بَعْدَ مُحاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى الزَّلاَّتِ لِتَعُودَ صَفْحَةُ الأَعْمالِ نَقِيَّةً بَيْضاءَ ، وقَدْ أَمَرَنا اللهُ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعالَى ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

وقَدْ كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنَ الاسْتِغْفارِ تَعْلِيماً لأُمَّتِهِ وتَوْجِيهاً ، كَما رَوَى أَبُوهُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَوْلَهُ ﷺ : (واللهِ إِنِّى لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّة)[٢].

وعَنْ عَبْدِاللهِ بنِ بِسْرٍ رضي الله عنه قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :
(طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ في صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفاراً كَثِيراً)[٣].

---

(١) سُورَةُ المُزَّمِّل الآيَة ٢٠ . (٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِه .
(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ ماجَه .

٢) الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ : وصِيَغُها كَثِيرَةٌ ، وأَشْهَرُها (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلِّمْ) مِائَةَ مَرَّة ، مَعَ اسْتِحْضارِ عَظَمَتِهِ ﷺ ، وتَذَكُّرِ صِفاتِهِ وشَمائِلِهِ ، والتَّعَلُّقِ بِجَنابِهِ الرَّفِيعِ ، مَحَبَّةً وتَشَوُّقاً .

وقَدْ أَمَرَنا اللهُ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعالَى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[١].

وكَذَلِكَ رَغَّبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَثْرَةِ الصَّلاةِ والسَّلامِ عَلَيْهِ فقالَ :

(مَنْ صَلَّى عَلَيَّ واحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِها عَشْراً)[٢].

ورُوِيَ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(مَنْ صَلَّى عَلَيَّ واحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَواتٍ وحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئاتٍ ورُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجاتٍ)[٣].

وقالَ ﷺ أَيْضاً : (أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً)[٤].

٣) كَلِمَةُ التَّوْحِيد : بِصِيغَةِ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، أَو(لا إِلَهَ إِلَّا الله) مِائَةَ مَرَّة مَعَ التَّفْكِيرِ بِأَنَّهُ لا خالِقَ ولا رازِقَ ولا نافِعَ ولا ضارَّ ولا قابِضَ ولا باسِطَ ... إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ . مَعَ مُحاوَلَةِ مَحْوِ ما يُسَيْطِرُ عَلَى القَلْبِ ، مِنْ حُبِّ الدُّنْيا والأَهْواءِ والشَّهَواتِ والوَساوِسِ والشَّواغِلِ والعَلائِقِ والعَوائِقِ الكَثِيرَةِ حَتَّى يَكُونَ القَلْبُ لِلهِ وَحْدَهُ لا لِسِواه .

ولِهَذا دَعانا اللهُ تَعالَى إِلَى هَذا التَّوْحِيدِ الخالِصِ فقالَ :﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٥]، وكَذَلِكَ رَغَّبَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ في الإِكْثارِ مِنْ تَرْدادِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٦ . (٢) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) و(النَّسائي) . (٣) أخرجهُ النَّسائي .
(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي . (٥) سُورةُ مُحَمَّد الآية ١٩ .

وبَيَّنَ أَفضَلِيَّتَها ومَثُوبَتَها ، فَقالَ ﷺ : (أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلاَّ الله)[١] ، يَقُولُ العَلاَّمَةُ ابْنُ عَلَّانَ في شَرْحِ هَذا الحَديثِ : (إِنَّها أي ، لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : تُؤَثِّرُ تَأْثِيراً بَيِّناً في تَطْهِيرِ القَلْبِ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ ذَمِيمٍ راسِخٍ في باطِنِ الذَّاكِرِ ، وسَبَبُهُ أَنَّ(لا إِلَهَ) نَفْيٌ لِجَمِيعِ أَفْرادِ الآلِهَةِ ، و (إِلاَّ الله)إِثْباتٌ لِلْواحِدِ الحَقِّ الواجِبِ لِذاتِهِ المُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ مالا يَليقُ بِجَلالِهِ ، فَبِإِدْمانِ الذِّكْرِ لِهَذِهِ يَنْعَكِسُ الذِّكْرُ مِنْ لِسانِ الذَّاكِرِ إِلَى باطِنِهِ ، حَتَّى يَتَمَكَّنَ فِيهِ ، فَيُضِيئَهُ ويُصْلِحَهُ ، ثُمَّ يُضِيءَ ويُصْلِحَ سائِرَ الجَوارِحِ ، ولِذا أُمِرَ المُرِيدُ وغَيْرُهُ بِإِكْثارِها والدَّوامِ عَلَيْها)[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (جَدِّدُوا إِيمانَكُم ، قِيلَ : يا رَسُولَ اللهِ وكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمانَنا ؟ قالَ : قالَ : أَكْثِروا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ الله)[٣] وقالَ ﷺ أَيْضاً : (مَنْ قالَ : لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ، ولَهُ الحَمْدُ ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؛ في يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ، كانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقابٍ ، وكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، ومُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وكانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِي ، ولَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جاءَ بِهِ إِلاَّ رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ)[٤] ولا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ في طَرِيقِ أَهْلِ اللهِ أَنْ يَكُونَ وِرْدُهُ مَقْصُوراً عَلَى العَدَدِ المَذْكُورِ ، بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَزِيدَ ذِكْرَهُ للهِ تَعالَى ، لأَنَّ قَلْبَ السَّالِكِ في ابْتِداءِ سَيْرِهِ كالطِّفْلِ الصَّغِيرِ ، فَكَما أَنَّ الطِّفْلَ كُلَّما كَبُرَ زِيدَتْ لَهُ كَمِّيَّةُ الغِذاءِ ، كَذَلِكَ كُلَّما كَبُرَ المُرِيدُ في سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَعالَى زادَ ذِكْرُهُ لِلهِ ، لأَنَّ الذِّكْرَ غِذاءٌ لِقَلْبِهِ وحَياةٌ لَهُ .

ولَمَّا كانَ الوِرْدُ سَبِيلَ السَّالِكِينَ إِلَى اللهِ تَعالَى قَعَدَ الشَّيْطانُ في طَرِيقِهِم ، يَصُدُّهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالَى بِحُجَجٍ شَتَّى ، ومُغالَطاتٍ خَفِيَّةٍ ، وتَلْبِيساتٍ

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي .

(٢) الفُتُوحاتُ الرَّبانِيَّةُ عَلَى الأَذْكارِ النَّوَوِيَّةِ (ابْنُ عَلَّانِ الصِّدِّيقي) .

(٣) أَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ .

(٤) أَخْرَجَهُ البُخاري ومُسْلِمٌ والتِّرْمِذي .

مُنَوَّعَةٍ ، فَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضُ المُريدينَ قِراءَةَ أَوْرادِهِمْ مُحْتَجِّينَ بِكَثْرَةِ أَعْمالِهِمْ وعَدَمِ فَراغِهِمْ لَها ، ويُوحِي إِلَيْهِمْ شَيْطانُهُم أَنَّ هَذا عُذْرٌ مَشْرُوعٌ ، ومُبَرِّرٌ مَقْبُولٌ ، وأَنَّهُ لا بَأْسَ بِتَأْجِيلِ الأَوْرادِ لِوَقْتِ الفَراغِ .

ولَكِنَّ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ حَذَّرُوا السَّالِكِينَ مِنَ الإِهْمالِ والتَّسْوِيفِ وانْتِظارِ الفَراغِ لأَنَّ العُمْرَ سُرْعانَ ما يَنْتَهِي ، والمَشاغِلَ لا تَزالُ في تَجَدُّدٍ .

قالَ الشَّارِحُ ابْنُ عَجِيبَة : (فالواجِبُ عَلَى الإِنْسانِ أَنْ يَقْطَعَ عَلائِقَهُ وعَوائِقَهُ ويُخالِفُ هَواهُ ، ويُبادِرَ إِلَى خِدْمَةِ مَوْلاهُ ، ولا يَنْتَظِرَ وَقْتاً آخَرَ ، إِذِ الفَقِيرُ (الصُّوفي) ابْنُ وَقْتِه)[١].

وقَدْ يُزَيِّنُ الشَّيْطانُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ أَنْ يَتْرُكُوا الذِّكْرَ بِحُجَّةِ أَنَّ ذِكْرَهُمْ لا يَسْلَمُ مِنَ الوَساوِسِ ، والذِّكْرُ لا يُفِيدُ إِلاَّ إِذا كانَ الذَّاكِرُ حاضِرَ القَلْبِ مَعَ اللهِ تَعالَى .

ولَكِنَّ مُرْشِدِي السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ حَذَّرُوا مُرِيدِيهِم مِنْ هَذا المَدْخَلِ الشَّيْطانِي الخَطِيرِ ، فَقالَ ابْنُ عَطاءِ السَّكَنْدَرِي : (لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللهِ فِيهِ ، لأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وجُودِ ذِكْرِهِ ، فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ ، ومِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُود يَقَظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، ومِنْ ذِكْرٍ مَعَ وجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى المَذْكُورِ ، وما ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيز)[٢]. وقَدْ يَتْرُكُ بَعْضُ السَّالِكِينَ أَوْرادَهُمْ اكْتِفاءً بِالوارِدِ ، وما عَلِمُوا أَنَّ الوِرْدَ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ لِلتَّقَرُّبِ لِلهِ تَعالَى ، وأَنَّ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ لَمْ يَتْرُكُوا أَوْرادَهُمْ مَهْما بَلَغُوا مِنْ مَراتِبِ الكَمالِ ، قالَ أَبُو الحَسَنِ الدَّرَّاج : (ذَكَرَ الجُنَيْدُ أَهْلَ المَعْرِفَةِ بِاللهِ ، وما يُراعُونَهُ مِنَ الأَوْرادِ والعِباداتِ بَعْدَ ما أَتْحَفَهُم اللهُ بِهِ مِنَ الكَراماتِ ،

(١ ، ٢) إيقاظُ الهِمَم في شَرْحِ الحِكَم .

ثُمَّ قالَ : العِبادَةُ عَلَى العارِفِينَ أَحْسَنُ مِنَ التِّيجانِ عَلَى رُؤُوسِ المُلُوكِ ، وقَدْ رَأَى رَجُلٌ الجُنَيْدَ وفي يَدِهِ سِبْحَةٌ ، فَقالَ لَهُ : أَنْتَ مَعَ شَرَفِكَ تَأْخُذُ في يَدِكَ سِبْحَةً ، فَقالَ : نَعَم ، سَبَبٌ وَصَّلَنا إِلَى ما وَصَلْنا فَلا نَتْرُكُهُ أَبَداً)[1] .

قالَ ابْنُ عَطاءِ اللهِ : (لا يَسْتَحِقِرِ الْوِرْدَ إِلاَّ جَهُولٌ ، الوارِدُ يُوجَدُ في الدّارِ الآخِرَةِ والوِرْدُ يَنْطَوِي بِانْطواءِ هَذِهِ الدّارِ وأَوْلَى ما يُعْتَنَى بِهِ ما لا يُخْلَفُ ، الوِرْدُ هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ والوارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وأَيْنَ ما هُو طالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ) .

وأَخِيراً ، فَإِنَّ المُرِيدَ إِذا تَرَكَ وِرْدَهُ لِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبابِ السَّابِقَةِ ، ثُمَّ عادَ إِلَى يَقَظَتِهِ والْتِزامِ عَهْدِهِ ؛ فَلا يَنْبَغِي أَنْ يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ نَتِيجَةَ تَقْصِيرِهِ وإِهْمالِهِ ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللهِ تَعالَى ، ثُمَّ يَقْضِي ما فاتَهُ مِنْ أَوْرادٍ ، إِذِ الأَوْرادُ تُقْضَى كَسائِرِ العِباداتِ والطَّاعاتِ .

قالَ الإمامُ النَّوَوِي : (يَنْبَغِي لِمَنْ كانَ لَهُ وَظِيفَةٌ مِنَ الذِّكْرِ في وَقْتٍ مِنْ لَيْلٍ أَو نَهارٍ ، أَو عُقَيْبَ صَلاةٍ أَو حالَةٍ مِنَ الأَحْوالِ فَفاتَهُ ، أَنْ يَتَدارَكَها ، ويَأْتِيَ بِها إِذا تَمَكَّنَ مِنْها ، ولا يُهْمِلَها ، فَإِنَّهُ إِذا اعْتادَ المُلازَمَةَ عَلَيْها لَمْ يُعَرِّضْها لِلتَّفْوِيتِ وإِذا تَساهَلَ في قَضائِها سَهُلَ عَلَيْهِ تَضْيِيعُها في وَقْتِها ، وقَدْ ثَبَتَ في صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ نامَ عَنْ حِزْبِهِ أَو عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيما بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّما قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ)[2] .

(١) إيقاظُ الهِمَم في شَرْحِ الحِكَمِ .
(٢) الأذكارُ لـ(النَّوَوي) . والحديثُ أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) في صَحيحِهِ وأَصْحابُ السُّنَن .

بَيَانُ أَنَّ الذِّكْرَ

بالاسْمِ المفْرَدِ والمجَرَّد

لهُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ سَنَدٌ مُؤَيَّد

بيانُ أنَّ الذكر

بالاسمِ المفرَدِ والمجرّد

لهُ مِنَ الكتابِ والسُّنّةِ سَندٌ مؤيّد

إنَّ لَفظَ الجَلالَةِ (الله) عَلَمٌ غَيْرُ مُشْتَقٍّ ، فَلا يُسَمَّى بِهِ بَشَرٌ ، ولا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ، ويُوصَفُ ولا يُوصَفُ بِهِ ، وكُلُّ اسْمٍ أو صِفَةٍ لِلّهِ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، حَتَّى جَزَمَ كَثِيرٌ مِنَ السَّادَةِ بِأَنَّهُ الاسْمُ الأَعْظَمُ ، وبِذِكْرِهِ يَكْتَفِي كَثِيرٌ مِنَ السَّادَةِ الشَّاذِلِيَّةِ ، وفيهِ كَتَبَ (ابْنُ عَطاءِ اللهِ) رِسالَتَهُ الـمُسَمَّاة :

(القَصْدُ المُجَرَّدُ في مَعْرِفَةِ الاسْمِ المُفْرَد) .

وقَدْ يَسِفُّ خُصُومُ ذِكْرِ اللهِ فَيُكَرِّرُونَ قالَتَهُم المُفْتَراةَ إِنَّ ذِكْرَ الاسْمِ المُفْرَدِ أَو المُجَرَّدِ لا يُفِيدُ مَعْنَى ، فَهُوَ هَذَر !! وهَذا زَعْمٌ خاطِيءٌ وَقِحٌ ، فَلَنْ يَكُونَ اسْمُ اللهِ هَذَراً أَبَداً .

والذَّاكِرُ اللهَ بِلَفْظِ (الرَّزَّاق) أَو (رَزَّاق) مَثلاً ، مُلاحِظٌ أَنَّ هَذا الاسْمَ أَحَدُ جُزْأَي جُمْلَةٍ خَبَرِيَّةٍ ، تَقْدِيرُها مَثَلاً : (اللهُ الرَّزَّاقُ) أَو (رَبِيَّ رَزَّاق) أَو نَحْوَ ذَلِكَ ، فالاسْمُ المُجَرَّدُ هُنا خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ ، أَو مُبْتَدأٌ لِخَبَرٍ مَحْذوفٍ كَما يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولاً لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ ، تَقْدِيرُهُ : (أَذْكُرُ اللهَ الرَّزَّاق) ، وقَدْ يَكُونُ الذَّاكِرُ مُلاحِظاً ياءَ النِّداءِ ، فَيَكُونُ الاسْمُ المُجَرَّدُ مُنادَى حُذِفَتْ مِنْهُ ياءُ النِّداء بَلاغَةً (إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَطَقَ فِعْلاً بِها) ، ولِكُلِّ ذلِكَ أَشْباهٌ في القُرْآنِ والسُّنَّةِ مَعْروفَةٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَة .

وفي الحَديثِ الثَّابِتِ أَيْضاً : كانَ ﷺ يَقُولُ في دُعائِهِ : (الله ، الله ، اللهُ رَبِّي لا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) ولَمْ يَعْتَرِضْ عَلَى هَذِهِ الرِّوايَةِ سَلَفٌ ولا خَلَفٌ .

وثَبَتَ في صِحاحِ السِّيَرِ ، أَنَّهُ ﷺ ، كانَ يَمُرُّ عَلَى سَيِّدِنا (بِلالِ بنِ رَباح)

ﷺ وهُوَ يُعَذَّبُ ، ويَقُولُ : (أَحَدٌ أَحَد) فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ بَلْ كانَ يُكَرِّرُها ﷺ وهُوَ المُشَرِّعُ الأَعْظَمُ ، وهَذا أَوْضَحُ الأَدِلَّةِ عَلَى صِحَّةِ هَذا الذِّكْرِ ، أَعْنِي الذِّكْرَ بِالاسْمِ المُفْرَد .

وقَدْ وَرَدَ في الحَديث الشَّرِيفِ الَّذِي رَواهُ (أَنَس بنُ مالِكٍ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ :

(لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لايُقالَ في الأَرْضِ : الله ، الله)[1].

فَهَذا اسْمٌ مُفْرَدٌ وَرَدَ ذِكْرُهُ مُكَرَّراً في هَذا الحَدِيث .

وفي رِوايَةٍ أُخْرَى عَنْ (أَنَسٍ) ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ الله ﷺ :

(لا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ : الله ، الله) .

قالَ العَلاَّمَةُ عَلِي القارِي في شَرْحِ هَذا الحَدِيثِ : (أَي لا يُذْكَرُ اللهُ فَلا يَبْقَى حِكْمَةٌ في بَقاءِ النَّاسِ ، ومِنْ هَذا يُعْرَفُ أَنَّ بَقاءَ العالَمِ بِبَرَكَةِ العُلَماءِ العامِلِينَ والعُبَّادِ الصَّالِحِينَ وعُمُومِ المُؤْمِنِينَ ، وهُوَ المُرادُ بِما قالَ الطِّيبِي رَحِمَهُ اللهُ مَعْنَى حَتَّى لايُقالَ (الله ، الله) : حَتَّى لا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ ولا يُعْبَد)[2].

وفي القُرْآنِ الكَرِيمِ ، يَقُولُ تَعالَى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، مُكَرَّرَةٌ في عِدَّةِ آياتٍ ، وماضِيَةٌ عَلَى القَواعِدِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتي أَسْلَفْنا .

والأَوْضاعُ اللُّغَوِيَّةُ لِفَواتِحِ السُّوَرِ وغَيْرِها ، كُلُّها نُقُولٌ ثابِتَةٌ مَحْمُولَةٌ عَلَى ما قَدَّمْنا مِنَ القَواعِدِ اللُّغَوِيَّةِ والبَلاغِيَّةِ الأَصِيلَةِ ، فالقَوْلُ بِأَنَّ الذِّكْرَ بِالاسْمِ المُفْرَدِ أَو المُجَرَّدِ خَطَأٌ أَو هَدَرٌ ، لَهُوَ عَيْنُ الخَطَأ وعَيْنُ الهَدَر .

مَزِيدُ بَيانٍ في القُرْآن :

١) اللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾[3] ، ويَقُولُ :

---

(١) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) في صَحِيحِهِ ، و(التِّرْمِذِيُّ) في كِتاب الفِتَنِ ، والإمامُ (أَحْمَدُ) في مُسْنَدِهِ .
(٢) مَرْقاةُ المَفاتِيحِ شَرْحُ مِشْكاةِ المَصابِيحِ لـ(مُلاَّ عَلي القارِي) .
(٣) سُورَةُ المُزَّمِّل ، الآيَة ٨ .

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[1]، والاسْمُ الجامِعُ العامُ الأشْهَرُ لِرَبِّنا عَزَّ وجَلَّ هُوَ (اللهُ) ، وإليْهِ تَعُودُ جَمِيعُ الأسْماءِ الحُسْنَى والصِّفاتُ العُلْيا .

٢) اللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[2]، والدُّعاءُ ذِكْرٌ ، والذِّكْرُ دُعاءٌ ، وكِلاهُما يَشْمَلُ تَرْدِيدَ اسْمِهِ تَعالَى مُفْرَداً مُجَرَّداً ، كَما جاءَتِ الأسْماءُ الحُسْنَى بِالنَّصِّ الصَّحِيحِ الجارِي عَلَى الألْسُنِ في كُلِّ الرِّواياتِ مُفْرَدَةً مُجَرَّدَةً .

٣) اللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[3]، أَي اذْكُرْهُ تَعالَى بِاسْمِهِ (الله) أَو اسْمِهِ (الرَّحْمَن) أَو غَيْرِهِما مِنْ أَسْمائِهِ الحُسْنَى ، وكُلُّها أَسْماءٌ مُفْرَدَةٌ مُجَرَّدَةٌ ، وحُكْمُ واحِدٍ مِنْها يَجْرِي عَلَيْها جَمِيعاً .

٤) واللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[4]، يَعْنِي قَدِّسِ اسْمَ رَبِّكَ عَنِ النَّقْصِ في الزَّمانِ والمَكانِ والإمْكانِ ، والحالِ والمَقالِ والأفْعالِ ، مُفَسَّراً بِقَوْلِهِ تَعالَى فى آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ ، والتَّبتُّلُ غايَةُ الأدَبِ وتَمامُهُ ظاهِراً وباطِناً .

٥) ذُكِرَتْ عِبارَةُ : (اسْمِ الله) في القُرْآنِ (١٩) مَرَّة ، أَكْثَرُ ما يُرادُ بِها الاسْمُ المُفْرَدُ ، عَلَى ما سَبَقَ بَيانُه .

وحَسْبُنا بِهَذا شاهِداً عَلَى صِحَّةِ ما نَقُولُ .

---

(١) سُورَةُ الإنْسان ، الآيَة ٢٥ .
(٢) سُورَةُ الأعْرافِ مِنَ الآيَة ١٨٠ .
(٣) سُورَةُ الإسْراء مِنَ الآيَة ١١٠ .
(٤) سُورَةُ الأعْلَى الآيَة ٠١

تأويل كلام السّادة الصّوفيّة

زِيادَةُ بَيانٍ عَنْ تَأْوِيلِ كَلامِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّة

لَقَدْ بَيَّنَّا سابِقاً كَيْفَ أَنَّ الزَّنادِقَةَ والحَسَدَةَ وأَعْداءَ الإِسْلامِ تَعَمَّدُوا دَسَّ نُصوصٍ تُخالِفُ الشَّرِيعَةَ وأَحْكامَها في بَعْضِ كُتُبِ الصُّوفِيَّة .

أَمَّا ما نَراهُ في بَعْضِ كُتُبِ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الأُمُورِ الَّتي يُوهِمُ ظاهِرُها أَنَّها عَلَى خِلافِ نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ وأَحْكامِها ، فَإِنَّها في حَقِيقَتِها كَلامٌ قابِلٌ لِلتَّأْوِيلِ ، تَحَدَّثُوا بِهِ مِنْ بابِ الإِشارَةِ أَوِ الكِنايَةِ أَوِ المَجازِ ، كَما نَرَى ذَلِكَ في كَثِيرٍ مِنَ الكَلامِ العَرَبِيِّ ، ونَجِدُهُ بارِزاً في كِتابِ اللهِ تَعالَى في مَواطِنَ عَدِيدَةٍ ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ (١) ، أَي حُبَّ العِجْل .

﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ (٢) ، أَي أَهْلَ القَرْيَة .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (٣) : أَي كانَ مَيِّتَ القَلْبِ ، فَأَحْياهُ اللهُ تَعالَى .

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) : أَي مِنْ ظُلُماتِ الكُفْرِ إِلى نُورِ الإِيمان .

كَما نُلاحِظُ في بَعْضِ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ الكَرِيمَةِ ما يُوهِمُ تَعارُضاً في الظَّاهِرِ ، ولَكِنَّا لَوْ تَعَمَّقْنا في فَهْمِها ، ودَقَّقْنا في مَدْلُولِها ومُتَعَلَّقِها ، لَوَجَدْناها قابِلَةً لِلتَّأْوِيلِ ، وبِذَلِكَ لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ : إِنَّ في القُرْآنِ تَعارُضاً أَو تَصادُماً :

فَمَثَلاً ؛ يَقُولُ اللهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (٥) ، ويَقُولُ في مَوْطِنٍ آخَر : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٦) :

فَقَدْ يَرَى مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ في التَّفْسِيرِ أَنَّ بَيْنَ النَّصَّيْنِ تَعارُضاً ، لأَنَّ الأَوَّلَ يَنْفِي عَنِ الرَّسُولِ ﷺ الهِدايَةَ ، والثَّاني يُثْبِتُ لَهُ ذَلِكَ ، ولَكِنَّهُ لَوْ سَأَلَ أَهْلَ

---

(١) سُورَةُ البقرة الآية ٩٣ .
(٢) سُورَةُ يوسف الآية ٨٢ .
(٣) سُورَةُ الأنعام الآية ١٢٢ .
(٤) سُورَةُ إبراهيم الآية ١ .
(٥) سُورَةُ القصص الآية ٥٦ .
(٦) سُورَةُ الشورى الآية ٥٢ .

الذِّكْرِ لأَخْبَرُوهُ أَنَّ الهِدايَةَ في الآيَةِ الأُولَى بِمَعْنَى خَلْقِ الهِدايَةِ ، وأَنَّ مَعْناها في الآيَةِ الثَّانِيَةِ الدَلالَةُ والإِرْشادُ .

فَلا تَعارُضَ بَيْنَ النَّصَّيْنِ عِنْدَ أَهْلِ الفَهْمِ .

وكَذلِكَ نَجِدُ أَنَّ بَعْضَ الأَحادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ لا يَصِحُّ حَمْلُها عَلَى ظاهِرِها بَلْ لا بُدَّ مِنْ تَأْوِيلِها عَلَى مَعانٍ تُلائِمُ ما في نُصُوصِ الشَّرْعِ ، وتُطابِقُ صَرِيحَ القُرْآنِ الكَرِيمِ ، وفي هَذا المَعْنَى يَقُولُ الإِمامُ الشَّعْراني :

(وقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الحَقِّ عَلَى وُجُوبِ تَأْوِيلِ أَحادِيثِ الصِّفاتِ ، كَحَدِيثِ : يَنْزِلُ رَبُّنا تبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَماءِ الدُّنْيا حَتَّى يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)[1]، وقَدْ بَلَغَ بِأَحَدِ الضَّالِّينَ أَنْ يَقُولَ - وكانَ عَلَى مِنْبَر - ، فَنَزَلَ دَرَجَةً مِنْهُ وقالَ لِلنَّاسِ : يَنْزِلُ رَبُّكُمْ عَنْ كُرْسِيِّهِ إِلَى السَّماءِ ؛ كَنُزولِي عَنْ مِنْبَرِي هَذا . وهَذا جَهْلٌ لَيْسَ فَوْقَهُ جَهْلٌ)[2].

ومِنْ جُمْلَةِ التَّأْوِيلِ في الحَدِيثِ تَأْوِيلُ حَدِيث : (إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)[3] قالَ العَلاَّمَةُ ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي مُؤَوِّلاً ذلِكَ : (ويَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ للهِ تَعالَى كَما هُوَ ظاهِرُ السِّياقِ ، وحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُ أَنَّ المُرادَ بِالصُّورَةِ الصِّفَةُ ، أَي أَنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى أَوْصافِهِ ؛ مِنَ العِلْمِ والقُدْرَةِ وغَيْرِهِما ، ويُؤَيِّدُ هَذا ، الحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنِ السَّيِّدَةِ (عائِشَة) رضي الله عنها :

(كانَ ﷺ خُلُقُهُ القُرْآن)[4]، وحَدِيثُ : (تَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِ اللهِ تَعالَى) .

فالمَطْلُوبُ مِمَّنْ يَنْشُدُ الكَمالَ أَنْ يُطَهِّرَ أَخْلاقَهُ ، وأَوْصافَهُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ ، لِيَحْصُلَ لَهُ نَوْعُ تَأَسٍّ بِأَخْلاقِ رَبِّهِ (أَي صِفاتِهِ الجَمالِيَّةِ) ، وإِلاَّ فَشَتَّانَ ما بَيْنَ

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخاري) و(مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهِما .
(٢) التَّصَوُّفُ الإِسْلامِي والإِمامُ الشَّعْراني ، لـ(طه عَبْدِ الباقي سُرور) .
(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبي هُرَيْرَة رضي الله عنه . (٤) هَذا الحَدِيثُ فِقْرَةٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِه .

أَوْصافِ القَدِيمِ والحادِثِ ، وبِهَذا التَّقْرِيرِ يُعْلَمُ أَنَّ هَذا الحَدِيثَ غايَةُ المَدْحِ لآدَمَ العَلَيْهِ السَّلامُ ، حَيْثُ أَوْجَدَ اللهُ فِيهِ صِفاتٍ كَصِفاتِهِ تَعالَى بِالمَعْنَى الَّذِي بَيَّنَّاهُ ، إِلَى أَنْ قالَ : والحاصِلُ أَنَّ الحَدِيثَ إِنْ أُعِيدَ الضَّمِيرُ فِيهِ لِلَّهِ تَعالَى ، وَجَبَ تَأْوِيلُهُ عَلَى ما هُوَ المَعْرُوفُ مِنْ مَذْهَبِ الخَلَفِ الَّذِي هُوَ أَحْكَمُ وأَعْلَمُ ، خِلافاً لِفِرْقَةٍ ضَلُّوا عَنِ الحَقِّ ، وارْتَكَبُوا عَظائِمَ مِنَ الْجِهَةِ والتَّجْسِيمِ اللَّذَيْنِ هُما كُفْرٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَماءِ ، أَعاذَنا اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ)[١].

قالَ العَلاَّمَةُ المَناوِي في شَرْحِهِ عَلَى الجامِعِ الصَّغِيرِ ، عِنْدَ قَوْلِهِ ﷺ :

(إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ القِيامَةِ ، يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قالَ : يا رَبِّ ، كَيْفَ أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ ؟ قالَ : أَما عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ؟ أَما عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ)[٢] ؟ .. إلخ الحَدِيث .

و(سُئِلَ بَعْضُ العارِفِينَ عَنْ تَنَزُّلاتِ الحَقِّ في إِضافَةِ الجُوعِ والظَّمأِ لِنَفْسِهِ : هَلِ الأَوْلَى إِبْقاؤُها عَلَى ما وَرَدَتْ ، أَو تَأْوِيلُها كَما أَوَّلَها الحَقُّ لِعَبْدِهِ حِينَ قالَ : كَيْفَ أُطْعِمُكَ ... ؟ فَقالَ : الواجِبُ تَأْوِيلُها لِلْعَوامِّ لِئَلاَّ يَقَعُوا في جانِبِ الحَقِّ بِارْتِكابِ مَحْظُورٍ وانْتِهاكِ حُرْمَةٍ ، وأَمَّا العارِفُ فَعَلَيْهِ الإِيمانُ بِها عَلَى حَدِّ ما يَعْلَمُهُ اللهُ ، لا عَلَى حَدِّ نِسْبَتِها لِلْخَلْقِ لاسْتِحالَتِهِ ، وحَقِيقَتُهُ تَعالَى مُخالِفَةٌ لِسائِرِ الحَقائِقِ ، فَلا يَجْتَمِعُ قَطُّ مَعَ خَلْقِهِ في جِنْسٍ ولا نَوْعٍ ولا شَخْصٍ ، ولا تَلْحَقُهُ صِفَةُ تَشْبِيهٍ ...)[٣].

فَإِذا كانَ كَلامُ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ وقَدْ أُوتِيَ الفَصاحَةَ والبَلاغَةَ ووُضُوحَ اللَّفْظِ وإِشْراقَ التَّعْبِيرِ وجَوامِعَ الكَلِمِ ؛ قَدِ احْتاجَ في بَعْضِ الأَحْيانِ إِلَى التَّأْوِيلِ بِحَمْلِ مَعانِيهِ عَلَى غَيْرِ ما يُفِيدُهُ ظاهِرُ لَفْظِهِ ، فَإِنَّ كَلامَ غَيْرِهِ مِنْ أُمَّتِهِ مِمَّنْ

---

(١) الفَتاوَى الحَدِيثِيَّةُ . لـ(ابْنِ حَجَرَ الهَيْتَمِي) .
(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ .
(٣) فَيْضُ القَدِيرِ شَرْحُ الجامِعِ الصَّغِيرِ . لـ(العَلاَّمَةِ المَناوِي) .

لَمْ يَبْلُغْ شَأْوَهُ في البَيانِ والفَصاحَةِ قابلٌ لِلتَّأْوِيلِ مُحْتَمِلٌ لِلتَّفْسِيرِ مِنْ بابٍ أَوْلَى.
إِذَنْ ... لَيْسَ بِدْعاً أَنِ اخْتارَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ الإِلْغازَ والإِشارَةَ والتَّحْجِيَةَ بِاسْتِعْمالِ المَجازِ والكِنايَةِ والاسْتِعاراتِ والرُّمُوزِ اللُّغَوِيَّةِ ، تَعْبِيراً عَنْ أَذْواقِهِمْ ومَواجِيدِهِمْ ، وأَشْواقِهِمْ .. حَتَّى اخْتُصُّوا بِذَلِكَ وعُرِفُوا بِأَهْلِ الإِشارَةِ ، لِأَسْبابٍ عِدَّةٍ مِنْها :

(أ) عَدَمُ مُساعَفَةِ الأَلْفاظِ والعِباراتِ المَأْلُوفَةِ لِتَصْوِيرِ مَدارِكِهِمْ ومَشاعِرِهِمْ ؛ فَكانَ اللُّجُوءُ إِلَى الإِشارَةِ والرَّمْزِ ضَرورَةً ، لِقُرْبِها مِنْ حُسْنِ عَرْضِ المَشاعِرِ والأَحاسِيسِ ، وتَصْوِيرِها ، والتَّعْبِيرِ عَنْها .

ثُمَّ إِنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ مُصْطَلَحاً مُسْتَحْدَثاً ، وهَذا اصْطِلاحُهُم الخاصُّ بِهِم ، فَلِمَ يُؤاخَذُونَ عَلَى أَنَّهُم اسْتَقَلُّوا بِنَوْعٍ مِنَ الاصْطِلاحِ ، ولا يُؤاخَذُ بَقِيَّةُ أَصْحابِ العُلُومِ والفُنُونِ والحِرَفِ وغَيْرِها ؟! .

(ب) ومِنْها ظُروفُ البِيئَةِ ، وفَسادُها بِالتَّسَلُّطِ والبَطْشِ ، والقَهْرِ ، والعُدْوانِ واضْطِرابِ الرَّأْيِ ، ثُمَّ الرَّغْبَةُ في إِثْباتِ الكَيانِ الذَّاتِيِّ ، والشَّخْصِيَّةِ المُسْتَقِلَّةِ لِلدَّعْوَةِ ، والحِرْصُ عَلَى عَدَمِ تَمَيُّعِ خَصائِصِها ، والتَّلْوِيحُ بِأَنَّها طَرِيقُ الخاصَّةِ في مُحاوَلَةِ لِإِنْقاذِ الأُمَّةِ مِمَّا دَهاها ، وتَقْوِيمِ ما اعْوَجَّ مِنْها عِنْدَما اسْتَشْرَى الفَسادُ ، وتَحَكَّمَ السَّوْطُ والسَّيْفُ في الرِّقابِ ، ولَمْ يَبْقَ لِلْحُرِّيَّةِ أَثَرٌ .

(ج) وخُصُوصاً بَعْدَ أَنْ قامَ أَوَّلُ تَجَمُّعٍ لِلصُّوفِيَّةِ في العَهْدِ الأَوَّلِ ، كَثَوْرَةٍ عَلَى التَّرَفِ ، والاسْتِعْجامِ ، والانْحِلالِ الَّذي غَزا البُيُوتَ والأَسْواقَ ، وحافَظَتْ عَلَيْهِ الطَّبَقَةُ (البُرْجوازِيَّة) كَما نُسَمِّيهم الآنَ ، ومِنْ ثَمَّ تَعَرَّضَ كُلُّ ناقِدٍ أَو مُنْذِرٍ (في اللهِ) إِلَى مالا يَخْطُرُ بِالبالِ مِنَ العُدْوانِ عَلَيْهِ ، والمَكْرِ بِهِ ، والتَّدْبِيرِ لَهُ والبَطْشِ بِأَعْوانِهِ ، شَأْنُ عُصُورِ الدِّكْتاتُورِيَّةِ والقَهْرِ في كُلِّ أُمَّةٍ حَتَّى اليَوْمِ .

(د) لِهَذا ولِغَيْرِهِ ، عَدَلَ الصُّوفِيَّةُ في كَثِيرٍ مِنْ أَشْعارِهِمْ وأَناشِيدِهِمْ

وأَحادِيثِهِم إِلَى الرَّمْزِ والإِشارَةِ ، واسْتِعْمالِ المَجازِ والاسْتِعارَةِ ، ورُبَّما إِلَى ما يُشْبِهُ الإِلْغازَ والتَّحْجِيَة .

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الإمامِ الشَّعَراني : مِمَّا نُقِلَ عَنِ القَوْمِ قَوْلُهُمْ : (دَخَلْنا حَضْرَةَ اللهِ ، وخَرَجْنا عَنْ حَضْرَةِ الله) ؛ لَيْسَ مُرادُهُمْ بِحَضْرَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مَكاناً مُعَيَّناً ، فَإِنَّ ذَلِكَ رُبَّما يُفْهَمُ مِنْهُ التَّحَيُّزُ لِلْحَقِّ (تَعالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً ، وإِنَّما مُرادُهُم بِالحَضْرَةِ حَيْثُ أَطْلَقُوا : شُهُودُ أَحَدِهِمْ أَنَّهُ بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَمادامَ يَشْهَدُ أَنَّهُ بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ فَهُوَ في حَضْرَتِهِ ، فَإِذا حُجِبَ خَرَجَ عَنْ حَضْرَتِهِ) .

وقَوْلُ مُحَمَّد أَبِي المَواهِبِ الشَّاذِلي ، مُؤَوِّلاً كَلامَ أَبِي يَزِيدٍ البَسْطامِي : (خُضْنا بَحْراً وَقَفَتِ الأَنْبِياءُ بِساحِلِهِ) ؛ (قُلْنا : خاضَ العارِفُونَ بَحْرَ التَّوْحِيدِ أَوَّلاً بِالدَّلِيل ؛ وبَعْدَ ذَلِكَ وَصَلوُا إِلَى مَرْتَبَةِ الشُّهُودِ والعَيانِ ، والأَنْبِياءُ عَلَيْهِم السَّلامُ وقَفُوا بِأَوَّلِ وَهْلَةَ عَلَى ساحِلِ العَيانِ ، ثُمَّ وَصَلُوا إِلَى ما لا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالعِرْفانِ ، فَكانَتْ بِدايَتُهُم عَلَيْهِم السَّلامُ نِهايَةَ العارِفِين) .

أَما مَعانِي المُصْطَلَحاتِ ، فَتُطْلَبُ مِنْ كُتُبِهِم ، كَما سَنُبَيِّنُ إِنْ شاءَ اللهُ بَعْضاً مِنْها لاحِقاً .

---

(١) لَطائِفُ المِنَن والأَخْلاق لِلشَّعراني .
(٢) قَوانِين حُكْم الإِشْراق إِلى كافَّةِ الصُّوفية فى جميع الآفاق .

أُصُولُ التَّعَرُّف
إِلَى مُصْطَلَحَاتِ التَّصَوُّف

(ومَدارُ التَّصَوُّفِ عَلَى التَّوْحِيدِ الخالِصِ الَّذي هُوَ : أَنْ تَعْلَمَ قُدْرَةَ اللهِ تَعالَى في الأَشْياءِ بِلا مِزاجٍ ، وصَنْعَتَهُ بِلا عِلاجٍ ، وعِلَّةَ كُلِّ شَيْءٍ صَنْعَهُ ولا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ ، ولَيْسَ في السَّمَواتِ العُلاَ ولا في الأَرَضِينَ السُّفْلَى مُدَبِّرٌ غَيْرَ الله ، وكُلُّ ما تُصُوِّرَ في وَهْمِكَ فاللهُ بِخِلافِ ذَلِكَ ، وذَلِكَ بِأَنْ تُنَقِّيَ القَلْبَ مِنَ الأَدْرانِ لِيَسْكُنَهُ الحَقُّ تَبارَكَ اسْمُهُ وتَعالَى قُدُسُهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ تَسَعْهُ سَمَواتُهُ ولا أَرْضُهُ ووَسِعَهُ قَلْبُ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ ، فَإِذا تَسَنَّى ذَلِكَ فَنِيَ العَبْدُ عَنْ رُؤْيَةِ السِّوَى بِما يُشاهِدُ فَلا هُوَ حالٌ ولا مَقالٌ ، وانْمَحَى المُوَحِّدُ بالواحِدِ والذَّاكِرُ بِالمَذْكُور فَما ثَمَّ إِلاَّ اللهُ ، فَإِنْ نَطَقَ فَبِهِ وإِنْ سَكَنَ فَبِهِ ، فَالأَمْرُ إِثْباتٌ في صُورَةِ مَحْوٍ)

ويُشِيرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بنُ عِيسَى إِلَى هَذهِ الحَقِيقَةِ فَيَقُولُ :

(طَرِيقَتُنا هَذهِ لا تَدْخُلُ في قَلْبٍ قاسٍ ، ولا في جِسْمٍ عاصٍ ، ولا في عَقْلٍ جاهِلٍ ، ولا تُدْرَكُ بِالقِياسِ ، ولا هِيَ خارِجَةٌ عَنِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، بَلْ هِيَ حِكْمَةٌ عِلْمِيَّةٌ ومَوْهِبَةٌ لَدُنِيَّةٌ عَلَى السُّنَّةِ والنِّيَّةِ ، مُساقَةٌ عَلَى أَثَرِ الأَنْبِياءِ والأَوْلِياءِ ، مَعَ دَوامِ ظاهِرِ صاحِبِها عَلَى الاسْتِقامَةِ ، فَمَنْ عَمِلَ عَلَى هَذا فَهُوَ مِنْ حِزْبِنا ومَحْسُوبٌ عَلَيْنا ومَنْسُوبٌ إِلَيْنا ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ مَشْهُوراً ظاهِراً أَمْرُهُ عَلَى هَذا فَنَحْنُ بُراءٌ مِنْهُ وهُوَ بَرِيءٌ مِنَّا) .

أُصُولُ التَّعَرُّف

إلى مُصطَلحاتِ التصوّف

لِكُلِّ طائِفَةٍ مِنَ العُلَماءِ أَلْفاظٌ يَسْتَعْمِلُونَها ، وقَدِ انْفَرَدوا بِها عَمَّنْ سِواهُم ، وتَعارَفُوا عَلَيْها لأَغْراضٍ لَهُم فيها ، مِنْ تَقْرِيبِ الفَهْمِ عَلَى المُتَخاطِبِينَ بِها ، أَو لِلْوقُوفِ عَلَى مَعانِيها بِإِطْلاقِها ، وهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ أَلْفاظاً فِيما بَيْنَهُم ، قَصَدوا بِها الكَشْفَ عَنْ مَعانِيهِمْ لأَنْفُسِهِم ، والسَّتْرَ عَلَى مَنْ بايَنَهُم في طَرِيقَتِهِم ، لِتَكُونَ مَعانِي أَلْفاظِهِم مُسْتَبْهَمَةً عَلَى الأَجانِبِ ، غَيْرَةً مِنْهُم عَلَى أَسْرارِهِم أَنْ تَشِيعَ في غَيْرِ أَهْلِها ، إِذْ لَيْسَتْ حَقائِقُهُم مَجْمُوعَةً بِنَوْعٍ مِنَ التَّكَلُّفِ ، أَو مَجْلُوبَةً بِضَرْبٍ مِنَ التَّصَرُّفِ ، بَلْ هِيَ مَعانٍ أَوْدَعَها اللهُ تَعالَى فِي قُلُوبِ قَوْمٍ ، واسْتَخْلَصَ لِحَقائِقِها أَسْرارَ قَوْمٍ .

ومِنْ ناحِيَةٍ أُخْرَى ، فَإِنَّ لِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الفُنُونِ أَو عِلْمٍ مِنَ العُلُومِ كالفِقْهِ والحَدِيثِ والمَنْطِقِ والنَّحْوِ والهَنْدَسَةِ والجَبْرِ والفَلْسَفَةِ اصْطِلاحاتٌ خاصَّةٌ بِهِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ أَرْبابُ ذَلِكَ العِلْمِ ، فَهَلْ يَفْهَمُ الطَّبِيبُ اصْطِلاحَ المُهَنْدِسِ ؟ ، أَو هلَ يَفْهَمُ المُهَنْدِسُ اصْطِلاحَ الطَّبِيبِ حِينَ يُعَبِّرُ كُلٌّ مِنْهُما عَنْ آلاتِهِ ومُسَمَّياتِ فَنِّهِ ؟ .

ومامِنْ شَكٍّ أَنَّ مَنْ يقْرأُ كُتُبَ عِلْمٍ مِنَ العُلُومِ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ اصْطِلاحاتِهِ ، أَو يَطَّلِعَ عَلَى رُموزِهِ وإِشاراتِهِ ، فَإِنَّهُ كَثِيراً ما يُؤَوِّلُ الكَلامَ تَأْوِيلاتٍ شَتَّى مُغايِرَةً لِما يَقْصِدُهُ العُلَماءُ ، بَلْ تَكُونُ أَحْياناً مُناقِضَةً لِما يُرِيدُهُ الكاتِبُونَ ، فيَتِيهَ ويَضِلَّ .

ولْنَضْرِبْ لَكَ مَثَلاً عَلَى هامِشٍ مِنْ هَوامِشِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِتَسْتَبِينَ أَنَّهُ مِنَ المُسَلَّماتِ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ عِلْمٍ ما يُمَيِّزُهُ مِن الاصْطِلاحاتِ ، وهاكَ البَيان :

يُقالُ لِمَنْ قالَ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : بَسْمَلَ ، ونَطقَ بِالبَسْمَلَة .

ومِثْلُهُ (حَوْقَلَة) : والمُرادُ بِها قَوْلُ : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ العَلَيِّ العَظِيم .

وكَذَلِكَ (هَلَّلَ) : لِمَنْ قالَ : (لا إلَهَ إلاَّ الله) .

و(سَبْحَلَ) : لِمَنْ قالَ : (سُبْحانَ الله) .

و(حَمْدَلَ) : إذا قالَ : (الحَمْدُ لله) .

و(حَيْصَلَ) : إذا قالَ : (حَيِّ عَلَى الصَّلاة) .

و(جَعْفَلَ) : إذا قالَ : (جَعَلَنِي اللهُ فِداكَ) .

و(طَبْقَلَ) : إذا قالَ : (أَطالَ اللهُ بَقاءَكَ) .

و(دَمْعَزَ) : إذا قالَ : (أَدامَ اللهُ عِزَّكَ) .

وهَذا هُوَ المَعْروفُ بِالنَّحْتِ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّة .

ولِلصُّوفِيَّةِ اصْطِلاحاتُهُم الَّتي قامَتْ بَعْضَ الشَيْءِ مَقامَ العِبارَةِ في تَصْوِيرِ مُدْرَكاتِهِم ومَواجِيدِهِم ، حِينَ عَجَزَتِ اللُّغَةُ عَنْ ذَلِكَ ، فَلا بُدَّ لِمَنْ يُرِيدُ الفَهْمَ عَنْهُم مِنْ صُحْبَتِهِم حَتَّى تَتَّضِحَ لَهُ عِباراتُهُم ، ويَتَعَرَّفَ عَلَى إشاراتِهِم ومُصْطَلَحاتِهِم ، فَيَسْتَبِينَ لَهُ أَنَّهُم لَمْ يَخْرُجُوا عَنِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، ولَم يَنْحَرِفُوا عَنِ الشَّرِيعَةِ الغَرَّاءِ ، وأَنَّهُم هُم الفاهِمُونَ لِرُوحِها ، الواقِفُونَ عَلَى حَقِيقَتِها ، والحارِسُونَ لِتُراثِها .

قالَ الشَّيْخُ (أَحْمَدُ بنُ زرُّوق) في قَواعِدِهِ : (في كُلِّ عِلْمٍ ما يَخُصُّ وما يَعُمُّ ، فَلَيْسَ التَّصَوُّفُ بِأَوْلَى مِنْ غَيْرِهِ في عُمُومِهِ وخُصُوصِهِ ، بَلْ يَلْزَمُ بَذْلُ أَحْكامِ اللهِ المُتَعَلِّقَةِ بِالمُعامَلاتِ مِنْ كُلٍّ عُمُوماً ، وما وَراءَ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ قابِلِهِ لا قَدْرَ قائِلِهِ ، لِحَدِيثِ : (حَدِّثُوا النَّاسَ بِما يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ)[١]

(١) أخرجه البُخاري عَنِ الإمام (عَلِيٍّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه .

وقِيلَ لِلْجُنَيْد : يَسْأَلُكَ الرَّجُلانِ عَنِ المَسْأَلَةِ الواحِدَةِ فَتُجِيبُ هَذا بِخِلافِ ما تُجِيبُ هَذا ؟ فَقالَ : الجَوابُ عَلَى قَدْرِ السَّائِل ، قالَ ﷺ :
(أُمِرْنا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِم) [١][٢] .

ولِهَذا ذَكَرَ الشَّيْخُ (مُحْيِى الدِّين بنُ عَرَبي) في البابِ الرَّابِعِ والخَمْسِينَ مِنَ الفُتُوحاتِ ما نَصُّهُ : (اعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ اللهِ لَمْ يَضَعُوا الإِشاراتِ الَّتي اصْطَلَحُوا عَلَيْها فِيما بَيْنَهُم لأَنْفُسِهِم ، فَإِنَّهُم يَعْلَمُونَ الحَقَّ الصَّرِيحَ في ذَلِكَ ، وإِنَّما وَضَعُوها مَنْعاً لِلدَّخِيلِ بَيْنَهُم ، حَتَّى لا يَعْرِفَ ما هُمْ فيهِ ، شَفَقَةً عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ شَيْئاً لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ فَيُنْكِرَهُ عَلَى أَهْلِ اللهِ ، فَيُعاقَبَ بِحِرْمانِهِ ، فَلا يَنالُهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَداً ، قالَ : ومِنْ أَعْجَبِ الأَشْياءِ في هَذا الطَّرِيقِ ، بَلْ لا يُوجَدُ إِلاَّ فِيها ، أَنَّهُ مامِنْ طائِفَةٍ تَحْمِلُ عِلْماً مِنَ المَنْطِقِيِّينَ والنُّحاةِ وأَهْلِ الهَنْدَسَةِ والحِسابِ والمُتَكَلِّمِينَ والفَلاسِفَةِ ، إِلاَّ ولَهُم اصْطِلاحٌ لا يَعْلَمُهُ الدَّخِيلُ فِيهم إِلاَّ بِتَوْقِيفٍ مِنْهُم ، لا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ .

إِلاَّ أَهْلُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ خاصَّةً ، فَإِنَّ المُرِيدَ الصَّادِقَ إِذا دَخَلَ طَرِيقَهُم ، وما عِنْدَهُ خَبَرٌ بِما اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ ، وجَلَسَ مَعَهُم ؟ ، وسَمِعَ مِنْهُم ما يَتَكَلَّمُونَ بِهِ مِنَ الإِشاراتِ ، فَهِمَ جَمِيعَ ما تَكَلَّمُوا بِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ الواضِعُ لِذَلِكَ الاصْطِلاحِ ويُشارِكُهُم في الخَوْضِ في ذَلِكَ العِلْم .

ولا يَسْتَغْرِبُ هُوَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ يَجِدُ عِلْمَ ذَلِكَ ضَرُورِيّاً لا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ ، فَكَأَنَّهُ مازالَ يَعْلَمُهُ ، ولا يَدْرِي كَيْفَ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ .

هَذا شَأْنُ المُرِيدِ الصَّادِقِ ، وأَمَّا الكاذِبُ فَلا يَعْرِفُ ما يَسْمَعُ ، ولا يَدْرِي ما يَقْرَأُ ، ولَمْ يَزَلْ عُلَماءُ الظَّاهِرِ في كُلِّ عَصْرٍ يَتَوقَّفُونَ في فَهْمِ كَلامِ القَوْمِ ، وناهِيكَ بِالإِمامِ (أَحْمَدَ بنِ سَرِيج) ، حَضَرَ يَوْماً مَجْلِسَ (الجُنَيْد) ، فَقِيلَ

---

(١) أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمي عن (ابْن عبَّاسٍ) ﷺ . (٢) قواعِدُ التَّصَوُّف ، د.(أَحمد بن زَرُّوق) .

لَـهُ : مـا فَـهِـمْـتَ مِنْ كلامِهِ ؟ فَقالَ لا أَدْرِي ما يَقُولُ ؛ ولَكِنْ أَجِدُ لِكَلامِهِ صَوْلَةً في القَلْبِ ظاهِرَةً ، تَدُلُّ عَلَى عَمَلٍ في الباطِنِ وإِخْلاصٍ في الضَّمِيرِ ، ولَيْسَ كلامُهُ كَلامَ مُبْطِلٍ .

ثُمَّ إِنَّ القَوْمَ لا يَتَكَلَّمُونَ بِالإِشارَةِ إِلاَّ عِنْدَ حُضُورِ مَنْ لَيْسَ مِنْهُم ، أَو في تَأْلِيفِهِم لا غَيْر .

ثُمَّ قالَ : ولا يَخْفَى أَنَّ أَصْلَ الإِنْكارِ مِنَ الأَعْداءِ المُبْطِلِينَ إِنَّما يَنْشَأُ مِنَ الحَسَدِ ، ولَوْ أَنَّ أُولَئِكَ المُنْكِرِينَ تَرَكُوا الحَسَدَ ، وسَلَكُوا طَرِيقَ أَهْلِ اللهِ ، لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُم إِنْكارٌ ولا حَسَدٌ ، وازْدادوا عِلْماً إِلَى عِلْمِهِم ، ولَكِنْ هَكَذا كانَ الأَمْرُ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم)[١].

ومُرادُنا بِشَرْحِ هَذِهِ الأَلْفاظِ تَسْهِيلُ الفَهْمِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ الوُقُوفَ عَلَى مَعانِيهِم مِنْ سالِكي طَرِيقَتِهِم ، ومُبْتَغِي صُحْبَتِهِم ، ومُغْبِطِي فَضْلِ اللهِ عَلَيْهِم :

الوَلِيُّ

يُطْلِقُ الصُّوفِيَّةُ اسْمَ (الوَلِيِّ) عَلَى الرَّجُلِ الَّذي وَصَلَ إِلَى مَقامِ الفَناءِ عَنْ ذاتِهِ وإِرادَتِهِ وبَقِيَ بِالإِرادَةِ الإِلَهِيَّةِ ، ومِنْ هُنا فالوِلايَةُ عِبارَةٌ عَنْ فَناءِ العَبْدِ في الحَقِّ والبَقاءِ بِهِ ، ولا نِهايَةَ لِكَمالِ الوِلايَةِ ، فَمَراتِبُ الوِلايَةِ غَيْرُ مُتَناهِيَة[٢].

(الفَناءُ : هُوَ تَخَلِّي العَبْدِ عَنِ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ ، والبَقاءُ : هُوَ تَحَلِّي العَبْدِ بِالأَوْصافِ المَحْمُودَة) .

فالوَلِيُّ لَهُ عِلْمٌ وتَجْرِبَةٌ رُوحِيَّةٌ يَرْقَى فِيها لِلْوُصُولِ إِلَى الحَقِّ بِنَفْسِهِ مُتَّصِفاً بِالأَوْصافِ الإِلَهِيَّةِ ومُتَخَلِّقاً بِالأَخْلاقِ الرَّبانِيَّةِ ، فَهُوَ الفانِي عَنْ وجُودِهِ ، الباقِي بِالحَقِّ[٣].

---

(١) اليواقيتُ والجواهِرُ ، لـ(الشَّعراني) . (٢) السَّيِّد دحْلان (تقريبُ الوصول) .
(٣) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .

العارِفُ

المَعْرِفَةُ في اللُّغَةِ إنَّما تَعْنِي : العِلْمَ ؛ أي مَعْرِفَةَ المَعْلُومِ عَلى ما هُوَ عَلَيْهِ ، فَكُلُّ عِلْمٍ مَعْرِفَةٌ ، وكُلُّ مَعْرِفَةٍ عِلْمٌ ، وكُلُّ عالِمٍ بِاللهِ عارِفٌ ، وكُلُّ عارِفٍ بِاللهِ عالِمٌ[1].

كَما قِيلَ في الفَرْقِ بَيْنَ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ : العِلْمُ دَلِيلٌ إلَى اللهِ ، والمَعْرِفَةُ دالَّةٌ عَلَى اللهِ ، فَبِالعِلْمِ تُنالُ المَعْلُوماتُ ، وبِالمَعْرِفَةِ تُنالُ المَعْرُوفاتُ ، والعِلْمُ بِالتَّعْلِيمِ ، والمَعْرِفَةُ بِالتَّعَرُّفِ ، فالمَعْرِفَةُ تَقَعُ بِتَعْرِيفِ الحَقِّ ، والعِلْمُ يُدْرَكُ بِتَعْرِيفِ الخَلْقِ[2].

وقِيلَ : حَقِيقَةُ المَعْرِفَةِ مُشاهَدَةُ الحَقِّ بِلا واسِطَةٍ ولا كَيْفٍ ولا شُبْهَةٍ[3].

وسُئِلَ بَعْضُ العارِفِين : مَتَى يَعْرِفُ العَبْدُ أَنَّهُ عَلَى تَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ بِاللهِ ؟

فَأجابَ : إذا لَمْ يَجِدْ في قَلْبِهِ مَكاناً لِغَيْرِ رَبِّه .

فالعارِفُونَ في الدُّنيا يَنْسَونَ نَعِيمَ الدُّنْيا لِما يَجِدونَهُ في قُلوبِهِم وأَرْواحِهِم مِنَ التَّلَذُّذِ بِمُشاهَدَةِ الحَقِّ سُبْحانَهُ وتَعالَى[4].

الرِّجال

وَرَدَ لَفْظُ (رِجال) في القُرْآنِ الكَريمِ في قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾[5].

ولَقَدْ قِيلَ ، النَّاسُ أَرْبَعَةُ رِجال :

الرَّجُلُ الأَوَّلُ : رَجُلٌ لا لِسانَ لَهُ ولا قَلْبَ وهُوَ العاصِي .

---

(١) الكَهْفُ والرَّقِيمُ لـ(الجيلي) . (٢) أبو نُعَيْم الأَصْبَهاني (حِلْيَةُ الأَوْلِياء) .
(٣) الغَزالي (رَوْضَةُ الطَّالبين وعُمْدَةُ السَّالِكينَ) .
(٤) صالِحُ الجَعْفَري (المَعانى الرَّقيقَةُ على الدُّرَرِ الدَّقيقَةِ المُسْتَخْرجَةِ مِنْ بَحْرِ الحَقيقة) .
(٥) سُورَةُ الأحْزاب الآية ٢٣ .

الرَّجُلُ الثَّانِي : رَجُلٌ لَهُ لِسانٌ بِلا قَلْبٍ فَيَنْطِقُ بِالحِكْمَةِ ولا يَعْمَلُ بِها .

الرَّجُلُ الثَّالِثُ : رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ بِلا لِسانٍ ، وهُوَ مُؤْمِنٌ سَتَرَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ ، وأَسْبَلَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، وبَصَّرَهُ بِعُيوبِ نَفْسِهِ ، ونَوَّرَ قَلْبَهُ ، وعَرَّفَهُ غَوائِلَ مُخالَطَةِ النَّاس .

الرَّجُلُ الرَّابِعُ : المَدْعُوُّ في المَلَكُوتِ بِالعَظِيمِ ، وهُوَ العالِمُ بِاللهِ عَزَّ وجَلَّ وآياتِهِ ، اسْتَوْدَعَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ قَلْبَهُ غَرائِبَ عِلْمِهِ ، وأَطْلَعَهُ عَلَى أَسْرارٍ طَواها عَنْ غَيْرِهِ .

والمُعْتَمَدُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ : الثَّالِثُ والرَّابِعُ .

السَّالِك

السَّالِكُ : هُوَ السَّائِرُ إِلَى اللهِ تَعالَى ، المُتَوَسِّطُ بَيْنَ المُرِيدِ والمُنْتَهِي مادامَ في السَّيْر[1].

والسَّالِكُ الَّذي تَنْصَرِفُ هِمَّتُهُ لِلهِ ، فَيَزِيدُ انْفِرادُ قَلْبِهِ بِمَوْلاهُ ، فَيَعْمَلُ عَلَى تَصْفِيَةِ قَلْبِهِ مِنَ العُيُوبِ (الَّتي تَحْجُبُهُ عَنِ اللهِ ، وتَصْرِفُهُ عَنْ بابِ مَوْلاهُ) ، ويَتَأَدَّبُ بِآدابِ العُبُودِيَّةِ ، حَتَّى يَتَأَهَّلَ بِذَلِكَ لِحَضْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وهِيَ أَخْلاقُهُ ﷺ ، وبِالتَّخَلُّقِ بِها امْتازَ الصُّوفِيَّةُ عَنْ غَيْرِهِم ، كَما قِيلَ :

تَبِعَهُ العالِمُ في الأَقْوالِ ✽ والعابِدُ النَّاسِكُ في الأَفْعالِ
وفِيهِما الصُّوفِيُّ في السِّباقِ ✽ لَكِنَّهُ قَدْ زادَ بِالأَخْلاقِ

وما أَحْسَنَ قَوْلَ الشَّيْخِ زَرُّوق :

السَّالِكُ : هُوَ المُتَوَجِّهُ لِطَلَبِ الحَقِّ عَلَى سَبِيلِ التَّدْرِيبِ والتَّهْذِيب .

كَما قِيلَ ، السَّالِكُ : هُوَ الَّذي يَشْهَدُ الأَثَرَ فَإِنْ كانَ يَشْهَدُ في نَفْسِهِ فَهُوَ سالِكٌ

---

(١) الكاشاني (إصْطلاحات الصُّوفيَّة) .

فَقَط وهُوَ في حالَةِ السَّيْرِ ، وإنْ كانَ يَشْهَدُهُ بِاللهِ فَهُوَ سالِكٌ مَجْذوب .

المَجْذُوب

المَجْذوبُ : هُوَ مَنِ اصْطَفاهُ الحَقُّ سُبْحانَهُ وتَعالَى واخْتَصَّهُ بِحَضْرَةِ أُنْسِهِ ، وطَهَّرَهُ بِماءِ قُدُسِهِ ، فَحازَ جَمِيعَ المَقاماتِ ، بِلا كُلْفَةِ المَكاسِبِ والمَتاعِبِ[١] .

فالمَجْذُوبُ هُوَ مَنْ يَجْذِبُهُ اللهُ إِلَيْهِ حَيْثُ يَتَجَلَّى لَهُ مُباشَرَةً ويَمْنَحُهُ أَعْلَى دَرَجاتِ المَعْرِفَةِ اليَقِينِيَّةِ ، فَيَفْنَى المَجْذوبُ عَنْ نَفْسِهِ ولا يَرَى في تِلْكَ الحالَةِ سِوَى اللهِ تَعالَى ، فَإِذا رُدَّ إِلَى البَقاءِ تَوارَدَتْ عَلَيْهِ أَنْوارُ المَعارِفِ الأُخْرَى[٢] .

ولَيْسَ مَعْنَى الجَذْبِ خاصّاً بِفَقْدِ الحِسِّ والتَّمْيِيزِ ، كَما يَفْهَمُهُ كَثِيرٌ مِمَّنْ لا عِلْمَ عِنْدَهُ ؛ بَلْ مَرْجِعُهُ إِلَى ما ذُكِرَ مِنَ الاصْطِفاءِ والاجْتِباءِ ، ومُفاجَأَةِ الحَقِّ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّلٍ ولا تَكَسُّبٍ ؛ بَلْ هُوَ مَوْهِبَةٌ مَحْضَةٌ فَيُخْطَفُ ويُطافُ بِهِ عَلَى المَقاماتِ كَما وقَعَ لِكَثِيرِينَ ، وكَما هِيَ طَرِيقَةُ النُّبُوءَةِ والوِلايَةِ الكُبْرَى[٣] .

واخْتُلِفَ أَيُّهُما أَكْمَلُ : السَّالِكُ أَمِ المَجْذوب ؟

فَذَهَبَ الأَكْثَرُ إِلَى أَنَّ مَنْ تَقَدَّمَ جَذْبُهُ عَلَى سُلُوكِهِ بِأَنْ رَجَعَ إِلَى سُلُوكِ المَقاماتِ أَفْضَلُ وأَعْلَمُ ؛ وعَلَيْهِ صاحِبُ (العَوارِفِ) ، وصاحِبُ (بِدايَة السُّلُوك) حَيْثُ قالَ :

وأَفْضَلُ الرِّجالِ دُونَ رَيْبِ * مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ بَعْدَ الجَذْبِ

وذَهَبَ جَمْعٌ مِنَ المُحَقِّقِينَ إِلَى أَنَّ مَنْ تَقَدَّمَ سُلُوكُهُ عَلَى جَذْبِهِ ، بِأَنْ تَرَقَّى مِنْ سُلُوكِهِ إِلَى الجَذْبِ ، أَعْلَى وأَكْمَلُ في التَّرْبِيَةِ ، وعَلَيْهِ قَوْلُ بَعْضِهِم :

والجَذْبُ إِنْ جاءَ مِنْ بَعْدِ السُّلُوكِ لَهُ * فَضْلٌ عَنِ الجَذْبِ مِمَّا السَّعْيُ تالِيهِ

---

(١) الحَكِيمُ التِّرْمِذى (خَتْمُ الأَولِياء) . (٢) ابْنُ الصَّباغ (دُرَّةُ الأَسْرار وتُحْفَةُ الأَبْرار) .
(٣) أبو زَيْد الفاسي (ابْتِهاجُ القُلُوب) .

الحال

الحالُ عِنْدَ القَوْمِ : مَعْنًى يَرِدُ عَلَى القَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ ولا اجْتِلابٍ ولا اكْتِسابٍ ، مِنْ طَرَبٍ أَو حُزْنٍ ، أَو بَسْطٍ أَو قَبْضٍ ، أَو شَوْقٍ أَو انْزِعاجٍ ، أَو هَيْبَةٍ أَو اهْتِياجٍ ، فالأَحْوالُ مَواهِبُ ، والمَقاماتُ مَكاسِبُ ، والأَحْوالُ تَأْتِي مِنْ مَحْضِ الجُودِ ، والمَقاماتُ تَحْصُلُ بِبَذْلِ المَجْهُودِ ، وصاحِبُ المَقامِ مُمَكَّنٌ في مَقامِهِ ، وصاحِبُ الحالِ مُتَرَقٍّ عَنْ حالِهِ .

وقالوا : الأَحْوالُ كاسْمِها ، يَعْنِي أَنَّها كَما تَحِلُّ بِالقَلْبِ تَزُولُ ، وأَنْشَدوا :

لَوْ لَمْ تَحِلَّ ما سُمِّيَتْ حالاً * وكُلُّ ما حالَ فَقَدْ زالا

المَقام

يُطْلَقُ المَقامُ اصْطِلاحاً : ما يَتَحَقَّقُ بِهِ العَبْدُ مِنَ الآدابِ مِمَّا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِنَوْعِ تَصَرُّفٍ ، يَتَحَقَّقُ بِهِ بِضَرْبِ تَطَلُّبٍ ، ومُقاساةِ تَكَلُّف .

أَمَّا عِنْدَ السَّالِكِينَ : فالمَقامُ هُوَ الوَصْفُ الَّذي يَثْبُتُ عَلَى العَبْدِ ويُقِيمُ فيهِ ، فَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ سُمِّيَ حالاً ، وهُوَ مَقامُ العَبْدِ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعالَى فِيما يُقامُ فِيهِ مِنَ العِباداتِ والمُجاهَداتِ والرِّياضاتِ والانْقِطاعِ لِلَّه .

ولِذَلِكَ يُقالُ : ما سُمِّيَ المَقامُ مَقاماً إِلاَّ لإِقامَةِ صاحِبِهِ فِيه .

الوَقْت

الوَقْتُ : هُوَ لَحْظَةٌ مِنَ الزَّمَنِ بَيْنَ الماضِي والمُسْتَقْبَلِ ، ويَكُونُ العَبْدُ فِيها فارِغاً مِنَ الماضِي والمُسْتَقْبَلِ بِأَنْ يَتَّصِلَ بِقَلْبِهِ وارِدٌ مِنَ الحَقِّ ويُجْمَعُ فيهِ سِرُّهُ بِحَيْثُ لا يَتَذَكَّرُ الماضِيَ ولا المُسْتَقْبَلَ في كَشْفِهِ ، ولا يَدْخُلُ الوَقْتُ تَحْتَ اكْتِسابِ العَبْدِ ولا يَحْصُلُ بِالتَّكَلُّفِ ، والإِنْسانُ لَيْسَ حُرّاً في جَلْبِهِ ، كَما أَنَّهُ

---

(١) الاهْتِياج : الهَيَجانُ أو الانْفِعالُ ، مِن اهْتاجَ بمَعْنَى : ثارَ .

لَيْسَ حُرّاً في دَفْعِه .

وقَدْ قالُوا : الوَقْتُ سَيْفٌ قاطِعٌ ، لأَنَّهُ يَقْطَعُ جُذورَ المُسْتَقْبَلِ والماضِي ، ويَمْحُو مِنَ القَلْبِ هَمَّ الأَمْسِ والغَدِ[1].

ويَقُولُونَ : (الصُّوفي ابْنُ وَقْتِه) ، يُرِيدونَ بِذَلِكَ : أَنَّهُ مُشْتَغِلٌ بِما هُوَ أَوْلَى بِهِ في الحالِ ، قائِمٌ بِما هُوَ مُطالَبٌ بِهِ في الحِينِ ، وقِيلَ : الفَقِيرُ لا يَهُمُّهُ ماضِي وَقْتِهِ وآتِيه ، بَلْ يَهُمُّهُ الَّذي هُوَ فِيه .

وقِيلَ : ومَنْ ساعَدَهُ الوَقْتُ فالوَقْتُ لَهُ وَقْت ، ومَنْ ناكَدَهُ الوَقْتُ فالوَقْتُ عَلَيْهِ مَقْت .

الفَقِير

الفقيرُ : هُوَ المُتَيَقِّنُ فَقْرُهُ إِلَى الله ، وهُوَ الغَنِيُّ حَقِيقَةً بالله .

قالَ تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، وقالَ تعالَى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾[3]، لَقَدْ بَيَّنَ الحَقُّ سُبْحانَهُ وتَعالَى أَنَّ فَقْرَ العِبادِ إِلَيْهِ أَمْرٌ ذاتِيٌّ لَهُم لا يَنْفَكُّ عَنْهُم ، كَما أَنَّ كَوْنَهُ سُبْحانَهُ غَنِيّاً حَمِيداً ذاتِيٌّ لَهُ فَغِناهُ وحَمْدُهُ ثابِتٌ لِذاتِهِ لا لأَمْرٍ أَوْجَبَهُ ، وفَقْرُ مَنْ سِواهُ إِلَيْهِ لا لأَمْرٍ أَوْجَبَهُ ، فَلا يُعَلَّلُ هَذا الفَقْرُ بِحُدوثٍ ولا إِمْكانٍ ، بَلْ هُوَ ذاتِيٌّ لِلْفَقِير .

ومَقامُ الفَقْرِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ شِعارُ الأَوْلِياء ، لأَنَّ الغِنَى أَو المُلْكَ قَدْ يَكُونا حِجاباً يَحُولُ بَيْنَ المُرِيدِ وبَيْنَ اشْتِغالِهِ بِاللهِ ، (ولَيْسَ الفَقْرُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ أَن لا يَمْلُكَ المُرِيدُ شَيْئاً وإِنَّما الفَقْرُ أَلاَّ يَمْلُكَهُ شَيْءٌ) ، فَيَعِيشُ الصُّوفِيُّ في غِنَىً وهُوَ في فَقْرٍ ، حَيْثُ لا يَطْلُبُ بِظاهِرِهِ ولا بِباطِنِهِ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً ، ولا يَشْكُو ولا يُظْهِرُ أَثَرَ الفاقَةِ ، وإِنَّما يُظْهِرُ الغِنَى في غَيْرِ تَصَنُّعٍ)[4].

---

(١) قاسم غني (تاريخُ التَّصَوُّفِ الإسلامِي) .
(٢) سُورَةُ فاطِرِ مِنَ الآية ١٥ .
(٣) سُورَةُ مُحَمَّد مِنَ الآية ٣٨ .
(٤) السَّراجُ الطُّوسِي (اللُّمَع) .

المَحَبَّة

المَحَبَّةُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ : حالٌ يَجِدُهُ المَرْءُ في قَلْبِهِ لا يَسْتَطِيعُ التَّعْبِيرَ أَو الإِفْصاحَ عَنْهُ ، أَو نَقْلَهُ إِلَى الغَيْرِ ، وقَدْ قِيلَ إِنَّها : المَيْلُ الدَّائِمُ بِالقَلْبِ الهائِمِ ، وقِيلَ إِنَّها : مُوافَقَةُ المَحْبُوبِ في المَشْهَدِ والغَيْبِ .

وقَدْ قِيلَ : المَحَبَّةُ مَيْلُكَ إِلَى الشَّىْءِ بِكُلِّيَّتِكَ ، ثُمَّ إِيثارُكَ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ ورُوحِكَ ومالِكَ ، ثُمَّ مُوافَقَتُكَ لَهُ سِرّاً وجَهْراً ، ثُمَّ عِلْمُكَ بِتَقْصِيرِكَ في حُبِّهِ[1] .

والحُبُّ في مَنْطِقِ الصُّوفِيَّةِ أَسْمَى العِباداتِ وأَزْكاها ، ومِعْراجُ المَعْرِفَةِ ، وبُراقُ القُرْبِ .

يَقُولُ فَرِيدُ الدِّينِ العَطَّار : (ما لَمْ أَتَّجِهْ بِقلْبِي إِلَيْكَ أَعُدُّ صَلاتِي غَيْرَ جَدِيرَةٍ بِأَنْ تُعَدَّ صَلاة)[2] .

الشَّوْق

الشَّوْقُ : حالٌ شَرِيفٌ ، ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ في دُعائِهِ : (أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيمِ والشَّوْقِ إِلَى لِقائِك)[3] .

ويَقُولُ أَحَدُ الصُّوفِيَّةِ مُتَحَدِّثاً عَنِ الشَّوْقِ هُوَ نارُ اللهِ تَعالَى أَشْعَلَها في قُلُوبِ أَوْلِيائِهِ حَتَّى يُحْرِقَ بِها ما في قُلُوبِهِم مِنَ الخَواطِرِ والإِراداتِ والعَوارِضِ والحاجات[4] .

وسُئِلَ بَعْضُهُم عَنِ الشَّوْقِ ؟ فَقالَ : هَيَمانُ القَلْبِ عِنْدَ ذِكْرِ المَحْبُوب .

ومِنْ هُنا قالوا : الشَّوْقُ ثَمَرَةُ المَحَبَّةِ ، فَمَنْ أَحَبَّ اللهَ اشْتاقَ إِلَى لِقائِه .

الإِرادَة

الإِرادَةُ في اللُّغَةِ : تَعْنِي القَصْدَ ، ويُفَرَّقُ بَيْنَها وبَيْنَ الاخْتِيارِ ، بِأَنَّ المُخْتارَ

---

(١) القُشَيْري (الرِّسالة) .
(٢) طه عَبْدالباقي سُرور (الحَلاَّج) .
(٣) أَخْرَجَهُ (النَّسائي) و (الحاكِمُ) عَنْ عمارَة .
(٤) السَّراجُ الطُّوسِي (اللُّمَع) .

يُلاحِظُ الطَّرَفَيْنِ ويَمِيلُ لِأَحَدِهِما ، أَمَّا المُرِيدُ فَيُلاحِظُ الطَّرَفَ الَّذي يُرِيدُهُ.
والإِرادَةُ في عُرْفِ الصُّوفِيَّةِ : تُطْلَقُ عَلَى مَنْ لا إِرادَةَ لَهُ ؛ أَي لا اخْتِيارَ لَهُ في نَفْسِهِ ولا تَمْيِيزَ لِمُرادِهِ وأَنَّها تَجْرِي لِمُرادِ الحَقِّ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، وهِيَ تُطْلَقُ عَلَى المُرِيدِ الَّذي يَتَمَنَّى قُرْبَ اللهِ ، وإِرادَةَ اللهِ ، وحَقَّ اللهِ ، أَمَّا نَفْسُهُ فَلا يَرَى لَها إِرادَةً ، ولَقَدْ أَوْحَى اللهُ تَعالَى إِلَى سَيِّدِنا داود عليه السلام ، فَقالَ :
(يا داوُدُ : تُرِيدُ وأُرِيدُ ، ولا يَكُونُ إِلاَّ ما أُرِيدُ ، فَإِنْ سَلَّمْتَ لِي ما أُرِيدُ أَتَيْتُكَ بِما تُرِيدُ ، وإِنْ لَمْ تُسَلِّمْ لِي ما أُرِيدُ أَتْعَبْتُكَ فِيما تُرِيدُ ، ولا يَكُونُ إِلاَّ ما أُرِيدُ)[١]

المُريد

المُرِيدُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ : هُوَ الَّذي انْقَطَعَ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَنْ نَظَرٍ واسْتِبْصارٍ ، وتَجَرَّدَ عَنْ إِرادَتِهِ ، إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ لا يَقَعُ في الوُجُودِ إِلاَّ ما يُرِيدُهُ اللهُ تَعالَى لا ما يُرِيدُهُ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو إِرادَتَهُ ، فَلا يُرِيدُ إِلاَّ ما يُرِيدُهُ الحَقُّ.[٢]
والمُرِيدُ هُوَ الَّذي يَسْتَعِينُ بِشَيْخِهِ الَّذي يُرْشِدُهُ ويُعَرِّفُهُ طَرِيقَ المَواجِيدِ ، ويُبَصِّرُهُ بِآفاتِ النُّفُوسِ ، ويَسْتَسْلِمُ لِرَأْيِهِ في جَمِيعِ تَصَرُّفاتِهِ .

المُراد

المُرادُ : هُوَ العارِفُ بِاللهِ الَّذي لَمْ يَبْقَ لَهُ إِرادَةٌ ، وقَدْ وَصَلَ إِلَى النِّهايَةِ ، وعَبَرَ الأَحْوالَ والمَقاماتِ ، أَو هُوَ المَجْذُوبُ عَنْ إِرادَتِهِ ، والمُرادُ هُوَ الَّذي سِيرَ بِهِ رَغْماً عَلَيْهِ).[٣]
ويَذْهَبُ الإِمامُ (الجُنَيْدُ) مُتَحَدِّثاً عَنِ المُرِيدِ والمُرادِ ، فَيَقُولُ : المُرِيدُ تَتَوَلاَّهُ سِياسَةُ العِلْمِ (أَي المُجاهَدَةُ والرِّياضَةُ النَّفْسِيَّةُ) ، والمُرادُ تَتَوَلاَّهُ سِياسَةُ الحَقِّ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، لِأَنَّ المُرِيدَ يَسِيرُ ، والمُرادَ يَطِيرُ ، فَمَتَى

---

(١) أبنُ عَجِيبَة (إيقاظُ الهِمَم في شَرحِ الحكَم) . (٢) الجُرجاني (التَّعريفات) .
(٣) ابنُ عَربى (الحِكَمُ الحاتِمِيَّة) .

يَلْحَقُ السَّائِرُ الطَّائِرَ؟ ![1]

الوارِد

الـوارِدُ : هُـوَ الـحـالُ الَّـذى يَـرِدُ عَلَـى قَلْـبِ الـمُـريـدِ مِـنَ الـمَـعـارِفِ الـرَّبَّـانِيَّـةِ ، واللَّطـائِفِ الإِلَهِيَّةِ ، والعُلُومِ الـوَهْـبِيَّةِ ، والأَنْـوارِ العِرْفـانِيَّةِ ، والـمَـواهِـبِ الرَّحْمانِيَّة .[2]

والـوارِدُ : هُـوَ حُلُولُ الـمَعْنَـى في القَلْبِ ، وهُوَ كُلُّ ما يَرِدُ عَلَى القَلْبِ مِنَ الـمَعاني الغَيْبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ مِنَ العَبْدِ ، ويُطْلَقُ أَحْياناً عَلَى مُطْلَقِ الوارِدات .

ويَعْـنِـي (الـوارِدُ) عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ كَوْنَهُ رَسُولاً مِنَ الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ ، والوارِداتُ إِمَّـا تَـكُـونُ رُوحـانِـيَّـةً ، وإِمَّـا نـارِيَّـةً ، وهِـيَ الـمَلَكِيَّةُ والشَّـيْـطـانِـيَّـةُ ، والفَرْقُ بَيْنَ الوارِدِ الـمَلَكِي والشَّيْطانِي : أَنَّ الـملَكِيَّ يُورِدُ بَرْداً ويُحْدِثُ لَذَّةً ولا يَتْرُكُ أَلَـماً ، وكَـذَلِـكَ فـالـوارِدُ يَـكُـونُ مِـنْ قِـبَـلِ الـخَـواطِـرِ ، ويَـخْـتَـصُّ بِـنَـوْعٍ مِـنَ الـخِـطـابِ ، أَو يَتَضَمَّنُ مَعْناهُ ، ويَكُونُ وارِدَ سُرورٍ ، ووارِدَ حُزْنٍ ، ووارِدَ قَبْضٍ ، ووارِدَ بَسْطٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الـمَعانِي .[3]

الخاطِر

الـخـاطِـرُ هُـوَ مـا يَـرِدُ عَلَى القَلْبِ والضَّميرِ مِنَ الخِطابِ : رَبَّانِيّاً كانَ أَو مَلَكِيّاً ، أَو نَـفْـسـانِـيّـاً ، أَو شَيْطانِيّاً مِنْ غَيْرِ إِقامَةٍ ، وقَدْ يَكُونُ بِوارِدٍ ، ولا يَعْمَلُ بِذَلِك[4])

وقَدْ قِيلَ : الخاطِرُ الرَّبَّانِيُّ هُوَ أَوَّلُ الخَواطِرِ ويُسَمِّيهِ سَهْلٌ التُّسْتُرِيُّ : (السَّبَبَ الأَوَّلَ وهُـوَ لا يُخْطِىءُ أَبَـداً ، وقَدْ يُعْرَفُ بِالقُوَّةِ والتَّسَلُّطِ وعَدَمِ الانْدِفاعِ بِالدَّفْعِ

والـخـاطِـرُ الـمَـلَـكِـي : هُـوَ الـبـاعِـثُ عَلَـى مَـنْـدوبٍ أَو مَـفْـروضٍ ، وفي الجُمْلَة هُوَ

---

(١) مُحَمَّد جلال شَرَف (دِراسات في التَّصَوُّفِ الإِسْلامي) .

(٢) ابْنُ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي (الحِكَم) بِشَرْح (مُحَمَّد مُصْطَفَى أَبُو العُلا).

(٣) ابْنُ الخَطِيب (رَوْضَةُ التَّعْرِيف بالحُبِّ الشَّرِيف) .   (٤) ابْنُ عَرَبى (اصْطِلاحات صُوفِيَّة) .

الباعِثُ عَلَى كُلِّ ما فِيهِ صَلاحٌ ، ويُسَمَّى إِلْهاماً .

والخاطِرُ النَّفْسانِي : هُوَ ما فيهِ حَظُّ النَّفْسِ ، ويُسَمَّى هاجِساً .

والخاطِرُ الشَّيْطانِي : هُوَ ما يَدْعُو إِلَى مُخالَفَةِ الحَقِّ ، ويُسَمَّى وَسْواساً .

قالَ تَعالَى :﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾.(١)

الضَّمِير

الضَّمِيرُ : مِنَ الكَلِماتِ الَّتي شاعَ اسْتِعْمالُها بَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ عُلَماءِ النَّفْسِ وفَلاسِفَةِ الأَخْلاقِ ، عَلَى أَساسِ أَنَّها تَعْبِيرٌ يَدُلُّ عَلَى القُوَّةِ الباطِنَةِ ، الَّتي يَخْتارُ بِها الإِنْسانُ طَرِيقَ الحَقِّ والخَيْرِ والجَمالِ ، أو ما يَتَعارَضُ مَعَ ذَلِكَ في عَلاقَتِهِ بِنَفْسِهِ وبِغَيْرِهِ مِنَ النَّاس .

ويَخْتَلِفُ تَحْدِيدُ العُلَماءِ والفَلاسِفَةِ لِمُصْطَلَحِ (الضَّمِيرِ) وِفْقَ مُعْتَقَداتِهِم الدِّينِيَّةِ ، فالمُؤْمِنُونَ بِاللهِ تَعالَى ؛ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ القُوَّةَ الباطِنَةَ وَثِيقَةُ الصِّلَةِ بِفِطْرَةِ اللهِ في خَلْقِهِ ، ولِذَلِكَ فَهِيَ لَيْسَتْ ناشِئَةً مِنَ الفِكْرِ البَشَرِي ، ولَيْسَتْ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلافِ البِيئاتِ والعُصُورِ ، وإِنَّما هِيَ حَقِيقَةٌ ثابِتَةٌ يَنْتَفِعُ بِها الإِنْسانُ عَلَى قَدْرِ ما يَجْتَهِدُ في مَعْرِفَتِها ، وتَوْجِيهِها الوِجْهَةَ الصَّحِيحَةَ الَّتي أَوْجَدَها اللهُ مِنْ أَجْلِها .

الغَفْلَة

الغَفْلَةُ : هُوَ مُصْطَلَحٌ يُضادُّ الذِّكْرَ ويَخْتَلِفُ عَنِ النِّسْيانِ ، لِذَلِكَ كانَ هُناكَ فَرْقٌ بَيْنَ الغَفْلَةِ والنِّسْيانِ ؛ وهُوَ أَنَّ الغَفْلَةَ تَرْكٌ بِاخْتِيارِ العاقِلِ ، والنِّسْيانَ تَرْكٌ بِغَيْرِ اخْتِيارِهِ ، قالَ تَعالَى :﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.(٢)

---

(١) سُورَةُ البَقَرَةِ مِنَ الآيةِ ٢٦٨ .

(٢) سُورَةُ الأَعْرافِ الآيةِ ٢٠٥ .

وقَـالَ تَـعـالَـى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[1].

ويَـذْكُـرُ (أَبُـو بَـكْـر بنُ أَبِي سَـعْـدان) : أَنَّ الاعْـتِـصـامَ بِاللهِ هُوَ الامْتِناعُ بِهِ عَنِ الغَفْلَةِ والمَعاصِي والبِدَعِ والضَّلالات[2].

ويَقُولُ أَبو بَكْرٍ الكِتَّانِي : (رَوْعَـةُ عِـبْـدٍ عِـنْـدَ انْتِباهٍ مِـنَ الـغَـفْلَةِ وارْتِعـادٍ مِـنْ خَطِيئَتِهِ أَعْوَدُ عَلَى المُرِيدِ مِنْ عِبادَةِ الثَّقَلَيْن) .

ولَقَدْ قِيلَ : لا تَدْخُلُ الغَفْلَةُ إِلاَّ مِنَ الأَمْنِ ، ولا يُوجَدُ المَزِيدُ إِلاَّ مِنَ الحَذَرِ ؛ ومِنْ هُنا قِيلَ : حَذَرَ قَوْمٌ فَسَلِمُوا ، وأَمِنَ قَوْمٌ فَعَطَبُوا .

الذِّكْر

الذِّكْرُ : هُوَ العُمْدَةُ في الطَّرِيقِ ، ولا يَصِلُ أَحَدٌ إِلَى اللهِ تَعالَى إِلاَّ بِدَوامِ الذِّكْرِ فَما مِنْ وَقْتٍ إِلاَّ والعَبْدُ مُطالَبٌ فيهِ بِالذِّكْرِ إِمَّا وجُوباً أو نَدْباً ، بِخلافِ غَيْرِهِ مِنَ الطَّاعات[3].

والـواقِعُ أَنَّ الإِنْسانَ إِذا تَدَبَّرَ في الآياتِ القُرْآنِيَّةِ الوارِدَةِ في الذِّكْرِ فَإِنَّهُ يَجِدُها تَسْتَغْرِقُ الأَوْقاتِ والحالاتِ ، فَأَيْنَما كانَ الإِنْسانُ وكَيْفَما كانَ عَلَيْهِ دائِماً أَنْ يَكُونَ ذاكِراً لِلهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، فالذِّكْرُ يُطَمْئِنُ القَلْبَ ، ويَرْفَعُ الغَفْلَةَ ، ويُذْهِبُ الرَّيْنَ ، ويَدْعُو لِلاسْتِغْفارِ عَنْ ماضِي الذُّنُوبِ ، ويَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، وهُوَ يَجْلُو الفَهْمَ ويَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ والحُضُور[4].

وفي الصَّحِيحَيْن : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (سَبَقَ المُفَرِّدُونَ ، قالُوا : وما المُفَرِّدُونَ ؟ قالَ : الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً)[5].

والذِّكْرُ عَلَى قِسْمَيْن : ذِكْرُ العامَّةِ ، وذِكْرُ الخاصَّة .

---

(١) سُورَةُ الكَهْف الآية ٢٨
(٢) أبو عبد الرَّحمن السُّلمِي (طبقاتُ الصُّوفية) .
(٣) ابْنُ عَبَّادٍ النَّفزي (غيثُ المَواهِبِ العَلِيَّة في شَرْحِ الحِكَمِ العَطائية) .
(٤) القُشَيْرى (أسماءُ اللهِ الحُسْنَى) .
(٥) أَخرجه البخاريُّ ومُسْلِمٌ في صَحِيحَيْهِما .

أَمَّا ذِكْرُ العامَّة : فَهُوَ ذِكْرُ الأَجْرِوالثَّوابِ ؛ وهُوَ أَنْ يَذْكُرَ العَبْدُ مَوْلاهُ بِما شاءَ مِنْ ذِكْرٍ ، مَعَ بَقائِهِ في صِفاتِهِ المَذْمُومَةِ كالرِّياءِ والكِبْرِ ، والعُجْبِ والغُرورِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ .

وأَمَّا ذِكْرُ الخاصَّة : فَهُوَ ذِكْرُ الحُضُورِ ، وهُوَ أَنْ يَذْكُرَ العَبْدُ مَوْلاهُ بِأَذْكارٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى صِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ ، لِيَنالَ بِذَلِكَ المَعْرِفَةَ بِاللهِ سُبْحانَهُ ، بِطَهارَةِ نَفْسِهِ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ ذَميمٍ ، وتَحْلِيَتِها بِكُلِّ خُلُقٍ كَريمٍ ، طَلَباً لِلْخُروجِ مِنْ ظُلْمَةِ الحِسِّ ، وطَمَعاً في إِدْراكِ الأَسْرارِ الرُّوحانِيَّةِ ، وهَذا مَقْصِدُ السَّادَةِ الصُّوفِيَّة .

المُذاكَرَة

المُذاكَرَةُ : هِيَ اسْتِفادَةُ المُريدِ مِنْ خِبْرَةِ مُرْشِدِهِ بِسُؤالِهِ عَنْ أَحْكامٍ شَرْعِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِتَصْحِيحِ العَقائِدِ أَوِ العِباداتِ أَوِ المُعامَلاتِ ، أَوْ بِأَنْ يَعْرِضَ لَهُ ما يَحْدُثُ مَعَهُ مِنْ أَحْوالٍ قَلْبِيَّةٍ وخَواطِرَ نَفْسِيَّةٍ وشَيْطانِيَّةٍ قَدْ تَلْتَبِسُ عَلَيْهِ فَتُوقِعُهُ في شُكُوكٍ وأَوْهامٍ ، كالشُّكُوكِ في العَقائِدِ الإِيمانِيَّةِ ، وكالتَّعَلُّقاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتي يَقِفُ حِيالَها حائِراً مُضْطَرِباً .

أَو بِأَنْ يَكْشِفَ لَهُ عَنْ أَمْراضِهِ القَلْبِيَّةِ كالكِبْرِ والحَسَدِ والنِّفاقِ وحُبِّ الرِّئاسَةِ ، وعَنْ رُعُوناتِهِ النَّفْسِيَّةِ كالتَّحَدُّثِ عَنْ كَراماتِهِ ومَرائِيهِ بُغْيَةَ الثَّناءِ والشُّهْرَةِ ... وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفاتِ النَّاقِصَةِ بُغْيَةَ مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الخَلاصِ مِنْها .

وهَكَذا يَرْجِعُ المُريدُ لِمُرْشِدِهِ في جَميعِ أَحْوالِ سَيْرِهِ لاِجْتِيازِ العَقَباتِ الَّتي تَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ .

وقَدْ يُذاكِرُ المُريدُ شَيْخَهُ في أَحْوالِهِ الطَّيِّبَةِ ومَقاماتِ سَيْرِهِ ، واسْتِشْرافِ رُوحِهِ لِلْحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ ، وما يَرِدُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ وارِداتٍ رَحْمانِيَّةٍ أَو مَلَكِيَّةٍ ومَفاهِيمَ قُرْآنِيَّةٍ وعُلُومٍ وَهْبِيَّةٍ ... والقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ الاسْتِيثاقُ مِنْ صِحَّتِها

حَتَّى يَكُونَ المُرِيدُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ مَراحِلِ سَيْرِه .

فالمُذاكَرَةُ لَها أَهَمِّيَّةٌ كُبْرَى في سَيْرِ المُرِيدِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، وهِيَ رُكْنٌ عَظِيمٌ مِنْ أَرْكانِ الطَّرِيقِ الخَمْسَةِ : الذِّكْرِ ، والمُذاكَرَةِ ، ومُجاهَدَةِ النَّفْسِ ، والعِلْمِ ، والمَحَبَّة .

ومَثَلُ المُرِيدِ مَعَ مُرْشِدِهِ كَمَثَلِ المَرِيضِ الَّذي يَكْشِفُ لِطَبِيبِهِ كُلَّ ما يَلْقاهُ مِنْ أَعْراضٍ مَرَضِيَّةٍ ، كَما يُخْبِرُهُ عَنْ جَمِيعِ مَراحِلِ تَحَسُّنِ جِسْمِهِ وصِحَّتِه .

ومِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ المُذاكَرَةَ تُقَوِّي الصِّلَةَ بَيْنَ المُرِيدِ والمُرْشِدِ ، فَتَزْدادُ المَحَبَّةُ ويَقْوَى التَّجاوبُ ، كَما أَنَّ المُرِيدَ يَسْتَفِيدُ بِالمُذاكَرَةِ مِنْ شَيْخِهِ عِلْماً وحالاً ومَعْرِفَةً ، لِأَنَّ العِلْمَ رُوحٌ تُنْفَخُ لا مَسائِلُ تُنْسَخُ .

فالمُذاكَرَةُ إِذَنْ تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِأَدَبٍ مِنْ آدابِ الشَّرْعِ ، وخُلُقٌ أَساسِيٌّ مِنْ أَخْلاقِ الإِسْلامِ ، وهُوَ الشُّورَى الَّتي مَدَحَ اللهُ بِها المُؤْمِنينَ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾(١) ، والَّتي دَعا إِلَيْها الرَّسُولُ الكَريمُ ﷺ بِقَوْلِهِ : (المُسْتَشارُ مُؤْتَمَنٌ)(٢) .

وإِذا كانَتِ الشُّورَى هِيَ لِلاسْتِفادَةِ مِنْ خِبْرَةِ أَهْلِ الاخْتِصاصِ في أَيِّ جانِبٍ مِنْ جَوانِبِ الحَياةِ ، كالمَرِيضِ الَّذي يَسْتَفِيدُ مِنْ خِبْرَةِ الطَّبِيبِ ، والبَنَّاءِ الَّذي يَسْتَفِيدُ مِنْ خِبْرَةِ المُهَنْدِسِ ، والمَظْلُومِ الَّذي يَسْتَفِيدُ مِنْ خِبْرَةِ المُحامِي ... إلخ .

فَإِنَّ المُذاكَرَةَ هِيَ لِلاسْتِفادَةِ مِنْ خِبْرَةِ المُرْشِدِ في مَيْدانِ التَّطْبِيقِ العَمَلِي لِدينِ اللهِ تَعالَى ، وقَدْ نَوَّهَ اللهُ تَعالَى لِهَذِهِ الاسْتِفادَةِ بِقَوْلِهِ :

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى ، مِنَ الآيَة ٣٨ . (٢) أَخْرَجَهُ (البُخاري) و(التِّرمِذي) .

(٣) سُورَةُ النَّحْل ، مِنَ الآيَة ٤٣ .

وبِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾(١).

الفَرْقُ بَيْنَ المُذاكَرَةِ وبَيْنَ الاعْتِرافِ عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمين :

قَدْ يَتَوهَّمُ بَعْضُ النَّاسِ بِأَنَّ هُناكَ تَشابُهاً بَيْنَ مُذاكَرَةِ المُريدِ لِمُرْشِدِهِ وبَيْنَ الاعْتِرافِ عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمِينَ ، ولَكِنَّ العاقِلَ المُنْصِفَ لا يَتَسَرَّعُ في الحُكْمِ ، ولا يُلْقِي الكَلامَ جُزافاً دُونَ تَفْكِيرٍ أَو تَدَبُّرٍ ، بَلْ يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَأْتِي لإنْسانٍ مِثْلَهُ فَيَكْشِفُ لَهُ عَنْ آثامِهِ وجَرائِمِهِ بُغْيَةَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، كَما هُوَ الأَمْرُ (كُرْسِيُّ الاعْتِرافِ) عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمِينَ ، وبَيْنَ مَنْ يَأْتِي لِخَبِيرٍ عالِمٍ فَيَكْشِفُ لَهُ عَنْ أَمْراضِهِ وأَحْوالِهِ بُغْيَةَ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ العَمَلِيِّ لِلتَّخَلُّصِ مِنْها ، كَما يَكْشِفُ المَرِيضُ عَنْ أَمْراضِهِ ولَوْ كانَتْ مِمَّا يُسْتَحَى مِنْها مِنْ أَجْلِ تَشْخِيصِ الدَّاءِ ووَصْفِ الدَّواءِ النَّاجِعِ .

الفَرْقُ بَيْنَ المُذاكَرَةِ وبَيْنَ المُجاهَرَةِ بِالمَعْصِيَةِ :

وقَدْ يَشْتَبِهُ الأَمْرُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فَيَظُنُّونَ أَنَّ مُذاكَرَةَ المُرِيدِ لِمُرْشِدِهِ في أَمْراضِهِ القَلْبِيَّةِ وأَحْوالِهِ النَّفْسِيَّةِ مِنْ مَعاصٍ ومُخالَفاتٍ نَوْعٌ مِنَ المُجاهَرَةِ بِالمَعْصِيَةِ .

ولَكِنْ هُناكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ يَرْتَكِبُ الإثْمَ ، ثُمَّ يَأْتِي لِلنَّاسِ يُحَدِّثُ عَنْهُ مِنْ بابِ المُباهاةِ والتَّلَذُّذِ بِذِكْرِهِ والدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ، وبَيْنَ مَنْ يَنْدَمُ عَلَى ذَنْبِهِ ويَتَحَيَّرُ في مَعْرِفَةِ العِلاجِ الجَذْرِيِّ الَّذي يُنْقِذُهُ مِنْ وَضْعِهِ المَذْمُومِ ، فَيَأْتِي لِيَسْتَفِيدَ مِنْ خِبْرَةِ مُرْشِدِهِ .

قالَ الإمامُ النَّوَوِيُّ مُعَلِّقاً عَلَى حَدِيث : (كُلُّ أُمَّتِي مُعافاةٌ إِلاَّ المُجاهِرِينَ ، وإِنَّ مِنَ الإجْهارِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ، ثُمَّ يُصْبِحُ وقَدْ سَتَرَهُ اللهُ تَعالَى عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : يا فُلانُ عَمِلْتُ البارِحَةَ كَذا وكَذا ، وقَدْ باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ،

---

(١) سُورَةُ الفُرْقان ، مِنَ الآيَة ٥٩ .

وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ)[1].

(يُكْرَهُ لِلإِنْسانِ إِذا ابْتُلِيَ بِمَعْصِيَةٍ أَوْ نَحْوِها أَنْ يُخْبِرَ غَيْرَهُ بِذَلِكَ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللهِ تَعالَى ، فَيُقْلِعَ عَنْها في الحالِ ، وَيَنْدَمَ عَلَى ما فَعَلَ ، وَيَعْزِمَ أَلاَّ يَعُودَ إِلَى مِثْلِها أَبَداً ، فَهَذِهِ الثَّلاثَةُ هِيَ أَرْكانُ التَّوْبَةِ ، لا تَصِحُّ إِلاَّ بِاجْتِماعِها ، فَإِنْ أَخْبَرَ بِمَعْصِيَتِهِ شَيْخَهُ أَو شَبَهَهُ مِمَّنْ يَرْجُو بِإِخْبارِهِ أَنْ يُعَلِّمَهُ مَخْرَجاً مِنْ مَعْصِيَتِهِ ، أَو يُعَلِّمَهُ ما يَسْلَمُ بِهِ مِنَ الوقُوعِ في مِثْلِها ، أَوْ يُعَرِّفَهُ السَّبَبَ الَّذي أَوْقَعَهُ فِيها ، أَو يَدْعُوَ لَهُ ، أَو نَحْوَ ذَلِكَ ، فَلا بَأْسَ بِهِ ، بَلْ هُوَ حَسَنٌ ، وإِنَّما يُكْرَهُ إِذا انْتَفَتْ هَذِهِ المَصْلَحَةُ)[2].

ونَقَلَ الإمامُ المَناوِي في مَعْرِضِ شَرْحِهِ لِحَدِيثِ المُجاهَرَةِ قَوْلَ الإِمامِ الغَزالي (الكَشْفُ المَذمُومُ إِذا وَقَعَ عَلَى وَجْهِ المُجاهَرَةِ والاسْتِهْزاء ؛ لا عَلَى وَجْهِ السُّؤَالِ والاسْتِفْتاء ، بِدَلِيلِ خَبَرِ مَنْ واقَعَ امْرَأَتَهُ في رَمَضانَ[3] ، فَجاءَ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْه)[4].

الأَدَب

الأَدَبُ : عِبارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أَشْياءَ يُتَجَنَّبُ بِواسِطَتِها كُلُّ أَنْواعِ الخطايا ، ويُقْصَدُ بِهِ أَدَبُ الشَّرِيعَةِ ، وأَحْياناً أَدَبُ الخِدْمَةِ ، وتارَةً أَدَبُ الحَقِّ ، ويُقْصَدُ مِنْ أَدَبِ الشَّرِيعَةِ : الوقُوفُ عِنْدَ رسُومِ الشَّرْعِ ، وأَدَبِ الخِدْمَةِ الفَناءُ عَنْ رُؤْيَتِها مَعَ المُبالَغَةِ فِيها أَنْ تَعْرِفَ مالَكَ ومالَهُ مِنْكَ ، أَي تَكُونَ عالِماً بِحَقِّكَ وحَقِّه .

والأَدَبُ المُعْتَمَدُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ لَيْسَ فَقَط الأَدَبَ الظَّاهِري ، لِأَنَّ الأَدَبَ الظَّاهِرِيَّ رُبَّما كانَ رِياءً ونِفاقاً ، أَو مُجامَلَةً واسْتِرْضاءً ، أَو اسْتِعْطافاً بِشَكْلٍ أَو بِآخَر ، ولَكِنَّ الأَدَبَ عِنْدَهم هُوَ الأَدَبُ الباطِنِيُّ أَساساً .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخاري ومُسْلِمٌ في صَحيحَيْهِما .

(٢) الأَذْكارُ لِلنَّوَوي ص ٣٢٧ .

(٣) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ومُسْلِمٌ والتِّرْمِذي .

(٤) فَيْضُ القَدير شَرْحُ الجامِعِ الصَّغير ج ٥ ص ١٢ .

قِيلَ : امْتِثالٌ وأَدَب ... وُصُولٌ بِلا تَعَب .

الأَسْماء

الأَسْماءُ الحُسْنَى هِىَ أَلْفُ اسْمٍ ؛ مِنْها ثَلاثُمِائَةٍ في التَّوْارَةِ ، وثَلاثُمِائَةٍ في الإِنْجِيلِ ، وثَلاثُمِائَةٍ في الزَّبُورِ ، وواحِدٌ في صُحُفِ إِبْراهِيمَ ، وتِسْعَةٌ وتِسْعُونَ في الفُرْقانِ ، وقَدْ جُمِعَتْ مَعانِي تِلْكَ الأَسْماءِ كُلِّها وأُدْخِلَتْ في التِّسْعَةِ والتِّسْعِينَ اسْماً الَّتي في القُرْآنِ واحْتَوَتْ عَلَيْها ، واشْتَمَلَتْ عَلَى فَضائِلِها وأَسْرارِها وثَوابِها (١) .

واعْلَمْ أَنَّ جُمْلَةَ الأَسْماءِ الحُسْنَى تَرْجِعُ إِلَى ذاتٍ وسَبْعِ صِفاتٍ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ خِلافاً لِلْمُعْتَزِلَةِ والفَلاسِفَةِ ، ثُمَّ إِنَّ الاسْمَ غَيْرُ التَّسْمِيَةِ وغَيْرُ المُسَمَّى ، وهَذا هُوَ الحَقُّ ، فَحَدُّ الاسْمِ أَنَّهُ اللَّفْظُ المَوْضُوعُ لِلدَّلالَةِ عَلَى المُسَمَّى (٢) .

فالاسْمُ هُوَ الحاكِمُ عَلَى حالِ العَبْدِ في الوَقْتِ مِنَ الأَسْماءِ الإِلَهِيَّةِ ، وتُطْلَقُ آرائِكُ التَّوْحِيدِ عَلَى الأَسْماءِ الذَّاتِيَّةِ لِكَوْنِها مَظاهِرَ الذَّاتِ أَوَّلاً في الحَضْرَةِ الواحِدِيَّة .

مَنْ هُنا كانَ الاسْمُ الأَعْظَمُ هُوَ الاسْمَ الجامِعَ لِجَمِيعِ الأَسْماءِ ، وقِيلَ هُوَ (اللهُ) لأَنَّهُ اسْمُ الذَّاتِ المَوْصُوفَةِ بِجَمِيعِ الصِّفاتِ ، أَى المُسَمَّاةُ بِجَمِيعِ الأَسْماءِ ، ولِهَذا يَطْلِقُونَ اسْمَ الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ عَلَى حَضْرَةِ الذَّاتِ مَعَ جَمِيعِ الأَسْماء .

اللَّطائِفُ والرَّقائِق

اللَّطائِفُ : مُفْرَدُها اللَّطِيفَةُ ، واللَّطِيفَةُ : كُلُّ إِشارَةٍ دَقِيقَةِ المَعْنَى يَلُوحُ مِنْها

---

(١) ابْنُ عَطاء اللهِ السَّكَنْدَري (القَصْدُ المُجَرَّد في مَعْرِفَةِ الاسْمِ المُفْرَد) .

(٢) الغَزالي (رَوْضَةُ الطَّالِبِينَ وعُمْدَةُ السَّالِكين) .

في الفَهْمِ مَعْنى لا تَسَعُهُ العِبارَة ، وقَدْ تُطْلَقُ بِإزاءِ النَّفْسِ النَّاطِقَة.[1]

أَو بِعِبارَةٍ أُخْرَى : اللَّطِيفَةُ الإِنْسانِيَّةُ هِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ المُسَماةُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ بِالقَلْبِ ، وهِيَ في الحَقِيقَةِ تَنَزُّلُ الرُّوحِ إِلَى رُتْبَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ النَّفْسِ مُناسِبَةً لَها بِوَجْهٍ ومُناسِبَةً لِلرُّوحِ بِوَجْهٍ ، ويُسَمَّى الوَجْهُ الأَوَّلُ الصَّدْرُ ، والثَّانيَ الفُؤادُ .

أَمَّا الرَّقِيقَةُ : فَهِيَ اللَّطِيفَةُ الرُّوحانِيَّةُ ، وقَدْ تُطْلَقُ عَلَى الواسِطَةِ اللَّطِيفَةِ الرَّابِطَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ كالمَدَدِ الواصِلِ مِنَ الحَقِّ إِلَى العَبْدِ .

ويُقالُ لَها رَقِيقَةُ النُّزُولِ ، أَو الوَسِيلَةُ الَّتي يَتَقَرَّبُ بِها العَبْدُ إِلَى الحَقِّ مِنَ العُلُومِ والأَعْمالِ والأَخْلاقِ السَّنِيَّةِ والمَقاماتِ الرَّفِيعَةِ ، ويُقالُ لَها رَقِيقَةُ العُروجِ ، ورَقِيقَةُ الارْتِقاءِ ، وقَدْ تُطْلَقُ الرَّقائِقُ عَلَى عُلُومِ الطَّرِيقَةِ والسُّلُوكِ وكُلِّ ما يُلَطِّفُ بِهِ سِرُّ العَبْدِ ، وتَزُولُ بِهِ كَثافاتُ النَّفْس.[2]

القَلْب

القَلْبُ : هُوَ جَوْهَرٌ نَوْرانِيٌّ مُجَرَّدٌ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ الرُّوحِ والنَّفْسِ ،وهُوَ الَّذي تَتَحَقَّقُ بِهِ الإِنْسانِيَّةُ ، ويُسَمِّيهِ الحَكِيمُ : (النَّفْسَ النَّاطِقَةَ) ، والرُّوحُ باطِنَهُ ، والنَّفْسُ الحَيوانِيَّةُ مُرْكَبَهُ ، وظاهِرُهُ المُتَوَسِّطُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الجَسَدِ ، كَما مَثَّلَهُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالزُّجاجَةِ ، والكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ ، والرُّوحُ بِالمِصْباحِ في قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾.[3]

والشَّجَرَةُ هِيَ النَّفْسُ ، والمِشْكاةُ هِيَ البَدَنُ ، والقَلْبُ هُوَ الوَسَطُ في الوُجُودِ ومَراتِبُ التَّنَزُّلاتِ بِمَثابَةِ اللَّوْحِ المَحْفُوظ.[4]

---

(١) ابْنُ عَربي (مُصْطلحاتُ الصُّوفيَّة) .
(٢) الكاشاني (اصْطلاحاتُ الصُّوفيَّة) .
(٣) سورة النور الآية ٣٥ .
(٤) الكاشاني (اصْطلاحاتُ الصُّوفيَّة) .

ولَقَدْ قِيلَ : سُمِّيَ القَلْبُ بهَذا الاسْمِ لِتَقَلُّبِهِ بَيْنَ التَّجَلِّياتِ الجَلالِيَّةِ والجَمالِيَّة .

النَّفْس

المُرادُ بِالنَّفْسِ : ما كانَ مَعْلُولاً مِنْ أَوْصافِ العَبْدِ ، ومَذْمُوماً مِنْ أَخْلاقِهِ وأَفْعالِهِ ، ثُمَّ إِنَّ المَعْلُولاتِ مِنْ أَوْصافِ العَبْدِ عَلَى نَوْعَيْنِ :

أَحَدُهُما : يَكُونُ كَسْباً لَهُ كَمَعاصِيهِ ومُخالَفاتِهِ ، والثَّانِي : أَخْلاقُهُ الدَّنِيئَةُ فَهِيَ في أَنْفُسِها مَذْمُومَةٌ ، فَإِذا عالَجَها العَبْدُ ونازَلَها ، تَنْتَفِي عَنْهُ بِالمُجاهَدةِ تِلْكَ الأَخْلاقُ عَلَى اسْتِمْرارِ العادَة .

إِنَّ القِسْمَ الأَوَّلَ مِنْ أَحْكامِ النَّفْسِ ما نُهِيَ عَنْهُ نَهْيُ تَحْرِيمٍ أَو نَهْيُ تَنْزِيهٍ ، وأَمَّا القِسْمُ الثَّانِي فَسَفْسافُ الأَخْلاقِ والدَّنِيءُ مِنْها ، هَذا حَدُّهُ عَلَى الجُمْلَةِ ، ثُمَّ تَفْصِيلُها فالتَّكَبُّرُ والغَضَبُ والحَسَدُ وسُوءُ الخُلُقِ وقِلَّةُ الاحْتِمالِ وغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَخْلاقِ الذَّمِيمَةِ ، وأَشَدُّ أَحْكامِ النَّفْسِ هُوَ تَخَيُّلُها أَنَّ شَيْئاً مِنْها حَسَنٌ ، أَو أَنَّ لَها اسْتِحْقاقاً مِنَ القَدْرِ ، ولِذَلِكَ عُدَّ هَذا مِنَ الشِّرْكِ الخَفِيِّ ، ومُعالَجَةُ الأَخْلاقِ في إِهْمالِ النَّفْسِ وتَرْوِيضِها أَتَمُّ مِنْ مُقاساةِ الجُوعِ والعَطَشِ والسَّهَرِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المُجاهَداتِ الَّتي تَتَضَمَّنُ سُقُوطَ القُوَّةِ ، وإِنْ كانَ ذَلِكَ أَيْضاً مِنْ جُمْلَةِ تَرْكِ النَّفْس .

ويُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ النَّفْسُ لَطِيفَةً مُودَعَةً في هَذا القالَبِ ، وهِيَ مَحَلُّ الأَخْلاقِ المَعْلُولَةِ ، كَما أَنَّ الرُّوحَ لَطِيفَةٌ في هَذا القالَبِ هِيَ مَحَلُّ الأَخْلاقِ المَحْمُودَةِ ، وتَكُونُ (بِشَكْلٍ عام) مُسَخَّراً بَعْضُها لِبَعْضٍ ، والجَمِيعُ إِنْسانٌ واحِدٌ ، وكَوْنُ الرُّوحِ والنَّفْسِ مِنَ الأَجْسامِ اللَّطِيفَةِ في الصُّورَةِ كَكَوْنِ المَلائِكَةِ والشَّياطِينَ بِصِفَةِ اللَّطافَة .

وكَما يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ العَيْنُ مَحَلَّ الرُّؤْيَةِ ، والأُذُنُ مَحَلَّ السَّمْعِ ، والأَنْفُ مَحَلَّ

الشَّمِّ ، والفَمُ مَحلُّ الذَّوْقِ ، وكَذلِكَ فالسَّمِيعُ والبَصِيرُ والشَّامُّ والذَّائِقُ ، إنَّما هِىَ الجُمْلَةُ الَّتي هِىَ الإنْسانُ ، فَكَذلِكَ مَحَلُّ الأَوْصافِ الحَمِيدةِ هُوَ القَلْبُ والرُّوحُ ، ومَحَلُّ الأَوْصافِ الذَّمِيمةِ هُوَ النَّفْسُ ، والنَّفْسُ جُزْءٌ مِنْ هَذهِ الجُمْلَةِ والقَلْبُ جُزْءٌ مِنْ هَذهِ الجُمْلَةِ ، والحُكْمُ والاسْمُ راجِعٌ إلَى الجُمْلَة(١).

النَّفَس

النَّفَسُ : هُوَ تَرْوِيحُ القُلُوبِ بِلَطائِفِ الغُيُوبِ ، وصاحِبُ الأَنْفاسِ أَرْقَى وأَصْفَى مِنْ صاحِبِ الأَحْوالِ ؛ فإنْ كانَ صاحِبُ الوَقْتِ مُبْتَدِئاً فإنَّ صاحِبَ الأَنْفاسِ مُنْتَهٍ ، وصاحِبُ الأَحْوالِ بَيْنَهُما ، فالأَحْوالُ وسائِطُ ، والأَنْفاسُ نِهايَةُ التَّرَقِّي فالأَوْقاتُ لأَصْحابِ القُلُوبِ ، والأَحْوالُ لأَرْبابِ الأَرْواحِ ، والأَنْفاسُ لأَهْلِ السَّرائِرِ(٢).

وقالوا : أَفْضَلُ العِباداتِ عَدُّ الأَنْفاسِ مَعَ اللهِ تَعالَى .

كَما قِيلَ : إنَّ النَّفَسَ رِيحٌ يُسَلِّطُها اللهُ تَعالَى عَلَى نارِ القَلْبِ لِيُطْفِىءَ شُرورَها(٣).

المُجاهَدَة

المُجاهَدَةُ : هِىَ حَمْلُ النَّفْسِ عَلَى المَشاقِّ البَدَنِيَّةِ ، ومُخالَفَةُ الهَوَى عَلَى كُلِّ حال(٤).

ولَقَدْ قالَ الرَّسُولُ ﷺ لِقَوْمٍ قَدِمُوا مِنَ الجِهادِ : (مَرْحَباً بِكُم ، قَدِمْتُمْ مِنَ الجِهادِ الأَصْغَرِ إلَى الجِهادِ الأَكْبَرِ ، قالُوا : وما الجِهادُ الأَكْبَرُ يا رَسُولَ الله ؟ قالَ ﷺ : جِهادُ النَّفْس)(٥).

كَما قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (المُجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ ، فَمَنْ ماتَ عَنْ هَواهُ فَقَدْ حَيَّ عَنِ الضَّلالَةِ وبِمَعْرِفَتِهِ عَنِ الجَهالَةِ)(٦).

---

(١) الكاشاني (إصْطلاحات الصُّوفيَّة) .
(٢) القُشَيْرى (الرِّسالة) .
(٢) ابْنُ عَرَبي (اصْطلاحاتُ الصُّوفيَّة) .
(٤) ابْنُ عَربى (اصْطلاحاتُ الصُّوفيَّة) .
(٥) أخرَجَهُ (البَيْهَقىُّ) في الزُّهْد .
(٦) أَخْرَجَهُ (التِّرْمذيُّ) و(ابْنُ حَنْبَل) .

ومِنْ حِكَمِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ : (نَفْسُكَ كالدَّابَّةِ إِنْ رَكِبْتَها حَمَلَتْكَ ، وإِنْ رَكِبَتْكَ قَتَلَتْكَ) ، وكَما يَقُولُونَ : النِّعْمَةُ العُظْمَى الخُروجُ مِنَ النَّفْسِ ، لأَنَّ النَّفْسَ أَعْظَمُ حِجابٍ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فالصُّوفِيُّ إِذا دَفَنَ نَفْسَهُ ؛ أَي أَماتَ شَهَواتِها وحُظُوظَها فَلَمْ يَبْقَ لَهُ حَظٌّ ظاهِرٌ ، بَقِيَ قَلْبُهُ فَوْقَ العَرْشِ ، أَي مُتَّجِهاً بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ ، وفَضْلِ اللهِ ونِعَمِ اللهِ ، لأَنَّ مُخالَفَةَ النَّفْسِ ومُفارَقَةَ أَهْوائِها يَجْعَلُ قَلْبَ الإِنْسانِ مَعَ اللهِ ، وفي اللهِ ، ولِلهِ ، وكَأَنَّهُ مَيِّتٌ حَيٌّ نَفْسُهُ مَيِّتَةٌ مَعَ الخَلْقِ ، وقَلْبُهُ حَيٌّ مَعَ اللهِ[1].

بَيانُ مَراحِلِ المُجاهَدَة :

وأَوَّلُ مَرْحَلَةٍ في المُجاهَدَةِ عَدَمُ رِضا المَرْءِ عَنْ نَفْسِهِ ، وإِيمانُهُ بِوَصْفِها الَّذي أَخْبَرَ عَنْهُ خالِقُها ومُبْدِعُها :﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[2]، وعِلْمُهُ أَنَّ النَّفْسَ أَكْبَرُ قاطِعٍ عَنِ اللهِ تَعالَى[3]، كَما أَنَّها أَعْظَمُ مُوَصِّلٍ إِلَيْهِ وذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ حِينَما تَكُونُ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ لا تَتَلَذَّذُ إِلاَّ بِالمَعاصِي والمُخالَفاتِ ، ولَكِنَّها بَعْدَ مُجاهَدَتِها وتَزْكِيَتِها تُصْبِحُ راضِيَةً مَرْضِيَّةً لا تُسَرُّ إِلاَّ بِالطَّاعاتِ والمُوافَقاتِ والاسْتِئْناسِ بِاللهِ تَعالَى .

وإِذا اكْتَشَفَ المُسْلِمُ عُيُوبَ نَفْسِهِ وصَدَقَ في طَلَبِ تَهْذِيبِها لَمْ يَعُدْ عِنْدَهُ مُتَّسَعٌ مِنَ الوَقْتِ لِلانْشِغالِ بِعُيُوبِ النَّاسِ وإِضاعَةِ العُمْرِ في تِعْدادِ أَخْطائِهِمْ ، وإِذا رَأَيْتَ أَحَداً مِنَ النَّاسِ قَدْ صَرَفَ وَقْتَهُ في إِحْصاءِ أَخْطاءِ الآخَرِينَ غافِلاً عَنْ عُيُوبِ نَفْسِهِ فاعْلَمْ أَنَّهُ أَحْمَقُ جاهِلٌ ، قالَ أَبُو مَدْيَن :

---

(١) أَلفاظُ الصُّوفِيَّةِ ومعانيها لـ(حَسَن مُحَمَّد الشَّرقاوي) .   (٢) سُورَةُ يُوسُف مِنَ الآيَة ٥٣ .

(٣) والقَواطِعُ عَنِ اللهِ تَعالَى أَرْبَعَةٌ : النَّفْسُ ، والدُّنْيا ، والشَّيْطانُ ، والخَلْقُ : أَمَّا عَداوَةُ النَّفْسِ والشَّيْطانِ فَظاهِرَةٌ ، وأَمَّا الخَلْقُ فَمُلاحَظَةُ مَدْحِهِمْ وذَمِّهِمْ تُعَرْقِلُ سَيْرَ السَّالِكِ إِلى رَبِّهِ ، وأَمَّا الدُّنْيا فالاهْتِمامُ بِها وانْشِغالُ القَلْبِ بِتَقَلُّباتِها قاطِعٌ كَبِيرٌ عَنِ اللهِ تَعالى ، ففي حالَةِ الفَقْرِ تَكْثُرُ هُمُومُ المَرْءِ فَتَشْغَلُهُ عَنِ اللهِ . وفي حالَةِ الغِنَى يَنْشَغِلُ بِزِينَتِها وزُخْرُفِها عَنِ اللهِ تَعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ سُورَةُ العَلَق : ٦ ، ٧ .
أَمَّا إِذا أَخْرَجَ حُبَّها مِنْ قَلْبِهِ فإِنَّها لا تَضُرُّهُ ، كما قالَ الشَّيْخُ عَبْدُالقادِرِ الجِيلاني :
(أَخْرِجِ الدُّنْيا مِنْ قَلْبِكَ ، وَضَعْها في جَيْبِكَ أَو في يَدِكَ فَإِنَّها لا تَضُرُّك)

ولا تَـرَ الـعَيْـبَ إلاَّ فِيـكَ مُعْتَقِداً ✽ عَيْباً بَدا بَيِّنـاً لَكِنَّـهُ اسْـتَـتَـرا

وقالَ بَعْضُهُم :

لا تَلُـمِ الـمَـرْءَ عَلَـى فِـعْـلِـهِ ✽ وأَنْـتَ مَـنْـسُـوبٌ إِلَـى مِـثْـلِـهِ

مَـنْ ذَمَّ شَـيْـئـاً أَتَــى مِـثْـلَـهُ ✽ فَـإِنَّــمـا دَلَّ عَـلَـى جَـهْـلِــهِ

فَإِذا عَرَفَ المُسْلِمُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَفْطِمُها عَنْ شَهَواتِها المُنْحَرِفَةِ وعاداتِها النَّاقِصَةِ ، ويُلْزِمُها بِتَطْبِيقِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ .

ويَتَدَرَّجُ في المُجاهَدَةِ عَلَى حَسَبِ سَيْرِهِ ، فَهُوَ في بادِيءِ الأَمْرِ يَتَخَلَّى عَنِ المَعاصِي الَّتي تَتَعَلَّقُ بِجَوارِحِهِ السَّبْعَةِ ، وهِيَ :

اللِّسانُ والأُذُنانِ والعَيْنانِ واليَدانِ والرِّجْلانِ والبَطْنُ والفَرْجُ[1] ، ثُمَّ يُحَلِّي هَذِهِ الجَوارِحَ السَّبْعَةَ بِالطَّاعاتِ المُناسِبَةِ لِكُلٍّ مِنْها[2] ؛ فَهَذِهِ الجَوارِحُ السَّبْعَةُ مَنافِذُ عَلَى القَلْبِ إِمَّا أَنْ تَصُبَّ عَلَيْهِ ظُلُماتِ المَعاصِي فَتُكَدِّرَهُ وتُمْرِضَهُ ، وإِمَّا أَنْ تُدْخِلَ عَلَيْهِ أَنْوارَ الطَّاعاتِ فَتَشْفِيَهُ وتُنَوِّرَهُ .

ثُمَّ يَنْتَقِلُ في المُجاهَدَةِ إِلَى الصِّفاتِ الباطِنَةِ فَيُبَدِّلُ صِفاتِهِ النَّاقِصَةَ كالكِبْرِ والرِّياءِ والغَضَبِ ... بِصِفاتٍ كامِلَةٍ كالتَّواضُعِ والإِخْلاصِ والحِلْمِ .

وبِما أَنَّ طَرِيقَ المُجاهَدَةِ وَعْرُ المَسالِكِ مُتَشَعِّبُ الجَوانِبِ ، يَصْعُبُ عَلَى السَّالِكِ أَنْ يَلِجَهُ مُنْفَرِداً كانَ مِنَ المُفِيدِ عَمَلِيّاً صُحْبَةُ مُرْشِدٍ خَبِيرٍ بِعُيُوبِها ،

---

(١) لِكُلِّ جارِحَةٍ مِنَ الجَوارِحِ السَّبْعَةِ مَعاصٍ تَتَعَلَّقُ بِها ، فَمِنْ مَعاصِي اللِّسانِ : الغِيبَةُ والنَّمِيمَةُ والكَذِبُ والفُحْشُ ، ومِنْ مَعاصِي الأُذُنَيْنِ : سَماعُ الغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ والأَغانِي الفاحِشَةِ ، ومِنْ مَعاصِي العَيْنَيْنِ : النَّظَرُ لِلنِّساءِ الأَجْنَبِيَّاتِ وعَوْراتِ الرِّجالِ ، ومِنْ مَعاصِي اليَدَيْنِ : إِيذاءُ المُسْلِمِينَ وقَتْلُهُم ، وأَخْذُ أَمْوالِهِمْ بِالباطِلِ ، ومُصافَحَةُ النِّساءِ الأَجْنَبِيَّاتِ بِشَهْوَةٍ ، ومِنْ مَعاصِي الرِّجْلَيْنِ : المَشْيُ إِلَى مَحَلَّاتِ المُنْكَراتِ والفُجُورِ ، ومِنْ مَعاصِي البَطْنِ : أَكْلُ المالِ الحَرامِ ، وأَكْلُ لَحْمِ الخِنْزِيرِ ، وشُرْبُ الخُمُورِ ، ومِنْ مَعاصِي الفَرْجِ : الزِّنا واللِّواطَةُ .

(٢) فَمِنْ طاعاتِ اللِّسانِ : قِراءَةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ ، وذِكْرُ اللهِ تَعالَى ، والأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ، ومِنْ طاعاتِ الأُذُنَيْنِ : سَماعُ القُرْآنِ الكَرِيمِ والأَحادِيثِ النَّبَوِيَّةِ والنَّصائِحِ والمَواعِظِ ، ومِنْ طاعاتِ العَيْنَيْنِ : النَّظَرُ إِلَى وُجُوهِ العُلَماءِ والصَّالِحِينَ ، إِلَى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، والنَّظَرُ التَّأَمُّلِي لِآياتِ اللهِ في الكَوْنِ ، ومِنْ طاعاتِ اليَدَيْنِ : مُصافَحَةُ المُؤْمِنِينَ ، وإِعْطاءُ الصَّدَقاتِ ، ومِنْ طاعاتِ الرِّجْلَيْنِ : المَشْيُ إِلَى المَساجِدِ وإِلَى مَجالِسِ العِلْمِ ، وعِيادَةُ المَرِيضِ ، والإِصْلاحُ بَيْنَ النَّاسِ ، ومِنْ طاعاتِ البَطْنِ : تَناوُلُ الطَّعامِ الحَلالِ بِنِيَّةِ التَّقَوِّي عَلَى طاعَةِ اللهِ تَعالَى ، ومِنْ طاعاتِ الفَرْجِ : النِّكاحُ المَشْرُوعُ بُغْيَةَ الإِحْصانِ وتَكْثِيرِ النَّسْلِ .

عالِم بِطُرُقِ مُعالَجَتِها ومُجاهَدَتِها ، يَسْتَمِدُّ المُرِيدُ مِنْ صُحْبَتِهِ خِبْرَةً عَمَلِيَّةً بِأَساليبِ تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ ، كَما يَكْتَسِبُ مِنْ رُوحانِيَّتِه نَفَحاتٍ قُدْسِيَّةً تَدْفَعُ المُرِيدَ إِلَى تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وشَخْصِيَّتِهِ ، وتَرْفَعُهُ فَوْقَ مُسْتَوى النَّقائِصِ والمُنْكَرات .

فَقَدْ كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المُرْشِدَ الأَوَّلَ والمُزَكِّيَ الأَعْظَمَ الَّذِي رَبَّى أَصْحابَهُ الكِرامَ وزَكَّى نُفُوسَهُم بِقالِهِ وحالِهِ ، كَما وَصَفَهُ اللهُ تَعالَى بِقَوْلِهِ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ (١) .

ومِنْ هُنا نَجِدُ أَنَّ التَّزْكِيَةَ شَيْءٌ وتَعْلِيمَ الكِتابِ والحِكْمَةِ شَيْءٌ آخَرُ ، لِذا قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ . فَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ عِلْمِ الصِّحَّةِ وحالَةِ الصِّحَّةِ ، إِذْ قَدْ يَكُونُ الطَّبِيبُ الماهِرُ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمُ الصِّحَّةِ فاقِداً حالَةَ الصِّحَّةِ ومُصاباً بِالأَمْراضِ والعِلَلِ الكَثِيرَة .

وكَذَلِكَ الفَرْقُ ظاهِرٌ بَيْنَ عِلْمِ الزُّهْدِ وحالَةِ الزُّهْدِ ، كالمُسْلِمِ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ واسِعٌ بِالآياتِ والأَحادِيثِ والشَّواهِدِ المُتَعَلِّقَةِ بِالزُّهْدِ ولَكِنَّه يَفْقِدُ حالَةَ الزُّهْدِ ويَتَّصِفُ بِالطَّمعِ والشَّرَهِ والتَّكالُبِ عَلَى الدُّنْيا الفانِيَة .

والَّذي يُحَقِّقُ النَّفْعَ لِلْمُرِيدِ هُوَ اسْتِقامَتُهُ عَلَى صُحْبَةِ مُرْشِدِهِ واسْتِسْلامُهُ لَهُ كاسْتِسْلامِ المَرِيضِ لِلطَّبِيبِ ، فَإِذا ما أَدْخَلَ الشَّيْطانُ عَلَى قَلْبِ المُرِيدِ داءَ الغُرورِ والاكْتِفاءَ الذَّاتِيَّ فَأُعْجِبَ بِنَفْسِهِ واسْتَغْنَى عَنْ مُلازَمَةِ شَيْخِهِ باءَ بِالفَشَلِ ووَقَفَ وهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ سائِرٌ ، وقُطِعَ وهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مَوْصُولٌ .

قالَ ابْنُ عَجِيبَة : (لا بُدَّ لِلْمُرِيدِ في أَوَّلِ دُخُولِهِ الطَّرِيقَ مِنْ مُجاهَدَةٍ ومُكابَدَةٍ وصِدْقٍ وتَصْدِيقٍ ، وهِيَ مَظْهَرٌ ومَجْلاةٌ لِلنِّهاياتِ ، فَمَنِ احْتَرَقَتْ بِدايَتُهُ أَشْرَقَتْ نِهايَتُهُ ، فَمَنْ رَأَيْناهُ جادّاً في طَلَبِ الحَقِّ باذِلاً نَفْسَهُ ومالَهُ ورُوحَهُ

---

(١) سُورَةُ الجُمُعَة ، الآيَة ٢ .

وعِزَّهُ وجاهَهُ ابْتغاءَ الوصُولِ إلَى التَّحَقُّقِ بالعُبُودِيَّةِ والقِيامِ بوَظائِفِ الرُّبُوبِيَّةِ ؛ عَلِمْنا إشْراقَ نِهايَتِهِ بالوصُولِ إلَى مَحْبُوبِهِ ، وإذا رَأيْناهُ مُقَصِّراً عَلِمْنا قُصُورَهُ عَمَّا هُنالِك) [١] .

والخُلاصَةُ : إنَّ المُجاهَدَةَ أصْلٌ مِنْ أُصُولِ طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ . وقَدْ قالُوا : مَنْ حَقَّقَ الأُصُولَ نالَ الوصُولَ ، ومَنْ تَرَكَ الأُصُولَ حُرِمَ الوصُولَ .

وقالُوا أيْضاً : مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بِدايَةٌ مُحْرِقَةٌ (بِالمُجاهَداتِ) لَمْ تَكُنْ لَهُ نِهايَةٌ مُشْرِقَةٌ ، والبِداياتُ تَدُلُّ عَلَى النِّهايات .

الهَوَى

الهَوَى : هُوَ أحَدُ مَراكِزِ النَّفْسِ في الشَّهْوَةِ ، بَلْ هُوَ مَرْكَزٌ لِلشَّهْوَةِ في المُخالَفات .

ومِنْ هُنا قِيلَ : التَّصَوُّفُ رَفْضُ الهَوَى ، وقَدْ قِيلَ : كُلَّما اجْتَنَبْتَ هَواكَ قَوِيَ إيمانُك .

كَما قِيلَ : كُلَّما اجْتَنَبْتَ ذاتَكَ قَوِيَ تَوْحِيدُك [٢] .

وقَدْ قِيلَ ؛ الهَوَى : هُوَ مَيْلُ النَّفْسِ إلَى مُقْتَضَياتِ الطَّبْعِ ، والإعْراضُ عَنِ الجِهَةِ العُلْوِيَّةِ بالتَّوَجُّهِ إلَى الجِهَةِ السُّفْلِيَّة [٣] .

وقِيلَ أيْضاً ؛ الهَوَى : هُوَ مَيَلانُ النَّفْسِ إلَى ما تَسْتَلِذُّهُ مِنَ الشَّهَواتِ مِنْ غَيْرِ داعِيَةِ الشَّرْع [٤] .

الأعْراض

مُفْرَدُها العَرَضُ : وهُوَ كُلُّ ما يَعُوقُ الصُّوفِيَّ في طَرِيقِ الحَقِّ ، ومِنْ هُنا قالَ ابْنُ عَطاءِ اللهِ : (الفَقِيرُ هُوَ المُجَرَّدُ عَنِ العَلائِقِ المُعْرِضُ عَنِ العَوائِقِ لَمْ

(١) إيقاظُ الهِمَمْ في شَرْحِ الحِكَم .
(٢) ابْنُ عَرَبي (اصْطِلاحاتُ الصُّوفِيَّة) .
(٣) الكاشاني (إصْطِلاحات الصُّوفِيَّة) .
(٤) الجُرْجاني (التَّعْريفات) .

يَبْقَ لَهُ قِبلَةٌ ولا مَقْصِدٌ إلاَّ اللهُ تَعالَى ، وقَدْ أَعْرَضَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِواهُ وتَحقَّقَ بِحَقِيقَةِ لا إلهَ إلاَّ الله)[١].

ولَقَدْ قِيلَ : إذا تَحقَّقَ السَّالِكُ بِمقامِ المُراقَبَةِ ، أَعْرَضَ عَنِ الخَلْقِ جُمْلَةً ، ونَفَرَ عَنْهُم ، ولَمْ يَنْظُرْ إلَيْهِم إلاَّ مِنْ جِهَةِ السِّرِّ القائِمِ بِهِم ، وإنْ باشَرَهُم فَهُوَ غائِبٌ عَنْهُم جُمْلَةً . ولَمَّا سُئِلَ الإمامُ الجُنَيْدُ عَنِ الفُتُوَّةِ ، قالَ : لا تُنافِرْ فَقِيراً ، ولا تُعارِضْ غَنِيّاً[٢].

العَلاقَة

العَلاقَةُ أَوِ العَلَقُ : هُوَ الحُبُّ المُلازِمُ لِلْقَلْبِ ، فَمُشْتَقٌّ مِنَ التَعلُّقِ وهُوَ اللُّزوم[٣].

وحُبُّ اللهِ تَحْلِيَةٌ وتَخْلِيَةٌ يُوصِّلانِ إلَى التَّجْلِيَةِ ؛ تَحْلِيَةُ المُؤْمِنِ بِالطَّاعَةِ والقِيامِ بتَكالِيفِ اللهِ عَلَى خَيْرِ وَجْهٍ ، وتَخْلِيَةٌ بِها يَتَجَرَّدُ العابدُ لِلْعِبادَةِ بِالتَّخلِّي عَنْ كُلِّ ما يُشِينُهُ كَمُؤْمِنٍ وعَن كُلِّ ما يَشُوبُ العَلاقَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ ، وبِالتَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ تَكُونُ التَّجْلِيَةُ ، والظُّهورُ ، والرِّعايَةُ ، والعِنايَةُ ، والعَطاءُ ، والطَّاعَةُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ دَلِيلٌ وعَلامَةٌ وأَمارَةٌ عَلَى حُبِّ اللهِ ، فالمُحِبُّ يُطِيعُ مَنْ أَحَبَّ ويُنَفِّذُ أَمْرَهُ فِي رِضىً وسَعادَة[٤].

الدَّعْوَى

يَرَى أَئِمَّةُ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ (الدَّعْوَى) : الإضافَةُ إلَى النَّفْسِ ما لَيْسَ لَها ، وبِهَذا المَعْنَى تَكُونُ الدَّعْوَى إدِّعاءً مِنَ الإنْسانِ لِشَيْءٍ لا يَفْعَلُهُ ولا يَمْلُكُهُ ، كَأَنْ يَدَّعِيَ الإنْسانُ بَعْضَ الطَّاعاتِ ، وهِيَ لَيْسَتْ جُزْءاً مِنْ أَخْلاقِهِ ، فَيُضِيفُ شَيْئاً إلَى نَفْسِهِ لَيْسَ فِيها ، فَيُحْجَبُ بِهَذِهِ الدَّعْوَى عَنْ مَعْرِفَةِ الحَقائِق[٥].

وصاحِبُ الدَّعْوَى يَزْعُمُ أَنَّهُ بِادِّعائِهِ وَصَلَ إلَى الحَقِيقَةِ ، وهُوَ بِدَعْواهُ هَذِهِ

---

(١) عَبْدُ الحَلِيم مَحْمُود (أَبو مَدْيَن الغَوْث) . (٢) ابْنُ قَيِّم الجَوْزِيَّة (مَدارِجُ السَّالِكِين) .
(٣) ابْنُ الخَطِيب (رَوْضَةُ التَّعْرِيف بِالحُبِّ الشَّرِيف) . (٤) مَحْمُود بنُ الشَّرِيف (الحُبُّ فِي القُرْآن) .
(٥) السَّرّاجُ الطُّوسِي (اللُّمَع) .

أَقْرَبُ إِلَى الضَّلالِ مِنْهُ إِلَى الإِيمان .

ومِنَ الدَّعاوَى الَّتي تَدَّعِيها النَّفْسُ لِذاتِها : السَّخاءُ والكَرَمُ والبَذْلُ والتُّقَى والفُتُوَّةُ وغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَخْلاقِ الحَميدَةِ ، فَإِذا طالَبْتَها بِتَرْجَمَةِ ذَلِكَ إِلَى أَفْعالٍ وامْتَحَنْتَها لَمْ تَجِدْها إِلاَّ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً[1].

المَحْوُ والإِثْبات

المَحْوُ : مُصْطَلَحٌ مِنْ مُصْطَلَحاتِ الصُّوفِيَّةِ وَضَعَهُ الإمامُ (الجُنَيْدُ) ويَعْنِي رَفْعَ أَوْصافِ العادَةِ (مِنْ مَيْلٍ إِلَى المُخالَفاتِ وإِسْرافٍ فى الشَّهْواتِ) ، وقِيلَ : إِزَالَةُ العِلَّة[2] (فَمَنْ نَفَى عَنْ أَحْوالِهِ الخِصالَ الذَّمِيمَةَ ، وأَتَى بَدَلاً مِنْها بِالأَفْعالِ والأَحْوالِ الحَمِيدَةِ) ، فَهُوَ صاحِبُ مَحْوٍ وإِثْبات .

الصِّدْق

الصِّدْقُ : يَرَى الصُّوفِيَّةُ أَنَّ الصَّادِقَ مَنِ اعْتادَ الصِّدْقَ ، فَإِذا وَصَلَ إِلَى العادَةِ أَصْبحَ صَدُوقاً ، وهُنا يُصْبِحُ الصِّدْقُ خُلُقاً مِنْ أَخْلاقِهِ في الدُّنْيا والآخِرَة .

ويَقُولُ الجاحِظُ : (الصِّدْقُ والوَفا : تَوْأَمان ، والصَّبْرُ والحِلْمُ : تَوْأَمان[3]، فَبِهِنَّ تَمامُ كُلِّ دِينٍ وصَلاحُ كُلِّ دُنْيا ، وأَضْدادُهُنَّ سَبَبُ كُلِّ فُرْقَةٍ وأَصْلُ كُلِّ فَساد[4]) ويَقُولُ الدَّارانِي : (اجْعَلِ الصِّدْقَ مَطِيَّتَكَ ، والحَقَّ سَيْفَكَ ، واللهَ تَعالَى غايَتَكَ ومَطْلَبَكَ) ، فَكَأَنَّ الدَّارانِيَّ يَتَّخِذُ مِنَ الصِّدْقِ أَساساً مِنْ أُسُسِ الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، ومِيزاناً لِلْمُجاهَدَةِ والطَّاعَةِ ، يُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ عَلَى الحَقِيقَةِ مُدَلِّلاً عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (لَوْ أَرادَ الصَّادِقُ أَنْ يَصِفَ ما في قَلْبِهِ ما نَطَقَ لِسانُه[5]) ولِلصِّدْقِ عِنْدَ (الغَزالي) تَعْرِيفٌ جُوَّانِي ، فَهُوَ

---

(١) حَسَن مُحَمَّد الشَّرْقاوى (نَحْوَ علم نَفس إِسْلامي) . (٢) أبنُ عَربي (اصْطِلاحات صُوفية) .
(٣) حَسَن مُحَمَّد الشَّرْقاوِى (الشَّرِيعَة والحَقيقة) . (٤) الماوردي (أَدَبُ الدُّنيا والدِّين) .
(٥) أبو نُعَيم الأَصْبَهانى (حِلْيَةُ الأَولياء) .

يَقُولُ : (الصِّدْقُ في وَصْفِ العَبْدِ هُوَ اسْتِواءُ السِّرِّ والعَلانِيَةِ ، والظَّاهِرِ والباطِنِ)[١].

الصَّفاء

الصَّفاءُ النَفْسِيُّ : هُوَ تَصْفِيَةُ النَّفْسِ مِنْ كُلِّ مَذْمُومٍ ، وتَحْلِيَتُها بِكُلِّ مَحْمُود .

وإذا ما تَأَمَّلْنا قَوْلَ الإمامِ الجُنَيْد : (التَّصَوُّفُ هُوَ أَنْ يُمِيتَكَ الحَقُّ عَنْكَ ، ويُحْيِيَكَ بِهِ) ، تَبَيَّنَّا : أَنَّ أَخَصَّ خصائِصِ المُتَحَقِّقِ بِالتَّصَوُّفِ هُوَ أَنْ يَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ ، ويَبْقَى بِرَبِّهِ ، بِحَيْثُ لا يَكُونُ قائِماً في الأَشْياءِ ، ولا مُرِيداً لَها ، أَو مُنْصِرِفاً عَنْها بِإِرادَتِهِ هُوَ بَلْ يَكُونُ كَذَلِكَ بِإِرادَةِ الله)[٢].

اليَقِين

اليَقِينُ : عِنْدَ العارِفِينَ هُوَ رُؤْيَةُ العَيانِ ، وقُوَّةُ الإِيمانِ لا بِالحُجَّةِ والبُرْهانِ[٣] كَما قالَ الإمامُ (الجُنَيْد) : (اليَقِينُ هُوَ اسْتِقْرارُ العِلْمِ الَّذي لا يَنْقَلِبُ ولا يَتَحَوَّلُ ولا يَتَغَيَّرُ ، ويُمْكِنُ القَوْلُ : إِنَّ الاعْتِقادَ والعِلْمَ إِذا اسْتَوَيا عَلَى القَلْبِ ولَمْ يَكُنْ لَهُما مُعارِضٌ أَثْمَرا في القَلْبِ المَعْرِفَةَ فَسُمِّيَتْ هَذِهِ المَعْرِفَةُ يَقِيناً ، لأَنَّ حَقِيقَةَ اليَقِينِ صَفاءُ العِلْمِ المُكْتَسَبِ حَتَّى يَصِيرَ كالعِلْمِ الضَّرُورِيِّ ، ويَصِيرَ القَلْبُ مُشاهِداً لِجَمِيعِ ما أَخْبَرَ عَنْهُ الشَّرْعُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيا والآخِرَة)[٤].

الوَفاء

وهُوَ عَلَى أَرْبَعِ دَرَجات :

فَهُوَ لِلْعامَّةِ : العِبادَةُ رَغْبَةً في الوَعْدِ ورَهْبَةً مِن الوَعِيد .

ولِلْخاصَّةِ : العُبُودِيَّةُ عَلَى الوقُوفِ مَعَ الأَمْرِ لِنَفْسِ الأَمْرِ وُقُوفاً عِنْدَ واحِدٍ ، ووَفاءً بِما أُخِذَ عَلَى العَبْدِ ، لا رَغْبَةً ولا رَهْبَةً ولا غَرَضاً .

---

(١) عُثْمان أَمين (الجُوانِيَّة) .
(٢) مُحَمَّد مُصْطَفى (دراساتٌ عَنْ الجُنَيْد البَغْدادى) .
(٣) قاسِم غني (تاريخُ التَّصَوُّف في الإِسْلام) .
(٤) الغَزالي (رَوْضَةُ الطَّالبِينَ وعُمْدَةُ السَّالِكين) .

ولِخاصَّةِ الخاصَّةِ : العُبُودِيَّةُ عَلَى التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقُوَّة .
ولِلْمُحِبِّ : صَوْنُ قَلْبِهِ عَنِ الاتِّساعِ لِغَيْرِ المَحْبُوب .

الطَّاعَةُ

الطَّاعَةُ لُغَةً : هِيَ الاسْتِجابَةُ والانْقِيادُ ، وكُلُّها بِمَعْنَى لانَ وانْقادَ ، ولَقَدْ وَرَدَ هَذا المَعْنَى في قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[1] فَطاعَةُ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى واجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ أَرادَ تَقْوَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، مِنْ هُنا كانَتِ الطَّاعَةُ لِباساً شَرِيفاً لا يَتَزَيَّى بِهِ إِلاَّ أَهْلُهُ .
وكَما أَنَّ بَيْنَ النَّاسِ اخْتِلافاً واضِحاً في الطَّاعاتِ الظَّاهِرَةِ ، فَإِنَّ بَيْنَهُم أَيْضاً اخْتِلافاً باطِناً في الأَعْمالِ والطَّاعاتِ الباطِنَة .
فالطَّاعَةُ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِيقَةِ مُنافَسَةٌ شَرِيفَةٌ صادِقَةٌ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى إِلَى أَنْ يَصِلَ العَبْدُ إِلَى الثَّباتِ في المَرْتَبَة .[2]
والطَّاعَةُ واجِبَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ فَهُوَ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ، ولا يَنْسَى شَيْئاً مِمَّا أَمَرَهُ اللهُ بِتَبْلِيغِهِ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى .
كَما أَنَّ الطَّاعَةَ بابٌ جامِعٌ لأَشْتاتِ العِبادَةِ ، ومِنْهاجٌ واضِحٌ إِلَى مَحَلِّ السَّعادَةِ بِها تُنالُ الخَيْراتُ وتُجابُ الدَّعَواتُ ، وتَظْهَرُ مِنَ اللهِ تَعالَى لأَوْلِيائِهِ الكَراماتُ وتُرْفَعُ لَهُم في دارِ المُقامَةِ الدَّرَجاتُ ، وهِيَ حَقٌّ بَيِّنٌ وفَرْضٌ مُتَعَيِّنٌ ، أَوْجَبَهُ اللهُ تَعالَى عَلَى جَمِيعِ العِبادِ ووَعَدَهُم عَلَيْهِ حُسْنَ الثَّوابِ في المَعاد .

---

(١) سورة آل عمران مِنَ الآية ٨٣ .
(٢) الشّعراني (اليَواقيتُ والجَواهر) .

حِفْظُ الصَّلاة

الصَّلاةُ : عِمادُ الدِّينِ وأَساسُهُ ، وشُكْرُ المُنْعِمِ المُتَجَدِّدُ عَلَى عَمِيمِ نَعْمائِهِ ، المُتَكَرِّرُ في كُلِّ يَوْمٍ جَدِيدٍ ، قالَ تَعالَى :﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[١].

والصَّلاةُ مَوْطِنٌ مِنْ مَواطِنِ القُرْبِ لِقَوْلِهِ تَعالَى :﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾[٢].

إِنَّ الصَّلاةَ عِنْدَ أَهْلِ اللهِ تَعالَى تُمَثِّلُ لِقاءً حَقِيقِيّاً مَعَ ذِي الجَلالِ والإِكْرامِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كانَ يَغْشَى أَرْواحَهُمْ ما يَغْشَى وهُمْ قائِمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحانَهُ ، ويُصَلُّونَ لَهُ ويَتْلُونَ آياتِهِ ، وإِنَّهُم لَمُتَفاوِتُونَ بَيْنَ المُحافَظَةِ عَلَى الصَّلاةِ والحِفْظِ لَها .

ولَيْسَتِ المُشْكِلَةُ عِنْدَهُم المُحافَظَةَ عَلَيْها ، أَى تَأْدِيَتَها في أَوْقاتِها ، بَلْ حِفْظَها أَي تَأْدِيَتَها بِالخُشُوعِ الكامِلِ والمُثُولِ لِلْحَقِّ .

وهُنا يَقُولُ أَبو بَكْرٍ بنُ العَربي : (إِنِّي لأَعْرِفُ مِنَ الَّذينَ يُحافِظُونَ عَلَى الصَّلاةِ آلافاً أَحْصَيْتُهُم ، أَمَّا الَّذِينَ يَحْفَظُونَها فَلا أَجِدُ مِنْهُم خَمْسَة) .

الفَناءُ والبَقاء

أَشارَ القَوْمُ بِالفَناءِ : إِلَى سُقُوطِ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ ، وأَشاروا بِالبَقاءِ : إِلَى بُروزِ الأَوْصافِ المَحْمُودَةِ ، وإِذا كانَ العَبْدُ لا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ هَذَيْنِ (النَّوْعَيْنِ مِنَ الأَوْصافِ) فَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ إِذا لَمْ يُوجَدْ عِنْدَ الإِنْسانِ أَحَدُ القِسْمَيْنِ وُجِدَ الآخَرُ لا مَحالَةَ ، فَمَنْ فَنِيَ عَنْ أَوْصافِهِ الذَّمِيمَةِ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ الصِّفاتُ المَحْمُودَةُ ، ومَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الصِّفاتُ الذَّمِيمَةُ اسْتَتَرَتْ عَنْهُ الصِّفاتُ المَحْمُودَة .

واعْلَمْ أَنَّ ما يَتَّصِفُ بِهِ العَبْدُ يَشْمَلُ أَفْعالاً وأَخْلاقاً وأَحْوالاً : فالأَفْعالُ هِيَ

---

(١) سُورَةُ طه مِنَ الآية ١٤ .   (٢) سُورَةُ العَلَق مِنَ الآية ١٩ .

تَصرُّفاتُ الإِنْسانِ باخْتِيارِهِ ، والأَخْلاقُ جِبِلَّةٌ فيهِ ولَكِنَّها تَتَغَيَّرُ بِمُعالَجَتِهِ حَسَبَ اسْتِمرارِ عاداتِهِ ، وأَمَّا الأَحْوالُ فَإِنَّها تَرِدُ عَلَى العَبْدِ عَلَى وَجْهِ الابْتِداءِ ، ولَكِنَّ صَفاءَها بَعْدَ زَكاءِ الأَعْمالِ [1] ، فَهِيَ كالأَخْلاقِ مِنْ هَذا الوَجْهِ ؛ لأَنَّ العَبْدَ إِذا نازَلَ الأَخْلاقَ بِقَلْبِهِ وَنَفَى بِجُهْدِهِ سَفْسافَها مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِتَحْسِينِ أَخْلاقِهِ [2] ، فَكَذَلِكَ إِذا واظَبَ عَلَى تَزْكِيَةِ أَفْعالِهِ بِبَذْلِ ما وِسْعِهِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِتَصْفِيَةِ أَحْوالِهِ ، بَلْ بِتَوْفِيَةِ أَحْوالِهِ (اسْتِكْمالِها) ، فَمَنْ تَرَكَ أَفْعالَهُ الذَّمِيمَةَ بِلِسانِ الشَّرِيعَةِ فَإِنَّهُ فَنِيَ عَنْ شَهَواتِهِ ، فَإِذا فَنِيَ عَنْ شَهَواتِهِ بَقِيَ بِنِيَّتِهِ وإِخْلاصِهِ في عُبُودِيَّتِهِ ، ومَنْ زَهِدَ في دُنْياهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ فَنِيَ عَنْ رَغْبَتِهِ فَإِذا فَنِيَ عَنْ رَغْبَتِهِ فِيها بَقِيَ بِصِدْقِ إِنابَتِهِ (إِقْبالِهِ) ، ومَنْ عالَجَ أَخْلاقَهُ فَنَفَى عَنْ قَلْبِهِ الحَسَدَ والحِقْدَ والبُخْلَ والشُّحَّ والغَضَبَ والكِبْرَ وأَمْثالَ هَذا مِنْ رُعُوناتِ النَّفْسِ [3] ، فَقَدْ فَنِيَ عَنْ سُوءِ الخُلُقِ ، فَإِذا فَنِيَ عَنْ سُوءِ الخُلُقِ بَقِيَ بِالفُتُوَّةِ والصِّدْقِ ، ومَنْ شاهَدَ جَرَيانَ القُدْرَةِ في تَصارِيفِ الأَحْكامِ (يُقالُ) فَنِيَ عَنْ حُسْبانِ الحَدَثانِ [4] مِنَ الخَلْقِ ، فَإِذا فَنِيَ عَنْ تَوَهُّمِ الآثارِ مِنَ الأَغْيارِ بَقِيَ بِصِفاتِ الحَقِّ ، ومَنِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ سُلْطانُ الحَقِيقَةِ حَتَّى لَمْ يَشْهَدْ مِنَ الأَغْيارِ لا عَيْناً ولا أَثَراً ولا رَسْماً ولا طَلَلاً فَقَدْ فَنِيَ عَنِ الخَلْقِ وبَقِيَ بِالحَقِّ ، فَفَناءُ العَبْدِ عَنْ أَفْعالِهِ الذَّمِيمَةِ وأَحْوالِهِ الخَسِيسَةِ بِعَدَمِ فِعْلِها ، وفَناؤُهُ عَنْ نَفْسِهِ وعَنِ الخَلْقِ بِزَوالِ إِحْساسِهِ بِنَفْسِهِ وبِهِم ، فَإِذا فَنِيَ عَنِ الأَفْعالِ والأَخْلاقِ والأَحْوالِ فَلا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ما فَنِيَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ مَوْجُوداً .

وإِذا قِيلَ : لَقَدْ فَنِيَ الإِنْسانُ عَنْ نَفْسِهِ وعَنِ الخَلْقِ ، فَنَفْسُهُ مَوْجُودَةٌ والخَلْقُ مَوْجُودونَ ، ولَكِنْ لا عِلْمَ لَهُ بِهِم ولا بِهِ ، ولا إِحْساسَ ولا خَبَرَ ، فَتَكُونُ نَفْسُهُ

---

(١) زكاءُ الأَعْمالِ : نُمُوُّها وحَسُنُها .
(٢) مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِتَحْسِينِ أَخْلاقِهِ المَحْمُودَةِ كالتَّواضُعِ والصَّبْرِ والزُّهْدِ ، وقَدْ أَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعالِيَ الأُمُورِ ويَكْرَهُ سَفْسافَها) .
(٣) رُعوناتُ النَّفْسِ : حَماقاتُها .
(٤) الحَدَثان : أَوَّلُ الأَمْرِ وابْتِداؤُهُ ، وحَدَثانُ الدَّهْرِ : نَوائِبُه .

مَوْجُودَةً والخَلْقُ مَوْجُودِينَ ، ولَكِنْ لا عِلْمَ بِهِم ولا بِهِ ، ولاإحْساسَ ولا خَبَرَ ، ولكِنَّهُ غافِلٌ عَنْ نَفْسِهِ وعَنِ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، غَيْرُ حاسٍّ بِنَفْسِهِ ولا بِالخَلْقِ (لِكَمالِ اشْتِغالِهِ بِما هُوَ أَرْفَعُ مِنْ ذَلِكَ) .

وقَدْ تَرَى الرَّجُلَ يَدْخُلُ عَلَى ذِي سُلْطانٍ أَو مُحْتَشِمٍ فَيَذْهَلُ عَنْ نَفْسِهِ وأَهْلِ مَجْلِسِهِ ، وهَيْئاتِ ذَلِكَ الصَّدْرِ ، وهَيْئاتِ نَفْسِهِ ، فلا يُمكِنُهُ الإِخْبارُ عَنْ شَيْءٍ قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1] .

حَيْثُ لَمْ يَجِدْنَ عِنْدَ لِقاءِ سَيِّدِنا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى الوَهْلَةِ الأُولَى أَلَمَ قَطْعِ الأَيْدِي ، وهُنَّ أَضْعَفُ النَّاسِ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[2] فَهَذا تَغافُلُ مَخْلُوقٍ عَنْ أَحْوالِهِ عِنْدَ لِقاءِ مَخْلُوقٍ آخَرَ ، فَما ظَنُّكَ بِمَنْ تَكاشَفَ بِشُهُودِ الحَقِّ سُبْحانَهُ ، فَلَوْ تَغافَلَ بِنَفْسِهِ وأَبْناءِ جِنْسِهِ فَأَيَّةُ أُعْجُوبَةٍ فيهِ ؟ فَمَنْ فَنِيَ عَنْ جَهْلِهِ بَقِيَ بِعِلْمِهِ ، ومَنْ فَنِيَ عَنْ شَهْوَتِهِ بَقِيَ بِإِنابَتِهِ ، ومَنْ فَنِيَ عَنْ رَغْبَتِهِ بَقِيَ بِزُهْدِهِ ، ومَنْ فَنِيَ عَنْ أَمَلِهِ بَقِيَ بِإِرادَتِهِ ، وكَذَلِكَ القَوْلُ في جَمِيعِ تَصَرُّفاتِهِ ، فَإِذا فَنِيَ العَبْدُ عَنْ صِفَتِهِ بِما جَرَى ذِكْرُهُ يَرْتَقِي عَنْ ذَلِكَ بِفَنائِهِ عَنْ رُؤْيَةِ فَنائِهِ[3] ، وإِلَى هَذا أَشارَ الشَّاعِرُ :

فَقَومٌ تاهَ في أَرْضٍ بِقَفْرٍ * وقَوْمٌ تاهَ في مَيْدانِ حُبِّهِ
فَأُفْنُوا ثُمَّ أُفْنُوا * وأُبْقُوا بِالبَقا مِنْ قُرْبِ قُرْبِهِ

فَالأَوَّلُ فَناءٌ عَنْ نَفْسِهِ وصِفاتِهِ ؛ بِبَقائِهِ بِصِفاتِ الحَقِّ ، ثُمَّ فَناؤُهُ عَنْ صِفاتِ الحَقِّ بِشُهُودِهِ الحَقَّ ، ثُمَّ فَناؤُهُ عَنْ شُهودِ فَنائِهِ بِاسْتِهْلاكِهِ فى وُجُودِ الحَقِّ .

وهَذا يَعْنِي فَناءَ إِرادَةِ العَبْدِ في إِرادَةِ اللهِ بِاللهِ ، لافَناءَ الوجُودِ في الوُجُودِ فَإِنَّ هَذا يَسْتَلْزِمُ المُجانَسَةَ وهِيَ مَعْدومَةٌ ، فَجِنْسُ المَخْلُوقِ غَيْرُ جِنْسِ الخالِقِ .

(١ ، ٢) سورة يُوسُف الآية ٣١ .
(٣) فَلا يُحِسُّ بِفَنائِهِ لِعَدَمِ ذِكْرِ أَحْوالِ نَفْسِهِ ، وهَذا فَناءُ الفَناءِ فَإِنَّهُ فَنِيَ عَنْ فَنائِهِ .

المُشاهَدَة

المُشاهَدَةُ : هُوَ أَنْ يَعْمَلَ العَبْدُ عَلَى مُقْتَضَى مُشاهَدَتِهِ لِلَّهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى بِقَلْبِهِ ، وهَذا يَعْنِي أَنْ يُقْذَفَ في قَلْبِهِ نُورُ الإِيمانِ ، وتَنْفُذَ البَصِيرَةُ في العِرْفانِ حَتَّى يَصِيرَ الغَيْبُ كالعَيانِ ، وهَذا هُوَ مَقامُ الإِحْسانِ المُشارُ إِلَيْهِ في حَدِيثِ جِبْرِيلَ عليه السلام .

لِذَلِكَ يَتفاوَتُ أَهْلُ هَذِهِ المقاماتِ فيهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ نَفاذِ البَصائِرِ[1].

والمُشاهَدَةُ إِنَّما تَعْنِي كَشْفَ الحِجابِ عَنْ نُورِ القُدُسِ ، فالواصِلُ يُشاهِدُ رُبُوبِيَّةَ الحَقِّ تَعالَى في عالَمِ مَلَكُوتِهِ ، والحَقُّ سُبْحانَهُ وتَعالَى يُشاهِدُ عُبُودِيَّةَ السَّالِكِ في عالَمِ مُلْكِهِ ، وبِذَلِكَ فَمُشاهَدَةُ العَبْدِ هِيَ شُهُودُ العَظَمَةِ بِالعَظَمَةِ ، أَمَّا مُشاهَدَةُ الرَّبِّ لِلعَبْدِ فهِيَ إِحاطَتُهُ تَعالَى بِعِلْمِهِ وأَحْوالِهِ وأَسْرارِهِ[2].

المُعايَنَة

تَأْتِي المُعايَنَةُ بَعْدَ المُشاهَدَةِ ، فَإِذا كانَتِ المُشاهَدَةُ هِيَ الدَّرَجَةَ الأُولَى فَإِنَّ المُعايَنَةَ هِيَ الدَّرَجَةُ الثَّانِيَة .

ولَقَدْ قِيلَ : مَنْ عَرَفَ اللَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ عايَنَ أَثَرَ مُلْكِهِ فِيه .

كَما قِيلَ : المُعايَنَةُ إِنَّما تَكُونُ مُعايَنَةَ الأَبْصارِ ، ومُعايَنَةَ عَيْنِ القَلْبِ ، ومُعايَنَةَ عَيْنِ الرُّوحِ .

ولَقَدْ قِيلَ : فَناءُ العَيانِ في المُعايَنِ : فالعَيانُ فَوْقَ المَعْرِفَةِ ، فَإِنَّ المَعْرِفَةَ مَرْتَبَةٌ فَوْقَ العِلْمِ ودُونَ العَيانِ ، فَإِذا انْتَقَلَ مِنَ المَعْرِفَةِ إِلَى العَيانِ فَنِيَ عَيانُهُ

---

(١) ابْنُ رَجَبَ الحَنْبَلِي (جامِعُ العُلُومِ والحِكَم) .
(٢) ابْنُ الصَّبَّاغ ، مُحَمَّد بنُ أَبي القاسِمِ الحِمْيَري (دُرَّةُ الأَسْرار وتُحْفَةُ الأَبْرار) .
(٣) ابْنُ عَجِيبَة (إِيقاظُ الهِمَمِ في شَرْحِ الحِكَم) .

في مُعايَنَةٍ ، كَما فَنِيَتْ مَعْرِفَتُهُ في مَعْرُوفِه.[1]

المُسابَقَة

المُسابَقَةُ : لَفْظٌ مِنْ أَلْفاظِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.[2]

والسَّابِقُونَ قَدْ أَقْبَلُوا عَلَى اللهِ مُتَوَجِّهِينَ إِلَيْهِ ، طالِبِينَ الوصُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، وهُمْ عَلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ بِمُلاطَفَةِ إِحْسانِهِ ، وبِشُكْرِ إِنْعامِهِ وامْتِنانِهِ ، وهُمْ أَهْلُ مَقامِ الشُّكْرِ ، وقِسْمٌ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ بِسَلاسِلِ الامْتِحانِ وضُروبِ البَلايا والمِحَنِ ، وهُمْ أَهْلُ مَقامِ الصَّبْرِ.[3]

المُحادَثَة

المُحادَثَةُ : هِيَ خِطابُ الحَقِّ لِلْعَبْدِ في صُورَةٍ مِنْ عالَمِ المُلْكِ ، كالنِّداءِ لِسَيِّدِنا مُوسَى عليه السلام مِنَ الشَّجَرَة.[4]

وقَدْ قِيلَ ، المُحادَثَةُ : هِيَ المُكالَمَةُ القَلْبِيَّةُ بِمَعْنَى الفِكْرَةِ والجَوَلانِ في عَظَمَةِ الجَبَرُوتِ الإلَهِي ، وتَكُونُ مُحادَثَةُ السَّالِكِ لِلْحَقِّ في سِرِّهِ عَنْ طَرِيقِ مُناجاتِهِ وسُؤَالِهِ ، ويَسْتَجِيبُ لَهُ الحَقُّ تَعالَى بِمَزِيدِ إِحْسانِهِ ومِنَنِهِ ، وإذا حادَثَهُ بِدَوامِ حُضُورِهِ في سِرِّهِ ولُبِّهِ ، اسْتَجابَ لَهُ الحَقُّ تَعالَى بِإِلْقاءِ العُلُومِ والأَسْرارِ والحِكَمِ في قَلْبِهِ .

الإشارات

مُفْرَدُها الإشارَةُ ، والإِشارَةُ : ما يَخْفَى عَلَى المُتَكَلِّمِ كَشْفُهُ بِالعِبارَةِ لِلَطافَةِ

---

(١) ابْنُ القَيِّم الجَوزِيَّة (مَدارِجُ السَّالِكِين) . (٢) سُورَةُ الحَديد الآية ٢١ .
(٣) ابْنُ عَجِيبَة (إِيقاظُ الهِمَمِ في شَرْحِ الحِكَم) . (٤) الكاشاني (اصْطِلاحاتُ الصُّوفِيَّة) .

مَعْناه ، وعِلْمُ الإشارَةِ : الّذي يَكْشِفُ المَعانِيَ المَذْكُورَةَ ، واللَّطائِفَ والأَسْرارَ المَخْزونَةَ ، وغرائِبَ العُلُومِ ، وطَرائِفَ الحِكَمِ في مَعانِي القُرْآنِ الكَرِيمِ ومَعانِي أَخْبارِ الرَّسُولِ ﷺ.

اللَّوائِحُ والطَّوالِعُ واللَّوامِعُ

هَذهِ الأَلْفاظُ مُتَقارِبَةُ المَعْنَى ، لا يَكادُ يَحْصُلُ بيْنَها فَرْقٌ كَبِيرٌ ، وهِيَ مِنْ صِفاتِ أَصْحابِ البِداياتِ ، الصَّاعِدِينَ في التَّرَقِّي بِالقَلْبِ ، فَلَمْ يَدُمْ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ضِياءُ شُمُوسِ المَعارِفِ ، ولَكِنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ وتَعالَى يُؤْتِي رِزْقَ قُلُوبِهِم في كُلِّ حِين .

وكُلَّما أَظْلَمَتْ عَلَيْهِم سَماءُ القُلُوبِ بسَحابِ الحُظُوظِ سَنَحَتْ لَهُم فِيها لَوائِحُ الكَشْفِ ، وتَلأْلأَتْ لوامِعُ القُرْبِ ، وهُمْ في زَمانِ سَتْرِهِمْ يَرْقُبُونَ فَجْأَةَ اللَّوائِحِ فَتَكُونُ أَوَّلاً لَوائِحُ ثُمَّ لوامِعُ ثُمَّ طوالِعُ ، فاللَّوائِحُ كالبُروقِ ، ما ظَهَرَتْ حَتَّى اسْتَتَرَتْ ، واللَّوامِعُ أَظْهَرُ مِنَ اللَّوائِحِ ، ولَيْسَ زَوالُها بِتِلْكَ السُّرْعَةِ ، فَقَدْ تَبْقَى اللَّوامِعُ وَقْتَيْنِ وثَلاثَةً ، والطَّوالِعُ أَبْقَى وَقْتاً ، وأَقْوى سُلْطاناً ، وأَدْوَمُ مُكْثاً ، وأَذْهَبُ لِلظُّلْمَةِ ، وأَنْفَى لِلتُّهْمَةِ ، لَكِنَّها مَوْقُوفَةٌ عَلَى خَطَرِ الأُفُولِ ، لَيْسَتْ بِرَفِيعَةِ الأَوْجِ ولا بِدائِمَةِ المُكْثِ ، وأَوْقاتُ حُصُولِها وَشِيكَةُ الارْتِحالِ ، وأَحْوالُ أُفُولِها طَوِيلَةُ الأَذْيال .

وهَذهِ المَعانِي الَّتي هِيَ اللَّوائِحُ واللَّوامِعُ والطَّوالِعُ تَخْتَلِفُ في القَضايا ، فَمِنْها ما إذا فاتَ لَمْ يَبْقَ عَنْها أَثَرٌ كالشَّوارِقِ إذا أَفَلَت فَكَأَنَّ اللَّيْلَ كانَ دائِماً ، ومِنْها ما يَبْقَى عَنْهُ أَثَرٌ فَإِنْ زالَ رَقْمُهُ بَقِيَ أَلَمُهُ ، وإِنْ غَرَبَتْ أَنْوارُهُ بَقِيَتْ آثارُهُ ، فَصاحِبُهُ بَعْدَ سُكُونِ غَلَباتِهِ ، يَعِيشُ في ضِياءِ بَرَكاتِهِ ، فَإِلَى أَنْ يَلُوحَ ثانِياً يُرْجِي وَقْتَهُ عَلَى انْتِظارِ عَوْدِهِ ، ويَعِيشُ بِما وَجَدَ حِينَ كَوْنِه[٢].

---

(١) ابْنُ عَجِيبَة (إيقاظُ الهِمَمِ في شَرْحِ الحِكَم) . (٢) القُشَيْري (الرِّسالة) .

التَّلْوِينُ والتَّمْكِين

التَّلْوِينُ : صِفَةُ أَرْبابِ الأَحْوالِ ، والتَّمْكِينُ : صِفَةُ أَهْلِ الحَقائِقِ ، فَما دامَ العَبْدُ في الطَّريقِ فَهُوَ صاحِبُ تَلْوِينٍ ، لأَنَّهُ يَرْتَقِي مِنْ حالٍ إِلَى حالٍ ، ويَنْتَقِلُ مِنْ وَصْفٍ إِلَى وَصْفٍ ، فَإِذا وَصَلَ تَمَكَّنَ .

وصاحِبُ التَّلْوِينِ دائِماً في الزِّيادَةِ ، وصاحِبُ التَّمْكِينِ قَدْ وَصَلَ ثُمَّ اتَّصَلَ .

قالَ بَعْضُ المَشايخِ : انْتَهَى سَفَرُ الطَّالِبِينَ إِلَى الظَّفَرِ بِنُفُوسِهِم ، فَإِذا ظَفَروا بِنُفُوسِهِم فَقَدْ وَصَلُوا .

القُرْبُ والبُعْدُ

أَوَّلُ رُتْبَةٍ في القُرْبِ هِيَ القُرْبُ مِنْ طاعَتِهِ ، والالْتِزامُ في جَمِيعِ الأَوْقاتِ بِعِبادَتِهِ ، وأَمَّا البُعْدُ فَهُوَ التَّدَنُّسُ بِمُخالَفَتِهِ والتَّجافِي عَنْ طاعَتِهِ ، فَأَوَّلُ البُعْدِ بُعْدٌ عَنِ التَّوْفِيقِ ، ثُمَّ بُعْدٌ عَنِ التَّحْقِيقِ ، بَلْ إِنَّ البُعْدَ عَنِ التَّوْفِيقِ هُوَ البُعْدُ عَنِ التَّحْقِيقِ قالَ ﷺ مُخْبِراً عَنِ الحَقِّ سُبْحانَهُ : (ماتَقَرَّبَ إِلَيَّ المُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ أَداءِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم ، ولا يَزالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وبَصَراً ، فَبِي يُبْصِرُ وبِي يَسْمَعُ)[1] .

فَقُرْبُ العَبْدِ أَوَّلاً بِإِيمانِهِ وتَصْدِيقِهِ ، ثُمَّ قُرْبُهُ بِإِحْسانِهِ وتَحْقِيقِهِ ، وقُرْبُ الحَقِّ (سُبْحانَهُ) ما يَخُصُّهُ اليَوْمَ بِهِ مِنَ العِرْفانِ ، وفي الآخِرَةِ ما يُكْرِمُهُ بِهِ مِنَ الشُّهُودِ والعَيانِ ، وفِيما بَيْنَ ذَلِكَ بِوُجُوهِ اللُّطْفِ والامْتِنان .

الجَمْعُ والفَرْقُ

لَفْظُ الجَمْعِ مَأْخُوذٌ مِنْ جَمْعِ الهِمَّةِ عَلَى الحَقِّ تَعالَى ، ولَفْظُ الفَرْقِ مَأْخُوذٌ مِنْ تَفْرِقَتِها فِي الكائِناتِ مَعَ الحَقِّ ، والجامِعُ والمُفَرِّقُ في الحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ تَعالَى .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخاري .

والجَمْعُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ : هُوَ شُهُودُ الفَرْدانِيَّةِ الَّتي تَفْنَى فِيها رُسُومُ المَشاهِدِ (وهَذا جُمْعٌ في الرُّبُوبِيَّةِ) ، وأَعْلَى مِنْهُ (الجَمْعُ في الأُلُوهِيَّةِ) وهُوَ جَمْعُ قَلْبِهِ وهَمِّهِ وسِرِّهِ عَلَى مَحْبُوبِهِ ومَراضِيهِ ومُرادِهِ مِنْهُ ، وهُوَ عُكُوفُ القَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ .[١]

الفَرْقُ: هُوَ رُؤْيَةُ الخَلْقِ إِنْ كانَ الفَرْقُ بَعْدَ الجَمْعِ ، وإِنْ كانَ قَبْلَ الجَمْعِ فَهُوَ رُؤْيَةُ الخَلْقِ بِلاحَقٍّ .

وقَدْ قِيلَ : الفَرْقُ إِشارَةٌ إِلَى اللَّوْنِ والخَلْقِ ، فَمَنْ أَشارَ إِلَى تَفْرِقَةٍ بِلا جَمْعٍ فَقَدْ جَحَدَ البارِي سُبْحانَهُ وتَعالَى ، ومَنْ أَشارَ إِلَى جَمْعٍ بِلا تَفْرِقَةٍ فَقَدْ أَنْكَرَ قُدْرَةَ الخالِقِ ، ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُما فَقَدْ وَحَّدَ .

الصَّحْوُ والسُّكْر

الصَّحْوُ : رُجُوعٌ إِلَى الإِحْساسِ بَعْدَ الغَيْبَةِ ، والسُّكْرُ : غَيْبَةٌ بِوارِدٍ قَوِيٍّ :

والغَيْبَةُ قَدْ تَكُونُ لِلْعِبادِ بِما يَغْلِبُ عَلَى قُلُوبِهِم مِنْ مُوجِبِ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ ، ومُقْتَضَياتِ الخَوْفِ والرَّجاءِ ، والسُّكْرُ لا يَكُونُ إِلاَّ لأَصْحابِ المَواجِيدِ ، فَإِذا كُوشِفَ العَبْدُ بِصِفَةِ الجَمالِ حَصَلَ السُّكْرُ وطَرِبَتِ الرُّوحُ وهامَ القَلْبُ.[٢]

الذَّوْقُ والشُّرْب

يُعَبَّرُ عَنِ الذَّوْقِ والشُّرْبِ بِما يَجِدُ القَوْمُ مِنْ ثَمَراتِ التَّجَلِّي ونَتائِجِ الكُشُوفِ وحاصِلِ الوارِداتِ ، وأَوَّلُ ذَلِكَ الذَّوْقُ ثُمَّ الشُّرْبُ ثُمَّ الارْتِواء .

إِنَّ صَفاءَ مُعامَلاتِهِم يُوجِبُ لَهُم ذَوْقَ المَعانِي ، ووَفاءُ مُنازَلاتِهِم يُوجِبُ لَهُم الشُّرْبَ ، ودَوامُ مُواصَلاتِهِم يَقْتَضِي لَهُم الارْتِواءَ .

ومَنْ صَفا سِرُّهُ لَمْ يَتَكَدَّرْ عَلَيْهِ الشُّرْبُ ، ومَنْ صارَ لَهُ الشَّرابُ غِذاءً لَمْ يَصْبِرْ

(١) ابْنُ القَيِّم الجَوزِيَّة (مَدارِجُ السَّالِكين) . (٢) القُشَيْري (الرِّسالة) .

عَنْهُ ولَمْ يَبْقَ بِدُونِه .

واعْلَمْ أَنَّ كُؤُوسَ القُرْبِ تَبْدُو مِنَ الغَيْبِ ، ولا تُدارُ إلاَّ عَلَى أَسْرارٍ مُعَتَّقَةٍ وأَرْواحٍ عَنْ رِقِّ الأَشْياءِ مُحَرَّرَةٍ .

القَبْضُ والبَسْطُ

وهُما حالَتانِ بَعْدَ ابْتِعادِ العَبْدِ عَنْ حالَتَي الخَوْفِ والرَّجاءِ ، فالقَبْضُ لِلْعارِفِ بِمَنْزِلَةِ الخَوْفِ لِلْمُسْتَأْنِفِ[1] ، والبَسْطُ لِلْعارِفِ بِمَنْزِلَةِ الرَّجاءِ لِلْمُسْتَأْنِف .

ومِنَ الفَصْلِ بَيْنَ القَبْضِ والخَوْفِ والبَسْطِ والرَّجاءِ : أَنَّ (الخَوْفَ) إِنَّما يَكُونُ مِنْ شَيْءٍ في المُسْتَقْبَلِ ، فَإِمَّا أَنْ يَخافَ مِنْ زَوالِ مَحْبُوبٍ أَو قُدومِ مَحْذُورٍ ، وكَذَلِكَ (الرَّجاءُ) : إِنَّما يَكُونُ بِالأَمَلِ في مَحْبُوبٍ في المُسْتَقْبَلِ أَو بِتَطَلُّعِ زَوالِ مَحْذورٍ ، وكِفايَةِ مَكْروهٍ في المُسْتَأْنَف .

وأَمَّا (القَبْضُ) فالمَعْنَى حاصِلٌ في الوَقْتِ ، وكَذَلِكَ (البَسْطُ) ، فَصاحِبُ (الخَوْفِ والرَّجاءِ) تَعَلَّقَ قَلْبُهُ في حالَتَيْهِ بِآخِرَتِهِ ، وصاحِبُ (القَبْضِ والبَسْطِ) أُخِذَ وَقْتُهُ بِوَارِدٍ غَلَبَ عَلَيْهِ في عاجِلِهِ ، ثُمَّ تَتَفاوَتُ نُعُوتُهُم في (القَبْضِ والبَسْطِ) حَسْبَ تَفاوتِهِم في أَحْوالِهِم ، فَمِنْ وارِدٍ يُوجِبُ قَبْضاً ، ولَكِنْ يَبْقَى مَساغٌ لِلأَشْياءِ الأُخْرَى لِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوفٍ ، ومِنْ مَقْبُوضٍ لا مَساغَ لِغَيْرِ وارِدِهِ فيهِ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ بِوارِدِه .

وكَذَلِكَ المَبْسُوطُ : قَدْ يَكُونُ فيهِ بَسْطٌ يَسَعُ الخَلْقَ فَلا يَسْتَوحِشُ مِنْ أَكْثَرِ الأَشْياءِ ، ويَكُونُ مَبْسُوطاً لا يُؤَثِّرُ فيهِ شَيْءٌ بِحالٍ مِنَ الأَحْوال .

التَّجْرِيدُ

التَّجْرِيدُ : أَنْ يَتَجَرَّدَ بِظاهِرِهِ عَنِ الأَعْراضِ ، وبِباطِنِهِ عَنِ الأَعْواضِ .

---

(١) المُسْتَأْنِفُ : هُوَ المُبْتَدِئُ في الطَّرِيقِ إِلى اللهِ تَعالى .

وهُوَ ألاَّ يَأْخُذَ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيا شَيْئاً ، ولا يَطْلُبَ عَلَى ما تَرَكَ مِنْها عِوَضاً مِنْ عاجِلٍ ولا آجِلٍ ، بَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِوجُوبِ حَقِّ اللهِ تَعالَى ، لا لِعِلَّةٍ غَيْرِهِ ، ولا لِسَبَبٍ سِواهُ ، ويَتَجَرَّدُ بِسِرِّهِ عَنْ مُلاحَظَةِ المَقاماتِ الَّتي يَحِلُّها والأحْوالِ الَّتي يُنازِلُها بِمَعْنَى السُّكُونِ إلَيْها والاعْتِناقِ لَها.[١]

الوَجْدُ

الوَجْدُ : حالٌ يَنْشَأُ في الأسْرارِ يَنْتُجُ عَنِ الشَّوْقِ فَتَضْطَرِبُ الجَوارِحُ طَرَباً أَوْ حُزْناً عِنْدَ ذَلِكَ الوارِد .

وسُئِلَ (أَبو عَلِيٍّ الرُّوزباري) عَنِ الوَجْدِ في السَّماعِ ؟ فَأَجابَ : هُوَ مُكاشَفَةُ الأَسْرارِ إلَى مُشاهَدَةِ المَحْبُوب .

وقَدْ قِيلَ ، الوَجْدُ : نِيرانُ الأُنْسِ يُثِيرُها رُوحُ القُدُسِ .

كَما قِيلَ الوَجْدُ : هُوَ نَسِيمُ الحَبِيبِ لِقَوْلِهِ تَعالَى :﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾[٢]

وقِيلَ ، الوَجْدُ : عَجْزُ الرُّوحِ عَنِ احْتِمالِ غَلَبَةِ الشَّوْقِ عِنْدَ وُجُودِ حَلاوَةِ الذِّكْرِ حَتَّى لَوْ قُطِعَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضائِهِ لا يُحِسُّ ولا يَشْعُرُ.[٣]

الرُّؤْيا

الرُّؤْيا لُغَوِيّاً : يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ النَّظَرَ بِالعَيْنِ ، كَما يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَدَّى ذَلِكَ فَتَكُونَ رُؤْيَةً قَلْبِيَّةً بِمَعْنَى العِلْمِ أو الظَّنِّ ، والرُّؤْيا مَصْدَرٌ لِما يَراهُ النَّائِمُ ، وقَدْ وَرَدَتْ في القُرْآنِ الكَرِيمِ بِمَعانٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَمَثَلاً في قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾[٤] بِمَعْنَى أَنِّي أَعْلَمُ مالا تَعْلَمُونَ ، وفي قَوْلِ أَحَدِ

---

(١) الكلاباذي (التَعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّف) .
(٢) سُورَةُ يُوسُف الآية ٩٤ .
(٣) الإمامُ الغزالي (مُكاشَفَةُ القُلوب) .
(٤) سُورَةُ الأَنفال الآية ٤٨ .

صاحِبَي سَيِّدنا يُوسُفَ عليه السلام عَنِ اللهِ تَعالَى : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرًا ﴾[1] ، وقَدْ أَخْبَرَ كَثِيرٌ مِنَ الأَوْلياءِ عَنْ أُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ فكانَتْ كَما أَخْبَروا ، فالرُّؤيا : انْكِشافٌ لا يَحْصُلُ إلاَّ بانْقِشاعِ الغِشاوَةِ عَنِ القَلْبِ.[2]

ويَرَى الصُّوفِيَّةُ أَنَّ الرُّؤَى الصَّادِقَةَ هِيَ عَلامَةٌ مِنْ عَلاماتِ الوَرَعِ والتَّقْوَى ، ولِلرُّؤْيا الصَّادِقَةِ عَلاماتٌ تُعْرَفُ بِها وتُوَضِّحُ هَدَفَها ومَعْناها ومَغْزاها ، وكَثِيراً ما تَهْدِفُ الرُّؤْيا إِلَى حَقِيقَةٍ مِنَ الحَقائِقِ كَصُورَةٍ تُعْرَفُ أَمامَ الرَّائِي فَتَتَبَيَّنُ لَهُ الحُلُولُ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُحْتاجاً إِلَيْها ، أَو المَسائِلُ الَّتي يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ طالِباً مَعْرِفَتَها أَو إِخْباراً بِالمَشاكِلِ والعَقَباتِ الَّتي يَعْجَزُ عَنْ تَفْسِيرِها واجْتِيازِها ، ويَسْتَخِيرُ اللهَ فِيها أَنْ يُلْهِمَهُ الصَّوابَ والحَقَّ في التَّغَلُّبِ عَلَيْها .

ومِنْ عَلاماتِ صِدْقِ الرُّؤْيا تَكْرارُها ، وكَذَلِكَ أَنْ تَرِدَ مُطابِقَةً لِلشَّرِيعَةِ ، فَإِنَّ الرُّؤْيا الصَّادِقَةَ هِيَ الَّتي لا تُخالِفُ نَصّاً صَرِيحاً أَو سُنَّةً مُتَواتِرَةً ، لِذَلِكَ تُسَمَّى الرُّؤَى عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ بِالمُبَشِّراتِ ، ويَسْتَنِدونَ في ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾.[3]

التَّجَلِّي

التَّجَلِّي : هُوَ ما يَنْكَشِفُ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَنْوارِ الغُيُوبِ.[4]

والتَّجَلِّي هُوَ أَعْلَى الطُّرُقِ إِلَى العِلْمِ بِاللهِ ودُونَها عِلْمُ النَّظَرِ ، لِذَلِكَ قِيلَ : إِنَّ التَّجَلِّيَ هُوَ أَعْلَى الطُّرُقِ إِلَى تَحْصِيلِ العُلُومِ ، وهِيَ عُلُومُ الأَذْواقِ .

فَإِذا تَجَلَّى الحَقُّ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَلَى عَبْدِهِ فَإِنَّ تَجَلِّيَهُ إِمَّا مِنَّةٌ أَو إِجابَةٌ

---

(١) سُورَةُ يُوسُف مِنَ الآيَة ٣٦ .
(٢) أحمد عزّ الدِّين البَيانُوني (الرُّؤَى والأَحْلام)٧.
(٣) سُورَةُ يُونُس الآيات : ٦٢ - ٦٤ .
(٤) ابْنُ عَربي (اصطِلاحات صُوفِيَّة) .

لِسُؤَال .

وتَجَلِّى الحَقِّ سُبْحانَهُ وتَعالَى لِعبادِهِ عِبارَةٌ عَنْ مَشْهَدٍ يَرَى فِيهِ العَبْدُ جَرَيانَ القُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ في الأَشْياءِ ، فَيَشْهَدُ بِعَيْنِهِ حَرَكَتَها وسُكُونَها ، ويَشْهَدُ بِقَلْبِهِ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى مُحَرِّكُها ومُسَكِّنُها .

والعَبْدُ في هَذا المَشْهَدِ مَسْلُوبُ الحَوْلِ والإِرادَةِ ، نافٍ الفِعْلَ عَنْ نَفْسِهِ ، مُثْبِتٌ إِيَّاهُ لِلْبارِي عَزَّ وجَلَّ .

ويَرَى أَهْلُ الكَشْفِ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى يَتَجَلَّى في كُلِّ نَفَسٍ ولا يُكَرِّرُ التَّجَلِّي ويَرَوْنَ أَيْضاً شُهُوداً أَنَّ كُلَّ تَجَلٍّ يُعْطِي خَلْقاً جَدِيداً ، ويَذْهَبُ بِخَلْقٍ ، فَذَهابُهُ هُوَ عَيْنُ الفَناءِ عِنْدَ التَّجَلِّي ، وعَيْنُ البَقاءِ لِما يُعْطِيه التَّجَلِّي الآخَر[1].

مَزِيدُ بَيانٍ عَنِ المَحْوِ والإِثْبات

المَحْو : رَفْعُ أَوْصافِ العادَة ، والإِثْباتُ : إِقامَةُ أَحْكامِ العِبادَة .

فَمَنْ نَفَى عَنْ أَحْوالِهِ الخِصالَ الذَّمِيمَةَ وأَتَى بَدَلاً مِنْها بِالأَفْعالِ والأَحْوالِ الحَمِيدَةِ فَهُوَ صاحِبُ مَحْوٍ وإِثْباتٍ .

ويَنْقَسِمُ المَحْوُ إِلَى مَحْوِ الزَّلَّةِ عَنِ الظَّواهِرِ ، ومَحْوِ الغَفْلَةِ عَنِ الضَّمائِرِ ، ومَحْوِ العِلَّةِ عَنِ السَّرائِر :

فَفِي مَحْوِ الزَّلَّةِ إِثْباتُ المُعامَلاتِ ، وفِي مَحْوِ الغَفْلَةِ إِثْباتُ المُنازَلاتِ ، وفي مَحْوِ العِلَّةِ إِثْباتُ المُواصَلاتِ ، هَذا مَحْوٌ وإِثْباتٌ بِشَرْطِ العُبُودِيَّةِ ، وأَمَّا حَقِيقَةُ المَحْوِ والإِثْباتِ فَصادِرانِ عَنِ القُدْرَةِ ، فالمَحْوُ ما سَتَرَهُ الحَقُّ ونَفاهُ ، والإِثْباتُ ما أَظْهَرَهُ الحَقُّ وأَبْداهُ ، والمَحْوُ والإِثْباتُ مَقْصُورانِ عَلَى المَشِيئَةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾[2]، قِيلَ : يَمْحُو عَنْ قُلُوبِ العارِفِينَ ذِكْرَ غَيْرِ اللهِ تَعالَى ، ويُثْبِتُ عَلَى أَلْسِنَةِ المُرِيدِينَ ذِكْرَ اللهِ تَعالَى .

---

(١) عَلى عَبْدُ الجَليل راضي (الرُّوحِيَّةُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبي) .　(٢) الرَّعْد مِنَ الآيَة ٣٩ .

الإِلْهام

قالَ الشَّريفُ الجُرْجانِي في تَعْريفاتِهِ : (الإِلْهامُ : ما يُلْقَي في الرَّوْعِ بِطَرِيقِ الفَيْضِ ، وقِيلَ : الإِلْهامُ ما وقَعَ في القَلْبِ مِنْ عِلْمٍ ، وهُوَ يَدْعُو إِلَى العَمَلِ مِنْ غَيْرِ اسْتِدْلالٍ بِقَرِينَةٍ ، ولا نَظَرٍ في حُجَّةٍ) .

والإِلْهامُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعالَى ، أَو مِنْ قِبَلِ مَلائِكَتِهِ ، يُفْهَمُ مِنْهُ أَمْرٌ أَو نَهْيٌ أَو تَرْغِيبٌ أَو تَرْهِيبٌ .

أَمَّا الَّذِي مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعالَى :

فَحَكَى لَنا اللهُ تَعالَى في القُرْآنِ الكَريمِ عَنِ السَّيِّدَةِ (مَرْيَمَ) رضي الله عنها حِينَما أَوَتْ إِلَى شَجَرَةِ النَّخْلِ في أَيَّامِ الشِّتاءِ ، فَخاطَبَها بِإِلْهامٍ ووَحْيٍ مِنْ دُونِ واسِطَةٍ وقالَ لَها : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾[1].

قالَ الإِمامُ (فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِي) عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ[2] : إِنَّ ذَلِكَ كانَ عَلَى سَبِيلِ النَّفْثِ في الرَّوْعِ والإِلْهامِ والإِلْقاءِ في القَلْبِ ، كَما كانَ في حَقِّ أُمِّ سَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام في قَوْلِهِ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[3] ، حِينَما ضاقَ بِها الحالُ مِنْ أَمْرِ ابْنِها عليه السلام ، وداهَمَها جُنُودُ فِرْعَوْنَ لِقَتْلِهِ ، فَأَلْهَمَها ، وأَوْحَى إِلَيْها بِلا واسِطَةٍ ، واسْتِجابَةً لِهَذا الإِلْهامِ قامَتْ بِإِلْقاءِ ابْنِها وفَلْذَةِ كَبِدِها بَيْنَ أَمْواجِ البَحْرِ الخِضَمِّ ، إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ الوَلَدُ الكَرِيمُ بَيْنَ هَياجِ مَوْجِ البَحْرِ يا تُرَى ؟! ، إِنَّهُ الهَلاكُ بِعَيْنِهِ ، لَكِنَّها كانَتْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِها ، لِما اعْتادَتْ مِنْ سَماعِ الوَحْيِ الَّذِي يَأْتِيها

---

(١) سورة مَرْيَم الآية ٢٥ ، مِنَ الآية ٢٦ . (٢) التَّفسيرُ الكَبيرُ للإمام (فَخرِ الدين الرَّازي) .

(٣) سورة القصص الآية ٧ .

مِنْ رَبِّها بِلا واسِطَةٍ ، في خَلْوَتِها وجَلْوَتِها .

هَـذِهِ امْـرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ ، ووَلِيَّةٌ ولَيْسَتْ نَبِيَّةً[(١)] ، وتِلْكَ السَّيِّدَةُ (مَرْيَمُ) رضي الله عنها في أُمَّةٍ إِسْـرائِيلِيَّةٍ ، فَما بالُكَ بِالأُمَّـةِ المُحَمَّدِيَّةِ الَّتي شَهِدَ اللهُ لَها بِالخَيْـرِيَّةِ عَلَى سـائِـرِ الأُمَـمِ ؟! قـالَ تَـعـالَـى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[(٢)] ، وأَمَّا الإِلْهامُ مِنْ قِبَلِ المَلائِكَة : فالمَلَكُ يُحَدِّثُ الإِنْسانَ ، كَما قالَ ﷺ : (... وأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعادٌ بِالخَيْرِ وتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ)[(٣)] .

قالَ الإِمامُ (فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِي) عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[(٤)] اعْلَمْ أَنَّ (مَرْيَمَ) عَلَيْها السَّلامُ ما كانَتْ مِنَ الأَنْبِياءِ لِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾[(٥)] .

وإِذا كانَ كَذَلِكَ ؛ كانَ إِرْسالُ (جِبْرِيلَ) عليه السلام كَرامَةً لَها ، وكَلَّمَها شِفاهاً ، ولَيْسَ هَذا خاصّاً بِها ، بَلْ هُناك كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ كَلَّمَتْهُم المَلائِكَةُ عَلَيْهِم السَّلام ؛ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِنَّ رَجُلاً زارَ أَخاً لَهُ في قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قالَ أُرِيدُ أَخاً لِي في هَذِهِ القَرْيَةِ ، قالَ : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها ؟ قالَ : لا ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ في اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، قالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَما أَحْبَبْتَهُ فِيه)[(٦)] .

---

(١) اتَّفَقَ الأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ (أُمَّ مُوسَى) لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً لأَنَّ النُّبُوَّةَ مُنْحَصِرَةٌ في الرِّجال :
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ ، والوَحْيُ جاءَ في القُرْآنِ لا بِمَعْنَى النُّبُوَّةِ ، بَلْ بِالإِلْهامِ كَما قالَ تَعالى :
﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ ﴾ المائدة ١١١ - ، ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ طه ٣٨ .
(٢) سورة آل عِمْران مِنَ الآية ١١٠ .
(٣) أخرجَهُ التِّرْمِذي . واللَّمَّةُ : الخَطْرَةُ تَقَعُ في القَلْب .
(٤) سورة آل عِمْران الآية ٤٢ .
(٥) سورة يوسف مِنَ الآية ١٠٩ .
(٦) أخرجَهُ (مُسْلِمٌ) في صَحِيحِهِ . أَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً : أي وَكَّلَهُ بِحِفْظِ المَدْرَجَة وهِيَ الطَّرِيقُ ، تَرُبُّها : أي تَحْفَظُها وتُرَبِّيها كَما يُرَبِّي الرَّجُلُ وَلَدَهُ .

قَالَ العَلاَّمَةُ (مُحَمَّد بنُ عَلَّانَ الصِّدِّيقِي) شارِحُ كِتابِ رِياضِ الصَّالِحين عِنْدَقوْلِهِ : (فَأَرْصَدَ اللهُ تعالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً . فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ ، قالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟) : ظاهِرُهُ أَنَّ المَلَكَ خاطَبَهُ وشافَهَهُ .

وقالَ اللهُ تَعالَى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.[1]

قالَ العَلاَّمَةُ (الأَلُوسِي) مُفَسِّراً تَنَزُّلَ المَلائِكَةِ في هَذهِ الآيَةِ : (تَتَنَزَّلُ عِنْدَ المَوْتِ والقَبْرِ والبَعْثِ ، وقِيلَ : تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم : يَمُدُّونَهُم فِيما يَعِنُّ ويَطْرَأُ لَهُمْ مِنَ الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ ، بِما يَشْرَحُ صُدورَهُم ، ويَدْفَعُ عَنْهُم الخَوْفَ والحُزْنَ ، بِطَرِيقِ الإِلْهام .

وهَذا هُوَ الأَظْهَر ؛ لِما فِيهِ مِنَ الإِطْلاقِ والعُمُومِ الشَّامِلِ لِتَنَزُّلِهِم في المَواطِنِ الثَّلاثَةِ وغَيْرِها ، وإِنَّ جَمْعاً مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ بِتَنَزُّلِ المَلائِكَةِ عَلَى المُتَّقِينَ في كَثِيرٍ مِنَ الأَحايِينَ ، وإِنَّهُم يَأْخُذُونَ مِنْهُم ما يَأْخُذون . فَتَذَكَّر .

ثُمَّ قالَ في قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ؛ أَي الَّتي كُنْتُم تُوعَدُونَها في الدُّنْيا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلامُ ، هَذا مِنْ بِشارَتِهِمْ في الدُّنْيا ؛ أَي أَعوانُكُم في أُمُورِكُم ، نُلْهِمُكُم الحَقَّ ونُرْشِدُكُم إِلَى ما فِيهِ خَيْرُكُم وصَلاحُكُم ، إِلَى أَنْ قالَ : إِنَّ المَلائِكَةَ تَقُولُ لِبَعْضِ المُتَّقِينَ شِفاهاً في غَيْرِ تِلْكَ المَواطِنِ : نَحْنُ أَوْلياؤُكُم في الحَياةِ الدُّنيا).[2]

وقالَ الإِمامُ (فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِي) في تَفْسِيرِ هَذهِ الآيات : (ثُمَّ إِنَّهُ تَعالَى أَخْبَرَ عَنِ المَلائِكَةِ أَنَّهُم قالُوا لِلْمُؤْمِنينَ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) سُورة فُصِّلَت الآيَتان ٣٠ ، ٣١ .
(٢) رُوحُ المَعاني في تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ والسَّبْعِ المَثاني ، لِلْعَلاَّمَة (مَحْمُود الأَلُوسِي البَغْدادِي) .

وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ : ومَعْنَى كَوْنِهِم أَوْلِيـاءَ المُؤْمِنينَ أَنَّ لِلْمَلائِكَةِ تَأْثِيراتٍ في الأَرْواحِ البَشَرِيَّةِ بِالإِلْهاماتِ والمُكاشَفاتِ اليَقِينِيَّةِ والمَقاماتِ الحَقِيقِيَّةِ ، كَما أَنَّ لِلشَّياطِينِ تَأْثِيراتٍ في الأَرْواحِ بِإِلْقاءِ الوَساوِسِ فِيها وتَخْيِيلِ الأَباطِيلِ إِلَيْها وبِالجُمْلَةِ ، فَكَوْنُ المَلائِكَةِ أَوْلِياءَ لِلأَرْواحِ الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرَةِ حاصِلٌ مِنْ جِهاتٍ كَثِيرَةٍ مَعْلُومَةٍ لِأَرْبابِ المُكاشَفاتِ والمُشاهَداتِ ، فَهُمْ يَقُولونَ : كَما أَنَّ تِلْكَ الوِلايَةَ كانَتْ حاصِلَةً في الدُّنْيا ، فَهِيَ تَكُونُ باقِيَةً في الآخِرَةِ ، فَإِنَّ تِلْكَ العَلائِقَ ذاتِيَّةٌ لازِمَةٌ غَيْرُ قابِلَةٍ لِلزَّوالِ ، بَلْ كَأَنَّها تَصِيرُ بَعْدَ المَوْتِ أَقْوَى وأَبْقَى ، وذَلِكَ لِأَنَّ جَوْهَرَ النَّفْسِ مِنْ جِنْسِ المَلائِكَةِ ، وهِيَ كالشُّعْلَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّمْسِ ، والقَطْرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى البَحْرِ ، والتَّعَلُّقاتُ الجِسْمانِيَّةُ هِيَ الَّتي تَحُولُ بَيْنَها وبَيْنَ المَلائِكَةِ ، كَما قالَ ﷺ : (لَوْلا أَنَّ الشَّياطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَروا إِلَى مَلَكُوتِ السَّماوات) .

فَإِذا زالَتِ العَلائِقُ الجِسْمانِيَّةُ والتَّدْبِيراتُ البَدَنِيَّةُ ، فَقَدْ زالَ الغِطاءُ والوِطاءُ فَيَتَّصِلُ الأَثَرُ بِالمُؤَثِّرِ ، والقَطْرَةُ بِالبَحْرِ والشُّعْلَةُ بِالشَّمْسِ ، فَهَذا هُوَ المُرادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ .

وقَدْ كانَ سَيِّدُنا (عِمْرانُ بنُ الحُصَيْن) ﷺ يَسْمَعُ تَسْبِيحَ المَلائِكَةِ حَتَّى اكْتَوَى ، فانْحَبَسَ ذَلِكَ عَنْهُ ، ثُمَّ أَعادَهُ اللهُ إِلَيْه .

وقَدْ أَلَّفَ العَلاَّمَةُ الكَبِيرُ (جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطي) رِسالَةً سَمَّاها (تَنْوِيرُ الحَلَك في إِمْكان رُؤْيَةِ النَّبِيِّ والمَلَك) ، نَنْقُلُ مِنْها ما يَهُمُّنا في مَوْضُوعِنا الَّذي نَتَكَلَّمُ فِيه :

قالَ جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطي : أَخْرَجَ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عَنْ مُطَرِّفٍ قالَ : قالَ عِمْرانُ بْنُ حُصَيْن رضي الله عنه : قَدْ كانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ حَتَّى اكْتَوَيْتُ فَتَرَكَ ، ثُمَّ تَرَكْتُ الكَيَّ فَعادَ ، وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ مُطَرِّفٍ قالَ : بَعَثَ إِلَيَّ عِمْرانُ

بنُ حُصَيْن في مَرَضِهِ الَّذي تُوفِّي فِيهِ فَقالَ : إنِّي مُحَدِّثُكَ فَإنْ عِشْتُ فاكْتُمْ عَنِّي ، وإنْ مِتُّ فَحَدِّثْ بِها إنْ شِئْتَ : إنَّهُ قَدْ سُلِّمَ عَلَيَّ .

قالَ النَّوَوِيُّ في شَرْحِ مُسْلِمٍ : مَعْنَى الحَديثِ الأَوَّلِ أَنَّ (عِمْرانَ بنَ حُصَيْن) كانَتْ بِهِ بَواسِيرُ ، فَكانَ يَصْبِرُ عَلَى أَلَمِها ، وكانَتِ المَلائِكَةُ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، واكْتَوَى ، وانْقَطَعَ سَلامُهُم عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَرَكَ الكَيَّ فَعادَ سَلامُهُم عَلَيْهِ ، قالَ : وقَوْلُهُ في الحَديثِ الثَّانِي : فَإنْ عِشْتُ فاكْتُمْ عَنِّي ، أَرادَ بِهِ الإِخْبارَ بِالسَّلامِ عَلَيْهِ ، لأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُشاعَ عَنْهُ ذَلِكَ في حَياتِهِ لِما فِيهِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْفِتْنَةِ بِخِلافِ ما بَعْدَ المَوْتِ .

وقالَ القُرْطُبِي في شَرْحِ مُسْلِمٍ : يَعْنِي أَنَّ المَلائِكَةَ كانَتْ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ إكْراما لَهُ واحْتِراماً ، إلَى أَنِ اكْتَوَى فَتَرَكَتِ السَّلامَ عَلَيْهِ ، فَفِيهِ إثْباتُ كَراماتِ الأَوْلياء .

وقالَ القاضِي (أَبُو بَكْرِ بنُ العَرَبي) أَحَدُ الأَئِمَّةِ المالِكِيَّةِ ، شارِحُ صَحِيحِ التِّرْمِذِي ، في كِتابِ قانُونِ التَّأْوِيل : ذَهَبَتِ الصُّوفِيَّةُ إلَى أَنَّهُ إذا حَصَلَ لِلإنْسانِ طَهارَةُ النَّفْسِ في تَزْكِيَةِ القَلْبِ ، وقَطْعِ العَلائِقِ ، وحَسْمِ مَوادِّ أَسْبابِ الدُّنْيا مِنَ الجاهِ والمالِ ، والإقْبالِ عَلَى اللهِ تَعالَى بِالكُلِّيَّةِ ، عِلْماً دائِماً وعَمَلاً مُسْتَمِرّاً ، كُشِفَتْ لَهُ الغُيُوبُ ، ورَأَى المَلائِكَةَ وسَمِعَ أَقْوالَهُم .

ولَقَدْ سَمَّى الصُّوفِيَّةُ العِلْمَ النَّاتِجَ مِنَ الإلْهامِ عِلْماً لَدُنِّيّاً حاصِلاً بِمَحْضِ فَضْلِ اللهِ وكَرَمِهِ بِغَيْرِ واسِطَةِ عِبارَة .

قالَ بَعْضُهُم :

تَعَلَّمْنا بِلا حَرْفٍ وصَوْتٍ * قَرَأْناهُ بِلا سَهْوٍ وفَوْتِ

يَعْنِي بِطَرِيقِ الفَيْضِ الإلَهِي ، والإلْهامِ الرَّبَّانِي ، لا بِطَرِيقِ التَّعْلِيمِ اللَّفْظِي ، والتَّدْرِيسِ القَوْلي .

وقَدْ سُئِلَ الإمامُ (الغَزالِي) عَنِ الإلْهامِ فَقالَ : ضَوْءٌ مِنْ سِراجِ الغَيْبِ ، يَسْقُطُ عَلَى قَلْبٍ صافٍ لَطِيفٍ فارِغٍ) .

كُلُّ هَذا يَدُلُّ عَلَى إمْكانِ الكَشْفِ وصِحَّةِ الإلْهامِ ؛ إذا كانَ القَلْبُ صافِياً فارِغاً مِنْ عَلائِقِ الدُّنْيا وهُمُومِها ، ومِنْ صَدَأ الذُّنُوبِ وظُلُماتِها ، فالشَّياطِينُ الظُّلْمانِيَّةُ لا تَقَعُ إلاَّ عَلَى القُلُوبِ العَفِنَةِ ، كَما يَقَعُ الذُّبابُ عَلَى الأوانِي الوَسِخَةِ ، فَتَحْجُبُ القُلُوبَ عَنْ مُطالَعَةِ ما حُجِبَ عَنْها ، يَقُولُ ﷺ : (لَوْلا أَنَّ الشَّياطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إلَى مَلَكُوتِ السَّماءِ) [١].

وتُصْرَفُ وَسْوَسَتُها عَنْ تِلْكَ القُلُوبِ بِذِكْرِ اللهِ تَعالَى ومُراقَبَتِهِ :

(إنَّ الشَّيْطانَ واضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى ابْنِ آدَمَ ، فَإنْ ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ وإنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ) [٢].

لأنَّ القَلْبَ إذا اعْتادَ الوَسْوَسَةَ ، والغَفْلَةَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالَى مَرِضَ ، وأَمَّا إذا اعْتادَ الذِّكْرَ ، وسُقِيَ بِأَنْوارِهِ ، وسَطَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ تَجَلِّياتِ اللهِ تَعالَى حَيِيَ وكانَ في عِدادِ الأَحْياءِ ، يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ رَبَّهُ ، والَّذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّت) [٣].

فَإذا واظَبَ المُؤْمِنُ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعالَى ، وكانَ مُسْتَقِيماً عَلَى شَرْعِهِ مُتَحَلِّياً بِالتَّقْوَى ، مُسْتَأْنِساً بِرَبِّهِ صارَ حَيَّاً بِاللهِ .

ويَقُولُ القَوْمُ : القُلُوبُ نَوْعان : قَلْبٌ لا يُولَدُ ولَمْ يَأْنِ لَهُ أَنْ يُولَدَ ، بَلْ يَظَلُّ جَنِيناً في بَطْنِ الشَّهَواتِ والغَيِّ والضَّلالِ ، وقَلْبٌ وُلِدَ ، وخَرَجَ إلَى فَضاءِ التَّوْحِيدِ ، وحَلَّقَ في سَماءِ المَعْرِفَةِ ، وخَلُصَ مِنْ ظُلُماتِ النَّفْسِ وشَهَواتِها واتِّباعِ هَواها ، فَقَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللهِ تَعالَى ، وأَنارَتْ جَوانِبَهُ أَشِعَّةُ اليَقِينِ ، وجَعَلَتْهُ

---

(١) أخرجَهُ الإمامُ (أَحْمَد) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

(٢) أخرجَهُ (ابْنُ أبي الدُّنْيا) ، و(أَبُو يَعْلي) و(البَيْهَقِي) عَنْ أَنَس رضي الله عنه.

(٣) أخرجَهُ (البُخاري) في صَحِيحِهِ عَنْ أبي مُوسى الأَشْعَري رضي الله عنه.

مِرآةً شَفَّافَةً لا سَبِيلَ لِلشَّيْطانِ إِلَيْهِ ، ولا سُلْطانَ لَهُ عَلَيْه .

ولَيْسَ هَذا بِبَعِيدٍ ، فالطَّاقَةُ الرُّوحِيَّةُ قَدِ انْطَلَقَتْ إِلَى عالَمِ الغَيْبِ ، وصارَ صاحِبُها حَيّاً بَعْدَ أَنْ كانَ مَيْتاً ، ومُنَوَّراً بَعْدَ أَنْ كانَ مُظْلِماً ، ومَلَكِيّاً بَعْدَ أَنْ كانَ شَيْطانِيّاً :﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.[١]

ولاشَكَّ أَنَّ تِلْكَ الأَسْرارَ الرُّوحِيَّةَ ، لا تُدْرَكُ بِمُجَرَّدِ الكَلامِ ، فَمَنْ لا نَصِيبَ لَهُ في شَيْءٍ مِنْها لا يَضُرُّهُ أَنْ يَكِلَها إِلَى أَرْبابِها ، وأَنْ يُعْطِيَ القَوْسَ بارِيها :

فَلِلْكَثافَةِ أَقْوامٌ لَها خُلِقُوا * ولِلْمَحَبَّةِ أَكْبادٌ وأَجْفانُ

وأَدْنَى النَّصِيبِ مِنْ هَذا العِلْمِ التَّصْدِيقُ بِهِ وتَسْلِيمُهُ لأَهْلِهِ ، وأَقَلُّ عُقُوبَةِ مَنْ يُنْكِرُهُ أَنْ لا يُرْزَقَ مِنْهُ شَيْئاً ، وهُوَ عِلْمُ الصِّدِّيقِينَ والمُقَرَّبِين .

الشَّجَرَة

الشَّجَرَةُ : الإِنْسانُ الكامِلُ مُدَبِّرُ هَيْكَلِ الجِسْمِ الكُلِّي ، فَإِنَّهُ جامِعُ الحَقِيقَةِ ، مُنْتَشِرُ الدَّقائِقِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُو شَجَرَةٌ وَسَطِيَّةٌ ، لا شَرْقِيَّةٌ وجُوبِيَّةً ، ولا غَرْبِيَّةٌ إِمْكانِيَّةً ، بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ ، أَصْلُها ثابِتٌ في الأَرْضِ السُّفْلَى ، وفَرْعُها في السَّمواتِ العُلا ، أَبْعاضُها الجِسْمِيَّةُ عُروقُها ، وحَقائِقُها الرُّوحانِيَّةُ فُروعُها والتَّجَلِّي الذَّاتِي المَخْصُوصُ بِأَحَدِيَّةِ جَمْعِ حَقِيقَتِها النَّاتِجُ فِيها بِسِرِّ (إِنِّي أَنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ) ثَمَرَتُها.[٢]

(١) سُورة الأنعام الآية ١٢٢ .
(٢) تعريفات الجُرجاني .

بين يدي المقامات

طَرِيقُ الاجْتِباء وطَرِيقُ الاهْتِداء

يَقُولُ الحَقُّ تَبارَكَ وتَعالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[1]، ويَقُولُ تَعالَى :﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾[2].

فالسُّلُوكُ أَو الهِجْرَةُ أَو الفِرارُ إِلَيْهِ تَعالَى مُكَوَّنٌ مِنْ وَجْهَيْن :

الأَوَّلُ : طَرِيقُ الاجْتِباء : وهُوَ مِنْ فُيُوضاتِ الفَضْلِ الإِلَهِي وهُوَ تَعالَى لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، ولِكُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ تَعالَى حِكْمَتُهُ .

والاجْتِباءُ مَعْناهُ الاصْطِفاءُ والاخْتِيارُ ، فَهُوَ تَعالَى يَصْطَفِي مِنْ عِبادِهِ مَنْ يَشاءُ كَما يَشاءُ فَيُفِيضُ عَلَيْهِ ما يَشاءُ مِنْ فَضْلِهِ ، في ظِلالِ قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[3].

والاجْتِباءُ مَقامُ (المَحْبُوبِيَّة) لِأَنَّهُ يَبْدَأُ مِنْهُ تَعالَى تَكَرُّماً عَلَى عَبْدِهِ المُجْتَبَى ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ آيَةِ :﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[4]، أَي يُحِبُّونَهُ تعالى بِحُبِّهِ لَهُمْ ، إِذْ كانَ البَدْءُ هُنا مِنْ مَقامِ الرِّضا :﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[5] والرِّضا مَنْبَعُ الحُبِّ ، بَدْءاً مِنْ أَعْلَى لِيَسْتَقِرَّ حَيْثُ شاءَ اللّهُ تَعالَى في أَدْنَى .

وهَذا المَقامُ مِنْ أَعْلَى المَقاماتِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ ، لِأَنَّ صاحِبَهُ أَغْلَبُ ما يَكُونُ في رِحابِ البَسْطِ والرَّجاءِ ، عَلَى بِساطِ المَواهِبِ والعَطايا ، والنَّظْرَةِ والمَدَد.

وكُلُّ الأَنْبِياءِ مِنْ مَقامِ الاجْتِباءِ والاصْطِفاءِ فَهُوَ مِنْ مَوارِيثِ النُّبُوَّةِ الغالِيَة .

الثَّانِي : مَقامُ الاهْتِداء : وهُوَ مَقامُ العُمُوم ، وإِلَى أَهْلِهِ يَتَوَجَّهُ خِطابُ الأَمْرِ والنَّهْي ، والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ ، والسُّلُوكُ إِلَى اللّهِ فِيهِ مِنْ بابِ العَمَلِ والجُهْدِ والرِّياضَةِ ، والانْضِباطِ والمُراقَبَةِ والذِّكْرِ والفِرارِ ، لأَنَّهُ يَبْدَأُ مِنَ العَبْدِ ، أَي مِنَ أَدْنَى ، فَصاحِبُهُ مِنْ أَهْلِ آيَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[6]، ولِهَذا

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى مِنَ الآيَة ١٣ . (٢) سُورَةُ مَرْيَم مِنَ الآيَة ٥٨ . (٣) سُورَةُ الزُّخْرُف مِنَ الآيَة ٥٩ .
(٤) سُورَةُ المائِدَة مِنَ الآيَة ٥٤ . (٥) سُورَةُ البَيِّنَة مِنَ الآيَة ٨ . (٦) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ١٦٥ .

أَغْلَبُ ما يَكُونُ صاحِبُ هَذا المَقامِ عَلَى بِساطِ الخَوْفِ والقَبْضِ والتَّوَقُّعِ والاحْتِياط .

فَإِنَّ بابَ الهِدايَةِ هُوَ الإنابَةُ كَما جاءَ في الآيَةِ : ﴿ يَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١) والإنابَةُ عَمَلٌ والْتِزامٌ وعَزِيمَةٌ ، وقَدْ يَصِلُ العَبْدُ مِنْ طَرِيقِ الاهْتِداءِ إِلَى رِحابِ الاجْتِباءِ ، فَيُجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الفَضْلَيْنِ ، ويَذُوقُ حَلاوَةَ : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) وهَذا هُوَ مَقامُ الحُبِّيَّةِ ، مَقامُ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ (٤) والعَبْدُ في مَقامَي (الحُبِّيَّةِ والمَحْبُوبِيَّةِ) يَمْضِي في ظِلالِ ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (٥) فَمَنْ لَمْ يَكُنْ هُنا أَو هُناكَ ، فَهُوَ هالِكٌ مَعَ الهالِكِ ولَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِك !! وهَكَذا نَجِدُ جَمِيعَ أَهْلِ اللهِ بَيْنَ طَرَفَي إِرادَةِ الاجْتِباءِ والاهْتِداءِ واللهُ يَفْعَل ما يَشاء .

ومِنْ هُنا نُقَرِّرُ أَنَّ التَّصَوُّفَ سُلُوكٌ عَمَلِيٌّ وتَرْجَمَةٌ حَقِيقِيَّةٌ لِلأَخْلاقِ ، وقَدْ حَوَّلَ الصُّوفِيَّةُ الأَخْلاقَ إِلَى مَقاماتٍ يُجاهِدونَ في سَبِيلِ الوُصولِ إِلَيْها ، حَتَّى إِذا وَصَلُوا إِلَيْها تَحَقَّقُوا بِها ، وأَثْمَرَ هَذا التَّحَقُّقُ دَرَجاتٍ مِنَ المُشاهَدَةِ وأَلْواناً مِنَ المَعْرِفَةِ ، تَرَكَتْ في نُفُوسِ أَصْحابِها وفي الطَّرِيقِ الصُّوفِيِّ آثاراً كَبِيرَة .

ولا غِنَى لِلْمُجْتَمَعِ الإِنْسانِيِّ عَنِ الأَخْلاقِ ، فَهِيَ الَّتي تَدْفَعُهُ إِلَى الكَمالِ المَنْشُودِ ، وتَأْخُذُ بِيَدِ أَفْرادِهِ إِلَى غايَتِهِم الكَرِيمَةِ السَّامِيَةِ . ويُمْكِنُ إِلْقاءُ نَظْرَةٍ عَلَى أَحْوالِ الصُّوفِيَّةِ وما تَمَسَّكُوا بِهِ مِنْ مَبادِيءَ اسْتَقَوْها مِنَ السُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ ومِنْ تَعالِيمِ دِينِهِم ، لِنُدْرِكَ أَنَّهُم هُم الَّذِينَ ظَلُّوا عَلَى الجادَّةِ ، واسْتَقامُوا عَلَى المَنْهَجِ ، فَوَصَلُوا بِأَنْفُسِهِم إِلَى أَعْظَمِ ما يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَيْهِ مِنْ غايات .

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى مِنَ الآية ١٣ . (٢) سُورَةُ البَلَد الآيَة ١٠ . (٣) سُورَةُ التَّوْبَة مِنْ الآيَة ١٠٥ .

(٤) سُورَةُ التَّغابُن مِنَ الآيَة ١٦ . (٥) سُورَةُ ص مِنَ الآيَة ٤٤ .

وما أَحْوَجَنا الآنَ في حَياتِنا الَّتي أَعْمَتِ المادَّةُ فيها عُيُونَ النَّاسِ إِلَى هَذا القَبَسِ الصُّوفيِّ الوَضَّاءِ ، لِيُضِيءَ لَنا مَعالِمَ الطَّرِيقِ ، ويَتَنَسَّمَ في ظِلِّهِ الإِنْسانُ أَنْسامَ الصِّحَّةِ الرُّوحِيَّةِ ، والعِزَّةِ الدِّينِيَّة .

وعَلَى هَذا ، فالتَّصَوُّفُ وأَجْواؤُهُ وشُيُوخُهُ المُحَقِّقُونَ العُلَماءُ هُمْ أَصْلَحُ مَنْ يُمْكِنُ اسْتِغْلالُهُم في جَمْعِ شَتاتِ المُسْلِمِينَ عَلَى كَلِمَةِ اللهِ ، وعَلَى سُلُوكِ الإِسْلامِ ، وعَلَى مَصادِرِ قُوَّةِ الإِسْلامِ ، مَعَ شَيْءٍ مِنَ التَّنْظِيم والفِطْنَةِ الَّتي تُبْعِدُ الدُّخَلاءَ ، وتَفْسَحُ الطَّرِيقَ أمامَ الصُّوفِيَّةِ العُلَماءِ العامِلِينَ لِيَقُودوا المُسْلِمِينَ نَحْوَ النُّورِ ، ونَحْوَ القُوَّةِ ، ونَحْوَ الفِدائِيَّةِ ، ونَحْوَ الرُّوحِيَّةِ الَّتي تَقْضِي عَلَى تِلْكَ النَّزْعَةِ المادِيَّةِ السَّائِدَةِ ، الَّتي خَرَّبَتِ الذِّمَمَ والأَعْراضَ وقَتَلَتْ ما بَقِيَ مِنْ رُوحِ الإِسْلامِ في القُلُوب .

ولا نَسْأَمُ مِنْ أَنْ نُكَرِّرَ ونُقَرِّرَ :

أَنَّ الصُّوفِيَّ هُوَ الَّذي يَعْتَقِدُ فَضْلَ الصَّحابَةِ عَلَى تَرْتِيبِهِم ، وأَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ساداتُنا : أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَرُ ، ثُمَّ عُثْمانُ ، ثُمَّ عَلِيٌّ رضي الله عنهم أَجْمَعِين .

وأَنَّ الصُّوفِيَّ مَنْ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِهِمْ وبِجَمِيعِ الصَّحابَةِ بِجُمْلَتِهِمْ ، ويُثْنِي عَلَيْهِمْ كَما أَثْنَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ ورَسُولُهُ ﷺ عَلَيْهِمْ ، فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَتْ بِهِ الأَخْبارُ وشَهِدَتْ بِهِ الآثارُ .

فَمَنِ اعْتَقَدَ جَمِيعَ ذَلِكَ مُوقِناً بِهِ كانَ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ وجَماعَةِ السُّنَّةِ ، وفارَقَ رَهْطَ الضَّلالَةِ وحِزْبَ البِدْعَةِ ، وكانَ أَهْلاً أَنْ يَرْتَقِيَ مَقاماتِ أَهْلِ القُرْبِ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الحُسْنَى .

منازل السعاة إلى الحق جل في علاه
(المقامات)

(المقامات)

يَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1] ، ويَقُولُ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2] .

أَجَلْ ، إِنَّ السَّعْيَ إِلَى اللهِ والفِرارَ إِلَيْهِ سُبْحانَهُ هُوَ حَقِيقَةُ التَّزْكِيَةِ ، وهُوَ المَقْصُودُ في صُحْبَةِ الصَّالِحينَ والأَخْذِ عَنْهُم ، وهُوَ صُلْبُ طَرِيقِ السَّادةِ الصُّوفِيَّةِ ، وإِنَّ تَدرُّجَ السَّالِكِ ، مِنْ رُتْبَةِ : (وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ) في مَنازِلِ : (وما يَزالُ عَبْدي يَتقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ) هُوَ بِدايَةُ الدُّخُولِ في طَرِيقِ الغُرْبَةِ - وطَلَبُ الحَقِّ غُرْبَةٌ - والتَّحَقُّقِ بِآيَةِ ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[3] حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَقامِ المَحْبُوبِيَّةِ ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[4] ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[5] .

ومَنْ ذا عَساهُ يَدْرِي مَتَى الوصُولُ ؟ ولَيْسَ لِلْحَقِّ مَكانٌ فَيَسِيرُ إِلَيْهِ العَبْدُ بِجَسَدِهِ ، فَإِنَّ وجُودَهُ سُبْحانَهُ مُتَقدِّمٌ تَقدُّماً ذاتِيّاً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[6] ، عَلَى المَكانِ والأَكْوان .

وقَدْ أَجْمَعَ العُلَماءُ في قَوْلِهِ تَعالَى في الحَدِيثِ القُدسِيِّ :

(أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وأَنا مَعَهُ إِذا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي ، وإِنْ ذَكَرَنِي في مَلأٍ ذَكَرْتُهُ في مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ ، وإِنْ تقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعاً ، وإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ باعاً ، وإِنْ أَتاني يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[7] .

---

(١) سُورَةُ الجُمُعَه مِنَ الآيَة ٩ .
(٢) سُورَةُ الذَّارِيات مِنَ الآيَة ٥٠ .
(٣) سُورَةُ الصَّافَّات مِنَ الآيَة ٩٩ .
(٤) سُورَةُ الشُّعراء مِنَ الآيَة ٦٢ .
(٥) سُورةُ الأعراف مِنَ الآيَة ٤٣ .
(٦) سُورَةُ الزُّمَر مِنَ الآيَة ٦٢ .
(٧) أخرجَهُ الشَّيْخان .

عَلَى أَنَّ هَذا التَّقَرُّبَ لا يَكُونُ بِالصُّعُودِ إِلَى المُرْتَفعاتِ ، وأَنَّهُ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ تَقَرُّبٌ جِسْمانِيٌّ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيل .

وإِنَّ قُرْبَ الحَقِّ لا يُشْبِهُ قُرْبَ المَخْلُوقِ مِنَ المَخْلُوق ، وهُوَ مِنَ العَبْدِ قُرْبٌ مَعْنَوِيٌّ ، بِالتَّخَلِّي عَنِ الصِّفاتِ الذَّمِيمَةِ والتَّحَلِّي بِالصِّفاتِ الكَرِيمَة .

وقُرْبُ الحَقِّ بِإِفاضَةِ رَحْمَتِهِ الخاصَّةِ عَلَيْهِ ، وطَيِّ مَنازِلِ السَّيْرِ لَهُ ، فَما كانَ يَقْطَعُهُ مِنْها في قُرونٍ يُقَرِّبُهُ الحَقُّ لَهُ في ساعَةٍ أَو ساعات .

وهَذا الحَدِيثُ القُدْسِيُّ الشَّرِيفُ ، مَوْطِنُ إِجْماعٍ بَيْنَ السَّلَفِ والخَلَفِ ، وهُوَ مِفْتاحٌ لِفِقْهِ ما يُشْبِهُهُ مِنَ الأَحادِيثِ الَّتي يُذْكَرُ فِيها المَجِيءُ والنُّزُولُ والارْتِفاعُ ونَحْوُ ذَلِكَ .

ولِذَلِكَ قالَ ﷺ : (أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وهُوَ ساجِدٌ)[1] ، وقالَ عَزَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[2] ، وكُلَّما ازْدادَ العَبْدُ كَمالاً ، فَقَدِ اقْتَرَبَ مِمَّنْ لا كَمالَ إِلاَّ كَمالُهُ الذَّاتِيُّ المُطْلَقُ .

ونِهايَةُ الوُصُولِ ، التَّحَقُّقُ بِكَمالِ المَرْتَبَةِ ، ولَمَّا كانَ المُقَرَّبُ عَبْداً لِلَّهِ ، فَكَمالُهُ كَمالُ عُبُودِيَّتِهِ ، لِمَوْلاه ، وهِيَ أَعْلَى مَرْتَبَةٍ في شُكْرِ المُنْعِمِ سُبْحانَه :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[3] .

وقَدْ قالَ تَعالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾[4] مَثْنَى : إِنْ وَجَدْتَ مَنْ يُعِينُكَ في طَرِيقِ السَّيْرِ إِلَى رَبِّكَ عَزَّ شَأْنُهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَسِرْ إِلَى اللهِ فَرْداً ، فَإِنَّ مَوْلاكَ لا يُضَيِّعُكَ .

وما أَحْسَنَ أَنْ يَكُونَ الرَّفِيقُ عارِفاً بِالطَّرِيق .

وها نَحْنُ نُبَيِّنُ بَعْضَ المقاماتِ الَّتي يَمُرُّ بِها السَّالِكُ في سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَعالَى

---

(١) أخرجَهُ مُسْلِمٌ وأبو داودَ والنَّسائي .
(٢) سُورَةُ العَلَق مِنَ الآيَة ١٩ .
(٣) سُورَةُ سَبَأ مِنَ الآية ١٣ .
(٤) سُورَةُ سَبَأ مِنَ الآيَة ٤٦ .

وأَوَّلُها التَّوْبَةُ ، فَمَنْ لا تَوْبَةَ لَهُ لا سَيْرَ لَهُ ، وهِيَ مُنْطَلَقُ السَّالِكِ في سَيْرِهِ إلَى رَبِّهِ :

التَّوْبَة

قالَ تعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾[1]،
﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[2].

وكانَ الرَّسُولُ المَعْصُومُ ﷺ كَثِيراً ما يُجَدِّدُ التَّوْبَةَ ويُكَرِّرُ الاسْتِغْفارَ تَعْلِيماً لِلأُمَّةِ وتَشْرِيعاً ؛ فَعَنِ الأَغَرِّ بنِ يَسارٍ المُزْنِي رضي الله عنه قالَ :

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (يا أَيُّها النَّاسُ تُوبوا إلَى اللهِ واسْتَغْفِروهُ ، فَإِنِّي أَتوبُ في اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّة)[3].

والتَّوْبَةُ : الرُّجُوعُ إلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ بطاعَتِهِ ، فَإِنَّ العاصِيَ بِمَنْزِلَةِ العَبْدِ الآبِقِ مِنْ سَيِّدِهِ ، وهِيَ أَوَّلُ مَنْزِلَةٍ في طَرِيقِ المَوْلَى سُبْحانَه .

فأَوَّلُ المَقاماتِ التَّوْبَةُ[4]، وهِيَ أَساسُ ما بَعْدَها مِنَ المَقاماتِ ، ولا تَصِحُّ لِلْعَبْدِ مِنْ غَيْرِها إرادَةٌ ، وهِيَ بِمَثابَةِ الأَرْضِ لِلْبِناءِ فَمَنْ لا تَوْبَةَ لَهُ لا حالَ لَه ولا مَقام .

وتَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ لِلسَّالِكِ :

بِتَرْكِ المَعاصِي الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ ، كَبِيرِها وصَغِيرِها ، وأَنْ يَتْرُكَها لِلهِ سُبْحانَهُ ، لا قَهْراً ولا لِعِلَّةٍ ، فَمَنْ كانَ مُصِرّاً عَلَى مَعْصِيَةٍ ، كَلِصٍّ لا يَمْنَعُهُ مِنَ السَّرِقَةِ إلَّا السِّجْنُ ، فَهُوَ لِصٌّ ما يَزالُ ، حَيْثُ لَمْ يَتَطَهَّرْ قَلْبُهُ مِنَ الظُّلْمَةِ ، وما زالَتْ رُوحُه رُوحَ شَرٍّ .

---

(١) سُورَةُ التَّحْرِيم مِنَ الآية ٨ . (٢) سُورَةُ النُّور مِنَ الآية ٣١ .
(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِه .
(٤) المَقامُ : هُوَ ما يَسْتَمِرُّ ويَدومُ ، والحالُ : ما لا يَسْتَمِرُّ ولا يَدُومُ بَلْ يَعْرِضُ حِيناً ثُمَّ يَزولُ . وكُلُّ مَقامٍ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ حالاً . وكُلُّ حالٍ لا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَقاماً .

ومَنْ تَمَنَّى زَوالَ نِعْمَةِ أَخِيهِ فَتِلْكَ أَذِيَّةُ العاجزِ ، وهِيَ ظُلْمَةٌ في القَلْبِ ، وهَذا الحَسَدُ هو آيَةُ الكِبْرِ والاعْتِراضِ عَلَى البارِي سُبْحانَهُ ، وهُوَ أَصْلُ الفَسادِ ، وتَرَدِّي الإِنْسانِ ، وهُوَ سَبَبُ طَرْدِ إِبْلِيسَ مِنْ دارِ الكَرامَةِ .

ومُقَدِّمَةُ التَّوْبَةِ : اليَقَظَةُ ، وهِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ في قَلْبِ مَنْ شاءَ مِنْ عِبادِهِ ، فَيَنْتَبِهُ مِنْ مَوْتِ القَطِيعَةِ عَنْ مَوْلاهُ الرَّحْمَنِ ، الَّذي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِما لا يُحْصَى مِنَ النِّعَمِ ، فَقابَلَ نِعَمَ سَيِّدِهِ بِاسْتِخْدامِها في مُحارَبَتِهِ ، بِسُلُوكِ مَساخِطِهِ ، وفُقْدانِ الحَياءِ مِنْهُ وهُوَ تَحْتَ سَمْعِهِ وبَصَرِه .

فَإِذا انْتَبَهَ أَدْرَكَ قَدْرَ جِنايَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وسُوءَ أَدَبِهِ مَعَ رَبِّهِ فَيَشْرَعُ في تَغْيِيرِ حالِهِ .

وأَوَّلُ ذَلِكَ : خَلْعُ العادَةِ ، والابْتِعادُ عَنْ كُلِّ ما يَجُرُّ إِلَى المَعْصِيَةِ مِنْ مَكانٍ وصُحْبَةٍ ، وتَرْبِيَةُ نَفْسِهِ في الطَّاعَةِ ، وتَزْكِيَتُها بِقَدْرِ الاسْتِطاعَةِ ، فَلا يَحْمِلُها عَلَى ما يَشُقُّ عَلَيْها ، فَإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضاً قَطَعَ ولا ظَهْراً أَبْقَى .

فالتَّائِبُ : عَبْدٌ تَخَلَّى عَنْ مَعْصِيَةِ مَولاهُ وأَبْغَضَها ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾[1] ، ونَدِمَ عَلَى ما فاتَ .

ولا يَقِفُ الصُّوفِيُّ عِنْدَ التَّوْبَةِ مِنَ المَعْصِيَةِ ، لأَنَّها في رَأْيِهِ تَوْبَةُ العَوامِّ ، بَلْ يَتُوبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَشْغَلُ قَلْبَهُ عَنِ اللهِ تَعالَى ، وإِلَى هَذا أَشارَ الصُّوفِيُّ الكَبِيرُ (ذُو النُّونِ المِصْرِي) لَمَّا سُئِلَ عَنِ التَّوبَةِ فَقالَ :

(تَوْبَةُ العَوامِّ مِنَ الذُّنُوبِ ، وتَوْبَةُ الخَواصِّ مِنَ الغَفْلَة)[2] .

وقالَ عَبْدُ اللهِ التَّمِيمي : (شَتَّانَ بَيْنَ تائِبٍ وتائِبٍ ، فَتائِبٌ يَتُوبُ مِنَ الذُّنُوبِ والسَّيِّئاتِ ، وتائِبٌ يَتُوبُ مِنَ الزَّلَلِ والغَفَلاتِ ، وتائِبٌ يَتُوبُ مِنْ رُؤْيَةِ الحَسَناتِ والطَّاعات)[3] .

---

(١) سُورَةُ الحُجُرات مِنَ الآيَة ٧ .
(٢ ، ٣) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .

والصُّوفِيُّ لا يُنْسِيهِ اهْتِمامُهُ بِالقالَبِ أَهَمِّيَّةَ القَلْبِ الَّذي هُوَ مَحَلُّ نَظَرِ الرَّبِّ ، ولِلّهِ دَرُّ القائِل : (فَمَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ مِنَ الآثامِ والأَدْناسِ ، أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوارُ الإِيناسِ) .

فَمَنْ ظَفِرَ بِالتَّوْبَةِ ظَفِرَ بِحُبِّ اللهِ ، يَقُولُ اللهُ تَعالَى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[١].

فَمَنْ تابَ كانَ مِنَ المَحْبُوبِينَ ، ومَنْ لَمْ يَتُبْ فَهُوَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، يَقُولُ اللهُ تَعالَى :﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٢].

وإِذا تابَ العَبْدُ فَرِحَتْ بِهِ دارُهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وتَفْرَحُ بِهِ السَّماءُ والأَرْضُ .

ويُحَدِّثُنا الرَّحِيمُ البَشِيرُ ﷺ ، أَنَّ العَبْدَ قَدْ يُذْنِبُ سَبْعِينَ سَنَةً فَيَتُوبُ إِلَى اللهِ في نَفَسٍ واحِدٍ ، فَيَمْحُو اللهُ ما عَمِلَهُ في تِلْكَ المُدَّةِ[٣] ، يَقُولُ ﷺ :

(التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ) .

الاسْتِقامَة

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾[٤].

﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾[٥].

الاسْتِقامَةُ : السَّيْرُ في وَسَطِ الجادَّةِ ، والاعْتِدالُ في الأَقْوالِ والأَفْعالِ والأَحْوالِ فَإِذا مَنَّ اللهُ عَلَى العَبْدِ بِالتَّوْبَةِ ، فَقَدْ نَقَلَهُ إِلَى النُّورِ ، فَأَصْبَحَ في حِصْنِ القَداسَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وهُوَ إِذْ ذاكَ في مَقامِ التَّوْبَةِ مُطالَبٌ بِقَوْلِهِ تَعالَى :﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[٦] فَمَنْ جاوَرَ الحَدَّ ولَمْ يُجاوِزْهُ فَما خَرَجَ عَنْ مَقامِ التَّوْبَة .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآية ٢٢٢ ، والطَّهارَةُ : حِسِّيَّةٌ ومَعْنَوِيَّةٌ ، والمَعْنَوِيَّةُ : هِيَ التَّطَهُّرُ مِنَ المعاصي والذُّنُوبِ والآثام .

(٢) سُورَةُ الحُجُراتَ مِنَ الآية ١١ .

(٣) ابْنُ عَطاء الله (تاجُ العَروس) .

(٤) سُورَةُ هُود مِنَ الآية ١١٢ .

(٥) سُورَةُ غافِر مِنَ الآية ٧ .

(٦) سُورَةُ البَقَرة مِنَ الآية ٢٢٩ .

وفي مَقامِ الاسْتِقامَةِ، مُطالَبٌ بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[1] فَلا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الحَرامِ قَدْراً يَبْتَعِدُ بِهِ عَنِ الحَدِّ حَتَّى لا يَقْرَبَهُ .

فالمَعْصِيَةُ بِالنِّسْبَةِ لِمَقامِ التَّوْبَةِ : ارْتِكابُ المَعْصِيَة ، وفي مَقامِ الاسْتِقامَةِ ؛ المَعْصِيَةُ : القُرْبُ مِنَ المَعْصِيَة .

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ : (دَعْ ما يَرِيبُكَ إِلَى ما لا يَرِيبُكَ) ،

(فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ) .

ولا يَضِيرُ في مَقامِ التَّوْبَةِ مُلاحَظَةُ الجَزاءِ ، أَمَّا في مَقامِ الاسْتِقامَةِ فَلا يَكُونُ هَمُّهُ الجَزاء .

ومُلازَمَةُ السَّبِيلِ الوَسَطِ هُوَ الاسْتِقامَةُ ، وفِيها تَتَعادَلُ جَمِيعُ خِصالِ الخَيْرِ في النَّفْسِ ؛ فَفِيها الصَّبْرُ ، والشُّكْرُ ، والتَّوَكُّلُ ، والرِّضا ، والقَصْدُ ، والشَّجاعَةُ ، والمُرُوؤَةُ وجَمِيعُ الفَضائِلِ ومَكارِمُ الأَخْلاق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2].

المُحاسَبَة

وهِيَ تَهْيِئَةُ الوازِعِ الدِّينِيِّ في النَّفْسِ ، وتَرْبِيَتُها عَلَى تَنْمِيَةِ اللَّوْمِ الباطِنِيِّ الَّذي يُجَرِّدُها مِنْ كُلِّ ما يَقِفُ أَمامَها عَقَبَةً في طَرِيقِ الصَّفاءِ والمَحَبَّةِ والإِيثارِ والإِخْلاص .

ولِلصُّوفِيَّةِ في هَذا المَقامِ قَدَمٌ راسِخَةٌ وجِهادٌ مَشْكُورٌ ، وهُمْ عَلَى أَثَرِ الرَّسُولِ ﷺ يَنْهَجُونَ مَنْهَجَهُ ، ويَهْتَدونَ بِهَدْيِهِ ، قالَ ﷺ : (الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِما بَعْدَ المَوْتِ ، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواها ، وتَمَنَّى عَلَى اللهِ

---

(١) سُورَةُ البقرة من الآية ١٨٧ .
(٢) سُورَةُ فُصِّلَت الآية ٣٠ .

الأَمانِي).[1]

ومَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ لا يَتْرُكُ لَها سَبِيلاً إِلَى الاشْتِغالِ بِالباطِلِ ، إِذْ هُوَ يَشْغَلُها بِالطَّاعاتِ ، ويَلُومُها عَلَى التَّقْصِيرِ مَعَ اللهِ تَعالَى خَشْيَةً مِنْهُ ، فَكَيْفَ تَجِدُ سَبِيلاً إِلَى اللَّهْوِ والبَطالَة ؟!

قالَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ الرِّفاعِي : (مِنَ الخَشْيَةِ تَكُونُ المُحاسَبَةُ ، ومِنَ المُحاسَبَةِ تَكُونُ المُراقَبَةُ ، ومِنَ المُراقَبَةِ يَكُونُ دَوامُ الشُّغْلِ بِاللهِ تَعالَى).[2]

والمُحاسَبَةُ رُكْنٌ أَساسٌ في الطَّرِيقِ الصُّوفِيِّ ، وعِمادُها الشَّرْعِيُّ تَوْجِيهُ حَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وصَحابَتِهِ رضي الله عنهم .

وَرَدَ عَنْ سَيِّدِنا (عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ) رضي الله عنه قَوْلُهُ :

(حاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُوا).[3]

وأَثَرُها النَّفْسِيُّ قَوِيٌّ لأَنَّها تَتْرُكُ المَرْءَ يُصْلِحُ نَفْسَهُ أَوَّلاً بِأَوَّلٍ ، وقَدِ اعْتَنَى الصُّوفِيَّةُ قَدِيماً وحَدِيثاً بِهَذا الأَساسِ أَيَّما اعْتِناء .

وما أَشْبَهَ حالَ الصُّوفِيَّةِ في هَذا بِما كانَ يَأْخُذُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحابَهُ مِنْ تَرْبِيَةٍ رُوحِيَّةٍ خالِصَةٍ تَغْرِسُ في نُفُوسِهِم اللَّوْمَ الباطِنِي ؛ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ يَوْماً مِنْ بَيْتِهِ ، يَطْوِي بَطْنَهُ عَلَى الجُوعِ ، فالْتَقَى بِصاحِبَيْهِ (أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ) رضي الله عنهما فَعَلِمَ مِنْهُما أَنَّ أَمْرَهُما كَأَمْرِهِ ، وأَنَّهُما لا يَجِدانِ قُوتَ يَوْمِهِما ، والْتَقَى بِهِم رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ ، لَمْ تَخْدَعْهُ بَشاشَتُهُم ، فَعَلِمَ أَمْرَهُم فاسْتَضافَهُم ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى مَنْزِلِهِ وَجَدُوا تَمْراً وماءً بارِداً وظِلاًّ وارِفاً ، فَلَمَّا تَبَلَّغُوا بِتَمَراتٍ ، وشَرِبُوا مِنَ الماءِ ، قالَ ﷺ:

---

(١) أخرجَهُ التِّرمذيُّ عَنْ شَدَّاد بنِ أَوْس رضي الله عنه ، الكَيِّسُ : العاقِلُ ، دانَ نَفْسَهُ : حاسَبَها .

(٢) البُرْهانُ المُؤَيِّدُ . للسَّيِّد (أَحْمَد الرِّفاعي) .

(٣) كَما في سُنَنِ (التِّرمذي) ، ومُصَنَّفِ (ابْنِ أَبِي شَيْبَة) .

(هَذا مِنَ النَّعِيمِ الَّذي تُسْأَلُونَ عَنْهُ)[١]

أَيُّ نَعِيمٍ هَذا حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْهُ ، ويُحاسَبُوا عَلَيْه ؟ بِضْعُ تَمَراتٍ وجَرْعَةُ ماءٍ ، يَعُدُّها الرَّسُولُ ﷺ مِنَ النَّعِيمِ الَّذي يَسْأَلُهُم رَبُّهُم عَنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ !! .

أَلَيْسَ في هَذِهِ اللَّفْتَةِ الكَرِيمَةِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ نَفْحَةٌ تَرْمِي إِلَى طَبْعِ النَّفْسِ بِطابَعِ الوازِعِ القَوِيِّ والإِحْساسِ المُرْهَفِ والشُّعُورِ الدَّقِيقِ والتَّبِعَةِ الكُبْرَى والمَسْؤُولِيَّةِ الضَّخْمَةِ في كُلِّ تَصَرُّفٍ تَهْدُفُ إِلَيْهِ النَّفْسُ بَيْنَ حِينٍ وآخَر ؟

وإِنَّ المُحاسَبَةَ لَتُثْمِرُ الشُّعُورَ بِالمَسْؤُولِيَّةِ تِجاهَ اللهِ تَعالَى وتِجاهَ خَلْقِهِ ، وتِجاهَ النَّفْسِ المُكَلَّفَةِ بِالتَّكالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ أَوامِرَ ونَواهٍ ، فَبِالمُحاسَبَةِ يَفْهَمُ الإِنْسانُ أَنَّهُ ما وُجِدَ عَبَثاً ، وأَنَّهُ لابُدَّ راجِعٌ إِلَى اللهِ تَعالَى ، كَما أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللهُ ، لَيْسَ بَيْنَهُ تُرْجُمان ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلاَّ ما قَدَّمَ ، ويَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلاَّ ما قَدَّمَ ، ويَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقاءَ وَجْهِهِ ، فاتَّقُوا النَّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ)[٢] ، ويَنْبَثِقُ مِنْ قَلْبِهِ الرُّجُوعُ الاخْتِيارِيُّ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ ، ويَتْرُكُ الشَّواغِلَ الفانِيَةَ الَّتِي تَشْغَلُهُ عَنْ خالِقِهِ تَعالَى إِلَى اللهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾[٣] .

فَفِرَّ مَعَ تِلْكَ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ الصُّوفِيَّةِ في سَفَرِهِم إِلَى اللهِ تَعالَى ، مُجِيباً هَواتِفَ الغَيْبِ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩ ﴾[٤] .

وإِنَّما القَوْمُ مُسافِرونا * لِحَضْرَةِ الحَقِّ وظاعِنُونا

فَآواهُم المَبِيتُ في حَضْرَتِهِ الكُبْرَى وأَكْرَمَهُم الجَنابُ الأَقْدَسُ بِتِلْكَ العِنْدِيَّةِ

(١) أَخْرَجَهُ (ابْنُ حِبَّانَ) في صَحِيحِهِ ، و(الطَّبرانيُّ) في الكَبير ، و(البَيْهَقِيُّ) في شُعَبِ الإيمان .
(٢) أخرجَهُ (مُسلِمٌ) في كِتابِ الزَّكاةِ عَنْ عَدِيِّ بنْ حاتِمٍ رضي الله عنه ، و(التِّرْمِذِيُّ) في كِتابِ صِفَةِ القِيامَة .
(٣) سورة الذَّاريات الآية ٥٠ . (٤) سُورَةُ التَّوْبَة الآية ١١٩ .

الَّتي يَنْشُدُها كُلُّ مُحِبٌّ لِلَّهِ تعالَى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١] قالَ الشَّيْخُ (أَحْمَدُ زَرُّوق) في قَواعِدِهِ : (الغَفْلَةُ عَنْ مُحاسَبَةِ النَّفْسِ تُوجِبُ غَلَطَها فِيما هِيَ بِهِ ، والتَّقْصِيرُ في مُناقَشَتِها يَدْعُو لِوجُودِ الرِّضا عَنْها ، والتَّضْيِيقُ عَلَيْها يُوجِبُ نَفْرَتَها ، والرِّفْقُ بِها مُعِينٌ عَلَى بَطالَتِها ، فَلَزِمَ دَوامُ المُحاسَبَةِ مَعَ المُناقَشَةِ ، والأَخْذُ في العَمَلِ بِما قارَبَ وصَحَّ ، دُونَ مُسامَحَةٍ في واضِحٍ ، ولا مُطالَبَةٍ بِخَفِيٍّ مِنْ حَيْثُ العَمَلِ ، واعْتُبِرَ في النَّظَرِ تَرْكاً وفِعْلاً واعْتُبِرَ في قَوْلِهِم : مَنْ لَمْ يَكُنْ يَوْمُهُ خَيْراً مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَغْبُونٌ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ في زِيادَةٍ فَهُوَ في نُقْصان ، وإِنَّ الثَّباتَ في العَمَلِ زِيادَةٌ فيهِ ، ومِنْ ثَمَّ قالَ الجُنَيْدُ : (لَوْ أَقْبَلَ مُقْبِلٌ عَلَى اللهِ سَنَةً ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُ لَكانَ ما فاتَهُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِمَّا نالَهُ)[٢].

التَّقْوَى

قالَ تَعالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[٣]، ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٤] وهِيَ وِقايَةُ النَّفْسِ مِنْ عَذابِ اللهِ وغَضَبِهِ ومِنَ النَّقْصِ ، وهِيَ إِجْلالُ الحَقِّ لِلْحَقِّ .

وأَصْلُها : وَقَى يَقِي : ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[٥]. توَقَّى السَّهْمَ واتَّقاه .

والتَّقْوَى : رِعايَةُ الحَقِّ لِلْحَقِّ ، مَعَ الغَيْبَةِ عَنِ الجَزاء .

والتَّقْوَى كَما جاءَتْ في تَعْرِيفِ (الإِمامِ عَلِيٍّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، هِيَ : الخَوْفُ مِنَ الجَلِيلِ ، والعَمَلُ بِالتَّنْزِيلِ ، والرِّضا بِالقَلِيلِ ، والاسْتِعْدادُ لِيَوْمِ الرَّحِيلِ .

---

(١) سُورَةُ القَمَر الآيَة ٥٥ . (٢) قَواعِدُ التَّصَوُّف لـ(أَحْمَد زَرُّوق) (٣) سُورَةُ يُونُس الآيات (٦٢ ، ٦٣).
(٤) سُورَةُ المائِدَة مِنَ الآية ٢٧ . (٥) سُورَةُ التَّحْرِيم مِنَ الآيَة ٦

والتَّقْوَى مَراتِبُ :

أَدْناها : اتِّقاءُ الشِّرْكِ .

وأَعْلاها : التَّنَزُّهُ عَمَّا يَشْغَلُ السِّرَّ عَنِ الحَقِّ عَزَّ شَأْنُه .

وعَنْهُ ﷺ : (لا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ ما لا بَأْسَ بِهِ مَخافَةَ مِمَّا بِهِ بَأْسٌ)[1] .

وقَدْ عَلِمْنا أَنَّ تَرْكَ ما لا بَأْسَ بِهِ مَخافَةَ مِمَّا بِهِ بَأْسٌ ، هُوَ تَحْقِيقُ مَقامِ الاسْتِقامَةِ ، ومِنْهُ يَرْتَقِي إِلَى مَقامِ التَّقْوَى .

وفي مَقامِ (التَّوْبَةِ) : يَخْشَى العَبْدُ العُقُوبَةَ الحِسِّيَّةَ بِالمَصائِبِ والنَّارِ ، أَوِ المَعْنَوِيَّةَ بِعَدَمِ الرِّضاء .

وفي مَقامِ (الاسْتِقامَةِ) : يَخْشَى النَّقْصَ في القِيامِ بِما يَلِيقُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ الوُجُوه .

وفي مَقامِ (التَّقْوَى) : يَخْشَى اللهَ عَزَّ وجَلَّ إِجْلالاً لِذاتِهِ ، بِحَيْثُ إِذا أَمِنَ مِنَ العَذابِ والغَضَبِ ، وقِيلَ لَهُ : افْعَلْ ما شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ، فَإِنَّهُ لا يَأْتِي إِلَّا مَحابَّ اللهِ ومَراضِيَهُ ، ولا يَزالُ حَياؤُهُ مِنَ الحَقِّ مُحِيطاً بِهِ ، قالَ ﷺ : (... دَعْهُ ، فَإِنَّ الحَياءَ خَيْرٌ كُلُّهُ)[2] ، وإِجْلالُهُ لِلْحَقِّ هُوَ إِجْلالُهُ ، ولَعَلَّ هَذا (واللهُ أَعْلَمُ) هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ في أَهْلِ بَدْرٍ : (لَعَلَّ اللهَ يَطَّلِعُ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقالَ اعْمَلُوا ما شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم) . فَحَياؤُهُم وإِجْلالُهُم لِلْحَقِّ حاجِزٌ بَيْنَهُم وبَيْنَ المُخالَفَةِ ، ومَقامُهُم رِعايَةُ حُرْمَةِ الذَّاتِ لِذاتِها ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ حَقِيقٌ أَنْ يُطاعَ فَلا يُعْصَى لِذاتِهِ لا لِعِقابِهِ .

وفي التَّقْوَى الاعْتِصامُ بِاللهِ ، وهُوَ أَنْ تَكُونَ تَقْواكَ لِلَّهِ بِاللهِ لا بِنَفْسِكَ ، وهَذا

---

(١) أخرجَهُ التِّرمِذِيُّ ، وابنُ ماجه ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ مِنْ حديثِ عَطِيَّة السَّعْدِي .
(٢) أخرجَهُ الشَّيْخان .   (٣) أخرجَهُ الشَّيْخان .

هُوَ اللاَّئِقُ بِأَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

أَمَّا ما عَدا الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، فَقَدْ جاءَ ما مَعْناهُ : (مَنِ اجْتَهَدَ فَأَصابَ فَلَهُ أَجْرانِ ومَنِ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ واحِدٌ)[١] .

ورُوِيَ عَنْ (عُمَرَ) رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في سالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ : (لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ ما عَصاه)[٢] ، ومَعْناهُ أَنَّهُ مَهْما أَمِنَ لا يَرْتَكِبُ المُخالَفَةَ حَياءً مِنْ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى .

فالخَوْفُ الذَّاتِيُّ (الهَيْبَةُ الذَّاتِيَّةُ) إِجْلالُ الحَقِّ لِذاتِهِ سُبْحانَهُ ، هُوَ مَنْزِلَةُ المُتَّقِينَ ، قالَ تَعالَى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[٣] .

مَزِيدُ بَيانٍ عَنْ مَراتِبِ التَّقْوَى وآثارِها :

والتَّحْقِيقُ أَنَّ التَّقْوَى ثَلاثُ مَراتِب :

الأُولَى : التَّوَقِّي مِنَ العَذابِ المُخَلَّدِ صاحِبُهُ ، وذَلِكَ بِالتَّبَرِّي مِنَ الكُفْرِ ، وعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[٤] ؛ فَإِنَّ المُرادَ بِها (لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله) .

الثَّانِيَةُ : التَّجَنُّبُ عَنْ كُلِّ ما فِيهِ لَوْمٌ ، حَتَّى الصَّغائِرِ عِنْدَ قَوْمٍ ، وهَذا المَعْنَى هُوَ المَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾[٥] .

الثَّالِثَةُ : أَنْ يَتَنَزَّهَ العَبْدُ عَنْ كُلِّ ما يَشْغَلُ سِرَّهُ عَنِ الحَقِّ ، وهُوَ المَعْنَى المُرادُ بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[٦] .

أَمَّا الآثارُ الحاصِلَةُ عَنِ التَّحَقُّقِ بِالتَّقْوَى فَهِيَ ثَلاثَ عَشْرَةَ خَصْلَةً :

---

(١) ومَطْلَعُهُ : (إِذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجْتَهَدَ ...) أَخْرَجَهُ البُخارِي ومُسْلِمٌ والتِّرْمِذِي وأَبوداود والنَّسائي وغَيْرُهُم.

(٢) أَخرجَهُ (أبو نُعَيْم) في الحِلْيَةِ ، مِنْ حَديثِ عَبْدِاللهِ بنِ الأَرْقَم .

(٣) سُورَةُ الرَّحْمن الآيَة ٤٦ .

(٤) سُورَةُ الفَتْح مِنَ الآيَة ٢٦ .

(٥) سُورَةُ المائِدَة الآيَة ٦٥ .

(٦) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ١٠٢ .

الأُولَى : المِدْحَةُ والثَّناءُ ؛ قالَ تعالَى :

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(١)

والثَّانِيَةُ : الحِفْظُ والوِقايَةُ ؛ قالَ تعالَى :

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾(٢)

الثَّالِثَةُ : التَّأْييدُ والنَّصْرُ ؛ قالَ تعالَى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾(٣)

الرَّابِعَةُ والخامِسَةُ : النَّجاةُ مِنَ الشَّدائِدِ والرِّزْقُ الحَلالُ ؛ قالَ تعالَى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(٤)

السَّادِسَةُ والسَّابِعَةُ : إِصْلاحُ العَمَلِ وغُفْرانُ الذُّنُوبِ ؛ قالَ تعالَى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(٥)

الثَّامِنَةُ : مَحَبَّةُ اللهِ تَعالَى ؛ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٦)

التَّاسِعَةُ : الإِكْرامُ والإِعْزازُ ؛ قالَ تَعالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(٧)

العاشِرَةُ : التَّيْسِيرُ في الأُمُورِ ؛ قالَ تَعالَى وجَلَّ شَأْنُهُ :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾(٨)

الحادِيَةَ عَشَرَة : البِشارَةُ بِكُلِّ خَيْرٍ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ؛ قالَ تَعالَى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾(٩)

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران مِنَ الآيَة ١٨٦ .
(٢) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ١٢٠ .
(٣) سُورَةُ النَّحْل الآيَة ١٢٨ .
(٤) سُورَةُ الطَّلاق مِنَ الآيَة ٢ ، ٣ .
(٥) سُورَةُ الأَحْزاب الآيَة ٧٠ ، ومِنَ الآيَة ٧١ .
(٦) سُورَةُ التَّوْبَة مِنَ الآيَة ٤ .
(٧) سُورَةُ الحُجُرات مِنَ الآيَة ١٣ .
(٨) سُورَةُ الطَّلاق مِنَ الآيَة ٤ .
(٩) سُورَةُ يُونُس ٦٣ ، ٦٤.

الثَّانِيَةَ عَشَرَة : النَّجاةُ مِنَ النَّارِ ؛ قالَ تَعالَى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[1]

الثَّالِثَةَ عَشَرَة : الخُلُودُ في الجَنَّة ؛ قالَ تَعالَى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]

التَّواضُع

رَوَى عَبْدُاللهِ بنُ مَسْعُود رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

(لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، ولا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمانٍ ، فَقالَ رَجُلٌ : يا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً ، فَقالَ : إِنَّ اللهَ تَعالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[3] وغَمْطُ[4] النَّاس)[5] .

وسُئِلَ (الجُنَيْدُ) عَنِ التَّواضُعِ فَأَجابَ : خَفْضُ الجَناحِ لِلْخَلْقِ ولِينُ الجانِبِ لَهُم .

وقِيلَ : التَّواضُعُ نِعْمَةٌ لا يُحْسَدُ عَلَيْها ، والكِبْرُ مِحْنَةٌ لا يُرْحَمُ عَلَيْها ، والعِزُّ في التَّواضُعِ ، فَمَنْ طَلَبَهُ في الكِبْرِ لَمْ يَجِدْهُ .

يَقُولُ إِبْراهِيمُ بنُ شَيْبان : الشَّرَفُ في التَّواضُعِ ، والعِزُّ في التَّقْوَى ، والحُرِّيَّةُ في القَناعَة .

وقالَ يَحْيَى بنُ مُعاذ : التَّواضُعُ حَسَنٌ في كُلِّ إِنْسانٍ لَكِنَّهُ في الأَغْنِياءِ أَحْسَنُ ، والتَّكَبُّرُ قَبِيحٌ في كُلِّ إِنْسانٍ لَكِنَّهُ في الفُقَراءِ أَسْمَجُ .

وقالَ ابْنُ عَطاء : التَّواضُعُ قَبُولُ الحَقِّ مِمَّنْ كان .

وقِيلَ : رَكِبَ (زَيْدُ بنُ ثابِت) رضي الله عنه فَدَنا (ابْنُ عَبَّاسٍ) رضي الله عنهما لِيَأْخُذَ بِرِكابِهِ ، فَقالَ : مَه ، يا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ، فَقالَ : هَكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمائِنا ،

---

(١) سُورَةُ مَرْيَم مِنَ الآيَة ٧٢ . (٢) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ١٣٣ .
(٣) بَطَرُ الحَقِّ : رَدُّهُ وإِبْطالُه . (٤) غَمْطُ النَّاس : احْتِقارُهُم .
(٥) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) و(أَبُوداود) و(التِّرْمِذِيُّ) عَنْ (عَبْدِاللهِ بن مَسْعود) رضي الله عنه .

فَأَخَذَ (زَيْدُ بنُ ثابِتٍ) يَدَ (ابْنِ عَبَّاسٍ) فَقَبَّلَها ، وقالَ :هكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .[1]

وقالَ (عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْر) رضي الله عنه: رَأَيْتُ (عُمَرَبنَ الخَطَّاب) رضي الله عنه وعَلَى عاتِقِهِ قِرْبَةُ ماءٍ ، فَقُلْتُ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنينَ لا يَنْبَغِي لَكَ هَذا ، فَقالَ : لَمَّا أَتَتْني الوفُودُ بِالسَّمْعِ والطَّاعَةِ ، دَخَلَتْ في نَفْسِي نَخْوَةٌ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكْسِرَها ، ومَضَى بِالقِرْبَةِ إِلَى حُجْرَةِ امْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصارِ فَأَفْرَغَها في إِنائِها .

وقالَ عَبْدُاللهِ الرَّازي : التَّواضُعُ تَرْكُ التَّمْييزِ في الخِدْمَة .

وقالَ بَعْضُهُم : رَأَيْتُ في الطَّوافِ إِنْساناً بَيْنَ يَدَيْهِ شاكِرِيَّةٌ[2] يَمْنَعُونَ النَّاسَ لِأَجْلِهِ عَنِ الطَّوافِ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ عَلَى جِسْرِ بَغْدادَ يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ ، فَقالَ لِي : أَنا تَكَبَّرْتُ في مَوْضِعٍ يَتَواضَعُ النَّاسُ هُناكَ ، فابْتَلانِي اللهُ تَعالَى بِالتَّذَلُّلِ في مَوْضِعٍ يَتَرَفَّعُ فيهِ النَّاس .

قالَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ الرِّفاعِي) : طَرَقْتُ أَبْوابَ الحَقِّ تَعالَى فَوَجَدْتُها مُزْدَحِمَةً إِلاَّ بابَ الذُّلِّ والانْكِسارِ فَلَزِمْتُه .

الخَوْف

قالَ حُجَّةُ الإِسْلامِ الإِمامُ الغَزالي : (اعْلَمْ أَنَّ حَقيقَةَ الخَوْفِ هُوَ تَأَلُّمُ القَلْبِ واحْتِراقُهُ بِسَبَبِ تَوَقُّعِ مَكْرُوهٍ في المُسْتَقْبَلِ ، وقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ جَرَيانِ ذُنُوبٍ وقَدْ يَكُونُ الخَوْفُ مِنَ اللهِ تَعالَى بِمَعْرِفَةِ صِفاتِهِ الَّتي تُوجِبُ الخَوْفَ لا مَحالَةَ وهَذا أَكْمَلُ وأَتَمُّ ، لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ خافَهُ بِالضَّرورَةِ ، ولِهَذا قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[3])[4] .

وقَدْ دَعا اللهُ تَعالَى عِبادَهُ إِلَى الخَوْفِ مِنْهُ وَحْدَهُ ، فَقالَ :﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[5]

---

(١) انْظُر : (فَيْضَ القَدير) للعَلاَّمَةَ المَناوي ٣ / ٢٥٣ ، و(سِيرَ أَعْلام النُّبلاء) للذَّهَبي ٢ / ٤٣٧ .
(٢) الشَّاكِرِيَّةُ : مُفْرَدُها الشَّاكِرى ، وهِيَ لَفْظَةٌ فارِسِيَّةٌ ، وتَعْني : الأَجير والمُسْتَخْدَم .
(٣) سُورَةُ فاطِر مِنَ الآيَة ٢٨ . (٤) الأَرْبَعين في أُصولِ الدِّين . (٥) سُورَةُ البقرة مِنَ الآيَة ٤٠

ومَدحَ المُؤمِنينَ ووَصَفَهُمْ بِالخَوْفِ فَقَالَ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (١)
وجَعَلَ اللّهُ الخَوْفَ مِنْ شُروطِ كَمالِ الإيمانِ فَقالَ ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢)
ووَعَدَ اللّهُ مَنْ خافَ مَقامَهُ جَنَّتَيْن : جَنَّةَ المَعارِفِ في الدُّنْيا ، وجَنَّةَ الزَّخارِفِ في الآخِرَةِ فَقالَ :﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣) .

وجَعَلَ اللّهُ الجَنَّةَ مَأْوى مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ فقالَ :﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (٤) .

قالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ زَرُّوقُ في قَواعِدِهِ : (مِنْ بَواعِثِ العَمَلِ وُجُودُ الخَشْيَةِ وهِيَ تَعْظِيمٌ يَصْحَبُهُ مَهابَةٌ ، والخَوْفُ هُوَ انْزِعاجُ القَلْبِ مِن انْتِقامِ الرَّبِّ) (٥) .

والخَوْفُ يَتَمَثَّلُ في نَشِيجِ مَنْ يُقَدِّرُ خُطُورَةَ العَواقِبِ فَيَقِفُ عِنْدَ الواجِبِ ، ولا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِزَيْغٍ ولا إِثْمٍ ، بَلْ ولا يَقِفُ في مَواطِنَ تُوشِكُ أَنْ تُوقِعَهُ في الشَّرِّ والفَسادِ ، ثُمَّ يَتَرَقَّى الصُّوفِيُّ في الخَوْفِ فَيَتَحَلَّى بِأَشْرَفِ ما يَتَحَلَّى بِهِ المُقَرَّبُونَ ، وعِنْدَئِذٍ تَنْتَقِلُ مَظاهِرُ الخَوْفِ مِنْ عالَمِ الجِسْمِ إِلَى عالَمِ الرُّوحِ ، فَتَكُونُ لِلعارِفِ أَشْجانٌ لا يُدْرِكُها إِلاَّ أَهْلُ الصَّفاء .

وفي هَذا المَقامِ يَصِفُ الشَّيْخُ (عَبْدُالوهَّاب الشَّعْرانِي) السَّيِّدَةَ (رابِعَةَ العَدَوِيَّةَ) بِأَنَّها كانَتْ كَثِيرَةَ البُكاءِ والحُزْنِ ، وكانَتْ إذا سَمِعَتْ ذِكْرَ النَّارِ غُشِيَ عَلَيْها زَماناً ، وكانَ مَوْضِعُ سُجُودِها كَهَيْئَةِ الحَوْضِ الصَّغِيرِ مِنْ دُمُوعِها وكَأَنَّ النَّارَ ما خُلِقَتْ إِلاَّ لأَجْلِها ، وسِرُّ ذَلِكَ الخَوْفِ إِنَّما هُوَ الاعْتِقادُ بِأَنَّ كُلَّ بَلاءٍ دُونَ النَّارِ يَسِيرٌ ، وأَنَّ كُلَّ خَطْبٍ دُونَ البُعْدِ عَنِ اللّهِ تَعالَى هَيِّنٌ .

ويَرَى الصُّوفِيَّةُ أَنَّ المُحِبَّ لا يُسْقَى كَأْسَ المَحَبَّةِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَنْضَحَ الخَوْفُ قَلْبَهُ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ تَقْواهُ لَمْ يَدْرِ ما الَّذي أَبْكاهُ ، ومَنْ لَمْ يُشاهِدْ

---

(١) سُورَةُ النَّحْلِ مِنَ الآيَةِ ٥٠ . (٢) سُورَةُ آلِ عِمْرانَ مِنَ الآيَةِ ١٧٥ .
(٣) سُورَةُ الرَّحْمنِ الآيَةَ ٤٦ . (٤) سُورَةُ النَّازِعاتِ الآيَتان ٤٠ ، ٤١ .
(٥) قَواعِدُ التَّصَوُّفِ .

جَمالَ يُوسُفَ لَمْ يَدْرِ ما الَّذي آلَمَ يَعْقُوبَ .

ولَيْسَ الخائِفُ الَّذي يَبْكِي ويَمْسَحُ عَيْنَيْه ، إِنَّما الخائِفُ مَنْ يَتْرُكُ ما يَخافُ أَنْ يُعَذَّبَ عَلَيْه .

قالَ أَبُو سُلَيْمانَ الدّارانِي : (ما فارَقَ الخَوْفُ قَلْباً إِلاَّ خَرِبَ)[١].

ولَيْسَ الخائِفُونَ بِمَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ ؛ بَلْ هُمْ عَلَى مَراتِبَ مُخْتَلِفَةٍ ، وقَدْ صَنَّفَ (ابْنُ عَجِيبَة) مَراتِبَهُم إِلَى ثَلاثِ مَراتِبَ فَقالَ : (خَوْفُ العامَّةِ مِنَ العِقابِ وفَواتِ الثَّوابِ ، وخَوْفُ الخاصَّةِ مِنَ العِتابِ وفَواتِ الاقْتِرابِ ، وخَوْفُ خاصَّةِ الخاصَّةِ مِنَ الاحْتِجابِ بِعُرُوضِ سُوءِ الأَدَبِ)[٢].

الرَّجاء

قالَ الشَّيْخُ (أَحْمَدُ زَرُّوق) في تَعْرِيفِ الرَّجاء :

الرَّجاءُ : السُّكُونُ لِفَضْلِهِ تَعالَى بِشَواهِدِ العَمَلِ في الجَمِيعِ ، وإِلاَّ كانَ اغْتِراراً[٣]

وقَدْ حَثَّنا اللهُ تَعالَى عَلَى الرَّجاءِ ونَهانا عَنِ القُنُوطِ مِنْ رَحْمَتِهِ فَقالَ :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾[٤].

وقالَ تَعالَى مُبَشِّراً بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٥].

وقالَ تَعالَى في وَصْفِ الَّذينَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾[٦].

وجاءَ الحَثُّ عَلَى رَجاءِ رَحْمَةِ اللهِ في كَثِيرٍ مِنَ الأَحادِيثِ الشَّرِيفَةِ مِنْها :

ما رُوِيَ عَنْ (أَبِي هُرَيْرَةَ) ﷺ قالَ :قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

---

(١) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَة
(٢) مِعْراجُ التَّشَوُّفِ إِلى حَقائِقِ التَّصَوُّف .
(٣) قَواعِدُ التَّصَوُّف .
(٤) سُورَةُ الزُّمَر الآيَة ٥٣ .
(٥) سُورَةُ الأَعْراف مِنَ الآيَة ١٥٦ .
(٦) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ٢١٨ .

(والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرونَ اللهَ تعالَى فَيَغْفِرُ لَهُم)[1].

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : (يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ ناسٌ مِنَ المُسْلِمينَ بِذُنُوبٍ أَمْثالِ الجِبالِ يَغْفِرُها اللهُ لَهُمْ ، ويَضَعُها عَلَى اليَهُودِ والنَّصارَى)[2].

وعَنِ (ابْنِ عُمَرَ) رضي الله عنه قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :

(يُدْنَى المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ أَعْرِفُ .

قالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيا ، وأَنا أَغْفِرُها لَكَ اليَوْمَ ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَناتِه)[3].

يَقُولُ يَحْيَى بنُ مُعاذٍ الرَّازي :

(عَفْوُهُ يَسْتَغْرِقُ الذُّنُوبَ ، فَكَيْفَ رِضْوانُه ؟ ورِضْوانُهُ يَسْتَغْرِقُ الآمالَ ، فَكَيْفَ حُبُّهُ الَّذي يُدْهِشُ العُقُولَ ، وَكَيْفَ وُدُّه ؟ ووُدُّهُ يُنْسِي ما دُونَهُ ، فَكَيْفَ لُطْفُه ؟)

والصُّوفِيَّةُ يَتَشَبَّثُونَ دائِماً بِرَحْمَةِ اللهِ فَهُوَ رَحْمَنٌ وهُوَ رَحِيمٌ ، وهُوَ سُبْحانَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين .

والرَّجاءُ يَخْتَلِفُ عَنِ التَّمَنِّي : إِذِ الرَّاجِي هُوَ الَّذي يَأْخُذُ بِأَسْبابِ الطَّاعَةِ طالِباً مِنْ اللهِ الرِّضَى والقَبُولَ ، بَيْنَما يَتْرُكُ المُتَمَنِّي الأَسْبابَ والمُجاهَداتِ ثُمَّ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الأَجْرَ والمَثُوبَةَ ، فَهُوَ الَّذي قالَ في حَقِّهِ ﷺ : (والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواها وتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمانِي)[4].

إِذْ كُلُّ مَنْ رَجا اللهَ تَعالَى وطَلَبَهُ ، عَلَيْهِ أَنْ يُشَمِّرَ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ والاجْتِهادِ

---

(١) أخرجَهُ مُسْلِمٌ . (٢) أخرجَهُ (مُسْلِمٌ) في كِتابِ التَّوْبَة .
(٣) أخرجَهُ (مُسْلِمٌ) و(البُخاريُّ) في صَحِيحَيْهِما ، كَنَفه : سِتْرُهُ ورَحْمَتُهُ .
(٤) أخرجَهُ (التِّرمِذِيُّ) و(ابْنُ ماجَه) عَنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ رضي الله عنه.

بِصِدْقٍ وإخْلاصٍ حتَّى يَنالَ مَطْلُوبَهُ ، ولِهَذا قالَ تَعالَى مُعَلِّماً طَرِيقَ طَلَبِهِ :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[١].

فَعَلَى العَبْدِ إنْ كانَ في رَيْعانِ شَبابِهِ مُقارِفاً لِلذُّنُوبِ مُطِيعاً لِنَفْسِهِ الشَّهْوانِيَّةِ أَنْ يُغَلِّبَ جانِبَ الخَوْفِ عَلَى الرَّجاءِ ، أَمَّا إذا كانَ في نِهايَةِ عُمْرِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُغَلِّبَ الرَّجاءَ كَما قالَ تَعالَى في الحَديثِ القُدُسِيِّ : (أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)[٢]

وكَما قالَ ﷺ في الحَديثِ الَّذي يَرْوِيهِ (جابِرُ بنُ عَبْدِاللهِ) رضي الله عنه :

(لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إلاَّ وهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وجَلَّ)[٣].

وإنْ كانَ العَبْدُ مُقْبِلاً عَلَى رَبِّهِ سالِكاً طَرِيقَ قُرْبِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ مَقامَي الخَوْفِ والرَّجاءِ ، فَلا يُغَلِّبَ الخَوْفَ عَلَى الرَّجاءِ حَتَّى يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى وعَفْوِهِ ، ولا يُغَلِّبَ الرَّجاءَ عَلَى الخَوْفِ حَتَّى يَسْتَرْسِلَ في مَهاوِي المَعاصِي والسَّيِّئاتِ ، بَلْ يَطِيرُ مُحَلِّقاً في أَجْواءَ صافِيَةٍ ؛ فَلا يَزالُ في قُرْبٍ ودُنُوٍّ مِنَ الحَضْرَةِ الإلَهِيَّةِ ، قَدْ حَقَّقَ صِفَةَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ وَصَفَهُم رَبُّهُم بِقَوْلِهِ :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[٤].

خَوفاً مِنْ هَجْرِهِ وطَمَعاً في جَنَّتِه * خَوْفاً مِنْ بُعْدِهِ ، وطَمَعاً في قُرْبِه .

خَوفاً مِنْ هَجْرِهِ وطَمَعاً في رِضاه * خَوْفاً مِنْ قَطِيعَتِهِ وطَمَعاً في وِصالِه .

ولَيْسَ الرَّاجُونَ بِمَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ ، بَلْ هُمْ عَلَى مَراتِبَ ذَكَرَها ابْنُ عَجِيبَةَ إذْ قالَ (رَجاءُ العامَّةِ حُسْنُ المآبِ بِحُصُولِ الثَّوابِ ، ورَجاءُ الخاصَّةِ حُصُولُ الرِّضْوانِ والاقْتِرابِ ، ورَجاءُ خاصَّةِ الخاصَّةِ التَّمْكِينُ مِنَ الشُّهُودِ وزِيادَةُ التَّرَقِّي في أَسْرارِ المَلِكِ المَعْبُود)[٥].

---

(١) سُورَةُ الكَهْف مِنَ الآية ١١٠ .

(٢) أَخرجَهُ (البُخاريُّ) في صَحيحِهِ عَنْ (أَبي هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسلِم .

(٤) سُورَةُ السَّجْدَة مِنَ الآيَة ١٦ .

(٥) مِعْراجُ التَّشَوُّف .

الصِّدْق

لا بُدَّ لِلْمُرِيدِ الطَّالِبِ سُلُوكَ سَبِيلِ النَّجاةِ والوصُولَ إِلَى اللَّهِ تَعالَى مِنْ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِصِفاتٍ ثَلاثٍ : الصِّدْقِ والإِخْلاصِ والصَّبْرِ ، لِأَنَّ جَمِيعَ صِفاتِ الكَمالِ لا يَتَحَلَّى بِها الإِنْسانُ إِلاَّ إِذا كانَ مُتَّصِفاً بِهَذِهِ الصِّفاتِ الثَّلاثِ ، وكَذَلِكَ لا تَتِمُّ الأَعْمالُ إِلاَّ بِها ، فَإِذا فارَقَتِ الأَعْمالَ فَسَدَتْ ولَمْ تَنَلِ القَبُول .

ولَـمَّا كانَ الباعِثُ عَلَى العَمَلِ الصَّالِحِ والتَّرَقِّي في مَدراجِ الكَمالِ هُوَ الصِّدْقُ ؛ نَبْتَدِئُ بِالكَلامِ عَلَيْهِ أَوَّلاً ، ثُمَّ بِالإِخْلاصِ ثانِياً ، ثُمَّ بِالصَّبْرِ ثالِثاً .

لَقَدْ ذَهَبَ العُلَماءُ في تَقْسِيمِ الصِّدْقِ مَذاهِبَ شَتَّى ، فَمِنْهُم مَنْ أَسْهَبَ في التَّفْصِيلِ والتَّفْرِيعِ ، ومِنْهُم مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَ الاقْتِضابِ والإِيجاز .

فَقَدْ ذَكَرَ حُجَّةُ الإِسْلامِ (الإِمامُ الغَزالِي) لِلصِّدْقِ مَعَانِيَ سِتَّةً فَقالَ :

(اعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ الصِّدْقِ يُسْتَعْمَلُ في سِتَّةِ مَعانٍ : صِدْقٍ في القَوْلِ ، وصِدْقٍ في النِّيَّةِ والإِرادَةِ ، وصِدْقٍ في العَزْمِ ، وصِدْقٍ في الوَفاءِ بِالعَزْمِ ، وصِدْقٍ في العَمَلِ وصِدْقٍ في تَحْقِيقِ مَقاماتِ الدِّينِ كُلِّها ، فَمَنِ اتَّصَفَ بِالصِّدْقِ في جَمِيعِ ذَلِكَ فَهُوَ صِدِّيقٌ :

١ - صِدْقُ اللِّسانِ يَكُونُ في الإِخْبارِ ، وفِيهِ يَدْخُلُ الوَفاءُ بِالوَعْدِ والخُلْفُ فيهِ ، وقِيلَ : في المَعارِيضِ مَنْدُوحَةٌ عَنِ الكَذِب .

٢ - صِدْقٌ في النِّيَّةِ والإِرادَةِ ، ويَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى الإِخْلاصِ ؛ وهُوَ أَنْ لا يَكُونَ لَهُ باعِثٌ في الحَرَكاتِ والسَّكَناتِ إِلاَّ اللَّهَ تَعالَى .

٣ - صِدْقٌ في العَزْمِ عَلَى العَمَلِ لِلَّهِ تَعالَى .

٤ - صِدْقٌ في الوفاءِ بِالعَزْمِ بِتَذْلِيلِ العَقَبات .

٥ - صِدْقٌ في الأَعْمالِ حَتَّى لا تَدُلَّ أَعْمالُهُ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَمْرٍ في باطِنِهِ لا

يَتَّصِفُ بِهِ .

٦ - الصِّدْقُ في مَقاماتِ الدِّينِ كالخَوْفِ والرَّجاءِ والتَّعْظِيمِ والزُّهْدِ والرِّضا والتَّوَكُّلِ والحُبِّ)[١].

وأَمَّا شَيْخُ الإِسْلامِ (زَكرِيَّا الأَنْصارِي) فَقَدْ ذَكَرَ لِلصِّدْقِ مَحلاَّتٍ ثَلاثَةً فَقالَ (الصِّدْقُ هُوَ المُطابِقُ لِلْواقِعِ ، ومَحَلُّهُ اللِّسانُ والقَلْبُ والأَفْعالُ ، وكُلٌّ مِنْها يَحْتاجُ إِلَى وَصْفٍ يَخُصُّهُ ، فَهُوَ في اللِّسانِ : الإِخْبارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى ماهُوَ عَلَيْهِ ، وفي القَلْبِ : العَزْمُ الأَكِيدُ ، وفي الأَفْعالِ : إِيقاعُها عَلَى وَجْهِ النَّشاطِ والحُبِّ ، وسَبَبُهُ : الوثُوقُ بِخَبَرِ المُتَّصِفِ ، وثَمَرَتُهُ : مَدْحُ اللهِ والخَلْقِ لِلْمُتَّصِفِ بِهِ)[٢].

ومَفْهُومُ الصِّدْقِ عِنْدَ عَوامِّ المُسْلِمينَ قاصِرٌ عَلَى صِدْقِ اللِّسانِ ، ولَكِنَّ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ قَصَدوا بِالصِّدْقِ مَفْهُومَهُ العامَّ الَّذي يَشْمَلُ بِالإِضافَةِ إِلَى صِدْقِ اللِّسانِ صِدْقَ القَلْبِ وصِدْقَ الأَفْعالِ والأَحْوال .

قالَ العَلاَّمَةُ (ابْنُ أَبِي شَرِيفٍ) في حَواشِي العَقائِد : (الصِّدْقُ اسْتَعْمَلَهُ الصُّوفِيَّةُ بِمَعْنَى اسْتِواءِ السِّرِّ والعَلانِيَةِ والظَّاهِرِ والباطِنِ بِأَلاَّ تَكْذِبَ أَحْوالُ العَبْدِ أَعْمالَهُ ، وَلا أَعْمالُهُ أَحْوالَهُ ، فالصِّدْقُ بِمَفْهُومِهِم هَذا صِفَةٌ يَنْبَعِثُ مِنْها العَزْمُ والتَّصْمِيمُ والهِمَّةُ عَلَى التَّرَقِّي في مَدارِجِ الكَمالاتِ ، والتَّخَلِّي عَنِ الصِّفاتِ النَاقِصَةِ المَذْمُومَةِ ، والصِّدْقُ بِهَذا الاعْتِبارِ سَيْفُ اللهِ تَعالَى في يَدِ السَّالِكِ يَقْطَعُ بِهِ حِبالَ العَوائِقِ الَّتي تَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ في سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَعالَى ولَوْلاهُ لَما اسْتَطاعَ أَنْ يَنْطَلِقَ في مَدارِجِ التَّرَقِّي ولَكانَ مُعَرَّضاً لِلْوقُوفِ والانِقِطاع) .

فَإِذا تَحَلَّى السَّالِكُ بِالصِّدْقِ اسْتَطاعَ أَنْ يسِيرَ بِخُطىً سَرِيعَةٍ نَحْوَ مَراتِبِ

(١) إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين . (٢) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .

الإيمانِ العالِيَةِ ، إذْ هُوَ القُوَّةُ الدَّافِعَةُ والمُحرِّكَةُ ، وهُوَ الصِّفَةُ اللاَّزِمَةُ لِكُلِّ مَقامٍ مَنْ مَقاماتِ السُّلُوكِ إلَى اللهِ تعالَى .

فَأَوَّلُ مَراحِلِ السَّيْرِ هُوَ صِدْقُ العَبْدِ في إنابَتِهِ إلَى رَبِّهِ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ الَّتي هِيَ أَساسُ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ ، وأَوَّلُ دَرَجاتِ الكَمالِ .

والصِّدْقُ في تَهْذِيبِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ يُحَقِّقُ النَّجاحَ الكَبِيرَ في التَّخَلُّصِ مِنْ أَمْراضِها وشَهَواتِها ، ويُطَهِّرُ القَلْبَ مِنَ الخَبائِثِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إلَى الإيمانِ الذَّوْقِي الَّذي وَصَفَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : (ذاقَ طعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ تَعالَى رَبّاً وبِالإسْلامِ دِيناً وبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً)[1] .

والصِّدْقُ في مُحارَبَةِ الشَّيْطانِ والتَّخَلُّصِ مِنْ وَساوِسِهِ يَجْعَلُ الإنْسانَ المُؤْمِنَ في نَجاةٍ مِنْ كَيْدِهِ وأَمانٍ مِنْ شَرِّهِ ، كَما يَجْعَلُ الشَّيْطانَ في يَأْسٍ وقُنُوطٍ مِنْ إضْلالِهِ وغِوايَتِهِ .

والصِّدْقُ في إخْراجِ حُبِّ الدُّنْيا مِنَ القَلْبِ يَحْمِلُ الإنْسانَ عَلَى المُجاهَدَةِ المُسْتَمِرَّةِ بِالصَّدَقَةِ والإيثارِ والتَّعاونِ الخَيْري ، حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْ حُبِّها ويَنْجُوَ مِنْ سَيْطَرَتِها عَلَى قَلْبِه .

والصِّدْقُ في طَلَبِ العِلْمِ تَخَلُّصاً مِنَ الجَهْلِ وتَصْحِيحاً لِلْعَمَلِ يَحْمِلُ الإنْسانَ عَلَى الاسْتِقامَةِ والمُثابَرَةِ ، وتَحَمُّلِ المَشاقِّ وسَهَرِ اللَّيالِي كَي يَنالَ مِنْهُ أَوْفَرَ نَصِيبٍ وأَكْبَرَ قِسْطٍ ، وما نَبَغَ العُلَماءُ إلاَّ بِصِدْقِهِم وإِخْلاصِهِم وصَبْرِهِم .

والصِّدْقُ في العَمَلِ هُوَ العِلْمُ وغايَتُهُ ، إذْ يَجْعَلُ العَبْدَ في ارْتِقاءٍ دائِمٍ ، ويَجْعَلُ عِلْمَهُ سَبَباً في كَمالِهِ ، ولابُدَّ مِنْ إخْلاصٍ في ذَلِكَ ، وإلاَّ قَدْ يَدْخُلُ عَلَى السَّائِرِ بَعْضُ العِلَلِ المُوقِفَةِ لَهُ عَنْ مَطْلُوبِهِ مِنْ حُبِّ الشُّهْرَةِ والسُّمْعَةِ والالْتِفاتِ إلَيْها فالإخْلاصُ في الصِّدْقِ يُزِيلُ هَذهِ الشَّوائِبَ مِنْ طَرِيقِ الغايَةِ المَنْشُودَةِ وهِيَ

---

(١) أخرجَهُ (مُسْلِمٌ) والإمامُ (أَحْمَدُ) و(التِّرمِذِيُّ) .

رِضاءُ اللهِ تَعالَى ومَعْرِفَتُهُ ومَحَبَّتُه .

ومِنْ هُنا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ الصِّدْقِ وعَظِيمُ آثارِهِ ، ولِذَلِكَ اعْتَبَرَهُ الحَقُّ سُبْحانَهُ أَرْفَعَ الدَّرَجاتِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ ، قالَ أَبُو القاسِمِ القُشَيْري :

(الصِّدْقُ عِمادُ الأَمْرِ وبِهِ تَمامُهُ ، وفيهِ نِظامُهُ ، وهُوَ تالِي دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾[1] ولِهَذا أَمَرَ اللهُ تَعالَى المُؤْمِنينَ أَنْ يُلازِمُوا أَهْلَ الصِّدْقِ لِيَسْتَفِيدوا مِنْ حالِهِم ويَنْتَفِعُوا مِنْ صِدْقِهِم فَقالَ :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[2].

ووَصَفَ اللهُ تَعالَى الصَّادِقينَ بِالقِلَّةِ ، وأَنَّهُم الفِئَةُ المُخْتارَةُ مِنَ المُؤْمِنينَ فَقالَ :﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[3].

كَما نَدَّدَ اللهُ تَعالَى بِالمُنافِقينَ الَّذينَ لَمْ يَصْدُقُوا في إِيمانِهِم وعَهْدِهِم مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ :﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[4].

وقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعالَى أَنَّ العَبْدَ يَوْمَ القِيامَةِ يَجْنِي ثِمارَ صِدْقِهِ ، ويَكُونُ صِدْقُهُ سَبَبَ نَفْعِهِ ونَجاتِهِ فَقالَ :﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[5].

وقَدِ اعْتَبَرَ الرَّسُولُ ﷺ الصِّدْقَ سَبِيلاً مُوَصِّلاً إِلَى البِرِّ الَّذي يَشْمَلُ كُلَّ الفَضائِلِ والكَمالاتِ الَّتي تُؤَهِّلُ العَبْدَ لِدُخُولِ الجَنَّةِ ، كَما جَعَلَ دَوامَ الاتِّصافِ بِالصِّدْقِ مِفْتاحاً لِنَيْلِ مَرْتَبَةِ الصِّدِيقِيَّةِ فَقالَ : (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ ، وإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً ، وإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ ، وإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وإِنَّ الرَّجُلَ

---

(١) سُورَةُ النِّساء الآية ٦٩ . (٢) سُورَةُ التَّوبة الآية ١١٩ . (٣) سُورَةُ الأَحْزاب مِنَ الآية ٢٣ .
(٤) سُورَةُ مُحَمَّد مِنَ الآية ٢١ . (٥) سُورَةُ المائِدة الآية ١١٩.

لِيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً)[1].

وقَدْ أَوْضَحَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الصِّدْقَ يُثْمِرُ طُمَأْنِينَةَ القَلْبِ وراحَةَ الفِكْرِ ، بَيْنَما يُسَبِّبُ الكَذِبُ حالاتٍ مِنَ القَلَقِ والاضْطِرابِ والشَّكِّ وعَدَمِ الاسْتِقْرارِ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ الإمامِ (الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ) ﷺ أَنَّهُ قالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : (دَعْ ما يَرِيبُكَ إِلَى ما لا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ والكَذِبَ رِيبَةٌ)[2]

ولَيْسَ الصَّادِقُونَ بِمَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ ، بَلْ هُناكَ الصَّادِقُ وأَعْلَى مِنْهُ الصِّدِّيقُ .

قالَ أَبُو القاسِمِ القُشَيْرِي : (أَقَلُّ الصِّدْقِ اسْتِواءُ السِّرِّ والعَلانِيَةِ ، والصَّادِقُ مَنْ صَدَقَ فِي أَقْوالِهِ ، والصِّدِّيقُ مَنْ صَدَقَ فِي جَمِيعِ أَقْوالِهِ وأَفْعالِهِ وأَحْوالِهِ)[3]

ورُتْبَةُ الصِّدِّيقِيَّةِ فِي نَفْسِها مَراتِبُ مُتَفاوِتَةٌ ، بَعْضُها أَعْلَى مِنْ بَعْضٍ ، وقَدْ نالَ سَيِّدُنا (أَبوبَكْرٍ الصِّدِّيقُ) ﷺ ذُرْوَةَ سِنامِ الصِّدِّيقِيَّةِ ، وشَهِدَ اللهُ تَعالَى بِذَلِكَ فَقالَ : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾[4].

ولا يَعْلُو مَقامَ الصِّدِّيقِيَّةِ إِلاَّ مَقامُ النُّبُوَّةِ ، فَمَقامُ الصِّدِّيقِيَّةِ مَقامُ الوِلايَةِ الكُبْرَى والخِلافَةِ العُظْمَى ، وهَذا المَقامُ تَتَرادَفُ فيهِ الفُتُوحاتُ وتَعْظُمُ فيهِ التَّجَلِّياتُ وتَتِمُّ بِهِ المُشاهَداتُ والكُشُوفاتُ وذلِكَ لِكَمالِ النَّفْسِ وحُسْنِ صَفائِها .

الإِخْلاصُ

قالَ أَبو القاسِمِ القُشَيْرِي مُعَرِّفاً الإِخْلاصَ :

(الإِخْلاصُ إِفْرادُ الحَقِّ سُبْحانَهُ فِي الطَّاعَةِ بِالقَصْدِ ، وهُوَ أَنْ يُرِيدَ بِطاعَتِهِ التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ تَعالَى دُونَ شَيْءٍ آخَرَ مِنْ تَصَنُّعٍ لِمَخْلُوقٍ أَو اكْتِسابِ مَحْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاسِ أَوْ مَحَبَّةِ مَدْحٍ لِمَخْلُوقٍ أَو مَعْنًى مِنَ المَعانِي سِوى التَّقَرُّبِ إِلَى

(١) أخرجَهُ البُخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنِ (ابْنِ مَسْعُودٍ) ﷺ.
(٢) أخرجَهُ أبو داود وأحمد والتِّرمِذِيُّ .
(٣) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .
(٤) سُورَةُ الزُّمرِ مِنَ الآيَة ٣٣ .

اللهِ تَعالَى) ، وقالَ : (ويَصِحُّ أَنْ يُقالَ : الإِخْلاصُ تَصْفِيَةُ الفِعْلِ عَنْ مُلاحَظَةِ المَخْلُوقِينَ) وقالَ أَبو عَلِيٍّ الدَّقاق : (الإِخْلاصُ : التَّوَقِّي عَنْ مُلاحَظَةِ الخَلْقِ ، فالمُخْلِصُ لا رِياءَ لَهُ)[1].

وقال الفُضَيْلُ بنُ عِياض : (الإِخْلاصُ سِرٌّ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ العَبْدِ ، لا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ ولا شَيْطانٌ فَيُفْسِدُهُ ولا هَوَىً فَيُمِيلُه)[2].

وقالَ شَيْخُ الإِسْلامِ زَكَرِيَّا الأَنْصارِي : (حَقُّ المُخْلِصِ أَنْ لا يَرَى إِخْلاصَهُ ولا يَسْكُنَ إِلَيْهِ ، فَمَتَى خالَفَ ذَلِكَ لَمْ يَكْمُلْ إِخْلاصُهُ ، بَلْ سَمَّاهُ بَعْضُهُم رِياءً)[3]

هَذِهِ الأَقْوالُ والعِباراتُ المُتَنَوِّعَةُ في الإِخْلاصِ تَرْجِعُ إِلَى مَقْصِدٍ واحِدٍ أَلا وهُوَ أَنْ لا يَكُونَ لِلنَّفْسِ حَظٌّ في عَمَلٍ مِنَ الأَعْمالِ التَّعَبُّدِيَّةِ ، الجِسْمِيَّةِ مِنْها والقَلْبِيَّةِ والمالِيَّةِ ، بَلْ أَنْ لا يَرَى إِخْلاصَهُ .

بَيانُ أَهَمِّيَّةِ الإِخْلاصِ في الكِتابِ والسُّنَّة :

لَمَّا كانَ قَبُولُ الأَعْمالِ مَوْقُوفاً عَلَى وُجُودِ الإِخْلاصِ فِيها ، أَمَرَ اللهُ تَعالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِالإِخْلاصِ في عِبادَتِهِ تَعْلِيماً لأُمَّتِهِ ، فَقالَ :

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[4].

وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾[5] ، وقالَ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[6] ، كَما أَمَرَ اللهُ تَعالَى خَلْقَهُ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ عِباداتِهِم القَوْلِيَّةِ والفِعْلِيَّةِ والمالِيَّةِ خالِصَةً لَهُ تَعالَى ، بَعِيدَةً عَنِ الرِياءِ فَقالَ:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[7].

وأَوْضَحَ الحَقُّ سُبْحانَهُ أَنَّ السَّبِيلَ إِلَى لِقاءِ اللهِ تَعالَى يَوْمَ القِيامَةِ (لِقاءِ رِضَىً وإِنْعامٍ) هُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ الخالِصُ لِوَجْهِ اللهِ ، السَّلِيمُ مِنْ مُلاحَظَةِ

(١ ، ٢ ، ٣) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .   (٤) سُورَةُ الزُّمَر الآيَة ١١ .   (٥) سُورَةُ الزُّمَر الآية ١٤ .

(٦) سُورَةُ الزُّمَر مِنَ الآيَة ٢ .   (٧) سُورَةُ البَيِّنَة مِنَ الآيَة ٥ .

الخَلْقِ فَقالَ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (١).

وجاءَتِ الأَحادِيثُ الشَّريفَةُ تُوَجِّهُ العَبْدَ إِلَى الإِخْلاصِ في جَمِيعِ أَعْمالِهِ وتُحَذِّرُهُ أَنْ يَقْصِدَ بِعبادَتِهِ ثَناءَ النَّاسِ ومَدْحَهُم وتُبَيِّنُ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يَتَّصِفْ بِالإِخْلاصِ للهِ تَعالَى فَهُوَ مَرْدودٌ عَلَى صاحِبِهِ ، وتُوضِحُ أَنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى ظاهِرِ أَعْمالِ العَبْدِ ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَى ما في قَلْبِهِ مِنَ النَّوايا والمَقاصِدِ ، لِأَنَّ الأَعْمالَ بِالنِّيَّاتِ ، والأُمُورَ بِمَقاصِدِها .

وقَدْ سَمَّى الرَّسُولُ ﷺ الرِّياءَ شِرْكاً أَصْغَرَ تارَةً ، وسَمَّاهُ شِرْكَ السَّرائِرِ تارَةً أُخْرَى ، وأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ تَعالَى سَوْفَ يَتَبَرَّأُ مِنَ المُرائِي يَوْمَ القِيامَةِ ، ويُحِيلُهُ إِلَى النَّاسِ الَّذينَ أَشْرَكَهُم في عِبادَتِه .

وهَذِهِ بَعْضُ الأَحادِيثِ الشَّريفَةِ الَّتي تُبَيِّنُ أَهَمِّيَّةَ الإِخْلاصِ وتُوَضِّحُ هَذِهِ المَعانِيَ المَذْكُورَة :

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ؓ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسامِكُم ولا إِلَى صُوَرِكُم ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم) (٢).

٢ - عَنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ ؓ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ صامَ يُرائِي فَقَدْ أَشْرَكَ ، ومَنْ صَلَّى يُرائِي فَقَدْ أَشْرَكَ ، ومَنْ تَصَدَّقَ يُرائِي فَقَدْ أَشْرَكَ) (٣)

٣ - وعَنْ مَحْمُودِ بنِ لَبِيدٍ قالَ : خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقالَ : يا أَيُّها النَّاسُ إِيَّاكُم وشِرْكَ السَّرائِر ، قالُوا : يا رَسُولَ اللهِ وما شِرْكُ السَّرائِر ؟ قالَ : يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي ، فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ جاهِداً لِما يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَذلِكَ شِرْكُ السَّرائِر) (٤).

---

(١) سُورَةُ الكَهْفِ مِنَ الآيَة ١١٠ . (٢) أخرجَهُ مُسْلِم .
(٣) أَخْرَجَهُ (البَيْهَقِيُّ) كَما في (التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيب) . (٤) أخرجَهُ ابْنُ خُزَيْمَة .

٤ - وعَنْ مَحْمُودِ بنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُم الشِّرْكُ الأَصْغَرُ ، قالُوا وما الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يا رَسُولَ الله ؟ قالَ : الرِّياءُ ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمالِهِم : اذْهَبُوا إِلَى الَّذينَ كُنْتُم تُراءُونَ في الدُّنْيا ، فانْظُروا هَلْ تَجِدونَ عِنْدَهُم جَزاءً).[1]

٥ - وعَنْ أَبِي سَعِيدِ بنِ أَبي فَضالَةَ رضي الله عنه (وكانَ مِنَ الصَّحابَةِ) قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (إِذا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ يَوْمَ القِيامَةِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيهِ ، نادَى مُنادٍ : مَنْ أَشْرَكَ في عَمَلِهِ لِلهِ أَحَداً فَلْيَطْلُبْ ثَوابَهُ مِنْ عِنْدِهِ ، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ).[2]

بَيانُ أَقْوالِ العُلَماءِ في أَهَمِّيَّةِ الإِخْلاص :

قالَ مَكْحُول : (ما أَخْلَصَ عَبْدٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ يَنابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسانِه).[3]

وقِيلَ لِسَهْلِ بنِ عَبْدِاللهِ التُّسْتُرِي : أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ ؟ قالَ : (الإِخْلاصُ ، لأَنَّهُ لَيْسَ لَها فِيهِ نَصِيبٌ).[4]

وقالَ أَبو سُلَيْمانَ الدَّارانِي : (إِذا أَخْلَصَ العَبْدُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ كَثْرَةُ الوَساوِسِ والرِّياء).[5]

وهَذا ابْنُ عَجِيبَةَ في شَرْحِ حِكْمَةِ ابْنِ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي : الأَعْمالُ صُوَرٌ قائِمَةٌ ، وأَرْواحُها وُجُودُ سِرِّ الإِخْلاصِ فِيها ، يَقُولُ : (الأَعْمالُ كُلُّها أَشْباحٌ وأَجْسادٌ ، وأَرْواحُها وُجُودُ الإِخْلاصِ فِيها ، فَكَما لا قِيامَ لِلأَشْباحِ إِلاَّ بِالأَرْواحِ وإِلاَّ كانَتْ مَيِّتَةً ساقِطَةً ؛ كَذَلِكَ لا قِيامَ لِلأَعْمالِ البَدَنِيَّةِ والقَلْبِيَّةِ إِلاَّ بِوُجُودِ الإِخْلاصِ فِيها ، وإِلاَّ كانَتْ صُوَراً قائِمَةً وأَشْباحاً خاوِيَةً لا عِبْرَةَ بِها).[6]

---

(١) أخرجَهُ (الإمامُ أَحْمَدُ) في مُسْنَدِه . (٢) أخرجَهُ التِّرمِذِيُّ .
(٣ ، ٤ ، ٥) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة . (٦) إِيقاظُ الهِمَمِ في شَرْحِ الحِكَم (ابْنُ عَجِيبَة) .

وكَلامُ العُلَماءِ والعارِفِينَ في الإِخْلاصِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى ، وكُلُّهُم يُؤَكِّدُونَ عَظِيمَ أَهمِّيَّتِهِ وكَبِيرَ أَثَرِهِ .

مَراتِبُ الإِخْلاص :

قالَ ابْنُ عَجِيبَة : (الإِخْلاصُ عَلَى ثَلاثِ دَرَجاتٍ : إِخْلاصُ العَوامِّ والخَواصِّ وخَواصِّ الخَواصِّ) .

فَإِخْلاصُ العَوامِّ : هُوَ إِخْراجُ الخَلْقِ مِنْ مُعامَلَةِ الحَقِّ مَعَ طَلَبِ الحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ كَحِفْظِ البَدَنِ والمالِ وسَعَةِ الرِّزْقِ والقُصُورِ والحُور .

وإِخْلاصُ الخَواصِّ : طَلَبُ الحُظُوظِ الأُخْرَوِيَّةِ دُونَ الدُّنْيَوِيَّة .

وإِخْلاصُ خَواصِّ الخَواصِّ : إِخْراجُ الحُظُوظِ بِالكُلِّيَّةِ ، فَعِبادَتُهُم تَحْقِيقُ العُبُودِيَّةِ والقِيامُ بِوَظائِفِ الرُّبُوبِيَّةِ مَحَبَّةً وشَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِ ، كَما قالَ ابْنُ الفارِض :

لَيْسَ سُؤَالِي مِنَ الجِنانِ نَعِيماً * غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّها لِأَراكا

وقالَ آخَر :

كُلُّهُم يَعْبُدُونَ مِنْ خَوْفِ نارٍ * ويَرَوْنَ النَّجاةَ حَظّاً جَزِيلا
أَو بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فَيُضْحُوا * في رِياضٍ ويَشْرَبُوا السَّلْسَبِيلا
لَيْسَ لي في الجِنانِ والنَّارِ رَأْيٌ * أَنا لا أَبْتَغِي بِحِبِّي بَدِيلا

والحاصِلُ ، لا يُمْكِنُ الخُروجُ مِنَ النَّفْسِ والتَّخَلُّصُ مِنْ دقائِقِ الرِّياءِ مِنْ غَيْرِ شَيْخٍ أَبَداً)[1] وأَسْمَى مَقاصِدِ الصُّوفِيَّةِ أَنْ يَرْتَقُوا بِإِخْلاصِهِم إِلَى أَرْفَعِ الدَّرجاتِ ويَعْبُدوا اللهَ مُبْتَغِينَ وَجْهَهُ دُونَ أَنْ يَقْصِدوا ثَواباً :

فَما مَقْصُودُهُم جَنَّاتُ عَدْنٍ * ولا الحُورُ الحِسانُ ولا الخِيامُ

---

(١) إيقاظُ الهِمَمِ في شَرْحِ الحِكَم (ابْنُ عَجِيبَة) .

سِوَى نَظَرِ الجَلِيلِ وذا مُناهُم * وهَـذا مَـقْصِـدٌ أَسْنَـى يُـرامُ

كَما قَالَتْ رابِعَةُ : (ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نارِكَ ولا طَمَعاً في جَنَّتِكَ ، وإِنَّما عَبَدْتُكَ لِذاتِكَ) ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ثَوابٌ ولا عِقابٌ ، ولا جَنَّةٌ ولا نارٌ ، لَما تَأَخَّرُوا عَنْ عِبادَتِهِم ولَما انْثَنُوا عَنْ طاعاتِهِم لِأَنَّهُم يَعْبُدونَ اللهَ لِلهِ ، ولِأَنَّ أَعْمالَهُم تَصْدُرُ عَنْ قَلْبٍ عَمَّرَهُ حُبُّ اللهِ وَحْدَهُ ، وطَلَبُ قُرْبِهِ ورِضْوانِهِ ، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكُوا نِعَمَهُ وآلاءَهُ ، وذاقُوا بِرَّهُ وإِحْسانَهُ .

ولَيْسَ مَعْنَى هَذا أَنَّهُم لا يُحِبُّونَ دُخُولَ الجَنَّةِ ، ولا يَرْغَبُونَ في البُعْدِ عَنِ النَّارِ (كَما أَشاعَ بَعْضُ الحَمْقَى مِنْ أَعْداءِ التَّصَوُّفِ والإِسْلامِ)[1] ، فَهُمْ يَكْرَهُونَ النَّارَ ويَخافُونَها لِأَنَّها مَظْهَرُ سَخَطِ اللهِ وغَضَبِهِ ونِقْمَتِهِ ، ويُحِبُّونَ الجَنَّةَ ويَطْلُبُونَها لِأَنَّها مَظْهَرُ حُبِّ اللهِ ورِضاهُ وقُرْبِهِ ، كَما قالَتْ السَّيِّدَةُ (آسِيَةُ) زَوْجَةُ فِرْعَوْنَ : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾[2] ، فَهِيَ قَدْ طَلَبَتِ العِنْدِيَّةَ والقُرْبَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَ الجَنَّةَ ، طَلَبَتِ الجِوارَ قَبْلَ الدَّار :

وما حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبِي * ولَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

ولَمْ تَكُنْ رَغْبَتُها في الجَنَّةِ إِلاَّ لِنَوالِ الحُبِّ والقُرْبِ والرِّضا مِنْهُ تَعالَى .

وهَكَذا ، عِنْدَما تَرْتَفِعُ هِمَّةُ العَبْدِ وتَسْمُو غاياتُهُ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُلاحَظَةِ لَذائِذِهِ البَدَنِيَّةِ ومَنافِعِهِ الشَّخْصِيَّةِ ، سَواءٌ أَكانَتْ دُنْيَوِيَّةً أَمْ أُخْرَوِيَّةً ، ويَبْغِي في جَمِيعِ عِباداتِهِ الحُبَّ والقُرْبَ ، والتَّحَقُّقَ بِالعُبُودِيَّةِ الخالِصَةِ ، فَعَلَى قَدْرِ هِمَّةِ العَبْدِ يَكُونُ مَطْلَبُهُ .

ولا نَقْصِدُ مِنْ هَذا أَنَّ الَّذي يَبْغِي مِنْ طاعاتِهِ وعِباداتِهِ النَّعِيمَ الأُخْرَوِيَّ

---

(١) فَإِنَّ بَعْضَهُم أَخَذَ يُنَدِّدُ بِكَلامِ (رابِعَةَ العَدَوِيَّة) ، واتَّهَمَها بِأَنَّها فَقَدَت الرَّغْبَةَ والرَّهْبَةَ ، وهَذا جَهْلٌ ومُغالَطَةٌ فَإِنَّها لَمْ تَخْرُجْ عَنْ حُدودِ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ ، ولَكِنَّها سَمَتْ بِهِما وارْتَفَعَتْ ، فَكانَتْ رَغْبَتُها في رِضاءِ اللهِ وقُرْبِهِ وحُبِّهِ ورَهْبَتُها مِنْ غَضَبِهِ وبُعْدِهِ ، فَكُلَّما عَظُمَ إِيمانُ المَرْءِ ازْدادَتْ رَهْبَتُهُ وسَمَتْ رَغْبَتُهُ ، وكَمْ كانَتْ رابِعَةُ كَثِيرَةَ البُكاءِ والخَوْفِ والنَّحِيب !؟

(٢) سُورَةُ التَّحرِيمَ مِنَ الآيَة ١١ .

والتَّمَتُّعَ بِلَذائِذِ الجَنَّةِ ، أَوِ الخَلاصَ مِنْ عَذابِ النَّارِ ، أَنَّهُ مَحْرُومٌ مِنْ وَعْدِ اللهِ بَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ طائِعٌ صالِحٌ ، إلاَّ أَنَّ مَرْتَبَتَهُ أَدْنَى مِنْ مَرْتَبَةِ أُولَئِكَ الَّذينَ سَمَتْ نِيَّاتُهُم ، وارْتَفَعَتْ هِمَمُهُم في إِخْلاصِهِم لِرَبِّهِم .

قالَ الإمامُ السُّيُوطِي : (القِيامُ بِالأَوامِرِ والنَّواهِي لِلهِ وَحْدَهُ ، لا لِجَلْبِ ثَوابٍ ولا لِدَفْعِ عِقابٍ ، وهَذا حالُ مَنْ عَبَدَاللهَ لِلهِ ، خِلافُ مَنْ عَبَدَاللهَ لِلثَّوابِ وخَوْفِ العِقابِ ، فَإِنَّما عَبَدَ لِحَظِّ نَفْسِهِ ، وإِنْ كانَ هُوَ مُحِبّاً أَيْضاً ، لَكِنَّهُ في دَرَجَةِ الأَبْرارِ ، وذاكَ في دَرَجَةِ المُقَرَّبِينَ)[١].

قالَ الشَّيْخُ (أَحْمَدُ زَرُّوق) في قَواعِدِ التَّصَوُّف :

(تَعْظِيمُ ما عَظَّمَ اللهُ مُتَعَيِّنٌ ، واحْتِقارُ ذَلِكَ رُبَّما يَكُونُ كُفْراً ، فَلا يَصِحُّ فَهْمُ قَوْلِهِم : ما عَبَدْناهُ خَوْفاً مِنْ نارِهِ ولا طَمَعاً في جَنَّتِهِ عَلَى الإِطْلاقِ ؛ إِمَّا احْتِقاراً لَهُما - وقَدْ عَظَّمَهُما اللهُ تَعالَى - فَلا يَصِحُّ احْتِقارُهُما مِنْ مُسْلِمٍ ، وإِمَّا اسْتِغْناءً عَنْهُما ولا غِنَى لِلْمُؤْمِنِ عَنْ بَرَكَةِ مَوْلاهُ ، نَعَم .. لَمْ يَقْصِدُوهُما بِالعِبادَةِ بَلْ عَمِلُوا لِلهِ تَعالَى لا لِشَيْءٍ ، وطَلَبُوا مِنْهُ الجَنَّةَ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ لا لِشَيْءٍ ، وشاهِدُ ذَلِكَ في قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾[٢] ، إِذْ جَعَلَ عِلَّةَ العَمَلِ إِرادَةَ وَجْهِهِ تَعالَى)[٣].

بَيانُ شَوائِبِ الإِخْلاصِ في أَعْمالِ السَّالِكِ :

قَدْ تَدْخُلُ عَلَى السَّالِكِ آفاتٌ كَثِيرَةٌ تَشُوبُ إِخْلاصَهُ ، وما هَذِهِ الآفاتُ إِلاَّ حُجُبٌ تُعَرْقِلُ سَيْرَهُ إِلَى اللهِ تَعالَى ، لِذا كانَ مِنَ الضَّرورِيِّ الإِشارَةُ إِلَيْها ، وتَحْذِيرُ السَّالِكِينَ مِنْ مَخاطِرِها ، ثُمَّ بَيانُ طَرِيقِ الخَلاصِ مِنْها حَتَّى تَكُونَ جَمِيعُ أَعْمالِ السَّالِكِ خالِصَةً لِوَجْهِهِ تَعالَى :

الحِجابُ الأَوَّلُ : رُؤْيَتُهُ لِعَمَلِهِ وإِعْجابُهُ بِهِ وحِجابُهُ بِهِ عَنِ المَعْمُولِ لَهُ

---

(١) تَأْييدُ الحَقِيقَةِ العَلِيَّة . (٢) سُورَةُ الإِنْسانِ مِنَ الآيَة ٩ . (٣) قَواعِدُ التَّصَوُّف (أَحْمَدُ زَرُّوق) .

وبِالعِبادَةِ عَنِ المَعْبُود .

فالَّذي يُخَلِّصُهُ مِنْ رُؤْيَةِ عَمَلِهِ عِلْمُهُ بِفَضْلِ اللهِ تَعالَى عَلَيْهِ وتَوْفِيقِهِ لَهُ ، وأَنَّهُ مَخْلُوقٌ هُوَ وعَمَلُهُ لِلهِ تَعالَى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1] ، إلاَّ أَنَّ لَهُ نِسْبَةَ الكَسْبِ فَقَط .

وإِذا دَقَّقَ في صِفاتِ النَّفْسِ ، وعَلِمَ أَنَّها كَما وَصَفَها اللهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[2] ، أَدْرَكَ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ يَصْدُرُ مِنْهُ هُوَ مَحْض فَضْلٍ ومِنَّةٍ مِنَ اللهِ تَعالَى ، وعِنْدَئِذٍ يَتَذَوَّقُ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[3] .

فَتَخَلُّصُ العَبْدِ مِنْ رُؤْيَةِ أَعْمالِهِ وإِعْجابِهِ بِها يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ نَفْسِهِ ومَعْرِفَةِ دَخائِلِها ، فَلْيَجْتَهِدِ الإِنْسانُ في تَحْصِيلِ هَذِهِ المَعْرِفَة .

الحِجابُ الثَّاني : طَلَبُهُ لِعَمَلِهِ ؛ والعِوَضُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ في الدُّنْيا أَو في الآخِرَة .

أَمَّا الَّذي يَكُونُ في الدُّنْيا ، فَطَلَبُهُ الشَّهواتِ المُنَوَّعَة ، ومِنْها شَهْوَةُ السُّمْعَةِ والشُّهْرَةِ وحُبِّ الظُّهُورِ وغَيْرِ ذَلِكَ ، وكَذَلِكَ طَلَبُهُ لِلأَحْوالِ والمَقاماتِ والمُكاشَفاتِ والمَعارِف .

ولِهَذا يَقُولُ العارِفُ الكَبِيرُ (الشَّيْخُ أَرْسَلان) ناصِحاً كُلَّ مُلْتَفِتٍ إِلَى غَيْرِ مَطْلُوبِهِ ومَحْبُوبِهِ ومَقْصُودِهِ : (يا أَسِيرَ الشَّهَواتِ والعِباداتِ ، يا أَسِيرَ المَقاماتِ والمُكاشَفاتِ ، أَنْتَ مَغْرُور)[4] ، وإِنَّما كانَ أَسِيرَها لأَنَّها مِنْ جُمْلَةِ الأَغْيارِ ومِنْ عالَمِ الخَلْقِ ، فالوقُوفُ عِنْدَها قاطِعٌ عَنِ الوصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ خالِقِها تَعالَى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾[5] .

ويَقُولُ الشَّيْخُ (عَبْدُ الغَني النَّابُلسِي) مُعَلِّقاً عَلَى كلامِهِ :

---

(١) سُورَةُ الصَّافَّات الآية ٩٦ .
(٢) سُورَةُ يُوسُفَ مِنَ الآيَة ٥٣ .
(٣) سُورَةُ النُّور مِنَ الآيَة ٢١ .
(٤) خَمْرَةُ الحان ورَنَّةُ الأَلحان (أَرْسَلان الدِّمَشْقِي) .
(٥) سُورَةُ النَّجْم الآيَة ٤٢

(إِذْ لَوْ كُنْتَ صادِقاً ما التَفَتَّ إِلَى شَهْوَةٍ أَو عِبادَةٍ ، ولا مَقامٍ ولا مُكاشَفَةٍ ، ولَأَفْرَدْتَ القَصْدَ إِلَيْهِ تَعالَى وَحْدَهُ دُونَ جَمِيعِ ما عَداهُ ، ولَجَرَّدْتَ العَزْمَ والهِمَّةَ فيهِ تَعالَى ، وتَرَكْتَ ما سِواه) ، ثُمَّ قالَ : (ونَقَلَ ابْنُ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي في التَّنْوِيرِ في إِسْقاطِ التَّدْبِيرِ) ، عَنْ شَيْخِهِ أَبِي العَبَّاسِ المُرْسِيِّ ، أَنَّهُ يَقُولُ : (لَنْ يَصِلَ الوَلِيُّ إِلَى اللهِ حَتَّى تَنْقَطِعَ عَنْهُ شَهْوَةُ الوصُولِ إِلَى اللهِ تَعالَى) ومِنْ كَلامِ بَعْضِهِم : (لَوْ رُفِعْتَ إِلَى ذُرْوَةِ الأَكْوانِ وتَرَقَّيْتَ إِلَى حَيْثُ لا مَكانَ ، ثُمَّ اغْتَرَرْتَ بِشَيْءٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَلَسْتَ مِنْ أُولي الأَلْبابِ) ، ويَقُولُ ابْنُ الفارِض:

قالَ لِي حُسْنُ كُلِّ شَيْءٍ تَجَلَّى * بِي تَمَلَّ فَقُلْتُ قَصْدِي وَراكَ

فالالْتِفاتُ إِلَى حُسْنِ المُكَوِّناتِ والمَخْلُوقاتِ ، والوُقُوفُ عِنْدَها اغْتِرارٌ وانْقِطاعٌ[1] ، ويَقُولُ بَعْضُهُم ناصِحاً لِمَنْ هَذا حالُهُ :

ومَهْما تَرَى كُلَّ المَراتِبِ تُجْتَلَى * فَحُلْ عَنْها فَعَنْ مِثْلِها حُلْنا

ويَقُولُ ابْنُ عَطاءِ الله : (ما أَرادَتْ هِمَّةُ سالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَما كُشِفَ لَها ، إِلاَّ نادَتْهُ هَواتِفُ الحَقِيقَةِ : الَّذي تَطْلُبُ أَمامَك)[2].

وطَلَبُ العَبْدِ لِهَذِهِ المَقاماتِ وغَيْرِها شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ ، وذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَنالَها فَيَطْمَئِنَّ إِلَيْها ، ويُحْجَبَ بِها عَنِ المَقْصُودِ ؛ وإِمَّا أَن لا يَنالَها عِنْدَما سارَ إِلَيْها ، إِلاَّ أَنَّهُ جَعَلَها غايَةً ، واللهَ تَعالَى وَسِيلَةً ، فَيَجْتَهِدُ لِتَحْصِيلِها فَلا يَصِلُ فَيَفْتُرُ عَزْمُهُ ، ويَقْنَطُ ويَيْأَس ، وعِنْدَئِذٍ يَرْجِعُ القَهْقَرَى ، إِلاَّ إِذا لاحَظَتْهُ العِنايَةُ بِإِرْشادِ المُرْشِدِينَ ، فَيُمْكِنُهُ التَّخَلُّص مِنْ هَذِهِ الوَرْطَةِ ، وإِلاَّ دامَ مُنْقَطِعاً ، وانْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خاسِراً .

وأَمَّا طَلَبُ العِوَضِ في الآخِرَةِ : فَدُخُولُ الجَنَّةِ والنَّجاةُ مِنَ النَّار .

---

(١) شَرْحُ رِسالَةِ الشَّيْخِ أَرْسَلانِ الدِّمَشْقي (خَمْرَةُ الحان ورَنَّةُ الأَلْحان) لِعَبْدِ الغَني النَّابُلُسي .
(٢) إِيقاظُ الهِمَمِ في شَرْحِ الحِكَم .

وتَصْحِيحُ سَيْرِهِ بِأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ دُخُولَ الجَنَّةِ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعالَى لا بِعَمَلِهِ ؛ فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ : (لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ، قالوا : ولا أَنْتَ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : ولا أَنا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ) [١].

فالَّذي يُخَلِّصُ العَبْدَ مِنْ طَلَبِ العِوَضِ عَلَى عَمَلِهِ عِلْمُهُ بِأَنَّهُ عَبْدٌ مَحْضٌ ، وأَنَّهُ لا يَنالُ دُخُولَ الجَنَّةِ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ إِلاَّ بِفَضْلِ اللهِ تَعالَى ، والعَبْدُ لا يَمْلِكُ مَعَ سَيِّدِهِ شَيْئاً ، إِذْ عِبادَتُهُ لِلهِ تَعالَى لِمَحْضِ العُبُودِيَّةِ ، فَما يَنالُهُ مِنَ الأَجْرِ والثَّوابِ تَفَضُّلٌ وإِحْسانٌ مِنَ اللهِ تَعالَى في الدُّنْيا والآخِرَةِ ؛ وكَذلِكَ تَوْفِيقُهُ لِلْعِبادَةِ ، فَإِذا ما شَهِدَ هَذا التَّوْفِيقَ مِنْ جُمْلَةِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ ، يُسارِعُ في شُكْرِ اللهِ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ ، عِنْدَئِذٍ يَخْلُصُ مِنْ طَلَبِ العِوَضِ لِعَمَلِهِ .

والحِجابُ الثَّالِثُ : رِضاهُ عَنْ أَعْمالِهِ واغْتِرارُهُ بِها ، وتَخْلِيصُهُ وإِنْقاذُهُ مِنْ رِضاهُ بِعَمَلِهِ يَكُونُ بِشَيْئَيْنِ :

١ - اطِّلاعُهُ عَلَى عُيُوبِهِ في أَعْمالِهِ ، فَقَلَّ عَمَلٌ مِنَ الأَعْمالِ إِلاَّ ولِلشَّيْطانِ فيهِ نَصِيبٌ ، ولِلنَّفْسِ فِيهِ حَظٌّ .

أَمَّا نَصِيبُ الشَّيْطانِ ، فَقَدْ أَرْشَدَنا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، عِنْدَما سُئِلَ عَنِ الْتِفاتِ الرَّجُلِ في صَلاتِهِ ، فَقالَ : (هُوَ اخْتِلاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطانُ مِنْ صَلاةِ العَبْدِ) [٢].

وأَمَّا حَظُّ النَّفْسِ مِنَ العَمَلِ ، فلا يَعْرِفُهُ إِلاَّ أَهْلُ البَصائِرِ مِنَ العارِفِين .

٢ - عِلْمُ العَبْدِ بِما يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلالُهُ مِنْ حُقُوقِ العُبُودِيَّةِ وآدابِها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ وشُرُوطِها ، فَلَوِ اجْتَهَدَ العَبْدُ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ لَرَأَى نَفْسَهُ مُقَصِّراً تِجاهَ اللهِ تَعالَى ، وأَيْنَ الإِنْسانُ العاجِزُ الضَّعِيفُ مِنْ خالِقِ الأَكْوانِ ؟ لِهَذا بَيَّنَ لَنا اللهُ تَعالَى أَنَّ مَوْقِفَ خَلْقِهِ مِنْهُ التَّقْصِيرُ فَقالَ :

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهِما . (٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ و التِّرْمِذِيُّ .

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[1].

الصَّبْر

تَعْرِيفُهُ : عَرَّفَ العُلَماءُ (الصَّبْرَ) بِتَعارِيفَ كَثِيرَةٍ ، وأَهَمُّها ما قالَهُ ذُو النُّونِ المِصْري : (الصَّبْرُ : هُوَ التَّباعُدُ عَنِ المُخالَفاتِ ، والسُّكُونُ عِنْدَ تَجَرُّعِ غُصَصِ البَلِيَّةِ ، وإِظْهارُ الغِنَى عِنْدَ حُلُولِ الفَقْرِ بِساحَةِ المَعِيشَةِ) .

وما ذَكَرَهُ الرَّاغِبُ الأَصْفهاني في مُفْرَداتِهِ : (الصَّبْرُ : حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى ما يَقْتَضِيهِ العَقْلُ أَوِ الشَّرْعُ أَو عَمَّا يَقْتَضِيانِ حَبْسَها عَنْهُ)[2].

وما ذَكَرَهُ السَّيِّدُ الجُرْجانِي في تَعْرِيفاتِهِ : (الصَّبْرُ : هُوَ تَرْكُ الشَّكْوَى مِنْ أَلَمِ البَلْوَى لِغَيْرِ اللهِ)[3].

ويُفْهَمُ مِنْ تَعْرِيفِ (السَّيِّد) : أَنَّ الشَّكْوَى لِلهِ تَعالَى لا تُنافِي الصَّبْرَ ، إِنَّما يُنافِيهِ شَكْوَى اللهِ إِلَى غَيْرِهِ ، ولا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا كانَ مِنَ سَيِّدِنا (يَعْقُوبَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وإِلَى هَذِهِ الحالَةِ الإِشارَةُ بِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[4].

كَما رَأَى بَعْضُهُم رَجُلاً يَشْكُو إِلَى آخَرَ فاقَةً وضَرُورَةً ، فَقالَ : يا هَذا أَتَشْكُو مَنْ يَرْحَمُكَ إِلَى مَنْ لا يَرْحَمُكَ ، ثُمَّ أَنْشَدَ :

وإِذا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فاصْبِرْ لَها * صَبْرَ الكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وإِذا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّما * تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذي لا يَرْحَمُ

بَيانُ أَقْسامِ الصَّبْرِ :

ذَكَرَ العُلَماءُ لِلصَّبْرِ تَقْسِيماتٍ مُنَوَّعَةً[5] ، وكُلُّها تَرجِعُ إِلَى الأَنْواعِ الثَّلاثَةِ الآتِيَةِ

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر الآيَة ٦٧.
(٢) مُفْرَداتُ القُرْآن لـ(الرَّاغِب الأَصْفَهاني) ص ٤٧٤ .
(٣) التَّعريفات لـ(الشَّريف الجُرْجاني) ص ٧٤ .
(٤) سُورَةُ يُوسُف مِنَ الآيَة ٨٦ .
(٥) انْظُر : كِتابَ (الإِحْياء) لِلغَزالي ، و(قُوت القُلُوب) لأَبي طالِبِ المَكيّ ، و(مَدارج السَّالكين) لابْنِ القَيِّم ، وغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الكُتُب المُوَسَّعَة .

وهِيَ : صَبْرٌ عَلَى الطَّاعاتِ ، وصَبْرٌ عَنِ المَعاصِي ، وصَبْرٌ عَلَى المَصائِب .
فالصَّبْرُ عَلَى الطَّاعات : هُوَ الاسْتِقامَةُ عَلَى شَرْعِ اللهِ ، والمُثابَرَةُ الدَّائِمَةُ عَلَى العِباداتِ المالِيَّةِ والبَدَنِيَّةِ والقَلْبِيَّةِ ، ومُواصَلَةُ الأَمْرِ بِالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، والصَّبْرُ عَلَى ما يَعْتَرِضُ ذَلِكَ مِنْ أَنْواعِ الابْتِلاءِ وصُنُوفِ المِحَنِ لِأَنَّ مَنْ وَرِثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ دَعْوَتَهُ وجِهادَهُ لابُدَّ أَنْ يُصِيبَهُ ما أَصابَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ تَكْذِيبٍ ومُحارَبَةٍ وأَذَىً ، قالَ اللهُ تَعالَى حِكايَةً عَنْ لُقْمانَ يُوصِي ابْنَهُ : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾(١)
وقَدْ أَقْسَمَ اللهُ تَعالَى أَنَّ النَّاجِينَ هُمْ مَنْ تَحَقَّقُوا بِصِفاتٍ أَرْبَع :
الإِيمانِ ، والعَمَلِ الصَّالِحِ ، والنُّصْحِ لِلأُمَّةِ ، ثُمَّ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ ، فَقالَ تَعالَى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾(٢).
والصَّبْرُ عَنِ المَعاصِي : هُوَ مُجاهَدَةُ النَّفْسِ فِي نَزَواتِها ، ومُحارَبَةُ انْحِرافِها ، وتَقْوِيمُ اعْوِجاجِها ، وقَمْعُ دَوافِعِ الشَّرِّ والفَسادِ الَّتِي يُثِيرُها الشَّيْطانُ فِيها ؛ فَإِذا ماجاهَدَها وزَكَّاها ورَدَّها عَنْ غَيِّها وَصَلَ إِلَى الهِدايَةِ التَّامَّةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٣)، وكانَ مِنَ المُفْلِحِينَ بِبِشارَةِ اللهِ تَعالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ ﴾(٤)، وقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾(٥).
وأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى المَصائِب : فَبِما أَنَّ الحَياةَ الدُّنْيا دارُ امْتِحانٍ وابْتِلاءٍ ، فَإِنَّ

---

(١) سُورَةُ لُقْمان مِنَ الآيَة ١٧ .
(٢) سُورَةُ العَصْر .
(٣) سُورَةُ العَنْكَبُوت مِنَ الآيَة ٦٩ .
(٤) سُورَةُ الأَعْلَى الآيَتان ١٤ ، ١٥ .
(٥) سُورَةُ النَّازِعات الآيَتان ٤٠ ، ٤١ .

اللهَ تَعالَى يَخْتَبِرُ إيمانَ عِبادِهِ (وهُوَ أَعْلَمُ بِهِم) بِأَنْواعِ المَصائِبِ ، ويُمَحِّصُ المُؤْمِنينَ بِصُنُوفِ المِحَنِ كَي يُمَيِّزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، والمُؤْمِنَ مِنَ المُنافِقِ .

قالَ تَعالَى : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾[1] ، سَواءٌ أَكانَتْ هَذِهِ المَصائِبُ في المالِ أَم في البَدَنِ أَم في الأَهْلِ ، قالَ تَعالَى : ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦ ﴾[2] ، وقالَ تَعالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ ﴾[3] .

ولاشَكَّ أَنَّ المُؤْمِنَ الصَّادِقَ يَتَلَقَّى هَذِهِ المَصائِبَ بِالصَّبْرِ والتَّسْلِيمِ ؛ بَلْ بِالرِّضا والسُّرورِ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ النَّكَباتِ ما نَزَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ خالِقِهِ إلاَّ لِتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِ ومَحْوِ سَيِّئاتِهِ ، كما قالَ ﷺ : (ما يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ، ولا أَذَىً ولا غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشاكُها إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِها مِنْ خَطاياه)[4] ، كَما أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ النَّوازِلَ إِنَّما تَرْفَعُ المُؤْمِنِينَ الصَّابِرِينَ دَرَجاتٍ عالِيَةً ومَنازِلَ رَفِيعَةً عِنْدَ اللهِ تَعالَى ، إذا هُمْ تَلَقَّوْها بِالرِّضا والتَّسْلِيمِ ، كَما قالَ ﷺ (إذا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنَ اللهِ تَعالَى مَنْزِلَةٌ لَمْ يَنَلْها بِعَمَلِهِ ابْتَلاهُ اللهُ في جَسَدِهِ وفي أَهْلِهِ ومالِهِ ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى

---

(١) سُورَةُ العنكبُوت الآيتان ١ ، ٢ .
(٢) سُورَةُ آل عِمْران الآية ١٨٦ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة الآيات ١٥٥ - ١٥٧ .
(٤) أَخرجَهُ (البُخاريُّ) و(مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهِما ، والوَصَبُ : المَرَض .

يَنالَ المَنْزِلَةَ الَّتي سَبقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّوجَلَّ).[١]

بَيانُ أَهَمِّيَّةِ الصَّبْرِ وبَعْضِ ما وَرَدَ في فَضْلِه :

الصَّبْرُ : نِصْفُ الإيمانِ ، وسِرُّ سَعادَةِ الإنْسانِ ، ومَصْدَرُ العافِيَةِ عِنْدَ البَلاءِ ، وعِدَّةُ المُؤْمِنِ حِينَ تَدْلَهِمُّ الخُطُوبُ وتُحْدِقُ الفِتَنُ وتَتَوالَى المِحَنُ ، وهُوَ سِلاحُ السَّالِكِ في مُجاهَداتِهِ لِنَفْسِهِ ، وحَمْلِها عَلَى الاسْتِقامَةِ عَلَى شَرْعِ اللهِ تَعالَى ، وتَحَصُّنِها مِنَ الانْزِلاقِ في مَهاوِي الفَسادِ والضَّلالِ ، ولِعَظِيمِ أَهَمِّيَّتِهِ ورَفِيعِ مَقامِهِ ذَكَرَهُ اللهُ تَعالَى في القُرْآنِ الكَرِيمِ في نَحْوِ تِسْعِينَ مَوضِعاً ؛ فَتارَةً يأْمُرُ اللهُ تَعالَى بِهِ فَيَقُولُ : ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾[٢] ، وفي مَوْطِنٍ آخَرَ يُثْنِي عَلَى أَهْلِهِ فَيَقُولُ : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[٣].

وفي بَعْضِ الآياتِ يُخْبِرُ عَنْ مَحَبَّتِهِ لِلصَّابِرِينَ فَيَقُولُ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤] وطَوْراً يُبَيِّنُ اللهُ تَعالَى مَعِيَّتَهُ لِلصَّابِرِينَ مَعِيَّةَ حِفْظٍ وتَأْيِيدٍ ونُصْرَةٍ فَيَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٥] ، وفي مَوْضِعٍ آخَرَ يُخْبِرُ عَنْ إيجابِ الجَزاءِ لَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ فَيَقُولُ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٦] وفي مَوْطِنٍ آخَرَ يُبَيِّنُ أَنَّ (الهُداةَ المُرْشِدِينَ) قَدْ نالُوا هَذا المَقامَ الرَّفِيعَ بِالصَّبْرِ فَيَقُولُ تَعالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾[٧].

ولَقَدْ جاءَتِ الأَحادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الكَثِيرَةُ مُؤَكِّدَةً فَضْلَ الصَّبْرِ ، ومالَهُ مِنْ أَثَرٍ عَمِيقٍ في ثَباتِ الإِنْسانِ المُؤْمِنِ عِنْدَ تَلَقِّيهِ صَدَماتِ الحَياةِ ونَوائِبِ الدَّهْرِ .

كَما تَوارَدَتِ الأَخْبارُ المُسْتَفِيضَةُ عَنْ صَبْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وتَحَمُّلِهِ صُنُوفَ الأَذَى وأَنْواعَ الشَّدائِدِ ، وحَياةُ الرَّسُولِ ﷺ كُلُّها صَبْرٌ وجِهادٌ وتَضْحِيَةٌ وحَضٌّ

---

(١) أَخْرَجَهُ (أَبو داود) في سُنَنِهِ عَنْ (مُحَمَّد بن خالِدٍ السُّلَمِي رضي الله عنه).

(٢) سُورَةُ الأَعْرافِ مِنَ الآيَةِ ١٢٨ . (٣) سُورَةُ البَقَرَةِ مِنَ الآيَةِ ١٧٧ . (٤) سُورَةُ آل عِمْرانَ مِنَ الآيَةِ ١٤٦ .

(٥) سُورَةُ البَقَرَةِ مِنَ الآيَةِ ١٥٣ . (٦) سُورَةُ الزُّمَرِ مِنَ الآيَةِ ١٠ . (٧) سُورَةُ السَّجْدَةِ مِنَ الآيَةِ ٢٤ .

عَلَى الصَّبْرِ والمُصابَرَة .

وخُذْ بَعْضَ النَّماذِجِ عَلَى هَذا مِنَ الأَحاديثِ الشَّرِيفَة :

١ - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ :

(ما أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطاءٍ خَيْراً وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) [١].

٢ - وعَنْ صُهَيْبِ بنِ سِنانٍ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(عَجَباً لِأَمْرِ المُؤْمِنِ ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، ولَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ ، وإِنْ أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ) [٢].

٣ - وعَنْ يَحْيَى بنِ وَثَّابٍ عَنْ شَيْخٍ (مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ) قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (المُسْلِمُ الَّذي يُخالِطُ النَّاسَ ويَصْبِرُ عَلَى أَذاهُم خَيْرٌ مِنَ الَّذي لا يُخالِطُهُم ولا يَصْبِرُ عَلَى أَذاهُم) [٣].

٤ - وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، يَحْكِي نَبِيَّاً مِنْ أَنْبياءِ اللهِ ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ ، فَأَدْمَوْهُ ، وهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ويَقُولُ (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُم لا يَعْلَمُون) [٤].

٥ - وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(لا أَحَدَ أَصْبَرَ عَلَى أَذىً سَمِعَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ؛ إِنَّهُ لَيُشْرَكُ بِهِ ، ويُجْعَلُ لَهُ الوَلَدُ ، ويُعافِيهِم ويَرْزُقُهُم) [٥].

مَزِيدُ بَيانٍ فِي تَحَقُّقِ الصَّالِحِينَ بِالصَّبْرِ ودَعْوَتِهِمْ إِلَيْه :

تَتَبَّعَ الصَّحابَةُ ﷺ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ووَرِثُوا عَنْهُ الصَّبْرَ جادِّينَ في

---

(١) أخرجَه البُخاريُّ ومُسْلِمٌ والنَّسائي وأبو داودَ والتِّرمِذي . (٢) أخرجَهُ (مُسْلِم) .
(٣) أخرجَهُ (التِّرمِذي) . (٤) أخْرَجَهُ (البُخاريُّ) و(مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهما .
(٥) أخْرَجَهُ (البُخاريُّ) و(مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهما .

نَشْرِ الإسْلامِ بإيمانٍ لا يَعْرِفُ اليأْسَ ، وعَزِيمَةٍ لا تَعْرِفُ الخَوْرَ ، وثَباتٍ لا يَتَطَرَّقُ إلَيْهِ الوَهَن .

ثُمَّ أَخَذَ التَّابِعُونَ عَنْهُم هَذِهِ الرُّوحَ الإيمانِيَّةَ الصَّابِرَةَ ، وهَكَذا انْتَقَلَتْ هَذِهِ الرُّوحُ في كُلِّ عَصْرٍ وزَمانٍ إلَى يَوْمِنا هَذا ، قالَ ﷺ :

(لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي ظاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وهُمْ ظاهِرون) .(١)

قالَ سَيِّدُنا (عُمَرُ بنُ عَبْدِالعَزيز) رضي الله عنه لَمَّا ماتَ وَلَدُهُ الصَّالِحُ :

(إنَّ اللهَ أَحَبَّ قَبْضَهُ ، وإنِّي أعُوذُ باللهِ أَنْ تكُونَ لي مَحَبَّةٌ في شَيْءٍ مِنَ الأُمُور يُخالِفُ مَحَبَّةَ الله) .

ودَخَلَ (ذُو النُّونِ المِصْرِي) عَلَى مَريضٍ يَعُودُهُ ، فَبَيْنَما كانَ يُكَلِّمُهُ أَنَّ أَنَّةً ، فَقالَ لَهُ ذُو النُّون : (لَيْسَ بِصادِقٍ في حُبِّهِ مَنْ لَمْ يَصبِرْ عَلَى ضَرْبِهِ ، فَقالَ المَريضُ : بَلْ لَيْسَ بِصادِقٍ في حُبِّهِ مَنْ لَمْ يَتَلَذَّذْ بِضَرْبِهِ) .(٢)

وكانَ ابْنُ شُبْرُمَةَ إذا نَزَلَ بِهِ بَلاءٌ يَقُولُ : (سَحابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشِعُ) .

ولِلصُّوفِيَّةِ في الصَّبْرِ كَلامٌ عَجِيبٌ ، ومَنْطِقٌ طَرِيفٌ ، فَقَدْ سُئِلَ (الشِّبْلِيُّ) عَنِ الصَّبْرِ فَتَمَثَّلَ بِقَوْلِهِ :

صابَرَ الصَّبْرَ فاسْتَغاثَ بِهِ الصَّـ * ـبْـرُ فَصاحَ المُحِبُّ بِالصَّبْرِ صَبْراً

فَلِلهِ دَرُّ الصُّوفِيَّةِ ، لَقَدْ تَعَرَّضُوا لِرِضْوانِ اللهِ الأَكْبَرِ في ظِلالِ الصَّبْرِ ، وانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ وَصْفُ اللهِ تَعالَى في قَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.(٣)

فَهُمْ لِلهِ وإلَى اللهِ ، ولِذا كانُوا جَدِيرِينَ بِأَنْ يُوفِّيَهُم رَبُّهُم أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسابٍ ولَنِعْمَ أَجْرُ الصَّابِرِينَ : أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) أَخرجَهُ البُخاريُّ عَنِ المُغيرَةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه .

(٢) اللُّمَع (السَّراجُ الطُّوسِي) .

(٣) سُورَةُ البَقَرَة الآيَة ١٥٦ .

﴿ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[1]

إنَّ مَثَلَهُم الأَعْلَى ، وقُدْوَتَهُم في الصَّبْرِ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، الَّذي تَعَرَّضَ لِصُنُوفِ الابْتِلاءِ وشَتَّى المِحَنِ ، فَلَمْ يَزْدَدْ إلاَّ صَبْراً وثَباتاً ، وهَذهِ سُنَّةُ الأَنْبِياءِ والرُّسُلِ الكِرامِ عَلَيهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، قالَ تَعالَى :

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[2]

ولَقَدَ أَوْصاهُ اللهُ تَعالَى بِتَحَمُّلِ مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ وأَعْباءِ الرِّسالَةِ ، والصَّبْرِ عَلَى أَذَى المُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[3]

أَجَلْ ، إنَّ الصَّبْرَ صِفَةُ الأَنْبِياءِ ، وحِلْيَةُ الأَصْفِياءِ ، ومِفْتاحُ الخَيْراتِ ، وسَبِيلُ السَّالِكِينَ إلَى اللهِ تَعالَى ؛ لا يَسْتَغْنِي عَنْهُ السَّالِكُ في مَرْحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ سَيْرِهِ إذْ لِكُلِّ مَقامٍ صَبْرٌ يُناسِبُه .

قالَ ابْنُ عَجِيبَة : (الصَّبْرُ حَبْسُ القَلْبِ عَلَى حُكْمِ الرَّبِّ) :

فَصَبْرُ العامَّةِ : حَبْسُ القَلْبِ عَلَى مَشاقِّ الطَّاعاتِ ورَفْضِ المُخالَفات .

وصَبْرُ الخاصَّةِ : حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى الرِّياضاتِ والمُجاهَداتِ ، وارْتِكابُ الأَهْوالِ في سُلُوكِ طَرِيقِ الأَحْوالِ مَعَ مُراقَبَةِ القَلْبِ في دَوامِ الحُضُورِ ، وطَلَبُ رَفْعِ السُّتُور .

وصَبْرُ خاصَّةِ الخاصَّةِ : حَبْسُ الرُّوحِ والسِّرِّ في حَضْرَةِ المُشاهَداتِ والمُعايَناتِ ، أو دَوامُ النَّظْرَةِ والعُكُوفِ في الحَضْرَة)[4] .

وبَعْدُ ، فَهَذِهِ الصِّفاتُ الثَّلاثُ : الصِّدْقُ والإخْلاصُ والصَّبْرُ ، هِيَ أَرْكانُ السَّيْرِ إلَى اللهِ تَعالَى ؛ مَنْ لَمْ يَبْنِ عَلَيْها سَيْرَهُ وسُلُوكَهُ فَهُوَ أَبْتَرٌ مَقْطُوعٌ ولَوْ زَعَمَ أَنَّهُ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَةِ الآيَة ١٥٧ .
(٢) سُورَةُ الأَحْقاف مِنَ الآيَة ٣٥ .
(٣) سُورَةُ النَّحْل الآيَة ١٢٧ .
(٤) مِعْراجُ التَّشَوُّفِ إلى حَقائِقِ التَّصَوُّف .

مُحِبٌّ مَوْصُولٌ ، وهُوَ كذَلِكَ واقِفٌ بَلْ مَرْدُودٌ ولوْ زَعَمَ أَنَّهُ سائِرٌ مَحْسُوب .

وحَقِيقَةُ الإِخْلاصِ تَوْحِيدُ المَطْلُوبِ ، كَما أَنَّ حَقِيقَةَ الصِّدْقِ تَوْحِيدُ الطَّلَب ، والصَّبْرُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ عَيْنُ الكَمال .

اليَقِين

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

واليَقِينُ : العِلْمُ بِالحَقِيقَةِ عِلْماً جازِماً بِالدَّلِيلِ القَطْعِي .

وعِلْمُ اليَقِينِ : الإِدْراكُ الجازِمُ لِلْحَقِيقَةِ مِنْ وراءِ حِجاب .

وعَيْنُ اليَقِين : إِدْراكُ الحَقِيقَةِ بِلا حِجابٍ ، قالَ تَعالَى :﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾[2].

ولا يُعْتَبَرُ الإِيمانُ إِيماناً إِلاَّ إِذا كانَ يَقِيناً مَعَ الانْقِياد .

قالَ تَعالَى في قَوْمٍ مِنَ الكافِرِينَ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾[3]، فَما أَفادوا مِنْ يَقِينِهِم لِعَدَمِ انْقِيادِهِم لِلرَّسُولِ ﷺ .

إِنَّ اليَقِينَ إِذا حَلَّ قَلْباً فَلا سَبِيلَ إِلَيْهِ لِظُلْمَةٍ :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[4].

وعَنِ الحارِثِ بنِ مالِكٍ أَنَّهُ مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقالَ لَهُ ﷺ :

(كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حارِثَة ؟) قالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً ، قالَ : (فانْظُرْ ما تَقُولُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَما حَقِيقَةُ إِيمانِكَ ؟) فَقالَ : عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وأَظْمَأْتُ نَهارِي ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ عَرْشَ رَبِّي بارِزاً ،

---

(١) سُورَةُ السَّجْدَة الآيَة ٢٤ .
(٢) سُورَةُ التَّكاثُر الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ .
(٣) سُورَةُ النَّمْل مِنَ الآيَة ١٤ .
(٤) سُورَةُ الأَنعام مِنَ الآيَة ٨٢ .

وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزاوَرُونَ فِيها ، قالَ ﷺ : (يا حارِثَةُ عَرَفْتَ فالْزَم)[1]، وفي رِوايَةٍ : (مُؤْمِنٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ) .

وقالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ (عَلِيٌّ بنُ أَبِى طالِبٍ) ﷺ ، وكَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : (لَوْ كُشِفَ الغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يَقِيناً)[2].

وقالَ الحَقُّ تَعالَى : ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾[3].

المُراقَبَة

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ﴾[4]، ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾[5].

فالمُراقَبَةُ : دَوامُ اسْتِشْعارِ القَلْبِ نَظَرَ الحَقِّ إِلَيْهِ مَعَ هَيْبَةِ الجَلالِ وإِسْقاطِ الوَهْمِ ، و دَوامُ الحُضُورِ مَعَ الحَقِّ مَعَ التَّعْظِيمِ والتَّنْزِيه .

ونُورُ الفَيْضِ الفُرْقانِي إِذا بَلَغَ اليَقِينَ الذَّوْقِيَّ الحُضُورِيَّ اسْتَوْلَى عَلَى القَلْبِ وقَهَرَهُ فَأَفْضَى إِلَى دَوامِ المُراقَبَة .

ورُبَّ عِلْمٍ لا شَكَّ فِيهِ لا يَغْلِبُ عَلَى القَلْبِ ، كالعِلْمِ بِالمَوْتِ فَإِنَّهُ يَقِينٌ وأَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُ غافِلُون .

فالمُرادُ عِنْدَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ بِالمُراقَبَةِ : ذَلِكَ الحالُ مِنَ الاسْتِيلاءِ إِذْ يَدومُ فَيَصِيرُ مَقاماً ، ثُمَّ يَصِيرُ القَلْبُ مُسْتَغْرِقاً بِمُلاحَظَةِ الجَلالِ ، مُنْكَسِراً تَحْتَ الهَيْبَةِ ، مُسْتَمْتِعاً بِأَنْوارِ الجَمالِ ، فَرِحاً بِالقُرْبِ ، يَقُولُ عَلَى الدَّوام :

---

(١) أخرجهُ (الطَّبَرانيُّ) في الكَبِير .
(٢) انظُر : (حاشِيَةَ السِّنْدي) بتحقيق الشَّيْخ عبدالفتاح أبوغُدَّة ٨ / ٩٦
(٣) سُورَةُ الجاثِيَة الآيتان ٣ ، ٤ . (٤) سُورَةُ آل عِمْران الآيَة ١٩١ . (٥) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ٢٣٥ .

(اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، والخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ والمالِ والوَلَد) .

وهَكَذا ، يَشْهَدُ رَبَّهُ (قَبْلَ العَمَلِ) فَيَعْلَمُ رِضاهُ عَنْهُ ، و(عِنْدَ العَمَلِ) بِمِنَّةِ اللهِ عَلَيْهِ فِيهِ ، و(بَعْدَ العَمَلِ) بِحَمْدِ اللهِ مَعَ يَقِينِهِ بِأَنَّ حَمْدَهُ مِنْهُ سُبْحانَه .

وقِيلَ لِحاتِم الأَصَمِّ : عَلامَ بَنَيْتَ أَمْرَكَ ؟ ، فَقالَ عَلَى أَرْبَعِ خِصالٍ :

عَلِمْتُ أَنَّ لِي رِزْقاً لا يَأْكُلُهُ غَيْرِي ، فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي .

وعَلِمْتُ أَنَّ لِي عَمَلاً لا يَعْمَلُهُ غَيْرِي ، فَشَغَلْتُ نَفْسِي بِه .

وعَلِمْتُ أَنَّ لِي رَبّاً وعَلَيَّ حَقُّهُ ، ولا يَعْبُدُ لِي رَبِّي غَيْرِي ، ولا أَغِيبُ عَنِ اللهِ فَأَنا أَسْتَحْيِي مِنْهُ أَبداً وأُراقِبُهُ دائِماً .

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ : القَصْدُ إِلَيْهِ تَعالَى بِالقُلُوبِ أَبْلَغُ مِنْ حَرَكاتِ الأَعْضاءِ فِي الأَعْمال .

ومِنْ كَلامِ يَحْيَى بنِ مُعاذٍ الرَّازِي : (لَمْ يَتَقَدَّمِ القَوْمُ عِنْدَ اللهِ بِفَقْرٍ ولا غِنَىً ولَكِنْ بِالعِلْمِ والمَعْرِفَةِ ، قِيلَ لَهُ : وما عِبادَةُ العارِفِ ؟

قالَ : الدُّنْيا دارُ سَيْرٍ إِلَى اللهِ تَعالَى ، فَإِنْ لَمْ يَسِرْ بِأَعْمالِ جَوارِحِهِ، فَهُوَ سائِرٌ بِقَلْبِهِ ، خَطْوُ القَدَمِ ذِراعٌ وخَطْو القَلْبِ أَلْفُ فَرْسَخٍ) .

لِأَنَّ أَعْمالَ الجَوارِحِ مَصْدَرُها القَلْبُ ، ولِذَلِكَ قِيلَ : ذَرَّةٌ مِنْ عَمَلِ القَلْبِ تُساوِي جَبَلاً مِنْ عَمَلِ الجَوارِح .

ومَنْ راقَبَ اللهَ تَعالَى فِي خَواطِرِهِ ، عُصِمَ فِي جَوارِحِهِ ، فَإِنَّ الأَعْضاءَ تابِعَةٌ لِلْقَلْبِ ، كالمَلِكِ وجُنُودِه .

وإِذا كانَتِ المَعْصِيَةُ فِي مَقامِ (التَّوْبَةِ) : هِيَ فِعْلُ الحَرامِ ، وفِي مَقامِ (الاسْتِقامَةِ) : هِيَ القُرْبُ مِنْهُ لا فِعْلُهُ ، فَهِيَ بِالنِّسْبَةِ لِمَقامِ (المُراقَبَةِ) : الغَفْلَةُ عَنِ الحَقِّ سُبْحانَه .

والـمَعْصِيَةُ في كُلِّ (مَقامٍ) بِما يُناسِبُهُ ، ولهَذا قِيلَ : حَسَناتُ الأَبْرارِ سَيِّئاتُ الـمُقَرَّبين .

أَمَّا حَقِيقَةُ الـمُراقَبَةِ فَهِيَ : التَّحَقُّقُ بِمَعِيَّةِ الحَقِّ ، قالَ عَزَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[1] ، التَّحَقُّقُ الَّذي يَسْتَوْلِي بِقَهْرِهِ عَلَى الحَقِيقَةِ كَما تَقَدَّمَ ، ويُلْزِمُ القَلْبَ الأَدَبَ ، فَلا يَرِدُ عَلَيْهِ إِلاَّ حَقٌّ ولا يَقَعُ في خَيالِهِ لِلْحَقِّ صُورَةٌ ، ولا يَنْسِبُ لَهُ جِهَةً .

فَإِنَّ الجَزْمَ بِنَزاهَةِ الحَقِّ سُبْحانَهُ عَنِ الجِسْمِيَّةِ أَذانٌ بِانِمْحاءِ جَمِيعِ لَوازِمِها مِنَ الفَوْقِيَّةِ الجِسْمِيَّةِ ، والقُرْبِ الجِسْمِي لِلّه ، فالمَعِيَّةُ الجِسْمِيَّةُ انِمْحاءٌ انْقَطَعَ فيهِ الأَثَرُ .

والـمُراقِبُ الحَقُّ للّهِ لا يَسْتَطِيعُ قَلْبُهُ الغَفْلَةَ ، حَتَّى لَو فُرِضَ أَنَّهُ أَرادَها لَمْ يَصِلْ إِلَيْها ، فَكَيْفَ و(الـمَقامُ) لا يَتَأَتَّى فِيهِ أَنْ تَخْطُرَ فيهِ الغَفْلَةُ ؟

قالَ العارِفُ ابْنُ الفارِض :

(ولَوْ خَطَرَتْ لِي في سِواكَ إِرادَةٌ * عَلَى خاطِري سَهْواً قَضَيْتُ بِرِدَّتِي)

أَي بِرِدَّتِهِ عَنْ مَقامِه .

فَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ بِالحَقِّ في قُرْبِ الحَقِّ بِلا صُورَةٍ ، مَتَّعَهُ اللّهُ سُبْحانَهُ بِالقُرْبِ الخاص ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾[2] ، والقُرْبِ العام ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾[3] .

الـمُشاهَدَة

(الـمُكاشَفَة - الفَناء) .

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ

(١) سُورَةُ الحَدِيد مِنَ الآيَة ٤ . (٢) سُورَةُ الواقِعة الآيتان ١٠ ، ١١ . (٣) سُورَةُ ق الآيَة ١٦ .

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ [1] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ [2].

المُشاهَدَةُ : شُهُودُ الحَقائِقِ بِغَيْرِ حِجاب .

إِذا تَجَرَّدَتِ الرُّوحُ عَنِ الجَسَدِ ، وخَرَجَتْ عَنْ نِطاقِ المادَّةِ ، ثُمَّ عَنْ نِطاقِ لِباسِها البَرْزَخِي ، ثُمَّ لِباسِها المَلَكُوتي ، ثُمَّ لِباسِها الجَبَرُوتِي ، وعَنْ جَمِيعِ أَرْدِيَتِها فَكانَتْ رُوحاً مُجَرَّدَةً عَنْ جَمِيعِ أَسْتارِها ، وكافَحَتِ الحَقِيقَةَ بِالنُّورِ الَّذي مَنَحَها الحَقُّ سُبْحانَهُ ، فَقَدْ صَحَّتْ لَها المُشاهَدَة .

وبِدايَتُها المُكاشَفَةُ : وهِيَ شُهُودُ الحَقائِقِ مِنْ وراءِ حِجابٍ رَقِيق .

فَإِذا زالَ السِّتْرُ ، زُجَّ بِالعَبْدِ في عَيْنِ الجَمْعِ وهُوَ الفَناءُ (الفَناءُ والبَقاءُ : في أَوائِلِهِ فَناءُ الجَهْلِ بِبَقاءِ العِلْمِ ، وفَناءُ المَعْصِيَةِ بِبَقاءِ الطَّاعَةِ ، وفَناءُ الغَفْلَةِ بِبَقاءِالذِّكْرِ، وفَناءُ رُؤْيَةِ حَرَكاتِ العَبْدِ بِبَقاءِ رُؤْيَةِ عِنايَةِ اللهِ في سابِقِ العِلْمِ) [3].

ولَيْسَ المُرادُ بِالمُكاشَفَةِ عِنْدَ القَوْمِ المُكاشَفاتِ الكَوْنِيَّةَ مِمَّا يَصِحُّ اطِّلاعُ فاسِقٍ عَلَيْهِ مِنْ مَساتِيرِ الوجُودِ ، ويَدْخُلُ في ذَلِكَ ما يَراهُ النَّائِمُ تَنْوِيماً مَغْناطِيسِيَّاً ، وقِراءَةُ الأَفْكارِ ، وما تَنْقُلُهُ الجِنُّ لِمَنْ يَصْحَبُونَهُ ، وما يَصِلُ إِلَيْهِ أَهْلُ الرِّياضِيَّاتِ ، وإِنْ صَحَّ أَنَّهُ يَطَّلِعُ السَّالِكُ عَلَى ما اطَّلَعُوا عَلَيْهِ ، ولَكِنَّهُ لا يَقِفُ عِنْدَهُ .

وقَدْ أَجْمَعَ القَوْمُ : عَلَى أَنَّ مَنْ كانَ هَمُّهُ كَشْفَ الغُيُوبِ الكَوْنِيَّةِ ، والتَّصَرُّفَ بِواسِطَةِ رُوحٍ أَوبِالهِمَّةِ ، فَلا يُعْتَبَرُ سالِكاً إِلَى اللهِ تَبارَكَ وتَعالَى .

والمُكاشَفَةُ الحَقِيقِيَّةُ إِنَّما هِيَ في مَجالِ الأَسْماءِ الرَّبَّانِيَّةِ ، ومُقْتَضاها الانْكِسارُ والافْتِقارُ إِلَى اللهِ ، والفَرَحُ بِاللهِ ، والبُعْدُ عَنِ الدَّعْوَى ، والانْصِباغُ

---

(١) سُورَةُ فُصِّلَتْ الآيَة ٥٣ .   (٢) سُورَةُ ق مِنَ الآيَة ٣٧ .   (٣) اللُّمَع (السَّراجُ الطُّوسي) .

الحَقُّ بِمُقْتَضَى الكَمالاتِ الحَقِّيَّة .

وانْظُر إِلَى الثَّلْجِ ؛ ظاهِرُهُ ثَلْجٌ وباطِنُ الصُّورَةِ الثَّلْجِيَّةِ ماءٌ وباطِنُ الماءِ بُخارٌ وباطِنُهُ شَيْءٌ آخَر .

وقَلَمُ الكاتِبِ ؛ حَرَكَتُهُ باطِنُها حَرَكَةُ اليَدِ ، وحَرَكَةُ اليَدِ باطِنُها حَرَكَةُ الأَعْصابِ ، وحَرَكَةُ الأَعْصابِ باطِنُها حَرَكَةُ العَقْلِ ومَنْشَؤُها الرُّوحُ ، وهَكَذا .

إِزاحَةُ الرَّيْبِ بِبَيانِ مَعْنَى الاطِّلاعِ عَلَى الغَيْبِ :

إِذا كُنَّا جُلُوساً في حُجْرَةٍ ، وفِيها خِزانَةٌ لَمْ نَعْرِفْ ما فِيها ، فَهَذا غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ لَنا ، فَإِذا فَتَحَها واحِدٌ مِنَّا ورَأَى ما فِيها ، أَصْبَحَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ شَهادَة . فَإِذا رَفَعَ اللهُ حِجاباً عَنْ إِنْسانٍ حَتَّى أَشْهَدَهُ ما وَراءَهُ ، فَقَدْ أَصْبَحَ شَهادَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ ، وإِنَّما هُوَ غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ لَمْ يُشْهِدْهُ إِيَّاه .

وثَمَّ غَيْبٌ لا يُطْلِعُ اللهُ عَلَيْهِ مَخْلُوقاً ، وهُوَ قَوْلُهُ تَعالَى :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾(١) .

وثَمَّ غَيْبٌ لايُطْلِعُ اللهُ عَلَيْهِ إِلاَّ الرُّسُلَ ، وهُوَ قَوْلُهُ تَعالَى :

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٢)

وَثَمَّ غَيْبٌ خاصٌّ بِالأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ السَّلام .

وثَمَّ غَيْبٌ يُطْلِعُ اللهُ عَلَيْهِ الأَوْلِياءَ قالَ تَعالَى :﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾(٣) فَهُوَ شَهادَةٌ بِالنِّسْبَةِ لَهُ (لِمَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ) ، غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ أَخْفاهُ اللهُ عَنْهُ ، فَمَنِ ادَّعَى أَنَّهُ رَأَى ما أَخْفاهُ اللهُ عَنْهُ فَهُوَ كاذِبٌ ، بِخِلافِ مَنْ يُطْلِعُهُ اللهُ عَلَى ما أَخْفاهُ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ فَذَلِكَ جائِزٌ .

وقَدْ يَكْشِفُ اللهُ لِلعَبْدِ عَنْ أَسْرارٍ في الجَمادِ أَو النَّباتِ أَوِ الحَيَوانِ أَو ما وَراءَ

---

(١) سُورَةُ النَّمْل مِنَ الآيَة ٦٥ . (٢) سُورَةُ الجِنّ الآيتان ٢٦ . ٢٧ . (٣) سُورَةُ البَقَرة مِنَ الآية ٢٨٢ .

المادَّةِ مِنَ الجِنِّ وبَعْضِ العَوالِم .

والفَرْقُ بَيْنَ الفَتْحِ الَّذي يَتَمَتَّعُ بِهِ أَهْلُ الحَقِّ ، وفَتْحِ غَيْرِهِم هُوَ الدُّخُولُ في المَلَكُوتِ ، فَإِنَّهُ لا يَدْخُلُهُ إِلاَّ مَنْ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُ ، وحَسُنَ عَمَلُهُ .

فَمَنِ اعْتَقَدَ الجِسْمِيَّةَ ، أو حَدَّاً (في اللهِ تَعالَى مَثَلاً) ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ في اعْتِقادِهِ ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ القُيودِ والحُدُودِ لا بِدايَةَ لَهُ ولا نِهايَةَ .

ومَنْ كَذَبَ في حَدِيثِهِ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ في قَوْلِهِ ، ومَنِ ارْتَكَبَ مُحَرَّماً فَلَيْسَ مِنَ أَهْلِ الحَقِّ في فِعْلِهِ ، فَإِنَّهُ لا يُحِبُّ أَنْ يُساءَ إِلَيْهِ فَلا يُسِيءُ إِلَى أَحَدٍ ولا إِلَى نَفْسِهِ .

فَإِذا كانَ العَبْدُ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ في سائِرِ شُئُونِهِ ، اعْتِقاداً وعِلْماً وعَمَلاً وقَوْلاً وحالاً ، صَحَّ أَنْ يَرْفَعَ اللهُ عَنْهُ الحُجُبَ المَلَكُوتِيَّةَ ، فَيُزَجَّ بِهِ في المَلَكُوتِ ، فَيَكُونَ حالُهُ حالَ المَلائِكَةِ : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] ، مَعَ الطَّهارَةِ والمَعْرِفَةِ الشُّهُودِيَّةِ ، والتَّقْدِيسِ لِلْحَقِّ سُبْحانَهُ ، والتَّعْظِيمِ لَهُ ، وكَأَنَّما هُوَ في الدَّارِ الآخِرَةِ بِمَنازِلِها ، فَأَيُّ يَقِينٍ يَكُونُ عَلَيْهِ مَنْ تِلْكَ حالُهُ ؟! ، وقَدْ صَحَّ عَنْ أَصْحابِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءُ الكَثِيرُ ، وعَلَى أَثَرِهِمْ مَنْ كانَ عَلَى أَثَرِهِم رضي الله عنهم .

قالَ (الحُجَّةُ الغَزالِي) في كِتابِهِ (المُنْقِذُ مِنَ الضَّلال) عَنِ الصُّوفِيَّةِ :

(حَتَّى إِنَّهُم وهُمْ في يَقَظَتِهِم يُشاهِدُونَ المَلائِكَةَ ، وأَرْواحَ الأَنْبِياءِ ، ويَسْمَعُونَ مِنْهُم أَصْواتَهُم ، ويَقْتَبِسُونَ مِنْهُم فَوائِدَ ، ثُمَّ يَتَرَقَّى الحالُ مِنْ مُشاهَدَةِ الصُّوَرِ والأَمْثالِ إِلَى دَرَجاتٍ يَضِيقُ عَنْها نِطاقُ النُّطْقِ) .

وقالَ تِلْمِيذُهُ القاضِي أَبو بَكْرٍ بنِ العَرَبي المالِكي :

(ورُؤْيَةُ الأَنْبياءِ والمَلائِكَةِ وسَماعُ كَلامِهِم مُمْكِنٌ لِلْمُؤْمِنِ وكَرامَةٌ) .

---

(١) سُورَةُ التَّحريم مِنَ الآيَة ٦ .

وقَدِ اعْتَرضَ قَوْمٌ عَلَى هَذهِ الأُمُورِ بِاعْتِراضاتٍ مَرْدُودةٍ بالكِتابِ والسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ .

وقَدْ صَحَّ أَنَّهُ كانَ في بَنِي إِسْرائِيلَ رِجالٌ يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونوا أَنْبِياءَ (أَي تُكَلِّمُهُم المَلائِكَةُ) - انْظُرْ الصِّحاحَ وكُتُبَ السُّنَنِ - .

كَذَلِكَ في الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، ومِنْهُمْ سَيِّدُنا (عُمَرُ) ﷺ ، وما حَدَثَ لَهُ ﷺ وهُوَ بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ مَعَ (سارِيَةَ) وهُوَ بِنَهاوَنْد ذائِعٌ وشائِعٌ ، والكُلُّ يَعْلَمُ المَواقِفَ الَّتِي نَزَلَ بِها الوَحْيُ مُؤَيِّداً ما قالَهُ سَيِّدُنا عُمَرُ ، حَتَّى إِنَّهُ ﷺ قالَ :

(وافَقْتُ رَبِّي في ثَلاثٍ : مَقامِ إِبْراهِيمَ وفي الحِجابِ وفي أَسْرَى بَدْرٍ)(١) .

وصَدَقَ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ القائِلُ :

(اتَّقُوا فِراسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ)(٢) ، وهُوَ القائِلُ ﷺ :

(إِنَّهُ كانَ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ ، فَإِنْ يَكُ في هَذهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ فَعُمَرُ)(٣)

وفي رِوايَةِ (مُسْلِم) : مُلْهَمُونَ (أَي يُحَدَّثُونَ بِالغَيْبِ) .

وانْظُرْ كَلامَ الحافِظِ (ابْنِ حَجَرَ) وغَيْرِهِ ، في أَنَّ ذَلِكَ لا يَخْتَصُّ بِسَيِّدِنا (عُمَرَ) ﷺ وَحْدَهُ ، وهَذا غَيْرُ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّها قَدْ خُتِمَتْ بِالمُصْطَفَى ﷺ .

ولا تَزالُ تَتَّسِعُ بِالعَبْدِ المَحْبُوبِ دائِرَتُهُ الرُّوحِيَّةُ ، بِحَسَبِ الفَيْضِ الحَقِّ ، حَتَّى يَبْلُغَ ما قَسَمَ اللهُ لَهُ . ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٤) .

وبَدْهِيٌّ أَنَّ الحَقَّ لا يَسْتَشِيرُ مُنْكِرِي هَذهِ الأَحْوالِ في تَفَضُّلِهِ عَلَى خَواصِّ عِبادِهِ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾(٥) .

---

(١) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) عَنِ (ابْنِ عُمَرَ) ﷺ .
(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ والطَّبَرانِيُّ والبَزَّار .
(٣) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) في صَحِيحِهِ ، عَنْ (أَبي هُرَيْرَةَ) ﷺ .
(٤) سُورَةُ الحَدِيدِ مِنَ الآيَةِ ٢١ .
(٥) سُورَةُ آلِ عِمْرانَ الآيَةَ ٧٤ .

فمَقامُ المُكاشَفَةِ إذَنْ : إرْتِفاعُ الأَسْتارِ غَيْرُ سِتْرٍ رَقِيقٍ حَتَّى كَأَنَّهُ يُشاهِدُ الحَقِيقَةَ بِلا سِتارٍ .

أَمَّا الفَناءُ : فهُوَ اسْتِيلاءُ الحَقِّ عَلَى العَبْدِ حَتَّى يَسْتُرَهُ بهِ عَنْ كُلِّ ما سِواهُ ، حَتَّى عَنْ نَفْسِه .

وفي مَقامِ فاذْكُروني ، يَشْعُرُ العَبْدُ بِذِكْرِهِ لِرَبِّهِ ، ثُمَّ يَرَى أَنَّهُ ما ذَكَرَ اللهَ إِلاَّ باللهِ ، ثُمَّ يُفْنِيهِ الحَقُّ عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ ذِكْرِهِ ، فَلا يَرَى ذاكِراً للهِ إِلاَّ اللهَ ، فَإِنَّهُ ما ذَكَرَهُ إِلاَّ بِهِ ، ولا يَرَى حامِداً ولا مُمَجِّداً للهِ إِلاَّ اللهَ .

فَإذا غَيَّبَهُ الحَقُّ عَنْ تِلْكَ الرُّؤيَةِ كانَ ذِكْرُهُ لِرَبِّهِ مِنَ اللهِ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ مِنَ العَبْدِ ، وهَذا الَّذي يَعْنُونَهُ بِقَوْلِهِم : (إِنَّ الحَقَّ ذَكَرَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ في العَبْدِ) .

ولِهَذا لايُعْقَلُ أَنْ يَقُولَ مُسْلِمٌ عَنْ نَفْسِهِ : أَنا اللهُ ، أَو أَنا الحَقُّ ، أَو سُبْحاني (هَكَذا عَلَى ظاهِرِها وفي حالِ شُعُورِهِ) ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَذِبٌ عَلَى الحَقِيقَةِ ، وكُفْرٌ باللهِ ، ولا يَلِيقُ بِمَقامِ التَّوْبَةِ الَّذي هُوَ أَوَّلُ مَقاماتِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعالَى ولا يَتَأَتَّى في أَيِّ مَقامٍ فَوْقَ التَّوْبَةِ إِتْيانُ ما يُخِلُّ بِها ، ومَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ بَتاتاً ، وطُولِبَ بِالبَدْءِ في سُلُوكِ الطَّرِيقِ مِنْ جَدِيدٍ بِتَحْقِيقِ مَقامِ التَّوْبَةِ ، ولا يَيْأَسُ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1] .

وقَدْ شَبَّهَ العارِفُ (عُمَرُ بنُ الفارِض) ، مَنْ هَذِهِ حالُهُ بِقَوْمٍ خَرَجُوا مِنْ مَوْضِعٍ يُرِيدونَ مَوْضِعاً بَعِيداً فَجَدُّوا في السَّيْرِ طُولَ لَيْلِهِمْ ، ولَكِنَّهُمْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ ، فَرَجَعُوا إِلَى المَوْضِعِ الَّذي خَرَجُوا مِنْهُ وهُمْ لا يَشْعُرونَ ، فَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِم الصَّباحُ وَجَدُوا أَنْفُسَهُم فِيهِ ، قالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

---

(١) سُورَةُ يُوسُف مِنَ الآيَة ٨٧ .

فَهُمْ في السَّيْرِ لَمْ يَبْرَحُوا مِنْ مَكانِهِم ❋ وما ظَعَنُوا في السَّيْرِ عَنْهُ وقَدْ كَلُّوا

فَمَنْ نَقَضَ التَّوْبَةَ (والعِياذُ باللّهِ) فَقَدْ رَجَعَ القَهْقَرَى ، وهَدَمَ كُلَّ ما بَناهُ ، وكانَ كالَّتي نَقَضَتْ غَزْلَها بِيَدِها .

وظَنَّ قَوْمٌ (خَطَأً) أَنَّ الصُّوفِيَّةَ يَعْنُونَ بالفَناءِ صُورَةَ (النِّرْفانا الهُنْدوسِيَّةِ) وهِيَ أَنَّ الرُّوحَ جُزْءٌ اقْتُبِسَ مِنَ النُّورِ الأَصْلِي ، ثُمَّ انْغَمَسَ في عَوالِمَ شَتَّى ، فَلَمَّا تَخَلَّصَ مِنْها عادَ وامْتَزَجَ بِأَصْلِهِ لِلنُّور .

ولْيَعْلَمِ المُنْصِفُونَ جَمِيعاً ، أَنَّ الفَناءَ الَّذي يَعْنِيهِ الصُّوفِيَّةُ المُسْلِمُونَ غَيْرُ ذَلِكَ ولا شَبَهَ لَهُ بِهِ ، وقَدْ بَيَّنَّا سابِقاً أَنَّ مَعْنَى الفَناءِ والبَقاءِ في أَوائِلِهِ : هُوَ فَناءُ الجَهْلِ بِبَقاءِ العِلْمِ ، وفَناءُ المَعْصِيَةِ بِبَقاءِ الطَّاعَةِ ، وفَناءُ الغَفْلَةِ بِبَقاءِ الذِّكْرِ ، وقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ المُتَقَدِّمِينَ أَوْ وَجَدَ في كلامِهِم ، أَنَّهُ قالَ في مَعْنَى الفَناءِ : (هُوَ الفَناءُ عَنِ الأَوْصافِ ، والدُّخُولُ في أَوْصافِ الحَقِّ) ، والمَعْنَى الصَّحيحُ لِهَذا القَوْلِ : أَنَّ الإِرادَةَ مِنَ العَبْدِ ، وهِيَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ عَطِيَّةٌ ، ويَعْني خُروجُ العَبْدِ مِنْ أَوْصافِهِ والدُّخُولُ في أَوْصافِ الحَقِّ ، خُروجُهُ مِنْ إِرادَتِهِ ودُخُولُهُ في إِرادَةِ الحَقِّ .

ويَعْنِي أَيْضاً أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الإِراداتِ عَطِيَّةٌ مِنَ اللّهِ تَعالَى وبِمَشِيئَتِهِ لِمَنْ شاءَ ، وبِفَضْلِهِ جَعَلَ لَهُ ما يُعْطِيه ، فَقَطَعَهُ ذَلِكَ عَنْ رُؤْيَةِ نَفْسِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى اللّهِ تَعالَى ، وذَلِكَ مَنْزِلٌ مِنْ مَنازِلِ أَهْلِ التَّوْحِيد .

وأَمَّا الَّذِينَ غَلِطُوا في فَهْمِ هَذا المَعْنَى ، فَإِنَّما غَلِطُوا بِدَقِيقَةٍ خَفِيَتْ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ أَوْصافَ الحَقِّ هُوَ الحَقُّ ذاتُهُ (وهَذا كُلُّهُ ضَلالٌ) ، لِأَنَّ اللّهَ تَعالَى لا يَحِلُّ في القُلُوبِ ، ولَكِنْ يَحِلُّ في القُلُوبِ الإِيمانُ بِهِ والتَّوْحِيدُ لَهُ والتَّعْظِيمُ لِذِكْرِه .

ولَمْ تُحْسِنْ هَذِهِ الفِرْقَةُ الجاهِلَةُ الضَّالَّةُ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ البَشَرِيَّةِ وأَخْلاقِ

البَشَرِيَّةِ ، لِأَنَّ البَشَرِيَّةَ لا تَزُولُ عَنِ البَشَرِ ، كَما أَنَّ لَوْنَ الأَسْوَدِ لا يَزُولُ عَنِ الأَسْوَدِ ، ولا لَوْنَ الأَبْيَضِ عَنِ الأَبْيَضِ ، أَمَّا أَخْلاقُ البَشَرِيَّةِ فَتَبَدَّلُ وتَغَيَّرُ بِما يَرِدُ عَلَيْها مِنْ سُلْطانِ أَنْوارِ الحَقائِق .

وصِفاتُ البَشَرِيَّةِ لَيْسَتْ هِيَ عَيْنَ البَشَرِيَّةِ ، والَّذي أَشارَ إِلَى الفَناءِ أَرادَ بِهِ فَناءَ رُؤْيَةِ الأَعْمالِ والطَّاعاتِ بِبَقاءِ رُؤْيَةِ العَبْدِ لِقيامِ الحَقِّ لِلْعَبْدِ بِذَلِكَ .

وقَدْ نُقِلَ عَنْ (أَبِي الخَيْرِ الأَقْطَع) أَنَّ قَدَمَهُ جُرِحَتْ ، فَلَمَّا ضُمِّدَ الجُرْحُ أَشارَ عَلَيْهِ الطَّبِيبُ بِبَتْرِ قَدَمِهِ ، ولَكِنَّ أَبا الخَيْرِ أَبَى ذَلِكَ ، فَقالَ أَصْحابُهُ لِلطَّبِيبِ : لَوْ قَطَعْتَ قَدَمَهُ أَثْناءَ صَلاتِهِ لَما أَحَسَّ لِأَنَّهُ يَغِيبُ عَنْ حِسِّهِ ، فَفَعَلَ كَما قالوا ، ولَمَّا قَضَى أَبُو الخَيْرِ صَلاتَهُ وَجَدَ قَدَمَهُ قَدْ قُطِعَت .

ووَصَفَ (الهَجْوِيري) الفَناءَ بِأَنَّهُ فَناءُ إِرادَةِ العَبْدِ في إِرادَةِ اللهِ ، لا فَناءَ وُجُودِ العَبْدِ في وُجُودِ اللهِ ، وضَرَبَ لِذَلِكَ مَثَلاً بِالحَدِيدِ تُذِيبُهُ النَّارُ ، فَإِنَّ النَّارَ تُؤَثِّرُ في صِفاتِ الحَدِيدِ دُونَ أَنْ تُعْدِمَ جَوْهَرَ الحَديد .

فالفَناءُ الإِسْلامِيُّ ، وجَمِيعُ مَقالاتِ الصُّوفِيَّةِ إِذا فُهِمَتْ عَلَى حَقِيقَتِها فَلَيْسَتْ إِلَّا الرُّوحَ العَمَلِيَّةَ الواقِعِيَّةَ الَّتي يَنْبَغِي أَنْ يَتَّصِفَ بِها الإِنْسانُ المُسْلِمُ المُحِبُّ لِرَبِّهِ الحُبَّ الصَّحِيحَ ، وهِيَ رُوحُ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وقَدْ عَرَفْنا الآنَ حَقِيقَةَ الصُّوفِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ، والفَناءَ الإِسْلامِيَّ ، فالأَمْرُ المَقْطُوعُ بِهِ أَنَّ مَنْ كانَ كَذَلِكَ فَهُوَ صادِقٌ ، وهُوَ مِنْهُم ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْهُم .

الوَرَع

بَيانُ تَعْرِيفِهِ ومَراتِبِه :

قالَ السَّيِّدُ الجُرْجانِي : (هُوَ اجْتِنابُ الشُّبُهاتِ خَوْفاً مِنَ الوقُوعِ في

المُحَرَّمات) .

وقالَ العَلاَّمَةُ مُحَمَّدُ بنُ عَلَّانَ الصِّدِّيقي : (هُوَ عِنْدَ العُلَماءِ تَرْكُ مالا بَأْسَ بِهِ حَذَراً مِمَّا بِهِ بَأْس)[1]، وقالَ ابْنُ عَجِيبَة : (الوَرَعُ كَفُّ النَّفْسِ عَنِ ارْتِكابِ ما تَكْرَهُ عاقِبَتَهُ)[2].

ولِتَوْضِيحِ مَعْنَى الوَرَعِ نُبَيِّنُ مَراتِبَهُ الَّتي يَسْعَى طالِبُ الكَمالِ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِها :

فَوَرَعُ العَوامِّ : هُوَ تَرْكُ الشُّبُهاتِ حَتَّى لا يَتَرَدَّى في حَمَأَةِ المُخالَفاتِ ، اتِّباعاً لإِرْشادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في قَوْلِهِ : (إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ ، وإِنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ ، وبَيْنَهُما أُمُورٌ مُشْتَبِهاتٌ ، لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرامِ ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيه ، أَلا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً ، أَلا وإِنَّ حِمَى اللهِ مَحارِمُهُ ......)[3].

ووَرَعُ الخَواصِّ : تَرْكُ ما يُكَدِّرُ القَلْبَ ويَجْعَلُهُ في قَلَقٍ وظُلْمَةٍ ؛ فَأَهْلُ القُلُوبِ يَتَوَرَّعُونَ عَمَّا يَهْجِسُ في قُلُوبِهِم مِنَ الخَواطِرِ ، وما يَحِيكُ في صُدورِهِم مِنَ الوَساوِسِ ؛ وقُلُوبُهُم الصَّافِيَةُ أَعْظَمُ مُنَبِّهٍ لَهُم حِينَ يَتَرَدَّدُونَ في أَمْرٍ أَو يَشُكُّونَ في حُكْمٍ ؛ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : (دَعْ ما يَرِيبُكَ إِلَى ما لا يَرِيبُكَ)[4]، وبِقَوْلِهِ : (البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ ، والإِثْمُ ما حاكَ في نَفْسِكَ وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)[5].

يَقُولُ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ[6]: (ما رَأَيْتُ أَسْهَلَ مِنَ الوَرَعِ ، ما حاكَ في نَفْسِكَ فاتْرُكْهُ)

ووَرَعُ خاصَّةِ الخاصَّة : رَفْضُ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللهِ تَعالَى ، وسَدُّ بابِ الطَّمَعِ في غَيْرِ اللهِ تَعالَى ، وعُكُوفُ الهِمَمِ عَلَى اللهِ تَعالَى ، وعَدَمُ الرُّكُونِ إِلَى شَيْءٍ سِواهُ ،

---

(١) دَليلُ الفالِحينَ شَرْحُ رِياضِ الصَّالِحينَ . (٢) مِعْراجُ التَّشَوُّف .
(٣) أخرجَهُ (البُخاريُّ) و(مُسْلِمٌ) عَنِ النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه . (٤) أخرجَهُ التِّرمِذيُّ .
(٥) أخرجَهُ مُسْلِمٌ عَنِ النَّوّاسِ بنِ سَمْعانَ رضي الله عنه ، حاكَ : أي جالَ وتَرَدَّدَ . (٦) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .

وهَـذا هُـوَ وَرَعُ الـعـارِفِينَ الَّذينَ يَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ ما يَشْغَلُكَ عَنِ اللهِ تَعالَى هُوَ شُؤْمٌ عَلَيْكَ .

قالَ الشِّبْلِي : (الوَرَعُ أَنْ تَتَوَرَّعَ عَنْ كُلِّ ما سِوَى الله)[(١)].

بَيانُ فَضْلِ الوَرَع :

مِمَّا سَبَقَ يَتَّضِحُ أَنَّ الوَرَعَ صِفَةٌ جامِعَةٌ لِكُلِّ خِصالِ الكَمالِ ، فَلَقَدْ دَخَلَ (الحَسَنُ البَصْرِي) مَكَّةَ ، فَرَأَى غُلاماً مِنْ أَوْلادِ (الإِمامِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، قَدْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ لِلْكَعْبَةِ يَعِظُ النَّاسَ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ الحَسَنُ وقالَ : (ما مِلاكُ الدِّينِ ؟ فَقالَ : الوَرَعُ ، قالَ : فَما آفَةُ الدِّينِ ؟ قالَ الطَّمَعُ . فَتَعَجَّبَ الحَسَنُ مِنْهُ ، وقالَ : مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنَ الوَرَعِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ مِثْقالٍ مِنَ الصَّوْمِ والصَّلاةِ لا يُثْمِرُوا وَرَعاً)[(٢)] ، قالَ ابْنُ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي : (لَيْسَ يَدُلُّ عَلَى فَهْمِ العَبْدِ كَثْرَةُ عِلْمِهِ ، ولا مُداوَمَتُهُ عَلَى وِرْدِهِ ، وإِنَّما يَدُلُّ عَلَى نُورِهِ وفَهْمِهِ غِناهُ بِرَبِّهِ وانْحِياشُهُ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ ، والتَّحَرُّرُ مِنْ رِقِّ الطَّمَعِ ، والتَّحَلِّي بِحلْيَةِ الوَرَعِ)[(٣)].

ولا أَدَلَّ عَلَى مَنْزِلَةِ الوَرَعِ ، وأَنَّهُ أَرْقَى أَنْواعِ العِبادَةِ مِنْ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، حَيْثُ قالَ : (يا أَبا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاس)[(٤)]

ولِهَذا كانَ الوَرَعُ سَبِيلاً لِنَيْلِ المِنَحِ الإِلَهِيَّةِ الكُبْرَى ،كَما قالَ يَحْيَى بنُ مُعاذ : (مَنْ لَمْ يَنْظُرْ في الدَّقِيقِ مِنَ الوَرَعِ ، لَمْ يَصِلْ إِلَى الجَلِيلِ مِنَ العَطاءِ)[(٥)].

ولأَهَمِّيَّةِ الوَرَعِ ، ورِفْعَةِ مَنْزِلَتِهِ ، وعُلُوِّ شَأْنِهِ ، وعَظِيمِ أَثَرِهِ ، أَشارَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ في أَحادِيثَ كَثِيرَةٍ ، نُورِدُ ها هُنا بَعْضَها :

١ - عَنْ عَطِيَّةَ بنِ عُرْوَةَ السَّعْدِي الصَّحابِي رضي الله عنه ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

---

(١) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .
(٢) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .
(٣) مِعْراجُ التَّشَوُّف (ابْنُ عَجِيبَة) .
(٤) أَخرجَهُ ابْنُ ماجه .
(٥) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .

(لا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ ، حَتَّى يَدَعَ مالا بَأْسَ بِهِ حَذراً مِمَّا بِهِ بَأْسٌ)[1].

٢ - عَنْ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم :

(فَضْلُ العِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ العِبادَةِ ، وخَيْرُ دِينِكُم الوَرَعُ)[2].

٣ - ورُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم :

(ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَوْجَبَ الثَّوابَ واسْتَكْمَلَ الإيمانَ : خُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ في النَّاسِ ، ووَرَعٌ يَحْجُزُهُ عَنْ مَحارِمِ اللهِ ، وحِلْمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الجاهِلِ)[3].

٤ - وتَفَكَّرْ في عَظِيمِ الوَرَعِ النَّبَوِيِّ ، في الحَدِيثِ الَّذي يَرْوِيهِ (أَبُو هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه ، يَقُولُ : أَخَذَ (الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ) رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ ، فَجَعَلَها في فِيهِ ، فَقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : (كِخْ كِخْ ، ارْمِ بِها ، أَما عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ، أَو أَنَّا لا تَحِلُّ لَنا الصَّدَقَة)[4].

وإِنَّ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ إِذْ يَتَحَقَّقُونَ بِمَراتِبِ الوَرَعِ المُتَسامِيَةِ ، فَإِنَّما يُحْيُونَ بِهَذا لَنا ذِكْرَ الصَّحابَةِ والتَّابِعِينَ رضي الله عنهم وأَعادَ عَلَيْنا بَرَكاتِهِم .

قالَ العَلَّامَةُ المَناوِي : (وقَدْ رَجَعَ ابْنُ المُبارَكِ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ خُراسانَ إِلَى الشَّامِ في رَدِّ قَلَمٍ اسْتَعارَهُ مِنْها ..) وبَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ المَناوِيُّ عِدَّةَ قِصَصٍ في وَرَعِ الصُّوفِيَّةِ قالَ : فانْظُرْ إِلَى وَرَعِ هَؤُلاءِ ، وتَشَبَّهْ بِهِم إِنْ أَرَدْتَ السَّعادَة)[5].

وحُكِيَ عَنْ (بِشْرٍ الحافي) أَنَّهُ حُمِلَ إِلَى دَعْوَةٍ ، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيهِ طَعامٌ ، فَجَهِدَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ ، فَلَمْ تَمْتَدَّ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَقالَ رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ يَعْرِفُهُ : (إِنَّ يَدَهُ لا تَمْتَدُّ إِلَى طَعامٍ حَرامٍ ، أَو فِيهِ شُبْهَةٌ ، ما كانَ أَغْنَى صاحِبَ هَذِهِ

---

(١) أخرجَهُ (التِّرْمِذي) .
(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبرانيُّ في (الأَوسَط) .
(٣) أخرجَهُ البَزَّارُ كما في (التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيب) .
(٤) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و(مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهِما .
(٥) فَيْضُ القدير شرْحُ الجامِعِ الصَّغِير (المنَاوِي) .

الدَّعْوَةِ أَنْ يَدْعُوَ هذا الرَّجُلَ إِلَى بَيْتِهِ)[1].

فَما نَهْجُ الصُّوفِيَّةِ في وَرَعِهِمْ إلاَّ اقْتِداءٌ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وآلِ بَيْتِهِ الأَطْهارِ وأَصْحابِهِ الكِرامِ ، وأَثَرٌ مِنْ آثارِ حُبِّهِم لِلهِ تَعالَى وتَمَسُّكِهِم بِهَدْيِهِ ، ونَتِيجَةٌ لِخَوْفِهِم الشَّديدِ مِنْ أَنْ يَقَعُوا في مُخالَفَةٍ لِلهِ تَعالَى ، لأَنَّ مَنْ ذاقَ طَعْمَ الإِيمانِ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالتَّقْوَى ، ومَنْ تَحَقَّقَ بِالتَّقْوَى كانَ عَنِ الشُّبُهاتِ مُتَوَرِّعاً ، ومِنَ اللهِ تَعالَى خائِفاً ولِفَضْلِهِ راجِياً كَما قالَ شاهُ الكِرْمانِي : (عَلامَةُ التَّقْوَى الوَرَعُ ، وعَلامَةُ الوَرَعِ الوُقُوفُ عِنْدَ الشُّبُهاتِ ، وعَلامَةُ الخَوْفِ الحُزْنُ ، وعَلامَةُ الرَّجاءِ حُسْنُ الطَّاعَة)[2].

فاجْتَهِدْ أَخِي الإِنْسانُ المُؤْمِنُ أَنْ تَلْحَقَ بِأَهْلِ الهِمَمِ العالِيَةِ ، وجالِسْهُم لِتُجانِسَهُم ، ومَنْ جالَسَ جانَس .

الزُّهْد

قالَ إِبْراهِيمُ بنُ الأَدْهَم : (الزُّهْدُ : فَراغُ القَلْبِ مِنَ الدُّنْيا لا فراغُ اليَدِ ، وهَذا زُهْدُ العارِفِينَ ، وأَعْلَى مِنْهُ زُهْدُ المُقَرَّبِينَ فِيما سِوَى اللهِ تَعالَى مِنْ دُنْيا وجَنَّةٍ وغَيْرِهِما ، إِذْ لَيْسَ لِصاحِبِ هَذا الزُّهْدِ إلاَّ الوصُولُ إِلَى اللهِ تَعالَى والقُرْبُ مِنْهُ) .

فالزُّهْدُ : تَفْرِيغُ القَلْبِ مِنْ حُبِّ الدُّنْيا وشَهَواتِها ، وامْتِلاؤُهُ بِحُبِّ اللهِ ومَعْرِفَتِهِ وعَلَى قَدْرِ تَخَلُّصِ القَلْبِ مِنْ تَعَلُّقاتِهِ بِزَخارِفِ الدُّنْيا ومَشاغِلِها يَزْدادُ لِلهِ تَعالَى حُبّاً ولَهُ تَوَجُّهاً ومُراقَبَةً ومَعْرِفَةً ، ولِهَذا اعْتَبَرَ العارِفُونَ الزُّهْدَ وَسِيلَةً لِلْوصُولِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، وشَرْطاً لِنَيْلِ حُبِّهِ ورِضاهُ ، ولَيْسَ غايَةً مَقْصُودَةً لِذاتِها .

---

(١) اللُّمَع (السَّراجُ الطُّوسي) .   (٢) طَبَقاتُ الصُّوفِيَّة (السُّلَمي) .
(٣) الفُتُوحاتُ الوَهْبِيَّةُ بشَرْحِ الأَرْبَعِينَ حَدِيثِ النَّوَوِيَّة ، للشَّيْخ (إِبْراهيم الشُّبْراخِيتي) .

بَيانُ مَشْرُوعِيَّةِ الزُّهْد :

نَفَتْ جَماعَةٌ وُجُودَ الزُّهْدِ في الإِسْلامِ نَفْياً قاطِعاً ، واعْتَبَرَتِ الزُّهْدَ بِدْعَةً دَخِيلَةً عَلَى الدِّينِ ، تَسَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ الرَّهْبَنَةِ النَّصْرانِيَّةِ أَوِ النُّسُكِ الأَعْجَمِيِّ ، ولا شَكَّ أَنَّ مَوْقِفَهُم هَذا تَسَرُّعٌ في الحُكْمِ مَعَ جَهْلٍ بِحَقِيقَةِ الإِسْلام .

فَلَوْ رَجَعَ هَؤُلاءِ المُنْكِرونَ إِلَى أَحادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَوَجَدُوا أَنَّهُ ﷺ يَدْعُو إِلَى الزُّهْدِ صَراحَةً ، ويَعْتَبِرُ الزُّهْدَ وَسِيلَةً لِنَيْلِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعالَى ، فَقَدْ رَوَى (سَهْلُ بنُ سَعْدٍ السَّاعِدِي) ﷺ قالَ : جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ : يا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وأَحَبَّنِي النَّاسُ قالَ لَهُ :

(ازْهَدْ في الدُّنْيا يُحِبُّكَ اللهُ ، وازْهَدْ فِيما في أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوك).[1]

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ حِينَ يَتَصَفَّحُ كِتابَ اللهِ تَعالَى ، يَجِدُ كَثِيراً مِنَ الآياتِ الكَرِيمَةِ تُصَغِّرُ مِنْ شَأْنِ الدُّنْيا وتُبَيِّنُ حَقارَتَها وسُرْعَةَ زَوالِها ، وانْقِضاءَ نَعِيمِها ، وأَنَّها دارُ الغُرورِ ، وفِتْنَةُ الغافِلِينَ ، ومَقْصُودُ الحَقِّ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُزَهِّدَ النَّاسَ فِيها بِإِخْراجِ حُبِّها مِنْ قُلُوبِهِمْ حَتَّى لا تَشْغَلَهُم عَمَّا خُلِقُوا لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعالَى وإِقامَةِ دِينِهِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾[2] ، وقالَ أَيْضاً : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3] ، وقالَ تَعالَى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ

---

(١) أَخْرَجَهُ (ابْنُ ماجه) . (٢) سُورَةُ لُقْمان الآية ٣٣ . (٣) سُورَةُ العَنْكَبُوت الآية ٦٤ .

عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾[1]

وهكذا سائِرُ الآياتِ الكَريمَةِ الَّتي تَضْرِبُ عَلَى هَذا الوَتَرِ وتَرْمِي إِلَى هَذا الهَدَفِ العَظِيم .

وإِذا استَعْرَضْنا سِيرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَجِدُهُ كَثِيراً ما يُوَجِّهُ أَصْحابَهُ إِلَى العُزُوفِ عَنِ الدُّنْيا والزُّهْدِ في زَخارِفِها ، وذَلِكَ بِتَصْغِيرِ شَأْنِها وتَحْقِيرِ مَفاتِنِها .

كُلُّ ذَلِكَ كَي لا تَشْغَلَهُم عَنِ المُهِمَّةِ العُظْمَى الَّتي خُلِقُوا مِنْ أَجْلِها ، ولا تَقْطَعَهُم عَنِ الرِّسالَةِ المُقَدَّسَةِ الَّتي يَحْمِلُونَها .

فَتارَةً يُبَيِّنُ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعالَى جَعَلَ الدُّنْيا زِينَةً لَنا وابْتِلاءً واخْتِباراً لِيَنْظُرَ هَلْ نَتَصَرَّفُ فِيها عَلَى نَحْوِ ما يُرْضِيهِ أَمْ لا ؟ فَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

(إِنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإِنَّ اللهَ تَعالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فاتَّقُوا الدُّنْيا ، واتَّقُوا النِّساءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرائِيلَ كانَتْ فِي النِّساء)[2] .

وتارَةً يُنَبِّهُ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحابَهُ إِلَى أَنَّ الدُّنْيا ظِلٌّ زائِلٌ ومُتْعَةٌ عابِرَةٌ ، حَتَّى لا يَرْكَنُوا إِلَيْها فَتَقْطَعَهُم عَنِ اللهِ تَعالَى .

عَنْ (عَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ) رضي الله عنهما قالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِنْكَبِي فَقالَ : (كُنْ فِي الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عابِرُ سَبِيلٍ) ، وكانَ (ابْنُ عُمَرَ) رضي الله عنهما يَقُولُ (إِذا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّباحَ ، وإِذا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المَساءَ ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ومِنْ حَياتِكَ لِمَوْتِكَ)[3] .

وهَكَذا سارَ الرَّسُولُ ﷺ وأَهْلُ بَيْتِهِ وخُلَفاؤُهُ وأَصْحابُهُ الكِرامُ رضي الله عنهم عَلَى هَذا

---

(١) سُورَةُ الكَهْفِ الآيَة ٤٦ . (٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه .
(٣) أَخْرَجَهُ البُخارِي .

المَنْهَجِ الكَريمِ ، فَعَزَفَتْ نُفُوسُهُم عَنِ الدُّنْيا ، وزَهِدَتْ قُلُوبُهُم فِيها ، مَرَّتْ بِهِم أَوْقاتٌ مِنَ الفَقْرِ والشَّدائِدِ والمِحَنِ فَما ازْدادُوا إِلاَّ صَبْراً وتَسْلِيماً ورِضاءً بِحُكْمِ اللهِ تَعالَى ، ثُمَّ جاءَتْهُم الدُّنْيا صاغِرَةً ، وأَلْقَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِم خَزائِنَها ومَقالِيدَها ، فاتَّخَذوها سُلَّماً لِلآخِرَةِ ووَسِيلَةً إِلَى رِضْوانِ اللهِ تَعالَى دُونَ أَنْ تَشْغَلَ قُلُوبَهُم عَنِ اللهِ تَعالَى وطاعَتِهِ ، أَو تُوقِعَهُم في التَّرَفِ والبَطَرِ ، أَوالكِبْرِ والغُرورِ ، أَو الشُّحِّ والبُخْلِ .

وما حَياةُ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ الأَطْهارِ ، وصَحابَتِهِ الأَخْيارِ إِلاَّ القُدْوَةُ العَمَلِيَّةُ الكامِلَةُ الَّتي سارَ المُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ عَلَى نَهْجِها فَكانُوا مِثالاً لِلزُّهْدِ والعِفَّةِ والطُّهْرِ والاسْتِقامَة .

تَصْحِيحُ مَفْهُومِ الزُّهْد :

مِنْ تَعْرِيفاتِ الزُّهْدِ السَّالِفَةِ الذِّكْرِ وبَيانِ مَشْرُوعِيَّتِهِ يَتَّضِحُ أَنَّ الزُّهْدَ مَرْتَبَةٌ قَلْبِيَّةٌ ؛ إِذْ هُوَ إِخْراجُ حُبِّ الدُّنْيا مِنَ القَلْبِ ، بِحَيْثُ لا يَلْتَفِتُ الزَّاهِدُ إِلَيْها بِقَلْبِهِ ، ولا يَنْشَغِلُ بِها عَنِ الغايَةِ الَّتي خَلَقَهُ اللهُ مِنْ أَجْلِها .

ولَيْسَ مَعْنَى الزُّهْدِ أَنْ يَتَخَلَّى الإِنْسانُ المُؤْمِنُ عَنِ الدُّنْيا فَيُفْرِغَ يَدَهُ مِنَ المالِ ويَتْرُكَ الكَسْبَ الحَلالَ ويَكُونَ عالَةً عَلَى غَيْرِه .

وقَدْ أَوْضَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَقْصُودَ الحَقِيقِيَّ مِنَ الزُّهْدِ حِينَ قالَ :

(الزَّهادَةُ في الدُّنْيا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الحَلالِ ولا إِضاعَةِ المالِ ، ولَكِنَّ الزَّهادَةَ أَنْ تَكُونَ بِما في يَدِ اللهِ تَعالَى أَوْثَقَ مِنْكَ بِما في يَدِكَ ، وأَنْ تَكُونَ في ثَوابِ المُصِيبَةِ إِذا أُصِبْتَ بِها أَرْغَبَ مِنْكَ فِيها لَوْ أَنَّها أُبْقِيَتْ لَكَ)(١).

قالَ العَلاَّمَةُ المَناوِي في شَرْحِهِ لِهَذا الحَدِيثِ الشَّرِيفِ :

(فَلَيْسَ الزُّهْدُ تَجَنُّبَ المالِ بِالكُلِّيَّةِ ، بَلْ تَساوِي وُجُودِهِ وعَدَمِهِ ، وعَدَمُ تَعَلُّقِهِ

---

(١) أخرَجَهُ التِّرمذي عن (أبي ذَرٍّ) ﷺ.

بِالقَلْبِ إِلَيْهِ ، فَقَدْ كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُدْوَةَ الزَّاهِدينَ ، يَأْكُلُ اللَّحْمَ والحَلْوَى والعَسَلَ ، ويُحِبُّ النِّساءَ والطِّيبَ والثِّيابَ الحَسَنَةَ ، فَخُذْ مِنَ الطَّيِّباتِ بِلا سَرَفٍ ولا مَخْيَلَةٍ ، وإِيَّاكَ وزُهْدَ الرُّهْبان).[1]

وهَكَذا فَهِمَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ أَنَّ الزُّهْدَ مَرْتَبَةٌ قَلْبِيَّةٌ ، قالَ عَمْرو بنُ عُثْمانَ المَكِّيُّ : (اعْلَمْ أَنَّ رَأْسَ الزُّهْدِ وأَصْلَهُ في القُلُوبِ هُوَ احْتِقارُ الدُّنْيا واسْتِصْغارُها ، والنَّظَرُ إِلَيْها بِعَيْنِ القِلَّةِ ، وهَذا هُوَ الأَصْلُ الَّذي يَكُونُ مِنْهُ حَقِيقَةُ الزُّهْدِ).[2]

وقَدْ عَبَّرَ السَّيِّدُ (عَبْدُالقادِر الجَيْلاني) عَنْ مَفْهُومِ الزُّهْدِ الحَقِيقِيِّ تَعْبِيراً واضِحاً جامِعاً حِينَ قالَ : (أَخْرِجِ الدُّنْيا مِنْ قَلْبِكَ وضَعْها في يَدِكَ أَو في جَيْبِكَ ، فَإِنَّها لا تَضُرُّكَ).[3]

وفي هَذا المَعْنَى قالَ بَعْضُ العارِفِينَ : (لَيْسَ الزُّهْدُ أَنْ تَتْرُكَ الدُّنْيا مِنْ يَدِكَ وهِيَ في قَلْبِكَ ، وإِنَّما الزُّهْدُ أَنْ تَتْرُكَها مِنْ قَلْبِكَ وهِيَ في يَدِكَ) .

ولِهَذا عَرَّفَ ابْنُ عَجِيبَةَ الزُّهْدَ بِقَوْلِهِ : (هُوَ خُلُوُّ القَلْبِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ الرَّبِّ) وقَدْ بَيَّنَ (الإمامُ الزُّهْرِيُّ) أَنَّ مِنْ مَعانِي الزُّهْدِ الحَقِيقِيِّ أَنْ تَشْكُرَ اللهَ تَعالَى عَلَى ما رزَقَكَ مِنَ الحَلالِ ، وأَنْ تَحْبِسَ نَفْسَكَ عَنْ طَلَبِ الحَرامِ قانِعاً بِما قُسِمَ لَكَ مِنَ الرِّزْقِ ، فَقالَ حِينَ سُئِلَ عَنْ زُهْدِ المُسْلِمِ : (هُوَ أَنْ لا يَغْلِبَ الحَلالُ شُكْرَهُ ، ولا الحَرامُ صَبْرَهُ) .

وقَدْ أَوْضَحَ العُلَماءُ أَنَّ المَقْصُودَ مِنْ ذَمِّ الدُّنْيا الوارِدِ في الآياتِ الكَرِيمَةِ والأَحادِيثِ الشَّرِيفَةِ لَيْسَ ذَمّاً لِذاتِها ، وإِنَّما هُوَ تَحْذِيرٌ مِنَ الانْشِغالِ القَلْبِي بِها ، بِأَنْ يَجْعَلَها الإِنْسانُ غايَةً يَسْعَى إِلَيْها بِكُلِّ إِمْكانِيَّاتِهِ ، ناسِياً غايَتَهُ الأَساسِيَّةَ ، وهِيَ الفَوْزُ بِرِضاءِ اللهِ تَعالَى ، فَنِعْمَتِ الدُّنْيا مَطِيَّةً لِلْمُؤْمِنِ

---

(١) فَيْضُ القَدير شَرْحُ الجامِعِ الصَّغير .
(٢) طَبَقاتُ الصُّوفِيَّة (السُّلَمي) .
(٣) الفَتْحُ الرَّبَّاني (عَبْدالقادِرِ الجَيْلاني) .

ووَسِيلَةً إِلَى التَقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، وبِئْسَتِ الدُّنْيا إذا كانَتْ مَعْبُودَهُ .
وفي هَذا المَعْنَى قالَ العَلاَّمَةُ المَناوِي : (فالدُّنْيا لا تُذَمُّ لِذاتِها فإِنَّها مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْها مُراعِياً لِلْقَوانِينِ الشَّرْعِيَّةِ أَعانَتْهُ عَلَى آخِرَتِهِ ، ومِنْ ثَمَّةَ قِيلَ : لا تَرْكَنْ إِلَى الدُّنْيا ، فَإِنَّها لا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ ، ولا تَتْرُكْها فَإِنَّ الآخِرَةَ لا تُنالُ إلاَّ بِها)[١].

بَيانُ الطَّرِيقِ المُرِيحِ لِلتَّحَقُّقِ بِالزُّهْدِ الصَّحِيحِ :

بِما أَنَّ الزُّهْدَ مَقامٌ قَلْبِيٌّ رَفِيعُ المَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ تَفْرِيغُ القَلْبِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِسَوَى اللهِ تَعالَى ، كانَ الوُصُولُ إِلَيْهِ أَمْراً هامّاً يَحْتاجُ إِلَى جُهُودٍ كَبِيرَةٍ ووَسائِلَ ناجِعَةٍ ، وأَهَمُّها صُحْبَةُ المُرْشِدِ الَّذي يَأْخُذُ بِيَدِ المُرِيدِ ، ويَرْسُمُ لَهُ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ ويَنْقُلُهُ مِنْ مَرْحَلَةٍ إِلَى مَرْحَلَةٍ بِحِكْمَةٍ ودِرايَةٍ ، ويُجَنِّبُهُ مَزالِقَ الأَقْدام .

فَكَمْ مِنْ أُناسٍ أَخْطَأُوا الطَّرِيقَ فَجَعَلُوا الزُّهْدَ غايَةً ، ولَبِسُوا المُرَقَّعَ مِنَ الثِّيابِ ، وأَكَلُوا الرَّدِيءَ مِنَ الطَّعامِ ، وتَرَكُوا الكَسْبَ الحَلالَ ، وحَسَدوا أَهْلَ المالِ ، وقُلُوبُهُم مُفْعَمَةٌ بِحُبِّ الدُّنْيا ، وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم زاهِدون .

وما وَقَعُوا في ذَلِكَ إلاَّ لِأَنَّهُم ساروا بِأَنْفُسِهِم بَعِيدِينَ عَنْ صُحْبَةِ الدَّلِيلِ الخَبِيرِ وفي هَؤُلاءِ يَقُولُ المَناوِي : (فالزُّهْدُ فَراغُ القَلْبِ مِنَ الدُّنْيا لا فَراغُ اليَدِ مِنْها وقَدْ جَهِلَ قَوْمٌ فَظَنُّوا أَنَّ الزُّهْدَ تَجَنُّبُ الحَلالِ ، فاعْتَزَلُوا النَّاسَ ، فَضَيَّعُوا الحُقُوقَ ، وقَطَعُوا الأَرْحامَ ، وجَفَوا الأَنامَ ، واكْفَهَرُّوا في وُجُوهِ الأَغْنِياءِ ، وفي قُلُوبِهِم شَهْوَةُ الغِنَى أَمْثالَ الجِبالِ ، ولَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الزُّهْدَ إِنَّما هُوَ بِالقَلْبِ ، وأَنَّ أَصْلَهُ مَوْتُ الشَّهْوَةِ القَلْبِيَّةِ ، فَلَمَّا اعْتَزَلُوها بِالجَوارِحِ ظَنُّوا أَنَّهُم اسْتَكْمَلُوا الزُّهْدَ ، فَأَدَّاهُمْ ذَلِكَ إِلَى الطَّعْنِ في كَثِيرٍ مِنَ الأَئِمَّة)[٢].

وكَمْ مِنْ أُناسٍ أَقْبَلُوا عَلَى الدُّنْيا ومَلَذَّاتِها فَشُغِلَتْ قُلُوبُهُم بِحُبِّها ، وعَمُرَتْ

---
(١) فَيْضُ القَدير شَرْحُ الجامِعِ الصَّغير . (٢) فَيْضُ القَدير شَرْحُ الجامِعِ الصَّغير (المَناوِي) .

أَوْقاتُهُمْ بِجَمْعِ حُطامِها وهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ تَحَقَّقُوا بِالزُّهْدِ القَلْبِيِّ ، وأَنَّهُمْ فَهِمُوا الزُّهْدَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، ولَوْ كانَ لِهَؤُلاءِ طَبِيبٌ قَلْبِيٌّ ناصِحٌ ، يَكُونُ لَهُمْ مِرْآةً صادِقَةً ، لَكَشَفَ لَهُمْ حَقِيقَةَ وَصْفِهِمْ ، ولأَرْشَدَهُمْ إِلَى سَبِيلِ الوُصُولِ إِلَى حَقِيقَةِ الزُّهْد .

ويَنْبَغِي الإِشارَةُ إِلَى أَنَّ المُرْشِدِينَ قَدْ يَصِفُونَ لِبَعْضِ تَلامِذَتِهِم نَوْعاً مِنَ المُجاهَداتِ بُغْيَةَ تَفْرِيغِ قُلُوبِهِم مِنَ التَعَلُّقاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، مِنْ بابِ العِلاجِ الضَّرورِيِّ المُؤَقَّتِ ، فَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَكْلَ اليَسِيرِ مِنَ الطَّعامِ ، أَو لِبْسَ البَسِيطِ مِنَ الثِّيابِ لإِخْراجِ حُبِّها مِنْ قُلُوبِهِمْ ، أَو يَدْعُونَهُم لِلْبَذْلِ السَّخِيِّ والعَطاءِ الكَثِيرِ بُغْيَةَ اقْتِلاعِ صِفَةِ الشُّحِّ والتَعَلُّقِ بِالمالِ مِنْ قُلُوبِهِم ، وهَذِهِ الأَنْواعُ مِنَ المُعالَجاتِ ضَرورِيَّةٌ ونافِعَةٌ ما دامَتْ بِرَأْيِ المُرْشِدِ وإِشْرافِهِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ غايَةً لِذاتِها ؛ بَلْ هِيَ وَسِيلَةٌ مَشْرُوعَةٌ لِلْوصُولِ إِلَى الزُّهْدِ القَلْبِيِّ الحَقِيقِيِّ .

وما أَكْلُ الرَّسُولِ ﷺ لِلأَطْعِمَةِ البَسِيطَةِ ، ورَبْطُ الحَجَرِ عَلَى بَطْنِهِ الشَّرِيفِ مِنَ الجُوعِ (رَغْمَ أَنَّ الجِبالَ عُرِضَتْ لَهُ أَنْ تَكُونَ ذَهَباً) إِلاَّ لِبَيانِ مَشْروعِيَّةِ هَذِهِ الأَعْمال .

وقَدْ كانَ المُرْشِدُ الكَبِيرُ السَّيِّدُ (عَبْدُالقادِرِ الجَيْلانِي) يُوَجِّهُ تَلامِذَتَهُ فِي بادِيءِ سَيْرِهِمْ أَنْ يُجاهِدوا أَنْفُسَهُمْ ويُرَوِّضُوها عَلَى الاخْشِوْشانِ والصَّبْرِ والتَّقَشُّفِ ، ثُمَّ بَعْدَها يَنْقُلُهُم إِلَى مَراتِبِ الزُّهْدِ القَلْبِيِّ حِينَ يَسْتَوِي عِندَهُمْ الأَخْذُ والعَطاءُ والفَقْرُ والغِنَى ، وتَفْرُغُ قُلُوبُهُم مِنْ سِوَى اللهِ تَعالَى .

وقَدْ لَفَتَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ الأَذْهانَ إِلَى أُمُورٍ تُساعِدُ عَلَى التَّحَقُّقِ بِمَقامِ الزُّهْدِ مِنْها :

١ - العِلْمُ بِأَنَّ الدُّنْيا ظِلٌّ زائِلٌ وخَيالٌ زائِرٌ ، والرَّحِيلُ مِنْها إِلَى دارِ البَقاءِ ، إِمَّا إِلَى نَعِيمٍ وإِمَّا إِلَى عَذابٍ ، فَيَرَى الإِنْسانُ نَتِيجَةَ أَعْمالِهِ ، إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ ،

وإنْ شَرّاً فشَرٌّ .

عَنْ عَبْدِاللهِ بنِ الشِّخِيرِ رضي الله عنه قالَ : أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ وهُوَ يقْرَأُ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾ [١] ، قالَ : (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مالِي مالِي ، وهَلْ لَكَ يا ابْنَ آدَمَ مِنْ مالِكَ إلاَّ ما أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ ، أَو لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ ، أَو تَصَدَّقْتَ فأَمْضَيْتَ) [٢]

وقالَ أَبُو الحَسَن الشَّاذُلِي : (عِبادَةُ المُريدِ مَعَ مَحَبَّتِهِ لِلدُّنْيا شُغْلُ قَلْبٍ وتَعَبُ جَوارِحَ ، فَهِيَ وإنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ عِنْدَ اللهِ تعالَى) .

٢ - العِلْمُ بِأَنَّ وَراءَها داراً أَعْظَمَ مِنْها قَدْراً ، وأَجَلَّ خَطَراً ، وهِيَ دارُ البَقاءِ قالَ تَعالَى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [٣] .

ولِذا وَجَّهَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ أَتْباعَهُم لِلإعْراضِ عَنِ الدُّنْيا ، والتَّطَلُّعِ إلَى الحَياةِ الآخِرَةِ ، إلَى الجَنَّةِ ونَعِيمِها والرَّغْبَةِ في اللهِ تعالَى ، فَساروا سِيرَةَ الصَّحابَةِ والسَّلَفِ الصَّالِحِ رضي الله عنهم في التَّضْحِيَةِ والإيثارِ ومُجاهَدَةِ النَّفْسِ ومُغالَبَةِ الهَوَى دُونَ أَنْ تَسْتَهوِيَهُمْ زَخارِفُ الحَياةِ الزَّائِلَةِ .

وكانَ شِعارُهُمْ قَوْلَ بَعْضِهِم :

لا تَنْظُرَنَّ إلَى القُصُورِ العامِرَة * واذْكُرْ عِظامَكَ حِينَ تُمْسِي ناخِرَة
وإذا ذَكَرْتَ زَخارِفَ الدُّنْيا فَقُلْ * لَبَّيْكَ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَة

٣ - العِلْمُ بِأَنَّ زُهْدَ المُؤْمِنِينَ في الدُّنْيا لا يَمْنَعُهُم شَيْئاً كُتِبَ لَهُمْ ، وأَنَّ حِرْصَهُم عَلَيْها لا يَجْلِبُ لَهُم ما لَمْ يُقْضَ لَهُمْ مِنْها ، فَما أَصابَهُم لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُم ، وما أَخْطَأَهُم لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُم .

وصَفْوَةُ القَوْلِ : الزُّهْدُ مَقامٌ رَفِيعٌ لأَنَّهُ سَبَبٌ لِمَحَبَّةِ اللهِ تَعالَى ، ولِذا دَعا إلَيْهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ ، وأَشادَ بِفَضْلِهِ أَئِمَّةُ الدِّينِ ، قالَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ : (عَلَيْكَ

---

(١) سُورَةُ التكاثُر الآية ١ . (٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ . (٣) سُورَةُ النِّساء مِنَ الآيَة ٧٧ .

بِالزُّهْدِ فَإِنَّ الزُّهْدَ عَلَى الزَّاهِدِ أَحْسَنُ مِنَ الحُلِيِّ عَلَى النَّاهِدِ)[1] ولِذَلِكَ تَحَقَّقَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ بِالزُّهْدِ أَيَّما تَحَقُّقٍ وتَدَرَّجُوا في مَراتِبِهِ الَّتي أَشارَ إِلَيْها ابْنُ عَجِيبَةَ بِقَوْلِهِ : (فَزُهْدُ العامَّةِ : تَرْكُ ما فَضَلَ عَنِ الحاجَةِ في كُلِّ شَيْءٍ ، وزُهْدُ الخاصَّةِ : تَرْكُ ما يَشْغَلُ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ في كُلِّ حالٍ ، وزُهْدُ خاصَّةِ الخاصَّةِ : تَرْكُ النَّظَرِ إِلَى ما سِوَى اللهِ في جَمِيعِ الأَوْقاتِ) ، ..... إِلَى أَنْ قالَ : (والزُّهْدُ سَبَبُ السَّيْرِ والوُصُولِ ؛ إِذْ لا سَيْرَ لِلْقَلْبِ إِذا تَعَلَّقَ بِشَيْءٍ سِوَى المَحْبُوبِ)[2] .

وكَثِيراً ما كانَ الفَقِيهُ المالِكِيُّ المَعْرُوف (أَبُو بَكْر الطَّرْطُوشي ، ت ٥٢٠ هـ) يَتَغَنَّى بِوَصْفِ هَذِهِ الفِئَةِ الصَّالِحَةِ مِنَ الأُمَّةِ مُنْشِداً :

إِنَّ للهِ عِبـاداً فُطَنـا * طَلَّقُوا الدُّنْيا وخافُوا الفِتَنا
نَظَروا فِيها فَلَمَّا عَلِمُوا * أَنَّها لَيْسَتْ لِحَيٍّ سَكَنا
جَعَلُوها لُجَّةً واتَّخَذوا * صالِحَ الأَعْمالِ فِيها سُفُنا[3]

الرِّضا

عَرَّفَ العُلَماءُ الرِّضا تَعْرِيفاتٍ مُتَعَدِّدَةً ، وتَكَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُم عَلَى حَسَبِ مَشْرَبِهِ ومَقامِهِ ، ولَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ ما قِيلَ ، قَوْلُ ابْنِ عَجِيبَةَ : (الرِّضا : تَلَقِّي المَهالِكِ بِوَجْهٍ ضاحِكٍ ، أَوْ سُرورٌ يَجِدُهُ القَلْبُ عِنْدَ حُلُولِ القَضاءِ ، أَو تَرْكُ الاخْتِيارِ عَلَى اللهِ فِيما دَبَّرَ وأَمْضَى ، أَو شَرْحُ الصَّدْرِ ورَفْعُ الإِنْكارِ لِما يَرِدُ مِنَ الواحِدِ القَهَّار)[4]

وقالَ العَلاَّمَةُ البَرَكَوِي : (الرِّضا : طِيبُ النَّفْسِ بِما يُصِيبُهُ ويَفُوتُهُ مَعَ عَدَمِ

---

(١) فَيْضُ القَدير شَرْحُ الجامع الصَّغير (المَناوي) .
(٢) مِعْراجُ التَّشَوُّف لـ(ابْن عَجِيبَة) .
(٣) وَفَيَاتُ الأَعيان لـ(ابْن خَلِّكان) ص ٣٠٩٥ .
(٤) مِعْراجُ التَّشَوُّف لـ(ابْنِ عَجِيبَة) .

التَّغَيُّر) (١) .

وقالَ ابْنُ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي : (الرِّضا : نَظَرُ القَلْبِ إِلَى قَدِيمِ اخْتِيارِ اللهِ تَعالَى لِلْعَبْدِ ، وهُوَ تَرْكُ التَّسَخُّط) (٢) .

وقالَ المُحاسِبِي : (الرِّضا : سُكُونُ القَلْبِ تَحْتَ مَجارِي الأَحْكام) (٣) .

فالرِّضا مَقامٌ قَلْبِيٌّ ، إِذا تَحَقَّقَ بِهِ الإِنْسانُ المُؤْمِنُ اسْتَطاعَ أَنْ يَتَلَقَّى نَوائِبَ الدَّهْرِ وأَنْواعَ الكَوارِثِ بِإِيمانٍ راسِخٍ ، ونَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، وقَلْبٍ ساكِنٍ ، بَلْ قَدْ يَتَرَقَّى إِلَى أَرْفَعَ مِنْ ذَلِكَ فَيَشْعُرُ بِالسُّرورِ والفَرْحَةِ بِمُرِّ القَضاءِ ، وذَلِكَ نَتِيجَةَ ما تَحَقَّقَ بِهِ مِنَ المَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعالَى ، والحُبِّ الصَّادِقِ لَهُ سُبْحانَه .

بَيانُ فَضْلِهِ :

هُوَ أَسْمَى مَقاماً وأَرْفَعُ رُتْبَةً مِنَ الصَّبْرِ ، إِذْ هُوَ السَّلامُ الرُّوحِي الَّذِي يَصِلُ بِالعارِفِ إِلَى حُبِّ كُلِّ شَيْءٍ فِي الوجُودِ يُرْضِي اللهَ تَعالَى ، حَتَّى أَقْدارِ الحَياةِ ومَصائِبِها ، يَراها خَيْراً ورَحْمَةً ، ويَتَأَمَّلُها بِعَيْنِ الرِّضا فَضْلاً وبَرَكَة .

كانَ سَيِّدُنا (بِلال) ﷺ يُعانِي سَكَراتِ المَوْتِ وهُوَ يَقُولُ :

(وافَرْحَتاه ! غداً أَلْقَى الأَحِبَّةَ ، مُحَمَّداً وصَحْبَه) (٤) .

وقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الرَّاضِيَ بِقَضاءِ اللهِ هُوَ أَغْنَى النَّاسِ لِأَنَّهُ أَعْظَمُهُم سُروراً واطْمِئْناناً ، وأَبْعَدُهُم عَنِ الهَمِّ والحُزْنِ والسَّخَطِ والضَّجَرِ ، إِذْ لَيْسَ الغِنَى بِكَثْرَةِ المالِ إِنَّما هُوَ بِغِنَى القَلْبِ بِالإِيمانِ والرِّضا ، قالَ ﷺ :

(اتَّقِ المَحارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وارْضَ بِما قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ وأَحْسِنْ إِلَى جارِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً ، وأَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِماً ، ولا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ) (٥) .

---

(١) شَرْحُ الطَّرِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ لـ(النَّابُلُسِي) .
(٢ - ٣) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .
(٤) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة (أَحْمَدُ الزَّيْنِي دَحْلان) .
(٥) أَخرجَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ .

وأَوْضَحَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الرِّضا سَبَبٌ عَظِيمٌ مِنْ أَسْبابِ سَعادَةِ المُؤْمِنِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ ، كَما أَنَّ السَّخَطَ سَبَبُ شَقاءِ الإِنْسانِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ فَقالَ ﷺ: (مِنْ سَعادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضاهُ بِما قَضَى اللهُ لَهُ ، ومِنْ شَقاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخارَةَ اللهِ تَعالَى ، ومِنْ شَقاوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِما قَضَى اللهُ تَعالَى لَهُ)(١).

ولَقَدْ كانَتْ نِعْمَةُ الرِّضا مِنَ العَوامِلِ في تِلْكَ السَّكِينَةِ الَّتي شَمَلَتْ قُلُوبَ العارِفِينَ ، ومِنْ أَقْوَى الأَسْبابِ في مَحْقِ نَوازِعِ اليَأْسِ الَّتي يُوجِدُها التَّفْكِيرُ في عَدَمِ الحُصُولِ عَلَى حُظُوظِ الحَياةِ ومَلَذَّاتِها ؛ مِمَّا يَجْلِبُ لِصاحِبِهِ القَلَقَ والحَيْرَةَ والاضْطِرابَ ، ولَقَدْ كانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ أَنْ يُعَلِّمَ أَصْحابَهُ ويَغْرِسَ في قُلُوبِهِم الرِّضا بِاللهِ تَعالَى رَبّاً ، وبِالإِسْلامِ دِيناً ، وبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيّاً ورَسُولاً ، وكانَ يَنْدُبُهُم لِتِكْرارِها فَيَقُولُ ﷺ : (مَنْ قالَ إِذا أَصْبَحَ وأَمْسَى : رَضِينا بِاللهِ رَبّاً وبِالإِسْلامِ دِيناً ، وبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً ، كانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ)(٢)، فَكانُوا يَحْرِصُونَ عَلَى تِكْرارِها صَباحاً ومَساءً ، يُعْرِبُونَ بِذَلِكَ عَمَّا تُكِنُّهُ قُلُوبُهُم مِنْ نَعِيمِ الرِّضا بِاللهِ والتَّسْلِيمِ لَهُ .

وما أَكْثَرَ مَنْ يُكَرِّرُ هَذا القَوْلَ بِلِسانِهِ ، وهُوَ غَيْرُ مُطْمَئِنِّ القَلْبِ بِهِ ، ولا مُتَذَوِّقٍ لِمَعانِيهِ السَّامِيَةِ ، ولا مُتَحَقِّقٍ بِمَقاصِدِهِ العالِيَةِ ، خُصُوصاً حِينَ تَزْدَحِمُ عَلَيْهِ المَصائِبُ ، وتُداهِمُهُ الخُطُوبُ ، وتَتَكاثَفُ عَلَى قَلْبِهِ ظُلُماتُ الهُمُومِ والأَكْدارِ ، أَو عِنْدما يُدْعَى إِلَى حُكْمٍ مِنْ أَحكامِ الشَّرْعِ يُخالِفُ هَواهُ ويُعارِضُ مَصالِحَهُ الخاصَّة .

لِهَذا نَرَى أَنَّ تَرْدادَهُ بِاللِّسانِ فَحَسْبُ لا يُفِيدُ صاحِبَهُ إِذا لَمْ يَنْبُعْ مِنْ قَلْبِهِ ، حَيْثُ إِنَّ مِنْ لَوازِمِ الرِّضا بِاللهِ تَعالَى رَبّاً ، الرِّضا بِكُلِّ أَفْعالِهِ في شُئُونِ خَلْقِهِ

---

(١) أخرجَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سَعْدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) أخرجَه (أَبُو داود) و(التِّرْمِذِي) .

مِنْ إِعْطاءٍ ومَنْعٍ وخَفْضٍ ورَفْعٍ ، ووَصْلٍ وقَطْعٍ ، وضُرٍّ ونَفْعٍ ، ومِنْ لَوازِمِ الرِّضا بِسَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيّاً ورَسُولاً أَنْ يَتَّخِذَ شَخْصِيَّتَهُ ﷺ مَثَلاً أَعْلَى وأُسْوَةً حَسَنَةً ، فَيَتَّبِعَ هَدْيَهُ ، ويقْتَفِيَ أَثَرَهُ ، ويَتَحَلَّى بِسُنَّتِهِ ، ويُجاهِدَ هَواهُ حَتَّى يَكُونَ تَبَعاً لِما جاءَ بِهِ ﷺ ، وحَتَّى يَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ ووَلَدِهِ ونَفْسِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، كَما دَعا إِلَى ذَلِكَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

(لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِين) [١].

وإِنَّ سَيِّدَنا (عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ) رضي الله عنه قالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : لأَنْتَ يا رَسُولَ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقالَ ﷺ : (لا والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ) ، فَقالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الآنَ ، واللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: (الآنَ يا عُمَر) [٢].

فَمَنْ تَحَلَّى بِالرِّضا بِاللهِ تَعالَى رَبّاً ، وبِالإِسْلامِ دِيناً ، وبِسَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيّاً ورَسُولاً ، ذاقَ طَعْمَ الإِيمانِ ، ووَجَدَ حَلاوَةَ اليَقِينِ ، ونالَ السَّعادَةَ الأَبَدِيَّةَ قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (ذاقَ طَعْمَ الإِيمانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ تَعالَى رَبّاً ، وبِالإِسْلامِ دِيناً وبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً) [٣].

أَمَّا مَنْ حُرِمَ لَذَّةَ الإِيمانِ ونَعِيمَ الرِّضا ، فَهُوَ في قَلَقٍ واضْطِرابٍ ، وتَضَجُّرٍ وعَذابٍ ، وخُصُوصاً حِينَ يَحِلُّ بِهِ بَلاءٌ ، أَو تَنْزِلُ بِهِ مُصِيبَةٌ ، فَتَسْوَدُّ الحَياةُ في عَيْنَيهِ ، وتُظْلِمُ الدُّنْيا في وَجْهِهِ ، وتَضِيقُ بِهِ الأَرْضُ عَلَى رَحْبِها ، ويَأْتِيهِ الشَّيْطانُ لِيُوَسْوِسَ لَهُ ، أَنْ لا خَلاصَ مِنْ هُمُومِهِ وأَحْزانِهِ إِلاَّ بِالانْتِحارِ ، وكَمْ نَسْمَعُ عَنْ حَوادِثِ الانْتِحارِ بَيْنَ بَنِي الإِنْسانِ تَزْدادُ نِسْبَتُها يَوْماً إِثْرَ يَوْمٍ ، ويَتَفاقَمُ خَطَرُها في البِلادِ الكافِرَةِ المُلْحِدَةِ ، وفي المُجْتَمَعاتِ المارِقَةِ الَّتي انْحَسَرَ عَنْها ظِلُّ الإِسْلامِ ، وخَبا فِيها نُورُ الإِيمانِ ، وهُم الَّذِينَ عَناهُم اللهُ

---

(١) أخرجَهُ (البُخاري) في صَحيحِه . (٢) أخرجَه (البُخاري) في صَحيحِه ، والإمامُ (أَحْمَدُ) في مُسْنَدِه .
(٣) أخرجَهُ مُسلِمٌ والتِّرمِذي عَنِ (العَبّاسِ بنِ عَبدِالمُطَّلِب) رضي الله عنه .

تَعالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1].

تَصْحِيحُ الأَفْكارِ حَوْلَ مَقامِ الرِّضا :

هُناكَ شُبُهاتٌ أَثارَها بَعْضُ الجَهَلَةِ حَوْلَ مَوْضُوعِ الرِّضا ، وما سَبَبُها إِلاَّ جَهْلُهُم وعَدَمُ تَذَوُّقِهِم لِهَذا المَقامِ الرَّفِيعِ ، والإِنْسانُ عَدُوُّ ما يَجْهَلُ .

أَوْ يَكُونُ مَرَدُّها أَنَّهُم رَأَوا أُناساً مِنْ أَدْعِياءِ التَّصَوُّفِ ، فاعْتَبَرُوا أَحْوالَهُم الفاسِدَةَ ومَفاهِيمَهُم المُنْحَرِفَةَ حُجَّةً عَلَى التَّصَوُّفِ ، دُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ الَّذينَ تَحَقَّقُوا بِالإِيمانِ والإِسْلامِ والإِحْسانِ ، وبَيْنَ الدُّخَلاءِ مِنْ أَدْعِياءِ التَّصَوُّفِ ، وإِلَيْكَ بَعْضَ هَذِهِ الشُّبُهاتِ مَعَ الرَّدِّ عَلَيْها :

أَوَّلاً : أَنْكَرَ جَماعَةٌ الرِّضا مِنْ أَصْلِهِ فَقالُوا : لا يُتَصَوَّرُ الرِّضا بِما يُخالِفُ الهَوَى ، وإِنَّما يُتَصَوَّرُ الصَّبْرُ فَقَط ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَن لا يُحِسَّ الإِنْسانُ بِأَلَمِ المَصائِبِ ، ولا يَشْعُرَ بِوَقْعِ الخَطْبِ ؟!

والجَوابُ : إِنَّ الرَّاضِيَ قَدْ يُحِسُّ بِالبَلاءِ ، ويَتَأَلَّمُ لِلْمُصِيبَةِ بِحُكْمِ الطَّبْعِ ، ولَكِنَّهُ يَرْضَى بِها بِعَقْلِهِ وإِيمانِهِ ، لِما يَعْتَقِدُ مِنْ عِظَمِ الأَجْرِ وجَزالَةِ الثَّوابِ عَلَى البَلاءِ ، فَلا يَعْتَرِضُ ، ولا يَتَضَجَّرُ ، قالَ أَبو عَلِيٍّ الدَّقَّاق : (لَيْسَ الرِّضا أَنْ لا تُحِسَّ بِالبَلاءِ ، إِنَّما الرِّضا أَنْ لا تَعْتَرِضَ عَلَى الحُكْمِ والقَضاءِ)[2].

ومَثَلُهُ في ذَلِكَ مَثَلُ المَرِيضِ الَّذي يُحِسُّ بِأَلَمِ حُقْنَةِ الدَّواءِ ، ويَشْعُرُ بِمَرارَةِ العِلاجِ ، ولَكِنَّهُ يَرْضَى بِذَلِكَ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ سَبَبُ الشِّفاءِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَفْرَحُ بِمَنْ يُقَدِّمُ لَهُ الدَّواءَ ولَوْ كانَ مُرَّ المَذاقِ كَرِيهَ الرَّائِحَة .

قالَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه : (ما ابْتُلِيتُ بِبَلِيَّةٍ إِلاَّ كانَ لِلهِ عَلَيَّ فِيها أَرْبَعُ نِعَمٍ :

---

(١) سُورَةُ طه الآيَة ١٢٤.
(٢) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .

إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي ، وإِذْ لَمْ أُحْرَمِ الرِّضا ، وإِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ ، وإِذْ رَجَوْتُ الثَّوابَ عَلَيْها)[١].

ومِنْ ناحِيَةٍ أُخْرَى : أَنَّ الرَّاضِيَ قَدْ يُحِسُّ بِأَلَمِ المُصِيبَةِ بِحُكْمِ الطَّبْعِ ، ولَكِنَّهُ يَرْضَى بِها حِينَ يَرْجِعُ إِلَى إِيمانِهِ بِلُطْفِ اللهِ تَعالَى وحِكْمَتِهِ ، ويَعْلَمُ أَنَّ وَراءَ كُلِّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعالِ اللهِ حِكَماً خَفِيَّةً ، ولَطائِفَ دَقِيقَةً ، كَما قالَ تَعالَى :

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٢].

وبِذَلِكَ يَضْمَحِلُّ حُزْنُهُ ، ويَزولُ تَعَجُّبُهُ ، ويَعْلَمُ أَنَّ تَعَجُّبَهُ كَتَعَجُّبِ سَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام مِنَ الخَضِرِ عليه السلام لَمَّا خَرَقَ السَّفِينَةَ ، وقَتَلَ الغُلامَ ، وأَعادَ بِناءَ الجِدارِ ، فَلَمَّا كَشَفَ الخَضِرُ عَنِ الحِكْمَةِ الَّتي اطَّلَعَ عَلَيْها ، زالَ تَعَجُّبُ سَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام ، وكانَ تَعَجُّبُهُ بُناءً عَلَى ما أُخْفِيَ عَنْهُ مِنْ تِلْكَ الحِكَمِ ، وكَذَلِكَ أَفْعالُ اللهِ تَعالَى .

ومِنْ جِهَةٍ ثالِثَةٍ : أَنَّ المُؤْمِنَ الَّذي عَمَّرَتْ مَحَبَّةُ اللهِ تَعالَى قَلْبَهُ ، وأَخَذَتْ عَلَيْهِ مَجامِعَ لُبِّهِ لا يُحِسُّ بِوَقْعِ المُصِيبَةِ ، ولا يَشْعُرُ بِأَلَمِها ، ولا شَكَّ أَنَّ المَحَبَّةَ لا يُحِسُّ بِها إِلاَّ مَنْ ذاقَها ، كَما قِيلَ :

لا يَعْرِفُ الوَجْدَ إِلاَّ مَنْ يُكابِدُهُ ❋ ولا الصَّبابَةَ إِلاَّ مَنْ يُعانِيها

ولِذَلِكَ يُنْكِرُها مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْها .

قالَ عامِرُ بنُ عَبْدالله بنِ قَيْس : (أَحْبَبْتُ اللهَ حُبّاً هَوَّنَ عَلَيَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ ، ورَضَّانِي بِكُلِّ بَلِيَّةٍ ، فَلا أُبالِي مَعَ حُبِّي إِيَّاهُ عَلامَ أَصْبَحْتُ وعَلامَ أَمْسَيْتُ) .

ثانِياً : تَسَرَّعَ قَوْمٌ فَقالُوا : إِنَّ الرِّضا يُورِثُ فِي الإِنْسانِ المُؤْمِنِ قَبُولاً لأَعْمالِ الفاسِقِينَ واسْتِحْساناً لأَوْضاعِ العاصِينَ ، وهَذا يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ .

---

(١) شَرْحُ الطَّرِيقَةِ المُحَمَّدِيَّة . (٢) سُورَةُ النِّساء مِن الآيَة ١٩ .

والجَوابُ : أَنَّ هَذا الفَهْمَ خَطَأٌ ظاهِرٌ ، وجَهْلٌ بَيِّنٌ ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَهْدِمَ المُؤْمِنُ حُكْماً مِنْ أَحْكامِ رَبِّهِ ، ورُكْناً مِنْ دَعائِمِ دِينِهِ ، وهُوَ الأَمْرُ بِالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ؟! مَعَ العِلْمِ أَنَّ اللهَ تَعالَى لايَرْضَى عَنِ المُؤْمِنِ إِلاَّ إِذا أَقامَ دِينَهُ ، واتَّبَعَ شَرِيعَتَهُ .

وهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَرْضَى المُؤْمِنُ بِأَفْعالِ الكافِرِ مَعَ أَنَّ اللهَ تَعالَى لا يَرْضَى بِها كَما قالَ تَعالَى : ﴿ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ (١)

والحَقِيقَةُ أَنَّهُ لا تَعارُضَ بَيْنَ الرِّضا بِاللهِ تَعالَى وبَيْنَ إِنْكارِ المُنْكَرِ ، لأَنَّ المُؤْمِنَ يَرْضَى بِأَفْعالِ اللهِ تَعالَى مِنْ حَيْثُ إِنَّها صَدَرَتْ مِنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ، وأَنَّها بِقَضائِهِ ومَشِيئَتِهِ ، ولا يَرْضَى بِأَفْعالِ العُصاةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّها صِفَتُهُم وكَسْبُهُم ، ولأَنَّها دَلالَةٌ عَلَى أَنَّهُم مَمْقُوتُونَ مِنَ اللهِ تَعالَى .

ثالِثاً : ظَنَّ قَوْمٌ خَطَأً أَنَّ مِنْ آثارِ الرِّضا بِاللهِ تَعالَى أَنْ يَتْرُكَ الإِنْسانُ التَّضَرُّعَ والدُّعاءَ ، ويُهْمِلَ اتِّخاذَ الأَسْبابِ لِجَلْبِ الخَيْرِ ودَفْعِ البَلاءِ ، ويَبْتَعِدَ عَنِ اسْتِعْمالِ الدَّواءِ عِنْدَ حُصُولِ الدَّاء .

والجَوابُ : أَنَّ هَذا فَهْمٌ غَيْرُ صَحِيحٍ ، إِذْ فِي الحَقِيقَةِ أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الرِّضا بِاللهِ تَعالَى ؛ أَنْ يَعْمَلَ المُؤْمِنُ أَعْمالاً يَتَوَصَّلُ إِلَى رِضاءِ مَحْبُوبِهِ سُبْحانَهُ ، وأَنْ يَتْرُكَ كُلَّ ما يُخالِفُ أَمْرَهُ ويُناقِضُ رِضاه .

ومِمَّا يُوَصِّلُ إِلَى رِضاءِ اللهِ تَعالَى اسْتِجابَةُ أَمْرِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ (٢) ، فالدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ ، وهُوَ يُورِثُ فِي القَلْبِ صَفاءً وخُشُوعاً ورِقَّةً تَجْعَلُهُ مُسْتَعِدّاً لِقَبُولِ الأَلْطافِ والأَنْوار .

ثُمَّ إِنَّ تَرْكَ الأَسْبابِ مُخالِفٌ لأَمْرِ اللهِ تَعالَى ومُناقِضٌ لِرِضاهُ ، فاللهُ تَعالَى أَمَرَ بِالعَمَلِ فَقالَ : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (٣)

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر مِنَ الآيَة ٧ . (٢) سُورَةُ غافِر مِن الآيَة ٦٠ . (٣) سُورَةُ التَّوْبَة مِن الآيَة ١٠٥ .

ودعا إلَى السَّعْي في طلَبِ الرِّزْقِ فقالَ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[1].

فَلَيْسَ مِنَ الرِّضا لِلإنْسانِ الْعَطْشانِ أَنْ لا يَمُدَّ يَدَهُ لِلْماءِ ؛ زاعِماً أَنَّهُ رَضِيَ بِالعَطَشِ الَّذي هُوَ مِنْ قَضاءِ اللهِ ، بَلْ قَضاءُ اللهِ وحُكْمُهُ وإرادَتُهُ أَنْ يُزالَ العَطَشَ بِالماء .

وحِينَ أَرادَ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطَّاب ﷺ ، أَنْ يَمْنَعَ جَيْشَ المُسْلِمينَ مِنْ دُخُولِ الشَّامِ حَذَراً مِنَ الطَّاعُونِ ، قالَ سَيِّدُنا أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاح ﷺ : (أَفِراراً مِنْ قَدَرِ الله ؟! ، فَأَجابَهُ سَيِّدُنا عُمَرُ : لَوْ غَيْرُكَ قالَها يا أَبا عُبَيْدَة ! نَحْنُ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِهِ)[2].

ولَيْسَ في الرِّضا بِالقَضاءِ ما يَسْتَلْزِمُ الخُروجَ عَنْ حُدودِ الشَّرْعِ ، ولَكِنَّ الرِّضا بِقَضاءِ اللهِ تَعالَى مَعْناهُ تَرْكُ الاعْتِراضِ عَلَيْهِ تَعالَى ظاهِراً وباطِناً ، مَعَ بَذْلِ الوسْعِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى ما يُحِبُّهُ اللهُ تَعالَى ويَرْضاهُ ، وذَلِكَ بِفِعْلِ أَوامِرِهِ وتَرْكِ نَواهِيه .

وخِتاماً : فَإِنَّ في سِيرَةِ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ وأَهْلِ بَيْتِهِ الأَطْهارِ ، وخُلَفائِهِ وصَحابَتِهِ الكِرامِ ﷺ والتَّابِعينَ والصَّالِحينَ فَيْضٌ مِنَ الحَوادِثِ الَّتي تَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِهِم بِأَعْلَى دَرَجاتِ الرِّضا ، مِمَّا يَضِيقُ المَجالُ عَنْ سَرْدِ الكَثِيرِ مِنْها .

ضُرِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الطَّائِفِ بِالحِجارَةِ حَتَّى أُدْمِيَ عَقِبُهُ فَتَوَجَّهَ إِلَى اللهِ تَعالَى مُخاطِباً ، ومِمَّا قالَ : (إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ سَخَطٌ عَلَيَّ فَلا أُبالِي) .

وكانَ الصَّحابَةُ الكِرامُ يُعَذَّبُونَ في مَكَّةَ ويُقَلَّبُ عَلَيْهِمْ أَلْوانُ التَّنْكِيلِ والإيذاءِ وهُمْ يَتَلَقَّوْنَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقُلُوبٍ راضِيَةٍ ، ووُجُوهٍ مُبْتَسِمَةٍ ، وأَلْسِنَةٍ ذاكِرَةٍ .

ورُوِيَ أَنَّ عُرْوَةَ بنَ الزُّبَيْرِ ﷺ قُطِعَتْ رِجْلُهُ وماتَ أَعَزُّ أَوْلادِهِ في لَيْلَةٍ واحِدَةٍ ،

---

(١) سُورَةُ المُلْك الآية ١٥ . (٢) أَخْرَجَهُ (البُخاريُّ) و (مُسْلِمٌ) في صَحيحَيْهِما .

فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحابُهُ وعَزَّوهُ ، فَقالَ : (اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ، كانَ أَوْلادِي سَبْعَةً فَأَخَذْتَ واحِداً وأَبْقَيْتَ سِتَّةً ، وكانَ لِي أَطْرافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتَ واحِداً وأَبْقَيْتَ ثَلاثَةً ، فَلَئِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ فَلَقَدْ أَعْطَيْتَ،ولَئِنْ كُنْتَ قَدِ ابْتَلَيْتَ فَقَدْ عافَيْتَ)

وقالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِالعَزيزِ رضي الله عنه : (ما بَقِيَ لِي سُرورٌ إِلاَّ مَواقِعُ القَدَرِ ، قِيلَ لَهُ : ما تَشْتَهِي ؟ قالَ ما يَقْضِي اللهُ تَعالَى) .

واعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعالَى لا يَرْضَى عَنْ عَبْدِهِ إِلاَّ إِذا رَضِيَ العَبْدُ عَنْ رَبِّهِ في جَمِيعِ أَحْكامِهِ وأَفْعالِهِ ، وعِنْدَها يَكُونُ الرِّضا مُتَبادَلاً كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ الحَقُّ تَعالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[1] .

ولَقَدْ أَدْرَكَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ سِرَّ هَذا التَّلازُمِ والتَّرابُطِ بَيْنَ الرِّضاءَيْنِ ، وقَدْ تَحَقَّقُوا بِأَنَّ رِضاءَ اللهِ تَعالَى عَنِ العَبْدِ هُوَ أَسْمَى مَنْزِلَةً وأَرْفَعُ رُتْبَةً وأَعْظَمُ مِنْحَةً ، قالَ تَعالَى : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[2] .

فَرِضْوانُ رَبِّ الجَنَّةِ أَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ ، بَلْ هُوَ غايَةُ مَطْلَبِ سُكَّانِ الجَنَّةِ ، كَما أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ اللهِ يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ :

يا أَهْلَ الجَنَّةِ ! يَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُم ، فَيَقُولُونَ : وما لَنا لا نَرْضَى وقَدْ أَعْطَيْتَنا مالَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ : أَنا أُعْطِيكُم أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قالُوا : يا رَبِّ وأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُم رِضْوانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أَبَداً)[3] .

التَّوَكُّل

عَرَّفَهُ ابْنُ عَجِيبَةَ فَقالَ : (التَّوَكُّلُ : ثِقَةُ القَلْبِ بِاللهِ حَتَّى لا يَعْتَمِدَ عَلَى شَيْءٍ

---

(١) سُورَةُ البَيِّنَة مِنَ الآيَة ٨ . (٢) سُورَةُ التَّوبة مِنَ الآيَة ٧٢ .

(٣) أخرجَهُ البُخاري عَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه .

سِواهُ ، أَوِ التَّعَلُّقُ بِاللهِ والتَّعْوِيلُ عَلَيْهِ في كُلِّ شَيْءٍ ، عِلْماً بِأَنَّهُ عالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وأَنْ تَكُونَ في يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْكَ بِما في يَدِكَ) .[١]

وقالَ بَعْضُهُم : (هُوَ اكْتِفاؤُكَ بِعِلْمِ اللهِ فِيكَ عَنْ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِسِواهُ ورُجُوعُكَ في كُلِّ الأُمُورِ إِلَى الله) .[٢]

وقالَ أَبُوَ سَعِيدٍ الخَرَّاز : (التَّوَكُّلُ : هُوَ التَّصْدِيقُ لِلهِ عَزَّ وجَلَّ ، والاعْتِمادُ عَلَيْهِ ، والسُّكُونُ إِلَيْهِ ، والطُّمَأْنِينَةُ إِلَيْهِ في كُلِّ ما ضُمِنَ ، وإِخْراجُ الهَمِّ مِنَ القَلْبِ بِأُمُورِ الدُّنْيا والرِّزْقِ وكُلِّ أَمْرٍ تَكَفَّلَ اللهُ بِهِ) .[٣]

فالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ تَعالَى تَفْوِيضُ الأَمْرِ إِلَيْهِ ، والاعْتِمادُ في جَمِيعِ الأَحْوالِ عَلَيْهِ والتَّبَرُّؤُ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ لَهُ ، وهُوَ مَرْتَبَةٌ قَلْبِيَّةٌ ، كَما يُلاَحَظُ مِنَ التَّعارِيفِ السَّابِقَةِ وغَيْرِها ، ولِهَذا لا تَعارُضَ بَيْنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ تَعالَى وبَيْنَ العَمَلِ واتِّخاذِ الأَسْبابِ ، إِذِ التَّوَكُّلُ مَحَلُّهُ القَلْب ، والأَسْبابُ مَحَلُّها البَدَن .

وكَيْفَ يَتْرُكُ الإنْسانُ المُؤْمِنُ العَمَلَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ تَعالَى بِهِ فى كَثِيرٍ مِنَ الآياتِ الكَرِيمَةِ ، ودَعا إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ في أَحادِيثَ جَمَّة .

فَقَدْ جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ عَلَى ناقَةٍ لَهُ فَقالَ : يارَسُولَ اللهِ أَأُرْسِلُ ناقَتِي وأَتوكَّلُ ؟ فَقالَ ﷺ : (اعْقِلْها وتَوكَّل) .[٤]

ولِهَذا اعْتَبَرَ العُلَماءُ تَرْكَ الأَسْبابِ والتَّقاعُسَ عَنِ السَّعْي تَواكُلاً وتَكاسُلاً لا يَتَّفِقُ مَعَ رُوحِ الإِسْلامِ ، كَما أَكَّدَ الصُّوفِيَّةُ هَذهِ النَّاحِيَةَ تَصْحِيحاً لِلأَفْكارِ ، ورَدّاً لِلشُّبُهاتِ ، وبَياناً لِلنَّاسِ أَنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ الفَهْمُ الحَقِيقِيُّ لِلإِسْلام .

قالَ القُشَيْري : (التَّوَكُّلُ مَحَلُّهُ القَلْبُ ، والحَرَكَةُ بِالظَّاهِرِ لا تُنافِي التَّوَكُّلَ بِالقَلْبِ ، بَعْدَما تَحَقَّقَ العَبْدُ أَنَّ التَّقْدِيرَ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعالَى ، وإِنْ تَعَسَّرَ شَيْءٌ

---

(١) مِعْراجُ التَّشَوُّف (ابْنُ عَجِيبَة) .
(٢) دَلِيلُ الفالِحِينَ لِطُرُقِ رياض الصَّالِحِينَ (العَلاَّمَةُ مُحَمَّدُ بنُ عَلاَّنَ الصِّدِّيقي) .
(٣) الطَّرِيقُ إِلى الله (أَبُو سَعِيدٍ الخَزَّار) . (٤) أخرجَهُ التِّرْمِذِي .

فَبِتَقْدِيرِهِ ، وإنِ اتَّفَقَ شَيْءٌ فَبِتَيْسِيرِهِ)[١].

وقالَ الإمامُ الغَزالِي : (قَدْ يَظُنُّ الجُهَّالُ أَنَّ شَرْطَ التَّوَكُّلِ تَرْكُ الكَسْبِ وتَرْكُ التَّداوِي والاسْتِسْلامُ لِلْمُهْلِكاتِ ، وذَلِكَ خَطَأٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ حَرامٌ في الشَّرْعِ ، والشَّرْعُ قَدْ أَثْنَى عَلَى التَّوَكُّلِ ، ونَدَبَ إِلَيْهِ فَكَيْفَ يُنالُ ذَلِكَ بِمَحْظُورِهِ)[٢].

وقَدْ نَبَّهَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ السَّالِكِينَ إِلَى ناحِيَةٍ قَلْبِيَّةٍ ، وهِيَ أَنَّهُ يَجِبُ فِي كُلِّ عَمَلٍ مِنَ الأَعْمالِ أَنْ يَتَّخِذُوا أَسْبابَهُ ، مَعَ عَدَمِ الاعْتِمادِ عَلَى تِلْكَ الأَسْبابِ أَوِ الالْتِفاتِ إِلَيْها بِقُلُوبِهِم .

قالَ القاضِي عِياض : (ذَهَبَ المُحَقِّقُونَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ إِلَى ضَرُورَةِ السَّعْيِ فِيما لابُدَّ مِنْهُ ، ولَكِنْ لا يَصِحُّ عِنْدَهُم التَّوَكُّلُ مَعَ الالْتِفاتِ والطُّمَأْنِينَةِ إِلَى الأَسْبابِ ، بَلْ فِعْلُ الأَسْبابِ سُنَّةُ اللهِ وحِكْمَتُهُ ، والثِّقَةُ بِأَنَّها لا تَجْلِبُ نَفْعاً ، ولا تَدْفَعُ ضُرّاً ، والكُلُّ مِنَ الله)[٣].

بَيانُ فَضْلِهِ وآثارِه :

التَّوَكُّلُ نَتِيجَةٌ مِنْ نَتائِجِ الإِيمانِ ، وثَمَرَةٌ مِنْ ثِمارِ المَعْرِفَةِ ، فَعَلَى قَدْرِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ بِاللهِ وصِفاتِهِ يَكُونُ تَوَكُّلُهُ ، وإِنَّما يَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ مَنْ لا يَرَى فاعِلاً سِواه والمُتَوَكِّلُ عَلَى اللهِ تَعالَى مُعْتَزٌّ بِهِ لا يَذِلُّ إِلاَّ لَهُ ، واثِقٌ بِهِ لا يَطْلُبُ إِلاَّ مِنْهُ ، وقَدْ قالُوا : (قَبِيحٌ بِالمُرِيدِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِسُؤالِ العَبِيدِ ، وهُوَ يَجِدُ عِنْدَ مَوْلاهُ ما يُرِيد) .

ولِهَذا رَبَطَ اللهُ تَعالَى التَّوَكُّلَ بِالإِيمانِ فَقالَ :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٤].

وقالَ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٥].

---

(١) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة . (٢) الأَرْبَعِينَ في أُصُولِ الدِّين لـ(الغَزالي) . (٣) دَلِيلُ الفالِحِين .
(٤) سُورَةُ المائِدَة مِنَ الآيَة ٢٣ . (٥) سُورَةُ إِبْراهِيم مِنَ الآيَة ١١ .

ومَنْ يَتوكَّلْ علَى اللهِ تَعالَى حَقَّ التَّوكُّلِ مُلْتَجِئاً إِلَيْهِ بِصِدْقِ الحالِ يُكْرِمْهُ بِالمَحَبَّةِ ، ويَكْفِهِ ما يُهِمُّهُ مِنْ مِحَنٍ وفِتَنٍ ، ويَمْلأْ قَلْبَهُ غِنَىً ويَقِيناً ، ويُزَيِّنْ ظاهِرَهُ بِالعِفَّةِ والكَرَمِ ، قالَ تَعالَى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1] ، وقالَ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[2] والتَّوكُّلُ علَى اللهِ تَعالَى يَبْعَثُ في القُلُوبِ السَّكِينَةَ والطُّمَأْنِينَةَ ، وخُصُوصاً عِنْدَ الشَّدائِدِ والمِحَنِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قالَ : (حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ ، قالَها إِبْراهِيمُ عليه السلام ، حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ ، وقالَها مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قالُوا :

﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[3].

فالمُتَوَكِّلُ عَلَى اللهِ تَعالَى حَقِيقَةً راضٍ بِقَضائِهِ ، مُسْتَسْلِمٌ لِفِعْلِهِ ، مُطْمَئِنٌّ لِحُكْمِهِ ، قالَ بِشْرٌ الحافِي : (يَقُولُ أَحَدُكُم : تَوكَّلْتُ عَلَى اللهِ ، وهُوَ يَكْذِبُ عَلَى اللهِ تَعالَى ، ولَوْ تَوكَّلَ عَلَى اللهِ تَعالَى لَرَضِيَ بِما يَفْعَلُهُ اللهُ تَعالَى بِهِ)[4].

وقَدْ مَدَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ التَّوكُّلَ ، وبَيَّنَ أَهَمِّيَّتَهُ في الحَياةِ وقِيمَتَهُ في إِحْلالِ الطُّمَأْنِينَةِ في النُّفُوسِ ، فَقالَ : (لَوْ تَوكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدو خِماصاً وتَروحُ بِطاناً)[5] ، أَي تَذْهَبُ صَباحاً وهِيَ جائِعَةٌ ، وتَعُودُ مَساءً شِباعاً ، وفي هَذا الحَدِيثِ إِشارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّوكُّلَ لا يَتَعارَضُ مَعَ الأَسْبابِ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الطَّيْرَ غادَرَتْ عُشَّها صَباحاً باحِثَةً عَنْ رِزْقِها مُعْتَمِدَةً عَلَى رَبِّها ، واثِقَةً بِهِ ، ولِذَلِكَ فَهِيَ لا تَعْرِفُ الهَمَّ ولا الأَحْزانَ .

وقَدْ نَدَبَ الرَّسُولُ ﷺ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ إِلَى التَّوكُّلِ عَلَى اللهِ تَعالَى في كُلِّ حالٍ لاسِيَّما عِنْدَما يَخْرُجُ المَرْءُ مِنْ بَيْتِهِ فَقالَ : (مَنْ قالَ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ :

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران الآيَة ١٥٩ . (٢) سُورَةُ الطَّلاقِ مِنَ الآيَة ٣ .
(٣) أخرجه البُخاري في صَحيحِهِ في كِتابِ التَّفْسير (تَفْسيرُ سُورَةِ آل عِمْران) .
(٤) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة . (٥) أخرجَهُ (التِّرْمِذي) و(الحاكم) .

بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، يُقالُ لَهُ : هُدِيتَ وكُفِيتَ ووُقِيتَ ، وتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطانُ ، فَيَقُولُ الشَّيْطانُ لِشَيْطانٍ آخَرَ كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ)(١) .

بيانُ مَراتِبِ التَّوكُّل :

النَّاسُ في التَّوَكُّلِ عَلَى مَراتِبَ ، لأَنَّ التَّوَكُّلَ كَغَيْرِهِ مِنْ مَقاماتِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعالَى تَتَدَرَّجُ مَراتِبُهُ ، ويَسْمُو الإِنْسانُ المُؤْمِنُ في مَعارِجِهِ عَلَى حَسَبِ مَعْرِفَتِهِ ولِهَذا عَدَّ بَعْضُ العارِفِينَ (كالغَزالي وابْنِ عَجِيبَةَ) لِلتَّوَكُّلِ ثَلاثَ مَراتِبَ :

فالأُولَى : وهِيَ أَدْناها ، أَنْ تَكُونَ مَعَ اللهِ تَعالَى ، كالمُوَكِّلِ مَعَ الوَكِيلِ الشَّفِيقِ المُلاطِف .

والثَّانِيَةُ : وهِيَ أَوْسَطُها ، أَنْ تَكُونَ مَعَ اللهِ تَعالَى كالطِّفْلِ مَعَ أُمِّهِ لا يَرْجِعُ في جَمِيعِ أُمُورِهِ إلاَّ إِلَيْها .

والثَّالِثَةُ : وهِيَ أَعْلاها ، أَنْ تَكُونَ مَعَ اللهِ تَعالَى كالمَرِيضِ بَيْنَ يَدَي الطَّبِيب .

والفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ المَقاماتِ ، أَنَّ الأَوَّلَ : قَدْ يَخْطُرُ ببالِهِ تُهْمَةً ، أَمَّا الثَّانِي : فَلا اتِّهامَ ، ولَكِنْ يَتَعَلَّقُ بِأُمِّهِ عِنْدَ الحاجَةِ ، أَمَّا الثَّالِثُ : فَلا اتِّهامَ ولا تَعَلُّقَ ، لأَنَّهُ فانٍ عَنْ نَفْسِهِ ، يَنْظُرُ كُلَّ ساعَةٍ ما يَفْعَلُ اللهُ بِهِ !(٢)

وخُلاصَةُ القَوْلِ : إِنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ أَعْظَمِ ثِمارِ الإيمانِ والمَعْرِفَةِ ، وأَهَمِّ أَسْبابِ سَعادَةِ وطُمَأْنِينَةِ الإِنْسانِ ، وقَدْ فَهِمَهُ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، ونَبَّهُوا إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِتَرْكِ الأَسْبابِ والتَّخَلِّي عَنْها ، بَلْ هُوَ انْحِصارُ الأَمَلِ في اللهِ ، والالْتِجاءُ إِلَى تَدْبِيرِهِ وحِكْمَتِهِ ، وعَدَمُ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِالأَسْبابِ ، لأَنَّها وَحْدَها لا تُغْنِي مِنَ اللهِ شَيْئاً .

---

(١) أخرجه أبوداودَ والنَّسائيُّ والتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ .
(٢) انظُر (مِعْراجَ التَّشَوُّف) .

وهكذا تحقق السَّادةُ الصُّوفيَّةُ بأعْلَى مَراتِبِ التَّوكُّلِ ، فقُلُوبُهم مُطْمَئِنَّةٌ باللهِ تَعالَى ، مُعْتَمِدَةٌ عَلَيْهِ ، واثِقَةٌ بِهِ ، مُتَوَجِّهَةٌ إلَيْهِ ، مُسْتَعِينَةٌ بِهِ لأَنَّهُ لا فاعِلَ في الوجُودِ سِواه .

وأَبْدانُهُمْ تَأْخُذُ بالأَسْبابِ امْتِثالاً لأَمْرِهِ ، وتَمَسُّكاً بِشَرْعِهِ ، واقْتِداءً بِهَدْي نَبِيِّهِ ﷺ وأَهْلِ بَيْتِهِ وصَحابَتِهِ رضي الله عنهم .

الشُّكْر

أَوْرَدَ العُلَماءُ لِلشُّكْرِ تَعارِيفَ كَثِيرَةً لَعَلَّ أَهَمَّها ما وَرَدَ عَنْ بَعْضِهِمْ :

(الشُّكْرُ : هُوَ عُكُوفُ القَلْبِ عَلَى مَحَبَّةِ المُنْعِمِ ودَوامُ الجَوارِحِ عَلَى طاعَتِهِ ، وجَرَيانُ اللِّسانِ بِذِكْرِهِ والثَّناءِ عَلَيْه)[١].

وقالَ ابْنُ عَجِيبَة : (هُوَ فَرَحُ القَلْبِ بِحُصُولِ النِّعْمَةِ مَعَ صَرْفِ الجَوارِحِ في طاعَةِ المُنْعِمِ ، والاعْتِرافُ بِنِعْمَةِ المُنْعِمِ عَلَى وَجْهِ الخُضُوع)[٢].

وقالَ العَلاَّمَةُ ابْنُ عَلاَّنَ الصِّدِّيقِي : (الشُّكْرُ : الاعْتِرافُ بالنِّعْمَةِ ، والقِيامُ بالخِدْمَةِ ، فَمَنْ كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ سُمِّيَ شَكُوراً ، ومِنْ ثَمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[٣].

ولا يَخْفَى أَنَّ نِعَمَ اللهِ تَعالَى عَلَى عِبادِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحْصَى ، وأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُعَدَّ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٤])[٥].

ويُمْكِنُ تَقْسِيمُ نِعَمِ اللهِ عَلَى الإنْسانِ إلَى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ رَئِيسَة :

١ - دُنْيَوِيَّة : كالصِّحَّةِ ، والعافِيَةِ ، والمالِ الحَلال .

٢ - ودِينِيَّة : كالعَمَلِ ، والعِلْمِ ، والتَّقْوَى ، والمَعْرِفَةِ باللهِ تَعالَى .

---

(١) مَدارِجُ السَّالِكين (ابْنُ القَيِّم) .
(٢) مِعْراجُ التَّشَوُّف (ابْن عَجِيبَة) .
(٣) سُورَةُ سَبَأ مِن الآيَة ١٣ .
(٤) سُورَةُ إبْراهيم مِنَ الآيَة ٣٤ .
(٥) دليلُ الفالحين لطرُقِ رياضِ الصَّالحين .

٣ - وأُخْرَوِيَّة : كالثَّوابِ عَلَى العَمَلِ الصَّالِحِ القَلِيلِ بِالعَطاءِ الجَزِيل .

وأجَلُّ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ الَّتي يَتَأَكَّدُ الشُّكْرُ عَلَيْها نِعَمُ الإسْلامِ والإيمانِ والمَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعالَى ، ومِنْ شُكْرِها اعْتِقادُ أَنَّها مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تعالَى تَفَضُّلاً مِنْهُ وكَرَماً ورَحْمَةً ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾(١) وقالَ تَعالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾(٢).

وإنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ الَّذي يُفَكِّرُ في هَذا الكَوْنِ العَظِيمِ وما فِيهِ مِنْ آياتِ اللهِ الكُبْرَى ، لَيَزْدادُ اطِّلاعُهُ عَلَى نِعَمِ اللهِ تَعالَى عَلَيْهِ ، مِمَّا يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ شُكْراً لِلهِ تَعالَى ، وأَعْظَمَ لَهُ حُبّاً .

ومِنْ نِعَمِ اللهِ تَعالَى عَلَى العَبْدِ نِعَمٌ يَسُوقُها لَهُ بِواسِطَةِ عِبادِ اللهِ تَعالَى ، كَما أَجْرَى إحْسانَ اللهِ إلَيْنا عَلَى يَدِ رَسُولِهِ ﷺ ، وكَما ساقَ خَيْرَهُ لَنا بِواسِطَةِ والِدَيْنا ومُرَبِّينا مِنَ المُرْشِدِينَ العارِفِينَ بِاللهِ تَعالَى ، فَعَلَى المُؤْمِنِ إذاً أَنْ يَشْكُرَ اللهَ تَعالَى لأَنَّهُ المُنْعِمُ الحَقِيقِيُّ الَّذي سَخَّرَ النَّاسَ لِجَلْبِ الخَيْرِ إلَيْهِ ، قالَ تَعالَى :﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(٣).

وعَلَى الإنْسانِ المُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ أَيْضاً مَنْ جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِنِعَمِهِ ، لِذا قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لا يَشْكُرِ اللهَ مَنْ لايَشْكُرِ النَّاسَ)(٤).

ولَقَدْ دَعانا اللهُ تَعالَى إلَى شُكْرِهِ وشُكْرِ والِدَيْنا اللَّذَيْنِ جَعَلَهُما سَبَباً في إيجادِنا وسَوْقِ كَثِيرٍ مِنَ النِّعَمِ إلَيْنا بِواسِطَتِهِما فَقالَ :

﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٥).

---

(١) سُورَةُ الحُجُرات مِنَ الآيَة ٧ .
(٢) سُورَةُ النُّور مِنَ الآيَة ٢١ .
(٣) سُورَةُ النَّحْل مِنَ الآيَة ٥٣ .
(٤) أخرجَهُ أبوداودَ في سُنَنِهِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .
(٥) سُورَةُ لُقْمان مِنَ الآيَة ١٤ .

وأَيْسَرُ الشُّكْرَيْنِ شُكْرُ العِبادِ ، فَمَنْ ضَيَّعَ شُكْرَ العِبادِ كانَ لِشُكْرِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ أَضْيَعُ .

بَيانُ أَقْسامِ الشُّكْر :

مِنْ تعارِيفِ الشُّكْرِ السَّابِقَةِ وغَيْرِها يُمْكِنُ القَوْلُ بِأَنَّ لِلشُّكْرِ أَقْساماً ثَلاثَةً : شُكْرَ اللِّسانِ ، وشُكْرَ الأَرْكانِ ، وشُكْرَ الجَنان .

١ - أَمَّا شُكْرُ اللِّسان : فَهُوَ التَّحَدُّثُ بِنِعَمِ اللّهِ تَعالَى ، امْتِثالاً لِقَوْلِهِ تعالَى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[١]. وتَطْبِيقاً لِقَوْلِهِ ﷺ : (التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللّهِ شُكْرٌ)[٢] وقِيلَ : مَنْ كَتَمَ النِّعْمَةَ فَقَدْ كَفَرَها ، ومَنْ أَظْهَرَها ونَشَرَها فَقَدْ شَكَرَها ولِذَلِكَ كانَتْ شَخْصِيَّةُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ الشَّخْصِيَّةَ المِثالِيَّةَ في الشُّكْرِ والحَمْدِ ، ولِهَذا قالَ ﷺ : (عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحاءَ مَكَّةَ ذَهَباً ، فَقُلْتُ : لا يارَبِّ ، ولَكِنْ أَشْبَعُ يَوْماً ، وأَجُوعُ يَوْماً ، وقالَ ثَلاثاً أَو نَحْوَ هَذا ، فَإِذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ ، وذَكَرْتُكَ ، وإِذا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وحَمِدْتُكَ)[٣].

وكَذَلِكَ رَغَّبَ (رَسُولُ اللّهِ) ﷺ في الحَمْدِ ، كَما رَوَى (عَبْدُاللّهِ بنُ عُمَرَ) رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ حَدَّثَهُم : (أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبادِ اللّهِ قالَ : يارَبِّ لَكَ الحَمْدُ كَما يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ ولِعَظِيمِ سُلْطانِكَ . فَعَضَّلَتْ بِالمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيا كَيْفَ يَكْتُبانِها ، فَصَعَدا إِلَى السَّماءِ فَقالا : يا رَبَّنا ! إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قالَ مَقالَةً لا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُها ؟ قالَ اللّهُ - وهُوَ أَعْلَمُ بِما قالَ عَبْدُهُ : ماذا قالَ عَبْدِي ؟ قالا : إِنَّهُ قَدْ قالَ : يارَبِّ لَكَ الحَمْدُ كَما يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ ، ولِعَظِيمِ سُلْطانِكَ . فَقالَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ لَهُما : اكْتُباها كَما قالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقانِي فَأَجْزِيَهُ بِها)[٤].

---

(١) سُورَةُ الضُّحى الآيَة ١١ .

(٢) أَخرجَهُ الإِمامُ (أَحْمَدُ) في مُسْنَدِهِ عَنِ النُّعمانِ بن بَشِيرٍ .

(٣) أَخرجَهُ التِّرمِذِي عَنْ أَبِي أُمامَةَ رضي الله عنه .

(٤) أَخرجَهُ ابْنُ ماجَه .

٢- وأَمَّا شُكْرُ الأَرْكان : فَهُوَ العَمَلُ لِلهِ تَعالَى . قالَ تَعالَى مُشِيراً إلَى أَنَّ الشُّكْرَ هُوَ العَمَلُ :﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾[1]، وقَدْ أَوْضَحَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَمَلِيّاً ، حِينَ كانَ يَقُومُ اللَّيْلَ ، كَما رَوَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها.

قالَت : كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفطرَ قَدَماهُ ، فَقُلْتُ لَهُ :لِمَ تَصْنَعُ هَذا يارَسُولَ اللهِ وقَدْ غُفِرَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ؟ قال ﷺ : (أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شُكُوراً)[2].

٣ - وأَمَّا شُكْرُ الجَنان : فَهُوَ أَنْ تَشْهَدَ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ بِكَ أَو بِأَحَدٍ مِنَ العِبادِ هِيَ مِنَ اللهِ تَعالَى ، قالَ تَعالَى :﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[3]، فَلا تَحْجُبُكَ رُؤْيَةَ النِّعَمِ عَنْ رُؤْيَةِ المُنْعِمِ ، وقَدْ نَبَّهَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى هَذهِ الحَقِيقَةِ حَيْثُ قالَ : (مَنْ قالَ حِينَ يُصْبِحُ : اللهُمَّ ما أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أو بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ فَلَكَ الحَمْدُ ولَكَ الشُّكْرُ ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ ، ومَنْ قالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتَهُ)[4].

وفي الآثارِ أَنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عليه السلام قالَ : (يارَبِّ خَلَقْتَ آدَمَ بِيَدِكَ ، ونَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِكَ ، وأَسْجَدْتَ لَهُ مَلائِكَتَكَ ، وعَلَّمْتَهُ أَسْماءَ كُلِّ شَيْءٍ ، وفَعَلْتَ ، وفَعَلْتَ ، فَكَيْفَ أَطاقَ شُكْرَكَ ؟ قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ : عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي ، فَكانَتْ مَعْرِفَتُهُ بِذَلِكَ شُكْراً)[5].

وعَلَى هَذا فَإِنَّ الإِنْسانَ المُؤْمِنَ يَرَى أَنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ أَنْ وَفَّقَهُ لِشُكْرِهِ والثَّناءِ عَلَيْهِ ، كَما قالَ سَيِّدُنا داود عليه السلام : (يارَبِّ كَيْفَ أَشْكُرُكَ وشُكْرِي نِعْمَةٌ عَلَيَّ مِنْ عِنْدِكَ تَسْتَوْجِبُ بِها شُكْراً ؟ قالَ : الآنَ شَكَرْتَنِي ياداود)[6].

---

(١) سُورَةُ سَبَأ مِنَ الآيَة ١٣ .
(٢) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و(مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهِما .
(٣) سُورَةُ النَّحل مِنَ الآيَة ٥٣ .
(٤) أَخْرَجَهُ (أبوداود) في سُنَنِه .
(٥ - ٦) مَدارِجُ السَّالِكِين (ابْنُ القَيِّم) .

بَيانُ مَراتِبِ الشَّاكِرين :

النَّاسُ في تَحَقُّقِهِم بِالشُّكْرِ عَلَى مَراتِبَ مُتَفاوِتَةٍ :

فالعَوامُّ : يَشْكُرونَ اللّهَ عَلَى النِّعَمِ فَقَط .

والخَواصُّ : يَشْكُرونَ اللّهَ عَلَى النِّعَمِ والنِّقَمِ ، ويَشْهَدُونَ فَضْلَهُ وإِنْعامَهُ عَلَيْهِمْ في جَمِيعِ أَحوالِهِمْ ، وقَدْ أَثْنَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَلَى مَنْ تُصِيبُهُ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ نِقْمَةٌ فَيُقابِلُها بِالحَمْدِ بِاللِّسانِ ، والرِّضا بِالجَنانِ دُونَ أَنْ يَسْمَحَ لِلشَّيْطانِ أَنْ يَقْذِفَ في قَلْبِهِ اليَأْسَ والقُنُوطَ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ تَعالَى ، فَفي الحَديثِ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ : (إِذا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ ، قالَ اللّهُ تَعالَى لِمَلائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : فَماذا قالَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ[1] ، فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى : ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً في الجَنَّةِ وسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ)[2].

وقالَ ﷺ : (أَوَّلُ مايُدْعَى إِلَى الجَنَّةِ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ)[3].

وشُكْرُ خَواصِّ الخَواص : غَيْبَتُهُم في المُنْعِمِ عَنْ رُؤْيَةِ النِّعَمِ والنِّقَمِ وفي هَذا المَعْنَى ، قالَ الشِّبْلِي : (الشُّكْرُ رُؤْيَةُ المُنْعِمِ لا رُؤْيَةَ النِّعْمَة)[4].

بَيانُ فَضْلِ الشُّكْر :

الشُّكْرُ مِنْ أَعْلَى المَقاماتِ ، لأَنَّهُ يَشْمَلُ القَلْبَ واللِّسانَ والجَوارِحَ ، ولأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الصَّبْرَ والرِّضا والحَمْدَ وكَثِيراً مِنَ العِباداتِ البَدَنِيَّةِ والقَلْبِيَّةِ ، ولِهَذا أَمَرَ اللّهُ تَعالَى بِهِ ، ونَهَى عَنْ ضِدِّهِ ، وهُوَ الكُفْرُ والجُحُودُ ، فَقالَ :

﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[5].

---

(١) حَمِدَكَ : قالَ الحَمْدُ للّهِ ، اسْتَرْجَعَ : قالَ إِنَّا للّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُون . (٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذي .
(٣) أَخْرَجَهُ الحاكِمُ في المُسْتَدْرَك . (٤) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة . (٥) سُورَةُ البَقَرة مِنَ الآيَة ١٥٢ .

والشُّكْرُ مِنْ أَعْظَمِ صِفاتِ الرُّسُلِ الكِرامِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، قالَ اللهُ تَعالَى في وَصْفِ خَلِيلِهِ سَيِّدِنا إبْراهِيمَ عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾[١].

وقالَ تَعالَى عَنْ سَيِّدنا (نُوح) عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[٢].

أَمَّا حَبِيبُ اللهِ ورَسُولُهُ سَيِّدُنا (مُحَمَّدٌ) ﷺ فَقَدْ كانَ يُجْهِدُ نَفْسَهُ في العِبادَةِ وإِحْياءِ اللَّيالِي ، والقِيامِ بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ خاشِعاً مُتَبَتِّلاً مُتَحَقِّقاً بِمَقامِ الشُّكْرِ ، ولِهَذا لَمَّا سُئِلَ عَنْ سَبَبِ قِيامِهِ وإِجْهادِ نَفْسِهِ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ قالَ ﷺ : (أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً)[٣].

وقَدْ ظَنَّ السَّائِلُ أَنَّ سَبَبَ العِبادَةِ هُوَ طَلَبُ المَغْفِرَةِ وقَدْ غَفَرَ اللهُ تَعالَى لَهُ ﷺ ، ولَكِنَّ جَوابَ الرَّسُولِ ﷺ رَفَعَ هِمَّةَ السَّائِلِ إِلَى مَقامِ الشُّكْرِ الَّذي هُوَ أَعْلَى مَقاماتِ العَبْدِيَّة ، وبِهِ تَتَحَقَّقُ سَعادَةُ الإِنْسانِيَّة .

وكَما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كانَ خَيْرَ مَنْ تَحَقَّقَ بِالشُّكْرِ ، كَذلِكَ كانَ يَدْعُو أَصْحابَهُ رضي الله عنهم ، وسائِرَ المُؤْمِنِينَ إِلَى التَّحَقُّقِ بِهَذا المَقامِ العَظِيمِ ، والتَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعالَى بِالدُّعاءِ عَقِبَ كُلِّ صَلاةٍ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِالإِعانَةِ عَلَى الذِّكْرِ والشُّكْرِ ، فَقالَ ﷺ لِمُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه : (أُوصِيكَ يا مُعاذُ لا تَدَعْنَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ : اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ)[٤].

ولِعُلُوِّ مَقامِ الشُّكْرِ ورِفْعَةِ مَنْزِلَتِهِ كانَ مُرْتَقاهُ صَعْباً ، والتَّحَقُّقُ بِهِ يَحْتاجُ إِلَى مُجاهَداتٍ وسُلُوكٍ ، مَعَ الصِّدْقِ والصَّبْرِ والاسْتِقامَةِ ، ولِهَذا كانَ الشَّاكِرُونَ نادِرِينَ ، لِأَنَّ الكِرامَ قَلِيلٌ ، وقَدْ وصَفَهُم اللهُ بِالقِلَّةِ حَيْثُ قالَ :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[٥].

---

(١) سُورَةُ النَّحْلِ الآيَتان ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) سُورَةُ الإِسْراء مِنَ الآيَة ٣ .
(٣) أَخْرجَهُ البُخاري في صَحيحِه .
(٤) أخرجَهُ (أبوداود) و(النَّسائي) و(الحاكِمُ) .
(٥) سُورَةُ سَبأ مِنَ الآيَة ١٣ .

كَما وَصَفَ مُعْظَمَ النَّاسِ بِعَدَمِ الشُّكْرِ ، بِالرَّغْمِ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِم وسَعَةِ فَضْلِهِ وجُودِهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ ﴾[1].

ولِهَذا ، فَإِنَّ اللهَ تعالَى كَثِيراً ما يُذَكِّرُ النَّاسَ في القُرْآنِ الكَريمِ بِنِعَمِهِ الكُبْرَى ومِنَنِهِ العُظْمَى ، وكَثِيراً ما يَدْعُو إِلَى التَّفَكُّرِ في الكَوْنِ ، كَيْ نُدْرِكَ ما أَحاطَنا بِهِ مِنْ جَلائِلِ النِّعَمِ وبَدائِعِ الإِحْسانِ ، مِمَّا يَعْجَزُ الإِنْسانُ عَنْ تَعْدادِهِ والإِحاطَةِ بِهِ ، كُلُّ ذَلِكَ كَي نَشْكُرَهُ تَعالَى حَقَّ الشُّكْرِ ، قالَ تَعالَى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾[2].

وقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالَى الإِنْسانَ العاقِلَ الَّذي يَتَمَتَّعُ بِالنُّضُوجِ الفِكْرِي والكَمالِ الإِنْسانِي ، ويَبْلُغُ سِنَّ الأَرْبَعِينَ بِأَنَّهُ يَرَى نِعَمَ اللهِ المُحِيطَةَ بِهِ ، ويَشْهَدُ فَضْلَ اللهِ عَلَيْهِ ، فَيَلْجَأُ إِلَى اللهِ تَعالَى ضارِعاً أَنْ يُوَفِّقَهُ لِلشُّكْرِ ، قالَ تَعالَى :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾[3].

وقَدْ جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْزِلَةَ الَّذي يَتَنَعَّمُ بِرِزْقِ اللهِ ويَشْكُرُهُ بِمَنْزِلَةِ الَّذي يُعانِي العِباداتِ ويَصْبِرُ عَلَى مَشَقَّتِها ، فَقالَ ﷺ : (الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ)[4].

ثُمَّ إِنَّ الشُّكْرَ هُوَ خَيْرُ وَسِيلَةٍ لِبَقاءِ النِّعْمَةِ واسْتِمْرارِها ، وقَدْ قِيلَ : (عِقالُ النِّعْمَةِ الشُّكْرُ) ، وقالَ ابْنُ عَطاءِ اللهِ في حِكَمِهِ : (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوالِها ، ومَنْ شَكَرَها فَقَدْ قَيَّدَها بِعِقالِها)[5].

---

(١) سُورَةُ النَّمْل الآية ٧٣ .
(٢) سُورَةُ النَّحل الآية ٧٨ .
(٣) سُورَةُ الأَحْقاف مِنَ الآية ١٥ .
(٤) أخرجَه التِّرمِذِي عَنْ أبي هُرَيْرةَ ﷺ .
(٥) إيقاظُ الهِمَم في شَرْحِ الحِكَم (ابْنُ عَجِيبَة) .

كَما أَنَّ عَدَمَ الشُّكْرِ ومُقابَلَةَ النِّعَمِ بِالكُفْرِ والجُحُودِ يُورِثُ غَضَبَ اللهِ تَعالَى وعِقابَهُ وسَلْبَ نِعْمَتِهِ ، كَما قالَ تَعالَى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1] .

وقَدْ وَعَدَ اللهُ تَعالَى المُؤْمِنِينَ أَنْ يَزِيدَ نِعَمَهُ عَلَيْهِم إِذا هُم قابَلُوها بِالشُّكْرِ فَقالَ :﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] .

والحَقِيقَةُ أَنَّ الشَّاكِرَ يَجْلِبُ الخَيْرَ لِنَفْسِهِ حِينَ يَشْكُرَ اللهَ تَعالَى ؛ إِذْ يَغْنَمُ بِشُكْرِهِ مَزِيدَ نِعَمِ اللهِ تَعالَى عَلَيْهِ ، واسْتِمْرارَ فَضْلِهِ ، وعَظِيمَ حُبِّهِ وجَمِيلَ ثَنائِهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[3] ، وبَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ بِالشُّكْرِ ، وعَرَفُوا جَلِيلَ مَقامِهِ وكَبِيرَ فَضْلِهِ ، دَعَوُا النَّاسَ إِلَيْهِ ، ورَغَّبُوا كُلَّ مَنْ يُكْرِمُهُ اللهُ تَعالَى بِنِعْمَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَو أُخْرَوِيَّةٍ أَنْ لا يَنْشَغِلَ بِها ، بَلْ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ الشُّكْرِ كَي يَفُوزَ بِمَزِيدِ النِّعَمِ ودَوامِ التَّوْفِيقِ ، قالَ أَبُو حَمْزَةَ البَغْدادِي[4] : (إِذا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الخَيْرِ فالْزَمْهُ ، وإِيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ وتَفْتَخِرَ بِهِ ، ولَكِنْ اشْتَغِلْ بِشُكْرِ مَنْ وَفَّقَكَ لِذَلِكَ ، فَإِنَّ نَظَرَكَ إِلَيْهِ يُسْقِطُكَ عَنْ مَقامِكَ ، واشْتِغالَكَ بِالشُّكْرِ يُوجِبُ لَكَ مِنْهُ المَزِيدَ ، لِأَنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ولِذا طَرَقَ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ بابَ شُكْرِ اللهِ تَعالَى عَلَى جَمِيعِ أَحْوالِهِم وحَمِدُوا اللهَ تَعالَى في سائِرِ شُئُونِهِم ، وشَهِدُوهُ الفاعِلَ المُطْلَقَ والمُنْعِمَ المُتَفَضِّلَ والبَرَّ الرَّحِيمَ ، والشَّكُورَ الكَرِيمَ ، فَوَقَفُوا عَلَى أَعْتابِهِ مُتَذَلِّلِينَ ، ولِجَنابِهِ طالِبِينَ ، في قُلُوبِهِم نُورُ المَعْرِفَةِ ، وفِي أَلْسِنَتِهِم آياتُ الحَمْدِ والثَّناءِ ، وفي

---

(١) سُورَةُ النَّحْلِ الآيَة ١١٢ .
(٢) سُورَةُ إِبْراهِيم مِنَ الآيَة ٧ .
(٣) سُورَةُ النَّمْلِ مِنَ الآيَة ٤٠ .
(٤) طبقاتُ الصُّوفيَّة (السُّلَمِي) .

أَعْمالِهِم أَحْكامُ الشَّرِيعَة الغَرَّاءِ ، مُقْتَفِينَ بذَلِكَ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَهْلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ وصَحابَتِهِ الغُرِّ المَيامِينَ ، ومَنْ تَبِعَهُم فِي نَهْجِهِم القَوِيمِ وطَرِيقِهِم المُسْتَقِيم .

المَعْرِفَة

(العُبُودِيَّةُ الكامِلَة - نِهايَةُ التَّوْحِيد)

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(١).

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾(٢).

المَعْرِفَةُ : الإِحاطَةُ بِعَيْنِ الشَّيْءِ كَما هُوَ ، وهِيَ بِهَذا المَعْنَى لا تَصِحُّ لِمَخْلُوقٍ فالإِحاطَةُ بِكُنْهِ الحَقِّ سُبْحانَهُ مُمْتَنِعَةٌ عَلَيْهِم ، والمَحْدودُ لا يُدْرِكُ ما هُوَ أَوْسَعُ مِنْهُ حَدّاً ، فَكَيْفَ يُدْرِكُ غَيْرَ المَحْدود ؟ وقالَ ﷺ - وهُوَ أَعْلَمُ الخَلْقِ بِاللهِ - : (سُبْحانَكَ أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ لا أُحْصِي ثَناءً عَلَيْكَ) .

وإِنَّما يُرادُ بِها الوُصُولُ إِلَى ما يُمْكِنُ إِدْراكُهُ مِنْ كَمالِهِ المُقَدَّسِ عَنِ الحُدودِ بِالتَّعْرِيفِ الإِلَهِي الظَّاهِرِ بِالخَبَرِ ، والباطِنِ بِالفَيْضِ الرَّبَّانِي ، والتَّحَقُّقِ بِالأَدَبِ اللائِقِ بِالحَقِّ سُبْحانَه .

وكُلَّما ازْدادَ العَبْدُ قُرْباً مِنَ الحَقِّ ازْدادَ عِلْماً وخَشْيَةً ، قالَ تَعالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾(٣)، الخَشْيَةَ الكامِلَةَ ، والعُلَماءُ بِاللهِ الَّذِينَ شَهِدوا كشَهادَةِ المَلائِكَةِ .

والسَّالِكُ سائِرٌ إِلَى رَبِّهِ بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجاءِ ، فَإِذا دَنا كانَ حالُهُ القَبْضَ

---

(١) سُورَةُ الكَهْف الآيَة ٦٥ . (٢) سُورَةُ آل عِمْران الآيَة ١٨ . (٣) سُورَةُ فاطِر مِنَ الآيَة ٢٨ .

والبَسْطَ فإذا دَنا كانَ حالُهُ الهَيْبَةَ والأُنْس .

وحالُ السَّالِكِ في البِدايَةِ:﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾،فَإِذا دَنا كانَ حالُهُ: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (١) .

فإِذا أَخَذَهُ الحَقُّ عَنْهُ ، كانَ سَيْرُهُ في اللهِ لا يَشْعُرُ إلاَّ بِهِ عَزَّ شَأْنُهُ .

فَإِذا رَدَّهُ الحَقُّ إِلى وَعْيِهِ ، كانَ سَيْرُهُ عَنِ اللهِ تَعَرُّفاً وتَصَرُّفاً﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ (٢)، فَرُجُوعُهُ لِنَفْسِهِ ولِلْخَلْقِ لا بِنَفْسِهِ ، وإِنَّما هُوَ رَحْمَةٌ مُهْداة .

فالمَعْرِفَةُ أَنْ تَكُونَ بِاللهِ في جَمِيعِ حالاتِكَ ، وهِيَ مَقامُ الوِراثَةِ الكامِلَةِ لِلْمُصْطَفَى ﷺ ، الوِراثَةِ الحِسيَّةِ والرُّوحِيَّةِ ، والتَّحَقُّقِ بِالخِلافَةِ عَنِ الحَقِّ سُبْحانَهُ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٤) .

وفِيها التَّحَقُّقُ بِالفَرْقِ بَعْدَ الجَمْعِ ، ويُسَمِّيه القَوْمُ (الفَرْقَ الثَّاني) .

والفَرْقُ الأَوَّلُ : هُوَ الاحْتِجابُ بِالخَلْقِ عَنِ الحَقِّ سُبْحانَهُ والرُّكُونُ إِلَيْهِم كَما عَلَيْهِ العامَّةُ ، وبَقاءُ الرُّسُومِ المَعْروفَةِ ، وتَعَلُّقُ القَلْبِ بِها ، ولا يَخْلُصُ العَبْدُ إلاَّ بِالفَناءِ ، وفِيهِ إِسْقاطُ الرُّسُومِ والأَسْبابِ ، وعَدَمُ الشُّعُورِ بِالخَلْقِ جُمْلَةً ، ولا يَرَى إلاَّ الحَقَّ كَما تَقَدَّمَ .

وأَكْمَلُ مِنَ هَذا المَقامِ : شُهُودُ الحَقِّ والخَلْقِ بِالحَقِّ ، وهُوَ مَقامُ البَقاءِ .

(أَمَّا الفَرْقُ الثَّاني) فَحَيْثُ يُعْطِي المَراتِبَ حَقَّها ، فَلا يَحْتَجِبُ بِالكَثْرَةِ عَنِ الوَحْدَةِ ويَرُدُّ الكَثْرَةَ إِلَيْها ، ولا يَحْتَجِبُ بِالوَحْدَةِ عَنِ الكَثْرَةِ فَإِنَّها شَأْنٌ مِنْ شُئُونِها .

والشَّمْسُ واحِدَةٌ ، وإِذا سَطَعَ نُورُها عَلَى زُجاجاتٍ مُخْتَلِفَةِ الأَلْوانِ ظَهَرَ بِأَلْوانٍ

---

(١) الشُّعراء مِنَ الآيَة ٦٢ . (٢) سُورَةُ الكَهْف مِنَ الآيَة ٨٢ .
(٣) سُورَةُ القَلَم الآيَة ٤ . (٤) سُورَةُ الأَنْفال مِن الآيَة ١٧.

شَتَّى ، ولَمْ يَتَغيَّرِ النُّورُ في ذاتِهِ ، فَمَنْ نَظَرَ إلَى كَثْرَةِ الأَلْوانِ وظَنَّها أَنْواراً مُتَعَدِّدَةً فَما عَرَفَ ، ومَنْ نَظَرَ إلَى النُّورِ الواحِدِ ولَمْ يَرَ مَظاهِرَهُ الكَثِيرَةَ فَما كَمُلَتْ مَعْرِفَتُهُ ، ومَنْ عَرَفَ أَنَّ الشَّمْسَ هِيَ هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرْ ، ولَمْ تَتَّحِدْ بِالزُّجاجِ ولا حَلَّتْ فيهِ ، وعَرَفَ آثارَ شُرُوقِها فَقَدْ عَرَفَ .

وأَمَّا تَقْرِيبُ بَعْضِهِم لِقِيامِ الكَوْنِ بِالحَقِّ سُبْحانَهُ ، بِقِيامِ الصُّورَةِ الثَّلْجِيَّةِ بِالماءِ :

وما الخَلْقُ في التِّمْثالِ إلاَّ كَثَلْجَةٍ * وأَنْتَ لَها الماءُ الَّذي هُوَ نابِعُ

فَإِجْماعُهُم عَلَى أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الشَّبَهِ والمَثَلِ ، وأَنَّ ما يُتَوَهَّمُ مِنْ أَنَّ المُرادَ بِذَلِكِ أَنَّهُ سُبْحانَهُ مادَّةُ الكَوْنِ ضَلالٌ وباطِلٌ ، لا يَقُولُ بِهِ إِنْسانٌ مُؤْمِنٌ ، بَل يَأْباهُ العَقْلُ الصَّحِيحُ ، حَيْثُ أَيْقَنَ أَنَّ الحَقَّ لا تُقَيِّدُهُ الأَكْوانُ بِأَيِّ وَجْهٍ مِنَ الوجُوه .

ومَنْ صَوَّرَهُ سُبْحانَهُ كإِنْسانٍ لَبِسَ كُلَّ ثَوْبٍ وخَلَعَ كُلَّ ثَوْبٍ ، فَما عَرَفَ اللهَ عَزَّ شَأْنُهُ وقَدْ وَصَفَهُ بِوَصْفِ مَخْلُوقاتِهِ ، وهَذا هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ ، فَما لَبِسَ ولا خَلَعَ سُبْحانَه .

وإنَّما مُرادُهُمْ أَنَّ الصُّورَةَ الثَّلْجِيَّةَ ما قامَتْ إلاَّ بِالماءِ ولا يُعْقَلُ أَنْ تَقُومَ وَحْدَها ، والكَوْنُ كُلُّهُ لا قَيُّومِيَّةَ لَهُ إلاَّ بِالحَقِّ سُبْحانَهُ لا بِنَفْسِهِ ، ولا يُشْبِهُ قِيامُ الكَوْنِ بِالحَقِّ قِيامُ الصُّورَةِ بِالخَلْقِ ، ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ فالمُرادُ تَوْضِيحُ القَيُّومِيَّةِ لا تَشْبِيهُها ، ولِلّهِ المَثَلُ الأَعْلَى .

وقَدْ ضَرَبَ اللهُ المَثَلَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[1] .

وإنَّما هُوَ تَقْرِيبٌ مَعَ القَطْعِ بِالتَّنْزِيهِ ونَفْيِ التَّشْبِيهِ ، وكَذَلِكَ كُلُّ ما يُذْكَرُ عَنْهُم مِمَّا هُوَ مِنْ هَذا القَبِيل .

---

(١) سُورة النُّور مِنَ الآيَة ٣٥ .

فأَرْقَى أَحْوالِ القَوْمِ حالٌ إيجابِيَّةٌ لا سَلْبِيَّةٌ كَما يَظُنُّ البَعْضُ خَطَأً ، فإنَّ العارِفَ يُحِسُّ بِبَقائِهِ بِاللهِ مَعَ شُهُودِ اسْتِهْلاكِ الخَلْقِ وفَنائِهِم في الحَقِّ حَيْثُ لا وجُودَ لَهُم مِنْ أَنْفُسِهِم ، ولَكِنَّهُ بَقاءٌ بِالصِّفاتِ الرَّبانِيَّةِ والفَيْضِ الإلَهِي لا بِصِفاتِهِ هُوَ وأَعْمالِهِ ، فَهُوَ كَرِيمٌ رَحِيمٌ حَلِيمٌ عَلِيمٌ قُرْآنِيٌّ الظَّاهِرِ والباطِنِ ، يَبْدُو بَيْنَ الخَلْقِ كَسائِرِ الخَلْقِ داعِياً إِلَى الحَقِّ بِالحَقِّ ، ووَصْلَتُهُ بِاللهِ أَعْلَى مِنْها في حالِ فَنائِهِ ، الوَصْلَةُ اللائِقَةُ بِالمُفْتَقِرِ إِلَى الغَنِيِّ المُنَزَّهِ سُبْحانَهُ ، وهُوَ الَّذي يَتَوَلَّى كُلَّ شُئُونِهِ ، وهَذهِ حَقِيقَةُ الوِلايَة .

والمُعامَلَةُ مَعَ الحِجابِ غَيْرُ المُعامَلَةِ عَلَى بِساطِ المُشاهَدَةِ ، قالَ تَعالَى :

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ (١) .

ومَعْروفٌ أَنَّ الإنْسانَ في العادَةِ يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْتَكِبَ ما تَسْتَنْكِرُهُ النَّاسُ أَمامَهُم فَكَيْفَ بِمَنْ رَأَى الجِنَّ والمَلائِكَةَ ؟

فَكَيْفَ بِالعارِفِ الَّذِي مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ ، فَزَجَّ بِهِ في مَلَكُوتِهِ وفِيما شاءَ سُبْحانَهُ ، وكَأَنَّما هُوَ في الدَّارِ الآخِرَةِ ، وكانَتْ حالُهُ تُشْبِهُ حالَ المَلائِكَةِ في عِبادَتِهِ وعُبُودِيَّتِهِ ، وآنَسَهُ الحَقُّ بِهِ فَهُوَ نَجِيُّ رَبِّهِ وعَبْدُهُ ؟

وكُلُّ كَمالاتِ المَقاماتِ السَّابِقَةِ مُجْتَمِعَةٌ مُكْتَمِلَةٌ في مَقامِ المَعْرِفَةِ ، وفِيهِ تَوْحِيدُ الفِعْلِ والأَسْماءِ والصِّفاتِ ، وتَوْحِيدُ الذَّاتِ ، بِتَوْحِيدِ الحَقِّ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وهُوَ الأَحَدُ سُبْحانَهُ قَبْلَ الخَلْقِ ، وإِنَّما شَهِدَ لِنَفْسِهِ بِالوَحْدانِيَّةِ ، واعْتَرَفْنا نَحْنُ بِالحَقِيقَةِ ، كَما عَرَّفَنا سُبْحانَهُ ، فَأَيُّ فَضْلٍ لَنا ؟

وفَرْقٌ بَيْنَ مَعارِفِ الفَيْلَسُوفِ والصُّوفي : فَإِنَّ الأَوَّلَ مَنْشَأُ مَعارِفِهِ الفِكْرُ ، ويَشْتَرِكُ (الصُّوفي) مَعَهُ في ذَلِكَ ، ويَخْتَصُّ (الصُّوفِي) بِالفَيْضِ القُدْسِيِّ الحَقِّ ، الَّذي لا دَخْلَ لِلفِكْرِ فِيه .

---

(١) سُورَةُ النَّجْم الآيَة ١٢ .

قالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ بنُ عَرَبِي : (إنَّ أَهْلَ اللهِ العامِلينَ عَلى الإيمانِ يَكُونُ لَهُم إِلْقاءٌ خاصٌّ لا يَنالُهُ أَبَداً مَنْ لَمْ يَكُنْ طَرِيقَهُ الإيمانَ) .

والأَحْوالُ مَعانٍ تَرِدُ عَلَى القَلْبِ ، مِنْ غَيْرِ تعَمُّدٍ ولا اكْتِسابٍ ولا تَكَلُّفٍ .

وإِذا مَنَّ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بِإِعْطاءِ صِفاتِ الرُّوحِ لِجَسَدِهِ ، لَمْ يَتَقَيَّدْ بِالخَصائِصِ المادِيَّةِ المَعْروفَةِ ، وكانَ لِجَسَدِهِ ما لِلرُّوحِ مِنَ الإطْلاقِ الرُّوحِي ، يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ مارَسَ هَذا الشَّأْنَ ، ويَتَحَقَّقُ مَنْ في مَقامِ المَعْرِفَةِ بِهَذِهِ الحال ، ومَعَ ذَلِكَ فالحَقُّ سُبْحانَهُ يَسْتُرُهُ ، فَيَبْدو كعامَّةِ النَّاسِ ، ويَتَنَزَّلُ لِلأَسْبابِ مَعَ عَدَمِ تَقَيُّدِهِ بِها ، وقَدْ حُلَّتْ لَهُ رُمُوزُ الوجُودِ ومُعْضَلاتُ المَشاكِلِ .

ولَوْ أَنَّ رَجُلاً سارَ مَعَ (الخَضِر) عليه السلام ، وحَلَّ لَـهُ المَشاكِلَ كَما حَلَّها لِسَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام ، لَما بَقِيَ في قَلْبِهِ عَلَيْـهِ اعتِراضٌ فِيما يَصْنَعُ ، مَهما خَفِيَ عَلَيْهِ سِرُّهُ ، فَكَيْفَ بِمَنْ عَلَّمَهُ رَبُّ الخَضِرِ ؟

وانْظُرْ أَدَبَ (الخَضِر) عليه السلام ، حَيْثُ قالَ في السَّفِينَة : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ (١) وفي الغُلام : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ (٢) إِنَّما قالَ : فأَرَدْنا ، لِنِسْبَةِ الخَيْرِ لِلهِ ، ولِأَنَّ ذَلِكَ مُتَرَتِّبٌ عَلَى القَتْلِ فأَرادَ نِسْبَتَهُ لِنَفْسِهِ ، وقالَ : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (٣) ، لأَنَّهُ خَيْرٌ مَحْضٌ ، ذَلِكَ اللَّائِقُ بِأَدَبِ العُبُودِيَّةِ الكامِلَة .

الكَشْف

قالَ العارِفُ بِاللهِ ابْنُ عَجِيبَة : الفِراسَةُ : هِيَ خاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَى القَلْبِ ، أَو وارِدٌ يَتَجَلَّى فِيهِ ، لا يُخْطِيءُ غالِباً إِذا صَفا القَلْبُ ، وفي الحَدِيثِ اتَّقُوا فِراسَةَ المُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ (٤) ، وهِيَ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ القُرْبِ والمَعْرِفَةِ ، فَكُلَّما

---

(١) سُورَةُ الكَهْفِ مِنَ الآيَة ٧٩ .
(٢) سُورَةُ الكَهْفِ الآيَة ٨١ .
(٣) سُورَةُ الكَهْفِ مِنَ الآيَة ٨٢
(٤) أخرجَهُ التِّرْمِذِي عَنْ أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه .

قَوِيَ القُرْبُ ، وتَمَكَّنَتِ المَعْرِفَةُ صَدَقَتِ الفِراسَةُ ، لِأَنَّ الرُّوحَ إذا قَرُبَتْ مِنْ حَضْرَةِ الحَقِّ لا يَتَجَلَّى فِيها غالِباً إلاَّ الحَقُّ)[١].

والكَشْفُ نُورٌ يَحْصُلُ لِلسَّالِكينَ في سَيْرِهِمْ إِلَى اللهِ تَعالَى ، يَكْشِفُ لَهُم حِجابَ الحِسِّ ، ويُزِيلُ دُونَهُم أَسْبابَ المادَّةِ نَتِيجَةً لِما يَأْخُذُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مُجاهَدَةٍ وخَلْوَةٍ وذِكْرٍ ، فَتَنْعِكسُ أَبْصارُهُم في بَصائِرِهِمْ ، فَيَنْظُرُونَ بِنُورِ اللهِ وتَنْمَحِي أَمامَهُم مَقاييسُ الزَّمانِ والمَكانِ ، فَيَطَّلِعُونَ عَلَى عَوالِمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ اطِّلاعاً لا يَسْتَطِيعُهُ مَنْ لا يَزالُ في قَيْدِ الشَّهَواتِ والشُّكُوكِ والبِدَعِ العَقائِدِيَّةِ والوَساوِسِ الشَّيْطانِيَّةِ ، ولا تَتَّسِعُ لَهُ إِلاَّ تِلْكَ القُلُوبُ النَّيِّرَةُ السَّلِيمَةُ الَّتي زالَتْ عَنْها ظُلُماتُ الدُّنْيا وغَواشِيها ، وانْقَشَعَتْ عَنْها غُيُومُ الشُّكُوكِ ووَساوِسُها ، وكَثافَةُ المادِيَّاتِ وأَوْضارُها .

نَعَمْ .. إِنَّ مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ المَحارِمِ ، وكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ ، وعَمَّرَ باطِنَهُ بِمُراقَبَةِ اللهِ تَعالَى ، وتَعَوَّدَ أَكْلَ الحَلالِ ، لَمْ يُخْطِئْ كَشْفُهُ وفِراسَتُهُ ، ومَنْ أَطْلَقَ نَظَرَهُ إِلَى المُحَرَّماتِ تَنَفَّسَتْ نَفْسُهُ الظَّلْمانِيَّةُ في مِرْآةِ قَلْبِهِ فَطَمَسَتْ نُورَها .

ويَرْجِعُ هَذا الكَشْفُ إِلَى أَنَّ العَبْدَ إِذا انْصَرفَ عَنِ الحِسِّ الظَّاهِرِ إِلَى الحِسِّ الباطِنِ تَغَلَّبَتْ رُوحُهُ عَلَى نَفْسِهِ الحَيَوانِيَّةِ المُتَلَبِّسَةِ بِبَدَنِهِ (والرُّوحُ لِطَيفَةٌ كَشَّافَةٌ) فَيَحْصُلُ لَهُ حِينَئِذٍ الكَشْفُ ، ويَتَلَقَّى وارداتِ الإِلْهام .

يَقُولُ حُجَّةُ الإِسْلامِ الغَزالِي : (إِنَّ جِلاءَ القَلْبِ وإِبْصارَهُ يَحْصُلُ بِالذِّكْرِ ، وإِنَّهُ لا يَتَمَكَّنُ مِنْهُ إِلاَّ الَّذينَ اتَّقَوا ، فالتَّقْوَى بابُ الذِّكْرِ ، والذِّكْرُ بابُ الكَشْفِ والكَشْفُ بابُ الفَوْزِ الأَكْبَر ، وهُوَ الفَوْزُ بِلِقاءِ اللهِ تَعالَى)[٢].

وقالَ المُؤَرِّخُ (ابْنُ خَلْدُون) فِيما نَحْنُ بِصَدَدِهِ : (ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ المُجاهَدَةَ

---

(١) مِعْراجُ التَّشَوُّف .

(٢) إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين (الإِمامُ الغَزالي) .

والخَلْوَةَ والذِّكْرَ يَتْبَعُها غالِباً كَشْفُ حِجابِ الحِسِّ ، والاطِّلاعُ عَلَى عَوالِمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ لَيْسَ لِصاحِبِ الحِسِّ إِدْراكُ شَيْءٍ مِنْها ؛ والرُّوحُ مِنْ تِلْكَ العَوالِمِ . وسَبَبُ هَذا الكَشْفِ أَنَّ الرُّوحَ إذا رَجَعَ عَنِ الحِسِّ الظَّاهِرِ إِلَى الباطِنِ ، ضَعُفَتْ أَحْوالُ الحِسِّ ، وقَوِيَتْ أَحْوالُ الرُّوحِ ، وغَلَبَ سُلْطانُهُ ، وتَجَدَّدَ نُشُوؤُهُ ، وأَعانَ مَعَ ذَلِكَ الذِّكْرُ : فَإِنَّهُ كالغِذاءِ لِتَنْمِيَةِ الرُّوحِ ، ولا يَزالُ في نُمُوٍّ وتَزايُدٍ إِلَى أَنْ يَصِيرَ شُهُوداً ، بَعْدَ أَنْ كانَ عِلْماً ، ويُكْشَفُ حِجابُ الحِسِّ ، ويَتِمُّ صَفاءُ النَّفْسِ الَّذي لَها مِنْ ذاتِها ، وهُوَ عَيْنُ الإِدْراكِ ، فَيَتَعَرَّضُ حِينَئِذٍ لِلْمَواهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ والعُلُومِ اللَّدُنِيَّةِ والفَتْحِ الإِلَهِي ... إِلَى أَنْ قالَ : وهَذا الكَشْفُ كَثِيراً ما يَعْرِضُ لِأَهْلِ المُجاهَدَةِ ؛ فَيُدْرِكُونَ مِنْ حَقائِقِ الوُجُودِ مالا يُدْرِكُ سِواهُم .. وقَدْ كانَ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم عَلَى مِثْلِ هَذِهِ المُجاهَدَةِ ، وكانَ حَظُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الكَراماتِ أَوْفَرَ الحُظُوظِ .

وفي فَضائِلِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ وعَلِيٍّ كَثِيرٌ مِنْها ، وتَبِعَهُم في ذَلِكَ أَهْلُ الطَّرِيقَةِ مِمَّنِ اشْتَمَلَتِ الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّةُ عَلَى ذِكْرِهِمْ ، ومَنْ تَبِعَ طَرِيقَتَهُم مِنْ بَعْدِهِم)[1].

وهَذا الكَشْفُ وِراثَةٌ مُحَمَّدِيَّةٌ صادِقَةٌ ، وَرِثَها أَهْلُ بَيْتِهِ وأَصْحابُهُ رضي الله عنهم ، بِسَبَبِ صِدْقِهِم وتَصْدِيقِهِم وصَفاءِ سَرِيرَتِهِم .

الكَشْفُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ :

وقَبْلَ أَنْ نَذْكُرَ شَيْئاً عَنْ هَؤُلاءِ المُوَرَّثِينَ مِنَ الصَّحابَةِ ومَنْ بَعْدَهُم ، نَذْكُرُ نَوْعاً مِنْ كَشْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذي مَنَحَهُ اللهُ إِيَّاهُ ، عَلَى أَنَّ الكَشْفَ لَهُ مُعْجِزَةٌ ، ولِلصَّحابَةِ ولِلْأَوْلِياءِ مِنْ بَعْدِهِ كَرامَةٌ ، وكُلُّ كَرامَةٍ لِوَلِيٍّ فَهِيَ مُعْجِزَةٌ لِنَبِيِّهِ ﷺ .

---

(١) مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُون .

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : أُقِيمَتِ الصَّلاةُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِوَجْهِهِ فَقالَ (أَقِيمُوا صُفُوفَكُم وتَراصُّوا ، فَإِنِّي أَراكُم مِنْ وَراءِ ظَهْرِي)(١).

ولَمَّا كانَ الكَشْفُ بَعِيداً عَنْ عالَمِ الحِسِّ ، ويَنْمَحِي أَمامَهُ المِقْياسُ الزَّمانِي والمَكانِي ، لِذَلِكَ كانَ ﷺ يَسْتَوِي عِنْدَهُ في الرُّؤْيَةِ القُرْبُ والبُعْدُ :

يَقُولُ أَنَسٌ رضي الله عنه : بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْداً وجَعْفَراً وابْنَ رَواحَةَ ، ودَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى زَيْدٍ ، فأُصِيبُوا جَمِيعاً ، فَنعاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ الخَبَرُ ، فَقالَ ﷺ : (أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَها جَعْفَرُ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَها عَبْدُاللهِ بنُ رَواحَةَ فَأُصِيبَ ، .. وإِنَّ عَيْنَي رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفانِ .. ثُمَّ أَخَذَها خالِدُ بنُ الوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ ، فَفُتِحَ لَهُ)(٢). قالَهُ ﷺ يَوْمَ غَزْوَةِ مُؤْتَة .

الكَشْفُ فِي القُرْآنِ الكَرِيم :

قالَ اللهُ تَعالَى فِي حَقِّ سَيِّدِنا إِبْراهِيمَ الخَلِيلِ عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾(٣).

وكَذَلِكَ ما أَخْبَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَنِ (الخَضِرِ) عليه السلام ، حِينَ صَحِبَ سَيِّدَنا (مُوسَى) عليه السلام فِي المَسائِلِ الثَّلاثِ :

الأُولَى : انْكَشَفَ لِسَيِّدِنا (الخَضِرِ) أَنَّ السَّفِينَةَ الَّتِي رَكِبَها مَجَّاناً فِي طَرِيقِهِم عَبْرَ البَحْرِ ، سَيَأْخُذُها مَلِكٌ غاشِمٌ ظُلْماً ، فَخَرَقَها لِيَعِيبَها ولِيُنْقِذَها مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الغاصِبِ مُكافَأَةً لِلْمَعْرُوفِ بِالمَعْرُوفِ :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾(٤).

(١ ، ٢) أخرجَهُ (البُخاري) و(مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهِما . (٣) سُورَةُ الأَنْعام الآيَة ٧٥ .
(٤) سُورَةُ الكَهْف الآيَة ٧٩ .

الثَّانِيَةُ : كُشِفَ لَهُ عَنِ الغُلامِ ؛ إِنْ بَقِيَ حَيَّاً فَسَيَقْتُلُ أَبَوَيْهِ فِي كِبَرِهِ ، ويُوقِعُهُما فِي الكُفْرِ ، فَقَتَلَهُ رَحْمَةً بِأَبَوَيْهِ المُؤْمِنَيْنِ ، واسْتِجابَةً لإِرادَةِ اللهِ تَعالَى بِإِبْدالِهِ خَيْراً مِنْهُ زَكاةً ورَحْمَةً :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١ ﴾(١)

الثَّالِثَةُ : كُشِفَ لَهُ الكَنْزُ الَّذي تَحْتَ الجِدارِ ، وكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنْ أَبٍ صالِحٍ ، فَأَقامَ الجِدارَ حِفْظاً لِلْكَنْزِ ، ورَحْمَةً لِلْغُلامَيْنِ ، ومَحَبَّةً لأَبِيهِما الصَّالِحِ ، بِلا أَجْرٍ وبِلا مُقابِلٍ ، مُرُوءَةً وإِخْلاصاً : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾(٢)

❁ والكَشْفُ عِنْدَ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم :

❁ الكَشْفُ عِنْدَ سَيِّدِنا (أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق) رضي الله عنه

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) رضي الله عنها : (أَنَّ أَبا بَكْرٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ ، دَعاها فَقالَ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي أَهْلِي بَعْدِي أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ غِنًى مِنْكِ ، ولا أَعَزَّ عَلَيَّ فَقْراً مِنْكِ وإِنِّي كُنْتُ نَحَلْتُكِ(٣) مِنْ أَرْضٍ بِالعالِيَةِ جِدادَ(٤) عِشْرِينَ وَسْقاً(٥) ، فَلَوْ كُنْتِ جَدَدْتِهِ تَمْراً عاماً واحِداً انْحازَ لَكِ ، وإِنَّما هُوَ مالُ الوارِثِ ، وإِنَّما هُما أَخَواكِ وأُخْتاكِ ، فَقُلْتُ : إِنَّما هِيَ أَسْماءُ ، فَقالَ : وذاتُ بَطْنِ ابْنَةِ خارِجَةَ ، قَدْ أُلْقِيَ فِي رَوْعِي أَنَّها جارِيَةٌ فاسْتَوْصِي بِها خَيْراً ، فَوَلَدَتْ أُمَّ كُلْثُومَ)(٦) .

---

(١) سُورَةُ الكَهْف الآيتان ٨٠ ، ٨١ .
(٢) سُورَةُ الكَهْف الآيَة ٨٢
(٣) النِّحْلَةُ : العَطِيَّةُ والهِبَةُ ابْتِداءً مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ ولا اسْتِحْقاقٍ .
(٤) الجَدادُ : صِرامُ النَّخْلِ وهُوَ قَطْعُ ثَمَرَتِها .
(٥) الوَسْقُ : سِتُّونَ صاعاً أَو حِمْلُ بَعِيرٍ .
(٦) أخرجه ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقات .

قالَ التَّاجُ السُّبْكي : (وفيهِ كرامَتانِ لأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه :

إِحْداهُما : إِخْبارُهُ أَنَّهُ يَمُوتُ في ذَلِكَ المَرَضِ ، حَيْثُ قالَ : وإِنَّما هُوَ اليَوْمَ مالُ وارِث .

والثَّانِيَةُ : إِخْبارُهُ بِمَوْلُودٍ يُولَدُ لَهُ ، وهُوَ جارِيَةٌ ، والسِّرُّ في إِظْهارِ ذَلِكَ اسْتِطابَةُ قَلْبِ (عائِشَةَ) رضي الله عنها في اسْتِرْجاعِ ما وَهَبَهُ لَها ولَمْ تَقْبِضْهُ ، وإِعلامُها بِمِقْدارِ ما يَخُصُّها ، لِتَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ ، فَأَخْبَرَها بِأَنَّهُ مالُ وارِثٍ ، وأَنَّ مَعَها أَخَوَيْنِ وأُخْتَيْنِ)[1].

الكَشْفُ عِنْدَ سَيِّدِنا (عُمَرَبنِ الخَطَّابِ) رضي الله عنه

وقَدْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ مِنَ المُلْهَمِينَ :

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَقَدْ كانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ ناسٌ مُحَدَّثُونَ ، فَإِنْ يَكُ في أُمَّتي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ)[2].

فَإِنَّ أُمَّتَهُ ﷺ أَفْضَلُ الأُمَمِ ، وإِذا ثَبَتَ أَنَّهُم وُجِدوا في غَيْرِها فَوجُودُهُم فِيها أَوْلَى ، وإِنَّما أَوْرَدَهُ مَوْرِدَ التَّأْكِيدِ ، كَقَوْلِ القائِلِ : إِنْ كانَ لِي صَدِيقٌ فَفُلانٌ ، يُرِيدُ اخْتِصاصَ كَمالِ الصَّداقَةِ لا نَفْيَها عَنْ غَيْرِهِ .

والمُحَدَّثُ : هُوَ المُلْهَمُ الصَّادِقُ الظَّنِّ ، وهُوَ مَنْ أُوقِعَ في قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ قِبَلِ المَلأِ الأَعْلَى ، فَيَكُونُ كالَّذي حَدَّثَهُ غَيْرُهُ .

قالَ التَّاجُ السُّبْكي : (كانَ عُمَرُ رضي الله عنه قَدْ أَمَّرَ سارِيَةَ بنَ زَنِيم عَلَى جَيْشٍ مِنْ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ ، وجَهَّزَهُ عَلَى بِلادِ فارِس ، فاشْتَدَّ عَلَى عَسْكَرِهِ الحالُ عَلَى بابِ نَهاوَنْد وهُوَ يُحاصِرُها ، وكَثُرَتْ جُمُوعُ الأَعْداءِ ، وكادَ المُسْلِمُونَ يَنْهَزِمُونَ وعُمَرُ رضي الله عنه بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ، فَصَعَدَ المِنْبَرَ وخَطَبَ ، ثُمَّ اسْتَغاثَ في أَثْناءِ

---

(١) حُجَّةُ اللهِ عَلى العالَمين (يُوسُفُ النَّبهاني) .

(٢) أَخْرَجَهُ (البُخاريُّ) و(مُسْلِمٌ) في صَحيحَيْهِما .

خُطْبَتِهِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : (يا سارِيَةُ ! الجَبَلَ . مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ الغَنَمَ فَقَدْ ظَلَمَ) .

فَأَسْمَعَ اللهُ سارِيَةَ وجَيْشَهُ أَجْمَعِينَ ، وهُمْ عَلَى بابِ نَهاوَنْد صَوْتَ سَيِّدِنا عُمَرَ فَلَجَأُوا إِلَى الجَبَلِ ، وقالُوا هَذا صَوْتُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، فَنَجَوا وانْتَصَرُوا) .

وقالَ التَّاجُ السُّبْكي : (لَمْ يَقْصِدْ إِظْهارَ الكَرامَةِ ، وإِنَّما كُشِفَ لَهُ ، ورَأَى القَوْمَ عَياناً ، وكانَ كَمَنْ هُوَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حَقِيقَةً ، وغابَ عَنْ مَجْلِسِهِ بِالمَدِينَةِ واشْتَغَلَتْ حَواسُّهُ بِما دَهَمَ المُسْلِمِينَ ، فَخاطَبَ أَمِيرَهُمْ خِطابَ مَنْ هُوَ مَعَهُ)(١) ، فَفِي هَذِهِ القِصَّةِ شَيْئان :

الأَوَّل : الكَشْفُ الصَّحِيحُ والرُّؤْيَةُ العَيانِيَّةُ عَلَى بُعْدِ آلافِ الأَمْيالِ ، وأَيْنَ (الفَضائِيَّات) في مِثْلِ هَذِهِ القِصَّةِ الواقِعَةِ قَبْلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْناً ؟

الثَّاني : إِبْلاغُ صَوْتِهِ سارِيَةَ عَلَى هَذا البُعْدِ الشَّاسِعِ .

ورَأَى سَيِّدُنا (عُمَرُ) رضي الله عنه قَوْماً مِنْ (مَذْحَج) فِيهِم (الأَشْتَرُ) ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهِ وصَوَّبَ ، ثُمَّ قالَ : (قاتَلَهُ اللهُ إِنِّي لَأَرَى لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُ يَوْماً عَصِيباً فَكانَ مِنْهُ ما كان)(٢) .

وأَخْرَجَ ابْنُ عَساكِرَ عَنْ طارِقِ بنِ شِهابٍ ، قالَ : (إِنْ كانَ الرَّجُلُ لَيُحَدِّثُ عُمَرَ بِالحَدِيثِ فَيَكْذِبُهُ الكِذْبَةَ فَيَقُولُ : احْبِسْ هَذِهِ ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُ بِالحَدِيثِ فَيَقُولُ : احْبِسْ هَذِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : كُلُّ ما حَدَّثْتُكَ حَقٌّ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي أَنْ أَحْبِسَه)(٣) .

وأَخْرَجَ عَنِ الحَسَنِ قالَ : (إِنْ كانَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الكَذِبَ إِذا حُدِّثَ فَهُوَ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب)(٤) .

---

(١) حُجَّةُ اللهِ عَلَى العالَمِين (يُوسُفُ النَّبْهاني) .

(٢) فَيْضُ القَدِير شَرْحُ الجامِعِ الصَّغِير (المَناوِي) .

(٣ ، ٤) تارِيخُ الخُلَفاء (جَلالُ الدِّين السُّيُوطي) .

وأَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ في الدَّلائِلِ عَنْ أَبي هَدِيَّةَ الحِمْصِي ، قالَ : (أُخْبِرَ عُمَرُ بِأَنَّ أَهْلَ العِراقِ حَصَبُوا أَمِيرَهُم ، فَخَرَجَ غَضْبانَ ، فَصَلَّى فَسَهَا في صَلاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قالَ : اللهُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ لَبَّسُوا عَلَيَّ فَأَلْبِسْ عَلَيْهِمْ ، وعَجِّلْ عَلَيْهِمْ بِالغُلامِ الثَّقَفِي يَحْكُمُ فِيهِم بِحُكْمِ الجَّاهِلِيَّةِ ، لا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِهِم ، ولا يَتَجاوَزُ عَنْ مُسِيئِهِم) .

قُلْتُ : أَشارَ بِهِ إِلَى الحَجَّاج ، قالَ ابْنُ لَهِيعَة : وما وُلِدَ الحَجَّاجُ يَوْمَئِذٍ)[١] .

۞الكَشْفُ عِنْدَ سَيِّدِنا (عُثْمانَ بنِ عَّفان)رضي الله عنه

ذَكَرَ التَّاجُ السُّبْكي في الطَّبَقاتِ ، وغَيْرُهُ : (أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى (عُثْمانَ) رضي الله عنه رَجُلٌ ، كانَ قَدْ لَقِيَ امْرَأَةً في الطَّرِيقِ ، فَتَأَمَّلَها ، فَقالَ لَهُ (عُثْمانُ) رضي الله عنه : يَدْخُلُ أَحَدُكُم ، وفي عَيْنَيْهِ أَثَرُ الزِّنا ! فَقالَ الرَّجُلُ : أَوَحْيٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ؟ قالَ : لا ، ولَكِنَّها فِراسَةُ المُؤْمِن) ، وإِنَّما أَظْهَرَ سَيِّدُنا (عُثْمانُ) هَذا تَأْدِيباً لِلرَّجُلِ ، وزَجْراً لَهُ عَنْ شَيْءٍ فَعَلَهُ ![٢]

۞الكَشْفُ عِنْدَ سَيِّدِنا (عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه

وهُوَ الَّذِي رَبَّاهُ رَسُولُ الله ﷺ في حِجْرِهِ ، ولَمَّا آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَصْحابِهِ قالَ لَهُ : (أَنْتَ أَخِي)[٣] ، وقالَ لَهُ أَيْضاً : (أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارونَ مِنْ مُوسَى ؟)[٤] .

عَنِ الأَصْبُغِ قالَ : أَتَيْنا مَعَ (عَلِيٍّ) فَمَرَرْنا بِمَوْضِعِ قَبْرِ (الحُسَيْن) ، فَقالَ عَلِيٌّ : (هَهُنا مَناخُ رِكابِهِم ، وهَهُنا مَوْضِعُ رِحالِهِم ، وهَهُنا مِهْراقُ دِمائِهِمْ ، فِتْيَةٌ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْتَلُونَ بِهَذِهِ العَرْصَةِ ، تَبْكِي عَلَيْهِم السَّماءُ والأَرْضُ)[٥] .

---

(١) تارِيخُ الخُلَفاء (جَلالُ الدِّين السُّيُوطي) .
(٢) حُجَّةُ اللهِ عَلَى العالَمِين (يُوسُفُ النَّبَهاني) .
(٣) أخرجَهُ التِّرْمِذِي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه .
(٤) أخرجَهُ البُخاري عَنْ سَعْدِ أَبي وَقَّاص رضي الله عنه .
(٥) الرِّياضُ النَّضِرَة في مَناقِبِ العَشَرَة (المُحِبُّ الطَّبَرِي) .

وقالَ (عَلِيٌّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، لِأَهْلِ الكُوفَة : (سَيَنْزِلُ بِكُمْ أَهْلُ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِكُمْ فَلَمْ يُغاثُوا) ، فَكانَ مِنْهُمْ في شَأْنِ الإمامِ (الحُسَيْن) رضي الله عنه ما كانَ[1].

ولَوْ أَرَدْنا أَنْ نَسْتَقْصِيَ تَراجِمَ الصَّحابَةِ الكِرامِ رضي الله عنهم في كَشْفِهِم وفِراسَتِهِم ، لَخَرَجْنا عَنْ مَوضُوعِنا في بَيانِنا هَذا .

كَشْفُ العارِفينَ مِنْ أَوْلِياءِ اللهِ الصَّالِحين :

رُوِيَ عَنِ الإمامِ (الشَّافِعِيِّ) و(مُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ) رَحِمَهُما اللهُ تَعالَى : (أَنَّهُما كانا بِفِناءِ الكَعْبَةِ ، ورَجُلٌ عَلَى بابِ المَسْجِدِ ، فَقالَ أَحَدُهُما : أَراهُ نَجَّاراً ، وقالَ الآخَرُ : بَلْ حَدَّاداً ، فَتَبادَرَ مَنْ حَضَرَ إِلَى الرَّجُلِ ، فَسَأَلَهُ فَقالَ : كُنْتُ نَجَّاراً وأَنا اليَوْمَ حَدَّادٌ)[2].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخَرَّاز ، قالَ : (دَخَلْتُ المَسْجِدَ الحَرامَ ، فَرَأَيْتُ فَقِيراً عَلَيْهِ خِرْقَتان ، فَقُلْتُ في نَفْسِي : هَذا وأَشْباهُهُ كَلٌّ عَلَى النَّاسِ ، فَنادانِي وقالَ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾[3]، فاسْتَغْفَرْتُ اللهَ في سِرِّي ، فَنادانِي وقالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾[4]، ثُمَّ غابَ عَنِّي ، ولَمْ أَرَه)[5].

وَمِثْلُ هَذا وَقَعَ لِغَيْرِهِ ، يَقُولُ خَيْرُ النَّسَّاج : (كُنْتُ جالِساً في بَيْتِي ، فَوَقَعَ لِي أَنَّ الجُنَيْدَ بِالبابِ ، فَنَفَيْتُ عَنْ قَلْبِي ذَلِكَ ، فَوَقَعَ ثانِياً وثالِثاً ، فَخَرَجْتُ ، فَإِذا الجُنَيْدُ ، فَقالَ : لِمَ لَمْ تَخْرُجْ مَعَ الخاطِرِ الأَوَّل)[6].

وحُكِيَ عَنْ (إِبْراهِيم الخَوَّاص) أَنَّهُ قالَ : (كُنْتُ في بَغدادَ في جامِعِ المَدِينَةِ وهُناكَ جَماعَةٌ مِنَ الفُقَراءِ ، فَأَقْبَلَ شابٌّ ظَرِيفٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ ، حَسَنُ الوَجْهِ

---

(١) فَيْضُ القَديرِ شَرْحُ الجامِعِ الصَّغيرِ (المُناوِي) (٢) تَفسيرُ القُرطُبِي .
(٣) سُورَةُ البَقَرةِ مِنَ الآيَةِ ٢٣٥ . (٤) سُورَةُ الشُّورَى مِنَ الآيَةِ ٢٥ .
(٥) إِحياءُ عُلُومِ الدِّينِ (الإمامُ الغَزالي) . (٦) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّةُ .

فَقُلْتُ لأَصْحابِنا : يَقَعُ لِي أَنَّهُ يهُودِي ، فَكُلُّهُم كَرِهُوا ذَلِكَ ، فَخَرَجْتُ وخَرَجَ الشَّابُّ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وقالَ : إِيش قالَ الشَّيْخُ ؟ فاحْتَشَمُوهُ ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ فَقالُوا : قالَ : إِنَّكَ يَهُودِي .

قالَ : فَجاءَنِي ، وأَكَبَّ عَلَى يَدَيَّ وأَسْلَمَ ، فَقِيلَ : ما السَّبَبُ ؟

قالَ : نَجِدُ فِي كُتُبِنا أَنَّ الصِّدِّيقَ لا تُخْطِيءْ فِراسَتُهُ ، فَقُلْتُ : أَمْتَحِنُ المُسْلِمِينَ فَتَأَمَّلْتُهُم فَقُلْتُ : إِنْ كانَ فِيهِم صِدِّيقٌ فَفِي هَذهِ الطَّائِفَةِ ، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ حَدِيثَهُ سُبْحانَهُ ، فَلَبَّسْتُ عَلَيْهِم ، فَلَمَّا اطَّلَعَ عَلَيَّ وتَفَرَّسَ فِيَّ عَلِمْتُ أَنَّهُ صِدِّيقٌ وصارَ الشَّابُّ مِنْ كِبارِ الصُّوفِيَّة)[١].

ولا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ هَذا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ لِلّهِ عِباداً يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّم)[٢].

ووَقَفَ (نَصرانِيٌّ) عَلَى (الجُنَيْد) وهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي الجامِعِ عَلَى النَّاسِ ، فَقالَ أَيُّها الشَّيْخُ ! ما مَعْنَى حَدِيث : (اتَّقُوا فِراسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ)[٣] فَأَطْرَقَ الجُنَيْدُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وقالَ : أَسْلِمْ فَقَدْ جاءَ وَقْتُ إِسْلامِكَ ، فَأَسْلَمَ الغُلامُ[٤].

وحَدِيثُ الفِراسَةِ أَصْلٌ فِي الكَشْفِ الَّذي يَقَعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الأَوْلِياءِ ، وما حُكِيَ مِنْ فِراسَةِ المَشايِخِ وإِخْبارِهِمْ عَنِ اعْتِقاداتِ النَّاسِ وضَمائِرِهِمْ يَخْرُجُ عَنِ الحَصْرِ .

قالَ تاجُ الدِّينِ السُّبْكي : (اعْلَمْ أَنَّ المَرْءَ إِذا صَفا قَلْبُهُ صارَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ فَلا يَقَعُ بَصَرُهُ عَلَى كَدَرٍ أَو صافٍ إِلاَّ عَرَفَهُ ، ثُمَّ تَخْتَلِفُ المَقاماتُ ، فَمِنْهُم مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ هُناكَ كَدَراً ولا يَدْرِي ما أَصْلُهُ ، ومِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ أَعْلَى مِنْ هَذا

---

(١) الرِّسالَةُ القُشَيْرِيَّة .

(٢) أَخْرَجَهُ (البَزَّارُ) و(الطَّبراني) فِي الأَوْسَطِ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ .

(٣) أَخرجَهُ التِّرْمِذِي مِنْ حَدِيثِ أَبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ . (٤) الفَتاوَى الحَدِيثِيَّة (ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي) .

المَقامِ فَيَدْرِي أَصْلَهُ ، كَما اتَّفَقَ لِعُثْمانَ ﷺ ، فَإِنَّ تَأَمُّلَ الرَّجُلِ لِلمَرْأَةِ أَوْرَثَهُ كَدراً ، فَأَبْصَرَهُ سَيِّدُنا عُثْمانُ ، وفَهِمَ سَبَبَهُ .

وهُنا دَقِيقَةٌ : وهِيَ أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ لَها كَدَرٌ ، وتُورِثُ نُكْتَةً سَوْداءَ في القَلْبِ فَيَكُونُ رَيْناً ، كَما قالَ تَعالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1]، إِلَى أَنْ يَسْتَحْكِمَ والعِياذُ بِاللهِ ، فَيُظْلِمُ القَلْبُ ، وتُغْلَقُ أَبْوابُ النُّورِ دونَهُ فَيُطْبَعُ عَلَيْهِ ، فَلا يَبْقَى سَبِيلٌ إِلَى التَّوْبَةِ ، كَما قالَ تَعالَى :

﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[2].

إِذا عَرَفْنا هَذا ، فالصَّغِيرَةُ مِنَ المَعاصِي تُورِثُ كَدَراً صَغِيراً بِقَدْرِها قَرِيبَ المَحْوِ بِالاسْتِغْفارِ وغَيْرِهِ مِنَ المُكَفِّراتِ ، ولا يُدْرِكُهُ إِلاَّ ذُو بَصَرٍ حادٍّ كَعُثْمانَ ﷺ ، حَيْثُ أَدْرَكَ هَذا الكَدَرَ اليَسِيرَ ، فَإِنَّ تَأَمُّلَ المَرْأَةِ والنَّظَرَ إِلَيْها أَدْرَكَهُ سَيِّدُنا عُثْمانُ وعَرَفَ أَصْلَهُ[3] . وهَذا مَقامٌ عالٍ يَخْضَعُ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ المَقاماتِ .

وإِذا انْضَمَّ إِلَى الصَّغِيرَةِ صَغِيرَةٌ أُخْرَى ازْدادَ الكَدَرُ ، وإِذا تَكاثَرَتِ الذُّنُوبُ حَتَّى وَصَلَتْ (والعِياذُ بِاللهِ) إِلَى ما وَصَفْناهُ مِنْ ظَلامِ القُلُوبِ صارَ بِحَيْثُ يُشاهِدُهُ كُلُّ ذِي بَصَرٍ ، فَمَنْ رَأَى مُتَضَمِّخاً بِالمَعاصِي قَدْ أَظْلَمَ قَلْبُهُ ؛ ولَمْ يَتَفَرَّسْ فِيهِ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّما لَمْ يُبْصِرْهُ لِما عِنْدَهُ مِنَ العَمَى المانِعِ

---

(١) سُورَةُ المُطَفِّفِينَ الآيَة ١٤ . (٢) سُورَةُ التَّوْبَة مِنَ الآيَة ٨٧ .

(٣) قالَ العَلاَّمَةُ الأَلوسِي في كِتابِهِ (رُوحُ المَعانِي) عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ .(النُّور : ٣٠

(ثُمَّ إِنَّ غَضَّ البَصَرِ عَمَّا يَحْرُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ واجِبٌ . ونَظْرَةُ الفَجْأَةِ (لا تَعَمُّدَ فِيها مَعْفُوٌّ عَنْها فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذِيُّ وغَيْرُهُما عَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ قالَ : رَسُولُ اللهِ ﷺ : لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ . فَإِنَّ لَكَ الأُولَى ولَيْسَتْ لَكَ الآخِرَة.

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : (كُلُّ عَيْنٍ زانِيَةٌ) - أَخْرَجَهُ الطَّبَرانِي - وعَنْ عَلْقَمَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : (زِنا العَيْنَيْنِ النَّظَرُ) - أَخْرَجَهُ الطَّبَرانِي .

وعَنْ عَبْدِاللهِ بِنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّ العِزَّةِ عَزَّ وجَلَّ :

(النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهامِ إِبْلِيسَ . مَنْ تَرَكَها مِنْ مَخافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيماناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ في قَلْبِهِ) - أَخْرَجَهُ الطَّبَرانِي والحاكِم - .

وعَنْ أَبِي أُمامَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : (لَتَغُضُّنَّ أَبْصارَكُمْ ولَتَحْفَظُنَّ فُرُوجَكُمْ ، أَو لَيَكْسِفَنَّ اللهُ وجُوهَكُم) - أَخرجَهُ الطَّبراني .

وعَنْهُ أَيْضاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : (ما مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلى مَحاسِنِ امْرَأَةٍ ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلاَّ أَحْدَثَ لَهُ اللهُ عِبادَةً يَجِدُ حَلاوَتَها في قَلْبِه) أَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَد .

لِلْإِبْصارِ ، وإلاَّ فَلَوْ كانَ بَصِيراً لَأَبْصَرَ هَذا الظَّلامَ الدَّاجِي ، فَبِقَدْرِ بَصَرِهِ يُبْصِرُ ، فافْهَمْ ما نُتْحِفُكَ بِهِ)[١].

فالفِراسَةُ أَمْرٌ جائِزُ الوقُوعِ ، وهِيَ مِنْحَةٌ إِلَهِيَّةٌ يُكْرِمُ اللهُ بِها عِبادَهُ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِدِينِهِم ، وحَفِظُوا جَوَارِحَهُم ، وصَقَلُوا قُلُوبَهُم ، وهَذَّبُوا نُفُوسَهُم .

قالَ المَناوِي في شَرْحِ الجامِعِ الصَّغِيرِ عِنْدَ قَوْلِهِ ﷺ : إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ فِراسَةً ، وإِنَّما يَعْرِفُها الأَشْرافُ : (قاعِدَةُ الفِراسَةِ وأُسُّها : الغَضُّ عَنِ المَحارِمِ ، قالَ الكَرْماني : مَنْ عَمَّرَ ظاهِرَهُ بِاتِّباعِ السُّنَّةِ ، وباطِنَهُ بِدَوامِ المُراقَبَةِ ، وكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ ، وغَضَّ بَصَرَهُ عَنِ المُخالَفاتِ ، واعْتادَ أَكْلَ الحَلالِ لَمْ تُخْطِئْ فِراسَتُهُ أَبَداً ، فَمَنْ وُفِّقَ لِذَلِكَ أَبْصَرَ الحَقائِقَ عَياناً بِقَلْبِهِ)[٢].

وعَلَى كُلٍّ ، فالقُلُوبُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ صَقْلِها وتَنْظِيفِها مِنْ أَدْرانِ الذُّنُوبِ المُظْلِمَةِ ، فَهِيَ كالزُّجاجِ كُلَّما صُقِلَ ازْدادَ ثَمَنُهُ ، وكَشَفَ الجَراثِيمَ الَّتي لا تُرَى ، فَأَيْنَ زُجاجُ النَّافِذَةِ مِنْ زُجاجِ المِجْهَرِ الَّذي يَكْشِفُ الجَراثِيمَ الدَّقِيقَةَ ؟ وكَما لا يُقاسُ زُجاجُ النَّافِذَةِ بِزُجاجِ المِجْهَرِ ، كَذَلِكَ لا تُقاسُ القُلُوبُ الصَّافِيَةُ المَصْقُولَةُ بِالقُلُوبِ المُكَدَّرَةِ المُظْلِمَةِ ، ولا تُقاسُ المَلائِكَةُ بِالشَّياطِينِ .

فَمَنْ جَدَّ وَجَدَ ، ومَنْ سارَ عَلَى الطَّرِيقِ وَصَلَ ، ومَنْ أَتْقَنَ المُقَدِّمَةَ وَصَلَ إِلَى النَّتِيجَةِ ، والبِداياتُ تَدُلُّ عَلَى النِّهاياتِ .

---

(١) حُجَّةُ اللهِ عَلَى العالَمِين (يُوسُفُ اسماعِيلَ النَّبْهاني) .

(٢) فَيْضُ القَديرِ شَرْحُ الجامِعِ الصَّغِير (المَناوِي) .

قَدَمُ الصِّدْق

وإلَى هَذا المقامِ الإشارَةُ بِقَوْلِ الحَقِّ جَلَّ في عُلاه :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[1] ، ومَعْنَى القَدَمِ : هُوَ أَنَّهُ لَمَّا كانَ جَمِيعُ ما يَظْهَرُ مِنَ الإنْسانِ ؛ مِنْ أَقْوالِهِ ، وأَفْعالِهِ ، وأَوْصافِهِ وأَخْلاقِهِ ، وأَغْراضِهِ ، ومَقاصِدِهِ إلَى جَمِيعِ ما سِوَى ذَلِكَ كانَتْ جَمِيلَةً أَو قَبِيحَةً ، مُنْعَدِلَةً أَو مُنْحَرِفَةً ، عالِيَةً أَوْ سافِلَةً ، حَمِيدَةً أَو ذَمِيمةً ، فإنَّما ذَلِكَ مِنْ مُقْتَضَياتِ حَقِيقَةِ ولَوازِمِ صُورَةٍ مَعْلُومَتِيَّةٍ في العِلْمِ القَدِيمِ والذِّكْرِ الحَكِيمِ فَكُلُّ مَنْ كانَ جَمِيعُ ما يَجْرِي مِنْ أَفْعالِهِ ، وأَقْوالِهِ سَدِيداً مُعْتَدِلاً ، وما يَظْهَرُ مِنْ أَوْصافِهِ وأَحْوالِهِ جَمِيلاً ، وما يَبْدو مِنْ هِمَّتِهِ عالِياً مُسْتَقِيماً ، فَإِنَّ هَذا الإنْسانَ لَمْ يَكُنْ بِمُقْتَضَى ما كانَ عَلَيْهِ مِنَ الحَقِيقَةِ في العِلْمِ مُخالِفاً لِما تَقْتَضِيهِ عُلُومُ الطَّرِيقَةِ فَضْلاً عَنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ ، وهَذا هُوَ الإنْسانُ الَّذي لَهُ قَدَمُ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّه .

كامِلُ الصِّناعَة

وإلَى هَذا المَقامِ الإشارَةُ بِقَوْلِهِ تَعالَى :﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[2] .

وهُوَ الإنْسانُ الَّذي حَصَلَ لَهُ بِالفِعْلِ جَمِيعُ الكَمالاتِ الَّتي لِغَيْرِهِ بِالقُوَّةِ ، فَهُوَ الَّذي جَمَعَ الكَمالاتِ الَّتي في قُوَّةِ الإنْسانِ أَنْ يَبْلُغَها .

وهَذا هُوَ الَّذي فُتِحَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ جَمِيعِ اللُّغاتِ والعُلُومِ والصِّناعات .

---

(١) سُورَةُ يُونُس مِنَ الآيَة ٢ .

(٢) سُورَةُ طه مِنَ الآيَة ٣٩ .

الْخَلْوَةُ

- مُقَدِّمَةٌ مُهِمَّةٌ عَلَى أَعْتابِ الخَلْوَة :
- تَعْرِيفُ الخَلْوَة :
- كَيْفِيَّةُ دُخُولِ الخَلْوَة :
- طَرِيقَةُ التَّعَبُّدِ فِي الخَلْوَة :
- مَشْروعِيَّةُ الخَلْوَةِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ وأَقْوالِ عُلَماءِ الأُمَّةِ :
- أَنْواعُ الخَلْوَة :
- فَوائِدُ الخَلْوَة :

الخَلْوَة

مُقَدِّمَةٌ مُهِمَّةٌ عَلَى أَعْتابِ الخَلْوَة

مِنَ الجَهْلِ رَبْطُ رِضْوانِ اللهِ تَعالَى ورَحْمَتِهِ بِشُروطٍ وقَوانِينَ . فالمُصَلِّي مَثَلاً وإِنْ أَتَى بِكُلِّ فَرائِضِ الصَّلاةِ وسُنَنِها ومَنْدوباتِها ولَمْ يُغادِرْ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً في الصَّلاةِ إِلاَّ أَتَى بِها ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْزِمَ بِقَبُولِها أَوْ رَدِّها ، ولا يَزِيدُ عَلَى الدُّعاءِ بِالقَبُولِ وحُسْنِ الظَّنِّ ، وقِسْ عَلَيْهِ الصَّائِمَ والحاجَّ والمُعْتَمِرَ والمُتَفَكِّرَ في آياتِ اللهِ والمُتَصَدِّقَ وما إِلَيْها مِنْ أَنْواعِ العِباداتِ ، وعَلَيْهِ فَلا دَخْلَ لِلشُّروطِ في شَيْءٍ إِلاَّ إِحْسانَ العَمَلِ والإِتْيانَ بِهِ عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ والأَكْمَلِ ، كَأَنْ يُقالَ لِلْمُصَلِّي : أَحْسِنِ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ والقِيامَ والقِراءَةَ لِتَأْتِيَ بِالصَّلاةِ عَلَى أَكْمَلِ ما طُلِبَ مِنْكَ ، لا لِتُلْزِمَ (اللهَ) سُبْحانَهُ بِقَبُولِها .

ثُمَّ لَيْسَ المُرادُ مِنَ الخَلْوَةِ أَنْ يُصْبِحَ المُخْتَلِي مِنْ أَهْلِ الكَشْفِ والمَعْرِفَةِ أَوْ غَيْرِها ، بَلِ المَقْصُودُ هُوَ تَحْقِيقُ العُبُودِيَّةِ والمُراقَبَةِ لِلهِ تَعالَى .

فَفائِدَةُ الخَلْوَةِ هِيَ السَّلامَةُ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ والنَّظَرِ والقَلْبِ وصُحْبَةِ الأَشْرارِ وصِيانَةُ نَفْسِ ودِينِ الإِنْسانِ . والتَّفَرُّغُ لِلْعِبادَةِ والذِّكْرِ ، ووِجْدانُ حَلاوَةِ الطَّاعاتِ والتَّمَكُّنُ مِنَ المَعْرِفَةِ ، والارْتِقاءُ بِهَذِهِ الأَحْوالِ لِتَصِيرَ مَقاماً ، وأَمَّا ما يَحْصُلُ لِلْمُرِيدِ مِنْ مَعارِفَ في الخَلْوَةِ ومُكاشَفاتٍ فَهَذا مِنَ فَضْلِ اللهِ تَعالَى وكَما بَيَّنَّا سابِقاً : إِنَّ الوُصُولَ لِلهِ تَعالَى هُوَ الوُصُولُ إِلَى العِلْمِ بِهِ .

تَعْرِيفُ الخَلْوَة

قالَ الشَّيْخُ (أَحْمَدُ زَرُّوق) في قَواعِدِهِ : (الخَلْوَةُ أَخَصُّ مِنَ العُزْلَةِ ، وهِيَ بِوَجْهِها وصُورَتِها نَوْعٌ مِنَ الاعْتِكافِ ، ولَكِنْ لا في المَسْجِدِ ، ورُبَّما كانَتْ فِيهِ ، وأَكْثَرُها عِنْدَ المَسْجِدِ لا حَدَّ لَهُ ، لَكِنَّ السُّنَّةَ تُشِيرُ لِلأَرْبَعِينَ بِمُواعَدَةِ سَيِّدِنا

(مُوسَى) عليه السلام ، والقَصْدُ في الحَقِيقَةِ ثَلاثُونَ ، إِذْ هِيَ أَصْلُ المُواعَدَةِ ، وجاوَرَ سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ بِحِراءَ شَهْراً كَما في صَحِيحِ مُسْلِمٍ)[١].

فالْخَلْوَةُ إِذَنْ : انْقِطاعٌ عَنِ البَشَرِ لِفَتْرَةٍ مَحْدُودَةٍ ، وتَرْكٌ لِلْأَعْمالِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِمُدَّةٍ يَسِيرَةٍ ، كَي يَتَفَرَّغَ القَلْبُ مِنْ هُمُومِ الحَياةِ الَّتي لا تَنْتَهِي ، ويَسْتَرِيحَ الفِكْرُ مِنَ المَشاغِلِ اليَوْمِيَّةِ الَّتي لاتَنْقَطِعُ ، ثُمَّ ذِكْرٌ لِلّهِ تَعالَى بِقَلْبٍ حاضِرٍ خاشِعٍ ، وتَفَكُّرٌ في آلائِهِ تَعالَى آناءَ اللَّيْلِ وأَطْرافَ النَّهارِ ، وذَلِكَ بِإِرْشادِ شَيْخٍ عارِفٍ بِاللّهِ ، يُعَلِّمُهُ إِذا جَهِلَ ، ويُذَكِّرُهُ إِذا غَفَلَ ، ويُنَشِّطُهُ إِذا فَتَرَ ، ويُساعِدُهُ عَلَى دَفْعِ الوَساوِسِ وهَواجِسِ النَّفْسِ)[٢].

كَيْفِيَّةُ دُخُولِ الخَلْوَة :

وأَهَمُّ آدابِ الخَلْوَةِ : تَمامُ إِخْلاصِ النِّيَّةِ ، واسْتِحْضارُ ما يَلْزَمُهُ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ ومَتاعٍ ضَرُورِيٍّ مُدَّةَ الخَلْوَةِ ، ثُمَّ مُلازَمَةُ الصَّوْمِ ، والاكْتِفاءُ بِالقَلِيلِ مِنَ الطَّعامِ ، والمَنامِ ، والانْصِرافُ بِكُلِّيَّتِهِ عَنْ مَشاغِلِ الحَياةِ الدُّنْيا ، اعْتِماداً عَلَى اللهِ وتَوَكُّلاً عَلَيْهِ وتَفَرُّغاً لِعُبُودِيَّتِهِ .

فَإِذا عَزَمَ :

(أَوَّلاً) : حَلَّلَ نَفْسَهُ مِنْ حُقُوقِ النَّاسِ عَلَيْه .

(ثانِياً) : جَهَّزَ لأَهْلِهِ كُلَّ ما يَحْتاجُونَ إِلَيْهِ أَثْناءَ مُدَّةِ خَلْوَتِهِ ، كَأَنَّهُ بَيْنَهُم .

(ثالِثاً) : دَبَّرَ أَمْرَ عَمَلِهِ أَو وَظِيفَتِهِ أَو تِجارَتِهِ ، حَتَّى لا تَتَوَقَّفَ أَو تَضْطَرِبَ ، ثُمَّ اغْتَسَلَ بِنِيَّةِ الاعْتِكافِ والخَلْوَةِ ، وتَعَطَّرَ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَي التَّوْبَةِ ، وبَقِيَّةُ شُرُوطِ التَّوْبَةِ هِيَ شُرُوطُ السُّنَّةِ في الاعْتِكافِ الشَّرْعِي والبَدْءُ مِنْ صَباحِ

---

(١) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عَنْ جابِرِبْنِ عَبْدِاللهِ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ الله ﷺ :
(جاوَرْتُ بِحِراءَ شَهْراً ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوارِي نَزَلْتُ فاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الوادِي .....) ، الحديث .

(٢) حَقائِقُ عَنِ التَّصَوُّفِ لـ (عَبْدِالقادِرِ عِيسَى) .

الجُمُعَةِ أَفْضَلُ .
ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى المَسْجِدِ مُنِيباً خاشِعاً ضارِعاً ، فإذا دَخَلَهُ صَلَّى رَكْعَتَيْهِ صَلاةً مُطْمَئِنَّةً مُتْقَنَةً ، وقَرَأَ (الكَهْفَ) لِما ورَدَ مِنْ أَنَّها السُّنَّةُ في هَذا اليَوْمِ ، أَوْ قَرَأَ ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ (ويَكْفِي قِراءَةُ سُورَةِ الإخْلاصِ لِمَنْ لا يَسْتَطِيعُ قِراءَةَ غَيْرِها مِنَ القُرْآنِ) ، ويُلازِمُ العابِدُ بَعْدَها الصَّلاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ (مُسْتَحْضِراً رُوحَهُ الشَّرِيفَةَ وأَرْواحَ أَشْياخِهِ مَعَهُ ، مُقْبِلاً في مَوْكِبِهِمْ بِلا حِجابٍ ، عَلَى اللهِ الكَرِيمِ الوَهَّاب) ، حَتَّى يُؤَذَّنَ لِلْجُمُعَةِ ، وتَنْتَهِيَ شعائِرُها وعِنْدَها يَخْتِمُ الصَّلاةَ ويَدْعُو بِالمَغْفِرَةِ والتَّوْفِيقِ والقَبُولِ ، ثُمَّ يُوَدِّعُ مُرافِقِيه ، ويَتَّجِهُ إِلَى خَلْوَتِهِ (حَيْثُ تَكُونُ الخَلْوَةُ) مُحافِظاً عَلَى أَلاَّ يَقَعَ في مُخالَفَةٍ أَثْناءَ الذَّهابِ إِلَيْها ، لِيَقْضِيَ فِيها ما شاءَ الله .

❁ طَرِيقَةُ التَّعَبُّدِ في الخَلْوَة :

يَذْكُرُ الإمامُ (الغَزالي) رَحِمَهُ اللهُ طَرِيقَةَ الخَلْوَةِ ومَراحِلَها ومَقاماتِها ، فَيُبَيِّنُ : (أَنَّ الشَّيْخَ يُلْزِمُ المُرِيدَ زاوِيَةً يَنْفَرِدُ بِها ، ويُوَكِّلُ بِهِ مَنْ يَقُومُ لَهُ بِقَدْرٍ يَسِيرٍ مِنَ القُوتِ الحَلالِ (فَإِنَّ أَصْلَ الدِّينِ القُوتُ الحَلالِ) وعِنْدَ ذَلِكَ يُلَقِّنُهُ ذِكْراً مِنَ الأَذْكارِ ، حَتَّى يَشْغَلَ بِهِ لِسانَهُ وقَلْبَهُ ، فَيَجْلِسُ ويَقُولُ مَثَلاً : الله ، الله ، أَو سُبْحانَ الله ، سُبْحانَ الله ، أَو ما يَراهُ الشَّيْخُ مِنَ الكَلِماتِ[1] ، فَلا يَزالُ يُواظِبُ عَلَيْهِ ، حَتَّى يُسْقِطَ الأَثَرَ عَنِ اللِّسانِ ، وتَبْقَى صُورَةُ اللَّفْظِ في القَلْبِ ، ثُمَّ لا يَزالُ كَذَلِكَ حَتَّى تُمْحَى مِنَ القَلْبِ حُروفُ اللَّفْظِ وصُورَتُهُ ، وتَبْقَى حَقِيقَةُ مَعناهُ لازِمَةً لِلْقَلْبِ ، حاضِرَةً مَعَهُ ، غالِبَةً عَلَيْهِ ، قَدْ فَرَغَ عَنْ كُلِّ ما سِواهُ ، لأَنَّ القَلْبَ إِذا اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ خَلا عَنْ غَيْرِهِ (أَيِّ شَيْءٍ كانَ) ، فَإِذا اشْتَغَلَ بِذِكْرِ اللهِ تَعالَى وهُوَ المَقْصُودُ ، خَلا لا مَحالَةَ مِنْ غَيْرِهِ ، وعِنْدَ ذَلِكَ

---

(١) وأَكْثَرُ الشَّاذِلِيَّةِ يَخْتَلُونَ بالاسْمِ المُفْرَدِ (الله) وبَعْضُ السَّادَةِ يُقَسِّمُونَ الأَسْماءَ السَّبْعَةَ أَو الأَسْماءَ الحُسْنَى عَلَى أَيَّامِ الخَلْوَة .

يَلْزَمُهُ أَنْ يُراقِبَ وَساوِسَ القَلْبِ ، والخَواطِرَ الَّتي تَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيا ، وما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِمَّا قَدْ مَضَى مِنْ أَحْوالِهِ وأَحْوالِ غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ مَهْما اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ مِنْهُ (ولَوْ فِي لَحْظَةٍ) خَلا قَلْبُهُ عَنِ الذِّكْرِ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وكانَ ذَلِكَ نُقْصاناً . فَلْيَجْتَهِدْ فِي دَفْعِ ذَلِكَ ، ومَهْما دَفَعَ الوَساوِسَ كُلَّها ، ورَدَّ النَّفْسَ إِلَى هَذِهِ الكَلِمَةِ ، جاءَتْهُ الوَساوِسُ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ ، وإِنَّها ما هِيَ ؟ وما مَعْنَى قَوْلِنا : اللّه ؟ ولأَيِّ مَعْنَى كانَ إِلَهاً ، وكانَ مَعْبُوداً ؟ ويَعْتَرِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ خَواطِرُ تَفْتَحُ عَلَيْهِ بابَ الفِكْرِ ، ورُبَّما يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ وَساوِسِ الشَّيْطانِ ما هُوَ كُفْرٌ وبِدْعَةٌ ، ومَهْما كانَ كارِهاً لِذَلِكَ ، ومُتَشَمِّراً لإِمَاطَتِهِ عَنِ القَلْبِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ .

وهَذِهِ الوَساوِسُ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى قِسْمَيْن :

أ - ما يَعْلَمُ قَطْعاً أَنَّ اللهَ تَعالَى مُنَزَّهٌ عَنْهُ ، ولَكِنَّ الشَّيْطانَ يُلْقِي ذَلِكَ في قَلْبِهِ ويُجْرِيهِ عَلَى خاطِرِهِ ، فَشَرْطُهُ أَن لا يُبالِيَ بِهِ ، ويَفْزَعَ إِلَى ذِكْرِ اللهِ تعالَى ويَبْتَهِلَ إِلَيْهِ لِيَدْفَعَهُ عَنْهُ ، كَما قالَ تَعالَى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾(١)

وقالَ تَعالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾(٢).

ب - ما يَشُكُّ فيهِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ عَلَى شَيْخِهِ ، بَلْ كُلُّ ما يَجِدُ في قَلْبِهِ مِنَ الأَحْوالِ ، مِنْ فَتْرَةٍ أَو نَشاطٍ ، أَو صِدْقٍ في إِرادَةٍ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُظْهِرَ ذَلِكَ لِشَيْخِهِ ، وأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلا يُطْلِعَ عَلَيْهِ أَحَداً)(٣).

مَشْروعِيَّةُ الخَلْوَةِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ وأَقْوالِ عُلَماءِ الأُمَّةِ :

أَصْلُ الخَلْوَةِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ : هُوَ اسْتِحْبابُ الاعْتِكافِ كَما جاءَ النَّدْبُ إِلَيْهِ في

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف الآية ٢٠٠ .　(٢) سُورَةُ الأَعْراف الآية ٢٠١ .
(٣) الإِحْياءُ لـ(الغَزالي) .

الإسْـلامِ ، والخَلْوَةُ نَـوْعٌ مِنَ الفِرارِ إِلَى اللهِ ، وقَدْ أَلْزَمَنا اللهُ بِهِ ، فَقالَ تعالَى ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[1]، وهِيَ هِجْرَةٌ إِلَيْهِ تَعالَى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2]، وقـالَ تـعـالَـى ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾[3]، إِقْـراراً لِـمـا جاءَ عَلَى لِسـانِ خليلِـهِ سَيِّدِنا إِبْراهِيمَ العَلَيْهِ، وقَدْ كانَ الاعْتِكافُ أَوِ الخَلْوَةُ سُنَّةً ماضِيَةً في الأَدْيانِ السَّـابِقَـةِ ، فَسَيِّدُنا (مُوسَى) العَلَيْهِ واعدَ رَبَّهُ ثَلاثِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ تَمَّتْ بِعَشْرٍ ، فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

والسَّيِّدَةُ (مَرْيَمُ) ابْنَةُ عِمْرانَ ، كانَ لَها اعْتِكافُها ومِيقاتُها في المِحْراب .

وكانَ لِسَيِّدِنا (زَكَرِيَّا) العَلَيْهِ اعْتِكافُهُ ومِيقاتُهُ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيّاً .

وكُلُّ ذَلِكَ ثابِتٌ في كِتابِ اللهِ ، فالخَلْوَةُ ذَهابٌ وفِرارٌ وهِجْرَةٌ إِلَى اللهِ .

كَما قالَ سَيِّدُنا (إِبْراهِيمُ) العَلَيْهِ ، وكَما قالَ سَيِّدُنا (لُوط) العَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وكَما أَمَرَ الحَقُّ جَلَّ في عُلاهُ حَبِيبَهُ ومُصْطَفاهُ سَيِّدَنا مُحَمَّداً ﷺ فَقالَ تَعالَى : ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾[4].

قالَ العَلاَّمَةُ أَبُو السُّعُود مُفَسِّراً هَذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَة : (ودُمْ عَلَى ذِكْرِهِ تعالَى لَيْلاً ونَهاراً عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كانَ ؛ مِنَ التَّسْبِيحِ والتَّهْلِيلِ والتَّحْمِيدِ ....

إِلَى أَنْ قالَ : وانْقَطِعْ إِلَيْهِ بِمَجامِعِ الهِمَّةِ واسْتِغْراقِ العَزِيمَةِ في مُراقَبَتِهِ ، وحَيْثُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلاَّ بِتَجْرِيدِ نَفْسِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَنِ العَوائِقِ الصَّادِرَةِ المانِعَةِ عَنْ مُراقَبَةِ اللهِ تَعالَى ، وقَطْعِ العَلائِقِ عَمَّا سِواه)[5].

وكُلُّ أَمْرٍ أُمِرَ بِهِ ﷺ هُوَ تَشْرِيعٌ لَهُ ولأُمَّتِهِ إِلاَّ فِيما خُصَّ بِهِ ، وخُصُوصِيَّاتُهُ

---

(١) سُورَةُ الذَّارِيات الآية ٥٠
(٢) سُورَةُ العَنْكَبُوت مِنَ الآيَة ٢٦ .
(٣) سُورَةُ الصَّافَّات مِنَ الآيَة ٩٩ .
(٤) سُورَةُ المُزَّمِّل الآية ٨ .
(٥) تَفْسِيرُ العَلاَّمَةِ أَبِي السُّعُودِ عَلَى هامِشِ تَفْسِيرِ فَخْرِ الدِّينِ الرَّازِي .

ﷺ مَعْروفَةٌ . وهَذا الأَمْرُ في هَذِهِ الآيَةِ المَذْكُورَةِ عامٌّ لَهُ ولأُمَّتِهِ .

أَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى الخَلْوَةِ مِنَ السُّنَّةِ :

فَعَنِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها قالَت : (أَوَّلُ ما بُدِيءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيا إِلاَّ جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءُ ، وكانَ يَخْلُو بِغارِ حِراءَ ، فَيَتَحَنَّثُ[1] فِيهِ اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، ويَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ، ويَتَزَوَّدُ لِمِثْلِها ، حَتَّى جاءَهُ الحَقُّ ، وهُوَ في غارِ حِراء)[2].

قالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ في شَرْحِهِ لِهَذا الحَدِيثِ : (في الحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الخَلْوَةَ عَوْنٌ لِلإِنْسانِ عَلَى تَعَبُّدِهِ وصَلاحِ دِينِهِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا اعْتَزَلَ عَنِ النَّاسِ وخَلا بِنَفْسِهِ ، أَتاهُ هَذا الخَيْرُ العَظِيمُ ، وكُلُّ أَحَدٍ امْتَثَلَ ذَلِكَ أَتاهُ الخَيْرُ بِحَسَبِ ما قُسِمَ لَهُ مِنْ مَقاماتِ الوِلايَةِ .

وفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَوْلَى بِأَهْلِ البِدايَةِ الخَلْوَةُ والاعْتِزالُ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ في أَوَّلِ أَمْرِهِ يَخْلُو بِنَفْسِهِ .

وفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ البِدايَةَ لَيْسَتْ كالنِّهايَةِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوَّلُ ما بُدِيءَ في نُبُوَّتِهِ بِالمَرائِي ، فَما زالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَرْتَقِي في الدَّرَجاتِ والفَضْلِ حَتَّى جاءَهُ المَلَكُ في اليَقَظَةِ بِالوَحْيِ ، ثُمَّ مازالَ يَرْتَقِي ، حَتَّى كانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، وهِيَ النِّهايَةُ .

فَإِذا كانَ هَذا في الرُّسُلِ فَكَيْفَ بِهِ في الأَتْباعِ ؟! لَكِنْ بَيْنَ الرُّسُلِ والأَتْباعِ فَرْقٌ ، وهُوَ أَنَّ الأَتْباعَ يَتَرَقَّوْنَ في مَقاماتِ الوِلايَةِ (ما عَدا مَقامَ النُّبُوَّةِ) ، فَإِنَّهُمْ لا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْها (لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ طُوِيَ بِساطُهُ) حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مَقامِ المَعْرِفَةِ والرِّضا ، وهُوَ أَعْلَى مَقاماتِ الوِلايَةِ .

---

(١) وهُوَ التَّعَبُّدُ.

(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِه .

ولِأَجْلِ هَذا تَقُولُ الصُّوفِيَّةُ : (مَنْ نالَ مَقاماً فَدامَ عَلَيْهِ بِأَدَبِهِ تَرَقَّى إِلَى ما هُوَ أَعْلَى مِنْهُ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ أَوَّلاً في التَّحَنُّثِ ودامَ عَلَيْهِ بِأَدَبِهِ ، إِلَى أَنْ تَرَقَّى مِنْ مَقامٍ إِلَى مَقامٍ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَقامِ النُّبُوَّةِ ، ثُمَّ أَخَذَ في التَّرَقِّي في مَقاماتِ النُّبُوَّةِ حَتَّى وَصَلَ بِهِ المَقامُ إِلَى قابِ قَوْسَيْنِ أَو أَدْنَى كَما تَقَدَّمَ ، فالوارِثُونَ لَهُ بِتِلْكَ النِّسْبَةِ ؛ مَنْ دامَ مِنْهُم عَلَى التَّأَدُّبِ في المَقامِ الَّذي أُقِيمَ فِيهِ تَرَقَّى في المَقاماتِ حَيْثُ شاءَ اللهُ ، عَدا مَقامِ النُّبُوَّةِ الَّتي لا مُشارَكَةَ لِلْغَيْرِ فِيها بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ)[1].

وقالَ القَسْطَلَّانِي في شَرْحِهِ لِحَديثِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) المَذْكُور :

(وفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى فَضْلِ العُزْلَةِ لِأَنَّها تُرِيحُ القَلْبَ مِنْ أَشْغالِ الدُّنْيا ، وتُفَرِّغُهُ لِلَّهِ تَعالَى ، فَتَنْفَجِرُ مِنْهُ يَنابِيعُ الحِكْمَةِ ، والخَلْوَةُ : أَنْ يَخْلُوَ عَنْ غَيْرِهِ ، بَلْ وعَنْ نَفْسِهِ بِرَبِّهِ ، وعِنْدَ ذَلِكَ يَصِيرُ خَلِيقاً بِأَنْ يَكُونَ قالَبُهُ مَمَرّاً لَها كَذلِك)[2].

وقالَ الإِمامُ النَّوَوِي في شَرْحِ حَديثِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) ، عِنْدَ قَوْلِهِ : حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءُ : (أَمَّا الخَلاءُ فَهُوَ الخَلْوَةُ ، وهِيَ شَأْنُ الصَّالِحِينَ ، وعِبادِ اللهِ العارِفِينَ ، ثُمَّ قالَ : قالَ أَبُو سُلَيْمانَ الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللهُ :

حُبِّبَتْ إِلَيْهِ العُزْلَةُ ﷺ لِأَنَّ مَعَها فَراغَ القَلْبِ ، وهِيَ مُعِينَةٌ عَلَى التَّفَكُّرِ ، وبِها يَنْقَطِعُ عَنْ مَأْلُوفاتِ البَشَرِ ، ويَتَخَشَّعُ قَلْبُهُ)[3]. وقالَ شِهابُ الدِّينِ (أَحْمَدُ بنُ حَجَرَ العَسْقَلانِي) في شَرْحِهِ عَلَى حَدِيثِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) المَذْكُورِ عِنْدَ قَوْلِهِ : (ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءُ : والخَلاءُ بِالمَدِّ : الخَلْوَةُ ، والسِّرُّ فِيهِ أَنَّ الخَلْوَةَ فَراغُ القَلْبِ لِما يُتَوَجَّهُ لَهُ ... إِلَى أَنْ قالَ : وإِلَّا فَأَصْلُ الخَلْوَةِ قَدْ عُرِفَتْ

---

(١) بَهْجَةُ النُّفُوسِ (شَرْحُ مُخْتَصَرِ البُخارِي للإمامِ الحافِظِ عَبْدِاللهِ بنِ أَبي جَمْرَةَ الأَزْدِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ المُتَوَفَّى ٦٦٩ هـ) .

(٢) إِرْشادُ السَّارِي لِشَرْحِ صَحِيحِ البُخارِي لـ(القَسْطَلَّانِي) المُتَوَفَّى سَنَةَ ٩٢٣ هـ .

(٣) صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ الإِمامِ النَّوَوِي .

مُدَّتُها وهِيَ شَهْرٌ ، وذَلِكَ الشَّهْرُ كانَ رَمضان).[1]

وما أَحْسَنَ قَوْلَ البُوصِيري في هَمْزِيَّتِهِ حَيْثُ يَصِفُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في بِدايَتِهِ :

أَلِفَ النُّسُكَ والعِبادَةَ والخَلْوَةَ * طِفْلاً وهَكَذا النُّجَباءُ

قالَ (سُلَيْمانُ الجَمَلُ) شارِحاً لِلْهَمْزِيَّةِ : (وكانَ تَعَبُّدُهُ ﷺ أَنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى حِراءَ شَهْراً في كُلِّ عامٍ يَتَنَسَّكُ فِيهِ ، حَتَّى إِذا انْصَرَفَ مِنْ مُجاوَرَتِهِ في حِراءَ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ حَتَّى يَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ ، وكانَ يَعْبُدُ اللَّهَ في حِراءَ بِالذِّكْرِ والفِكْرِ ، وكانَ يُكْثِرُ الخَلْوَةَ في غَيْرِ حِراءَ أَيْضاً).[2]

ومِنْ غارِ حِراءَ انْبَثَقَ النُّورُ ، وأَطَلَّ الفَجْرُ ، وانَطَلَقَتِ اللَّمْعَةُ الأُولَى في نُورِ التَّصَوُّفِ الإِسْلامِي ، وما تَرَكَ الرَّسُولُ ﷺ هَذِهِ الخَلْوَةَ ، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنَ الغارِ ، فَكانَ بَعْدَئِذٍ يَخْلُو في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضانَ ، وقَدْ سَمَّاهُ الفُقهاءُ اعْتِكافاً .

تَخْتَلِفُ حالُ الخَلْوَةِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ بِاخْتِلافِ حالاتِ الأَحْبابِ ، وبِاخْتِلافِ ما يَراهُ المُرْشِدُ الطَّبِيبُ الرَّبَّانِي ، مُلائِماً لِكُلِّ أَخٍ ، لِاخْتِلافِ الظُّروفِ والمُناسَباتِ والقابِلِيَّاتِ وغَيْرِها ، فَعِنْدَهُم :

١ - الخَلْوَةُ الكامِلَةُ . ٢ - الخَلْوَةُ الجُزْئِيَّةُ . ٣ - خَلْوَةُ الجَلْوَة .

١) فالخَلْوَةُ الكامِلَةُ : انْعِزالٌ مُطْلَقٌ لِلْعبادَةِ إِلَى مُدَّةٍ ما ، ولَوْ في العُمْرِ مَرَّةً ، إِنْ لَمْ يُمْكِنِ التِّكْرارُ لِتَحْصِيلِ الفَضْلِ ، وتَكُونُ في مَكانٍ صالِحٍ لِذَلِكَ ، والمَسْجِدُ أَوْلَى ، عَلَى أَساسِ الذِّكْرِ المَعْهُودِ بِهِ إِلَى المُخْتَلِي بِشُروطِهِ المُقَرَّرَةِ مِنْ شَيْخِهِ ، وأَقَلُّها مِنَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ إِلَى أُسْبُوعٍ ، وأَوْسَطُها بَيْنَ أُسْبُوعٍ وثَلاثَةِ أَسابِيعَ وأَكْبَرُها بَيْنَ أَرْبَعِينَ وسَبْعِينَ يَوْماً ، فَإِذا كانَتْ في رَمَضانَ

---

(١) فَتْحُ البارِي شَرْحُ صَحِيحِ البُخارِي لـ(العَسْقَلانِي) .

(٢) الفُتُوحاتُ الأَحْمَدِيَّةُ بالمِنَحِ المُحَمَّدِيَّةِ عَلَى شَرْحِ الهَمْزِيَّةِ .

فالسُّنَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَ عَشَرَةِ الأَيَّامِ أَوِ العِشْرِينَ الأَخِيرَةِ ، وهِيَ مِيقاتُ النَّبِيِّ أَمَّا مِيقاتُ سَيِّدِنا (مُوسَى) عليه السلام فَكانَ كَما ذَكَرَهُ القُرْآنُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ومِيقاتُ سَيِّدِنا (زَكَرِيَّا) عليه السلام ثَلاثُ لَيالٍ .

٢)والخَلْوَةُ الجُزْئِيَّةُ : هِيَ الانْعِزالُ لِلْعِبادَةِ يَوْمِيّاً في مَكانٍ مُعَيَّنٍ ، لِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ ولَوْ بَعْضَ ساعَةٍ ، بَعْدَ الفَراغِ مِنْ قَضاءِ مَطالِبِ الحَياةِ اليَوْمِيَّةِ المُعْتادَةِ وشُروطُها حِفْظُ الجَوارِحِ والقَلْبِ تَماماً عَنْ مَحارِمِ اللهِ تَعالَى ، أَثْناءَ الوجُودِ مَعَ النَّاسِ ، والإِسْراعُ بِالتَّوْبَةِ لِمُجَرَّدِ الشَّكِّ في مُقارَفَةِ مُخالَفَةٍ ، مَعَ الانْشِغالِ الدَّائِمِ بِالذِّكْرِ المُخْتارِ أَيّاً كانَ ، وأَيْنَ كانَ ، إِنْ صَمَتَ اللِّسانُ فالقَلْبُ عَلَى ذِكْرِهِ مُقِيمٌ ، مَعَ دَقَّاتِهِ لا يَنْقَطِعُ ، والتَّدْرِيبُ عَلَى ذَلِكَ يَسِيرٌ بِإِذْنِ الله .

٣)وخَلْوَةُ الجَلْوَة : هِيَ اسْتِمْرارُ انْشِغالِ القَلْبِ بِالذِّكْرِ مَعَ القِيامِ بِمَطالِبِ الحَياةِ المُعْتادَةِ ، مَعَ عَدَمِ مُغايَرَةِ شَيْءٍ مِنْها (قَلْبٌ مَعَ الخالِقِ وجِسْمٌ مَعَ المَخْلُوق ، أَوْ كَما قالَ الإِمامُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : صَحِبُوا الدُّنْيا بِأَجْسامِهِم وقُلُوبُهُم مُعَلَّقَةٌ بِالمَحَلِّ الأَعْلَى) حَتَّى يَكُونَ (الجَمْعُ في جَنانِهِ ، والفَرْقُ في لِسانِهِ) .

وشُروطُها : حِفْظُ الجَوارِحِ كَما أَسْلَفْنا أَثْناءَ الوجُودِ مَعَ النَّاسِ ، ولَيْسَ فِيها عُزْلَةٌ عَلَى الإِطْلاقِ ، لا كُلِّيَّةٌ ولا جُزْئِيَّةٌ إِلاَّ بِقَدْرٍ مَقْدُورٍ ، كُلَّما أَمْكَنَ ذَلِكَ بِحَسَبِ ظُروفِ المُرِيدِ وطاقاتِهِ ، وهَذا مَتْرُوكٌ لَهُ ، ويَكْفِي أَنْ يَنْوِيَ العِبادَةَ بِكُلِّ قَوْلٍ وعَمَلٍ .

أَقْوالُ العُلَماءِ في أَهَمِّيَّةِ الخَلْوَةِ وفَوائِدِها :

قالَ العَلاَّمَةُ الكَبِيرُ (الفَيْروزُ أَبادِي) صاحِبُ القامُوسِ في ذِكْرِ حالِ حَضْرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ نُزُولِ الوَحْي : (ولَمَّا قَرُبَتْ أَيَّامُ الوَحْي أَحَبَّ ﷺ الخَلْوَةَ

والانْفِرادَ ، فَكانَ يَتَخَلَّى في جَبَلِ حِراءَ ، وهُوَ عَلَى ثَلاثَةِ أَميالٍ مِنَ الكَعْبَةِ ، وبِهِ غارٌ صَغِيرٌ طُولُهُ أَرْبَعَةُ أَذْرُعٍ وعَرْضُهُ ذِراعٌ وثُلُثٌ في بَعْضِ المَواضِعِ ، وفي بَعْضِها أَقَلُّ ، واخْتارَ مَحَلَّ الخَلْوَةِ هُناكَ) .

ولِلْعُلَماءِ في عِبادَتِهِ ﷺ في خَلْوَتِهِ قَوْلان : قالَ بَعْضُهُم : كانَتْ عِبادَتُهُ بِالفِكْرِ ، وقالَ بَعْضُهُمْ : بِالذِّكْرِ ، وهَذا القَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ ، ولا تَعْرِيجَ عَلَى الأَوَّلِ ولا الْتِفاتَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ خَلْوَةَ طُلَّابِ طَرِيقِ الحَقِّ عَلَى أَنْواعٍ :

الأَوَّل : أَنْ تَكُونَ خَلْوَتُهُمْ لِطَلَبِ مَزِيدِ عِلْمِ الحَقِّ مِنَ الحَقِّ لا بِطَرِيقِ النَّظَرِ والفِكْرِ ، وهَذا غايَةُ مَقاصِدِ أَهْلِ الحَقِّ ، لِأَنَّ مَنْ خاطَبَ في خَلْوَتِهِ كَوْناً مِنَ الأَكْوانِ ، أَو فَكَّرَ فِيهِ فَلَيْسَ هُوَ في خَلْوَة .

قالَ شَخْصٌ مِنْ طُلَّابِ الطَّرِيقِ لِبَعْضِ الأَكابِرِ : اذْكُرْني عِنْدَ رَبِّكَ في خَلْوَتِكَ ، قالَ : إِذا ذَكَرْتُكَ فَلَسْتُ مَعَهُ في خَلْوَة .

ومِنْ ثَمَّ يُعْلَمُ سِرُّ (أَنا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي) ، وشَرْطُ هَذِهِ الخَلْوَةِ أَنْ يَذْكُرَ بِنَفْسِهِ ورُوحِهِ ، لا بِنَفَسِهِ ولِسانِه .

الثَّانِي : أَنْ تَكُونَ خَلْوَتُهُم لِصَفاءِ الفِكْرِ لِكَي يَصِحَّ نَظَرُهُمْ في طَلَبِ المَعْلُوماتِ وهَذِهِ الخَلْوَةُ لِقَوْمٍ يَطْلُبُونَ العِلْمَ مِنْ مِيزانِ العَقْلِ ، وذَلِكَ المِيزانُ في غايَةِ اللَّطافَةِ ، وهُوَ بِأَدْنَى هَوَىً يَخْرُجُ عَنِ الاسْتِقامَةِ ، وطُلَّابُ طَرِيقِ الحَقِّ لا يَدْخُلُونَ في مِثْلِ هَذِهِ الخَلْوَةِ ، بَلْ تَكُونُ خَلْوَتُهُمْ لِلذِّكْرِ ، ولَيْسَ لِلْفِكْرِ عَلَيْهِمْ قُدْرَةٌ ولا سُلْطانٌ ، ومَهْما وُجِدَ الفِكْرُ إِلَى صاحِبِ الخَلْوَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الخَلْوَةِ ، ويَخْرُجُ مِنَ الخَلْوَةِ ويَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ الصَّحِيحِ الإِلَهِي ، إِذْ لَوْ كانَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ لَحالَت العِنايَةُ الإِلَهِيَّةُ بَيْنَهُ وبَيْنَ دَوَرانِ رَأْسِهِ بِالفِكْر .

الثَّالِث : خَلْوَةٌ يَفْعَلُها جَماعَةٌ لِدَفْعِ الوَحْشَةِ مِنْ مُخالَطَةِ غَيْرِ الجِنْسِ ، والاشْتِغالِ بِما لا يَعْنِي ، فَإِنَّهُم إذا رَأَوا الخَلْقَ انْقَبَضُوا ، فَلِذَلِكَ اخْتاروا الخَلْوَة .

الرَّابِع : خَلْوَةٌ لِطَلَبِ زِيادَةِ لَذَّةٍ تُوجَدُ في الخَلْوَة .

وقالَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ : (ومَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفْتَحَ اللهُ قَلْبَهُ ، ويَرْزُقَهُ العِلْمَ ، فَعَلَيْهِ بِالخَلْوَةِ وقِلَّةِ الأَكْلِ ، وتَرْكِ مُخالَطَةِ السُّفَهاءِ وبَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ الَّذي لَيْسَ مَعَهُم إِنْصافٌ ولا أَدَبٌ)[١].

وقالَ الإمامُ الغَزالِي : (وأَمَّا الخَلْوَةُ فَفائِدَتُها دَفْعُ الشَّواغِلِ ، وضَبْطُ السَّمْعِ والبَصَرِ ، فَإِنَّهُما دَهْلِيزُ القَلْبِ ، والقَلْبُ في حُكْمِ حَوْضٍ تَنْصَبُّ إِلَيْهِ مِياهٌ كَرِيهَةٌ كَدِرَةٌ قَذِرَةٌ مِنْ أَنْهارِ الحَواس .

ومَقْصُودُ الرِّياضَةِ تَفْرِيغُ الحَوْضِ مِنْ تِلْكَ المِياهِ ومِنَ الطِّينِ الحاصِلِ مِنْها ، لِيَتَفَجَّرَ أَصْلُ الحَوْضِ ، فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ النَّظِيفُ الطَّاهِرُ ، وكَيْفَ يَصِحُّ لَهُ أَنْ يَنْزَحَ الماءَ مِنَ الحَوْضِ ، والأَنْهارُ مَفْتُوحَةٌ إِلَيْهِ ؟ فَيَتَجَدَّدُ في كُلِّ حالٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْقُصُ ، فَلا بُدَّ مِنْ ضَبْطِ الحَواسِّ إلاَّ عَنْ قَدْرِ الضَّرُورَةِ ، ولَيْسَ يَتِمُّ ذَلِكَ إِلاَّ بِالخَلْوَة)[٢].

وعِنْدَما يَسْلَمُ مِنْ عِلَلِهِ وأَمْراضِهِ وتَعَلُّقاتِهِ ومَشاغِلِهِ ، وخَواطِرِ الشَّيْطانِ ووَساوِسِهِ ، يَسْتَحِقُّ نَعِيمَ قُرْبِهِ ويَسْتَعِدُّ لِتَلَقِّي العُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ ، والأَسْرارِ الرَّبَّانِيَّةِ ، والنَّفَحاتِ النُّورانِيَّة .

وقالَ الغَزالي أَيْضاً : (وانْكَشَفَ لِي في أَثْناءِ هَذِهِ الخَلَواتِ أُمورٌ لا يُمْكِنُ إِحْصاؤُها واسْتِقْصاؤُها ، والقَدْرُ الَّذي أَذْكُرُهُ لِيُنْتَفَعَ بِهِ ، أَنِّي عَلِمْتُ يَقِيناً أَنَّ

---

(١) بُسْتانُ العارِفِينَ للإمامِ الفَقِيهِ الحافِظِ أبي زَكَرِيَّا مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوي المُتَوَفَّى ٦٧٦ هـ .

(٢) إِحياءُ عُلومِ الدِّينِ للإمامِ (الغَزالي) .

الصُّوفِيَّةَ هُم السَّالِكُونَ لِطَرِيقِ اللهِ خاصَّةً ، وأَنَّ سِيرَتَهُم أَحْسَنُ السِّيَرِ ، وطَرِيقَتَهُم أَصْوبُ الطُّرُقِ ، وأَخْلاقَهُم أَزْكَى الأَخْلاقِ ، بَلْ لَوْ جُمِعَ عَقْلُ العُلَماءِ ، وحِكْمَةُ الحُكَماءِ ، وعِلْمُ الواقِفِينَ عَلَى أَسْرارِ الشَّرْعِ مِنَ العُلَماءِ ، لِيُغَيِّروا شَيْئاً مِنْ سَيْرِهِم وأَخْلاقِهِم ، ويُبَدِّلُوهُ بِما هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، لَمْ يَجِدوا إِلَيْهِ سَبِيلاً ، فَإِنَّ جَمِيعَ حَرَكاتِهِم وسَكَناتِهِم في ظاهِرِهِم وباطِنِهِمْ مُقْتَبَسَةٌ مِنْ نُورِ مِشْكاةِ النُّبُوَّةِ ، ولَيْسَ وَراءَ نُورِ النُّبُوَّةِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ نُورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ)[1].

وقالَ الشَّيْخُ الأَكْبَرُ مُحْيي الدِّين بنُ عَرَبي : (فَإِنَّ المُتَأَهِّبَ الطَّالِبَ لِلْمَزِيدِ ، المُتَعَرِّضَ لِنَفَحاتِ الجُودِ بِأَسْرارِ الوجُودِ إِذا لَزِمَ الخَلْوَةَ والذِّكْرَ ، وفَرَّغَ المَحَلَّ مِنَ الفِكْرِ ، وقَعَدَ فَقِيراً لا شَيْءَ لَهُ عِنْدَ بابِ رَبِّهِ ، حِينَئِذٍ يَمْنَحُهُ اللهُ تَعالَى ، ويُعْطِيهِ مِنَ العِلْمِ بِهِ والأَسْرارِ الإِلهِيَّةِ والمَعارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتي أَثْنَى اللهُ سُبْحانَهُ بِها عَلَى عَبْدِهِ الخَضِرِ فَقالَ : ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[2] وقالَ تَعالَى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[3] وقالَ تَعالَى : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾[4].

وقِيلَ لِلْجُنَيْدِ : بِمَ نِلْتَ ما نِلْتَ ؟ فَقالَ : بِجُلُوسِي تَحْتَ تِلْكَ الدَّرَجَةِ ثَلاثِينَ سَنَةً .

وقالَ أَبو يَزِيد : أَخَذْتُمْ عِلْمَكُمْ مَيِّتاً عَنْ مَيِّتٍ ، وأَخَذْنا عِلْمَنا عَنِ الحَيِّ الَّذي لا يَمُوتُ ، فَيَحْصُلُ لِصاحِبِ الهِمَّةِ في الخَلْوَةِ مَعَ اللهِ وبِهِ (جَلَّتْ هَيْبَتُهُ وعَظُمَتْ مِنَّتُهُ) ، مِنَ العُلُومِ ما يَغِيبُ عِنْدَها كُلُّ مُتَكَلِّمٍ عَلَى البَسِيطَةِ ، بَلْ كُلُّ صاحِبِ نَظَرٍ وبُرْهانٍ ، لَيْسَتْ لَهُ هَذِهِ الحالَةُ) .

---

(١) المُنْقِذُ مِنَ الضَّلالِ لِحُجَّةِ الإِسْلامِ (الغزالي) .
(٢) سُورَةُ الكَهْف مِنَ الآيَة ٦٥ .
(٣) سُورَةُ البَقَرة مِنَ الآيَة ٢٨٢ .
(٤) سُورَةُ الحَديد مِنَ الآيَة ٢٨ .

وقالَ العَلَّامَةُ مُحَمَّد السَّفارِيني الحَنْبَلِي شارِحاً قَصِيدَةَ (مَنظُومَةُ الآداب) وقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ مَدْحِ الخَلْوَةِ ، وكَفِّ رِجْلِ الرَّجُلِ عَن الاخْتِلاطِ بالنَّاس :

أَنَسْتُ بِوَحْدَتي ولَزِمْتُ بَيْتِي ❋ فَدامَ الأُنْسُ لِي ونَما السُّرورُ (١)

وقالَ الدُّكْتورُ مُصْطَفَى السِّباعِي في كِتابِهِ مُذَكِّرات في فِقْهِ السِّيرَة :

(يَجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ إِلَى اللهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ بَيْنَ الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ أَوْقاتٌ يَخْلُو فِيها بِنَفْسِهِ ، تَتَّصِلُ فِيها رُوحُهُ باللهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، وتَصْفُو فِيها نَفْسُهُ مِنْ كُدُوراتِ الأَخْلاقِ الذَّمِيمَةِ والحَياةِ المُضْطَرِبَةِ مِنْ حَوْلِهِ ، ومِثْلُ هَذِهِ الخَلَواتِ تَدْعُوهُ إِلَى مُحاسَبَةِ نَفْسِهِ إِنْ قَصَّرَتْ في خَيْرٍ ، أَو زَلَّتْ في اتِّجاهٍ ، أَو جانَبَتْ سَبِيلَ الحِكْمَةِ ، أَو أَخْطَأَتْ في مَنْهَجٍ أَو طَرِيقٍ ، أَو انْغَمَسَتْ مَعَ النَّاسِ في الجِدالِ والنِّقاشِ ، حَتَّى أَنْسَتْهُ تَذَكُّرَ اللهِ والأُنْسَ بِهِ ، وتَذَكُّرَ الآخِرَةِ وجَنَّتِها ونارِها ، والمَوْتِ وغُصَصِهِ وآلامِهِ ، ولِذَلِكَ كانَ التَّهَجُّدُ وقِيامُ اللَّيْلِ فَرْضاً في حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَحَبّاً في حَقِّ غَيْرِهِ ، وأَحَقُّ النَّاسِ بِالحِرْصِ عَلَى هَذِهِ النَّافِلَةِ هُم الدُّعاةُ إِلَى اللهِ وشَرِيعَتِهِ وجَنَّتِهِ ، ولِلْخَلْوَةِ والقِيامِ لِلَّهِ بِالعُبُودِيَّةِ في أَعْقابِ اللَّيْلِ لَذَّةٌ لا يُدْرِكُها إِلَّا مَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِها ، وقَدْ كانَ (إِبْراهِيمُ بنُ أَدْهَم) رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى يَقُولُ في أَعْقابِ تَهَجُّدِهِ وعِبادَتِهِ : (نَحْنُ في لَذَّةٍ لَوْ عَرَفَها المُلُوكُ لَقاتَلُونا عَلَيْها)(٢)

وقالَ ابْنُ عَجِيبَةَ شارِحاً قَوْلَ ابْنِ عَطاءِ اللهِ : ما نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرَة :

(والعُزْلَةُ انْفِرادُ القَلْبِ بِاللهِ ، وقَدْ يُرادُ بِها الخَلْوَةُ الَّتي هِيَ انْفِرادُ القالَبِ عَنِ النَّاسِ ، وهُوَ المُرادُ هُنا ، إِذْ لا يَنْفَرِدُ القَلْبُ بِاللهِ إِلَّا إِذا انْفَرَدَ القالَبُ ،

---

(١) غِذاءُ الأَلْبابِ شَرْحُ مَنْظُومَةِ الآداب للإمامِ (مُحمَّد السَّفارِيني) الحَنْبَلي ، المُتَوَفَّى سَنَةَ ١١٨٨ هـ .

(٢) مُذكَّراتٌ في فِقْهِ السِّيرَةِ لِلدُّكْتُور مُصْطفَى السِّباعي .

والفِكْرَةُ سَيْرُ القَلْبِ إِلَى حَضْرَةِ الرَّبِّ ، وهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ :
فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وإِيمانٍ ، وفِكْرَةُ شُهُودٍ وعَيانٍ ، ولا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلْقَلْبِ مِنْ عُزْلَةٍ مَصْحُوبَةٍ بِفِكْرَةٍ ، لأَنَّ العُزْلَةَ كالحِمْيَةِ ، والفِكْرَةَ كالدَّواءِ ، فَلا يَنْفَعُ الدَّواءُ بِغَيْرِ حِمْيَةٍ ، ولا فائِدَةَ في الحِمْيَةِ مِنْ غَيْرِ دَواءٍ ، فَلا خَيْرَ في عُزْلَةٍ لا فِكْرَةَ فِيها ولا نُهُوضَ بِفِكْرَةٍ لا عُزْلَةَ مَعَها ، إِذِ المَقْصُودُ مِنَ العُزْلَةِ هُوَ تَفْرِيغُ القَلْبِ ، والمَقْصُودُ مِنَ التَّفَرُّغِ هُوَ جَوَلانُ القَلْبِ واشْتِغالُ الفِكْرَةِ ، والمَقْصُودُ مِنَ اشْتِغالِ الفِكْرَةِ تَحْصِيلُ العِلْمِ وتَمَكُّنُهُ مِنَ القَلْبِ ، وتَمَكُّنُ العِلْمِ بِاللهِ مِنَ القَلْبِ هُوَ دواؤُهُ وغايَةُ صِحَّتِهِ ، وهُوَ الَّذي سَمَّاهُ اللهُ القَلْبَ السَّلِيمَ ، قالَ اللهُ تَبارَكَ و تَعالَى في شَأْنِ القِيامَةِ :
﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[1].
ويَقُولُ الشَّيْخُ الإِمامُ عِمادُ الدِّينِ أَحْمَدُ الواسِطِي : (ولْيَكُنْ لَنا جَمِيعاً مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ ساعَةٌ نَخْلُو فِيها بِرَبِّنا جَلَّ اسْمُهُ وتَعالَى قُدْسُهُ ، نَجْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ في تِلْكَ السَّاعَةِ هُمُومَنا ونَطْرَحُ أَشْغالَ الدُّنْيا عَنْ قُلُوبِنا ، فَنَزْهَدُ فِيما سِوَى اللهِ ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، فَبِذَلِكَ يَعْرِفُ الإِنْسانُ حالَهُ مَعَ رَبِّهِ ، فَمَنْ كانَ لَهُ مَعَ رَبِّهِ حالٌ ، تَحَرَّكَتْ في تِلْكَ السَّاعَةِ عزائِمُهُ ، وابْتَهَجَتْ بِالمَحَبَّةِ والتَّعْظِيمِ سَرائِرُهُ ، وطالَتْ إِلَى العُلاَ زَفَراتُهُ وكَوامِنُهُ .
وتِلْكَ السَّاعَةُ أُنْمُوذَجٌ لِحالَةِ العَبْدِ في قَبْرِهِ حِينَ خُلُوِّهِ عَنْ مالِهِ ووَلَدِهِ ، فَمَنْ لَمْ يَخْلُ قَلْبُهُ لِلهِ ساعَةً مِنْ نَهارٍ لِمَا احْتَوَشَتْهُ مِنَ الهُمُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ ذَواتِ الآصارِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ ثَمَّ رابِطَةٌ عُلْوِيَّةٌ ؟ ، ولا نَصِيبٌ مِنَ المَحَبَّةِ ولا المَحْبُوبِيَّةِ ، فَلْيَبْكِ عَلَى نَفْسِهِ ، ولا يَرْضَ مِنْها إِلاَّ بِنَصِيبٍ مِنْ قُرْبِ رَبِّهِ وأُنْسِهِ ، فَإِذا خَلُصَتْ للهِ تِلْكَ السَّاعَةُ ؛ أَمْكَنَ إِيقاعُ الصَّلواتِ الخَمْسِ عَلَى نَمَطِها مِنَ

(١) سُورَةُ الشُّعراء الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

الحُضُورِ والخَشْيَةِ والهَيْبَةِ لِلرَّبِّ العَظِيمِ في السُّجُودِ والرُّكُوعِ ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ نَبْخَلَ عَلَى أَنْفُسِنا في اليَوْمِ واللَّيْلَةِ مِنْ أَرْبَعٍ وعِشْرِينَ ساعَةً ، بِساعَةٍ لِلَّهِ الواحِدِ القَهَّارِ ، نَعْبُدُهُ فِيها حَقَّ عِبادَتِهِ ، ثُمَّ نَجْتَهِدُ عَلَى إيقاعِ الصَّلَواتِ عَلَى ذَلِكَ النَّهْجِ).(١)

وقَدْ قالُوا : إِنَّ القَلْبَ كالمَعِدَةِ إِذا قَوِيَتْ عَلَيْها الأَخْلاطُ مَرِضَتْ ، ولا يَنْفَعُها إِلَّا الحِمْيَةُ (وهُوَ قِلَّةُ مَوادِّها) ، ومَنْعُها مِنْ كَثْرَةِ الأَخْلاطِ (المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ ، والحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّواءِ) ، وكَذَلِكَ القَلْبُ إِذا قَوِيَتْ عَلَيْهِ الخَواطِرُ واسْتَحْوذَ عَلَيْهِ الحِسُّ مَرِضَ ، ورُبَّما ماتَ ، ولا يَنْفَعُهُ إِلَّا الحِمْيَةُ مِنْها ، والفِرارُ مِنْ مَواطِنِها (وهِيَ الخُلْطَةُ) ، فَإِذا اعْتَزَلَ النَّاسَ واسْتَعْمَلَ الفِكْرَةَ نَجَحَ دَواؤُهُ ، واسْتَقامَ قَلْبُهُ ، وإِلَّا بَقِيَ سَقِيماً حَتَّى يَلْقَى اللهَ بِقَلْبٍ سَقِيمٍ بِالشَّكِّ والخَواطِرِ الرَّدِيئَة .

قالَ الإِمامُ الجُنَيْد : أَشْرَفُ المَجالِسِ الجُلُوسُ مَعَ الفِكْرِ في مَيْدانِ التَّوْحِيد
وقالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ الشَّاذُلي : ثِمارُ العُزْلَةِ الظَّفَرُ بِمَواهِبِ المِنَّةِ ، وهِيَ أَربعَةٌ : كَشْفُ الغِطاءِ ، وتَنَزُّلُ الرَّحْمَةِ ، وتَحْقِيقُ المَحَبَّةِ ، ولِسانُ الصِّدْقِ في الكَلِمَة .

ثُمَّ ذَكَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِلْخَلْوَةِ عَشَرَ فَوائِدَ :

١) سَلامَةُ الإِنْسانِ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ ؛ فَإِنَّ مَنْ كانَ وَحْدَهُ لا يَجِدُ مَعَهُ مَنْ يَتَكَلَّمُ ، ولا يَسْلَمُ في الغالِبِ مِنْ آفاتِهِ إِلَّا مَنْ آثَرَ الخَلْوَةَ عَلَى الاجْتِماع .

٢) السَّلامَةُ مِنْ آفاتِ النَّظَرِ ؛ فَإِنَّ مَنْ كانَ مُعْتَزِلاً عَنِ النَّاسِ سَلِمَ مِنَ النَّظَرِ إِلَى ما هُمْ مُنْكَبُّونَ عَلَيْهِ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيا وزُخْرُفِها ، قالَ بَعْضُهُم : (مَنْ كَثُرَتْ لَحَظاتُهُ دامَتْ حَسَراتُهُ) .

---

(١) غذاء الألباب .

٣) حِفْظُ القَلْبِ وصَوْنُهُ عَنِ الرِّياءِ والمُداهَنَةِ وغَيْرِهِما مِنَ الأَمْراض .

٤) حُصُولُ الزُّهْدِ في الدُّنْيا والقَناعَةُ مِنْها ، وفي ذَلِكَ شَرَفُ العَبْدِ وكَمالُهُ .

٥) السَّلامَةُ مِنْ صُحْبَةِ الأَشْرارِ ومُخالَطَةُ الأَراذِلِ ، وفي مُخالَطَتِهِم فَسادٌ عَظِيمٌ .

٦) التَّفَرُّغُ لِلْعِبادَةِ والذِّكْرِ ، والعَزْمُ عَلَى التَّقْوَى والبِرِّ .

٧) وُجْدانُ حَلاوَةِ الطَّاعاتِ ، وتَمَكُّنُ لَذِيذِ المُناجاةِ بِفَراغِ سِرِّهِ ، قالَ أَبُو طالِبٍ المَكِّي في قُوتِ القُلُوب : (ولا يَكُونُ المُرِيدُ صادِقاً حَتَّى يَجِدَ في الخَلْوَةِ مِنَ الحلاوَةِ والنَّشاطِ والقُوَّةِ مالا يَجِدُ في العَلانِيَةِ) .

٨) رَاحَةُ القَلْبِ والبَدَنِ ؛ فَإِنَّ في مُخالَطَةِ النَّاسِ ما يُوجِبُ تَعَبَ القَلْبِ .

٩) صِيانَةُ نَفْسِهِ ودِينِهِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلشُّرورِ والخُصُوماتِ الَّتي تُوجِبُها الْخُلْطَة .

١٠) التَّمَكُّنُ مِنْ عِبادَةِ التَّفَكُّرِ والاعْتِبارِ ، وهُوَ المَقْصُودُ الأَعْظَمُ مِنَ الخَلْوَة (١)

هَذِهِ نَبْذَةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ أَقْوالِ السَّادَةِ العُلَماءِ الأَفاضِلِ ، تُبَيِّنُ بِوُضُوحٍ أَنَّ الخَلْوَةَ هِيَ السَّبِيلُ العَمَلِيُّ الَّذِي سَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلنَّاسِ ، كَي يَقْوَى إِيمانُهُم ، وتَصْفُوَ نُفُوسُهُم ، وتَسْمُوَ أَرْواحُهُم ، وتَتَطَهَّرَ قُلُوبُهُم ، وتَتَأَهَّلَ لِتَجَلِّياتِ اللهِ تَبارَكَ و تَعالَى .

أَلَيْسَ هَذا التَّوْجِيهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبَباً لِلتَّعَرُّفِ عَلَى فاطِرِ السَّمواتِ والأَرْضِ ؟

أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ في حَدِيثٍ : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّه ... ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالِياً فَفاضَتْ عَيْناه)(٢).

---

(١) إيقاظُ الهِمَم في شَرْحِ الحِكَم لـ(أَحْمَد بن عَجِيبَة) .

(٢) أَخرجَهُ البُخارِي في صَحِيحِهِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ .

أَلَيْسَ هَذا الحَديثُ دَليلاً قاطِعاً عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الخَلْوَةِ لِذِكْرِ اللهِ تَعالَى ؟ بَلَى إنَّ في هَذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِين .

إنَّ هَذِهِ الخَلْوَةَ هِيَ الظَّرْفُ الأنْسَبُ ، حَيْثُ يَذْكُرُ الصُّوفِيُّ رَبَّهُ خالِياً فَيَغْمُرُهُ بِأَنْوارِهِ ويَحْظَى بِمُجالَسَتِهِ (أَهْلُ ذِكْرِي أَهْلُ مُجالَسَتِي)[1] ، فَلا يَدُورُ بِخَلَدِهِ أَيُّ طائِفٍ يَشْغَلُهُ عَنْ رَبِّهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنْسَى نَفْسَهُ في حَضْرَةِ القُدُسِ الأَعْلَى ، وما أَحْسَنَ قَوْلَ عُمَرَ بنِ الفارِضِ مُعَبِّراً عَنْ تِلْكَ الحالَةِ الشَّائِقَة :

وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الحَبِيبِ وبَيْنَنا * سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ إذا سَرَى
فَدُهِشْتُ بَيْنَ جَمالِهِ وجَلالِـهِ * وغَدا لِسانُ الحالِ عَنِّي مُخْبِرا

فَتَفِيضُ عَيْناهُ دَمْعاً مِمَّا عَرَفَ مِنَ الحَقِّ ، ذاهِلاً بِاللهِ خاشِعاً لَهُ مُسْتَأْنِساً بِحَضْرَتِهِ :

وَلِيُّ اللهِ لَيْسَ لَـهُ أَنِيـسُ * سِوَى الرَّحْمَنِ فَهْوَ لَـهُ جَلِيسُ
فَيَذْكُرُهُ ويَذْكُرُهُ فَيَبْكِـي * وَجِيدُ الدَّهْرِ جَوْهَرُهُ نَفِيسُ

فالإنْسانُ المُقَصِّرُ إذا أَرادَ اللَّحاقَ بِهَؤُلاءِ الأَوْلِياءِ المُخْلَصِينَ خَلا بِنَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ؛ فَعاتَبَها وزَجَرَها وصَدَقَ في سَيْرِهِ إِلَى رَبِّهِ ، فَرَقَّ قَلْبُهُ ، وذَرَفَتْ عَيْناهُ بِالدَّمْعِ حُزْناً وأَسَفاً عَلَى ضَياعِ عُمْرِهِ في اللَّهْوِ والغَفْلَةِ قائِلاً :

عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضاعَ عُمْرُهُ * ولَيْسَ لهُ فِيها نَصِيبٌ ولاسَهْمُ

فانْتَبَهَ مِنْ رَقْدَتِهِ ، وصَحا مِنْ غَفْلَتِهِ ، وأَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ راجِياً عَفْوَهُ وغُفْرانَهُ ومُعاهِداً عَلَى طاعَتِهِ وعِبادَتِهِ ، فَفَرِحَ اللهُ بِتَوْبَتِهِ حِينَ تابَ ، وأَقْبَلَ عَلَيْهِ حِينَ تَقَرَّبَ مِنْهُ ، قالَ تَعالَى في الحَدِيثِ القُدُسِي : (وإنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعاً ، وإذا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ باعاً ، وإذا أَتانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ

(١) أخرجَهُ الإمامُ أحمَدُ في مُسْنَدِهِ مِنْ حَديثٍ طَوِيلٍ .

هَـرْوَلَةً)[1]، واسْتَحَقَّ - بِبِشارَةِ رسُولِ اللهِ ﷺ - إِظْلَالَ اللهِ تَعالَى لَهُ يَوْمَ الحَرِّ الأَكْبَرِ في ظِلِّ عَرْشِهِ والنَّاسُ في حَرِّ الشَّمْسِ ، قَدْ صَهَرَتْهُم في ذَلِكَ المَوْقِفِ الرَّهِيب .

وأَخِيراً فَلَعَلَّ أَخِـي الكَرِيم بَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ والنُّقُولِ الكَثِيرَةِ عَنِ العُلَماءِ الأَعْلَامِ الَّذينَ نَأْخُذُ عَنْهُمْ تَعالِيمَ دِينِنا قَد تَبَيَّنَ لَنا أَنَّ الخَلْوَةَ حالَةٌ عِبادِيَّةٌ مَشْروعَةٌ في الإِسْلامِ ، ولَيْسَتْ مُبْتَدَعَةً ، وأَنَّها لَيْسَتْ غايَةً تُقْصَدُ لِذاتِها ، بَلْ هِيَ وَسِيلَةٌ لِشِفاءِ القَلْبِ مِنْ عِلَلِهِ وأَمْراضِهِ ، حَتَّى يَكُونَ سَلِيماً ، فَيَنْجُو صاحِبُهُ يَوْمَ الحِسابِ الأَكْبَرِ

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[2]

ولَيْستِ الخَلْوَةُ عُزْلَةً دائِمَةً ، وانْزِواءً مُسْتَمِرّاً عَنِ النَّاسِ ، فَكَما أَنَّ المَرِيضَ يَقْضِي فَتْرَةً يَسِيرَةً مِنَ الوَقْتِ في المُسْتَشْفَى كَي يَتَخَلَّصَ مِنْ أَمْراضِهِ الجَسَدِيَّةِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ لِلْعَمَلِ بِصِحَّةٍ أَوْفَرَ ومَناعَةٍ أَقْوَى ، مُتَلَذِّذاً بِنَعِيمِ العافِيَةِ فَكَذَلِكَ المُسْلِمُ يَقْضِي في الخَلْوَةِ فَتْرَةً يَسِيرَةً ، يَخْرُجُ بَعْدَها لِلْحَياةِ العَمَلِيَّةِ ، قَوِيَّ الصِّلَةِ بِرَبِّهِ ، عامِرَ القَلْبِ بِالإِيمانِ واليَقِينِ مُتَمَتِّعاً بِالمَناعَةِ القَوِيَّةِ مِنْ تَسَرُّبِ بَهارِجِ الحَياةِ الخادِعَةِ ومَفاتِنِها المُغْرِيَةِ إِلَى نَفْسِهِ ،وخُصُوصاً بَعْدَأَنِ اطَّلَعَ عَلَى حَقائِقِها الفانِيَةِ ، وتَذَوَّقَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[3]

فَكَمْ نَرَى مِنَ النَّاسِ مَنْ يَهْتَمُّ بِجِسْمِهِ الفانِي ويُوَفِّرُ لَهُ أَسْبابَ الصِّحَّةِ ، ويُفَرِّغُ لَـهُ كَثِيراً مِنْ وَقْتِهِ لِلاسْتِجْمامِ والاسْتِشْفاءِ والرَّاحَةِ ، فَإِذا دُعِيَ إِلَى

---

(١) مِنَ حَدِيثٍ قُدْسِيٍّ أَوَّلُهُ : (أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وأَنا مَعَهُ إِذا ذَكَرَني ، فَإِنْ ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي ، وإِنْ ذَكَرَني في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُم ، وإِنْ تَقَرَّبَ إِلى شِبْراً ...) الحَدِيثُ أَخرجَهُ البُخارِي في صَحِيحِهِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ .

(٢) سُورَةُ الشُّعَراء الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) سُورَةُ الرَّحْمن الآيَة ٢٦ .

تَطْبِيبِ قَلْبِهِ وتَهْذِيبِ نَفْسِهِ ، في فَتْرَةٍ وجِيزَةٍ يَخْلُو فِيها بِرَبِّهِ ، إذا بِهِ يُعْرِضُ ويَسْتَغْرِبُ ، ويَعْتَبِرُ ذَلِكَ - لِجَهْلِهِ - ضَياعاً لِلْوَقْتِ ، وابْتِداعاً لا أَصْلَ لَهُ في الدِّينِ . فَمِثْلُ هَذا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ قَوْلُ بَعْضِهِم :

تُطَبِّبُ جِسْمَكَ الفانِي لِيَبْقَى * وتَتْرُكُ قَلْبَكَ الباقِي مَرِيضَا

فَلَوْ فِهِمَ الإنْسانُ حَقِيقَةَ الإسْلامِ ، وأَنَّهُ دَعا لإصْلاحِ الأَبْدانِ والقُلُوبِ مَعاً لاهْتَمَّ بِقَلْبِهِ كَما يَهْتَمُّ بِجِسْمِهِ ، وصَدَق أَبو الفَتْحِ البُسْتِي يَوْمَ قالَ :

يا خادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ * أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ واسْتَكْمِلْ فَضائِلَها * فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لا بالجِسْمِ إِنْسانُ

فَعَلَى الإِنْسانِ المُؤْمِنِ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَلَواتٌ يُراقِبُ بِها رَبَّهُ ، ويُحاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى ما قَدَّمَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، وحِينَئِذٍ يَنْفُذُ الذِّكْرُ إِلَى سُوَيْداءِ قَلْبِهِ ؛ فَيَرْتَسِمُ الاسْمُ المُفْرَدُ فِيهِ ، وتَرْتَحِلُ عَنْهُ الغَفْلَةُ، وتَزُولُ الأَغْيارُ ، ويَشْعُرُ بِحَلاوَةِ الأُنْسِ بِاللهِ تَعالَى ، ويَتَرَقَّى في مَدارِجِ الأَذْواقِ والمَعارِفِ مِمَّا لا يَسْتَطِيعُ البَيانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ، ولَيْسَ لَهُ سِوَى الذَّوْقِ إِفْشاءُ .

وخُلاصَةُ القَوْلِ ؛ إِنَّ الخَلْوَةَ نَوْعان :

خَلْوَةٌ عامَّةٌ : يَنْفَرِدُ بِها الإِنْسانُ المُؤْمِنُ لِيَتَفَرَّغَ لِذِكْرِ اللهِ تَعالَى بِأَيَّةِ صِيغَةٍ كانَتْ ، أَو لِتِلاوَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ ، أَو مُحاسَبَةِ نَفْسِهِ ، أَو لِيَتَفَكَّرَ في خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ .

وخَلْوَةٌ خاصَّةٌ : يَقْصِدُ مِنْها الوصُولَ إِلَى مَراتِبِ الإِحْسانِ والتَّحَقُّقِ بِمَدارِجِ المَعْرِفَةِ . وهَذِهِ لا تَكُونُ إِلاَّ بِإِشْرافِ مُرْشِدٍ مَأْذُونٍ ، يُلَقِّنُ المُرِيدَ ذِكْراً مُعَيَّناً ويَكُونُ عَلَى صِلَةٍ دائِمَةٍ بِهِ لِيُزِيلَ عَنْهُ الشُّكُوكَ ويَدْفَعَهُ إِلَى آفاقِ المَعْرِفَةِ ، ويَرْفَعَ عَنْهُ الحُجُبَ والأَوْهامَ والوَساوِسَ ، ويَنْقُلَهُ مِنَ الكَوْنِ إِلَى المُكَوِّنِ .

ولا يَظُنَنَّ إنْسانٌ أَنَّ الخَلْوَةَ خاتِمَةُ السَّيْرِ ، بَلْ هِيَ أَوَّلُ خُطْوَةٍ في طَرِيقِ الوُصُولِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، فَلا بُدَّ أَنْ تَتْلُوَها خَلَواتٌ ومُجاهَداتٌ طَوِيلَةٌ ومُذاكَرَةٌ مُتَواصِلَةٌ لِلْمُرْشِدِ بِهِمَّةٍ وصِدْقٍ واسْتِقامَةٍ ، ومُلازَمَةٌ عَلَى ذِكْرِ الاسْمِ المُفْرَدِ في الصَّباحِ والمَساءِ ، وعِنْدَ كُلِّ فَراغٍ ، حَتَّى يَكُونَ عَلَى اتِّصالٍ دائِمٍ بِاللهِ تَعالَى قَدْ جَمَعَ بَيْنَ مَرْتَبَتَي الإِحْسانِ : المُراقَبَةِ والمُشاهَدَةِ ؛ اللَّتَيْنِ أَشارَ إِلَيْهِما الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ بِقَوْلِهِ : (الإِحْسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ) .

الإنشاد الصوفي

إرشاد ومواعظ وفوائد

إرشـاد ومواعِظ وفوائِد

عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً)[١]

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ (المادَّةَ الأَساسِيَّةَ لِلْبِناءِ) مَعَ القَوْمِ في بِناءِ المَسْجِدِ وهُمْ يَرْتَجِزُونَ ويقُولُونَ :

اللهُمَّ لا عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَة * فانْصُرِ الأَنْصارَ والمُهاجِرَة[٢]

وعَنْ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ ، قالَ : (خَرَجْنا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلى خَيْبَرَ ، فَسِرْنا لَيْلاً ، فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ لِعامِرِ بنِ الأَكْوَعِ : أَلا تُسْمِعُنا مِنْ هُنَيْهاتِكَ ؟ وكانَ عامِرُ رَجُلاً شاعِراً ، فَنَزَلَ يَحْدو بِالقَوْمِ ويَقُولُ :

اللهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا * ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فاغْفِرْ فِداءٌ لَكَ ما اقْتَضَيْنا * وثَبِّتِ الأَقْدامَ إِنْ لاقَيْنا
وأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنا * إِنَّا إِذا صِيحَ بِنا أَتَيْنا
وبِالصِّياحِ عَوَّلُوا عَلَيْنا

فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ هذا السَّائِقُ ؟) قالُوا : عامِرُ بنُ الأَكْوَعِ ، قالَ ﷺ : (يَرْحَمُهُ الله) ، فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ : وَجَبَتْ يا رَسُولَ الله ، لَوْلا أَمْتَعْتَنا بِهِ ، فَأُصِيب ......) الحَدِيث .[٣]

وعَنِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) ﷺ كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَضَعُ لـ(حَسَّانَ) مِنْبَراً في المَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قائِماً يُفاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ويَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ : (إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ ما نافَحَ أَو فاخَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ) .[٤]

---

(١) أخرجَهُ (البُخارِيُّ) في صَحيحِهِ في كِتابِ الأَدَبِ ، و(مُسْلِمٌ) في كِتابِ الجِهاد .

(٢) قالَ ابْنُ الأَثِيرِ في النِّهايَة : (الرَّجَزُ : بَحْرٌ مِنْ بُحُورِ الشِّعْرِ مَعْرُوفٌ ، ونَوْعٌ مِن أَنْواعِهِ يَكُونُ كُلُّ مِصراعٍ مِنْهُ مُفْرداً . وتُسَمَّى قَصائِدُهُ أَراجِيزَ ، فَهُوَ كَهَيْئَةِ السَّجْعِ إِلاَّ أَنَّهُ في وَزْنِ الشِّعْر .

(٣) أخرجَهُ (البُخارِيُّ) في صَحيحِهِ في كِتابِ الأَدَبِ ، و(مُسْلِمٌ) في كِتابِ الجِهاد .

(٤) أخرجَهُ (مُسْلِمٌ) في صَحيحِهِ في كِتابِ فَضائِلِ الصَّحابَةِ ، وأَوَّلُ الحَدِيث : (إِنَّ رُوحَ القُدُس ....) .

يَقُولُ العَلاَّمَةُ السَّفارِيني شارِحُ مَنْظُومَةِ الآداب : (وفي رِوايَةِ أَبِي بَكْرِ بنِ الأَنْبارِي ، أَنَّ كَعْبَ بنَ زُهَيْرٍ لَمَّا جاءَ تائِباً وقالَ قَصِيدَتَهُ المَشْهُورَة :

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ * مُتَيَّمٌ إِثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

إِلَى أَنْ وَصَلَ :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ * مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

رَمَى ﷺ إِلَيْهِ بُرْدَةً كانَتْ عَلَيْهِ ، وإِنَّ (مُعاوِيَةَ) بَذَلَ فِيها عَشَرَةَ آلافٍ فَقالَ ما كُنْتُ لأُوثِرَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ أَحَداً فَلَمَّا ماتَ (كَعْبٌ) بَعَثَ (مُعاوِيَةُ) إِلَى وَرَثَتِهِ بِعِشْرِينَ أَلْفاً فَأَخَذَها مِنْهُم ..... إِلَى أَنْ قالَ : تَحَصَّلَ مِنْ إِنْشادِ قَصِيدَةِ (كَعْبِ بنِ زُهَيْرٍ) رضي الله عنه بَيْنَ يَدَي (رَسُولِ اللهِ) ﷺ ، وإِعْطائِهِ البُرْدَةَ عِدَّةُ سُنَنٍ :

١ - إِباحَةُ إِنْشادِ الشِّعْرِ ٢ - إِسْتِماعُهُ في المَساجِدِ ٣ - الإِعْطاءُ عَلَيْهِ)[١]

وقَدْ ذَكَرَ الإِمامُ الشَّاطِبِيُّ في كِتابِهِ الاعْتِصام : (أَنَّ أَبا الحَسَنِ القَرافي الصُّوفي يَرْوِي عَنِ الحَسَنِ البَصْرِي رَحِمَهُ اللهُ : أَنَّ قَوْماً أَتَوا عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه فَقالُوا : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّ لَنا إِماماً إِذا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ تَغَنَّى ، فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه : مَنْ هُوَ ؟ فَذُكِرَ الرَّجُلُ ، فَقالَ : قُومُوا بِنا إِلَيْهِ ، فَإِنَّا إِنْ وَجَّهْنا إِلَيْهِ يَظُنُّ أَنَّا تَجَسَّسْنا عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، قالَ : فَقامَ عُمَرُ رضي الله عنه مَعَ جَماعَةٍ مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى أَتَوا الرَّجُلَ وهُوَ في المَسْجِدِ ، فَلَمَّا أَنْ نَظَرَ إِلَى عُمَرَ قامَ فاسْتَقْبَلَهُ فَقالَ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ما حاجَتُكَ ؟ وما جاءَ بِكَ ؟ إِنْ كانَتِ الحاجَةُ لَنا كُنَّا أَحَقَّ بِذَلِكَ مِنْكَ أَنْ نَأْتِيَكَ ، وإِنْ كانَتِ الحاجَةُ لِلهِ فَأَحَقُّ مَنْ عَظَّمْناهُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقالَ لَهُ عُمَرُ : وَيْحَكَ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ ساءَنِي ، قالَ : وما هُوَ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ؟ قالَ : أَتَتَمَجَّنُ في عِبادَتِكَ ؟ قالَ :

---

(١) غذاءُ الألباب لـ(السَّفاريني) .

لا يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، لَكِنَّها عِظَةٌ أَعِظُ بِها نَفْسِي قالَ : عُمَرُ : قُلْها فَإِنْ كانَ كَلاماً حَسَناً قُلْتُهُ مَعَكَ ، وإِنْ كانَ قَبِيحاً نَهَيْتُكَ عَنْهُ ، فَقالَ :

وفُؤادي كُلَّما عاتَبْتُهُ * في مَدَى الهُجْرانِ يَبْغِي تَعَبِي
لا أُراهُ الدَّهْرَ إِلَّا لاهِياً * في تَمادِيهِ فَقَدْ بَرَّحَ بِي
يا قَرِينَ السُّوءِ ما هَذا الصِّبا * فَنِيَ العُمْرُ كَذا في اللَّعِبِ
وشَبابٌ بانَ عَنِّي فَمَضَى * قَبْلَ أَنْ أَقْضِيَ مِنْهُ أَرَبِي
ما أُرَجِّي بَعْدَهُ إِلَّا الفَنا * ضَيَّقَ الشَّيْبُ عَلَيَّ مَطْلَبِي
وَيْحَ نَفْسِي لا أَراها أَبَداً * في جَمِيلٍ لا ولا في أَدَبِ
نَفْسِي لا كُنْتِ ولا كانَ الهَوَى * راقِبِي المَوْلَى وخافِي وارْهَبِي

فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه :

نَفْسِي لا كُنْتِ ولا كانَ الهَوَى * راقِبِي المَوْلَى وخافِي وارْهَبِي

ثُمَّ قالَ عُمَرُ رضي الله عنه : عَلَى هَذا فَلْيُغَنِّ مَنْ غَنَّى)[١].

وقالَ الإِمامُ الشافِعِيُّ رضي الله عنه : (الشِّعْرُ كَلامٌ ؛ فَحَسَنُهُ حَسَنٌ ، وقَبِيحُهُ قَبِيحٌ)

وقالَ العَلَّامَةُ النَّوَوِي : (لا بَأْسَ بِإِنْشادِ الشِّعْرِ في المَسْجِدِ إِذا كانَ مَدْحاً لِلنُّبُوَّةِ أَو الإِسْلامِ ، أَو كانَ حِكْمَةً أَو في مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، أَو الزُّهْدِ ونَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَنْواعِ الخَيْرِ)[٢].

وقالَ أَبُو بَكْرٍ بنِ العَرَبي المالِكي شارِحُ سُنَنِ التِّرْمِذِي :

(لا بَأْسَ بِإِنْشادِ الشِّعْرِ في المَسْجِدِ إِذا كانَ في مَدْحِ الدِّينِ وإِقامَةِ الشَّرْعِ)[٣].

وأَمَّا الحُداءُ فَقَدْ قالَ حُجَّةُ الإِسْلامِ (الغَزالِي) في الإِحْياء :

---

(١) الاعْتِصامُ للإمامِ (الشَّاطِبي) .
(٢) شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ للإمامِ النَّوَوِي (كِتاب فَضائِل الصَّحابَة) .
(٣) تُحْفَةُ الأَحْوَذِي شَرْحُ سُنَنِ التِّرْمِذِي .

(لَمْ يَزِلِ الحُداءُ وَراءَ الجِمالِ مِنْ عادَةِ العَرَبِ في زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وزَمانِ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، وما هُوَ إلاَّ أَشْعارٌ تُؤَدَّى بِأَصْواتٍ طَيِّبَةٍ وأَلْحانٍ مَوْزُونَةٍ ، ولَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحابَةِ إِنْكارُه).[1]

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه : (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ في سَفَرٍ ، وكانَ غُلامٌ يَحْدُو بِهِنَّ يُقالُ لَهُ أَنْجَشَة ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : رُوَيْدَكَ يا أَنْجَشَةُ سَوْقَكَ بِالقَوارِيرِ ، قالَ أَبُو قِلابَة يَعْني ضَعَفَةَ النِّساء).[2]

قالَ الحافِظُ ابْنُ حَجَرَ في شَرْحِ البُخارِي : (قالَ ابْنُ بَطَّال : القَوارِيرُ : كِنايَةٌ عَنِ النِّساءِ اللاَّتِي كُنَّ عَلَى الإبِلِ الَّتي تُساقُ حِينَئِذٍ ، فَأَمَرَ ﷺ الحادِيَ بِالرِّفْقِ بِالحُداءِ ، لأَنَّهُ يَحُثُّ الإِبِلَ حَتَّى تُسْرِعَ ، فَإِذا أَسْرَعَتْ لَمْ يُؤْمَنْ عَلَى النِّساءِ السُّقُوطُ ، وإذا مَشَتْ رُوَيْداً أُمِنَ عَلَى النِّساءِ السُّقُوطُ) .

ويَلْتَحِقُ بِالحُداءِ هُنا الحُداءُ لِلْحَجِيجِ المُشْتَمِلُ عَلَى التَّشَوُّقِ إِلَى الحَجِّ بِذِكْرِ الكَعْبَةِ وغَيْرِها مِنَ المَشاهِدِ ، ونَظِيرُهُ ما يُحَرِّضُ أَهْلَ الجِهادِ عَلَى القِتالِ .

وأَخْرَجَ (الطَّبَرِي) مِنْ طَرِيقِ (ابْنِ جُرَيْج) قالَ : سَأَلْتُ عَطاءً عَنِ الحُداءِ والشِّعْرِ والغِناءِ ، فَقالَ : لا بَأْسَ بِهِ ، ما لَمْ يَكُنْ فُحْشاً .

وقالَ ابْنُ بَطَّال : ما كانَ في الشِّعْرِ والرَّجَزِ ذِكْراً لِلَّهِ تَعالَى ، وتَعْظِيماً لَهُ ، ووَحْدانِيَّتَهُ ، وإِيثارَ طاعَتِهِ ، والاسْتِسْلامَ لَهُ فَهُوَ حَسَنٌ مُرَغَّبٌ فِيهِ ، وهُوَ المُرادُ مِن الحَدِيثِ : (إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً) وما كانَ كَذِباً وفُحْشاً فَهُوَ مَذْمُوم .

إِلَى أَنْ قالَ : ومُحَصِّلُهُ : أَنَّ الحُداءَ بِالرَّجَزِ والشِّعْرِ لَمْ يَزَلْ يُفْعَلُ في الحَضْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، ورُبَّما الْتُمِسَ ذَلِكَ ، ولَيْسَ هُوَ إِلاَّ أَشْعاراً تُوزَنُ بِأَصْواتٍ طَيِّبَةٍ ، وأَلْحانٍ مَوْزُونَةٍ).[3]

---

(١) إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين .
(٢) أخرجَهُ (البُخارِيُّ) في صَحِيحِهِ في كِتابِ فَضائِلِ الصَّحابَةِ .
(٣) فَتْحُ البارِي شَرْحُ صَحِيحِ البُخارِي لِلْحافِظ (أَحْمَدَ بنِ حَجَرَ العَسْقَلاني) تُوفِّيَ سَنَةَ ٨٥٢ هـ .

وقالَ العَلاَّمَةُ السَّفارِيني في مَنْظُومَةِ الآداب : (قالَ في الإقْناعِ وغَيْرِهِ : ويُباحُ الحُداءُ الَّذي تُساقُ بِهِ الإبِلُ ونَشِيدُ الأَعْراب) .

وقالَ السَّفارِيني أَيْضاً : (المَذْهَبُ الإباحَةُ مِنْ غَيْرِ كَراهَةٍ لِما تَضافَرَتْ بِهِ الأَخْبارُ ، وتَظاهَرَتْ بِهِ الآثارُ مِنْ إنْشادِ الأَشْعارِ ، والحُداءِ في الأَسْفارِ ، وقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ العُلَماءِ الإجْماعَ عَلَى إباحَةِ الحُداء)[١].

قالَ الفَقِيهُ خَلِيلُ النَّحْلاوِي الدِّمَشْقي في كِتابِهِ (الحَظْرُ والإباحَةُ) :

الغِناءُ وهُوَ السَّماعُ ، قالَ في الفَتاوَى الخَيْرِيَّة - بَعْدَ أَنْ نَقَلَ أَقوالَ العُلَماءِ واخْتِلافَهُم في مَسْأَلَةِ السَّماعِ - :

(وأَمَّا سَماعُ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ ، فَبِمَعْزَلٍ عَنْ هَذا الخِلافِ ، بَلْ ومُرْتَفِعٌ عَنْ دَرَجَةِ الإباحَةِ إلَى رُتْبَةِ المُسْتَحَبِّ كَما صَرَّحَ بِهِ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ المُحَقِّقِينَ)[٢].

ولَمَّا كانَتِ الغايَةُ مِنَ الإنْشادِ : الإرْشادَ ، والمَواعِظَ والفوائِدَ ، حَيْثُ إنَّ مِنْ طَبِيعَةِ سَماعِهِ إثارَةَ كَوامِنِ النُّفُوسِ ، وتَهْيِيجَ مَكْنُوناتِ القُلُوبِ ، بِما فِيها مِنَ الأُنْسِ بِالحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ ، والشَّوْقِ إلَى الأَنْوارِ المُحَمَّدِيَّةِ ، مِمَّا اتَّصَفَ بِهِ ساداتُنا الصُّوفِيَّةُ الَّذِينَ لَمْ يُحْجَبُوا بِالأَصْواتِ لَهْواً ، ولا يَجْتَمِعُونَ عَبَثاً ، وهُمْ في وادٍ والنَّاسُ في وادٍ آخَر ، والسِّرُّ أَنَّهُم سَمِعُوا ما لَمْ يَسْمَعِ النَّاسُ ، وعَرَفُوا ما لَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ ، فَسَماعُهُمْ يُثِيرُ أَحْوالَهُم الحَسَنَةَ ، ويُظْهِرُ وَجْدَهُمْ ، ويَبْعَثُ ساكِنَ الشَّوْقِ ويُحَرِّكُ القَلْبَ ، ولَمَّا كانَتْ قُلُوبُهُم بِرَبِّهِمْ مُتَعَلِّقَةً ، وعَلَيْهِ عاكِفَةً ، وفي حَضْرَةِ قُرْبِهِ قائِمَةً : فالسَّماعُ يَسْقِي أَرْواحَهُم ، ويُسْرِعُ في سَيْرِهِمْ إلَى اللهِ تَعالَى ، خِلافاً لِسَماعِ الفَسَقَةِ اللِّئامِ ؛ يَجْتَمِعُونَ عَلَى اللَّهْوِ وآلاتِ الطَّرَبِ وفُحْشِ الكَلامِ ، فَيَبْعَثُ ما في قُلُوبِهِم مِنَ الفُحْشِ والفِسْقِ ، ويُنْسِيهِمْ واجِباتِهِمْ تِجاهَ اللهِ تَعالَى ، وعَلَى ذَلِكَ لا يُمْكِنُ قِياسُ الأَبْرارِ

---

(١) غِذاءُ الأَلْبابِ شَرْحُ مَنْظُومَةِ الآدابِ لِلعَلاَّمَةِ (السَّفارِيني) .
(٢) الدُّرَرُ المُباحَةُ في الحَظْرِ والإباحَةِ لِلفَقِيه (خَلِيل بنِ عَبْدِالقادِرِ الشَّيْباني) الشَّهِير بالنَّحلاوِي .

بالفُجَّار ، ولا الصَّالِحِينَ بالطَّالِحِين) .

وفي مَعْرِضِ الحَدِيثِ عَنْ فَوائِدِ الاسْتِماعِ لَدَى سادَاتِنا الصُّوفِيَّةِ يَطِيبُ لِلنَّفْسِ ذِكْرُ بَعْضِ الشَّواهِدِ المَرْوِيَّةِ عَنْهُم ، فَمِنْها :

❁ ما قالَهُ أَبُو عُثْمانَ النَّيْسابُوري : (أَنْشَدَ قَوَّالٌ بَيْنَ يَدَي الحارِثِ المُحاسِبي هَذِهِ الأَبْيات :

أَنا في الغُرْبَةِ أَبْكِي * ما بَكَتْ عَيْنُ غَرِيبِ

لَمْ أَكُنْ يَوْمَ خُروجِي * مِنْ بِلادِي بِمُصِيبِ

عَجَباً لِي ولِتَرْكِي * وَطَناً فِيهِ حَبِيبِي

فَقامَ يَتَواجَدُ ويَبْكِي ، حَتَّى رَحِمَهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَهُ)(١).

❁ (لَمَّا وَرَدَ ذُو النُّونِ المَصْرِي بَغْدادَ جاءَهُ قَوْمٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ بِقَوَّالِهِمْ ، وطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِأَنْ يَقُولَ ، فَأَذِنَ لَهُ فَأَنْشَدَ :

صَغِيرُ هَواكَ عَذَّبَنِي * فَكَيْفَ بِهِ إِذا احْتَنَكا

وأَنْتَ جَمَعْتَ في قَلْبِي * هَوىً قَدْ كانَ مُشْتَرَكا

أَما تَرْثِي لِمُكْتَئِبٍ * إِذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بَكَى

فَقامَ ذُو النُّونِ وسَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ)(٢).

ورُوِيَ : (أَنَّ أَبا الحُسَيْنِ النُّورِي كانَ مَعَ جَماعَةٍ في دَعْوَةٍ ، فَجَرَتْ بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةٌ في العِلْمِ وأَبُو الحُسَيْنِ ساكِتٌ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وأَنْشَدَهُم :

رُبَّ وَرْقاءَ هَتُوفٍ في الضُّحَى * ذاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ

ذَكَرَتْ إِلْفاً ودَهْراً صالِحاً * وبَكَتْ حُزْناً فَهاجَتْ حَزَنِي

فَبُكائِي رُبَّما أَرَّقَها * وبُكاها رُبَّما أَرَّقَنِي

---

(١) طَبَقاتُ الصُّوفِيَّةِ لـ(أَبي عَبْدِالرَّحْمَنِ السُّلمي) المُتَوَفَّى ٤١٢ هـ . بِتَحْقِيقِ نُورالدِّين شَرِيبَة.

(٢) إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين .

وَلَقَدْ تَشْكُو فَما أَفْهَمُها ❋ ولَقَدْ أَشْكُو فَما تَفْهَمُنِي
غَيْرَ أَنِّي بِالجَوَى أَعْرِفُها ❋ وهِيَ أَيْضاً بِالجَوَى تَعْرِفُنِي

قالَ : فَما بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ القَوْمِ إِلاَّ قامَ وتَواجَدَ ، ولَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ هَذا الوَجْدُ مِنَ العِلْمِ الَّذي خاضُوا فيهِ ، وإِنْ كانَ العِلْمُ جِدّاً وحَقّاً)[١] .

قالَ السَّفارِينِي في غِذاءِ الأَلْبابِ : (والسَّماعُ مُهَيِّجٌ لِما في القُلُوبِ ، مُحَرِّكٌ لِما فِيها ، فَلَمَّا كانَتْ قُلُوبُ القَوْمِ مَعْمُورَةً بِذِكْرِ اللهِ تَعالَى ، صافِيَةً مِنْ كَدَرِ الشَّهَواتِ ، مُحْتَرِقَةً بِحُبِّ اللهِ ، لَيْسَ فِيها سِواهُ ، الشَّوْقُ والوَجْدُ والهَيَجانُ والقَلَقُ كامِنٌ في قُلُوبِهِم كُمُونَ النَّارِ في الزِّنادِ ، فَلا تَظْهَرُ إِلاَّ بِمُصادَفَةِ ما يُشاكِلُها ؛ فَمُرادُ القَوْمِ فِيما يَسْمَعُونَ إِنَّما هُوَ مُصادِفٌ ما في قُلُوبِهِم فَيَسْتَثِيرُهُ بِصَدْمَةِ طُروقِهِ ، وقُوَّةِ سُلْطانِهِ ، فَتَعْجَزُ القُلُوبُ عَنِ الثُّبُوتِ عِنْدَ اصْطِدامِهِ ، فَتَنْبَعِثُ الجَوارِحُ بِالحَرَكاتِ والصَّرَخاتِ والصَّعَقاتِ لِثَوَرانِ ما في القُلُوبِ ، لا أَنَّ السَّماعَ يُحْدِثُ في القُلُوبِ شَيْئاً .

ولِهَذا قالَ أَبُو القاسِمِ الجُنَيْد : (السَّماعُ لا يُحْدِثُ في القُلُوبِ شَيْئاً ، وإِنَّما هُوَ مُهَيِّجُ ما فِيها ، فَتَراهُم يَهِيجُونَ مِنْ وَجْدِهِمْ ، ويَنْطِقُونَ مِنْ حَيْثُ قَصْدُهُمْ ، ويَتَواجَدُونَ مِنْ حَيْثُ كامِناتُ سَرائِرِهِمْ ، لا مِنْ حَيْثُ قَوْلُ الشَّاعِرِ ، ولا يَلْتَفِتُونَ إِلَى الأَلْفاظِ لأَنَّ الفَهْمَ سَبَقَ إِلَى ما يَتَخَيَّلُهُ الذِّهْنُ .

وشاهِدُ ذَلِكَ كَما حُكِيَ : أَنَّ أَبا حَكَمانَ الصُّوفِيَّ سَمِعَ رَجُلاً يَطُوفُ ويُنادِي : (يا سَعْتَرْ بَرِّي) فَسَقَطَ وغُشِيَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا أَفاقَ قِيلَ لَهُ في ذَلِكَ ، فَقالَ سَمِعْتُهُ وهُوَ يَقُولُ : (اسْعَ تَرَى بِرِّي) .

أَلا تَرَى أَنَّ حَرَكَةَ وَجْدِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ فِيهِ ، لا مِنْ قَوْلِ القائِلِ ولا قَصْدِهِ ؟ .

كَما رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ أَنَّهُ سَمِعَ قائِلاً يَقُولُ : (الخِيارُ عَشَرَة بِحَبَّة) ،

---

(١) إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين .

فَغَلَبَهُ الوَجْدُ ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقالَ : (إِذا كانَ الخِيارُ عَشَرَةً بِحَبَّة ، فَما قِيمَةُ الأَشْرار ؟ !) .

فالمُحْتَرِقُ بِحُبِّ اللهِ تَعالَى لا تَمْنَعُهُ الأَلْفاظُ الكَثِيفَةُ عَنْ فَهْمِ المَعانِي اللَّطِيفَةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ واقِفاً مَعَ نَغمَةٍ ، ولا مُشاهَدَةِ صُورَةٍ ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ السَّماعَ يَرْجِعُ إِلَى رِقَّةِ المَعْنَى ، وطِيبِ النَّغَمَةِ ، فَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ السَّماع .

قالُوا : وإِنَّما السَّماعُ حَقِيقَةٌ رَبَّانِيَّةٌ رُوحانِيَّةٌ ، تَسْرِي مِنَ السَّمِيعِ المُسْمِعِ إِلَى الأَسْرارِ بِلَطائِفِ التُّحَفِ والأَنْوارِ ، فَتَمْحَقُ مِنَ القَلْبِ مالَمْ يَكُنْ ، ويَبْقَى فِيهِ مالَمْ يَزَلْ ، فَهُوَ سَماعُ حَقٍّ بِحَقٍّ مِنْ حَقٍّ .

قالُوا : وأَمَّا الحالُ الَّذِي يَلْحَقُ المُتَواجِدَ فَمِنْ ضَعْفِ حالِهِ عَنْ تَحَمُّلِ الوارِدِ ، وذَلِكَ لازْدِحامِ أَنْوارِ اللَّطائِفِ في دُخُولِ بابِ القَلْبِ ، فَيَلْحَقُهُ دَهَشٌ ، فَيَعْبَثُ بِجَوارِحِهِ ، ويَسْتَرِيحُ إِلَى الصَّعْقَةِ والصَّرْخَةِ والشَّهْقَةِ ، وأَكْثَرُ ما يَكُونُ ذَلِكَ لأَهْلِ البِداياتِ ، وأَمَّا أَهْلُ النِّهاياتِ فالغالِبُ عَلَيْهِمْ السُّكُونُ والثُّبُوتُ لانْشِراحِ صُدورِهِمْ ، واتِّساعِ سَرائِرِهِمْ لِلْوارِدِ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ في سُكُونِهِمْ مُتَحَرِّكُونَ ، وفي ثُبُوتِهِمْ مُتَقَلْقِلُونَ ، كَما قِيلَ لأَبِي القاسِمِ الجُنَيْد رضي الله عنه :

ما لَنا لا نَراكَ تَتَحَرَّكُ عِنْدَ السَّماعِ ؟ !

فَقالَ : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [1]) [2] .

(١) سُورَةُ النَّمْلِ مِنَ الآيَة ٨٨ . (٢) غِذاءُ الأَلْباب .

مشروعية الفرح
بإقامة موالد الصالحين

بَيانُ أَنَّ ما تُبارِكُهُ جُمُوعُ الصُّوفِيَّةِ مِنْ إِحْياءٍ لِذِكْرَى الصَّالِحِينَ (ويُعْرَفُ بِالمَوالِد) هُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّكافُلِ الاجْتِماعِيِّ ويَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى المُجْتَمَعِ (بِكَثِيرٍ مِنَ الفَوائِد)

مِنَ الوِجْهَةِ العامَّة :

كُلُّ عَمَلٍ يَعُودُ عَلَى المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ بِالخَيْرِ ، ولا يُخالِفُ نَصّاً صَرِيحاً في الدِّينِ ، ولا مَعْلُوماً مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ لا يَمْنَعُهُ الإِسْلامُ ، فَإِنَّ هَدَفَ الإِسْلامِ هُوَ صالِحُ الإِنْسانِيَّةِ وسَعادَةُ البَشَرِيَّةِ أَوَّلاً وأَخِيراً ، وحَيْثُما كانَتِ المَصْلَحَةُ فَثَمَّ شَرْعُ اللهِ .

ولَمَّا كانَ الأَصْلُ في إِقامَةِ المَوالِدِ ، هُوَ الاعْتِبارُ بِسِيرَةِ صاحِبِ المَوْلِدِ ، والانْتِفاعُ بِذِكْراهُ ، واسْتِثْمارُ فُرْصَةِ التَّجَمُّعِ لِلتَّعارُفِ والتَّعاونِ عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ، والانْصِرافُ إِلَى اللهِ بِذِكْرِهِ والتَّعَبُّدِ لَهُ ، والاسْتِماعُ إِلَى الوَعْظِ والقُرْآنِ ، وإِخْراجُ الصَّدَقاتِ (وهِيَ نَوْعٌ مِنَ الشُّكْرِ الجَماعِيِّ لِلهِ تَعالَى عَلَى تَفَضُّلِهِ بِمَنْ جَعَلَ ذِكْرَياتِ مَوالِدِهِمْ هَذِهِ خَيْراً عَلَى المُسْلِمِينَ في دِينِهِمْ ودُنْياهُم) .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ التَّجَمُّعاتِ إِنَّما هِيَ مُؤْتَمَراتٌ لِتَدارُسِ شُئُونِ المُسْلِمِينَ مَحَلِّياً وعالَمِيّاً ، فَهِيَ أَسْواقٌ دِينِيَّةٌ جامِعَةٌ لِمطالِبِ العُقُولِ والقُلُوبِ بِالإِضافَةِ إِلَى تَنْشِيطِ الحَرَكَةِ الاقْتِصادِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ والتَّرْوِيحِيَّةِ النَّظِيفَة .

لَمَّا كانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ نَدَبَ الإِسْلامُ إِلَى هَذِهِ الخَدَماتِ المُبارَكَةِ[1] ، ولِكُلٍّ مِنْها أَدِلَّتُها ، فَمَثَلاً : الوَعْظُ مَطْلُوبٌ شَرْعاً ، والقُرْآنُ مَطْلُوبٌ شَرْعاً ، والذِّكْرُ

---

(١) يَقُولُ الشَّيْخُ (المُبَشِّرُ الطِّرازِي) شَيْخُ الإِسْلامِ السَّابِقُ في تُرْكُسْتان : إِنَّ الاحْتِفالَ بِذِكْرَى المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ أَصْبَحَ واجِباً أَساسِيّاً لِمواجَهَةِ ما اسْتُجِدَّ مِنَ الاحْتِفالاتِ الضَّارَّةِ في هَذِهِ الأَيَّام .

مَطْلُوبٌ شَرْعاً ، والبَذْلُ مَطْلُوبٌ شَرْعاً ، والتَّعارُفُ مطلُوبٌ شَرْعاً ، وكَذَلِكَ التَّلاقِي في اللهِ ، والتَّراحُمُ والتَّعاطُفُ والتَّهادِي والحُبُّ .

وإذا كانَتْ أَفْرادُ الشَّيْءِ مَطْلُوبَةً آحاداً ، كانَ اجْتِماعُها أَتَمُّ وأَنْفَعُ ، وأَدْخَلُ في المَشْرُوعِيَّة .

ولَمْ يُعْرَفْ في تارِيخِ الإسْلامِ مَنْ أَنْكَرَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ المَعانِي الصَّالِحَةِ الشَّامِلَةِ ، ولَوْ بِاعْتِبارِ أَنَّها عاداتٌ مُجَرَّدَة .

مِنَ الوِجْهَةِ المَدَنِيَّة :

ومِنْ هُنا اهْتَمَّتِ الأُمَمُ عَلَى اخْتِلافِ أَدْيانِها وعَقائِدِها بِإحْياءِ ذِكْرَياتِ أَبْطالِها الدِّينِيِّينَ والمَدَنِيِّينَ بَلْ وإحْياءِ ذِكْرَياتِ أَيَّامِها الخَوالِدِ ، لِما في ذَلِكَ مِنَ التَّرْبِيَةِ النَّفْسِيَّةِ ، والتَّوْجِيهِ ، وتَرْكِيزِ المَبادِيءِ والمَذاهِبِ الَّتي تُؤْمِنُ بِها الأُمَمُ .

وقَدْ رَأَيْنا الأُمَمَ الَّتي يَفْتَقِرُ تارِيخُها إلَى الذِّكْرَياتِ والأَبْطالِ ، تَخْلُقُ لَها ذِكْرَياتٍ وأَبْطالاً أُسْطُورِيِّينَ لِتُشْبِعَ الرَّغْبَةَ الفِطْرِيَّةَ في الاعْتِزازِ بِالسَّلَفِ والقُدْوَةِ بِهِم .

فَإحْياءُ هَذِهِ الذِّكْرَياتِ المُبارَكَةِ سُنَّةٌ إنْسانِيَّةٌ مِنْ أُصُولِ طَبائِعِ الأُمَمِ وضَرورَةٌ مِنْ ضَروراتِ المُجْتَمَعِ لِلتَّنْفِيسِ والتَّرْوِيحِ المُحَبَّبِ ، ومُناسَبَةٌ ناجِحَةٌ مِنْ مُناسَباتِ الانْتِعاشِ الثَّقافِي والتِّجارِي والعِلْمِي والرُّوحِي والاجْتِماعِي والنَّفْسانِي .

الأَحْكامُ الدِّينِيَّة :

(أَوَّلاً) يُمْكِنُ الاسْتِئْناسُ في النَّدْبِ إلَى الاهْتِمامِ بِهَذِهِ الذِّكْرَياتِ بَلِ اسْتِحْسانُها بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ [1]، وفي اخْتِصاصِ يَوْمِ وِلادَةِ هَذا النَّبِيِّ

(١) سُورَةُ مَرْيَم ، مِنَ الآيَة ١٥ .

بالذِّكْرِ ، وطَلَبِ السَّلامِ فيهِ عَلَى لِسانِ الحَقِّ ، ثُمَّ تَكرَّرَ ذِكْرُهُ عَلَى لِسانِ الخَلْقِ ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾[1] ، دَلالَـــةٌ عُظْمَى وتَوْجِيهٌ ومُبارَكَةٌ صَريحَةٌ عَلَى لِسانِ الحَقِّ مُؤَكَّدَةٌ عَلَى لِسانِ صَفِيٍّ مِنْ صَفْوَةِ الخَلْقِ . فَكَيْفَ إذا كانَتْ وِلادَةُ إِنْسانٍ سَبَقَ في العِلْمِ القَديمِ أَنْ يَكُونَ لَهُ في حَياةِ النَّاسِ أَثَرٌ ، قَدْ يَتَغَيَّرُ بِسَبَبِهِ صُورَةُ المُجْتَمَعِ في مادِّيَّاتِهِ ومَعْنَوِيَّاتِهِ ؟

وإذا كانَتْ هَذِهِ المَنْزِلَةُ لِيَوْمِ (الوِلادَةِ) فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِيَوْمِ (الوَفاةِ) مَنْزِلَتُهُ وخُطُورَتُهُ التَّالِيَةُ . وإذا كانَ هَذا بِالنِّسْبَةِ لِلنَّبِيِّ بِوَصْفِهِ (داعِيَةِ الإِصْلاحِ الشَّامِلِ) فَهُوَ كَذَلِكَ لِمَنِ اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ ، وانْتَهَجَ هَدْيَهُ مِنْ عِبادِ اللهِ الصَّالِحين .

(ثانياً) : ولَقَدْ كانَ الحَبِيبُ الأَعْظَمُ ﷺ يُحْيِي بِشَخْصِهِ الكَريمِ ذِكْرَى مَوْلِدِهِ في كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً (لا في كُلِّ عامٍ مَرَّةً) وذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ كانَ يُلازِمُ صِيامَ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ ، كَما ثَبَتَ في أَكْثَرِ مِنْ حَديثٍ شَريفٍ فَسُئِلَ في هَذا ، فَقالَ ﷺ : (هُوَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيهِ وأُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ) فَكانَ صَوْمُهُ ﷺ لِهَذا اليَوْمِ شُكْراً لِلهِ ، نَوْعاً مِنْ إِحْياءِ ذِكْرَى مَوْلِدِهِ ، وتَوْجِيهاً إِلَى مَنْزِلَةِ هَذا اليَوْمِ ، وحَثّاً عَلَى الاهْتِمامِ بِشَأْنِهِ لا شَكَّ في ذَلِكَ .

(ثالِثاً) ويُؤَيِّدُ ذَلِكَ ما وَرَدَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ ، مِنْ أَنَّهُ ﷺ ذَبَحَ في آخِرِ حَجَّةٍ لَهُ بِعَدَدِ سَنَواتِ عُمْرِهِ مِنَ الإِبِلِ (ورَدَ أَنَّهُ ﷺ ذَبَحَ ثَلاثاً وسِتِّينَ بَدَنَةً (ناقَةً) في هَذا اليَوْمِ) ، ثُمَّ إِنَّ في اهْتِمامِ النَّبِيِّ ﷺ بِإِحْياءِ (سُبُوعِ) المَوْلُودِ ، تَوْجِيهٌ إِلَى تَقْديرِ يَوْمِ الوِلادَةِ كَذَلِكَ ، وعَمَلِ ما يُذَكِّرُ بِهِ وما يَكُونُ شُكْراً لِلهِ عَلَيْهِ (فَلَوْلا اليَوْمُ الأَوَّلُ ما كانَ اليَوْمُ السَّابِعُ) !! .

(رابِعاً) : يُؤْخَذُ مِنْ تَوْجِيهِهِ ﷺ إِلَى صِيامِ يَوْمِ عاشُوراء (لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَ

---

(١) سُورَةُ مَرْيَم . الآية ٣٣ .

فِيهِ سَيِّدَنا مُوسَى عليه السلام عَلَى فِرْعَوْنَ) جَوازُ إِحْياءِ ذِكْرَياتِ (أَيَّامِ اللهِ) بِما يُرْضِي اللهَ ، كَما قالَ تَعالَى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[1] ، كَما كانَ ﷺ يَصُومُ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ لِأَنَّهُ كانَ أَوَّلَ أَيَّامِ نُزولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ بِالإِضافَةِ إِلَى أَنَّهُ كانَ يَوْمَ مَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ ، فَهُوَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللهِ .

فَهَذِهِ جَمِيعاً نُصُوصٌ لا تَرْتَقِي إِلَيْها المُعارَضَةُ في مَشْروعِيَّةِ إِحْياءِ ذِكْرَياتِ المَوالِدِ ، وأَيَّامِ اللهِ بِما يُحِبُّ اللهُ ويَرْضَى .

(خامِساً) : إِرْسالُ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ كانَ رَحْمَةً مِنَ اللهِ لِلْعالَمِينَ كَما صَرَّحَ بِهِ القُرْآنُ الكَرِيمُ وكانَ فَضْلاً مِنْهُ تَعالَى عَلَى الأَكْوانِ كُلِّها .

وقَدْ قالَ تَعالَى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾[2] .

والاحْتِفالُ بِهَذِهِ الذِّكْرَى نَوْعٌ مِنَ الفَرَحِ بِرَحْمَةِ اللهِ وبِفَضْلِهِ ، فَهُوَ مِمَّا أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ الحَنِيف .

(سادِساً) : إِنَّ اللهَ أَمَرَنا بِالشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ ، ولَيْسَ أَكْرَمُ مِنْ نِعْمَةِ بَعْثِ هَذا النَّبِيِّ العَظِيمِ ﷺ فَشُكْرُ هَذِهِ النِّعْمَةِ واجِبٌ ، والاحْتِفالُ بِذِكْراهُ ﷺ نَوْعٌ مِنَ الشُّكْرِ الجَماعِي مُضافاً إِلَى الشُّكْرِ الفَرْدِي .

(سابِعاً) : ذَكَرَ اللهُ تَعالَى كَثِيراً مِنْ أَنْبِيائِهِ ، وبَعْضَ أَوْلِيائِهِ في كِتابِهِ الكَرِيمِ لِلذِّكْرَى والقُدْوَةِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[3] والاحْتِفالُ بِالمَوالِدِ تَذْكِيرٌ جَماعِيٌّ وقُدْوَةٌ جَماهِيرِيَّةٌ .

(ثامِناً) : الإِسْلامُ دِينُ التَّجَمُّعِ والجَماعَةِ ، فَقَدْ دَعا إِلَى صَلاةِ الجَماعَةِ والجُمُعَةِ والعِيدَيْنِ والحَجِّ ، لِما في تَجَمُّعِ المُسْلِمِينَ مِنْ مَنافِعَ عِلْمِيَّةٍ وإِنْسانِيَّةٍ واجْتِماعِيَّةٍ وغَيْرِها .

---

(١) سُورَةُ إبراهيم مِنَ الآيَة ٥ . (٢) سُورَةُ يُونُس مِنَ الآيَة ٥٨ . (٣) سُورَةُ الأنعام من الآية ٩٠ .

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ أَمَرَ (بِلالاً) رضي الله عنه أَنْ يُنادِيَ في النَّاسِ (الصَّلاةُ جامِعَة) لِيُهْرَعُوا إِلَيْهِ بِجَمْعٍ ، فَيَخْطُبُهُم ﷺ فِيما اسْتَجَدَّ مِنَ الأَحْداث .

ومَعْنَى هَذا اسْتِحْبابُ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الاجْتِماعِ كُلَّما كانَ هُناكَ خَيْرٌ يُرْجَى ، ولا شَكَّ في خَيْرِيَّةِ هَذا الاحْتِفالِ بِشُروطِهِ ، وتَوَفُّرِ أَسْبابِ كُلِّ خَيْرٍ دِينِيٍّ ودُنْيَوِيٍّ فِيهِ .

(تاسِعاً) : واللهُ يَقُولُ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾[1] ، فالدَّعْوَةُ إِلَى هَذا الاحْتِفالِ دَعْوَةٌ إِلَى الخَيْرِ فَهِيَ هُنا فَرْضُ كِفايَةٍ ، يَقُومُ بِهِ السَّادَةُ المُحْتَفِلُونَ عَنْ بَقِيَّةِ الأُمَّة .

(عاشِراً) : واعْتِراضُ بَعْضِهِمْ بِأَنَّ هَذا اسْتِحْداثٌ لِعيدٍ جَديدٍ غَيْرِ (عِيدَي الفِطْرِ السَّعِيدِ والأَضْحَى المُبارَكِ) مُغالَطَةٌ ، لاِخْتِصاصِ هَذَيْنِ العِيدَيْنِ بِشعائِرَ ومَعالِمَ لَيْسَتْ في هَذهِ الاحْتِفالاتِ ، فَلَيْسَ في ذِكْرَياتِ المَوالِدِ صَلَواتُ عِيدٍ ولا تَكْبِيرٌ ولا غَيْرُهُ مِنْ خَصائِصِ الأَعْياد .

(حادِي عَشَر) : والاعْتِراضُ بِقَوْلِهِ ﷺ : (لا تَتَّخِذوا قَبْرِي عِيداً) يَعْنِي لَهْواً ولَعِباً مَرْدودٌ ، إِلاَّ إِذا سَمَّيْنا تِلاوَةَ القُرْآنِ ، ومُدارَسَةَ العِلْمِ ، وأَنْواعَ العِبادَةِ ، وبَذْلَ الخَيْراتِ لَهْواً أَو لَعِباً .

وهُنا نُقَرِّرُ أَنَّهُ لا اعْتِبارَ لِما يَفْعَلُهُ الجَهَلَةُ مِنْ أَنْواعِ العَبَثِ ، فَهُوَ آفَةُ هَذهِ المَحافِلِ ، ولا بُدَّ مِنْ كِفاحِهِ بِكُلِّ الوَسائِلِ ، ونَحْنُ هُنا نَتَحَدَّثُ عَنِ المَشْروعِ لا عَنِ المَمْنُوع .

فالمَشْروعُ تَعاونٌ عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ، والمَمْنُوعُ تَعاونٌ عَلَى الإِثْمِ والعُدْوانِ ،

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرانَ مِنَ الآيَة ١٠٤ .

وشَتَّانَ ما هُما .

(ثانِي عَشَر) : وبَعْدُ : فَهَذِهِ كُلُّها ، وغَيْرُها كَثِيرةٌ مِنْ دَلائِلِ مَشْروعِيَّةِ إِحْياءِ ذِكْرَياتِ مَوْلِدِ مَوْلانا رَسُولِ اللّهِ المُصْطَفَى ﷺ، ومَوالِدِ أَوْلِياءِ اللّهِ الصَّالِحينَ بِما يُحِبُّ اللّهُ لِما فِيها مِنَ المَنافِعِ الَّتي لا تُحْصَى .

ولابُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ إِلَى الدَّعْوَى الَّتي تَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الفِكْرَةَ لَمْ تَكُنْ مَعْروفَةً بِصُورَتِها الحالِيَةِ في زَمَنِ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ ، فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ الصَّحابَةُ يَكُونُ حَراماً ، وإِلاَّ كانَتْ مَعِيشَتُنا كُلُّها اليَوْمَ حَراماً في حَرامٍ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعْروفاً مِنْ حَياتِنا هَذِهِ عَلَى عَهْدِ الصَّحابَةِ واحِدٌ عَلَى مِائَةٍ ، وبِخاصَّةٍ ما كانَتِ العادَةُ فيهِ أَغْلَبَ ، ونَحْنُ في أُمُورِ العادَةِ عَلَى ما نَشاءُ في الحَدِّ المَحْدودِ ونُعِيدُ ونُكَرِّرُ أَنَّ مَقْصُودَنا مِنْ إِقامَةِ المَوالِدِ إِحْياؤُها عَلَى الصُّورَةِ المِثالِيَّةِ ، ومِنَ الأَذْكارِ إِقامَتُها عَلَى طَرِيقَتِها الشَّرْعِيَّةِ الصَّحِيحَة .

فَفي إِحْياءِ المَوالِدِ بِصُورَتِها الصَّحِيحَةِ عَلاوَةً عَلَى أَنَّها أَجْواءٌ رُوحانِيَّةٌ يَسْتَرْوِحُ النَّاسُ فِيها رَوائِحَ الجَنَّةِ ، ويَسْتَشْرِفُونَ عَبِيقَ الغَيْبِ الأَسْنَى ، ويُشْحِنُونَ قُلوبَهُم بِالطَّاقاتِ الإِيمانِيَّةِ الهائِلَةِ ، عَلاوَةً عَلَى ذَلِكَ ؛ فَهِيَ مَواسِمُ لِلْبِرِّ يُقَدَّمُ فِيها الطَّعامُ ويُفْشَى السَّلامُ ، وتَنْتَشِرُ فِيها الثَّقافَةُ الإِسْلامِيَّةُ ، وتَنْشَطُ التِّجارَةُ وغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ المَنافِعِ .

يَلْتَقِي النَّاسُ في ساحَةِ المَوْلِدِ الَّتى يَحْتَفُونَ فِيها بِذِكْرَى الوَلِيِّ الصَّالِحِ عَلَى حُبٍّ ووُدٍّ فَيُحَقِّقُونَ صُورَةً مِنْ صُوَرِ الوَحْدَةِ واجْتِماعِ القُلُوبِ الَّتي أَرادَ الإِسْلامُ أَنْ يُقِيمَها بِما فَرَضَهُ مِنْ شَعائِرِ الجَماعَةِ والجُمُعَةِ والحَجِّ .

وفي لِقائِهِمْ هَذا وَصْلٌ لِلْوُدِّ وإِحْياءٌ لِلْحُبِّ وغَسْلٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ دَرَنِ التَّقاطُعِ والجَفاءِ ، كَما فِيها تَلاقُحٌ بَيْنَ الأَفْكارِ والخَواطِرِ والأَرْواحِ ، وقَدْ قالَ الصُّوفِيَّةُ : لِقاءُ الإِخْوانِ لِقاح .

الحق الصريح والحكم الصحيح بمشروعية إقامة الضريح

الحقُّ الصريحُ والحُكمُ الصحيحُ
بمشروعيةِ إقامةِ الضريحِ

شَهِدَ (الحَقُّ) عَزَّ وجَلَّ لِلصُّوفِيَّةِ بِالإِيمانِ وأَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ لأَنَّهُم لا يَيْأَسُونَ مِنَ المَوْتَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ (١)

وذَلِكَ أَنَّهُم يَرَوْنَ أَنَّ المَوْتَ مَرْحَلَةٌ مِنْ مَراحِلِ السَّفَرِ الإِنْسانِيِّ الكادِحِ إِلَى اللهِ ، فالمَيِّتُ عِنْدَهُمْ حَيٌّ حياةً بَرْزَخِيَّةً ، ولِلْمَيِّتِ عَلاقَةٌ أَكِيدَةٌ بِالحَيِّ ، بِما صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَحادِيثِ رَدِّ المَيِّتِ السَّلامَ عَلَى الزَّائِرِ ، ومَعْرِفَتِهِ وبِتَشْرِيعِ السَّلامِ عَلَى المَيِّتِ عِنْدَ قَبْرِهِ ، ومُحادَثَتِهِ ﷺ لِمَوْتَى (القَلِيبِ يَوْمَ بَدْرٍ) ، كَما وَرَدَتْ في عِدَّةِ أَحادِيثَ ثابِتَةٍ .

ومِنَ القُرْآنِ حَسْبُنا قَوْلُ رَبِّنا تَبارَكَ وتَعالَى :

﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ (٢)

فَهُناكَ إِذَنْ عَلاقَةٌ مُوَصَّلَةٌ بَيْنَ الحَيِّ والمَيِّتِ ، وإِلاَّ كانَ الدُّعاءُ والسَّلامُ عَلَى المَيِّتِ مُوَجَّهاً إِلَى الأَحْجار !!

وقَدْ ثَبَتَتْ زِيارَةُ الرَّسُولِ ﷺ لأَهْلِ البَقِيعِ ، وثَبَتَ سَلامُهُ ﷺ عَلَيْهِمْ ومُخاطَبَتُهُمْ والدُّعاءُ لَهُمْ .

ولِلهِ دَرُّ القائِلِ :

لا تَقُولُوا المَوْتَ مَوْتٌ * إِنَّهُ لَحَياةٌ وهْوَ غاياتُ المُنَى
لا تَرُعْكُمْ هَجْمَةُ المَوْتِ * فَما هِيَ إِلاَّ نَقْلَةٌ مِنْ ها هُنا

والصُّوفِيَّةُ يَعْتَقِدُونَ بِحَقٍّ : أَنَّ الوَلِيَّ في الدُّنْيا وَلِيٌّ بِخَصائِصِهِ الرُّوحِيَّةِ ،

---

(١) سُورَةُ المُمْتَحَنَة مِنَ الآيَة ١٣ .
(٢) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ١٧٠ .

ومَواهِبِهِ الرَّبَّانِيَّةِ ؛ والخَصائِصُ والمَواهِبُ مِنْ مُتَعلَّقاتِ الأَرْواحِ ، ولا ارْتِباطَ لَها بِالأَجْسامِ أَلْبَتَّة ، فالوَلِيُّ حِينَ يَمُوتُ تَرْتَفِعُ خَصائِصُهُ ومَواهِبُهُ مَعَ رُوحِهِ إِلَى بَرْزَخِهِ ، ولِرُوحِهِ عَلاقَةٌ كامِلَةٌ بِقَبْرِهِ ؛ بِدَليلِ ما قَدَّمْنا مِنَ السَّلامِ عَلَيْهِ ورَدِّهِ السَّلامَ ... إلخ .

ومِنْ هُنا جاءَ تَكْرِيمُ هَؤُلاءِ السَّادَةِ الصَّالِحينَ مِنْ أَصْحابِ القُبُور .

وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَضَعَ حَجَراً عَلَى قَبْرِ بَعْضِ الصَّحابَةِ ، هُوَ (عُثْمانُ بنُ مَظْعُون) رضي الله عنه[1] ، وقالَ ﷺ (أَتَعَرَّفُ بِهِ قَبْرَ أَخِي) ، وكانَ هَذا الحَدِيثُ بَعْدَ حَدِيثِ الإِمامِ (عَلِيٍّ) رضي الله عنه بِتَسْوِيَةِ القُبُورِ المُشْرِفَةِ ، ولَنا مَعَ حَديثِ الإِمامِ (عَلِيٍّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ؛ مَزِيدُ بَيانٍ نَسْتَبِينُ مِنْهُ الْحَقَّ والحَقِيقَةَ ، والحَديثُ عَنْ أَبِي الهِياجِ الأَسْدي عَنْ (عَلِيٍّ) رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ لَهُ : (أَبْعَثُكَ عَلَى ما بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ لا تَدَعْ تِمْثالاً إِلَّا طَمَسْتَهُ ولا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ) : فَقَدْ قالَ العُلَماءُ : إِنَّ المُرادَ مِنْ كَلامِ سَيِّدِنا (عَلِيٍّ) لِأَبِي الهِياجِ ؛ أَنَّهُ أَرادَ قُبُورَ المُشْرِكِينَ الَّتي كانُوا يُقَدِّسُونَها فِي الجاهِلِيَّةِ بِدَليلِ ذِكْرِ التَّماثِيلِ مَعَها[2] ، وبِهَذا الفَهْمِ لا يَتَعارَضُ هَذا الحَديثُ مَعَ ما أَقَرَّتْهُ السُّنَّةُ الثَّابِتَةُ مِنْ جَوازِ رَفْعِ القُبُور .

فَقَدْ جاءَ فِي صَحِيحِ البُخارِى عَنْ (خارِجَةَ بنِ زَيْدٍ) رضي الله عنه ما يُفيدُ أَنَّ قُبُورَ الشُّهَداءِ والصَّحابَةِ كانَتْ مُرْتَفِعَةً حَيْثُ قالَ : (رَأَيْتُنِي ونَحْنُ شُبَّان فِي زَمَنِ (عُثْمانَ بنِ عَفَّان) رضي الله عنه وإِنَّ أَشَدَّنا وَثْبَةً الَّذي يَثِبُ قَبْرَ (عُثْمانَ بنِ مَظْعُونَ) حَتَّى يُجاوِزَهُ) ، وقَدْ سَبَقَ بَيانُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ عَلَيْهِ صَخْرَةً (وكانَتْ صَخْرَةٌ عَظيمَةٌ عَجَزَ الصَّحابَةُ عَنْ رَفْعِها فَحَمَلَها رَسُولُ الله ﷺ)

---

(١) في أُسْدِ الغابَةِ : (أَنَّهُ لَمَّا تُوفِّي سَيِّدُنا إِبْراهِيمُ بنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قالَ : (إِلْحَقْ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ ، عُثْمانَ بنِ مَظْعُون) ، وأَعْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ عُثْمانَ بنِ مَظْعُون بحجرَ (صَخْرَة) وكانَ يَزُورُهُ) .

(٢) إِحْياءُ المَقْبُور مِنْ أَدِلَّةِ اسْتِحْبابِ بناءِ المَساجِدِ والقِبابِ عَلَى القُبور . لِلحافِظ (أَحْمَد مُحَمَّد الصِّدِّيق الغُماري)

وقالَ ﷺ : أَتعَرَّفُ بِهِ قَبْرَ أَخِي .

وفي مُصَنَّفِ (أَبِي شَيْبَةَ) عَنْ (عَبْد الله بنِ أَبِي بَكْرٍ) رضي الله عنه قالَ : (رَأَيْتُ قَبْرَ عُثْمانَ بنِ مَظْعُونَ مُرْتَفِعاً) .

ووَرَدَ في (نَوادِرِ الأُصُول)[1] : أَنَّ السَّيِّدَة (فاطِمَةَ الزَّهْراء) رضي الله عنها كانَتْ تَأْتِي قَبْرَ سَيِّدِنا (حَمْزَةَ) رضي الله عنه فى كُلِّ عامٍ فَتَرُمُّهُ وتُصْلِحُهُ لِئَلاَّ يَنْدَرِسَ فَيَخْفَى عَلَى زائِره .

وبِهَذا اسْتَدَلَّ العُلَماءُ عَلَى جَوازِ اتِّخاذِ ما يَدُلُّ عَلَى القَبْرِ ، وعَلَى فَضْلِ صاحِبِ القَبْرِ ، رَجاءَ اسْتِمْرارِ زِيارَتِهِ ، والدُّعاءِ لَهُ ، والقُدْوَةِ بِهِ ، والصَّدَقَةِ عِنْدَهُ ، وحِفْظِ أَثَرِه .

ومِنْ هُنا جازَ نَقْلُ المَيِّتِ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ أَفْضَلَ ، كَما صَحَّ في حَدِيثِ جابِرٍ وغَيْرِهِ .

وقالَ أَهْلُ العِلْمِ : إِنَّ الأَمْرَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ ، وقَدْ كانَتْ عِلَّةُ تَسْوِيَةِ القُبُورِ والمَنْعِ الأَوَّلِ مِنْ زِيارَتِها ، هِيَ مَخافَةُ الانْتِكاسِ والعَوْدَةِ إِلَى الشِّرْكِ ، وقَدِ اسْتَقَرَّ الإِيمانُ والتَّوْحِيدُ في قُلُوبِ النَّاسِ فَلا بَأْسَ بِعَمَلِ ما يُذَكِّرُ بِالصَّالِحِينَ لِلْقُدْوَةِ والاعْتِبارِ ، والقِيامِ بِحَقِّ صاحِبِ القَبْرِ مِنَ الزِّيارَةِ وغَيْرِها .

والخُلاصَةُ :

أَنَّ البِناءَ عَلَى قُبُورِ الصَّحابَةِ وأَهْلِ البَيْتِ والأَوْلياءِ والعُلَماءِ جائِزٌ ، وأَنَّ وَضْعَ السُّتُورِ عَلَيْها جائِزٌ أَيْضاً ، وأَنَّ بِناءَ القِبابِ إِذا كانَتْ بِأَرْضٍ مَمْلُوكَةٍ فَلا حُرْمَةَ فِيها بِلا خِلافٍ ، وأَنَّ وَضْعَ السُّرُجِ فيها جائِزٌ إِنِ انْتَفَعَ بِها مُصَلٍّ أَو طالِبُ عِلْمٍ أَو نائِمٌ أَو مارٌّ أَو نَحْوُهُ ، وأَمَّا زِيارَتُهُم والسَّلامُ عَلَيْهِم فَهِيَ مِنَ القُرَبِ المُسْتَحَبَّةِ بِلا نِزاع .

---

(١) لِلحَكِيمِ التِّرمِذي .

والواقِعُ الجَلِيُّ والعَمَلِيُّ أَنَّهُ وقَدْ مَرَّتْ مِئاتُ السِّنِينَ عَلَى هَذِهِ الأَضْرِحَةِ ، فَما عُبِدَ مِنْها ضَرِيحٌ مِنْ دُونِ اللهِ ، ولا صَلَّى مُسْلِمٌ لِوَلِيٍّ رَكْعَةً ، والمَثَلُ العَمَلِيُّ مَضْرُوبٌ بِقَبْرِ سَيِّدِنا (رَسُولِ اللهِ) ﷺ وقَبْرَي (صاحِبَيْهِ) رضي الله عنهما ، وقُبُورِ كِبارِ الأَئِمَّةِ رضي الله عنهم .

وثَمَّةَ أَمْرٌ آخَرُ لَزِمَ التَّنْوِيهُ عَلَيْهِ ، وهُوَ أَنَّ العُرْفَ وشَهادَةَ جَماعَةِ المُسْلِمِينَ المُعاصِرِينَ لِصاحِبِ الضَّرِيحِ دَلِيلٌ عَلَى صَلاحِهِ : فَقَدْ أَخْرَجَ النَّسائِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (المَلائِكَةُ شُهَداءُ اللهِ في السَّماءِ ، وأَنْتُم شُهداءُ اللهِ في الأَرْض) ، وقَدْ قالَ العُلَماءُ : إِنَّ هَذا الحَدِيثَ يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ الحَقِّ تَعالَى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، فالمُؤْمِنُونَ عُدُولٌ ، فَإِذا شَهِدُوا عَلَى إِنْسانٍ بِصَلاحٍ أَو فَسادٍ ، قَبِلَ اللهُ شَهادَتَهُم ، ويُؤَكِّدُ هَذا المَعْنَى ما أَخْرَجَهُ النَّسائِي والإِمامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: (مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ ، ومَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، أَنْتُمْ شُهَداءُ اللهِ في الأَرْض) ، وذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ هَذِهِ الأُمَّةِ ﷺ بَشَّرَها بِالخَيْرِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، ونَفَى اجْتِماعَها عَلَى غَيْرِ الحَقِّ ، فَقالَ ﷺ: (لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلالَة) ، وقالَ : (الخَيْرُ فِيَّ وفِي أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ القِيامَة) وقالَ : (مارَآهُ المُسْلِمُونَ حَسَناً ، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ) .

وهَذِهِ المُقَدِّمَةُ تَتَرَتَّبُ عَلَيْها نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ مُؤَدَّاها : أَنَّهُ إِذا كانَ الضَّرِيحُ لا يُقامُ إِلاَّ عَلَى قَبْرِ الصَّالِحِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وهَذا الصَّلاحُ لايُمْكِنُ الاسْتِدْلالُ عَلَيْهِ إِلاَّ بِشَهادَةِ غَيْرِهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ المُعاصِرِينَ لَهُ ، فَإِذا مَضَى الزَّمانُ وانْقَضَى عَصْرُ هَذا الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، فَيَظَلُّ هَذا الضَّرِيحُ شاهِداً عَلَى الثِّقَةِ في رِجالِ هَذا العَصْر .

إِلْقاءُ النُّور
عَلَى حُكْمِ صَنادِيقِ النُّذُور

النَّذْرُ في ذاتهِ مَشْروعٌ ، وإِنْ كانَ لا يَرُدُّ قَضاءً .

فاللهُ تَبارَكَ وتَعالَى يَقُولُ : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [1] ، ومَدَحَ قَوْماً فَقالَ : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [2] ، ويَقُولُ : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [3] ، وقالَ ﷺ : (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ ، ومَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلا يَعْصِهِ) [4] .

والنَّذْرُ قَدِيمٌ في الشَّرائِعِ السَّابِقَةِ كَما جاءَ عَنِ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ وأُمِّها ، وإِلَى ذَلِكَ الإِشارَةُ بِقَوْلِهِ تَعالَى حِكايَةً عَنْ (أُمِّ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ) رضي الله عنها أَنَّها قالَتْ : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ [5] ، وقَوْلِ السَّيِّدَةِ (مَرْيَمَ) رضي الله عنها اسْتِجابَةً لأَمْرِ رَبِّها تَبارَكَ وتَعالَى : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [6] ، والنَّذْرُ أَصْلاً للهِ ، و(مَنْ نَذَرَ لِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ) يَعْنِي عَمِلَ عَمَلَ أَهْلِ الشِّرْكِ ، وإِنْ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ المِلَّةِ ، فَإِذا اتَّضَحَ هَذا التَّأْصِيلُ ، كانَ لا بَأْسَ بِأَنْ تُجْمَعَ النُّذورُ بِطَرِيقَةٍ واعِيَةٍ ، لِتُصْرَفَ عَلَى أَهْلِها ، وعَلَى وُجُوهِ الخَيْرِ ، الَّتي تَعُودُ عَلَى المُسْلِمينَ بِالأَهْدَى والأَجْدَى وتَعُودُ عَلَى مَنْ كانَ سَبَباً فِيها ، وعَلَى فاعِلِها بِالأَجْرِ والمَثُوبَة .

وعِنْدَما يَكُونُ النَّاذِرُ جاهِلاً ، فَيَقُولُ مَثَلاً : هَذا النَّذْرُ لِلسَّيِّد البَدَوِي ، أَو السَّيِّدَةِ زَيْنَب ، أَو غَيْرِهِما ، فَعَلَيْنا أَنْ نُعَلِّمَهُ أَنْ يَقُولَ :

(النَّذْرُ لِلهِ ، وثَوابُهُ لِلْبَدَوِي أَو السَّيِّدَة) أَو نَحْوِ ذَلِكَ ، ولا نَرْمِيهِ بِكُفْرٍ ولا

---

(١) سُورَةُ الحَجِّ مِنَ الآيَة ٢٩ . (٢) سُورَةُ الإِنْسان ، الآيَة ٧ . (٣) سُورَةُ سَبَأ مِنَ الآيَة ٣٩ .

(٤) أَخْرَجَهُ (البُخاري) و(مُسْلِمٌ) و(أَبو داود) و(النَّسائي) و(ابنُ ماجَه) و(الإِمامُ) أَحْمَد) رضي الله عنه .

(٥) سُورَةُ آل عِمْران مِنَ الآيَة ٣٥ . (٦) سُورَةُ مَرْيَم مِنَ الآيَة ٢٦ .

شِرْكٍ ؛ فَمُرادُهُ صَحِيحٌ ، وتَعْبِيرُهُ خطَأً .

ولْنَتَذَكَّرْ أَنَّ سَيِّدَنا (سَعْداً) ﷺ عِنْدَما حفَرَ بِئْرَهُ المَعْرُوفَةَ ، قالَ : (هَـذِهِ لأُمِّ سَـعْـد) ، ولَـمْ يُنْـكِرْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ولا الصَّحابَةُ ، لِصِحَّةِ قَصْدِهِ .

وانْتِظامُ هَذا التَّعْبِيرِ مَعَ عُلُومِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ سَلِيمٌ ، فَهُوَ في اللُّغَةِ عَلَى حَذْفِ مُضافٍ تَقْدِيرُهُ (هَـذِهِ لِرَبِّ أُمِّ سَعَد) ، فالقائِلُ (هَذا لِلسَّيِّدِ البَدَوِي ، أَو لِلسَّيِّدَة ، أَو لِسيدنا الحُسين) يُرِيدُ أَنَّهُ (نَذَرَ لِرَبِّ السَّيِّد ، أَو السَّيِّدَة ، أَو الحُسَيْن) ، وإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِلِسانِهِ ، كَما حَدَثَ تَماماً مِنْ سَيِّدِنا (سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاص) ﷺ ، وإِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ ، وإِنْ أَخْطَأَتِ التَّعْبِيرَ أَحْياناً الكَلِماتُ .

الصوفيون وفهم آية

﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

كَثُرَ الكَلامُ حَوْلَ مَعْنَى هَذهِ الآيَةِ الشَّرِيفة :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1]، حَتَّى فَهِمَها بَعْضُ النَّاسِ فَهْماً يَتَنافَى مَعَ الوظِيفَةِ الإسْلامِيَّةِ ، فَنَقُولُ :

إِنَّ أَوَّلَ ما فَرَضَ اللهُ عَلَى العِبادِ : فَرَضَ مَعْرِفَتَهُ تعالَى ، فَإِنَّ العَبْدَ لا يَعْبُدُ مَنْ لا يَعْرِفُهُ !!

وقَدْ عَرَّفَهُمْ تَبارَكَ وتَعالَى إِلَى نَفْسِهِ أَزَلاً في قَدِيمِ عالَمِ الغَيْبِ كِفاحاً ، فَقالَ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾[2]، ثُمَّ عَرَّفَهُم تَبارَكَ وتَعالَى نَفْسَهُ في عالَمِ الشُّهُودِ بِما نَشَرَ في الأَكْوانِ مِنَ المَعالِمِ الخالِدَةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَعْطَى النَّاسَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِفْتاحاً ذاتِيًّا ثابِتاً هُوَ العَقْلُ والبَصَرُ ، ثُمَّ تَكَرَّمَ عَلَيْهِمْ بِمِفْتاحٍ خارِجِيٍّ مُتَجَدِّدٍ ، هُوَ إِرْسالُ الرُّسُلِ الَّذينَ خَتَمَهُمْ بِسَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ .

وقَدْ خَلَقَ اللهُ النَّاسَ لِيَعْبُدوهُ ، وهُوَ الغَنِيُّ عَنْهُمْ وذَلِكَ قَوْلُهُ تعالَى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ وجَعَلَ سُبْحانَهُ عِبادَتَهُم لَهُ خَيْراً عائِداً عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا عَلَيْهِ ، تَفَضُّلاً مِنْهُ وإِنْعاماً عَلَيْهِمْ ، فَيَقُولُ :

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾[3] ، وهُوَ الرَّزَّاقُ المُطْعِمُ ، فَكانَ الخَلْقُ لِمَصْلَحَةِ الخَلْقِ ضَرورَةَ تَجَلِّي الحَقِّ بِالحَقِّ .

فَما دامَ هُناكَ (إِلَهاً) فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُناكَ (مَأْلُوهٌ) ومادامَ أَنَّ هُناكَ (خالِقاً رازِقاً) فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُناكَ (مَخْلُوقٌ مَرْزوقٌ) فَخَلْقُ الخَلْقِ

---

(١) سُورَةُ الذّاريات الآيه ٥٦ . (٢) سُورَةُ الأَعْرافِ مِنَ الآيَة ١٧٢ . (٣) سُورَةُ الذّاريات الآيه ٥٧ .

إِقْتِضاءٌ ذاتِيٌّ لِلأُلُوهِيَّةِ لا يُسْأَلُ عَنْهُ بـ (لِمَ ؟ ، ولا كَيْفَ ؟) ، كالضَّوْء ضَرورَةٌ لِوجُودِ الشَّمْسِ ، والحَلاوَةِ مَثَلاً ضَرورَةٌ لِطَعْمِ السُّكَّر ، فَلا يُقالُ فِيها (كَيْفَ ولا لِمَ ؟) ، وإِلاَّ تَعَطَّلَتْ صِفاتُ الأُلُوهِيَّةِ (المُقَدَّسَةُ عَنِ التَّوَقُّفِ والأَعْطال)فَلْنَنْتَبِه ، فَإِنَّهُ مُنْزَلَقٌ خَطِيرٌ لِمَنْ يَجْهَلُون .

ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ المُرادُ بِالعِبادَةِ لُزومَ المَساجِدِ والانْقِطاعَ إِلَى الصَّلاةِ والذِّكْرِ ونَحْوِهِ فَقَط ، ولَكِنَّ المُرادَ مِنَ العِبادَةِ هُوَ تَحْقيقُ خِلافَةِ الإِنْسانِ عَنِ اللهِ في أَرْضِهِ عَلَى أَوْسَعِ المَعانِي الشَّامِلَةِ لِشُئُونِ الدُّنْيا وشُؤُنِ الآخِرَةِ : المادِيَّةِ والرُّوحِيَّةِ مَعاً .

فَمُمارَسَةُ أَسْبابِ التَّقَدُّمِ والحَضارَةِ مِنْ سائِرِ العُلُومِ والفُنُونِ والآدابِ والصِّناعاتِ والحِرَفِ والتِّجاراتِ والثَّقافاتِ والمِهَنِ ، والوَظائِفِ والابْتِكارِ والاخْتِراعِ والتَّجْديدِ ، وعُلُومِ السِّياسَةِ والتَّعْميرِ ونَحْوِهِ ، مِمَّا يَعُودُ عَلَى الإِنْسانِيَّةِ بِالخَيْرِ العامِّ والخاصِّ ، كُلُّ ذَلِكَ عِبادَةٌ مَقْصُودَةٌ تَماماً بِالآيَةِ ، حَتَّى الفُنُونِ العَسْكَرِيَّةِ والعُلُومِ الاقْتِصادِيَّةِ والهَنْدَسِيَّةِ والتِّكْنُولُوجِيَّةِ .... إلخ ولَكِنَّها لَنْ تَكُونَ عِبادَةً صَحيحَةً إِلاَّ إِذا نَبَتَتْ مِنْ شَرَفِ النِّيَّةِ لِتَنْتَهِيَ إِلَى شَرَفِ القَصْدِ ، وكانَتْ مَحُوطَةً بِسِياجِ الخُلُقِ الرَّفِيعِ ، وقُوَّةِ الدِّينِ القَيِّمِ الخالِصِ في حُدودِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وإِرادَةِ وَجْهِ اللهِ ، وهُوَ تَحْقيقُ خِلافَتِهِ عَلَى أَرْضِهِ .

وإِذَنْ ، تَكُونُ الصَّلاةُ والقُرْآنُ والذِّكْرُ وبَقِيَّةُ العِباداتِ وحَرَكَةُ التَّقَدُّمِ الحَضارِي عِلْماً وعَمَلاً ، والفُنُونُ والثَّقافَةُ وكُلُّ مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، وكُلُّ مَقاماتِ السُّلُوكِ إِلَى اللهِ ، صُنُوفاً داخِلَةً في مَفْهُومِ العِبادَةِ ومَضْمُونِها ، وعَلَيْهِ تَكُونُ العِبادَةُ في الآيَةِ بِمَعْنَى الحَياةِ المُتَكامِلَةِ المُتَسامِيَةِ النَّمُوذَجِيَّةِ البالِغَةِ غايَةَ

الرَّبَّانِيَّةِ في باطِنِهِ ، وهَذا هُوَ المَقْصُودُ مِنْ قَوْلِهِ تَبارَكَ وتَعالَى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1].

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآية ٣٠ .

توثيق ما نسب للصوفية من أقوال بشأن القطب والأبدال

تَوثيقُ ما نُسِبَ لِلصُّوفِيَّةِ مِنْ أقوالٍ
بِشأنِ القُطْبِ والأبْدالِ

نَتيجَةً لِجَهْلٍ أَحْياناً أَوْسُوءِ قَصْدٍ غالِباً نَسْمَعُ عَمَّنْ يُنْكِرُ عَلَى الصُّوفِيَّةِ الأَبْرار ذِكْرَ الأَقْطابِ ، والأَبْدالِ ، والأَوْتادِ ، والأَغْواثِ ، والنُّقَباءِ ، والعَصائِبِ ، والنُّجَباء .

أَمَّا أَنْ يَكُونَ جَهْلُ الجاهِلِ حُجَّةً عَلَى عِلْمِ العالِمِ ، فَهَذا مِنْ عَلاماتِ السَّاعَة .

وقَدْ كَتَبَ الحافِظُ المُحَدِّثُ (جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطي) في هَذا البابِ جُزْءاً كَريماً سَمَّاهُ (الخَبَرُ الدَّالُّ عَلَى وُجودِ الأَقْطابِ والأَوْتادِ والنُّجَباءِ والأَبْدال) وقَدْ أَجادَ وأَفادَ ، رَفَعَ اللهُ دَرَجاتِهِ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى .

وقَدْ جَمَعَ (السُّيُوطي) أَكْثَرَ ما جاءَ في هَذا البابِ مِنْ أَحادِيثَ صِحاحٍ وحِسانٍ وضِعافٍ ومَراسِيلَ مَقْبُولَةٍ عَلَى اعْتِبارِ أَنَّ الحَديثَ الضَّعِيفَ مَجْبُورٌ بِما لَهُ مِنْ شَواهِدَ ومُتابَعاتٍ وبِأَنَّهُ جاءَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فارْتَفَعَ إِلَى مَرْتَبَةِ (الحَسَنِ لِغَيْرِهِ) فَيُؤْخَذُ بِهِ حَتَّى في الأَحْكامِ ، كَما كانَ الإِمامُ (أَحْمَدُ) رضي الله عنه يَأْخُذُ بِالحَديثِ الضَّعِيفِ إِذا كانَ مَجْبُوراً بِالشُّهْرَة .

وحَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الأَحادِيثِ الضِّعافِ ما يَجْبُرُها ، فَهِيَ هُنا في بابِ التَّواريخِ والمَناقِبِ ، أَي في الفَضائِلِ الَّتي قَدْ أَجْمَعَ المُحَدِّثُونَ عَلَى جَوازِ الأَخْذِ فِيها بِالحَديثِ الضَّعِيفِ ، إِذْ أَنَّ مَعْنَى الضَّعِيفِ أَنَّهُ لا يَخْلُو مِنَ الصِّحَّةِ أَي أَنَّهُ صَحِيحٌ غَيْرُ أَنَّهُ لَمْ تَكْتَمِلْ فِيهِ كُلُّ شُروطِ الصِّحَّةِ بَيْنَما تَحَقَّقَتْ فيهِ بَعْضُ هَذِهِ الشُّروط .

مَنْ هُمْ رُواةُ هَذِهِ الأَحادِيثِ ؟

وقَدْ وَرَدَتْ أَخْبارُ ثُبُوتِ رِجالِ اللهِ عَلَى مَراتِبِهِمْ تِلْكَ ، في الأَحادِيثِ المَرْفُوعَةِ

الـمَوْقُوفَةِ عَنْ خَمْسَةَ عَشَرَ راوِياً أَو يزيدُونَ ، ومِنْهُمْ ساداتُنا :

١) عُمَرُ بنُ الخَطَّاب ٢) عَلِيٌّ بنُ أَبِي طالِب ٣) أَنَسُ بنُ مالِك

٤) حُذَيْفَةُ بنُ اليَمان ٥) عُبادَةُ بنُ الصَّامِت ٦) عَبْدُاللهِ بنُ عَبَّاس

٧) عَبْدُاللهِ بنُ عُمَرَ ٨) عَبْدُاللهِ بنُ مَسْعُود ٩) مُعاذُ بنُ جَبَل

١٠) واثِلَةُ بنُ الأَسْقَع ١١) أَبو سَعيدٍ الخُدْرِيُّ ١٢) أَبو هُرَيْرَة

١٣) أَبو الدَّرْداء ١٤) أُمُّ سَلَمَة ....رضي الله عنهم .

فَلَمْ يَبْقَ شَكٌّ في صِحَّةِ مُحَصِّلِ كُلِّ هَذهِ الرِّواياتِ وتَأْكيدِ مَضْمُونِها ، ويُصْبِحُ التَّشْكِيكُ فِيها نَوْعاً مِنَ الـمُغالَطَةِ والتَّعَصُّبِ الأَعْمَى ، والتَّخْرِيبِ العِلْمِي لِغَيْرِ وَجْهِ الله .

نَماذِجُ مِنْ أَحادِيثِ الأَبْدالِ والأَوْتادِ وإِخْوانِهِم :

١) أَخْرَجَ ابْنُ عَساكِرَ في تارِيخِ دِمَشْقَ ، بِسَنَدِهِ عَنْ (عُمَرَ) رضي الله عنه كانَ إِذا ذُكِرَ الشَّامُ قالَ : (يا لَيْتَ شِعْرِي عَلَى الأَبْدالِ ، هَلْ مَرَّتْ بِهِم الرِّكابُ ؟) .

٢) وأَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ عَنِ الإِمامِ (عَلِيٍّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : (الأَبْدالُ بِالشَّامِ . وهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلاً كُلَّما ماتَ رَجُلٌ ، أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ رَجُلاً ، يُسْقَى بِهِم الغَيْثُ ويُنْتَصَرُ بِهِم عَلَى الأَعْداء) رِجالُهُ رِجالُ الصَّحِيح ، غَيْرُ سَرْحٍ فَهُوَ ثِقَة .

ووُجُودُ الأَبْدالِ بِالشَّامِ أَخْرَجَهُ كَذَلِكَ الحاكِمُ في (المُسْتَدْرَك) وقالَ صَحِيحٌ وأَقَرَّهُ الذَّهَبِيُّ في (المُخْتَصر) وأَخْرَجَهُ غَيْرُهُم .

ومَعْنَى وُجُودِهِم بِالشَّامِ أَي وُجُودُ أَكْثَرِيَّتِهِم ، والعَدَدُ هُنا مُرادٌ بِهِ الكَثْرَةَ لا التَّحْدِيدَ الحِسابِي .

٣) أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيا في كِتابِ (الأَوْلِياء) وأَخْرَجَهُ الخَلَّالُ في

(الكَرامات) أَيْضاً ، عَنِ الإمامِ (عَلِيٍّ) قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ مَنِ الأَبْدال ؟ قالَ ﷺ : (هُم سِتُّونَ رَجُلاً) ، قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ ، صِفْهُم لَنا ، قالَ ﷺ : (لَيْسُوا بِالمُتَنَطِّعِينَ ، ولا المُبْتَدِعِينَ ، ولا المُتَفَيْهِقِينَ ، لَمْ يَنالُوا ما نالُوا بِكَثْرَةِ صَلاةٍ ولا صِيامٍ ولا صَدَقَةٍ ، ولَكِنْ بِسَخاءِ الأَنْفُسِ ، وسَلامَةِ القُلُوبِ والنَّصِيحَةِ لأَئِمَّتِهِم) وفي رِوايَةٍ (لِلْمُسْلِمِينَ) .

٤) وأَخْرَجَ ابْنُ عَساكِرَ بِسَنَدِهِ عَنِ الإمامِ (عَلِيٍّ) : إِنَّ الأَبْدالَ مِنَ الشَّامِ ، والعُصَبَ (أَى العَصائِبَ) والنُّجَباءَ والرُّفَقاءَ والأَوْتادَ مِنَ الكُوفَةِ ، وقَدْ جاءَ ذَلِكَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَة .

وأَخْرَجَ الخَلاَّلُ بِسَنَدِهِ عَنِ الإمامِ (عَلِيٍّ) قالَ : (النُّجَباءُ بِمِصْرَ ، والأَبْدالُ بِالشَّامِ وهُمْ قَليلٌ) ، وأَخْرَجَ ابْنُ عَساكِرَ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنِ الإمامِ (عَلِيٍّ) قالَ : (الأَبْدالُ مِنَ الشَّامِ ، والنُّجَباءُ مِنْ مِصْرَ ، والأَخْيارُ مِنَ العِراق) .

٥) وأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ والدَّيْلَمِي وابْنُ شاهِينَ ، والخَلاَّلُ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً ، قالَ : (الأَبْدالُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً ، وأَرْبَعُونَ امْرَأَةً ، كُلَّما ماتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ رَجُلاً ، وكُلَّما ماتَتِ امْرَأَةٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَها امْرَأَةً) ، جاءَ ذَلِكَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ وبِعِدَّةِ أَلْفاظٍ مُتَقارِبَة .

وعَنْ (أَنَسٍ) أَيْضاً مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ مَرْفُوعاً : (إِنَّ دُعامَةَ أُمَّتِي عُصَبُ اليَمَنِ وأَبْدالُ الشَّامِ) ثُمَّ وَصَفَهُم ﷺ : بِأَنَّهُم لَيْسُوا بِالمُتَماوِتِينَ ، ولا بِالمُتَهالِكِينَ ولا المُتَناوِشِين .

٦) وأَخْرَجَ الطَّبَرانِي فِي الأَوْسَطِ ، عَنْ (أَنَسٍ) قالَ : قالَ ﷺ : (لَنْ تَخْلُوَ الأَرْضُ مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلاً مِثْلَ (خَليلِ الرَّحْمَنِ) فَبِهِمْ يُسْقَوْنَ ، وبِهِم يُنْصَرُونَ) ، قالَ فِي (مَجْمَعِ الزَّوائِد) : إِسْنادُهُ حَسَن .

٧) أَخْرَجَ أَحْمَدُ والخَلاَّلُ عَنِ (ابْنِ عَبَّاسٍ) رضي الله عنهما :
(ما خَلَتِ الأَرْضُ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ مِنْ سَبْعَةٍ يَدْفَعُ اللهُ بِهِم عَنْ أَهْلِ الأَرْضِ البَلاءَ) .

٨) وأَخْرَجَ الطَّبرانِيُّ عَنِ (ابْنِ عُمَرَ) مَرْفُوعاً ، قالَ ﷺ :
(خِيارُ أُمَّتِي في كُلِّ قَرْنٍ خَمْسُمِائَةٍ ، والأَبْدالُ أَرْبَعُونَ ، فَلا الخَمْسُمِائَةِ يُنْتَقَصُونَ ، ولا الأَرْبَعُونَ ، كُلَّما ماتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مِنَ الخَمْسِمِائَةِ ، وأَدْخَلَ مِنَ الأَرْبَعِينَ مَكانَهُ) ، وأَخْرَجَ نَحْوَهُ أَبُو نُعَيْم وابْنُ عَساكِرَ وتَمَّام ، مَعَ تَفاوتٍ يَسِيرٍ في الأَلْفاظ .

٩) وأَخْرَجَ الخَلاَّلُ في كِتابِ الكَراماتِ ، عَنِ ابْنِ (عُمَرَ) مَرْفُوعاً ، قالَ ﷺ :(لا يَزالُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً يَحْفَظُ اللهُ بِهِمِ الأَرْضَ ، كُلَّما ماتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ آخَرَ ، وهُمْ في الأَرْضِ كُلِّها) .

١٠) أَخْرَجَ ابْنُ عَساكِرَ مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بنِ أَبِي الحَوارِي ، قالَ :
سَمِعْتُ أَبا سُلَيْمانَ يَقُولُ : (الأَبْدالُ بِالشَّامِ والنُّجَباءُ بِمِصْرَ ، والعَصائِبُ بِاليَمَنِ ، والأَخْيارُ بِالعِراقِ) .

١١) أَخْرَجَ الخَلاَّلُ عَنِ إِبْراهِيمَ النَّخْعي ، قالَ :
(ما مِنْ قَرْيَةٍ ولا بَلْدَةٍ إِلاَّ يَكُونُ فِيها مَنْ يُدْفَعُ بِهِ عَنْهُم) وهُم الأَغْواثُ عِنْدَ الصُّوفِيَّة) .

١٢) وأَخْرَجَ الخَلاَّلُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قالَ : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقالَ :
(يا أَبا هُرَيْرَةَ ، يَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْ هَذا البابِ السَّاعَةَ رَجُلٌ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَرْفَعُ اللهُ بِهِمْ عَنْ أَهْلِ الأَرْضِ) ، قالَ : فَإِذا حَبَشِيٌّ قَدْ طَلَعَ مِنْ ذَلِكَ البابِ أَقْرَعُ أَجْدَعُ[1] عَلَى رَأْسِهِ جَرَّةٌ مِنْ ماءٍ ، فَقالَ ﷺ : (يا أَبا هُرَيْرَةَ ، هَذا هُوَ)

---

(١) أَقْرَعُ : أَصْلَعُ الرَّأسِ لا شَعْرَ لَهُ . أَجْدَعُ : أَنْفُهُ أَقْطَس .

ثُمَّ قالَ ﷺ: (مَرْحَباً بِيَسار) ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، وكانَ يَرُشُّ المَسْجِدَ ويَكْنُسُهُ .

١٢) أَخْرَجَ أَبو نُعَيْم عَنْ (عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ) رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إنَّ لِلهِ عَزَّ وجَلَّ في الخَلْقِ ثَلاثمِائَةٍ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ آدَمَ عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ أَرْبَعُونَ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ مُوسَى عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ سَبْعَةٌ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ إبْراهِيمَ عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ خَمْسَةٌ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ جِبْرِيلَ عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ ثَلاثَةٌ قُلُوبُهُم عَلَى قَلْبِ مِيكائِيلَ عليه السلام ، ولِلهِ في الخَلْقِ واحِدٌ عَلَى قَلْبِ إسْرافِيلَ عليه السلام ، فَإذا ماتَ الواحِدُ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الثَّلاثَةِ ، وإذا ماتَ مِنَ الثَّلاثَةِ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الخَمْسَةِ ، وإذاماتَ مِنَ الخَمْسَةِ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ السَّبْعَةِ ، وإذا ماتَ مِنَ السَّبْعَةِ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الأَرْبَعِينَ . وإذاماتَ مِنَ الأَرْبَعِينَ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ الثَّلاثِمِائَةِ ، وإذا ماتَ مِنَ الثَّلاثِمائَةِ أَبْدَلَ اللهُ مَكانَهُ مِنَ العامَّة .

والخُلاصَةُ (كَما بَيَّنَّا) :

١ - هَذِهِ الأَحادِيثُ يَشُدُّ بَعْضُها بَعْضاً ، ويَأْخُذُ بَعْضُها بِرِقابِ بَعْضٍ ، مِمَّا لا يَدَعُ ظِلًّا مِنَ الشَّكِّ في حَقِيقَةِ مَوْضُوعِها وإنِ اخْتَلَفَتِ الأَلْفاظُ والرُّواةُ ، ومَعْنَى هَذا أَنَّ هُناك عالَماً رُوحِيّاً رَبَّانِيّاً قائِماً بِالفِعْلِ ،

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[1]، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[2]

٢ - أَنَّ العَدَدَ هُنا غَيْرُ مَقْصُودٍ بِحُدودِهِ الحِسابِيَّةِ ، ولَوْ فَرَضْنا أَنَّهُ مَقْصُودٌ فالتَّوْفِيقُ بَيْنَ الرِّواياتِ أَمْرٌ يَسِيرٌ .

٣ - يَتَحَصَّلُ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ أَنَّ هُناكَ : أَخْياراً ، وأَبْدالاً ، وأَوْتاداً ، ونُجَباءَ ، ونُقَباءَ ، وعَصائِبَ بِالإضافَةِ إِلَى ما جاءَ في القُرْآنِ مِنَ ذِكْرِ السَّابِقِينَ ، والمُقَرَّبِينَ ، وأَصْحابِ اليَمِينِ ، وغَيْرِهِمْ مِنْ دَرَجاتِ أَهْلِ الله .

---

(١) سُورَةُ المُدَّثِّرِ مِنَ الآيَة ٣١ . (٢) سُورَةُ يوسف من الآيَة ٧٦ .

٤- هَؤُلاءِ هُم الَّذينَ يُسَمِّيهم الصُّوفِيَّةُ بـ(الأَقْطاب) ، أَمَّا (الأَغْواثُ) فَقَدْ أَشارَتْ إِلَيْهِم الأَحادِيثُ الَّتي تَقُولُ (بِهِم يُغاثُ النَّاسُ ، وبِهِم يُنْصَرونَ) ..... إلخ .

٥ - أَنَّهُ لَيْسَ المُرادُ بِأَنَّ الطَّائِفَةَ الفُلانِيَّةَ في المَكانِ الفُلانِي في الحَدِيثِ الشَّرِيفِ حَصْرُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ في هَذا المَكانِ ، فَلا تُوجَدُ قَطُّ في غَيْرِهِ ، بَلِ المُرادُ أَنَّ أَكْثَرِيَّةَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ تَكُونُ بِهَذا المَكانِ ، وإِلاَّ فَهُم مُنْتَشِرُونَ في الأَرْضِ كُلِّها كَما جاءَ في بَقِيَّةِ الأَحادِيث .

وقَدْ يَكُونُ المَعْنَى أَنَّ أَقْطابَ النَّاحِيَةِ الفُلانِيَّةِ يُسَمَّوْنَ كَذا ، والنَّاحِيَةِ الأُخْرَى يُسَمَّوْنَ كَذا .

٦ - تَرْتِيبُ هَذِهِ المُسْتَوَياتِ مِنْ أَصْحابِ هَذِهِ الأَسْماءِ وغَيْرِهِمْ ، بَعْدَ ثُبُوتِ وُجُودِهِم ، كَما بَيَّنَّا ، أَمْرٌ واقِعِيٌّ مَنْطِقِيٌّ يَرْجِعُ إِلَى ضَرورَةِ التَّنْظِيمِ الكَوْنِيِّ ، فَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ في الكَوْنِ إِلاَّ وهُوَ يَمْضِي وِفْقَ دُسْتُورٍ وقانُونٍ نِظامِيٍّ مُعَيَّنٍ : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ ، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ ، ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

٧ - قَدْ تَخْتَلِفُ مَراتِبُ الشُّهُودِ في عالَمِ الغَيْبِ ، ولَكِنَّها لا تَتَعارَضُ ولا تَتَصادَمُ ، بَلْ هِيَ تَتَوافَقُ وتَتَنَسَّقُ ، كالشَّيْءِ الواحِدِ يَراهُ أَكْثَرُ مِنْ شَخْصٍ مِنْ جِهاتِهِ المُتَعَدِّدَةِ ، فَتَخْتَلِفُ الرُّؤْيَةُ ولا يَخْتَلِفُ الشَّيْءُ في الحَقِيقَةِ ونَفْسِ الأَمْر

الفَيْروز آبادِي والزَّبِيدي مَعَ الأَقْطاب

بَعْضُ المُصابِينَ بِداءِ كَراهِيَةِ أَئِمَّةِ الإِسْلامِ الرَّاشِدِينَ ، كَثِيراً ما يَشْغَبُونَ عَلَى الإِمامِ (السُّيُوطِي) ، وخُصُوصاً فِيما ناصَرَ بِهِ السَّادَةَ الصُّوفِيَّةَ ، وبِالأَخَصِّ في قَضِيَّةِ الأَقْطابِ ، وهُنا نُضِيفُ إِلَى هَذا الإِجْمالِ ما جاءَ عَنِ

الإِمامَيْنِ الجَلِيلَيْنِ (الفَيْروز آبادِي والزَّبِيدي) فَنَقُولُ :
في القامُوسِ المُحِيطِ لـ(الفَيْروز آبادي) يَقُولُ ما نَصُّهُ: (بَدَل) :
(والأَبْدالُ قَوْمٌ بِهِمْ يُقِيمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ الأَرْضَ ، وهُمْ سَبْعُونَ : أَرْبَعُونَ بِالشَّامِ وثَلاثُونَ بِغَيْرِها ، لا يَمُوتُ أَحَدُهُم إِلاَّ قامَ مَكانَهُ آخَرُ) .

نَقُولُ : ومَعْنَى يُقيمُ اللهُ بِهِم الأَرْضَ أَي يَرْأَفُ بِالعِبادِ ويَلْطُفُ بِهِم بِبَرَكَةِ هَؤُلاءِ وصَلواتِهِم ودُعائِهِم وتَضَرُّعِهِم لَهُ سُبْحانَه .

والفَيْروز آبادي (صاحِبُ القامُوس) : هُوَ قاضِي القُضاةِ مُحَمَّد بنُ يَعْقُوب ، وتَشْهَدُ الدُّنْيا أَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ المُحَقِّقِين .

دَخَلَ الدِّيارَ الشَّامِيَّةَ والمِصْرِيَّة ، وطافَ البِلادَ الشَّرْقِيَّةَ والشَّمالِيَّةَ ، وخَتَمَ بِالأَقْطارِ الحِجازِيَّةِ ، ودَخَلَ الهِنْدَ وما والاها ، واعْتَنَى بِالحَديثِ أَعْظَمَ عِنايَةٍ ومِنْ تَصانِيفِهِ (تَسْهِيلُ الوصُولِ إِلَى الأَحادِيثِ الزَّائِدَةِ عَلَى جامِعِ الأُصُول) و(شَرْحُ مُطَوَّلِ البُخاري) الَّذي بَلَغَ عِشْرِينَ سِفْراً طَوِيلَ الذُّيُولِ كَثِيرَ الغَرائِبِ والشَّوارِدِ والنُّقُولِ ، وكِتابُ (الصِّلاتُ والبُشَرُ في الصَّلاةِ عَلَى خَيْرِ البَشَر) .

وقَدْ أَخَذَ عَنْهُ الحافِظُ (ابْنُ حَجَر) أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ في الحَدِيثِ ، وكانَ بَيْنَهُما مُحاوَراتٌ ومُكاتَباتٌ ومُطارَحاتٌ ومُبارَياتٌ ، وسَمِعَ مِنْهُ المُسَلْسَلَ بِسَماعِهِ مِنْ شَيْخِ الإِسْلامِ (التَّقِيِّ السُّبْكِي) ، وشُدَّتْ إِلَيْهِ الرِّحالُ مِنْ أَكْثَرِ الأَقالِيمِ ، وكانَ مَرْجِعَ عَصْرِهِ في اللُّغَةِ والحَديثِ والتَّفْسِير ، ولَهُ (بَصائِرُ ذَوي التَّمْيِيز) و(الدُّرَرُ الغَوالي في الأَحادِيثِ العَوالي) و.....

وقَدْ وافَقَهُ شارِحُهُ صاحِبُ (تاج العَروس) عَلَى ما قالَهُ عَنِ (الأَبْدال) .
وشارِحُ القامُوسِ ، هُوَ السَّيِّدُ (مُحَمَّد بنُ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدٍ الحُسَيْنِي)

المَشْهُورُ بِالشَّيْخ (مُرْتَضَى الزَّبيدي) عَلاَّمَةُ اللُّغَةِ والحَديثِ والرِّجالِ والأَنْسابِ ، كاتَبَهُ مُلُوكُ الحِجازِ والهِنْدِ واليَمَنِ والشَّامِ ، والعِراقِ والمَغْربِ الأَقْصَى ، والتُّرْكِ والسُّودانِ والجَزائِر ، وكانَ يُحْسِنُ التُّرْكِيَّةَ ، والفارسِيَّةَ وشَيْئاً مِنْ لِسانِ الكَرْجِ ، وهُوَ مِنْ كِبارِ المُصَنِّفِينَ في الحَديثِ والتَّصَوُّفِ واللُّغَةِ وغَيْرِها ، ولَمْ يُتَّهَمْ بِتَخْريفٍ ، ولا انْحِرافٍ ، ولا تَشَيُّع .

فَمَنْ مِنَ المُنْكِرِينَ اليَوْمَ لِلْأَبْدالِ يَرْقَى إِلَى هَذا المُسْتَوَى المُعْجِزِ ، رَحِمَ اللهُ امْرَءاً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِه !!

كشف اللثام

عما أثير حول (الخضر) عليه السلام

كشف اللثام
عما أثير حول (الخضر) عليه السلام

يَقُولُ اللّهُ تَبارَكَ وتَعالَى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [1].

ولَمْ يُحَدِّدِ القُرْآنُ شَخْصِيَّةَ العَبْدِ الصَّالِحِ ، ولا رُتْبَتَهُ عِنْدَ اللّهِ ، ولَكِنَّهُ وَصَفَهُ بِأَنَّ اللّهَ آتاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ وعَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْماً ، ومِنْ هُنا جاءَ التَّعْبِيرُ بِالعِلْمِ (اللَّدُنِّي) أي العِلْمِ المُغَيَّبِ في مَساتِيرِ صَحائِفِ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ (عِنْدَ اللّهِ) ، فاللَّدُنِيَّةُ : هِيَ العِنْدِيَّةُ المُقَدَّسَةُ ومَفاتِيحُ الغَيْبِ عِنْدَ اللّهِ ، يَهَبُ ما يشاءُ مِنْها لِمَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، أَمَّا الإِحاطَةُ المُطْلَقَةُ بِالغَيْبِ فَهِيَ مِنْ خَصائِصِ الأُلُوهِيَّةِ وَحْدَها .

العَبْدُ الصَّالِحُ هُوَ الخَضِر :

وقَدْ جاءَ في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه وفي بَقِيَّةٍ مِنَ الكُتُبِ السِّتَّةِ ، مِنْ طُرُقٍ عِدَّةٍ : أَنَّ العَبْدَ الصالِحَ هُوَ (الخَضِرُ) ، وقَدْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْنِسُ أَصْحابَهُ فَيَقُولُ : (ألا أُخْبِرُكُمْ عَنِ الخَضِرِ ؟) كَما أَخْرَجَهُ الطَّبرانِيُّ عَنْ أَبِي أُمامَةَ (وحَسَّنَهُ بَعْضُ الحُفَّاظ) ، وفيهِ قَوْلُهُ لِمُوسَى عليه السلام :

(أَنا الخَضِرُ الَّذي سَمِعْتَ بِهِ) ، وفي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه :

وإِنَّما سُمِّيَ الخَضِرُ ؛ لأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى (فَرْوَةٍ) بَيْضاء (يَعْنِي أَرْضاً لا نَباتَ فِيها) فَإِذا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْراء (يَعْنِي يَنْتَشِرُ فِيها النَّباتُ كَرامَةً مِنَ اللّهِ لَهُ) .

---

(١) سُورَةُ الكَهْفِ الآيَة ٦٥ .

ولَفْظُ (الخَضِر) لَقَبٌ لَهُ . أَمَّا اسْمُهُ : بَلْيا بنُ مَلْكانَ ، مِنْ سُلالَةِ سَيِّدِنا (نُوح) عليه السلام ، ويُكَنَّى بِأَبِي العَبَّاس .

بَيانُ أَنَّ الخَضِرَ حَيٌّ بِجَسَدِهِ ورُوحِه :

احْتَجَّ بَعْضُ العُلَماءِ بِقَوْلِ اللهِ تَعالَى :﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾(١) وبِحَديثِ جابِرٍ وابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهم مَرْفُوعاً : (لا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْها اليَوْمَ أَحَدٌ)(٢).

والجَوابُ : ١) أَنَّ المُرادَ بِالخُلْدِ في الآيَةِ بَقاءُ الحَياةِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ ، و(الخَضِر) يَمُوتُ في آخِرِ الزَّمانِ فَلَيْسَ بِمُخَلَّدٍ ، ولا يُنْكَرُ طُولُ العُمْرِ لِمَنْ وَهَبَهُ اللهُ ذَلِكَ خُصُوصاً مِمَّنْ يُرِيدُ اللهُ بِهِ أَمْراً هُوَ بالِغُهُ ، وبِهَذا فَقَدْ خَرَجَ (الخَضِرُ) مِنْ حُكْمِ الآيَةِ ما دامَ سَيَلْحَقُهُ المَوْتُ يَوْماً ما .

٢) وفي الحَدِيثِ : قِيلَ المُرادُ (بِالأَرْضِ) القَدْرُ المَعْروفُ لِلْعَرَبِ وَقْتَئِذٍ مِنَ الدُّنْيا ، فَخَرَجَتْ أَرْضُ الخَضِرِ مِنَ الحَديثِ ، لِأَنَّها لَمْ تَكُنْ مَعْروفَةً لَهُمْ .

٣) وقِيلَ أَرادَ مِنْ ذَلِكَ انْخِرامُ قَرْنِهِ ﷺ وهُوَ رَأْيُ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ، أَي أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ أَحَدٌ مِمَّنْ سَمِعُوا تِلْكَ المَقالَةَ حَيّاً بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ ، وقَدْ تَحَقَّقَ هَذا بِوَفاةِ (أَبِي الطُّفَيْلِ عامِر) رضي الله عنه آخِرِ مَنْ بَقِيَ مِنَ الصَّحابَةِ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ هَذِهِ المَقالَة .

٤) وقِيلَ المُرادُ بِقَوْلِهِ ﷺ (لا يَبْقَى) أَي مِمَّنْ تَرَوْنَهُ أَو تَعْرِفُونَهُ أَحَدٌ ، وقَدْ صَحَّ ذَلِكَ أَيْضاً .

قالَ الإمامُ النَّوَوِي في تَهْذيبِهِ : (قالَ الأَكْثَرونَ مِنَ العُلَماءِ هُوَ حَيٌّ مَوْجُودٌ بَيْنَ أَظْهُرِنا ، وذَلِكَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وأَهْلِ الصَّلاحِ والمَعْرِفَةِ ، وحِكايَتُهُم

---

(١) سُورَةُ الأنبياء مِنَ الآيَة ٣٤ .

(٢) أخرَجَهُ مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ عَن (ابْنِ عُمَرَ) رضي الله عنهما.

في رُؤْيَتِهِ والاجْتِماعِ بِهِ والأَخْذِ عَنْهُ وسُؤالِهِ وجَوابِهِ ووُجُودِهِ في المَواضِعِ الشَّرِيفَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى وأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَر) .

وسُئِلَ الحافِظُ السُّيُوطي عَنْ (إِلْياس والخَضِر وإِدْرِيس) هَلْ هُمْ أَحْياءٌ إِلَى هَذا الحِينِ أَمْ لا ؟ فَأَجابَ أَنَّ الثَّلاثَةَ أَحْياءٌ .

وأَفْتَى الفَقِيهُ والمُحَدِّثُ (ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي) في فَتاوِيهِ الحَدِيثِيَّةِ :

بِأَنَّ حَياةَ الخَضِرِ وإِلْياسَ مُعْتَمَدَةٌ ، وأَنَّهُما خُصَّا بذَلِكَ في الأَرْضِ كَما خُصَّا إِدْرِيسَ وعِيسَى (عَلَيْهِما السَّلامُ) بِبَقائِهِما حَيَّيْنِ في السَّماء .

وأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ في الكامِلِ عَنِ (ابْنِ عَبَّاسٍ) رضي الله عنهما ومَرْفُوعاً :

(أَنَّ إِلْياسَ والخَضِرَ يَلْتَقِيانِ كُلَّ عامٍ بِالمَوْسِمِ (مَوْسِمِ الحَجِّ) ، ويَتَفَرَّقانِ عَلَى هَؤُلاءِ الكَلِمات : بِسْمِ اللهِ ما شاءَ الله ، لا يَسُوقُ الخَيْرَ إِلَّا الله ، ما شاءَ اللهُ لا يَصْرِفُ السُّوءَ إِلَّا الله ، ما شاءَ اللهُ ما كانَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ، ما شاءَ اللهُ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِالله) .[1]

دَحْضُ إِدِّعاءِ مَنْ خالَفَ شِرْعَةَ سَيِّدِ الأَنام بِدَعْوَى أَنَّهُ خِضْرِيُّ المَقام

قَدِ الْتَمَسَ بَعْضُ أَصْحابِ الأَهْواءِ مِنْ قِصَّةِ (مُوسَى والخَضِر) ، ما جَعَلُوهُ دَلِيلاً باطِلاً عَلَى مُخالَفاتِهِم لِلْمَعْرُوفِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرورَةِ ، فَقالُوا : إِنَّ الشَّرِيعَةَ شَيْءٌ والحَقِيقَةَ شَيْءٌ آخَر ، وإِنَّ العَبْدَ لا يَزالُ مُلْتَزِماً حُدودَ الدِّينِ حَتَّى يَنْتَقِلَ مِنْ مَقامِ الشَّرِيعَةِ إِلَى مَقامِ الحَقِيقَةِ ، فَتَسْقُطُ عَنْهُ التَّكالِيفُ ، ويَقُولُونَ : لأَنَّ اللهَ قالَ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ ، واليَقِينُ في زَعْمِهِم وضَلالِهِم هُوَ مَقامُ الحَقِيقَةِ ، فَإِذا وَصَلَ الإِنْسانُ عِنْدَهُمْ

(١) قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَنْ قالَهُنَّ حِينَ يُصْبِحُ وحِينَ يُمْسِي أَمَّنَهُ اللهُ تَعالَى مِنَ الغَرَقِ والسَّرَقِ .

إِلَى هَذا المَقامِ سَقَطَتْ عَنْهُ العِباداتُ ، وذابَتْ أَمامَهُ الحُدودُ ، ولا عَلَيْهِ أَنْ يَرْتَكِبَ الكَبائِرَ المُوبِقَةَ ، بِاسْمِ السِّرِّ ، وتَحْتَ سِتارِ القِياسِ عَلَى الخَضِرِ (نَعُوذُ بِاللهِ الواحِدِ القَهَّارِ مِنَ الضَّلالِ والفُجَّار) .

إِنَّ القَوْلَ بِمُخالَفَةِ الشَّرِيعَةِ لِلْحَقِيقَةِ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ زَنْدَقَةٌ ، رُبَّما أَفْضَتْ بِصاحِبِها إِلَى الرِّدَّةِ بَعْدَ الإِسْلامِ ، فالإِسْلامُ فِعْلاً يَعْتَرِفُ بِالشَّرِيعَةِ عَلَى أَنَّها ظَواهِرُ الأُمُورِ وصُوَرُ العِباداتِ ، ويَعْتَرِفُ فِعْلاً بِالحَقِيقَةِ عَلَى أَنَّها رُوحُ الأُمُورِ وحِكْمَةُ العِباداتِ ، فَهُما شَيْءٌ واحِدٌ لا يَنْفَصِمُ ، ولا يَقُومُ أَحَدُهُما إِلاَّ بِقِيامِ الآخَرِ ، كالرُّوحِ في الجَسَدِ والماءِ في العُودِ ، والثَّمَرَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، والحَرارَةِ في النَّار ، والحَلاوَةِ في السُّكَّر ، والرَّوائِحِ في مِياهِ العُطُور ، والضَّوْءِ مِنْ شُعْلَةِ السِّراجِ ، فَلا قِيامَ لأَحَدِهِما إِلاَّ بِقِيامِ الآخَرِ .

مَثَلٌ عَمَلِّيٌ لِلشَّرِيعَةِ والحَقِيقَة :

فَإِذا ضَرَبْنا مَثَلاً بِالصَّلاةِ ، كانَ القِيامُ والرُّكُوعُ ، والسُّجُودُ ، والقِراءَةُ والتَّسْبِيحُ (شَرِيعَةً) ، وكانَ التَّبَتُّلُ والخُشُوعُ وعَقْلُ الصَّلاةِ ، وإِدْراكُ ذُلِّ العُبُودِيَّةِ أَمامَ عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ والتَّمَتُّعِ بِالمُناجاةِ والمُناداةِ والتَّقَلُّبِ في مَقاماتِ القُرْبِ ، كُلُّ هَذِهِ (حَقِيقَةٌ) ، فَلا قِيامَ ولا وجُودَ لِهَذِهِ إِلاَّ بِتِلْكَ ، فالتَّفْرِقَةُ بَيْنَهُما مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلاً ونَقْلاً وواقِعاً .

ودِينُنا الإِسْلامُ ، ونَبِيُّنا رَسُولُ اللهِ المُصْطَفَى ﷺ ،لا قُدْوَةَ لَنا إِلاَّ هُوَ ولا أُسْوَةَ لَنا إِلاَّ بِهِ وهُوَ مَثَلُنا الأَعْلَى ، وهُوَ لَمْ يَدَّعِ هَذِهِ الدَّعْوَى ولَمْ يَحْدُثْ مِنْهُ ما يُشِيرُ إِلَيْها ، فَبِأَيِّ شَرِيعَةٍ ، وبِأَيِّ دِينٍ ، وبِأَيِّ عَقْلٍ ، نَنْتَقِلُ مِنْ شَرِيعَتِنا إِلَى شَرِيعَةِ غَيْرِنا فَنَقْتاسُ عَلَيْها ، ولَوْ جازَ هَذا لاخْتارَ كُلُّ مُسْلِمٍ دِيناً سابِقاً يُرضِيه ، ولَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذا إِسْلامٌ ولا مُسْلِمُون .

إنَّ تَفْسِيرَ اليَقِينِ (الَّذي هُوَ هُنا المَوْتُ قَوْلاً واحِداً) بِأَنَّهُ مَقامُ الحَقِيقَةِ دَسِيسَةٌ شَيْطانِيَّةٌ عَلَى التَّصَوُّفِ ، وإنَّ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ مَقامِ الشَّرِيعَةِ ومَقامِ الحَقِيقَةِ مِمَّا دَسَّهُ الزَّنادِقَةُ عَلَى النَّاسِ ودَلَّسُوا تَصَوُّفَ المُسْلِمِينَ (الطَّاهِرَ النَّقِيَّ) بِإلْصاقِهِ زُوراً بِهِ ، والقائِلُ بِهَذا القَوْلِ لا هُوَ مُسْلِمٌ عامِيٌّ ، ولا هُوَ مُسْلِمٌ صُوفِيٌّ ، والمُؤْمِنُ بِهِ إمَّا مُؤْمِنٌ ساذَجٌ مُغَفَّلٌ ، وإمَّا مُنافِقٌ زِنْدِيقٌ ، وهُوَ في أَشْرَفِ أَحْوالِهِ جاهِلٌ مَفْتُون .

نَحْنُ نُسَلِّمُ بِالغُيُوبِ والأَسْرارِ ، والحِكَمِ ، ونُسَلِّمُ بِالإلْهامِ والكَشْفِ والكَرامَةِ ، ولَكِنْ عَلَى أَساسِ العَزِيمَةِ في الدِّينِ والاعْتِصامِ بِالسُّنَّةِ ، والاحْتِياطِ المُطْلَقِ في العِبادَةِ والأَدَبِ .؟ وهَذا وَحْدَهُ هُوَ بابُ الوِلايَةِ ومِعْراجُ القُطْبانِيَّة .

ومِنْ هُنا تَظْهَرُ الأُكْذُوبَةُ الكَبِيرَةُ ، والوَهْمُ الدَّخِيلُ في فَهْمِ قِصَّةِ (الخَضِر) ، والقِياسُ الفاسِدُ عَلَيْها ، وإلْحاقُ الزَّنادِقَةِ بِالصُّوفِيِّينَ الرَّاشِدين .

إنَّ قِصَّةَ (الخَضِر) يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اسْتِئْناساً لِفَهْمِ الأَسْرار ، ودَعْوَةً إِلَى الآدابِ وشَرائِفِ المُصاحَبَةِ لَيْسَ إلاَّ .

وعَلَى هَذا ؛ فَسَلامَةُ الإنْسانِ في آخِرَتِهِ هِيَ في تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ وتَخَلُّصِهِ مِنْ صِفاتِها النَّاقِصَةِ ، وما ذَلِكَ إلاَّ بِالْتِزامِ نَهْجِ سَيِّدِ أَهْلِ الدُّنْيا والآخِرَةِ ﷺ، وبِذَلِكَ يَكُونُ الإنْسانُ أَهْلاً لأَنْ يُسْبِغَ اللهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ الباطِنَةَ والظَّاهِرَة ..

وإذا كانَ الصُّوفِيَّةُ يَدْعُونَ إلَى الأَخْلاقِ وبِناءِ داخِلِ الإنْسانِ بَعْدَ أَنْ تَهَدَّمَ وتَحَطَّمَ ، فَهُمْ إنَّما يَعْمَلُونَ غايَةَ ما يَجِبُ عَلَى الإنْسانِ لِعِمارَةِ الأَرْضِ والاسْتِخْلافِ عَلَيْها ، وتَنْقِيَةِ الحَضارَةِ مِنْ أَوْزارِها وأَوْضارِها ، واسْتِقْرارِ الأُمَّةِ بِأَفْرادِها عَلَى ما لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَلَكَتْ ، وها نَحْنُ قَدْ جَرَّبْنا ، وضَرَبَ اللهُ لَنا الأَمْثال ، ولَيْسَ بَعْدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلال ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ الكَبِيرِ المُتَعال ، وصَلِّ اللهُمَّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ والآلِ والصَّحْبِ الكِرام.

ثَبْتُ المَراجِع (المَصادِرُ والمَناهِل)

- القُرْآنُ الكَريمُ بِالرَّسْمِ العُثْمانِي الشَّهِير
- المُعْجَمُ المُفَهْرَسُ لِأَلْفاظِ القُرْآنِ الكَريم ، لـ (فؤاد عبدالباقي)
- التَّفْسِيرُ الكَبِيرُ ، لـ (فخرالدين الرازي)
- تَفْسِيرُ أَبِي السُّعُود عَلَى هامِشِ فَخْرالدِّينِ الرَّازي
- البَحْرُ المَدِيد في تَفْسِير القُرْآنِ المَجِيد ، لـ (أحمدبن عجيبة)
- رُوحُ المَعانِي ، لـ (محمود الألوسي)
- تَفْسِيرُ القُرْطُبِي
- تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِير
- البَحْرُ المُحِيطُ في التَّفْسِير ، لـ (أبي حيَّان الأندلُسي)
- تَفْسِيرُ النَّسَفِي
- المُفْرَدات في غَرِيبِ القُرْآن ، لـ (الرَّاغِب الأصْفهاني)
- إِعْجازُ القُرْآن ، لـ (الباقَلَّاني)
- رُوحُ البَيان ، لـ (إسماعيل حقِّي)
- المُوَطَّأ ، للإِمام (مالِك)
- الأُمّ ، للإِمام (الشافعي)
- مُسْنَدُ الإِمام (أحمد بن حنبل)
- صَحِيحُ البُخاري
- صَحِيحُ مُسْلِم
- اللُّؤْلُؤ والمَرْجان فِيما اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخان ، وَضْع (محمد فؤاد عبدالباقي)

- سُنَنُ ابْنِ ماجَه
- سُنَنُ التِّرْمِذِي • المَتْجَرُ الرَّابِح في ثَوابِ العَمَلِ الصَّالِح لـ (الدِّمياطى)
- هِدايَةُ الباري إِلَى تَرْتِيب أَحادِيثِ البُخاري ، لـ (عبدالرحيم الطهطاوي)
- فَتْحُ الباري شَرْحُ صَحِيح البُخاري ، لـ (ابن حجر العسقلاني)
- إِرشادُ السَّاري لِشَرْحِ صَحِيحِ البُخاري ، لـ (القَسْطَلاَّني)
- عُمْدَةُ القاري شَرْحُ صَحِيحِ البُخاري ، لـ (بدرالدين العَيْنِي)
- شَرْحُ البُخاري ، لـ (الكرماني)
- فَيْضُ الباري عَلَى صَحِيحِ البُخاري ، لـ (الكشميري)
- بَهْجَةُ النُّفُوس شَرْحُ مُخْتَصَر البُخاري ، لـ (ابن أبى جمرة)
- شَرْحُ الزُّرْقاني عَلَى مُوَطَّأِ الإِمامِ مالِك
- كَنْزُ العُمَّال ، لـ (علاءالدين الهندي)
- مِشْكاةُ المَصابيح ، لـ (التَّبْريزي)
- التَّرْغِيبُ والتَّرْهِيبُ ، لـ (المُنْذِري)
- رياضُ الصَّالِحين ، لـ (النَّووِي)
- مَجْمَعُ الزَّوائِد ، لـ (نورالدين الهَيْثَمي)
- الأَذْكارُ ، لـ (النَّوَوي) • شَرْحُ النَّوَوي عَلَى صَحِيحِ مُسْلِم
- النَّظْمُ المُتَناثِر في الحَديثِ المُتواتِر ، للسَّيِّد (محمد بن جعفر الكتَّاني)
- تُحْفَةُ الأَحْوَذي بِشَرْحِ صَحِيحِ التِّرْمِذِي ، لـ (المبارْكَفوري)
- عارِضَةُ الأَحْوَذِي بِشَرْحِ صَحِيحِ التِّرْمِذِي ، لـ (ابن العربي المالكي)
- النِّهايَةُ في غَرِيبِ الحَدِيثِ ، لـ (ابْنِ الأثِير)

• مُبْتكَرات اللآلِىء والدُّرَر في المُحاكَمَةِ بَيَنْ العَيْنِي وابْنِ حَجَر :
لِلْمُحَدِّث (عَبْدالرَّحْمَن البُوصِيرى) ، الطَّبْعَةُ حِسْبَةٌ وصَدَقَةٌ جارِيَةٌ عَن الشَّيْخِ (مُحَمَّد عَوَض بن لادن) رَحِمَهُ الله وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِه .

• مَرْقاةُ المفاتِيح شَرْحُ مِشْكاةِ المَصابِيح ، لـ (مُلَّا عَلِي القاري)

• فَيْضُ القَدير شَرْحُ الجامِعِ الصَّغير ، لـ (المناوي)

• دَليلُ الفالِحينَ لِطُرُقِ الصَّالِحين ، لـ (ابْن عَلَّان الصِّدِّيقي)

• الفُتُوحاتُ الرَّبانِيَّة عَلَى الأَذْكار النَّوَوِيَّة ، لـ (ابن علاَّن الصِّدِّيقي)

• الرِّياضُ الوَهْبِيَّة بِشَرْحِ الأَرْبَعينَ النَّوَوِيَّة ، لـ (الشَّبْراخِيتي)

• الرِّسالة للإمام الشَّافِعي

• حاشِيَةُ ابْنِ عابْدين

• كَشْفُ الخَفاءِ ومُزِيلُ الإلْباسِ عَمَّا اشْتُهِرَ مِنَ الأَحاديثِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ ، لـ (العَجْلُونى) .

• مُسْنَدُ الفِرْدَوْس ، لـ (الدَّيْلَمِي)

• حاشيَةُ الطَّحاوِي عَلَى مَراقِي الفَلاح

• الهَدِيَّةُ العَلائِيَّة ، لـ (علاءالدين عابدين)

• الدُّرَرُ المُباحَة في الحَظْر والإباحَة ، لـ (النَّحْلاوي)

• حاشِيَةُ العَدَوِي عَلَى شَرْحِ الزُّرْقاني عَلَى العِزِّيَّةِ في الفِقْهِ المالِكي

• أَسْرارُ التَّوْحِيد في مَقاماتِ الشَّيْخِ أبي سَعيد :
لـ (مُحَمَّد بن المُنَوَّر بن أبي سَعيد بن أبي الخَيْر) تَرْجَمَة د. إسعاد قنديل

• التَّنْديدُ بِمَنْ عَدَّدَ التَّوْحِيد ، لـ (حسن بن علي السقَّاف)

• الأَشْباهُ والنَّظائِرُ ، لـ (السِّيوطي)

• مَجْمُوعَةُ رَسائِلِ ابْنِ عابْدِين

• النُّورُ المُبين عَلَى المُرشِدِ المُعِين ، لـ (محمد بن يوسف الكافي)

- حاشِيَةُ الباجُوري عَلَى جَوْهَرَةِ التَّوْحِيد
- مُغْنِي المُحْتاج لِلشِّرْبيني
- الميزان ، لـ (الشَعَراني)
- الاعْتِصام ، لـ (الشَّاطِبِي)
- التَّرْخِيصُ بِالقِيامِ لِذَوِي الفَضْلِ والمَزِيَّة ، لـ (النَّوَوِي)
- الفَتاوَى الحَديثِيَّة ، لـ (ابْن حَجَر الهَيْثَمي)
- الحاوِي لِلْفَتاوي ، لـ (السِّيُوطي)
- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة ، لـ (ابن هِشام)
- السِّيرَةُ الحَلَبِيَّة
- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة ، لـ (زِيني دَحْلان)
- مُذَكِّراتٌ في فِقْهِ السِّيرَة ، لـ (د. مصطفى السِّباعي)
- الاسْتِيعاب في مَعْرِفَةِ الأَصْحاب ، لـ (ابْن عبدالبَرّ)
- الإِصابَة في تَمْييزِ الصَّحابَة ، لـ (ابن حجر العَسْقلاني)
- الطَّبقاتُ الكُبْرَى ، لـ (ابن سعد)
- تاريخُ الطَّبَري
- أُسْدُ الغابَة في مَعْرِفَةِ الصَّحابَة ، لـ (ابن الأثير)
- الكامِل ، لـ (ابن الأثير)
- تاريخُ الخُلَفاء ، لـ (السِّيُوطي)
- طَبقاتُ الشَّافِعيَّة ، لـ (السُّبْكي)
- مِيزانُ الاعْتِدال ، لـ (الذَّهَبِي)

• تَهْذيبُ التَّهْذيب ، لـ (ابن حجر العسقلاني)
• الفُتُوحاتُ الأَحْمَدِيَّةُ عَلَى هَمْزِيَّةِ البُوصيري ، لـ ، (سُلَيْمان الجمل)
• الرِّياضُ النَّضِرَة في مَناقِبِ العَشَرَة ، لـ (المُحِبِّ الطَّبَري)
• حِلْيَةُ الأَوْلِياء ، لـ (أَبي نُعَيْم الأَصْفَهاني)
• طبَقاتُ الصُّوفِيَّة ، لـ (أبي نُعَيْم الأَصْفهانِي)
• طبَقاتُ الصُّوفِيَّة ، لـ (أبي عبدالرحمن السُّلَمِي)
• البِدايَةُ والنِّهايَةُ ، لـ (ابن كثير)
• جامِعُ كَراماتِ الأَوْلِياء ، لـ (يوسف النَّبَهاني)
• الرِّسالةُ القُشَيْرِيَّة ، لـ (عبدالكريم القُشَيْرِي)
• إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين ، لِحُجَّةِ الإِسْلامِ (الغزالي)
• النُّصْرَةُ النَّبَوِيَّة ، لـ (مصطفى المدني)
• المَواقِفُ ، لِلأَمير (عبدالقادر الجزائري)
• فُتُوحُ الغَيْبِ ، لِلشَّيْخ (عبدالقادر الجَيْلاني)
• الفَتْحُ الرَّبَّاني ، لِلشَّيْخ (عبدالقادر الجَيْلاني)
• الفُتُوحاتُ المَكِّيَّة ، لـ (مُحْيي الدِّين بن عَربي)
• لَواقِحُ الأَنْوار القُدْسِيَّة في بيانِ العُهُودِ المُحَمَّدِيَّة ، لـ (الشَّعَراني)
• المُنْقذُ مِنَ الضَّلال ، لـ (الغَزالي)
• الأَرْبَعِين في أُصُولِ الدِّين ، لـ (الغَزالي)
• نَشْرُ المَحاسِنِ الغالِيَة ، لـ (اليافِعي)
• الحُجَّة ، لـ (أحمد سالم كريم القطعاني)

- اليَواقِيتُ والجَواهِر في بَيانِ عَقِيدَةِ الأكابر ، لـ (الشَّعراني)
- مَدارِجُ السَّالِكِين - شَرْح عَلَى مَنازِلِ السائرين لِلْهَرَوي ، لـ (ابن القَيِّم الجَوْزِيَّة)
- الفُتُوحاتُ الإلَهِيَّة شَرْحُ المَباحِثِ الأصْلِيَّة ، لـ (ابن عجيبة)
- خَمْرَةُ الْحان ورَنَّةُ الأَلْحان ، لـ (أرْسَلان الدِّمَشْقي)
- شَرْحُ خَمْرَةِ الْحان ورَنَّةِ الأَلْحان ، لـ (عبدالغني النَّابُلْسي)
- اصْطِلاحاتُ الصُّوفيَّة ، لـ (عبدالرازق الكَشاني)
- رَوْضُ الرَّياحين في حِكاياتِ الصَّالِحين ، لـ (عَفيف الدِّين اليافِعي)
- التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّف ، لـ (الكلاباذي)
- البُرْهانُ المُؤَيَّد ، للسَّيِّد (أحمد الرفاعي)
- الإِنْسانُ الكامِل في مَعْرفَةِ الأَواخِر والأَوائِل ، لـ (عبدالكريم الجيلي)
- قَوانِينُ حُكْمِ الإِشْراق لِكافَّةِ الصُّوفِيَّةِ في جَمِيعِ الآفاق (لأَبِي المواهب الشاذلي)
- الجَواهِرُ المَكِّيَّة لأَبِي حامِد (حسن القصبي)
- المُعْجَمُ الصُّوفي ، لـ (د. سعاد الحكيم)
- تَنْوِيرُ القُلُوب ، لـ (محمد أمين الكردي)
- فُرقانُ القُرْآن بَيْنَ صِفاتِ خالِقِ الأَكْوان ، لـ (سلامة العزَّامي)
- البَراهِينُ السَّاطِعَة ، لـ (سلامة العزَّامي)
- التَّصَوُّفُ الإسْلامي والإمامُ الشَّعَراني ، لـ (طه عبدالباقي سرور)
- مِفْتاحُ الفَلاح ومِصْباحُ الأَرْواح ، لـ (ابن عطاء الله السكندري)
- حالَةُ أَهْلِ الحَقِيقَةِ مَعَ الله ، للسَّيِّد (أحمد الرفاعي)

• حَقائِقُ عَنِ التَّصَوُّف ، لـ (عبدالقادر عيسى)
• بُسْتانُ العارفين ، لـ (النَّووِي)
• مَشارِقُ أَنْوار القُلُوب ومَفاتِحُ أَسْرار الغُيُوب ، لـ (عبدالرحمن الأنصاري) المَعْروف بِالدَّبَّاغ .
• قَواعِدُ التَّصَوُّف ، لـ (أحمد زَرُّوق)
• خُلاصَةُ التَّصانيف في التَّصَوُّف ، لـ (الغَزالي)
• مِعْراجُ التَّشَوُّف إِلَى حَقائِق التَّصَوُّف ، لـ (ابن عجيبة)
• الحَديقَةُ النَّدِيَّةُ شَرْحُ الطَّرِيقَةِ المُحَمَّدِيَّة ، لـ (النابُلْسي)
• المِنَنُ الكُبْرَى ، لـ (الشعراني)
• نُورُ التَّحْقيق ، لـ (حامد صَقْر)
• الحَكيمُ التِّرْمِذي ونَظَرِيَّتُهُ في الوِلايَة
• اللُّمَع ، لـ (عبدالله السراج الطُّوسي)
• سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لـ (عبدالله سراج الدين)
• إيقاظُ الهِمَم في شَرْحِ الحِكَم ، لـ (ابن عجيبة)
• الانْتِصارُ لِطَرِيقِ الصُّوفيَّة ، لـ (محمد صدِّيق الغُماري)
• رسالةُ المَقاصِد ، لـ (النَّووي)
• لَمْحاتٌ عَنِ التَّصَوُّف ، لـ (حامِد المِيرْغَنِي)
• الإِنْصافُ فِيما يَجِبُ اعْتِقادُهُ ولا يَجُوزُ الجَهْلُ بِهِ لـ (الباقَلَّاني) تَحْقِيق (محمد زاهد الكوْثَري)
• شَخْصِيَّات صُوفيَّة ، لـ (طه عبدالباقي سُرور)

- الوَصايا ، لـ (الحارث المُحاسِبي)
- الطَّرِيقُ إِلَى الله ، لـ (أبي سعيد الخرَّاز)
- مَدارِجُ السُّلُوك إِلَى مَلِكِ المُلُوك ، لـ (أبي بكر مناني الشاذلي)
- دِيوانُ ابْن الفارض ، لـ (عمر بن الفارض)
- حَلُّ الرُّمُوز ومِفْتاحُ الكُنُوز ، لـ (العِزِّ بن عبدالسلام)
- المُغْنِي عَنْ حَمْلِ الأَسْفار (عَلَى هامِش إِحْياء عُلُوم الدِّين) ، لـ (الحافظ العراقي)
- القامُوسُ المُحِيط ، لـ (الفيروز آبادي)
- رِجالُ الفِكْرِ والدَّعْوَةِ في الإِسْلام ، لـ (أبي الحَسَن النَّدَوي)
- سِفْرُ السَّعادَة ، لـ (الفيروز آبادي)
- شَرْحُ القامُوسِ المُحِيط ، لـ (مُرتَضَى الزَّبيدي)
- مَبادِئُ الإِسْلام ، لـ (أَبِي الأَعْلَى المَوْدودي)
- دِيوانُ الأَمير عَبْدالقادر الجَزائري
- غِذاءُ الأَلْباب شَرْحُ مَنْظُومَةِ الآداب ، لـ (محمد السفاريني)
- حُجَّةُ اللهِ عَلَى العالَمِين ، لـ (يوسف النبهاني)
- شَرْحُ عَيْنِ العِلْمِ وزَيْنِ الحِلْم ، لـ (مُلَّا عَلِي القاري)
- كَشْفُ الظُّنُون عَنْ أَسامِي الكُتُبِ والفُنُون ، لـ (حاجِّي خليفة)
- الثَّقافَةُ الإِسْلامِيَّة ، لـ (محمد راغب الطبَّاخ)
- مُقَدِّمَةُ ابْن خَلْدون ، لـ (عبدالرحمن بن خلدون)
- مُعِيدُ النِّعَم ومُبِيدُ النِّقَم ، لـ (عبدالوهاب السبكي)

• اعْتِقاداتُ فِرَقِ المُسْلِمِينَ والمُشْرِكين ، لـ (فَخْرالدِّين الرَّازي)
• تَنْوِيرُ الحَلَك في رُؤْيَةِ النَّبِيِّ والمَلَك ، لـ (جلال الدين السِّيوطى)
• المَسائِلُ الكافِيَة ، لـ (محمد يوسف الكافي)
• تَأْيِيدُ الحَقِيقَة العَلِيَّة ، لـ (جلال الدين السِّيوطي)
• شِفاءُ السَّائِل لِتَهْذيبِ المَسائِل ، لـ (ابْن خَلْدون)
• حاضِرُ العالَمِ الإِسْلامي ، لِلأَمير (شَكيب أرْسَلان)
• الإِسْلامُ عَلَى مُفْتَرَقِ الطُّرُق ، لـ (محمد أسد) ، تَرْجَمَةُ : د. عُمَر فَرُّوخ
• تَعرِيفاتُ السَّيِّد الجُرْجانِي
• لَطائِفُ المِنَن في مَناقِبِ أَبِي العَبَّاسِ المُرْسِي وشَيْخِهِ أَبِي الحَسَن .
• رَوائِعُ إِقْبال ، لـ (أبي الحسن النَّدوي)
• مَقالات (التَّصَوُّف رُوحُ الإِسْلام) د. جودة محمد مهدي
• مقالات (د. عبد الله كامل) بمجلة التصوف الإسلامي
• مَنْطِقُ الطَّير ، لـ (فريد الدين العطار) ،
ترجمة وتقديم : د. بديع محمد جمعه .
• كَشْفُ اللَّبْسِ عَنْ رَسائِلِ النَّفْس ، لـ (نور الدين على المنير)
• كَشْفُ اللَّبْسِ في مُناصَحَةِ النَّفْس ، لـ (محمد أبي الحسن البكري الصدِّيقي)
• كَشْفُ اللَّبْس عَنْ تَجْرِيدِ النَّفْس ، لـ (أحمد شهاب الدين السبكي)
• كَشْفُ المَحْجُوب ، لـ (الهجْويري)
• المَواقِفُ والمُخاطَبات ، لـ (محمد بن عبدالجبار النِّفَّرِي)

- مُقَدِّمَةُ حُجِّيَّة السُّنَّة ، لـ (الطاهر محمد الطاهر الحامدي)
- مَنْهَلُ الورَّاد ، لـ (جابر احمد مُعَمِّر)
- دِيوانُ الجَعْفَري ، لـ (صالح الجعفري)
- مُرْشِدُ الأَنام لِما يَلْزَمُهُم مَعْرِفَتُهُ مِنَ الأَحْكام ، لـ (محمد الطاهر الحامدي)
- الدُّرُّ المُخْتار ، لـ (الحَصَفْكي)
- الفَرْقُ بَيْنَ الفِرَق ، لـ (عبدالقاهر البغدادي)
- الفِرْقَةُ النَّاجِيَة ، لـ (محمد ماضي أبي العزائم)
- حُسْنُ التَّلَطُّف في بَيانِ وُجُوبِ سُلُوكِ التَّصَوُّف ، لـ (عبدالله الصديق الغُماري)
- شِفاءُ الصُّدورِ الحَرِجَة بِشَرْحِ قَصِيدَةِ المُنْفَرِجَة ، لـ (حسنين مخلوف)
- التَّصَوُّفُ الثَّوْرَةُ الرُّوحِيَّةُ في الإِسْلام ، لـ (د. أبي العلا عفيفي)
- قِصَّتي مَعَ التَّصَوُّف ، لـ (خالد محمد خالد) .
- السَّلَفِيَّةُ المُعاصِرَةُ إِلَى أَيْنَ ؟ ومَنْ هُم أَهْلُ السُّنَّة ؟ لـ (محمد زكي إبراهيم)
- مِشْوار حَياتي آراءٌ وأَفْكار ، لـ (محمد متولي الشعراوي)
- سِلْسِلَةُ إِيضاحِ مَفاهِيم السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة ، لِلسَّيِّد (محمد علوي المالكي)
- التَّصَوُّفُ والحَياةُ العَصْرِيَّة ، لـ (عبدالحفيظ فرغلي)
- نَهْجُ البلاغَة ، للإمام (عَلِي بن أبى طالب) ﵁
- رَسائِلُ حُجَّةِ الإِسْلامِ الغَزالي ، لـ (د. نور الدين آل علي)

- الجِهادُ ، لـ (عبدالله بن المبارك)
- البُطُولَةُ والفِداءُ عِنْدَ الصُّوفِيَّة ، لـ (أسعد الخطيب)
- حُسْنُ المُحاضَرَة ، لـ (جلال السِّيوطي)
- الأَميرُ عَبْدُالقادِرِ مَلِكُ الأَقْطاع المَغْربيَّة ، وسُلْطانُ الأَرْباضِ الجَزائريَّة لـ (الكونت سفري)
- بَرْقَةُ الهادِئَة ، للْجِنْرال (رود ولفو غراسياني)
- مُذَكِّرات أَنْوَر باشا
- مُؤَرِّخُونَ مِنْ لِيبيا ، لـ (عَلي مصطفى المصراتي)
- البُذورُ الضَّاوِيَة في أَخْبار الزَّاويَة الدَّلائِيَة ، لـ (أبي الرَّبيع سُلَيْمان بن محمد الحوات)
- رِحْلَةُ ابْنِ بَطُّوطَة
- خُطَطُ المَقْريزي
- مِنْ نَفَحاتِ الدُّومي ، لـ (عبدالجواد الدُّومي)
- تَهْذيبُ تاريخ الدُّوَلِ الإسْلامِيَّة بِالجداولِ المَرْضِيَّة ، لـ (زيني دَحْلان)
- الشَّقائِقُ النُّعْمانِيَّة في عُلَماءِ الدَّوْلَة العُثْمانِيَّة ، لـ (طاشكُبْري زادَة)
- شَوْقي شاعِرُ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّة ، لـ (محمد خالد ثابت)
- أَبو أَيُّوب عِنْدَ العَرَبِ والتُّرْك ، لـ (د. حسن مجيب المصري)
- صَفْوَةُ الصَّفْوَة ، لـ (ابن الجوزي)
- مُسْتَدْرَكُ الوَسائِل ، لـ (النُّوري الطُّبْرُسي)
- أُصولُ الوصُول ، لـ (محمد زكي إبراهيم)
- تَقْريبُ الوصُول ، للسَّيِّد (دَحْلان)

- رَوْضَةُ الطَّالِبِين وعُمْدَةُ السَّالِكين ، لـ (الغَزالي)
- تاريخُ التَّصَوُّفِ في الإِسْلام ، لـ (قاسِم غَنِي)
- الحَلاَّج ، لـ (طه عبدالباقي سُرور)
- الحِكَمُ الحاتِمِيَّة ، لـ (ابن عربي)
- دِراسات في التَّصَوُّفِ الإِسْلامي ، لـ (محمد جلال شرف)
- رَوْضَةُ التَّعْريف بِالحُبِّ الشَّريف ، لـ (ابن الخطيب)
- اصْطِلاحات صُوفيَّة ، لـ (ابن عربي)
- غَيْثُ المَواهِبِ العَلِيَّة في شَرْحِ الحِكْمِ العَطائيَّة ، لـ (ابن عبَّاد النضْري)
- أَسْماءُ اللهِ الحُسْنَى ، لـ (القُشَيْري)
- القَصْدُ المُجَرَّد في مَعْرِفَةِ الاسْمِ المُفْرَد ، لـ (ابن عطاء الله السَّكَنْدَري)
- أَلْفاظُ الصُّوفِيَّةِ ومَعانِيها ، لـ (حسن محمد الشرقاوي)
- أَبو مَدْيَن الغَوْث ، لـ (د.عبدالحليم محمود)
- الحُبُّ في القُرْآن ، لـ (محمود بن الشريف)
- نَحْوَ عِلْمِ نَفْسٍ إِسْلامِي ، لـ (حسن محمد الشرقاوي)
- أَدَبُ الدُّنيا والدِّين ، لـ (المَوارْدِي)
- الشَّريعَةُ والحَقِيقَة ، لـ (حسن محمد الشرقاوي)
- الجوانيَّة ، لـ (عُثْمان أمين)
- دِراسات عَنِ الجُنَيْد البَغْدادي ، لـ (محمد مصطفى)
- مُكاشَفَةُ القُلُوب ، لـ (الغَزالي)
- الرُّؤَى والأَحْلام ، لـ (أحمد عزالدين البيانُوني)

• رِسالَةُ الشَّيْخ مُحْيى الدِّين بنِ عَرَبي إِلَى الإمام فَخْر الدِّين الرَّازي : نَسَخَها وأَبْرَزَها وصَحَّحَها عَبْدُ العَزيز المَيْمَني .
• الرُّوحِيَّةُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبي ، لـ (علي عبد الجليل راضي)
• تاجُ العَروس الحاوي لِتَهْذيبِ النُّفُوس ، لـ (ابن عطاء الله)
• وَفِيَّاتُ الأَعْيان ، لـ (ابن خلِّكان)
• أَنْوارُ التَّحْقيق في تَأْييد أَوْرادِ الطَّريق ، لـ (محمد الطاهر الحامدي)
• إِحْياءُ المَقْبُور مِنْ أَدِلَّةِ اسْتِحْبابِ المَساجِدِ والقِبابِ عَلَى القُبُور : لـ (أحمد محمد الصديق الغُماري)
• الخَبَرُ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِ الأَقْطابِ والأَوْتادِ والنُّجَباءِ والأَبْدال لـ (السِّيوطي)
• أَهْلُ الحَقِّ العارِفُونَ بِالله ، لـ (محمد الحافظ التجاني)
• النَّسَقُ الغالِي والنَّفَسُ العالِي ، لـ (عبدالصمد التِّهامي كنون)
• الأَدَبُ الإِسْلامي الصُّوفي ، لـ (د. عَلى صُبح)
• حُسْنُ التَّلَطُّف في بَيانِ وُجُوبِ سُلُوكِ التَّصَوُّف ، لـ (عبدالله محمد الصديق الغُماري)
• جَواهِرُ التَّصَوُّف ، لـ (يحْيى بن مُعاذ الرَّازي)
• السِّرُّ في أَنْفاسِ الصُّوفيَّة ، لـ (أَبي القاسم الجُنَيْد)
• الرِّياضَةُ وأَدَبُ النَّفْس ، لـ (الحكيم الترمذي)
• ضُحَى الإِسْلام ، لـ (أحمد أمين)
• فَتْحٌ وفَيْضٌ وفَضْلٌ مِنَ الله ، لـ (صالح الجعفري)
• بِدايَةُ التَّعَرُّف في شَرْحِ نُقايَةِ التَّصَوُّف ، لـ (محمد خليل الخطيب)

- يَسْأَلُونَكَ في الدِّينِ والحَياة ، لـ (د. أحمد الشرباصي)
- الإبْرِيز مِنْ كلامِ سَيِّدي عبدالعزيز الدَّباغ ، لـ (أحمد بن المبارك)
- الأَعْلام ، لـ (خَيْرِ الدِّين الزِّرِكْلِي)
- البَرَكَةُ في فَضْلِ السَّعْي والحَرَكَة (لِلفَقِيه محمد بن عبد الرحمن الحبيشى)
- رِياضُ الأُنْسِ اقْتِداءً بِسَيِّدِ الجِنِّ والإنْسِ ﷺ:
  للإمام (الحسن بن على النيسابوري)
- المُذاكرَة مَعَ المُحِبِّين مِنْ أَهْلِ الخَيْر والدِّين ، لـ (عبدالله علوي الحدَّاد)
- بَوارِقُ الحَقائق ، لـ (الرَّوَّاس)
- المَعاني الرَّقِيقَة عَلَى الدُّرَرِ الدَّقيقة المُسْتَخْرجَةِ مِنْ بَحْرِ الحَقيقَة:
  لـ (صالح الجعفري)
- دُرَّةُ الأَسْرار وتُحْفَةُ الأبْرار ، لـ (ابن الصَّبَّاغ)
- قانونُ التَّأْوِيل، للقاضي (أبي بكر بن العربي)
- جَوامِعُ آدابِ الصُّوفِيَّة ، لـ (أبي عبدالرحمن السُّلَمي)
- في رياضِ التَّصَوُّف ، لـ (حسن سعيد الشناوي)
- التَّصَوُّف في مُواجَهَةِ الشُّبُهات ، لـ (د. أحمد عمر هاشم)
- أَعْلامُ الصُّوفِيَّة ، لـ (د. جودة محمد مهدي)
- أَنْوارُ اليَقين ، لـ (محمد هاشم العشيري)
- أَنوارُ الحُب ، لـ (محمد هاشم العشيري)
- إِشْراقَةُ مُحِبٍّ مَحْبُوب (هاني أحمد غريب) .

الفهرس الموضوعي للكتاب

الموضوع الصفحة

تصريح الأزهر ٢

الاستفتاح ٣

تَعَدَّدَتِ السِّهامُ ومَصْدَرُها وهَدَفُها واحِد

(١) فِتْنَةُ اسْتِشْهادِ سَيِّدنا (عُثْمان) رضي الله عنه ، وكَشْفُ خَباياها ومَرامِيها ٨

(٢) فِتْنَةُ خَلْقِ القُرْآنِ ، وبَيانُ أَنَّ ما أَطْلَقُوا فيهِ لأَلْسِنَتِهِم العَنانَ ، إنَّمَا هُوَ ناتِجٌ عَنَ فَسادِ الجَنان ١٦

(٣) القُرْآنُ لا يُعارِضُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، بَلْ يُعَضِّدُ بَعْضُهُ بعَضاً ويُفَسِّرُ بَعْضُهُ بعَضاً ٢١

(٤) بَيانُ خَطَأِ مِنْ قالَ مِنَ المَلاحِدَةِ : أَنَّ تَعْظِيمَ الكَعْبَةِ والحَجَرِ الأَسْودِ مِنَ الوَثَنِيَّةِ ، وجَهْلِ مَنْ قالَ : بِعَدَمِ التَّلازُمِ بَيْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّهِ وتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وعَدَمِ كِفايَةِ الأَوَّلِ فى النَّجاة ٢٣

(٥) بَيانُ أَنَّهُ كَما لا تَصِحُّ النِّسْبَةُ إِلَى الإِسْلامِ إِلاَّ بِقَوْلِ (لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله) ، فَإِنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دائِرَةِ الإِيمانِ مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِأَنَّ (حُجِّيَّةَ كِتابِ اللهِ وحُجِّيَّةَ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ) مُتَلازِمَتان ٢٥

(٦) حَمَلاتُ التَّدْمير بِدَعْوَى التَّنْوِير ٣٥
(٧) الزَّنادِقَةُ المُسْتَشْرِقُونَ وعُمَلاؤُهُم المَخْدُوعُون ٣٨

التَّصَوُّفُ بَرِيءٌ مِنْ هَؤُلاءِ الأَدْعِياءِ

أَوَّلاً : الَّذينَ ادَّعَوا سُقُوطَ التَّكْليفِ عَنْهُم ٥٥
ثانِياً : الَّذينَ يَأْتُونَ بِمُخالَفاتٍ مِنْ أَقْوالٍ وأَفْعالٍ بِدَعْوَى أَنَّها إِلْهام ٥٧
ثالِثاً : الكُسالَى المُتَثاقِلُونَ الَّذينَ يَدْعُونَ إِلَى السَّلْبِيَّةِ والتَّواكُل ٥٩
رابِعاً : الَّذين دَأَبُوا عَلَى إِثارَةِ الفِتَنِ ، وتَوْسيعِ دائِرَةِ الخِلافاتِ بَيْنَ المَذاهِبِ الإِسْلامِيَّةِ ، ورَفْضِ سِياسَةِ التَّقارُبِ ، وتَبَنِّى سِياسَةِ التَّباعُد ٦١
خامِساً : المُتَعَصِّبُونَ الجامِحُونَ المُغالُون ٦٤
سادِساً : أَهْلُ الغُلُوِّ في الطَّاعاتِ ، بِدَعْوَى أَنَّ بُغْيَتَهُم نِهايَةُ المَقامات ٦٥
سابِعاً : الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ أَسْماءَ اللهِ الحُسْنَى في حَلَقاتِ الذِّكْر ٦٦

التَّصَوُّفُ فى عُقُولِ العُلَماء

١- الإِمامُ الأَعْظَمُ أَبو حَنِيفَةَ النُّعْمان ٦٨
٢- الإِمامُ مالِكُ بنُ أَنَس ٦٨
٣- الإِمامُ الشَّافِعِى ٧٠
٤- الإِمامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل ٧٠
٥- الإِمامُ أَبو عبد الله الحارِثُ المُحاسِبى ٧١

٦- الإمامُ (عَبْدُ القاهِر البَغْدادى) ٧٥
٧- الإمامُ (أَبو القاسِم القُشَيْرى) ٧٦
٨- حُجَّةُ الإِسْلامِ (الإمامُ الغزالى) ٧٦
٩- العَلَّامَةُ الإمامُ (فَخْرُ الدِّينِ الرَّازى) ٧٦
١٠- سُلْطانُ العُلماءِ الإمامُ (العِزُّ بنُ عَبْدِ السَّلامِ) ٧٦
١١- العَلاَّمَةُ (تاجُ الدِّين السُّبْكِى) ٧٦
١٢- العَلاَّمَةُ (ابْنُ خَلْدُون) ٧٦
١٣- الإمامُ المُحَدِّثُ (جلالُ الدِّينِ السِّيُوطى) ٧٧
١٤- الفَقِيهُ الشَّهِيرُ مُحَمَّد أَمين المَشْهُورُ ب (ابْن عابْدين) ٧٧
١٥- الأَمِيرُ (شَكيبُ أَرْسَلان) ٧٨
١٦- الأُسْتاذُ والمُؤَرِّخُ (مُحَمَّد راغِبُ الطَّبَّاخ) ٨١
١٧- الأُسْتاذُ (صَبْرى عابْدين) ٨٤
١٨- الإمامُ (مُحَمَّد ماضِي أَبُو العَزائِم) ٨٥
١٩- الأُسْتاذُ (أَبُوالحَسَن عَلِى الحَسَني النَّدَوى) ٨٦
٢٠- العَلاَّمَةُ الكَبيُر الأُسْتاذُ (أَبُو الأَعْلَى المَوْدُودي) ٨٩
٢١- الإمامُ الحافِظُ السَّيِّدُ (مُحَمَّد صَدِّيقُ الغُماري) ٩١
٢٢- الشَّيْخُ (أَحْمَدُ الشَّرَباصِى) ٩١
٢٣- الشَّيْخُ المُحَدِّثُ (عَبْدُاللهِ الصَّدِّيقُ الغُمارِي) ٩٤
٢٤- شَيْخُ الأَزْهَرِ العَلاَّمَةُ الجَلِيلُ (د. عَبْدُ الحَلِيم مَحْمُود) ٩٥
٢٥- مُفْتِي الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ الأَسْبَقُ الشَّيْخُ (حَسنين مَخْلُوف) ٩٥

٢٦- الدُّكْتورُ أَبو العُلا عَفِيفى ٩٦
٢٧- الأُسْتاذ (خالِد مُحَمَّد خالِد) ٩٦
٢٨- الشَّيْخُ (مُحَمَّد الغَزالى السَّقَّا) ٩٧
٢٩- العالِمُ المَوْسُوعي الشَّيْخُ مُحَمَّد زكي إبْراهيم ٩٧
٣٠- العَلاَّمَةُ الشَّيْخُ (مُحَمَّد متولِّى الشَّعْراوى) ٩٩
٣١- المُحَدِّثُ الدُّكْتورُ السَّيِّدُ (مُحَمَّد عَلَوِي المالِكي) ١٠٠
٣٢- الدكتور الحُسَيْني عَبْد المجِيد هاشِم (وَكِيلُ الأَزْهَر الأَسْبَق) ١٠٠
٣٣- د. عَلِي جُمُعَة (مُفْتي الدِّيارِ المِصْرِيَّة) ١٠١

كُتُبُ التَّصَوُّفِ ودَوائِرُها السِّت

كُتُبُ التَّصَوُّفِ ودَوائِرُها السِّت الَّتي مَلأَتْ قارَّاتِ الدُّنيا السِّت ١٠٤
الدَّائِرَةُ الأُولَى : (دائِرَةُ العِلْمِ الكَسْبِيِّ) ١٠٦
الدَّائِرَةُ الثَّانِية : (الكُتُبُ والمُصَنَّفاتُ الصُّوفِيَّةُ) ١٠٧
الدَّائِرَةُ الثَّالِثَةُ : (المُتَفَرِّقاتُ المَأْثُورَةُ عَنْ كِبارِ الصُّوفِيَّة) ١٠٩
الدَّائِرَةُ الرَّابِعَةُ : (دَواوِينُ الشِّعْرِ الصُّوفِى) ١٠٩
الدَّائِرَةُ الخامِسَةُ : (كُتُبُ التَّراجِمِ والطَّبَقاتِ الصُّوفِيَّة) ١١٢
الدَّائِرَةُ السَّادِسَةُ : (كُتُبُ عِلْمِ الأَسانِيدِ وتَحْقِيقُها وضَبْطُها) ١١٢

الدَّسُّ عَلَى كُتُبِ الإسْلام

بَيانُ وَسائِلِ الدَّسّ : ١١٧
١- أَمْثِلَةٌ لِلدَّسِّ في التَّفْسِير ١١٨
٢- في الحَدِيثِ الشَّرِيف ١١٩

٣- في التاريخِ الإسْلامِى ١١٩
٤- في التَّصَوُّف ١٢٠

بَيانُ الجِهادِ عِنْدَ الصُّوفِيَّة

تَحَقُّقُهُم بِمَظْهرِ وجَوْهَرِ الجِهادِ الأَكْبَرِ والأَصْغَر ١٢٦
جِهادُ (عَمْرو بنِ عُتْبَة) ١٢٨
جِهادُ السَّيِّد (أَحْمَد البَدَوِي) ١٣٠
جِهادُ الشَّيْخ (أَبِى الحَسَنِ الشَّاذِلي) ١٣٢
جِهادُ (العِزِّ بنِ عَبْدِ السَّلام) ١٣٣
جِهادُ الأَمِير (عَبْدِ القادِرِ الجَزائِري) ١٣٤
جِهادُ الشَّيْخ (المُقْراني) والشَّيْخ (الحَدَّاد) ١٣٥
جِهادُ تاجِ المُجاهِدين (أَحْمَد الشَّرِيف السَّنُوسي) ١٣٦
شَيْخُ المُجاهِدينَ (عُمَرُ المُخْتار) ١٤٤
جِهادُ (أَبِي بَكْرٍ السَّعِيدى) ١٤٧
الرِّباط (وجَمْعُهُ رُبُط) ١٥٠
دَوْرُ الزَّاوِيَةِ في النَّهْضَةِ العِلْمِيَّةِ الإِسْلامِيَّة ١٥٢
جِهادُ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ وسَلاَطِينِها العِظام ١٥٦

الحُبُّ بابُ القُرْب

الحُبُّ صِبْغَتُهُم والقُرْبُ غايَتُهُم ١٦٣

التَّصَوُّفُ ذَوْقٌ وصُحْبَة

بَيانُ أَنَّ الأُلْفَةَ والصُّحْبَةَ ثَمَرَةُ حُسْنِ الخُلُقِ ١٧٩

آدابُ وبَصماتُ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ فى تَوْثِيقِ عُرَى رابِطَةِ الصُّحْبَةِ ١٨١
المَدْخَلُ إِلَى عُيُونِ المَنْهَلِ الصُّوفِى ١٩٢

التَّصَوُّفُ عِلْمٌ وسُلُوك

تَمْهِيدٌ مُفِيدٌ ١٩٩
حَدُّ التَّصَوُّفِ ٢١٠
مَوْضُوعُ التَّصَوُّفِ ٢١٠
ثَمَرَةُ التَّصَوُّفِ ٢١٠
فَضْلُ التَّصَوُّفِ ٢١٠
واضِعُ عِلْمِ التَّصَوُّفِ ٢١٠
بَيانٌ لـ (الشَّرِيعَةِ ، والطَّرِيقَةِ ، والحَقِيقَةِ) ٢١١
اسْمُ عِلْمِ التَّصَوُّفِ ٢١٥
اسْتِمْدادُ عِلْمِ التَّصَوُّف ٢١٥
حُكْمُ الشَّارِعِ فيهِ ٢١٥
بَيانُ مَنْ هُم الأَوْلِياءُ ودَوامُ نَفْعِهِم مَوْتَى وأَحْياء ٢١٦
بَيانٌ وافٍ لِلكَرامَة ٢١٨
الحِكْمَةُ مِنْ إِجْراءِ الكَراماتِ عَلَى يَدِ الأَوْلِياء ٢٢٤
الفَرْقُ بَيْنَ الكَرامَةِ والاسْتِدْراج ٢٢٥
زِيادَةُ بَيانٍ عَنْ مَوْقِفِ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الكَرامات ٢٢٦
بَيانُ أَنَّ أَهْلَ القُبُورِ أَحْياءٌ كَما أَخْبَرَ بِذَلِكَ سَيِّدُ الأَنْبِياءِ ﷺ ٢٣٠

قَوْلٌ فَصْلٌ في أَصْلِ مُصْطَلَحِ التَّصَوُّفِ ودَلالَتِه

١- في اشْتِقاقِ اسْمِ التَّصوُّفِ ومَعْناه ٢٣٦

٢- في تارِيخِ المُصْطَلَح ٢٥٣

٣- في المَصْدَرِ الإِسْلامِي لِلتَّصَوُّف ٢٥٥

حِكْمَةُ تَعَدُّدِ الطُّرُق الصُّوفِيَّة

الطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ جَمْعاء هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ والمَحَجَّةِ البَيْضاء ٢٦٤

تَوجِيهُ حَدِيثِ افْتِراقِ الأُمَّة ٢٦٧

بَيانُ أُصُولِ الطَّرِيقِ وآدابِها

الشُّروطُ الثَّمانِيَةُ لِلتَّحَقُّقِ بِالطَّرِيقِ الصُّوفي ٢٧١

الوَلِيُّ المُرْشِدُ والحاجَةُ إِلَيْهِ فى زَمَنِنا هَذا أَشَدُّ ٢٨٢

بَيانُ كَيْفِيَّةِ الاهْتِداءِ إِلَى الشَّيْخِ المُرْشِدِ ٢٨٥

بَيانُ أَوْصافِ الشَّيْخِ المُرْشِد ٢٨٧

بَيانُ الحِكْمَةِ مِنْ وُجُوبِ الْتِزامِ المُرِيدِ بِشَيْخٍ واحِد ٢٩٠

بَيانُ مَشْرُوعِيَّةِ أَخْذِ العَهْدِ ٢٩١

بَيانُ سَرَيانِ النُّورِ بِالوَمْضَة فِيما عُرِفَ بَيْنَ القَوْمِ بِالقَبْضَة ٢٩٧

سُمُوُّ سُلُوكِ المُرِيدِ مَعَ شَيْخِهِ وإِخْوانِه ٢٩٨

آدابُ المُرِيدِ مَعَ شَيْخِهِ ٢٩٩

آدابُ المُرِيدِ مَعَ إِخْوانِه ٣٠٤

بَيانُ أَحْوالِ النَّفْسِ وعِلاجِها

بَيانُ أَحْوالِ النَّفْسِ ٣٠٩

النَّفْسُ الأَمَّارَة ٣١٢

النَّفْسُ اللَّوَّامَة ٣١٣

النَّفْسُ المُلْهَمَة ٣١٤

النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ٣١٥

النَّفْسُ الرَّاضِيَة ٣١٦

النَّفْسُ المَرْضِيَّة ٣١٦

النَّفْسُ الكامِلَةُ ٣١٧

تَزْكِيَةُ النُّفُوس

تَزْكِيَةُ النُّفُوس سَبِيلٌ إِلَى جِلاءِ القُلُوب ٣٢٠

الوِرْدُ اليَوْمِي

١- الاسْتِغْفارُ ٣٢٦

٢- الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ٣٢٧

٣- كَلِمَةُ التَّوْحِيد ٢٣٧

الذِّكْرُ بِالاسْمِ المُفْرَدِ

مَشْروعِيَّةُ الذِّكْرِ بِالاسْمِ المُفْرَدِ ٣٣٢

تَأْوِيلُ كَلامِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّة

زِيادَةُ بَيانٍ عَنْ تَأْوِيلِ كَلامِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّة ٣٣٦

مُصْطَلَحاتُ التَّصَوُّف

أُصُولُ التَّعَرُّف إِلَى مُصْطَلَحاتِ التَّصَوُّف ٣٤٢

الوَلِيُّ ٣٤٥

العارِفُ ٣٤٦
الرِّجال ٣٤٦
السَّالِك ٣٤٧
المَجْذُوب ٣٤٨
الحال ٣٤٩
المَقام ٣٤٩
الوَقْت ٣٤٩
الفَقِير ٣٥٠
المَحَبَّة ٣٥١
الشَّوْق ٣٥١
الإِرادَة ٣٥١
المُرِيد ٣٥٢
المُراد ٣٥٢
الوارِد ٣٥٣
الخاطِر ٣٥٣
الضَّمِير ٣٥٤
الغَفْلَة ٣٥٤
الذِّكْر ٣٥٥
المُذاكَرَة ٣٥٦
الفَرْقُ بَيْنَ المُذاكَرَةِ وبَيْنَ الاعْتِرافِ عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمِين ٣٥٨

الفَرْقُ بَيْنَ المُذاكَرَةِ وبَيْنَ المُجاهَرَةِ بِالمَعْصِيَةِ ٣٥٨
الأَدَب ٣٥٩
الأَسْماء ٣٦٠
اللَّطائِفُ والرَّقائِق ٣٦٠
القَلْب ٣٦١
النَّفْس ٣٦٢
النَّفَس ٣٦٣
المُجاهَدَة ٣٦٣
بَيانُ مَراحِلِ المُجاهَدَة ٣٦٤
الهَوَى ٣٦٧
الأَعْراض ٣٦٧
العَلاقَة ٣٦٨
الدَّعْوَى ٣٦٨
المَحْوُ والإِثْبات ٣٦٩
الصِّدْق ٣٦٩
الصَّفاء ٣٧٠
اليَقِين ٣٧٠
الوَفاء ٣٧٠
الطَّاعَةُ ٣٧١
حِفْظُ الصَّلاة ٣٧٢

الفَناءُ والبَقاء ٣٧٢
المُشاهَدَة ٣٧٥
المُعايَنَة ٣٧٥
المُسابَقَة ٣٧٦
المُحادَثَة ٣٧٦
الإِشارات ٣٧٦
اللَّوائِحُ والطَّوالِعُ واللَّوامِعُ ٣٧٧
التَّلْوِينُ والتَّمْكِين ٣٧٨
القُرْبُ والبُعْدُ ٣٧٨
الجَمْعُ والفَرْقُ ٣٧٨
الصَّحْوُ والسُّكْر ٣٧٩
الذَّوْقُ والشُّرْب ٣٧٩
القَبْضُ والبَسْطُ ٣٨٠
التَّجْرِيدُ ٣٨٠
الوَجْدُ ٣٨١
الرُّؤْيا ٣٨١
التَّجَلِّي ٣٨٢
مَزِيدُ بَيانٍ عَنِ المَحْوِ والإِثْبات ٣٨٣
الإِلْهام ٣٨٤
الشَّجَرَة ٣٩٠

بَيْنَ يَدَيِ المَقامات

طَرِيقُ الاجْتِباء وطَرِيقُ الاهْتِداء ٣٩٢

المَقامات

مَنازِلُ السُّعاةِ إِلَى الحَقِّ جَلَّ في عُلاه ٣٩٦

التَّوْبة ٣٩٨

الاسْتِقامَة ٤٠٠

المُحاسَبَة ٤٠١

التَّقْوَى ٤٠٤

التَّواضُع ٤٠٨

الخَوْف ٤٠٩

الرَّجاء ٤١١

الصِّدْق ٤١٤

الإِخْلاص ٤١٨

الصَّبْر ٤٢٨

اليَقِين ٤٣٥

المُراقَبَة ٤٣٦

المُشاهَدَة ٤٣٨

الوَرَع ٤٤٥

الزُّهْد ٤٤٩

الرِّضا ٤٥٧

التَّوكُّل ٤٦٥
الشُّكْر ٤٧٠
المَعْرِفَة ٤٧٨
الكَشْف ٤٨٢
قَدَمُ الصِّدْق ٤٩٤
كامِل الصِّناعَة ٤٩٤

الخَلْوَة

مُقَدِّمَةٌ مُهِمَّةٌ عَلَى أَعْتابِ الخَلْوَة ٤٩٦
تَعْرِيفُ الخَلْوَة ٤٩٦
كَيْفِيَّةُ دُخُولِ الخَلْوَة ٤٩٧
طَرِيقَةُ التَّعَبُّدِ في الخَلْوَة ٤٩٨
مَشْروعِيَّةُ الخَلْوَةِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ وأَقْوالِ عُلَماءِ الأُمَّة ٤٩٩
الدَّلِيل عَلَى الخَلْوَةِ مِنَ السُّنَّة ٥٠١
الخَلْوَةُ الكامِلَة ٥٠٣
الخَلْوَةُ الجُزْئِيَّة ٥٠٤
خَلْوَةُ الجَلْوَة ٥٠٤
فَوائِدُ الخَلْوَةُ ٥١٠

الإِنْشادُ الصُّوفِي

الإِنْشادُ الصُّوفِيُّ إِرْشادٌ ومَواعِظُ وفَوائِدُ ٥١٧

مَشْرُوعِيَّةُ الفَرَحِ بِإِقامَةِ مَوالِدِ الصَّالِحِين
فَوائِدُ المَوالِدِ شَرْعاً وإِنْسانِيَّاً ٥٢٦
مِنَ الوِجْهَةِ العامَّة ٥٢٦
مِنَ الوِجْهَةِ المَدَنِيَّة ٥٢٧
الأَحْكامُ الدِّينِيَّة ٥٢٧
مَشْرُوعِيَّةُ إِقامَةِ الأَضْرِحَة
الحَقُّ الصَّرِيحُ والحُكْمُ الصَّحيحُ بِمَشْروعِيَّةِ إِقامَةِ الضَّرِيح ٥٣٣
حُكْمُ صَنادِيقِ النُّذور
إِلْقاءُ النُّور عَلَى حُكْمِ صَنادِيقِ النُّذور ٥٣٧
الفَهْمُ الصَّحِيحُ لِحِكْمَةِ خَلْقِ الإِنْسان
الصُّوفِيُّون وفَهْمُ آيَةِ ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ٥٤٠
الخَبَرُ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِ الأَقْطابِ والأَوْتادِ والنُّجَباءِ والأَبْدال
تَوْثِيقُ ما نُسِبَ لِلصُّوفِيَّةِ مِنْ أَقوال بِشَأْنِ القُطْبِ والأَبْدال ٥٤٤
كَشْفُ اللِّثام عَمَّا أُثِيرَ حَوْلَ (الخَضِر) عليه السلام
العَبْدُ الصَّالِحُ هُوَ الخَضِر ٥٥٣
بَيانُ أَنَّ الخَضِرَ حَيٌّ بِجَسَدِهِ ورُوحِه ٥٥٤
دَحْضُ إِدِّعاءِ مَنْ خالَفَ شِرْعَةَ سَيِّدِ الأَنام بِدَعْوَى أَنَّهُ خِضْرِيُّ المَقام ٥٥٥
ثَبْتُ المَراجِع (المَصادِرُ والمَناهِل) ٥٥٨
الفهرس الموضوعي للكتاب ٥٧٢

شركة الفتح للطباعة والنشر والتوزيع
محمد حسنى متولى وشركاه
الإدارة : ٩٢ش التحرير - ميدان الدقى - برج ساريدار - القاهرة ت : ٣٣٨٨١١٩
المطابع : ١٠٥ شارع داير الناحية - الدقى - القاهرة ت : ٣٣٨٤١١٦

رقم الايداع بدار الكتب
١٤٧٣٦ / ٢٠٠٧
I.S.B.N. 977-5842-17-4

الطبعة الثانية